

كتاب التوحيد

الذي هو حق الله على العبيد

شرح فضيلة الشيخ
سليمان بن سليم الله الرحيلي
-حفظه الله-

الدرس الأول: شرح مقدمة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، مَن يهدِ الله فلا مضل له، ومَن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[آل عمران:١٠٢]

﴿يا أَيُّهَا النّاسُ اتَّقوا رَبَّكُمُ الَّذي خَلَقَكُم مِن نَفسٍ واحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنها زَوجَها وَبَثَّ مِنهُما رِجالًا كَثيرًا وَنِساءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذي تَساءَلونَ بِهِ وَالأَرحامَ إِنَّ اللهَ كانَ عَلَيكُم رَقيبًا﴾[النساء:١]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[الأحزاب:٧٠-٧١]

أمّا بعد، فإنّ خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد –صلى الله عليه وسلم–، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدَثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

ثم يا معاشر الفضلاء؛ إننا نحمَد الله عز وجل أن جعلنا مِن عُمَّار مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بذكره سبحانه وتعالى. وأسأل الله –عز وجل– أن يرزقني وإياكم الإخلاص، وأن يجعل هذه المجالس مما ينفعنا عند لقاء ربنا سبحانه وتعالى.

ولا شك أيها الإخوة؛ أنّ الله عز وجل خلقنا لعبادته؛ كما قال ربنا سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات: آية ٥٦]، فالحكمة مِن خلقنا ومِن خلق الجن: أن نعبد الله –عز وجل– موحِّدين ربنا سبحانه وتعالى.

ولا تكون العبادة عبادة مَرضيَّة إلا إذا كانت مبنيَّة على الإخلاص لله عز وجل وعلى المتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم. وسيأتي الكلام عن هذا –إن شاء الله عز وجل– في شرح كتاب التوحيد.

واليوم –إن شاء الله عز وجل– سنأخذ مقدِّمة وشيئًا يتعلَّق بهذا الكتاب، وغدًا –إن شاء الله– نشرح نصوص الكتاب، من أجل أن نعطي الإخوة فرصة لمن لم يحضر الكتاب أن يحضر الكتاب معه غدًا –إن شاء الله عز وجل–. فنقرأ فقط المقدمة ونعلِّق عليها. ويتفضل الشيخ خليل –وفقه الله– يقرأ لنا.

يقول المصنف الإمام المجدد محمد بن عبدالوهاب –رحمه الله تعالى– في كتابه (كتاب التوحيد):

[بسم الله الرحمن الرحيم. كتاب التوحيد]

(بسم الله الرحمن الرحيم) بدأ الشيخ بالبسملة؛ وفي هذا:

١. اقتداء بكتاب ربنا سبحانه وتعالى؛ فإنّ القرآن مبدوء ببسم الله الرحمن الرحيم.
٢. اتّباع لسنة النبي صلى الله عليه وسلم؛ فقد استُقرئت كتب النبي صلى الله عليه وسلم التي كان يرسلها ويكتبها صلى الله عليه وسلم فوُجدَت كلها مبدوءة ببسم الله الرحمن الرحيم.

فالسنة في الكتابة أن يبدأ الإنسان الكتاب ببسم الله الرحمن الرحيم. ففي ذكرها في أول الكتب اقتداء بكتاب الله واتّباع لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. فيُشرع للمؤمن إذا كتب كتابًا أن يبدأ ببسم الله الرحمن الرحيم.

وهذا الكتاب (كتاب التوحيد) في بعض نسخه –كما سمعتم من الشيخ خليل– قال: (بسم الله الرحمن الرحيم. كتاب التوحيد). وفي بعض النسخ قال: (الحمد لله، وصلى الله على محمد وعلى آله وسلم)، فذكر بعد البسملة الحمدلة والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم.

قال: (كتاب التوحيد)، كتاب: من الكَتْبِ؛ وهو الجمع والضم. وقلنا لكم يا إخوة تسمَّى القطعة من الجيش: كَتيبة؛ فيقال: كَتيبة الفرسان، كَتيبة المدفعية، كَتيبة الدبابات؛ لأنهم يجتمعون في هذه الكَتيبة.

والكتاب يسمَّى كتابًا لأنه تُجمَع فيه المادة العلمية المتعلِّقة به. فعندما نقول: كتاب التوحيد؛ يعني أنّا سنجمع المادة العلمية المتعلِّقة بالتوحيد.

والتوحيد في اللغة: مصدر لوحَّد يوحِّد. ومعنى وحَّد الشيء: أي أفردَه وجعله واحدًا.

أمّا التوحيد في الشرع: فهو إفراد الله عز وجل بما له سبحانه وتعالى.

- **فما هو خاصٌّ لله عز وجل:** يُفرَد الله به، ولا يُشرَك فيه أحد. مثل العبادة، العبادة خاصة لله عز وجل، فالتوحيد فيها: أن نُفرِد العبادة لله وألا نشرِك بالله أحدًا؛ لا ملَكًا مقربًا ولا نبيًّا مرسلًا ولا رجلًا صالحًا ولا حاكمًا ولا محكومًا ولا شرطة ولا غير ذلك. نوحِّد الله عز وجل في العبادة.

- **وما كان مشترَكًا بين الله وخلقه:** فإنّ التوحيد فيه: أن نفرِد الله عز وجل فيه بالكمال المطلق. فالكمال المطلق إنما هو لله عز وجل.

مثلًا: الرحمة، ربنا رحمن رحيم، والعبد قد يكون رحيمًا، كالنبي صلى الله عليه وسلم ﴿بِالْمُؤْمِنِيْنَ رَؤُوْفٌ رَحِيْمٌ﴾ صلى الله عليه وسلم، والأم رحيمة

بأولادها، والأب رحيم بأولاده. إذن الرحمة قد تكون من العبد. كيف يكون توحيد الله هنا؟ توحيد الله عز وجل هنا يكون: بإفراد الله عز وجل بالكمال المطلق في رحمته. فالله عز وجل له الكمال المطلق في الرحمة، وليس لأحد من الخلق هذا الكمال، يكون لكل عبد من الرحمة ما يناسبه. أمّا الكمال المطلق فهو لله عز وجل.

كذلك العدل؛ الله عدل سبحانه وتعالى، والحاكم المسلم يجب أن يكون حاكمًا عادلًا، توحيد الله هنا: بأن نفرد الله عز وجل بالكمال المطلق في العدل. فالكمال المطلق في العدل لله وحده لا شريك له. وأمّا الخلق فعدلهم فيما يناسبهم وبما يناسبهم.

ولذلك؛ الجملة العامّة الجامعة الشاملة لمعنى التوحيد هي ما ذكرناه؛ وهي: إفراد الله عز وجل بما له سبحانه وتعالى.

والعلماء يقولون: إنّ التوحيد: هو إفراد الله عز وجل بأفعاله سبحانه، وإفراده بأفعال العباد على وجه التقرُّب، وإفراده بالأسماء والصفات.

هذا معنى قولنا "إفراد الله عز وجل بما له": إفراد الله عز وجل بأفعاله، وإفراد الله بأفعال العباد المتقرَّب بها –وسيأتي بيان هذا إن شاء الله– ، وإفراد الله عز وجل بأسمائه وصفاته.

إذن؛ التوحيد في كلياته ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

١. توحيد الربوبية.

٢. توحيد الألوهية.

٣. توحيد الأسماء والصفات.

ما الدليل على هذا التقسيم؟ هل جاء حديث قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم: التوحيد ثلاثة أقسام؟

الجواب: لا؛ ولكنّ الدليل –كما يقول العلماء–: الاستقراء لأدلة التوحيد في الكتاب والسنة.

فإنّا استقرأنا أدلة التوحيد في الكتاب والسنة فوجدناها إمّا: متعلقة بأفعال الله، وإمّا متعلقة بأسماء الله وصفاته، وإمّا متعلقة بأفعال العباد على وجه التقرُّب؛ فعلمنا أنّ أقسام التوحيد ثلاثة.

ولا يمكن لعبد أن يأتي بقسم رابع، لأنه إذا ذكر قسمًا رابعًا سيكون راجعًا إلى أحد هذه الكليات، فهو ليس قسمًا وإنما نوع من أنواع القسم المذكور.

وهذا تقسيم حاصِر لأنواع التوحيد.

توحيد الله عز وجل الذي سميناه بتوحيد الربوبية: هو توحيد الله عز وجل بأفعاله؛ كالخلق والرَّزق والإحياء والإماتة والتدبير.

فتوحيد الربوبية هنا: أن يعترف العبد ويعتقد أنّ الله عز وجل هو الخالق لا شريك له، وأنه سبحانه هو الرزاق لا شريك له، وأنه سبحانه هو المحيي، وأنه سبحانه هو المميت.

وهذا التوحيد –توحيد الربوبية– فرض لازم على كل مسلم؛ لكنّ الإتيان به لا يكفي للدخول في الإسلام.

يعني فرضٌ لازمٌ للمسلم أن يوحِّد الله في ربوبيته، لكن لو أنّ إنسانًا وحَّد الله في الربوبية هل نقول إنه مسلم بمجرد توحيد الربوبية؟ الجواب: لا، لا يُدخله ذلك في الإسلام؛ لأنه لم يأتِ بالمفتاح الذي يأتي بيانه، إن شاء الله.

كان الكفار في زمن النبي صلى الله عليه وسلم مقرِّين بتوحيد الربوبية ويعتقدون أنّ الخالق هو الله، وأنّ الرازق هو الله، وأنّ المحيي هو الله؛ لكنّ ذلك لم يدخلهم في الإسلام؛ قال الله عز وجل: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾[يونس: الآية ٣١] سبحان الله يا إخوة! تلحظون هنا أنّ الإقرار بتوحيد الربوبية يَستلزم توحيد الألوهية؛ ولذلك قال الله عز وجل في آخر الآية: ﴿فقل أفلا تتقون﴾؟! ما دمتم تقرُّون أنّ الله هو الذي يرزق، وأنّ الله هو الذي يحيي، وأنّ الله والذي يميت؛ فكيف لا تتقون؟!

إذن؛ توحيد الربوبية فرضٌ لازمٌ؛ لكنّ الإتيان به لا يكفي للدخول في الإسلام واعتبار المرء مسلمًا.

الثاني: توحيد الألوهية. وهو: توحيد الله عز وجل بأفعال العباد على وجه التقرُّب.

"على وجه التقرُّب" لأنّ أفعال العباد قد تكون عادية ليست على وجه التقرُّب؛ فهذه لا تدخل معنا هنا، وإنما الذي يدخل معنا: ما يكون على وجه التقرُّب؛ وهو العبادات.

فتوحيد الألوهية هو: إفراد الله عز وجل بأفعال العباد التي تُفعَل على وجه التقرُّب، التي تسمى "العبادة" كما سيأتينا إن شاء الله.

وهذا التوحيد هو الذي نازعت فيه الأمم رسلها. فما مِن رسول جاء إلا وقد أمر أمته بتوحيد الألوهية. ونازَع المشركون في هذا التوحيد، ولم يقبلوه، ولم يقرُّوا به.

ولهذا؛ لمّا قام محمد صلى الله عليه وسلم وقال لهم: «قولوا: لا إله إلا الله؛ تُفلحوا» أنكر كفار قريش عليه صلى الله عليه وسلم ذلك وقالوا: ﴿أجعل الآلهة إلهًا واحدًا﴾؟! وأنكروا هذا وتعجبوا منه وقالوا: ﴿إنّ هذا لشيءٌ عُجَاب﴾،

كيف يجعل الآلهة إلها واحدًا؟! مع إقرارهم بتوحيد الربوبية؛ لكنهم نازعوا في هذا التوحيد.

وهذا التوحيد هو الذي أُمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقاتِل الناس عليه؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا: أن لا إله إلا الله وأنّ محمدًا رسول الله» الحديث، والحديث في الصحيحين.

النوع الثالث: توحيد الأسماء والصفات. وهو: توحيد الله في أسمائه وصفاته؛ بإثبات ما أثبته الله لنفسه، أو أثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم من الأسماء والصفات، ونفي ما نفاه الله عن نفسه، أو نفاه عنه رسوله صلى الله عليه وسلم، من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل؛ على سَنن قول الله عز وجل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[الشورى: الآية ١١].

تضمَّنت هذه الآية كل العقيدة في الأسماء والصفات، ولو أنّ الأمّة أخذت بهذه الآية لاستقامت على عقيدة التوحيد في الأسماء والصفات.

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ﴾ عندنا هنا أمران:

الأمر الأول: ليس مثله شيء. فامتنع قياس التمثيل.

ما هو قياس التمثيل؟ هو التمثيل بشيء معيّن. مثلًا: عمك سافر إلى دولة بعيدة عنكم وأنت صغير، ثم كان سيأتيكم، فتقول لأبيك: عمي؛ صفه لي!

فيقول: تعرف عمك خالد؟ مثله تمامًا؛ هذا قياس تمثيل؛ مثَّل لك صورة عمك الغائب بصورة عمك الحاضر بعينه.

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ إذن امتنع قياس التمثيل في حق الله عز وجل، في أسماء الله، في صفات الله، امتنع التمثيل.

الأمر الثاني: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ﴾ هذه الكاف -التي يقول فيها بعض المفسرين: إنها زائدة- لها فائدة عظيمة، لأنها منعت قياس الشمول، الذي يقال فيه "كـ"، قياس الشمول هو: التمثيل بالأعم.

أريد مثلًا أن أعرف صفة وجه زيد من الناس؛ فأقول: زيد إنسان، والإنسان وجهه فيه أنف في الوسط، وفيه عينان، وله فم تحت أنفه، هذه صفة وجه الإنسان على الشمول، على العموم، ليس بإنسان معيّن وإنما على الشمول، هنا امتنع قياس الشمول في حق الله عز وجل.

فقول الله عز وجل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ﴾ نفى قياس التمثيل؛ فلا تطمع بالتمثيل، أن تمثّل يد الله أو تمثّل وجه الله. ونفى قياس الشمول.

﴿وَهُوَ السَّمِيْعُ﴾ هذا الإثبات، فنثبت لله سمعًا على المعنى الظاهر على ما يليق بجلال الله، فلا نؤوِّل تأويل التحريف؛ كما يأتي المؤوِّلة يقولون: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى﴾ يعني: استولى! وبزعمهم أنهم يريدون التنزيه! وما دروا

أنهم يقعون في التنقُّص؛ لأنّ لازم قولهم: أنّ العرش لم يكن في سلطانه، ثم استولى عليه! ففوق كونه تحريفًا؛ هم يقعون فيما يفرُّون منه بزعمهم.

"من غير تحريف"؛ يُثبَت على المعنى الظاهر على ما يليق بجلال ربنا سبحانه وتعالى.

هذه أنواع التوحيد الثلاثة.

لكنّ التوحيد إذا أُطلق في النصوص وفي لسان العلماء؛ فإنّ المراد به: توحيد الألوهية.

إذا قيل: التوحيد في النصوص، أو يوحِّدوا، أو وحِّد؛ فإنّ المقصود به: توحيد الألوهية. وكذا التوحيد إذا أطلِق في لسان العلماء فإنّ المقصود به: توحيد الألوهية.

نعم؛ توحيد الألوهية يتضمن توحيد الأسماء والصفات وتوحيد الربوبية؛ ولكنّ المقصود به عند الإطلاق: هو توحيد الألوهية.

ولذلك؛ عندما بعث النبي صلى الله عليه وسلم معاذًا إلى اليمن قال: «إنك تأتي قومًا أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه: أن يوحِّدوا الله»، وهذا في الصحيحين عند البخاري ومسلم.

وفي الرواية الأخرى: «فليكن أوّل ما تدعوهم إليه: شهادة أن لا إله إلا الله وأنّ محمدًا رسول الله»؛ إذن التوحيد: هو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله وأنّ محمدًا رسول الله.

إذن؛ التوحيد إذا أطلِق في النصوص أو في لسان العلماء فإنّ المقصود به: توحيد الألوهية.

طيِّب؛ الشيخ هنا قال: (كتاب التوحيد)؛ فهل هذا عنوان للكتاب كله أو عنوان لِما تحته من كلام؟ لأنه قال: (كتاب التوحيد. وقول الله تعالى: ﴿وما خَلقتُ الجنَّ والإنسَ إلا ليَعبدون﴾)؛ فهل قول (كتاب التوحيد) عنوان للكتاب كله أو أنه عنوان لِمَا تحته؟

الصواب: أنه عنون للكتاب كله. فهذا عنوان للكتاب من أوله إلى آخره: (كتاب التوحيد)؛ بدليل: أنّ الشيخ –رحمه الله– لم يقسِّم كتابه إلى كتب؛ وإنما قسم كتابه إلى أبواب. فلو كان هذا الكتاب عنوانًا لِمَا تحته هنا؛ لقال بعده: كتاب كذا، كتاب كذا، كما في الفقه: كتاب الطهارة، كتاب الصلاة، كتاب الصيام، كتاب الزكاة، كتاب الحج.

إذن؛ هذا العنوان للكتاب كله.

طيِّب؛ إذا كان ذلك كذلك؛ فلماذا لم يقل الشيخ بعد قوله: (كتاب التوحيد): باب قول الله تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ فيكون هذا بابًا كسائر الأبواب؟!

واضح يا إخوة؟ الشيخ قال (كتاب التوحيد) هذا عنوان للكتاب كله، ثم قال: (وقول الله تعالى..) ما قال: (باب قول الله تعالى كذا) كسائر الأبواب؟!

والجواب: أنّ هذا ليس بابًا؛ وإنما هذا مدخل للكتاب يشمل الكتاب كله، أراد فيه الشيخ أن يبيّن أهمية التوحيد ومنزلة التوحيد.

إذن؛ هل المذكور هنا: باب من أبواب الكتاب؟ الأقرب –والله أعلم– أنه ليس بابًا من أبواب الكتاب؛ وإنما مدخل للكتاب يشمل الكتاب كله، أراد هنا أن يبيّن منزلة التوحيد، وأهمية التوحيد، وهذا يدخل فيه كل ما يذكره في الكتاب.

طيّب؛ يقول لي قائل: ما التوحيد الذي يتكلم عنه الشيخ هنا؟ هل هو توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات؟

الجواب: إنّ الشيخ هنا في هذا الكتاب يتكلم عن توحيد الألوهية.

طيّب؛ لماذا تكلم الشيخ عن توحيد الألوهية؟

نحن قلنا توحيد الألوهية متضمِّن لتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، لكنّ الصُّلْب في الكتاب هو عن توحيد الألوهية، **فلماذا ذكر الشيخ هنا توحيد الألوهية دون غيره من الأنواع؟**

الجواب: لثلاثة أمور:

الأمر الأوّل: ما قدمناه؛ من أنّ التوحيد إذا أطلقناه في النصوص فإنّ المراد به توحيد الألوهية.

الأمر الثاني: أنّ الحاجة العظيمة الكبيرة في زمن كتابة الكتاب هي لتقرير توحيد الألوهية، لأنّ زلل الناس العظيم كان في توحيد الألوهية.

يعني في زمن الشيخ كثر الوقوع في الشرك في الأمة. وتعرفون أنّ الشيخ ألّف هذا الكتاب في العراق، في رحلته لطلب العلم، ألفه وهو ابن عشرين سنة، الشيخ حفظ القرآن وهو دون العشر سنين، ثم ارتحل في طلب العلم وهو صغير، وذهب إلى العراق ورأى الشرك العظيم في البصرة وغيرها، فدعا الناس على التوحيد وهو ابن عشرين سنة، فأوذي، وصبر؛ لأنه يريد وجه الله، يريد لهذه الأمة أن تخرج من الظلمات إلى النور، وألّف هذا الكتاب وهو ابن عشرين سنة، فألّفه وكانت الحاجة العظيمة لبيان توحيد الألوهية.

الأمر الثالث: أنّ توحيد الربوبية قلّ مَن ينازِع فيه.

كل البشر -إلا من انطمست فطرته تمامًا- يقرُّون بتوحيد الربوبية، ما ينازِعون في توحيد الربوبية.

وتوحيد الأسماء والصفات قد كتب فيه العلماء كثيرًا. وبقي توحيد الألوهية يحتاج زيادة مؤلفات. فألّف الشيخ في توحيد الألوهية؛ نصحًا للأمة.

إذن؛ الأسباب التي جعلت الشيخ يَخصُّ التوحيد هنا بتوحيد الألوهية: ثلاثة:

١- الاتّباع للنصوص عند الاطلاق.

٢- الحاجة العظيمة لتقرير توحيد الألوهية.

٣- قلة التأليف المفرَد في توحيد الألوهية.

طيّب؛ ما منهج الشيخ في الكتاب؟ ولماذا اتخذ هذا المنهج؟

منهج الشيخ: أنه يستدل بالقرآن والسنة وأقوال الصحابة.

فليس للشيخ كلام في الكتاب سوى التبويب والمسائل التي يذكرها في آخر الباب. يبوِّب ويذكر المسائل في آخر الباب.

طيّب؛ لماذا اتخذ الشيخ هذا المنهج؟

الجواب: لأمرين:

الأمر الأوّل: لأنّ هذا هو العلم عند السلف. العلم عند السلف:

قـــال الله قـــال رسولـــــه قال الصحابة هم أولوا العِرفان

هذا العلم المعتبَر عند السلف، والشيخ متَّبع للسلف الصالح رضوان الله عليهم، فلم يجعل في الكتاب إلا النصوص من الكتاب والسنة وأقوال الصحابة رضوان الله عليهم.

الأمر الثاني: أنّ هذا أدعى للتسليم وعدم النزاع.

الاستدلال بالأدلة الواضحة أدعى للتسليم، لكن لو ذكر كلامًا له لجاءه مَن ينازِع في كلامه. فهذا دعا الشيخ إلى هذا المنهج العظيم النافع.

طيّب؛ كم عدد أبواب الكتاب؟

على ما نعدُّه نحن: عدد أبواب الكتاب: ستة وستون بابًا؛ لأنّ الأول ليس بابًا وإنما مدخل. هذا الذي معنا في قوله: (كتاب التوحيد. وقول الله تعالى: ﴿وما خلقتُ الجنَّ والإنسَ إلا ليعبدون﴾) هذا مدخل، ليس بابًا، ثم الأبواب.

إذن؛ الكتاب مكوّن من: مدخل، وستة وستين بابًا.

وبعض أهل العلم يقول: عدد أبواب الكتاب: سبعة وستون بابًا؛ لأنهم يعدون الأول بابًا؛ يقولون: الباب الأول: باب قول الله تعالى: ﴿وما خلقتُ الجنَّ والإنسَ إلا ليعبدون﴾.

لكن الذي يظهر لنا –والله أعلم– في فهمنا للكتاب ما ذكرناه؛ أنّ الأول مدخل وليس بابًا ولذلك لم يبوّب الشيخ، والبقية أبواب؛ وهي ستة وستون بابًا.

على أيّ شيء بنى الشيخ كتابه؟ الشيخ كيف قسَّم الكتاب وجمع المادة العلمية؟

الشيخ بنى الكتاب على ما ينبغي على المؤمن في التوحيد.

فإنّ المؤمن ينبغي له في التوحيد أمور:

الأمر الأوّل: أن يحبه، وأن يحب أهله.

وكيف لا يحب المؤمن التوحيد وهو حق الله وهو أعظم فرض–كما سيأتينا إن شاء الله في درس الغد– ؟!

وأن يحب أهل التوحيد.

الأمر الثاني: أن يتعلمه. أن يتعلم التوحيد؛ جملةً وتفصيلًا.

الأمر الثالث: أن يحقق التوحيد.

الأمر الرابع: أن يحذر مما يَنقضه أو يُنقصه. فإنّ التوحيد له نواقض تنقضه وتزيله بالكلية، وله أمور تُنقِص كماله. فينبغي على المؤمن أن يحذر مما يَنقض التوحيد ومما يُنقِص التوحيد.

الأمر الخامس: أن يدعو إليه.

الأمر السادس: أن يصبر على ذلك. فإنه ما دعا أحد إلى التوحيد إلا أوذي، وما عمل أحد بالتوحيد إلا أوذي.

هذا الذي ينبغي على المؤمن، ينبغي على المؤمن في التوحيد: أن يحبه، وأن يتعلمه، وأن يحققه، وأن يدعو إليه، وأن يصبر على ذلك، وأن يحذر مما يَنقضه أو يُنقصه.

هذه الأمور التي تنبغي على المؤمن في باب التوحيد. والشيخ بنى الكتاب على هذا، فالكتاب كله مبني على هذا؛ على التحبيب في التوحيد وأهل التوحيد، على تعليم التوحيد، على بيان كيفية تحقيق التوحيد، على الدعوة إلى التوحيد، على الصبر على التوحيد، على التحذير مما يَنقض التوحيد أو يُنقص التوحيد.

والشيخ سار في الترتيب ترتيبًا بديعًا؛ لأنه بدأ بالكليات ثم انتقل إلى جزئيات لابد منها. وهذا من سعة علمه –رحمه الله عز وجل– في هذا الفن العظيم.

هذه مقدمات رأيتُ أن نفتتح بها الدرس. وغدًا –إن شاء الله– نشرح ما ذكره الشيخ هنا.

ونحن –إن شاء الله– في الدرس سنشرح في كل يوم بابًا أو أكثر، بحيث ننتهي من الشرح –إن شاء الله– بنهاية فترة الحج بعد الحج، إن شاء الله، وسيكون

الشرح بما يناسب الوقت، لأنّ المقصود هنا يا إخوة: أن نضبط الكتاب ومقاصده، ونضبط التوحيد ضبطًا جيدًا.

ثم –إن شاء الله– إذا عدنا إلى الدروس المستمرة سنجعل لكتاب التوحيد يومًا بعد الفجر في الإجازة، يعني إما يوم السبت إن شاء الله لكن سنرتبه إن شاء الله، بحيث نشرحه شرحًا مفصلًا مطولًا، بعد أن ننتهي من شرحه المناسب في فترة الحج بما أرجو أن يكون نافعًا لي أولًا ولإخواني من المسلمين، سواء كانوا من طلاب العلم أو كانوا من الزائرين الحضور. ونقف هنا ونكمل غدًا، إن شاء الله عز وجل.

الدرس الثاني: تابع شرح مقدمة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

نشرع في شرح كتاب التوحيد مستعينين بالله عز وجل، سائلين الله عز وجل أن يرزقنا الأدب معه، وأن يرزقنا حب التوحيد وحب تعلم التوحيد. فيتفضل الشيخ خليل –وفقه الله– يقرأ لنا.

[كتاب التوحيد. وقول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾]

تقدم بيان ما يتعلق بكتاب التوحيد. قال الشيخ: (كتاب التوحيد. وقول الله تعالى) هنا يجوز لك في (قول) وجهان:

الوجه الأوّل: أن تجرّ القول هنا فتقول: "كتاب التوحيد وقولِ الله تعالى"؛ فيكون معطوفًا على التوحيد، ووجه عطفه على التوحيد: أنه شامل لكل الكتاب كما أنّ كتاب التوحيد عنوان لكل الكتاب، فالمذكور هنا: افتتاحية تشمل كل الكتاب.

ولك وجه ثانٍ: وهو الرفع؛ فتقول: "وقولُ الله تعالى"؛ على الاستئناف والابتداء.

ومراد الشيخ هنا يا إخوة: أن يبيّن أهمية التوحيد؛ بأمور:

الأمر الأوّل: بيان أنّ الجن والإنس إنما خُلقوا من أجل التوحيد، بل كل المخلوقات خُلقت من أجل التوحيد، السماوات والأرض وما فيهن خُلقت من أجل التوحيد، الملائكة خُلقوا من أجل التوحيد، الجن خُلقوا من أجل التوحيد، الإنس خُلقوا من أجل التوحيد، الأرض، والسماء، والليل، والنهار، والشمس، والقمر، خُلقت من أجل التوحيد.

وذلك؛ أنّ الإنسان إذا رأى هذه الآيات العظيمة عرف الله، وإذا عرف الله وحَّد الله سبحانه وتعالى.

كذلك؛ الله عز وجل سخر للإنسان ما في الأرض من أجل أن يوحِّد الله، من أجل أن يستعين بذلك على توحيد الله.

إذن؛ هذا شأن عظيم للتوحيد: أنّ الخلق إنما خُلقوا للتوحيد.

هنا قال الله عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾. ﴿وما خلقتُ الجن﴾: الجن مخلوقات لله عز وجل، سمِّيت جِنَّة لأنها تختفي عن الأنظار؛ فلا نراها. ﴿والإنس﴾: أنتم يا بني آدم الإنس، وسمِّي الناس بالإنسي: لأنّ الإنسان يستوحش لوحده ويأنس بغيره، فالإنسان من طبيعة خلقته أنه يأنس بالناس.

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا﴾ هذا أسلوب قصر وحصر؛ فالمعنى: وما خلقت الجن والإنس لشيء من الأشياء إلا ليعبدون. ﴿إلا ليعبدون﴾ أي: إلا ليوحِّدون.

وقلنا: إلا ليعبدون معناها: إلا ليوحِّدون –كما قاله بعض السلف– لأمرين:

الأمر الأوّل: أنّ الأصل في هذه الجملة: إلا ليعبدوني، فأضيفت العبادة إلى الله وحده سبحانه وتعالى.

إذن؛ معنى ذلك: إلا ليعبدوني مخلصينَ لي الدين، لأنها إضافة إلى الياء: إلا ليعبدوني.

الأمر الثاني: أنّ العبادة لا تكون عبادة إلا بالتوحيد، بل العبادة هي التوحيد.

الذي يصلي مخلصًا لله؛ هذا عَبَدَ الله، هذا موحِّد، لكن الذي يصلي من أجل أن يقول الناس إنه يصلي، من جل أن يثني عليه الناس، من أجل أن يُمدح؛ هذا ما عَبَدَ الله، وهذه ليست عباده؛ بل هذه معصية.

إذن؛ العبادة لا يمكن أن تكون عبادة إلا بالتوحيد.

والعبادة كلها توحيد؛ لأنّ العبادة لا تكون عبادة إلا بالتوحيد. فمن صلى لله وحَّد، من صام لله وحَّد، من زكى لله وحَّد، من حج لله وحَّد. أمّا من عَبَدَ لغير الله فهذا ما وحَّد وما عَبَدَ في الحقيقة، وإنما هو عابد لغير الله سبحانه وتعالى.

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ هذه اللام لبيان العلة والحكمة.

والعلماء يقولون: لام العلة:

- إمّا غائية.
- وإمّا حكمة.

إمّا غائية؛ بمعنى: لابد من وقوع ما بعدها.

مثال: "يا أيها الإنسان خُلقتَ لتموت"، اللام هنا غائية؛ لأنه لابد أن تموت، لا أحد يخلَّد.

"اشتريتُ الكتاب لأقرأه"، هذه حكمة، يمكن أن أقرأ الكتاب ويمكن ألا أقرأه –كما يفعل بعضنا الآن يشتري الكتب ويضعونها في المكتبات قال: عندي ألف كتاب! نقول: ما شاء الله تبارك الله؛ قرأتها؟ قال: والله واضعها للاحتياط!– فعندما أقول: اشتريتُ الكتاب لأقرأه؛ فهذا يمكن أن يقع ويمكن ألا يقع، **هذه اللام: لام علة الحكمة.**

فاللام هنا ليست غائية، لأنها لو كانت غائية ما أشرك أحد من الجن والإنس، وإنما لبيان الحكمة.

ولذلك؛ قال بعض أهل العلم: الخَلْق من الله، والعبادة بأمر الله الشرعي.

الله خلقنا لا شك في ذلك، والعبادة بأمر الله، الله أمرنا بالعبادة أمرًا شرعيًّا. فمَن كان من أهل السعادة وحَّد الله، ومن كان من أهل الشقاء –والعياذ بالله– أشرك بالله.

ولذلك؛ قال بعض السلف: معنى ﴿ليعبدونِ﴾: لأكلِّفهم بالعبادة، لآمرهم بالتوحيد وأنهاهم عن الشرك. وهذا هو الأمر الشرعي. لأن الأمر: أمر كوني؛ لابد منه. وأمر شرعي؛ يحبه الله، ويمكن أن يقع ويمكن ألا يقع. وهذا الواقع، وجدنا من الناس من وحَّد الله، ووجدنا كثيرين من الناس قد أشركوا بالله سبحانه وتعالى.

وبهذا يا أخي تعرف الجواب عن سؤال: لماذا لم يذكر الله الملائكة هنا؟ الملائكة مخلوقة لتوحيد الله؛ لماذا لم يذكر الله الملائكة هنا؟

لأنّ الملائكة مخلوقة للتوحيد فقط، ما يتأتى منها غير التوحيد، الملائكة كلهم موحِّدون، فهذا بأمر الله الكوني، خلق الملائكة هكذا، وإنما ذكر الله هنا مَن ابتلاهم بالأمر بالتوحيد؛ فمنهم موحِّد ومنهم مشرك، والعياذ بالله.

ماهي العبادة؟

العبادة أحسن ما قيل فيها هو قول شيخ الإسلام ابن تيمية: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

(اسم جامع): ليست لفرد من العمل. اسم جامع يجمع أشياء كثيرة.

(لكل ما يحبه الله ويرضاه) إذن يا إخوة؛ كل عبادةٍ اللهُ يحبها ويرضاها. كيف نعرف أن الله يحبها ويرضاها؟ بأن يأمرنا الله بها.

إذن؛ لا تكون العبادة عبادة إلا إذا أمر الله بها في كتابه أو على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم.

وهذا نأخذه في تفسيرنا لكلام شيخ الإسلام عندما قال: (اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه)، ولا يمكن لنا أن نقتري على الله فنقول: "الله يحب هذا" بدون أن يخبرنا الله، أو نقول: "الله يرضا عن هذا" بدون أن يخبرنا الله سبحانه في كتابه أو على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم.

(اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأقوال والأعمال) فالعبادة قد تكون قولًا، وقد تكون عملًا.

(الظاهرة) مثل الصلاة. (الباطنة): مثل المحبة والخوف والرجاء في القلوب.

هذه العبادة.

أما التعبد: هو التذلل والخضوع لله عز وجل بما شرع في كتابه أو على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم على وجه المحبة.

ما هو التعبد لله؟ هو التذلل والخضوع؛ لأنّ أصل العبادة هو التذلل والخضوع. ولذلك اليوم يا إخوة نقول: طريق معبَّد، أي أنه مذلَّل سهل.

إذن؛ التعبُّد: هو التذلل، فلابد في العبادة من ذِلة. الذي يتكبَّر يفعل العبادة بكبر هذا ما تعبد. والعياذ بالله الذي يذهب يصلي وهو يرى أنّ له على الله منَّة في صلاته؛ هذا ما عَبَدَ الله. لابد من التذلل والخضوع لله عز وجل.

(بما شرع) ليس بالهوى ولا بالرأي ولا بما يراه المشايخ ولا بما فعله أباؤنا؛ وإنما بما شرع الله في كتابه أو على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم.

الذي يتذلل لله أو يخضع لله بما شرعه الناس وقاله الناس ولم يأتِ في الكتاب ولم يأتِ في السنة؛ هذا ليس متعبِّدًا؛ هذا مبتدع.

(على وجه المحبة) شرط التعبُّد أن يكون على وجه المحبة، أن تصلي على وجه المحبة، محبًّا لله ومحبًّا للصلاة.

فإذا خلت العبادة عن المحبة؛ فهذا فعل المنافقين، الذين يصلون وهم كسالى؛ لأنهم لا يحبون الصلاة.

أمّا فعل المؤمنين: التعبد؛ فهو لابد فيه من المحبة.

إذن يا إخوة؛ يجب أن نفرِّق بين حقيقة العبادة والتعبُّد. لأنّ هذا اختلط على بعض طلاب العلم فانتقدوا تعريف شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله–

للعبادة؛ فقالوا: لابد من الذل والمحبة –كما قال ابن القيم–! فخلطوا بين حقيقة العبادة؛ ما الذي نسميه عبادة وبين التعبد؟

- الذي نسميه عبادة –بعيدًا عن فعل المكلَّف–: هو اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

- والذي هو فعل المكلَّف الذي هو التعبُّد هذا الذي هو: التذلل والخضوع لله بما شرع في كتابه أو لسان رسوله صلى الله عليه وسلم على وجه المحبة.

وأنا أعطيكم الفوائد باختصار؛ وإلا فمثل هذا الكتاب مليء بكنوز العلم والفوائد التي تشرح القلب، لكن –إن شاء الله– في الشرح الموسَّع نتوسع، إن شاء الله عز وجل.

قال رحمه الله: [وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[النحل: الآية ٣٦]]

الله أكبر!﴿ولقد﴾ عندنا يا إخوة هنا ثلاث مؤكدات، ربنا سبحانه يؤكِّد لنا، ولو قال الله لنا بغير مؤكِّد لصدقناه وآمنا؛ لكن لعظم شأن ما في هذه الآية أكده الله بثلاث مؤكدات:

الأمر الأوّل: القسم المقدَّر؛ التي تدل عليه اللام الموطِّئة للقسم.

والثاني: اللام.

والثالث: قد.

فهذه كلها مؤكِّدات.

﴿ولقد بعثنا﴾ أي: أرسلنا. ﴿في كل أمة﴾ أي: في كل طائفة ﴿رسولًا﴾. وهذا يدل على أنّ الله –عز وجل– بعث في كل الأمم رسلًا؛ ﴿وإنْ مِنْ أُمَّةٍ إلَّا خَلا فيها نَذير﴾، ما من أمة وُجدَت إلا أرسل الله لها نذيرًا، أرسل لها رسولًا.

ما وظيفة الرسل؟ ﴿أنِ اعبُدوا الله واجتنِبوا الطاغوت﴾.

﴿أنِ اعبدوا﴾:

قال بعض أهل العلم: معنى "أن" هنا: بأن؛ فنقدِّر قبل أن "بـ"، ما الدليل على هذا التقدير؟ قول الله عز وجل: ﴿بعثنا﴾، أنا أقول لك: بعثتك بالرسالة إلى أخي، أو: بعثتك بالمال إلى صديقي، فلمّا قال الله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾؛ جاء بيان ما بُعِث به الرسل فقدَّرنا بـ(أن)؛ ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾ بماذا؟ بأنِ اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت.

وقال بعض أهل العلم: إنّ "أن" هنا تفسيرية؛ تفسِّر ما بُعِث به الرسل.

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ﴾ إذن؛ الرسل جميعًا أَمروا بالتوحيد، وعبادة الله هي التوحيد، كما تقدم معنا.

﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ اجتنبوا: أي جانبوه ومِيلوا عنه ولا تقربوه. وسنبيّن كيف يكون هذا بعد أن نفسِّر معنى الطاغوت.

إذن؛ ما هي وظيفة الرسل الأصلية التي بُعِث بها الرسل؟ أن يأمروا بالتوحيد وأن ينهَوا عن الشرك.

والطاغوت هنا: من الطغيان. والطغيان: هو مجاوزة الحد.

وأحسن ما قيل في تعريفه ما ذكره ابن القيم رحمه الله: كل ما تجاوز به العبد حدَّه؛ مِن معبود، أو متبوع، أو مطاع.

وانتبهوا هنا يا إخوة؛ فإنّ المسألة أشكلت على كثير من أهل العلم، لماذا؟ لأنّا وجدنا ممن يُعبَد من دون الله: الرسل عليهم السلام، اليهود يعبدون عزيرًا، والنصارى يعبدون عيسى عليه السلام، ووجدنا من يَعبد الملائكة عليهم السلام، فهل هؤلاء يسمَّون طواغيت؟ لأنّ ابن القيم ماذا يقول؟ كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع!

فقال بعض أهل العلم: إنّ هؤلاء لا يسمَّون طواغيت؛ فلابد من تقييد كلام ابن القيم؛ فيُزاد فيه: "ورضي بذلك"؛ حتى يخرج الأنبياء عليهم السلام، ويخرج الملائكة عليهم السلام.

والذي يظهر لي –والله أعلم– أنّ عندنا أمرين:

١. اتخاذ الطاغوت.

٢. الطاغوت في حقيقته.

أن يتخذ الناس طاغوتًا؛ فيكون هذا طاغوتًا باعتبار اتخاذ الناس له، لا باعتبار حقيقته، وهذا يدخل فيه كل من عُبد من دون الله، ولكنه في ذاته ليس طاغوتًا، في حقيقته ليس طاغوتًا؛ لكنّ الذين عبدوه اتخذوه طاغوتًا؛ ولذلك قال ابن القيم: "كل ما تجاوز به حدَّه"، حدَّه: يعني المعبود ليس العبد، يرجع إلى المتجاوَز به وليس المتجاوِز، لماذا يا إخوة؟ ندرك جميعًا أنّ كل مخلوق من مخلوقات الله له حدّ، فإذا جاء إنسان وتجاوز بهذا المخلوق حدَّه فقد اتخذه طاغوتًا وإن لم يكن هو في حقيقته طاغوتًا؛ لكن هو بالنسبة للمتخِذ.

(كل ما تجاوز به العبد حدَّه مِن معبود) عبادة الأصنام، عبادة الأشجار، عبادة الملائكة، عبادة الأنبياء، عبادة الأولياء، دخلت في هذا؛ باعتبار المتخِذ لا باعتبار المتخَذ.

(أو متبوع) كمشايخ الضلال؛ الذين يقولون للناس: لا تذهبوا إلى دروس العلم ودروس التوحيد، هؤلاء وهابية، ضُلَّال، كفار! تعالوا عند القبور، تريد الولد؛ الوهابية يقولون لك: قل: يا الله يا الله! ما يأتيك ولد، تعال عندنا عند سيدي فلان، تأتي عند صاحب القبر تقول: يا سيدي فلان المدد، يا سيدي فلان

الولد! يأتيك الولد. فيتَّبعهم بعض الناس. هؤلاء طواغيت؛ لأنّ هؤلاء اتخذوهم طواغيت، فاتَّبعوهم فيما يقولون.

(أو مطاع) مطاع في تحليل ما حرم الله مع العلم بتحريمه، أو تحريم ما أحل الله مع العلم بحله. فيسمع في القرآن: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا﴾[الجن: الآية ١٨]، فحرّم الله أن ندعوا أحدًا مع الله، فيأتي شيخ يقول: لا، لا، الأولياء هؤلاء وسائط، زلفى، ندعوهم لنتقرب إلى الله! فيأتي إنسان عَلِمَ الآية وعرفها ويطيعه في هذا!! أو علم أنّ الربا حرام، لكن يأتي عالم من علماء السلاطين –ويوجد علماء من علماء السلاطين، وإن كان من الضُّلال من يتَّهم العلماء الربانيين الذين يَقفون عند الأدلة بأنهم من علماء السلاطين، وهذا جهل وظلم، لكن يوجد علماء سلاطين يقولون بما يقوله السلطان، إذا قال: النصارى واليهود وكلُّ شخص قلبه طيب هو في الجنة، قالوا: نعم! لأنّ الريس قال هذا، لأنّ السلطان قال هذا!– فجاء عالم من علماء السلاطين قال: هذا المال الذي يوضَع في البنوك وتؤخَذ عليه فوائد هذا ليس ربا، حلال! فأطاعه في هذا مع علمه بأنه ربًا وأنّ الربا حرام، هذا اتخذه طاغوتًا في هذا الأمر.

وعلى هذا المعنى: هل كل طاغوت كافر؟ لا، لأنه طاغوت باعتبار المتخِذ لا باعتبار المتخَذ، لا باعتبار حقيقته.

وعندنا المقام الثاني: وهو الطاغوت في ذاته. وهذا في الحقيقة هو: مَن عُبِد من دون الله وهو راضٍ أو غير كاره. هذا طاغوت في حقيقته، نسميه طاغوتًا. مَن عُبِد من دون الله وهو راضٍ أو غير كاره.

- **فعندنا ثلاث مقامات هنا:**

١. أن يُعبَد من دون الله بأمره هو. وهذا أقبحه؛ مثل فرعون، فرعون أمر الناس أن يعبدوه؛ وقال: أنا ربكم الأعلى. هذا طاغوت.

٢. مَن عُبد من دون الله وهو راضٍ. لم يأمر بهذا لكنه رضي. جاءه الناس يتقربون إليه ويعطونه الأموال، ويقولون: يا سيدنا أنت مبارك، ارزقنا، المدد، المدد! وجد أنّ المسالة فيها فلوس، وفيها غنى، وجاه كبير؛ فرضي بهذا، ورضي بأن يُعبَد من دون الله وأن يُدعا من دون الله! هذا طاغوت.

٣. مَن عُبِد من دون الله وهو غير كاره. لم يرضَ لكنه غير كاره؛ مثل الشمس والقمر والحجر؛ هذه غير راضية لكنها غير كارهة. فهذه تسمى طاغوتًا.

إذن؛ مَن الذي خرج يا إخوة؟ الملائكة والأنبياء عليهم السلام؛ لأنه لا ينطبق عليهم هذا، فلا يُسمَّون طواغيت.

هنا السؤال: هل الطاغوت بهذا المعنى كافر؟ الطاغوت في حقيقته نعم.

الذي استحق أن يسمى طاغوتًا بهذه الأمور الثلاثة فهو كافر:

١. من عُبد من دون الله بأمره.

٢. أو عُبد من دون الله برضاه.

٣. أو عُبد من دون الله بدون أن يكره، كافر إن كان يستحق أن يوصَف، لكن يوجد أشياء ما تستحق أن توصف؛ مثل الشمس؛ ما يمكن أن توصف بأنها كافرة أو مؤمنة، الشجر. هذا معنى الطاغوت.

إذا فهمتهم هذا وضبطتموه انحل عندكم الإشكال، المسألة مشكلة لو لم تُفصَّل ويُبيّن الفرق بين الطاغوت المتخَذ والطاغوت الحقيقي.

إذن؛ كلام ابن القيم –رحمه الله– صحيح في الطاغوت المتخَذ، ولذلك قال: كل ما تجاوز به العبد حدَّه من معبود أو متبوع أو مطاع.

ولو أردنا حقيقة الطاغوت لقلنا: يجب أن يضاف إليه: "ورضي بذلك أو لم يكره ذلك"، إذا أردنا الطاغوت في حقيقته.

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ إذن؛ الدين الذي اتفق عليه الأنبياء جميعًا هو: التوحيد والتحذير من الشرك.

والتوحيد يا إخوة لابد فيه:

- من نفي.

- وإثبات.

لأنّ النفي تعطيل للعبادة كلها. إذا قال الإنسان: لا إله؛ عَطَّل عن العبادة.

والإثبات لا يلزم منه نفي الشريك. عندما أقول: الله إله؛ لا يلزم منه أن غيره ليس إلهًا.

فلابد في التوحيد من: النفي والإثبات. إثبات العبادة لله، ونفيها عن غير الله عز وجل حتى يكون الإنسان موحِّدًا.

ولذلك؛ جميع الأنبياء جاؤوا بهذا. فما من رسول إلا وقد أوحى الله إليه بهذه الكلمة العظمى: لا إله إلا الله، التي فيها النفي والإثبات.

ولا يكون الإنسان مستمسكًا ومتمسكًا بشهادة أن لا إله إلا الله التي هي العروة الوثقى إلا إذا أتى بأمرين:

١. كَفَرَ بالطاغوت.
٢. وعَبَدَ الله سبحانه وتعالى.

﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا﴾[البقرة: الآية ٢٥٦] قوية، ولكن شرط ذلك: أن يَكفر بالطاغوت، وأن يَعبد الله سبحانه وتعالى.

طيِّب؛ عبادة الله عرفنا كيف التعبُّد، كيف يكفر الإنسان بالطاغوت؟

١. أن يُبغِض عبادة غير الله.

٢. وأن يَكفر بعبادة غير الله.

٣. وأن يحذر عبادة غير الله.

انتبهوا لِمَا أقول؛ أن يَكفُر بعبادة غير الله، كل عبادة لغير الله باطلة وكفر بالله. وأن يُبغِض عبادة غير الله، وأن يَحذَر عبادة غير الله، أن يحذر أن يعبد غير الله ولو شيئًا يسيرًا، ولو أن يقدِّم ذبابة لغير الله سبحانه وتعالى، وأن يكفر بالطاغوت الحقيقي، الطاغوت في حقيقته الذي قدَّمناه يكفر به. هذا هو الكفر بالطاغوت الذي لابد منه في تحقيق التوحيد.

وهذه الآية أفادتنا فائدة عظيمة جدًّا وهي: أنّ دعوة الأنبياء والرسل لابد فيها من: أمر ونهي.

فكل دعوة فيها أمر بلا نهي، أو نهي بلا أمر؛ فهي بدعة.

الجماعات التي تقول: ندعوا إلى الله –والدعوة إلى الله فضيلة ولا شك في هذا– ولكنّا نأمر بالمعروف ولا ننهى عن المنكر! يقولون: نأمر بالمعروف والمنكر يذهب! نقول: هذه بدعة؛ لماذا؟ لأنها مخالفة لطريق الرسل جميعًا، ما

هو طريق الرسل؟ أمرٌ بالمعروف ونهيٌ عن المنكر، أمرٌ بالتوحيد ونهيٌ عن الشرك، جملة وتفصيلًا كما سيأتينا، إن شاء الله.

إذن؛ يا مسلم لا تغتر بمجرَّد الدعوى، نحن نعرف أنّ أكثر المسلمين الذين ينساقون وراء بعض الدعوات البدعية قلوبهم طيِّبة ويحبون الله ورسوله بل ويبذلون من أموالهم الشيء الكثير؛ لكن يا إخوة ليس البذل علامة الصحة؛ وإنما الصحة: أن تَبذُل في صحيح.

فعلامة الصِّحة يا مسلم: أن تسير على طريق الرسل.

يا أخي**!** والله، ثم والله، ثم والله، جميع الرسل كلهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر؛ كيف تحيد عن طريق الرسل وتقول: لا دعوتنا أنّا نأمر بالمعروف؟!

حتى المعروف عندهم ليس كل معروف وإنما ما يتفق عليه الناس! يقولون: حتى ما نختلف

بالله عليك**!** هل أنت على طريق الرسل؟ تجرَّد لله؛ هل أنت على طريق الرسل؟ لا والله.

لكن للأسف بعض المسلمين يا إخوة تركوا نصوص الكتاب والسنة، وذهبوا إلى غيرها، ذهبوا إلى الرؤى والمنامات والأمثلة العجيبة لتحبيب الناس في طرق مبتدَعة.

والله! إنّا نحب الدعوة إلى الله، وإني عندما أعلم أنّ مسلمًا يشتغل بالدعوة إلى الله على بصيرة أُعلِي مقامه جدًّا وأدعو له كثيرًا.

والله! ما سمعتُ عن شخصٍ يدعو إلى الله في بلد من البلدان على سنة وبصيرة –وأنا لا أعرفه– إلا دعوتُ له وأحببته في الله. نحب الدعوة إلى الله؛ لكن بطريق رسل الله، عليهم الصلاة والسلام.

فلا ينفع أن نترك طرق الأدلة وطرق الرسل ونأتي بأمثلة مضحكة مبكية من أجل أن نحبِّب الناس في الدعوة على غير بصيرة وعلى غير طريقة الرسل.

من أعجب ما سمعتُ دليلًا لصحة هذا الخروج الذي ليس على طريق الرسل وليس على طريق الصحابة؛ قال: كتاكيت الحمام تخرج مغمضة العينين، ولا تنفع نفسها، وليس فيها ريش، أمّا كتاكيت الدجاج فتخرج مباشرة، وتنقر طعامها، ومفتحة، وتنفع نفسها؛ قال: تدرون يا إخوة لماذا؟ ما الحكمة؟ هات الحكمة العظيمة التي استنبطتها؟ قال: المرجع والسبب في ذلك: الأب، فالديك يدعو إلى الله؛ يصيح: حيا على الصلاة؛ فأصلح الله أولاده وما ضيعه، وذكر

الحمام يبقى عند الأنثى، ما يدعو إلى الله؛ فيضيع أولاده! إذن يا إخوة؛ اخرجوا! هذا الدليل العظيم!!

سبحان الله! نترك قال الله قال رسوله صلى الله عليه وسلم إلى أمثلة حتى فاسدة! الآن حتى في هذا المثال الذي ذكره؛ الديك ما ثبت أنه يدعو إلى الله، الديك يصيح، ثم الديك ما يذهب عن الدجاجة، عند الدجاجة دائمًا، الذي يذهب عن الحمامة هو ذكر الحمامة الذي طير، فهو مثل منتكِس في نفسه، ويدل يا إخوة على أنّ بعض إخواننا الذين ينتسبون إلى الإسلام ويحبون الخير ما عرفوا البصيرة.

ولذلك؛ نحن ندعو إلى الدعوة وإلى أن نجتهد، يا إخوة أهل الشر مجتهدون في الدعوة إلى الباطل، في زماننا يستعملون جميع وسائل التواصل للدعوة إلى الشرك، للدعوة إلى البدع.

ونحن ندعو أهل العلم وطلاب العلم إلى أن ينشطوا في الدعوة إلى الله، ويدعوا إلى الله، ولا يجوز لنا أن نكسل. جهاد هذا الزمان: الدعوة إلى الله بعلم.

وندعو إخواننا الذين رزقهم الله حب الدعوة: أن يرجعوا إلى البصيرة، وأن يدعوا إلى الله ببصيرة وسنة. وأن يتركوا ما أحدثه المحدِثون؛ فإنّ هذا يخالف

طرق الرسل جميعًا؛ وهو طريق واحدة، ودين الأنبياء واحد كما سيأتي في المسائل.

لعلنا نقف هنا، ونكمل غدًا إن شاء الله. نحن سنطيل فقط في المدخل، اليوم وغدًا إن شاء الله، ننتهي غدًا من المدخل؛ لأنّ المدخل يشمل كل الكتاب. ثم بعد ذلك شأن الكتب يسير إن شاء الله عز وجل.

أسأل الله أن يفقهني وإياكم في دينه، وأن يجعلني وإياكم من أهل التوحيد، وأن يجعلنا رحمة على أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وأن يجعلنا ممن يبصِّرون الناس بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم. والله أعلم.

الدرس الثالث: تابع شرح مقدمة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

كنا نشرح في درسنا البارحة في افتتاحية الكتاب التي جعلها الشيخ في أهمية التوحيد. وكان آخر ما تكلمنا عنه ما يتعلق بالطاغوت، فأعيده بشيء من الاختصار مع بعض الزيادات لطلب بعض الإخوة.

فقد ذكرنا أنّ الطاغوت: من الطغيان. والطغيان: هو مجاوزة الحد.

والطاغوت فسَّره بعض السلف ببعض أفراده، ففسره بعض السلف: بالشيطان، وفسره بعض السلف: بالكاهن، وفسره بعض السلف: بالساحر، وفسره بعض السلف بمعنىً عام؛ فقال الإمام مالك رحمه الله: الطاغوت ما عُبِد من دون الله أو الذين يُعبَدون من دون الله.

وعندنا في مسألة الطاغوت: التسمية وإلحاق الأحكام. عندنا جانبان:

١. التسمية.

٢. وإلحاق الأحكام.

- **أما التسمية بالطاغوت**؛ فعندنا فيها جانبان:

الجانب الأول: ما يَتعلق بالنسبة لمتخِذ الطاغوت؛ وهو الذي يَعبد أحدًا من دون الله. فهنا كل ما تجاوز به العبد حدَّه من معبود أو متبوع أو مطاع، فهو

طاغوت بالنسبة للمتخِذ، لا بالنسبة للمتخَذ، فإنّ المتخَذ في حقيقته قد يكون طاغوتًا وقد لا يكون طاغوتًا. لكنه بالنسبة لمتخِذه هو طاغوت؛ لأنه عبده من دون الله.

والجانب الثاني في التسمية: تسميته حقيقةً، أي: تسمية الشيء بذاته؛ تسميته طاغوتًا. وقلنا إنّ الذي يسمى طاغوتًا: هو الذي يُعبد من دون الله بأمره، أو يُعبد من دون الله برضاه، أو يُعبد من دون الله وهو غير كاره. وبعض العلماء يُخرِجون الثالث ويقولون: إنّ الطاغوت الذي يسمى طاغوتًا في حقيقته هو الذي يُعبد من دون الله بأمره، أو يُعبد من دون الله برضاه. أمّا من يُعبد من دون الله بغير أمره ولا رضاه كالقمر والشمس ونحو ذلك قالوا: لا تسمى طاغوتًا.

والذي يظهر –والله أعلم– أنه لا محذور في التسمية؛ فالحد موجود، ولا محذور في التسمية.

- **أمّا جانب إلحاق الأحكام**؛ فإلحاق الأحكام إنما يكون بحسب الاستحقاق، فلابد من العلم والرضى. فيُلحَق حكم الطاغوت بمن عَلِمَ ورضي.

أمّا من لم يعلم ولم يرضَ فإنه لا تلحقه بذاته أحكام الطاغوت.

هذا باختصار ما يتعلق بالطاغوت، وهو ما يحتمله شرطنا في شرح الكتاب في هذه الفترة. وإن شاء الله إذا بدأنا في شرح الكتاب شرحًا موسَّعًا بعد الفراغ من فترة الحج –إن شاء الله– سنتوسع في بعض الأمور ونذكر خلاف أهل العلم فيما يتعلق بضبط الطاغوت.

ونكمل ما ذكره الشيخ، فليتفضل الشيخ خليل يقرأ لنا.

يقول شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: [وقوله: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ الآية]

نعم؛ هذه الآية العظيمة التي ذكر ابن عباس –رضي الله عنهما– أنها من الآيات المحكَمات في كتاب الله عز وجل؛ كما روى عنه ابن جرير، رحمه الله عز وجل، هذه الآية آية عظيمة وفي بعض النسخ لم يكمل الشيخ ما بعدها، وفي بعض النسخ أكملها.

﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾، ﴿قضى﴾ هنا: أي قضى قضاء شرعيًّا؛ لأنّ قضاء ربنا سبحانه وتعالى:

–إمّا أنه قضاء كوني قدريّ. وهذا لا بد من وقوعه، والله يقضي كونًا وقدرًا ما يحب وما لا يحب، ولا بد من وقوعه.

فالله قضى كونًا وقدرًا وقوع التوحيد من المؤمنين؛ وهذا يحبه سبحانه وتعالى. وقضى كونًا وقدرًا وقوع الشرك من المشركين؛ وهذا لا يحبه الله عز وجل، بل الله عز وجل يكرهه. وليس هذا هو المراد هنا.

وإنما المراد هنا بالقضاء: القضاء الشرعي.

- **والقضاء الشرعي ضابطه**: أنّ الله لا يأمر ولا يقضي شرعًا إلا بما يحِب، وأنّ هذا القضاء قد يقع وقد لا يقع.

فنقول: قضى ربنا أن نعبده وأن نوحِّده؛ أي: أمرنا بأن نعبده وأن نوحِّده. فالله عز وجل يحب أن نعبده وأن نوحِّده. وهذا القضاء قد يقع وقد لا يقع؛ ولذا نرى من الناس من يؤمن، ونرى من الناس من لا يؤمن.

﴿وقضى﴾ قال بعض أهل العلم: معناها وصّى مُلزِمًا. وقال بعض أهل العلم: معناها أمر. وقال بعض أهل العلم: معناها ألزم. وكل هذه المعاني صحيحة.

﴿وَقَضَى رَبُّكَ﴾ وتلحظون هنا أنّ الله عز وجل قال: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ﴾ ما قال مثلًا: وقضى الله؛ بل قال: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ﴾؛ لأنّ في هذا فائدة عظيمة؛ فإنّ الذي قضى وأمر هو الرب، والرب هو المنعِم بجميع النعم، الذي ربانا بنعمه، سبحانه وتعالى، إذن هو مستحق لأن يطاع.

﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ نفيٌ وإثبات. ﴿أَلاَّ تَعْبُدُواْ﴾ أيَّ معبود ﴿إلا إياه﴾، سبحانه وتعالى. وهذا هو التوحيد.

﴿وبالوالدين إحسانًا﴾ فقرن الله عز وجل حق الوالدين بحقه سبحانه وتعالى.

فأعظم الحقوق: حق الله سبحانه وتعالى، هو أعظم الحقوق على الإطلاق، وقرن الله بهذا الحق: حق الوالدين.

فإن قال قائل: فأين حق رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ وحق رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم حق بعد حق الله سبحانه وتعالى؟

قال العلماء: حق النبي صلى الله عليه وسلم مضمَّن في حق الله سبحانه وتعالى؛ لأنّ التوحيد وعبادة الله لا تتحقق إلا بتحقيق الشهادتين: بتحقيق شهادة أن لا إله إلا الله وأنّ محمدًا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ فكأنّ قائلًا قال: كيف أُحسِن إلى الوالدين؟ فبيّن الله عز وجل هذا الإحسان: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا . وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾.

فتحصَّل من هذا؛ أنّ الإحسان إلى الوالدين يكون:

١. ببذل المعروف.

٢. وكف الأذى.

٣. وإدخال السرور.

٤. والدعاء لهما.

٥. والتواضع لهما.

لا تكون محسنًا لوالديك إلا بهذه الأمور الخمسة:

١. بذل المعروف. أين هذا من الآية؟ في قول الله: ﴿وبالوالدين إحسانا﴾ هذا بذل المعروف، ويدخل فيه كل معروف.

٢. وكف الأذى. أن تكف الأذى عنهما؛ صغيرًا كان أو كبيرًا؛ ولذلك قال الله: ﴿فلا تقل لهما أفٍّ ولا تنهرهما﴾، فنهى عن الأذى الصغير والأذى الكبير. الأذى الصغير: أن تقول: أف، يقول لك: يا ابني أحضر لي كذا؛ تقول: أف! هكذا ما أحسنت إلى الوالد؛ لأنك ما كففتَ الأذى عنه.

٣. والكبير: أن تنهرهما؛ فما فوق، كأن تقول: لا تطلب مني هذا أنت آذيتني! هذا نهر، فما فوق. هذا كف الأذى.

٤. إدخال السرور. إدخال السرور إلى قلب الأب وقلب الأم. ﴿وقل لهما قولًا كريمًا﴾ ما هو القول الكريم؟ الذي إذا سمعاه طابت أنفسُهما؛ فيدخل السرور إلى قلبيهما بهذا الكلام، هذا القول الكريم. ما هو القول

الكريم الذي أقوله لوالدي؟ هو القول الذي إذا سمعه طاب قلبه؛ يا أبتي! يا أبي! يا أبي غفر الله لك! يا أبي رحمك الله! ما يدخل السرور إلى قلبه.

٥. والتواضع لهما؛ ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ أن تتواضع لهما مهما بلغت من المنزلة.

كان بعض العلماء يدرّس في مجلسه، فتناديه أمه، فيخرج من المجلس والطلاب يكتبون، ويذهب إلى أمه ويضع الحب للدجاج، ثم يعود إلى الدرس! جالس يدرّس الناس الحديث والسنة، فتناديه أمه: يا فلان!، فيقوم، ماذا تريد أمه؟ تقول له: ضع الحب للدجاج! فيأخذ الحب ويضع الحب للدجاج طاعة لأمه ويرجع إلى درسه! فمهما بلغتَ يجب أن تتواضع لوالديك.

ومن ذلك يا إخوة؛ أنه إذا جاءك طلاب العلم وأنت مع والدك، عليك أن تقدم والدك إلى صدر المجلس وتقول: هذا أبي، ولو كان عاميًّا من الناس، لا تقول: لا أنا طالب علم وهؤلاء طلاب علم وأبي عامي ما يعرف! ما تستحي من أبيك أبدًا مهما بلغتَ من منزلة.

٦. والدعاء لهما. ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾، قال العلماء: تُسمِعهما هذا الدعاء، وتدعو به في ظهر الغيب. تُسمعهما هذا الدعاء: لتجمع

بين الدعاء لهما وإدخال السرور إلى قلبيهما، وتدعو به في ظهر الغيب: ليكون أبلغ في الإجابة.

ووجه الدلاة من الآية: في قول الله: ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه﴾، فأول أمر، وأعظم أمر، وأعظم حق: هو توحيد الله سبحانه وتعالى.

قال رحمه الله: [وقوله: ﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ الآية]

﴿واعبدوا﴾ هذا أمر، والأمر المطلق يقتضي الوجوب. ﴿واعبدوا الله﴾ وهذا هو التوحيد كما تقدم معنا. فالتوحيد هو العبادة.

﴿ولا تشركوا به شيئًا﴾ هذا الكفر بالطاغوت.

فلا بد من عبادة الله وتوحيد الله والكفر بالطاغوت؛ نفيٌ وإثبات.

وهنا يقول العلماء –وانتبهوا–: عندنا عمومان:

العموم الأوّل: في قول الله: ﴿ولا تشركوا به﴾، يقولون: لأنّ ﴿تشركوا﴾ فعل، والفعل يُضمَّن المصدر؛ لأنّ الفعل –كما تعرفون في النحو– يتضمن أمرين: حدث، وزمان الحدث. فالمتعلق بزمان الحدث: المصدر، فإذن؛ هذا الفعل مضمَّن للمصدر، والمصدر نكرة، والنكرة في سياق النفي والنهي: تعم.

إذن؛ معنى العموم هنا: لا تشركوا به شركًا؛ أيُّ شرك؛ لا الشرك الأكبر ولا الشرك الأصغر ولا الشرك الخفي، كلها دخلت في هذا النهي.

والعموم الثاني: في قوله سبحانه: ﴿شيئًا﴾، فشيء نكرة في سياق النهي؛ فتعم، فلم يبقَ شيء إلا وقد نُهينا أن نعبده من دون الله؛ الملائكة، الأنبياء، الصالحون، الأشجار، الأحجار، الشمس، القمر، الماء؛ كلها دخلت في هذا، فنُهينا عن أن نشرك بالله شيئًا.

وهذا العموم أيضًا؛ يقتضي النهي عن الشرك بالله مهما دقّ. يعني: لا نشرك بالله شيئًا ولو شيئًا يسيرًا، ولو أن تقدِّم حبة ذُرة لصاحب القبر، لو أن تأخذ حبة ذُرة فقط وتقدمها لصاحب القبر نذرًا أو تقرُّبًا لصاحب القبر: هذا من الشرك بالله، ودخل في هذا النهي العظيم.

فدل ذلك على أهمية التوحيد؛ أنّ الله عز وجل أمر به أمرًا مطلقًا ونهى عن ضدِّه.

[وقوله: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ الآيات]

هذه الآيات أيضًا ذكر ابن عباس –رضي الله عنهما- أنها من الآيات المحكَمات في القرآن، كما رواه عنه ابن جرير، ابن جرير روى عن ابن عباس –

رضي الله عنهما– أنّ الآيات المحكمات في القرآن: هي قول الله عز وجل: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾، وقول الله عز وجل: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُم﴾.

﴿قل﴾ يا محمد، رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمره الله أن يقول هذا القول: ﴿قل تعالوا﴾ والخطاب لمَن؟ الخطاب للكفار الذين يَعبدون الأصنام والأحجار والأشجار والأوثان من دون الله عز وجل، ويُحرِّمون أمورًا بزعمهم، ويُحلُّون أمورًا بزعمهم، ويقولون: هذا محرَّم علينا، وهذا حلال لنا؛ زعمًا وكذبًا وتخرُّصًا، فقال الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول في مقابل حالهم: ﴿قل تعالوا﴾ أي: هلمُّوا وأقبِلوا، قالوا: وهذا اللفظ فيه بيان علوُّ النبي صلى الله عليه وسلم عليهم. وبعض أهل العلم من المفسرين قال: هذا اللفظ فيه إشارة إلى أنّ دين النبي صلى الله عليه وسلم سيعلو في مكة. لكنّ الجملة ﴿تعالوا﴾ أي: هلمُّوا وأقبِلوا؛ وهي مشعرة بالعلو.

﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُم﴾ ما حرمه الله صدقًا وحقًّا؛ ليس ما تزعمون وتفترون على الله؛ بل أتلو عليكم ما حرمه ربكم عليكم حقًّا وصدقًا: ﴿ألا تشركوا به شيئًا وبالوالدين إحسانًا﴾.

طيب؛ ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُم﴾ ماذا ننتظر؟ ننتظر المحرمات، ننتظر ما حرم ربنا علينا، لكن ما الذي جاءنا؟ ﴿ألا تشركوا به شيئًا﴾؛ هل حرم

الله علينا ألا نشرِك به أو أمرنا بأن لا نشرِك به؟ أمرنا بأن لا نشرك به، حرَّم علينا أن نشرك به، لكن الذي جاء ماذا؟ ﴿ألا تشركوا به شيئًا﴾، ولذلك قال العلماء: كأنّ هنا مقدَّرًا؛ تقديره: "وصَّاكم" لِمَا سيأتي في آخر الآيات، وصَّاكم أن لا تشركوا به شيئًا وبالوالدين إحسانا. هل حرم الله علينا أن نحسن إلى الوالدين؟ لا، وإنما وصانا بأن نحسن إلى الوالدين.

قال العلماء: هذا التفات بليغ، لأنه بهذا أفادهم فائدتين:

الفائدة الأولى: ما وصَّاهم الله به محاسن الأمور. وستأتي في المسائل وأعلِّق عليها تعليقًا خفيفًا إن شاء الله.

والفائدة الثانية: أنه بيّن لهم ما حرَّم عليهم. لأنه إذا وصَّاهم بأن لا يشركوا به شيئًا فضدُّه قد حرمه عليهم؛ وهو أن يشركوا به شيئًا، حرام عليهم أن يشركوا بالله شيئًا.

إذا وصَّاهم بالإحسان إلى الوالدين؛ فضده –وهو الإساءة إلى الوالدين– حرَّمه الله عليهم.

فهذا الالتفات أفاد فائدتين:

١. بيان معاني الأمور التي وصى الله بها.

٢. وبيان أنّ ضدها محرَّم.

ما الذي دلّ على أنّ ضدها محرّم في الآية؟ أنّ الله قال: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُم﴾؛ إذن لا بد أن يكون في هذا الكلام ما حرمه الله، والذي حرمه الله هو ضد ما وصى به.

ووجه الدلالة من هذه الآية على أهمية التوحيد: أنّ رأس ما وصَّى الله به هو التوحيد، وأنّ ما بعده يتبعه، فلا خير في شيء يفعله العبد إلا مع التوحيد.

الكافر لو كان من أبرِّ الناس بوالديه؛ هذا ليس عبادة لله، نعم هو عملُ خير، عملٌ طيِّب قد يثيبه الله عليه في الدنيا، وقد لا يعطيه شيئًا؛ لأنه لا يستحق؛ لكنّ الله من فضله قد يثيب الكافر على عمله الطيّب في الدنيا ويعطيه شيئًا من الدنيا مقابِل ما عَمِلَ مِن عَمَلٍ طيب –من فضل الله– وقد لا يعطيه. أمّا في الآخرة فهو كالهباء المنثور؛ لماذا؟ لأنه ليس عبادة.

إذن يا إخوة؛ كل ما بعد التوحيد لا يصلح إلا بالتوحيد، وإذا خلا من التوحيد لم يكن عبادة، ولا ينفع العبد عند الله سبحانه وتعالى. فدل ذلك على أهمية التوحيد.

قال رحمه الله: [قال ابن مسعود رضي الله عنه: مَن أراد أن ينظر إلى وصية محمد صلى الله عليه وسلم التي عليها خاتمه فليقرأ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾ الآية]

نعم؛ هذا الأثر عن ابن مسعود –رضي الله عنه–؛ قال: (مَن أراد أن ينظر إلى وصية محمد صلى الله عليه وسلم التي عليها خاتمه فليقرأ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾ إلى آخر الآية.

هذا الأثر أولًا يا إخوة؛ رواه الترمذي في سننه، ورواه الطبراني، ورواه البيهقي في الشُّعَب، وحسّنه الترمذي، وضعّفه الألباني، رحم الله الجميع.

فالألباني –رحمه الله– حكم على هذا الأثر بأنه ضعيف؛ لماذا؟ من أجل أنّ في إسناده داود الأودي، وقد ظن الشيخ الألباني –رحمه الله– أنّ داود الأودي هذا هو: داود بن يزيد الأودي، وهو رجل ضعيف –كما ذكر الحافظ ابن حجر–؛ فضعّفه من أجل هذا.

لكنّ الصواب –والله أعلم–: أنّ هذا الأثر إمّا ضعيف أو حسن. وحكم الشيخ عليه بأنه ضعيف لم يُصِب فيه؛ لماذا؟ لأنّ داود الأودي هذا هو: داود بن عبد الله الأودي، وليس داود بن يزيد الأودي. وداود بن عبد الله ثقة؛ بل قال الشيخ الألباني: ثقة باتفاق النقّاد –وإن كان في الحقيقة فيه خلاف؛ لكنه ثقة– لكنّ الشيخ الألباني قال: إنّ داود بن عبد الله الأودي ثقة باتفاق النقاد –طبعًا ليس عند هذا الأثر، بل قاله في مكان آخر– لكن في هذا الأثر قال: الأثر ضعيف؛ لأنه ظن أنه داود بن يزيد– وهو ضعيف–، والحق: أنه داود بن عبدالله الأودي، وداود بن عبد الله الأودي ثقة؛ وإن لم يكن من رجال الصحيحين.

ما سبب الوهم هنا؛ أنّ الشيخ ظنه داود بن يزيد الأودي؟ أنّ داود بن يزيد الأودي يروي عن عامر الشعبي، وداود بن عبدالله الأودي يروي كذلك عن عامر الشعبي، فظن الشيخ الألباني –رحمه الله– أنه داود بن يزيد.

لكن في النظر في الإسناد تبيّن لنا أنه داود بن عبد الله الأودي؛ ما الذي دلنا على ذلك؟ الذي دلنا على ذلك: أنّ الراوي عن داود هنا هو: محمد بن فضيل، ومحمد بن فضيل إنما يروي عن داود بن عبدالله الأودي؛ لا عن داود بن يزيد. فعلمنا بهذا: أنّ داود هنا هو الثقة وليس الضعيف.

ولذلك نقول: إنّ هذا الأثر –وإن ضعفه الشيخ ناصر الألباني رحمه الله– إما صحيح أو حسن؛ حسنه الترمذي. والنظر في إسناده في الحقيقة يقتضي أنه صحيح؛ على ما بيَّنّاه.

إذن؛ هذا الأثر –فيما يظهر لنا والله أعلم– ثابت. والشيخ ناصر –رحمه الله– معذور في الحكم عليه بالضعف؛ لأنه ظن أنّ داود الأودي هو الرجل الضعيف داود بن يزيد الأودي.

قال ابن مسعود –رضي الله عنه–: (مَن أراد أن ينظر إلى وصية محمد صلى الله عليه وسلم التي عليها خاتمه) أي: مَن أراد أن ينظر إلى الوصية التي كتبها

النبي صلى الله عليه وسلم وختم عليها، لأنه عند الترمذي ذكر "الصحيفة"؛ هذا معنى الوصية المكتوبة التي عليها الخاتم.

ولا شك أنه ليس المراد أنّ النبي صلى الله عليه وسلم كتب وصية وختمها، فإنّ النبي صلى الله عليه وسلم ما كتب وصية وختمها –يقينًا– لكن مراد ابن مسعود –رضي الله عنه–: أنّ النبي صلى الله عليه وسلم لو وصّى وكتب وصية لأوصى بهذه الآيات؛ لماذا؟

١. لأنها جوامع الخيرات.
٢. ولأنّ الله وصى بها؛ والنبي صلى الله عليه وسلم يوصّي بما وصّى به الله سبحانه وتعالى.

إذن؛ ليس المراد أنّ هناك وصية كتبها النبي صلى الله عليه وسلم وختمها؛ وإنما المراد: أنّ هذه كالوصية التي كتبها النبي صلى الله عليه وسلم وختمها. فلو أنه كتب وصية وختمها لَمَا كتب إلا هذا؛ لِمَا ذكرناه.

(مَن أراد أن ينظر إلى وصية محمد صلى الله عليه وسلم التي عليها خاتمه؛ فليقرأ: ﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم﴾)، وهذا يدل على عناية السلف بهذه الآيات. ابن عباس –رضي الله عنهما– ذكر هذه الآيات من الآيات

المحكمات. وابن مسعود جعلهن كوصية النبي صلى الله عليه وسلم المكتوبة.

إذن؛ هذا يدل على أهميتها.

وهذه الآيات تدل على أهمية التوحيد؛ لأنّ الله عز وجل بدأ الأمر فيها بالتوحيد.

قال رحمه الله تعالى: [وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: كنت رديف النبي صلى الله عليه وسلم على حمار فقال لي: يا معاذ! أتدري ما حق الله على العباد وما حق العباد على الله؟ فقلت: الله ورسوله وأعلم. قال: فإنّ حق الله على العباد: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وحق العباد على الله: أن لا يعذِّب من لا يشرك به شيئًا» فقلت: يا رسول الله! أفلا أبشر الناس؟ قال: «لا تبشرهم فيتكلوا». أخرجاه في الصحيحين]

هذا الحديث العظيم عن معاذ بن جبل، ومعاذ بن جبل –رضي الله عنه– له فضل عظيم؛ فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يحبه، وكان يقول: يا معاذ والله إني لأحبك! فكان يخبره بأنه يحبه ويقسم على ذلك. وأخبر صلى الله عليه وسلم أنّ معاذًا –رضي الله عنه– يُحشَر قبل العلماء برَتوة؛ أي أنه يُحشَر قبل العلماء بمسافة؛ وهذا من فضله، رضي الله عنه.

قال: (كنت رديف النبي صلى الله عليه وسلم) والرديف يا إخوة: هو الراكب خلف الراكب بإذنه. إذا ركب إنسان خلف آخر بإذنه يقال: إنه رديف.

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم متواضعًا وهو نبي الثقلين، أرسله الله إلى الجن والإنس، ومع ذلك كان في غاية التواضع صلى الله عليه وسلم، ومن ذلك أنه كان يردِف بعض الناس خلفه.

وقد جمع الحافظ ابن مَنده أسماء مَن أردفهم النبي صلى الله عليه وسلم خلفه فبلغوا ثلاثين نفسًا من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وهذا من تواضعه صلى الله عليه وسلم.

قال: (كنت رديف النبي صلى الله عليه وسلم على حمار)؛ الحمار الإنسي المعروف، وهو أقل الدواب التي تُركَب، لأنّ الإنسان إمّا أن يركب –من الدواب–: الجمل، أو الفرس، أو الحصان، أو يركب الحمار، الحمار أقل الدواب التي تُركب في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، ومع ذلكم كان النبي صلى الله عليه وسلم يركب على حمار؛ من تواضعه صلى الله عليه وسلم.

وهذا الحمار جاء في رواية في الصحيحين أنه يقال له: عُفَير، وهذا الاسم مأخوذ من العَفْر، والعفر هو لون التراب، فإذا قلنا بهذا فمعناه: أنّ لون الحمار هذا يشبه لون التراب، وهذا معروف؛ يوجَد. وقيل: مأخوذ من العُفْرَة، والعُفْرة:

هي الحُمرة التي يخالطها بياض، ومعنى هذا: أنّ لون هذا الحمار أنه أحمر مع بياض مخلوطٍ به.

وفي هذا يا إخوة؛ أنّ الحيوانات كانت تسمَّى في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، فهذا الحمار كان يسمى بعُفَير. قيل إنه أهداه إلى النبي صلى الله عليه وسلم المقوقِس حاكم مصر، وقيل غيره.

قال: (فقال لي: يا معاذ! أتدري ما حق الله على العباد وما حق العباد على الله؟) وجاء بصيغة الاستفهام؛ ليكون أبلغ في السمع والفهم، (يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد وما حق العباد على الله؟ فقلت: الله ورسوله أعلم) –وسيأتينا إن شاء الله ما يتعلق بهذه الجملة في المسائل– (فقلت الله ورسوله أعلم) يعني: لا أدري؛ لكنه بدل أن يقول لا أدري جاء بعبارة فيها أدب؛ فقال: (الله ورسوله أعلم) أمّا أنا فلا أدري، قال: «فإنّ حق الله على العباد» أي: حق الله اللازم الواجب على العباد: «أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا»؛ وهذا التوحيد كما قلنا: العبادة والبراءة من الشرك؛ هذا التوحيد.

«وحق العباد على الله» أي أنّ الحق الذي أوجبه الله على نفسه كرمًا منه وفضلًا، لا مقابَلة، لم يجب على الله مقابَلةً كما تقول المعتزلة الضُّلال؛ يقولون: نحن نعمل والله يجب عليه أن يثيب! والله لو كانت مقابَلة لخسرنا مقابل نعمة واحدة من نعم الله! هذه العين التي نتحرك بها ونقرأ ونقوم بمصالحنا هذه العين

النعمة هذه العين فقط والله لو عبدنا الله الليل والنهار لا نفتر لَمَا قابلنا هذه النعمة؛ فكيف ونحن نتقلَّب في نعم الله؟! والله ليس حقًّا واجبًا مقابَلة؛ ولكنه حقٌّ أوجبه الله على نفسه تفضلًا منه وإحسانًا. ربنا جوادٌ كريمٌ برٌّ رحيمٌ، تفضَّل علينا فجعل لنا حقًّا عليه.

ولذلك يا إخوة؛ عندما يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «حق العباد على الله» في هذا تعظيم لله وليس تنقُّصًا لله كما ظن بعض الجهال؛ لأنّ هذا الحق مِن كمال رحمة الله، ومن كمال رأفة الله بنا، ومن كمال فضل الله علينا؛ أنه جعل لنا حقًّا على نفسه إن أتينا بشرط هذا الحق؛ «ألا يعذِّب مَن لا يشرك به شيئًا».

طيِّب؛ نحن قلنا سابقًا: التوحيد لابد فيه من النفي والإثبات؛ لا بد من العبادة والبراءة من الشرك؛ الكفر بالطاغوت، طيِّب هنا قال: «وحق العباد على الله ألا يُعذِّب مَن لا يشرك به شيئًا» إذن لم يذكر إلا نفي الشرك! نقول: بل العباد مذكورة؛ أين ذُكِرَت؟ عندما قال: «وحق العباد» العبد مَن هو؟ العبد الذي عَبَد، إذا لم يَعبُد فليس عبدًا، إذن وُجدَت العبادة في قوله: «وحق العباد».

أيضًا عُرِف ذلك مما تقدم؛ «فإنّ حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا».

وأقول: أَصْرَح مِن هذا: أنه جاء في رواية في الصحيحين التصريح بهذا؛ جاء في رواية في الصحيحين: قال معاذ رضي الله عنه: «كنت ردف النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «يا معاذ بن جبل!» فقلت: لبيك وسعديك، ثم سار ساعة –أي سكت، ما قال شيئًا صلى الله عليه وسلم– فقال: «يا معاذ بن جبل!» فقلت: لبيك يا رسول الله وسعديك، ثم سار ساعة –سكت، ما قال شيء– فقال: «يا معاذ بن جبل!» فقلت: لبيك رسول الله وسعديك، فقال: «هل تدري ما حق الله على العباد؟» يعني انظروا اهتمام النبي صلى الله عليه وسلم بالأمر؛ في الأوّل قال: «يا معاذ بن جبل!» قال: لبيك رسول الله وسعديك، ينتظر ماذا يقول النبي صلى الله عليه وسلم؛ لكنه سكت صلى الله عليه وسلم، سار ساعة، وساعة: ليست ستين دقيقة، ساعة: مقدار من الزمن، ثم قال: «يا معاذ بن جبل!» وهو خلفه! قال: لبيك رسول الله وسعديك؛ ينتظر ماذا سيقول النبي صلى الله عليه وسلم، سكت، سار ساعة، ما حال معاذ الآن؟ معاذ الآن رضي الله عنه أصبح متشوِّقًا لأن يعرف ماذا يريد النبي صلى الله عليه وسلم، في الثالثة قال: «يا معاذ بن جبل!» فقال: لبيك رسول الله وسعديك، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «هل تدري ما حق الله على العباد؟» قال: قلت: الله ورسوله لأعلم، قال: «فإنّ حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا»، ثم سار ساعة، فقال: «يا معاذ بن جبل!» قلت: لبيك رسول الله وسعديك، قال: «هل تدري ما حق العباد على

الله إذا فعلوا ذلك؟» قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «ألا يعذبهم»، فهنا قال: «هل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟» أي: إذا عبدوا الله ولم يشركوا به شيئًا، قال: «ألا يعذبهم».

وسيأتينا –إن شاء الله– معنى نفي العذاب، وأنّ نفي العذاب عن الموحِّدين:

- **إمّا نفيٌ مطلَق**؛ ألا يعذَّب مطلقًا.
- **وإمّا نفيٌ مقيَّد.**

وسأبيّن هذا في الباب التالي، إن شاء الله.

قال: (فقلت: يا رسول الله! أفلا أبشِّر الناس؟!) ما دام هذه البشارة العظيمة وهو أنّ مَن وحَّد الله ولم يشرك به شيئًا لا يعذبه الله –على المعنى الذي سنذكره إن شاء الله عندما نقرنه بدخول الجنة–؛ ألا أبشر الناس؟!

وفي هذا يا إخوة؛ أنّ تبشير الإنسان بما يسره من المكارم والمحامد والصفات الطيبة؛ ولذلك استأذن معاذ –رضي الله عنه–؛ قال: أفلا أبشر الناس بهذه البشارة العظيمة؟ قال: «لا تبشرهم فيتَّكلوا»؛ أي: مخافة أن يتكل بعض الناس على هذا فيقصِّروا في العمل. أخرجاه في الصحيحين.

وهذا الحديث يا إخوة يدل على أنّ العالِم ينبغي أن يعرف مَن يحدّث من طلابه، فقد يخص بعض الطلاب بعلم خاص إذا علم أنّ هذا ينفعه ولا يضره.

فالنبي صلى الله عليه وسلم معه أصحابه وخصَّ معاذًا –رضي الله عنه– بهذا العلم، ونهاه أن يبشِّر الناس؛ مخافة أن يتَّكلوا.

قال العلماء: وفي هذا إشارة إلى أنّ الكتمان هنا إنما هو عمَّن يُخشى منه ذلك. أمّا مَن لا يُخشى منه ذلك فلا؛ لا يحتاج إلى الكتمان.

طيِّب؛ النبي صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ –رضي الله عنه–: «لا تبشِّرهم فيتَّكلوا»؛ فلماذا روى هذا الحديث وخبّرنا؟ جاء في الصحيح: (أنه حدَّث به عند موته؛ تأثُّمًا) تأثُّمًا أن يكتم هذا العلم، فحدّث به عند موته رضي الله عنه وأرضاه.

وضمَّن ما روى ما يدفَع ما يُخشى منه؛ وهو أنّ النبي صلى الله عليه وسلم لم يأذن لمعاذ في حينها أن يبشر الناس بهذه البشارة حتى لا يتكلوا على ذلك. إذن ستتعلم الأمّة أنها ليس لها أن تتّكل على هذه البشارة، بل مع التوحيد وعبادة الله تجتهد في زيادة العمل وفي زيادة التقرُّب إلى الله عز وجل.

ووجه الدلالة من هذا الحديث على أهمية التوحيد: أنّ التوحيد هو حق الله، فالتوحيد أعظم الحقوق، وأنّ التوحيد سببٌ لمغفرة الذنوب ودخول الجنة، كما سيأتي في الباب التالي ونتكلم عن ذلك إن شاء الله عز وجل.

إذن؛ شيخ الإسلام رحمه الله في هذه الافتتاحية بيَّن لنا أهمية التوحيد بأمور:

الأمر الأول: أنه من أجل التوحيد خُلق الجن والإنس؛ بل وخُلقت المخلوقات كلها. كل المخلوقات خُلقت من أجل التوحيد.

الأمر الثاني: أنه من أجل تحقيق التوحيد بُعثَت الرسل. فدين الرسل الذي اتفق عليه الرسل: هو الأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك.

الأمر الثالث: أنّ التوحيد أعظم الفرائض، وأنّ كلَّ فرضٍ يَتْبع التوحيد. فأعظم فرض عُرِفَ على وجه الأرض منذ أن نزل آدم عليه السلام إلى الأرض إلى أن تقوم الساعة: هو توحيد الله عز وجل، أعظم فرض عُرِف على الإطلاق: هو توحيد الله سبحانه وتعالى.

الأمر الرابع: أنّ التوحيد هو حق الله العظيم سبحانه، الذي خلقنا، وربانا بالنعم، والذي سيجازينا يوم القيامة. فأشرف حق وُصِف: هو التوحيد، أشرف حق وصفه واصف: هو التوحيد.

فهذه الأمور بيّن بها شيخ الإسلام أهمية التوحيد؛ وأنّ أعظم ما يكون عند الإنسان: التوحيد.

ولذلك –كما قلنا سابقًا–: يحبه المسلم، ويتعلمه المسلم، ويحققه المسلم، ويحذر مما يَنقضه أو يُنقصِه، ويدعو إليه، ويصبر على ذلك، ويكون ثمرة ذلك: أن يُعلِّق قلبه بالله سبحانه وتعالى.

والمسلم إذا عرف هذه الأهمية لا بد أن توجَد هذه الأمور في قلبه، إذا عرف هذه الأهمية وسمعها وقرَّرها، وتقررت في قلبه؛ والله سيحب التوحيد، سيصبح التوحيد مثل الدم في جسده، لو قُطِّع أو حُرِّق ما أشرك بالله، قلبه سيكون على التوحيد دائمًا حتى لو أُكرِه، ربما تلفَّظ بكلمة لأنه أُكرِه لكنّ قلبه مطمئن بالإيمان، موحِّد، وهذا الذي ينبغي أن نكون يا إخوة.

هذه الأمور يا إخوة اختبروا بها قلوبكم: هل تحبون التوحيد؟ هل إذا سمعتم التوحيد انشرحت صدوركم وفرحتم؟ أو ضاقت صدوركم؟ عياذًا بالله من هذا، القلب الحي المؤمن يحب التوحيد.

ولذلك؛ الشيطان يريد أن يُبعِد الناس عن التوحيد؛ يأتي لبعض الناس يقول: الناس الآن سبقونا؛ اخترعوا الصواريخ، وصعدوا إلى القمر، ويخترعون ويخترعون، وأنتم مشغولون بالتوحيد!

والله! لو خلَونا من التوحيد لا خير فينا، لو اخترعنا من الاختراعات ما اخترعنا، ولو أصبحنا أقوى الأمم مثلنا مثل بقية الأمم؛ إن هم كالأنعام. وإذا حققنا التوحيد فنحن أقوياء بالله.

والله! لو حققت الأمة التوحيد وأظهرت السنة لخافت منها جميع الأمم.

ليست القوة للأمة بالأناشيد، وليست القوة للأمة بأن نترك ديننا من أجل أمور الدنيا؛ وإنما القوة للأمة: في تحقيق التوحيد، ولزوم السنة.

والله! لو رأى الأعداء أنّا على التوحيد وأنّا على السنة، نصطف في الصفوف في صلاة الفجر ونحن على التوحيد والسنة؛ لهابنا الأعداء، ثم في ضوء هذا نُعِدُّ ما استطعنا من قوة.

فشياطين الإنس والجن ما يريدون للأمة أن تقوى، ولذلك لا يريدون للأمة أن يظهر فيها التوحيد وحب التوحيد.

فأنا أقول: المسلم يختبر قلبه بهذه الأمور:

هل يحب أن يتعلم التوحيد؟ فإذا جاء الخطيب وخطب خطبة عن التوحيد قال: "الحمد لله، اليوم سمعنا خيرًا عظيمًا من شيخنا؛ علَّمنا التوحيد"؛ هذا قلب حي. أو أنه –والعياذ بالله– قال: "الشيخ هذا ما عنده إلا توحيد توحيد"؛ هذه علامة سوء في القلب.

هل نحقق التوحيد؟ ويكون عملنا بالتوحيد ألذّ عندنا من الماء البارد على العطش وأحسن عندنا من جمع الأموال كلها، أو لا؟

هل نحذر ونخاف من الشرك وندعو الله أن يجنِّبنا الشرك، أو لا؟

هل ندعو إلى التوحيد لا سيَّما إذا قامت الحاجة إلى ذلك ورأينا المشركين ورأينا من أخطأ الطريق وهو ينتسب إلى الإسلام لكنه يعلق قلبه بغير الله؛ يعلق قلبه بالشيخ أو بالقبر، أو لا؟

هل نصبر على ذلك أو أنه بمجرد ما قال الناس: وهابي! خِفْنَا؟

المؤمن الذي عرف حق الله يصبر على الدعوة إلى التوحيد ولو بقيَ واحدًا، لو بقيَ واحدٌ في القرية تركه الناس وابتعدوا عنه لأنه يدعو الناس إلى التوحيد؛ يبقى يدعو إلى التوحيد ويحقق التوحيد.

إذا كان يدرِّس؛ إذا درَّس التوحيد جاء عشرة، وإذا درَّس القصص جاء خمسون ألفًا، المؤمن يدرِّس التوحيد ولو كان عنده واحد، ويصبر ويفرح أنه يدرِّس التوحيد.

والله يا إخوة! أدركنا من مشايخنا هذا، شيخنا الشيخ عبد العزيز الشبل، رحمه الله رحمة واسعة، رجل من أتقياء الله، من الأتقياء الأزكياء، ولا نزكي على الله أحدًا، لكن عرفناه بالدين والعبادة ورقة القلب، كان الشيخ يدرّسني في المعهد الثانوي، وكان إذا ذكر الصحابة يبكي، رحمه الله رحمة واسعة، وموحِّد، رجل توحيد عجيب، وحافظ لكتاب الله، كان الشيخ بن صالح –رحمه الله– يقول: "ما أطمئن في صلاتي إلا إذا كان الشيخ الشبل خلفي"، يعني الشيخ

حافظ، وقد مات الشيخ –رحمه الله– في المسجد هنا، كان يدرّس هناك بعد الرِّواء، والله رأيته بعيني يا إخوة يدرّس ولا طالب موجود! جالس على الكرسي يدرِّس وليس هناك أحد جالس، لكن الشيخ يدرِّس، يدرِّس التوحيد حتى يفرغ، ويصلي العشاء خلف الإمام وينصرف، رحمه الله رحمة واسعة. وكذا رأينا بعض شيوخنا.

وذكر لي بعض طلاب الشيخ ابن عثيمين –رحمه الله– أنّ الشيخ في أوّل حياته كان يدرِّس ولا يأتِ أحد، فيأمر مؤذن المسجد أن يجلس معه، ويدرِّس الشيخ، لأنهم يدرِّسون لله لا للجماهير. وإذا فعل الإنسان ما عليه فالذي عند الله لله فيه حكمة.

بعض الناس –والعياذ بالله– يضحك عليه الشيطان يقول له: أنت إذا درَّست التوحيد ما يأتيك أحد، لكن إذا درّست الفقه ولا سيما إذا أخذت متنًا مالكيًا إذا كنت عند المالكية، أو متنًا حنفيًّا إذا كنت عند الحنفية، أو متنًا شافعيًّا إذا كنت عند الشافعية، أو متنًا حنبليًّا إن كنت عند الحنابلة، يحضر عندك كتير! وكله علم، درِّس الفقه، نعم لا شك أنّ الفقه خير وعلم، لكن ما يترك الإنسان تدريس التوحيد من أجل قلة الناس الذين يحضرون عنده. وهذه ثمرة معرفتنا بأهمية التوحيد.

ومن هنا تعرفون فقه شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب –رحمه الله– في تبويب هذا الكتاب وفي ترتيب هذا الكتاب، حيث بدأ بهذه الافتتاحية التي تجعل المؤمن يرتبط بالتوحيد ويحقِّق الأمور التي ذكرناها.

يا إخوة! ليس الشأن أن يعرفك الناس؛ وإنما الشأن أن تتعرَّف إلى الله.

كم من العلماء والمشايخ الذين عرفناهم وأدركناهم لا يعرفهم كثير من الناس؛ ولكن هم من خِيرة عباد الله علمًا وتعليمًا. مثل مَن ذكرتُ؛ شيخنا الشيخ عبد العزيز الشبل، شيخنا الشيخ عبد العزيز الشبل –رحمه الله– قد لا يعرفه كثير منكم، لكنه من العلماء والعبّاد الأبرار.

شيخنا الشيخ عبد الرحمن بن عبد العزيز الشبل، رحمه الله رحمة واسعة، شيخي وأستاذي، مات شابًا، رحمه الله، رجل داعية توحيد وعالم بالتوحيد، ومن عبّاد الله، لا أعرف أنه ترك صلاة الضحى، كان يتسلل بين الأشجار في كلية الشريعة ويصلي صلاة الضحى، رحمه الله رحمة واسعة.

كم من العلماء الأبرار لا تعرفونهم أنتم لكنّ الله يعلمهم!

فليس الشأن يا إخوة أن يعرفك الناس، ليس الشأن أن يكون عندك جمهور، ليس الشأن أن تكون مشهورًا.

والله! إنّ الشهرة قد تكون وبالًا على الإنسان، ولكنّ الشأن أن تتعرَّف إلى الله، وأن تكون من عباد الله الصالحين، المصلِحِين، المجتهدين في بذل ما يستطيعون لتقريب الناس إلى الله.

فيا طلاب العلم! لا تُهمنَّكم الشهرة، ولا تلتفتوا إلى أن يعرفكم الناس، وإنما احرصوا على أن تتعرفوا إلى الله، اعمروا ما بينكم وبين الله. وما زاد على ذلك فالأمر كله بيد الله، والله حكيم عليم.

قد يكون خيرك أن تموت وألا تُعرَف، قد تكون منزلتك العليا في الجنة بسبب أن تموت وأنت غير معروف. وقد تكون معرفة الناس بك سببًا للوبال عليك.

ولذلك؛ احرص على ما ينفعك، احرص على ما يرفعك؛ وهو: أن تتعرف إلى الله سبحانه وتعالى، وأن تفعل ما يرضي الله، وإذا علمتَ أنّ هذا يرضي الله حرصتَ عليه، مع الرفق بالناس، والأدب مع الناس، أمّا أن يرضى عنك الناس فهذا الأمر إلى الله، والله حكيمٌ عليمٌ.

لعلنا نقف هنا ثم نشرح المسائل بحول الله وقوته ونجيب عن بعض أسئلة إخواننا. والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

الدرس الرابع: شرح مسائل مقدمة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

قد كنا شرحنا ما يتعلق بافتتاحية هذا الكتاب؛ وهي المتعلقة بأهمية التوحيد.

وبيّنا أنّ الشيخ –رحمه الله– بيّن أهمية التوحيد بوجوه:

الوجه الأوّل: أنه من أجل التوحيد خُلق الخلق، فخُلق الجن والإنس من أجل توحيد الله سبحانه وتعالى، وخُلقت المخلوقات من أجل توحيد الله سبحانه وتعالى، فخُلقت السماء والأرض وما فيها من أجل توحيد الله سبحانه وتعالى، من أجل أن يتعرف العبد بهذه المخلوقات على ربه سبحانه وتعالى، ويوحِّد الله سبحانه وتعالى، ومن أجل أن يستعين بما في الأرض على توحيد الله سبحانه وتعالى.

والوجه الثاني: أنّ الله –عز وجل– إنما بعث الرسل من أجل إقامة التوحيد ونبذ الشرك وأهله.

والوجه الثالث: أنّ التوحيد فرضٌ لازم، وهو أعظم الفرائض على الإطلاق، فما عُرِف فرض على الأرض أعظم من توحيد الله سبحانه وتعالى.

والوجه الرابع: أنّ التوحيد هو حق الله سبحانه وتعالى، فهو أشرف حق وُصِف.

والمؤمن إذا عرف هذا فإنه يهتم بالتوحيد اهتمامًا عظيمًا.

وقبل أن ننتقل إلى المسائل التي ذكرها الشيخ في آخر هذه الافتتاحية؛ أنبِّه إلى أنه تقدَّم معنا أثر ابن مسعود رضي الله عنه، وتكلمنا عن إسناده، وقد أفادني أحد الإخوة فائدة وتحققت منها، وعرفت وجودها، وأردتُ أن أفيدكم بها.

وذلك؛ أنه تبيّن أنّ الطبراني في المعجم الأوسط قد ذكر في الإسناد: داود الأودي مفسَّرًا بأنه: داود بن يزيد الأودي، وكذا في علل الترمذي، وهذا يقوِّي من قال إنّ الراوي هو داود بن يزيد الأودي.

وقد راجعتُ كلام أهل العلم في التراجم وزدتُ مراجعة ووجدتُ أيضًا أنّ من أهل العلم من ذكر أنّ داود بن يزيد الأودي يروي عنه أيضًا محمد بن فضيل، فيكون محمد بن فضيل يروي عن داود بن يزيد الأودي، ويروي عن داود بن عبدالله الأودي.

فيتحصَّل لنا في هذا الأثر من جهة إسناده ثلاثة احتمالات:

الاحتمال الأوّل: أن يكون الراوي المبهَم في معظم الكتب التي روت الأثر داود الأودي يكون هو داود بن يزيد الأودي، ويكون الأثر ضعيفًا؛ لضعف داود هذا.

والاحتمال الثاني: أن يكون الراوي هو داود بن يزيد الأودي، ولكن يكون الحديث حسنًا؛ لأنّ داود بن يزيد الأودي مقارِب الحديث؛ كما ذهب إلى ذلك الترمذي.

والاحتمال الثالث: أن يكون الراوي هنا هو: داود بن عبد الله الأودي، وهو ثقة؛ وإن ليّنه بعضهم ولم يُترَك كما قال الذهبي لكنه ثقة؛ فيكون الأثر صحيحًا؛ كما ذهب إليه بعض شرَّاح كتاب التوحيد، وبعض محققي كتاب التوحيد.

فهذه الاحتمالات القائمة في إسناد هذا الأثر. والأمر يحتاج إلى مزيد تحقيق، لا يحتمله هذا الشرح. فلعلنا إن شاء الله –عز وجل– إذا شرحنا الكتاب شرحًا موسعًا نبسط الكلام في إسناد هذا الأثر، ونحاول أن نصل إلى الراجح المتعيِّن من هذه الاحتمالات الثلاث.

ونواصل ما يتعلق بهذا الكتاب. فيتفضل الشيخ خليل –وفقه الله عز وجل– يقرأ لنا.

يقول الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتابه كتاب التوحيد:

[فيه مسائل: الأولى: الحكمة في خلق الجن والإنس]

نعم؛ هذه المسألة الأولى، وقد تقدمت، الحكمة من خلق الجن والإنس وقد بيّنها الله لنا؛ وهي: أن نوحِّده ونعرفه معرفةً تقودنا إلى التوحيد.

قال رحمه الله: [الثانية: أنّ العبادة هي التوحيد؛ لأنّ الخصومة فيه]

كما قلنا؛ إنّ العبادة هي التوحيد؛ فالتوحيد رأس العبادات وشرط العبادات، فلا تكون العبادة عبادة إلا مع التوحيد. وقد دلت على ذلك الأدلة.

والشيخ هنا قال: (لأنّ الخصومة فيه) خصومة الأنبياء جميعًا مع أممهم إنما كانت في توحيد الألوهية؛ فدلَّ ذلك على أنّ العبادة هي التوحيد، لأنّ الأنبياء جميعًا إنما أَمَروا بالعبادة واجتناب الطاغوت؛ فدلَّ ذلك على أنّ العبادة هي التوحيد.

قال رحمه الله: [الثالثة: أنّ مَن لم يأتِ به لم يَعبد الله؛ ففيه معنى: ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾]

انتبهوا لهذه المسألة فهي في غاية النفاسة؛ قال: (أنّ مَن لم يأتِ بالتوحيد لم يَعبد الله) وإن عبد الله أحيانًا؛ لكن ما دام أنه يشرك بالله –عز وجل– فإنه ما عَبَدَ الله أصلًا.

قال: (ففيه معنى: ﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾)، ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾، الله –عز وجل– يقول لنبيه –صلى الله عليه وسلم–: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ يا من عبدتم الأصنام ونحوها ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾، فهذه التي تعبدونها من دون الله لا أعبدها.

طيِّب؛ يقول قائل: هم أحيانًا يعبدون الله! نقول: لمّا كانوا لا يعبدون الله موحِّدين على الإطلاق؛ فإنهم ما عَبدوا الله أصلًا.

﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ فأنا أعبد الله، وأنتم لا تعبدون الله. طيِّب سبحان الله! هم يعبدون الله أحيانًا؟! نقول: هم يعبدون الله أحيانًا وهم مشركون به؛ كما قال الله عز وجل: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾[يوسف: الآية: ١٠٦]، فالمشركون في زمن النبي –صلى الله عليه وسلم– وإن عرفوا الله ووحَّدوا الله توحيد الربوبية ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾[يونس: الآية ٣١] كم تقدَّم معنا هم عرفوا الله لكنهم أشركوا بالله في ألوهيته.

بل المشركون في زمن النبي –صلى الله عليه وسلم– كانوا أحيانًا يوحِّدون الله سبحانه وتعالى، فإذا ركبوا في الفلك، ورأوا البحر، وخافوا، ورأوا أنه لا ينجيهم أحد؛ دعوا الله مخلصين له الدين.

إذا ركبوا في السفن ورأوا أنه ما لهم قوة –مثل الذين يركبون في الطائرة، إذا ركب في الطائرة وأغلق عليه هذا الصندوق، ما بقي له شيء– إذا رأوا ذلك دعو الله مخلصين له الدين، إذن وحَّدوا الله هنا في هذا المقام، فلمّا نجاهم إلى البر ورجعوا إلى قومهم ورأوا قوتهم؛ إذا هم يشركون.

إذن؛ هؤلاء كانوا يوحِّدون الله أحيانًا ومع ذلك قال لهم النبي –صلى الله عليه وسلم–: ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ لماذا؟ لأنهم وإن عبدوا الله حينًا لكنهم يشركون بالله.

فمَن لم يعبد الله موحِّدًا لله على الإطلاق فإنه ليس عابدًا لله سبحانه وتعالى.

ولذلك يا إخوة؛ الذين يدعون غير الله سبحانه وتعالى –ودعاء غير الله شرك أكبر يُخرِج من الملَّة– الذين يدعون غير الله عز وجل فإنهم وإن وحَّدوا في صلاتهم أو صيامهم أو نحو ذلك لا يكونون عابدين لله حتى يَتخلّصوا من هذا الشرك ويوحِّدوا الله توحيدًا مطلَقًا.

إذن؛ هذه المسألة نافعة جدًا يا إخوة؛ وهو أنّ التوحيد لابد أن يكون على الأطلاق، التوحيد ما يقبل التجزئة، توحيد الله في عبادته ما يقبل التجزئة، بل لا بد أن يكون موحِّدًا لله على الإطلاق وإلا ما كان عابدًا لله سبحانه وتعالى.

قال رحمه الله: [الرابعة: الحكمة في إرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام]

كما تقدم معنا. نعم.

قال رحمه الله: [الخامسة: أنّ الرسالة عمَّت كل أمة]

نعم؛ يعني أنّ كل أمة قد جاءها رسول؛ ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولًا﴾، ﴿في كل﴾ و"كل" من أقوى ألفاظ العموم، ثم "كل" أُضيفت إلى نكرة، فيتأكد عمومها، إذن الرسالة عمَّت كل الأمم ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾.

وهذا ما جعل بعض أهل العلم يقولون: إنه لا يوجد زمن فترة؛ لأنه ما من أمة إلا وقد جاءها رسول.

لكنّ الصحيح أنّ هناك زمن فترة بين النبي –صلى الله عليه وسلم– ومن قبله وهو عيسى عليه السلام؛ ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ﴾[المائدة: الآية ١٩] ﴿عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ﴾: يعني على انقطاع من الرسل.

وقد صح عن النبي –صلى الله عليه وسلم– في الصحيح أنه قال: «أنا أولى الناس بعيسى بن مريم، إنه ليس بيني وبينه نبي» وهذا في الصحيحين؛ في صحيح البخاري وصحيح مسلم. إذن كان بين النبي –صلى الله عليه وسلم– وبين عيسى –عليه السلام– زمن فترة.

فزمن الفترة موجود؛ من زمن عيسى –عليه السلام– إلى زمن نبينا –صلى الله عليه وسلم–. أمّا قبل ذلك فإنّ الرسل كانت تترى وتَتَابع؛ فليس هناك فترة وانقطاع إلا من زمن عيسى –عليه السلام– إلى زمن نبينا –صلى الله عليه وسلم–، ولم يبقَ من الرسالة إلا بعض الأخبار التي تصل إلى الناس.

إذن؛ لا شك أنّ الرسالة عمَّت كل أمة، وأنه حصل فترة للرسل قبل رسولنا –صلى الله عليه وسلم–، والفترة: يعني الانقطاع والسكون، وهذا هو زمن الفترة.

وقد اختلف العلماء في طول هذه الفترة، فقال بعض أهل العلم: إنه ستمائة سنة، وقال بعضهم: إنه أقل، وقال بعضهم: إنه أكثر. لكن لا شك في وجود هذه الفترة.

قال رحمه الله: [السادسة: أنّ دين الأنبياء واحد]

نعم؛ لأنّ الله –عز وجل– قال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾؛ إذن دعوة الرسل واحدة، ودين الأنبياء واحد.

ولذلك؛ قال النبي –صلى الله عليه وسلم–: «أنا أولى الناس بعيسى بن مريم –عليه السلام– في الدنيا والآخرة، الأنبياء أخوةٌ لِعلّات»، لِعَلات: يعني لأم، والعَلات كما قال ابن حجر: الضرائر. فهم إخوة لأب، لأنهم من ضرائر

متعددات؛ ولذلك قال النبي –صلى الله عليه وسلم– : «أمهاتهم شتى، ودينهم واحد»؛ ما المقصود بالأمهات هنا؟ قال بعض أهل العلم: الأمهات يعني الأزمنة، أزمنتهم مختلفة ولكنّ دينهم واحد، أصل دينهم واحد؛ وهو: الأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك.

وقال بعض أهل العلم: المقصود بأمهاتهم: الشرائع. والدين: المقصود به الأصول؛ التوحيد والنهي عن الشرك.

والشاهد: قول النبي –صلى الله عليه وسلم–: «ودينهم واحد»، فدين الأنبياء واحد؛ وهو: الأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك.

قال رحمه الله: [السابعة: المسألة الكبيرة: أنّ عبادة الله لا تحصل إلا بالكفر بالطاغوت؛ ففيه معنى قوله: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾]

لابد من الأمرين:

- لا بد من الكفر بالطاغوت.
- والإيمان بالله.

حتى يكون الإنسان موحِّدًا؛ كما تقدّم معنا بيانه.

قال رحمه الله: [الثامنة: أنّ الطاغوت عامٌّ في كل ما عُبِد من دون الله]

أنّ الطاغوت عامٌّ في كل ما عُبد من دون الله. وشيخ الإسلام في بعض كتبه قيّد ذلك بقوله: "إن رضي بذلك"، ولا تَنافي بين الأمرين؛ فالطاغوت عامٌّ في كل ما عُبِد من دون الله بالنسبة للمتخِذ، فمَن اتخذ أحدًا يعبده من دون الله فقد اتخذه طاغوتًا؛ فيكون ظالمًا من جهتين:

١. يكون ظالمًا لأنه عبد غير الله؛ فأعطى غير الله حق الله.

٢. ويكون ظالمًا لمن اتخذه طاغوتًا؛ إن لم يكن طاغوتًا في حقيقته.

النصارى الذين يعبدون عيسى بن مريم –عليه السلام– ظلموا مرتين:

١. ظلموا لأنهم عبدوا غير الله.

٢. وظلموا عيسى –عليه السلام–؛ لأنهم اتخذوه طاغوتًا؛ مع أنه ليس طاغوتًا –عليه السلام– وإنما عبد الله ورسوله –عليه السلام–، كما سيأتينا إن شاء الله.

فهنا نقول: الطاغوت عامٌّ في كل ما عُبد من دون الله ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ فجُعِل الطاغوت في مقابل عبادة الله.

إذن؛ كل مَن عُبد مِن دون الله فهو طاغوت بالنسبة لاتخاذه، بالنسبة لمتخِذه.

أمّا تقييدها بأنه "إن رضي" فهذا بالنسبة لذاته، لا يكون طاغوتًا إلا إذا أمر بعبادته أو رضي بعبادته.

وبعض أهل العلم يزيد: أو لم يكره أن يُعبَد. وبعض أهل العلم لا يزيد هذا.

قال رحمه الله: [التاسعة: عظم شأن ثلاث الآيات المحكمات في سورة الأنعام عند السلف. وفيها عشر مسائل: أولها: النهي عن الشرك]

نعم؛ هذه الآيات العظيمة فيها معالي الأمور؛ ففيها عشر مسائل:

المسألة الأولى: النهي عن الشرك.

المسألة الثانية: الوصية بالوالدين.

والمسالة الثالثة: النهي عن قتل الولاد.

وهنا يا إخوة فائدة عظيمة؛ وهي: أنّ قتل الأولاد خشية الفقر حرام مرتين:

١. أنه قتل.

٢. وأنّ فيه إساءة الظن بالله سبحانه وتعالى.

فإنّ الله –عز وجل– وعد وعدًا لا بد منه؛ وهو: أن يرزق الآباء مع أبنائهم، أو يرزق الأبناء مع آبائهم.

ولذلك يا إخوة؛ يَحرُم تحديد النسل خوفًا من الفقر؛ لأنّ فيه إساءة ظن بالله وردًّا لكلام الله سبحانه وتعالى.

والنبي –صلى الله عليه وسلم– سئل عن العزل فقال: «ذلك الوأد الخفي»، فذهب المحققون من أهل العلم إلى أنّ هذا يدل على كراهية العزل؛ لأنه ثبت أنهم كانوا يعزلون في زمن النبي –صلى الله عليه وسلم–، لكن إذا كان العزل وتحديد النسل خوفًا من الفقر فهذا حرام، لأنّ فيه إساءة ظن بالله سبحانه وتعالى وردًّا لكلامه.

ورابعها: النهي عن قربان الفواحش.

ونهانا الله عن قربان الفواحش؛ لأنّ من اقترب من الفاحشة أوشك أن يقع فيها، والسلامة لا يعدلها شيء. فنهانا الله عن قربان الفواحش.

ولذلك؛ المشروع لنا يا إخوة أن نبتعد عن الفواحش وأن نبتعد عن أهلها، والفواحش هنا: هي الذنوب، فنبتعد عن الذنوب.

وخامسها: النهي عن قتل النفس المعصومة إلا بالحق.

وسادسها: النهي عن قربان مال اليتيم؛ إلا بالتي هي أحسن.

وسابعها: الوفاء بالكيل والميزان.

وثامنها: الأمر بالعدل.

وتاسعها: الأمر بالوفاء بالعهد.

وعاشرها: الأمر باتباع صراط الله المستقيم، واجتناب السبل المفرِّقة. وكل ما خالف صراط الله المستقيم فهو من السبل المفرِّقة التي تدعو إليها شياطين الإنس والجن.

قال رحمه الله: [العاشرة: الآيات المحكمات في سورة الإسراء وفيها ثمانية عشر مسألة؛ بدأها الله بقوله: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾، وختمها بقوله: ﴿وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إلها آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾، ونبهنا الله سبحانه على عظم شأن هذه المسائل بقوله: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾]

نعم؛ العاشرة: الآيات المحكمات في سورة الإسراء، وفيها قال: (ثمانية عشر مسألة)، كذا في الأصول، والصواب: ثماني عشرة مسألة؛ لأنه من ثلاثة إلى تسعة تخالف المعدود؛ و"مسألة" هنا مؤنث؛ فيقال: ثماني عشرة مسألة.

وهذه الثماني عشرة مسألة أكثرها مشترك مع المسائل العشر المتقدمة، وفيها زيادة تظهر بقراءة الآيات، لكن هنا فائدة؛ وهي: أنّ الله عز وجل بدأ هذه

المسائل بالنهي عن الشرك وختمها بالنهي عن الشرك، فسوَّرها بالتوحيد؛ فدل ذلك على أنها لا تنفع إلا بالتوحيد.

قال رحمه الله: [الحادية عشر: آية سورة النساء، التي تسمى: آية الحقوق العشر. بدأها الله تعالى بقول: ﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾]

نعم؛ الحقوق العشرة في هذه الآية هي:

الأول: حق الله، ويتضمن حق النبي، صلى الله عليه وسلم.

الثاني: حق الوالدين.

الثالث: حق ذوي القربى.

والرابع: حق اليتامى.

الخامس: حق المساكين.

السادس: حق الجار القريب. والقريب هنا يا إخوة وصفٌ عام؛ يشمل: قرب النسب، وقرب المكان. الجار القريب نسبًا؛ عمك، ابن عمك، خالك. والقريب مكانًا؛ فيكون بيته ملاصقًا لبيتك.

السابع: حق الجار ذي الجنب؛ وهو الجار البعيد نسبًا أو مكانًا. جارك له حق، ولو لم يكن قريبًا لك، ولو لم يكن من قبيلتك، ولو لم يكن من دولتك، بل

حتى لو لم يكن على دينك، له حق، ما دام له الحق في السكنى بجوارك فله حق الجوار، ولذلك كان ابن عمر –رضي الله عنهما– إذا ذبح شاة يتصدق بها أوّل ما يسأل يقول: أهديتم لجارنا اليهودي؟ لأنه قد يُغفَل عنه. فالجار البعيد لعدم قرابته أو لعدم إسلامه وله الحق في السكنى فإنّ له حقًّا.

وكذلك الجار البعيد في المكان، ليس ملاصقًا لبيتك ولكنه يُعدُّ من جيرانك؛ فله حق.

الثامن: حق الزوجة.

التاسع: حق ابن السبيل.

العاشر: حق ملك اليمين.

قال رحمه الله: [الثانية عشر: التنبيه على وصية رسول الله –صلى الله عليه وسلم– عند موته]

كما في أثر ابن مسعود.

قال رحمه الله: [الثالثة عشر: معرفة حق الله علينا]

وهو أن نعبده ولا نشرك به شيئًا.

قال رحمه الله: [الرابعة عشر: معرفة حق العباد عليه إذا أدَّوا حقه]

وهو أنّ الله تفضَّل فجعل على نفسه حقًّا: ألا يُعذِّب مَن وحَّده فعَبَدَه ولم يُشرِك به شيئًا.

قال رحمه الله: [الخامسة عشر: أنّ هذه المسألة لا يعرفها أكثر الصحابة]

نعم؛ لأنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– إنما أخبر بها معاذًا؛ وقال: (أفلا أبشر الناس؟ قال: «لا»؛ مخافة أن يتكلوا) فدل ذلك على أنّ أكثر الصحابة ما كان يعرف هذه المسألة.

قال رحمه الله: [السادسة عشر: جواز كتمان العلم للمصلحة]

الأصل أنه لا يجوز كتمان العلم، لكن يجوز كتمانه أحيانًا، فيجوز كتمانه للمصلحة؛ على أن يُبذَل في غير هذا الموطن.

قال رحمه الله: [السابعة عشر: استحباب بشارة المسلم بما يسره]

وهذه من الآداب؛ أن تبشِّر المسلم بما يسرُّه، فإذا بلغك خبر يسرُّ المسلم فمِن الأدب أن تعاجِله به؛ لتُدخل السرور على قلبه؛ فتنال ثواب ذلك، والعكس بالعكس، إذا علمتَ خبرًا يغمُّه وليس في مصلحته أن تعاجِل بإخباره به؛ فالمستحب ألا تَعجَل به.

بعض الناس إذا سمع خبرًا يغم إنسانًا بادَر بإخباره به، وهذا يخالف الأدب؛ إلا إذا كانت المصلحة تقتضي أن يبادَر بإخباره به.

فمن الأدب أنك إذا سمعتَ خبراً عن أخيك وهذا الخبر يُدخِل الغم إلى قلبه ألا تَعجل به وألا تخبره به؛ إلا إذا وجدتَ أنّ مصلحته في أن تخبره بهذا الخبر.

قال رحمه الله: [الثامنة عشر: الخوف من الاتكال على سعة رحمة الله]

لا شك أنّ رحمة الله واسعة؛ لكنّ الخوف من الاتكال عليها وترك العمل بسبب ذلك، فإنّ رحمة الله واسعة لا شك فيها، وإنما يكتبها الله –عز وجل– للمتقين. فالاتكال على سعة رحمة الله وترك العمل والسعي لإرضاء الله –سبحانه وتعالى– غرور.

قال رحمه الله: [التاسعة عشر: قول المسؤول عما لا يعلم: الله ورسوله أعلم]

إذا سُئل الإنسان عما لا يَعلَم.

أمّا في زمن النبي –صلى الله عليه وسلم– فقالوا: إنّ الأمور تنقسم إلى قسمين:

القسم الأوّل: الأمور الشرعية. وهنا يقال: الله ورسوله أعلم.

القسم الثاني: الأمور الغيبية. والرسول –صلى الله عليه وسلم– لا يعلم الغيب، وهنا يقال: الله أعلم. ويصح أن يقال: الله ورسوله أعلم؛ باعتبار الخبر،

يعني إذا أوحى الله -عز وجل- إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- بالأمور الغيبية أصبح النبي -صلى الله عليه وسلم- أعلم بها. أمّا من جهة الإطلاق فالنبي -صلى الله عليه وسلم- لا يعلم الغيب إلا إذا أطلعه الله سبحانه وتعالى.

ولكنّ المسألة فيما كان بعد موت النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ هل يقال: الله ورسوله أعلم أو يقال: الله أعلم؟

قال العلماء:

- **إنّ السؤال هنا إمّا أن يكون عن أمر شرعي واقع**؛ وهنا يقال: الله ورسوله أعلم.

-**وإمّا أن يكون عن أمر شرعي نازِل الآن، ما كان في زمن النبي -صلى الله عليه وسلم-**، كأن يُسأل الإنسان مثلًا: هل يجوز أن يقود الإنسان السيارة من جهة اليمين أو من جهة الشمال؟ هذه السيارة نازلة الآن، ما كانت موجودة، وكونه يقود من جهة اليمين أو من جهة الشمال هذه نازلة؛ فهل يقول: الله ورسوله أعلم؟ أو يقول: الله أعلم؟

- بعض أهل العلم يقول: يقول: الله أعلم.

- وبعض أهل العلم يقول: يجوز أن يقول: الله ورسوله أعلم؛ **باعتبار أنّ هذا حكم شرعي**؛ والأحكام الشرعية عُلِمت للنبي -صلى الله عليه وسلم-

تأصيلًا وتفصيلًا، يعني إمّا على جهة الإجمال، وإمّا على جهة التفصيل، وما دام أنه حكم شرعي فيجوز أن يقول: الله ورسوله أعلم.

وأمّا غير الأمور الشرعية فلا يجوز أن يقال: الله ورسوله أعلم، في النوازل التي وقعت بعد موته –صلى الله عليه وسلم–؛ وإنما يقال: الله أعلم؛ يقينًا، ولا يجوز أن يقال: "الله ورسوله أعلم" فيما يتعلق بغير الأحكام الشرعية مما وُجِد بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم.

قال رحمه الله: [العشرون: جواز تخصيص بعض الناس بالعلم دون بعض]

هذا تكلمنا عنه.

قال رحمه الله: [الحادية والعشرون: تواضعه –صلى الله عليه وسلم– لركوبه الحمار مع الإرداف عليه].

هذا تكلمنا عنه.

[الثانية والعشرون: جواز الإرداف على الدابة]

نعم؛ بشرطين:

١. أن تطيق ذلك.

٢. أن تكون مما يُركَب.

يجوز أن تُركب الدابة إذا كانت من الدواب التي تُركب، أمّا إذا كانت من الدواب التي لا تُركب ولم تُخلَق للركوب فلا يجوز الركوب عليها.

والشرط الثاني: أن تكون مطيقة لذلك؛ فيجوز الركوب عليها إذا أطاقت، يجوز أن يركب عليها واحد إذا كانت مطيقة، يجوز أن يركب عليها اثنان إذا كانت مطيقة، يجوز أن يركب عليها ثلاثة إذا كانت مطيقة، يجوز أن يركب عليها أربعة إذا كانت مطيقة.

أمّا إذا لم تكن مطيقة فلا يجوز الركوب عليها، لو كانت لا تطيق من ضعفها ركوب واحد، إذا ركب عليها بَرَكَت ما تستطيع؛ ما يجوز الركوب عليها. إذا كانت لا تطيق أن يركب عليها اثنان فلا يجوز أن يركب عليها اثنان.

والأحاديث الواردة في منع ركوب الثلاثة على الدابة كلها ضعيفة، ولو صحت لحُمِلت على إذا كانت لا تطيق ذلك؛ لأنه ثبت عن النبي –صلى الله عليه وسلم– أنه أردف اثنين على الدابة فكانوا ثلاثة؛ النبي –صلى الله عليه وسلم– ومَن أردفهما. فيُحمَل ذلك على إذا ما كانت مطيقة، والنهي –لو صح– يُحمَل على إذا كانت لا تطيق ذلك.

قال رحمه الله: [الثالثة والعشرون: فضيلة معاذ بن جبل رضي الله عنه]

كما قلنا؛ كان النبي –صلى الله عليه وسلم– يحبه، ويقول: «يا معاذ والله إني لأحبك»، وقال: «يُحشَر معاذ قبل العلماء برتوة» كما تقدم معنا.

قال رحمه الله: [الرابعة والعشرون: عظم شأن هذه المسألة]

وفي بعض الأصول: (عظم شأن هذه المسائل)، فقوله: عظم شأن هذه المسائل: أي المسائل التي ذكرها هنا. وقوله: عظم شأن هذه المسألة: أي تحقيق التوحيد وأهمية التوحيد.

تابع الدرس الرابع: شرح بابٌ: فضل التوحيد وما يكفِّر من الذنوب

قال رحمه الله تعالى: [بابٌ: فضل التوحيد وما يكفِّر من الذنوب]

قال: بابٌ، أو بابُ، (بابُ فضل التوحيد وما يكفِّر من الذنوب). والمقصود بهذا الباب يا إخوة: بيان أنّ التوحيد أعظم أسباب دخول الجنة بفضل الله، وأنه أعظم أسباب النجاة من النار.

فالتوحيد أعظم أسباب دخول الجنة بفضل الله، لا شك يا إخوة أنه لن يدخل أحد الجنة بعمله، وإنما تُدخل الجنة بفضل الله، لكن من فضل الله أنه جعل لدخول الجنة أسبابًا، جعل لنيل فضل الله بدخول الجنة أسبابًا؛ وأعظم أسباب دخول الجنة هو التوحيد، بل كل سببٍ رُتِّب عليه دخول الجنة لا يكون سببًا لدخول الجنة إلا مع التوحيد.

فالسنن الرواتب مَن أتى بهن فإنه موعود بدخول الجنة؛ لكنها لا تكون سببًا لدخول الجنة إلا مع التوحيد؛ وإلا ما كانت عبادة لله سبحانه وتعالى.

إذن؛ التوحيد يا إخوة هو أعظم الأعمال الصالحة، وشرط صلاح الأعمال. أعظم الأعمال الصالحة: التوحيد، وشرط صلاح الأعمال: التوحيد.

فلا بد في صلاح الأعمال من التوحيد. والأعمال الصالحة هي أسباب دخول الجنة بفضل الله سبحانه وتعالى.

كما أنّ التوحيد سبب للنجاة من النار؛ وذلك لوجهين:

الوجه الأوّل: أنّ التوحيد ثقيل في الميزان. والمعلوم يا إخوة أنّ أعمال العبد توزَن يوم القيامة. ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ* وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَـئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُم﴾[الأعراف: الآية ٨-٩].

فالأعمال توزَن يوم القيامة، والتوحيد عملٌ ثقيل. فلو كان على الإنسان سيئات وُزِنت في كفة السيئات، وهو موحِّد، ووُزنت أعماله الصالحة في كفة الصالحات، ترجّحت كفة الصالحات بالتوحيد. وهذا سيأتي –إن شاء الله– له قيد نذكره. هذا الوجه الأوّل؛ وهو ما يُسمى بالرُّجحان، النجاة من النار بالرُّجحان، برُجحان كفة الأعمال الصالحة.

والوجه الثاني: أنّ التوحيد تُكفَّر به الذنوب. والذنوب هي سبب دخول النار، فإذا كُفِّرت الذنوب سلِم الإنسان من دخول النار ابتداءً أو من الخلود فيها إن دخلها؛ كما سيأتي بيانه إن شاء الله.

إذن؛ المقصود بفضل التوحيد: أنه سبب للفوز بالجنة، وسبب للنجاة من النار.

إذن؛ هو سبب الفوز؛ فإنّ الفوز إنما هو بدخول الجنة والنجاة من النار. جعلني الله وإياكم من أهل هذا المقام.

[وقول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمْ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾]

نعم؛ في قصة إبراهيم –عليه السلام– مع قومه؛ قال –تعالى– عن إبراهيم –عليه السلام–: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ۚ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[الأنعام: الآية ٨١] جاء الجواب: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمْ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾.

﴿الذين آمنوا﴾ أي: الذين وحَّدوا. ﴿ولم يلبسوا﴾: أي لم يخلطوا. ﴿إيمانهم بظلم﴾: الظلم هنا هو الشرك. الذين آمنوا ولم يخلطوا توحيدهم ﴿بظلم﴾ أي: بشرك؛ بكل أنواع الشرك، لا بالشرك الأكبر، ولا بالشرك الأصغر، ولا بالشرك الخفي.

ما الدليل على أنّ الظلم هنا هو الشرك؟ ما رواه البخاري في الصحيح؛ أنه لمّا نزلت هذه الآية: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمْ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾، قال إصحاب رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: أيُّنا لم يظلم؟ –كلنا يظلم؛ أقلنا مَن يظلم نفسه– فأنزل الله: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

إذن؛ في هذه الرواية في صحيح البخاري أنّ الله فسَّر لهم الظلم بأنه الشرك بإنزال هذه الآية ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾. إذن؛ بيَّن لهم أنّ الظلم هنا هو: الشرك.

وفي الصحيحين؛ أنه لمّا نزلت هذه الآية؛ قال الصحابة –رضوان الله عليهم–: يا رسول الله! أيُّنا لا يظلم نفسه؟ قال: «ليس كما تقولون؛ ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾: بشرك، ألم تسمعوا إلى قول لقمان لابنه: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾». وفي هذه الرواية في الصحيحين أنّ الذي فسَّر لهم هو النبي صلى الله عليه وسلم.

ولا ما نع من الأمرين: أنّ الله أنزل هذه الآية ليبيّن لهم معنى الظلم، وبيَّن لهم النبي –صلى الله عليه وسلم– ذلك، فيكون اجتمع هنا: بيان الله لهم المراد بالظلم هنا، وبيان النبي صلى الله عليه وسلم.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمْ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ طيِّب؛ الأمن هنا ما المراد به؟

قال كثير من أهل العلم: المراد به الأمن يوم القيامة، الأمن من عذاب الله يوم الفزع الأكبر، وهذا أعظم أمن ولا شك.

﴿وهم مهتدون﴾ قالوا: في الدنيا. فوصْفُهم في الدنيا: أنهم مهتدون، وجزاؤهم في الآخرة: أنّ لهم الأمن.

لكنّ التحقيق: أنّ لهم الأمن في الدنيا والآخرة، وأنهم مهتدون في الدنيا والآخرة.

﴿فلهم الأمن﴾ في الدنيا، ما هو الأمن في الدنيا؟ هو طمأنينة القلب. فالمؤمن الموحِّد لا يخاف في الدنيا خوف السر، لا يخاف من غير الله أن يضره من دون الله، فهو موحِّد، آمن، قلبه مطمئن؛ ويدل لذلك: ما جاء في الآية التي قبلها: ﴿وكيف أخاف ما أشركتم﴾؛ وهذا أين؟ في الدنيا.

إذن؛ المقصود: أنّ المؤمن له طمأنينة القلب في الدنيا، فلا يخاف خوف السر من أحد.

الذين لا توحيد عندهم أو عندهم ضعف في التوحيد يخافون خوف السر من غير الله سبحانه وتعالى، يخافون من الناس، يخافون من الجن، يخافون من الشياطين، إذا جاء إنسان وقال: هذا الذي يُعبد من دون الله لا يملك نفعًا ولا ضرًّا وعبادته من دون الله شرك؛ قالوا له: اسكت، يضرك! إذا قال: لا تعبدوا الجن ولا تتقربوا إليهم؛ قالوا: اسكت؛ يضرك! إذا قال: الساحر كافر دجال لا

خير فيه؛ قالوا: اسكت؛ يضرك! وهم في بيتهم! يخافون أنّ الساحر أو الكاهن يضرهم أو ينفعهم! هذا خوف السر.

أمّا الموحِّد آمن، ما يخاف إلا من الله سبحانه وتعالى.

﴿فلهم الأمن﴾ فالأمن في الدنيا حقيقته: أمن القلوب، مَن لم يأمن قلبه فليس بآمن.

ما دام أنّ الخوف في القلب؛ والله! لو اجتمع جنود الأرض حول إنسان حصل الخوف في قلبه ما حصل له الأمن.

لكن مَن رزقه الله الأمن في القلب فهو الآمن حقيقة. وهذا معنى قول بعض السلف: "إنّا لفي أمر لو علمت به الملوك لجالدونا عليه بالسيوف"؛ وهو طمأنينة القلب ونعيمه. القلب فيه الأمن بالتوحيد، وفيه النعيم بعبادة الله سبحانه وتعالى.

فلهم الأمن في الدنيا، ولهم الأمن في الآخرة؛ الأمن التام؛ وهو الأمن من عذاب الله. وسنعلق على هذا الآن إن شاء الله.

﴿وهم مهتدون﴾ أيضًا في الدنيا والآخرة. مهتدون في الدنيا إلى ما يرضي الله، ومهتدون في الآخرة إلى ما يرضيهم به الله.

المؤمن في الدنيا يا إخوة يسعى إلى إرضاء الله، والله في الآخرة يعطيه ما يرضيه. فهم مهتدون في الدنيا إلى ما يرضي الله؛ بتوحيده سبحانه وتعالى. ومهتدون في الآخرة إلى ما يرضيهم به الله سبحانه وتعالى.

إذن؛ الأمن للموحِّدين في الدنيا والآخرة، والهداية للموحِّدين في الدنيا والآخرة.

وهذا الأمن والهداية بمقدار ما يكون من التوحيد.

-**فقد يكون للإنسان الأمن التام**؛ إذا حقق التوحيد بالصورة التي نذكرها إن شاء الله.

- **وقد يكون له نوع الأمن**، وليس الأمن التام؛ وذلك إذا حصل نقص في توحيده.

فمثلًا؛ يوم القيامة كلُّ مؤمن عنده إيمان آمِنٌ من عذاب الخلود، لكن ليس كل مؤمن آمنًا من عذاب الدخول.

العذاب نوعان:

١. عذاب خلود؛ وهو الخلود في النار والعياذ بالله، كل مؤمن عنده إيمان آمن من عذاب الخلود، لا يوجد مؤمن يخلَّد في النار.

٢. عذاب الدخول، وهذا من المؤمنين مَن يكون آمِن منه أيضًا؛ فلا يدخل النار وإنما يرِدُها بالمرور على الصراط. ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾[مريم: الآية ٧١] يعني يمرّ على الصراط.

ومن المؤمنين مَن يدخل النار فلا يكون آمنًا من دخول النار؛ لنقصٍ فيه، ونقصٍ في توحيده؛ ولكنه لا يُخلَّد في النار؛ كما دلت عليه الأدلة.

[عن عبادة بن الصامت –رضي الله عنه– قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: «مَن شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنّ محمدًا عبده ورسوله، وأنّ عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق، والنار حق؛ أدخله الله الجنة على ما كان من العمل» أخرجاه]

هذا الحديث العظيم قال فيه النبي –صلى الله عليه وسلم: «مَن شهد»، ومعنى «مَن شهد»: مَن تيقن بقلبه، وأقرّ بلسانه، وحقَّق بعمله؛ هذه الشهادة.

لا بد أن يتيقن بقلبه، أمّا إذا قالها بلسانه ولم يتيقن بقلبه فهذا قول المنافقين، وقد كذَّبهم الله في هذا، فهم لا يشهدون أن لا إله إلا الله وأنّ محمدًا رسول الله. فلا بد من يقين القلب.

ولا بد من نطق اللسان لمَن كان قادرًا، أمّا الذي لا يستطيع أن يتكلم فلا يُشترَط.

ولا بد من تحقيق العمل؛ فإنّ لا إله إلا الله مفتاح الجنة، والمفتاح له أسنان لا بد منها، فلا بد من تحقيق العمل.

ولفظ الشهادة هنا «مَن شهد» فيه فائدة؛ وهي: أنّ هذه الشهادة لا بد أن تُبنى على العلم؛ لأنّ الشهادة شرعًا شرطها: أن تُبنى على العلم ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[الزخرف: الآية ٨٦]؛ فلابد من العلم؛ ولذلك قال الله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾[محمد: آية ١٩]، فلابد في الشهادة من العلم.

«مَن شهد أن لا إله إلا الله» أي: لا معبود بحق إلا الله. لا إله: يعني لا معبود، ولكن لابد من زيادة "بحق"؛ لأنه توجَد آلهة؛ ناس يعبدون الشجر، وناس يعبدون النار، وناس يعبدون بوذا؛ لكن كلها بغير حق، لا معبود بحق إلا الله.

«وحده لا شريك له» لا إله إلا الله يا إخوة ركناها: النفي والإثبات.

وهنا "وحده": تأكيد لركن الإثبات؛ وهو أنّ الله هو المعبود المستحق للعبادة –سبحانه وتعالى– وحده.

و"لا شريك له": تأكيد للنفي؛ فلا معبود بحق إلا الله، فلا شريك لله سبحانه وتعالى.

«وأنّ محمدًا عبده ورسوله» تأمل هنا وقف: «وأنّ محمدًا» –صلى الله عليه وسلم– «عبده» عبد الله؛ هذا تشريف للنبي –صلى الله عليه وسلم–، فهذه الإضافة للتشريف، «ورسوله»، فالنبي –صلى الله عليه وسلم– عبدٌ لا يُعبَد، ورسولٌ لا يُكذَّب.

النبي –صلى الله عليه وسلم– يا إخوة عبدٌ شريف، شرَّفه الله بالرسالة، فهو عبدٌ لا يُعبَد، فلا يُدعى من دون الله، ولا يُستغاث به، ولا يُنذَر له –صلى الله عليه وسلم–. وهو رسولٌ لا يُكذَّب صلى الله عليه وسلم.

وفي هذا ردٌّ على طائفتين:

١. ردٌّ على الغلاة.

٢. وردٌّ على الجفاة.

على الغلاة؛ الذين يرفعون النبي صلى الله عليه وسلم فوق منزلته، ويجعلون له ما لله سبحانه وتعالى، ويقولون –عياذًا بالله مما يقولون–: إنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– يملك الدنيا والآخرة، ويعطي الدنيا والآخرة لمن يشاء، وأنه يعلم الغيب، وأنه لا نجاة لأحد يوم القيامة إلا بفضله! ما تركوا شيئًا لله إلا جعلوه لرسول الله –صلى الله عليه وسلم–، وخالفوا ما جاء به رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، ووقعوا فيما نهى عنه رسول الله –صلى الله عليه وسلم–.

هؤلاء الغلاة، فلم يجعلوه عبدًا لله؛ وإنما جعلوه شريكًا لله. تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا.

وفيه ردٌّ على الجفاة؛ الذين يُنزلون النبي –صلى الله عليه وسلم– عن منزلته، فمنهم من يقول اليوم: أحاديث النبي –صلى الله عليه وسلم– مثل كلام البشر نقبل منها ما يوافق عقولنا ونردّ ما يخالف عقولنا، لأنه مثله مثل غيره، كلامه مثل كلام غيره، لا مزيّة له! هؤلاء جفاة، والعياذ بالله.

كذلك؛ الذين يرفعون بعض الناس فوق النبي –صلى الله عليه وسلم–، كبعض الذين يرون أنّ شيوخهم وشيوخ طرقهم فوق النبي –صلى الله عليه وسلم–؛ كما يقول قائلهم:

مقام الولاية في برزخ فويق الرسول ودون النبي

فالأعلى عندهم هو الولي ثم الرسول ثم النبي! فيجعلون الولي –والعياذ بالله– فوق رسول الله صلى الله عليه وسلم! هؤلاء جفاة في حق رسول الله صلى الله عليه وسلم، غلاة في حق شيوخهم.

أمّا أهل الإيمان الذين يسيرون في طريق الجنة؛ فيشهدون أنّ محمدًا –صلى الله عليه وسلم– عبد الله، فهو عبدٌ لا يُعبَد، ولا يُجاوَز به حدَّه صلى الله عليه وسلم.

ورسولٌ لا يُكذَّب، فلا يوجد مؤمن يعرف حق النبي صلى الله عليه وسلم يقول النبي صلى الله عليه وسلم بشر كالبشر، هو بشر شرّفه الله بالرسالة صلى الله عليه وسلم، هو سيد ولد آدم صلى الله عليه وسلم. فهذا هو الطريق الصحيح طريق الجنة: أن نشهد أنّ محمدًا عبد الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

«وأنّ عيسى عبد الله ورسوله» فعيسى –عليه السلام– نشهد أنه عبد الله وأنه رسول الله، فهو رسول لله، وعبد لله.

وفي هذا أيضًا ردٌّ على الغلاة والجفاة في حق عيسى عليه السلام.

الغلاة: النصارى؛ الذين يقولون إنّ عيسى –عليه السلام– ابن الله، وأنه ثالث ثلاثة! وبعضهم يقول: خُلِق منه الخلق.

والجفاة: اليهود –قبّحهم الله– الذين يقولون: إنّ عيسى عليه السلام – وأعوذ بالله مما قالوا– يقولون: إنه ابن زنى، وأنه يستحق القتل، ويزعمون أنهم صلبوه، وما صلبوه. فهؤلاء الجفاة.

نشهد أنّ عيسى –عليه السلام– عبد الله، فليس ولدًا لله، ولا له شرك أبدًا.

«ورسوله» فهو رسول من رسل الله. والمسلمون هم الأمة الوحيدة التي تؤمن بجميع الرسل، لكنّ الذي يُتَّبع هو رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولذلك عيسى –عليه السلام– إذا نزل في آخر الزمان سيحكم بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم.

وفي رواية عند مسلم: «وأنّ عيسى عبد الله ورسوله وابن أمته»، «ابن أمته» فليس ابنًا لله.

«وكلمته» عيسى –عليه السلام– من البشر، عاش عيشة البشر، كان يأكل الطعام عليه السلام، فهو ليس كلمة؛ وإنما هو بشريّ.

إذن؛ ما معنى «وكلمته» هنا؟ معناه: أنه خُلِق بالكلمة؛ وهي: "كن".

فعيسى –عليه السلام– اختُصَّ عن سائر البشر بجزء مما اختُص به آدم في خلقه.

آدم –عليه السلام– خُلق بالكلمة "كن"؛ فيكون، ولكنه خُلق من تراب.

أمّا عيسى –عليه السلام– فخُلق بالكلمة "كن"؛ فكان، ولكنه خُلق في رحم أمه، فاختُص بجزءٍ مما اختُصَّ به آدم –عليه السلام– في خلقه، ما أحدٌ شارَك عيسى –عليه السلام– في هذا من البشر، وهو هذا الاختصاص بهذا الجزء مما اختُص به آدم –عليه السلام– في خلقه.

إذن؛ «وكلمته» أي: أنه خُلِق بالكلمة "كن"؛ فيكون.

«ألقاها إلى مريم» فخُلق في رحم مريم عليها السلام، وليس كما يقول الدجالون النصارى، دجالون النصارى في كتبهم المحرَّفة يقولون: إنّ عيسى –عليه السلام– جاء إلى مريم فاستأذنها، فأذنت له، فدخل، يعني ما خُلق في رحمها بل كان مخلوقًا خارج ذلك؛ لأنهم يقولون: إنه ابن الله!– تعالى الله علوًّا كبيرًا– يقولون: هذا من أدبه! فدخل –انظروا الخرافة وضعف العقل – قالوا: وفَرَشَ –فرش في الرحم– وقال: لا يكلمني أحد إلا بعد تسعة أشهر!

عيسى –عليه السلام– خُلِق بكلمة "كن"، أُلقيت إلى مريم –عليها السلام–؛ فخُلق في رحم أمه؛ ولذلك هو ابن مريم عليهما السلام.

«وروحٌ منه» روحٌ من الله سبحانه وتعالى؛ أي: نُفِخت فيه الروح التي هي مِن أمر الله سبحانه وتعالى، فهي مِن مخلوقات الله، نُفخَت بأمر الله سبحانه وتعالى، وأضيفت إلى الله تشريفًا؛ لأنّ المقام مقام تشريف، فنُفخت فيه الروح بأمر الله سبحانه وتعالى، أي: أنّ هذه الروح كانت بأمر الله سبحانه وتعالى.

«والجنة حق، والنار حق؛ أدخله الله الجنة على ما كان من العمل». وعند مسلم: «أدخله الله من أيِّ أبواب الجنة الثمانية شاء». وجاء عند البخاري زيادة: «أدخله الله الجنة على ما كان من العمل من أبواب الجنة الثمانية أيّها شاء».

طيِّب؛ ما معنى: «أدخله الله الجنة على ما كان من العمل»؟

للعلماء في تفسيرها ثلاثة أقوال:

القول الأول: أنّ معناها: على ما كان من صلاحٍ أو فسادٍ من عمله.

فالمؤمن الموحِّد لابد أن يدخل الجنة؛ حتى لو كانت له ذنوب كثيرة ولم يغفرها الله له ودخل بها النار؛ لا بد أن يخرج من النار ويدخل الجنة.

القول الثاني: أنّ معناها: أنّ درجات الموحِّدين في الجنة على حسب أعمالهم.

وهذا معنى قول بعض أهل العلم: "يدخل الناس الجنة بفضل الله، ويتفاوتون في درجاتها بأعمالهم". يعني يكون الناس في الجنة بحسب أعمالهم، فيرتفعون درجات في الجنة بحسب أعمالهم.

القول الثالث: أنّ دخوله الجنة على ما كان من عمله.

فقد يدخل الجنة ابتداءً؛ إذا كانت له أعمال صالحة وأعمالٌ سيئة غفرها الله له أو رجحت بها الأعمال الصالحة.

وقد يُبطئ به عمله الفاسد عن دخولها ابتداءً؛ فلا يدخلها ابتداءً وإنما يدخلها انتهاءً.

فقوله صلى الله عليه وسلم: «على ما كان من عمل» على هذا القول يعني: أنّ دخوله الجنة مبنيٌّ على ما كان من عمله؛ فقد يُسرِع به عمله إلى الجنة؛ فيدخلها ابتداء. وقد يبطئ به عمله السيء عن دخول الجنة ابتداء؛ فلا يدخلها ابتداء.

وبهذا؛ نعرف أنّ العمل لابد منه، وأنّ الاتكال على الشهادة فقط بدون عمل إنما هو من غرور الشيطان. وسنتكلم عن شيء يتعلق بهذا غدًا –إن شاء الله عز وجل– مع إكمال الباب. ولعلنا نقف هنا ونجيب عن بعض أسئلة إخواننا.

يعني غدًا –إن شاء الله– سنتكلم عن أمور عظيمة تتعلق بهذا الباب، منها: ما يتعلق بهل يكفي النطق بالشهادتين في حكم الإسلام ودخول الجنة؟ وسنبيِّن ما دلّت عليه الأدلة في هذا الباب.

قبل أن نجيب عن الأسئلة؛ أرسل لي كثير من الإخوة سؤالا يتعلق بما تكلمنا به فيما يتعلق بالعلة. وقال بعض الإخوة: إنّ الأمر صعب علينا شيئًا، فأحاول أن أعيد الكلام بشيء من الاختصار.

عندنا في هذا المقام، العلة نوعان:

١. علة لابد من وقوع معلولها.

٢. علة يمكن أن يقع معلولها ويمكن أن لا يقع.

أمّا الأولى؛ فمثالها: يقال: "خُلق الإنسان ليموت"؛ لابد أن يموت الإنسان.

ومثال الثانية: "اشتريت الكتاب لأقراه"؛ يمكن أن يقرأ الإنسان ويمكن ألا يقرأ.

العلة الأولى: يسميها بعض أهل العلم: بالعلة الغائية، ما معنى الغائية هنا؟ أيّ: غاية الشيء، ومنتهى الشيء، فالشيء ينتهي إليها ولا بد؛ "خُلقت لتموت" منتهى الإنسان أن يموت ليدخل قبره ثم يُبعَث.

ويسميها بعض أهل العلم: بالعلة الموجِبة؛ أي: أنها توجِب معلولها؛ لا بد منه.

ويسميها بعض أهل العلم: بالعلة اللازمة؛ أي: أنّ معلولها لازمٌ لها لا ينفك عنها، يدور معها وجودًا وعدمًا.

ويسميها بعض أهل العلم: بالعلة العقلية؛ أي: العلة التي لا تتخلف.

وأمّا الثانية: –وانتبهوا لِمَا أقول– فيسميها بعض أهل العلم: بالعلة الغائية، بمعنى الغاية من الشيء، انتبهوا، الأولى يسميها بعض أهل العلم: العلة الغائية بمعنى: غاية الشيء، يعني منتهى الشيء، والثانية يسميها بعض أهل العلم بالعلة الغائية بمعنى: الغاية من الشيء؛ بمعنى: لأجل كذا. يقال: "اشتريتُ الكتاب

لأقرأه"؛ أي: لأجل أن أقرأه، الغاية من شراء الكتاب: أن أقرأه. فتسمى هنا العلة الغائية بهذا المعنى.

أمّا العلة الغائية الأولى بمعنى: منتهى الشيء، فلا يصح أن أقول: اشتريت الكتاب لأقرأه؛ بأن المنتهى سيكون القراءة! لأنه يمكن ألا أقرأ، ممكن أن أشتري الكتاب ويضيع ما أقرأ. فتسمى إذن العلة الغائية الثانية؛ بمعنى: الغاية من الشيء.

ويسميها بعض أهل العلم: الحكمة، وهذا أوضح، وهذا الذي استعملته في كلامي مراعاة للمكان. فهذا باختصار ما أستطيع أن أذكره في هذه المسألة.

طبعًا يا إخوة؛ إذا قرأتم في بعض الكتب الفلسفية؛ هناك علة غائية عند الفلاسفة والمناطقة؛ هذه لا نتكلم عنها ولا نتعرَّض لها. العلل الأربعة عند المناطقة ليست من الإسلام في شيء، ما نتعرَّض لها.

الدرس الخامس: تابع شرح باب: فضل التوحيد وما يكفِّر من الذنوب

بسم الله الرحمن الرحيم

شرحنا في كتاب التوحيد، وما أجمله من كتاب! وما أجمله من موضوع! إذا سمعه المؤمن سُرَّ بسماعه؛ لأنه حق الله عز وجل.

ولا زلنا نتكلم في شرح الباب الأول؛ وهو المتعلق بفضل التوحيد وما يكفر من الذنوب.

وقد تقدم معنا يا إخوة؛ أنّ هذا الباب فيه بيان فضل التوحيد؛ وذلك في أمرين:

الأمر الأوّل: أنّ التوحيد أعظم أسباب دخول الجنة، وهو شرطٌ لكل سبب من أسباب دخول الجنة، وهو مفتاح الجنة، فمن جاء بغير مفتاح لم يُفتح له ولم يدخل الجنة.

الأمر الثاني: أنّ التوحيد يكفِّر الذنوب، والذنب كاللازم للعبد؛ كما قال النبي –صلى الله عليه وسلم– : «كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون»، فالتوحيد سبب للنجاة من النار؛ وذلك:

- إمّا بكونه يكفّر الذنوب؛ فلا يدخل الإنسان النار.

- وإما بكونه يرجح في الميزان بالسيئات؛ فيكون ذلك بالرجحان.

وقد تقدم بيان ذلك، وشرحنا بعض ما ذكره الشيخ في هذا الباب، ونكمل اليوم ما ذكره الشيخ في هذا الباب. فيتفضل أخي الشيخ خليل –وفقه الله– يقرأ لنا.

[ولهما في حديث عِتبان: «فإنّ الله حرَّم على النار من قال: لا إله إلا الله؛ يبتغي بذلك وجه الله»]

في حديث عِتبان بن مالك –رضي الله عنه وأرضاه– قال النبي –صلى الله عليه وسلم–: «فإنّ الله حرَّم على النار من قال: لا إله إلا الله؛ يبتغي بذلك وجه الله». «حرَّم» التحريم: هو المنع والحجز.

قال العلماء: والتحريم هنا:

- إمّا تحريم خلود.
- وإمّا تحريم دخول.

أمّا تحريم الخلود فلكل موحِّد. كلُّ موحّد حرَّم الله أن يُخلَّد في النار.

وأمّا تحريم دخول؛ فإنما هو لبعض الموحِّدين، الذين سيأتي وصفهم –إن شاء الله– بعد ذلك، وسنعلّق عليه.

وانظروا! قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: «يبتغي بذلك وجه الله» فلم يكتفِ بالقول «من قال: لا إله إلا الله»؛ ولكنه اشترط لهذا القول شرطًا عظيمًا؛ وهو: أن يبتغي بذلك وجه الله، أن يقصد بذلك وجه الله.

ووجه الله -عز وجل- صفة من صفات ربنا، ولربنا سبحانه وتعالى وجه. وأعظم لذة وأعظم نعيم للموحِّدين هي رؤية وجه الله -عز وجل- إذا دخلوا الجنة، لا لذة أعظم منها، ولا نعيم أعلى منه. فإنه إذا دخل الموحِّدون الجنة تجلى لهم ربهم وزادهم نعيمًا وفضلًا ولذة فرأوا وجه ربهم الكريم سبحانه وتعالى.

وقول النبي -صلى الله عليه وسلم- هنا: «يبتغي بذلك وجه الله» يعني: يبتغي بذلك وجه الله ولازم ذلك؛ وهو رضى الله، فإنّ لازم وجه الله: أن يرضى الله عنه. فهو يبتغي بذلك: وجه الله سبحانه وتعالى، ويبتغي لازم ذلك؛ وهو: أن يرضى الله عنه سبحانه وتعالى.

وجاء في حديث معاذ أنّ النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «ما من أحدٍ» وهذا من أقوى أنواع العموم؛ لأنه جاءنا النفي، وجاءت نكرة في سياق النفي، وسُبقَت بـ"مِن"، والعلماء يقولون: النكرة إذا جاءت في سياق النفي وسُبقَت بـ"مِن" كانت في أبلغ العموم حتى أنه لا يصح منها الاستثناء.

فلو قلتُ مثلًا: ما من رجلٍ في الدار، معنى ذلك: أنه لا يوجد أيّ رجل في الدار، ولا يصح أن أقول: ما من رجل في الدار إلا فلانًا! ما يصح هذا، لكن إذا قلت: لا رجل في الدار؛ هذا يقتضي العموم؛ لكن يجوز الاستثناء؛ فتقول: إلا زيدًا.

إذن؛ هذا اللفظ: "ما من أحد"؛ من أبلغ أساليب العموم.

«ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمدًا رسول الله؛ صدقًا من قلبه؛ إلا حرَّمه الله على النار» متفق عليه. قال: «صدقًا من قلبه» –وانتبهوا لهذا الشرط– أن يكون ذلك من قلبه؛ «إلا حرمه الله على النار» والتحريم –كما قلنا– نوعان.

هنا يا إخوة؛ يأتينا السؤال: هل ينتفع الإنسان بقول: لا إله إلا الله وأنّ محمدًا رسول الله؟

نقول: أمّا إذا قالها بلسانه ولم يكن ذلك في قلبه؛ فإنها تنفعه في الظاهر، في أحكام الدنيا، فنحكم له بالإسلام ونُجري عليه أحكام الإسلام؛ ما لم يأتِ بمناقضٍ لها؛ لأنّ الذي في القلب لا نعلمه، ولا يجوز الحكم على الناس الذين أتَوا بالشهادتين ولم يتلبَّسوا بمناقِضٍ لهما بالكفر بالقرائن.

ولذلك يا إخوة؛ لمّا بعث النبي –صلى الله عليه وسلم– بعثًا، سريّة لم يكن فيها النبي صلى الله عليه وسلم، وكان فيها أسامة رضي الله عنه، ففرّ رجل من المشركين فلحقه أسامة –رضي الله عنه– ورجلٌ من الأنصار، فلمّا أدركاه ورفعا عليه السلاح؛ قال: أشهد أن لا إله إلا الله! فكفّ عنه الأنصاري، وطعنه أسامة –رضي الله عنه– بحربته حتى قتله. فلمّا رجعا إلى المدينة وبلغ ذلك النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: «يا أسامة! أقتلته بعدما قال: لا إله إلا الله؟! »قال: يا رسول اللهّ إنما قالها متعوِّذًا– هذا أمر ظاهر– قال: «أشققت عن قلبه؟» الذي في قلبه ما تعلمه إنما يعلمه الله. فعلى الظاهر ينفعه ذلك.

ولذلك؛ في هذا الحديث الذي معنا حديث عِتبان؛ أصل قصته: أنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– ذهب إلى بيت عِتبان رضي الله عنه– وهو رجلٌ أعمى– ليصلي في بيت عتبان رضي الله عنه، فلمّا علم الناس جيران عتبان اجتمعوا في بيته ولم يأتِ رجل، معروفٌ اسمه لكن على كل حال لم يأتِ هذا الرجل، قالوا: أين فلان؟ فقال بعض الصحابة: ذاك منافق يحب المنافقين، فقال النبي –صلى الله عليه وسلم–: «لا تقل ذلك، ألم ترَ أنه قال: لا إله إلا الله؟»، وفي رواية صحيحة: «ألم ترَ أنه قال: لا إله إلا الله؛ يبتغي بذلك وجه الله؟» قالوا: إنما نرى وجهه ونصحه للمنافقين! –يعني لماذا قلنا إنه منافق؟ لأنّا نرى وجهه ونصحه وصحبته مع المنافقين– فقال النبي –صلى الله عليه وسلم–: «فإن الله حرَّم على

النار من قال: لا إله إلا الله؛ يبتغي بذلك وجه الله». فيدل ذلك يا إخوة على أنّ من قال: لا إله إلا الله؛ ولم تكن في قلبه؛ ينفعه ذلك في الظاهر.

ولذلك النبي –صلى الله عليه وسلم– لم يقتل المنافقين مع علمه بأنهم كاذبون في قولهم لا إله إلا الله وأنّ محمدًا رسول الله.

أمّا عند الله لا تنفعه؛ ما دام أنها لم تكن في قلبه.

طيِّب؛ مَن قال لا إله إلا الله من قلبه ولم يأتِ بالعمل الذي تقتضيه لا إله إلا الله أو كان لا يأتي بهذا العمل –مثل ما هو عندنا نحن فيما نقرره: الصلاة– قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمدًا رسول الله من قلبه ولم يأتِ بالصلاة؛ هل تنفعه لا إله إلا الله؟

الجواب: أنه إذا كان عالمًا بما يجب عليه، متمكنًا، ولم يأتِ بما هو واجب عليه –وهو الصلاة على ما نراه، ومطلق العمل عند بعض السلف يعني أيّ عمل يعمله، ونحن نرى على الراجح أنه عمل مخصوص: وهو الصلاة– فإنها لا تنفعه ولا يكون من المسلمين.

أمّا إذا لم يَعلَم، مثلًا:

– إنسان في أيّ دولة من الدول سمع بالإسلام وأحب الإسلام وقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنّ محمدًا رسول الله، لكن لم يجد من يعلِّمه، بقي يومين

ثلاثة وهو دائمًا يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنّ محمدًا رسول الله، لكن ما عُلِّم شيئًا، فمات.

– أو عَلِم لكن لم يتمكّن، عَلِمَ أنه يجب عليه أن يصلي لكن لم يتمكّن من الصلاة، مثلًا عَلِم في وقت الضحى أنه يجب عليه أن يصلي الظهر، فمات قبل الظهر.

– أو علم وتمكّن ولم يفعل لكنه قالها عند موته تائبًا مما تقدّم، تائب من النواقض التي كان يفعلها، تائب من ترك الصلاة، وعلمنا ذلك؛ فإنّ هذا ينفعه.

إذا قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمدًا رسول الله من قلبه، لكن لم يأتِ بمقتضاها من العمل الذي لابد منه؛ لعدم علمه، أو لعدم تمكنه، أو قالها عند موته تائبًا نادمًا على ما تقدَّم؛ بمعنى أنه عازم أنه لو تمكن من الصلاة سيصلي، تائب من الناقض الذي كان يفعله؛ فإنه في هذه الحال ينفعه أنه قال: لا إله إلا الله وأنّ محمدًا رسول الله، من قلبه.

إذن؛ قول "لا إله إلا الله" لابد فيه –كما تقدم– من: يقين القلب، ونطق اللسان مع القدرة، والعمل بمقتضى لا إله إلا الله.

وهل يكفي القول؟

أمّا إذا كان باللسان فقط بدون القلب؛ فإنما تنفعه في الظاهر عندنا. أمّا عند الله فلا تنفعه.

أمّا إذا نطق بالشهادتين متيقنًا من قلبه ولم يأتِ بالمقتضى اللازم لـلا إله إلا الله من العمل فإنّ الأمر كما سمعتموه. وإذا ضبطتم هذا فإنّ الأمر ينضبط لكم إن شاء الله.

[عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: «قال موسى –عليه السلام–: يا رب! علمني شيئًا أذكرك وأدعوك به، قال: قل يا موسى: لا إله إلا الله. قال: كل عبادك يقولون هذا ، قال: يا موسى! لو أنّ السماوات السبع وعامرهن غيري والأرضين السبع في كفة، ولا إله إلا الله في كفة؛ مالت بهن لا إله إلا الله» رواه ابن حبان والحاكم وصححه]

هذا الحديث رواه ابن حِبان في صحيحه، والمعلوم أنّ ابن حبان إذا روى الحديث في صحيحه فهو يصحِّحه، (والحاكم وصحَّحه) إذن هذا الحديث صحَّحه ابن حبان، وصحَّحه الحاكم، وصحَّحه الذهبي، وصحَّحه ابن حجر في فتح الباري، وقال ابن باز –رحمه الله–: أسانيده جيدة، لكنّ الحديث ضعّفه الألباني، وضعَّفه الشيخ شعيب الأرناؤوط، رحم الله الجميع.

والظاهر –والله أعلم– أنّ إسناده ضعيف؛ لأنه من رواية درّاج؛ ودرّاج ضعيف، فإذا روى عن أبي الهيثم فهو أشد ضعفًا، يعظم ضعفه ويشتد ضعفه إذا روى عن أبي الهيثم؛ وهو هنا يروي عنه.

فالحديث ضعيف؛ لكنّ الشاهد منه صحيح.

ولذلك؛ الحافظ ابن كثير –رحمه الله– لمّا ذكر هذا الحديث قال: وله شاهد؛ يعني يشهد للشاهد منه؛ وذلك: أنه روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص –رضي الله عنهما– عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أنه قال: «إنّ نبي الله نوحًا لمّا حضرته الوفاة قال لابنه: إني قاصٌّ عليك الوصية: آمرُك باثنتين، وأنهاك عن اثنتين» يعني أنا سأخبرك بوصيتي وفي هذه الوصية آمرك باثنتين وأنهاك عن اثنيتن؛ «آمرك بلا إله إلا الله، فإنّ السماوات السبع والأرضين السبع لو وُضعت في كفة، ووُضعت لا إله إلا الله في كفة؛ رجحت بهن لا إله إلا الله، ولو أنّ السماوات السبع والأرضين السبع كنّ حلقة مبهمة؛ قصمتهن لا إله إلا الله»، هذا الحديث الذي رواه الإمام أحمد صححه الحافظ ابن كثير، وصححه الشيخ أحمد شاكر، وصححه الشيخ شعيب الأرناؤوط، وصححه الشيخ الألباني، وصححه الشيخ مقبل الوادعي، رحم الله الجميع. فهذا الحديث صحيح، والشاهد من هذا الحديث المُورَد عندنا فيه بتمامه.

فنقول في هذا الحديث الذي معنا: إنّ إسناده ضعيف؛ لكن ما تضمنه من شاهد الباب صحيح؛ لِمَا ذكرناه.

قال: «عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: قال موسى عليه السلام: يا ربِّ علمني شيئًا أذكرك وأدعوك به» إذن؛ ماذا طلب؟ طلب شيئًا ليس للدنيا وإنما ليدعو الله ويذكره به، «قال الله: قل يا موسى: لا إله إلا الله» ومعنى ذلك: أنّ من قال لا إله إلا الله فقد ذكر الله ودعا الله، وهذا ما يسمى عند أهل العلم بدعاء العبادة.

الدعاء نوعان:

- دعاء المسألة.
- ودعاء العبادة.

دعاء المسالة: أن تقول: اللهم ارزقني، اللهم اشفني، اللهم عافني؛ فأنت تطلب.

ودعاء العبادة: أن تعبد الله بما شرع، فإذا عبدتَ الله بما شرع فقد دعوته؛ لأنّ كل عبادة تتضمن المسألة. عندما تصلي كأنك تقول: اللهم اقبل صلاتي وارزقني ما رتبتَه عليها. عندما تحج كأنك تقول: اللهم اقبل حجي وارزقني ما رتبته على الحج. فعندما تقول "لا إله إلا الله" فأنت ذاكر الله –عز وجل– وداعٍ

دعاء العبادة؛ لأنّ قولك "لا إله إلا الله" يتضمن أنك تسأل الله أن يرزقك الله ما رتَّبه على قول لا إله إلا الله.

إذن؛ ليس هناك إشكال في أنّ موسى –عليه السلام– طلب شيئًا يذكر الله به ويدعو الله به فقال له الله: (قل: لا إله إلا الله). لأنه قد يأتي قائل يقول: هذا ذكر فأين الدعاء؟! نقول: الدعاء موجود.

قال: «كل عبادك يقولون هذا»، جاء عند ابن حبان أنّه لمّا قال: كل عبادك يقولون هذا، قال الله له: «قل لا إله إلا الله، قال: إنما أريد شيئًا تخصني به»؛ وإلا فكل عبادك يقولون هذا! وعند الحاكم: قال: «كل عبادك يقولون هذا يا ربِّ، فقال: قل: لا إله إلا الله، فقال: لا إله إلا أنت يا ربِّ»؛ فامتثل قال: لا إله إلا أنت يا ربِّ «وإنما أريد شيئًا تخصني به»، أنا أريد أن أزيد في عبادتك يا ربي، كل عبادك يقولون: لا إله إلا الله.

وفي هذا دلالة يا إخوة على أنّ الإنسان لا يكون عبدًا لله على وجه الامتثال –لا على وجه كونه عبدًا لله أصلًا– إلا بقول لا إله إلا الله. فمَن لم يقل "لا إله إلا الله" فليس عبدًا لله على وجه الامتثال، من زمن آدم –عليه السلام– إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

«قال: يا موسى! لو أنّ السماوات السبع وعامرهن غيري» فالسماوات السبع معمورة بالملائكة، وربنا –سبحانه وتعالى– مستوٍ على عرشه فوق سماواته، فعقيدة المؤمن الراسخة أنّ الله –عز وجل– في السماء ﴿أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾[الملك: الآية ١٦] الله –عز وجل– في السماء. ولمّا سأل النبي –صلى الله عليه وسلم– الجارية: أين الله؟ أشارت بأصبعها إلى السماء؛ قالت: في السماء، قال: «اعتقها فإنها مؤمنة». فربنا مستوٍ على عرشه –سبحانه وتعالى– فوق سماواته؛ ولذلك قال: «لو أنّ المساوات السبع وعامرهن غيري والأرضين السبع» فدلنا على أنّ الأرض مثل السماء سبع «في كفة» من الميزان «ولا إله إلا الله في كفة؛ مالت بهن لا إله إلا الله».

والمعلوم يا إخوة؛ أنّ الأعمال توزَن يوم القيامة في الميزان، فتوضَع الأعمال الصالحة في كفة، وتوضَع الأعمال السيئة في كفة.

فمِن الموحِّدين مَن تثقُل كفة حسناته؛ وأعظم ما فيها: لا إله إلا الله.

ومِن الموحِّدين مَن لا ترجح كفة حسناته؛ فيجازى بسيئاته بالنار؛ إلا أن يعفو الله عنه.

وهذا يدلنا يا إخوة؛ على أنّ الناس يتفاوتون في لا إله إلا الله. لا شك أن كل المسلمين يقولون: لا إله إلا الله محمد رسول الله؛ لكنهم يتفاوتون في قوتها، إذ

لو لم يكونوا يتفاوتون في قوتها لَمَا دخل مسلم موحِّد النار؛ لأنّ لا إله إلا الله سترجح بكفة الحسنات! لكنّ هذا إنما هو بحسب قوتها، فيتفاوت الناس في قوة لا إله إلا الله محمد رسول الله في أنفسهم.

وهذا يدل على عظم هذه الكلمة "لا إله إلا الله"، وأنها المنجية للعبد، وأنّ العبد كلما اجتهد في تحقيقها وتخليصها –كما سيأتي في تحقيق التوحيد إن شاء الله– كان أقرب إلى الجنة، حتى أنه قد يصل إلى أن يدخل الجنة بغير حساب متقدّم ولا عذاب متقدم، قد يصل بتحقيقه هذه الكلمة وتخليصها على الوجه الذي سيأتي –إن شاء الله– أن يصل أنه منذ أن يموت لا يُعذَب، فلا يعذب في قبره ولا يعذب في النار، فيدخل الجنة بغير حساب متقدّم ولا عذاب يتقدم دخوله الجنة.

وهذا يجعل المؤمن حريصًا على توحيد الله –سبحانه وتعالى– وعلى تحقيقه على الوجه الذي سيأتينا إن شاء الله.

[وللترمذي وحسنه عن أنس –رضي الله عنه– قال: سمعت رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يقول: «قال الله تعالى: يا ابن آدم! لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا؛ لأتيتك بقرابها مغفرة»]

نعم؛ عند الترمذي والطبراني بإسنادٍ حسنه الترمذي، وصححه الإمام الألباني، رحم الله الجميع؛ عن أنس –رضي الله عنه– قال: سمعت رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يقول: –هذا حديث قدسي– قال الله تعالى: «يا ابن آدم» يا أيها الخطاء، كل بني آدم خطاء، لابد أن تذنب «يا ابن آدم! لو أتيتني بقُراب الأرض» يعني لو كانت الأرض قُرابًا وملأْتَه خطايا وذنوبًا صغيرة وكبيرة –غير الشرك الذي يخرج من الملة– «ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا» فكنتَ موحِّدًا «لأتيتك بقُرابها مغفرة».

وفي هذا يا إخوة؛ أنّ المغفرة إنما هي لأهل التوحيد، فأهل الشرك لا يغفر الله لهم.

ولذلك يا إخوة؛ المشركون يعذَّبون على شركهم ويعذَّبون على تركهم الأعمال الصالحة وإن فعلوها؛ لأنها لا تُقبَل منهم وليست عبادة، يعذَّبون على ترك الصلاة وعلى ترك الصيام وعلى ترك الحج وعلى ترك الزكاة، ويعذَّبون على فعل السيئات.

طيِّب! كان يصلي لكنه يعبد الولي ويدعو غير الله ويستغيث بغير الله وكفر بعينه؟ هذا ما صلى لله؛ فيؤاخَذ على ترك الصلاة، ويُعذَّب على ترك الصلاة. فأهل الشرك لا يُغفر لهم الشرك ولا تُغفر لهم سيئاتهم.

فأهل التوحيد هم أهل المغفرة، أهل أن يغفر الله لهم بفضله وكرمه وجوده سبحانه وتعالى. وهذا فضل من الله سبحانه وتعالى، والله حكيم عليم، هو أعلم بعباده سبحانه.

فمِن عباده من يغفر له خطاياه؛ فيدخل الجنة ابتداء.

ومِن عباده من يؤاخَذ بخطاياه؛ فيدخل النار، فيشفع الشافعون من الملائكة والصالحين؛ فيُخرَج من النار مباشرة. ومنهم من يُخرجه الله بعفوه. ومنهم من يُمحَّص في النار؛ ثم يخرجه الله –عز وجل– فيكون من أهل الجنة. وهذا يدل على فضل التوحيد.

ولا شك أنّ الناصح لنفسه إذا سمع قال الله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعرف هذه الفضائل؛ كان التوحيد عنده أغلى من الذهب والفضة وأغلى من الناس أجمعين، لا يمكن أن يترك التوحيد أو شيئًا منه لقول شيخٍ أو لقومٍ أو لأنّ أهله على غيره، أبدًا؛ لأنه مصدِّق، ما قال هذا الشيخ الفلاني ولا الشيخ الفلاني، الذي قال هذا هو الله سبحانه وتعالى؛ وهو أصدق القائلين، الذي قال هذا محمدٌ صلى الله عليه وسلم، ووالله! المؤمن لا يشك في حرف واحد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم. فيكون حريصًا على هذا التوحيد، وإذا عاش على غيره وعلم أنّ هذا ينافي التوحيد أو ينافي كمال التوحيد برئ إلى

الله منه وغسل نفسه منه وتطهر منه وتاب إلى الله. وسيأتينا –إن شاء الله– تفصيل ما ينافي التوحيد أو ينافي كمال التوحيد.

قال رحمه الله تعالى: [فيه مسائل: الأولى: سعة فضل الله]

نعم؛ فضل الله عظيم وواسع على أهل التوحيد، فالله –عز وجل– يُدخلهم الجنة إمّا بغير حساب ولا عذاب، وإمّا بأن يمحّصهم ليتأهلوا للجنة، ثم يدخلوا الجنة بعد ذلك.

مع أنه لا يستحق أحدٌ الجنة بعمله، وإنما هو فضل الله سبحانه وتعالى، والأعمال أسبابٌ لنيل فضل الله سبحانه وتعالى.

قال رحمه الله: [الثانية: كثرة ثواب التوحيد عند الله]

نعم؛ أعظم الأعمال ثوابًا: هو التوحيد، ثم التوحيد شرطٌ لكل عملٍ يثاب عليه. لا يمكن أن يثاب على عمل إلا بالتوحيد، فالتوحيد أعظم الأعمال ثوابًا، وهو شرطٌ لأن يثاب على كل عمل.

قال رحمه الله: [الثالثة: تكفيره مع ذلك للذنوب]

نعم؛ مع كونه حسنةً عظيمة وكلّ عمل لا يكون حسنة إلا به؛ فإنه مع ذلك يكفِّر الله –عز وجل– به الذنوب عمَّن تحمل الذنوب.

قال رحمه الله: [الرابعة: تفسير الآية التي في سورة الأنعام]

التي تقدمت معنا: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾، وقد فسرناها وبيّناها.

قال رحمه الله: [الخامسة: تأمُّل الخمس اللواتي في حديث عبادة]

نعم؛ مَن شهد أن لا إله إلا الله، وأنّ محمدًا عبده ورسوله، وأنّ عيسى عبد الله ورسوله، وأنّ الجنة حق، والنار حق. وقد تكلمنا عنها.

قال رحمه الله: [السادسة: أنك إذا جمعتَ بينه وبين حديث عتبان وما بعده تبيّن لك معنى قول لا إله إلا الله، وتبيّن لك خطأ المغرورين]

نعم؛ أنّ شرط لا إله إلا إله: أن تكون من القلب وأن يبتغي بها العبد وجه الله سبحانه وتعالى. وأنّ من اغتر بأنّ مجرد قول لا إله إلا الله ينفع العبد فلم يتحرز من الشرك بأنواعه –مما لا يناقض التوحيد؛ وهو الشرك الأصغر والشرك الخفي– ولم يعمل الصالحات؛ أنه مغرور؛ لأنّ من ابتغى وجه الله لابد أن يعبد الله، الذي يقول: أنا أقول لا إله إلا الله أبتغي بذلك وجه الله، ويقال له: صلِّ فإنّ الله يحب هذا، يقول: لا ما أصلي! هذا ما ابتغى وجه الله سبحانه وتعالى.

قال رحمه الله: [السابعة: التنبيه للشرط الذي في حديث عِتبان]

وهو: يبتغي بذلك وجه الله.

[الثامنة: كون الأنبياء عليهم السلام يحتاجون للتنبيه على فضل لا إله إلا الله]

لِمَا جاء في قصة موسى عليه السلام. ولا شك أنّ عباد الله جميعًا يحتاجون إلى التنبيه على فضل لا إله إلا الله. وإذا كان هذا للأنبياء؛ الله –عز وجل– يقول للنبي –صلى الله عليه وسلم–: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾[محمد: الآية ١٩]؛ فمن باب أولى من كان دون الأنبياء عليهم السلام.

فالذين يأتون ويقولون لنا: لماذا تدرِّسون بالتوحيد وتشغلون الأمة بالتوحيد؟ نقول: إذا ما أشغلنا الأمة بالتوحيد الذي هو حق الله والله سيشغلها الشيطان بحقه.

الأنبياء –عليهم السلام– منذ أن يُبعَثوا إلى أن يُقبَضوا وهم يعلِّمون التوحيد، ويوصون بالتوحيد.

نبينا –صلى الله عليه وسلم– منذ أن بعثه الله وهو يأمر الناس بلا إله إلا الله، وعندما مات أوصى الناس بلا إله إلا الله.

وكما تقدَّم معنا؛ لن تعز الأمة ولن تقوى ولن يكون لها شأن إلا إذا أظهرت التوحيد الخالص، واجتهد أهل العلم وطلاب العلم في دلالة أهلنا من

المسلمين على هذا الطريق المستقيم، الصراط المستقيم الذي لا يجوز للمسلم أن يسلك سواه أبدًا.

قال رحمه الله: [التاسعة: التنبيه لرجحانها بجميع المخلوقات؛ مع أنّ كثيرًا ممن يقولها يخفّ ميزانه]

انتبه لهذا الكلام! أنّ لا إله إلا الله ترجح بجميع المخلوقات لو قابلتها في كفة؛ ومع ذلك فبعض مَن يقولها تخفّ في الميزان! مِن نقصٍ فيه لا مِن نقصٍ فيها، فهو لم يجتهد في تحقيقها فخفّت.

لأن بعض الناس يا إخوة؛ يقول: لا إله إلا الله، ويأتِ بما يناقضها؛ فيرفعها بالكلية. يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنّ محمدًا رسول الله، وإذا أصابته مصيبة ما يقول: يا الله! يقول: يا سيدي فلان! هذا يُعدِم قوله لا إله إلا الله بالكلية؛ فلا يكون لها وزن؛ لأنه أزالها.

ومن الناس مَن لا يأتي بمناقضٍ لها؛ ولكنه لا يرعاها؛ فلا يحافظ على كمالها؛ فتضعف.

ولذلك؛ الدليل على أنها تخف: أنّ من الموحِّدين –يقينًا– من يدخل النار؛ وذلك لضعف لا إله إلا الله في حقه.

قال رحمه الله: [العاشرة: النص على أنّ الأرضين سبع كالسماوات]

نعم؛ نصًّا، وإلا فوردت الدلالة على هذا في القرآن: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾[الطلاق: الآية ١٢]، لكن هنا نصّ على أنّ الأرضين سبع، وقد ورد في عدد من الأحاديث أنّ الأرضين سبع كالسماوات، والله أعلم بها.

[الحادية عشر: أنّ لهن عمارًا]

نعم؛ أمّا الأرض فنحن نرى عمّارها، منهم بنو آدم، وأمّا السماء فقد أخبرنا الله عن عمّارها. وهنا الذي يظهر –والله أعلم– أنّ مقصود الشيخ في قوله "أنّ لهن": أيْ السماوات؛ لأنه هو الذي ورد في الحديث: «لو أنّ السماوات السبع وعامرهن غيري».

قال رحمه الله تعالى: [الثانية عشرة: إثبات الصفات خلافًا للأشاعرة]

إثبات الصفات خلافًا للنُّفاة أو للمؤوِّلة. فالصفات ثابتة لربنا سبحانه وتعالى، ولا شك في ذلك، وقد دلت على ذلك أدلة كثيرة؛ منها ما تقدّم معنا، وبيّنا طريقة أهل السنة والجماعة في إثبات الصفات؛ خلافًا للنُّفاة الذين ينفون الصفات أصلًا؛ فيقولون: سميع بلا سمع، بصير بلا بصر. أو المؤوِّلة الذين يؤوِّلون الصفات، ومنهم الأشاعرة الذين يُثبِتون سبع صفات ويؤوِّلون غيرها.

ونصّ على الأشاعرة هنا؛ لأنهم أقرب من تكلم في الصفات إلى أهل السنة؛ وإن لم يكونوا من أهل السنة.

قال رحمه الله: [الثالثة عشر: أنك إذا عرفت حديث أنس عرفت أنّ قوله في حديث عتبان: «فإنّ الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله؛ يبتغي بذلك وجه الله» أنّ ترك الشرك ليس قولها باللسان]

نعم؛ يعني الذي في حديث أنس «ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا» ليس أن تقول لا إله إلا الله باللسان فقط؛ بل لابد من القيود السابقة: أن تبتغي بذلك وجه الله.

قال رحمه الله: [الرابعة عشر: تأمل الجمع بين كون عيسى ومحمد –عليهم الصلاة والسلام– عبداه ورسولاه]

نعم؛ فعيسى –عليه السلام– كمحمد –صلى الله عليه وسلم–، كلاهما عبدٌ لا يُعبَد، ورسول لا يُكذَّب، فلهما منزلة عظيمة؛ وهي منزلة الرسالة.

والمعلوم أيها الإخوة؛ أنّ أفضل الأنبياء: هو محمد صلى الله عليه وسلم، ثم أولوا العزم؛ ومنهم محمد –صلى الله عليه وسلم– وعيسى عليه السلام.

والمقصود هنا: أنّ عيسى –عليه السلام– كمحمد –صلى الله عليه وسلم– في هاتين الصفتين: عبدٌ ورسولٌ لله عز وجل.

وعيسى –عليه السلام– من خصائصه: أنه سينزل في آخر الزمان، لأن الله رفعه، فهو في السماء، وسينزل في آخر الزمان، ويصلي كما نصلي، ويحج، ويحكم بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم، ويجاهد، ويجاهد معه المسلمون في قتل الدجال، ثم يبعث لهم الله قومًا لا قدرة لهم على قتالهم؛ وهم يأجوج ومأجوج؛ فيأمره الله أن يحرِّز المؤمنين إلى الطور، ويكون ما يكون في آخر الزمان.

قال رحمه الله: [الخامسة عشر: معرفة اختصاص عيسى –عليه السلام– بكونه كلمة الله]

وقد بيّنا معنى كلمة الله؛ وهو أنه خُلِق بالكلمة. كل رجل خُلِق من ماء رجل مع بويضة الأنثى، إلا آدم –عليه السلام– وعيسى عليه السلام. وآدم –عليه السلام– خُلق من التراب، وعيسى –عليه السلام– خُلق بقول الله: "كن" في رحم أمِّه، فكانت له أم؛ فهو ابن أمه مريم عليها السلام.

قال رحمه الله: [السادسة عشر: معرفة كونه روحًا منه]

وبيّنا معنى هذا فيما تقدم.

[السابعة عشر: معرفة فضل الإيمان بالجنة والنار]

نعم؛ كما تقدم.

قال رحمه الله: [الثامنة عشر: معنى قوله: على ما كان من عمل]

وتقدم معنا أنّ للعلماء ثلاثة أقوال في معنى «على ما كان من عمل». وهذه تردُّ على المغرورين؛ الذين يقولون: يكفي أن يقول لا إله إلا الله ولو لم يعمل شيئًا!

[التاسعة عشر: معرفة أنّ الميزان له كفتان]

(معرفة أنّ الميزان له كفتان) من أين أخذ الشيخ هذا؟ من قصة موسى عليه السلام، لأنّ الله قال: «لو أنّ السماوات السبع وعامرهن غيري والأرضين السبع في كفّة، ولا إله إلا الله في كفّة»، لكن قال العلماء: هذا تمثيل "لو"، لكنّ الشيخ فهم –وفهمه صحيح– أنّ هذا سيكون، وقد دلت الأدلة من الكتاب والسنة على أنّ هذا سيكون، ولذلك السلف مجموعون على أنّ الميزان له كفتان وأنّ له لسانًا، فما من ميزان له كفتان إلا وله لسان.

[العشرون: معرفة ذكر الوجه]

نعم؛ معرفة أنّ لربنا سبحانه وتعالى وجهًا، والمؤمن بأعماله الصالحة يبتغي وجه الله؛ لأنّ أعظم جزاء أعظم جزاء على الإطلاق على الأعمال الصالحة: هو رؤية وجه الله سبحانه وتعالى. أسأل الله أن يرزقنا جميعًا. أعظم

نعيم على الإطلاق: نظر المؤمنين إلى وجه ربهم –سبحانه وتعالى– وهم في الجنة.

فالمؤمن بأعماله الصالحة يبتغي: وجه الله؛ ولازم ذلك: أنه يريد إرضاء الله سبحانه وتعالى. فهذا يدل على إثبات الوجه لربنا –سبحانه وتعالى– على ما يليق بجلال ربنا.

تابع الدرس الخامس: شرح باب: من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب

قال رحمه الله تعالى: [باب: من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب]

مقصود هذا الباب يا إخوة أمران:

الأول: بيان فضيلةٍ للتوحيد زائدةٍ على ما تقدم.

الذي تقدّم: فضل التوحيد؛ وهو دخول الجنة بالتوحيد بفضل الله، والنجاة من النار بالتوحيد. هنا أراد الشيخ أن يبيّن فضيلة زائدة؛ وهي: دخول الجنة ابتداءً بغير حساب ولا عذاب. وهذه فضيلة زائدة على مجرد دخول الجنة؛ دخول الجنة ابتداء بغير حساب ولا عذاب يتقدم الدخول.

والثاني –وانتبهوا له–: بيان أنّ ما تقدم من دخول الجنة لأهل التوحيد ونجاتهم من النار لا يعني أنهم يدخلون الجنة جميعًا ابتداء وأنهم يَسلمون جميعًا من دخول النار ابتداء.

يعني؛ تقدم معنا أنهم يدخلون الجنة، وتقدم معنا أنّ الله لا يعذبهم بالنار، فأراد الشيخ هنا أن يقول لنا: إنّ الذي تقدم لا يعني أنّ جميع الموحِّدين يدخلون الجنة ابتداء، بل منهم مَن لن يدخل الجنة ابتداء وإنما يدخلها انتهاء، يدخلها بعد، وأنه لا ينجو جميع الموحِّدين من دخول النار ابتداء، بل من الموحِّدين من يدخل النار ابتداء، ثم يخرج منها.

ودليل ذلك: تخصيصُ طائفةٍ وعددٍ من الأمة بدخول الجنة بغير حساب ولا عذاب؛ إذن بقية الأمة ماذا سيكون شانها؟ تدخل الجنة ولكن بتقدُّم عذاب.

وبهذا تعرف يا أخي فقه الشيخ في الترتيب، فهذا ليس من باب ذكر الخاص بعد العام فقط؛ وإنما من باب ذكر الخاص بعد العام مع فائدة القيد لِمَا تقدم.

فهذا هو مراد الباب.

قال رحمه الله تعالى: [وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾]

طيِّب؛ الباب ماذا يقول يا إخوة؟ (باب: مَن حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب) ما مناسبة هذه الآية للباب؟ المناسبة يا إخوة: تفسير تحقيق التوحيد الذي اشتُرِط في الباب. كأنّ قائلًا قال: كيف أحقِّق التوحيد؟ فقال الشيخ: الجواب في هذه الآية.

إذن؛ مناسبة هذه الآية للباب: أنّ هذه الآية تبيِّن الشرط المذكور في الباب؛ وهو: تحقيق التوحيد.

ففي هذه الآية العظيمة يثني الله –عزو جل– على نبيه وخليله إبراهيم عليه السلام:

١. **بأنه كان أمة**؛ أي: كان إمامًا متبوعًا، فإبراهيم –عليه السلام– إمامٌ للموحِّدين، يجب على كل موحِّد أن يتخِذ إبراهيم –عليه السلام– إمامًا، كما يتخِذ محمدًا –صلى الله عليه وسلم– إمامًا.

والإمامة لا تُنال في الدين إلا باليقين والصبر؛ ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُون﴾ [السجدة: الآية ٢٤] إذن؛ إبراهيم –عليه السلام– كان موقنًا، وكان صابرًا، وهو إمام للموحِّدين.

٢.و**بأنه كان قانتًا لله**؛ أي: كان منقادًا لله، ومداومًا على طاعة الله سبحانه وتعالى، ومكثِرًا من الطاعات والتقرُّب.

٣. **وبأنه كان حنيفًا**؛ أي: مائلًا من الشرك إلى التوحيد، وعن المعصية إلى الطاعة ﴿وَلَمْ يَكُ مِن المشركِين﴾؛ وهذا هو التوحيد.

إذن؛ الله عز وجل وصف خليله بثلاث صفات:

الصفة الأولى: أنه كان إمامًا للموحدين، وهذا يتضمَّن: أنه كان موقنًا صابرًا.

الصفة الثانية: أنه كان قانتًا لله؛ أي: كان منقادًا لله عز وجل، مسلِّمًا لأمر الله، مداومًا على الطاعات، ومكثِرًا منها.

الصفة الثالثة: أنه كان حنيفًا؛ أي: محققًّا للتوحيد؛ فإنه كان مائلًا عن الشرك إلى التوحيد؛ ﴿ولم يَكُ مِن المشركِين﴾.

فدلّ ذلك يا إخوة؛ على أنّ كمال تحقيق التوحيد إنما يكون:

١. بالعلم.
٢. واليقين؛ يقين القلب.
٣. ونطق اللسان، مع القدرة.
٤. والعمل بالتوحيد؛ بأصله وكماله.
٥. والبعد عما يَنقُضه أو يُنقِصه.
٦. والعلم بمقتضى التوحيد؛ وهو: الانقياد لله والعمل بأوامر الله واجتناب نواهي الله.
٧. وتعليق القلب بالله تعليقًا تامًّا لا يتطرق إليه نقصٌ بوجه من الوجوه.
٨. ولا يتحقق كل ذلك إلا بالصبر.

هذا كمال تحقيق التوحيد، أعلى المراتب.

كمال تحقيق التوحيد إنما يكون بما ذكرنا: بالعلم: ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله﴾. وبيقين القلب. وبنطق اللسان. وبالعمل بالتوحيد؛ بأصله وكماله. وبالبعد عما يَنقضه، وبالبعد عما يُنقِصه. وبالعمل بمقتضى التوحيد؛ من الانقياد لله

وتسليم القلب لله وفعل الأوامر واجتناب النواهي. وتعليق القلب بالله تعليقًا تامًّا لا يتطرق إليه نقصٌ بوجه من الوجوه. ولا يمكن أن يتحقق ذلك لعبد من العباد إلا بالصبر.

ومن الانقياد يا إخوة: التوبة عند الوقوع في الذنب.

يعني يا إخوة؛ لا يلزم لكمال تحقيق التوحيد أن لا يذنب العبد، ولكن يلزم لكمال تحقيق التوحيد: أن يكون العبد توّابًا من ذنوبه، منيبًا إلى الله، كلما أذنب تاب. هذا كمال تحقيق التوحيد.

لأنه عندنا يا إخوة في التوحيد مراتب:

١. كمال تحقيق التوحيد. وهذه المرتبة إنما هي: لأنبياء الله، وللخُلَّص من عباد الله؛ الذين يتأسَّون بالأنبياء.
٢. مرتبة تحقيق التوحيد. انتبه! عندنا: مرتبة كمال تحقيق التوحيد، ومرتبة تحقيق التوحيد؛ وهي دون الأولى.
٣. مرتبة العمل بالتوحيد؛ وهي دون الثانية.
٤. مرتبة العمل بأصل التوحيد. وهي دون الثالثة. وليس دونها شيء للموحِّدين إلا السقوط عن التوحيد.

وهذه المراتب إذا لم تُفهَم لا ينضبِط للإنسان فهم التوحيد.

هذه هي المراتب:

١. مرتبة كمال تحقيق التوحيد.

٢. مرتبة تحقيق التوحيد.

٣. مرتبة العمل بالتوحيد.

٤. مرتبة العمل بأصل التوحيد.

وقد تكلمنا اليوم عن مرتبة كمال تحقيق التوحيد، كيف يصل العبد إلى مرتبة كمال تحقيق التوحيد، وهذه تحتاج إلى جهاد وصبر، ولكنّ مَن عرف ما عند الله لمَن حقق هذه المرتبة هان عليه أن يبذُل النفس والنفيس ليكون من أهل هذه المرتبة.

ومرتبة تحقيق التوحيد، ومرتبة العمل بالتوحيد، ومرتبة العمل بأصل التوحيد، هذه سنتكلم عنها غدًا –إن شاء الله– في بداية درسنا.

لأنّا إذا فهمنا هذا يا إخوة نستفيد فوائد كثيرة جدًّا؛ ومنها: أن نفهم كلام العلماء، لأنّ بعض الناس يقرأ للعلماء الكلام عن مرتبة كمال تحقيق التوحيد؛ فيقول: هذ العالم أو هذا الرجل أو هذا الشيخ يرى أنّ الذي لا يفعل الأوامر ولا يجتنب النواهي لا يكون موحِّدًا! وهذا غلط؛ لأنه هنا لا يتكلم عن أصل

التوحيد وإنما يتكلم عن مرتبة كمال تحقيق التوحيد؛ وهي أعلى مراتب الموحِّدين.

وغدًا –إن شاء الله– نكمل بقية المراتب ونربطها ببعضها، وإذا فهمناها فإنّ الأمر يستقيم لنا إن شاء الله عز وجل.

ونقف هنا ونجيب عن بعض أسئلة إخواننا. والله أعلم. وصلى الله على نبينا وسلم.

الدرس السادس: تابع شرح باب: من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب

بسم الله الرحمن الرحيم

لا زلنا نشرح في الباب الثاني؛ وهو: باب (مَن حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب) أيْ: ولا عذاب؛ لأنّ مَن لا يحاسَب لا يعذَّب.

وقد تقدَّم الكلام عن الآية الأولى التي صدَّر بها المصنف الباب: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. وقلنا إنّ هذه الآية فيها بيان كيفية تحقيق التوحيد.

وذكرتُ لكم في آخر المجلس أنّ مراتب التوحيد أربعة:

المرتبة الأولى –التي تكلمنا عنها– وهي: مرتبة كمال تحقيق التوحيد، وهي أعلى المراتب، وقلنا إنّ هذه المرتبة لابد فيها:

١. من العلم
٢. ويقين القلب.
٣. ونطق اللسان مع القدرة.
٤. ولا بد فيها من العمل بالتوحيد؛ بأصله وكماله.

٥. ولا بد من السلامة من الشرك بأنواعه، ومن البدع والمعاصي؛ هذا الذي قلنا: السلامة مما يَنقُضه أو يُنقِصه؛ أيْ أن يخلِّص توحيده من الشرك الأكبر، والشرك الأصغر، ومن البدع، ومن المعاصي.

٦. ولا بد في هذه المرتبة من العمل بما يقتضيه التوحيد؛ وهو: الانقياد لله عز وجل بالطاعة وامتثال الأوامر كلها؛ الواجب والمستحب منها بقدر الإمكان، واجتناب المناهي كلها؛ المحرَّم منها والمكروه بقدر الإمكان.

٧. ولا بد في هذه المرتبة مِن تعليق القلب بالله تعليقًا تامًّا لا يتطرق إليه نقصٌ بوجه من الوجوه.

٨. ولا يتحقق ذلك كله إلا بالصبر.

وإن أردتَ عبارةً جامعةً مختصرةً لبيان مرتبة كمال التوحيد؛ فنقول: إنها جمع خصال الخير بحسب الإمكان.

(جمع خصال الخير) أيْ أن يجمع خصال الخير كلها؛ وذلك في جانب الطاعة وفي جانب ترك المعصية. فيجمع التوحيد، ويجمع العمل بالواجبات، والعمل بالمستحبات بقدر الإمكان، والسلامة من الشرك، ومن البدع، والمعاصي بأنواعها، وإذا وقع في المعصية بادر بالتوبة وتاب إلى الله عز وجل.

وأمّا المرتبة الثانية: فهي مرتبة تحقيق التوحيد، وهي مرتبة دون المرتبة الأولى.

وهذه المرتبة أيضًا لابد فيها:

١. من العلم.

٢. ولا بد فيها من يقين القلب.

٣. ولا بد فيها من النطق مع القدرة.

٤. ولا بد فيها من العمل بالتوحيد؛ بأصله وكماله.

٥. ولا بد فيها من تخليص التوحيد من الشرك بأنواعه، والبدع، والمعاصي.

٦. ولا بد فيها من العمل بالأوامر الواجبة، وترك المناهي المحرمة. لابد من ترك ما نهى الله عنه نهي تحريم، وفعل ما أمر الله به أمرَ وجوب.

٧. ولا بد فيها أيضًا من الصبر.

فهذه مرتبة تحقيق التوحيد.

والفرق بينها وبين المرتبة السابقة:

١. فيما يتعلق بفعل الأوامر. فإنّ فعل الأوامر في المرتبة الأولى: فيه فعل الأوامر الواجبة والمستحبة، وهنا: فيه فعل الأوامر الواجبة.

٢. وكذلك في ترك ما نهى الله عنه. ففي المرتبة الأولى: ترك ما نهى الله عنه نهي تحريم، وما نهى الله عنه نهي كراهة بحسب الإمكان. وفي هذه المرتبة: ترك ما نهى الله عنه نهي تحريم.

٣. وقد يقع نوع من النقص لا يُخِلُّ بالتوحيد في تعلق القلب بالله –سبحانه وتعالى– في هذه المرتبة.

وأمّا المرتبة الثالثة: فهي مرتبة العمل بالتوحيد. وذلك: أن يعمل العبد بأصل التوحيد وبكماله، وأن يخلِّص توحيده من الشرك الأكبر والشرك الأصغر. فمَن فعل ذلك فقد عمل بالتوحيد.

وأمّا المرتبة الرابعة: فهي العمل بأصل التوحيد. وهي: أن يعمل العبد بأصل التوحيد ويَسلّم من الشرك الأكبر، فهذا عَمِلَ بأصل التوحيد وهو موحِّد داخل في الإسلام؛ لكن لابد لإيمانه مِن عَمَلٍ بالجوارح، والراجح عندنا أنه لابد أن يصلي.

بمعنى يا إخوة؛ إنسان قال: أشهد أن لا إله الا الله وأشهد أنّ محمدًا رسول الله، وأخلص لله سبحانه وتعالى، وبرئ من الشرك الأكبر، ولم يفعل شيئًا مما يَنقض التوحيد، لكنه وقع مثلًا في الشرك الأصغر؛ مثل أن يحلف بالنبي صلى الله عليه وسلم؛ فهو جاء بأصل التوحيد لكنه يقول: والنبي! أو يقول: وأبي! أو يقول: ورأس أمي! أو نحو ذلك؛ فهذا جاء بشي من الشرك الأصغر –كما سياتي

بيانه إن شاء الله– ولكنه لا يخرج بذلك عن الإسلام، ولا يخرج بذلك عن أن يكون موحِّدًا أصلًا؛ لكنّ هذا ينقص توحيده؛ فهذا ينافي كمال التوحيد كما سيأتي بيانه إن شاء الله.

وهذه هي أقل المراتب، فلا مرتبة في الإسلام دونها، فمَن سقط عنها –والعياذ بالله– سقط عن الإسلام.

فهذه مراتب الناس في التوحيد: إمّا مرتبة كمال تحقيق التوحيد؛ وهذه في الحقيقة للخُلَّص من عباد الله، وهم الذين معنا والذين نتكلم عنهم، وهم الذين سيكرمهم الله بهذه الكرامة العظيمة؛ وهو أنهم يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب متقدَّم.

ونكمل ما ذكره الشيخ في هذا الباب. فيتفضل الشيخ خليل –وفقه الله– يقرأ لنا.

يقول الإمام محمد بن عبد الوهاب –رحمه الله تعالى– في كتابه كتاب التوحيد في باب: مَن حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب: [وقال: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ﴾]

الله –عز وجل– لمّا ذكر أولياءه المؤمنين المفلحين؛ ذكر مِن صفاتهم هذه الصفة العظيمة: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾، هذه صفة الموحدين؛ أنهم لا

يشركون بالله؛ فلا يشركون بالله الشرك الأكبر، وهذه صفة لازمة للموحِّد، فلا يكون موحدًا أصلًا مَن لم يَسلم من الشرك الأكبر. ولا يشركون بالله الشرك الأصغر؛ وهذه صفة كمال في التوحيد.

الله –عز وجل– قال مادحًا المؤمنين المفلحين: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾؛ وهذا كما قلنا يشمل جميع أنواع الشرك: الشرك الأكبر والشرك الأصغر، فهم لا يشركون بالله شركًا ولا شيئًا.

فلا يشركون بالله شيئًا أبدًا؛ لا ملَكًا مقرّبًا ولا نبيًّا مرسلًا ولا ملِكًا من ملوك الدنيا ولا غير ذلك. ولا يشركون بالله شركًا؛ لا أكبر ولا أصغر. وهذه الصفة التي يتحقق بها –كما قلنا– العمل بالتوحيد.

ثم يترقى المؤمن إلى درجة تحقيق التوحيد.

ثم قد يجتهد ويوفقه الله فيترقّى إلى مرتبة كمال تحقيق التوحيد.

قال رحمه الله تعالى: [وعن حصين بن عبد الرحمن قال: كنت عند سعيد بن جبير فقال: أيكم رأى الكوكب الذي انقض البارحة؟ فقلت: أنا، ثم قلت: أما إني لم أكن في صلاة ولكني لُدغت، قال: فما صنعت؟ قلت: ارتقيت، قال: فما حملك على ذلك؟ قلت: حديثٌ حدثناه الشعبي، قال: وما حدثكم؟ قلت: حدثنا عن بريدة بن الحصيب أنه قال: لا رقية إلا من عين أو حمة، فقال: قد

أحسن من انتهى إلى ما سمع، ولكن حدثنا ابن عباس عن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: «عُرضت عليّ الأمم، فرأيت النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد، إذ رُفع إلي سواد عظيم فظننت أنهم أمتي، فقيل لي: هذا موسى وقومه، فنظرت فإذا سواد عظيم، فقيل لي: هذه أمتك ومعهم سبعون ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب». ثم نهض فدخل منزله. فخاض الناس في أولئك، فقال بعضهم: فلعلهم الذين صحبوا رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، وقال بعضهم: فلعلهم الذين وُلِدوا في الإسلام فلم يشركوا بالله شيئًا. وذكروا أشياء. فخرج عليهم رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فأخبروه فقال: «هم الذين لا يسترقون، ولا يكتوون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون». فقام عكاشة بن محصن فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، قال: «أنت منهم»، قال: ثم قام رجل آخر فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: «سبقك بها عكاشة»]

نعم؛ هذا الحديث العظيم الجليل رواه الإمام مسلم في الصحيح بهذه القصة وهذا اللفظ، ورواه البخاري في الصحيح بدون ذكر القصة في أوله مع تغيير في بعض الألفاظ.

إذن؛ الحديث في الجملة متفق عليه؛ لكنّ الحديث المذكور هنا بتمامه إنما هو في صحيح مسلم.

قال: (عن حصين بن عبدالرحمن) وهو من ثقات التابعين. قال: (كنت عند سعيد بن جبير) وهو من ثقات التابعين. (فقال: أيكم رأى الكوكب) أيْ النجم (الذي انقض البارحة) انقض: أيْ سقط وهوى من السماء. ويبدو –والله أعلم– أنه كان على خلاف المعتاد؛ لأنّ سقوط الشهب من السماء معتاد؛ لكن يبدو أنّ هذا السقوط كان على هيئة مختلفة؛ إمّا لكبر حجمه أو نحو ذلك؛ ولذلك سأل عنه سعيد بن جبير. البارِحة: مِن بَرَحَت؛ أيْ: ذهبتْ وزالتْ، والبارحة: أقرب ليلة مضت، أقرب ليلة مضت تسمى عند العرب البارحة. وقال أهل المعاجم: إذا تحدَّثتَ عن الليلة الماضية بعد الزوال –بعد الظهر– تقول: البارحة، وإذا تحدَّثت عن الليلة الماضية قبل الزوال تقول: الليلة. يعني أهل اللغة يقولون: لوكنتُ أريد أن أحدثكم عن شيء وقع الليلة الماضية وكنا في الصباح في الضحى مثلًا فأقول لكم: الليلة وقع حريق، الليلة نزل مطر في الناحية الفلانية، فأقول عن الليلة السابقة: الليلة. وإذا كنت أحدثكم عنها بعد الظهر فأقول لكم: البارحة. طبعًا هذا في كتب اللغة. أمّا في عرفنا اليوم فالليلة الماضية مطلقًا نقول لها: البارحة؛ سواء تحدثنا في الصباح أو تحدثنا بعد الظهر. لكن في أصل اللغة في كتب المعاجم هكذا يذكرون.

قال: (فقلت: أنا) أيْ حصين. ثم قلت: (أَمَا إني لم أكن في صلاة) انظروا حرص السلف على الإخلاص! السلف الصالح –رضوان الله عليهم– كانوا

حريصين على الإخلاص وعلى ألا يُمدَحوا بما ليس فيهم. السلف الصالح – رضوان الله عليهم– كانوا يعملون العمل الصالح فيُخفونه ما استطاعوا.

ولذلك؛ ذكرتُ لكم مرارًا وتكرارًا أنّ الإمام أحمد –رحمه الله– كان إذا كان يحدِّث الناس فخَشَع فدمعت عيناه؛ يضع يده على أنفه ويقول: ما أصعب الزكام أو ما أشق الزكام! ثم يقوم، كأنّ هذا الذي حصل من تغيُّر في صوته يُشعرِهم أنه بسبب الزكام، ما يقول: أنا مزكوم، يقول: ما أشق الزكام! وهو صادق، يضع يده على أنفه ويقول: ما أشق الزكام! الزكام شاق، لكن ما يقول: أنا مزكوم؛ لكن كأنه يشعرهم كأنه مزكوم.

هنا حصين –رحمه الله– لمّا قال: أنا، وهذا الأمر كان وقع في الليل، فقد يظن الناس أنه قام يصلي في الليل فرأى الكوكب، ماسكت وترك الناس؛ بل قال: أما إني لم أكن في صلاة؛ أيْ لا تحسِبوا أني كنت أصلي، أنا ما كنت في صلاة.

بخلاف المغرورين، المغرورون اليوم يوهِم أحدُهم الناسَ أنه يعمل الخير، فقد يأتي مثلًا يقول: البارحة وأنا مستيقظ في آخر الليل سمعتُ صوتًا غريبًا، ويسكت؛ ليُشعِر الناس كأنه كان يصلي! أمّا هذا لمّا قال: "أنا" إجابة لسؤال سعيد؛ خشي أن يفهم الناس أنه كان في صلاة فيُمدَح بما ليس فيه؛ فقال: أَمَا إني لم أكن في صلاة؛ ولكني لُدِغت، لدغتُ في هذه الليلة.

(لُدِغت) أيْ: أصابته ذاتُ سمٍّ بسمِّها، إمّا عقرب وإما حيَّة أو نحو ذلك، لكن قال العلماء: يظهر –والله أعلم– أنه سمٌّ شديد؛ ولذلك حرمه من النوم.

(قال: فما صنعتَ؟) وفي هذا: أنّ الإنسان يعتني بإخوانه، فلمّا أخبر حصينٌ سعيدًا –رحمهما الله– أنه لُدِغ؛ قال له: ما صنعتَ عندما لدغتَ؟

قال: (ارتقيتُ)؛ وهذه اللفظة لم أرها بحسب بحثي في كتب السنة؛ وإنما: (استرقيتُ)؛ وهذا الذي في صحيح مسلم. (استرقيت) أيْ: طلبتُ مَن يرقيني؛ لأنّ الألف والسين والتاء تدل على الطلب.

قال: (فما حملك على ذلك؟) يعني: ما الذي جعلك تسترقي؟ وهذا يا إخوة فيه: أنّ المسلم إذا عَلِمَ من أخيه أنه فعل شيئًا أو قال شيئًا ينبغي أن يستفسر عن سبب فعله أو سبب قوله، ولا يبادِره بالإنكار ولا يبادره بالتأنيب.

قال: (فما حملك على ذلك؟ قلت: حديث حدثناه الشعبي) وهو من كبار التابعين (قال: وما حدثكم؟ قال: حدثنا عن بريدة بن الحصيب أنه قال : لا رقية إلا مِن عين أو حُمة)، هكذا عند مسلم: عن بريدة –موقوفًا عليه– أنه قال: لا رقية إلا من عين أو حمة. وعند البخاري: (عن عمران بن حصين، موقوفًا عليه أيضًا.

إذن عند مسلم: عن بريدة موقوفًا عليه؛ لم يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

وعند البخاري: عن عمران بن حصين موقوفًا عليه؛ لم يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

لكن ورد هذا اللفظ مرفوعًا إلى النبي صلى الله عليه وسلم: «لا رقية إلا من عين أو حمة»، والمرفوع رواه الإمام أحمد في المسند، وأبو داود، وابن ماجه، والترمذي، وصححه النووي، وشعيب الأرناؤوط، والألباني. رحم الله الجميع.

إذن؛ هذا اللفظ ورد مرفوعًا صحيحًا عن النبي صلى الله عليه وسلم؛ أنه قال: «لا رقية إلا» وهذا حصر، واستشكل العلماء ذلك؛ لأنّ الرقية ثابتة في غير العين والحمه! فلماذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا رقية إلا مِن عين أو حُمة»؟

قال العلماء: معنى «لا رقية»: أيْ لا رقية أنفع مِن رقية العين ورقية الحمة. فأنفع الرقى: هي رقية العين ورقية الحمة. ولا يعني هذا أنه لا تنفع الرقية في غير العين واللدغة، بل الرقية تنفع –بإذن الله– ولا باس بالرقى ما لم تكن شركًا؛ كما قال –النبي صلى الله عليه وسلم–: «اعرضوا عليّ رقاكم، لا بأس بالرقى ما لم تكن شركًا».

قال: «لا رقية» أيْ أنفع «إلا مِن عين» والعين: إصابة العائن غيرَه بعينٍ فيسبِّب له ضررًا. والعين حق؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم.

والعين يا إخوة؛ ليس من شرطها الحسد؛ بل العين –كما دل على ذلك النصوص– تنقسم إلى قسمين:

١. عينٌ خبيثةٌ حاسدة.

٢. وعينٌ معجَبة.

فعين خبيثة حاسدة، فيصيب العائنُ مَن حَسَدَه بعينه فيسبِّب له ضررًا . مثلًا؛ يرى إنسانًا يحمل شيئًا ثقيلًا؛ فيحسده؛ فيصيبه بالعين، فلربما أصيب بمرض في ظهره حتى لا يستطيع أن يحمل شيئًا! يرى ابن جاره يذهب إلى المسجد في كل صلاة، وأبناؤه في البيت، وفي قلبه خبث؛ فيحسد ابن جاره، فيصبح ابن جاره لا يستطيع أن يذهب إلى المسجد! وقد وقفنا على شيء من هذا، شباب من الصالحين فجأة أصبح لا يستطيع أن يدخل إلى المسجد، يذهب إلى باب المسجد لا يستطيع أن يدخل، فلمّا رُقِي ذهب هذا بفضل الله.

والنوع الثاني: عينٌ معجَبة، ليست خبيثة ولكنها تصيب غيرها لأنها أُعجِبت بهذا الغير؛ بفعله أو صفته.

وهذه العين قد يصيب بها الإنسان نفسَه، قد يرى مِن نفسه شيئًا يعجبه فيصيب نفسه بالعين، وعلاج ذلك: التبريك. فمَن رأى من نفسه أو من أهله أو من جيرانه أو من إخوانه ما يعجبه فليبرِّك عليه؛ فليقل: اللهم بارك، بارك الله، تبارك الله، يدعو له بالبركة، وإن قال: ما شاء الله لا قوة الا بالله تبارك الله؛ فحسنٌ؛ لكن لا يترك التبريك. فإذا رأى شيئًا يعجبه فليقل: تبارك الله، اللهم بارك، بارك الله في فلان. وهذا باختصار.

والعين –كما قلنا– تُدفَع قبل الوقوع: بالتبريك؛ من جهة العائن.

وتُدفَع من جهة الشخص الذي يخشى أن يصاب: بذكر الله؛ أن يُحصِّن نفسَه.

وتُرفَع بعد الوقوع بأسباب؛ منها: الرقية. فرقية مَن أصيب بالعين نافعة جدًّا.

«أو حمة» الحمة: السم. وقيل: الهامة ذات السم؛ أيْ: الدابة ذات السم. قيل إنّ الحمة هي السم نفسه، وقيل: الدابة أو الهامة ذات السم.

فمِن أنفع الرقى: رقية اللدغة، لدغة العقرب، لدغة الثعبان، لدغة الحية. الرقية ترفعها إن شاء الله، وهذه من أنفع الأسباب.

إذن؛ ماذا فَهِمَ حصين من هذا الحديث؟ فهم حصين من هذا الحديث: أنّ رقية اللدغة نافعة وجائزة؛ فاسترقى.

(فقال سعيد: قد أحسن مَن انتهى إلى ما سمع) أي: لا لوم عليه، مَن انتهى إلى ما عرف مِن الدليل فقد أحسن، وأنت انتهيتَ إلى ما سمعتَ من الدليل.

(ولكن حدثنا ابن عباس عن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: «عرضت عليَّ الأمم» أيْ أنّ الأمم السابقة جميعها عُرضت على النبي –صلى الله عليه وسلم– مع رسلها، كل أمة مع رسولها.

وجاء أنّ هذا العرض كان في ليلة من الليالي في أيام الحج، ويظهر أنّ هذا في المنام. وهذا رواه الإمام أحمد، والبخاري في الأدب المفرد ، وابن حبان، والحاكم، وقال الألباني: حسن صحيح.

إذن يا إخوة؛ جاء في رواية صحيحة أنّ عرض الأمم على النبي –صلى الله عليه وسلم– كان في أيام الموسم؛ في أيام الحج، ولا زال أهل المدينة إلى اليوم يسمُّون أيام الحج بالموسم، وهذا ورد في الرواية: «في الموسم». في أيام الحج في ليلة من الليالي كان الصحابة مع رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يتحدثون، ثم ذهبوا، فلمّا أصبحوا أخبرهم.

وجاء عند الترمذي أنّ هذا العرض لمّا أسري بالنبي صلى الله عليه وسلم؛ وصححه الألباني.

والظاهر –والله أعلم– أنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– لمّا أسري به عُرِضَت عليه الأمم كحالها يوم القيامة، ولم يحدِّث أصحابه بذلك، فلمّا هاجر إلى المدينة –وكان في أيام الحج– رأى العرض في المنام – العرض الذي رآه في الإسراء رآه في المنام– فحدَّث أصحابه بهذا العرض لمّا أصبح.

هذا أدق ما قيل في هذا الباب؛ أنّ النبي صلى الله عليه وسلم رأى العرض في ليلة الإسراء؛ مُثِّلت له الأمم كما هي يوم القيامة، ثم لمّا عاد إلى الأرض لم يحدِّث أصحابه بهذا العرض بعينه، حدَّثهم بأخبار مِن أخبار الإسراء لكن ما حدَّثهم بهذا– لأنه لم يُنقَل أنه حدَّثهم بهذا– فلمّا هاجر النبي –صلى الله عليه وسلم– إلى المدينة رأى هذا العرض في المنام –ورؤيا الأنبياء حق– فلمّا أصبح حدَّث أصحابه بهذا العرض.

«عُرِضَت عليَّ الأمم» أيْ: الطوائف، عُرِضَت مع أنبيائها. «فرأيتُ النبيَّ ومعه الرهط» أيْ: معه جماعة من ثلاثة إلى تسعة، والظاهر أنه ليس نبيًّا واحدًا وإنما أنبياء،؛ منهم مَن معه ثلاثة؛ الرُهَيط، ومنهم مَن معه تسعة؛ وهو أعلى الرهط، ومنهم مَن معه دون ذلك! نبيٌّ بعثه الله عز وجل يأتي يوم القيامة وليس معه من أمته إلا ثلاثة أو خمسة أو تسعة!

«والنبي ومعه الرجل» مرّ نبيٌّ في العرض ومعه رجل واحد من قومه! «والرجلان» نبي يمر ومعه رجلان! «والنبي وليس معه أحد» يمشي نبي لوحده، ما معه أحد، ما استجاب له أحد!

وبهذا نعرف يا إخوة أنّ العبرة بالحق وليست بكثرة الناس. فالفضل والعبرة إنما هي بالحق.

مَن كان على الحق فهو أمّة ولو كان واحدًا. وكثرة الناس ليست علامة على الحق. وهذا معنى قول أهل العلم: "إنّ الناس يُعرَفون بالحق، ولا يُعرَف الحق بالناس".

قد تجد عالمًا ومعه ثلاثة طلاب فقط، في بلد من البلدان ما معه إلا ثلاثة أو أربعة، وآخر معه مئات الألوف؛ وتجد الحق مع هذا الذي معه ثلاثة أو أربعة لأنه هو المتمسك بقال الله قال رسوله صلى الله عليه وسلم. فهذا النبيّ يأتي وليس معه أحد.

قال –صلى الله عليه وسلم–: «إذ رُفِع لي سواد عظيم» السواد: هو الإنسان من بعيد، الذي نسميه نحن: الشخص؛ يُسمَّى سوادًا. أيْ: رُفِع له أشخاص مِن بعيد، ما رآهم بأعيانهم لكن رأى كثرتهم؛ ولذلك قال: «إذ رُفِع لي سواد عظيم»؛ لكثرتهم.

قال: «فظننتُ أنهم أمتي». وجاء في رواية البخاري: «قلتُ ما هذه؟ هذه أمتي؟» يعني هذا السواد العظيم الذي أراه هل هذه أمتي؟ «قيل: بل هذا موسى وقومه. فنظرت فإذا سواد عظيم». وفي رواية البخاري: «قيل انظر إلى الأفق، فإذا سواد يملأ الأفق» أيْ أنه أكثر من ذاك السواد العظيم. «ثم قيل: انظر هاهنا وهاهنا في أفاق السماء، فإذا سواد قد ملأ الأفق» يعني من جميع النواحي «فقيل لي: هذه أمتك». فأمة محمد –صلى الله عليه وسلم– أكثر الأمم في عددها.

«قيل لي: هذه أمتك، ومعهم سبعون ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب»، انظروا يا إخوة في هذه الرواية التي معنا قال: «ومعهم سبعون ألفًا» ما قالوا: (ومنهم) بل قالوا: «ومعهم». وفي رواية البخاري: «ويدخل الجنة من هؤلاء سبعون ألفًا».

لاحظوا! في رواية مسلم قال: «ومعهم سبعون ألفًا»، وفي رواية البخاري: «ويدخل الجنة من هؤلاء»؛ لماذا هذا الفرق ؟

الفرق لأنه في رواية مسلم قال: «فنظرتُ فإذا سوادٌ عظيم» فذكر السواد فقط. وفي رواية البخاري: ذكر السواد الذي ملأ الأفق، ثم ذكر السواد الذي ملأ الأفق من هنا والذي ملأ الأفق من هنا.

ففي رواية البخاري عُرِضَت كل الأمة ومنهم سبعون ألفًا. وفي رواية مسلم نظر إلى السواد العظيم فكأنه قيل له: ليس هؤلاء فقط؛ بل هؤلاء ومعهم سبعون ألفًا. أين كان هؤلاء السبعون ألفًا؟ هل كانوا غائبين؟ هذا ما فهمه بعض أهل العلم؛ لكنّ الصواب: أنهم كانوا قدَّامهم، كانوا أمامهم، وهذا ما ورد في رواية للبخاري؛ أنهم قدَّام هذا السواد، أمام هذا السواد؛ فهم المتقدِّمون عليهم. هذا معنى «ومعهم سبعون ألفًا» هم متقدِّمون عليهم «يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب».

إذن؛ هناك سبعون ألفًا من أمة محمد –صلى الله عليه وسلم– يدخلون الجنة بغير حساب؛ فلا يحاسَبون أبدًا؛ لا بعرض ولا بنقاش، ما يُفتَح لهم الحساب، مُكرَمون، ومَن لا يُحاسَب لا يعذَّب.

«ولا عذاب» "عذاب" نكرة في سياق النفي؛ فتعم كلَّ عذاب متقدِّم؛ فيدخل في ذلك: عذاب القبر. فيدخلون الجنة بغير عذاب متقدِّم؛ لا عند العرض ولا في القبر. ولا يدخلون النار، ومرورهم على النار مرور سلامة لا مرور عذاب. لأنّ الصراط يُنصَب على متن جهنم ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾، هم يمرُّون على الصراط، ولا بد؛ ولكنهم يمرون مرور سلامة، لا يصل إليهم شيءٌ من النار وكلاليبها. وسنعود إلى هذا –إن شاء الله– لنذكر بعض الفوائد.

قال: «ثم نهض» أي النبي –صلى الله عليه وسلم– «فدخل منزله»، ولم يبيِّن لهم مَن هؤلاء. والصحابة يحبون الخير ويشتاقون إليه ويريدون أن يَعلَموه لِيَمتثِلوه؛ «فخاض الناس في أولئك» أي: تَكلموا وتناظَروا وتَراجعوا الكلام، كل واحد يقول والآخر يردّ عليه، «فقال بعضهم: فلعلهم الذين صَحِبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم» هذا بالمعنى وإلا فقد جاء كلامهم في رواية البخاري؛ فإنهم قالوا: «نحن الذين آمنّا بالله، واتَّبعنا رسوله، فنحن هم» بعضهم قال: نحن الذين آمنا بالله واتّبعنا رسوله وجاهدنا المشركين ونصرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فنحن هم. «وقال بعضهم: فلعلهم الذين وُلِدوا في الإسلام فلم يشركوا بالله» يعني قال بعضهم: بل هم أولادنا الذين ما عرفوا إلا التوحيد، أمّا نحن فقد عرفنا الشرك قبل الإسلام، أمّا أولادنا فقد وُلِدوا في الإسلام فما عرفوا إلا التوحيد. يعني الذين ردّوا على الأوّلين قالوا: نحن وإن كنا آمنا بالله واتّبعنا رسول الله –صلى الله عليه وسلم– غير أنّا نشأنا في الشرك وعرفنا الشرك وإنما المراد: أولادنا نحن الذين وُلِدوا في الإسلام و ما عرفوا إلا التوحيد. وقال بعضهم غير ذلك «وذكروا أشياء».

«فخرج عليهم رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فأخبروه، فقال: «هم الذين لا يسترقون، ولا يكتوون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون»، قال: هؤلاء من أمتي من الموحدين ولهم مزيه؛ وهي:

١. أنهم «لا يسترقون» أيْ: لا يطلبون الرقية من غيرهم.

٢. «ولا يكتوون» والكي معروف؛ الكي بالنار للعلاج.

٣. «ولا يتطيرون» والطِّيَرة: هي التشاؤم. وسياتي الكلام عليه –إن شاء الله–، ولا إشكال فيها؛ لأنّ الطِّيَرة شرك، فكونهم لا يتطيَّرون لا إشكال فيه.

٤. «و على ربهم يتوكلون».

ما المراد بهذا؟

– قال بعض أهل العلم: المراد أنهم لا يتداوَون مطلقًا، إذا مرِضوا لا يتداوَون؛ بسبب اتكالهم على الله. وهذا مرجوح و غير صحيح؛ لماذا؟

لأنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– قد تداوى، فالنبي –صلى الله عليه وسلم– احتجم وهو محرِم من صداع في رأسه، من الشقيقة، النبي –صلى الله عليه وسلم– كانت تصيبه الشقيقة؛ فهو من البشر صلى الله عليه وسلم، بل يُبتلى ضِعف غيره من الأمراض، ولذلك إذا أصابته الحمّى كان يُشعَر بها مِن فوق الألْحِفَة التي فوقه صلى الله عليه وسلم! كان إذا أصابته الحمّى فوُضِعت عليه ألحِفة وليس لحافًا واحدًا لأنه يشعر بالبرد، إذا جاء أحدٌ ووضع يده فوق هذه الألحفة يجد حرارة الحمّى، فيُضعِف الله له البلاء ليضاعف له الثواب. فالنبي –صلى الله عليه وسلم– تداوى.

لمّا جُرِحَ في أُحد كانت فاطمة –رضي الله عنها– وأرضاها تغسل جرحه بالدم، وعليّ –رضي الله عنه– يأتي بالماء، ما كفَّ الدم، الدم يسيل، هي تغسل والدم يسيل، ماذا فعلت؟ داوتْ جرحه؛ جاءت بحصير فأحرقته حتى أصبح رمادًا ثم وضعته على جرحه صلى الله عليه وسلم؛ فرَقَأَ الدم.

النبي –صلى الله عليه وسلم– كانت إذا أصابته شوكة أو جرح وضع عليه الحناء.

إذن؛ النبي –صلى الله عليه وسلم– تداوى، وهو سيد المتوكلين صلى الله عليه وسلم، ولا شك أنه رأس مَن حقق كمال التوحيد؛ فلا يمكن أن يكون المعنى أنهم تركوا التداوي توكلًا على الله.

–وقال بعض أهل العلم: معنى ذلك: أنهم لا يعلِّقون قلوبهم بالسبب؛ وإنما يعلِّقون قلوبهم بالله، فهم يتداوون ولكنّ قلوبهم معلقة بالله.

وهذا القول أيضًا غير صحيح؛ لأنه لوكان ذلك كذلك لَمَا كان لهم مزية؛ فإنّ كلَّ موحِّد لا يعلِّق قلبه بالأسباب وإنما يعلِّق قلبه بالله، يفعل السبب ويَعلَم أنّ الشفاء من الله وأنّ هذه أسباب.

–وقال بعض أهل العلم: هذا خاص بما ذكره النبي صلى الله عليه وسلم؛ وهو: أنهم لا يسترقون؛ أي: لا يطلبون الرقية، ولا يكتوون؛ توكلًا على الله، ولأنّ طلب الرقية مكروه، والكي مكروه.

وهذا القول أيضًا عليه إشكال، لأنّ أسماء بنت عُميس –رضي الله عنها– قالت: إنّ أبناء جعفر تُسرِع لهم العين؛ فهل أسترقي لهم؟ قال: «نعم»؛ يعني: استرقي لهم. وهذا صحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم.

وأيضًا الكي؛ فقد ثبت أنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– أرسل طبيبًا إلى أبيّ بن كعب فكواه، وهذا في الصحيح. أبيّ بن كعب كان مريضًا فأرسل إليه النبي –صلى الله عليه وسلم– رجلًا ليعالجه، فقطع منه عرقًا وكواه.

وثبت أنّ أنس بن مالك –رضي الله عنه– كُوِيَ في زمن النبي –صلى الله عليه وسلم– وبحضرة بعض الصحابة، والذي كواه: أبو طلحة الصحابي رضي الله عنه. وهذا أيضًا في الصحيح.

بل أبلغ من هذا؛ ثبت أنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– كوى أسعد بن زرارة، كما عند الترمذي بإسناد صححه الألباني. فالنبي –صلى الله عليه وسلم– بنفسه كوى أسعد بن زرارة من الشوكة. وهذا عند الترمذي وصحح إسناده الألباني.

ولذلك؛ الذي يظهر لي –والله أعلم–: أنّ أدقّ ما قيل في معنى قول النبي –صلى الله عليه وسلم–: «الذين لا يسترقون ولا يكتوون»: أنهم لا يفعلون ذلك مع عدم الحاجة الشديدة. لا يفعلون ذلك إلا إذا تعيَّنت، أصبح لا بد من ذلك؛ وإلا فإنهم يتركونها.

«وعلى ربهم يتوكلون» فهم معلِّقون قلوبهم بربهم تعليقًا تامًّا.

هذه خلاصة ما ذكره العلماء مع بيان الأدلة في نقد كل قول.

والذي ظهر لي –وهو الذي فهمته من كلامٍ لشيخنا الشيخ ابن باز رحمه الله عز وجل– أنهم لا يفعلون ذلك مع عدم الحاجة الشديدة. والمقصود: أنهم معلِّقون قلوبهم بالله تعلُّقًا تامًّا.

(فقام عكّاشة بن محصن) عكّاشة بتشديد الكاف هذا هو الأشهر عند أهل اللغة وعند أهل الحديث. ويقال أيضًا: عكَاشة بفتح الكاف وتخفيفها. والتشديد هو الأشهر عند أهل اللغة وعند أهل الحديث.

عكّاشة بن مُحصِن صحابي جليل، (قال: ادعُ الله أن يجعلني منهم) يعني في هذه الرواية قال: (ادعُ الله أن يجعلني منهم). فقال: «أنت منهم».

وجاء في رواية: أنّ عكّاشة –رضي الله عنه– قال: (أمنهم أنا؟) بالسؤال، «فقال: أنت منهم».

وجاء في رواية: أنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– دعا له أن يكون منهم.

والذي يظهر –والله أعلم– أنّ عكاشة –رضي الله عنه– سأل النبي –صلى الله عليه وسلم– أن يدعو الله أن يجعله من السبعين ألفًا، فدعا له، فلمّا دعا له رجا؛ فقال: أمنهم أنا؟ فقال: «أنت منهم».

كيف عرف أنه منهم؟

قال بعض أهل العلم: بوحيٍ أوحاه الله إليه.

وقال بعضهم: بل لعله رآه في العرض فعرفه.

الشاهد: أنّ عكّاشة –رضي الله عنه– من السبعين ألفًا؛ الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب؛ بشهادة رسول الله عليه وسلم.

وقد عاش عكاشة موحِّدًا طائعًا ومات شهيدًا؛ ولذلك يقولون: هذه من علامات نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم؛ فإنّ عكاشة –رضي الله عنه– عاش على التوحيد، وعاش ممدوحًا على طاعته، ومات شهيدًا في سبيل الله .

«ثم قام رجل آخر فقال: ادعُ الله أن يجعلني منهم» يريد مثل عكّاشة «فقال النبي –صلى الله عليه وسلم–: سبقك بها عكاشة»؛ لماذا قال النبي –صلى الله عليه وسلم–: «سبقك بها عكاشة» ولم يقل له: أنت منهم، ولم يقل له: لست منهم، ما ذكر لا نفي ولا إثبات؛ بل قال: «سبقك بها عكاشة »؟

– قال بعض أهل أعلم: لأنّ الرجل كان من المنافقين، ولم يُرِد النبي – صلى الله عليه وسلم– أن يقول له إنك لست منهم؛ فجاءه بالتعريض: «سبقك بها عكاشة». وهذا مرجوح، بل ضعيف، بل مردود؛ وذلك لأمرين:

الأمر الأوّل: أنّ الأصل في الصحابة عدم النفاق، فالصحابة –رضوان الله عليهم– جميعهم مرضيٌّ عنهم، والمنافقون كانوا مع الصحابة وليسوا منهم، مثل إبليس مع الملائكة؛ كان معهم وليس منهم.

الأمر الثاني: أنه لو كان منافقًا لَمَا كان مصدِّقًا بِمَ يخبر النبي –صلى الله عليه وسلم– به. المنافق لو صدَّق النبي –صلى الله عليه وسلم– في خبره لآمن، لكن لكونه لا يصدِّق النبي –صلى الله عليه وسلم– هو منافق، فلو كان منافق كيف يقول: ادعُ الله أن يجعلني منهم وهو ما يصدِّق النبي صلى الله عليه وسلم ؟! فلا يمكن أن يكون منافقًا.

– وقال بعض أهل العلم: قال له النبي –صلى الله عليه وسلم– ذلك لأنه عَلِمَ أنه لا يبلغ هذه الدرجة التي بلغها عكاشة التي أخبر عنها النبي صلى الله عليه وسلم، فلم يُرِد أن يُحزِنه فيقول: لست منهم؛ فقال له: «سبقك بها عكاشة».

– وقال بعض أهل العلم: بل أراد النبيُّ –صلى الله عليه وسلم– سدَّ الباب؛ فإنه لو دعا للرجل لقام ثالث فقال: يا رسول الله ادعُ الله أن يجعلني منهم، ثم

يقوم رابع، ثم يقوم خامس، ثم يقوم سادس، ويقوم الصحابة كلهم! فأراد النبي –صلى الله عليه وسلم– سدّ الباب.

والشاهد من هذا الحديث يا إخوة: بيان أنّ الموحدين مراتب، وليسوا على مرتبة واحدة؛ وأنّ أكملهم: هؤلاء السبعون ألفًا الذين حققوا مرتبة كمال تحقيق التوحيد.

هل عددهم سبعون ألفًا؟

في هذا الحديث الذي معنا: «ومعهم سبعون ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب».

لكن صحَّ أنّ عددهم أكثر من ذلك؛ فقد جاء في قول النبي –صلى الله عليه وسلم– ما يدل على أنّ الله يتفضَّل على محمد –صلى الله عليه وسلم– ويزيد عددهم عن السبعين ألفًا.

فقد قال النبي –صلى الله عليه وسلم–: «وعدني ربي أن يُدخِل الجنة مِن أمتي سبعين ألفًا بغير حساب ولا عذاب» هؤلاء هم السبعون ألفًا «ومع كل ألفٍ سبعين ألفًا»، وفي رواية: «سبعون ألفًا» إذن؛ هذه زيادة.

وقد ذكر بعض أهل العلم أنّ الظاهر أنه لمّا عَلِمَ النبي –صلى الله عليه وسلم– أنّ الله يُدخِل من أمته سبعين ألفًا بغير حساب ولا عذاب رجا الله أن

يزيد الأمة من هذا؛ والنبي –صلى الله عليه وسلم– رؤوف رحيم، فوَعَدَه الله؛ ووعد الله حق؛ والأمر كائن.

إذن؛ مع كل ألفٍ من السبعين ألفًا: سبعون ألفًا. وقد جاء في الرواية بالنصب وجاء بالرفع.

إذن؛ نضرب سبعين في سبعين ألف: سبعة في سبعة بتسعة وأربعين؛ فيصبح المجموع: أربعة مليون وتسعمائة ألف، زد عليهم السبعين ألفًا؛ فيصبح المجموع: أربعة مليون وتسعمائة وسبعين ألفًا. **هل هذا فقط؟**

لا؛ بل يوجد زيادة؛ قال النبي –صلى الله عليه وسلم–: «وثلاث حثيَّات من حثيَّات ربي» أيْ وَعَدَه الله –عز وجل– أن يُدخِل أيضًا مِن أمته الجنة بغير حساب ولا عذاب ما هو ثلاث حثيَّات من حثيَّات ربي.

والمقصود بالحثيَّات: ملء اليدين، والمقصود: تكثير العدد؛ أنه فوق أربعة مليون وتسعمائة وسبعين ألفًا؛ يكرِم الله أيضًا بزيادة: ثلاث حثيات من حثيات ربنا –سبحانه– من أمّة محمد –صلى الله عليه وسلم– يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب.

فلا ينبغي لأحدنا اليوم أن ييأس.

كثير من المؤمنين الموحدين غرّهم الشيطان وقال: أنت لست منهم، ولن تكون منهم، أنت تحت! فلا يسعى ولا يجتهد.

المؤمن لا ييأس؛ بل يرجو فضل الله، ولا يتقاعَس؛ بل يعمل ويجتهد، ويسأل الله، ويدعو الله؛ لعله أن يكون من هؤلاء.

وهؤلاء السبعون ألفًا يدخلون الجنة على صفة عظيمة؛ وهي: أنّ وجوههم تضيء إضاءة القمر ليلة البدر. وهذا ورد في الصحيحين.

أيضًا؛ يدخلون متماسكِين لا يتقدَّم بعضهم بعضًا، فهم متماسكون، آخذٌ بعضهم بعضًا، لا يدخل أوّلهم حتى يدخل آخرهم، يدخلون دفعة واحدة لا يتقدَّم واحدٌ منهم على إخوانه بعد أن تُفتَح الجنة للنبي صلى الله عليه وسلم.

والنبي –صلى الله عليه وسلم– ذكر هذا الحديث ليحثَّنا على أن نكون من أهل هذه الطبقة من طبقات الموحِّدين.

ولذلك جاء في مسند الإمام أحمد وعند ابن حبان: أنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– قال لمّا عُرضت عليه الأمم: «فأين أمتي؟ فقيل لي: انظر عن يمينك؛ فنظرتُ فإذا الظِّراب قد سُدَّ بوجوه الرجال» الظِّراب: الجبال الصغيرة، «قد سُدَّ بوجوه الرجال. ثم قيل لي: انظر عن يسارك، فإذا الأفق قد سُدَّ بوجوه الرجال،

فقيل لي: أرضيتَ؟ فقلت: رضيتُ يا رب، رضيتُ يا رب. فقيل لي: إنّ مع هؤلاء سبعين ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب».

إذن؛ انتبهوا يا إخوة؛ هنا ذُكرت ثلاثة أقسام:

١. مَن على يمين النبي صلى الله عليه وسلم؛ وقد سَدُّوا الظِّراب؛ أي: الجبال الصغيرة. وهذا يعني أنهم أقلّ عددًا ممن على اليسار.
٢. ومَن على يسار النبي –صلى الله عليه وسلم– قد سدُّوا الأفق؛ وهذا لكثرتهم بالنسبة لمَن على يمينه.
٣. ومع هذين القسمين قسم ثالث: وهم سبعون ألفًا؛ يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب.

فقال النبي –صلى الله عليه وسلم– مخاطبًا أمته –فاسمعوا– قال: «فدىً لكم أبي وأمي؛ إن استطعتم أن تكونوا من السبعين ألفًا فافعلوا» اجتهدوا «فإن قصَّرتم؛ فكونوا من أهل الظِّراب» يعني من أهل اليمين؛ لأنّ كونهم على اليمين دليل على فضيلة؛ فهم بعد السبعين ألفًا، «فإن قصَّرتم فكونوا من أهل الأفق» هذه المرتبة الثالثة، «فإني قد رأيتُ ثَمَّ ناسًا يتهاوَشون»، وفي رواية: «يتهارَشون»، وفي رواية: «يتهرَّشون». والحديث صححه الشيخ أحمد شاكر، وصححه الشيخ الألباني.

ومعنى: «فإني قد رأيت ثَمَّ» أيْ: بعد، بعد هذه الأصناف الثلاثة، أناسًا هم من شرار الخلق، «يتهاوَشون» أيْ: يتهاوشون على الدنيا؛ فيتدافعون على الدنيا وهمُّهم الدنيا، يتنافسون على الدنيا. أو «يتهارَشون» بمعنى: يتقاتلون، يقاتل بعضهم بعضًا. وهؤلاء من شرار الخلق؛ فلا تكونوا منهم.

إذن؛ النبي –صلى الله عليه وسلم– يخاطب المؤمنين من أمته ويستميل قلوبهم بقوله: «فدىً لكم أبي وأمي» يستميلهم بهذا «إن استطعتم أن تكونوا من السبعين ألفًا فكونوا، فإن قصَّرتم فكونوا من أهل الظِّراب، فإن قصَّرتم فكونوا من أهل الأفق، وإياكم أن تكونوا من الشرار»

فدلَّ هذا يا إخوة على ما قدَّمناه؛ وهو: أنّ أهل التوحيد يوم القيامة يكونون على مراتب– ولا شك–:

- منهم مَن يدخل الجنة بغير حساب ولا عذاب. وهم مَن ذكرنا وبيَّنا في معنى هذا الحديث.
- ومنهم مَن يدخل الجنة بعد أن يُعرَض عليه الحساب عرضًا، فلا يدخل النار لكن يُعرَض عليه الحساب، يدني اللهُ عليه كَنَفَه؛ فيُعرِض عليه ذنوبه؛ أتذكر ذنب كذا؟ أتذكر ذنب كذا؟ حتى إذا قرَّره بذنوبه وأقرّ بها ورأى أنه قد هلك؛ قال الله: «قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم»،

فيكون نصيبه العرض؛ ثم يدخل الجنة. وهؤلاء هم الذين يَلوْون الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب.

- ومنهم مَن يناقَش الحساب، ومَن نوقِش الحساب عُذِّب، ومَن نوقِش الحساب هلك؛ فيدخل النار، ثم يخرج منها فورًا بشفاعة الملائكة، وشفاعة الرسل، وشفاعة إخوانه الصالحين الذين كان معهم ولم يبلغ مرتبتهم، لكن كان معهم يحبهم ويجالسهم؛ فيشفعون، فيحرِّمهم الله على النار –هؤلاء الشفعاء من الصالحين– ويأمرهم الله أن يدخلوا النار –وقد حرَّمهم على النار –ويقول: أخرجوا مَن تعرفون منهم، فيُخرِجون إخوانهم الذين كانوا يعرفون واستحقوا دخول النار . وهذه يا إخوة مِن أعظم منافع مجالسة الصالحين، الذي يجالس الصالحين أهل التوحيد وأهل السنة، كلما وجدتَ أقوامًا يحققون التوحيد وعلى صلاح وديانة احرص أن تكون معهم. فيُخرِجون مَن يعرفون، ثم يُخرِج الله مَن شاء بلا شفاعة.
- ومنهم مَن يدخل النار ويعذَّب في النار ثم يخرج منها؛ غير أنّ مواطن الوضوء لا تصيبها النار منه. وهذا دليل على ما قدمناه يا إخوة وكررناه مرارًا؛ مِن أنّ الصلاة لابد منها؛ فإنه لا يتوضأ إلا مصلٍّ.

إذن؛ أهل التوحيد كما أنهم في الدنيا مراتب في توحيدهم؛ فإنهم في الآخرة مراتب في دخلوهم الجنة.

ونحن في سباق ومسارعة، وكلٌّ منّا ينبغي عليه أن يحرص على أن يكون من السابقين المسارعين.

ولا تيأس يا عبد الله، لا تيأس أبدًا، بل اجتهد، علِّق قلبك بالله، وأحسِن ظنك بالله، واجعل رجاءك في الله، وأذِلَّ الجسد لله، واجتهد في الطاعة بما تستطيع؛ لتنال المراتب العلا.

أسال الله –عز وجل– أن يجعلني وإياكم ووالدِينا ومَن نحبّ مِن أهل هذه المراتب العليا.

ونقف هنا ونكمل غدًا إن شاء الله. ونجيب عن بعض أسئلة إخواننا. والله أعلم.

الدرس السابع: تابع شرح باب: من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب

بسم الله الرحمن الرحيم

درسُنا في شرح كتاب التوحيد كما تعلمون يا أهل التوحيد. وكما ذكرنا مرارًا وتكرارًا؛ فإنّ المسلمَ المحبَّ لله –عز وجل– المحبَّ لرسول الله –صلى الله عليه وسلم– يحبُّ التوحيد، ويحبُّ سماع التوحيد، ولا يملُّ من ذلك أبدًا.

ونحن في شرحنا لهذا الكتاب –كتاب التوحيد– كنا قد فرغنا من شرح الكتاب الثاني وهو: باب (من حقق التوحيد حقق الجنة بغير حساب). وبقي معنا أن نقرأ المسائل التي ذكرها الشيخ في آخر هذا الباب، ونعلق ما يحتاج إلى تعليق. فيتفضل الشيخ خليل –وفقه الله– يقرأ لنا.

قال المصنف رحمه الله تعالى: [فيه مسائل. الأولى: معرفة مراتب الناس في التوحيد]

نعم؛ تقدَّم معنا يا إخوة؛ أنّ الناس في التوحيد مراتب في الدنيا ومراتب في الآخرة.

الناس في الدنيا في التوحيد مراتب:

- منهم من يعمل بأصل التوحيد.
- ومنهم من يعمل بالتوحيد كله؛ أصله وكماله.

- ومنهم من يحقق التوحيد.
- ومنهم من يحقق كمال تحقيق التوحيد.

وهم في الآخرة كذلك مراتب؛ على وِفْق مراتبهم في التوحيد في الدنيا تكون مراتبهم في الآخرة، كما تقدّم معنا.

قال رحمه الله: [الثانية: ما معنى تحقيقه]

نعم؛ وبيَّنا معنى تحقيق التوحيد، وقلنا إنّ تحقيق التوحيد مرتبتان:

- مرتبة كمال.
- ومرتبة تحقيق.

وبيَّنا كيف يكون هذا وكيف يكون هذا.

وقلنا باختصار: تحقيق كمال التوحيد: هو جمع خصال الخير في الفعل: الواجبة والمستحبة بحسب الإمكان، وفي الترك: ترك المحرم والمكروه بحسب الإمكان.

وأنّ تحقيق التوحيد: هو جمع خصال الخير الواجبة؛ بفعل الواجبات وترك المحرمات. وهذا رأس الواجبات: التوحيد، ورأس المحرمات: الشرك.

قال رحمه الله: [الثالثة: ثناؤه –سبحانه– على إبراهيم بكونه لم يكن من المشركين]

فلابد من التوحيد، ومن البراءة من الشرك، ثم لابد مِن قدر زائد وهو: أن لا يكون الموحِّد من المشركين؛ فلا يكون منهم بفعله، ولا يكون معهم بقلبه.

لا يكون منهم بفعله؛ فلا يكون من المشركين بالله.

ولا يكون معهم بقلبه؛ بل يبرأ من الشرك وأهله.

قال رحمه الله: [الرابعة: ثناؤه على سادات الأولياء بسلامتهم من الشرك]

نعم؛ أي ثناؤه على المؤمنين المفلحين؛ الذين هم أهل الجنة؛ بسلامتهم من الشرك ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾، فلابد في الوليّ يا إخوة مِن أن يكون موحِّدًا سالمًا من الشرك، لا يمكن أن يكون الولي تاركًا للتوحيد أو لكمال التوحيد، أو يكون مشركًا بالله؛ فيرضى أن يُدعى من دون الله.

إذا وجدتَ الرجل يُدعى من دون الله ويستغاث به من دون الله وهو راضٍ ويأخذ من الناس الأموال مقابل هذا؛ فاعلم يقينًا أنه ليس وليًّا لله. لا يمكن أن يكون وليُّ الله مشركًا بالله أيَّ إشراك. وهذه مسألة مهمة، فإنّ كثيرًا من المسلمين يغترون ببعض دعاة الولاية وهم ليسوا أهلًا لها. بمجرد أن يُشيع عن طريق أتباعه أنه حصل له من الخوارق كذا وحصل له كذا؛ يتعلَّق به بعض

الناس! مع أنه يُرى لا يُصلي، ما يصلي مع الناس، ولا تجد عليه آثار الطهارة والنظافة، ويرضى بأن يُشرَك بالله به فيكون شريكًا مع الله، فيُطلَب منه الولد وهو يهزّ رأسه، ويُطلَب منه الرزق! ويقولون: هذا ولي! ويفعل المعاصي؛ ويقولون: هذا ولي!

وسبحان الله! الشيطان حتى يحصِّن أولياءه أَورَد لهم شيئًا حتى إذا رأى الناس مِن هذا الذي يقال إنه ولي رأوا منه ما يخالف الدين ما يَنزِعون عنه الولاية؛ قالوا: "إنّ الكريم إذا وَهَبَ ما سَلَبَ"، يقولون: إنّ الكريم إذا وهب -الكريم الذي هو الله- إذا وهب ما سلب، حتى إذا رأيته يزني؛ يقولون: الكريم إذا وهب ما سلب! حتى إذا رأيته يشرك؛ يقولون: الكريم إذا وهب ما سلب! حتى يُحصِّن الشيطان أولياءه! هذا والله كذب؛ الإنسان قد يوحِّد الله ثم يرتد والعياذ بالله.

إذن يا إخوة؛ لا يمكن أن يكون وليّ الله مشركًا بالله، ولا يمكن أن يكون ولي الله مجافيًا لسنة نبي الله صلى الله عليه وسلم؛ لأنّ رأس الأولياء محمد صلى الله عليه وسلم، ولا يمكن لولي إلا أن يتابع رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال رحمه الله تعالى: [الخامسة: كون ترك الرقية والكي من تحقيق التوحيد]

ينبغي أن يقول: (ترك الاسترقاء) لأنه تقدّم معنا أنهم «لا يسترقون»؛ وليس المراد ترك الرقية مطلقًا؛ فإنّ رقية الإنسان لنفسه ليست مكروهة، والنبي –صلى الله عليه وسلم– رقاه جبريل، ورُقِيَ النبي صلى الله عليه وسلم، وكان الصحابة كانوا يرقون، ولكن المقصود: ترك الاسترقاء.

وقلنا هنا يا إخوة المقصود هنا: ترك الاسترقاء من غير حاجة شديدة، أمّا إن وُجِدت الحاجة الشديدة فلا بأس أن يطلب الإنسان الرقية.

إنسان أصابته عين وأصبح ما يستطيع يقرأ القرآن، قرأ على نفسه ما ارتفعت العين، يجوز بلا حرج ولا يخرج من السبعين ألفًا إن شاء الله –إن جاء بالقيود– أن يطلب مَن يرقيه. وكذلك الكي، مِن كمال تحقيق التوحيد أن يترك الإنسان الكي من غير حاجة شديدة.

قال رحمه الله: [السادسة: كون الجامع لتلك الخصال هو التوكل]

نعم؛ الجامع لتلك الخصال المحمودة المذكورة: أنهم على ربهم يتوكلون. فالمناط هو تعليق القلب بالله؛ أن تعلِّق قلبك بالله على كل الأحوال، كنت في الضيق تعلِّق قلبك بالله، كنت في السعة تعلِّق قلبك بالله، وتنقاد لله سبحانه وتعالى.

قال رحمه الله: [السابعة: عمق علم الصحابة –رضي الله عنهم– بمعرفتهم أنهم لم ينالوا ذلك إلا بعمل]

نعم؛ لمّا ذكر النبي –صلى الله عليه وسلم– السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، ثم قام ولم يقل لهم شيئًا بدأ الصحابة يبحثون عمن ينال هذه المزية، فعلِموا أنه إنما تُنال هذه المزية بالعمل، فبعضهم قال: نحن الذين آمنا بالله وصدقنا رسول الله فنحن هؤلاء. وبعضهم قال: بل أولادنا الذين نشئوا في الإسلام أمّا نحن فقد نشأنا في الجاهلية. فكان من عمق علم الصحابة أنهم علموا أنّ هذه المنزلة إنما تنال بالعمل.

قال رحمه الله: [الثامنة: حرصهم على الخير]

حرصهم على الخير؛ لأنّ خوضهم في هؤلاء إنما هو لينالوا هذه المنزلة، فهم حريصون على الخير.

قال رحمه الله تعالى: [التاسعة: فضيلة هذه الأمة بالكمية والكيفية]

نعم؛ هذه الأمة أفضل الأمم، ويوم القيامة تظهر كرامتها.

-**أمّا بالكمية**؛ فهي أكثر الأمم يوم القيامة، لا تدانيها إلا أمة موسى –عليه السلام– وهي أقل بكثير من أمة محمد صلى الله عليه وسلم؛ لأنّ أمة محمد –

صلى الله عليه وسلم– يوم القيامة تسد الأفق من الأمام، وتسد الأفق من اليمين، وتسد الأفق من الشمال. فهي أكثر الأمم يوم القيامة.

–**وأما بالكيفية**؛ فهو أنّ منها سبعين ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، بل سيكون مع كل ألفٍ سبعون ألفًا، فيكون المجموع كما قلنا: أربعة مليون وتسعمائة ألف، ثم زد عليهم سبعين ألفًا فيصبح أربعة مليون وتسعمائة وسبعين ألفًا، ثم يكرم الكريم أمة محمد –صلى الله عليه وسلم– بعدد كثير يدخل الجنة بغير حساب ولا عذاب لا يعلم قدره إلا الله؛ لأنها ثلاث حثيَّات من حثيَّات ربنا سبحانه وتعالى.

فهذه الأمة أكرم الأمم يوم القيامة؛ عددًا: من جهة كثرتها، وكيفية: من جهة دخول عدد كثير منها الجنة بغير حساب ولا عذاب.

بل زد على ذلك؛ أنّ أمة محمد –صلى الله عليه وسلم– نصف أهل الجنة؛ كما رجا النبي صلى الله عليه وسلم؛ النبي –صلى الله عليه وسلم– قال لأصحابه: «إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة» يعني أمتي، (فقالوا: الله أكبر! قال: «إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة» قالوا: الله أكبر! قال: «إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة»، وهذه كرامة لأمة محمد صلى الله عليه وسلم.

قال رحمه الله: [العاشرة: فضيلة أصحاب موسى عليه السلام]

نعم؛ لأنهم مُيِّزوا في الأمم بأنهم سوادٌ عظيم، وهذا يدل على كثرة من اتّبع موسى عليه السلام.

[الحادية عشر: عرض الأمم عليه صلى الله عليه وسلم]

نعم؛ وهذا لشرفه صلى الله عليه وسلم، فمقام النبي –صلى الله عليه وسلم– مقام عظيم، فالله عرض عليه الأمم –كما قلنا على الراجح– عرض عليه الأمم في الإسراء على هيأتها يوم القيامة، وعرض الأمم عليه في المنام ليلة يوم من أيام الحج؛ وذلك تسلية له –صلى الله عليه وسلم– وبشارة له، ومن ثَمَّ تسلية للأمة وبشارة للأمة.

يا عبد الله! لا تحتقرن الأمة اليوم؛ ولكن اِسعَ على أن تكون موحِّدًا وعلى أن تنشر التوحيد.

أمة محمد –صلى الله عليه وسلم– أكرم الأمم إن وحَّدتِ الله. إنما نخشى على هذه الأمة من تركها للتوحيد.

ولذلك يا إخوة؛ أمة محمد –صلى الله عليه وسلم– لو تمسكت بالتوحيد لكانت خير الأمم، فلا تحقرنّ هذه الأمة اليوم وتقول: سبقتها الأمم ووو، خَفْ فقط عليها مِن ترك التوحيد.

فاجتهد في أن تكون موحِّدًا أنت بنفسك، وادعُ الناس إلى التوحيد، فإن حصل ذلك فو الله إنّ هذه الأمة خير الأمم على الإطلاق.

قال رحمه الله: [الثانية عشر: أنّ كل أمة تُحشَر وحدها مع نبيها]

لأنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– لمّا عُرضت عليه الأمم رأى النبيَّ ومعه الرهط، والنبيَّ ومعه الرُّهيط، والنبيَّ معه الرجل والرجلان، والنبيَّ ليس معه أحد، فلو كانوا يأتون مختلطين لَمَا لميّزهم النبي صلى الله عليه وسلم؛ لكن دلّ ذلك على أنّ كل أمة تأتي مع نبيها.

قال رحمه الله تعالى: [الثالثة عشر: قلة من استجاب للأنبياء]

الله المستعان! النبيُّ يأتي ومعه عشرة من قومه فقط اتّبعوه، ويأتي ومعه رجل واحد اتّبعه وصدق به فقط، ويأتي ومعه رجلان، ويأتي نبيٌّ ليس معه أحد؛ لم يستجب له أحد.

قال رحمه الله تعالى: [الرابعة عشر: أنّ مَن لم يجبه أحدٌ يأتي وحده]

نعم؛ يأتي النبيُّ وحده، لم يستجب له أحد في الدنيا؛ فيأتي يوم القيامة وحده.

قال رحمه الله: [الخامسة عشر: ثمرة هذا العلم؛ وهو: عدم الاغترار بالكثرة، وعدم الزهد في القلة]

نعم؛ إذا علمنا يا إخوة أنّ أنبياء الله –عليهم السلام– الذين استجابوا لهم قلة، وأنّ النبي قد يأتي ولم يستجب له أحد؛ فإنّ هذا يجعلنا لا نغتر بالكثرة، ولا نزهد في القلة؛ وإنما ننظر إلى الحق، فمَن كان على الحق فهو أمّة ولو كان واحدًا.

ما نغتر بكثرة الناس ونقول: هؤلاء على الحق؛ انظر مسجدهم مليء، الناس يصلون في الشوارع؛ إذن هؤلاء على الحق! وهؤلاء ثلاث صفوف إن كثروا؛ إذن هؤلاء على الباطل! لا، العبرة بالحق، فمَن تمسك بالحق ووجدتَ الذي عنده قال الله قال رسوله صلى الله عليه وسلم قال الصحابة ويقرِّر ما قرَّره الأئمة؛ فهؤلاء أهل الحق ولو كانوا قلة.

فإذا علمتَ أنّ النبيَّ يُبعث إلى قومه فلا يجيبه أحد؛ إذن الكثرة الكاثرة كفروا به؛ فكيف تجعل الكثرة دليلًا على الحق؟!

قال رحمه الله: [السادسة عشر: الرخصة في الرقية من العين والحمة]

والصحيح: أنّ الرقية مرخَّصٌ فيها مالم تكن شركًا، وهي نافعة من كل داء، فالرقية مأذونٌ فيها ما لم تكن شركًا بالله. لكن قلنا إنها أنفع في العين واللدغة.

قال رحمه الله: [السابعة عشر: عمق علم السلف؛ لقوله: (قد أحسن من انتهى إلى ما سمع ولكن كذا وكذا) فعلم أنّ الحديث الأول لا يخالف الثاني]

نعم؛ لأنّ سعيدًا لم يرَ التعارض بين حديث بريدة وعمران وحديث ابن عباس –رضي الله عنهما– بل رأى أنه يمكن أن يُجمَع بينهما؛ ولذلك لم يَعِب عليه.

قال رحمه الله: [الثامنة عشر: بُعد السلف عن مدح الإنسان بما ليس فيه]

نعم؛ ما كان السلف يحرصون على أن يُمدَحوا بما ليس فيهم؛ بل كانوا يحرصون على أن يُخفوا ما فيهم، كان السلف يحرص الواحد منهم على أن يخفي ما فيه من الخير إلا أن يكون مأمورًا بإظهاره. ومن باب أولى أنهم كانوا لا يحرصون على أن يُمدَحوا بما ليس فيهم، بل لو خشي أحدهم أن يُفهَم أنّ فيه شيئًا ليس فيه فإنه ينفي ذلك عن نفسه كما معنا في هذا الحديث.

قال رحمه الله: [التاسعة عشر: قوله صلى الله عليه وسلم: «أنت منهم» عَلَمٌ من أعلام النبوة]

قول النبي –صلى الله عليه وسلم– لعكاشة رضي الله عنه: «أنت منهم» علم من أعلام النبوة، لأنه كما قلنا أيها الإخوة؛ عكاشة –رضي الله عنه– عاش على التوحيد ومات شهيدًا؛ فهذا عَلَم من أعلام النبوة.

قال رحمه الله: [العشرون: فضيلة عكاشة]

ونشهد لعكاشة بعينه أنه من أهل الجنة؛ لأنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– شهد له بذلك.

قال رحمه الله: [الحادية والعشرون: استعمال المعاريض]

ما هي المعاريض؟ المعاريض: هي أن تعبِّر عن المقصود بلفظٍ قد يُفهَم منه شيءٌ آخر. واستعمال المعاريض عند الحاجة لا بأس به.

ثبت عن عمر –رضي الله عنه– أنه قال: "إنّ في المعاريض كفاية للمسلم عن الكذب".

وعن عمران قال: "إنّ في المعاريض لمندوحة عن الكذب"، وهذا ثابت موقوفًا عن بعض الصحابة لكنه لم يثبت مرفوعًا إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

لكن استعمل النبي –صلى الله عليه وسلم– المعاريض، ولذلك؛ لمّا كان النبي –صلى الله عليه وسلم– في مسير وكان معه غلام يَحدو للإبل، وكان صوته نديًّا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «رفقًا يا أنجشة، رفقًا بالقوارير» وفي رواية: «لا تكسر القوارير» فعرّض النبي –صلى الله عليه وسلم– هنا قال: «لا تكسر القوارير» والقوارير هنا: هنّ النساء.

وحدثت قصة في زمن النبي –صلى الله عليه وسلم– أنّ قومًا قدموا إلى النبي –صلى الله عليه وسلم– ومعهم وائل بن حُجر؛ فأخذه عدوٌّ له، فتحرَّج

القوم أن يحلفوا؛ فقام سويد منهم –رضي الله عنه وأرضاه– وقال: والله إنه أخي! فلمّا حلف سويد أنه أخوه تركه الرجل؛ لأنه يريد وائلًا وهو لا يعرف وائل، لكن لمّا قال له سويد إنه أخي ظن أنه ليس وائلًا. فلمّا قدموا إلى النبي –صلى الله عليه وسلم– وأخبروه قال: «أنت أبرُّهم وأصدقهم؛ المسلم أخو المسلم» فعرَّض هنا قال: أخي؛ أيْ في الإسلام، والرجل ظن أنه أخوه في النسب.

وأبو بكر الصديق –رضي الله عنه– لمّا هاجر مع النبي –صلى الله عليه وسلم– وكان أبو بكر شيخًا يُعرَف، وكان الرسول –صلى الله عليه وسلم– لا يُعرَف –أي في الطريق–، فإذا سئل أبو بكر عنه قال: هذا رجلٌ يهديني السبيل، فالسامع يظن أنه دليل يدله على الطريق، وهو يقصد أنه يهديه صراط الله المستقيم ويبيّن له صراط الله المستقيم. فهذه المعاريض.

والنبي –صلى الله عليه وسلم– هنا استعمل المعاريض؛ لأنه قال: «سبقك بها عكاشة»، ولم يقل للرجل: لست منهم، لكن قال: «سبقك بها عكاشة»؛ فعرَّض.

قال رحمه الله: [الثانية والعشرون: حسن خلقه صلى الله عليه وسلم]

الله أكبر! النبي –صلى الله عليه وسلم– أحسن الناس أخلاقًا، خلقه عظيم صلى الله عليه وسلم، والشاهد هنا: أنه لم يُرِد أن يواجه الرجل بقوله لست منهم؛ فعبّر بتعبير يكفي؛ فقال: «سبقك بها عكاشة»، وهذا من حسن خلقه صلى الله عليه وسلم.

ولا شك أيها الإخوة؛ أنّ من حسن الخلق ألا تباشِر الإنسان بما يكره، وأن تتلطف في إيصال الخبر الذي يكرهه إليه.

تابع الدرس السابع: شرح باب الخوف من الشرك

قال رحمه الله تعالى: [باب الخوف من الشرك]

انتبهوا يا إخوة؛ لا زلنا في كليات التوحيد. الشيخ –رحمه الله– بدأ بالترغيب الذي يقود المؤمن إلى ما ينبغي في التوحيد، فبيّن فضل التوحيد وما يكفّر من الذنوب، وبيّن أنّ من الموحِّدين من يدخل الجنة بغير حساب ولا عذاب، وهذا يقتضي منّا أن نحب التوحيد، وأن نحب أهل التوحيد، وأن نتعلم التوحيد، وأن نعمل بالتوحيد، فجاء بهذا الباب: باب (الخوف من الشرك)؛ لأنّ مَن عَلِمَ فضل التوحيد كان التوحيد عنده كنزًا عظيمًا فيخاف عليه.

فمما ينبغي على المؤمن تجاه التوحيد: أن يخاف من ضده؛ فذكر الشيخ هذا الباب.

فمقصود الباب: بيان أنّ الموحِّد مع توحيده وحبه للتوحيد وبراءته من الشرك وأهله يخاف من الشرك بأنواعه، فيخاف أن يشرك بالله شيئًا؛ وذلك لعظم التوحيد عند المؤمن.

قال رحمه الله تعالى: [وقول الله عز وجل:﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ الآية]

نعم؛ هذه الآية فيها بيان أنّ الشرك أعظم الذنوب على الإطلاق، وأكبر الكبائر على الإطلاق، وأقبح ما عُصي الله به على الإطلاق؛ لأنّ ربنا الرحيم الغفور يقول: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ "أن" و"الفعل" مؤَّلةٌ بالمصدر: لا يغفر الإشراك به؛ وذلك لعظم قبح ذلك الذنب، ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ من الذنوب ﴿لِمَن يَشَاءُ﴾وهم أهل التوحيد.

قال المفسرون يا إخوة –وانتبهوا لهذا–: الاستثناء هنا لأهل التوحيد. ومعنى هذا يا إخوة: أنّ الله لا يغفر الإشراك به، ولا يغفر للمشرِك به ذنبًا، بل يؤاخَذ المشرِك بجميع ذنوبه، وإنما يغفر الله ما دون الشرك لأهل التوحيد، فمَن كان موحِّدًا وأذنب فإنّ الله يغفر ذنبه إن شاء.

وهذا يا إخوة يدل على أنّ مرتكب الكبيرة من الموحدين تحت المشيئة؛ لأنّ الله عز وجل قال: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾، وما دون ذلك منه: الكبائر.

ولذا؛ جاء عن ابن عمر –رضي الله عنه– أنه قال: (ما زلنا نمسك عن الاستغفار لأهل الكبائر)؛ لأنّ نصوص الوعيد في الكبائر عظيمة قال: (كنا نمسك عن الاستغفار لأهل الكبائر؛ حتى سمعنا من نبينا صلى الله عليه وسلم:﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾، قال صلى

الله عليه وسلم: «فإني أخرت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي يوم القيامة»؛ فاجتمعت الآية والحديث.

الآية تدل على أنّ الله قد يغفر لصاحب الكبيرة الموحِّد إن شاء ذلك سبحانه وتعالى. والحديث يدل على أنّ الشفاعة تنفع أهل الكبائر بإذن الله؛ لأنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: «فإني أخرت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي يوم القيامة». قال ابن عمر –رضي الله عنهما–: (فأمسكنا عن كثيرٍ مما كان في أنفسنا)؛ يعني من أنهم كانوا لا يستغفرون لأهل الكبائر. وهذا رواه البزار، وأبو يعلى، وابن أبي عاصم، وصححه الألباني.

فجاءت هذه الآية على كل نصوص الوعيد في الكبائر، وأنّ مرتكب الكبيرة يدخل تحت المشيئة.

طيّب؛ ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ قلنا لأنّ الشرك إثم عظيم، هنا مسألة:﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ أي لا يغفر الإشراك به، وقد علمنا –وسيأتينا إن شاء الله– أنّ الإشراك نوعان: أكبر، وأصغر، والله عز وجل يقول:﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ أي لا يغفر الإشراك به.

وقد اتفق العلماء على أنّ من مات مشركًا بالله شركًا أكبر لا يُغفَر له، ولا يدخل الجنة أبدًا.

واختلفوا فيمن مات وهو يشرك بالله شركًا أصغر ولم يتب من ذلك، كان طوال عمره يقول: والنبي –وهذا سيأتينا أنه من الشرك الأصغر ليس من الشرك الأكبر– أو يقول: والأمانة، أو يقول: ورأس أمي، أو يتطير، حتى مات؛ فهل يُغفَر له؟ اختلف العلماء في ذلك:

- قال بعض أهل العلم: لا يُغفر ذلك؛ وإنما يدخل تحت الموازنة، فإن رجحت حسناته دخل الجنة، وإن رجحت سيئاته دخل النار. لماذا؟ قالوا: لأنّ الله قال:﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ وهذا شرك.

- وذهب بعض أهل العلم إلى أنه يدخل تحت المشيئة؛ إن شاء غفر الله له وإن شاء عذبه. وهذا هو الراجح. ما الدليل على هذا الرجحان؟

الدليل على هذ الرجحان: أنّا وجدنا أنّ كثر النصوص عند الإطلاق يراد بالشرك فيها: الشرك الأكبر، أكثر النصوص التي ورد فيها الشرك عند الإطلاق يراد به: الشرك الأكبر؛ كما قال الله –عز وجل–:﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾، مأواه النار: أي منزله ومآله النار، وقد أجمع العلماء على أنّ الشرك هنا: هو الشرك الأكبر. **هذا الوجه الأول.**

والوجه الثاني: أنّا وجدنا أنّ الشرك الأصغر يخالف الشرك الأكبر في كثر من الأحكام؛ منها:

- أنّ الشرك الأكبر يخرج من الملة، أمّا الشرك الأصغر فلا يخرج من الملة. هذا الذي يحلف بغير الله مسلم لا يخرج من ملة الإسلام.

- ومنها: أنّ الشرك الأكبر موجِب للخلود في النار لمن مات عليه، أمّا الشرك الأصغر فليس موجبًا للخلود في النار لمن مات عليه، حتى لو دخل النار فإنه يُخرَج منها.

- ومنها: أنّ الشرك الأكبر لا يدخل تحت الموازنة، المشرك شركًا أكبر ليس له عمل صالح حتى يدخل تحت الموازنة، بخلاف الشرك الأصغر فإنه يدخل تحت الموازنة بالاتفاق. حتى الذين يقولون: إنه لا يُغفر لا يدخل تحت المشيئة يقولون: يوضَع في الميزان.

إذن؛ وجدنا أنّ الشرك الأصغر يخالف الشرك الأكبر في أكثر أحكامه ولم تبقَ إلا هذه المسألة. وهذه المسألة محتمِلة بالنسبة للآية؛ فلأن تُلحَق ببقية المسائل أولى.

ولذلك الصحيح: أنّ الشرك الأصغر يدخل تحت المشيئة.

فإن قال لي قائل: إنّ الله –عز وجل– قال هنا: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ وقال في الآية الأخرى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ ۚ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾، فهناك قال الله: ﴿إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ ولم يستثنِ شيئا؟!

قلنا: لا تعارض بين الآيتين، فإنّ الآية ﴿إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ فيمن تاب، فمعنى الآية: قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم مهما فعلتم من الذنوب ولو أشركتم لا تقنطوا من رحمة الله بل توبوا إلى الله فإنّ الله يغفر الذنوب جميعًا لمن تاب، ولو كان مشركا بالله قبل التوبة فتاب فإنّ الله يغفر ذنبه ويبدل سيئاته حسنات.

وأمّا هذه الآية:﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ فهي فيمن وافى بذنبه، فلم يتب. فمَن وافى مشركًا بالله شركًا أكبر؛ فمات على الشرك الأكبر؛ فإنّ الله لا يغفر ذنبه، لا الشرك ولا غير الشرك من الذنوب ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾.

ما مناسبة هذه الآية لباب الخوف من الشرك؟

مناسبة هذه الآية للخوف من الشرك: أنّ المسلم إذا علم أنّ الله لا يغفر الشرك لمن مات عليه فإنه يخاف من ذلك؛ لأنّ المسلم يريد مغفرة الله ويريد عفو الله.

قال رحمه الله تعالى: [وقال الخليل–عليه السلام–:﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾]

نعم؛ ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾مِن دعاء إبراهيم عليه السلام أنه قال: ﴿واجنبني﴾ قال بعض أهل العلم معنى ﴿اجنبني﴾: اعصمني. وقال بعض أهل العلم: احفظني. وقال بعض أهل العلم: باعِد بيني وبين عبادة الأصنام؛ فاجعلني في جانب وهي في جانب.

﴿واجنبني وبَنِيَّ﴾ قال بعض أهل العلم: المراد ببنيه هنا: مَن تناسَل منه، نسله، وهذا ليس صحيحًا؛ لأنه وقع الشرك في نسل إبراهيم –عليه السلام– في الأمم بعد إبراهيم عليه السلام.

ولكن المراد هنا على الصواب: نسله من صلبه، ذريته من صلبه، وليست الأمم. فإنّ المعلوم أنّ من كفار قريش من ينتسب إلى إبراهيم –عليه السلام– لكنه ليس من صلبه. فالمقصود: بنوه من صلبه.

قال بعض أهل العلم: إنّ لإبراهيم –عليه السلام– ثمانية أبناء. وقال بعض أهل العلم: بل له ابنان؛ ومَن تناسل منهما أبناؤهما، أبناؤه وأبناء أبنائه، وأبناء أبناء أبنائه، وهؤلاء هم الذين استُجيب لإبراهيم فيهم.

إذن؛ أهل العلم لهم قولان:

-**القول الأول**: أنهم كل مَن بعد إبراهيم عليه السلام. وهنا يقولون: لم يستجب الله لإبراهيم –عليه السلام– هذا الدعاء، لأنّ ممَّن ينتسب إلى إبراهيم مَن أشرك بالله.

-**ومنهم من يقول**: هم بنوه من صلبه، أي: بنوه، وبنو بنيه، وبنو بني بنيه. وهؤلاء لم يكن منهم مشرك.

﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ الأصنام: جمع صنم، والصنم: ما عُبد من دون الله وكان مصوَّرًا، على هيأة صورة، سواء صورة بوجه أو بدون وجه، ما صوِّر وعُبد من دون الله فهو صنم.

والوثن: ما عُبد من دون الله ولو لم يكن على هيأة صورة؛ مثل القبر، القبر إذا عُبد من دون الله فهو وثن.

والشاهد من ذلك: أنّ إبراهيم الخليل خليل الله كان يخاف من الشرك، فإذا كان إبراهيم –عليه السلام– كان يخاف من الشرك فمن باب أولى نحن، أن نخاف من الشرك.

ولذلك قال إبراهيم التيمي –رحمه الله–: "مَن يامن البلاء بعد قول إبراهيم: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾؟!

ولذلك؛ المؤمن الناصح لنفسه دائمًا يكون حذرًا من المعاصي، خائفًا من المعاصي، ما يغتر بصلاحه، ولا يغتر بعلمه، بل يكون دائمًا خائفًا من المعاصي؛ ورأس ذلك أن يكون خائفًا من الشرك أبدًا ما دام حيًّا.

قال رحمه الله: [وفي الحديث: «أخوَف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر» فسئل عنه فقال: الرياء»]

الله المستعان! هذا الحديث الذي رواه الإمام أحمد والطبراني والبيهقي وحسّن إسناده الألباني، فيه أنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: «أخوَف ما أخاف عليكم» يا معاشر الموحِّدين؛ لأنّ الخطاب للصحابة «الشرك الأصغر»، فسئل عنه فقال: «الرياء».

جاء أنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: «إنّ أخوَف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر» قالوا: وما الشرك الأصغر؟ قال: «الرياء، يقول الله –عزو جل– لأصحاب ذلك يوم القيامة إذا جازى الناس: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء؟» رواه الإمام أحمد، وصححه الألباني.

وهذا الشرك –أيضًا– سمّاه النبي –صلى الله عليه وسلم–: الشرك الخفي؛ لأنه يا إخوة يتسلل إلى القلوب تسللًا، فقال النبي –صلى الله عليه وسلم–: «ألا

أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «الشرك الخفي، أن يقوم الرجل فيزيّن صلاته لِمَا يرى من نظر الرجل» رواه ابن ماجه، والبيهقي، وحسّنه الألباني.

وسمَّاه النبي –صلى الله عليه وسلم–: شرك السرائر؛ لأنه يقع في القلوب؛ فقد خرج النبي –صلى الله عليه وسلم– فقال: «يا أيها الناس! إياكم وشرك السرائر» قالوا: وما شرك السرائر يا رسول الله؟ قال: «يقوم الرجل فيزيّن صلاته جاهدًا؛ لِمَا يرى من نظر الناس إليه»، رواه ابن خزيمة، وحسنه الألباني.

عندنا هنا أمور:

الأمر الأول: الشرك الأصغر هل هو الرياء؟

نقول: لا، الشرك الأصغر أعمّ من الرياء. فمِن الشرك الأصغر: الحلف بغير الله. ومن الشرك الأصغر: التطيُّر. ومن الشرك الأصغر: الرياء.

والرياء من أخبث أنواع الشرك الأصغر، ولذلك فُسِّر هنا الشرك الأصغر في الحديث بأنه الرياء؛ لأنه من أخبث أنواع الشرك الأصغر. فكان أخوَف ما يخافه النبي –صلى الله عليه وسلم– على الأمة: الرياء.

ولذلك؛ يقول ابن القيم –رحمه الله–: "فذلك البحر الذي لا ساحل له؛ وقلّ أن ينجو منه أحد"؛ أي الرياء.

إذن؛ ما هو الشرك الأصغر؟ ما معناه؟

الشرك الأصغر: هو كل ما سُمِّي في النصوص شركًا ولم يبلغ حدّ الشرك الأكبر، أو كان ذريعة موصلة إلى الشرك الأكبر يقينًا –يعني من سلكه لابد يصل إلى الشرك الأكبر– أو غلبة ظن.

طيّب؛ يقول لي قائل: كيف نعرف أنّ ما سُمي في النصوص شركًا يكون شركًا أصغر دون الشرك الأكبر؟

ذكر العلماء لهذا علامات:

– منها: النص على أنه شرك أصغر؛ مثال ذلك: هذا الذي معنا «أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر»، وفسره النبي –صلى الله عليه وسلم– بأنه الرياء.

– ومنها كما قال العلماء: أن يأتي منكَّرًا غير معرَّف؛ فيقال: شرك؛ فهنا يكون المراد به الشرك الأصغر؛ كما قال النبي –صلى الله عليه وسلم–: «إنّ الرقى والتمائم والتولة شرك». وسيأتي الكلام عن هذا إن شاء الله.

– ومنها: أن يظهر بالقرائن أنّ المقصود من الشرك هنا هو الشرك الأصغر؛ مثل أن تقع واقعة فيصفها النبي –صلى الله عليه وسلم– بأنها شرك ولا يأمر فاعليها بالدخول في الإسلام مثلًا، كما سيأتينا –إن شاء الله– في مسألة ما يتعلق بالأنواء.

– ومنها: أن يظهر أنّ المقصود أنها من أخلاق الكفار؛ فلا يكون ذلك شركًا أكبر.

– ومنها: فَهْم الصحابة رضوان الله عليهم. وستأتينا أمثلة –إن شاء الله– في هذا الكتاب.

طيّب؛ الرياء كيف يُدفَع؟ ما دام أنه خفي كيف يدفعه الإنسان؟

قال العلماء: يدفع المسلم الرياء إن كان ظاهرًا: بالتخلُّص منه. وإن كان خفيًّا لا يظهر له: بالاستعاذة بالله منه.

يعني الإنسان قد يرى الرياء في نفسه، يكبّر وهو يرائي الناس؛ فيدفع هذا بمجاهدة نفسه والتخلُّص. وقد يكون خفيًّا فيتسلل ولا يشعر به الإنسان؛ فيكون التخلص منه: بالاستعاذة منه؛ فإنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: «يا أيها الناس! اتقوا هذا الشرك؛ فإنه أخفى من دبيب النمل»، فقيل له: وكيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل؟ فقال –صلى الله عليه وسلم–: «قولوا: اللهم إنّا نعوذ بك أن نشرِكَ بك شيئًا نعلمه، ونستغفرك لِمَا لا نعلمه»، وهذا الحديث رواه الإمام أحمد، وصححه الألباني وغيره.

إذن؛ كيف يدفع المسلم الرياء؟

– إن كان ظاهرا يجده ويعرفه: بالمجاهدة والتخلُّص.

–وإن كان خفيًّا: فبالدعاء. فيستعيذ بالله –عز وجل– أن يشرك بالله شيئًا وهو يعلم ويستغفره لِمَا لا يعلم.

إذا كان ذلك كذلك؛ فما أثر الرياء على الأعمال؟

الرياء الذي هو من الشرك الأصغر وضابطه أن لا يغلب على عبادة الإنسان؛ وإنما يعرض، بمعنى: أنّ الإنسان يعبد الله لكن يطرأ عليه أحيانًا أنه يرائي الناس؛ فيُظهِر العمل الصالح أمام الناس ليُمدَح على ذلك. أمّا إذا كان –والعياذ بالله– غالبًا على عبادة الإنسان فهو لا يصلي إلا رياء ولا يصوم إلا رياء ولا يحج إلا رياء ولا يتصدق إلا رياء؛ فهذا عابدٌ للناس ليس عابدًا لله! هذه حال المنافقين، والعياذ بالله.

إذن؛ الرياء الذي هو من الشرك الأصغر ما أثره في عمل الإنسان؟

- الرياء إمّا أن يقع في عمل متصل.
- وإمّا أن يقع في عمل ينفصل.

فإن وقع في عمل يتصل، ما مثاله؟ أن يقع في الصلاة، الصلاة لا تتجزأ، الصلاة عمل متصل من أوله إلى آخره؛ تُفتتح بالتكبير وتُختتم بالتسليم. فإن وقع في الأصل فإنّ العمل لا ينعقد أصلًا.

إنسان –والعياذ بالله– دخل المسجد، فلمّا دخل المسجد فإذا بالشيخ في المسجد أو الأمير في المسجد، فكبّر وأظهر حسن الصلاة أمام الشيخ أو أمام الأمير أو أمام هذا المعظَّم، كبَّر مظهِرًا حسن صلاته، مرائيًا لهذا الأمير عند التكبير؛ هذا ما دخل في الصلاة، ما انعقدت الصلاة.

طيِّب؛ ماذا يصنع من دخل في الصلاة مرائيًا ثم أثناء الصلاة عافاه الله من هذا الرياء؟

يجب أن يبدأ الصلاة من الأول، ما يصلح يا إخوة أن يستمر؛ لأنّ الصلاة ما انعقدت، فإذا دفع الرياء مثلًا –أعوذ بالله– كبّر وهو مرائي وقرأ: ﴿الحمد لله﴾ ويُظهِر الخشوع والبكاء، يرائي الشيخ، يرائي الأمير، يرائي المعظَّم، ثم بعدما قال: ﴿ولا الضالين﴾ جاءه ما نبهه وقال: أنت تقول ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ وأنت على غير صراطٍ مستقيم! فقال: أعوذ بالله وأستغفر الله. هل يستمر في صلاته؟ إذا استمر في صلاته ما صحَّت. ماذا يفعل؟ يبدأ من جديد مخلصًا لله: الله أكبر.

إذن؛ إذا وقع الرياء في عمل متصل ووقع في أصل العمل: فإنّ العمل لم ينعقد أصلًا.

أمّا إذا لم يقع في أصل العمل ولكنه طرأ أثناء العمل؛ يعني كبّر مخلصًا لله، ومعه اثنان يصليان خلفه، كبَّر مخلصًا لله وبدأ يقرأ ﴿الحمد لله رب العالمين﴾، ولمّا قال: ﴿ولا الضالين﴾ فإذا به جمعٌ خلفه؛ يقولون: آمين، فجاءه الشيطان فبدأ يقرأ وجاءه الرياء، عرض الرياء أثناء العمل؟

هنا إن دفعه أثناء الصلاة صحَّت صلاته، ولا ينقص أجره؛ لأنه إذا دفعه فقد تاب، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له. فمَن بدأ مخلصًا ثم عرض له الرياء ثم دفعه بقصدٍ وإرادة وسلَّم مخلصًا فصلاته صحيحة، ولا ينقص ذلك من أجره؛ لأنه تائب.

أمّا إن عرض له الرياء في أثناء العمل، واستمر إلى أن فرغ منه، ما دفعه، استسلم له، فالصحيح من أقوال أهل العلم: أنّ عمله باطل.

يعني يا إخوة إنسان يصلى مع الجماعة، وكان مخلصًا لله، فصف بجواره أحدٌ يريد أن يخطب ابنته، فلمّا صف بجواره راءاه؛ حتى يرى أنه من عباد الله الصالحين، واستمر مرائيًا إلى أن قال: السلام عليكم ورحمة الله، السلام عليكم ورحمة الله! بطلت صلاته، ويجب عليه أن يأتي بهذه الصلاة؛ لأنه ما أدى الفرض. **هذا العمل المتصل**.

أمّا إذا كان العمل منفصلًا، ينفصل بعضه عن بعض؛ فهنا: يبطل ما يصيبه الرياء فقط.

مثلًا إنسان عنده ألف ريال يريد أن يتصدق بها، وقسمها مائة مائة، فجاء إلى فقير فأعطاه المائة لله، ثم جاء إلى الفقير الثاني فأعطاه المائة وهو يلتفت مَن يراه؟ لمّا رأى الناس ينظرون؛ أعطاه المائة؛ ليقول الناس: كريم! ثم ذهب إلى الثالث وأعطاه لأنّ الناس ينظرون إليه وراءى الناس، ثم عاد إلى الإخلاص وأكمل الألف؟

يقول العلماء: صحَّت منه الثمانمائة التي أخلص فيها، ولا يُقبل منه ما تصدَّق به من المائتين هذه التي راءى فيها؛ لأنّ الله لا يقبلها منه.

طيب؛ لو فرضنا أنّ هذا في الزكاة، عليه زكاة الفطر مثًلا، عشرة آصع في بيته، فأخرج صاعًا لله، وأخرج صاعًا لله، وأخرج صاعًا لله، في الصاع الرابع أخرجه رياءً، ثم أكمل مخلصًا؟ يبقى عليه صاع يجب عليه أن يخرجه؛ لأنه ما صحَّ منه.

طيِّب؛ إذا وقع الرياء بعد العمل؟ عمل مخلصًا لله، مخلصًا لله تمامًا، بعد ما عمل وفرغ ولو بعد ساعة أو ساعتين أو يوم سمّع بعمله؟ صلى لله في الليل مخلص لله وخشع لله، لكن لمّا التقى بأحد أصدقائه جاء الشيطان وضحك عليه –ليس من باب التشجيع ونحو ذلك– قال: البارح صليت صلاة ما شاء الله،

خشعت فيها خشوعًا عجيبًا! وهو يريد أن يسمّع، لا يريد أن يشجع ولا يريد أن يخبر والده مثلًا بما يسرُّه، لا، بل يريد أن يسمِّع ليُمدح؟ فهذا لا يبطل عمله؛ لكنه يأثم بالتسميع؛ «فمن سمّع سمّع الله به»، فيكون آثمًا بالتسميع، وإن كان البطلان لا يلحق العمل لأنه تم صحيحًا. هذا التحقيق من كلام أهل العلم.

طيِّب؛ لو مُدح الإنسان على العمل بدون قصد منه؟ يعني لم يُرِد أن يُمدَح لكن مدحه الناس؟

هذا لا يضره، وهذا من عاجل بشرى المؤمن؛ أن يُثني الناس على الإنسان، هذا من عاجل بشرى المؤمن.

إذا كان ذلك كذلك؛ فإنّا نعرف لماذا أورد الشيخ هذا الحديث هنا في هذا الباب، وذلك:

أولًا: لأنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– خافه على الأمة خوفًا شديدًا، وإذا خافه النبي –صلى الله عليه وسلم– علينا ألا نخاف نحن منه؟!

والأمر الثاني: أنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– سمّاه شركًا، والمؤمن يخاف من الشرك.

والأمر الثالث: أنه يُحتمَل أن يدخل في قول الله: ﴿إنّ الله لا يغفر أن يُشرَك به﴾؛ لأنه شرك –على قولٍ كما قلنا– وما دام أنه محتمِل فالمؤمن يخاف أن

يفعل فعلًا فلا يُغفَر له والعياذ بالله. إذن هذا يدل على الخوف من الشرك وعلى أنّ المؤمن يخاف من الشرك.

ولعلنا نقف عند هذا الموطن، ونكمل غدًا -إن شاء الله عز وجل- ما تبقى من هذا الباب. ونجيب عن شيءٍ من أسئلة إخواننا. والله أعلم.

الدرس الثامن: تابع شرح باب الخوف من الشرك

بسم الله الرحمن الرحيم

لا زلنا يا معاشر الموحدين يامن تحبون التوحيد وإذا سمعتم التوحيد فرحتم به، لازلنا في باب الخوف من الشرك، وقد تقدم معنا بيان المراد بهذا الباب.

وقد ذكر الشيخ –رحمه الله عز وجل– في هذا الباب أدلة عظيمة تجعل المؤمن يخاف من الشرك خوفا عظيمًا.

– منها قول الله –عز وجل–: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾. فإذا عَلِمَ المؤمن أنّ الله الرحيم لا يَغفر لمن يُشرِك به ولا يَغفر الإشراك به فإنه يخاف من الشرك خوفًا عظيمًا.

ومنها؛ أنّ أولياء الله يخافون من الشرك خوفًا عظيمًا. فإبراهيم –عليه السلام– خليل الرحمن كان يدعو ويُلح في الدعاء، ومن دعائه: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾[سورة إبراهيم:٣٥]، فكان يسأل الله أن يجعله بعيدًا وبنيه عن عبادة الأصنام، وهذا يدل على أنّ الموحد الخائف من الله يخاف من الشرك، ولو كان موحدًا ولو كان غير مشرِك فإنه يخاف من الشرك، ويسأل الله –عز وجل– أن يجنبه الشرك وأن يثبته على التوحيد إلى أن يلقى الله سبحانه وتعالى.

ومنها؛ أنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: « إنّ أخوَف ما أخاف عليكم: الشرك الأصغر»، قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «الرياء». فالرسول –صلى الله عليه وسلم– كان يخاف على أمته خوفًا شديدًا من الشرك الأصغر الذي هو الرياء.

وأنت أيها المؤمن يامن تحب رسول الله –صلى الله عليه وسلم– إذا علمتَ أنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– كان يخاف عليك الشرك الأصغر خوفًا شديدًا؛ فإنك تخاف من الشرك الأصغر خوفًا شديدًا، ومن باب أولى أن تخاف من الشرك الأكبر خوفًا عظيمًا.

وقد تقدَّم شرح هذه الأدلة شرحًا تفصيليًّا. ونكمل اليوم –إن شاء الله عز وجل– ما أورده الشيخ من أدلةٍ في هذا الباب. فيتفضل الشيخ خليل – وفقه الله– يقرأ لنا.

يقول الإمام الشيخ العلامة محمد بن عبدالوهاب –رحمه الله تعالى– في كتابه كتاب التوحيد، في باب: الخوف من الشرك: [وعن ابن مسعود أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «مَن مات وهو يدعو لله ندًّا دخل النار» رواه البخاري]

نعم؛ هذا الحديث العظيم الذي رواه البخاري في الصحيح فيه نذارة وفية بشارة. وقد ذكر الشيخ ما يتعلق بالنِّذارة لأنّ الباب في الخوف من الشرك.

فعن ابن مسعود –رضي الله عنه– أنّ رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال: «مَن مات»؛ وهذا يُخرِجُ مَن تاب، فمَن كان يدعو لله ندًّا ويدعو مع الله أحدًا ثم تاب إلى الله توبة نصوحًا فإنّ الله يفرح بتوبته، ويقبله، ويبدّل سيئاته حسنات، ولا يدخل في هذا الوعيد الشديد.

«مَن مات وهو يدعو لله ندًّا» الدعاء هو العبادة، والله –عز وجل– نهانا عن عبادة غيره؛ فقال سبحانه: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا﴾[سورة الجن: ١٨]، فأنتم يا معاشر المؤمنين مخاطَبون بهذه الآية؛ ربكم –سبحانه وتعالى– يقول: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾؛ فالعبادة لله؛ لأنّ المساجد أماكن للعبادة، ﴿فَلَا تَدْعُوا﴾ فالله –عز وجل– ينهانا، ﴿مَعَ اللهِ أَحَدًا﴾، و"أحدًا" هنا نكرة في سياق النفي؛ فتعم كل أحد من دون الله: الملائكة، والأنبياء، والأولياء، والصالحون، فماذا يقول المؤمن إذا سمع هذه الآية؟ يقول: سمعتُ وأطعتُ، فلا يدعو مع الله أحدًا، ولا يقول: إنّ شيوخي يقولون، أو إنّ آبائي يفعلون، كيف لا يسمع قول الله سبحانه وتعالى؟!

فالدعاء هو العبادة، سواء كان دعاء العبادة مِن صلاةٍ وغيرها، أو دعاء المسألة؛ كأن يقول العبد: اللهم ارزقني، اللهم أكرمني؛ ونحو ذلك.

وأمّا سؤال الناس الأحياء ما يستطيعونه؛ فهذا ليس دعاء شرعًا؛ هذا يسمى مسألة، ويُسمى سؤالًا، ولا يُسمى دعاء شرعًا، وإن سُمي دعاء من جهة اللغة، أمّا من جهة الشرع فلا يُسمى دعاء.

«مَن مات وهو يدعو لله ندًّا» ندًّا: أي مِثْلًا. وهذا يدل يا أخوة على أنّ مَن دعا دون الله فقد جعله ندًّا لله، وجعله مِثْلًا لله سبحانه وتعالى، وهذا أعظم الظلم، وأخطر الآثام.

الله –عز وجل– ليس كمثله شيء، وكيف يكون لله مِثل والله هو الغني بذاته، والمخلوقات فقيرة إلى الله بذواتها؟! ما مِن مخلوق إلا وهو فقير إلى الله، والله –سبحانه– هو الغني بذاته.

كيف يجعل العبد لله ندًّا ومِثْلًا والله هو الذي خلقه، وهو الذي رزقه، وهو الذي رباه بالنعم، وهو –سبحانه– منفرد بهذا؟! والله ما شارَك اللهَ أحدٌ في خلقك، ولا شارَك اللهَ أحد في رزقك، ولا شارك اللهَ أحدٌ في النعم، المنعِم عليك هو الله.

والله لو اجتمع الخلق كلهم على أن يرزقوك نعمة النظر ساعة واحدة ما استطاعوا، وإنما الذي يُنعِم هو الله.

وإذا كان المنعِم والمربي بالنعم هو الله ليس له ندٌّ في هذا؛ فلابد أن يكون المعبود هو الله ليس له ندٌّ في هذا، ومَن جعل لله ندًّا فقد ظلم أعظم الظلم.

ولذلك الله –عز وجل– قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[سورة البقرة: ٢١] هذا أول أمر في القرآن، أول أمر أمرنا الله به: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا﴾، اعبدوا: يعني وحِّدوا –كما تقدم معنا–،﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ والرب: هو الذي ربّانا بالنعم؛ فهو المستحق للعبادة، ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾وأنتم تعلمون ذلك، ﴿وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُم﴾وأنتم تعلمون ذلك، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ فخلقكم لحكمة عظيمة وهي: أن تتقوه بالتوحيد. ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا﴾ هل شاركه أحد؟ لا والله، ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ هل شاركه أحد؟ لا والله، ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ هل شاركه أحد؟ لا والله؛ ﴿ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ وهذا أوّل نهي في القرآن. ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ كيف يستقيم أن تجعلوا لله أندادًا وأنتم تعلمون أنّ الله هو الذي خلقكم وهو الذي رزقكم سبحانه وتعالى؟!

إذن؛ أعظم الظلم وأكبر الآثام أن تجعل لله ندًّا، ولذلك لمّا سُئل النبي –صلى الله عليه وسلم–: أيُّ الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك» متفق عليه. قال: أعظم الذنوب أن تجعل لله ندًّا؛ أي أن تجعل لله مِثلًا فتدعوه وهو خلقك سبحانه وتعالى؛ فكيف تجعل له ندًّا فقيرًا ضعيفًا؟!

سبحان الله يا إخوة! الأنبياء –عليهم السلام– دعاة التوحيد هم أعظم البشر؛ ومع ذلك لا يملكون لأنفسهم ضرًّا ولا نفعًا.

النبي –صلى الله عليه وسلم– سيدنا وسيد الخلق وسيد ولد آدم أجمعين وأفضل الخلق –صلى الله عليه وسلم– ومع ذلك كُسِرت رباعيته صلى الله عليه وسلم، وأُدمِي صلى الله عليه وسلم؛ ما دفع عن نفسه مع شجاعته! مات ابنه إبراهيم بين يديه ونفسه تقعقع ما استطاع أن يفعل له شيئًا! لماذا؟ لنعلم أنّ الخلق كلهم مفتقرون إلى الله.

فمِن الظلم العظيم أن تترك الغني بذاته، وتسأل الفقير بذاته.

ولذلك؛ النبي صلى الله عليه وسلم–ما قال هذا أحد من الناس بل الذي قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم– لمّا سُئل: أيُّ الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك»، وبيّن في آخر الحديث العلة في كونه أعظم الذنوب؛ وهو: أنّ الله الذي خلقك فكيف تجعل لله ندًّا ومثيلًا ومِثلًا تدعوه من دون الله؟!

ولاشك أنّ المسلم إذا علم أنّ مَن مات وهو يدعو لله ندًّا يدخل النار ولابد؛ لا شك أنه سيخاف خوفًا شديدًا من الشرك، ويحذر الشرك دائمًا.

وقد استدل بعض أهل العلم بهذا الحديث على عذاب القبر؛ قالوا: لأنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– لم يجعل بين هذا الرجل وبين دخول النار إلا الموت؛ فيدل هذا على عذاب القبر.

وأمّا البشارة في حديث ابن مسعود؛ فهي: أنّ «مَن مات وهو لا يدعو لله ندًّا دخل الجنة»، فمن مات موحِّدًا فلابد أن يدخل الجنة، إمَّا ابتداء وإمّا انتهاء بعد تمحيصه إن كان له من الأعمال ما يستحق به دخول النار ولم يعفُ الله –عز وجل– عنه.

وهذه الجملة الأخيرة جاءت من قول ابن مسعود –رضي الله عنه– قال: وقلتُ أنا: (مَن مات وهو لا يدعو لله ندًّا دخل الجنة)، و جاءت مرفوعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

أحسن ما قيل في هذا؛ أنّ ابن مسعود –رضي الله عنه– قالها أولًا استنباطًا واجتهادًا، ثم سمعها من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

إذن؛ مَن مات وهو يدعو لله ندًّا دخل النار؛ لأنه مشرك والمشرك قد حرّم الله عليه الجنة، وأوجب له النار، وما للظالمين من أنصار.

قال رحمه الله تعالى: [ولمسلم عن جابر –رضي الله عنه– أنّ رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال: «مَن لقي الله لا يُشرك به شيئًا دخل الجنة، ومَن لقيه يشرك به شيئًا دخل النار»]

هذا الحديث الصحيح عن جابر –رضي الله عنه– أنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: «مَن لقي الله»؛ وهذا الذي يسميها العلماء بـ"الموافاة"، «لقي الله لا يُشرك به شيئًا» فكان من الموحِّدين. «دخل الجنة»:

- إمّا أن يدخلها ابتداء بغير حساب ولا عذاب.
- وإمّا أن يدخلها ابتداء بعد العرض.
- وإمّا أن يدخلها انتهاء بعد العذاب.

الذي يموت موحدًا: إمّا أن يدخل الجنة ابتداء بغير حساب ولا عذاب؛ وهذه المرتبة قد تقدَّمت معنا.

وإمّا أن يدخل الجنة ابتداء أيضًا لكن يسبق ذلك حساب؛ وهو العرض.

وإمّا أن يدخل الجنة انتهاء لأنه يُعذَّب قبل ذلك ثم يدخل الجنة.

«ومَن لقيه يشرك به شيئًا دخل النار» أمّا إن كان يشرك به الشرك الأكبر فإنه يدخل النار دخول خلود، لا يخرج منها أبدًا، ولا يُفتَّر عنه العذاب أبدًا، والعياذ بالله، يُعذَّب بالحرّ والزمهرير، ولا يموت أبدًا.

ومَن كان يشرك بالله الشرك الأصغر؛ كالرياء والطيرة والحلف بغير الله؛ فإنه يستحق دخول النار؛ لكنه لا يخلَّد فيها.

وقد لا يدخل النار؛ إمّا بسبب الموازنة؛ فتوجد أعماله الصالحة وأعماله السيئة فترجح أعماله الصالحة فيدخل الجنة، وإمّا لا يدخل النار لعفو الله ومغفرته –على الراجح كما تقدم– فإنّ الراجح عندنا أنّ الشرك الأصغر من الذنوب التي تقع تحت المشيئة؛ إن شاء الله أخذ العبد بها وآخذه بها، وإن شاء عفا عنه وغفر له.

إذا علم المسلم أنّ مَن لقي الله يُشرك به شيئًا دخل النار فإنه يخاف من كل الشرك، ويحذر الشرك كله، ويعيش عمره متيقظًا؛ لماذا؟ لأنه يعلم أنه في حرب مع الشيطان، والشيطان حريص على أن يُلقيه في النار، وأعظم حرصه على أن يخلِّده في النار بالشرك الأكبر، فإن لم يستطع حرص على أن يُدخِله النار بالمعاصي.

إذن؛ المسلم يعلم أنه في حرب مع الشيطان، وأنّ الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم؛ فلا يغفل أبدًا، كيف يغفل المقاتِل عن سلاحه وعدوه يدور بسلاحه ليل نهار؟! الشيطان عدوُّك يجري منك مجرى الدم، وهو ساعٍ مع جنوده ليل نهار لأن ينال منك بغفلة، فكيف تغفل؟! المؤمن دائمًا يخاف من الشرك .

ولذلك؛ من شأن المؤمن أنه يسأل الله دائمًا أن يثبته على التوحيد، ويستعيذ بالله من الشرك، ويسأل الله أن يجنِّبه الشرك؛ لأنه يخاف من الشرك.

قال رحمه الله تعالى: [فيه مسائل. الأولى: الخوف من الشرك]

نعم؛ من صفات الموحدين أنهم يخافون من الشرك، من صفات أولياء الله الصالحين أنهم يخافون من الشرك.

قال: [الثانية: أنّ الرياء من الشرك]

نعم؛ الرياء من الشرك؛ لأنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: «أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر» ثم فسره بالرياء.

[الثالثة: أنه من الشرك الأصغر]

لِمَا سمعنا، لكنّ العلماء يقولون: رياء المنافق شرك أكبر، ورياء الموحِّد شرك أصغر. يعني مَن وحَّد الله وعَبَدَ الله ووقع في الرياء أحيانًا؛ هذا الرياء شرك أصغر. أمّا المنافق –والعياذ بالله– فرياؤه شرك أكبر؛ لأنه لا يعبد الله أبدًا.

ولذلك؛ يقول العلماء: "مَن غَلَبَ الرياء عليه فهو منافق"؛ مَن كان لا يصلي إلا رياء، ولا يصوم إلا رياء، ولا يحج إلا رياء، ولا يزكي إلا رياء، ولا يدعو إلا رياء، هذا منافق –والعياذ بالله–.

أمّا الموحِّد فهو عابد لله؛ لكن قد يضعف أحيانًا فيقع في الرياء؛ فهذا الرياء شرك أصغر.

قال رحمه الله: [الرابعة: أنه أخوَفُ ما يُخاف منه على الصالحين]

نعم؛ أخوَف ما يُخاف على الموحِّدين: الرياء؛ لماذا؟ لأنّ الرياء خفي يا إخوة، ويوافق شهوة العبد. سبحان الله! مِن شهوة العبد أنه يحب أن يُمدَح، يحب أن يمدحه الناس، فإذا جاء هذا الرياء وتسلل خفيًّا إلى القلب وافق الشهوة فقد يقع الإنسان، فهو أخوَف ما يُخاف منه على الصالحين؛ لأنه خفي، يدبّ دبيبًا ، ويتسلل تسلُّلًا، ويوافق الشهوة التي في النفس؛ فقد يضعف الإنسان.

قال رحمه الله: [الخامسة: قُرْبُ الجنة و النار]

نعم؛ قرب الجنة و النار؛ لأنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: «مَن مات وهو يدعو لله ندًّا؛ دخل النار» فلم يجعل بينه وبين دخوله النار إلا الموت، والموت قريب وما بعده قريب. ولأنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: «ومَن مات وهو لا يدعو لله ندًّا؛ دخل الجنة»؛ فلم يجعل بينه وبين الجنة سوى الموت.

ولاشك يا إخوة أنّ ما أمام العبد قريب، فالساعة قريبة﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾[سورة القمر:١]، والحساب قريب ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ

حِسَابُهُمْ﴾[سورة الأنبياء:١]، فالحساب قريب، والجنة قريبة، والنار قريبة؛ ليس بين العبد وبين ذلك إلا أن يموت، ومَن مات قامت قيامته. فالجنة قريبة والنار قريبة. نسأل الله الجنة، ونعوذ بالله من النار.

قال رحمه الله: [السادسة: الجمع بينهما في حديث واحد]

في حديث ابن مسعود –وإن كان الشيخ لم يذكر الجانب الثاني– وفي حديث جابر رضي الله عنهما.

قال السابعة: [أنّ مَن لقيه يشرك به شيئًا دخل النار ولو كان من أَعْبَد الناس]

نعم؛ مَن لقي الله يشرك به شيئًا دخل النار ولابد؛ ولو كان من أعبد الناس، يعني لو كان يعمل أعمالًا صالحة في الظاهر كثيرة لكن مادام أنه مشرك فإنّ الله لا يقبل منها شيئًا؛ بل هي مردودة على صاحبها، وهو خالد مخلَّد في النار، والعياذ بالله، وهذا ظاهر لأنه لم يأتِ بالشرط؛ وهو: التوحيد.

قال رحمه الله: [الثامنة: المسألة العظيمة: سؤال الخليل له ولبنيه وقاية عبادة الأصنام]

نعم؛ المسألة العظيمة وهي أنّ من صفات عباد الله، من صفات الموحدين، من صفات الأنبياء، من صفات الأولياء: أنهم يسألون الله –عز وجل– لهم

ولذريتهم أن يجنبهم الأصنام. وإذا كان هذا من جانب الخليل –عليه السلام– فمن باب أولى مَن كان دونه مِن أمثالنا.

قال رحمه الله: [التاسعة: اعتباره بحال الأكثر؛ لقوله: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾].

نعم؛ علَّل ابراهيم –عليه السلام– سؤاله بقوله: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ﴾ أي الأصنام ﴿أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾، والحقيقة أنّ الذي أضلهم هو الشيطان.

طيب؛ اِلحَظ هنا أنّ الشيخ قال: "اعتباره بحال الأكثر"؛ والذي في الآية ﴿أَضْلَلْنَ كَثِيرًا﴾ و"كثير" غير "الأكثر" كما يقول العلماء! فمِن أين أخذ الشيخ أنه اعتبر بحال الأكثر؟

الجواب: أنّ كثيرًا تحتمل أن تكون بمعنى الأكثر، وأن تكون بمعنى الكثير، فلمّا دلت الأدلة الأخرى على أنّ الأكثر هم الضالون: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[سورة يوسف: ١٠٣]؛ عَلِم الشيخ بالأدلة الأخرى أنّ المراد "بكثير" هنا: "أكثر"، فاندفع ما استشكله بعض الشُّراح مِن أنّ الشيخ قال: "اعتباره بحال الأكثر" مع أنّ الذي في الآية "كثير"، فإنّ "كثير" فُسِّرت بالأدلة الأخرى أنها "الأكثر".

قال رحمه الله: [العاشرة: فيه تفسير لا إله إلا الله كما ذكره البخاريّ]

نعم؛ وأنّ لا إله إلا الله ليست نطقًا باللسان فقط؛ بل بالعمل بالتوحيد والسلامة من الشرك، هذا مقتضى لا إله إلا الله ومعنى لا إله إلا الله. وأمّا ما ذكره البخاري فلم يتيسَّر لي أن أراجعه.

قال رحمه الله: [الحادية عشر: فضيلة مَن سَلِمَ من الشرك]

نعم؛ لأنّ مَن لقي الله لا يشرك به شيئًا دخل الجنة؛ فهذا يدل على فضيلته.

تابع الدرس الثامن: شرح باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله

قال رحمه الله تعالى: [باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله]

هذا الباب يا إخوة كما قلنا سابقًا في كليات التوحيد المتعلقة بما ينبغي على المؤمن تجاه التوحيد، حيث –كما قلنا– ينبغي على المؤمن:

- أن يحب التوحيد.
- وأن يحب أهل التوحيد.
- وأن يتعلم التوحيد على سبيل التفصيل.
- وأن يعمل بالتوحيد.
- وأن يبرأ من الشرك وأهله.

وهذه يا إخوة يقتضيها ما ذكره الشيخ في باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب، وباب مَن حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب.

- كما ينبغي للمؤمن تجاه التوحيد: أن يخاف من الشرك بأنواعه. وهذه تقدمت في باب الخوف من الشرك.

- كما ينبغي للمؤمن تجاه التوحيد: أن يدعو إليه، وأن تُبنى كل دعوة عليه؛ وهذا هو ما في هذا الباب.

لأنّ الموحِّد إذا عرف أهمية التوحيد، وأنه حق الله، وأنه سبيل عزة الأمة، وأنّ عمارة الأرض تكون به، وعَلِم ما تقدَّم من فضله؛ لابد أن يسعى في نشره، ولابد أن ينقله إلى غيره من الناس بحسب علمه وجهده، ولا ينجو الإنسان من الخسران إلا بهذا؛ ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾. ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ إنّ جنس الإنسان لفي خسر إلا من استثناه الله ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أيْ: وحَّدوا، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فقاموا بحق التوحيد، ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ ﴾ فدعوا إلى الحق ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾.

إذن؛ لازال الشيخ يبيِّن لنا ما ينبغي للمؤمن تجاه التوحيد؛ ومن ذلك: الدعاء إلى شهادة ألا إله إلا الله.

قال: (باب الدعاء) الدعاء يا إخوة في أصل اللغة: هو أن تستميل غيرك إلى شيء بالصوت والكلام، هذا أصل الدعاء في لغة العرب كما في معجم المقاييس.

والمراد بالدعاء هنا: الدعوة. والدعوة فيها المعنى اللغوي وهو: أنك تستميل الناس إلى ما تدعو إليه بالكلام وما يحقِّق المقصود من غير الكلام؛ كالقدوة مثلًا.

(باب: الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله) أعظم كلمة وأعظم كنز هو أن تملك شهادة لا إله إلا الله ملكًا حقيقيًّا؛ فتكون مصدِّقًا بها، ناطقًا بها، عاملًا بها مِن يقين، وبعد ذلك تُفيض على غيرك؛ فتدعو غيرك إلى شهادة أن لا إله إلا الله. تدعو مَن لم يُسلِم أصلًا إلى الإسلام، وتدعو من انتسب إلى الإسلام فوقع في الشرك الأكبر وهو يعلم أو لا يعلم؛ كبعض المسلمين المنتسبين إلى الإسلام الذين ينذرون للقبور ويذبحون للقبور ويدعون غير الله. وتدعو الموحدين إلى الثبات على شهادة أن لا إله إلا الله.

قال رحمه الله تعالى: [وقول الله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ الآية]

نعم؛ الله –عز وجل– يقول: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، الله –عز وجل– يأمر رسوله محمدًا –صلى الله عليه وسلم– أن يقول هذه المقولة العظيمة: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي﴾، قال بعض أهل العلم: ﴿سبيلي﴾ يعني: ديني. وقال بعض أهل العلم: يعني دعوتي. وقال بعض أهل العلم: يعني سنتي. وقال بعض أهل العلم: يعني منهاجي وطريقي. والكل صحيح.

﴿هذه سبيلي﴾ ما هي هذه السبيل؟ ﴿أدعو إلى الله﴾ ولو لم يَرِد في شرف الدعوة إلى الله إلا هذا لكفى به شرفًا؛ أنّ محمدًا –صلى الله عليه وسلم– يدعو

إلى الله، الله أكبر! ما أعظم هذا الشرف؛ أن تكون تدعو إلى الله كما كان محمد –صلى الله عليه وسلم– يدعو إلى الله، وكيف وقد جاء الشرف العظيم لمن يدعو إلى الله، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ﴾[سورة فصلت: ٣٣] أحسن الأقوال هي قول من دعا إلى الله، والذي يدعو إلى الله لابد أن يكون موحدًا لله.

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ﴾وفي هذا إشارة إلى الإخلاص وبيان الإخلاص؛ وهو أنّ الداعية بحق الذي يستحق هذا الاسم الشريف: هو الذي يدعو إلى الله؛ يعني يدعو إلى توحيد الله، وإلى قال الله وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا يدعو إلى نفسه.

كثير من الناس من الدعاة اليوم –من غير أن نعيِّن أحدًا– يدعو إلى نفسه؛ بدليل أنه يبحث عمّا يعجب الناس، الذي يعجِب الناس ويجعل الجماهير يتقاطرون عليه يأتي به، والذي لا يعجب الناس لا يتكلم فيه ولو كانت حاجة الناس إليه أعظم الحاجات؛ لأنه ما يريد أن ينفر عنه الناس!

وكثير من الناس يا إخوة ينفرون ممن ينبههم إلى أخطائهم ويدعوهم إلى التوحيد والسنة، لأنّ الداعية يا إخوة مثل الطبيب، والطبيب الصادق أحيانًا يحتاج أن يؤلم المريض، وكثير من الناس لا يحب أن يذهب إلى الطبيب.

الناس يريدون من الدعاة الدعاة الذين يشعرونهم أنهم على خير فقط من غير أن ينبهوهم على أخطائهم من غير أن يدعوهم إلى التوحيد! ولذلك الدعوة إلى الله عالية وغالية؛ لأنّ ثمنها غالي، ولابد من إخلاص ومجاهدة القلب.

الداعي إلى الله لا يدعو إلى جماعة ولا إلى حزبيات؛ وإنما يدعو إلى قال الله قال رسوله صلى الله عليه وسلم.

﴿ أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ "بصيرة" قال بعض أهل العلم: أي على يقين؛ ما عندي شك. وقال بعض أهل العلم: على حق؛ لا أدعو إلى باطل. وقال بعض أهل العلم: أي بعلم؛ أدعو إلى الله بعلم.

﴿أنا﴾ "أنا" هنا إذا قلنا إنّ الجملة متصلة: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ تكون هنا للتأكيد؛ لأنه تقدم ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو﴾ يعني أنا ﴿إلى الله﴾ فجاءت "أنا" مرة أخرى للتأكيد.

وإذا قلنا ما قاله بعض العلماء وبعض المفسرين: أنّ الآية هكذا: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ﴾ ثم وقْف ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾؛ فيكون الكلام مستأنَفًا ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾؛ فتكون "أنا" هذه جديدة.

وعلى كل حال فالمعنى لا يبتعد، لأنّا إذا قلنا ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ﴾وتنتهي هذه الجملة؛ فكل مؤمن يحب النبي –صلى الله عليه وسلم–

سيتأسى بالنبي –صلى الله عليه وسلم– في أنه يدعو إلى الله. ﴿على بصيرة﴾ يعني على يقين أنا ومن اتّبعني.

وفي هذا يا اخوة أعظم دليل على أنّ الداعية إلى الله ينبغي ويجب أن يتأسى برسول الله –صلى الله عليه وسلم– في دعوته، فيدعو إلى الله؛ لأنها جاءت على سبيل الحصر: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ﴾ يعني أدعو إلى التوحيد.

إذن؛ كل دعوة ليست على طريقة النبي –صلى الله عليه وسلم– خرجت عن الفضل إلى البدعة.

فيجب على الداعية إلى الله أن يسير على طريقة النبي –صلى الله عليه وسلم– في دعوته، أن يدعو إلى الله، ويجاهد نفسه في الإخلاص، ويبيِّن للناس الحق ولو بقي واحدًا، لو انصرف الناس أجمعون عنه ما يغيِّر الحق، يدعو الناس إلى الحق لأنه يدعو إلى الله، لو فُصِل من عمله، مثلًا إمام مسجد يدعو إلى التوحيد قالت له الوزارة: لا، إمّا أن تترك التوحيد هذا إلى البدع وإمّا نفصلك! لا يترك الدعوة إلى التوحيد ولو بقي واحدًا؛ لأن هذه طريق النبي صلى الله عليه وسلم، ويبني دعوته على التوحيد.

أيضًا؛ أن تكون دعوته منطلِقة من الرحمة، فلا يدعو الناس ليتشفّى، ولا يدعو الناس ليتكبر، ولا يدعو الناس ليتجبر، ولا يدعو الناس ليُرفَع؛ وإنما يدعو

الناس من رحمة؛ يرحم الناس ولذلك يدعوهم؛ لأنّ دعوة النبي –صلى الله عليه وسلم– مبنية على الرحمة: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[سورة الأنبياء: ١٠٧]، ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ﴾[سورة آل عمران:١٥٩].

ولذلك؛ علامة الداعية الموفَّق: أن يتواضع للناس، وأن يرحم الناس؛ لأنّ هذا هو طريق النبي صلى الله عليه وسلم. النبي –صلى الله عليه وسلم– كانت تأتيه الجارية وهو النبي –صلى الله عليه وسلم– وتأخذه في سكك المدينة لحاجتها.

الداعية الذي على طريق النبي –صلى الله عليه وسلم– ما يتكبر على الناس، ولا يدعوهم متكبراً؛ وإنما يدعوهم راحمًا لهم، متواضعًا لهم، هذه طريق النبي صلى الله عليه وسلم.

ومن ذلك أيضًا: أن يدعو بالدليل، يدعو بقال الله قال رسوله –صلى الله عليه وسلم– ويبيِّن ما يحتاجه الناس بالدليل.

﴿أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ فدلَّ ذلك على أنّ متَّبع النبي –صلى الله عليه وسلم– حقًّا وصدقًا هو الذي يحقق التوحيد. ليس متَّبع النبي –صلى الله عليه وسلم– الذي يزعم أنه يحب النبي –صلى الله عليه وسلم– ولا يحقق التوحيد ويدعو غير الله؛

ويقول: أنا أحب النبي صلى الله عليه وسلم! متَّبع النبي –صلى الله عليه وسلم– حقًّا وصدقًا هو الذي يسير على طريقته: ﴿يدعو إلى الله﴾.

﴿وسبحان الله﴾ أي: أنزه الله عن الشرك وعما لا يليق. ﴿وما أنا من المشركين﴾ أيْ لستُ منهم، وليسوا مني، ولست معهم. فالموحِّد يبرأ إلى الله من الشرك، ومن المشركين، ولا يكون من المشركين، ولا يكونون منه، بل يكون بريئًا من ذلك؛ لأنّ هذه هي طريقة النبي صلى الله عليه وسلم.

إذن؛ معالم دعوة النبي صلى الله عليه وسلم:

- الدعوة إلى الله؛ ورأسها التوحيد.
- وأن تكون الدعوة على بصيرة. والبصيرة: هي العلم الصحيح.
- وعلى تنزيه الله –سبحانه وتعالى– عما لا يليق.
- وعلى البراءة من الشرك وأهله.

قال رحمه الله تعالى: [وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لمّا بعث معاذا إلى اليمن قال له: «إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه: شهادة أن لا إله إلا الله –وفي رواية: إلى أن يوحدوا الله– فإن هم أطاعوك لذلك؛ فأعلمهم أنّ الله افترض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة، فإن هم أطاعوك لذلك؛ فأعلمهم أنّ الله افترض

عليهم صدقة تؤخَذ من أغنيائهم وتُردّ على فقرائهم، فإن هم أطاعوك لذلك؛ فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم؛ فإنه ليس بينها وبين الله حجاب» أخرجاه]

نعم؛ هذا الحديث عن ابن عباس –رضي الله عنهما– فيه الدعوة إلى التوحيد، وأنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– كان يبعث الدعاة.

فعن ابن عباس –رضي الله عنهما– أنّ رسول الله –صلى الله عليه وسلم– لمّا بعث معاذًا إلى اليمن، بعث معاذًا إلى اليمن –سواء قلنا بعثه قاضيًا أو واليًا فإنه بعثه داعيًا؛ بدليل هذا الحديث– لمّا بعث معاذًا إلى اليمن قال له: «إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب»، وأهل الكتاب: هم اليهود والنصارى. واليمن أغلب من كان فيها من أهل الكتاب، منهم يهود، وقد دخلت اليهودية اليمن قديمًا على يد الملك تُبّع الصغير؛ وبقيت. ويوجد نصارى أيضًا في اليمن، وقد دخلت النصرانية اليمن عن طريق الحبشة. ومعلوم أنّ الصلة بين اليمن والحبشة قوية جدًّا إلى اليوم، فدخلت النصرانية إلى اليمن عن طريق الحبشة، وكان هناك مشركون، لكن الأغلب أنهم من أهل الكتاب.

ولذلك؛ النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: «إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب» أي أنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– بيّن له حال من سيدعوهم.

وفي هذا يا إخوة؛ أنّ الداعية إلى الله إذا أراد أن يدعو ينبغي أن يعرف أحوال الناس الذين سيدعوهم؛ ما منزلتهم العلمية؟ لأنّ خطاب مَن تعلَّم ليس كخطاب الجاهل. هل يفهمون اللغة العربية الفصحى أو لا يفهمون اللغة العربية الفصحى؟ لأنّ بعض الناس اليوم في بعض بلدان المسلمين لو ذهبت إليهم تتكلم باللغة العربية الفصحى ربما كان فهم الإنجليزية عندهم أسهل أو الفرنسية أسهل. فتعرف حالهم لتعطيهم ما ينفعهم.

ولذلك النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: «إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب فليكن» "فليكن" هذا أمر؛ والأمر يقتضي الوجوب، «فليكن أولَ ما تدعوهم إليه: شهادةُ أن لا إله إلا الله»، وإن شئتَ قلتَ: «فليكن أولُ ما تدعوهم إليه شهادةَ أن لا إله إلا الله».

هذه الجملة يا إخوة بحثتُ عنها في كتب السنن فلم أجدها بهذا اللفظ «فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله»! فلعلها مركبة من الروايات. لكن يوجد مثلًا: «فليكن أول ما تدعوهم إليه أن يوحِّدوا الله»، وهذه الرواية عند البخاري. ولم أراجعها في مسلم. وفي رواية عند البخاري ومسلم: «إلى عبادة الله». وفي رواية عند البخاري ومسلم: «إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنّ محمدًا رسول الله».

وفي هذا يا إخوة:

- بيان أنّ شهادة أن لا إله إلا الله وأنّ محمدًا رسول الله تتحقق بعبادة الله وتوحيده.
- وأنّ العبادة لا تُقبل إلا بالإخلاص الذي في شهادة أن لا إله إلا الله، وبالمتابعة الذي في شهادة أنّ محمدًا رسول الله.
- وأنّ أول ما يدعو إليه الداعية هو التوحيد؛ لأنّ ما بعده لا يُقبل إلا به، ما بعد التوحيد لا يُقبل إلا بالتوحيد.

قال: «فإن هم أطاعوك لذلك»، وفي رواية عند الشيخين: «فإذا عرفوا الله»، هذا يدلنا يا إخوة على أنّ الذي يعرف الله هو الموحِّد، وإلا فالنصارى يعرفون الله بالظاهر ولكنهم يُشركون بالله، واليهود يعرفون الله بالظاهر لكنهم يُشركون بالله، والنبي –صلى الله عليه وسلم– قال: «فليكن أول ما تدعوهم إلى أن يوحدوا الله؛ فإذا عرفوا الله» مع أنهم من أهل الكتاب، إذن قبل ذلك ما كانوا يعرفون الله حقًّا.

لذلك كثير من الناس اليوم لا يعرفون الله؛ لأنهم يُشركون بالله، لو عرفوا الله لَمَا أشركوا بالله. والله! من عرف الله يستحي من الله أن يُفكِّر في أن يُشرِك به؛ فضلًا على أن يشرِك به.

إذن؛ دلنا ذلك يا إخوة على أنّ معرفة الله إنما هي للموحدين، ولا تكفي المعرفة بالظاهر بدون التوحيد.

قال: «فإن هم أطاعوك لذلك؛ فأعلمهم أنّ الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة»، فجعل الدعوة إلى الصلاة تاليةً للدعوة إلى التوحيد؛ لأنّ الصلاة أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين، والصلاة هي العهد الذي بيننا وبين الكفار؛ فمن تركها فقد كفر، «لا حظَّ في الإسلام لمن ترك الصلاة»، والصلاة أول ما يُحاسَب به العبد يوم القيامة من أعماله، مفتاح الفلاح للموحدين يوم القيامة: الصلاة.

يقول النبي –صلى الله عليه وسلم–: «إنّ أول ما يحاسَب به العبد يوم القيامة من عمله: صلاته؛ فإن صلُحَت فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر»، رواه الترمذي، وصحَّحه الألباني. أول ما يُحاسَب عليه العبد يوم القيامة من أعماله: صلاته، فإن صلُحَت صلاته أفلح وأنجح.

إذن؛ أوّل ما تدعو إليه بعد التوحيد: الصلاة؛ لأنه إذا لم تصلُح الصلاة خاب العبد وخسر يوم القيامة، وإنما يفلح وينجح إذا صلُحت صلاته، فكيف يتجاوزها العبد إلى غيرها؟! يقول: لا، أنا ما أدعوهم إلى الصلاة أدعوهم إلى الأخلاق! الدعوة إلى الأخلاق طيِّبة لكن وضعها في هذا الموضع غير طيِّب. يدعو إلى الصلاة لأنها مفتاح الفلاح والنجاح يوم القيامة للموحدين؛ وإلا مفتاح الفلاح على الإطلاق: شهادة أن لا إله إلا الله وأنّ محمدًا رسول الله.

ومِن شأن هذه الصلوات أنها تتكرر في كل يوم وليلة، خمس صلوات في كل يوم وليلة، واستدل أهل العلم بهذا على أنّ الوتر ليس واجبًا؛ لأنّ هذا يا إخوة كان في آخر حياة النبي –صلى الله عليه وسلم– في السنة العاشرة، وقيل في التاسعة، والنبي –صلى الله عليه وسلم– ما قال فأعلمهم أنّ الله افترض عليهم ست صلوات؛ قال: «خمس صلوات»؛ فدل ذلك على أنّ الوتر إلى السنة العاشرة لم يكن فرضًا، فلم يكن فرضًا بعد ذلك.

«فإن هم أطاعوك لذلك» أي للصلاة؛ «فأعلمهم أنّ الله افترض عليهم صدقة» والصدقة هنا: الزكاة؛ لأنها هي المفروضة. والزكاة قرينة الصلاة في الكتاب والسنة.

«تؤخَذ من أغنيائهم» إذن الزكاة لا تؤخَذ من كل الناس؛ وإنما تؤخَذ من الأغنياء؛ وقد جاء تفصيل ذلك في الأدلة.

«فتردّ على فقرائهم» ومن هنا أخذ أهل العلم أنّ الزكاة تعطى لفقراء البلد، وأنّ فقراء البلد أولى بالزكاة من غيرهم؛ إلا إذا ظهرت في غيرهم مصلحة أعلى.

أيضًا؛ أخذ أهل العلم من هذا: أنه يجوز أن تُعطى الزكاة لصنف واحد من أصناف الزكاة؛ لأنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– هنا ذكر صنفًا واحدًا وهم الفقراء؛ قال:«وتردّ على فقرائهم».

«فإن هم أطاعوك لذلك؛ فإياك وكرائم أموالهم» كرائم: جمع كريمة، وهي الكاملة في خصالها في نوعها. لا تأخذ الزكاة من أكمل الأموال، فلا تأخذ الدابة السمينة العزيزة عند أهلها، وإنما خُذ من الوسط، فإياك وكرائم أموالهم عند أخذ الزكاة.

«واتقِ دعوة المظلوم» وفي هذا إشارة إلى إنه لو أخذ الكرائم لكان ظالمًا. «واتقِ دعوة المظلوم» مهما كنتَ، هذا مَن؟ هذا معاذ الذي كان النبي –صلى الله عليه وسلم– يقول: «يا معاذ! والله إني لأحبك»، ويقول: «يُحشَر أمام العلماء برَتوة» –يعني بمسافة– يقول له: «واتقِ دعوة المظلوم»! وهو الذي يذهب داعية إلى الله بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويذهب قاضيًا، ويذهب واليًا؛ يقول له النبي –صلى الله عليه وسلم–: «واتق دعوة المظلوم»! لا إله إلا الله!

يا إخوة! لا تتساهلوا في الظلم، إياك أن تغرّك قوتك، أو يغرّك نصر أحد لك مهما كان، والله لو كان الملك ينصرك على الناس إياك أن يغرّك ذلك فتُقدِم على الظلم، إذا نصرك شيخ وصرت قويًّا أمام طلاب العلم بهذا الشيخ اتق الله في دعوة المظلوم، لا تظلم إخوانك، لا تنسب لهم ما ليس فيهم، ولا تأمرهم بما ليس لك، ولا تُلزِمهم بما لا يَلزمهم؛ فإنّ هذا من الظلم، واتق دعوة المظلوم مهما كنتَ، لا تغتر بقوة، والله إنّ القوي قد يكسره الله بدعوة المظلوم.

غني؛ اتق دعوة المظلوم. قوي؛ اتق دعوة المظلوم. صحيح؛ اتق دعوة المظلوم. إياك والظلم، لا تحقرن من الظلم صغيرة، الظلم ظلمات يوم القيامة.

ما لم تعلم أنّ فعلك أو قولك عدلٌ فإياك أن تُقدِم عليه. والله! لو اجتمع الناس سبُّوك وشتموك لأنك لم تتكلم بكلام لكن أنت لم تعلم أنه عدل فسكتَ؛ والله! ماضروك، والله! لو عشت وحدك في رأس جبل؛ لأنك اتقيتَ الظلم والله ماضرّك، ولو أنك قلتَ ما تعتقد أنه ظلم –وقد لا يكون بالنسبة لغيرك ظلم لكن بالنسبة لك قد يكون ظلمًا– لو قلتَ ما تعتقد أنه ظلم وقلته والله ما نفعك أحد.

يا إخوة! يجب علينا أن نخاف من الظلم. اليوم الناس أصبح عندهم جرأة على الظلم عجيبة، الرجل يظلم المرأة الضعيفة في بيته، يظلم أولاده، طالب العلم يظلم إخوانه، وقد يصل الأمر بنا أحيانًا إلينا نحن الشيوخ أننا قد نظلم الطلاب، استغفر الله وأتوب إليه.

قال: «واتق دعوة المظلوم»؛ لأنّ الغالب أنّ المظلوم يدعو، فإنه ليس بينها وبين الله حجابٌ يمنعها، قال العلماء: المظلوم وإن كان فاسقًا ينصره الله. ترتفع دعوة المظلوم إلى الله فيقول الله: «وعزتي لأنصرنكِ ولو بعد حين»، «فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»؛ فهي مسموعة.

نعم؛ قد لا يستجاب للمظلوم دعوته بعينها، لكن يُعطى خيرًا منها، فيُصرَف عنه سوء مثلًا، أو تُدَّخر له منزلة في الجنة؛ لكنها دعوة مستجابة. وما يدريك أنت أيها الظالم؟! كيف تنام وقد ظلمتَ وعلمتَ وأنتَ تعلم أنّ دعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب؟! والله لو كان في قلوبنا حياة ما يمسي علينا الليل إلا وقد تخلصنا من المظالم ما أمكننا، المظالم بالقول، المظالم بالفعل، اتق دعوة المظلوم، لا إله إلا الله! «فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»، ما تُمنَع، تُرفَع وتُسمَع، وينصر الله المظلوم.

وقد تقدَّم معنا يا إخوة في دروسنا السابقة في السَّنة؛ أنّ العدل واجب مِن كل أحد لكل أحد، وأنّ الظلم حرام على كل أحد لكل أحد. ما يجوز لنا أن نظلم حتى الكافر، ما يجوز أن نظلمه، وإنما نعامله بما أُذِن لنا فيه. الفاسق ما يجوز أن نظلمه. المبتدِع ما يجوز أن نظلمه. فكيف بمَن معنا وعلى طريقتنا؟! كيف بمَن عرفناه على السنة وعرفناه على التوحيد؟! يُخطئ كما نُخطئ لكنه على استقامة؛ كيف نظلمه؟! «اتق دعوة المظلوم؛ فإنه ليس بينها وبين الله حجاب». نسأل الله أن يعيننا على العدل، وأن يكفينا شر الظلم، وأن يعيننا على التخلص من المظالم.

لعلنا نقف هنا ونكمل هذا الباب العظيم غدًا إن شاء الله عز وجل. ونجيب عن بعض أسئلة إخواننا.

الدرس التاسع: تابع شرح باب: الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله

بسم الله الرحمن الرحيم

لا زلنا في باب (الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله). وقد تقدّم معنا يا إخوة أنّ هذا الباب فيه تمام المقدّمات الممهِّدات لكتاب التوحيد، التي جعلها شيخ الإسلام في كليات التوحيد، التي تبيّن ما ينبغي على المؤمن تجاه التوحيد.

فبعد أن بيّن شيخ الإسلام أهمية التوحيد، وأنه حق الله، فهو أعظم حق، وهو أعظم فرض، ومن أجله خُلِق الخلق، ومن أجله بُعِث الرسل، وبيَّن فضل التوحيد وما يكفّر من الذنوب، وبيَّن أنّ مَن حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب، وبيَّن الخوف من الشرك؛ تكلم عن الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله.

وهذا كله بيّن ما ينبغي للمؤمن تجاه التوحيد؛ وهو: أن يحبه، ويحب أهله، وأن يتعلمه، وأن يعمل به، وأن يَسلَم مما يَنقضه أو يُنقصه، وأن يبرأ من الشرك كله ومن المشركين، وأن يخاف من الشرك كله، وأن يدعو إلى التوحيد، وأن يصبر على كل ذلك، وأن يعلّق قلبه بالله سبحانه وتعالى.

وقد تقدَّم معنا شرح بعض ما يتعلّق بهذا الباب. ونكمل اليوم –إن شاء الله– الكلام على آخر حديث ذكره الشيخ في هذا الباب. فيتفضل أخي الشيخ خليل –وفقه الله– يقرأ لنا.

قال الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب –رحمه الله تعالى– في كتابه كتاب التوحيد في باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله: [ولهما عن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنه؛ أنّ سول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم خيبر: «لأعطينّ الراية غدًا رجلًا يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، يفتح الله على يديه»، فبات الناس يدوكون ليلتهم؛ أيهم يُعطاها؟ فلمّا أصبحوا غدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم يرجو أن يعطاها، فقال: «أين علي بن أبي طالب؟» فقيل: هو يشتكي عينيه، فأرسلوا إليه، فأُتي به فبصق في عينيه، ودعا له، فبرأ كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية، فقال: «انفُذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه، فو الله لئن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خيرٌ لك من حُمر النعم». يدوكون: أي يخوضون]

نعم؛ هذا الحديث العظيم في الصحيحين؛ (لهما) أي: للشيخين؛ البخاري ومسلم. «عن سهل بن سعد رضي الله أنّ رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال يوم خيبر» حيث حاصر النبي –صلى الله عليه وسلم– اليهود في خيبر، واستعصت الحصون على الرسول –صلى الله عليه وسلم– والمسلمين أيامًا، فقال النبي –صلى الله عليه وسلم– في يوم من هذه الأيام: «لأعطين الراية» والراية: ما نسميه اليوم بالعلم، تكون مع الجيش، قال: «لأعطين الراية غدًا

رجلًا يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله» الله أكبر! ما أعظم هذا المقام! «يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله»، والله يحب سبحانه وتعالى. نسأل الله أن نكون ممن أحبهم الله، والرسول –صلى الله عليه وسلم– يحب.

والجملة الأولى سبب للجملة الثانية؛ «يحب الله ورسوله» حب الله الصادق وحب رسوله –صلى الله عليه وسلم– الصادق سببٌ لأن يحبك الله. ومَن يحبه الله فرسول الله –صلى الله عليه وسلم– يحبه.

ما هو الحب الصادق لله والحب الصادق لرسول الله صلى الله عليه وسلم؟

ليس الحب الصادق يا إخوة قول الأشعار ولا القصائد؛ وإنما الحب الصادق هو الذي يُثمِر حسن التقرُّب والاتّباع؛ ولذلك الله –عز وجل– يقول: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾[آل عمران: الآية ٣١] إذن؛ إن كنت صادقًا في حب الله فاتّبع رسول الله صلى الله عليه وسلم. فإذا أحببتَ الله حبًّا دعاك إلى اتّباع رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فاتبعته؛ أحبك الله. الحب الذي يدعو إلى الاجتهاد في طاعة الله.

ولذلك؛ الله –عز وجل– يقول في الحديث الذي أخبر به النبي –صلى الله عليه وسلم– عن ربه: «وما تقرّب إليَّ عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرّب إلي بالنوافل حتى أحبه».

إذن؛ حبك الصادق لله وحبك الصادق لرسول الله –صلى الله عليه وسلم– علامته: أن تجتهد في طاعة الله. أمّا الذي يعصي الله، يشرب الخمر، ويزني، ولا يكاد يعبد الله إلا قليلًا، وإذا قلتَ له: يا رجل أنت مسلم، قال: إني أحب الله! قلنا له: هذه دعوى، هذا كذب.

إذا أحببتَ الله حبًّا صادقًا اقتضى منك الاتِّباع وحسن الطاعة، وأحببت رسول الله –صلى الله عليه وسلم– حبًّا صادقًا اقتضى حسن اتِّباعه –صلى الله عليه وسلم–؛ أحبك الله.

فهذه المنزلة ليست عصيَّة أن يحبك الله، الأمر ليس عصيًّا؛ الأمر يحتاج إلى إخلاص وحسن متابعة واجتهاد في الطاعة.

إذا أخلصتَ لله، وأحسنتَ متابعتك لرسول الله صلى الله عليه وسلم، واجتهدتَ في طاعة الله؛ نلتَ هذه المرتبة العليَّة.

لكنّ هذه المرتبة فيها شهادة من رسول الله –صلى الله عليه وسلم– لرجل واحد؛ «لأعطينّ الراية غدًا رجلًا يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، يفتح الله على يديه»، قال العلماء: وهذه الجملة من علامات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنه ذكر أنه غدًا سيُفتح الحصن، فوقع هذا وقد فتح الله الحصن في اليوم التالي على يد هذا الرجل.

قال: «فبات الناس يدوكون ليلتهم» باتوا يخوضون ليلتهم في هذا الرجل؛ وكلهم يرجو أن يكون هو. وهذا يا إخوة فيه عظيم إيمان الصحابة، وعظيم حبهم لله، وعظيم حبهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لانّ نيل هذه المنزلة أشغلهم عن الجهاد والقتال والفتح؛ لأنّ قلوبهم معلَّقة بالله.

هنا يا إخوة؛ الحديث تضمَّن أمرين:

- أنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– سيعطي الراية غدًا رجلًا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله.
- والأمر الثاني: البشارة بالفتح.

الصحابة على يقين من الفتح من خبر رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لكن لم يشغلهم ذلك ولم يفكّروا فيه، الذي شغلهم هو: مَن الذي سيُعطى الراية وينال هذه المزية العظيمة بشهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم، «أيهم يعطاها؟ فلمّا أصبحوا غدوا على رسول الله كلهم يرجو أن يعطاها»، وجاء في بعض الروايات: أنهم كانوا يتطاولون لرسول الله –صلى الله عليه وسلم– وهم مع إخوانهم كل واحد يرفع نفسه؛ لعل النبي –صلى الله عليه وسلم– يراه فيقول: تعال، حتى عمر –رضي الله عنه– كان يتطاول بين الصحابة؛ يقول: ما أحببتُ الإمارة إلا ذلك اليوم! ليس من أجل الإمارة وإنما من أجل هذه المنزلة

العليّة: شهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهذا دليل على حب الصحابة –رضوان الله عليهم أجمعين– لله، وحبهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولذلك يا إخوة؛ حب الصحابة علامة الإيمان، الذي يحب الصحابة أجمعين هذه علامة على إيمانه. والذي يُبغض الصحابة أو يُبغض واحدًا منهم فهذه علامة على النفاق.

فقال –صلى الله عليه وسلم–: «أين علي بن أبي طالب؟ قيل: هو يشتكي عينه» أصابه رمد، والرمد: داء معروف يصيب العينين، وأحيانًا يشتد حتى يُلصِق أطراف العينين فلا يستطيع الإنسان أن يفتح عينيه من شدة الرمد، وهذا معروف موجود. فعليٌّ –رضي الله عنه– كان مصابًا بالرمد وكان ذلك شديدًا عليه حتى أنه كان لا يرى من شدة الرمد. عندنا العامة يقول: يَخيط عينه؛ كأن عينه أصبحت مخيطة بخيط ما يستطيع يفتح عينه، علي –رضي الله عنه– كان كذلك.

سبحان الله يا إخوة! علي –رضي الله عنه– تخلف عن النبي –صلى الله عليه وسلم– في خيبر، تخلف في المدينة من أجل الرمد؛ لأنه كان ما يرى، فتخلف. ثم لمّا سار رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال: أنا أتخلف عن رسول صلى الله عليه وسلم؟! فلام نفسه؛ فسار إلى رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وهو أرمد. فلمّا وصل، لمّا اجتمع الناس عند الرسول –صلى الله عليه وسلم– وكلهم يتطاول لعله أن ينال هذه الشهادة من رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ ما

جاء علي رضي الله عنه، ليس زهدًا في هذه المنزلة؛ لكن لأنه كان أرمد ما يرى؛ فكيف يأخذ الراية؟! وكيف يكون هو الذي سيُفتح عليه، وهو أرمد ما يرى؟! هو يرى من نفسه أنه لا يستطيع أن يسير، «فقيل: هو يشتكي عينيه، فأرسلوا إليه» جاء في بعض الروايات: «قال: فأرسلوا إليه» أيْ أمرٌ من النبي صلى الله عليه وسلم؛ فأرسلوا إليه مَن يأت به، فأُرسِل إليه سلمة بن الأكوع، سلمة بن الأكوع أُرسِل إلى علي رضي الله عنه، وقيل له: اذهب إليه وأتِ به، فذهب وأتى به يقوده. إذن يا إخوة هو ما كان يرى ولذلك احتاج من يأتي به ويقوده، فأُتي به إلى رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يُقاد، فبصق في عينيه صلى الله عليه وسلم، تفل في عينيه، وبصاق النبي –صلى الله عليه وسلم– مبارك، وكل ما انفصل عن النبي –صلى الله عليه وسلم– مبارك، ولذلك كان الصحابة –رضوان الله عليهم– يكادون يقتتلون على وَضوء رسول الله صلى الله عليه وسلم، يكادون يقتتلون على وَضوء: يعني البقية من الماء من وَضوء رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفيهم مَن سَلَتَ عرقه ووضعه في قارورة يتداوى بها ويداوي بها. ولمّا حلق النبي –صلى الله عليه وسلم– شعره فرّقه على الصحابة رضوان الله عنهم، فهذا يا إخوة لا شك فيه ويثبته أهل السنة والجماعة ويعتقده المؤمنون: أنّ ما انفصل عن النبي –صلى الله عليه وسلم– فهو مبارك، لكن يا إخوة لا يوجد منه شيءٌ اليوم. هؤلاء الذين يقولون: عندنا شعرة من رسول الله صلى الله عليه

وسلم، عندنا قطعة من ثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم! كلها دعاوى؛ لا يوجد شيء على الحقيقة اليوم.

«فبصق في عينيه ودعا له» فجمع له بين الأمرين. وهذا يا إخوة؛ فيه مسألة مهمة جدًا؛ وهو أنه في الأمراض يُشرَع للمؤمن أن يجمع بين الدواء الحسي وبين الرقية والدعاء.

هنا النبي –صلى الله عليه وسلم– استعمل الدواء الحسي وهو أنه بصق في عينيه، ودعاء له، وهذا المشروع يا إخوة. اذهب إلى الطبيب وخذ منه الدواء المعروف المعتاد، واستعمل الدواء، ولا تنسَ الدعاء والرقية.

«فبرأ» لا إله إلا الله! يعني عُوفي كأنه لم يُصَب بشيء. مِن أيام وهو يشتكي الرمد ما يستطيع يرى من شدة الرمد، بمجرد ما بصق النبي –صلى الله عليه وسلم– في عينيه ودعا له برأ تمامًا! بل جاء: أنه لم يشتكي عينيه بعد ذلك إلى أن مات! وهذه علامة من علامات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم.

وسبحان الله! انظروا القدر وأنّ كلًّا ميسَّر لِمَا جعله الله له؛ عليّ –رضي الله عنه– أول الأمر تخلّف في المدينة، أصلًا لم يذهب؛ فشاء الله أن يذهب، فذهب، ساقه الله لما يُسِّر له وما شاءه الله له، ثم لم يحضر المجلس الذي فيه الاختيار، فدعا به النبي صلى الله عليه وسلم.

وهذا فيه: الإيمان بالقدر مع فعل السبب. لأنّ الإنسان لا يدري ما المقدور فيفعل السبب مع جزمه أنّ ما قدّره الله كائن. فالإنسان يفعل الأسباب الجالبة للخير، ويفعل الأسباب التي يجتنب بها الشر؛ مع إيمانه بالقدر، لأنك لا تدري ما هو المقدور.

ولذلك يا إخوة؛ هذا الأمر يدركه العقلاء، لو أنّ شخصًا في أيّ مكان من الدنيا جاء تحت عمارة تُهدَم وتتساقط على الأرض وجاء وقف وقال: الذي يقدّره الله سيكون! ماذا سيقول العقلاء عنه؟ سيقولون: خبل، مجنون، في كل مكان في الدنيا. ولو أنّ شخصًا قال: أنا أحب أن يكون عندي أولاد، وكل ما جلس في مجلس قال: أنا أحب أن يكون عندي أولاد، إن شاء الله في نهاية هذه السنة يكون عندي ولد، قالوا له: ما تزوجت أنت، أعوذ بالله ستزني؟ قال: لا ما يحتاج؛ المقدَّر كائن، وإن قدّر الله يكون عندي ولد سيكون في نهاية السنة ولو ما تزوجت! يذهبون به إلى مستشفى المجانين. ففعل السبب مع الإيمان بالقدر دلّ عليه الشرع والعقل. وكلٌّ سيُيسَّر لِمَا شاءه الله له.

ولذلك يا إخوة؛ نتنافس ولا نتحاسَد، نتنافس لأنّ التنافس هو فعل الأسباب؛ ولا نتحاسد. لأنه عند الوقوع نعلم أنّ ما وصل إلى أخي والله لم يكن لي، والله ما كان لي، ما وصل لأخي هو له فلا أحسده؛ ولكني أنافسه في بذل السبب لأنني لا أدري لمَن.

«فأعطاه الراية، فقال: انفذ على رِسلك»، على رِسلك: أيْ بأدب وأناة. وفي هذا يا إخوة: أنّ المسلم يستعمل الأدب وما يليق به في كل مكان. إذا كان وهو ذاهب ليقاتل يقول له النبي –صلى الله عليه وسلم–: «على رسلك» يعني على مهلك، فكيف الذي يذهب إلى الحج؟! الذي يذهب ليرمي الجمار؟! بعض إخواننا تراهم وهم ذاهبون إلى رمي الجمار كأنهم ذاهبون إلى حرب شعواء! الثوب مرفوع ومشمّر الكم! ما هو من الأدب، الواجب أن تسير إلى رمي الجمار بأدب وأناة، تكبّر، تهلّل. وأنت آتٍ إلى الصلاة، إذا ثوّب بالصلاة وحتى لو أقيمت الصلاة وأنت تسمعها وأنت في خارج المسجد ما تُسرِع، ما تأتيها وأنت تسعى؛ بل تأتيها بسكينة ووقار؛ أدب.

قال العلماء: «على رِسلك» تتضمن: ألا يرفع الصوت، ولا يصيح؛ وإنما يسير بأدب وأناة، بسكينة ووقار.

وفي رواية: أنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– قال له: «امشِ ولا تلتفت»؛ فمشى قليلًا ثم وقف –رضي الله عنه وأرضاه لا يحبه إلا مؤمن– وقف ولم يلتفت، ونادى بصوتٍ عالٍ؛ على ماذا أقاتلهم يا رسول الله؟ ما التفت ليسأل، مع أنّ هذا الالتفات للسؤال؛ لأنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: «امشِ ولا تلتفت»! وهذا يا إخوة حب الصحابة الصادق للرسول صلى الله عليه وسلم؛ حسن الاتّباع، ليس بالابتداع ولا بالأهواء ولا بالمخالفات؛ بحسن الاتباع.

صحابي يأتي خارج المسجد فيسمع النبي –صلى الله عليه وسلم– يقول للصحابة: «اجلسوا»؛ فيجلس خارج المسجد! علي –رضي الله عنه– هنا قال له النبي –صلى الله عليه وسلم–: «امشِ ولا تلتفت»، فأراد أن يسأل يتعلم يعرف ماذا سيكون؛ لكنه لم يلتفت ولم يلوي رأسه؛ بل وقف متوجّهًا في طريقه؛ وقال: (يا رسول الله على ماذا أقاتلهم؟ أو قال: أقاتلهم على أن يكونوا مثلنا؟) يسأل.

«حتى تنزل بساحتهم» والساحة أي حتى تصل إلى قرب الحصن، فكأنّ الذي بجوار الحصن ساحة له.

«ثم ادعهم إلى الإسلام»، ومعنى ادعهم إلى الإسلام: يعني ادعهم إلى التوحيد؛ فدلّ ذلك على أنّ مَن لم يوحِّد لم يُسلِم أصلًا ولو صلى وصام؛ لكنه لم يوحِّد لم يُسلِم، لأنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: «ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه»، إذن دل ذلك على أنّ الإسلام هو التوحيد، ثم يخبرهم بعد ذلك بما يجب عليهم، كما في حديث معاذ تمامًا.

وفيه؛ أنّ مقصود المسلم: أن يدعو إلى الله حتى في الجهاد. فهؤلاء اليهود كانوا في المدينة، وكانوا يسمعون النبي صلى الله عليه وسلم، ودُعُوا، ثم أُجلُوا إلى خيبر، ومع ذلك النبي –صلى الله عليه وسلم– يأمر علي –رضي الله عنه–

أن يدعوهم؛ مع سبق الدعوة، فهذا مشروع، لأنّ المقصود الدعوة إلى الله؛ أن يدخلوا في دين الله.

«وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه» فوالله! سبحان الله! من الذي يقسم؟ النبي صلى الله عليه وسلم، هل يحتاج النبي –صلى الله عليه وسلم– أن يقسم؟ لا والله، المؤمن يصدِّق النبي –صلى الله عليه وسلم– في خبره؛ لكن هذا ليؤكِّد الأمر، والنبي –صلى الله عليه وسلم– يقسم على الأمور المهمة. ولذلك يستحب للعالم في الأمور المهمة ولا سيما التي ينازَع فيها وهي أمور مهمة في الدين أن يقسم؛ فيقول: والله، والله، والله ، فيقسم، في الأمور ذات الشأن ولا سيما ما يظهر فيه التقصير في الأمة مع أهميته.

النبي –صلى الله عليه وسلم– يقول: «والذي نفسي بيده لا يدخل أحدكم الجنة حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»، «والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تحابوا، أفلا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»، يقول: «والذي نفسي بيده لينزلن فيكم عيسى ابن مريم»، فالنبي –صلى الله عليه وسلم– كان يقسم على المهمات.

وفيه؛ استحباب القسم على العلم عند الحاجة.

«فوالله لأن يهديَ الله بك رجلًا واحدًا» رجلٌ واحدٌ تكون سببًا في هدايته إلى الإسلام، وانتبهوا يا إخوة! «فو الله لأن يهدي الله بك» فاجتمعت الهدايتان: هداية التوفيق وهداية السبب.

هداية التوفيق؛ لله لا يملكها أحد، لا الأنبياء، لا الملائكة، ما أحد يملك هداية التوفيق إلا الله.

ولذلك يا إخوة؛ لا يلام أحد على هداية التوفيق. بعض الناس يرى رجلًا عالمًا مجتهدًا في الدعوة غير مقصِّر مع أبنائه ولكن يجد أنّ له ابنًا فاسقًا؛ فيلوم العالم على هذا؛ ويقول: ابنه فاسق! ويقدح في العالم بسبب هذا! هداية التوفيق لا يلام عليها أحد؛ لأنها بيد الله سبحانه وتعالى.

ولذلك؛ قال النبي –صلى الله عليه وسلم–: «فو الله لأن يهدي الله» فهداية التوفيق بيد الله، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ إنك يا محمد –صلى الله عليه وسلم– خيرُ مَن بيّن للناس –صلى الله عليه وسلم– لا يهدي من يحب هداية التوفيق، ولكنه يهدي إلى صراط مستقيم هداية البيان.

«لأن يهدي الله» هذه هداية التوفيق، «بك» هذه هداية البيان، السبب. وهداية البيان تقع من الإنسان؛ فإذا بيَّن؛ فهذه هداية البيان. فالدعاة إلى الله على بصيرة بيدهم هداية البيان، أمّا هداية التوفيق فهي بيد الله.

ولذلك؛ الداعية يدعو إلى الله، بما شرع الله، رجاء أن يهدي الله عباده. يدعو إلى لله فلا يدعو إلى نفسه. بما شرع الله؛ فلا يبتدع. رجاء أن يهدي الله من شاء من عباده، وإلا فهو ما يملك شيئًا، والله لو دعاء ليلًا ونهارًا، هو لا يملك إلا هداية البيان، أمّا هداية التوفيق فهي بيد الله سبحانه وتعالى.

«فو الله! لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من حُمر النَّعم»، حُمر النعم: يعني الإبل الحمراء. والإبل الحمراء هي كنز العرب. أحسن مال عند العربي: الإبل الحمراء. فمقصود النبي –صلى الله عليه وسلم–: فو الله لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من أموال الدنيا؛ لأنّ هذا فضل من الله ورحمة، وفضل الله ورحمته على العبد خير مما يجمعه الناس.

نعم يا عبد الله؛ لا تحقرن نعمة الله عليك إن رأيت أنك فقير؛ فإنه إذا أنعم الله عليك بفضله فكنتَ من العبّاد وأنعم عليك برحمته؛ فذلك خيرٌ لك مما يجمعون، خيرٌ لك مما يجمعه الناس، خيرٌ لك من جميع الكنوز.

ولذلك ثبت عن النبي –صلى الله عليه وسلم– أنه قال: «لا بأس بالغنى لمَن اتقى، والصحة لمَن اتقى خيرٌ من الغنى»، «لا بأس بالغنى لمن اتقى» لا بأس بالمال لمن اتقى الله، ولا يعاب، بل هذا خير، «لكن الصحة» وهذه نعمة من الله «خير من الغنى لمن اتقى»، فإذا كنت متقيًا لله فذاك خيرٌ لك من أموال الدنيا.

إذن؛ إذا هدى الله بك رجلًا واحدًا فأنت من أغنياء الدنيا؛ لأنّ الذي فعلته خيرٌ لك من الأموال النفيسة

يعني يا إخوة لو عرفنا أنّ رجلًا اليوم حُوِّل إلى رصيده مالٌ كثير جدًا، وآخر أسلم على يده اليوم رجل؛ هذا أغنى من هذا؛ لأنّ الذي حصل لهذا خيرٌ مما حصل لهذا؛ بشهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم. «خير لك من حمر النعم»؛ يعني خير لك من نفيس الأموال.

وفي هذا يا إخوة؛ فضل الدعوة إلى التوحيد. فلو لم تخرج من الدنيا إلا بأن هدى الله بك رجلًا واحدًا إلى التوحيد والسنة لكنت من الفائزين، فكيف لو أنعم الله عليك فاهتدى بسببك رجلان أو اهتدى ثلاثة أو اهتدى أربعة؟!

ولذلك يا إخوة؛ المؤمن لا يقف ليسأل هل الدعوة واجبة عليّ أو ليست واجبة عليّ؟ المؤمن يبحث عن فضل الله، عن هذه المنزلة العظيمة.

وفي هذا يا إخوة؛ أنّ الإنسان يدعو إلى الله بما يعلم، ولا يجوز أن يُمنَع أحدٌ من أن يدعو إلى الله بعلم بمقدار ما عَلِمَ، ما يجوز بأيّ حجة من الحجج، الذين يقفون في وجه إخواننا الذين يدعون إلى التوحيد والسنة ويقولون: ما يجوز لك حتى تأتي بتزكية من العالم الفلاني أو العالم الفلاني! والله هذا لا يجوز، ما دام أنه

يدعو على التوحيد والسنة بعِلم ويقف عند بعلمه؛ لا يجوز لك أن تقف في وجهه.

الذي يفعله بعض إخواننا من إيقاف بعض دروس العقيدة من أناس يُعرفون بالعقيدة والسنة في بلادهم؛ بحجة أنهم لم يحصلوا على تزكية من مشايخنا في السعودية! هذا لا يجوز، هذا قطع طريق في وجه هذا الفضل العظيم.

نعم لا يؤخَذ العلم إلا مِن مزكًّى، لكن ليس شرط التزكية أن يأخذ تزكية من معيَّن، بل التزكية سبق مرارًا بيَّنا كيف تكون، ولكن مَن كان معروفًا بالتوحيد، معروفًا بالسنة، لا يخالف العلماء، يدعو بما علم، يقرِّر ما علم؛ والله إنه من خيرة عباد الله ولا يحتاج أن يزكَّى تزكية خاصة، فإن حصلت له تزكية خاصة فهذا نور على نور.

أنا –والله– لا زلت أتألم مما حصل لأحد طلاب الجامعة الإسلامية من طلابنا، نعرفه طالب علم مجتهد جزاه الله خيرًا لازال في الطلب لكنه مجتهد؛ يقول: أنا يا شيخ أذهب إلى بلادي –وبلاده ليس الإسلام فيها الغالب– ذهبت إلى قرية أدعوهم إلى الإسلام، كفار، فذهبت أدعوهم إلى الإسلام بما تعلمت في الجامعة في السنتين الماضيتين وبما تعلمت في دروسك ودروس الشيخ عبد المحسن، فجاءني بعض الإخوة وأنكروا عليّ؛ وقالوا: ما يجوز تدعوهم إلى الإسلام حتى تأتي بتزكية! سبحان الله! هذا ليس طريق العلماء، ليس طريق

المشايخ، ولكنّ فَهْم بعض طلاب العلم لبعض كلام المشايخ هو الذي فيه الخطأ.

يا إخوة؛ الدعوة إلى الله على بصيرة، الدعوة إلى التوحيد والسنة شرف عظيم، يجب علينا أن نتعاون فيه.

مَن وجدناه يدعو إلى التوحيد والسنة على بصيرة بمقدار ما عَلِم ولا يُعرَف عنده مخالفة للعلماء ولا يُعرَف له طعن في العلماء؛ هذا نشجعه ونقول له: استمر. وهذا الذي رأيناه من مشايخنا جميعًا الذين تعلَّمنا عليهم؛ سواء الذين كانوا في الجامعة أو خارج الجامعة. ومَن وجدنا فيه انحرافًا عاملناه بمقدار ذلك شرعًا.

«فو الله لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا»، تعلمتَ التوحيد هنا، تعلمتَ التوحيد في الجامعة، وذهبت إلى بلادك، ترى الناس غرقى، فترى من أهلك من أهل بلادك مَن يدعو غير الله ويذهب إلى القبور ويستغيث بغير الله؛ وأنت تجلس بدم بارد تقول: ما عندي تزكية! الله أمرك والرسول –صلى الله عليه وسلم– أمرك، عَلِّم الناس بمقدار ما عندك، ولا يجوز لأحد أن يقف في وجهك، وقف حيث علمت، وكن سائرًا خلف العلماء، لا ترفع نفسك فوقهم، ولا تتعالم أمام العلماء، وإنما تدعو إلى الله عز وجل على بصيرة. وهذا الوسط،

وهذا الاعتدال، وهذا الذي ندعو إليه، وهذا الذي نصبر عليه، رجاء أن نرضي الله سبحانه وتعالى.

قال رحمه الله: [فيه مسائل. الأولى: الدعوة إلى الله طريق من اتّبعه صلى الله عليه وسلم]

بل طريقه صلى الله عليه وسلم. الدعوة إلى الله الدعوة إلى التوحيد طريق النبي –صلى الله عليه وسلم– وطريق من اتبعه، كما تقدم معنا في الآية: ﴿قل هذه سبيلي﴾أي: طريقتي ومنهجي وسنتي ودعوتي وديني؛ ﴿أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني﴾.

قال رحمه الله: [الثانية: التنبيه على الإخلاص؛ لأن كثيرًا لو دعا إلى الحق فإنه يدعو إلى نفسه]

يا إخوة؛ الإخلاص رأس المال، الكنز، في كل عبادة تَنبَّه إلى الإخلاص، في الصلاة، في الصوم، في الحج، في الزكاة، في الدعوة إلى الله، تَنبَّه إلى الإخلاص؛ لأنّ الشيطان حريص على إفساد الإخلاص. وتقدم معنا أنّ الشرك الأصغر "الرياء" خفي، يتسلل كدبيب النمل.

وبعض الناس يدعون إلى الحق –لأنّ بعض الناس والعياذ بالله يدعو إلى الباطل؛ هذا ضَلّ ضلالًا مبينًا، الذي يدعو إلى البدع أمام السنة، ويحارب السنة

ويحارب أهلها، ويعقد المؤتمرات: "مَن هم أهل السنة؟" ليقرِّر أنّ أهل البدع هم أهل السنة! هذا يدعو إلى الباطل ويقرِّر الباطل– لكن قد يدعو الإنسان إلى الحق لكن لا يدعو بحق، قد يدعو إلى التوحيد لكن بغير إخلاص؛ فلا يكون داعيًا لله، ينتفع الناس بدعوته ولكنه هو لا ينال خيرًا بهذه الدعوة.

فيجب علينا يا إخوة في دعوتنا:

- أن نعرف أنّا ندعو إلى حق.
- وأن ندعو إلى الله. وهذا الإخلاص، لا ندعو إلى أنفسنا ولا إلى جماعتنا ولا إلى شيوخنا؛ بل ندعو إلى الله، وينتفع بالحق أهل الحق ولكنّ الدعوة إلى الله.
- وأن تكون دعوتنا إلى الحق بحق. فنلتزم سبيل النبي صلى الله عليه وسلم، وألا ندعو إلى الله ببدعة، وألا ندعو إلى الله بما خالف طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال رحمه الله: [الثالثة: أنّ البصيرة من الفرائض]

نعم؛ الداعية إلى الله يجب أن يدعو إلى الله على بصيرة، لأنّ الذي يدعو على غير بصيرة إمّا أن يَضِل، وإمّا أن يُضِل، وإمّا أن يُبعِد الحق عن الناس.

إما أن يَضِل؛ لأنه بغير علم فيَخبِط. وإمّا أن يُضِل غيره. وإمّا أن يُبعِد الحق عن الناس؛ لأنه بغير علم؛ فإذا قام يتكلم عن التوحيد بغير علم وأخذ يسب الناس يقول: يا مجانين، البهائم أحسن منكم، أنتم مشركون، أنتم أولى بالنار من كفار قريش! ينفر الناس من الحق، وينفر الناس منه، ومن أمثاله، فإذا جاء داعية يدعو إلى التوحيد ببصيرة أول ما يبدأ يتكلم عن التوحيد يهربون من المسجد يتذكرون ذاك! لكن الداعية على بصيرة يحقِّق المقصود شرعًا.

طيِّب؛ ما الدليل على أنّ البصيرة فريضة كما قال الشيخ؟ الدليل: أنّ الله قال لنبيه –صلى الله عليه وسلم–: ﴿قل هذه سبيلي ادعو إلى الله على بصيرة﴾؛ فهذه وقعت موقع الشرط، فشرط الدعوة إلى الله: البصيرة. والدعوة إلى الله في الجملة واجبة؛ فشرطها واجب، ووسيلتها واجبة وفريضة.

قال رحمه الله: [الرابعة: مِن حُسن التوحيد أنه تنزيه له تعالى عن المسبة]

الله أكبر! التوحيد يا إخوة كله حَسَن؛ حسن في ذاته، حسن في أثره على الفرد والأمّة. الموحِّد أكثر الناس طمأنينة في الدنيا، والأمة لو وحَّدت لكانت أقوى الأمم. التوحيد كله حسن؛ وكيف لا يكون حسنًا وهو حق ربنا سبحانه وتعالى؟!

ومِن حُسنِه؛ أنّ في التوحيد تنزيه الله عن المسبة، لأنك وأنت موحِّد تقول بلسانك: لا إله إلا الله، لا معبود بحق إلا الله، وبعملك تحقق ذلك. وتقول: سبحان الله؛ كما في الآية.

وتنزيه الله عن المسبَّة من أعظم الأعمال الصالحة.

ولذلك يا إخوة؛ لو علمنا أنّ سبنا لإلهة الكفار التي تستحق السب يترتب عليه سب الله؛ حَرُمَ علينا أن نسب آلهة الكفار؛ ﴿ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم﴾، حرم علينا أن نسب آلهة الكفار التي تستحق السب، قلنا "التي تستحق السب" لأنّ مِن آلهة الكفار مَن لا يستحق السب، عيسى عليه السلام يعبده بعض الناس وهم كفار، عيسى عليه السلام لا نسبه، الملائكة يعبدهم بعض الناس، فهم آلهة من دون الله لبعض الناس، لكن لا نسبهم. سب آلهة الكفار التي تستحق السب مشروع، لكن إذا علمنا أنّا إذا سببنا آلهة الكفار سبوا ربنا؛ فإنه لا يجوز أن نسب آلهة الكفار. نقرِّر التوحيد ونقرِّر البراءة من الشرك وأهله ولكن لا نسب آلهة الكفار.

كذلك؛ لو علمنا أنّ سبَّنا لدين غيرنا سيترتب عليه سبُّ نبينا وسبُّ ديننا؛ يقينًا أو غلبة ظن؛ فإنَّا لا نسب دين غيرنا. نقرِّر ديننا ونقرِّر التوحيد ونقرِّر الحق ونقرِّر أنّ غير الإسلام باطل؛ لكن لا نسب السب الذي يترتب عليه سبّ قرآننا وسبّ ديننا وسبّ نبينا صلى الله عليه وسلم.

وهذا مِن أصول ديننا العظيمة: تنزيه الله عن المسبَّة؛ لا بالفعل ولا بالتسبب. وتنزيه دين الله عن المسبة، وتنزيه نبي الله –صلى الله عليه وسلم– عن المسبة.

قال رحمه الله: [الخامسة: أنّ مِن قُبح الشرك؛ كونه مسبة لله]

نعم؛ أكبر السب لله: الشرك. بعض الناس لو سمع رجلًا يسبّ الدين يستقبح هذا –وهو قبيح جدًّا– ولكنه يذهب إلى القبر ويذبح للقبر! وهذا الذي يفعله أعظم سبٍّ لله مِن سبِّ ذاك، لأنّ الشرك بالله أعظم السب. أعظم السبّ وأعظم الإثم: أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك.

فمما يدلك على قبح الشرك: أنّ فيه سبّ الله سبحانه وتعالى. وسيأتينا –إن شاء الله– يا إخوة أنّ الإنسان الذي يأتي إلى صحاب القبر ويقول: يا سيدي فلان المدد يا سيدي فلان الولد؛ أنّ هذا في الحقيقة يسبّ الله؛ لأنه يسيء الظن بالله ويجعل الله كبعض خلقه الذين يحتاجون إلى الوسائط، والله –عز وجل– يقول: ﴿وإذا سالك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون﴾سبحان الله! ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب﴾، والذي يحتاج إلى الوسائط –أيًّا كان نوعهم– هذا البعيد الذي يحتاج أن يوصِل، ﴿أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾، ما مِن موحِّد يدعو الله إلا ويجيب الله دعاءه بما فيه خيره. والذي يحتاج إلى واسطة هو الذي يميِّز؛ إذا

جاءه وزير وقال له: ولد فلان هذا أو ولد جيراننا وظِّفه؛ قالوا: وظفوه، وإذا جاء الفقير ورفع ورقة وقال: وظفوني، قال: لا؛ ما له واسطة! أمّا الله –عز وجل– فيجيب دعوة كل داعٍ موحِّد؛ فما يحتاج إلى واسطة.

فالذين يتخذون وسائط بينهم وبين الله ويقولون: ساداتنا هؤلاء، أولياؤنا هؤلاء، أصحاب القبور هؤلاء، هم واسطة بيننا وبين الله، هم فقط وسيلة! –وسيأتي إن شاء الله بيان هذا– هؤلاء يسبون الله أعظم السب؛ لأنهم يردُّون قول الله ويكذِّبون قول الله –عز وجل– ويشركون بالله سبحانه وتعالى. وسيأتي مزيد بيان إن شاء الله.

قال رحمه الله: [السادسة: وهي من أهمها: إبعاد المسلم عن المشركين لا يصير منهم ولو لم يشرك]

نعم؛ المشرك داء مُعدِي، والموحِّد لا يكون من المشركين؛ فلا يشرك، ولا يكونون منه، ولا يكون معهم، بل يبرأ من الله من الشرك ومن أهله. وسيأتينا هذا في درس الغد إن شاء الله.

[السابعة: كون التوحيد أول واجب]

نعم؛ لأنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– أمر معاذا أن تكون دعوته مبنيّة على التوحيد؛ فأوّل ما يدعوهم إليه: أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنّ محمدًا

رسول الله. لم يوجِب عليهم النظر، ولم يوجب عليهم الشك؛ وإنما أوجب عليهم: أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنّ محمدًا رسول الله. فأوّل واجب وأعظم واجب: هو التوحيد.

قال رحمه الله: [الثامنة: أنه يُبدأ به قبل كل شيء حتى الصلاة]

نعم؛ كما في حديث معاذ.

[التاسعة: أنّ معنى يوحدوا الله هو معنى شهادة أن لا إله إلا الله]

نعم؛ فشهادة لا إله إلا الله معناها التوحيد كما سيأتينا إن شاء الله. وقد قدمت لكم في حديث معاذ ما يدل على هذا من اختلاف الألفاظ.

قال رحمه الله: [العاشرة: أن الإنسان قد يكون من أهل الكتاب وهو لا يعرفها، أو يعرفها ولا يعمل بها]

بمعنى يا إخوة؛ أنّ الإنسان قد يجهل معنى لا إله إلا الله؛ مع أنه يردّدها ليلًا ونهارًا! بل قد يقول: لا إله إلا الله؛ وهو لا يحققها!

يعني بعض الناس يأتي عند القبر يلتمس الرزق والولد والخير من صاحب القبر وهو يقول لا إله إلا الله! فهؤلاء اليهود والنصارى في اليمن ما كانوا يعرفون الله؛ لأنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: «فإذا عرفوا الله»؛ مع

أنهم عندهم شيء من الكتاب! لأنّ مَن لم يوحِّد الله لم يعرفه حقيقة؛ وإن عرفه ظاهرًا أو باللفظ؛ فلابد من التوحيد؛ لِمَا تقدم في حديث معاذ.

قال رحمه الله: [التنبيه على التعليم بالتدرُّج]

وهذا من أهم ما يكون؛ التعليم بالتدرُّج هو سبب لإيصال الحق إلى الناس، لأنّ الناس لو أتيتهم بالشيء جملة واحدة قد يثقل عليهم. لكن لو درَّجتهم فأتيتهم بالأهم ثم المهم ثم المهم فإنهم يقبلون ذلك.

وهذا أيضًا يا إخوة مهم في تعليم الأبناء. ينبغي أن نعلِّم الأبناء بالتدرج. نعلمهم بالترغيب، ثم ننتقل إلى ما بعده. «مروهم بالصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر»، فإذا بلغ الطفل سبع سنين مُرْهُ بالترغيب. والترغيب يكون إجمالًا وتفصيلًا، فتقول له مثلًا: الذي يحب الله يحبه الله ويدخله الجنة، الصلاة يحبها الله والله يحب المصلين، ثم تأمره بالصلاة بالترغيب، وتتدرّج، ثلاث سنين وأنت ترغِّب بلا نهر وكهر ولا ضرب ولا شيء. فإذا بلغ عشر سنين تنتقل إلى الوسيلة الأخرى التي هي الضرب.

وكذلك في التعليم؛ تبدأ تعلمه التوحيد بما يناسب سنه، ثم تعلمه الصلاة، لا تشغله بشيء آخر إن كان لا يستطيع. ابن سبع سنين إذا كان الصوم يشق عليه أو ينفر منه أو يجعله يستثقل الصلاة لا تأمره بالصيام مُره بالصلاة، إلى أن ترى

أنّ الصلاة قد استقرت في نفسه مُره بالصوم إذا كان يطيق؛ وهكذا. ولعلنا اليوم نقف هنا. ونكمل غدًا إن شاء الله. ونجيب على بعض أسئلة إخواننا.

الدرس العاشر: تابع شرح باب: الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله

بسم الله الرحمن الرحيم

درسنا في شر ح كتاب التوحيد يا معاشر الموحِّدين، وكنا نقرأ بالأمس في باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وفرغنا من قراءة النصوص وفرغنا من قراءة المسائل التي ذكرها الشيخ -رحمه الله- في نهاية الباب، وبقيت لنا بعض المسائل لم نكملها. فيتفضل الشيخ خليل –وفقه الله- يقرأ لنا هذه المسائل؛ لنعلق على ما يحتاج إلى تعليق قبل أن ننتقل إلى الباب التالي.

[المسالة الثانية عشر: البداءة بالأهم فالأهم]

نعم؛ يعني المشروع للمسلم دعوةً وعملًا: أن يبدأ بالأهم فالمهم؛ يعني الذي دونه في الأهمية؛ وذلك عند التعارض. وهذه قاعدة عند أهل العلم يا إخوة: "إذا تعارضت المصالح قُدِّم أعلاها"، فلو تعارض عندك أداء الفرض مع أداء النافلة؛ جئتَ إلى صلاة الفجر فدخلتَ المسجد فأقيمت الصلاة؛ تعارض عندك هنا أن تصلي السنة الراتبة وأن تصلي الفرض؛ فهنا يجب أن تقدِّم الفرض وتصلي الفرض، ولا يجوز أن تشتغل بالنفل وقد أقيمت الصلاة.

إذا تعارض عندك طاعة والدك مع نافلة؛ فإنك تقدِّم طاعة والدك؛ لأنّ طاعة والدك هي الأهم وهي المصلحة العليا.

إذن؛ من القواعد الشرعية الشريفة: أنّ المسلم في عمله يبدأ بالأهم فالمهم عند التعارض. وفي دعوته يبدأ بالأهم فالمهم؛ ولا يعكس، ولذلك يبدأ بالتوحيد قبل أن يدعو إلى الصلاة، ويدعو إلى الصلاة قبل أن يدعو إلى الزكاة؛ وهكذا.

قال رحمه الله: [الثالثة عشر: مصرف الزكاة]

ليس المقصود هنا بمصرف الزكاة يا إخوة أنّ مصرف الزكاة هو الفقراء فقط؛ ولكنّ مقصود الشيخ: مسالة من مسائل مصارف الزكاة؛ وهي: أنه يجوز صرف الزكاة إلى مصرف واحد من مصارف الزكاة.

لو عندك زكاة يجوز أن تجعلها مثلًا في فقير أو في الفقراء فقط دون المؤلفة قلوبهم مثلًا ، لأنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: «تؤخَذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم»؛ فدلّ ذلك على أنّ الفقراء من مصارف الزكاة، وعلى أنه يجوز أن تُخرج الزكاة في مصرفٍ واحد من مصارف الزكاة الثمانية.

قال رحمه الله: [الرابعة عشر: كشف العالم الشبهة عن المتعلِّم]

من أدب العالم يا إخوة أن يرحم المتعلمين، فمن أعظم الآداب وأحسن الأخلاق للعالم المعلِّم للناس أن يكون رحيمًا بهم، ومن رحمة العالم بمَن يعلِّمهم أن يكشف عنهم الشبهة ويدلهم على أحسن السبل، من أين جاءت هذه

الفائدة من النصوص المتقدمة؟ من قول النبي –صلى الله عليه وسلم– لمعاذ –رضي الله عنه–: «إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب»؛ فبيَّن له الحال ليستعد و يعاملهم بما ينفع إن شاء الله.

فالعالم ينبغي له أن يكشف الشبهة لمن يعلِّمه، وأن يبيِّن له الحال، وأن يفصِّل له إن كان الأمر يحتاج إلى تفصيل، وأن يدله على أحسن السبل التي يراها ويعلَمها أنها توصله إلى جنة الخلد، توصله إلى جنة رب العالمين.

والله يا إخوة! لا ينصح العالم للناس إلا إذا كان يدلهم على طريق الجنة على طريق محمد صلى الله عليه وسلم؛ وإلا كان غاشًّا لهم.

قال رحمه الله: [الخامسة عشر: النهي عن كرائم الأموال]

نعم؛ يعني في أخذ الزكاة يؤخَذ الوسط؛ فلا تؤخَذ الرديئة ولا تؤخَذ الكريمة. وكذلك في الإنفاق؛ ينفق الإنسان الوسط فما فوق، يعني في الصدقة تريد أن تتصدق تصدَّق بالوسط فما فوق، بعض الناس إذا أراد أن يتصدق يبحث عن الشي الذي لا يحتاجه؛ مثلًا الأُرْز الذي لا يؤكَل يتصدق به! نعم صدقة لكنها ليست من خير الصدقات، خير الصدقات أنّ الإنسان يتصدق من الوسط فما فوق، ويَكمُل إذا كان ينفق مما يحب، تكمل الصدقة إذا كان الإنسان ينفق مما يحب.

قال رحمه الله: [السادسة عشر: اتقاء دعوة المظلوم]

وقد تكلمنا عن هذا بما فيه الكفاية.

قال رحمه الله: [السابعة عشر: الإخبار بأنها لا تُحجَب]

نعم؛ بأنها تُسمع، تُرفَع وتُسمَع، وقد تكلمنا عن هذا .

قال رحمه الله: [الثامنة عشر: من أدلة التوحيد ما جرى على سيد المرسلين وسادات الأولياء من المشقة والجوع والوباء]

الله أكبر! من أدلة التوحيد يا إخوة ما جرى على النبي –صلى الله عليه وسلم– من المشاق والتعب، فكان النبي –صلى الله عليه وسلم– يسافر للغزو ويسافر معه أصحابه، منهم من يمشي، وعلي –رضي الله عنه– أصابه المرض أصابه الرمد هنا، وذهب وهو أرمد لا يكاد يرى أو لا يرى من شدة الرمد.

طيِّب كيف يدل هذا على التوحيد؟ هذا يدل يا إخوة على أنهم فقراء إلى الله، فقراء لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا، فإذا كان هؤلاء السادة هؤلاء الأولياء لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا فمِن باب أولى مَن دونهم؛ فلا يستحقون أن يُعبَدوا ولا أن يُدعَوا، الذي لا يستطيع أن يدفع عن نفسه كيف يدفع عن غيره؟! فلا يدعَون من دون الله.

وقد تقدم معنا يا إخوة أنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– ماتت بناته، ومات ابنه إبراهيم بين يديه وهو يقعقع ما استطاع أن يردّ الموت عنه. فالنبي –صلى الله عليه وسلم– وهو سيد ولد آدم أجمعين، بل أفضل الخلق صلى الله عليه وسلم؛ فقير إلى الله، والله هو الغني بذاته. ولا شك أنّ هذا يدل على التوحيد، فالله –عز وجل– هو المستحق للعبادة على الإطلاق.

قال رحمه الله: [التاسعة عشر: قوله: «لأعطين الراية»إلخ؛ عَلَمٌ من أعلام النبوة]

نعم –كما تقدَّم معنا– لأنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: «لأعطين الراية غدًا رجلًا يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، يفتح الله على يديه»؛ فأخبر بأنه في الغد ستُفتح الحصون؛ وقد وقع كما قال صلى الله عليه وسلم. وهذا لا يكون إلا من وحي؛ لأنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– لا يعلم الغيب إلا إذا أوحى الله إليه.

قال رحمه الله: [العشرون: تَفلُه في عينيه عَلَمٌ مِن أعلامها أيضًا]

نعم؛ كون النبي –صلى الله عليه وسلم– تَفَل في عينيّ علي –رضي الله عنه– فبرئتا فورًا ولم يشتكي منهما إلى أن مات؛ هذا علم من أعلام نبوة النبي صلى الله عليه وسلم؛ فإنه لا يقع إلا للنبي صلى الله عليه وسلم.

قال رحمه الله: [الحادية والعشرون: فضيلة عليّ رضي الله عنه]

نعم؛ لشهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنه يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله. والمؤمنون يحبون عليًّا رضي الله عنه، ويحبون مَن يحبُّه علي رضي الله عنه، ويحبون من يحب عليًّا رضي الله عنه، وعليٌّ رضي الله عنه يحب أبو بكر الصديق رضي الله عنه، ويحب عمر رضي الله عنه، فالمؤمنون يحبون صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أمّا المنافقون المتسترون فإنهم يَغلُون في علي رضي الله عنه، ويكفِّرون صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال رحمه الله: [الثانية والعشرون: فضائل الصحابة رضي الله عنهم في دَوكهم تلك الليلة وشغلهم عن بشارة الفتح]

نعم؛ كما قلنا يا إخوة؛ من فضائل الصحابة: أنهم اشتغلوا عن البشارة بالفتح وما يقع في الدنيا بأمر أعظم؛ وهو ما يتعلّق بخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنّ الرجل الذي سيأخذ الراية يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

قال رحمه الله: [الثالثة والعشرون: الإيمان بالقدر لحصولها لمَن لم يسعَ ومنعها عمن سعى]

نعم؛ الايمان بالقدر وأنّ ما شاء الله كان ولو اجتمع الخلق أجمعون ليمنعوه، وأنّ ما لم يشأ لم يكن ولو اجتمع الخلق أجمعون ليوقِعوه. فهنا عليٌّ رضي الله عنه -كما قدّمتُ لكم يا إخوة- تخلَّف في المدينة من أجل الرمد، ثم ساقه الله؛ وقال: أنا أتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم؟! فذهب، وكان أرمد ما يرى فجلس في خيمته؛ فدعاه النبي صلى الله عليه وسلم؛ فحصلت لعلي -رضي الله عنه- مع أنه لم يسع، ولم تقع للصحابة الذين كانوا يتطاولون للرسول صلى الله عليه وسلم.

وهذا يا إخوة؛ يقطع الحسد من أصله؛ لأنك تعلم وتوقِن أنّ الذي وصل إلى أخيك ليس لك أبدًا، والله ما كان لك ولن يكون، هو لأخيك؛ فكيف تحسده؟

وأبخل البخلاء: الذي يبخل بما لا يُؤخَذ منه وما ليس له. هذا أبخل البخلاء. يبخل بما لا يُؤخَذ منه؛ ليس هو الذي يعطيه. وما ليس له؛ أصلًا هو ليس له، فيبخل به عن إخوانه ويحسد إخوانه! النعمة من الله، هذا المال الذي أخذه أخي هذا من الله، لستُ أنا الذي أعطيته ولا أُخِذ مني، والذي وصل إلى أخي ليس لي، يقينًا، فكيف أبخل به على أخي وأحسده؟!

فالإيمان بالقدر يا إخوة علامة السعادة. والله يا إخوة! لو آمن الناس بالقدر حق الايمان كما جاء في الكتاب والسنه لَمَا شقي أحد؛ لأنّ الإنسان إذا

آمن بالقدر يفعل السبب ولا يعلِّق قلبه بالسبب، ولا يحزن على ما فاته؛ لأنه يعلم أنه لن يصيبه، ولا يحزن حزنًا يُقعِده –الحزن الطَبَعِي هذا شيء آخر–إذا أصابته مصيبة؛ لأنه يعلم أنه لا يمكن أن ينجو منها إذا وقعت، لا بد من وقوع القدر؛ وعلامته أن يقع.

قال رحمه الله: [الرابعة والعشرون: الأدب في قوله: «على رسلك»]

نعم؛ والمسلم دائمًا يتأدب. وقد ذكرت لكم يا إخوة هذه الفائدة بما يتعلق بالحج؛ وأنّا نكون في حجِّنا على أدب وأناة وسكينة ووقار وألّا يقتل بعضنا بعضًا. بعض الحجاج –هداني الله وإياهم– يفهمون من قول النبي –صلى الله عليه وسلم–: «الحج جهاد كل ضعيف» أنّ الإنسان يأتي للحج بقوة، وتجده في الطواف يدفع الناس، وترى أنانية في بعض الحجاج في الطواف؛ يحجز مكانًا واسعًا لزوجته وأخواته، والناس يتضايقون، ليس لك إلا ما تمشي فيه؛ إذا زدتَ فهذا غصب لحق المسلمين. وبعض الناس يتدافعون عند رمي الجمار كأنهم يدعَون إلى القتال، والنبي –صلى الله عليه وسلم– لمّا رأى ازدحام الناس على الرمي قال: «لا يقتل بعضكم بعضًا، لا يقتل بعضكم بعضًا» يعني: اهدؤوا اهدؤوا. فهذا أدب للمسلم في جميع أحيانه.

قال رحمه الله: [الخامسة والعشرون: الدعوة للإسلام قبل القتال]

وهذا واجبٌ إذا كان المقاتَلون لم يُدعَوا قبل ذلك؛ يُدعَوا إلى الإسلام، فإن أجابوا لم يَجُزْ قتالهم.

قال رحمه الله: [السادسة والعشرون: أنه مشروع لمَن دُعوا قبل ذلك وقُوتِلوا]

أنه مشروع وليس واجبًا، يعني مستحب إذا أردنا أن نقاتل قومًا قد دُعوا قبل إلى الإسلام وأبَوا؛ أن ندعوهم مرة أخرى؛ لعل الله أن يفتح قلوبهم ونُكفَى شر القتال، لكن هذا مستحب وليس واجبًا؛ والدليل على ذلك: أنّ اليهود كانوا قد دُعوا إلى الإسلام في المدينة قبل إجلائهم إلى خيبر ومع ذلك أمر النبي –صلى الله عليه وسلم– عليًّا رضي الله عنه أن يدعوَهم إلى الإسلام.

قال رحمه الله: [السابعة والعشرون: الدعوة بالحكمة؛ لقوله «أخبرهم بما يجب عليهم»]

نعم؛ الدعوة بالحكمة هذا أصل من أصول الدعوة وأنّ الإنسان يدعو الناس بحكمة، ومن ذلك أن يخبر الناس خبرًا بما يجب عليهم؛ وهذا من الحكمة؛ لأنّ الترفُّع على الناس أثناء الدعوة ينفّرهم من قبول الحق؛ أمّا إذا كان على هيئة المخبِر لهم فإنّ هذا يقرِّب قلوبهم إلى الداعي.

قال رحمه الله: [الثامنة والعشرون: المعرفة بحق الله في الإسلام]

وأنّ لله حقًّا في الإسلام؛ فمَن وحَّد الله لا يعتمد على مجرد توحيده؛ بل يجتهد في طاعة الله عز وجل؛ فيفعل الواجبات، ويترك المحرمات، ويُكثر من المستحبات، ويترك المكروهات.

قال رحمه الله: [التاسعة والعشرون: ثواب من اهتدى على يديه رجل واحد]

وقد قلنا أنّ هداية رجل واحد إلى الإسلام خير للمسلم من كنوز الأرض.

قال رحمه الله: [الثلاثون: الحلف على الفُتيا]

وقلنا يا إخوة إنّ الحلف على الأمور المهمة من السنة؛ من أجل توكيده للناس. والنبي –صلى الله عليه وسلم– كان يحلف على الأمور ذات الشأن؛ كما تقدم في الدرس.

تابع الدرس العاشر: شرح باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله الا الله

قال رحمه الله: [باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله الا الله]

نعم أيها الفضلاء؛ لمّا فرغ المصنف –رحمه الله– من الأبواب التي تتعلق بكليات التوحيد؛ وفيها بيان ما ينبغي على المؤمن تجاه التوحيد؛ وهو: أن يحبه، ويحب أهله، وأن يتعلمه، وأن يعمل به، وأن يَسلَم مما يَنقضه أو يُنقصه، وأن يبرأ مما يُعبَد من دون الله ومن المشركين وشركهم، وأن يدعو إليه، وأن يصبر عليه، وأن يعلِّق قلبه بالله عز وجل، وأن يخاف من الشرك بأنواعه؛ شرع هنا في بيان التوحيد وبيان ما يضاده على سبيل الإجمال والتفصيل.

ففي هذا الباب الذي معنا بيَّن معنى التوحيد إجمالًا، ثم في الأبواب التالية إلى آخر الكتاب يبيِّن التوحيد تفصيلًا ببيان التوحيد وبيان ما يضاده.

نعم يا إخوة؛ معنى التوحيد تقدَّم معنا بيَّناه أثناء الكلام؛ لكنه هناك مرَّ تَبَعًا، ولم يَمُرّ مقصودًا في الأبواب السابقة، أمّا هنا فهو مقصود.

ولذلك يا إخوة ليس صحيحًا أنّ هذا الباب مكرّر؛ بل هذا الباب باب تأسيس؛ لأنّ فيه بيان معنى التوحيد قصدًا؛ أمّا الذي مرَّ فهو تَبَع للأبواب التي تقدَّمت معنا.

قال: (باب: تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله الا الله)، التفسير: مِن الفَسْرِ، والفَسْرُ: هو الكشف، أيْ: بابُ الكشفِ والبيانِ عن معنى التوحيد.

طيِّب؛ قال: (باب: تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله الا الله) التوحيد هو شهادة أن لا إله الا الله! ولذلك يقول العلماء: هذا مِن باب عطف المترادفات. فمعنى الباب: باب كشف وبيان معنى التوحيد وأنّ التوحيد هو معنى شهادة أن لا إله الا الله.

وبعض أهل العلم قال: هذا مِن باب عطف المفسَّر على المفسَّر به، فيقولون شهادة أن لا إله إلا الله مفسَّرة بالتوحيد، فهذا من باب عطف المفسَّر الذي هو شهادة أن لا إله إلا الله على المفسَّر به وهو التوحيد.

قال رحمه الله: [وقول الله تعالى: ﴿أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة﴾الآية]

الله –عز وجل– قال: ﴿قُلِ﴾ للمشركين ﴿ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلاً * أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾، هذه الآية يا إخوة أصلٌ يقوم عليه التوحيد؛ وهو: أنّ الله غني بذاته وأنّ ما سواه فقير بذاته. الله –

سبحانه– غني بذاته، وما سواه فقير بذاته، والفقير محتاج إلى الغني، فمستحق العبادة هو الله الغني سبحانه وتعالى، ومَن دونه لا يستحقون أن يُعبَدوا أبدًا.

هذه الآية رأى بعض السلف أنها كانت في الذين كانوا يعبدون الملائكة. ورأى بعض السلف أنها كانت في الذين يعبدون عيسى عليه السلام. ورأى بعض السلف أنها كانت في الذين كانوا يعبدون عزيرًا عليه السلام. ورأى بعض السلف أنها في قومٍ كانوا يعبدون جنًّا قد أسلموا؛ وقد ذكر ابن مسعود –رضي الله عنه– أنّ هذا هو سبب نزول الآية.

فقد روى الشيخان –البخاري ومسلم– عن عبدالله ابن مسعود –رضي الله عنه– أنه قال في هذه الآية: (كان ناس من الإنس يعبدون ناسًا من الجن، فأسلم الجن وتمسَّك هؤلاء بدينهم، فنزلت الآية).

فمعنى الآية يا إخوة؛ يقول ربنا –سبحانه وتعالى– لنبينا –صلى الله عليه وسلم–: قل للمشركين الذين يعبدون الملائكة أو يعبدون عيسى أو يعبدون عزيرًا أو يعبدون الجن المؤمنين: ادعوا الذين زعمتم أنهم آلهة من دون الله عز وجل.

وانتبهوا يا إخوة ﴿من دون الله﴾ تعني معنيَين:

١. تعني: أيْ يُعبَدون دون الله. يُعبدون هم فقط.

٢. وتعني: يُعبَدون مع الله.

وكلاهما مقصود؛ سواء عُبدَت الملائكة فقط أو عُبِدت الملاكة مع الله، سواء عُبد عيسى عليه السلام فقط أو عُبد عيسى عليه السلام مع الله.

﴿قل﴾ للمشركين الذين يعبدون الملائكة أو عيسى –عليه السلام– أو عزيرًا –عليه السلام– أو الجن الذين أسلموا؛ ادعوا الذين زعمتم أنهم آلهة من دون الله –عز وجل– أن يكشفوا الضر عنكم، ألا يصيبكم الضر؟ بلى، يصيبكم الجوع، يصيبكم العطش، يصيبكم المرض؛ ادعوا هؤلاء الذين تزعمون أنهم آلهة –والزعم مطية الكذب– ادعوهم أن يكشفوا الضر عنكم، أو أن يُحولوه عنكم إلى غيركم، أو عن مكانكم إلى مكان آخر، فإنّ الله قادرٌ على هذا، الذي يُعبَد قادرٌ على هذا، فلو كانوا آلهة لكانوا قادرين.

النبي –صلى الله عليه وسلم– لمّا قَدِم المدينة وجد فيها حمّى شديدة فدعا الله أن ينقلها الله إلى الجحفة؛ فنقلها الله إلى الجحفة.

ادعوا هؤلاء أن يكشفوا الضر عنكم، أو يحولوه عنكم؛ فإنهم لن يستطيعوا، وهذا يدركه المشركون في ذلك الزمان، ولذلك المشركون في ذلك الزمان يا إخوة إذا ركبوا في الفلك وخافوا الضر: دعوا الله مخلصين له الدين، وإذا رجعوا إلى البر وسلِموا: أشركوا بالله! فالله –عز وجل– يقيم عليهم الحجة.

ادعوا هؤلاء الذين زعمتم أنهم آلهة من دون الله –عز وجل– أن يكشفوا الضر عنكم أو أن يحولوا الضر عنكم؛ فإنهم لا يستطيعون؛ وهذا يدل على عجزهم عن نفع غيرهم.

ثم قال الله: ﴿أولئك الذين يدعون﴾ ويزعمون آنهم آلهة ﴿يبتغون إلى ربهم الوسيلة﴾ يعني يبتغون إلى ربهم القربة بطاعته سبحانه وتعالى، ورأس الطاعة: التوحيد، ويتسابقون إلى القرب من الله، ويرجون جنة الله، ويخافون عذاب الله، فهم فقراء إلى الله، هم لا يملكون أن ينفعوا غيرهم، ولا يملكون أن ينفعوا أنفسهم من دون الله؛ ولذلك يتقرَّبون إلى الله، يرجون رحمته، يخافون عذابه، فهم فقراء في ذاتهم، لا يستطيعون نفع أنفسهم.

وإذا كانوا لا يملكون نفع غيرهم، ولا يملكون نفع أنفسهم؛ فإنهم لا يستحقون أن يُعبدوا من دون الله عز وجل، وإنما يُعبد الله عز وجل.

وهذا يفيد السامع ثلاث فوائد، كلها تحقق مقصود الباب – وانتبهوا لها يا إخوة–:

الفائدة الأولى: أنّ الله هو الغني بذاته سبحانه، وأنّ جميع المخلوقين فقراء إليه بذواتهم. وهذا يوجِب شرعًا وعقلًا أن يُوحَّد الله سبحانه وتعالى، وأن يُعلَّق القلب بالغني سبحانه، وأن تكون الرغبة إليه، والرهبة منه.

والثانية: أنك أنت أيها المخاطَب الآن الذي تسمع الآية أنك فقير إلى الله كأولئك؛ كالملائكة، وعيسى عليه السلام، وعزير عليه السلام، والجن الذين آمنوا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، أنت فقير إلى الله مثلهم، فكن مثلهم موحدًّا لله، طائعًا لله، معلِّقًا قلبك بالله، راجيًا جنة الله، خائفًا من عذاب الله، رغبتك إلى الله، ورهبتك من الله؛ لأنك فقير مثلهم؛ بل أنت أشد فقرًا.

قال الله –عز وجل–: ﴿يا ايها الذين امنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة﴾، فخاطبكم: ابتغوا إليه الوسيلة. ماهي الوسيلة؟ الوسيلة أن يعبد غير الله؟ لا والله ، الوسيلة: أن توحِّد الله، وأن تطيع الله سبحانه وتعالى.

قال مقاتل بن سليمان: "﴿ابتغوا إليه الوسيلة﴾ يعني: في طاعته بالعمل الصالح".

وقال قتادة: "تقرَّبوا إليه بطاعته، والعمل بما يرضيه"؛ أي: ابتغوا إلى الله الوسيلة بما يقربكم إليه ويكسبكم رضاه، وهو ما بيَّنه لكم في القرآن وفي سنة النبي صلى الله عليه وسلم.

وأمّا اتخاذ أناس يُدعَون من دون الله بحجة أنهم الوسيلة؛ ويقولون: هؤلاء سادتنا وسيلتنا إلى ربنا، هؤلاء وسائط يقربوننا إلى الله عز وجل! فهذا منافٍ للتوحيد الذي أمُرنا به ومن الشرك بالله عز وجل الذي عابه على

المشركين، ﴿ألا لله الدين الخالص﴾ الله لا يقبل من الدين إلا ما كان له خالصًا لا يُشرَك معه أحد ، ﴿ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾، يعني هؤلاء الذين اشركوا يقولون: ما نعبدهم إلا أنهم وسيلة، إلا أنهم وسائط.

وفي اتخاذ وسائل من الرجال يُدعَون من دون الله –كما قلنا– إساءة ظنٍّ بالله، وتشبيهٌ لله بخلقه الذين يحتاجون مَن يَرفع حاجات الناس إليهم. والله –عز وجل– قَطَعَ كل هذا ﴿وإذا سالك عبادي عني فاني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليومنوا بي لعلهم يرشدون﴾، فهذا الذي يذهب للقبور يسأل أصحاب القبور يسأل من يسميهم بالأولياء من دون الله نقول له: ألستَ مصدِّقًا قول الله؟ الله –عز وجل– يقول لك: ﴿فإني قريب﴾، فليس بعيدًا تحتاج معه إلى غيره، ﴿أجيب دعوة الداعي إذا دعان﴾ فهو جواد كريم –سبحانه– يجيب دعوة الداعي؛ فلا يحتاج إلى وسطاء. فآمِن بقول الله واتَّبع قول الله؛ توحِّد وتَسلَم.

الثالث: أنّ توحيد الله إنما يكون بعبادة الله، وترك عبادة ما سواه. فهذا تفسير للتوحيد؛ لأنّ الله في أول الآية بيَّن لهم أنّ عبادة ما سواه باطلة؛ فيجب تركها. وبيَّن لهم أنّ الملائكة والأنبياء تَعبُد الله، فالتوحيد هو عبادة الله وترك عبادة ما سواه.

قال رحمه الله تعالى: [وقوله: ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني﴾]

هذه الآية يا إخوة فيها تفسير لا إله الا الله؛ وهي تفسيرٌ عمليّ لقول الله –عز وجل–: ﴿فمَن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها﴾؛يعني استمسك بلا إله الا الله. لأنّ إبراهيم –عليه السلام– هنا كما قال الله: ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه﴾ الذين يعبدون الأصنام ﴿إنني براء﴾ وأصل البراءة: التخلي؛ والمقصود بها هنا: الكفر، ﴿إنني براء مما تعبدون﴾ مِن كل مَن تَعبدونه أو ما تعبدونه ﴿إلا الذي فطرني﴾؛ فاستثنى المعبود الحق الله سبحانه وتعالى، وبيَّن أنه هو المستحق للعبادة؛ لأنه قال: ﴿إلا الذي فطرني﴾ أي: خلقني وأوجدني من غير مثال سابق، ولن يستطيع أحدٌ أن يفعل هذا؛ فهو المستحق للعبادة سبحانه وتعالى.

ولا بد في التوحيد أيضًا من البراءة من المشركين. يعني عبادة الله، وترك الشرك، والبراءة من المشركين. كما قال الله –عز وجل–: ﴿قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا براء منكم ومما تعبدون من دون الله﴾، والمقصود بالبراءة من المشركين يا إخوة: بغضُهم لشركهم.

إذن حتى تكون موحِّدًا لا بد:

- أن تعبد الله وحده.
- ولا بد لأن تَسلَم من الشرك بالله.
- ولا بد أن تَكفُر بما يُعبَد من دون الله.

لو أنّ إنسانًا عَبَدَ الله وما أشرك؛ لكنه لم يكفر بالطواغيت، لم يكفر بما عُبِد من دون الله؛ قال: لا، أنا ما أكفر بهذه الآلهة لكن أنا ما أُشرِك! هذا ما وحَّد ولا دخل الإسلام.

الذي يقول: الناس أحرار، كلٌّ واحد يَعبد الإله الذي يحب، نعم أنا أعبد الله ولا أشرك بالله؛ لكن لا أعيب على أحد أنه يعبد عيسى –عليه السلام– أو أنه يعبد عزيرًا، أو يقول: إنه يجوز لكل واحد أن يَعبد الله كما شاء! هذا ما وحَّد.

لابد من الكفر بجميع المعبودات من دون الله، وأن يعتقد المسلم أنه لا يجوز لأحد أن يعبد غير الله، وأن يكفر بالمعبودات من دون الله، وأن يُبغِض المشركين لشركهم، الذي يحب المشركين لشركهم، لدينهم، لانحرافهم؛ هذا ما وحَّد، وما أسلم.

أمّا محبة المشركين لغير دينهم؛ فهذه مسالة أخرى لا تَنقض الإسلام.

انتبهوا يا إخوة؛ عندما نقول: "البراءة من المشركين" تعني: بغضهم لشركهم، عدم محبتهم لشركهم. أمّا محبتهم من أجل الدنيا، محبتهم الطبعية،

هذه بيَّناها سابقًا؛ لكنها لا تنقض الإسلام. والذي يهمني هنا المحبة التي تنقض الإسلام.

ما معنى البراة مِن المشركين–الذي هو مِن معنى التوحيد–؟ أن تُبغِض المشرك لشركه، فتبغض المشرك لأنه مشرك.

إذن؛ ما معنى التوحيد؟ أن تعبد الله وحده، وأن تَسلَم من الشرك، وأن تكفر بكل ما عُبد من دون الله من جهة كونه معبودًا من دون الله، وأن تبرأ من المشركين؛ بمعنى: أن تبغضهم لشركهم وظلمهم العظيم.

قال رحمه الله تعالى : [وقوله: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله﴾]

الله –عز وجل– قال: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لا إِلَهَ إِلا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، أهل الكتاب من اليهود والنصارى– والمقصود هنا أصالة: النصارى– ﴿اتخذوا أحبارهم﴾، والأحبار: جمع حَبْر أو حِبْر؛ وهو العالِم عند اليهود والنصارى، ﴿ورهبانهم﴾ أي: عبَّادهم، ﴿أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم﴾ يعني أيضًا اتخذوا المسيح ابن مريم ربًّا من دون الله، ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا﴾ إذن فعلهم هذا ينافي التوحيد، كيف اتخذوهم أربابًا؟

جعلوا لهم تحليل ما حرّم الله، وتحريم ما أحل الله؛ وأطاعوهم في ذلك؛ مع علمهم بأنه يضاد حكم الله.

يعني يا إخوة هذه الآية سيأتي تفسيرها في باب مستقل ونفصِّل، لكن انتبهوا فقط حتى ما يقع الخلط، الذي يأتي لعالم من العلماء ويعتقد أنّ له أن يُحِل ما حرم الله أو يحرِّم ما أحل الله، فإذا قال له هذا العالم –الذي قد يسميه بالولي– إذا قال له: "الربا حلال"، هو يعلم أنّ الله حرمه؛ اعتقد أن الربا حلال؛ لأنّ هذا الشيخ قد أحلَّه! أو قال له هذا الشيخ: إنّ أكل اللحم حرام؛ مع علمه بأن الله أحلَّه؛ فاعتقد أنه حرام؛ هذا قد اتخذه ربًّا؛ لأنّ الحكم لله، ويكفر بهذا، ولا يكون موحِّدًا، ويكون مشركًا شرك الطاعة الذي يخرجه من الملة.

أمّا إذا أطاع العالم في التحليل والتحريم معتقدًا أنّ هذا هو الدين، ولم يعلم خلاف ذلك؛ فهذا مشروع.

وإذا أطاع العالم في التحليل والتحريم مع علمه أنّ الله أحل ذاك الذي حرَّمه العالِم أو حرَّم ذلك الذي أباحه العالم؛ شهوة لا اعتقادًا، يعني هو في نفسه يعتقد أنه حرام؛ لكن من أجل شهوة الدنيا قال: أنا اتَّبع هذا العالم. يتعامل بالربا وهو يعتقد في قلبه أنّ الربا حرام؛ لكنّ الشيخ الفلاني قال: هذه الصور حلال من الربا، فهو يتعامل للشهوة، أمّا الذي في قلبه فهو ما في الشرع من حُرمةٍ أو حِل: فهذا عاصٍ وليس كافرًا.

إذن؛ متى يكون شرك الطاعة؟ إذا عَلِمَ أنّ حكم العالِم خلاف حكم الله واعتقد ما قاله العالِم وترك ما قاله الله؛ هذا يكون قد أشرك شرك الطاعة، وليس موحِّدًا.

وهذه الآية سيأتي تفصيلها في باب مستقل.

قال رحمه الله تعالى: [وقوله: ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله﴾]

هنا يقول الله عز وجل: ﴿ومن الناس من يتأخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله﴾ لماذا قال الله أنهم اتخذوا أندادًا من دونه؟ لأنهم يحبونهم كحب الله؛ وهذا يسمى شرك المحبة.

إذن؛ التوحيد لا بد فيه مِن أن تحب الله حبًّا يغلِب على كل شيء، حتى على حبك لمحمدٍ صلى الله عليه وسلم.

ومراتب الناس في المحبة درجات:

المرتبة الأولى: ألا يحب الله أصلًا، يحب شهواته ونزواته؛ ولا يحب الله.

وهؤلاء شواذ الخلق؛ كالملاحدة، وهم أضل من الأنعام، أضل من الحيوانات.

والمرتبة الثانية: مَن يحب الله؛ لكن يحب أحدًا من خلق الله أكثر من حبِّه لله. يحب الله ويحب الولي حبًّا أكثر من حبه لله؛ ولذلك يترك ما يريده الله لِما يريده الولي بزعمه. وهذا مشرك .

المرتبة الثالثة: أن يحب الله ويحب أحدًا من خلق الله كحب الله، يسوِّي بين الله والمخلوق في المحبة. وهذا مشرك.

والمرتبة الرابعة: أن يحب الله فوق محبة جميع المخلوقين. وهذا موحِّد أو مسلم.

ثم يتفاوت المسلمون في المحبة، يعني حصل عنده المحبة التي هي شرط في الإسلام. أمّا محبة القرب فهذه يتفاوت فيها الناس، فقد يكون الإنسان مسلمًا ويكون مقتصرًا على المحبة اللازمة في تحقيق الإسلام، وقد يزيد وقد يزيد وقد يزيد، الناس مراتب.

ولذلك يقول العلماء: علامة محبة المسلم لله: أن يُحسِن اتّباع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن يجتهد في التقرب إلى الله، وكلما كان أحسن اتِّباعًا وأكثر اجتهادًا كان أعظم محبة لله.

لاحظوا يا إخوة؛ علامة محبة المسلم –وهو الذي أحب الله فوق المخلوقين– علامة محبته –يعني الزائدة عن قدر أنه أصبح بها مسلمًا–:

١. حسن الاتّباع لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

٢. والاجتهاد في الطاعة.

ولذلك؛ يقول العلماء: ثمرة المحبة –محبة المسلم– التقرب إلى الله –سبحانه وتعالى– وترك معاصيه.

ولذلك؛ لو جاءنا مسلم يُكثر من المعاصي وتَقلّ عبادته لله –عز وجل– وقال: أنا قلبي مليء بحب الله وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو أنا أحب الله وأحب رسوله! قلنا له: هذه دعوى، أعمالك تكذبها، ونقصد بهذا محبة المسلم، لا المحبة التي يصبح بها مسلمًا، وإنما المحبة التي تكون في قلب المسلم زائدة عن المحبة التي يصبح بها مسلمًا.

وهذه يا إخوة مثل قول النبي –صلى الله عليه وسلم–: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى»، قالوا ومَن يأبى يا رسول الله ؟ قال: «مَن أطاعني دخل الجنة، ومَن عصاني فقد أبى»؛ مع أنه قد يعصي في معصية ويدخل الجنة. وهذه مثل نصوص الوعيد، يقول العلماء: نصوص الوعيد تُمَرُّ ولا تُؤوَّل؛ لأنّ المقصود منها الزجر؛ فلو قُيِّدتْ وأُوِّلتْ لذهب المقصود منها. وسيأتي –إن شاء الله– في أحاديث الشفاعة أصول نافعة لأهل السنة والجماعة في تقييد النصوص.

بهذا نأتي إلى أمر مهم جدًّا لابد أن أتطرق إليه ولو كان الشرح مختصرًا؛ وهي مسالة البيتين المشهورين على السنة الناس والوعاظ والدعاة؛ وهي التي يقال فيها:

تعصي الإله وأنتَ تزعم حبَّه　　　هذا لَعمرُك في القياسِ شنيعُ

لو كان حبُّك صادقًا لأطعته　　　إنّ المُحِبّ لمَن يُحِبُّ مطيعُ

ويُروى البيت الأوّل على وجه آخر؛ يقال:

تعصي الإله وأنت تُظهِر حبَّه　　　هذا لَعمري في القياس بديعُ

لو كان حبُّك صادقًا لأطعتَه　　　إنّ المحِب لمَن يُحِبُّ مطيعُ

هذان البيتان ينسبان للإمام الشافعي في كتب الأدب. وينسبان لأبي العتاهية؛ الشاعر الزاهد المعروف؛ كما في شعب الإيمان للبيهقي. وينسَب لمحمد بن الحسن بن الحنفية أنه كان يتمثَّل بهما؛ كما في شعب الإيمان عند البيهقي. وتنسبان لمحمود الورّاق. ويستشهد بهما بعض أهل العلم؛ كالشيخ ابن عثيمين –رحمه الله– كان يستشهد بهما، والشيخ الألباني –رحمه الله– كان يستشهد بهما، وكذا بعض شرَّاح الحديث. فما الموقف من هاذين البيتين؟

نقول يا إخوة: إن كان المقصود بالمعصية هنا كل المعاصي بما فيها الشرك بالله؛ بحيث لا يعبد الله إلا قليلا؛ كالمنافقين الذين يشركون بالله

ويفعلون المعاصي ولا يذكرون الله إلا قليلًا، وعبّاد عيسى عليه السلام، وعبّاد العزير عليه السلام، وعبّاد الملائكة؛ فالبيتان صحيحان على ظاهرهما:

تعصي الإله وأنت تُظهِر حبَّه   هذا لَعمرك في القياس بديعُ

بديع: يعني مختَرَع؛ لا يجري على سَنن القياس.

لو كان حبُّك صادقًا لأطعتَه   إنّ المحِب لمَن يُحِبُّ مطيعُ

وعلى هذا المعنى؛ البيتان مأخوذان من قول الله عز وجل: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾. هذا الوجه واضح.

الوجه الثاني: إذا كان المراد بالمعصية: المعاصي التي تقع من المسلمين، وكان المراد بالمحبة: محبة المسلمين التي تقتضي القرب من الله؛ فالبيتان صحيحان.

(تعصي الإله) أيها المسلم (وأنت تُظهِر حبَّه) تزعم أن قلبك مليء بالحب لله (هذا لَعمرك في القياس شنيع)، (لو كان حبك صادقًا لأطعتَه) لأنّ هذا هو مقتضى المحبة، ولا يعني أنّ المحبة تُنفى عن العاصي، لكن المقصود هنا أنّ محبة المسلم لله التي تقتضي البعد عن المعاصي والقرب من الله؛ هذه ليست موجودة أو ضعيفة، فالمعنى صحيح.

وعلى هذا نقول: أنّ العلماء الذين يستشهدون بهذين البيتين من علماء أهل السنة إنما يريدون هذا المعنى.

والوجه الثالث –وانتبهوا له–: أنّ يراد أنّ العاصي لا يحب الله أصلًا، وهذا لا يقوله أهل السنة والجماعة، لأنّ أهل السنة والجماعة يقولون: إنّ العاصي المسلم وإن ارتكب الكبيرة لا يخرج من الإسلام، فعنده محبة لله أصبح بها مسلمًا.

وإنما يقول هذا –أعني قول أنّ العاصي لا يحب الله أصلًا– الخوارج، الذين يرَون أنّ مرتكب الكبيرة بارتكابه الكبيرة يخرج من الإسلام، فهو لا يحب الله أصلًا!

وأهل السنة يأبَون هذا، ويقولون: إنّ مرتكب الكبيرة وإن كان على خطرٍ وإن كان على ذنب عظيم وإن كان معرَّضًا للعقوبة إلا أنه مسلم؛ فهذا يدل على ضعف المحبة لا عدم المحبة التي يصبح بها مسلمًا.

وعلى هذا؛ قال بعض المشايخ من المعاصرين من أهل العلم الفضلاء الذين نعرفهم بالعلم: إنّ هاذين البيتين فيهما نفسٌ خارجيّ؛ على هذا المعنى الأخير.

وإذا عرفنا التفصيل عظم عندنا التحصيل، وعرفنا ضبط المسالة عند أهل العلم.

فعندما تأتي إلى سلسلة الأحاديث الصحيحة وتجد أنّ شيخ الألباني –رحمه الله– استشهد بهاذين البيتين فاعلم أنه يريد الوجه الأول والثاني، ليس الثالث.

كذلك الشيخ ابن عثيمين –رحمه الله– لمّا ذكر هذين البيتين مستشهدًا بهما إنما يعني الوجه الأول والثاني.

أمّا الوجه الثالث فلا يريده أحدٌ من أهل السنة والجماعة. وهذه فائدة عضُّوا عليها بالنواجذ.

ولعلنا نقف هنا. ونكمل هذا الباب غدًا إن شاء الله عز وجل، ونجيب عن بعض اسئلة إخواننا. والله أعلم.

الدرس الحادي عشر: تابع شرح باب: تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله الا الله

بسم الله الرحمن الرحيم

درسنا هو في شرح كتاب التوحيد. ولا زلنا نشرح في الباب العظيم؛ باب: تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله.

حيث تبيّن لنا يا معاشر الموحِّدين أنّ التوحيد الذي هو حق ربنا –سبحانه وتعالى– معناه: أن تعبد الله وحده، وأن تَسلَم من الشرك، وأن تَكفُر بكل معبود عُبِد من دون الله من جهة كونه معبودًا من دون الله، وأن تُبغِض المشركين لشركهم بالله وظلمهم الظلم الأكبر الذي هو الإشراك بالله.

وبقي علينا مما أورده الشيخ أن نشرح الحديث الذي أورده في هذا الباب. فيتفضل الشيخ ياسين –وفقه الله– يقرأ لنا.

[وفي الصحيح: عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «مَن قال لا إله إلا الله، وكفر بما يُعبَد من دون الله؛ حَرُمَ ماله ودمه وحسابه على الله». وشرح هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب]

نعم؛ قال: (في الصحيح) يعني في صحيح الإمام مسلم رحمه الله، (عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «مَن قال» و"من" هذه شرطية، (من قال) وهذا يدل على أنّ لا إله إلا الله لا بد فيها من النطق مع القدرة، فمَن كان قادرًا

على النطق لابد أن ينطق بلا إله إلا الله حتى يكون مسلمًا. «من قال لا إله إلا الله» هذه الجملة العظيمة التي هي العروة الوثقى والتي هي مفتاح الجنة؛ جملة عظيمة عجيبة؛ هي كلمة الإخلاص، وهي الذكر الذي تستطيع أن تأتي به بإخلاص، مطلقًا؛ لأنّ لا إله إلا الله –كما يقول العلماء– حروفها جوفية، ما تحتاج فيها إلى تحريك الشفتين، فتستطيع أن تقول لا إله إلا الله بدون أن يلحظ أحد أنك قلت ذلك، فلو أنك أطبقت شفتيك أو أطبقت أسنانك فإنك تستطيع أن تقول لا إله إلا الله. بخلاف غيرها من الأذكار. وهذا مَلْمَح ذكره بعض أهل العلم؛ ذكرتُه للطافته.

«من قال لا إله إلا الله» "لا إله" نفي لكل معبود. وتلحظون هنا يا إخوة أنّ "إله" هنا نكرة؛ وقد تسلَّط النفي على هذه النكرة. والأصوليون يقولون: إذا تسلَّط النفي على النكرة فهو أبلغ من عموم النكرة في سياق النفي، أبلغ في العموم من عموم النكرة في سياق النفي؛ لأنّ النكرة في سياق النفي لا يُشترط فيها أن يَتسلط عليها النفي، لكن إذا تسلط النفي على النكرة كانت أبلغ في العموم.

«لا إله» نفي لكل آلهة، «إلا الله» إثبات للألوهية لله سبحانه وتعالى؛ فمعناها: لا معبود بحق إلا الله.

ومن لطيف كلام أهل العلم؛ أنهم يقولون: "إنّ لا إله إلا الله فيها تجريد وتفريد؛ وباجتماعهما يكون التوحيد". تجريد: أيْ تجريد العبادة عن غير الله، وتفريد: أيْ إفراد الله بالعبادة. وإذا جرَّد العبد غير الله من استحقاقه للعبادة وأفرد الله بالعبادة فقد وحَّد.

«مَن قال لا إله إلا الله، وكفر بما يُعبَد من دون الله» ومعنى هذا يا إخوة: أنه لا بد في التوحيد من الكفر بما يُعبَد من دون الله من جهة كونه معبودًا من دون الله. فنكفر بالأصنام من جهة كونها معبودة من دون الله، ونكفر بالشمس؛ لا بوجودها ولكن من جهة كونها معبودة من دون الله، ونكفر بعيسى ابن مريم من جهة كونه معبودًا من دون الله؛ لا من جهة كونه نبيًّا مرسَلًا من الله؛ نحبه ونقر بنبوته ورسالته عليه السلام.

إذن؛ هل هناك من يُعبَد من دون الله ولا يُكفَر به؟

كل من يُعبَد من دون الله يُكفر به من جهة كونه معبودًا من دون الله، فلا يوجَد مَن يستحق العبادة من دون الله.

وكما قلتُ لكم؛ معنى "من دون الله":

- إمّا مِن دون الله حقيقةً؛ فيَعبد المعبود غير الله ولا يعبد الله، يعبد الصنم ولا يعبد الله، يعبد الملائكة ولا يعبد الله.

- وإما بمعنى: مع الله، فيعبد الله والملائكة، يعبد الله ويعبد الصنم.

وهذا كله شرك أكبر، والعياذ بالله.

إذن؛ لابد في لا إله إلا الله من الكفر بما يُعبد من دون الله من جهة كونه معبودًا من دون الله.

«حرم ماله ودمه» وهذا يدل أيها الإخوة على أنّ تحريم الدم والمال لابد فيه من الإتيان بلا إله إلا الله على الوجه الذي يرضي الله.

لكن نحن نعامل الناس في الظاهر بما يظهر؛ فمن قال: لا إله إلا الله؛ قَبِلنا منه ذلك؛ ولا ندري ما في قلبه؛ ولذلك قال النبي –صلى الله عليه وسلم–: «وحسابه على الله»، فحسابه على حقيقة ما في قلبه وعلى أعماله على الله سبحانه وتعالى.

فدل ذلك على مراد المصنف؛ وهو: أنّ التوحيد ليس مجرد النطق بلا إله إلا الله؛ بل –كما قلنا– التوحيد: أن تعبد الله وحده، وأن تبرأ من الشرك، وأن تكفر بمَن عُبد من دون الله، وأن تبرأ من المشركين؛ بمعنى: أن تبغضهم لشركهم بالله سبحانه وتعالى.

فثَبَتَ بما ذكره الشيخ في الباب: أنّ لا إله إلا الله:

- تُثبِت القصد، والدعاء، والمحبة لله عز وجل، والخوف، والرجاء، والبراءة من الشرك وأهله.

- وتنفي دعاء غير الله، واتخاذ الآلهة، واتخاذ الأنداد لله، واتخاذ المحبوبين كحب الله، واتخاذ المطاعين في التحليل والتحريم بخلاف أمر الله وشرعه. كما تقدم معنا.

قال رحمه الله: [هي أكبر المسائل وأهمها]

لمّا قال الشيخ: (وشرح هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب)؛ يعني أنّ تفصيل التوحيد هذا المعنى المجمل تفصيله وبيانه في الأبواب التالية. وسيأتي إن شاء الله.

قال رحمه الله: [هي أكبر المسائل وأهمها، وهي تفسير التوحيد، وتفسير الشهادة، وبيّنها بأمور واضحة]

يعني أصل المسائل كلها في هذا الباب: تفسير التوحيد، وهذه المسألة العظيمة؛ لأنه -كما تقدم معنا- من أجل التوحيد خُلقنا، ومن أجل التوحيد بُعث الرسل، والتوحيد أعظم الحقوق على الإطلاق لأنه حق الله، وأعظم الفرائض على الإطلاق، فتفسيره أعظم العلم، أعظم العلم: تفسير التوحيد. وقد بيَّن الشيخ بالأدلة تفسير هذا التوحيد.

قال رحمه الله: [وبيّنها بأمور واضحة؛ منها: آية الإسراء، بيّن فيها الرد على المشركين الذي يدعون الصالحين، ففيها بيان أنّ هذا هو الشرك الأكبر]

نعم؛ في آية الإسراء يا إخوة تقدّم معنا أنّ الله بيّن للمشركين الذين يدعون الملائكة والأنبياء والجن المؤمنين بيّن لهم بيانًا قطعية أنّ هؤلاء لا يستحقون أن يُعبَدوا من دون الله؛ لأنهم لا يملكون نفعًا لغيرهم، ولا يملكون نفعًا لأنفسهم؛ بل هم الفقراء إلى الله الغني بذاته.

إذن؛ الصالحون والعُبّاد كلهم عُبّاد لله فقراء إلى الله، لا يجوز أن يُدعَوا من دون الله عز وجل؛ وإنما يُدعى الغني بذاته سبحانه وتعالى.

قال رحمه الله: [ومنها: آية براءة، بيّن فيها أنّ أهل الكتاب اتّخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله، وبيّن أنهم لم يؤمروا إلا بأن يعبدوا إلها واحدًا، مع أنّ تفسيرها الذي لا إشكال فيه: طاعة الأمراء والعبَّاد في المعصية لا دعاؤهم إياهم]

وهذا سيأتي –إن شاء الله– في باب مستقل، وقد شرحنا الآية وبيّنا متى يكون ذلك شركًا، وسيأتي –إن شاء الله– تفصيل وبيان نافعٌ في حينه إن شاء الله.

قال رحمه الله: [ومنها: قول الخليل عليه السلام للكفار: ﴿إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني﴾ فاستثنى من المعبودِين ربَّه، وذكر سبحانه أنّ هذه

البراءة وهذه المولاة هي: شهادة أن لا إله إلا الله، وقال: ﴿وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون﴾]

وهذه الكلمة هي: لا إله إلا الله.

قال رحمه الله: [ومنها: آية البقرة في الكفار الذين قال الله فيهم: ﴿وما هم بخارجين من النار﴾ ذكر أنهم يحبون أندادهم كحب الله؛ فدل على أنهم يحبون الله حبًّا عظيمًا ولم يدخلهم في الإسلام، فكيف بمَن أحبَّ الند حبًا أكبر مِن حب الله؟ فكيف بمَن لم يحب إلا الند وحده ولم يحب الله؟]

تقدم معنا بيان مراتب الناس في المحبة.

قال رحمه الله: [ومنها: قوله صلى الله عليه وسلم: «من قال لا إله إلا الله، وكفر بما يُعبد من دون الله؛ حرم ماله ودمه»، وهذا من أعظم ما يبيّن معنى لا إله إلا الله. فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصمًا للدم والمال، بل ولا معرفة معناها مع لفظها، بل ولا الإقرار بذلك، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له، بل لا يحرم ماله ودمه حتى يضيف إلى ذلك: الكفر بما يُعبَد من دون الله. فإن شك أو توقف لم يحرم ماله ودمه. فيا لها من مسألة ما أجلها! ويا له من بيانٍ ما أوضحه وحجة ما أقطعها للمنازِع!]

تقدَّم بيان هذا، لكن هنا أشير يا إخوة إلى أنّ مَن قال لا إله إلا الله فشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمدًا رسول الله؛ حرم علينا ماله ودمه في الظاهر، بمجرد أن يقولها، ثم بعد ذلك يُنظَر في أمره؛ فإن أتى بما يقتضي أنه كافر أو تبيّن أنه كافر فإنه يعامَل بما يقتضيه ذلك. فمن جاءنا وقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنّ محمدًا رسول الله؛ أثبتنا له الإسلام في الظاهر، وحرمنا ماله ودمه، فإذا جاء بعد ذلك وقال: أنا لا أكفر بما يُعبَد من دون الله والناس أحرار أو أنا أشك في هذا! فهنا تبيَّن أنه لم يأتِ بلا إله إلا الله حقيقةً، فيتبيّن أنه لم يُسلِم.

تابع الدرس الحادي عشر: باب: من الشرك لُبس الخيط والحلقة ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه

قال رحمه الله: [باب: من الشرك لُبس الخيط والحلقة ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه]

نعم؛ الشيخ –رحمه الله– الآن يُفسِّر التوحيد، وقد تبيّن لنا يا إخوة أنّ التوحيد: عبادة الله وحده وترك الشرك، فلا بد في التوحيد من معرفة الشرك.

طيّب؛ الشيخ هل ذكر الشرك كله بكل صوره في هذا الكتاب؟

الجواب: لا؛ لكنّ الشيخ ذكر في الأبواب ما كان شركًا أكبر أو أصغر ويكثر وقوعه ممن ينتسبون إلى لإسلام في زمنه؛ وذلك من نصحه للأمّة، ولذلك بدأ بهذا الباب لأنّ هذا الأمر المذكور هنا كثير الوقوع في الأمة؛ فبدأ به للتحذير منه.

قال: (باب: من الشرك) "من" هنا تبعيضية، وإلا فالشرك أكثر من هذا. (من الشرك) تقدم معنا يا إخوة أنّ الشرك: أكبر وأصغر، والمراد بالشرك هنا: الأصغر. (مِن الشرك الأصغر: لُبس الحلقة) والحلْقة: ما استدار من حديد أو نحاس أو ذهب أو فضة. ما استدار مثل الإسوارة مثلًا من حديد أو ذهب أو نحاس وغير ذلك. (من الشرك لُبس الحلْقة) ويصح أن تقول: (الحلَقة) بإسكان اللام أو فتح اللام. (والخيط) الخيوط معروفة يا إخوة، قد تُربَط في العضد ربطًا،

وقد تُربط في الرقبة، ونحو ذلك. (ونحوهما) أي: كل ما يُعلَّق؛ مثل الخرز، ومثل تعليق النعل على الباب، كل ما يعلّق للعلة المذكورة هنا؛ (لرفع البلاء) أي بعد نزوله، (أو دفعه) أي قبل نزوله.

بعض الناس يعلق على أطفاله خيوطًا، لماذا يا فلان؟ يقول: حتى لا تصيبهم العين؛ أي ليدفع العين عنهم! بعض الناس يضع على سيارته حذاء أو كفًّا على هيأة خمسة؛ لماذا؟ ليدفع العين عنها! وبعضهم يرسم عينًا على السيارة ويكتب: "عين الحسود فيها عود"؛ ليدفع عن هذه السيارة! فهذا من الشرك الأصغر في الأصل، وقد يترقى إلى أن يكون شركًا أكبر؛ وذلك: إذا اعتقد أنها تنفع بذاتها وليست سببًا.

إذا اعتقد أنها سبب: فهذا شرك أصغر. وإذا اعتقد أنها تنفع بذاتها فهي التي تحمي: فهذا شركٌ أكبر.

والمعلوم أيها الإخوة؛ أنّ الله –عزو جل– يبتلي العبد في الدنيا بالضر والنفع والشر والخير، والإنسان بطبعه يسعى إلى دفع الضر عن نفسه وعمن يحب، وإلى رفعه عن نفسه أوعمن يحب إذا وقع. الواحد منا يا إخوة يسعى لأن يجتنب الأمراض، وإذا مرض يسعى لأن يرفع هذا المرض.

وما يُرفَع به الضر أو يُدفَع به الضر لا يخرج عن ثلاثة أمور:

الأمر الأول: الدعاء.

الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل؛ وقد جاء هذا في حديث حسَّنه الألباني وضعّفه جمعٌ من أهل العلم. الدعاء ينفع مما نزل: أي يُرفَع به الضر بعد نزوله. ومما لم ينزل: أي يُدفَع به الضر.

- فإن كان الدعاء لله؛ فهو عبادةٌ ونافعٌ للعباد. مَن قال: اللهم أعذني وأبنائي من المرض أو من الداء الفلاني؛ فإنه يرجى أن يستجيب الله دعاءه وينفعه بهذا، وهو عابدٌ لله بهذا. سبحان الله! تسأل الله ويثيبك الله. الله من جوده أنك تسأله فيكتب لك الحسنات، غير مسألة الإجابة.

- وإن كان الدعاء لغير الله؛ فهو شرك بالله أكبر، وصاحبه معرّض لزيادة البلاء. الذي يمرض ويذهب إلى صاحب القبر، يذهب إلى مقبور ويقول هذه دجاجة نذر، يا سيدي يا مولاي أنا أصابني البلاء وأصابني الضر وهذا نذر! فهذا -والعياذ بالله- شرك أكبر يُخرِج من الملة.

والأمر الثاني: الأسباب الحسية. ويسميه بعض أهل العلم: الأسباب القدرية؛ أي التي جعلها الله قدرًا سببًا لدفع الضر أو رفعه.

الأسباب الحسية؛ أي: المحسوسة؛ كالدواء. يأتي الطبيب مثلًا يقول: "اشرب هذا الدواء، ينفع في علاج هذا المرض الذي أنت فيه، خذ مضادًا حيويًّا"؛ فهذه حسية، كيف تُعرَف؟

- تُعرَف بالتجارب، فتكشف التجارب أنّ الله جعلها سببًا قدرًا؛ مثل الآن ما يقولون: "الأبحاث الطبية". وكذلك ما يعرفه الناس بتجاربهم.

- وكذلك تثبت بالدليل. مثل أنّ العسل دواء؛ ثبت بالدليل من الكتاب والسنة، أنّ الحجامة دواء؛ ثبت ذلك بالدليل من السنة، أنّ الحبة السوداء دواء؛ ثبت ذلك بالدليل من السنة.

والدواء الحسي يا إخوة؛ إن دلت التجربة على أنه نافع وكان يُرى ويُدرَك بالحس؛ فيكون داخلًا إلى بدن الإنسان، أو مُخرِجًا من بدن الإنسان –يكون داخلًا: مثل الدواء نشربه، أو نضع المرهم على الجلد ويمتصه الجلد. أو يكون مخرِجًا لِمَا في بدن الإنسان: مثل شرطة الحجّام، الحجامة تُخرِج الدم– إن دلت التجارب على أنه نافع؛ فهو دواء، يُدفع به الضر ويُرفع به، وهو سبب؛ والنافع هو الله سبحانه وتعالى.

وأما الأمر الثالث: فهو الأمر المعنوي؛ الذي لا يُرى بالحس. وهذا لا يُعرَف إلا بالدليل؛ لأنه أمر غيبي؛ مثل: الرقية، الرقية تقرأ على الإنسان لا يَدخل

في جوفه شيء ولا تُخرج من جوفه شيئًا؛ هي شيء معنوي، لكن ثبت في الدليل الشرعي أنها نافعة –بإذن الله– ما لم تكن شركًا.

فالأمور المعنوية يسميها بعض أهل العلم: الأسباب الشرعية؛ لأنها لا تُعرَف إلا من طريق الشرع.

فما عُلِم من الشرع أنه نافع؛ فهو نافع. وما لم يُعلَم من الشرع أنه نافع؛ فليس بنافع.

لو جاءنا دجال ويتمتم بكلام ليس من الرقى وفيه استعانة بغير الله ونحو ذلك وقال: أنا التجارب عندي دلت على أنه نافع! نقول: هذا ليس نافعًا؛ بل –على ما ذكرنا– فيه الشرك الأكبر.

إذن؛ الأسباب التي يُدفع بها الضر أو يُرفع: ثلاثة، فما زاد عن ذلك:

- إمّا أنه لم تدل التجارب على أنه نافع.
- أو كان معنويًا لم يدل الشرع على أنه نافع.

فإنه يكون من الشرك الأصغر، اتخاذه يكون من الشرك الأصغر؛ لماذا؟

لأن العلماء يقولون: إذا اتخذ الإنسان سببًا لم يدل الدليل على أنه سبب شرعي –هذا في المعنويات– أو التجربة أو الدليل على أنه سبب قدري –وهذا في الحسيات– فقد أشرك بالله شركًا أصغر؛ لأنّ قلبه يتعلق بهذا. ما الذي يجعله

يتخذه دواء؟ ما الذي يجعله يتخذه سببًا؟ لم تدل عليه التجربة ولم يدل عليه الدليل الشرعي! إذن لا يكون ذلك إلا عن عقيدة، عن تعلق القلب.

ولذلك يقولون: مَن اتخذ سببًا لم يكن سببًا شرعيًا ولا سببًا قدريًّا؛ فقد أشرك شركًا أصغر! لماذا يا إخوة؟ –انتبهوا لِمَا أقول– لأنه لا يوجد ما يدعوه إلى أن يتخذه إلا تعلق القلب به، إلا عقيدة في القلب فقط؛ وهذا شركٌ أصغر.

وإذا فهمنا هذا يسهل علينا فهم ما يتعلق بهذا الباب.

قال رحمه الله: [وقول الله تعالى: ﴿قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره﴾]

نعم؛ هذه الآية العظيمة في قول الله –عز وجل–: ﴿قل أفرأيتم﴾ أي أخبروني، ﴿ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره﴾؟ والجواب عندهم: لا، لأنّ المعلوم عن المشركين قديمًا أنهم إذا أصابهم ضرٌّ يوحِّدون الله ويدعون الله وحده، وهذا يدل على أنهم لا يعتقدون أنهم يكشفون الضر؛ كما قال الله –عز وجل–: ﴿فإذا مسكم الضر فإليه تجأرون﴾ يعني توحِّدون، ترجعون إلى الله سبحانه وتعالى.

وقد تقدم معنا قول الله –عز وجل–: ﴿قل ادعوا الذين زعمتهم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا﴾ أي: قل للمشركين ادعوا الذين

زعمتم من دونه أنهم أولياء تدعونهم من دون الله ﴿فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا﴾؛ فهم فقراء لا ينفعون غيرهم ولا ينفعون أنفسهم.

طيب؛ ما دلالة هذه الآية بالنسبة للباب؟ لأنكم تلحظون يا إخوة أنّ الباب يقول: (من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما) والآية ليس فيها هذا؛ فلماذا ذكرها الشيخ؟

نقول: مناسبة الآية للباب من وجوه:

الوجه الأول: ذكر الشيء تبعًا؛ للمناسبة، كعادة العلماء.

تقدم معنا يا إخوة في الفقه أنّ الفقهاء يقولون: "باب الآنية"؛ وإذا ذكروا الآنية يذكرون الألبسة في الباب؛ مع أنّ الألبسة ليست آنية! لكن يذكرونها للمناسبة.

فهنا؛ لمّا كان الكلام عن أسباب كشف الضر ذكر الشيخ السبب الأعظم وهو الدعاء وما يقع فيه من شركٍ بالله. فيكون ذكر الآية من باب ذكر الشيء تبعًا؛ للمناسبة.

الوجه الثاني: بيان أنّ كشف الضر لا يكون إلا من الله، فلا يكشف الضر إلا الله سبحانه وتعالى. فلا يُطلَب إلا بما أَذِنَ الله فيه. أمّا ما نهى الله عنه فلا

يُطلَب به كشف الضر؛ تعليق التمائم وغير ذلك ما أَذِنَ الله فيها؛ فلا يُطلب بها كشف الضر.

الوجه الثالث: بيان أنّ التعلق بغير الله في كشف الضر تعلُّقٌ باطل، ويدخل في ذلك التعلق بما نهى الله عن التعلق به، أو ما نهى الله عن اتخاذه سببًا؛ كالتمائم ونحوها.

والوجه الرابع: أنّ الملائكة والصالحين من عباد الله لا يملكون كشف الضر –كما في الآية–؛ فإذا كان هؤلاء الملائكة وهم عباد الله الذين لا يعصونه والصالحون الذين هم عباد الله لا يملكون كشف الضر؛ فما بالك يا عبد الله ما كان دون ذلك من حديد أو خيوط أو غير ذلك؟! لا شك أنه لا يحصل بها كشف الضر.

فهذه مناسبة الآية للباب من هذه الوجوه الأربعة.

قال رحمه الله: [عن عمران بن حصين رضي الله عنه: أنّ النبي صلى الله عليه وسلم رأى رجلًا في يده حلقة من صفر، فقال: «ما هذه؟» قال: من الواهنة، فقال: «انزعها؛ فإنها لا تزيدك إلا وهنًا، فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحتَ أبدًا» رواه أحمد بسند لا بأس به]

نعم؛ هذا الحديث رواه الإمام أحمد، وابن ماجه، والبزار، والطبراني، وابن حبان، والحاكم. وصححه ابن حبان؛ لأنه رواه في صحيحه، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وحسَّن إسناده البوصيري، وصححه ابن حجر الهيثمي، وقال الشوكاني: إسناده لا بأس به. وقال الإمام محمد بن عبد الوهاب كما معنا: بسند لا بأس به. وقال ابن باز: إسناده جيد. وضعفه الألباني.

والذي يظهر لي –والله أعلم– أنّ إسناده جيد؛ لأنّ الحديث أُعِلّ بعلتين:

الأولى: الاختلاف في سماع الحسن من عمران. وأهل الحديث قد اختلفوا في سماعه منه، فأثبت الحاكم ونقل ذلك عن أكثر شيوخه سماع الحسن من عمران. ونفى بعض كبار المحدثين سماع الحسن من عمران؛ ومنهم: ابن المديني وغيره من كبار المحدثين.

لكن الذي يظهر –والله أعلم– في ظاهر هذه الرواية: أنّ الحسن قد سمع من عمران هذه الرواية؛ لماذا؟ لأنّ الإمام أحمد –رحمه الله– في روايته لهذا الحديث قال عن الحسن: (قال: أخبرني عمران)، "أخبرني عمران" وظاهر هذا الاتصال والسماع.

والعلة الثانية: عنعنة الحسن. والحسن البصري مدلّس، فإذا عنعن المدلّس فإنّ روايته ضعيفة. لكنّ هذه العلة –أيضًا– منتفية هنا؛ لأنه في رواية

أحمد –أيضًا– لم يعنعن بل قال: (أخبرني عمران)، فلم يقل: "عن عمران" –كسائر الروايات– بل قال هنا: أخبرني.

ولذلك؛ الذي يظهر –والله أعلم– أنّ إسناد الحديث ثابت.

قال: (عن عمران بن حصين –رضي الله عنه– أنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– رأى رجلًا) رأى رجلًا؛ نكرة هنا، ما نعرفه؛ لأنّ الفائدة لا تتعلق بمعرفته، مهما كان هذا الرجل فالفائدة متحققة، لكن الحقيقة أنّ هذا الرجل: هو عمران بن حصين؛ فقد جاء في بعض الروايات: (هذا)؛ كما عند ابن حبان، أنّ الرجل الذي رأى النبي –صلى الله عليه وسلم– في يده هذه الحلقة هو عمران رضي الله عنه.

قال: «رأى رجلًا في يده حلقة من صفر» والصُّفْر: هو النحاس، يسمى صُفْرًا لأنه أصفر. «فقال: ما هذه؟» في أكثر نسخ الكتاب قال: «ما هذا؟»، وفي بعض النسخ: «ما هذه؟»؛ وهذا الذي في الأصول: «ما هذه؟»؛ لأنها حلقة.

قال: «ما هذه؟» بعض أهل العلم قال: هذا استفهام مجرّد؛ ليَعلَم النبي –صلى الله عليه وسلم– ويَستفصل؛ ما هذه؟ لماذا تضع هذه الحلقة؟ هل يضعها مثلًا للزينة؟ أو يضعها لأنه يريد ألا يفقدها، يعني هي له ويريد أن لا تُفقد منه

فوضعها في يده؟ أو يريد أن يتعوّذ بها؟ أو يتداوى بها؟ فقال النبي –صلى الله عليه وسلم–: «ما هذه؟».

ومن هنا قال العلماء: مَن أراد أن ينكر منكرًا يتطرَّق إليه الاحتمال فلابد أن يستفصل وألا يَعجل بالإنكار.

وقال بعض أهل العلم: بل هذا استفهامٌ إنكاري، يعني أراد أن ينكر عليه «ما هذه؟!»، وليس للاستعلام، وإنما للإنكار عليه.

قال: «مِن الواهنة» قال: وضعتها أتعالج بها من الواهنة. والواهنة: ألم يصيب اليد، يبدأ من المنكب ثم يصيب اليد كلها. وقد قال أهل العلم: إنه يصيب الرجال دون النساء. عِرْق يكون في المنكب يشعر الإنسان معه بألم، ثم يستمر هذ الألم إلى أن يصبح في اليد كلها.

وكانوا في زمن الجاهلية يضعون هذه الحلقة لدفع الواهنة ورفعها، فقال النبي –صلى الله عليه وسلم–: «انزعها»، وفي رواية: «انبذها»، والنبذ هو: الطرح بسرعة وقوة؛ كأن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: انزعها عنك الآن، انزعها فورًا ؛«فإنها لا تزيدك إلا وهنًا» أيْ: لا تزيدك إلا مرضًا وضعفًا.

هنا يأتي سؤال: طيّب؛ الحلقة هذه لا تدفع الضر ولا تزيد المرض بذاتها، هي غير مؤثرة؛ فلماذا قال النبي –صلى الله عليه وسلم–: «فإنها لا تزيدك إلا وهنًا»؟

قال العلماء: هذا إخبارٌ بأنّ الله يعاقب مَن اتخذ هذه الأسباب غير المشروعة بضد ما قصد. وضع الحلقة يريد أن يتخلص من ألم الواهنة؛ يزداد ألمه؛ عقوبة من الله. تَعلَّق تميمة؛ لا يُتم الله له الأمر؛ عقوبة من الله. «فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبدًا» وهذا يدل على أنّ التوبة تنفع صاحبها؛ فإذا تاب –ولو من الشرك– فإنّ هذا لا يضره؛ لقوله: «فإنك لو مت وهي عليك».

طيِّب؛ «ما أفلحت أبدًا»! هنا قال بعض أهل العلم: أي لو مت وهي عليك بعد العلم؛ بدليل أنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: «انزعها»؛ ثم جاءت الفاء: «فإنك»، يعني فإنك لو مت وهي عليك بعد أن أمرتك بنزعها ما أفلحت ابدًا.

وقال بعض أهل العلم: فإنك لو مت وهي عليك –مطلقًا– ما أفلحت أبدًا. يقولون: هذا يدل على أنه لا يعذر بالجهل. والحقيقة: أنّ هذا لا يدل على هذا؛ لأنّ هذا من الوعيد، والوعيد لا يُلتَفت فيه إلى الموانع. فهذا وعيد؛ يُعامَل معاملة الوعيد؛ وإلا فالجهل عذر إذا تحقق وليس دعوى مجردة. ولعلها تأتي مناسبة –إن شاء الله– نفصّل في مسألة العذر بالجهل في مسائل العقيدة.

طبعًا هذا دل على مراد المصنف؛ وهو: أنّ تعليق الحلقة سبب غير شرعي، وما دام أنه سبب غير شرعي ولا يقود إلى الفلاح؛ فهو شرك أصغر.

قال رحمه الله: [وله عن عقبة بن عامر –رضي الله عنه– مرفوعًا: «مَن تعلَّق تميمة فلا أتم الله له، ومَن تعلَّق ودعة فلا ودع الله له» وفي رواية: «مَن تعلق تميمة فقد أشرك»]

«وله» أيْ للإمام أحمد رحمه الله، (عن عقبة بن عامر –رضي الله عنه– مرفوعًا إلى النبي –صلى الله عليه وسلم–: «مَن تعلَّق تميمة فلا أتم الله له، ومَن تعلق ودعة» "ودْعة" أو "ودَعة" بإسكان الدال او فتحها «فلا ودع الله له»). هذا الحديث رواه الإمام أحمد، وأبو يعلى، والطبراني، وابن حبان، والحاكم، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وقال المنذري: إسناده جيد، وحسَّنه الأرنؤوط، وقال ابن باز: ثابت، وقال مرة: صحيح وضعَّفه الألباني؛ وسبب تضعيف الألباني له: جهالة خالد بن عُبيد، وخالد بن عُبيد وثَّقه ابن حبان. ورجال إسناد هذا الحديث موثَّقون. وقد قال حَيَوه –وهو ثقة–: أخبرني خالد بن عُبيد، فخالد بن عُبيد نعم مجهول لا يُعرَف له إلا هذا الحديث؛ لكنه في إسنادٍ وهو مسوَّر بالثقات، فالذي قبله ثقة والذي فوقه ثقة، الذي قبل خالد بن عبيد ثقة والذي فوقه ثقة؛ ولذلك الحديث مقارِب، فيظهر –والله أعلم– أنه ثابت.

قال: (وله عن عقبة بن عامر –رضي الله عنه– مرفوعًا: «من تعلق تميمة»، التميمة أصلها عند العرب: خرزات تعلَّق على الأطفال للوقاية من العين. وهي: كلُّ ما يعلق على النفس أو على الأطفال أو على الدواب أو على البيوت مِن خرز أو غيره لدفع البلاء أو رفعه، كلها تسمى تميمة، الذي يعلِّق خيطًا؛ هذه تميمة، الذي يعلِّق خرزًا؛ هذه تميمة، الذي يرسم عينًا؛ هذه تميمة، الذي يضع نعلًا؛ هذه تميمة.

رأيت في بعض بلدان المسلمين في المحلات في السوق يضعون الفلفل الحار في خيط، ويضعون في النصف ليمونه، وفوق فلفل، يعني فوق فلفل وفي الأسفل فلفل وفي الوسط ليمونه؛ يقولون: تقي من العين!

والكتابات التي تُكتَب أيضًا تدخل في التمائم؛ كما قلنا بعض الناس يكتب على سيارته: عين الحسود فيها عود! وبعض الناس يكتب: يا ناس يا شر كفاية قَرّ! هذه تميمة.

كذلك حتى الذين يكتبون مثلًا: "الحمد لله رب العالمين"، "صلِّ على النبي"، هذه من التمائم؛ لكن ما حكمها؟ هذا سيأتينا في الباب التالي مباشرة إن شاء الله؛ إذا كان المكتوب من المشروع كالآيات ونحو ذلك، هي تميمة؛ لكن ما حكمها؟ سيأتي –إن شاء الله– بيانه في الباب التالي.

«مَن تعلق تميمة» ليدفع العين «فلا أتم الله له»؛ لأن يا إخوة التميمة سماها العرب تميمة تفاؤلًا بتمام المقصود، النبي –صلى الله عليه وسلم– دعا عليه بضد مقصوده: «فلا أتم الله له»، كيف يأتي مسلم ويُعلِّق التميمة والنبي –صلى الله عليه وسلم– يقول: «فلا أتم الله له»؟! لو أعطاك المشعوذ أو الذي يسمونه شيخًا خيطًا وقال ضعه تحت الوسادة أو ضعه في يدك أو ضعه في جيب السيارة؛ كيف تقبل هذا والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: «مَن تعلق تميمة فلا أتمَّ الله له»؟!

«ومَن تَعلَّق ودعة» الودْعة او الودَعة: شيء يَخرج من البحر يشبه الصدف، ويستعمله الكهنة والمشعوذون في الضرب، فيضربون الودع. وبعض المسلمون مساكين يذهبون –وهذا يكثر في النساء يضربن الودع– إلى مَن يسمونها الشيخة الصالحة، مشركة ويسمونها الشيخة الصالحة! يقولون: والله ابني مسافر اضربي لنا الودع! والله ابني يريد أن يتزوج اضربي لنا الودع انظري لنا المستقبل!

«مَن تعلق ودعة» بعض الناس ينظمونها في خيط ويضعونها في رقبة الأطفال للحفظ من العين! «فلا ودع الله له» أيْ: لا حقق الله مراده، وبعض أهل العلم قال: يعني لا أراحه الله؛ أيْ: لا جعله في دَعَةٍ وسكون.

قال: (وفي رواية) المقصود "في رواية": في حديث آخر، ليس رواية لنفس الحديث، لا، وفي رواية: أي في حديث آخر، «مَن تعلق تميمة فقد أشرك»، وهذه الرواية رواها الإمام أحمد، وابن أبي أسامة، والطبراني، والحاكم، وقال المنذري: رجال أحمد ثقات، وذكر الألباني هذا الحديث في السلسلة الصحيحة. فهذا الحديث صحيح: «مَن تَعلَّق تميمة فقد أشرك» هذا حكمٌ من النبي صلى الله عليه وسلم. وقلت لكم يا إخوة الأصل أنه شرك أصغر. لكن إذا اعتقد الإنسان أنّ هذه التميمة هي التي تحميه بنفسها؛ فهذا شرك أكبر –والعياذ بالله– لأنه اعتقد فيها النفع والضر. وكذلك إذا كان فيها طلاسم واستغاثة بغير الله وعلّقها الإنسان وهو يعلم بذلك؛ هذا شرك أكبر.

التمائم يا إخوة أحيانًا تكون خيوطًا فقط، وأحيانا تكون خرزًا، وأحيانًا تكون ورقًا ملفوفًا في داخل جلد ويُربط على اليد؛ هذا الورق أحيانًا يكون فيه الاستغاثة بغير الله: يا أسيادنا في جبال قاف! يا أولياء الله! أعوذ بالله، فإذا عَلِمَ الإنسان هذا وعلّقها فهذا شرك أكبر؛ لأنه يستغيث بغير الله –سبحانه وتعالى– «فمَن تعلق تميمة فقد أشرك».

وهذا الحديث له قصة؛ وهي: أنّ رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أقبل إليه رهط –والرهط من ثلاثة إلى عشرة، وبعضهم يقول: من ثلاثة إلى تسعة– وهم هنا عشرة، فبايع تسعة وأمسك عن واحد، ما بايعه، فقالوا: يا رسول الله!

بايعت تسعة وتركتَ هذا! فقال: «إنّ عليه تميمة»، سبحان الله يا إخوة! النبي –صلى الله عليه وسلم– امتنع عن مبايعته قال: «إنّ عليه تميمة»؛ فأدخل يده – وهذه من علامات نبوة النبي –صلى الله عليه وسلم– لأنّ التميمة ما كانت ظاهرة بل كانت مخفية– فأدخل يده فقطعها، فبايعه النبي –صلى الله عليه وسلم– ثم قال: «مَن علّق تميمةً فقد أشرك»، قال الألباني: هذا إسناد صحيح.

وأخرج الطحاوي بإسناد حسن؛ عن رجل من صُدًا قال: أتينا النبي –صلى الله عليه وسلم– اثنى عشر رجلًا، فبايعناه، وترك رجلًا منّا لم يبايعه؛ فقلنا: بايعه يا نبي الله –هو منا بايعه يا نبي الله– قال: لن أبايعه حتى يَنزِع الذي عليه، إنه مَن كان منا عليه مثل الذي عليه كان مشركًا ما كانت عليه»، «إنه مَن كان منا » نحن المسلمين «عليه مثل الذي عليه كان مشركًا ما كانت عليه»، قال: «فنظرنا فإذا في يده سَيْرٌ مِن لحي شجرة» خيطٌ في يده.

والشاهد: أنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: «إنه مَن كان منّا عليه مثل الذي عليه؛ كان مشركًا ما كانت عليه»؛ فدلّ ذلك على أنّ وضع الخيوط للوقاية من العين أو الضر أو لرفعها شرك بالله، وهو كما قلنا شرك أصغر.

قال رحمه الله: [ولابن أبي حاتم عن حذيفة رضي الله عنه، أنه رأى رجلًا في يده خيط من الحمى؛ فقطعه؛ وتلا قوله تعالى: ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾]

الذي رأيتُه في تفسير ابن أبي حاتم غير هذا اللفظ، ففي تفسير ابن أبي حاتم قال: (دخل حذيفة على مريضٍ، فرأى في عضده سيرًا؛ فقطعه وانتزعه؛ ثم قال: ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾)، هذا الأثر عند ابن أبي حاتم في التفسير، وقد ذكر بعض المعلِّقين على كتاب التوحيد أنّ الأثر ضعيف؛ لأنه من رواية عاصم بن أبي النجود؛ وهو صدوق، ولأنه عن عروة عن حذيفة، وعروة لا يُعرَف له سماع من حذيفة؛ فقالوا: فيه صدوق له أوهام، وفيه انقطاع.

لكنّ الإسناد عند ابن أبي حاتم ليس عن عروة عن حذيفة –كما ذُكِر في فتح المجيد وتيسير العزيز الحميد– وإنما عن عَزْرة عن حذيفة، وليس عروة عن حذيفة.

وظهر لي بادي الرأي –والأمر يحتاج إلى مزيد من تحقيق– أنّ إسناد الأثر لا بأس به، وعاصم –الذي هو أبو عاصم الأحول– صدوق له أوهام، وقد روى له البخاري مقرونًا بغيره. وراجعتُ كلام أهل العلم فلم أجد إلا كلام الشيخ ابن باز رحمه الله، وكلام الشيخ ابن باز –رحمه الله– يُشعِر بثبوت هذا الأثر عنده.

وأنا يظهر لي –بادي الرأي– أنّ الأثر ثابت، لكن الأثر يحتاج إلى مزيد مراجعة وتحقيق للإسناد. لكن بادي الرأي وبالمراجعة الأولية يظهر لي –والله أعلم– أنّ الإسناد ثابت.

(ولابن أبي حاتم) –في تفسيره– (عن حذيفة –رضي الله عنه– أنه رأى رجلًا في يده خيط) وقد قلنا إنه رأى في عضده سيرًا، (فقطعه) لم يُذكَر في التفسير أنه من الحمى كما هنا، (فقطعه وانتزعه) أخذه؛ وتلا: ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾، وهذه الآية في الشرك الأكبر، في المشركين شركًا أكبر؛ أنهم يؤمنون بالله من جهة ربوبيته، ويشركون به في ألوهيته. أو أنّ المراد: أنهم يؤمنون بالله عند الضر –كما إذا ركبوا في الفلك– ولكنهم يشركون به في سائر أوقاتهم.

وهذا –وضع الخيط– ليس من الشرك الأكبر؛ لكنّ الصحابة والسلف يستدلون بالشرك الأكبر على منع الشرك الأصغر؛ من جهة جنس الشرك.

فهذا يدل على قطع الحبل الذي يُربَط لاتقاء العين أو نحوها.

والذي يقطعه هو صاحبه؛ هذا الأصل، الأصل أنّا نقول لصاحبه: انزعه، اقطعه؛ كما في حديث عمران. أو مَن له ولاية؛ كالسلطة؛ كالحاكم ورجال الحسبة. أو مَن له مقام عند الناس تؤمَن معه الفتنة كالعالم.

والأمر بقطع ما يعلَّق لدفع العين واجب وثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم؛ فقد قال –النبي صلى الله عليه وسلم– في سفر من أسفاره: «لا يَبقينّ في رقبة بعير قلادةٌ إلا قُطِعت» متفق عليه. قال الإمام مالك رحمه الله: "وأرى ذلك من العين"؛ يعني: أرى أنهم كانوا يعلقون القلائد على الدواب مِن العين، فالنبي

–صلى الله عليه وسلم– قال: «لا يَبقينّ في رقبة بعير قلادة إلا قُطِعت» فأمر بقطعها.

فيا صاحب البيت! لا يَبقين في رقبة أو يد أحدٍ مما أنتَ وليُّ أمره في البيت خيطٌ أو قلادةٌ تُتخَذ لدفع العين أو نحوها إلا قطعتها.

قبل أن ننتقل إلى المسائل؛ هناك مسالة يسأل عنها الناس الآن؛ وهي: أنه في الأسواق توجد أساور مغناطيسية، توجد في الصيدليات وأماكن الطب، يقولون: إنها تعالج الروماتيزم وآلام المفاصل وتفرغ الشحنات الزائدة في الجسم، وهي مرخصة من قِبَل بعض الهيئات العالمية الطبية كما في بريطانية، فهل يجوز لبسها؟

تقدَّم معنا أنّ الذي يُدفَع به الضر أو يُرفَع به الضر:

١. الدعاء –وهذا خارج عن مسألتنا–.

٢. السبب القدري، وهو الشيء الحسي الذي يدخل على البدن أو يُخرِج من البدن، ودلت التجارب على أنه نافع.

٣. والسبب الشرعي. وهذا خارج.

بقي السبب الحسي، فهل هذا سبب حسي دلَّت التجارب على نفعه فيكون جائزًا مثل شرب الدواء أو لا؟

الذي يظهر –والله أعلم– أنه ليس سببًا حسيًّا؛ لأنه ليس هناك شيءٌ حسي يَدخل إلى الجسد ولا يُخرِج شيئًا من الجسد.

وقد راجعتُ ما كُتِب في الهيئات العالمية الطبية فوجدت أنهم يزعمون أنّ الدم فيه حديد، وهذه الإسورة المغناطيسية إذا وضعتها فإن الدم لأنّ فيه حديد يمتص المغناطيس، ثم هذا يمشي مع الدم إلى الجسد. ولكنهم يقولون إنها ليس لها تأثير حسي! وبالتالي فالذي ظهر لي –والله أعلم– أنه لا يجوز لبس هذه الأساور، وأنها من جنس لبس الحلقة المنهي عنها:

١. لأنه لا يوجد في الحسِّ ما يدل على نفعها.

٢. ولأنّ وضعها ذريعة إلى وضع التمائم وغيرها.

وهذا الذي ظهر لي هو الذي أفتى به الشيخ ابن باز رحمه الله، والشيخ ابن عثيمين رحمه الله. وهذا الذي يظهر لي –والله أعلم– أنه أقرب إلى قواعد الشريعة وإلى ما أورده الشيخ في هذا الباب من الأدلة؛ أنه لا يجوز لبس هذه الأساور المغناطيسية؛ لأنها ليست من الأسباب الشرعية، ولا الأسباب القدرية الحسية؛ وإنما هي أوهام وتخرُّصات لا يوجد ما يدل عيلها؛ فلا يجوز اتخاذها سببًا.

ولعلنا نقف هنا. وغدًا –إن شاء الله– نقرأ مسائل هذا الباب مع الباب الذي يليه؛ وهو باب من الأهمية بمكان، يتعلق بالرقى والتمائم؛ ما الذي يجوز وما الذي يحرم؟ لأنه هنا بيّن أنّ تعليق الحلقة والتميمة من الشرك الأصغر، ثم يأتي الباب الذي يليه يبيّن ما الذي يجوز من الرقى والتمائم؛ هل هناك شيء جائز منها أو لا؟ هذا ما يتبيّن لنا –إن شاء الله– في الباب التالي بحول الله وقوته.

ولعلنا نجيب عن بعض اسئلة إخواننا. والله أعلم.

الدرس الثاني عشر: تابع شرح باب: من الشرك لُبس الخيط والحلقة ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه

بسم الله الرحمن الرحيم

درسنا في شرح كتاب التوحيد. والمؤمن المحب لله –عز وجل– يفرح إذا سمع توحيد الله، ينشرح صدره إذا ذُكِر الله –عز وجل– وحده، يُقبِل على تعلُّم ما يتعلَّق بحق ربّنا سبحانه وتعالى.

وقد كنا بالأمس نتفقه في أمر عظيم ينبغي علينا أن نتفقه فيه؛ وذلك أنّ البلاء فيه عظيم، وأنّ كثيراً ممن ينتسبون إلى الإسلام يقعون فيما حذَّر منه النبي –صلى الله عليه وسلم– بعلمٍ أو بجهل.

فكم نرى يا أخوة عندما ننظر في سيارات إخواننا نرى التعاليق التي تُعلَّق في السيارات بقصد دفع العين وبقصد دفع الحسد! وكم من إخواننا مَن يلبس خيطًا في عضده، أو يضع خيطًا في أصبعه، أو يلبسُ خاتمًا فَصُّهً من كذا أو كذا؛ يُزعَم أنه يدفع العين أو نحو ذلك!

وقد كنا نتفقه في هذا الباب العظيم؛ بابٌ: (مِن الشرك لُبس الخيط أو الحلقة أو نحوهما)؛ لرفع البلاء أو دفعه.

وقد تبيَّن لنا أيها الأخوة أنّ تعليق التعاليق من أجل دفع العين: من الشرك الأصغر، وقد تُصبح من الشرك الأكبر؛ وذلك في حالَين:

- **الحالُ الأولى**: إذا اعتقد الإنسانُ أنها تنفع بذاتها. فإذا اعتقد الإنسان أنها نافعة بذاتها فإنّ هذا –والعياذ بالله– شرك أكبر؛ بل هو شركٌ في الربوبيةِ؛ لأنّ الإنسان بهذا يجعل النفع والضُّرّ لغير الله سبحانه وتعالى.
- **والحال الثانية**: إذا كان فيها استغاثاتٌ ونداءاتٌ للبعيدين. فإذا كان فيها استغاثة بغير الله كالجنّ والشياطين والملائكة؛ فإنها من الشرك الأكبر –والعياذ بالله –.

وقد شرحنا هذا الباب –بحمد الله– على حسب شرطنا في شرح هذا الكتاب

.

وبقيت معنا المسائل التي رصَّع الشيخ –رحمه الله– الباب بها وجمّل الباب بها. فيتفضل الشيخ ياسين –وفقه الله– يقرأ لنا هذه المسائل لنعلِّق على ما يحتاج إلى تعليق.

يقول الإمام محمد ابن عبدالوهاب رحمةُ الله عليه: [فيه مسائل .الأولى: التغليظ في لبس الحلقة والخيط ونحوهما لمثل لك]

نعم؛ النبي –صلى الله عليه وسلم– غلّظ وشددّ في هذه التعاليق، فكيف يَطيبُ لمسلم أن يُعلّق حذاءً في سيارته أو حذاءً على بيته أو يُعلِّق خيطًا على أولاده أو

يُعلِّق خيطـًا في رقبته أو يُعلِّق خيطـًا في يده مع تغليظ النبي صلى الله عليه وسم في ذلك؟!

قال رحمه الله: [الثانية: أنّ الصحابي لو مات وهي عليه ما أفلح. فيه شاهد لكلام الصحابة –رضي الله عنهم– أنّ الشرك الأصغر أكبر من الكبائر]

نعم؛ النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: «فإنك لو متّ وهي عليك ما أفلحت أبدًا»؛ وهو صحابي النبيُّ –صلى الله عليه وسلم– قال له ذلك!

والفلاح المنفي هنا يا أخوة؛ هو الفلاح بالنجاة من العذاب، وليس الفلاح مُطلقًا؛ يعني: أنك لو متَّ على ذلك لمتّ على شرك أصغر.

وقد تقدم معنا أنّ الراجح من أقوال أهل العلم: أنّ الشرك الأصغر: ذنب من الذنوب؛ وهو أعلى الذنوب التي دون الشرك الأكبر. الشرك الأصغر أعلى من الكبائر، وأعلى من البدع، لكنه دون الشرك الأكبر. فلا شكّ أنه لو مات الإنسان عليه لَمَا أفلح أبدًا، ولكان مُعرضًا لعقوبة الله سبحانه وتعالى.

وفي هذا دليل أيّها الأخوة على أنّ الشرك الأصغر سببٌ لعدم الفلاح في الدنيا، ولعدم الفلاح في الآخرةِ. الذي يُرائي –وهذا شرك أصغر– لا يُفلح في الدنيا، ولا يُفلح في الآخرة، فهو معرَّض للعقاب، متوعَّد بالعذاب.

والذي يُعلِّق التمائم من غير القرآن – التي من القرآن ستأتينا إن شاء الله– لا يفلح في الدنيا؛ فإنه لا يتحقق له مقصوده؛ بل يُعكَس عليه، ولا يفلح في الآخرة.

والصحابة –رضوان الله عليهم– كانوا يرون أنّ الشرك الأصغر أعظم من كبائر الذنوب. فمثلًا؛ ابن مسعود –رضي الله عنه– كان يقول: (لأن أحلف بالله كاذبًا أحبُّ إليّ مِن أن أحلف بغيره صادقًا)، "لأن أحلف بالله كاذبًا"! لا شك أنّ هذا من كبائر الذنوب؛ أن يحلف بالله كاذبًا؛ أن يقول: والله كذا، وهو كاذبٌ فيه؛ لكنّ ابن مسعود –رضي الله عنه– كأنه يقول: لأن أرتكب هذه الكبيرة أحبُّ إليّ مِن أن أُشرك الشركّ الأصغر بأن أحلف بغير الله صادقًا؛ أن أقول: والنبي أو ورأس أمي أو ورأس أبي أو والأمانة! فإنّ هذا من الشرك الأصغر. فدلّ ذلك على أن الصحابة يرون أنّ الشرك الأصغر أخبث من كبائر الذنوب.

قال رحمة الله عليه: [الثالثة: أنه لم يُعذَر بالجهالة]

(أنه لم يُعذَر بالجهالة) وهذا مبنيٌّ على أنّ قول النبي –صلى الله عليه وسلم– : «فإنّك لو متّ وهي عليك ما أفلحت أبدًا» أنّ هذا كان وعيداً لِمَا كان قبل العلم، وقد كان جاهلًا. ولكنّ الراجح: أنّ هذا الوعيد رُتّبَ على العلم؛ لأنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: «انزعها»، وفي رواية قال: «انبذها»؛ ثم قال: «فإنك»؛ فالمقصود: أنه لو فعلها بعد العلم لَمَا أفلح أبدًا.

وشيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب -باستقراء فتاواه- وجدنا أنه يَعذُر بالجهل؛ غير أنه يُحقِقُّ وجودَ الجهلِ أو عدم الجهل، فكلامه في تحقيق وجود الجهل. وإن شاء الله إذا جاء الشرح الموسع الذي وعدتكم به لهذا الكتاب سأنقل لكم ما يدل على ذلك.

والواجب يا أخوة؛ ألاّ يُسلَّط التكفير على عوام المسلمين في بلدان المسلمين بحجة عدم العذر بالجهل.

ولا شك أنّ الأدلة دلت على أنّ الجهل عذرٌ إن تحقَّق، لكنّ الشأن متى يتحقق؟

فمِن المسائل ما هو معلوم؛ إمّا بذاته أو ببيان العلماءِ له، فمن ادّعى الجهل فيه لا نصدقه؛ إلا إذا أقام لنا دليلًا يدل على أنه جاهل.

ومِن المسائل ما لا يكون معروفًا أو مشهورًا، أو يكون المشهور غيره في البلد؛ لأنّ العلماء يقرِّرون غيره؛ فهذا مَن ادّعى الجهل فيه صدقناه وقلنا إنه يُعذَر بجهله.

قال رحمه الله: [الرابعة: أنها لا تنفع في العاجلة؛ بل تضر؛ لقوله لا تزيدك إلا وهنًا]

نعم؛ هذه التمائم التي تعلَّق من خيوط وخرز وغيرها لا تنفع صاحبها بل تضرهُ، يقول العلماء: وضررها من وجهين:

- **الوجهُ الأول**: أنه يقع في قلبه الخوف. يعني إذا علَّق هذه التمائم يزداد خوفه على أولاده، يزداد خوفه على سيارته؛ فيكون خائفًا قلقًا لا يرتاح ولا يسكن.
- **والوجه الثاني**: أنّ الله يعاقبه بضدِّ ما قَصَد. وهذا معنى النبي –صلى الله عليه وسلم–: «فإنها لا تزيدك إلا وهنا» أي أنّ الله يعاقبه بأن تزيده وهنًا وضعفًا ،وهذه عقوبة من الله عزوجل.

قال رحمه الله: [الخامسة: الأمر بالتغليظ على من فعل مثل ذلك]

نعم؛ من درجات الإنكار: الإنكار باللسان على وجه التغليظ والزجر الشديد. أن تغلِّظ؛ تنكر بلسانك ولكنك تنكِر بالتغليظ والزجر الشديد؛ وذلك إذا اقتضى المقام ذلك.

قال رحمه الله: [السادسة: التصريح بأنّ من تعلَّق شيئًا وُكِلَ إليه]

نعم؛ وهذا كما في حديث عقبة: «مَن تعلَّق تميمة فلا أتم الله له، ومَن تعلق ودعة فلا ودعَ الله له». وسيأتي –إن شاء الله– هذا الحديث: «من تعلق شيئًا وُكِلَ إليه» في الباب التالي إن شاء الله.

قال رحمه الله: [السابعة: التصريح بأن مَن تعلَّق تميمة فقد أشرك]

نعم؛ التصريح بأنّ تعليق التمائم من غير القرآن: شرك. أمّا من القرآن فستأتي إن شاء الله.

قال رحمه الله: [الثامنة: أنّ تعليق الخيط من الحمّى من ذلك]

نعم؛ للأثر الذي عند ابن أبي حاتم، وقد ذكرتُ لكم أنّ عند ابن أبي حاتم لم يَذكر فيه أنه من الحمى، لكن نقول: إنّ تعليق الخيط من التمائم التي هي شركٌ.

قال رحمه الله: [التاسعة: تلاوة حذيفة رضي الله عنه الآية دليل على أنّ الصحابة رضي الله عنهم يستدلون بالآيات التي في الأكبر على الأصغر؛ قال رحمه الله كما ذكر ابن عباس رضي الله عنهما في آية البقرة]

نعم؛ يستدلون بالآيات التي فيها الأكبر على الأصغر من وجهين:

- **الوجه الأول**: أنّ مَن اجتنب الأكبر فمِن باب أولى أن يجتنب الأصغر.
- **والوجه الثاني**: الاشتراك بينهما في الظلم. فكل الشرك ظلم؛ إلا أنّ الشرك الأكبر ظلم أكبر، والشرك الأصغر ظلم دونه.

قال رحمه الله: [العاشرة: أنّ تعليق الودع عن العين من ذلك. الحادية عشرة: الدعاء على مَن تعلَّق تميمة أنّ الله لا يتم له، ومَن تعلَّق ودعًا فلا ودع الله له؛ أي ترك الله له]

وهذا يدل على أنها من أعظم الذنوب، وفي هذا زجر. يا أخوة! المسلم إذا عَلِمَ أنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– دعا على مَن تعلَّق التمائم بأن لا يتم الله له؛ كيف يُعلق التميمة وكيف يُعلِّق الودعة خوف العين؟!

تابع الدرس الثاني عشر: شرح باب ما جاء في الرقى والتمائم

قال رحمه الله: [باب ما جاء في الرقى والتمائم]

نعم؛ الشيخ –رحمه الله– في باب السابق ذكر لنا أنّ من الشرك لبس الحلقة أو الخيط لرفع البلاء أو دفعه؛ فناسَب أن يذكر هنا ما جاء في الرقى والتمائم؛ لأنّ الرقى والتمائم تُتَّخذ لرفع البلاء أو دفعه، فهل هي مثل لُبس الحلقة والخيط أو لا؟ يعني كأنّ سائلاً قال للشيخ: ذكرتَ لنا أنّ لبس الحلقة لدفع البلاء أو رفع البلاء من الشرك؛ فما رأيك في التمائم والرقى؟

وهنا تلحظون أنّ الشيخ لم يقل: من الشرك الرقى والتمائم! لأنّ لُبس الحلقة شركٌ مُطلقًا، أمّا الرقى والتمائم ففيها تفصيل سيأتي –إن شاء الله– في هذا الباب؛ فقد تكون شركًا وقد لا تكون شركًا.

قال: (ما جاء في الرقى)، والرقى: جمع رقية، والرقية في اللغة: العُوذَة؛ بضم العين، يقال: رقى إذا عَوَّذ ونَفَث.

والرقية في الاصطلاح: ألفاظ تُتلى على المبتلى أو مَن يُخشى عليه البلاء. "ألفاظ" فهي أقوال وألفاظ يُتلفَّظ بها، تُتلى وتُذكَر على المبتلى الذي مرِض؛ أصيب بعين، أصيب بمرض، أو مَن يُخشى عليه البلاء. أي أنها تُستعمل في دفع البلاء قبل وقوعه، ولرفع البلاء بعد وقوعه.

وقيل: تعويذة يُعاذ بها من البلاء؛ دفعـًا أو رفعًا.

والتمائم: جمع تميمة. وقد تقدَّم معنا يا أخوة أنّ أصل التمائم عند العرب: خرزات كانوا يعلقونها على الأطفال لدفع العين.

والتميمة في الاصطلاح: كلُّ ما عُلِّق مِن خرز أو خيط أو نعل أو غير ذلك لدفع البلاء أو رفعه.

كل ما عُلق على إنسان أو على باب البيت أو على السيارة من خيط من نعل من كف من خرز بقصد دفع البلاء، دفع العين أو نحوها أو رفع البلاء؛ فهي تميمة. وسيأتي الكلام على الأحكام.

قال رحمه الله: [في الصحيح؛ عن أبي بشير الأنصاري رضي الله عنه: أنه كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره، فأرسل رسولًا: «ألا يَبقينّ في رقبة بعير قلادةٌ من وتر أو قلادة إلا قُطِعت»]

نعم؛ هذا الحديث في الصحيحين؛ عند البخاري ومسلم. (عن أبي بشير الأنصاري): وقد اختلف العلماء في اسمه؛ فقال بعض العلماء: هو قيس ابن عبيد، وقال بعض أهل العلم: هو قيس ابن عبد الحرير، والمُحققون من العلماء: أنّ اسمه لم يتعيَّن؛ فهو ممّن عُرِف بكنيته ولم يُعرَف اسمه. وهو صحابي جليل

روى عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أربعة أحاديث؛ في البخاري واحد منها؛ هو هذا الحديث الذي معنا.

(أنه كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره) ولم يُعيَّن هذا السفر، ولم نقف على تعيينه، (فأرسل رسولًا) جاء في بعض الروايات عند الإمام مالك أنه زيد بن حارثة، مولى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- زيد بن حارثة.

«ألّا يبقينّ في رقبة بعير قلادةٌ من وترٍ أو قلادة» والوَتَر: هو ما يُصنَع من الأمعاء ويوضع في القوس من أجل الرمي به، كانوا يأخذون من الأمعاء -وهذا أجود أنواع الوتر- يُؤخَذ من الأمعاء ويُجفف ثمّ يُوضع في القوس فيُشد وتُرمى به السهام، كانوا يفعلون هذا؛ فإذا اخلولَق الوتر وأرادوا تغييره يأخذونه ويعلِّقونه على الدواب.

قال: « ألا يبقى في رقبة بعير قلادةٌ من وترٍ أو قلادة« "أو" هنا قال شُرّاح الحديث إنها شكٌ من الراوي، يعني: شك الراوي؛ هل قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: «لا يبقين في رقبة بعير قلادة من وتر» أو قال: «لا يبقين في رقبة بعير قلادةٌ» بدون تقييد؟ لكن جاء في رواية عند الإمام أحمد وأبي داوود: «لا يبقينّ في رقبة بعير قلادةٌ من وتر، ولا قلادةٌ إلا قُطِعت» انتبهوا للفظ يا إخوة! قال: «قلادة من وتر ولا قلادة» ما قال "أو قلادة إلا قطعت"، وقد صحح

الألباني هذا اللفظ. فهذا يدل على أنّ "أو" هنا ليست للشك؛ وإنما للتنويع: لا يبقين في رقبة بعير قلادة من وتر، ولا يبقين في رقبة بعير قلادةٌ. فخصَّص ثم عمَّم. خصص لأنّ هذا هو الغالب؛ ثم عمَّم.

طيِّب؛ ما سبب تعليق هذه القلادة على البعير؟ قال الإمام مالك –كما في الموطأ–: (أُرى ذلك من العين)؛ يعني: أظن ذلك من العين؛ أنهم يقلِّدون البعير بهذه القلائد خوف العين. وهذا يتفق مع ما تقدَّم من النهي عن تعليق التمائم، ويدل على وجوب قطع التمائم إذا عُلِّقت.

وقال بعض أهل العلم: إنما أَمَرَ النبيُّ –صلى الله عليه وسلم– بقطعها حتى لا يختنق البعير بها عند ركضه. قالوا: هذه القلائد في زمن الصحابة ما كانت للعين، كانت سابقًا تقلَّد للعين، أمّا في زمن الصحابة كانوا يقلِّدونها ليس للعين، لكنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– أمر بقطعها حتى لا يختنق البعير بها، حتى لا تضيق عليه ولا سيما عند الركض فيختنق بها، وهذا قاله محمد بن الحسن من فقهاء الأحناف.

وقال بعض أهل العلم: أنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– أمر بقطعها لأنهم كانوا يُعلِّقون الأجراس فيها؛ وهذا منهي عنه.

والأول أولى –والله أعلم–وهو أنّ هذا كان من أجل العين.

وهذا يدل على أنّ التمائم التي تُعلَّق من خيط أو نحوه من أجل دفع العين أو دفع البلاء حرامٌ، ويجب قطعها.

قال رحمه الله: [عن ابن مسعود رضي الله عنه؛ قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إنّ الرُقى والتمائم والتِّوَلةَ شركٌ» رواه أحمد وأبو داوود]

نعم؛ هذا الحديث رواه الإمام أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، وجمعٌ من أهل العلم، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة، فهو صحيحٌ.

قال: (عن ابن مسعود –رضي الله عنه– قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إنّ الرُقى والتمائم والتِّوَلةَ شركٌ»، فوَصَفَها جميعًا بأنها شركٌ من غير استثناء؛ لكن ستأتي أدلة مُفصِّلة ونبيِّن التفصيل فيما يتعلق بالرقى والتمائم ونفسِّر كل كلمة، لأنّ المصنف سيفسِّرها فنقف عندها –إن شاء الله– ونعلِّق على أحكامها.

وقد ورد في هذا الحديث قصة لطيفة؛ أذكرها لفائدة في آخر كلامي، فقد جاء عن زينب امرأة عبدالله ابن مسعود –رضي الله عنهما– قالت: عن عبد الله ابن مسعود قال: سمعت رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يقول: «إنّ الرُقى

والتمائم والتِّولةَ شركٌ»، قالت: قلتُ: لمَ تقولُ هذا؟ والله لقد كانت عيني تقذِف» أي: تقذف الدمع أو تقذف الدم أو تقذف شيئًا آخر كالقيح أو غير ذلك «وكنتُ أختلف إلى فلانٍ اليهودي يرقيني؛ فإذا رقاني سكنت» يعني أنها كانت نافعة «فقال عبدالله: إنما ذاك عمل الشيطان؛ كان يَنخسُها بيده؛ فإذا رقاها كفّ عنها». يعني على حسب ما في هذه القصة ابن مسعود –رضي الله عنه–يقول: هذا الشيطان يعبث بكِ ويغركِ؛ فينخس عينك حتى تخرج الدمع؛ فإذا ذهبت إلى اليهودي ورقاها كفت عنها ليوهمها أنّ هذا نافع. هذه القصة رواها أبو داوود وقال الألباني: صحيح.

وقد استغرب شيخنا الإمام المحدِّث الفقيه العَقَدي الشيخ عبد المحسن العباد في شرحه على سنن أبي داوود تصحيح الألباني لهذا الحديث؛ وذلك لغرابة هذه القصة، يعني صحابية تحت صحابي من أفقه الصحابة تذهب إلى يهودي ليرقيها؟! كان تطلب من ابن مسعود أن يرقيها! والصحابة متوافرون! فالقصة غريبة.

أيضًا؛ في الإسناد مبهَم؛ وهو: ابن أخي زينب أو ابن أخت زينب؛ جاء هذا وجاء هذا؛ وهو مبهَم لا يُدرى مَن هو! لكنّ الألباني –رحمه الله– في أول الأمر اغتر بقول ابن حجر: "لعلّه صحابي" فصحح الحديث، ثم في السلسلة الصحيحة رَجَعَ عن تصحيح هذه القصة بعينها؛ للعلّتين التي ذكرهما شيخنا

الشيخ العبّاد، وطَلَبَ ممن وقف على كتبه أن يصحِّح تصحيحه؛ يزيل تصحيحه لهذه القصة.

فانظر أولاً فقه شيخنا الشيخ العباد وسعة علمه، ثم انظر حرص العلماء على الحقّ؛ فالشيخ الألباني بعد أن كان صحح الحديث خطّأ نفسه في السلسلة الصحيحة وبيّن أنّ القصةُ لا تصح وأنها منكرة؛ لكنّ الحديث صحيح: «إنّ الرُقى والتمائم والتِّولةَ شركٌ» صحيح؛ لكن القصة منكرة ولا تصح. وسيأتي بيان أحكام هذه الثلاثة.

قال رحمه الله: [وعن عبد الله ابن عُكيمٍ مرفوعًا: «مَن تَعلَّق شيئا وُكِلَ إليه»، رواه أحمد والترمذي]

نعم؛ هذه الحديث عن عبد الله ابن عُكيمٍ مرفوعًا إلى النبي –صلى الله عليه وسلم–: «مَن تعلق شيئا وُكِلَ إليه» رواه الإمام أحمد، والترمذي، وابن أبي شيبة، والطبراني . والحديث في إسناده عبد الرحمن بن أبي ليلى؛ وهو سيئ الحفظ، وعبد الله ابن عُكيم وإن وُلد في زمن النبي –صلى الله عليه وسلم– لكن ليست له صحبة، وُلِد في البادية في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، ورأى كتاب النبي –صلى الله عليه وسلم– إلى قومه؛ لكن لم تكن له صحبة على الراجح والصحيح.

وعليه؛ فإنّ الحديث يكون مُرسلًا، لكنّ الحديث له شواهد، فله شاهد عند النسائي في المُجتبى مِن حديث أبي هريرة رضي الله عنه. ويشهد له حديث عُقبة المُتقدِّم؛ فهو حسنٌ.

ولذلك؛ قال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب: حسنٌ لغيره، حسن لشواهده. فهو ثابت.

قال: «مَن تَعلَّق شيئًا» "مَن" شرطية، و"شيئًا" نكرة في سياق الشرط؛ فتعمّ كل شيء.

«مَن تَعلَّق شيئًا وُكِلَ إليه» ومَن توكل على الله فهو كافيه، الذي يتوكل على الله ويترك هذه التعليقات فالله كافيه وهو حسبه. والذي يُعلِّق هذه التمائم مُطلقًا فإنه يُوكَلُ إليها؛ وهي لا تنفع ولا تضر. وهذا يشمل كل التمائم كما سنذكره –إن شاء الله– بعد قليل.

قال رحمه الله: [التمائم: شيءٌ يُعلَّق على الأولاد عن العين]

قال: (شيء يُعلَّق على الأولاد عن العين) هذا أصلها؛ وليس ذلك خاصًّا بالأولاد؛ بل كما قلنا: الذي يُعلَّق على السيارة، الذي يُعلَّق على الدواب، الذي يُعلَّق على البيت، بعض الناس عندما تأتي إلى بيته أول شيء يُقابلك أنه مُعلِّق

على الباب كفّ؛ يقولُ لك كذا؛ خمسة في عينك يقولون! أو يعلِّق حذاءً، أو كما ذكرتُ لكم بعض الناس يعلقون الفلفل مع الليمون. كلها هذه من التمائم.

قال رحمه الله: [لكن إذا كان المُعلَّقُ من القرآن فرخَّص فيه بعض السلف، وبعضهم لم يُرخِّص فيه ويجعله من المنهي عنه؛ منهم ابن مسعود رضي الله عنه]

بمعنى يا إخوة؛ أنّ المُعلَّق إذا كانت فيه استغاثة بغير الله؛ يعني فيه كتابات وطلاسم فيها استغاثة بغير الله عز وجل؛ فهو شرك أكبر. الذين يعلِّقون أوراقًا مطوية فيها: يا سيدي فلان! يا أهل الصلاح! يا أهل جبال قاف! يا أوتاد! يا أقطاب! هذا شرك أكبر يُخرِجُ من الملة.

وإذا كان المعلَّق خيطًا أو خرزاً أو غير ذلك؛ فهذا شرك أصغر كما تقدَّم معنا.

بقي الثالث؛ وهو إذا كان المعلَّق شيئًا من القرآن، أو كان اسمًا من أسماء الله، أو صفةً من صفات الله. بعض النساء تلبس قلادة فيها: ﴿الله لا إله إلا هو﴾؛ لدفع العين والبلاء، وبعضهم يعلِّق على أولاده أوراقًا مكتوب فيها الآيات المعوذات؛ وتُلَفّ وتُربَط في خيط على اليد أو العنق. وبعضهم يكتب على

سيارته: ﴿قل هو الله أحد﴾. وبعضهم يُعلِّق على باب بيته من الخارج تعليقة فيها المعوذات. هذا تعليقٌ من القرآن. هذا اختلف فيه العلماء على ثلاثة أقوال:

القولُ الأول: أنّ ذلك جائز مادام أنّ المعلَّق من القرآن أو كان فيه اسم الله أو صفة الله. ونَصَّ القائلون بالجواز من المتقدِّمين على أنه يُكرَه إذا كان لدفع العين. يعني يقولون: يجوز أن تُعلِّق الآيات لكن لا بقصد دفع العين، أمّا بقصد دفع العين فهو مكروه.

ويُنسب إلى عبدالله بن عمرو بن العاص –رضي الله عنهما– أنه كان يُعلِّم مَن يفهم مَن بَنيه ويحفظ رقية الفزع –يعني الفزع من النوم أن يقوم الإنسان فزعًا–، ومَن كان لا يفهم مَن بَنيه ويَحفظ كان يكتبها ويعلِّقها عليه. وهذا رواه الإمام أحمد، وأبو داوود، والترمذي، لكن قال الألباني: لا يصح.

والحقيقة يا أخوة أنّ أكثر السلف الذين روي عنهم جواز ذلك لم يصح ذلك عنهم.

أمّا الصحابة؛ فلم يصح عن أحد من الصحابة.

وأمّا التابعون؛ فلم يصح عن أكثرهم، وإنما صح عن عطاء والباقر فقط. أعني هذا القول.

والقول الثاني: لا يجوز تعليق ما كُتِب فيه القرآن لدفع البلاء، ويجوز لرفعه. ماذا قال هؤلاء؟ يقولون: لا يجوز أن يُعلق ما فيه القرآن لدفع البلاء؛ الخوف من العين الخوف من الحوادث؛ قالوا: ما يجوز، ويجوز لرفعه، مَرِضَ فيعلَّق عليه ذلك لرفع المرض؛ ونُسِب هذا أمنّا عائشة رضي الله عنها، ولم يصح عنها، لكن قاله بعض العلماء.

القولُ الثالث: لا يجوز ذلك مطلقًا. وهذا ثابت عن ابن مسعود رضي الله عنه، صحّ عن ابن مسعود رضي الله عنه.

وقال الألباني –وسيأتينا هذا في الكتاب–: روى أبو عُبيد في فضائل القرآن بسند صحيح؛ عن إبراهيم النخعي قال: (كانوا يكرهون التمائم من القرآن وغيره)، فهذا صحّ عن إبراهيم النخعي؛ قال: (كانوا) الضمير يرجع إلى مَن؟ قال بعض أهل العلم: يرجع إلى الصحابة؛ فهذا حكاية عن الصحابة. وقال بعض أهل العلم: بل هذا يرجع إلى ابن مسعود وأصحابه.

والراجح –والله أعلم–: أنه لا يجوز أن يُعلَّق ما كُتب فيه القرآن، لا على سيارة، ولا على بيت، ولا على غير ذلك؛ بقصد رفع البلاء أو دفع البلاء؛ وذلك لأدلة:

الأمر الأول: عدم تفصيل النبي –صلى الله عليه وسلم– في التمائم كما فصَّل في الرقى؛ مع الحاجة، ما قال لمَن وضع الخيط من الواهنة: هل فيه قرآن؟ بل قال: «انزعها» ولم يستفصِل! ولم يرد عن النبي –صلى الله عليه وسلم– حرفٌ واحدٌ في التفصيل في التمائم، بل الذي ورد أنها شرك .

الأمر الثاني: أنّ التحريم ثبت عن ابن مسعودٍ –رضي الله عنه– ولا يُعلَمُ له مُخالِفٌ من الصحابة. وهذا يعتبره العلماء إجماعًا على الراجح، أنه ثبت عن ابن مسعود –رضي الله عنه– ولا يُعلَم له مخالِفٌ من الصحابة.

الأمر الثالث: أنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: «مَن تعلقَ شيئًا وُكِلَ إليه»؛ وقلنا إنّ "شيئًا" نكرة في سياق الشرط؛ فتعم؛ وهذا يشمل ما كان مكتوبًا من القرآن.

الأمر الرابع: سدُّ الذريعة. فإنّ الناسَ إذا علَّقوا المكتوب من القرآن أوشكوا أن يعلِّقوا غيره. ومعلوم يا إخوة أنّ الشيطان يأخذ الناس خطوات.

الأمر الخامس: أنّ في هذا امتهانٌ للقرآن. يعني إذا كُتِبت الآيات ووُضعت في يد الطفل؛ الطفل يعبث ولا يتحرَّز عن النجاسات ويدخل الحمام وهذا مكتوب ومعلَّق على يديه! وكذلك الكبير.

فالراجح –والله أعلم – أنّ تعليق التمائم من القرآن لا يجوز، لكنّ هذا ليس شركًا؛ وإنما حرامٌ؛ لأنه تعليق للقرآن؛ فهو لم يُشرِك.

وبعض أهل العلم يقول: إنه شرك؛ لأنه جعل سبباً لم يجعله الله شرعًا ولا قدراً سببًا.

يعني –انتبهوا– بعض أهل العلم منهم شيخنا الشيخ ابن عثيمين –رحمه الله– يرى أنها حرام وليست شركًا؛ لأّن الذي علَّقه هو القرآن.

وبعض أهل العلم يقول: هي شركٌ أصغر من جهة أخرى؛ وهو أنه قد اتخذ هذا سبباً ولم يثبت شرعًا ولا قدرًا أنه سبب، ومَن اتخذ سببًا لم يثبت شرعًا ولا قدرًا أنه سبب فقد أشرك شركًا أصغر.

إذن؛ حكم التمائم فيه تفصيل:

١. إمّا أنها شرك أكبر. وذلك إذا كان فيها استغاثة بغير الله من جن وشياطين ونحو ذلك، أو اعتقد الإنسان أنها تنفع بنفسها.
٢. وتكون شركًا أصغر؛ إذا كان المعلَّق خيطًا أو خرزةً أو غير ذلك بدون كتابة، أو كتابة ليس فيها استغاثة بغير الله.
٣. وتكون حرامًا. إذا كان المعلَّق من القرآن. وبعض أهل العلم يرى هذا أيضًا من الشرك الأصغر.

قال رحمه الله: [والرقى: هي التي تُسمى العزائم]

وتقدَّم بيانها، وتُسمى المواثيق أيضًا، تُسمى عند بعض الناس: العزائم، وتُسمى عند بعض الناس: المواثيق.

قال رحمه الله: [وخَصَّ منه الدليل ما خلا من الشرك؛ فقد رخّص فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم من العين والحُمى]

نعم؛ تقدم معنا يا أخوة معنى قول النبي –صلى الله عليه وسلم–: « لا رقية إلا مِن عينٍ أو حُمة»وشرحنا هذا.

أيضًا؛ رخَّص النبي صلى الله عليه وسلم لآل حزم في رقية الحية. رواه مسلم

وثبت أنّ رجلًا لدغته عقرب، والقوم جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقال رجلٌ: يا رسول الله! أرقي؟ قال: «مَن استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفع»، هذا عند مسلم في الصحيح.

وجاء عند عوف بن مالك قال: «كنّا نرقي في الجاهلية» يعني عندنا رُقى «فقلنا: يا رسول الله! كيف ترى في ذلك؟» يعني هل نتركها أو نستمر نرقي؟ « فقال: اعرضوا عليّ رُقاكم؛ لابأس بالرُّقى ما لم يكن فيه شركٌ»، رواه مسلم في

الصحيح. وفي رواية: «لابأس بالرقى ما لم تكن شركًا»، رواه أبو داوود، وصححه الألباني.

بل جاء عن طَلْقٍ قال: «لدغتني عقربٌ عند رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فرقاني ومسحها» الراقي هو الرسول صلى الله عليه وسلم. رواه أحمد، وأبو داوود، وصححه الألباني.

وثبت أنّ عائشة –رضي الله عنها– أنها كانت ترقي رسول الله صلى الله عليه وسلم.

طيِّب هذه نصوص! وتقدَّم معنا أنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: «إنّ الرُقى والتّمائمَ والتَّولةَ شركٌ» هذا نصٌ يُقابل هذه النصوص.

وثبت في صحيح مُسلم: «أنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– نهى عن الرُّقى»؛ هذا أيضًا نصٌّ يُقابل تلك النصوص.

وتقدَّم معنا في حديث السّبعين ألفًا أنهم «لا يسترقون»، وهذا نصٌّ يُقابل هذه النصوص.

للعلماء كلامٌ طويلٌ في التوفيق بين هذه النصوص. لكنّ الصحيح من أقوال أهل العلم: أنّ هذا يختلف باختلاف الرُّقى.

١. **فقد تكون الرقية مباحة**. وذلك إذا اجتمعت فيها شروطٌ ثلاثة:

الشرط الأول –وانتبهوا لِمَا أقول–: أن تكون بكلام حسنٍ جائزٍ في الشرع؛ بمعنى: ألا يكون فيها شركٌ ولا ممنوع.

بعض أهل البعض يا إخوة يقول: أن تكون بالقرآن، أو بالسنة، أو بأسماء الله أو بصفاته.

لكنّ الراجح: أنه يجوز أن يُرقى بكل كلامٍ حسنٍ جائزٍ شرعًا؛ بدليل أن بعض الصحابة كانت عندهم رُقى في الجاهلية قبل ما ينزل القرآن وقبل ما تأتي السنة؛ وقال لهم النّبي –صلى الله عليه وسلم–: «اعرضوا عليّ رُقاكم؛ لا بأس بالرقى ما لم تكن شركًا»؛ فالنبي –صلى الله عليه وسلم– قال: «لا بأس بالرقى»؛ وقيَّد بقيدٍ واحدٍ: «ما لم تكن شركًا». فإذا كانت بكلام حسنٍ جائزٍ شرعًا فإنها مباحة

الشرط الثاني: أن تكون بكلام مفهوم المعنى؛ سواء كانت بالعربية أو بغير العربية. أمّا الطلاسم والكلام الذي لا يُفهَم معناه فهذا لا تجوز به الرقى.

بعض الناس يزعم أنّ عنده رقية ويأتي بكلام ما يفهمه الناس؛ خرنبيط، غرنبيط؛ يأتي بكلام ما يُفهَم، أو يأتون برموز: كا ، لي ، بي ، طي ، رموز؛ هذه ما تصح بها الرقية. سواء كان بالعربية أو بغير العربية المهم أن تكون بكلام حسن جائز شرعًا مفهوم المعنى.

وبعض أهل العلم يشترط أن تكون بالعربية؛ وهذا للاحتياط.

لكنّ الصحيح: أنه لم يدلّ دليل على اشتراط العربية؛ وإنما لابدّ أن تكون بكلام مفهوم المعنى.

بعض الناس يزعم أنه يرقي ولكن لا يُخبِر الناس بما يقول! إذا جاء يرقي فإنه يرقي بصوت خفيض أو يُتمتم، وبعضهم حتى يحمي يقول: الرقية إذا علَّمتَ الناس بها تَبطُل! هذا ما يجوز، لابد أن تكون بكلام يُفهَم؛ مفهوم المعنى.

والشرط الثالث: ألا يعتقد تأثيرها بنفسها؛ بل بقدر الله وإذنه. وهذا الشرط متفق عليه بين أهل العلم.

إذا اجتمعت هذه الشروط الثلاثة فكانت الرقية: بكلام حسنٍ جائز شرعًا، ومفهوم المعنى، ولم يُعتقَد أنها مؤثرة بذاتها؛ كانت مُباحة.

٢. **فإن كانت بالمأثور من القرآن أو السنة وقَصَدَ الراقي نفع المَرقي؛ كانت مستحبة.** يعني إذا كانت بالقرآن وبالسنة –الأدعية الواردة في الكتاب والسنة– وقصد الراقي أن ينفع المرقي؛ كانت مستحبة؛ لأنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– فعلها؛ وقال: «مَن استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل».

٣. **وقد تكون الرقية شركًا أكبر**؛ إذا كانت فيها استغاثة بغير الله وتضمنت الشرك بالله؛ تكون شركًا أكبر. وقد سمعنا قول النبي –صلى الله عليه وسلم–: «لا بأس بالرقى ما لم تكن شركًا».

٤. **وقد تكون شركًا أصغر**؛ إذا كانت بكلام لا يُفهَم، ليس فيها استغاثة بغير الله لكن فيها كلام لا يُفهَم؛ فتكون شركًا أصغر؛ لأنها جُعلَت سبباً وليست سببًا شرعًا ولا قدرًا؛ فتكون شركًا أصغر.

٥. **وقد تكون الرقية مكروهةً** في جانب المرقيّ؛ إذا كانت بطلب منه في غير حاجة ماسّة؛ كما تقدم البيان في حديث السبعين ألفًا في قول النبي –صلى الله عليه وسلم–: «ولا يسترقون».

هذه هي أقسام أحكام الرقى بحسب ما دلت عليه الأدلة. الرقية قد تكون:

١. مباحة جائزة؛ إذا كانت بكلام حسن، جائز في الشرع، مفهوم المعنى، ولم يُعتَقد أنها تؤثر بذاتها.

٢. وقد تكون مستحبة؛ إذا كانت بالقرآن أو بالسنة وقصد الراقي أن ينفع المرقي.

٣. وقد تكون شركًا أكبر؛ وذلك:

- إذا كان فيها استغاثة بغير الله –عز وجل– أو نحو ذلك من الشرك.

- أو اعتقد أنها تؤثر بذاتها. هذا شرك أكبر؛ بل هو شرك في الربوبية؛ لأنه جعل الضُّر والنَّفع لغير الله.

٤. **وقد تكون شركًا أصغر**؛ إذا كانت بكلام لا يُفهَم. وبعض أهل العلم يقول: محرمة؛ بدون أن يصفها بأنها شرك أصغر.

٥. **وقد تكون مكروهة في حقِّ المرقي**؛ إذا كانت بطلب منه من غير حاجة ماسّة.

وإذا ضبطتم هذا ينضبط لكم ما ورد في الرقى، ويستقيم لكم الاستدلال بكل ما ورد عن النبي –صلى الله عليه وسلم– في باب الرقى.

قال رحمه الله: [والتولة: شيءٌ يصنعونه، يزعمون أنه يحبِّب المرأة إلى زوجها والرجل إلى امرأته]

نعم؛ التولة يا أخوة سحرٌ يُسمى سحر العطف، وهو عزائم تُجعَل لتجعل الرّجُلَ يُحبَّ المرأةَ أو تجعل المرأةَ تُحِبَّ الرَّجُلَ. بل –والعياذ بالله– بعضها ظلمات بعضها فوق بعض يجعل الرَّجُلَ يُحبَّ الرَّجل، وقد عاينتُ هذا بنفسي، يوجد رجل شاب سُحِرَ – والعياذ بالله – حتى أصبح يُحبَّ رجلًا مُعينًا ويذهب إليه وهو كارهٌ لهذا. هذا يُسمى سحر العطف وهو يقابل سحر التفريق.

وسحر التفريق: عزائم توضَع لتفرِّق بين الزوجين. إمّا التفريق الحسي وإمّا التفريق المعنوي. التفريق الحسي: بأن تُبغِض المرأة الرجل وتفارقه تمامًا،

أو العكس الرجل يبغضها. والمعنوي: بأن لا يستطيع الرجل أن يجامع امرأته ويسمى بسحر الربط.

فعندنا سحر العطف، وعندنا سحر التفريق، وعندنا سحر الربط؛ كلها متعلقة بالزوجين.

فالتَّولة: هي سحر العطف، وهو شيء يصنعونه؛ قد يكون مأكولًا أو مشروبـًا؛ وهذا أخبث هذه الأنواع؛ لأنه يصعب التخلص منه، فيوضَع في مشروب الرجل أو المرأة أو في أكل الرجل أو المرأة. وقد يكون مكتوبـًا في أحجبة أو نحو ذلك. يزعمون أن يُحبِّب المرأة إلى زوجها والرّجل إلى امرأته. وهذا التفسير جاء عن ابن مسعودٍ –رضي الله عنه– بإسناد صحيح؛ كما عند ابن حبّان؛ قال: (شيء يصنعه النساء يتحبّبن إلى أزواجهنّ).

والسّحر كله كفرٌ ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾، فالتّولة شرك أكبر؛ لأنه لابدّ فيها من الاستعانة –والعياذ بالله– بالجن والشياطين. وليس فيها تفصيل.

إذن يا أخوة؛ التمائم كلها ممنوعة؛ لكن فيها تفصيل في وصفها: فقد تكون شركًا أكبر، أو شركـًا أصغر، أو محرمةً.

والرُقى فيها تفصيل كما قدمنا.

أمّا التَّولة فلا تفصيل فيها؛ كلها شرك، وهي شرك أكبر، هي من الكفر الذي يُخرِج من الملة.

لعلنا نقف هنا. ونكمل –إن شاء الله– غدًا هذا الباب، ونقرأ الذي بعده.

يا إخوة؛ –كما ذكرتُ لكم سابقًا–الدرس في الشرح هو بما يناسب المقام اليوم والوقت؛ لأننا نريد أن ننتهي من الكتاب بعد الحج إن شاء الله عز وجل، وأنتم تسمعون في الشرح خلاصة كلام أهل العلم، أنا لا آتي بشيء من عندي ولكني أراجع كلام العلماء في شروح الحديث وفي كتب التفاسير وفي كتب الآثار؛ فإن اتفق العلماء لخّصتُ كلامهم، وإن اختلف العلماء اجتهدتُ في الترجيح بين كلامهم حتى أذكر لكم الراجح، وحتى فيما يتعلق في الحكم على الأحاديث، فأنتم تسمعون خلاصة لما أجده في كتب أهل العلم من المتقدّمين ومن المتأخرين فيما يتعلق بما نشرحه.

ونجيب عن بعض أسئلة إخواننا. وصلى الله على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

الدرس الثالث عشر: تابع شرح باب ما جاء في الرقى والتمائم

بسم الله الرحمن الرحيم

درسنا هو في شرح كتاب التوحيد. والأمة أيها الإخوة بحاجة عظيمة إلى أن تفهم التوحيد في كل زمان ومكان، مِن زمن النبي –صلى الله عليه وسلم– مِن بعثته إلى أن مات صلى الله عليه وسلم، ومِن زمن الصحابة إلى يومنا هذا.

لكنّا نقول: إنّا في هذا الزمان بحاجة أعظم وحاجة أشد إلى أن نفهم التوحيد؛ لأنّ أعداء ديننا والمخالفين للتوحيد يخافون من انتشار التوحيد ومن تعلُّم المسلمين اليوم للتوحيد وأنّ المسلمين بدأوا يفهمون التوحيد، فأصبحوا الآن يُعدُّون العدة ويهاجمون بقوة ليصرفوا الناس عن السنة والتوحيد، إمّا بصرف الاسم –اسم السنة– إلى غير أهل السنة، محاولة أن يجعلوا أهل السنة غير أهل السنة، وأن يجعلوا أهل السنة هم أهل البدعة، ويحاولون الآن أن يسمُّوا أهل السنة بأهل البدع، وأن يسمُّوا أهل البدع بأهل السنن.

والأمر –ولله الحمد والمنة– واضح؛ السنة لم تنقطع من زمن النبي –صلى الله عليه وسلم– إلى يومنا، فأهلها المتمسكون بهذا الحبل الذي لم ينقطع.

أمّا المتمسكون بأمر أُحدِثَ في آخر القرن الثاني أو في القرن الثالث أو القرن الرابع ويزعمون أنهم أهل السنة؛ فإنا نقول لهم: ما كان قبل شيخكم هذا

الذي تنسبون إليه عقيدتكم وتنسبون إليه طريقتكم هل كان سنة أو لم يكن سنة؟ ولا شك أنه سنة، فإن كان سنة هل ما قاله شيخكم هو ما كان عليه المتقدمون أو خالفهم؟ فإن قالوا: هو ما كان عليه المتقدمون؛ قلنا: إذن لِمَ نسبتموه إلى شيخكم؟ بل أنتم تعلمون أنه لم يكن عليه المتقدمون؛ ولذلك قلتم زعمًا وكذبًا: إنّ مذهب السلف أسلم ومذهب الخلف أحكم! ومذهب السلف في الحقيقة: أسلم وأحكم وأعلم. لكن لأنهم يعلمون أنّ مذهب السلف مذهب الصحابة ومذهب التابعين ومذهب الأئمة يخالف العقيدة التي نسبوها إلى شخص معيّن وسموها "أهل السنة"؛ قالوا مقالتهم هذه.

فالسنة أيها الإخوة واضحة وأهلها واضحون، يتمسكون بما جاء به محمد –صلى الله عليه وسلم– وبما فهمه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وبقية الصحابة وفهمه سادات التابعين وفهمه الأئمة الأربعة ومَن كان على شاكلتهم من كبار الأمة قبل أن يُحدَث ما أُحدِث.

ويحاولون أيضًا أن يصرفوا الناس عن التوحيد بوسائلهم الإعلامية وبالعبارات الرنانة.

فنحن بحاجة جميعًا إلى أن نفهم التوحيد بعمق، وأن نفهم التوحيد بالدليل، ونفهم وجه الدليل، حتى ندعو الأمة إلى حق الله، إلى اتّباع رسول الله

صلى الله عليه وسلم، إلى ما فيه عزتها، حتى نقف في وجوه الذين يريدون أن يصرفوا الأمة من التوحيد إلى الشرك ومن السنة إلى البدعة.

وأهل السنة هم أرحم الناس بالناس، هم أرحم الخلق بالخلق؛ لأنهم يريدون الخلق أن يحققوا حق الله على ما جاء في كتاب الله وعلى ما جاء في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ونحن لا زلنا في باب ما جاء في الرقى والتمائم. وقد تكلمنا عن هذه المسالة –مسالة الرقى والتمائم- بما يوضح حالها ويكشف شأنها، وبيَّنا الأدلة المتعلقة بذلك التي ذكرها شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب –رحمه الله عز وجل- وبيَّنا وجهها.

وبقي معنا بعض ما أورده الشيخ في هذا الباب، نسمعه ونقف عنده، ثم ننتقل إلى المسائل، ثم ننتقل إلى الباب الذي يليه إن شاء الله. فيتفضل الشيخ ياسين –وفقه الله- يقرأ لنا.

يقول الإمام محمد بن عبد الوهاب في كتاب التوحيد: [روى الإمام أحمد عن رويفع قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا رويفع! لعل الحياة ستطول بك؛ فأخبر الناس أنّ مَن عقد لحيته، أو تقلَّد وترًا، أو استنجى برجيع دابة أو عظم فإنّ محمدًا بريء منه»]

هذا الحديث أيها الإخوة رواه الإمام أحمد، وأبي دواد، وابن أبي شيبة، والطبراني، وغيرهم، وسكت عنه أبو داود؛ وما سكت عنه أبو داود فهو صالح عنده، وقال النووي: إسناده جيد، وصححه ابن مفلح، وصححه الألباني، وقال الشيخ ابن باز: الحديث فيه لِينٌ وله شواهد، وقال مرة: هو جيّد بطرقه، وقال شيخنا العباد: الحديث ثابت بطريقَيه عند أبي داود. فالحديث ثابت وصحيح وله طرق وشواهد.

قال: (عن رويفع قال: قال لي رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: «يا رويفع! لعل الحياة ستطول بك»، وهذا على سبيل الظن؛ وقد وقع، فقد طالت الحياة برويفع رضي الله عنه وأرضاه.

وفي هذه الجملة أيها الإخوة فائدة؛ وهي: أنّ الدعوة إلى الحق لا تنقطع بمرور الأزمان، بل يُدعى إلى التوحيد والحق ما بقي الزمان؛ «لعل الحياة ستطول بك».

وفي هذا أيضًا فائدة؛ وهو: أنه كلما بَعُدَ الناس عن زمن النبي –صلى الله عليه وسلم– كانت حاجة الناس إلى التعليم أكثر؛ ولهذا قال النبي –صلى الله عليه وسلم–: «لعل الحياة ستطول بك، فأخبر الناس» عندئذ؛ يعني عندما تطول بك الحياة أخبر الناس «أنّ مَن عقد لحيته»، اللحية في صدر الإسلام موجودة عند الرجال، ما يتطرق إليها الحلق، وحَلْقُها إنما حدث عند المتأخرين؛ وهو

حرام بإجماع العلماء؛ بل وقفتُ على من قال من أهل العلم: "إنّ حلق اللحية أشد من فعل المجوس"؛ لأنّ المجوس لا يحلقونها بالكلية؛ هذا كلامٌ لبعض العلماء المتقدمين من شرّاح الحديث. لكن هنا قال: «فأخبر الناس أنّ من عقد لحيته» أي أنّ الرجل الذي يعقد لحيته أنّ محمدًا –صلى الله عليه وسلم– بريء منه.

ما معنى أن يعقد لحيته؟

قال بعض أهل العلم: معناه أن يعقدها ويضفرها ويجعلها عُقدًا. ويُفعل هذا أحيانًا في الحروب، وهو كان من فعْل الأعاجم الكفار؛ أنهم يعقدون لحاهم، إمّا أن يجعلها في جهتين؛ فيعقد جهة ويجعلها عقدًا ويظفرها، والجهة الأخرى يعقدها ويجعلها عقدًا ويظفرها.

فتظفير اللحية كظفائر النساء حرام لا يجوز؛ ومن كبائر الذنوب؛ وهو تشبه بالأعاجم الكفار.

وقال بعض أهل العلم: معنى «مَن عقد لحيته»: أي نَفَشَها وجعلها على طريقة النساء في معاملة شعورهن. فهذا فيه تشبه بالنساء من جهة معاملة الشعر؛ أن يعامِل شعر لحيته كما تعامل المرأة شعرها؛ فيتشبه بالنساء.

أما تسريح اللحية وترجيلها فهذا سنة، ثابت عن النبي –صلى الله عليه وسلم– أنّ الرجل يمشط لحيته ويرجّلها ويكرمها؛ فهذه سنة ثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم.

إذن؛ الرجل محرَّم عليه –وهذا من كبائر الذنوب– في لحيته أمران:

الأمر الأول: أن يظفرها ويعقّدها، يجعلها عقدًا كما يفعل الأعاجم الكفار في زمن النبي صلى الله عليه وسلم.

والأمر الثاني: أن يجعل عنايته بلحيته كعناية النساء بشعورهن؛ فيفعل ما تفعله النساء بشعورهن. بعبارة أخرى: أن يتشبه بالنساء في عنايته بشعر لحيته، فيعتني بها اعتناء النساء بشعورهن.

أمّا إعفاء اللحية فواجب. وأمّا تسريحها وإكرامها فسنة ثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم.

«فأخبر الناس أنّ مَن عقد لحيته، أو تقلَّد وترًا» والوتر: هو الخيط الذي يُتقلَّد لدفع البلاء أو رفع البلاء. والغالب أن يكون من الأمعاء، لكنه يشمل كل خيط، مَن وضع خيطًا في يده لدفع العين ليُحمَى لكي لا تقع له حوادث في سيارته أو ليُشفى من مرضه، هذا الذي تقلَّد وترًا؛ ما شأنه؟ محمد –صلى الله عليه وسلم– منه بريء.

والله! أنّ المسلم المحب للنبي –صلى الله عليه وسلم– لو خُيِّر بين أن يبقى مريضًا طوال حياته ولا يدخل في قول النبي –صلى الله عليه وسلم– "إنه بريء منه" وبين أن يُشفى من المرض فورًا ويدخل في قول النبي صلى الله عليه وسلم "إنه بريء منه"؛ لاختار أن يبقى مريضًا. فبراءة النبي –صلى الله عليه وسلم– من المسلم ليست شيئًا سهلًا عند المسلم بل هي أمر عظيم.

فمَن تقلَّد خيطًا لدفع العين عنه أو قلَّد أبناءه الخيط لدفع العين عنهم أو لرفع البلاء فإنّ محمدًا –صلى الله عليه وسلم– بريء منه.

«أو استنجى برجيع دابة» رجيع الدابة إن كانت الدابة مما يؤكَل لحمه كالشاة مثلًا؛ فالاستجمار برجيعها يُفسِد هذا على دواب الجن المسلمين، لأنّ رجيع الدواب التي يؤكَل لحمها عَلَفٌ لدواب الجن، فإذا استنجى به واستجمر نجَّسه فأتلفه على دواب الجن.

وإن كان هذا الرجيع لدابة لا يؤكَل لحمها فهو نجس، والنجاسة لا تُزال بالنجاسة. الذي يأتي برجيع كلب أو نحو ذلك ويستجمر به كمن غسل ذكره من البول بالبول! النجاسة لا تُزال بالنجاسة.

«أو عظم» فإنّ العظم إذا كان لِمَا يؤكَل لحمه فهو طعام الجن، فإذا استجمر به الإنسان أفسده على الجن. وإذا كان لِمَا لا يؤكَل لحمه فهو لا تحصل به الطهارة؛ لأنه أملس، لا يزيل النجاسة لأنه أملس.

إذن؛ يحرم على المسلم أن يستجمر برجيع دابة أو بعظم، ومَن فعل ذلك فإن محمدًا بريء منه.

وهذه الجملة يا إخوة ليس المقصود منها أنه يكفُر؛ وإنما المقصود: أنه لا يكون على سنة النبي صلى الله عليه وسلم؛ كما قال النبي –صلى الله عليه وسلم–: «فمَن رغب عن سنتي فليس مني» أيْ في هذا الفعل، في هذا الفعل ليس على سنة النبي صلى الله عليه وسلم. لكن النبي –صلى الله عليه وسلم– جاء بهذا الجملة تغليظًا؛ لأنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– يعلم أنّ هذه الجملة تَعظُم في قلب المسلم إذا سمعها: «فإنّ محمدًا بريء منه».

ولا شك أن المسلم إذا سمع هذا سيبتعد عن أن التشبه بالأعاجم في لحيته، فكيف إذا تشبه بالأعاجم –والمقصود بالأعاجم كما أقيِّد: الكفار، وإلّا فالأعجمي المسلم كالعربي المسلم؛ لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، ولا لأعجمي على عربي إلا بالتقوى، لكن عندما يقال الأعاجم يعني: الكفار في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ومَن بعده– فكيف يا إخوة بمَن يتشبَّه بالأعاجم فيما هو حرام أصلًا في ديننا؛ وهو أن يحلق لحيته؟!

وقد قلتُ مرارًا وتكرارًا لإخواني: يا إخوتي! انظروا في تاريخ الإسلام كلِّه منذ بُعِث النبي –صلى الله عليه وسلم– هل ترَون من صالحِي الأمة الذين هم قدوة؛ النبي صلى الله عليه وسلم، الصحابة، أئمة التابعين، الأئمة الأربعة؛ هل تجدون أحدا منهم حلق لحيته؟ لا والله، ولكنّ الذين يحلقون لِحاهم هم الكفار ودخل هذا على المسلمين، ولو لم يكن في هذا إلا هذا لكفى ذلك أن يجعل المؤمن حريصًا على أن يُعفي لحيته؛ يتشبَّه بالنبي –صلى الله عليه وسلم– وصحبه، أقول: الذي كان يترك لحيته لكن يتشبه بالكفار في عقدها قد فعل كبيرة؛ فكيف بمَن يتشبه بالكفار فيحلق اللحية؟! وهذا يؤيِّد قول بعض أهل العلم: "إنّ حلق اللحية كبيرة"؛ لأنّ حلق اللحية أعظم في التشبه من عقد اللحية.

«أو تقلد وترًا، أو استنجى برجيع دابة أو عظم» فهذه من كبائر الذنوب.

قال رحمه الله: [وعن سعيد بن جبير قال: (مَن قطع تميمة من إنسان كان كعدل رقبة) رواه وكيع]

سعيد بن جبير الفقيه التابعي الكبير قال هذه المقولة العظيمة: (مَن قطع تميمة من إنسان كان كعدل رقبة) رواه وكيع، وابن أبي شيبة. قال: (مَن قطع تميمة من إنسان) وقطعها: إمّا بأمر فاعلها أن يقطعها، فإذا أمرتَ فاعلها أن

يقطها وبيّنتَ له أنها شرك فقطعها فقد قطعتها أنت. أو أن يقطعها الإنسان بنفسه إذا أَمِن الفتنة.

طيِّب؛ ما وجه أنّ مَن قطع تميمة من إنسان كان كعدل رقبة، يعني كمن أعتق رقبة، ومن اعتق رقبة أُعتِق بها يوم القيامة؛ ما وجه هذا؟ قالوا: وجه هذا أنّ مَن تعلَّق تميمة فقد أشرك، فإذا قطعتَ عنه التميمة فقد أعتقته من الشرك وهذا أعظم في الحقيقة من العتق الحسي.

عتق المسلم من الشرك أعظم من عتقه من الرِّق؛ لأنّ الرق ذلٌّ في الدنيا، أمّا الشرك فذلٌّ في الدنيا والآخرة. ولذلك شيخنا الشيخ ابن باز –رحمه الله– لمّا علّق على هذا قال: "هو أعظم من عتق الرقبة"؛ أن تعتق مسلمًا من الشرك أعظم من عتق الرقبة.

وكلما عظم نوع الشرك كلما عظم الثواب، يعني أن تُخرِج مسلمًا يقع في الشرك الأكبر ربما لا يدري؛ فتأتي إليه وتبيِّن له أنّ العكوف على القبور والنذور لها والسؤال لها شرك أكبر؛ فيفتح الله قلبه فيترك هذا؛ هذا أعظم لك من أن تعتق رقابًا كثيرة.

ولا شك أنّ المعنى صحيح؛ وإن كان هذا ليس حديثًا ولا أثرًا عن صحابي، وإنما هو قول تابعي، وقول التابعي ليس حجة ولكنّ معناه صحيح ولا شك إذا نظرنا إلى حقيقة الأمر.

قال رحمه الله: [وله عن إبراهيم قال: كانوا يكرهون التمائم كلها من القرآن وغير القرآن]

(له) أي لوكيع عن إبراهيم النخعي، وقد تقدَّم أنّ الشيخ الألباني –رحمه الله– قال: بسند صحيح، (كانوا) أي الصحابة، حيث لم يَثبت عن أحد من الصحابة أنه جوَّز تعليق التميمة من القرآن، فقالوا: إذن (كانوا) يعني الصحابة. (يكرهون) أي يمنعون، والكراهية عند السلف تعني المنع والتحريم في الأصل. (يكرهون) أي يمنعون ويحرمون، (التمائم كلها) وهذا يدل على العموم، ثم أكد العموم فقال: (من القرآن، وغير القرآن).

وقال بعض أهل العلم: (كانوا) أي أصحاب ابن مسعود، وهذا عند مَن ظن أنه ثبت عن ابن عمرو أنه أجاز ذلك؛ فقال: يقصد أصحاب ابن مسعود. ولا شك أنّ ابن مسعود وأصحابه كانوا يحرمون التمائم كلها.

لكنّ الأقرب –والله أعلم– أنّ هذا عائد إلى مَن أدركهم إبراهيم النخعي من الصحابة –رضوان الله عليهم– وهو يحكي عن الصحابة. وقد ذكرتُ لكم في

الدرس أمس أنّ ابن مسعود –رضي الله عنه– أنه صح عنه أنه منع التميمة من القرآن، ولا يُعرَف له مخالِفٌ من الصحابة، يعني ثبت ذلك عنه؛ فيكون ذلك إجماعًا.

قال رحمه الله: [فيه مسائل: الأولى: تفسير الرقى وتفسير التمائم]

وقد تقدم معنا.

[الثانية: تفسير التولة]

وقد تقدمت، وبيّنا أنها من السحر. ولا زال هذا للأسف في المسلمين، بل هو أكثر السحر ظهورًا؛ ولا سيما بين النساء.

قال رحمه الله: [الثالثة: أنّ هذه الثلاث كلها من الشرك من غير استثناء]

والتولة يا إخوة يجب علينا أن نحذِّر منها، وأن نبيِّن للمسلمين أنها كفر، لأنّ بعض النساء تقول: أنا ما صنعتُ شيئًا؛ أنا جعلتُ زوجي يحبني؛ وهو زوجي! نقول: لا، لمّا سحرتي وقعتي في الكفر، وفعلتِ كفرًا حتى لو كان المقصود أن يحبك زوجك.

قال رحمه الله: [الرابعة: أنّ الرقية بالكلام الحق من العين والحمه ليس من ذلك]

يظهر –والله أعلم– أنّ شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب –رحمه الله– يرى أنّ الرقية الجائزة هي رقية العين والحمى فقط، وهو قول لبعض أهل العلم؛ لقول النبي –صلى الله عليه وسلم–: «لا رقية إلا من عين أو حمة». وقد تبيَّن لنا فيما سبق أنّ الحمة: إمّا أنها السم أو ذوات السموم، فتكون الرقية من اللدغ. لكن كما تقدَّم معنا: الرقية الجائزة أوسع من هذا.

قال رحمه الله: [الخامسة: أنّ التميمة إذا كانت من القرآن فقد اختلف العلماء هل هي من ذلك أم لا]

وقلنا لكم اختلف العلماء من زمن التابعين، أمّا زمن الصحابة فلم يثبت الاختلاف؛ وإنما ثبت تحريم ابن مسعود لها، لكن من زمن التابعين وقع اختلاف، إلى يومنا هذا والعلماء مختلفون في تعليق التميمة من القرآن. وبيّنا لكم أنّ الراجح أنه حرام؛ ودللنا على ما قلنا.

قال رحمه الله: [السادسة: أنّ تعليق الأوتار على الدواب عن العين من ذلك]

نعم؛ من التمائم المحرمة. وليس المقصود أنه من المختلَف فيه؛ وإنما المقصود أنه من التمائم المحرَّمة التي هي شرك.

قال رحمه الله: [السابعة: الوعيد الشديد على من تَعلَّق وترًا]

نعم؛ لأنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: «فإنّ محمدًا بريء منه»؛ ولا شك أنّ هذا وعيد شديد.

قال رحمه الله: [الثامنة: فضل ثواب مَن قطع تميمة من إنسان]

نعم؛ وهو أنه يكون كعدل رقبة؛ يعني كثواب العتق، وقلنا إنّ شيخنا ابن باز –رحمه الله– يقول: هو أعظم من ثواب العتق. وهنا ليس استدلالًا بهذا الأثر لأنّ الأثر ليس فيه حجة؛ ولكن استدلال بما في الأثر من صحة؛ فإنّ ما فيه صحيح.

قال رحمه الله: [التاسعة: كلام إبراهيم لا يخالف ما تقدَّم من الاختلاف؛ لأنّ مراده أصحاب عبد الله]

هذا مبني كما قلتُ لكم يا إخوة على أنّ الصحابة قد اختلفوا في المسألة، وأنّ ابن عمرو جاء عنه جواز التعليق؛ فيُحمَل هذا الأثر على أنّ المقصود به: أصحاب ابن مسعود رضي الله عنه. لكن بيّنتُ لكم أنّ المنسوب إلى ابن عمرو لم يَثبُت.

ولذلك نحن نقول: إجماع الصحابة في ظاهره سَبَقَ خلاف العلماء الذين بعدهم.

تابع الدرس الثالث عشر: باب: مَن تبرَّك بشجرة أو حجر ونحوهما

قال رحمه الله: [بابٌ: مَن تبرَّك بشجرة أو حجر ونحوهما]

نعم؛ تقدّم معنا يا إخوة أنّا ذكرنا لكم أنّ الشيخ يذكر في الأبواب ما يكثر وقوعه ممن ينتسبون إلى الإسلام وهو ينافي التوحيد.

فبدأ ببيان أنّ من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما؛ لرفع البلاء أو دفعه؛ لأنّ هذا يكثر في الأمة كثيرًا، ثم عقَّب بهذا الباب؛ لأنّ التبرُّك بالأماكن والقبور والأحجار المبنية على القبور والحديد في بعض الأماكن كثيرٌ في الأمة. وإن شئتَ انظر في إخواننا الذين يقدمون من بعض البلدان عندما يصلون إلى مكة والمدينة، تجد أنهم يمرون بهذه الحيطان ويلمسون هذه الحيطان، وإذا جاؤوا عند هذه الأبواب المصنوعة في خارج المدينة بل في خارج البلاد يتمسّحون بها، وربما وضع خده عليها! فضلًا عن المحراب العثماني الموجود في طرف الروضة؛ يظنونه محراب النبي صلى الله عليه وسلم؛ وليس كذلك؛ فلم يكن للنبي –صلى الله عليه وسلم– محرب في المسجد هكذا بهذه الصورة، هذا حدث متأخرًا، ويتمسّحون به. فضلًا عما تراه من تمسح ببلاط الحرم ونحو ذلك. فهذا التبرك بالأحجار والأشجار والحديد والقبور كثير في الأمة، ولا زال كثيرًا. فالأمر بحاجة إلى التنبيه عليه، فذكره الشيخ –رحمه الله– هنا.

والشيخ هنا ينوّع في الأساليب في التبويب؛ لأنه هنا لم يقل: بابٌ من الشرك التبرك بشجر وحجر ونحوهما –كما قال في الباب السابق الذي قبل الذي قبله– ولو قال لكان صحيحًا، لكنه ينوّع في الأسلوب، وهو هنا بوّب بأسلوب بديع جميل؛ لأنه ترك معرفة الحكم للقارئ من خلال النصوص، فكأنه يقول للقارئ: يا أيها القارئ الكريم أتريد أن تعرف حكم التبرك بالشجر والحجر؟ انظر بنفسك؛ قال الله تعالى كذا، قال النبي صلى الله عليه وسلم كذا، فاحكم بنفسك بما تسمع من قول الله وقول رسوله صلى الله عليه وسلم.

وتقدير الباب: مَن تبرك بشجر أو حجر ونحوهما فقد أشرك، أو: مَن تبرك بشجرة أو حجر ونحوهما فما الحكم؟ وهذا على أنّ "مَن" هنا شرطية تحتاج إلى جواب.

أو يكون التقدير: بيان حال من تبرّك بشجرة أو حجر، وهنا تكون "من" موصولة. بيان حال الذي تبرك بحجر أو شجر؛ ما حاله في الإسلام؟

والتبرُّك أيها الأحبة؛ هو: طلب حصول البركة. والبركة في اللغة: النماء والكثرة والزيادة والثبات والاستقرار.

أمّا النماء والكثرة والزيادة فالبركة هنا مأخوذة من البِرْكَة، والبِرْكة: مكان اجتماع الماء الكثير؛ وهو ينمو ويكثر بنزول المطر، فالبَرَكة هنا بمعنى: النماء

والكثرة والزيادة. وأمّا الثبات الاستقرار فهو من بروك البعير؛ لأنّ البعير إذا بَرَك ثبت واستقر.

إذن؛ البركة معناها في اللغة: النماء والزيادة والكثرة والثبات والاستقرار.

ومعنى التبرُّك: طلب حصول الخير وكثرته ونمائه وثباته واستقراره. معنى التبرك: أنك تطلب أن يحصل لك الخير، قطعًا التبرك ليس فيه طلب حصول الشر، التبرك أنك تطلب حصول الخير؛ بجلب الخير أو دفع الضر. و كثرته؛ تريد أن يزيد رزقك أو أن يكثر أولادك. ونمائه وثبوته واستقراره.

والبركة ثابتة أيها الإخوة، فالله بارَك فيمَن شاء مِن مخلوقاته، ولا شك في ثبوت البركة، وهي تنقسمن إلى أقسام:

١. بركة شرعية.

٢. بركة دنيوية.

ما هي البركة الشرعية؟ هي البركة التي تحصل من جهة الشرع وتتعلق بالشرع؛ كبركة الأعمال الصالحة.

الصلاة فيها بركة، وهذه بركة شرعية، وتتعلق بالشرع؛ تتعلق بفعل الصلاة.

بركة المدينة بركة شرعية؛ ولكنها تتعلق بالشرع وتتعلق بالدنيا.

فالبركة التي في المدينة تتعلق بالشرع، فمن بركة المدينة التي تتعلق بالشرع: أنك إذا صليتَ في مسجد النبي –صلى الله عليه وسلم– بورك في صلاتك، فصلاتك في مسجد النبي –صلى الله عليه وسلم– خير من ألف صلاة فيما سواه إلا في المسجد الحرام.

والبركة التي تتعلق بالدنيا في المدينة: الكيل والوزن. فالكيل في المدينة مبارك، والعيش في المدينة مبارك. ولكنّ الأصل أنها بركة شرعية.

وأمّا البركية الدنيوية: فهي البركة التي تتعلق بأمور الدنيا؛ كبركة المطر، المطر ماء مبارك، وبركته تتعلق بأمور الدنيا من نبات الزرع وحصول الحياة ونحو ذلك، وإن كان فيه بركة شرعية من جهة الوضوء به والغسل ونحو ذلك، ولكنّ الأصل أنّ البركة دنيوية.

أيضًا؛ تنقسم البركة إلى:

١. بركة ذاتية.

٢. وبركة عمل.

فالبركة الذاتية: هي التي تكون الذات فيها مبارَكة. كذات النبي صلى الله عليه وسلم، فذات النبي –صلى الله عليه وسلم– مباركة، اللهُ بارك النبيَّ صلى

الله عليه وسلم. وبركة الكعبة، فالكعبة مباركة، ذاتها مباركة. والمسجد الحرام، والمسجد النبوي، فهنا الذات مباركة.

وأمّا بركة العمل؛ فهي التي تكون حاصلة بسبب الأعمال الصالحة؛ كبركة المسلم، هل في المسلم بركة؟ نعم، ثبت في الحديث الصحيح أنّ للمسلم بركة، ثم يتفاضل المسلمون في البركة، ولذلك قال النبي –صلى الله عليه وسلم–: «البركة مع أكابركم»؛ فالمسلمون فيهم بركة، لكن هذه بركة عمل ليست بركة ذات. فذواتنا تزكّى بالأعمال الصالحة؛ لكنّ بركة المسلم بعمله الصالح؛ بالتوحيد، بصلاته، بزكاته، بصيامه، بحجه.

والمتقرِّر المقطوع به أيها الإخوة بالأدلة اليقينية: أنّ الذي يبارِك هو الله وحده لا شريك له، فلا مخلوق يبارِك؛ وإنما الذي يبارِك: الله، الله يبارِك، والمخلوق يبارَك.

النبي صلى الله عليه وسلم–وهو أفضل المخلوقات– ما بارَك نفسه، الذي بارَكه هو الله، والمسلمون كانوا يدعون له بالبركة ولا زالوا يدعون: "اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد".

إذا تقرَّر هذا؛ فإنه يترتب على ذلك أمران عظيمان في باب التبرك:

الأمر الأوّل: أنّ البركة لا تثبت إلا لمن أثبت اللهُ له البركة؛ من الأمكنة والأزمنة والبشر. لا تَثبت البركة بالرأي ولا بالهوى؛ وإنما تثبت لمَن أثبت الله له البركة.

والأمر الثاني: أنّ البركة لا تُطلَب إلا من الله سبحانه وتعالى. فمَن طلب البركة من غير الله، أو اتخذ سببًا لحصول البركة لم يجعله الله سببًا لحصولها؛ فقد أشرك.

مَن طلب البركة مِن غير الله؛ فطلب من مخلوقٍ أن يبارِكه؛ فقد أشرك.

أو اتخذ سببًا لحصول البركة لم يجعله الله سببًا؛ وهو هنا يا إخوة:

– إن اعتقد أنّ المخلوق يَهَب البركة بذاته وتُحصَّل منه البركة بذاته؛ فهذا شرك أكبر؛ لأنه جعل ما لله لغير الله، وهذا أظلم الظلم. الذي يعتقد أنّ المخلوق بذاته يبارِك ويعطي البركة بذاته هذا شرك أكبر.

– وإن اعتقد أنّ المخلوق واسطة بينه وبين الله يتقرب بها إلى الله، يذهب إلى القبور يتبرك بها ويقول: هؤلاء واسطة بيننا وبين الله نتقرب إلى الله بهم؛ فهذا شرك أكبر؛ كشرك المشركين؛ يقولون: ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾. نعوذ بالله من هذا القول ومن هذا الفعل.

- وإن اعتقد أنّ المخلوق سببٌ لحصول البركة من الله؛ فهو يعتقد أنّ البركة من الله وأنّ هذا المخلوق مجرد سبب، ليس واسطة بينه وبين الله؛ مجرد سبب، مثل كون الدواء سببًا للشفاء؛ فهذا شرك أصغر.

الذي يأتي عند القبر ويأخذ من التراب ويضعه على رأسه يتبرّك، ويعتقد أنّ وضع التراب هذا سبب لأن ينزل الله عليه البركة، ما اعتقد أنّ البركة من صاحب القبر يعطيها له ولا أنه واسطة بينه وبين الله، لكن اعتقد أنّ تراب قبر الرجل الصالح سبب لنزول البركة من الله؛ فهذا شرك أصغر؛ لأنه جعل سببًا ما لم يجعله الله سببًا شرعًا ولا قدرًا؛ فلا يكون ذلك إلا من تعلُّق القلب والعقيدة؛ فهو شرك أصغر. هذا التبرك الممنوع.

أما التبرك المشروع الذي شرعه الله عز وجل –واضبطوا ما أقول– فهو: اتخاذ سببٍ لحصول البركة من الله لأنّ الدليل دل على أنّ هذا السبب مبارَك وتُلتَمس فيه البركة؛ بشرط أن يكون هذا الاتخاذ على الوجه المشروع.

ما هو التبرك المشروع؟ اتخاذ سبب لحصول البركة من الله لأنّ الله –عز وجل– قد جعله مبارَكًا فجعل فيه بركة تُلتَمس؛ بشرط: أن يكون ذلك على الوجه المشروع.

أضرب لكم أمثلة، أن تتخذ سكناك المدينة سببًا لحصول البركة؛ لأنّ الله -عز وجل- جعل في المدينة ضعفي ما في مكة من البركة بدعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتسكن في المدينة وتصلي في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم؛ هذا تبرك مشروع؛ لأنك جعلتَ المدينة سببًا لحصول البركة من الله، ما اعتقدتَ انّ المدينة تباركك، ولا أنها من الوسطاء، وإنما هي سبب، وقد جعلها الله سببًا بما جعل فيها من البركة.

"على الوجه المشروع"؛ ما معنى هذا؟ لو أنك جئتَ وسكنت في المدينة، والمدينة مباركة، وأخذت التراب وأصحت تأكل من تراب المدينة؛ وتقول: المدينة مباركة! وتضع التراب على رأسك وتقول المدينة مباركة! هذا تبرك ممنوع؛ لماذا؟ لأنك تبركتَ بالمدينة على غير الوجه المشروع؛ وهو التبرك بترابها وحجرها، فإنّ هذا لم يثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم.

فإن قال قائل: ثبت عن النبي –صلى الله عليه وسلم– أنه كان يَبلّ ريقه ويأخذ شيئًا من التراب ويقول: «بسم الله ربنا، بتربة أرضنا، وريقة بعضنا؛ يُشفى مريضنا بإذن ربنا»؟ قلنا: هذا ليس تبركًا بالأرض وإنما هذا علاج؛ أن يجمع بين الريق والتراب، وهذا في أيّ مكان ليس خاصًّا بالمدينة.

طيِّب؛ الحجر الأسود والكعبة، الحجر الأسود مبارَك، إذا ذهبت وقبَّلت الحجر الأسود تلتمس بركته بأن يكتب الله لك ثواب السُّنة، وأن يحط الله عنك

الخطايا، وأن يشهد لك الحجر الأسود يوم القيامة؛ هذا تبرك مشروع؛ لأنك تبركت بالحجر الأسود وجعلته سببًا لحصول هذا الثواب لأنّ الله جعل له ذلك وفعلته على الوجه المشروع.

لكن لو أنك أصلع وجئت للحجر الأسود قبّلته ثم وضعت صلعتك على الحجر الأسود تتبرك بالحجر الأسود ليطلع لك شعر؟ أو مريض عندك جروح في يدك فأصبحت تمسح بالحجر الأسود تتبرّك حتى يُشفى جرحك؟ فعلتَ في محظورين: آذيت المسلمين بما مسحته في الحجر، والتمست بركة من الحجر على غير الوجه المشروع.

ولذلك؛ عمر –رضي الله عنه– لمّا جاء يقبل الحجر الأسود ماذا قال؟ قال: (والله! إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يقبلك ما قبلتك)؛ فجمع بين فعل المشروع، وترك الممنوع وهو أن تتبرك بالحجر الأسود بقصد دفع ضر أو جلب نفع.

لو أنّ إنسانًا ذهب إلى ما يسمى بحِجر إسماعيل، وصار يقبّل الحِجر؛ يقول: أتبرك بالكعبة لأنّ الكعبة مباركة! قلنا: نعم الكعبة مباركة لكن تبرَّكت على غير الوجه المشروع، فيكون ذلك ممنوعًا.

إذن؛ التبرك المشروع يا إخوة؛ لا بد فيه من صفات:

الصفة الأولى: أن يثبت أنّ الشيء مبارك؛ زمانًا أو مكانًا أو ذاتًا.

فإذا جاءنا إنسان وزعم أنّ شيئًا مباركًا ولم يدل عليه دليل؛ قال: العشر الأيام الأُوَل من ربيع الأول مباركة! أو قال: العشرة الأواسط من ذي القعدة مباركة! نقول: مِن أين لك؟ الذي يبارِك هو الله، من أين لك؟ هات دليل، ولا دليل. ولكن الذي يأتي ويقول: رمضان مبارَك؛ نقول: على الرأس والعين، الذي يقول: ليلة القدر مبارَكة؛ نقول: على الرأس والعين، الذي يقول: المدينة مبارَكة؛ نقول: على الرأس والعين. لأنّ الدليل دل على أنها مباركة.

الأمر الثاني: أن يدل الدليل على أنّ هذه البركة تُطلَب وتُلتمَس. فقد يثبت الدليل على أنّ الشيء مبارَك، لكن لا يدل الدليل على أنّ هذه البركة تُطلَب.

مثل بركة المسلم؛ المسلم مبارَك بالعمل. لكن لو أنّ إنسانًا جاء إلى شخص يرى أنه صالح من الصالحين لأنه يراه يبكّر إلى المسجد وكذا؛ وقال: اتفل عليّ لأنك مبارك! نقول: هذا تبرك ممنوع. أو قال: توضأ واترك لي بقية وضوئك أريد أشربه فبطني تؤلمني وأنت مبارك! نقول: لا، لم يدل الدليل على أنّ هذه البركة تُطلَب وتُلتمَس.

طيِّب؛ فإن قال قائل: الصحابة كانوا يتبركون بما انفصل عن النبي –صلى الله عليه وسلم– من عرق وريق ووَضوء وشَعر؟! قلنا: نعم، البركة في

النبي –صلى الله عليه وسلم– كانت متعدية، لكن مَن الذي يَقرُب من النبي –صلى الله عليه وسلم– فضلًا عن أن يساويه؟! كيف نقيس غير النبي –صلى الله عليه وسلم– على النبي؛ والنبي –صلى الله عليه وسلم– لا يدانيه أحد؟! بل لو أنّ الأمّة كلها اجتمعت في رجل واحد لَمَا اقترب من النبي صلى الله عليه وسلم؛ فضلًا عن أن يساويه، وشرط القياس: المساواة.

ثم إنّ الصحابة أجمعوا على أنّ هذا خاص بالنبي صلى الله عليه وسلم، ولذلك أبو بكر الصديق رضي الله عنه –وهو رجل مبارك– ما كان الصحابة يتبركون بما ينفصل عنه، فمِن باب أولى مَن بعده، فإنّ كل من جاء بعد أبي بكر الصديق –رضي الله عنه– لن يكون قريبًا من أبي بكر الصديق رضي الله عنه، من باب أولى مَن جاء بعد الصحابة؛ فإنّ من جاء بعد الصحابة لو أنفق مثل جبل أحد ذهبًا ما بلغ مُدّ أحد الصحابة أو نصيفه.

فإن قال قائل: جاء حديث، قلنا: ما هو هذا الحديث؟ قال يقولون –يزعمون–: أنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: "لو اعتقدتَ في حجر لنفعك"، يقولون: إذا كان هذا في حجر من باب أولى إذا كان في الصالحين! نقول: هذا مكذوب على النبي صلى الله عليه وسلم، ما قال النبي –صلى الله عليه وسلم– ذلك.

فإن قال قائل: إنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– كان يَبعث إلى المطاهر يؤتى بالماء يلتمس بركة المسلمين! يذكرون حديثًا في هذا: أنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– كان يرسل إلى المطاهر –يعني الأماكن التي يتوضأ فيها المسلون– ليؤتى بالماء ليلتمس بركة المسلمين! قلنا: هذا الحديث منكر ولا يمكن أن يكون، فهو غير ثابت، ثم هو في ذاته لا يمكن، النبي –صلى الله عليه وسلم– مبارَك يذهب يطلب الماء مِن المطاهر يلتمس بركة المسلمين؟! هذا لا يليق بمقام النبي صلى الله عليه وسلم. فهذا غير ثابت.

إذن؛ الصفة الثانية: أن يدل الدليل على أنّ هذه البركة تُلتمَس.

فلو جاءنا شخص وقال: أنا ألتمس من هذا المسلم البركة –مثل ما يفعل بعض إخواننا إذا سلم على الشيخ أو سلم على رجل دعك يده وربما قال كذا وربما مسح يلتمس البركة؛ لأنّ فيه بركة؛ لأنه مسلم ولأنه صالح! نقول: لم يدل الدليل على أنّ هذه البركة تُلتمَس.

الصفة الثالثة: أن يكون الالتماس على الوجه المشروع. فلو جاءنا شخص وقال: الكعبة مباركة؛ قلنا: على الرأس والعين، قال: وفيها بركة تُلتمس؛ قلنا: على الرأس والعين، قال: إذن أنا أُقطّع ثوب الكعبة! مثل ما يفعل بعض الزوار وبعض الحجاج يأتون بمقصات، يجعلونها في جيوبهم، وإذا جاء يضع رأسه على الكعبة كأنه خاشع؛ ويقص من ثوب الكعبة، ثم يذهب إلى

بلاده ويضع هذا في قارورة ويعالج الناس بمبالغ باهظة، يزعم أنها بركة! هذا فعل ظلمات بعضها فوق بعض؛ أولًا: أنه لِصّ ويسرق من بيت الله، ثانيًا: تبرك بالكعبة على غير الوجه المشروع، فهذا تبرك ممنوع.

لكن لو أنك طفتَ بالكعبة؛ فهذا تبرك مشروع؛ لأنك فعلته على الوجه المشروع. قبلت الحجر الأسود: تبرك مشروع. مسحت الركن اليماني: تبرك مشروع. لكن إذا تمسحت ببقية الكعبة: تبرك ممنوع؛ لأنك فعلته على الوجه غير المشروع.

وكلُّ هذا يا إخوة؛ مبنيٌّ على أصل عظيم؛ وهو: أنّ الخير مِن الله لا يُعرَف إلا من طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم.

الذي علَّمنا هو رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بوحي من الله، فالذي يأتينا بشيء لم يأتِ من طريق رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يزعم أنه بركة، أنه سبب للبركة، أنه مبارك، قلنا له: أين الطريق الصحيح؟ قال: أنا رأيت في المنام! قلنا: ما كانت المنامات نورًا للطريق الصحيح، قال: أنا شيخي قال لي، قلنا: مَن قال لشيخك؟ قال: جبريل! نعم بعضهم يقول: شيخنا يحدثه جبريل! ولذلك يقولون: نحن أولى منكم بالحلق لأنكم أنتم تروون عن ميت عن ميت؛ وأمّا شيخنا فيأخذ عن حي عن الله! يأخذ عن جبريل عن الله! قلنا: هذه فرية أعظم من فعلكم؛ أن تكذبوا على الله أنه يوحي إلى شيخكم عن طريق جبريل –

عليه السلام– وأن تكذبوا رسول الله –صلى الله عليه وسلم– في قوله: «وأنه لا نبي بعدي».

إذن يا إخوة؛ مَن أراد إحكام الحق فعليه بلزوم طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإياه والهوى، وإياه والآراء، وإياه والظنون؛ فإنها طريق الشرك بالله عز وجل.

وهذا ما سيتبيّن لنا –إن شاء الله– في قراءة هذا الباب العظيم غدًا بحول الله وقوته. ونقف هنا، ونجيب عن بعض أسئلة إخواننا. والله أعلم. وصلى الله على نبينا وسلم.

الدرس الرابع عشر: تابع شرح باب: مَن تبرَّك بشجرة أو حجر ونحوهما

بسم الله الرحمن الرحيم

درسنا هو في شرح كتاب التوحيد. أسأل الله –عز وجل– أن يجعلني وإياكم من محبي التوحيد ومن محققي كماله.

ولا زلنا نقف عند باب عظيم؛ وهو: (مَن تبرَّك بشجرة أو حجر أو نحوهما)؛ ما حكمه؟ وقد بيّنا أيها الإخوة معنى البركة وأنواع البركة.

وقلنا إنّ البركة ثابتة، ولا ينكرها مسلم، فالله –عز وجل– بارَك من شاء من خلقه.

وقلنا إنّ الذي يبارِك هو الله وحده لا شريك له، وأنّ المخلوق يبارَك، فالله –عز وجل– يباركه، وقلنا أنّ البركة لا تُطلَب إلا من الله؛ لأنّ الله –عز وجل– هو الذي يبارِك. فمَن طلب البركة من غير الله فقد أشرك، الذي يأتي لرجل فيقول: باركني! أنزل عليّ البركة! هذا شرك. أو اتخذ سببًا لنزول بركة الله لم يجعله الله سببًا؛ هذا شرك.

وقد قلنا يا إخوة: إن اعتقد أنّ البركة تحصل من المخلوق ذاته وأنّ هذا المخلوق يَهَب البركة لمن يشاء ويبارِك من يشاء؛ فهذا شرك أكبر؛ لأنه جعل ما لله جعله للمخلوق.

وإن اعتقد أنّ هذا المخلوق واسطة بينه وبين الله؛ فهذا أيضًا شرك أكبر؛ لأنه جعل المخلوق واسطة بينه وبين الله يتقرب به إلى الله؛ وهذا فعل المشركين.

وإن اعتقد أنّ المخلوق سبب لنزول بركة الله؛ فهذا قلنا إنه شرك أصغر؛ لأنه اتخذ سببًا لم يجعله الله سببًا لا شرعًا ولا قدرًا؛ فيكون شركًا أصغر.

وقلنا: إنّ التبرك المشروع –بمعنى يا إخوة: هناك تبرك مشروع– وهذا التبرك المشروع الذي فيه الخير والبركة قلنا فيه صفات أربع –أنا أظن قلتُ ثلاث، واختصرت شيئًا ذكرته في التعريف– :

الأمر الأوّل: أن يَثبُت أنّ هذا الشيء مبارَك بالدليل، أنّ هذا المكان مبارَك، أنّ هذا الزمان مبارَك، أنّ هذا العبد مبارَك؛ بالدليل.

فإذا جاءنا إنسان وادّعى أنّ شيئًا مبارَك؛ طالبناه بالدليل؛ فإن جاء بالدليل صحَّ قوله، وإن لم يأتِ بالدليل فلا يُقبَل قوله.

الأمر الثاني: أن يَثبُت بالدليل أنّ هذه البركة تُطلَب، يعني غيره يطلبها ويلتمسها، فيَثبُت ذلك بالدليل.

الأمر الثالث: أن يلتمس هذه البركة بالوجه المشروع. فإذا ثبت بالدليل أنّ هذه البركة تُلتمَس وبوجهٍ معيّن جاز التماسها.

مثلًا؛ نحن نلتمس البركة في المدينة؛ لأنه ثبت بالدليل أنّ المدينة مباركة، بل لا توجَد مدينة على وجه الأرض أعظم بركة من المدينة حتى مكة؛ لأنّ الله جعل في المدينة ضعفي ما في مكة من البركة؛ إلا ما اختُصت به مكة وهو ما يتعلّق بالصلاة في المسجد الحرام. وهذه البركة تُلتمَس ولكن بالوجه المشروع، الوجه المشروع: بالسكنى، بالصلاة في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم، بالصلاة في مسجد قباء.

لكن لو جاءنا إنسان يضع التراب على رأسه أو يسفُّه أو يضع التراب في أكياس ويأخذه إلى بلده ويبيعه يقول: تربة المدينة! قلنا: هذا ممنوع؛ لأنّ هذا ليس مشروعًا وعلى غير الوجه المشروع.

قلت لكم: عندما نذهب إلى مكة عندما نأتي إلى الحجر الأسود نلتمس البركة، وهذه البركة موجودة في الحجر الأسود وتُلتمَس؛ لكن بماذا؟ بتقبيله توحيدًا وسنّة أو باستلامه توحيدًا وسنّة، فتُحَط عنا الخطايا -إن شاء الله- ويَشهد لنا. لكن لو أنّ إنسانًا التمس بركة الحجر الأسود في الشفاء؛ أن يُشفى من مرضه؛ فهذا غير مشروع.

والأمر الرابع: -الذي ذكرتُه في التعريف وعندما فصّلت لم أنبه عليه فيما أحسِب- وهو: أن يكون ذلك على سبيل السببية؛ بمعنى: أن تعتقد أنّ البركة من

الله، وهذا المبارَك سبب، جعله الله سببًا، فلا تعتقد أنّ البركة منه وإنما تعتقد أنّ البركة من الله، وهذا سبب، قد دلك الدليل على أنه سبب.

فإذا اجتمعت هذه الأمور الأربعة:

١. ثبت أنّ الشيء مبارَك.

٢. وأنّ بركته تُطلَب.

٣. وطُلِبَ على الوجه المشروع.

٤. واعتُقِد أنه سبب، وأنّ البركة من الله.

فهذا تبرُّك مشروع.

وقد وقفنا عند هذا الموقف ولم نشرح النصوص التي ذكرها الشيخ، وهي نصوص عظيمة، نقرأها ونقف عندها إن شاء الله. فيتفضل الشيخ ياسين –وفقه الله– يقرأ لنا.

قال الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب –رحمه الله– في باب (مَن تبرك بشجرة أوحجر ونحوهما): [وقول الله تعالى: ﴿أفرأيتم اللات والعزى﴾ الآيات]

نعم؛ يا إخوة! بعض النسخ عندكم فيها كما قرأ الشيخ ياسين، وبعض النسخ أُكمِلت الآيات، لكن الظاهر أنّ الشيخ اقتصر على صدر الآية ثم قال: "الآيات"؛ يعني أكمِل الآيات.

﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (٢٢) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾. ﴿أفرأيتم﴾ هذا الخطاب للمشركين، وذلك أنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– قد رأى من آيات ربه الكبرى، ورأى المعجزات العظيمة، فجاء الخطاب: ﴿أفرأيتم اللات والعزى﴾، أفرأيتم آلهتكم هذه ألها آيات؟ ليس لها آيات لا كبرى ولا صغرى، لا تنفع نفسها.

وذكرتُ لكم يا إخوة أنّي مرة كنتُ في بلد من البلدان، وهذا البلد يعبد أغلب أهله بوذا، ويضعون صنمًا عند باب البيت، وكنّا في جامعة من الجامعات، هذه الجامعة فيها كلية للشريعة؛ لأنّ فيه مسلمين، والكلية بوذية، فنرى الأساتذة في الصباح عندما نذهب للكلية يخرجون ومعهم صحن فيه تفاحة وكأس ماء، ويضعونها عند الصنم هذا الذي عند الباب! طيِّب هذا أول أمر! هذا محتاج إليك أن تأتيه بالتفاح ما يستطيع أن يأتي لنفسه بالتفاح! كيف تعبده؟! مع ذلك؛ يأتون في المساء ويجدون التفاحة كما هي، ويأخذونها بصحنها ويدخلونها

البيت! هل للأصنام هذه الآلهة آيات؟ ليس لها آيات. هذا وجه قاله بعض أهل العلم.

وقال بعض أهل العلم ﴿أفرأيتم اللات والعزى﴾ أي أخبروني عن اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى؛ أخبروني عنها.

و﴿اللات﴾: إمّا أن يقال "اللاتْ" بسكون التاء؛ يعني بالتخفيف. قيل: إنها مِن اسم الله، وأضافوا التاء للتأنيث، فأصبحت: اللاتْ؛ لأنهم يؤنثونها.

وقُرئت: "اللاتّ" بتشديد التاء، واللاتّ: هو رجل كان يَلُتُّ السويق للحجاج على صخرة في الطائف، كان يلتُّ السويق للحجاج، فإذا قدم الحجاج يأكلون هذا السويق، فمات، فدُفن بجوار الصخرة، فعُبِد قبره، ثم انتقلت العبادة إلى هذه الصخرة التي هي بجوار القبر، وهي صخرة قيل أنها مربعة بيضاء عليها نقوش وعليها بناء وأستار. قيل: إنّ قريشًا كانت تعبده؛ يعني اللاتّ. وقيل: إنّ أهل الطائف كانوا يعبدونه.

و﴿العزَّى﴾ قيل: مِن اسم العزيز. وقيل لها العزى من أجل التأنيث. وهي: شجرات قيل إنها من شجر السمر، ثلاث شجرات، وكان عليها بناء وأستار. وقيل: كانت العزى حجرًا أبيض وبُنِي عليها. والعزى آلهة قريش.

وأمّا ﴿مناة﴾: فهي بيت كان يعبده الأنصار، وعليه بناء. قيل: سُميت مناة مِن اسم الله المنان، وأضيفت التاء للتأنيث. وقيل: مِن كثرة ما يُمنى عندها من الدماء؛ أي يراق، مِن كثرة ما يُذبَح عندها من الدماء. وقيل: سمِّيت مناة مِن النَّأي؛ وهو البُعد؛ لأنها كانت أبعد الأصنام عن مكة. وقيل: مِن الأنواء؛ لأنهم كانوا يَستقسِمون عندها مِن الأنواء.

﴿ومناة الثالثة الأخرى﴾ "الأخرى" هنا: يعني البعيدة؛ لأنها كانت الأبعد عن مكة.

كانوا يسمونها بأسماء مؤنثة، ويزعمون –وبئس ما زعموا– أنهن بنات الله؛ ولذلك يسمونها بأسماء مؤنثة، مع أنهم يكرهون الإناث: ﴿وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودًا وهو كظيم من سوء ما بُشر به﴾، ما يحبون الإناث؛ ومع ذلك من قبح ما يفعلون جعلوا الإناث لله؛ وقالوا: لله بنات، وهم يكرهون البنات!

﴿ألكم الذكر وله الأنثى﴾ يعني تجعلون الذكور لكم وتكرهون الإناث لكم وتجعلون الإناث لله؟! ﴿تلك إذن قسمة ضيزى﴾ قال بعض أهل العلم: يعني عوجاء. وقال بعض أهل العلم: يعني غير مستقيمة. وقال بعض أهل العلم: يعني ناقصة. وقال بعض أهل العلم: يعني ظالمة. وقال بعض أهل العلم: يعني أنها على غير استقامة. يعني كل هذه المعاني صحيحة.

ماهي هذه اللات والعزى؟ ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴾ ما هي؟ فجاء الجواب: ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ﴾ ما هي إلا أسماء، ﴿سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴾، لا أمركم الله بها، ولا دلَّكم عليها، مِن أين جاءت؟ جاءت من الظنون وهوى الأنفس، وهي ضلال، والله لا يأتي منه إلا الهدى.

ومِن هنا تَعلَم مناسبة هذه الآية للباب؛ من وجهين:

الوجه الأوّل: أنّ كفار قريش ومَن معهم كانوا يتبرَّكون بالأصنام، ويلتمسون البركة منها؛ وهذا كفر وشرك. فمَن التمس البركة من شجرة أو حجر أو حديد أو قبر فقد فعل ما يفعله المشركون.

والوجه الثاني: أنهم في عبادتهم للات والعزى ومناة إنما أخذوا ذلك من الظن وهوى الأنفس، وكذلك المتبرِّكون بالأشجار والأحجار والقبور ممن ينتسبون إلى الإسلام إنما أخذوا ذلك من الظن وهوى الأنفس، ما جاءهم دليل، ما دلهم الله على هذا، وما هداهم الله لهذا، لكنهم اتخذوها من الظنون والأوهام وظنوا أنّ فيها بركات وأنّ فيها خيرات، فشابَهوا المشركين في هذا الأمر العظيم.

قال رحمه الله: [عن أبي واقد الليثي قال: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حنين، ونحن حدثاء عهد بكفر، وللشركين سدرة يعكفون عندها،

وينوطون بها أسلحتهم، يقال لها: ذات أنواط، فممرنا بسدرة؛ فقلنا: يا رسول الله! اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الله أكبر! إنها السنن، قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿اجعل لنا إلها كما لهم آلهة﴾ قال: «إنكم قوم تجهلون، لتركبن سنن مَن كان قبلكم» رواه الترمذي وصححه]

نعم؛ هذا الحديث رواه الإمام أحمد، والترمذي، والنسائي في الكبرى، وابن أبي شيبة، والطبراني، وابن حبان. وصححه الترمذي، وابن حبان، والألباني، وابن باز، وقال ابن القيم: ثابت. فالحديث ثابت. وهو حديث عظيم وفيه فوائد عظيمة. وسبحان الله يا إخوة! كل ما يقع في زمن النبي –صلى الله عليه وسلم– فيه فوائد للأمة.

(عن أبي واقد الليثي) قيل: إنه الحارث بن عوف، وقيل: عوف بن الحارث، وقيل: الحارث بن مالك. اختُلف في اسمه واختُلف في إسلامه متى كان؟ فقال بعض أهل العلم: هو من أهل بدر؛ يعني من المسلمين الأوائل. وقال بعض أهل العلم: هو قديم الإسلام. وقال بعض أهل العلم: بل أسلم بعد الفتح، وهذا الراجح؛ أنه أسلم بعد الفتح؛ لأنه ذكر هذه القصة وذكر في رواية أنه قال: (قلت) –عند الإمام احمد– (قلت: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط، فهو أسلم بعد الفتح.

قال: (خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حنين) وحُنين: اسم وادٍ بين مكة والطائف. وقد كان خروجهم في شوال من السنة الثامنة من الهجرة بعد فتح مكة لمّا أرادت ثقيف أن تقاتل النبي صلى الله عليه وسلم، فخرج النبي –صلى الله عليه وسلم– إليهم.

قال: (خرجنا مع رسول الله –صلى الله عليه وسلم– إلى حُنين؛ ونحن حدثاء عهد بكفر) يعني بذلك: مَن أسلموا عام الفتح، حدثاء عهد بكفر، أسلموا في رمضان أو بعد رمضان؛ في شوال في وقت الخروج، فهم قريبو عهد بكفر، وهذا قال العلماء: ذَكَرَه على سبيل البيان وعلى سبيل الاعتذار، انتبهوا! على سبيل الاعتذار وعلى سبيل البيان.

أمّا على سبيل الاعتذار؛ فهو يعتذر عما سيقصُّه، يقول: عذرنا أنّا حدثاء عهد بكفر، يعني لا زلنا ما تعلمنا وعرفنا.

وعلى سبيل البيان: ليبيّن أنّ الذين قالوا إنما هم مِن مسلمة الفتح؛ لا من الصحابة الأوائل. وإلا؛ تعرفون أنّ الذين خرجوا أكثرهم من الصحابة الأوائل؛ ومعهم مَن أسلم في عام الفتح.

(قال: ونحن حدثاء عهد بكفر، وللمشركين سدرة) السدرة: هي شجر النبق، الذي يظهر فيها النبق، وهو معروف. قال: (وللمشركين سدرة) أي كانت

لهم سدرة. (يعكفون عندها) والعكوف هو: اللزوم على سبيل التعظيم. يعني إذا جاؤوا مروا بها ما يمرون بها كما يقال في الأمثال: "مرور الكرام"، إذا مرُّوا بها لا بد أن ينزلوا عندها؛ تعظيمًا لها، هذا معنى العكوف، العكوف: هو اللزوم على سبيل التعظيم.

(وينوطون بها أسلحتهم): يعلِّقون بها أسلحتهم؛ رجاء أن تنتقل البركة من الشجرة إلى السلاح؛ ليكون السلاح أنضى وأقوى. يقولون: إذا علَّقنا أسلحتنا بهذه الشجرة تُبارَك؛ فتَحلّ بها البركة؛ فيصبح السلاح أنضى في قتال أعدائنا وأقوى لنا!

(يقال لها ذات أنواط): أي ذات التعاليق. وأنتم ترَون مِن المسلمين مَن يأتِ ويعلِّق في أسوار القبور إمّا خرقة أو عمامة أو شيء؛ يريدون بها البركة! الحال هو الحال، يريدون أن تنتقل البركة من القبر إلى هذا! والعياذ بالله.

قال: (فمررنا بسدرة) الصحابة الذين مع الرسول صلى الله عليه وسلم- ومنهم هؤلاء حدثاء العهد بالكفر- مروا بسدرة. جاء في رواية عند الإمام أحمد: أنها سدرة خضراء عظيمة.

قال بعض أهل العلم: إنها تُشبِه تلك السدرة التي كان يعكف عندها المشركون، تشبهها، فلمّا رأوها وهي تشبهها قالوا مقولتهم.

لكن الذي يظهر –والله أعلم– أنها عين السدرة، أنها سدرة المشركين بعينها وليست سدرة أخرى تشبهها. لماذا أقول: إنّ الذي يظهر –والله أعلم– أنها هي تلك السدرة؟ أنه جاء في رواية الترمذي؛ قال: (مرَّ بشجرة للمشركين)؛ يعني الرسول –صلى الله عليه وسلم– مع أصحابه، إذن هي شجرة المشركين.

وعند ابن حبان: (حتى مررنا على سدرة الكفار) فظاهر هذا أنها هي سدرة الكفار التي كانوا يعكفون عندها.

(فقلنا: يا رسول الله! اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات انواط) وهنا أريد أن تلحظوا شيئًا يا إخوة! وهو: أدب هؤلاء الصحابة مع حداثة عهدهم بالكفر، أين الأدب؟ أنهم ما فعلوا بأنفسهم، ما ذهبوا يتسابقون إلى السدرة وأخذوا يعلقون عليها؛ بل قالوا: (يا رسول الله! اجعل لنا) فطلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا أدب من جهة عدم الإقدام على الفعل إلا بعد الرجوع إلى الرسول صلى الله عليه وسلم.

اليوم كثير من المسلمين ما يتأدبون مع الرسول صلى الله عليه وسلم! يُقدِمون على الفعل بدون الرجوع إلى سنة النبي صلى الله عليه وسلم، يعبدون القبور، يذبحون عندها، ينذرون لها، يتقربون لها، ما يرجعون إلى سنة النبي –صلى الله عليه وسلم– ليعرِفوا! يذهبون إلى أحاديث مكذوبة وتُرّهات وأمور ما أنزل الله بها من سلطان!

الأمر الثاني: قالوا: (اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط) على أيّ وجه قالوا هذه المقولة؟

قال بعض أهل العلم: معنى ذلك: يا رسول الله! ادعُ الله أن يبارِك في هذه الشجرة حتى نعلِّق عليها أسلحتنا. بمعنى: طلبوا من الرسول –صلى الله عليه وسلم– أن يسأل الله أن يجعل الشجرة مبارَكة؛ ليعلِّقوا عليها أسلحتهم. وهذا غير صحيح؛ لأنه لو كان ذلك كذلك لَمَا أنكر عليهم النبي –صلى الله عليه وسلم– هذا الإنكار وغلّظ عليهم هذا التغليظ، كان ممكن يُعلِّمهم يقول: ما ينبغي أن يُسأل هذا.

وقال بعض أهل العلم: إنهم أرادوا أن يجعلوها سببًا؛ لا أنها تبارِك بذاتها. فيكون هذا من الشرك الأصغر كما تقدم معنا.

وقال بعض أهل العلم: بل أرادوا أن يصنعوا كما يصنع المشركون بطلب البركة من الشجرة، وأن تُلتمَس البركة من الشجرة ذاتها، فيكون شركًا أكبر؛ غير أنهم لم يشركوا بهذا؛ لأنهم طلبوا من رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ولم يفعلوا.

فقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: «الله أكبر! ». الحقيقة يا إخوة عند الترمذي –الذي عزى إليه الشيخ– النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: «سبحان

الله!»، لكن عند الإمام أحمد وابن حيان قال: «الله أكبر!»، وهذا على سبيل التعجب من مقولتهم ومن حالهم.

وهذا يدل على أنّ التكبير عند التعجب مشروع؛ خلافًا لمَن أنكره من أهل العلم. فإذا رأى الإنسان شيئًا يتعجب منه يُشرَع أن يقول: الله أكبر! أو يقول: سبحان الله! وقد ورد هذا عن النبي صلى الله عليه وسلم.

«الله أكبر! إنها السُّنن» ويصح أن تقول: السَّنن، أي: الطُّرق المسلوكة. «قلتم والذي نفسي بيده» وانظروا القسم، النبي -صلى الله عليه وسلم- هنا يقسم، وقدَّمت لكم يا إخوة أنّ النبي -صلى الله عليه وسلم- يُقسِم على المهمات؛ الأمور العظيمة.

«قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾، فوَصَفَهم بالجهالة لطلبهم هذا، ﴿إنّ هؤلاء متبَّر ما هم فيه﴾ فلا خير فيه ولا بركة، ﴿وباطل ما كانوا يعملون﴾، قال: ﴿أغير الله أبغيكم إلها﴾؛ فدلّ ذلك على أنّ العبد لو جعل شيئًا يلتمس منه البركة بذاته يكون جعل إلهًا آخر غير الله.

«لتَركبُن» يعني يا معاشر المسلمين، يا أُمَّة، وليس المقصود الصحابة رضوان الله عليهم. «لتَركبُن سُنن» أو: سَنن « مَن كان قبلكم» يعني أنه سيقع في هذه الأمة

ما وقع في الأمم السابقة، كيف النجاة؟ «مَن كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي».

الناس الآن متفرِّقون يا إخوة، وكل واحد عنده طريقة، وكل يزعم أنه على الحق والهدى، حتى الذين يدعون الناس إلى عبادة القبور والنذر لها والذبح لها يقولون: نحن على السنة، ونحن على الهدى!

فما العلامة التي إذا رأيناها عرفنا أصحاب الهدى من غيرهم؟ العلامة يا إخوة: التمسك بما كان عليه النبي –صلى الله عليه وسلم– وأصحابه. أهل الهدى ما علامتهم؟ أيُّ أمر ينظرون: هل كان هذا موجودًا في زمن النبي –صلى الله عليه وسلم– والصحابة –ونعني بها الأمور التي يُتقرّب بها إلى الله– فإن كان موجودًا حرصوا عليه، وإن لم يكن موجودًا تركوه وحذروا منه؛ لأنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: «فإنّ مَن يَعِشْ منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا»؛ كيف النجاة؟ مَن هم أهل الهدى في هذا الاختلاف الكثير؟ أنتَ الآن يا أخي تسمع مني كلامًا، وقد تكون في بلدك سمعتَ من الشيوخ كلامًا آخر، ما هي العلامة؟ «فعليكم بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين؛ تمسكوا بها وعَضُّوا عليها بالنواجذ»، فأنا أقول لك شيئًا، والشيخ هناك في البلد يقول لك شيئًا، وهذا يقول لك شيئًا! انظر هل هذا الشيء المَقول قاله النبي –صلى الله

عليه وسلم– أو أرشد إليه أو دلّ عليه؟ فإن وجدته فاعلم أنه الهدى؛ بشرط: أن يصح، ما كلُّ ما نُسِب إلى النبي –صلى الله عليه وسلم– صحيح.

يأتيك شيخ –إمّا جاهل وإمّا دجال– يقول: "ثبت عن حبيبنا –صلى الله عليه وسلم– إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأصحاب القبور"! والله ما قال هذا النبي صلى الله عليه وسلم. أو يقول: ثبت عن حبيبنا –صلى الله عليه وسلم– أنه قال: "لو اعتقدت في حَجَر لنفعك"! والله ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم. يوجد مَن كَذَبَ على النبي –صلى الله عليه وسلم– فلا بد من الصحة.

انظر هل هو في زمن أبو بكر رضي الله عنه؟ هل هو في زمن عمر رضي الله عنه؟ هل هو في زمن عثمان رضي الله عنه؟ هل هو في زمن علي رضي الله عنه؟ فما وجدته كذلك فاعلم أنه الهدى فالْزَمه، تمسَّك به وعَض عليه بالنواجذ حتى لو خالفك قومك.

العلامة: أنه ما كان عليه النبي –صلى الله عليه وسلم– واصحابه هو الهدى والتقى، وما عداه فهو ضلال.

فدلّ هذا الحديث يا إخوة على أنّ جَعْل شيء تُلتمَس منه البركة:

–إمّا بذاته؛ بأن يُزعَم أنه يبارِك بذاته. وهذا شرك أكبر.

– أو بكونه سببًا. وهذا شرك أصغر.

مَن فعل ذلك فقد أشرك، وفعل فعل المشركين، وأنّ هذا مِن سُنن المشركين وليس من طريق المفلحين.

جَعْل القبور والأسوار والحديد يُتمسَّح بها ويُلتمَس منها البركة؛ إن كان اعتقد أنّ هذا الحديد بنفسه يَمنح البركة أو هذا القبر يمنح البركة؛ فهذا شرك أكبر. وإن اعتقد أنه سبب فهذا شرك أصغر. هذا ليس طريق المفلحين أن يعتقد هذا؛ وإنما هذا طريق أهل الضلال، والعياذ بالله.

قال رحمه الله: [فيه مسائل: الأولى: تفسير آية النذر]

نعم؛ تقدمت معنا قريبًا.

قال رحمه الله: [الثانية: معرفة صورة الأمر الذي طلبوا]

نعم؛ هؤلاء الذين طلبوا؛ طلبوه على أيّ صورة؟ وقد ذكرتُ لكم.

[الثالثة: كونهم لم يفعلوا]

نعم؛ هم طلبوا فقط ولم يفعلوا؛ ومع ذلك غلّظ عليهم النبي صلى الله عليه وسلم؛ وقال: «الله أكبر!»، أو قال: «سبحان الله! إنها السنن، قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى» هذا وهم قالوا! وهذا يدل على أنّ الفعل أغلظ وأعظم، لكنهم لم يفعلوا.

قال رحمه الله: [الرابعة: كونهم قصدوا التقرب إلى الله بذلك لظنهم أنه يحبه]

كونهم قصدوا التقرب لله بذلك وأن يجعلوها زلفى إلى الله؛ ما الدليل على هذا؟ أنهم طلبوه من رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وهم يعلمون أنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– لا يحب إلا ما يحبه الله، فهم اعتقدوا أنّ الله يحب هذا، وهم لقرب عهدهم من الكفر فطلبوا هذا.

وهذا حال كثير ممن ينتسبون إلى الإسلام ويتقربون إلى القبور؛ يظنون أنّ الله يحب هذا! والله يا إخوان تجد الرجل فقيرًا جدًّا وربما يبقى سنة وسنتين يجمع ويجمع ليشتري ديكًا يذبحه لصاحب القبر! وهو يظن أنه بذلك بلغ أعلى المنازل في إرضاء الله! والنية الصالحة لا تَقلِب السيئ إلى صالح، بل يبقى السيءُ سيئًا مهما صَلُحت النيات.

قال رحمه الله: [الخامسة: أنهم إذا جهلوا هذا فغيرهم أولى بالجهل]

هم مع النبي صلى الله عليه وسلم؛ فَهُم مِن الصحابة –وإن كانوا قريبي عهد بكفر– ومع ذلك جهلوا حكم هذا الفعل وطلبوه! فمِن باب أولى أنّا كلّما ابتعدنا عن زمن النبي –صلى الله عليه وسلم– كلما وُجِد الجهل في هذا.

طيِّب؛ ما فائدة هذا الأمر؟ أنه يجب على أهل العلم وعلى طلاب العلم أن يُتعِبوا أنفسهم في بيان التوحيد والتحذير من الشرك.

لأنّ الشيطان يا إخوة يريد الغفلة، يريد من الأمة أن تغفل عن التوحيد ليأتيها بالشرك، فيجب على المجاهدين في سبيل الله من العلماء من طلاب العلم من الوعاظ من الدعاة أن يُعلِّموا الناس التوحيد، وألا يتركوا مجالًا للغفلة، وأن يحذّروا من الشرك على وجه التفصيل، يقوم الخطيب ويقول للناس: التوحيد حق الله والشرك أعظم الظلم؛ ولا يعلمهم معنى التوحيد، لا يعلمهم معنى الشرك، لا يعلمه صور الشرك! قد يقع المسلم في الشرك وهو لا يعلم، يحضر الخطبة ويسمعها ويفرح بها؛ لكن الخطبة ليس فيها تفصيل! فلا يدري أنّ الذي يفعله من الشرك.

إذن يا إخوة؛ ليس صحيحًا أنّ الأمة ليست بحاجة إلى تعليم التوحيد، الأمة بحاجة إلى تعليم التوحيد في كل وقت، فإذا كان هؤلاء مع كونهم مع النبي –صلى الله عليه وسلم– ومِن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم –وإن كانوا من المتأخرين إسلامًا– جهلوا هذا الأمر فما بالك ببقية الأمة؟!

ولا سيما يا إخوة ونحن نسافر ونرى أهلنا في كل مكان يضرب فيهم الشيطان في أودية الشرك، وبعضهم قد يصل إلى الشرك في الربوبية.

ذكرتُ لكم مرة أنّي زرتُ دولة من دول المسلمين، وجدتُ المسجد مليئًا بالمصلين، ما شاء الله! ثم عَلِمتُ أنّ أغلب أهل القرية كل واحد في بيته صنم يَستجلِب به الرزق! ورأيتُ في بلد من بلدان العلم في العالم الإسلامي، في مصر، رأيتُ مَن يسجد للقبر! لا تظن أنه يسجد لله؛ هو يسجد عكس القبلة؛ للقبر!

الأمة بحاجة إلى رجالها، الخيرات والبركات الدنيوية –فوق العزة والقوة– لا تكون للأمة إلا إذا وحّدت الله. والله! لو أنّ الأمة اتقتِ الله ووحدتِ الله لفتح الله عليها الخيرات والبركات، ولهابها الأعداء.

والله يا إخوة! أعداء الإسلام لا يهابون مِن الذين يرقصون في المساجد ويغنون ويرقصون على الدفوف–يزعمون أنهم يذكرون الله!– ما يخافون منهم، الاستعمار –الذي هو الاستخراب– دخل دول المسلمين وهؤلاء الدراويش يرقصون في المساجد؛ ما كانوا يخافون منهم؛ إنما الخوف من التوحيد وأهله.

ولذلك؛ الناصح لأمته يسعى لدعوتهم إلى التوحيد، لا لأن يُحقِّر أحدًا؛ لا والله؛ لكن من أجل أن يحقق حق الله.

إن أخلصنا في دعوتنا واجتهدنا في الدعوة؛ فإنّ الأمة قريبة من الخير.

الناس مشكلتهم في قطَّاع الطرق؛ الذين يقفون على المنابر ويقرِّرون الشرك ويقرِّرون البدع، لا كثَّرهم الله. والناس مساكين!

ذكرتُ لكم يا إخوة أنني مرة ركبت مع سائق سيارة أتجول في مدينة من المدن، ومعي مترجم، قال: يا شيخ! كان الشيوخ الكبار يقولون لنا أشياء ما يصدقها عقلي، لكن ماذا أفعل أنا مسلم وهذا الإسلام! هذا الذي بلغه، يقول: حتى جاء فلان من خِرجِي الجامعة كان زميلًا لي في الدراسة؛ فبدأ يعلمنا ويقول: قال الله قال رسوله صلى الله عليه وسلم، يقول: فارتاح قلبي. يقول: أول عقلي ما يصدق الذي في قلبي لكن هذا الإسلام! فلمّا جاء هذا الداعية الذي يدعو بالكتاب والسنة وعرفت التوحيد ارتحتُ، وكفرتُ بما يقوله أولئك الشيوخ مما يخالف الكتاب والسنة.

الأمة قريبة من الخير، لكن للأسف يا إخوة أنّ قطاع الطرق أولًا حالوا بين الناس وبين الموحِّدين بالتُّهم، ومعروف من زمن النبي –صلى الله عليه وسلم– أنّ أهل الباطل يحولون بين الناس والحق بالتُّهم؛ كانوا يقولون عن النبي –صلى الله عليه وسلم– ساحر، كاهن، يأخذ عن اليهود والنصارى! وهم يعلمون أنهم يكذبون في هذا؛ لكن حتى يحولون بين القبائل والرسول صلى الله عليه وسلم.

وهكذا اليوم؛ يُطلِقون الداعيات أمام التوحيد والألقاب: وهابية! حتى أنّ أحدهم –والعياذ بالله– لمّا ذُكرَت له آية قال: هذه آية وهابية! لأنه ما يستطيع أن يردّ دلالة الآية فوَصَفَ الآية بكونها وهابية؛ ليصرف الناس.

واليوم اخترعوا شيئًا جديدًا؛ قالوا: إسلام سعودي! يثيرون النعرات في القلوب؛ يقولون: أنت مصري كيف تأخذ بالإسلام السعودي؟! ويأتي جاهل يقابلهم يقول: إنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– سعودي!

الإسلام هو الإسلام، الإسلام قال الله قال رسوله صلى الله عليه وسلم، الإسلام هو ما فهمه الصحابة، ما جاءنا من هذا قبِلناه ووضعناه على رؤوسنا، هكذا يا إخوة، لكن يريدون الحيلولة، لمّا رأوا التوحيد انتشر والنساء يتنقبن ويغطين وجوههن ويتسترن ولا يحببن مخالطة الرجال المحرمة ووو كيف يفعلون؟ ما يستطيعون أن يأتوا بحجج؛ فقالوا: إسلام سعودي! مِن أجل أن يحولوا بين هذه الأمة المبارَكة وبين التوحيد.

نحن المسلمون –ما يصلح الاختصاص هنا– نحن المسلمون، هذه الدول التي وُجِدت اليوم لها أحكامها ومقامها؛ لكن هذا لا يُخرِجنا عن هذه الدائرة العظيمة، أنا أخوك وأنت أخي، أنا أحب الموحِّد في أفريقيا، وأُبغِض مَن يشرك بالله ولو كان بجوار بيتي، أنا أحب المتمسك بالسنة في أوروبا في أمريكا، نحن أمة واحدة، ديننا واحد، مصادرنا واحدة، وما تَفرَّقنا إلا لمّا تَرَكْنَا مصادرنا الأصيلة؛ وقعنا في البدع.

فالأمة لابد أن نعيدها إلى التوحيد؛ بالرفق واللين والكلام الطيب والبرهان الصادق، وأن نصبر، لا بد أن نؤذى، ما سَلِمَ صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وأنا أقول –وأنا على يقين مما أقول–: إنّ هذا التوحيد لا يمكن أن يقوم إلا بالإخلاص من الدعاة، لابد أن يكون الداعية إلى التوحيد مخلصًا لله، صابرًا على الأذى، رحيمًا بالناس، رفيقًا بهم، إذا تكلم تكلم بالبرهان، نوّع أسلوبه وقوّى أسلوبه؛ لعل الله أن يهدي مَن يسمعه.

وأنا قلتُ لكم وأقول يا إخوة: والله! أنا زرتُ الدول الإسلامية قبل ما يقرب ثمان وعشرين سنة زرتُ كثيرًا من الدول، والآن أزورها؛ ولله الحمد والمنة وجدتُ دعوة التوحيد منتشرة، يعني في بعض البلدان ما كنتُ ترى رجلًا يعفي لحيته بل يسخرون ممن يعفي اللحية، حتى كبار السن يسخرون ممن يعفي اللحية! ما ترى امرأة تلبس عباءة أو تتنقب؛ ويسخرون يقولون: خيمة! ثم بالعلم، بفضل الله –عز وجل– من قبل ومن بعد، وبتوفيق الله، انتشر تَمسُّك الناس بما جاء في كتاب الله وبما جاء في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، انتشر التوحيد، انتشرت السنة، بدأتَ ترى نور السنة في البلدان.

لكنّ أعداء هذا التديُّن لمّا رأوا هذا التدين وتنبهوا تنادَوا للوقوف في وجهه، وأحدثوا أشياء كثيرة؛ منها: أنهم يشغلوننا عن دعوتنا بأمور ينبغي أن نترفع عنها؛ منها: أنهم يفرِّقون صفَّنا، كما تقدم معنا.

الشاهد يا إخوة؛ أنّ الأمر عظيم، فإذا علمنا أنّ أولئك قد جهلوا فما بالك بمَن بعدهم؟! ولا ينبغي أن نستسلم للدعوة الباطلة: أنّ الأمة ليست بحاجة إلى الدعوة إلى التوحيد.

قال رحمه الله: [السادسة: أنّ لهم من الحسنات والوعد بالمغفرة ما ليس لغيرهم]

نعم؛ الصحابة –رضوان الله عليهم– سواء مَن أسلم قبل الفتح أو أسلم بعد الفتح لهم من الفضل والثواب والحسنات ما ليس لغيرهم.

قال رحمه الله: [السابعة: أنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– لم يعذرهم؛ بل ردّ عليهم بقوله: «الله أكبر! إنها السنن، لتتبعن سنن من كان قبلكم» فغلَّظ الأمر بهذه الثلاث]

نعم؛ أنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– لم يعذرهم في ردّ كلامهم، لا في الحكم عليهم، فالنبي –صلى الله عليه وسلم– ردّ عليهم وأغلظ عليهم مع أنهم حدثاء عهد بكفر.

ومعنى هذا يا إخوة: أنّ الباطل إذا وُجِد يُرَدّ ولو كان صاحبه معذورًا، يُردّ ويُنكَر، والمنكر يُنكَر ولو كان صاحبه معذورًا لكونه جاهلًا، لأنه لو لم يُنكَر لانتشر، فيُنكَر ويُرَد.

قال رحمه الله: [الثامنة: أنّ الأمر الكبير –وهو المقصود– أنه أخبر أنّ طِلبتهم كطِلبَة بني إسرائيل]

نعم؛ وهذا واضح.

[التاسعة: أنّ نفي هذا مِن معنى لا إله إلا الله]

نعم؛ التبرك بالحجر والشجر والتماس البركة مِن أيِّ مخلوق باعتقاد أنه هو الذي يعطي البركة أو باعتقاد أنه سببٌ مع أنّ الله لم يجعله سببًا؛ ينافي لا إله إلا الله.

فإن كان باعتقاد أنّ فيه البركة بذاته وأنه يبارِك بذاته؛ فهذا ينافيها من أصلها.

وإن كان باعتقاده أنه سبب وإلّا فإنّ البركة من الله؛ فهذا ينافي كمالها الواجب.

قال رحمه الله: [العاشرة: أنه حَلَفَ على الفُتيا؛ وهو لا يحلف إلا على مصلحة]

كما قلنا لكم؛ النبي –صلى الله عليه وسلم– هنا قال: «والذي نفسي بيده»، والنبي –صلى الله عليه وسلم– يقسم على الأمور المهمة. فيدلنا هذا على أنّ هذه المسالة مسالة مهمة، وكيف لا تكون مسألة مهمة وهي متعلقة بالتوحيد ونفي الشرك؟!

قال رحمه الله: [الحادية عشرة: أنّ الشرك فيه أكبر وأصغر؛ لأنهم لم يرتدوا بهذا]

نعم؛ أنّ الشرك فيه: أكبر وأصغر، وهذا مِن الشرك الأصغر، لأنّ الشيخ يظهر–والله أعلم– أنه جعل طلبهم على الوجه الثاني؛ وهو: أن يكون ذلك على جهة السببية؛ فيكون من باب الشرك الأصغر.

واستدل على أنه من الشرك الأصغر: أنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– لم يكفِّرهم، ولم يأمرهم بالدخول في الإسلام مرة أخرى.

ولكن حتى على الوجه الأوّل فإنهم لم يكفروا؛ وذلك؛ أولًا: لأنهم جهَّال. وثانيًا: لأنهم لم يفعلوا.

[الثانية عشرة: قولهم: (ونحن حدثاء عهد بكفر) فيه: أنّ غيرهم لا يجهل ذلك]

(أنّ غيرهم لا يجهل ذلك) يعني غيرهم مِن مَن؟ مِن الصحابة، ليس مِن الأمّة، أنّ غيرهم من الصحابة الذين أسلموا قبل يعرفون هذا ولم يطلبوا هذا؛ وإنما الطلب مِن حدثاء العهد بالكفر الذين أسلموا قريبًا.

[الثالثة عشرة: ذكر التكبير عند التعجب؛ خلافًا لمَن كرهه]

نعم؛ وقد قلنا هذا.

[الرابعة عشرة: سد الذرائع]

نعم؛ سد الذرائع الموصِلة إلى الشر؛ مِن الأصول العظيمة، فإنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– كان يسد ذرائع الشرك، ويحمي حِمى التوحيد. فسَدُّ الذرائع التي تقود الناس إلى الشرك مِن أعظم الأصول الشرعية، وهذا له صورٌ كثيرةٌ في ديننا.

[الخامسة عشرة: النهي عن التشبه بأهل الجاهلية]

نعم؛ لأنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: «إنها السنن»، ثم قال: «لتركبن سُنن من كان قبلكم»؛ وهذا على سبيل الإنكار.

قال رحمه الله: [السادسة عشرة: الغضب عند التعليم]

لأنّ الظاهر أنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– غضب؛ لأنه قال: «الله أكبر!»، «سبحان الله! قلتم والذي نفسي بيده»، «قلتم كما قالت بنو إسرائيل»، والنبي –صلى الله عليه وسلم– كان حليمًا؛ غير أنه يغضب إذا انتُهِكت حرمات الله. خلافا لبعض المسلمين اليوم، بعض المسلمين اليوم مِن أحلم الناس إذا انتهكت محارم الله، يقع الشرك أمام عينيه وهو –ما شاء الله تبارك الله– أبرد من الثلج! يُعصى الله أمامه وهو أبرد من الثلج! لكن لو خُدِشت سيارته لأصبح كالأسد! وهذا خلاف سنة النبي صلى الله عليه وسلم؛ فإنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– لا يغضب إلا إذا انتهكت محارم الله.

قال رحمه الله: [السابعة عشرة: القاعدة الكلية في قوله: «إنها السُنن»]

نعم؛ وهي: أنّ للجاهلية سننًا، وأنّ مِن الأمّة مَن سيسير عليها.

قال رحمه الله: [الثامنة عشرة: أنّ هذا مِن أعلام النبوة؛ لكونه وقع كما أخبر]

«لتركبن سَنن مَن كان قبلكم» وقع، والأمة الآن تتفنن في اتِّباع طرق المشركين، والمقصود: فيما يخالف الدين. أمّا ما ينفع الأمة وكان أصله عند المشركين: فاتخاذه قوّة، أن نأخذ سلاحًا، أن نركب السيارات؛ هذا ليس مذمومًا، وإنما المذموم هو أن نتّبع ونتشبَّه بالكفار فيما يخالف ديننا، أو مما هو من خواصّ الكفار يفعلونه لكفرهم مِن ألبسة ونحوها.

قال رحمه الله: [التاسعة عشرة: أنّ كل ما ذم الله به اليهود والنصارى في القرآن أنه لنا]

نعم؛ يعني أنه نهيٌ لنا، فنحن منهيُّون عنه بذم الله له؛ وإن كان حكاية عن اليهود أو عن النصارى.

[العشرون: أنه متقرِّر عندهم أنّ العبادات مبناها على الأمر، فصار فيه التنبيه على مسائل القبر، أمّا مَن ربك؟ فواضح، وأمّا مَن نبيك؟ فمِن إخباره بأنباء الغيب، وأمّا ما دينك؟ فمن قولهم: ﴿اجعل لنا إلهًا﴾ إلخ]

الحقيقة أنهما فائدتان:

المسألة الأولى: أنّ المستقر عند الصحابة: أنّ العبادات مبناها على التوقيف، على الأمر، ليس بالهوى ولا بالإرادة؛ الدليل: أنهم قالوا: (اجعل لنا ذات أنواط)، ما جعلوا ذات أنواط، وإنما طلبوا من الرسول صلى الله عليه وسلم، وهذا يفيدنا فوائد:

١. أنهم يعتقدون أنها عبادة، فإنها لو كانت عادة ما احتاجوا إلى سؤال رسول الله صلى الله عليه وسلم.

٢. أنهم يعتقدون أنّ العبادة لابد أن تكون من طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم.

والمسألة الثانية: أنه صار فيه التنبيه على مسائل القبر، ما هي مسائل القبر؟ الثلاثة: من ربك؟ ما دينك؟ من نبيك؟ ففيه التنبيه على مسائل القبر.

ليس المقصود أنها تدل على هذه الأسئلة وأنّ الإنسان سيُسأل في قبره عنها، وإنما المقصود: أنها تدل الإنسان على أجوبة هذه الأسئلة؛ فيعرف ربه موحِّدًا، إذا عرف هذا، وهذا واضح. ويعرف أنّ محمدًا صلى الله عليه وسلم رسول الله؛ ومما يدله على ذلك: إخبار النبي –صلى الله عليه وسلم– عن هذه الأمور التي ستقع في المستقبل؛ وقد وقعت. وأمّا دينك؟ فإنه إذا عرف هذه النصوص عرف دينه وهو أنّ الدين الإسلام.

قال رحمه الله: [الحادية والعشرون: أنّ سُنة أهل الكتاب مذمومة كسُنة المشركين]

أنّ سنتهم وعاداتهم التي يختصون بها يَحرُم علينا أن نفعلها وأن نتشبه بهم فيها. الذين يأتون بطاقية مثل طاقية اليهود على بعض الرأس؛ هذه حرام. لباس الزنّار الخاص بالنصارى –ولا زال بعض النصارى يفعلونه إذا كانوا يذهبون إلى الكنيسة– هذا حرام. والمقصود: أنّ سننهم وعاداتهم التي يختصون بها؛ يحرم علينا أن نتشبه بهم فيها.

قال رحمه الله: [الثانية والعشرون: أنّ المنتقِل مِن الباطل الذي اعتاده قلبه؛ لا يؤمَن أن يكون في قلبه بقية من تلك العادة؛ لقولهم: ونحن حدثاء عهد بكفر]

نعم؛ ما أعظم هذه المسألة! أنّ الإنسان إذا كان على باطل وانتقل منه وكان قريبًا منه زمنًا أو حسًّا؛ لا يؤمَن عليه أولًا: الانتكاس.

مثلًا؛ لو أنّ رجلًا يشرب الدخان –وتقرَّر معنا مرارًا أنّ شرب الدخان حرام– ثم نَزَعَ وتاب، لكن بقي مع المدخين، يومين، ثلاثة، يصبر، يصبر؛ يرجع إلى شرب الدخان.

بعض الناس –والعياذ بالله– يبتليه الله بالزنى بامرأة، ثم يتوب ويكون صادقًا في توبته، لكنّ الشيطان يغرُّه؛ يقول: هذه المرأة مسكينة استمر تكلم معها حتى تعظها وتنصحها حتى تترك الزنى مثلك، وأنت كنت صديقها تحسِن إليها! ففي الأول يكون فيه حرارة التوبة وكذا؛ ولا يزال يتكلم معها حتى يعيده الشيطان إلى الدائرة الأولى. أو في المكان كذلك.

ولذلك هؤلاء مع كونهم أسلموا ومِن الصحابة دخل عليهم هذا الأمر؛ لقرب عهدهم بالكفر. ولذلك يا إخوة؛ المؤمن ينبغي عليه أن يبتعد عن الشر.

ولذلك يسألني بعض الإخوة عن مثل ما ذكرتُ لكم: إنسان كان على علاقة بامرأة ثم تاب، أقول له: غيِّر رقم هاتفك، غيِّر الرقم بالكلية واتَّخذ رقما جديدًا، وإياك أن تتواصل معها، لأنّ هذا البعد فيه السلامة.

وهكذا؛ إذا كنتَ مع قوم فيهم غيبة، وأنت تبت إلى الله من الغيبة؛ ابتعد عن هؤلاء القوم، لا تجالسهم؛ حتى لا ترجع إلى تلك الدائرة.

لعلنا نقف هنا. وغدًا –إن شاء الله– نتكلم في باب عظيم يتعلق بالذبح لغير الله، ونبيّن أنواع الذبح وأحكام كل نوع إن شاء الله. ونجيب عن بعض أسئلة إخواننا. والله أعلم.

الدرس الخامس عشر: باب: ما جاء في الذبح لغير الله

بسم الله الرحمن الرحيم

درسنا هو في شرح كتاب التوحيد. ولا زلنا نتكلم عن أمور عظيمة بينَّها الشيخ نصحًا للأمة.

واليوم – إن شاء الله عز وجل - نتكلم عن مسألة الذبح. فيتفضل الشيخ ياسين –وفقه الله– يقرأ لنا .

يقول المصنف – رحمة الله عليه – [باب: ما جاء في الذبح لغير الله].

نعم ، أيها الاخوة! لمَّا كان الذبح لغير الله يقع كثيرًا ممن ينتسبون إلى الإسلام؛ عقد الشيخ هذا الباب ليبيِّن للأمَّة حُكمَ هذا الفعل.

والذَّبح عبادة –كما سيأتي بيانه في النصوص– وفيه عبادتان تتعلق بهما الأحكام:

- أما العبادة الأولى: فهي عبادةُ التقرُّب.
- وأما العبادة الثانية: فهي عبادة الاستعانة .

الذبح فيه عبادتان: عبادة التقرُّب، وعبادة الاستعانة.

فعبادة التقرُّب متعلقة بقصد الذابح ونيتِه. ولذلك أيُّها الاخوة؛ تختلف أحكام الذبح باختلاف النيات. فإن ذبح بعيرًا أو بقرةً أو شاةً أو دجاجةً أو ذبابةً

تقرُّبـًا إلى غيرِ الله؛ كالتقرُّب لصاحب القبر أو لرجلٍ صالح أو لسلطان فيذبح له، يقصد أن يتقرب إليه؛ فهذا شرك أكبر؛ لأنه صَرَفَ العبادة لغير الله.

وقد تقدم معنا يا إخوة؛ أنَّ التوحيد: إفراد الله العبادة، فَصَرْفُ أيّ عبادة إلى غير الله: شرك، فمَن جعل الذبحَ لغير الله فتقرّب لقبر أو لصاحب القبر أو لرجل صالح أو غير ذلك؛ فقد أشرك شركـًا أكبر؛ لأنه صرف العبادة لغير الله.

وإنْ ذبحَ تعظيمـًا لمخلوق؛ كأنْ ذبح تعظيمًا للملك، أو تعظيما للسلطان، أو للأمير، أو غير ذلك؛ فهذا شرك أكبر؛ لأنه تَقرُّب تعظيم، وهذا شرك، تقرَّب بالذبح تعظيمـًا، وهذا شركٌ أكبر.

وإن ذبح بين أيدي السلاطين وأهل الشأن لا لتعظيمهم ولا على سبيل التعظيم وإنما لفرحه بهم مثلًا، جاء السلطان إلى قريته فذبح بقرة أمام السلطان وهو داخل؛ هذا حرام على الصحيح من أقوال أهل العلم؛ لقول النبيِّ –صلى الله عليه وسلم–: «لا عَقْرَ في الإسلام»، وهذا الحديث رواه أحمد، وأبو داوود، وصححه الألباني. فلا يجوز العَقرُ في الإسلام. ومن العَقرِ في الإسلام: العقرُ بين أيدي السلاطين وأهل الشأن، الذبح بين أيديهم.

وإن ذبح بعد دفن الميت عند قبره لله؛ فهذا حرام؛ لحديث: (لا عَقْر في الإسلام»، قال عبد الرزاق: "كانوا يعقِرون عند القبر بقرة أو شاة"؛ يعني في

الجاهلية، في الجاهلية كانوا إذا قبروا المقبور؛ ذبحوا عند قبره بقرة أو شاة، فقال النبي –صلى الله عليه وسلم–: «لا عقر في الإسلام» أي: لا يجوز أن يُفعَل هذا؛ أن تُذبَح الذبيحة عند دفن الميت عند قبره، سواء قبل دفنه أو عند دفنه أو بعد دفنه لله، على أنَّها صدقة لله، هذا حرام لا يجوز هنا في هذا الموطن؛ لهذا الحديث ولما سيأتي –إن شاء الله– في الباب التالي.

وإن ذبح بقصد إطعام الضيوف أو أكل اللحم، لم يقصد أن يتقرَّب لغير الله، ولا أن يتقرَّب لله، أراد أنْ يُشبِع بطنه، أن يأكل اللَّحم، وأن يأكل أهلُه اللَّحم، أو أنْ يُطعم الضيوف؛ فهذا مباح بالإجماع. فإن نوى به التقرّب إلى الله كان مستحبًّا

.

يعني أنت لو ذبحتَ الذبيحة لتطعم أهلك، لتأكل اللحم، فنويت بذلك وجه الله وابتغيت بذلك وجه الله؛ كان ذلك مستحبًّا، وتُؤجر عليه؛ «إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أُجرتَ عليها، حتى ما تضع في فيّ امرأتك».

إذن؛ إذا ذبح الإنسان بنية أن يأكل أو يُطعم ضيوفه على سبيل العادة لا على سبيل التقرب؛ هذا مباح. فإن نوى به التقرُّب إلى الله أصبح مستحبًّا.

طيّب، سيسأل أحد الإخوة سؤالاً عن أمر يقع من بعض المسلمين على ما بيَّناه: ماحكم ذَبْحِ الذبيحة على عتبة البيت عند اكتمال البناء أو عند أوَّلِ دخوله؟

بعض الناس إذا بنى بيتًا وأكمله يأتي بشاة أو بقرة يذبحها على عتبة البيت، أو إذا أراد أن يدخل البيت للسكنى يأتي بذبيحة يذبحها على عتبة البيت؛ ماحكم هذه الذبيحة؟

- هذه الذبيحة إن كانت لطرد الجنّ أو السَّلامة من الأذى؛ فهذا شِرك. فإن قصد بها التقرُّب إلى الجنِّ حتى لا يؤذوه –بعض الناس يقولون البيوت الفارغة مليئة بالجن ، وإذا دخلت البيت يؤذيك هؤلاء الجن لأنك تدخل عليهم، فاذبح ذبيحة ترضيهم، اذبح على عتبة البيت ذبيحة ترضيهم حتى لا تؤذى– هذا شرك أكبر، والعياذ بالله؛ لأنَّه تقرَّب بهذه الذبيحة إلى الجن.
- وإنْ جعلها سببـًا للسَّلامة من البلاء، هو يذبحها لله لكنَّه يجعلها سببًا ليَسلم من البلاء؛ فهذا شِرك أصغر.
- وإن كان قصْدُه بهذا شكر الله، ذبَح الذبيحة على العتبة ويقصِدْ شكر الله أنه أتم عليه البناء؛ فهذا حرام. لماذا حرام ؟ لأنه ذريعة إلى الحرام، ذريعة إلى الشرك ويجب سدّ الذرائع.

أما لو ذبح الذبيحة في أيّ مكان شكراً لله، ووزعها على الفقراء؛ فلا بأس، ذبح ذبيحة لم يجعلها على عتبة الباب وإنما ذبحها ووزعها على جيرانه يتصدق عليهم ومنها أنَّه يتعرف عليهم؛ هذا ما فيه بأس.

لكن إذا ذبحها على عتبة الباب بقصد إرضاء الجن والتقرُّب إليهم؛ فهذا شرك أكبر.

وإنْ جعل الذبح لله هنا سببًا للسلامة من الأذى؛ فهذا شرك أصغر؛ لأنَّه جعل سببًا لم يجعله الله سببًا شرعًا ولا قدراً.

وإنْ ذبحها على العتبة شكراً لله؛ فهذا حرام؛ لأنها ذريعة. لأنَّ من الناس مَن يذبح هنا على العتبة ليُرضي الجن، فيكون هذا داخلاً في الباب التالي الذي سنتكلم عنه إن شاء الله عزَّ وجل.

هذه عبادة التقرب.

وأمَّا عبادة الاستعانة المتعلقة بالذبح؛ فهي متعلِّقة بالتَّسمية، بالاسم الذي يُذكَر على الذبيحة؛ هذه عبادة الاستعانة، لماذا؟ لأنك عندما تقول: بسم الله، الباء هذه للاستعانة، فهذه عبادة الاستعانة.

فإن ذبح الذبيحة ولم يذكر عليها اسمًا؛ لم يذكر لا اسم الله ولا اسم غير الله، ما ذكر اسمًا، ذبح الذبيحة بدون أن يذكر اسمًا، سواء كان عالمًا أو جاهلاً أو ناسيًا؛ فهذه الذبيحة حرام على الراجح، لا يجوز أكلها.

نعم ليس هنا شرك لكن هذه الذبيحة حرام؛ ﴿وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ﴾ فنهانا عن الأكل من الذبيحة التي لم يُذكَر اسم الله عليها، فهذه لم

يذكر عليها اسم الله –وإن لم يُذكَر عليها اسم غيره– لكن لم يُذكَر عليها اسم الله سبحانه وتعالى؛ فالراجح من أقوال فقهائنا: أنه لا يجوز الأكل منها.

وإنْ ذبح الذبيحة وذكر عليها اسمَ غير الله؛ فقال: بسم المسيح، أو بسم مريم، أو بسم أبي، أو بسم سيدي فلان، أو بسم الأقطاب، أو بسم الأوتاد؛ فهذا شركٌ؛ وهو شرك أكبر؛ لأنَّه يستعين بغير الله سبحانه وتعالى.

وإن ذَبَح الذبيحة باسم الله متقربـًا بها إلى الله؛ فهذا التوحيد.

- وقد يكون هذا الذبح واجبـًا؛ مثل النذر؛ نذرتَ أن تذبح شاة فذبحتها باسم الله متقربـًا بها إلى الله؛ فهذا التوحيد.
- وقد يكون هذا الذبح مستحبًّا؛ مثل ذبح الأضحية على الراجح. ومثل ما تقدم معنا: إذا ذبحتَ لتُكرِم الضيوف تقرّبـًا إلى الله أو ذبحت لتطعم أهلك تقربـًا إلى الله، وقلت: بسم الله والله أكبر؛ هذا توحيد.
- وقد يكون مباحـًا؛ إذا قلت: بسم الله؛ فذبحت بسم الله؛ ولم تقصد التقرب إلى الله ولا إلى غير الله؛ أردتَ شيئـًا دنيويـًا؛ أردت أن تأكل اللحم؛ فهذا مباح، ولا ينافي التوحيد بوجه من الوجوه.

أمَّا مَن ذكر اسم غير الله؛ سواء قصد بها الله تقرُّبـًا إلى الله أو تقرَّب بها إلى المخلوق؛ فهذا شرك أكبر.

لكن إذا ذبحها فقال: باسم سيدنا فلان، أو قال: باسم الله واسم سيدنا فلان، وذبحها متقرباً لصاحب القبر؛ فقد جمع شركين: شرك التقرب وشرك الاستعانة.

وإن قال: باسم سيدي فلان، أو باسم الله وسيدنا فلان، ونوى بها التقرُّب إلى الله؛ فقد أشْرك شِرك الاستعانة.

وإذا عرفتم هذا التفصيل تنحل عندكم الإشكالات فيما يتعلق بالذبح. وهذا تفصيلٌ حاصِرٌ لأقسام الذبح من جهة هاتين العبادتين.

قال رحمه الله: [وقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لا شَرِيكَ لَهُ﴾ الآية].

الله –عزَّ وجل– يقول لنبيه –صلى الله عليه وسلم–: ﴿قُلْ﴾، والأمر للنبي –صلى الله عليه وسلم– أمر لنا ما لم يدل دليل على الخصوصية. إذن؛ عندما قال –عزَّ وجل– لنبيه –صلى الله عليه وسلم–: ﴿قل﴾ فكأنّ الله قال لك أنت: قل.

﴿قُلْ إنَّ﴾: وإنَّ هنا لتوكيد. ﴿قل إنَّ صلاتي﴾: صلاتي قال بعض أهل العلم: يعني الصلوات الخمس المفروضة. وقال بعض أهل العلم: يعني صلاة الليل. وقال بعض أهل العلم: يعني صلاة العيد. والراجح: العموم. كل صلاة؛ الصلاة المفروضة، السنن الرواتب، صلاة الجنازة، صلاة العيدين، صلاة الليل، كل

صلاة. ﴿قل إن صلاتي ونسكي﴾: قال أكثر أهل العلم: ﴿نسكي﴾ يعني ذبيحتي. وقال بعض أهل العلم: يعني حجي. وقال بعض أهل العلم: يعني ديني. وقال بعض أهل العلم: يعني عبادتي. والأظهر الأول؛ يعني: ذبيحتي؛ لتقدم الصلاة. فهذا يدل على أنَّ النسك نوع خاص وليس الدين كله. ﴿ومحياي﴾: قال بعض أهل العلم: ﴿محياي﴾ يعني ما أعمله في حياتي. ﴿ومماتي﴾ قال بعض أهل العلم: معناه ما أُوصِي به، فإنّ الوصية تكون بعد الموت، أو ما أتركه بعد مماتي مما ينفع من ولد صالح، أو صدقة جارية، أو علم ينتفع به. وقال بعض أهل العلم: بل معنى ﴿مماتي﴾ هنا: ما أموت عليه؛ فأنا أحيا موحدًا وأموت موحدًا.

﴿لله﴾ اللام هنا يا أخوة تدل على الاستحقاق والاخلاص. ﴿لله﴾ أي أنّ المستحق لها هو الله، و﴿لله﴾ أي أنِّي أفعل مخلصاً لله. فاللام هنا تدل على الاستحقاق وتدل على الاخلاص.

وبعض أهل العلم قال: ﴿قل إن صلاتي ونسكي﴾ هذه عبادة. ﴿ومحياي﴾ أي حياتي، ليس فعلي، حياتي. ﴿ومماتي﴾ أي : موتي لله. ومعنى ذلك: قل إنّ صلاتي ونسكي للذي أحياني ويميتني؛ فتصبح اللام هنا بالنسبة للصلاة والنسك للاستحقاق والإخلاص، وبالنسبة للحياة والموت للمِلْك؛ أنّ حياتي من الله،

وموتي بيد الله سبحانه وتعالى، فتكون الثانية علةً للأولى، صلاتي ونسكي لله؛ لأن حياتي لله، وموتي لله، فالله –عزَّ وجل– هو الذي يحييني وهو الذي يميتني.

والأوّل أقرب من هذا المعنى.

﴿قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين﴾ ولاحظوا أنه في الغالب إذا ذُكِرَ التوحيد تُذكَر الربوبية؛ لماذا؟ لأنه يُذكَر الاستحقاق وسبب عظيم من أسباب الاستحقاق. (لله) كأنّ قائلًا قال: لماذا يستحق الله منك العبادة؟ كان الجواب: لأنه ربي وربُّ العالمين، رباني بنعمه فمن الظلم أن أجعل عبادتي لغيره. وربّ العالمين كذلك. ﴿لله رب العالمين﴾ وهذا توحيد خالص.

﴿لا شريك له﴾ فجاءنا بالشريك مع أنه تضمَّن في التوحيد، لكن قلنا لكم يا أخوة التوحيد لابد فيه: من إثبات العبودية لله عز وجل؛ إفراد الله بالعبادة، ونفي الشرك.

﴿وبذلك أمرتُ﴾ فليس اختراعًا من عندي؛ بذلك أُمرْت. ويتضمَّن المعنى الخطاب لك: وبذلك أُمرت، أنتَ أيها المسلم يامن شهدتَ أن لا إله إلا الله ؛ وأنّ محمدًا رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ بذلك أُمرتَ أن تقول وتفعل؛ ﴿إن

صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وأنا أول المسلمين﴾.

﴿وأنا أوّل المسلمين﴾ هنا وقف العلماء عند هذه الجملة؛ ما معنى ﴿وأنا أول المسلمين﴾؟ قال بعض أهل العلم: إن كان المقصود الأوليَّة في الزمان؛ فالمعنى: وأنا أول المسلمين من أمتي، وإلا من حيث الزمان سبقه الأنبياء –عليهم السلام– ومَن أسلم معهم، فيكون ﴿وأنا أول المسلمين﴾: من أمتي.

ويصح –فيما يظهر لي والله أعلم– أن يُقال: وأنا أوّل المسلمين الذين يُسمَّون بالمسلمين. والأمة التي سُمِّيت بالمسلمين هي أمة محمد صلى الله عليه وسلم، الأمم السابقة توصَف بالإسلام؛ لكنَّ التسمية لأمة محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿هو الذي سماكم المسلمين من قبل وفي هذا﴾، ﴿هو﴾ قيل: الله هو الذي سماكم المسلمين، يعني أنتم يا أتباع محمد صلى الله عليه وسلم. وقيل ﴿هو﴾: يعني إبراهيم –عليه السلام– هو الذي سماكم المسلمين. فالأمة التي تُسمى بهذا الاسم هي أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وإن كانوا المتقدمين مسلمين وصفًا ويوصفون بأنهم مسلمون. والمعنى واحد؛ يعني: أوَّل المسلمين من هذه الأمة.

وإن كانت الأولوية معنوية ليست زمانية، فالنبي –صلى الله عليه وسلم– أول المسلمين؛ بمعنى: أشرف المسلمين على الإطلاق. أول المسلمين معنى: هو

النبي صلى الله عليه وسلم. النبي –صلى الله عليه وسلم– سيد ولد آدم أجمعين صلى الله عليه وسلم، فهو أوّل المسلمين شرفًا، وهو أوّلهم في دخول الجنة، فأوّل مَن تُفتح له الجنة محمد صلى الله عليه وسلم.

فهنيئًا لمَن لزم ركابه صلى الله عليه وسلم، وحرص على سنته، وقدّم سنته على قول كل أحد، جعل سنتة النبي –صلى الله عليه وسلم– عنده مُقدَّمه على قول الناس أجمعين.

إذن؛ إذا كانت الأوّلية زمانية: فالمقصود أول المسلمين من أمته.

وإذا كانت الأوّلية معنوية: فهو أول المسلمين على الإطلاق؛ لأنه أشرفهم وهو أوّل مَن تُفتح له الجنة ويدخل الجنة صلى الله عليه وسلم.

والشاهد: أنَّ لآية تدل على أنّ الذَّبح عبادة؛ لأنّ الله قال: ﴿قل إن صلاتي ونسكي لله﴾، إذن الذبح عبادة؛ والمقصود: الذبح على وجه التقرب .

قال رحمه الله: [وقوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾]

وهذه من أعظم النعم على النبي صلى الله عليه وسلم، لمّا ذكر الله نعمته العظمى على النبي –صلى الله عليه وسلم– بإعطائه الكوثر، قال الله –عزَّ وجل– : ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾، ﴿صلِّ لربك﴾:أمر بالصلاة. قال بعض أهل العلم: يعني صلاة العيد؛ لتعلقها بالنحر هنا. وقال بعض أهل العلم: بل كل صلاة،

اجعل صلاتك كلها لله ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾. واللام هنا للاستحقاق والإخلاص. ﴿وانْحَرْ﴾ والنحر: نحر الإبل، والمعنى: وانحر لربِّك. إذن النحر والذبح عبادة تكون لله سبحانه وتعالى.

قال رحمه الله : [وعن علي رضي الله عنه قال: (حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم بأربع كلمات: لعن الله من ذبح لغير الله. لعن الله من لعن والديه. لعن الله من آوى محدثا ؛ لعن الله من غير منار الأرض) رواه مسلم]

هذا الحديث الصحيح العظيم الذي يجب أن نقف عنده بقلوبنا. عن علي بن أبي طالب –رضي الله عنه أمير المؤمنين وحبيبهم مع صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم رضي الله عنه– قال: (حدثني رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بأربع كلمات) أي أربع جمل– وتقدم معنا في الأصول ما يتعلق بالكلام– : (لعن الله من ذبح لغير الله). (لعن الله) هذه الجملة تُحتمَل أن تكون خبرية؛ أي أنَّ النبي –صلى الله عليه وسلم– يُخبر بأنَّ الله لعن مَن فَعَلَ هذا. ويُحتمل أنْ تكون دُعائية؛ أي أنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– يدعو على من فعل هذا بأن يلعنه الله. والأمران عظيمان جدًا.

«لعن الله من ذبح لغير الله» اللعن: هو الطرد والإبعاد من رحمة الله.

وهذا المذكور هنا؛ طرده من رحمة الله طردًا كليًّا، لا عفو معه، والجنَّة عليه حرام. وكما تعرفون أنّ الجنَّة من رحمة الله؛ فقد قال الله –عزَّ وجل– للجنة: «أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي» متفق عليه. فهذا مطرود من لعنة الله؛ طردًا مؤبَّدًا لا عفو معه، ولا يدخل الجنة؛ لماذا ؟ لأنه يشرك بالله شركًا أكبر.

«لعن الله من ذبح لغير الله» فتقرَّب بالذبح لغير الله، وتقدم معنا: أنّ هذا شرك أكبر، وبدأ به النبي –صلى الله عليه وسلم– لأنَّه أعظم هذه الذنوب.

«لعن الله مَن لعن والديه» أي: طَرَدَه الله من رحمته. وهذا وعيد لأهل الكبائر. ويدلُّ على أنَّ لعن الوالدين من الكبائر؛ بل لعن الوالدين من أكبر الكبائر يا أخوة؛ سواء كان اللعن مباشرة؛ وهذا قلَّ أن يقع من ذي فطرة سليمة، أو كان بالتسبب.

يعني سواء قال لوالده: لعنك الله! والعياذ بالله، أو قال لأمه: لعنك الله! وهذا قَلَّ أن يقع. أو بالتسبب، ما معنى بالتسبب؟ أن يكون سببًا في أن يلعن غيرُه والديه؛ فهذا من أكبر الكبائر.

سبحان الله! إذا كان من أكبر الكبائر أن يتسبب المرء في سب والديه؛ فكيف بمَن يَسبُّ والديه؟ كيف بمَن يضربهما؟ كيف بمَن يذهب بأمِّه إلى مدينة أخرى غريبة ويتركها في محطة البنزين ليتخلص منها وترتاح زوجته؟

يقول النبي –صلى الله عليه وسلم–: «إنَّ من أكبر الكبائر: أن يلعن الرجل والديه»، قيل: يا رسول الله! وكيف يلعن الرجل والديه؟»، الصحابة أهل الفطر؛ كيف يلعن الرجل والديه؟ وانتبهوا يا أخوه! هم هنا لم يعترضوا على النبي صلى الله عليه وسلم، هم يصدِّقون ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم؛ لكن أردوا أن يعرفوا كيف. أنا سمعت لبعضهم يقول: اعترضوا على النبي صلى الله عليه وسلم! واليوم نسمع العجائب الغرائب من المتكلمين الذين قُدِّمُوا للناس وليسوا علماء. يأتي شخص ويقول: يجوز لك أن تعترض على الله! أعوذ بالله أعترض على الله؟! ويأتي بعض الناس يقول: الصحابة هنا اعترضوا على الرسول صلى الله عليه وسلم!! الصحابة أرادوا أن يتعلَّموا، ما اعترضوا؛ قالوا: وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال: «يَسبُّ الرجل أبا الرجل؛ فيسبُّ أباه ويسبُّ أمه». متفق عليه، واللفظ للبخاري.

يسبَّ الرجل أبا الرجل، فيقوم هذا الرجل ينتقم منه؛ يسبُّ أباه ويسبُّ أمه. فيكون هذا قد ارتكب كبيرة من أكبر الكبائر.

ومن ذلك يا أخوة؛ إذا علمتَ أنَّ الرجل لعَّان، وأنَّك إذا سببتَه –بغير اللعن– سيسب أباك ويسب أمك؛ يدخل في هذا؛ لأنك تعرف من حاله هذا. ولذلك يا أخوة؛ يجب أن نكون على حذر.

من أدب ديننا: أنك إذا عملتَ أنك إذا سببتَ شيئًا أو أحدًا سبَّ معظمًا أو محترمًا؛ حَرُمَ عليك أن تسبَّه. إذا علمتَ أنك إذا سببتَ آلهة الكفار يسبون الله؛ حَرُم عليك أن تسبَّ آلهتهم. إذا علمتَ أنك إذا سببتَ شيئًا للكفار يسبون رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ حرم عليك أن تسبَّ ذلك. إذا علمتَ أنك إذا سببتَ أحدًا سيسبّ أباك أو يسبّ أمك في غالب الظن؛ حرم عليك أن تسبه، بل يصبح من كبائر الذنوب؛ بل من أكبر الكبائر.

وهذا شأن عظيم يا أخوة، هذا يدلك على شأن عظم الوالد، أمك عندك في البيت جوهرة، أبوك عندك في البيت جوهرة، باب من أبواب الجنة، بل هو أوسط أبواب الجنة؛ فإن شئتَ فضيِّعه وإن شئتَ فأبقه.

الله أكبر يا أخوة! إذا كان من أعظم الواجبات أن نصون جناب الوالدين عن السب؛ فكيف بصيانتهما من ألسنتنا نحن ومن أفعالنا نحن؟!

وهذا الأمر –والله– لو تكلمنا فيه الوقت الطويل لما كان كثيرًا عليه، نحن بحاجة، يا أخوان! الناس اليوم أصبحوا يقصرون في حق الوالدين، حتى طلاب

العلم أصبحوا يقصرون في حق الوالدين! نحتاج أن ننبِّه وأن نذكِّر لعل الله أن يحي القلوب.

قال –صلى الله عليه وسلم–: «لعن الله من آوى محدِثًا» وتضبط أيضـًا بفتح الدال: «لعن الله من آوى محدَثًا».

«لعن الله من آوى محدِثًا» أي مبتدعًا؛ فآواه، وناصره، وحماه، وقوَّاه على بدعته؛ هذه كبيرة من كبائر الذنوب، مستحق للعن. أو: آوى مجرمًا وجب عليه حقٌّ لله أو حقٌّ لخلق الله؛ فمَنَعَ من أن يُقام عليه الحق؛ إما بجاهه أو بقدراته. رجل زنى، وثَبَتَ عليه الحد، فيأتي رجل بشفاعته ووساطاته يحميه. أو رجل سرق مال مسلم ويذهب إلى شخص يقول له: اجعلني عندك في البيت أيامًا! هو يعرف أنه مجرم للمسلم عليه حق؛ هذا آوى محدِثًا. في أيِّ مكان، ليس خاصًا بالمدينة. في المدينة، في مكة، في القاهرة، في الاسكندرية، في الدار البيضاء، في الجزائر، في تونس، في أيِّ مكان: «لعن الله من آوى محدِثـًا».

وتضبَط أيضًا بفتح الدال: «محدَثًا» أي: لعن الله من آوى بدعة أو جريمة فمكّنها. مثل: فتح بيته للمبتدعة يقيمون البدعة، حمى المبتدعة بميثاق يُحمى به المبتدعة؛ ويقولون: اجتهاد، يفعلون ما يشاؤون! هذا آوى محدِثًا أو أوى محدَثًا؛ الاثنين؛ لأنه يحمي البدعة ويجعلها تبقى وتترعرع ويحمي المبتدعة.

أو آوى جريمة، أو أجَّر بيته على مبتدعة، يقيمون بدعهم فيه؛ هذا آوى محدِثًا، وهذا من كبائر الذنوب.

المبتدعة يجب علينا أن نكسر بدعتهم، وأن ننصحهم، وأن نبيَّن لهم هذا الشر، لا أن نؤويهم ونقويهم ونترك لهم الزمان والمكان من أجل أن يزيدوا بدعتهم بين الناس.

والله يا أخوة العلماء يقولون: "المبتدع يأخذ منك ولا يعطيك"، حتى لو قال لك: تعال نتقارب! ما يقول في حقيقة الأمر: تعال نتقارب؛ يقول: تعال اقرُب.

«لعن الله من آوى محدِثًا» النبي –صلى الله عليه وسلم– حمى جناب السنة. ويجب أن نحمي جناب السنة.

«لعن الله من غيَّر منار الأرض»، منار الأرض: يعني الأعلام التي تدل على الحدود بين الجيران. فإذا غُيرَت اختلطتِ الأملاك. فالذي يُغيِّر منار الأرض ارتكب كبيرة ولو لم تكن له مصلحة. أراضي للناس وعليها علامات؛ يأتي مُفسِد ويحمل هذه العلامات، هو نعم ما يستفيد من جهة أنَّه يأخذ شيئًا؛ لكن غيَّر منار الأرض وجعل الأملاك تختلط؛ ارتكب كبيرة من كبائر الذنوب. فإن كان المُغيِّر مستفيدًا؛ فهذا اعظم. مثل: الجار الذي بينه وبين جاره حدود

وعلامات؛ فيأتي في الليل ويغيِّر الحدود يدخلها في أرض جاره متر أو مترين؛ هذا ارتكب كبيرة من كبائر الذنوب.

وتخصيص النبي –صلى الله عليه وسلم– لهذه الأمور الأربعة دليل على عظم جُرمها. فيجب علينا أنْ نتفقه فيها، وأن نلزمها، وإذا أخطأنا في شيء منها أن نرجع إلى الله، وأن نتوب إلى الله، والله يقبل توبة التائب.

إذا حصل منا أنّا ذبحنا لغير الله –نعوذ بالله من ذلك– نتوب إلى الله، والله يقبل التائب. إذا حصل منا لعن الوالدين أو تسببنا في هذا؛ نتوب إلى الله ونحاول أن نرضي والدينا، والله يقبل توبة التائب. إذا حصل منا خطأ أنَّا آوينا محدِثًا بأيّ صورة من الصور –ولو عن طريق الاجتهاد–؛ نتوب إلى الله ولا نؤي المحدِث. إذا حصل منَّا خطأ أنَّا غيَّرنا منار الأرض؛ نعيد منار الأرض كما هو، ونتوب إلى الله سبحانه وتعالى.

قال رحمه الله: [وعن طارق بن شهاب: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «دخل الجنَّة رجل في ذباب، ودخل النَّار رجل في ذباب». قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: «مرّ رجلان على قوم لهم صنم لا يجُوزه أحد حتى يُقرب له شيئا، فقالوا لأحدهما: قرِّب. قال ليس عندي شيء أقرب.قالوا له: قرِّب ولو ذبابا. فقرَّب ذبابا، فخلوا سبيله. فدخل النار. وقالوا للآخر: قرِّب. فقال: ما كنت لأقرِّب لأحد شيئا دون الله، فضربوا عنقه؛ فدخل الجنة» رواه أحمد]

هذا الحديث يا أخوة لنا معه وقفات.

الوقفة الأولى: أنه من رواية طارق بن شهاب. وطارقُ بن شهاب اتفق العلماء على أنه لا رواية له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن كان الراجح أنه له رؤية؛ رأى النبي صلى الله عليه وسلم، هذا الراجح، لكن لم يروِ عن النبي صلى الله عليه وسلم؛ وهذا إشكال! والجواب عن هذا الاشكال: أنَّه على هذا: مرسَلُ صحابي. ومرسل الصحابي صحيح. نقول: مرسل صحابي؛ لأنَّه أسقَط راويًا هنا؛ وهو الذي فوقه. لكنّ مرسَل الصحابي صحيح؛ لأنه يروي عن صحابي، وجهالة الصحابي لا تضر، لماذا لا تضر؟ لأنّ الصحابة كلهم عدول، ونحن نحتاج أن نعرف الراوي لنعرف هل هو عدل أو لا؟ لكن لا نحتاج إلى هذا الجواب هنا بالذات؛ لأنّ جميع كتب الحديث التي روته قد روته عن طارق بن شهاب عن سلمان رضي الله عنه. جميع كتب الحديث التي روت هذا روته عن طارق بن شهاب عن سلمان الفارسي رضي الله عنه؛ إذن هنا: ما فيه مرسل.

الوقفة الثانية: أنَّ الشيخ قال هنا: أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال) ولم نجد هذا الأثر مرفوعـًا في شيء من كتب السنَّة، بل كل من رواه من المحدثين رواه موقوفًا على سلمان رضي الله عنه. وقد رواه موقوفًا على سلمان: الإمام أحمد في الزهد، وابن ابي شيبة، وابن الأعرابي، والبيهقي في الشعب، والخطيب

في الكفاية، وغيرهم، بإسناد صحيح. فهو إلى سلمان –رضي الله عنه– بإسناد صحيح.

ولعلَّ الشيخ محمد بن عبدالوهاب –رحمه الله– قد تابع ابن القيم في ذكره مرفوعًا؛ لأن ابن القيم –رحمه الله– في كتابه "الجواب الكافي عن الدواء الشافي" أو "الداء والدواء" قال: "روى الامام أحمد عن طارق بن شهاب يرفعه"؛ فلعلَّ الشيخ أخذه من هذا. وإلا فكتب الحديث التي اطلعنا عليها: هذا الأثر فيها موقوف وليس مرفوعًا.

الوقفة الثالثة: هذا الأثر الصحيح عن سلمان رضي الله عنه هل له حكم الرفع؟

ذهب بعض أهل العلم: إلى أنَّ هذا الأثر له حكم الرفع، لماذا؟ قالوا: لأنّ فيه إخبارًا عن قصةٍ وقعت وتضمَّنت أمورًا غيبيّة؛ دخول النار ودخول الجنة، والظن بالصحابي أنَّه لا يَذكر الأمور الغيبية إلا بتوقيف. يعني هذه ليست قصة نقول: يمكن تكون إسرائيليات! بل هذا خبر عن شيء غيبيّ؛ وهو دخول الجنة ودخول النار، والظن بالصحابي أنه لا يذكر ذلك إلا بتوقيف عن رسول صلى الله عليه وسلم.

وأبى ذلك بعض العلماء؛ وقالوا: لعلّ سلمان -رضي الله عنه- أخذه من الإسرائيليات؛ لأنّ سلمان الفارسي -رضي الله عنه- قبل إسلامه كان مع النصارى والرهبان؛ فلعلَّه سمع ذلك منهم. بل قوى ذلك أهل العلم قالوا: هذا عندنا أنه من الإسرائيليات.

والأول عندي أقوى -والله أعلم-: أنَّ له حكم الرفع؛ لاسيما إذا بيَّنا وجه القصة؛ فإنّ العلماء الذين مالوا إلى أنها من الإسرائيليات مالوا إلى ذلك لَمَا في القصة من غرابة -سنبيّن وجهها- لكن إذا بينَّا الوجه الصحيح فإنه يظهر -والله أعلم- أنّ الأقرب: أنّ هذا الأثر له حكم الرفع فيما يظهر لي. والله أعلم.

الوقفة الرابعة: القصة فيها غرابة، ما وجهها؟ لأنَّ الرجل الذي دخل النار دخلها في ذبابٍ قدَّمه وهو مكرَه، والإكراه يرفع المؤاخذة. يعني هذا الرجل ظاهر الحديث أنَّه دخل النار في الذباب الذي قدمه، وأنَّه قدَّمه بسبب إكراه القوم له، والإكراه يرفع المؤاخذة ﴿إلا من أُكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾؛ إذن القصة فيها غرابة! والجواب عن هذا من وجوه:

الوجه الأول: أن يقال: إنّ هذا الرجل كان مشرِكًا أصلًا، قبل أنْ يقرِّب كان مشركًا أصلًا. وهذا الجواب ضعيف؛ لأنّ ظاهر الأثر: أنَّه دخل النار بسبب تقريبه الذباب، ولو كان مشركًا أصلًا لدخل النار بسبب شركه الأصلي وليس بسبب تقريبه للذباب.

والوجه الثاني: أنّ العذر بالإكراه لم يكن في الأمم السابقة قبل الإسلام، وإنَّما من رحمة الله بأمة محمد –صلى الله عليه وسلم– أنه عذرها بالإكراه، فهذا من الآصار التي كانت على الأمم السابقة –أعني المؤاخذة بالإكراه– ورُفِع عن أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وهؤلاء يا أخوة من الأمم السابقة.

ويدل لهذا الوجه: أنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: «إنَّ الله تجاوز عن أمتي عن الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه». رواه ابن ماجه وغيره، وصححه الألباني . «إن الله تجاوز عن أمتي» ظاهر هذا: أنّ هذا التجاوز للأمة دون غيرها. وهذا الوجه قويّ جدًّا.

والوجه الثالث: أنه فعل ذلك راضيًا به، منشرح الصدر به، لا كارهًا له.

ويدلُّ لذلك: أنَّهم لمَّا قالوا له: قرِّب، ماذا قال؟ ما قال: أنا لا أقرِّب، ما قال: أنا مسلم ما أقرِّب، بل قال: ما عندي شيء أقرِّب به! يعني كأنه يقول: لو عندي شيء قرّبت. بخلاف الرجل الآخر قال: ماكنتُ لأقرِّب شيئًا لغير الله.

أيضًا؛ يدل له: أنّ سلمان –رضي الله عنه– ذَكَرَ –وقلنا هذا له حكم الرفع– أنَّه قرَّب؛ قال: «فقرَّب ذبابًا» أي أنه تقرَّب بهذا، ولم يقل: ذبح ذبابةً؛ بل قال: «قرَّب»؛ وهذا يتضمن أنَّه تقرَّب بهذا. إذن فعل ذلك وهو منشرح الصدر فكفر بهذا بعد أنْ كان مسلمًا.

إذن؛ اندفعت غرابة القصة التي جعلت بعض علمائنا الأكابر كالشيخ ابن عثيمين –رحمه الله– والشيخ الألباني –رحمه الله– يميلون أنها من الإسرائيليات.

ولذلك؛ يظهر لي –والله أعلم– نظرًا إلى حسن الظنِّ بالصحابي وإلى ما تضمنته القصة: أنّ هذا الأثر له حكم الرفع. فإنَّ مثل هذا يَبعُد أن يحكيه الصحابي عن أهل الكتاب من غير نسبته إليهم. فهنا نرى سلمان –رضي الله عنه– ما قال: "يُقال"، "يُذكر"؛ بل قاله جازمًا. هذا أولًا.

ثانيـًا: ما قال: "سمعتُ أهل الكتاب"، أو "سمعتُ النصارى"، أو "كان النصارى يقولون"، بل قاله جازمًا لا حاكيًا؛ من غير أن ينسبه إلى النصارى. فحسن الظنِّ بالصحابي أنه لا يفعل ذلك في مثل هذا إلا عن توقيف. ولذلك أميل –والله أعلم– إلى: أنّ هذا الأثر له حكم الرفع.

وهذه الوقفات يا أخوة تجلِّي لكم هذا الأثر. لأنّ هذا الأثر صار حوله كلام طويل، لكن إذا فصَّلناه على هذا ووقفنا مع كل وقفة بتدبر علمي يظهر لنا هذا. وتبقى المسألة مسألة اجتهاد علمي. والشيخ الألباني –رحمه الله– له فضل أنَّه نبَّه أنّ هذا ليس مرفوعًا، تنبيهًا علميًّا قويًّا، وأنَّه صحيح إلى سلمان رضي الله عنه، لكنه مال –رحمه الله– إلى أنه من الإسرائيليات. والأمر كما سمعتم فيما ظهر لي.

قال (عن طارق بن شهابٍ عن سلمان قال:) وقلنا: هذا له حكم الرفع فيما يظهر لنا اجتهادًا، «دخل الجنَّة رجل في ذبابٍ، ودخل النار رجل في ذباب»، قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟!» يعني الذباب حيوان ضعيف مستقذَر كيف يدخل رجل النَّار فيه؟! ويسلم رجل من النار ويدخل الجنة بسببه؟!

قال: «مرّ رجلان» –طبعـًا كما قلنا: «قالوا وكيف ذلك يا رسول الله؟!» يعني ليس في الأثر لكنه في الحكم–قال: «مرَّ رجلان» أي من الأمم السابقة. «على قومٍ لهم صنم لا يجوزه أحد» أي لا يجاوزه ويتعداه. «حتى يقرِّب له شيئًا، فقالوا لأحدهما قرِّب، قال ليس عندي شيء أقرِّب» ما قال: ماكنتُ لأقرِّب؛ قال: « ليس عندي شيء أقرِّب. قالوا له: قرِّب ولو ذبابـًا». وهذا يدلكم يا أخوة على أنّ المشركين يعلمون أنَّ المهم الاعتقاد؛ وإلّا الذبابة ماذا تنفعهم أو تنفع الصنم؟! لا تؤكَل، ولا تنفع بشيء، لا يؤخذ منها شيءٌ مطلقـًا، بل قذارة إذا قُتلت؛ لكن للاعتقاد، فيَعظُم الفعل بالاعتقاد، فإذا قرَّب اعتقد؛ فعَظُم الأمر. وإلاَّ فالذبح لغير الله ولو كان بعوضة، لو واحد رأى بعوضة عن القبر وقتلها تقرّبًا لصاحب القبر؛ فقد أشرك. «قالوا قرِّب ولو ذبابًا، فقرَّب ذبابـًا فخلو سبيله» تركوه. «فدخل النار» وقد بيَّنا لكم وجه ذلك. «وقالوا للآخر: قرِّب. قال: ماكنتُ لأقرِّب لأحد شيئًا دون الله عزَّ وجل» لا أقرِّب إلا لله. إذن هنا تضمن كلامه

توحيده هو، وتسفيه فعلهم؛ أنَّهم يقربون للأصنام. «فضربوا عنقه» قتلوه «فدخل الجنَّة». ولا شكَّ أنّ التوحيد سبب عظيمٌ، وهو مفتاح الأسباب لدخول الجنة.

ولعلَّنا نقف هنا لنجيب عن بعض أسئلة اخواننا. ونكمل مسائل الباب وننتقل للباب الثاني غدًا إن شاء الله عزَّ وجل. والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

الدرس السادس عشر: تابع شرح باب: ما جاء في الذبح لغير الله

بسم الله الرحمن الرحيم

درسنا هو في شرح كتاب التوحيد كما تعلمون. ولا زلنا نقف مع أبواب التوحيد، نتفقه في ديننا ونعرف الأحكام المتعلقة بهذا الأمر العظيم.

ونحن كنا قرأنا ما يتعلق بالذبح لغير الله عز وجل. وأظن أنّا لم نقرأ المسائل التي ذكرها الشيخ في هذا الباب. فيتفضل الشيخ ياسين –وفقه الله– يقرأ لنا هذه المسائل.

يقول الإمام المجدد محمد بن عبدالوهاب –رحمه الله– في كتاب التوحيد في باب: (ما جاء في الذبح لغير الله): [فيه مسائل: تفسير ﴿إن صلاتي ونسكي﴾]

نعم؛ كما تقدّم معنا، وبيّنا أنّ الراجح من أقوال أهل العلم أنّ النسك: هو الذبيحة. وبيّنا مناسبتها للباب.

قال: [الثانية: تفسير ﴿فصل لربك وانحر﴾]

نعم؛ وقد تقدم معنا، وقلنا: معنى الآية: فصل لربك وانحر لربك، فدل ذلك على أنّ النحر عبادة.

قال: [الثالثة: البداءة بلعن مَن ذبح لغير الله]

أنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– في الحديث الذي ذكر فيه الأربعة –أي الأجناس الأربعة الملعونين– بدأ بمَن ذبح لغير الله؛ وذلك لأنها أعظمها إثمًا؛ فهو شرك بالله.

قال: [الرابعة: لَعْنُ مَن لَعَنَ والديه]

نعوذ بالله من ذلك. وتقدّم معنا يا إخوة أنّ هذا من أكبر الكبائر.

قال رحمه الله: [الخامسة: لعْنُ مَن آوى محدِثًا؛ وهو الرجل يحدِث شيئًا يجب فيه حق الله؛ فيلتجئ إلى من يجيره من ذلك]

هذا أحد المعنيين. الرجل الجاني إذا جنى جناية ووجب عليه حق لمخلوق أو حق لله عز وجل، فذهب إلى آخر يستنصره؛ فإنه إن آواه فهو ملعون.

والوجه الثاني: المبتدِع حال فعله لبدعته. فإنّ مَن آواه ونصره وقوّاه ومكّنه من إقامة بدعته؛ يدخل في هذا اللعن. والعياذ بالله.

قال رحمه الله: [السادسة: لعن مَن غيّر منار الأرض، وهي المراسيم التي تفرِّق بين حقك من الأرض وحق جارك فتغيُّرها بتقديم أو تأخير]

وتقدم معنا بيان هذا. وهو لعن مَن غيَّر الحدود التي بين الجيران. تغيُّرها أنت أيها الجار أو غيرك. كما تقدم معنا لو أنّ شخصًا جاء وغيَّر الحدود وضيَّعها

وضيَّع حدود الناس فإنه يكون فاعلًا للكبيرة. فإذا غيَّرها الجار ليأخذ شيئًا من أرض جاره؛ فهذه كبيرة مع كبيرة؛ غيَّر منار الأرض واقتطع من أرض أخيه.

قال رحمه الله: [السابعة: الفرق بين لعن المعيَّن ولعن أهل المعصية على سبيل العموم]

نعم؛ المقصود: أنّ النبي صلى الله عليه وسلم لَعَنَ أصحاب المعاصي هؤلاء من غير تعيين؛ فقال: «لعن الله من لعن والديه، لعن الله من آوى محدثًا، لعن الله من غيَّر منار الأرض»، فهذا لعْنٌ بالعموم، بالجنس، وليس لعنًا لمعيَّن.

أمّا لعن المعيَّن: فهو أن تلعن الجاني الذي فَعَلَ ما وَرَدَ فيه اللعن بعينه. شخصٌ مسلم شَرِبَ الخمر؛ لا يجوز أن تلعنه فتقول: لعنك الله، مع أنّ النبي – صلى الله عليه وسلم– لعن شارب الخمر، لكن لم يلعن معيَّنًا.

ولذلك؛ لمّا جيء بالرجل الذي يقال له حمار وقد كان يضحك النبي صلى الله عليه وسلم وشرب الخمر، فجلده النبي صلى الله عليه وسلم، فأتي به مرة أخرى، فجلده النبي صلى الله عليه وسلم، فقال رجل: اللهم العنه ما أكثر ما يؤتى به! كأنه يقول: هذا يشرب الخمر وما يستحي حتى من الرسول الله صلى الله عليه وسلم! الذي يقيم عليه الحد ليس سلطانًا ولا حاكمًا، الذي يقيم عليه الحد الرسول صلى الله عليه وسلم، ومع ذلك جاء مرتين أو ثلاثًا؛ فقال الرجل:

اللهم العنه، فقال النبي –صلى الله عليه وسلم-: «لا تلعنه»؛ وذكر أنه يحب الله ورسوله. فنهاه النبي –صلى الله عليه وسلم– هنا عن لعن المعيَّن. فالمعيَّن لا يُلعَن.

وتعلمون أنّ المؤمن لا يكون لعَّانًا؛ فيحرص على عدم اللعن للمعينين.

فإن قال قائل: قد جاء في سنن أبي داود: أنّ رجلًا جاء للنبي –صلى الله عليه وسلم– فاشتكى جاره، فأمره بالصبر، فجاء مرتين أو ثلاثة، فلمّا جاء بعد ذلك قال له: أخرج متاعك فألقه، فأخرج متاعه، فأصبح الناس يمرون عليه ويسألونه: ما الذي جعلك تُخرِج متاعك من بيتك؟ فقال: إنّ جاري يؤذيني، فأخذوا يلعنونه؛ وقالوا: اللهم افعل به كذا، اللهم افعل به كذا، فلمّا رأى ذلك جاء إلى جاره وقال: أعد متاعك ولا أفعل ذلك أبدًا.

الشاهد هنا: أنه ورد في الحديث –والإسناد صحيح– «أنهم أخذوا يلعنونه» وهذا معيَّن، ومنه قال بعض أهل العلم: إنه إذا تعيّن اللعن للزجر فإنه يُلعَن المعيَّن. يعني مثلًا شخص مصرّ على المعصية التي ورد فيها اللعن –مثل شرب الخمر ونحو ذلك– فعلمنا أنه لا ينزجر إلا إذا أصبحنا نلعنه –أنا أقرِّر قولًا لا أرجّحه– علمنا أنّا إذا لعناه وقلنا له: لعنك الله! فإنه يترك شرب الخمر؛ قالوا: هنا يجوز؛ لأنه يحقق المقصود الشرعي.

لكن الراجح –والله أعلم– أنّ لعن المعيَّن لا يجوز؛ لأنّ المعيَّن يُدعى له بالهداية لعل الله أن يهديه. حتى أنّ أهل العلم ذكروا أنه حتى الكافر حال كونه حيًّا لا يُلعَن؛ لأنه قد ينقلب مِن كونه كافرًا إلى كونه من خيرة المسلمين. كما بعض صحابة رسول الله –صلى الله عليه وسلم– في أوّل الأمر كخالد بن الوليد، كانوا كفارًا ولم يؤمنوا بالنبي –صلى الله عليه وسلم– أوّل الأمر، وحاربوه؛ ثم أصبحوا مِن خيرة عباد الله بإسلامهم. فقالوا: حتى الكافر لا يُلعَن بعينه إذا كان حيًّا، ولا يُلعَن بعينه إلا إذا عُلِم أنه مات على الكفر.

لكن نحن الآن نتكلم عن أخصّ من هذا: لَعْنُ المعيَّن المسلم إذا فَعَلَ ما ورد اللعن عليه؟ فإنّ الصحيح أنه لا يجوز أن يُلعَن على أيِّ وجه.

فإن قيل لي: طيِّب هذا الحديث الذي ذكرته وقد قلتَ إنه صحيح! نقول: معنى اللعن هنا هو: السبّ. أخذوا يلعنونه: أي يسبونه. فإنه لم يَرِد أنهم قالوا: لعنة الله أو اللهم العنه، بل الذي بعده يفسِّره؛ يقولون: اللهم افعل به كذا، يدعون عليه. يلعنونه: أي يسبونه ويدعون عليه. أمّا لعن المعيَّن فلا يجوز.

وهذا الذي أراده الشيخ؛ الفرق بين لعن المعيَّن ولعن أصحاب المعاصي في الجملة: أنّ لعن أصحاب المعاصي بالجملة يجوز، أمّا لعن المعيَّن فلا يجوز.

قال رحمه الله: [الثامنة: هذه القصة العظيمة؛ وهي قصة الذباب]

وقد تقدم ما فيها.

قال رحمه الله: [التاسعة: كونه دخل النار بسبب ذلك الذباب الذي لم يقصده؛ بل فعله تخلُّصًا من شرهم]

هذا على رأي الشيخ؛ أنه لم يقصد ذلك وإنما فعله تخلُّصًا من شرهم. وهذا مرجوح. وقلنا الأقرب –والله أعلم– أنه فعل ذلك منشرح الصدر، راضيًا به.

أو يكون على الوجه الثاني: فعل ذلك مكرَهًا؛ لكن لا عذر في أمته بالإكراه.

[العاشرة: معرفة قدر الشرك في قلوب المؤمنين، كيف صبر ذلك على القتل ولم يوافقهم ذلك على طِلبتهم مع كونهم لم يطلبوا إلا العمل الظاهر]

نعم؛ لأنّ الرجل الثاني لمّا قيل له: قرِّب ولو ذبابًا، قال: ما كنتُ لأقرِّب لأحدٍ شيئًا دون الله، يعني هم قالوا له: قرِّب، ورأى أنهم قالوا للأول: قرِّب ذبابًا –إذا كانت القصة للرجلين معًا– قال: ما كنتُ لأقرِّب شيئًا –مهما صغر– لغير الله، وهذا يدلك على عظم التوحيد في قلوب الموحدين.

قال: [الحادية عشرة: أنّ الذي دخل النار مسلم؛ لأنه لو كان كافرًا لم يقل: دخل النار في ذباب]

كما تقدّم بيانه، وهذا صحيح.

قال رحمه الله: [الثانية عشرة: فيه شاهد للحديث الصحيح: «الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، والنار مثل ذلك»]

نعم؛ فمَن مات قامت قيامته. ووجه الدلالة من القصة: أنّ الرجل قرَّب فدخل النار؛ يعني بموته. وأنّ الآخر أبى أن يقرِّب فضُرِب عنقه فدخل الجنة. وهذا يدل على قربهما.

قال: [السادسة عشرة: معرفة أنّ عمل القلب هو المقصود الأعظم حتى عند عبدة الاوثان]

ولذلك قالوا له: قرِّب ولو ذبابًا، مع أنّ الذبابة لا تنفع شيئًا؛ ولكن أرادوا الاعتقاد.

تابع الدرس السادس عشر: شرح باب: لا يُذبح لله بمكانٍ يُذبح فيه لغير الله

قال رحمه الله: [باب: لا يُذبح لله بمكانٍ يُذبح فيه لغير الله]

نعم؛ لمّا ذكر الشيخ –رحمه الله– في الباب السابق مسألة عظيمة؛ وهي مسألة الذبح لغير الله؛ أن يُقصَد بالذبح غير الله عز وجل –وهذه تقع من جماعات ينتسبون إلى الإسلام– انتقل إلى مسألة أخرى تتعلق بها؛ وهي كالوسيلة لها؛ وهي تقع أيضًا من جماعات ممن ينتسبون للإسلام؛ ألا وهي: الذبح لله في مكان يُذبَح فيه لغير الله، سواء كان الذبح لغير الله في زمن سابقٍ أو موجودًا عند ذبحه لله في هذا المكان.

يعني؛ لو كان هنا قبر يُذبَح عنده لغير الله، فالناس يأتون بذبائحهم يذبحونها لغير الله، وجاء هذا بذبيحته يذبحها معهم لله! هذا وافقهم في الزمن.

أو كان هذا القبر عند أجداده يُذبَح فيه عنده لغير الله، كان أجداده يذبحون عند هذا القبر لغير الله، ثم تُرِك هذا، فجاء هذا بأضحيته مثلًا أو عقيقته إلى عند القبر وذبحها لله! هذا أيضًا ذبح لله في مكان يُذبَح فيه لغير الله.

يعني يا إخوة سواء كان ذلك في الزمنِ المتقدم –أعني الذبح لغير الله– أو كان مقارِنًا لذبحه لله في ذلك المكان. وهذا حرام كما قرَّرته الأدلة. وهو عند كثيرٍ من أهل العلم من الشرك الأصغر؛ لأنه ذريعة لأن يقع الإنسان في الذبح لغير الله.

إذا جاء إنسان يذبح لله في مكان يُذبَح فيه لغير الله؛ فإنّ الشيطان قد يأتيه بعد فترة؛ يقول: أرأيت طعم اللحم كيف كان؟ أليس مختلفًا؟ أرأيت البركة؟ جلس عندك كم يوم بخلاف العادة! ثم يأتيه بعد فترة يقول: هذا بسبب ذلك المكان، ذلك المكان المبارك! فيبدأ ثم يأتي فيذبح لغير الله. وتقدّم معنا أيها الإخوة؛ أنّ الشيطان يأتي لابن آدم فيأخذه إلى الشر خطوة خطوة.

ولأنه أيضًا ذريعة لأن يقع غيره من الجهال في الذبح لغير الله. هو أَخَذَ الذبيحة أمام الناس وذهب عند هذا القبر وذبحها لله؛ ما الذي يُدري الجاهل؟ يأتي الجاهل ببقرته أوبشاته أوبديكه يذبح ذبيحته عند القبر لصحاب القبر؛ مقتديًا به! وهذا ظاهر جدًّا.

ولأنه ذريعة لإحياء الذبح لغير الله إن كان الذبح لغير الله قد تُرِك. يعني الناس يذبحون تحت هذه الشجرة لإخوانهم الجن، للصالحين من الجن، ثم تركوا هذا، وأصبحوا لا يذبحون، ثم جاء هذا الرجل ذبح لله تحت هذه الشجرة؛ ربما يعود الناس إلى الذبح لهذه الشجرة للجن بفعله هذا! فيكون سَنّ سنة سيئة في الإسلام، فيكون عليه وزرها ووز من عمل بها من بعده. وهذا ظاهر كما ترون، هذه الذرائع الثلاث ظاهرة جدًّا.

ولذلك؛ هذا عند جمع من أهل العلم –وهو المستظهر عندي– من الشرك الأصغر؛ لأنه ذريعة إلى الشرك الأكبر.

ويُلحَق بذلك أيها الفضلاء: الذبح لله في مكان صالحٍ لأن يُذبح فيه لغير الله. حتى لو لم يُذبَح فيه لغير الله مِن قبل؛ لكن مهيَّأ؛ مثل القبر.

لو أنّ شخصًا جاء بذبيحته ويذبح عند البقيع لله، عند البقيع ما يُذبَح لغير الله، ولم نعلم في السابق أنه كان يُذبَح لغير الله عند البقيع، لكن هذا المكان صالح لأن يغش الشيطان الناس ليوقعهم في الذبح لغير الله.

أنا من أهل المدينة آخذ ذبيحتي وأذبحها عند البقيع وأعلّقها في سور البقيع وأسلخها، يأتي الزائر يقول: انظر هذا المدني من أهل المدينة من أهل العلم ممن ناصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم يذبح عند البقيع! فيذبح هو لأصحاب القبور، ولربما إذا عاد إلى بلده وعندهم مقبرة لا يُذبَح فيها لغير الله؛ يذبح هو لغير الله.

فإذا كان المكان صالحًا لأنّ الناس تفعل ذلك في العادة حتى لو لم يكن يُذبَح فيه لغير الله في السابق؛ فإنه لا يذبح فيه لله؛ لأنه ذريعة لأن يُذبَح لغير الله فيه؛ فهذا لا يجوز.

طيِّب؛ هذا الذبح –الذبح لله في مكان يُذبَح فيه لغير الله– بعض أهل العلم –كما قلتُ لكم– قال: حرام.

بعض أهل العلم قال: إن ذَبَحَ في المكان لاعتقاد فضيلته: فهو بدعة. وإن ذبحَ لغير اعتقاد الفضيلة: فهو حرام. أعني الذبح.

إن ذبح في المكان هذا لاعتقاد الفضيلة، لا للتقرّب لصاحب القبر؛ وإنما لاعتقاد فضيلة المكان: فهذا بدعة؛ لأنه أضاف الذبح إلى مكان لم يُضَفْ إليه شرعًا.

وإن كان لغير اعتقاد الفضيلة؛ لكن لأنّ فيه شجرة لها أغصان يستطيع أن يعلق فيها الذبيحة: فهذا حرام. والراجح عندي –كما قلتُ لكم–: أنّ هذا الذبح من الشرك الأصغر.

قال رحمه الله: [وقول الله تعالى: ﴿ لا تقم فيه أبدا﴾ الآية]

هذه الآية العظيمة نزلت في مسجد الضرار، الذي بناه المنافقون كفرًا وتفريقًا بين المؤمنين، ولجعله مكانًا ليجتمع فيه المنافقون، وتكون صلاة النبي –صلى الله عليه وسلم– فيه حجة لهم؛ إذا قيل لهم: لماذا لا تأتون إلى المسجد النبوي؟ قالوا: نحن في هذا المسجد الذي صلى فيه النبي صلى الله عليه وسلم. وجاؤوا إلى النبي –صلى الله عليه وسلم– قالوا: قد بنينا مسجدًا؛ والله ما نريد إلا الخير! وهم كاذبون كما فضحهم الله عز وجل، فقال الله –عزو جل– لنبيه –

صلى الله عليه وسلم-:﴿لا تقم فيه أبدًا لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق ان تقوم فيه﴾.

طيِّب؛ الشيخ يقول: باب (لا يُذبح لله في مكان يُذبح فيه لغير الله)؛ ويأتينا بآية عن مسجد! لماذا؟ الشيخ فقيه، وله ملامح فقهية أحيانًا في المسائل يصعب علينا أن نصل إليها إلا بعد التدبر الشديد.

ذكر الشيخ هذه الآية: لبيان أنّ هذا مع كونه أصبح مسجدًا، بنوه على هياة المسجد؛ نُهي النبي صلى الله عليه وسلم عن القيام فيه. بل إنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– هدمه صلى الله عليه وسلم؛ لماذا؟ لكونه لم يؤسَّس على التقوى، فكان الأساس فيه حرامًا.

يعني يمكن يأتي شخص يقول: ما دام أنه بُني؛ لماذا لم ينتزعه النبي –صلى الله عليه وسلم– من المنافقين ويعيِّن إمامًا من الصحابة ويُعبَد الله فيه؟ هذا وجه الدلالة: أنه لم يفعل؛ بل نهاه الله أن يقوم فيه. ومعلوم أنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– إذا صلى سيصلي فيه لله؛ لكن لمّا كان مبنيًّا على حرام نُهي أن يصلي فيه؛ بل هدمه النبي صلى الله عليه وسلم. وأُمِر بأن يصلي في المسجد الذي أُسس على التقوى من أول يوم.

والمسجد الذي أُسس على التقوى من أول يوم قيل: هو مسجد النبي صلى الله عليه وسلم، وثبت بذلك أحاديث. وقيل: أنه مسجد قباء. ولا مانع من الأمرين. ولكنّ المقصود أصالة هو مسجد النبي صلى الله عليه وسلم. فإنّ مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم؛ ولذلك جُعلت فيه فضيلة للأمة إلى اليوم؛ وهو أنّ من صلى فيه كان له كعدل عمرة؛ مثل أجر العمرة.

وفي الاستدلال بهذه الآية يا إخوة مَلمح بديع آخر؛ وهو: الرد على شبهة ما لو قال القائل: أنا أذبح لله وباسم الله في هذا المكان؛ فما المانع؟ أنا أذبح ذبيحتي لله وأذبحها باسم الله والأرض لا تغير شيئًا؛ ما المانع؟ بعبارة أخرى يقول: أنا لو ذبحت هنا أو ذبحت هنا أو ذبحت هناك سواء؛ هذه أرض، وأنا أذبح لله وباسم الله؟!

قلنا له: لا، إنّ الأرض إذا كانت مؤسَّسة على حرام فإنّ هذا يؤثر فيها؛ بدليل هذه الآية العظيمة. فإنّا نقول له: النبي –صلى الله عليه وسلم– لو صلى في هذا المسجد –مسجد الضرار– سيصلي لمَن؟ سيصلي لله، هل بقصْد ما يفعله المنافقون؟ لا والله؛ ومع ذلك نُهي عن أن يصلي فيه؛ فكذلك أنت.

هنا تلحظون هذا الإمام ونصحه للأمة، وهذا الإمام عجيب يا إخوة؛ لا تكاد ترى في كتبه إلا الأدلة فقط؛ قال الله قال رسوله صلى الله عليه وسلم وما قد يُحتاج إليه. وقد جعل الله في كتبه بركةً ونفعًا للمؤمنين.

قال: [عن ثابت الضحاك رضي الله عنه قال: نذر رجلٌ أن يذبح إبلًا ببوانة، فسأل النبيّ صلى الله عليه وسلم، فقال: هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يُعبَد؟ قالوا: لا، قال: فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟ قالوا: لا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أوفِ بنذرك، فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله، ولا فيما لا يملك ابن آدم». رواه أبو داود وإسناده على شرطهما]

نعم؛ هذا الحديث العظيم رواه أبو داود، وإسناده على شرطهما؛ أي: على شرط الشيخين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله–: "على شرط الصحيحين، وإسناده كلهم ثقات مشاهير". وقال ابن عبد الهادي في الصارم: "حسن صحيح. وفي المحرَّر قال: رجاله رجال الصحيحين". وقال ابن الملقِّن: "إسناده صحيح على شرط البخاري ومسلم، كل رجاله أئمة مجمَع على عدالتهم". إذن؛ الأمر كما قال الشيخ.

قال الألباني –رحمه الله–: "إسناده صحيح، رجاله رجال الشيخين". فالأمر كما قال الشيخ.

وله روايات أخرى بعضها حسن وبعضها صحيح.

(عن ثابت بن الضحاك –رضي الله عنه– قال: نَذَرَ رجل) هذا الرجل لم يسمَّ هنا؛ ولعله هو كُرْدُم؛ الذي جاء في بعض الروايات. (نذر رجلٌ أن ينحر إبلًا) ما مفردها؟ يقولون: هذا اسم جمع لا مفرد له من جنسه، لكن لو أردتَ أن تفرِد تقول: بعير أو جمل.

(ببُوانة) بضم الباء، ويقال: (بَوانة) بفتح الباء. قيل: هي موضع أسفل مكة. وقيل: هي قريبة من ينبع؛ يعني بين مكة وينبع البحر، هضبة كبيرة لا زالت معروفة إلى ليوم. وقيل: هي قريبة من يَلملم ميقات أهل اليم.

(فسال النبيَّ صلى الله عليه وسلم) يعني سأل الرجلُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم؛ هل يفعل؟ (فقال) أي النبي صلى الله عليه وسلم. وعلى الضبط الموجود عندنا: فسأل النبيُّ صلى الله عليه وسلم؛ يعني سأل النبيُّ صلى الله عليه وسلم الرجلَ.

(فقال: هل كان فيها وثنٌ من أوثان الجاهلية؟) الوثن: ما يُعبَد من دون الله ولو لم يكن له صورة. (هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية) والجاهلية قبل الإسلام (يُعبَد)؟ إذن هذا الشرك، هذا الأعظم بدأ به النبي صلى الله عليه وسلم، (قالوا: لا، قال: هل كان فيها عيد من أعيادهم) حتى لو ما كان عندهم وثن يعبدونه في هذا المكان هل كان لهم عيد في هذا المكان؟ والمعروف أنّ الناس في الأعياد يفعلون طقوسهم؛ ومنها الذبح، والمشركون يذبحون لغير الله باسم

آلهتهم، «فهل كان فيها عيد من أعيادهم» بمعنى يا إخوة: سواء تقينّا أنهم يذبحون في المكان لغير الله أو غلب على ظننا أنهم يذبحون في المكان لغير الله. لأنه إذا كان لهم وثن فنحن نتيقن أنهم يذبحون في هذا المكان لغير الله؛ لأنهم يذبحون لوثنهم. طيِّب لو ما كان لهم وثن؛ إذا كان لهم عيد –والعيد: هو الذي يتكرر سواءً في الأسبوع، في الشهر، في السنة، يتكرر على وجه واحد– إذا كان لهم عيد فيغلب على ظننا أنهم في عيدهم يذبحون، وإذا ذبحوا فإنهم يذبحون لغير الله. وهذه الحكمة من أنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– سأل أولًا عن الوثن ثم سأل عن العيد.

(قالوا: لا، قال –صلى الله عليه وسلم–: «أوفِ بنذرك»؛ طيِّب "أوفِ" أمر، والأمر يدل على الوجوب. وهذا يدلنا على ما سيأتي: أنّ النذر عبادة؛ لأنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– أمر هنا قال: «أوفِ بنذرك».

طيِّب؛ مسألة ستأتينا –إن شاء الله– لكن نثيرها هنا لأنّ هذا المكان المناسب: هو نَذَرَ أن ينحر إبلًا، وهذه طاعة، ينحر إبل لله هذه طاعة، لكن نذر أن ينحرها في بوانة؛ يعني في مكان، وهذا المكان ليس له فضيلة شرعية، إذن هذا طاعة أو مباح؟ مباح؛ لأنّ المكان ليس له فضيلة شرعية، يباح للإنسان يذبح هنا يذبح هنا يذبح هنا، لا يوجد فضيلة للمكان، طيِّب النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: «أوفِ بنذرك»!

قالوا: أمّا بالنسبة للنحر فواجب؛ والأمر للوجوب.

وأمّا بالنسبة للذبح والنحر ببوانة بخصوصها؛ فالأمر للتخيير؛ لأنه سيأتينا –إن شاء الله– أنّ نذر المباح لا يجب الوفاء به. وهذا مباح.

«فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله» "لا وفاء لنذر" هذا يدل على أنّ نذر المعصية ينعقد؛ لأنه قال: «لا وفاء» والوفاء يكون بعد الانعقاد. وهذا موافق لقول الجمهور: إنّ مَن نَذَرَ المعصية لا يفي بالنذر وعليه كفارة"؛ وسيأتي إن شاء الله.

«ولا فيما لا يملك ابن آدم» سيأتينا –إن شاء الله– أنّ ما لا يملكه ابن آدم إمّا أنه يملكه غيره. وهذا المقصود هنا. سُرِقت سيارتك أنت –وأسأل الله ألا تُسرق– وعلمتُ أنا فقلتُ: لله عليّ إن جاءت سيارتك أن أتصدق بها! أنا ما أملكها، أنت الذي تملكها؛ هذا لا وفاء فيه، ولا يجوز الوفاء به.

قالوا: والأمر الثاني الذي لا يملكه ابن آدم: ألا يكون في يده وليس ملكًا لغيره. مثال: قلت: لله عليّ أن أتصدق بكيس أُرز! وأنا ما عندي أُرز، ما أملك أرزًا الآن، هل هذا يدخل في الحديث؟ الجواب: لا؛ هذا يثبت في الذمة؛ فيجب عليّ أن أفي.

إذن؛ ما لا يملكه ابن آدم:

- إمّا لكون غيره يملكه؛ فينذر أن يتصدق به على هذا الوجه: وهذا حرام، ولا يجوز الوفاء به.

- وإمّا أنّ الإنسان لا يملكه؛ لكنه يعقده في ذمته: فهذا ينعقد ويدخل في نذر الطاعة.

قال رحمه الله: [فيه مسائل. الأولى: تفسير قوله: ﴿لا تقم فيه أبدًا﴾]

وقد بيّناه، وبيّنا مناسبة ذكر الآية.

[الثانية: أنّ المعصية قد تؤثر في الأرض؛ وكذلك الطاعة]

مِن أين أخذها الشيخ؟ مِن الآية، لأنّ الله –عز وجل– قال في مسجد الضرار: ﴿لا تقم فيه أبدا﴾؛ مع أنه بناء، بناؤه بناء المسجد؛ لكن ما الذي أثر فيه؟ قصدُهم الفاسد، معصيتُهم أثّرت فيه، ﴿لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه﴾ فوَصَفَه الله بكونه أُسِّس على التقوى؛ إذن هذا القصد زكّاه وأثّر في الأرض أثّر في المسجد، المعصية أثّرت في مسجد الضرار، والطاعة أثّرت في مسجد قباء أو مسجد النبي صلى الله عليه وسلم. بعض أهل العلم ظنّ أنه أخذ هذا من الحديث –وإن كان له وجه– لكنّ الأَوْجه أنه مأخوذ من الآية.

قال: [الثالثة: ردُّ المسألة المشكِلة إلى المسألة البيِّنة ليزول الإشكال]

نعم؛ وهذا يا إخوة مِن مهمات العلم؛ أنه إذا كانت المسألة مشكِلة أن تردَّها إلى المسألة البيِّنة؛ ليتضح إشكالها وينجلي.

ولذلك؛ تقريب المسائل للناس بضرب الأمثال والتفصيل الذي لا تشقيق فيه من أنفع ما يكون للعلم، ومن أنفع ما يكون للناس، الناس ترتاح، تفهم. فالمسألة المشكِلة واللفظ المشكِل يُردّ إلى اللفظ البيِّن وإلى المسألة البيِّنة.

قال: [الرابعة: استفصال المفتي إذا احتاج إلى ذلك]

نعم؛ إذا وُجد احتمال ظاهر فإنّ المفتي ينبغي أن يستفصل. أمّا إذا لم يوجد الاحتمال فلا يُستفصَل، أو كان الاحتمال ضعيفًا بعيدًا، لو كنا سنتتبع كل احتمال عقلي ما ننتهي! أجلس أنا والمستفتي يومين وثلاثة ما ينتهي من السؤال! هذا ما هو المقصود، ولكنّ المقصود إذا كان هناك احتمال له وجه فهنا يَستفصِل المفتي من المستفتي.

قال: [الخامسة: أنّ تخصيص البقعة بالنذر لا بأس به إذا خلا من الموانع]

نعم؛ أن تُخصِّص بقعةً لم يَرِد بها النص في نذرك: هذا جائز، وكما قلنا هو من المباح؛ وسأذكره –إن شاء الله– في باب النذر. ما يُمنَع، ما يقال بدعة إذا ما يوجد مانع في هذه البقعة. فلو أنك نذرتَ أن تذبح الشاة في ساحة الحي، في

وسط الحي؛ يجوز، وما يصح يأتي واحد يقول: بدعة لأنّ النذر عبادة وقد أضافه إلى أمرٍ لم يرد فيه النص! النذر له أحكامه، كما سيأتي بيانه إن شاء الله عز وجل.

لكن كما قلت: إذا لم يكن للبقعة فضيلة شرعية؛ فالنذر من باب المباح، إذا أضيف إلى بقعة، أعني من جهة إضافته إلى البقعة.

قال: [السادسة: المنع منه إذا كان فيه وثن من أوثان الجاهلية ولو بعد زواله]

نعم؛ إذا كان البقعة التي نذر الإنسان أن يذبح عندها كان فيها وثن: فإنه لا يجوز أن يذبح هناك. فما بالك إذا كان الوثن موجودًا مثل –والعياذ بالله– القبور التي اتخذها بعض من ينتسبون إلى الإسلام أوثانًا تُعبد من دون الله؟!

قال: [السابعة: المنع منه إذا كان فيه عيد من أعيادهم ولو بعد زواله]

وقلت لك يا إخوة: أنّ العيد مَظِنة أن يُذبَح فيه لغير الله.

قال: [الثامنة: أنه لا يجوز الوفاء بما نَذَرَ في تلك البقعة؛ لأنه نذر معصية]

نعم؛ أنه لا يجوز النذر بما نذر في تلك البقعة؛ لأنه نذر معصية. وقلت لكم: إنّ الراجح أنّ الذبح هنا –هو متفق على أنه حرام– لكن الراجح عندي –والله أعلم–: أنه من الشرك الأصغر.

قال: [الحذر من مشابهة المشركين في أعيادهم ولو لم يقصده]

نعم؛ لأنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– هنا قال: «فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟» طيِّب الرجل ربما ما يَعلم! ومع ذلك استفصل النبي صلى الله عليه وسلم. والتشبه بالكفار في أعيادهم لا يجوز.

لكن إذا كان الإنسان لا يقصد التشبه ولا يعلم–انتبهوا لِمَا أقول– إذا كان لا يقصد التشبه ولا يعلم؟ النصارى في عيد الميلاد يصنعون نوعًا من الكعك –وهذا من شعائر عيدهم– ومسلم ما رأى النصارى قط، ولا يدري عما يصنعون، صنع في تلك الليلة كعكًا يشبه كعكهم: هذا ما علم وما قصد؛ فهذا لا شيء عليه.

أمّا إذا عَلِمَ ولم يقصد: فهذا حرام. لم يقصد التشبه؛ لكن يعلم أنهم في هذا الوقت يفعلون هذا الكعك؛ ففعله ليطعم أبناءه، وهو عالم أنهم يفعلون هذا في هذا اليوم أو في هذه الليلة ولم يقصد أن يتشبّه بهم: يأثم.

وقلنا يا إخوة –سابقًا ومرارًا–: إنّ التشبه لا يُشترط فيه القصد، وإنما يُشترط فيه العلم. فمَن عَلِمَ صنيعهم وتشبَّه بهم فيما هو من خصائصهم؛ فقد وقع في الحرام. فإن كان هذا متعلِّقًا بعقيدتهم كان أشدّ حرمة. وهذا باب التشبه سبق أن تكلمنا عنه مرارًا.

قال: [العاشرة: لا نذر في معصية]

نعم؛ وسيأتي –إن شاء الله– ونفصّل ونبيّن حكمه.

قال: [الحادية عشرة: لا نذر لابن آدم فيما لا يملك]

على الوجه الذي بيّناه؛ وهو الذي يملكه غيره فينذره. أمّا أن يعقد ذلك في ذمته وهو لا يملكه الآن: هذا ينعقد، ويلزمه إن كان مطيقًا كما سيأتي إن شاء الله.

لعلنا نقف هنا لنجيب عن بعض أسئلة إخواننا. وغدًا –إن شاء الله– نأخذ الباب العظيم المتعلق بالنذر لغير الله. والله أعلم. وصلى الله على نبينا وسلم.

الدرس السابع عشر: شرح بَاب: مِنْ اَلشِّرْكِ اَلنَّذْرُ لِغَيْرِ اَللَّهِ

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الفضلاء؛ إنّ درسنا في شرح كتاب التوحيد، لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله عز وجل، هذا الكتاب الذي ليس للشيخ فيه سوى أنه نصح الأمة ببيان الأدلة من الكتاب والسنة على توحيد الله عز وجل، وحذَّر الأمة من الشرك بالله؛ وهو أبغض الذنوب إلى الله –عز وجل، وأكبر الذنوب على الإطلاق، هو الذنب الذي لا يغفره الله –عز وجل– لمن مات عليه، عياذًا بالله من ذلك. نواصل من حيث وقفنا، ونبدأ اليوم بباب عظيم؛ وهو: باب من الشرك النذر لغير الله. فيتفضل الشيخ خليل –وفقه الله عز وجل– يقرأ لنا من حيث وقفنا.

قال رحمه الله: [بَابٌ مِنْ اَلشِّرْكِ اَلنَّذْرُ لِغَيْرِ اَللَّهِ]

تقدّم معنا بيان أنّ الشيخ –رحمه الله– يذكر ما يكثر وقوعه ممن ينتسبون إلى الإسلام وهو يخالف الإسلام، ومن ذلك: النذر لغير الله، حيث يكثر ممن ينتسبون إلى الإسلام أنهم يقدّمون النذور للأشياخ، ولأصحاب القبور، بل قد يصل الأمر من بعض مَن ينتسبون إلى لإسلام أنهم ينذرون للجن، ومَن يسمونهم بأسيادهم، والصالحين من الغائبين، ولا شك أنّ هذا من الشرك الأكبر المخرج عن ملة الإسلام؛ لأنّ النذر عبادة، والعبادة صرفها لغير الله هو الظلم

العظيم، والشرك المبين، وأغلب مَن ينذرون للأصحاب القبور لا يدركون أنّ النذر عبادة، ولو أنهم فهموا وعلموا أنّ النذر عبادة لأقلعوا –إن شاء الله– عن هذا الأمر، فإنه لا يستجيز مسلم أن يعبد غير الله أبدًا.

والنذر عبادة؛ وذلك لوجهين:

أمّا الوجه الأول: أنّ النذر لا يكون إلا على وجه التقرب لمن يُرجى خيره أو يُعظَّم. لا يمكن أن ينذر الإنسان نذرًا إلا على وجه التقرب للمنذور له، وهذا المنذور له إمّا أنه يرجى خيره، وإما أنه يعظَّم، وهذه هي العبادة. لن تجد رجلًا أو امرأة يَنذر لصاحب قبرٍ مثلًا وهو لا يعظِّمه، أبدًا، أو يرجو خيره، يرجو أنه بنذره له يرضى عنه، فيُرزَق الولد أو يُرزَق المال، وهذا هو عين العبادة.

إذن الوجه الأول: أنّ النذر لا يمكن أن يكون إلا على وجه التقرّب لمن يرجى خيره أو يعظَّم، وهذا هو العبادة وحقيقة العبادة.

الوجه الثاني: أنّ الله –عز وجل– أمر بالوفاء بالنذر، ومدح الموفين بالنذر، وأثاب على الوفاء بالنذر. وهذا يدل على أنّ ذلك عبادة، وما دام أنه عبادة فلا يجوز صرفه لغير الله.

فلا يجوز لك أيها المسلم أن تَنذُر لغير الله، أبدًا؛ لأنك إن فعلتَ فقد تقرَّبتَ لغير الله بالعبادة؛ وهذا شرك أكبر.

ولا يجوز لك أن تَفي بنذرٍ نذرته لغير الله؛ لأنك إذا وفّيتَ بهذا النذر لغير الله فقد عبدتَ هذا المنذورَ له من دون الله سبحانه وتعالى.

والنذر لغةً: مِن نذَر يَنذُر، أو يَنذِر، يقال: يَنذِر، ويقال: يَنذُر.

والنَّذر في لغة العرب كلمةٌ تدل على تخويف، ولا يكاد يُستعمَل إلا في التخويف، ومنه سمِّي النذر؛ لأنّ الناذِر في الغالب يخاف من المنذور له، وإذا نَذَرَ يخاف من عدم الوفاء بالنذر، فسمِّي النذر نذرًا من الخوف.

كذلك النذر في لغة العرب يطلق على الواجب، ومنه سمِّي النذر نذرًا؛ لأنّ الإنسان يوجِبُ على نفسه ما في النذر.

وأمّا النذر في الشرع: إلزام المكلَّف نفسَه شيئًا غير لازم له بلفظٍ.

انتبهوا للمعنى! "إلزام المكلف نفسه": أن يلزِم المكلَّف نفسه، وهذا يُخرِج ما لو ألزم غيره، كما لو ألزم الأب ابنه أن يذهب إلى السوق، هذا ليس نذرًا.

"إلزام المكلِّف نفسه شيئًا غير لازم له": يعني لم يوجبه عليه الشرع، ولكنه يُلزِم نفسَه به، أقول: لله عليّ أن أذبح شاة! الله لم يوجِب عليّ أن أذبح شاة، لكن أنا ألزمتُ نفسي بذبح الشاة.

"بلفظٍ": النذر لابد فيه يا إخوة من لفظ، بمعنى: أني لو ألزمتُ نفسي شيئًا أفعله دائمًا؛ مثل السنن الرواتب، لو ألزمتُ نفسي بالفعل أني دائمًا أصلي السنن

الرواتب، في هذه الحال ألزمتُ نفسي هذا بالفعل ولم أجعله واجبًا عليّ؛ فهذا ليس نذرًا.

فالنذر لا بد فيه من لفظ. فلو أنك في قلبك حدَّثت نفسك وقلتَ: إن شفا الله مريضي سأذبح شاة! هذا ليس نذرًا.

- **والنذر باعتبار المتقرَّب إليه به ينقسم إلى قسمين:**

القسم الأول: نذر لله. وهذا سيأتي حكم الدخول فيه وحكم الوفاء به.

القسم الثاني: نذر لغير الله. وهذا شرك أكبر يُخرِج من ملة الإسلام.

- **والنذر باعتبار لفظ الناذر ينقسم إلى قسمين:**

القسم الأول: نذر التبرُّر. ومعناه: النذر من غير مقابل، كأن يقول: لله عليّ أن أصوم يومين من هذا الأسبوع! لم يذكر مقابلًا، لم يذكر جزاء للنذر؛ فهذا نذر تبرُّر، بِرٌّ يريد أن يَتعبَّد به، لا يطلب شيئًا؛ وإنما يريد أن يَتقرَّب به.

القسم الثاني: نذر مقيَّد. وبعض أهل العلم يسميه: نذر الجزاء. وبعض أهل العلم يسميه: نذر المقابلة. وبعض أهل العلم يسميه: نذر المعاوَضة. ومعناه: أن يكون النذر مقابل شيء يرجوه الناذر، فيقول مثلًا: لله عليّ أن أصوم يومين إن شفى مريضي! فهذا قيَّد نَذْرَه بشفاء مريضه، هذا له مقابل وهو شفاء المريض.

- **وأما أحكام النذر، فيُتكلَّم عنه من وجوه:**

الوجه الأول: حُكمه باعتبار المتقرَّب إليه بالنذر.

- فالنذر إن كان لله؛ فالوفاء به توحيدٌ وعبادةٌ.
- وإن كان لغير الله؛ فهو شركٌ أكبر وظلم عظيم.

الوجه الثاني: حكم النذر باعتبار الدخول فيه. ما حكم الدخول في النذر أصلًا؟ هذا اختلف أهل العلم فيه على أقوال:

- **بعض أهل العلم يقولون**: الدخول في نذر الجزاء والمقابلة مكروه، والدخول في نذر التبرُّر جائز. يعني أن تقول: لله عليَّ أن أصوم يومين من هذا الأسبوع! يقولون: هذا جائز، ليس فيه كراهة؛ لماذا؟ يقولون: لأنه تقرُّب محض. أمّا أن تقول: لله عليّ أن أصوم يومين من هذا الأسبوع إن شفى مريضي! فهذا مكروه؛ للأدلة التي ستأتي إن شاء الله.
- **وقال بعض أهل العلم**: الدخول في النذر مطلقًا: مكروه.
- **وقال بعض أهل العلم**: الدخول في النذر مطلقًا: محرم. وهذا أقرب –والله أعلم–؛ وذلك لأدلة:

الدليل الأول: أنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– قال عن النذر: «يستخرج الله به من البخيل»، وهذا في الصحيحين؛ عند البخاري ومسلم.

وعند مسلم؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تنذروا، فإنّ النذر لا يغني من القدر شيئًا، وإنما يُستخرَجَ به من البخيل»، قوله: «لا تنذروا» هذا نهي؛ والنهي يقتضي التحريم، «فإنّ النذر لا يغني من القدر شيئًا» إنّ قدر الله أن يشفي

مريضك سيشفيه؛ نذرتَ أو لم تنذر، وإن شاء أن يموت مريضك سيموت؛ نذرتَ أو لم تنذر، «وإنما يستخرج به من البخيل».

وعند مسلم أيضًا؛ عن ابن عمر –رضي الله عنهما– أنّ رسول الله –صلى الله عليه وسلم– نهى عن النذر وقال: «إنه لا يأتي بخير، وإنما يُستخرج به من البخيل»، قالوا: فهذا نهي عن النذر؛ والنهي يقتضي التحريم.

قالوا: كذلك؛ تدلُّ عليه الحكمة؛ لأنّ المكلَّف بالنذر يوقِع نفسَه في الحرج، والشرع جاء بنفي الحرج. الله لم يوجِب عليك أن تصوم يومين من هذا الأسبوع مثلًا، فإذا ألزمتَ نفسك تكون أوقعتَ نفسك في الحرج، والله لا يريد بنا الحرج والمشقة والعسر. وهذا أقرب –والله أعلم–.

وإنْ كان الجمهور على أنّ الدخول في النذر مكروه.

الوجه الثالث: حكمه من جهة الوفاء به.

إذا قلنا بالتحريم؛ فإنه إذا نذر الإنسان: يأثم لدخوله في النذر، لكن ما حكم الوفاء بالنذر إذا دخل فيه؟ يقسَّم النذر إلى أقسام:

– **القسم الأول**: النذر المطلَق. ومعناه: أنّ المنذور لا يُذكَر فيه. يقول مثلًا: نَذْرٌ عليّ إن شفى الله مريضي! أو: لله عليّ نذر إن شفى الله مريضي! طيِّب ماذا تفعل إن شفى مريضك؟ لم يذكر، هذا يسمى عند العلماء: بالنذر المطلق،

المرسل، الذي لم يُذكَر فيه المنذور. وهذا فيه كفارة يمين؛ لحديث: «كفارة النذر كفارة اليمين» رواه مسلم.

وهذا النذر لا يمكن الوفاء به؛ لأنه لم يُذكَر فيه الشيء، ولكنه انعقد؛ فكيف يُحَل؟ يُحَل بكفارة يمين؛ بأن يعتق رقبه، أو يطعم عشرة مساكين، أو يكسوهم، فإن لم يجد ذلك كله فإنه يصوم ثلاثة أيام.

- **القسم الثاني**: نذر الطاعة. بأن تنذر طاعة لله؛ كأن تقول: لله عليّ أن أصوم يومًا! أو تقول: لله عليّ أن أصلي ركعتين إن شفى مريضي! فهذه طاعة.

ونذر الطاعة يجب الوفاء به، ويأثم الناذر إذا لم يَفِ به.

لكن إن عجز عنه؛ سواء في الحال أو في المآل؛ فما المترتِّب؟

مثلًا قال: لله عليّ أن أذبح بقرة في هذا الشهر! فذهب ماله، سُرِق، فما يستطيع أن يذبح بقرة في الحال في هذا الشهر.

أو المآل؛ مثلًا: إنسان نذر أن يصوم يومًا وأن يفطر يومًا، قال: لله عليّ أن أصوم يومًا وأن أفطر يومًا! في بداية الشباب كان يستطيع، لكن لمّا وصل إلى الخمسين أصبح الصيام يشق عليه مشقة زائدة، فماذا يفعل؟ يَنحَلّ من نذره بكفارة يمين، إذا عجز عنه أو شق عليه مشقة زائدة لا يأتي بها الشرع فإنه ينحل من النذر بكفارة يمين؛ للحديث السابق: «كفارة النذر كفارة اليمين»، ولقول ابن عباس –رضي الله عنهما–: (مَن نذر نذرًا لا يطيقه فليكفِّر كفارة يمين) رواه أبو

داود وصححه ابن حجر موقوفًا. وهذا الحكم قد نسبه شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله– لأكثر السلف.

– **القسم الثالث**: نَذْرُ ما لا يملكه الإنسان، بل يملكه غيره. يقول مثلًا: إن شفى الله مريضي فلله عليّ أن أتصدق بسيارة جاري! هو ما يملك السيارة وإنما الذي يملك السيارة جاره، هو لا يريد أن تكون في ذمته بأن يشتريها، لا، هو يريد أن يتصدق بما يملكه غيره؛ فهذا لا يُوفَّى به، ولا يجب الوفاء به؛ لقول النبي –صلى الله عليه وسلم–: «لا وفاء لنذر في معصية، ولا في ما لا يملك العبد» رواه مسلم في الصحيح.

وأيضًا؛ جاء في الحديث: «لاو فاء نذرٍ إلا فيما تملك» رواه أبو داود وحسنه الألباني. فدلّ هذا الحديث على أنّ ما لا يملكه الإنسان لا وفاء بنذره، وماذا يُفعَل؟ سيأتي –إن شاء الله– بعد القسم الرابع.

– **القسم الرابع**: نذر المعصية. مثلًا: رأى ابنه يشرب الدخان فضربه ضربة على رأسه فأغمي عليه، فقال من جهله: نذرٌ عليّ إن أفاق أن أشتري له رِزمة دخان! هذه معصية، نَذَرَ المعصية، هذا النذر لا يجوز الوفاء به.

بعض الناس مثلًا يقول: إن شفى الله مريضي نذرٌ عليّ أن أزور قبر الولي الفلاني! إن شفى الله مريضي لله عليّ نَذْرٌ أن أزور قبر فلانة أو فلان– على وجه التقرب لصاحب القبر–! وهذه معصية. ونجد بعض إخواننا يقول: ماذا أفعل أنا

نذرت؟ لا بد أن أفعل، لا بد أن أذهب إلى قبر السيدة نفيسة، أو قبر السيدة زينب، أو قبر سيدي المجذوب! نقول: هذا النذر –نذر المعصية– لا يجوز الوفاء به بإجماع العلماء. وقد قال النبي –صلى الله عليه وسلم–: «مَن نَذَرَ أن يعصي الله فلا يعصه» رواه البخاري.

طيِّب؛ هذان النوعان –نذر ما لا يملكه الإنسان ولكنّ غيره يملكه، ونذر المعصية– هل فيهما كفارة يمين؟ اختلف العلماء في ذلك على قولين:

القول الأول: لا كفارة فيه، وذهب إلى هذا مالك والشافعي.

القول الثاني: أنّ فيه كفارة يمين.

والذي تحرَّر عندي أخيرًا في المسألة؛ أنّ الراجح من قولي العلماء: أنّ فيه كفارة يمين.

كنتُ أرى قديمًا أنه لا كفارة فيه، على ما ذهب إليه مالك والشافعي أنه لا كفارة يمين فيه؛ لأنه نذر معصية أصلًا، لكن ظهر لي أخيرًا وتحرَّر عندي –والله أعلم– أنّ الراجح: أنّ فيه كفارة يمين؛ لعموم قول النبي –صلى الله عليه وسلم–: «كفارة النذر كفارة يمين»، ولحديث: «ما كان مِن نذر في معصية الله فذلك للشيطان، ولا وفاء فيه، ويكفِّره ما يكفِّر اليمين» رواه النسائي وصححه الألباني. وكذلك حديث: «لا نذر في معصية، وكفارته كفارة اليمين» رواه الأربعة وصححه الألباني.

- **القسم الخامس**: نذر المكروه. كأن يقول: لله عليّ أن أصلي الفرض بين السواري! صلاة الفرض بين السواري من غير حاجة مكروهة، فنَذَرَ هنا مكروهًا، هنا يقول العلماء: إن وفَّى به أجزأه، إن صلى بين السواري أجزأه، والأفضل أن لا يفي به. وفيه كفارة يمين على الأصح.

- **القسم السادس**: نذر المباح. كأن يقول: لله عليّ أن أخرج في نزهة! والخروج في نزه مباح، أو قال: لله عليّ أن أمشي إلى المسجد! والمشي مباح، فهذا النذر لا يجب الوفاء به؛ لحديث: «لا نذر إلا فيما ابتُغي به وجه الله» رواه أبو داود وحسنه الألباني، فإن فعل أجزأه عن نذره، وإن لم يفعل فالأحوط أن يكفِّر كفارة يمين، والقول بالكفارة هنا أضعف مما تقدَّم، لكنّ الأحوط أن يكفَّر كفارة يمين؛ لعموم الحديث السابق: «كفارة النذر كفارة يمين».

- **القسم السابع**: النذر الذي يُقصد به تصديق شيء أو الحمل على شيء أو المنع من شيء.

فمثلًا: أنا أخبرتك بخبر فكأني رأيت منك عدم تصديق، فقلتُ لك لتصدقني وأؤكد التصديق: لله عليّ أن أصوم يومين إن كنتُ كاذبًا! ما مرادي من هذا النذر؟ أن تصدقني.

أو مثلًا: أردتُ منك أن تصطلح مع أخيك، فرأيتُ منك تأخرًا في ذلك فقلتُ لك: لله عليّ أن أصوم أسبوعًا إن لم تصالح أخاك اليوم! ماذا أريد؟ أريد

أن أحملك على أن تصالحه، ليس النذر مقصودًا لي، ولكن مقصودي أن أحملك على أن تصالحه.

أو المنع من شيء؛ مثلًا: جئتني وقد أغضبتك الزوجة لأمر عارض؛ وقلتَ: أنا أفكر أن أطلقها، فقلت لك: اصبر؛ فالنساء ضعيفات، وعندهن عجلة، إن أساءت اليوم ستحسن غدًا. فرأيتُ منك رغبة في تطليقها وأنت في فورة الغضب، فقلت لك: إن طلقتها اليوم عليّ أن أصوم شهرًا! فقط لأمنعك من تطليقها اليوم حتى تهدئ. هذا يقول فيه العلماء: يمين بلفظ النذر، ليس النذر مقصودًا، وإنما المقصود ما يُقصَد باليمين، كأني في الحقيقة قلت لك: والله لتفعلن، أو: والله لا تفعل. إمّا للحمل، وإمّا للمنع. ولذلك قال العلماء: هذا يمين، إن لم يقع ما يوجبه فلا شيء. قلتُ لك: إن طلقتها اليوم فلله عليّ أن أصوم شهرًا! فلم تطلقها اليوم: لا شيء عليّ. وإن وقع: ففيه كفارة يمين. قلت لك: لله علي أن أصوم شهرًا إن طلقتها اليوم! فذهبتَ وطلقتها: عليَّ كفارة يمين. لأن المقصود هنا في الحقيقة هو اليمين، والنذر ليس مقصودًا.

– **القسم الثامن**: نذر ما هو واجب بالشرع. كأن قلتَ: لله عليّ أن أصلي الظهر في جماعة! أنا رجل وصلاة الظهر في جماعة أصلًا واجبة عليّ؛ فهذا لا يفيد شيئًا؛ لأنّ المذكور في النذر واجب بالشرع؛ يجب عليّ بدون النذر. قلتُ: لله عليّ إن عشتُ إلى رمضان أن أصوم رمضان! أصلا هو واجب عليّ، إن أمدَّ

الله في عمري وجاء رمضان وأنا سليم صحيح يجب عليّ أن أصوم رمضان؛ هذا النذر لا يفيد شيئًا.

- **القسم التاسع**: نذر المُحال الذي لا يمكن وقوعه. فمثلًا قال: لله عليّ أن أحمل هذه الصخرة! وهذه الصخرة عظيمة لا يحملها مئة رجل. أو قال: لله عليّ أن أسير على رأسي مسافة كيلو متر! هذا ما يمكن، محال؛ فهذا عبث لا ينعقد به شيء ولا يلزم به شيء.

هذه أقسام النذر بالتفصيل المذكورة في كتب الفقه وكتب الحديث وكتب التوحيد، من جهة حكم الوفاء بالنذر.

فإن قال قائل: أين الوفاء بالنذر لغير الله؟ قلنا: النذر لغير الله تقدم معنا أنه شرك أكبر، لا يجوز هذا النذر أصلًا؛ بل هو شرك أكبر، ولا يجوز الوفاء به.

[وقول الله تعالى: ﴿يوفون بالنذر﴾]

نجد أنّ الشيخ –رحمه الله– في هذا الباب أقام الأدلة على أنّ الوفاء بالنذر عبادة، هو لم يقل: بابٌ النذر عبادة، قال: بابٌ من الشرك النذر لغير الله! وذلك أنه إذا ثبت أنّ الشيء عبادة ثبت يقينًا أنّ جَعْله لغير الله شرك، وهذا يدركه كل مسلم.

(وَقَوْلُ اَللهِ تَعَالَى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾) فمدح الله هؤلاء الأبرار بأنهم يوفون بالنذر، فدل ذلك على أنّ الوفاء بالنذر عبادة، وإذا ثبت أنه عبادة فإنّ صرفه لغير الله شرك.

[وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ﴾]

﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ﴾أي: في سبيله، تقربًا إليه ﴿أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ﴾؛ فقرن الله بين النفقة في سبيله والنذر، ثم قال: ﴿فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ﴾أي: ويجازيكم عليه، فدلّ ذلك على أنّ النذر عبادة، والمقصود بالنذر: هو الوفاء؛ كما دلت عليه النصوص، الوفاء بالنذر عبادة؛ فهذا يدل على المراد.

[وَفِي اَلصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اَللهُ عَنْهَا، أَنَّ رَسُولَ اَللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اَللهَ فَلْيُطِعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اَللهَ فَلَا يَعْصِهِ»]

قوله: (وَفِي اَلصَّحِيحِ) أي: في صحيح البخاري، (عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اَللهُ عَنْهَا) أمنا أم المؤمنين. أَنَّ رَسُولَ اَللهِ –صلى الله عليه وسلم– قَالَ: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اَللهَ فَلْيُطِعْهُ» هذا أمر؛ والأمر يقتضي الوجوب، وما دام أنه واجب فهو عبادة.

«وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اَللهَ فَلَا يَعْصِهِ» وهذا دلّ على ما ذكرناه من نذر المعصية.

والشاهد: في قول النبي –صلى الله عليه وسلم–: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اَللهَ فَلْيُطِعْهُ»؛ فدل ذلك على أنّ الوفاء بالنذر عبادة.

والعلماء يقولون: "إنّ بابَ النذر بابٌ غريب في الشرع"؛ لأنّ الإنسان يُلزِم نفسَه بالنذر ما لم يَلزَمه شرعًا.

ولذلك النذر له قواعد خاصة؛ ومنها: أنه يحرم الدخول فيه ويجب الوفاء به. مع أنّ هذا الأمر له أمثلة في الشرع أيضًا؛ مثال: حج المرأة بلا محرم. حج المرأة بلا محرم حرام على الراجح من أقوال أهل العلم، يحرم على المرأة بلا محرم أن تدخل في الحج، فإن دخلت في الحج وقالت: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إنّ الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك، ودخلت في الحج: وجب عليها أن تتمَّه. فهذا له مثال في الشرع، وإن كان العلماء يقولون: "إنّ باب النذر باب غريب في الشرع".

[فِيهِ مَسَائِلُ: اَلْأُولَى: وُجُوبُ اَلْوَفَاءِ بِالنَّذْرِ]

وكما قلنا فيه؛ حسب الأقسام التي ذكرت.

[اَلثَّانِيَةُ: إِذَا ثَبَتَ كَوْنُهُ عِبَادَةَ اَللهِ، فَصَرْفُهُ إِلَى غَيْرِهِ شِرْكٌ]

ثبت بهذه الأدلة الثلاثة المذكورة أنّ النذر عبادة، فإذا ثبت أنه عبادة فإنّ صرفه لغير الله شرك، وهذا أمر يدركه كل مسلم.

[اَلثَّالِثَةُ: أَنَّ نَذْرَ اَلْمَعْصِيَةِ لا يَجُوزُ اَلْوَفَاءُ بِهِ]

لقول النبي –صلى الله عليه وسلم–: «ومَن نَذَرَ أن يعصي الله فلا يَعصِه».

تابع الدرس السابع عشر: بَابٌ مِنَ الشِّرْكِ الِاسْتِعَاذَةُ بِغَيْرِ اللهِ

قال رحمه الله: [بَابٌ مِنَ الشِّرْكِ الِاسْتِعَاذَةُ بِغَيْرِ اللهِ]

الاستعاذة في اللغة: طلب العوذ، والعَوْذ: هو الالتجاء، والاعتصام، والاحتماء، والتحصين، والحفظ.

إذن؛ ما معنى الاستعاذة؟ هي: اللجوء إلى المستعاذ به طلبًا للوقاية من الشر. وإن شئتَ قل: هي طلب الحماية من الشر.

ويقابل الاستعاذة: اللَّوْذ، يقال: أَلوذُ لَوذًا. واللَّوذ: طلب حصول الخير.

الاستعاذة: طلب الحماية من الشر، واللوذ: طلب حصول الخير. لذا العلماء يقولون: الاستعاذة في المرهوب، واللَّوذ في المرغوب.

والاستعاذة بالله توحيد وعبادة.

والاستعاذة بالمخلوق على قسمين:

- **القسم الأول**: استعاذة بالخلوق فيها حقيقة الدعاء، كأنه يدعوه، وهذه شرك أكبر يخرج من ملة الإسلام؛ لأنّ هذه الاستعاذة عبادة، فصرفها لغير الله شرك أكبر. وقد اتفق العلماء من جميع المذاهب على حرمة هذه الاستعاذة بالمخلوق.

وهذه الاستعاذة عبادة؛ لوجهين:

-**الوجه الأول**: أنها دعاء، و«الدعاء هو العبادة» كما ثبت في الحديث الصحيح.

-الوجه الثاني: أنّ الله أمر بأن يستعاذ به، فدلّ على أنّ الاستعاذة عبادة؛ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾[الفلق:١]، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾[الناس:١]، ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ﴾[الأعراف: ٢٠٠]، ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨]، إذن الله أمرنا بالاستعاذة به، فيدلّ ذلك على أنّ هذه الاستعاذة عبادة.

كيف نعرف أنّ الاستعاذة بالمخلوق هنا فيها حقيقة الدعاء؟ يقول العلماء: بصور:

الصورة الأولى: أن يكون المخلوق المستعاذ به غائبًا، غير حاضر.

مثلًا؛ أنت هنا في المدينة ويحصل لك ظلم من شخص؛ فتقول: يا سيدي عبد القادر -في الجزائر- أعوذ بك من ظلم هذا الرجل! هذا دعاء في الحقيقة؛ لأنّ هذا الرجل غائب. فهذا شرك أكبر.

الصورة الثانية: أن يكون المخلوق المستعاذ به ميتًا. فيستعاذ بميت وهو في قبره، هذا في الحقيقة دعاء. فهذا شرك أكبر.

الصورة الثالثة: أن يكون المستعاذ به حاضرًا ولا يقدر. يعني يستعيذ به فيما لا يقدر عليه. فهذا شرك أكبر.

القسم الثاني من الاستعاذة بالمخلوق: الاستعاذة بالمخلوق بالفعل أو الطلب فيما يقدر عليه -وهذا لابد أن يكون حاضرًا- مع اعتقاد أنّ الأمر كله لله.

كأن تقول للقاضي: استعيذ بك أيها القاضي من ظلم خصمي! أنت الآن تستعيذ بالقاضي الحاضر القادر على منع الظلم، تستعيذ به فيما يقدر عليه؛ مع اعتقادك أنّ الأمر كله لله، قلبك معلَّق بالله، فهذه الاستعاذة جائزة.

ولذلك؛ النبي –صلى الله عليه وسلم– في حديث الفتن عندما قال: «تكون فتنة القاعد فيها خير من القائم» قال في آخره: «فمن وجد ملجأ أو مَعَاذًا فليَعُذ به» متفق عليه، في الصحيحين. فهذه استعاذة بالمخلوق فيما يمكن ويقدر عليه. كأن تذهب إلى بستانك في الصحراء بعيدًا عن الفتنة.

وكذلك؛ جاء عن أبي مسعود –رضي الله عنه– أنه كان يضرب غلامه، فقال الغلام: أعوذ برسول الله! وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم حاضرًا، فتركه أبو مسعود رضي الله عنه، فقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: «والله! لله أقدر عليك منك عليه»، فأعتقه خوفًا من الله. والحديث رواه مسلم. الشاهد هنا: أنّ الغلام استعاذ برسول الله –صلى الله عليه وسلم– من ضرب أبي مسعود له، ورسول الله –صلى الله عليه وسلم– موجود؛ بدليل أنه قال لأبي مسعود: «والله! لله أقدر عليك منك عليه»، فهذه استعاذة بالمخلوق فيما يقدر عليه، فهذه مباحة.

إذن؛ تبين أنّ الاستعاذة من جهة حكمها تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: استعاذة شرعية مطلوبة. وهي الاستعاذة بالله –عز وجل– أو بصفة من صفاته؛ كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾[الناس: ١]، وقوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ [الفلق:١]، هذه استعاذة بالله، والنبي –صلى الله عليه وسلم– قال: «اللهم إني أعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي» رواه النسائي وصححه الألباني. «اللهم إني أعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي» وهذه استعاذة بصفة من صفات الله عز وجل.

وفي الحديث الذي معنا في الباب: «أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق»، وهذه استعاذة بصفة من صفات الله عز وجل.

وفي الحديث أنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– كان يقول: «أعوذ بكلمات الله التامة، من كل شيطان وهامّة، ومن كل عين لامّة» رواه البخاري في الصحيح. فهذه استعاذة بصفة من صفات الله عز وجل.

القسم الثاني: استعاذة شركية. وهي الاستعاذة بالمخلوق استعاذةً فيها حقيقة الدعاء. أو: أن يعلق العبد قلبه بالمخلوق المستعاذ به، هذه استعاذة شركية.

استعاذة شركية بالمخلوق فيها حقيقة الدعاء؛ في الصور الثلاثة التي ذكرناها: استعاذة بغائب، استعاذة بميت، استعاذة بحي حاضر فيما لا يقدر عليه.

أو أن يُعلِّق قلبه للمخلوق، فيُخلِي قلبه للمخلوق؛ فهذا شرك.

القسم الثالث: استعاذة مباحة. وهي الاستعاذة بالمخلوق بالفعل أو الطلب إذا كان المخلوق حيًّا حاضرًا قادرًا، فيما يقدر عليه، مع اعتقاد القلب أنّ الأمر كله لله سبحانه وتعالى؛ فهذه الاستعاذة مباحة.

الدرس الثامن عشر: تابع شرح بَابٌ مِنَ الشِّرْكِ الِاسْتِعَاذَةُ بِغَيْرِ اللهِ

بسم الله الرحمن الرحيم

درسنا في شرح كتاب التوحيد. وقد شرعنا في شرح باب عظيم؛ وهو: بابٌ من الشرك الاستعاذة بغير الله. وقلنا: إن "مِنَ" هنا تبعيضيه، أيْ أنّ هذا بعض الشرك وليس كل الشرك؛ فإنّ الشرك صورٌ كثيرة.

قوله: (مِنَ الشِّرْكِ) أي: من الشرك الأكبر. (الِاسْتِعَاذَةُ) والاستعاذة: هي طلب العوذ. وأنّ العَوْذ: هو الاعتصام، والالتجاء، والاحتماء، والتحصين، والحفظ. فمعنى الاستعاذة: اللجوء إلى المستعاذ به طلبًا للسلامة من الشرور. وإن شئتَ قل: الاستعاذة: طلب الحماية من الشرور.

وتقدّم معنا أنّ الاستعاذة من جهة حكمها تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأوّل: الاستعاذة بالله –عز وجل– أو بصفة من صفاته. وهذا النوع من الاستعاذة هو توحيد وعبادة، تُكتَب لك بها الحسنات، وترضي الله عز وجل، وتحصِّل مقصودك وهو الحماية من الشرور. فتقول: أعوذ برب الناس من شر كل ذي شر، وتقول: أعوذ برب الفلق من شر كل ذي شر، أو نحو ذلك، أو تستعيذ بكلمات الله فتقول: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، أو تقول: أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامّة ومن كل عين لامّة. فهذه الاستعاذة استعاذة كاملة، وهي عبادة وتوحيد لربنا سبحانه وتعالى.

القسم الثاني: الاستعاذة بالمخلوق القادر فيما يقدر عليه المخلوق في العادة.

"الاستعاذة بالمخلوق" سواء كان جمادًا أو كان إنسانًا او غير ذلك.

الاستعاذة بالمخلوق إذا كان جمادًا؛ كأن تستعيذ بمزرعتك من الفتن؛ فتقول: عذتُ بمزرعتي من الفتن؛ أي: لجأتُ إليها معتصمًا من الفتن؛ لبعدها عن البلد. وقد قال النبي –صلى الله عليه وسلم– في الفتن: «ومَن وَجَدَ ملجأ أو معاذًا فليَعُذ به».

أو كان إنسانًا مثلًا؛ وإذا كان المستعاذ به الإنسان، فلكي يكون قادرًا فلابد فيه من صفتين:

الصفة الأولى: أن يكون حيًّا. أمّا الميت فليس قادرًا على شيء.

الصفة الثانية: أن يكون حاضرًا. أمّا الغائب فليس قادرًا على إعادة مثلِه.

ولذلك؛ إذا كان الإنسان يستعيذ بإنسان، فلا بد أن يكون هذا الإنسان:

- حيًّا.
- وأن يكون حاضرًا.
- وأن يُستعاذ به من الأمور التي يقدر المخلوق عليها في العادة.

ونقول: "يقدر المخلوق عليها في العادة"؛ لأنه قد يكون المعيَّن لا يقدر الشيء لكنك لا تعلم عنه، فمثلًا تقول للقاضي: أستعيذ بك من ظلم خصمي؛ لأنّ القاضي في العادة يقدر على منع الظلم، لكنه قد يَتخلَّف في قاضٍ معيَّن؛ لأنّ هذا القاضي مثلًا مرتشي أو ظالمًا فلا يقدر على إعاذتك من الظلم. ومثلًا تكون في البر وتوشك على الغرق فتقول لمن يمشي على الشاطئ: أستعيذ بك من الغرق، يعني: أنقذني وأغثني، فهذا الرجل الذي يمشي على الساحل قد لا يجيد السباحة، ولكن العادة في العادة أنّ المخلوق يستطيع هذا، فهذه الاستعاذة مباحة وجائزة ولا شيء فيها.

القسم الثالث: استعاذة شركيه –والعياذ بالله– وهي الاستعاذة التي توجد فيها حقيقة الدعاء. وهذه لها ثلاث صور عند أهل العلم:

الصورة الأولى: الاستعاذة بالمخلوق الميِّت، فهذه في الحقيقة شرك أكبر.

الصورة الثانية: الاستعاذة بالغائب. وهذه أيضًا شرك أكبر.

الصورة الثالثة: الاستعاذة بالمخلوق فيما لا يقدر عليه المخلوق عادة؛ فهذه من الشرك بالله. والعياذ بالله.

ومما يتعلَّق بالاستعاذة الشركية: ما يتعلق بتعليق القلب بالمستعاذ به إذا كان مخلوقًا. فإنّ تعليق القلب بالمستعاذ به والتفات القلب إليه يجعل الاستغاثة بالمخلوق –وإن كان قادرًا فيما يقدر عليه– يجعل ذلك شركًا.

ومحصَّل ذلك؛ أنّ استعاذتك بالمخلوق القادر فيما يقدر عليه يجب أن تكون من باب الأسباب. وقد تقدّم معنا أنّ المؤمن يفعل السبب ويعلِّق قلبه بالله، فمثلًا: إذا مرضتَ فإنك تأخذ الدواء، والصحيح أنّ الدواء مشروع وليس مباحًا فقط، ولكنك تعلِّق قلبك بالله، فلا تعلِّق قلبك بالطبيب، ولا تعلِّق قلبك بالدواء. فاستعاذتك بالمخلوق القادر إنما هي من باب الأسباب. فتفعل ذلك سببًا وأنتَ معتقدًا اعتقادًا جازمًا أنّ الأمر كله لله، وأنّ الله عز وجل هو الذي يُقدِر من شاء من عباده على فِعل ما شاء.

وقفنا عند هذا، ولعلنا نقرأ ما ذكره الشيخ ونعلّق عليه. فيتفضل أخي خليل –زفقه الله– يقرأ لنا.

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: [وقوله: باب من الشرك الاستعاذة بغير الله، وَقَوْلُه تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾]

بدأ الشيخ –رحمه الله– بذكر هذه الآية، وذلك أنّ الجن لمّا استمعوا القرآن وآمن مَن آمن منهم برسول الله صلى الله عليه وسلم، ذكروا أمورًا يعرفونها ويعيبونها على بني آدم؛ ومنها ما ذُكِرَ في هذه الآية: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ﴾؛ وهذا ليس تخصيصًا للرجال بل الحكم يشترك فيه الرجال والنساء، ولكنّ هذا بحكم الواقع الأغلب.

﴿يَعُوذُونَ﴾ أي: يطلبون العَوذ والحماية من الشر برجال من الجن.

﴿ فَزَادُوهُمْ رَهَقـًا﴾ أي: زاد الجن الناس إثمًا وخطيئة وخوفًا أثّر في أبدانهم؛ فإنهم لمّا عاذوا بهم كان هذا زيادة في شركهم؛ فازدادوا بهذا إثمًا وخطيئة. وزادوهم خوفًا، لأنْ يا إخوة كانوا يستعيذون بهم من خوفهم منهم فزادوهم خوفًا، وليس مجرد الخوف يا إخوة وإنما هو خوفٌ يرهق البدن، يضعف البدن، هذا الرَّهَق: الخوف المؤثّر في البدن. فزادوهم خوفًا أثَّر في أبدانهم واضعفهم وزادهم ضعفًا.

وقال بعض أهل العلم: ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقـًا﴾ أي: زاد الإنسُ الجنَّ رهقًا؛ أي: تطغيانًا وتكبّرًا وتجبرًا.

وكلا المعنيين صحيح. فالجن يزيدون من يستعيذ بهم خطيئة وإثمًا وخوفًا. والإنس يزيدون الجن عند الاستعاذة بهم تكبرًا وتعظُّمًا وتجبرًا عليهم.

والأصل في هذا أنّ العرب كانوا إذا ذهبوا إلى مكان مقفِر أو دخلوا واديًا خافوا من الجن، فماذا يفعلون؟ يقولون: نعوذ بسيد هذا الوادي من شر سفهاء قومه، أو يقولون: نعوذ بعظيم هذا الوادي من شر سفهاء قومه.

وقد ذكر بعض السلف أنّ أول من استعاذ بالجن من العرب قوم من أهل اليمن من بني حنيفة، ثم انتشر ذلك في العرب في الجاهلية، فكانوا يستعيذون بالجن.

وهذا يدل على أنّ الاستعاذة بالمخلوق فيما لا يقدر عليه المخلوق عادةً من الشرك الأكبر المخرج من الملة؛ لأنّ هذا حكايةٌ عما يفعله المشركون.

وإذا كان هذا فيمن يستعينوا بالجن؛ والجن خلق من خلق الله، خُلقوا من نار، يروننا ولا نراهم، فمن باب أولى أن يكون ذلك في الاستعاذة برجال من الإنس هم من أمثالنا خلقوا من تراب، يأكلون كما نأكل، ويشربون كما نشرب، ويمرضون كما نمرض، ويقضون الحاجة كما نقضي، ويموتون كما نموت، فإذا كانت الاستعاذة برجال من الجن شركًا فمن باب أولى أن تكون الاستعاذة برجال من الإنس شركًا يخرج من الملة.

وكما قلت لكم يا إخوة؛ هذا من فعل المشركين الذي أخبرت به الجن.

قال رحمه الله: [قوله: وَعَنْ خَوْلَةَ بِنْتِ حَكِيمٍ رضي الله عنها قَالَتْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا فَقَالَ أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْحَلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ]

(عَنْ خَوْلَةَ بِنْتِ حَكِيمٍ –رضي الله عنها– قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ –صلى الله عليه وسلم– يَقُولُ: «مَنْ نَزَلَ» "من" هنا شرطيه، فهذا سياق الشرط. «مَن نزل منزلًا» "منزلًا" هنا نكره؛ فتعم كل منزل، سواء نزلته لسكناه دائمًا، أو نزلته لسكنى مؤقتة؛ كالفندق، أو نزلته لتجلس فيه وتستظل مثلًا من الشمس، أو نزلته لتنام فيه ليله في مسيرك، كل منزل تنزله يدخل في هذا الحديث.

«مَنْزِلًا فَقَالَ أَعُوذُ» أي: أعتصم وألتجأ وأحتمي. «بِكَلِمَاتِ اللهِ» قال بعض أهل العلم: المراد بكلمات الله هنا: كلمات الله الكونية القدرية التي يَخلق بها سبحانه وتعالى ويُقدِّر بها سبحانه وتعالى. ومعنى «التَّامَاتِ» هنا بهذا المعنى: أي الواقعات التي لا رادّ لها. فكلمات الله الكونية القدرية واقعة لا رادّ لها.

وقال بعض أهل العلم: المراد (بكلمات الله): كلمات الله الشرعية، والمراد بها هنا: القرآن؛ لأنّ القرآن كلام الله سبحانه وتعالى؛ ويكون معنى (التامات) على هذا المعنى: التي لا يلحقها نقص ولا عيب. كلُّ كلام غير الوحي لابد أن يلحقه نقص أو عيب، سبحان الله! مهما تحريتَ في كلامك تجد فيه عيبًا أو نقصًا، أمّا كلام الله –عز وجل– فليس فيه عيب ولا نقص.

كما أنّ معنى (التامات) هنا: أنها الصادقة في أخبارها، العدل في أحكامها. فكلام الله تامٌّ صدقًا وعدلًا. صدقٌ في الأخبار، وعدلٌ في الأحكام.

وعندما يقول الإنسان: (أعوذ بكلمات الله التامات) ينبغي أن يستشعر هذا المعنى، فإنّ أهل العلم يقولون: إنّ الأذكار والأدعية كلما كان القلب مستحضرًا لمعناها كلما كانت أبلغ في تحقيق مقتضاها.

«أعوذ بكلمات الله التامات مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ»: وهذه استعاذة من شر كل ذي شر، من غير تخصيص.

«لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ» "شيء" نكره في سياق النفي فتعم. إذا نزلت المنزل فقلت: (أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق) فإنك معاذ من الشر، لا يضرك شر، لا لدغة حية، ولا لدغة عقرب، ولا شر في منزلك ذلك.

وقد جاء في الحديث: أنّ رجلًا جاء إلى النبي –صلى الله عليه وسلم– فقال: (يا رسول الله! ما لقيتُ من عقرب لدغتني البارحة) يعني يشتكي، يقول: يا رسول الله! لقيت ألمًا شديدًا وسقمًا عظيمًا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم–: «أمّا لو قلتَ: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، لم تضرك» رواه مسلم في الصحيح.

وفي الحديث قال النبي –صلى الله عليه وسلم–: «مَن قال حين يمسي ثلاث مرات: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق؛ لم يضره حمة تلك الليلة» رواه الترمذي وابن حبان وصححه الألباني. والمساء: هو مِن بعد الظهر، فإذا خلَّفت الظهر فقد أمسيت. «من قال حين يمسي ثلاث مرات: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق؛ لم يضره حمَة تلك الليلة»، وهذا يدل على أنّ المساء هنا المقصود به: عند دخول الليل.

وقد ذكرتُ مرارًا وتكرارًا للإخوة؛ أنّ أذكار الليل تقال عند دخول المساء إلا ما دل الدليل على أنه يقال عند الليل؛ مثل هذا الذكر الذي معنا؛ لأنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: «لم يضره حمة»، والحمة: إمّا السم، وإمّا الهوام ذوات السموم. يعني لا حية ولا عقرب ولا شيء من ذوات السموم، لا تضره في تلك الليلة. والحديث صحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم.

هل عند نزول المنزل يقول: «أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خَلق» ثلاثًا أو يقولها مرة؟

اختلف أهل العلم على قولين:

القول الأول: يقولها ثلاث مرات؛ وذلك:

أوّلًا: ورد في مسند الإمام أحمد ثلاثًا. لكن هذه الزيادة فيها ضعف.

ثانيًا: لأنّ هذا دعاء، ومن سنة النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه كان إذا دعا دعا ثلاثًا، وهذا الذي فهمته من كلام شيخنا الشيخ ابن باز- رحمه الله- أنه يرى أنّ مَن نزل منزلًا يقول: «أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق» ثلاثًا.

القول الثاني: يقولها مرة واحدة. لأنه لم يرد التكرار في رواية صحيحة؛ فيقال مرة واحدة.

والأمر واسع، فمَن قالها مرة واحدة رُجيَ أن يحصل له هذا الموعود، ومن قالها ثلاثًا رجي أن يحصل له هذا الموعود.

وتأملوا يا إخوة؛ كيف أنّ الشيخ -رحمه الله- ذكر لنا استعاذة المشركين، وذكر لنا استعاذة المؤمنين. أمّا استعاذة المشركين فذكرها بذكر الآية؛ فإنهم كانوا إذا نزلوا منزلًا يستعيذون برجال من الجن. وأمّا المؤمنون فإنهم إذا نزلوا منزلًا استعاذوا بكلمات الله التامات، وهذه استعاذة بصفة من صفات الله عز وجل. فانظر في أيّ جانب أنتَ يا عبد الله! لأنّ بعض المسلمين الذين ينتسبون إلى الإسلام إذا قلنا له: أنّ الاستعاذة بالمخلوق فيما لا يقدر عليه المخلوق عادة شرك، يأبون، وسبحان الله! تترك ما أمرك الله به وهو أن تستعيذ به أو تستعيذ بصفة من صفاته، إلى كلام للناس لا دليل عليه وإنما هو شبهات وكلمات يرص بعضها فوق بعض؟!

انظر يا عبد الله –عز وجل– بيّن لك كيف يستعيذ المشركون، والرسول –صلى الله عليه وسلم– بيَّن لك كيف يستعيذ المؤمنون، فاختر لنفسك في أيّ جانب تكون.

ولا شك أنّ كل مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمد رسول الله إذا علم هذه الحقيقة الكبرى المجلّاة في كتاب ربنا وفي الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم سيأبى أن ينخرط في سلك المشركين، أو أن يسير على خطاهم، أو أن يفعل فعلهم، وسيلزم ما أمره الله به وبيّنه له رسول الله صلى الله عليه وسلم.

بقي أن أشير أنّ الذي في صحيح مسلم: «حتى يرتحل»، لانّ الموجود عندنا: (حتى يرحل)؛ والمعنى واحد لكن التنبيه على اللفظ فقط. بل تتبعت ألفاظ الحديث فلم أجد (حتى يرحل)، في الكتب التي اطلعت عليها لم أجد (حتى يرحل)، وإنما الموجود: «حتى يرتحل» في مثل هذا الحديث؛ وهو الذي في صحيح مسلم.

قال رحمه الله: [فِيهِ مَسَائِلُ: الاولى: تفسير ﴿وأنه كان رجال من الإنس﴾]

نعم؛ وقد تقدم بيان معناها.

قوله: [الثَّانِيَةُ: كَوْنُهُ مِنَ الشِّرْكِ]

كون الاستعاذة بالجن من الشرك؛ لأنّ هذا جاء حكاية عن فعل المشركين، وعن ذمِّ المشركين بما يفعلونه؛ وهذا يدل على أنه من الشرك.

قال رحمه الله: [الثَّالِثَةُ: الِاسْتِدْلالُ عَلَى ذَلِكَ بِالْحَدِيثِ، لِأَنَّ الْعُلَمَاءَ استدلوا بِهِ عَلَى أَنَّ كَلِمَاتِ اللهِ غَيْرُ مَخْلُوقَةٍ. قالوا: لأنّ الاستعاذة بالمخلوق شرك]

الاستدلال بالحديث على أنّ الاستعاذة إنما تكون بالله أو بصفة من صفاته. وقد استدل العلماء بهذا الحديث على أنّ كلمات الله ليست مخلوقه بل هي صفة من صفاته؛ لأنّ العلماء متفقون على أنّ الاستعاذة بالمخلوق فيما لا يقدر عليه المخلوق عادة لا تجوز، فلمّا جاء هذا الحديث علمنا أنّ كلمات الله ليست مخلوقه، والأدلة على ذلك كثيرة جدًّا في كتاب ربنا وسنة نبينا صلى الله عليه وسلم.

قال رحمه الله: [الرَّابِعَةُ فَضِيلَةُ هَذَا الدُّعَاءِ مَعَ اخْتِصَارِهِ]

نعم؛ هذا الدعاء يستطيع يحفظه كل مسلم، ومع ذلك فيه فضل عظيم؛ ومن ذلك –كما قلتُ لكم–:

أولًا: عبادةٌ يُكتب لك بها حسنات.

ثانيًا: تُحمى به من الشر.

[الْخَامِسَةُ أَنَّ كَوْنَ الشَّيْءِ يَحْصُلُ بِهِ مَنْفَعَةٌ دُنْيَوِيَّةٌ، مِنْ كَفِّ شَرٍّ أَوْ جَلْبِ نَفْعٍ، لَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الشِّرْكِ]

وهذه مسألة مهمة؛ لأنّ بعض الناس يقول: جربنا الشيخ –يسمُّون السحرة والمشعوذين شيوخًا– ووجدنا فيه فائدة، فلان كان لا يولد له، ذهب إلى الشيخ فرزق الولد! فلان كان فقيرًا التمس الرزق من الشيخ فأصبح غنيًّا! هذا ليس دليًا على أنّ هذا الفعل نافع في الحقيقة، أو أنه ليس شركًا؛ لأنّ الله قد يبتلي عباده ليتبيَّن الصادق من غير الصادق، فقد يوافق الفعلُ القدر فيقع المقدور، حتى لو لم يذهب إلى الشيخ لوقع هذا، لكن ابتلاءً يوافق الفعلُ القدر. هذا الرجل كتب الله له أن يُرزق ولدًا بعد عشر سنين من الزواج، يبقى تسع سنين صابرًا ثم يضعف –والعياذ بالله– فيذهب إلى المشعوذ، فتحمل امرأته في تلك السنة، ويولَد له بعد عشر سنين؛ وافق الفعل القدر؛ ابتلاء واختبارًا.

فالحكم على الأشياء يؤخَذ من الأدلة، لا من أخبار الناس، وطبعًا يا إخوة! أكثر هذه الأخبار كذب، شياطين الإنس والجن يبثونها في الناس، وتكون كذبًا لا حقيقة لها، وما كان حقًّا منها فهو بقدر الله؛ كما قلنا "وافق الفعل القدر"؛ ابتلاء واختبارًا، وهذا لا يعني أنّ الذهاب إلى ذلك المشعوذ خير، والتماس الرزق من القبر خير، بل يبقى شركًا؛ لدلالة الدليل على أنّ هذا الفعل شرك.

إذن؛ الأحكام من أين نأخذها؟ نأخذها من قال الله قال رسوله صلى الله عليه وسلم، ليس من "حدثتني جارتي"، ولا من "رأيتُ في المنام"، ولا من الوقائع والتجارب. الأحكام إنما تؤخَذ من الأدلة.

تابع الدرس الثامن عشر: بَابٌ مِنْ اَلشِّرْكِ أَنَّ يَسْتَغِيثُ بِغَيْرِ اَللَّهِ أَوْ يَدْعُوَ غَيْرَهُ

قال رحمه الله: [بَابٌ مِنْ اَلشِّرْكِ أَنَّ يَسْتَغِيثُ بِغَيْرِ اَللهِ أَوْ يَدْعُوَ غَيْرَهُ]

قال الشيخ –رحمه الله–: (بَابٌ مِنْ اَلشِّرْكِ أَنَّ يَسْتَغِيثُ بِغَيْرِ اَللهِ أَوْ يَدْعُوَ غَيْرَهُ)، وقد ذكرتُ لكم أنّ الشيخ يذكر الأمور المخالفة للتوحيد التي يقع فيها كثير ممن ينتسبون إلى الإسلام. وكثير ممن يفعلون ذلك يفعلونه لأنهم لم يعلموا أنّ هذا الأمر عبادة لا تجوز إلا لله، وأنّ صرفه لغير الله شرك. فالشيخ يريد أن يعلِّم الناس؛ ليس بكلامه ولا برأيه ولا برأي زيد ولا عمرو وإنما بقال الله قال رسوله صلى الله عليه وسلم. ومما يقع من كثير ممن ينتسبون إلى الإسلام مما يخالف التوحيد: الاستغاثة بغير الله، كالاستغاثة بالأبدال، والاستغاثة بالأقطاب، والاستغاثة بالأموات، والاستغاثة بأصحاب القبور، ولذلك قال الشيخ: (بابٌ من الشرك) و "مِنْ" تبعيضية، و (اَلشِّرْكِ) أي الشرك الأكبر. (أَنَّ يَسْتَغِيثُ بِغَيْرِ اَللهِ) الاستغاثة: طلب الغوث. والغوث في اللغة: النصرة عند الشدة، والتخليص من الكربة.

إذن ما معنى الاستغاثة؟ معنى الاستغاثة: طلب النصرة عند الشدة، والتخليص من الكربة. فعندما تقول: استغيث بالله، أي: أطلب من الله ربي أن ينصرني عند الشدة، وأن يخلَّصني من هذه الكربة.

والاستغاثة كالاستعاذة، الاستغاثة عبادة، وهي فعل النبي –صلى الله عليه وسلم– وأصحابه ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ (الأنفال: ٩)، فهي عبادة.

والاستغاثة تنقسم من حيث حكمها إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأوّل: استغاثة هي توحيد وعبادة ترضي الله ويحصل بها المقصود؛ وهي: الاستغاثة بالله عز وجل. إذا نزلت بك الكربة قلت: يا الله! وإذا وقعت في شدة قلت: يا الله! فهذه استغاثة بالله وهي توحيد وعبادة ترضي الله ويحصل لك بها المقصود.

القسم الثاني: استغاثة جائزة، مباحة؛ وهي: الاستغاثة بالمخلوق القادر فيما يقدر عليه المخلوق عادةً. هجم عليك أسد يريد أن يفترسك وأنت ترى رجلًا يحمل بندقية فتقول له: يا فلان أغثني! هذه جائزة، ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فوكزه موسى فقضى عليه﴾ (القصص: ١٥)، موسى –عليه السلام– عبد من عباد الله الأقوياء خرج يومًا فرأى رجلًا من قومه يقاتل ويصارع رجلًا من عدوه –من قوم فرعون– فهذا الذي من قومه استغاثه قال: يا موسى أغثنيّ فجاء موسى –عليه السلام– فوكزه وكزة، ما أراد أن يقتله ولكن وكزه أراد أن يدفعه، فقضى عليه. وهذا وإن كان من شرع من قبلنا إلا أنه شرع لنا؛ لأنّ شرع الأنبياء في التوحيد والأصول واحد، ولأنه جاء في القرآن ولم يرفَع، لم يدل

دليل من شرعنا على رفعه. فالاستغاثة بالمخلوق القادر فيما يقدر عليه المخلوق عادةً: جائزة.

القسم الثالث: استغاثة شركية. وهي –كما قلنا في الاستعاذة – الاستغاثة التي فيها حقيقة الدعاء في الصور الثلاث:

- الاستغاثة بالميت. فهذه فيها حقيقة الدعاء والطلب، ولا يمكن أن يستغيث مستغيث بميت إلا إذا وقع في قلبه أنّ له تأثيرًا؛ لأنه ميِّت.

- والاستغاثة بالغائب. وهي كالاستغاثة بالميِّت.

- والاستغاثة بالمخلوق فيما لا يقدر عليه المخلوق عادةً. يأتي بعض الناس إلى الشيخ –وبعض الناس يا إخوة يضحكون على المسلمين، ليسوا شيوخًا، ولا علماء، ولا صالحين، لكن يريدون الأموال من الناس ويتمظهرون بالصلاح، ويأتي بسبحة طولها ثلاث متر، مع أنه قد يذكر الشياطين ولا يذكر الله، والناس مساكين إذا رأوا السبحة ظنوا الرجل صالحًا، مع أنّ السبحة لا تدل على صلاح أصلًا، فيغشون الناس– فيأتي بعض الناس ويقدّمون للشيخ النذر ويقولون: يا شيخ أغثنا أنزل علينا المطر، المطر، بركاتك! هذا لا يقدر عليه المخلوق في العادة أن يُنزِل المطر. أو يذهب إلى الشيخ فيقول: يا شيخ بنتي ما

تطيعني تريد أن تتزوج برجل لا أحبه، أغثني يا شيخ اجعلها تطيعني! هذا شرك بالله؛ لأنّ المخلوق لا يقدر على ذلك في العادة. فهذه الاستغاثة.

قال: (باب من الشرك أن يستغيث بغير الله أَوْ يَدْعُوَ غَيْرَهُ)، الدعاء يأتي بمعنين في الأصل –يجب أن نفهمهما–:

- يأتي الدعاء بمعنى النداء. عندما أقول لك: يا زيد! يا طالعًا جبلًا! يقال: دعوتك؛ أي: ناديتك. وهذا لا يدخل معنا في الدعاء الشرعي.

- ويأتي الدعاء بمعنى الطلب بذلة، الطلب بتذلُّل. ولذلك يعبِّر عنه بعض العلماء بـ: طلب الأدنى من الأعلى، أي: الطلب بالتذلل، وهذا هو الذي يتعلق به الدعاء الشرعي.

أقول هذا يا إخوة لأنّ بعض أهل العلم قال: "إنّ دعاء المخلوق ينقسم إلى قسمين: قد يكون شركًا، وقد لا يكون شركًا؛ لأنه جاء بالمعنيين: النداء والطلب بتذلل". وهذا غير سديد وإن قاله من قاله من العلماء الفضلاء الكبار.

الدعاء الشرعي يتعلَّق بالطلب بتذلُّل.

والدعاء الشرعي نوعان:

النوع الأول: دعاء مسألة.

النوع الثاني: دعاء عبادة.

دعاء مسألة؛ معناه: أن تطلب تحصيل الخير أو دفع الشر.

ودعاء العبادة: أن تعبد الله بما شرع.

والعلماء يقولون: دعاء المسألة متضمِّن لدعاء العبادة. بمعنى أنك عندما تقول: يا الله أرزقني، أنتَ هنا سألتَ وعبدتَ؛ لأنّ الدعاء عبادة. سبحان الله ما أكرم الله! نسأله الحاجة فيجعل ذلك عبادة، حسنات، ويجيب دعائنا. إذن دعاء المسألة يتضمن دعاء العبادة.

ودعاء العبادة يستلزم دعاء المسألة، فعندما تصلي فإنّ صلاتك تستلزم أنك تسأل الله، تسأل الله أن يقبل صلاتك، تسأل الله أن يثيبك عليها. عندما تصوم صومك يستلزم أنك تسأل الله، أنت ما صمت إلا لترضي الله، ما صمت إلا ليُقبل منك، فكأنك بلسانك تقول: اللهم اقبل مني. هذا معنى قول العلماء: إنّ دعاء العبادة يستلزم دعاء المسألة.

ودعاء المخلوق شرك أكبر مطلقًا؛ سواء كان دعاء المسألة أو دعاء العبادة. أما دعاء المسألة فظاهر، إذا انقلبت السيارة ببعض الذين ينتسبون إلى الإسلام ما تسمع منهم إلا الصراخ: يا سيدي عبد القادر! يا مولاي! يا سيدي المجذوب! يا سيدي فلان! هذا دعاء، دعاء مسألة، وهو شرك أكبر.

ودعاء العبادة كذلك؛ فإنّ من الناس مَن يتقرَّب إلى المخلوقات بأنواعٍ من العبادة، إذا جاء بالبقرة أو الشاة أو الدجاجة وذبحها لصاحب القبر؛ فإنه عَبَدَ صاحب القبر بهذا الذبح؛ فهذا دعاء عبادة؛ لأنه يستلزم أنه يسأل أن يقبل الشيخ منه ذلك. بعض الناس –والعياذ بالله– يأتي بالبقرة أوالشاة أوالدجاجة ويجتهد طول الليل أن يقبلها الشيخ، وربما أكثر من اجتهاده لو تصدق بصدقة أن يقبلها الله.

إذن؛ الدعاء بنوعَيه قد يصرفه المخلوق إلى المخلوق، وإذا صرفه المخلوق إلى المخلوق فهذا شرك أكبر يُخرج من الملة؛ لأنّ الدعاء عبادة، وقد دلت على ذلك أدلة كثيرة منها: قول الله –عز وجل–:﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ (الإسراء: ٦٧)، هذا يعيبه الله على المشركين، فالمشركين إذا مسهم الضر في البحر؛ بمعنى: اشتدت الريح وخافوا من الغرق تركوا كل مَن كانوا يدعونه في البر ودعوا الله، وهذا يدل على أنّ دعائهم لغير الله في البر شرك، فمِن حال الكفار ما حكاه الله عنهم في هذه الآية، وفي قول الله –عز وجل–: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾(العنكبوت: ٦٥)، هذا يا إخوة هل يمكن أن يكون في غير الدعاء؟ –لأنّ بعض الناس يقولون: لا لا هذه الآيات التي تذكرونها ليست في الدعاء، هذه في الصلاة والصيام، أمّا الدعاء دعاء غير الله

ليس شركًا– هذه الآية هل يمكن أن تكون في غير الدعاء؟ إذا ركبوا في الفلك وخافوا من الغرق ماذا يفعلون؟ يدعون الله مخلصين له الدين، فدلّ ذلك على أنّ الدعاء لله توحيد، ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ أي: في الدعاء، فيدعون الأصنام ويدعون الآلهة التي يتقربون إليها من دون الله.

وقد صح عن النبي –صلى الله عليه وسلم– أنه قال: «الدعاء هو العبادة» رواه الترمذي وأبو داود وابن ماجه وصححه الألباني. مَن يأتي بعد رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ويصوِّب للرسول –صلى الله عليه وسلم– ويقول: أنتم تخطئون، أنتم وهابية؟! النبي –صلى الله عليه وسلم– يقول لك: يا عبد الله يا مَن تقول أشهد أنّ محمدًا رسول الله يقول لك: «الدعاء هو» "هو" حصر «الدعاء هو العبادة»، فلبُّ العبادة: الدعاء، فصرْفه لغير الله شرك. والعياذ بالله. وقد ذكر الشيخ أدلة تدل على ذلك.

يا إخوة! أمّة محمد –صلى الله عليه وسلم– بحاجة إلى أن يتجرَّد أفرادها للحق، يجب أن نكون صادقين في قولنا: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنّ محمدًا رسول الله، أن نتجرَّد للحق، فما نسمعه من أدلة لا نرده بالعادة، ما نردّه نقول: لا، نحن عشنا خمسين سنة ستين سنة ونحن نذبح لأصحاب القبور وننذر لأصحاب القبور! ما نردّ الحق بالعادة، وما نردّ الحق بكلام زيد أو عبيد أو عمرو من الناس، وإنما نستسلم للنص، والعلم يُرَدّ بالعلم، إذا كان عندك علم

يقابل العلم فأعرضه على أهل العلم حتى يبيِّن لك أنه لا تعارض. أمّا أن تقابِل "قال الله" الذي لا يتطرق إليه شك، "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأحاديث الصحيحة التي صحَّحها جهابذة العلماء" بأحاديث لا توجَد في كتب السنة وحكم أهل العلم عليها بالضعف والكذب على رسول الله –صلى الله عليه وسلم– هذا ما فيه خير.

فوصيتي لكل مسلم: أن يَعلم أنه خُلق لعبادة الله، وأنّ الرسول –صلى الله عليه وسلم– إنما بُعث ليعلِّمه كيف يعبد الله، وأنّ الذي سيحاسبه هو الله، وأنّ قائده إلى الجنة هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكيف يترك الطريق الذي أبانه الله؟ وعلَّمنا إياه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويذهب ذات اليمين وذات الشمال؟!

يا أحبتي الدنيا قليلة. جاء بعض إخواننا للحج قبل نصف شهر أو أكثر، وها هو اليوم يستعد ليرجع إلى بلده. وما نحن في الدنيا إلا كالحجاج، أتينا إليها وعمّ قريب –مهما طال العمر– سنرحل، فإياك يا عبد الله أن تلوث نفسك بشي من الشرك.

وأقول لأخي: هناك أمور اتفق عليها العلماء، العلماء جميعًا يقولون: إنها توحيد، هل لو استغثتَ بالله يأتي عالم أو مسلم يقول لكَ أشركت؟ لا والله، كل العلماء بل كل الأمة على أنّ الاستغاثة بالله: توحيد، لكن لو استغثتَ بصاحب

القبر؟ هَبْ أنك وجدتَ عالمًا ينتسب إلى العلم يقول لك: هذا جائز. أكثر العلماء بل العلماء الربانيون جميعًا يقولون لك: هذا شرك. كيف تترك ما اتفق العلماء على أنه توحيد وتُدخِل نفسك في نَفَقٍ على أقل تقدير يَحتمِل أنه شرك احتمالًا أكبر؟! فقط أنا أتنزل معك؛ كيف؟!

يا إخواني! أين تذهب عقولنا؟ يا إخواني عندما تقول: يا الله! هل عندك شك في قدرة الله؟ هل عندك شك في أنّ الله يجيب دعوة من دعاه؟ هل يقول أحد من عامة المسلمين: إنك إذا قلت: يا الله! خالفتَ شرع الله؟ لا والله. لكن إذا قلت: يا سيدي فلان! النصوص من القرآن والسنة تقول لك: هذا شرك، هذا شرك. العلماء يقولون: هذا شرك. لكن على أقل تقدير يَحتمِل احتمالًا أعظم أنه شرك، فلماذا تترك ما اتَّفق العلماء على أنه توحيد وجائز إلى أمرٍ قد تقع فيه في أعظم أمر يُغضب الله سبحانه وتعالى وهو الشرك بالله؟! لا أدري أين تذهب العقول! لكن أنا على يقين أنّ أمّة محمد –صلى الله عليه وسلم– إذا ذُكِّرت تذكَّرت، فإنّ المؤمن خُلِق مفتتنًا نسِيًّا إذا ذُكِّر تذكَّر، لابد يا إخوة من فتنة، لابد نُختَبر، ما نقول: نحن على التوحيد وما نبتلى، بل لابد من البلاء، ونحن ننسى ونضعف ونجهل؛ لكنّ المؤمن علامته: أنه إذا ذُكِّر تذكر، رجع إلى الله وسلّم نفسه لله؛ مهما زخرف المزخرفون، ومهما بهرج المبهرجون، ومهما حاول الضُّلال أن يحولوا بينه وبين الحق سلَّم لله سبحانه وتعالى.

فما أجمل يا إخوة أن نحقق التوحيد في أنفسنا وأن نعلِّم أهلنا وجيراننا التوحيد، وأن نصبر على ذلك. فإنه –والله– ليس بين خلقنا وموتنا إلا كنومة النائم. كم من أحبابنا من ودّعناهم ودفناهم، ونحن على يقين أنّا غدًا مدفونون، وسنسأل عن التوحيد في قبورنا.

يا إخوة! قبل السؤال يوم القيامة سنُسأل عن التوحيد في قبورنا، لن تُسأل في قبرك إلا عن التوحيد: مَن ربك؟ ما دينك؟ مَن نبيك؟ ستُسأل في قبرك عن التوحيد. وإذا لقيتَ الله أعظم ما يُنجيك هو التوحيد، ومَن لقي الله بالشرك فقد خاب وخسِر ولن يُفلح أبدًا. أسأل الله أن يجعلني وإياكم من الموحّدين وأن يثبتني وإياكم إلى أن نلقاه.

الدرس التاسع عشر: تابع شرح بَابٌ مِنْ اَلشِّرْكِ أَنَّ يَسْتَغِيثُ بِغَيْرِ اَللَّهِ أَوْ يَدْعُوَ غَيْرَهُ

بسم الله الرحمن الرحيم

درسنا في شرح كتاب التوحيد، ونحن نَشرُف –بحمد الله– بأن نشرح كتاب التوحيد؛ لأننا نتكلم في أعظم حق عُرِف؛ وهو حق ربنا سبحانه وتعالى، وفي أعظم فرضٍ وُصِف، وهو توحيد الله سبحانه وتعالى، وفي الأمر الذي قضى النبي –صلى الله عليه وسلم– حياته يدعو إليه ويقرِّره إلى أن مات صلى الله عليه وسلم، وفي الأمر الذي أجمعت عليه الأنبياء، وفي الأمر الذي لن تتَّحد الأمّة إلا عليه، فلن تتَّحد الأمّة إلا على التوحيد، فإنها ما لم تجتمع على التوحيد ستبقى الأمّة متفرقة بقلوبها؛ لأنّ عقيدة الإنسان تؤثّر في قلبه، وتؤثّر في حبه، وتؤثّر في ولائه، وتؤثّر في اجتماعه مع الناس، فما لم يجتمع الناس ما لم تجتمع الأمّة على عقيدة التوحيد فإنها لن تجتمع الاجتماع الشرعي والاجتماع النافع لها أبدًا.

ها نحن نرى الأمّة اليوم تتفرّق حتى في عقيدتها في ربها. نجد ممن ينتسبون إلى الإسلام مَن يعتقدون أنّ الأقطاب الأربعة يتصرّفون في الكون، وأنّ القطب والولي قد يَرزق وقد يَخلق والعياذ بالله، فهو شرك حتى في توحيد الربوبية الذي لم يقع من المشركين الأوائل.

ونرى ممن ينتسبون إلى الإسلام اليوم مَن يزعمون أنّ القطب يعلم الغيب، وأنه ينظر في اللوح المحفوظ، ويزعمون أنه لا يجوز لنا أن نخاطب ربنا ولكننا نخاطب الأقطاب وندعوهم ونسألهم! شركٌ في توحيد الألوهية، وشركٌ في توحيد الربوبية.

ونرى أنّ هناك من المسلمين مَن ينازعون في أسماء الله وصفاته.

وكلُّ هذا أيها الإخوة فرّق الأمّة، ومزّق الأمّة، ولن تجتمع الأمّة ما دام أنّ هذا الداء ضارِبٌ في قلوب مَن ينتسبون إلى الإسلام.

فالواجب علينا أن ندعوا أمتنا بالرفق والحكمة والبيان والدليل البيّن إلى توحيد الله سبحانه وتعالى، وأن نصبر على ما نلقاه في هذا الطريق، وأن نجتهد في ذلك أيما اجتهاد.

نَشرُف بهذا الدرس أيها الأحبة، أشرُف به شارحًا، وتَشرُفون به مستمعين بارك الله فيكم. فهذا من أعظم ما يُتقرَّب به إلى ربنا سبحانه وتعالى.

وكنا قد وصلنا إلى ما قرَّره الشيخ في قوله: (بابٌ: من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره).

وقد قدّمنا ما يتعلّق بالاستغاثة. وأنها تنقسم في حكمها إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأوّل: استغاثة توحيد وعبادة. يحبها الله ويرضا عمن يفعلها، ويعطي المستغيث مقصوده إن شاء سبحانه وتعالى، أو يجعل له خيرًا مما أراد؛ وهي: الاستغاثة بالله سبحانه وتعالى.

القسم الثاني: استغاثةٌ مباحةٌ. وهي: الاستغاثة بالمخلوق القادر فيما يقدر عليه، ويُشترط في القادر: أن يكون حيًّا حاضرًا. فلا يستغاث بميِّت أبدًا، ولا يستغاث بالغائب.

والمقصود بالحاضر: ما كان حاضرًا عندك ببدنه، أو كنتَ تستطيع أن تتواصل معه ويستطيع أن يغيثك. كأن تتصل مثلًا بالإسعاف ليغيث المريض. أو تتصل بالشرطة لتغيثك من اللص. أو تنادي وأنت في البيت إذا جاءك اللصوص: أغيثوني أغيثوني! ليسمعك جيرانك ليغوثوك. فإن هذه استغاثة بالحاضر.

أما الغائب فهو الذي غاب عنك ولا تتصل به ولا يستطيع أن يغيثك.

القسم الثالث: الاستغاثة الشركية. وهي: الاستغاثة بغير الله عز وجل فيما تظهر فيه حقيقة الدعاء. وهي: الاستغاثة بالميت، والاستغاثة بالغائب، والاستغاثة بالحي فيما لا يقدر عليه المخلوق عادة. فإنّ هذه استغاثة شركية كما تقدّم معنا.

إذن؛ تقدَّم معنا أنّا ذكرنا الاستعاذة، وذكرنا الاستغاثة، وهناك لفظ ثالث يشبهها وهو: الاستعانة، والاستعانة: طلب العون. والعون: هو المساعدة، ومعنى ذلك: أنك إذا أردتَ الخير تطلب العون والمساعدة عليه.

فالاستعانة: هي طلب العون على الخير؛ مَن خيري الدنيا والاخرة.

وحكمها كحكم الاستغاثة.

والفرق بين الاستعاذة والاستغاثة والاستعانة:

- أنّ الاستعاذة: طلب الحماية من الشر، فهي تكون قبل وقوع الشر، تطلب من الله أن يحميك من الشر، فتستعيذ بالله من الفتن، يعني تطلب من الله أن يحميك من شر الفتن قبل أن يقع الشر.

- وأما الاستغاثة: فهي طلب تفريج الشدة وتفرج الكربة، فهي تكون عند وقوع الشر، أو عند قربه، كأنه واقع، فتستغيث لتنجو من هذه الشدة، فمثلًا: لو كنتَ في الطائرة وحصل خلل في الطائرة، فهذه شدة وهذا شر وقع وتستغيث بالله، فأنت تطلب النجاة من هذه الكربة التي وقعت.

- والاستعانة: هي طلب العون على الخير.

إذن؛ الاستغاثة والاستعاذة: متعلقتان بدفع الشر أو رفعه. فالاستعاذة متعلقة بدفع الشر، والاستغاثة متعلقة برفع الشر.

وأما الاستعانة: فهي متعلقة بطلب الخير؛ سواء كان الخير من خير الدنيا، أم كان من خير الأخرة.

وأمّا الفرق بين هذه الثلاث والدعاء: فهو أنّ الدعاء أعمُّ منها، فإنّ الاستعاذة دعاء مخصوص، والاستغاثة دعاء مخصوص، والاستعانة دعاء مخصوص. أما الدعاء فهو عام في طلب ما تحتاجه وتبتغيه مطلقًا، سواء كان في تحقيق خير أو دفع شر. وقد تقدَّم الكلام عن الدعاء.

وقد وقفنا عند هذا، ولم نقرأ ما يتعلق فيما أورده الشيخ من أدله. فيتفضل الشيخ يا سين –وفقه الله– يقرأ لنا.

يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب –رحمه الله–: [وَقَوْلُ اَللهِ تَعَالَى: ﴿وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِّنَ الظَّالِمِينَ (١٠٦) وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ﴾ (يونس: ١٠٧) الآية]

هذه الآية العظيمة بدأها الله –عز وجل– بقوله قبلها: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (يونس: ١٠٥)، فأَمَرَ الله –عز وجل– نبيه بأن يقيم وجه للدين حنيفًا؛ أي: مائلًا عن الشرك إلى التوحيد ﴿وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. ثم قال الله: ﴿وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللهِ﴾، تقدّم معنا أنّ معنى "من دون الله":

- إمّا أن تدعوا غير الله استقلالًا.
- وإمّا أن تدعو غير الله مع الله.

وكلا الصورتين تدخلان في هذا.

﴿وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ﴾ وهذه الصفة ملازمة لكل مخلوق، فكل مخلوق لا يستطيع أن ينفعك استقلالًا إلا بإذن الله وأمره. وكل مخلوق لا يستطيع أن يضرك استقلالًا إلا بإذن الله. بل إنّ المخلوقات كلها كبيرها وصغيرها، شريفها ووضيعها لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك؛ فإنهم لا يستطيعون نفعك، ولو اجتمعت وتظاهرت وتناصرت على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك؛ لم يستطيعوا أن يضروك.

إذن؛ معنى الآية: ولا تدعوا من دون الله مخلوقًا؛ لأنّ هذه الصفة المذكورة في الآية صفة المخلوقين، ومفهوم المخالفة: ادعوا الله عز وجل؛ لأنه هو الذي ينفعك وإن شاء مسك بالضر لحكمة عظيمة. ﴿فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾ يعني: فإن دعوتَ مَن لا ينفعك ولا يضرك فإنك إذن من الظالمين؛ أي: المشركين؛ لأنّ الشرك أعظم الظلم ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان: ١٣)، وهذا الخطاب للنبي –صلى الله عليه وسلم– لتنزجر الأمّة وتتعلم الأمّة.

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ﴾ أي: إن أصابك ضر بإذن الله –عز وجل– وبتقدير الله –عز وجل– فلن يكشفه أحد إلا الله، ﴿فَلاَ كَاشِفَ﴾ وهذه نكره تعمّ ﴿إلا هو﴾ سبحانه وتعالى، وهذا يدل على أنه لا يُدعى إلا الله ولا يُستغاث إلا بالله.

أمّا أوّل الآية: (وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ﴾ يدل على أنه لا يُدعى إلا الله.

وقول الله –عز وجل–: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ﴾ هنا تأتي الاستغاثة؛ لأنّ الاستغاثة طلب كشف الضر، تفريج الكربة، ومعنى هذا: أنك لا تستغيث إلا بالله عز وجل.

﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ﴾ لا يملك أحد أن يردّ فضل الله عنك، ﴿يُصَيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (يونس: ١٠٧).

فهذه الآية العظيمة مَنَعَت من الاستعاذة بغير الله، ومنعت من الاستعانة بغير الله، ومنعت من الاستغاثة بغير الله، ومنعت من دعاء غير الله، أين هذا المنع؟ هذا المنع كله في قوله –عز وجل–: ﴿وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ﴾؛لأنّ الاستعاذة دعاء، والاستعانة دعاء، والاستغاثة دعاء. وأيضًا مُنعَت

الاستغاثة في قول الله –عز وجل–: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ﴾ وهذه هي الاستغاثة.

قال –رحمه الله–: [وَقَوْلُهُ: ﴿فَابْتَغوا عِندَ اللهِ الرِّزْقَ﴾ الآية]

الله –عز وجل– قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾، ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ﴾ وهذا يشمل كل جميع المعبودات من دون الله، ﴿لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾؛ هل الرزق الطعام والشراب فقط؟ لا، الرزق يشمل الولد، ويشمل العافية، ويشمل الطعام، ويشمل الشراب، فكل المعبودات من دون الله لا تملك رزقًا لعابديها، كل مخلوق لا يملك أن يرزقك، وإنما الرزاق هو الله سبحانه وتعالى؛ ولذا قال الله: ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللهِ الرِّزْقَ﴾، ﴿فَابْتَغُوا﴾ أمر، والأصل في السَّبك: فابتغوا الرزق عن الله، لكن قال الله –عز وجل–: ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللهِ الرِّزْقَ﴾، فقدَّم ما حقه التأخير: للدلالة على الاختصاص، أي: لا تبتغوا الرزق إلا من عند الله، ولا تطلبوه من غير الله أبدًا. وهذا يدل على أنّ الدعاء بجميع أنواعه وصوره لا يكون إلا من الله سبحانه تعالى.

ثم قال الله: ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللهِ الرِّزْقَ واعبدوه﴾ وهذا من باب عطف العام على الخاص؛ لأنّ ابتغاء الرزق من عند الله عبادة، نوع من أنواع العبادة.

﴿واعبدوه﴾ أي: مخلصين له الدين. وهذا من باب عطف العام على الخاص.

قال يرحمه الله: [وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يوم الْقِيَامَةِ﴾ الآيتين]

وقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾ أي: لا أَضَلَّ، وهذا يدل على أنّ دعاء غير الله شرك أكبر؛ لأنه الذي لا أضلَّ منه هو المشرك.

﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللهِ﴾ إمّا يدعوه استقلالًا، وإمّا أن يدعوه مع الله، ﴿مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ﴾ وهذا وصْفٌ لكل مخلوق؛ سواء كان صنمًا، أو كان رجلًا، أو ملكًا. نعم بعض أهل العلم حملوا هذه الآية على الأصنام؛ لكنّ الصحيح أنها تشمل جميع المعبودات من دون الله؛ ما الدليل؟ قال الله –عز وجل–: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ﴾،﴿مَن لا يَستَجِيب﴾ "من" الأصل فيها يقول علماء اللغة: أنها للعاقل، ويدخل فيها غير العاقل تَبَعًا، والأدقُّ أن يقال: إنّ "مَن" لمن يعلم، أدقُّ من أن نقول: إنها لمن يعقِل، فهي لمن يعلم، وهذه درجة أخرى.

ولا شك أنّ الأصل في هذا أنّ الملائكة والأنبياء والأولياء الذين يُعبَدون وهم لا يَرضون بعبادتهم، فهم لا يستجيبون لمن يشرك بالله يقينًا، الذي يدعو

الملائكة من دون الله لو كانت الملائكة قادرة على أن تعطيه ما أراد، هل تفعل؟ لا والله. لأنه يشرك بالله. فالآية عامة على الراجح من أقوال أهل العلم.

﴿وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ فإنهم يوم القيامة يتبرؤون منهم ومن شركهم.

قال رحمه الله: [وَقَوْلُهُ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾]

هذه الآية فيها دلالة على أنّ الذي يجيب المضر هو الله سبحانه وتعالى، وأنه هو الذي يكشف السوء، وهذه الآية دليل على أنّ الاستغاثة إنما تكون بالله سبحانه وتعالى؛ لأنه هو الذي يجيب المضر.

فإن قال قائل: لِمَ خصَّ الله المضطر هنا، مع أنه يجيب دعوة الداعي إذا دعاه، سواء كان مضطرًا أو غير مضطر ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ (البقرة: ١٨٦)؟

والجواب: أنّ المضطر يكون أكثر إلحاحًا في الدعاء، وأكثر صدقًا في الدعاء، ولإقامة الحجة على المشركين، كيف؟ المشركون إذا وقعوا في الضرورة والاضطرار إذا ركبوا في الفلك ماذا يفعلون؟ يدعون الله مخلصين له الدين؛ لأنهم يعلمون أنّ الذي يجيب المضطر هو الله، فأقام الله عليهم الحجة بهذه الآية العظيمة، وهذه الآية أوردها الشيخ ليبيِّن أنه لا يستغاث إلا بالله سبحانه وتعالى.

قال يرحمه الله: [وروى الطبراني بإسناده أنه كان في زمن النبي صلى الله عليه وسلم منافق يؤذي المؤمنين، فقال بعضهم: قوموا بنا نستغيث برسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا المنافق، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله عز وجل–»]

قال: (ورَوَى اَلطَّبَرَانِيُّ) أي: في الكبير؛ كما قال الهيثمي في مجمع الزوائد. وأنا لم أجده فيما طبع من الكبير للطبراني، لكن قال في مجمع الزوائد: إنه رواه الطبراني في الكبير، قال: رجاله رجال الصحيح، غير ابن لهيعة وهو حسن الحسن. وهذا الصحيح في ابن لهيعة أنه حسن الحديث ما لم يعنعن. فالحديث حسن على ما حكاه الهيثمي.

قال: (أَنَّهُ كَانَ فِي زَمَنِ اَلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم مُنَافِقٌ)، والمنافقون: هم الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر، وكانوا موجودين في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، فكان أحدهم يشتد أذاه للمؤمنين. (فَقَالَ بَعْضُهُمْ قوموا بنا) "قال بعضهم" أي: قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه، هكذا جاء في الروايات، وقال شيخنا الشيخ ابن باز –رحمه الله–: قيل: إنه عبادة الراوي، لكن في الروايات إنه أبو بكر الصديق رضي الله عنه. (قُومُوا بِنَا نَسْتَغِيثُ بِرَسُولِ اَللَّهِ صلى الله عليه وسلم مِنْ هَذَا اَلْمُنَافِقِ) أي: من أذاه. (فَقَالَ اَلنَّبِيُّ –صلى الله عليه وسلم–: «إِنَّهُ لَا يُسْتَغَاثُ بِي» يا إخوة! النبي صلى الله عليه وسلم هنا حي او ميِّت؟ حي، وهم

استغاثوا بالحي القادر فيما يقدر عليه المخلوق عادة، وقد قدّمنا أنّ هذه الاستغاثة مباحة، إذن لماذا قال النبي –صلى الله عليه وسلم–: «إنه لا يستغاث بي»؟

– قال بعض أهل العلم: إنما أرادوا من النبي –صلى الله عليه وسلم– قتله، يعني: أرادوا أن يقتله النبي صلى الله عليه وسلم، والنبي –صلى الله عليه وسلم– لا يجوز له أن يقتله؛ إذن لا يقدر؛ فلذلك قال: «إِنَّهُ لَا يُسْتَغَاثُ بِي» أي: في قتله؛ لأنّ الله لم يأذن لي في قتله. «وَإِنَّمَا يُسْتَغَاثُ بِاَللهِ» لأنّ الله قادر على أن يهلكه. فهذا وجه. قالوا: إذن هم استغاثوا بالنبي –صلى الله عليه وسلم– فيما لا يقدر عليه بحكم أنه ممنوع شرعًا، وإن كان يستطيع أن يقتله بحكم أنه الوالي، وأنه قادر على ذلك صلى الله عليه وسلم، لكن أخبرهم أنّ الله لم يأذن له، هذا معنى «لا يُستغاث بي»، وهذا يدل على أنّ المخلوق لا يستغاث به فيما لا يقدر عليه.

– وقال بعض أهل العلم: بل كان هذا من تأديب النبي –صلى الله عليه وسلم– وسدِّه للذرائع، مثل ما قال الرجل: ما شاء الله وشئت، قال: «أجعلتني لله ندًا؟ قل: ما شاء الله وحده» في هذا المقام، وإلا لو قال: «ما شاء الله ثم شئت» صح، لكن هذا من باب التأديب وسدِّ الذرائع. فقالوا: إنّ هذا من باب التأديب لهم، وسدِّ الذرائع، حملهم على أجمل المحامل وأحسنها، وهو الاستغاثة بالله عز وجل.

وهذا يدل على فائدة عظيمة؛ وهي: أنّ الاستغاثة بالمخلوق وإن كانت جائزة إلا أن الاستغاثة بالله أعظم وأوقع.

ووجه الدلالة في قول النبي صلى الله عليه وسلم: «وَإِنَّمَا يُسْتَغَاثُ بِاَللهِ»؛ فدل ذلك على أنّ الاستغاثة إنما تكون بالله تعالى.

وهذا الباب أيها الإخوة وقع فيه الضَّلال فيمن ينتسبون إلى أمّة محمد صلى الله عليه وسلم أعظم مما وقع من المشركين في زمن النبي –صلى الله عليه وسلم– وقبله، فإنّ المشركين في زمن النبي –صلى الله عليه وسلم– إذا مسهم الضر وهم في البحر أخلصوا لله، وضلَّ من يدعون من دون الله، فإذا نجاهم إلى البر فإذا هم يشركون، ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ (العنكبوت: ٦٥)، فهم كانوا إذا استغاثوا في الشدة يستغيثون بالله. أمّا بعض مَن ينتسبون إلى الإسلام إذا وقعوا في الشدائد استغاثوا بغير الله! فهم يستغيثون بغير الله في الشدة والرخاء، يدعون غير الله في الشدة والرخاء. أمّا المشركون الأوائل فكانوا يستغيثون بالله في الشدائد ويدعون الله في الشدائد، فإذا سلِموا أشركوا بالله –عز وجل– في دعائهم.

وهذا يجعلنا أيها الإخوة نحرص حرصًا شديدًا على أن نعلِّم إخواننا. يا إخوة! أنا أجزم أنّ أكثر الذين يقعون في هذه الصور الشركية يقعون فيها وهم لا يعلمون أنها عبادة، أو لأنهم مغرَّرٌ بهم، يأتي أناس يتظاهرون بالعلم ويقولون

لهم: هذه الأمور جائزة، بل هي المطلوبة! ولو أنّ الناس عَلِموا لاستقامت حال كثير من الناس.

ولذلك يا إخوة؛ لا يجوز أن نتشاغل عن الدعوة إلى التوحيد، أو نتكاسل، أو نثبِّط من الدعاء إلى التوحيد، بل نفرح بهذه الدعوة التفصيليَّة البيِّنة للتوحيد، ونشجعها، وندعو لها، وندعو إليها، وندعو لأصحابها بأن يوفقهم الله ويسددهم.

قال يرحمه الله: [فِيهِ مَسَائِلُ: أَنَّ عَطْفَ اَلدُّعَاءِ عَلَى اَلِاسْتِغَاثَةِ مِنْ عَطْفِ اَلْعَامِّ عَلَى اَلْخَاصِّ]

أين العطف؟ بعض الشرَّاح قالوا: في التبويب؛ لأنّ الشيخ قال: (بابٌ من الشرك أن يستغيث بغير الله، أو يدعو غيره)؛ فقالوا: هذا من باب عطف العام على الخاص.

وبعض أهل العلم يقولون: إنّ هذا العطف جاء في الآيات، ولكنه من باب عطف الخاص على العام في قول الله –عز وجل–: ﴿وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللهِ﴾ هذا عام، ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ﴾ هذا في الاستغاثة. فهو من باب عطف العام على الخاص.

قال رحمه الله: [اَلثَّانِيَةُ: تَفْسِيرُ قَوْلِهِ: ﴿وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ﴾

كما تقدّم. وهذا يا إخوة يقطع جذور الشرك؛ لأنّ الداعي إما أن يريد حصول خير وإما أن يريد دفع شر، فإذا عَلِمَ أنه ليس هناك مخلوق مهما علا شرفه ينفعه استقلالًا، أو يكشف الضر عنه استقلالًا، فإنه لا يدعو إلا الله سبحانه وتعالى.

قال يرحمه الله: [اَلثَّالِثَةُ: أَنَّ هَذَا هُوَ اَلشِّرْكُ اَلْأَكْبَرُ]

لقول الله –عز وجل–: ﴿فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾، وهذا هو الشرك الأكبر.

قال: [اَلرَّابِعَةُ: أَنَّ أَصْلَحَ اَلنَّاسِ لَوْ يفعَلُهُ إِرْضَاءً لِغَيْرِهِ، صَارَ مِنْ اَلظَّالِمِينَ]

لو أنّ أفضل مخلوق وهو النبي –صلى الله عليه وسلم– فعل هذا فدعا غير الله لكان من المشركين، وحشاه أن يفعل صلى الله عليه وسلم، لكن لو وقع لكان كذلك، وذلك ليعلم الناس أنه مهما كان صلاح الرجل فإنه إذا أشرك فهو مشركٌ من الظالمين. لأنّ بعض الناس يقولون: شيوخنا تجاوزوا القنطرة، وأنا سمعت من شيخ معاصر من كبار الضُّلال على وجه الأرض يقول: هل يجوز لي أن أسب أحدًا؟ يقول: نعم؛ لأنه رفع عني الأقلام، هذا يكتب وهذا لا

يكتب! يعني الملَك الذي على يمينه يكتب الحسنات، وهذا الذي على شماله لا يكتب، هذا موجود حي! مِن كبار ضُلَّال الأرض يقول هذا الكلام، ويصدِّقه ملايين –للأسف– ينتسبون إلى الإسلام ويقولون: شيخنا تجوز القنطرة! هذا كما قال ابن القيم: إما أن يكون عاقلًا فيكون مكلَّفًا، وإما أن يكون مجنونًا فهذا سقط عن رتبة الإنسان المكلَّف الذي كُرِّم بالعقل.

فمقصود الشيخ: أنّ هذا الخطاب للنبي –صلى الله عليه وسلم– وهو أصلح الخلق، وأشرفهم، وأفضلهم، وأعلاهم منزلة –صلى الله عليه وسلم– فكيف بمن هو دونه؟!

قال: [اَلْخَامِسَةُ: تَفْسِيرُ اَلْآيَةِ اَلَّتِي بَعْدَهَا]

﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللهِ الرِّزْقَ﴾

قال: [اَلسَّادِسَةُ: كَوْنِ ذَلِكَ لَا يَنْفَعُ فِي اَلدُّنْيَا مَعَ كَوْنِهِ كُفْرًا]

لِمَا تقدَّم في الآيات.

[اَلسَّابِعَةُ: تَفْسِيرُ اَلْآيَةِ اَلثَّالِثَةِ. اَلثَّامِنَةُ: أَنَّ طَلَبَ اَلرِّزْقِ لَا يَنْبَغِي إِلَّا مِنْ اَللهِ، كَمَا أَنَّ اَلْجَنَّةَ لَا تُطْلَبُ إِلَّا مِنْهُ. اَلتَّاسِعَةُ: تَفْسِيرُ اَلْآيَةِ اَلرَّابِعَةِ]

قوله: (تَفْسِيرُ اَلْآيَةِ اَلرَّابِعَةِ) وهي: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يومِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ (الأحقاف: ٥).

[اَلْعَاشِرَةُ: ذِكْره أَنَّهُ لا أَضَلُّ مِمَّنْ دَعَا غَيْرَ اَللهِ. الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أَنَّهُ غَافِلٌ عَنْ دُعَاءِ اَلدَّاعِي لا يَدْرِي عَنْهُ]

(أَنَّهُ غَافِلٌ عَنْ دُعَاءِ اَلدَّاعِي لَا يَدْرِي عَنْهُ) يعني: أنّ المدعو غافل عن دعاء الداعي.

[اَلثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أَنَّ تِلْكَ اَلدَّعْوَةَ سَبَبٌ لِبُغْضِ اَلْمَدْعُوِّ لِلدَّاعِي وَعَدَاوَتِهِ لَهُ. اَلثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: تَسْمِيَةُ تِلْكَ اَلدَّعْوَةِ عِبَادَةً لِلْمَدْعُوِّ]

(تَسْمِيَةُ تِلْكَ اَلدَّعْوَةِ عِبَادَةً لِلْمَدْعُوِّ) لقول الله –عز وجل–: (وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ) (الأحقاف: ٦) فسمَّاها عبادة.

[اَلرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: كُفْرُ اَلْمَدْعُوِّ بِتِلْكَ اَلعِبَادَةِ. اَلْخَامِسَةَ عَشْرَةَ: أن هذه الأمور هِيَ سَبَبُ كَوْنِهِ أَضَلَّ اَلنَّاسِ. اَلسَّادِسَةَ عَشْرَةَ: تَفْسِيرُ اَلْآيَةِ اَلْخَامِسَةِ. اَلسَّابِعَةَ عَشْرَةَ: اَلْأَمْرُ اَلعَجِيبُ، وَهُوَ إِقْرَارُ عَبْدَةِ اَلْأَوْثَانِ أَنَّهُ لا يُجِيبُ اَلْمُضْطَرَّ إِلا اَللهِ، وَلِأَجْلِ هَذَا يَدْعُونَهُ فِي اَلشَّدَائِدِ مُخْلِصِينَ لَهُ اَلدِّينَ. اَلثَّامِنَةَ عَشْرَةَ: حِمَايَةُ اَلْمُصْطَفَى صلى الله عليه وسلم حِمَى اَلتَّوْحِيدِ وَالتَّأَدُّبُ مَعَ اَللهِ –عز وجل–]

نعم.

تابع الدرس التاسع عشر: بابُ قَوْلِ اَللَّهُ تَعَالَى: {أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلاَ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ} الآية

قال رحمه الله: [بابُ قَوْلِ اَللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلاَ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ الآية]

الشيخ –رحمه الله- عَقَدَ هذا الباب بفقه عجيب؛ لأنه لمّا بيَّن الشيخ بالأدلة أنّ ما تقدَّم في الأبواب السابقة شرك، وهي كلها في طلب تحصيل الخير، أو دفع الشر، ناسَبَ أن يعقد هذا الباب هنا لبيان أمرين:

الأمر الأوّل: أنّ هذا الشرك الذي يقع فيه جماعات ممن ينتسبون إلى الإسلام هو من جنس شرك المشركين الأوّلين الذين قاتلهم النبي –صلى الله عليه وسلم- عليه؛ فهو يناقِض الإسلام، فمن المناقضة: أن يقول العبد أشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمدًا رسول الله وينذر لغير الله، ويدعو غير الله، ويستغيث بغير الله، ويستعيذ بغير الله! هذا من جنس ما كان يفعله المشركون الأوّلون، فإنّ المشركين الأوّلين ما كانوا يشركون إلا بقصد جلب النفع أو دفع الضر، وهذا الذي يقع من جمعاتٍ ممن ينتسبون إلى الإسلام.

والأمر الثاني: أنّ هذا الشرك مع كونه أعظم الظلم، وأكبر الذنوب، وسببًا للحرمان من الجنة، والخلود في جهنم، فإنه لا ينفع صاحبه في الدنيا، ولا يحقق له مقصوده؛ ولذاك قال الشيخ: (بابُ قَوْلِ اَللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ

شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلاَ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ فكل مَن كان من دون الله –سبحانه وتعالى– مهما علا مكانه وعَظُمَ فضله لا يتَّصف بما يستحق أن يكون به معبودًا، ولا يملك لنفسه ولا لغيره من دون الله جلب نفع مهما صَغُر، ولا دفع شرٍّ أبدًا. فالله –عز وجل– أنكر بهذه الآيات على المشركين شركهم بالله تعالى؛ مع أنّ العقول قاطعة ببطلان ذلك؛ كيف؟ لأنهم يشركون ما لا يخلق شيئًا، ولا مثقال ذرة، ولا ذبابة، إلى اليوم وإلى قيام الساعة لا يملك أحد أن يخلق شيئًا، وكلُّ عاقل يدرك ذلك ويقرُّ به: أنّ الخالق هو الله، وأنّ من كان دون الله لا يملك أن يخلق ولو ذبابة، بل ومع ذلك مع عجزهم عن الخلق هم يُخلَقون، فهم مخلوقون مربوبون محتاجون إلى الله سبحانه وتعالى، والذي يستحق العبادة هو الذي يخلق، لا المخلوق.

ولذا نجد أنّ الله –عز وجل– يقرِّر توحيده بأنه الخالق سبحانه وتعالى؛ كما في قول الله –عز وجل–: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة: ٢١)، فالذي يستحق العبادة هو الخالق، أمّا المخلوق فهو عاجز ضعيف محتاج لا يستحق أن يُعبَد. كما أنهم يشركون بالله ما لا يملك لهم نفعًا ولا دفعًا لضر، بل ولا يملك ذلك لنفسه، فلا يستطيع أن يجلب لنفسه نفعًا فضلًا عن غيره، ولا أن يدفع عن نفسه ضرًّا، فهم لا

يستطيعون نصر غيرهم، ولا ينصرون أنفسهم، ومَن كان هذا شأنه لا يستحق أن يُعبَد.

فدّلت هذه الآيات على أنّ المستحق للعبادة هو الله، وأنّ عبادة غير الله أعظم الظلم، وأنّ كل مَن دون الله لا يستحق أن يُصرَف له شيء من أنواع العبادة.

إذن؛ دلّتنا الآية على أنّ الذي يُعبَد هو الخالق لا المخلوق، والناصر لا المنصور، والخالق هو الله، والناصر هو الله، وكلُّ المخلوقات مخلوقة مربوبة محتاجة ضعيفة منصورة، لا تملك لنفسها ولا لغيرها نصرًا.

وكأن الشيخ هنا يقول لمن تقدّموا: يا مَن تنذرون لغير الله، يا مَن تستغيثون بغير الله، يا مَن تعيذون بغير الله، يا مَن تتبركون بالشجر والحجر ونحوه، لماذا تفعلون ذلك؟ هل لأنّ هذا المخلوقات عظيمة قادرة؟ إن قلتم: نعم، قلنا لكم: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾؟ أم أنكم تشركون بها مع الله، وتعبدونها من دون الله لأنها تنفع وتضر؟ قلنا لكم: ﴿وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلاَ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾. وهذا وجه هذا التبويب العظيم لهذا الباب بعد الأبواب المتقدمة.

قال رحمه الله: [قوله: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ الآية]

(قوله: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾) هذا يشمل جميع مَن يُدعا من دون الله عز وجل. ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ أي: لا يملكون شيئًا، والقطمير: هو القشرة التي تكون على نواة التمر، ليست تمرة مع قلّتها، وليس النواة مع قلَّت نفعها، وإنما: القشرة الرقيقة البيضاء التي تكون على النواة، هذه القشرة الرقيقة التي تكون على النواة لا يملكونها، ولا يملكون شيئًا منها؛ لأنّ الله –عز وجل– قال: ﴿مَا يَمْلِكُونَ﴾ وهذا سياق النفي. ﴿مِن﴾ وهذا يؤكِّد العموم، ﴿قطمير﴾ فلا يملكون شيئًا من القطمير، ولا جزئًا منه، إذن ما دام لا يملكون كيف يعطون؟ لا يعطي إلا مالك، والذي يدعو إنما يريد أن يُعطى، دلّ هذا على أنّ الذي يُدعى هو الله، وأنّ كل المخلوقات لا تملك أن تعطي الداعي شيئًا.

قال يرحمه الله: [وَفِي اَلصَّحِيحِ عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: شُجَّ اَلنَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ، فَقَالَ: (كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهِمْ؟) فَنَزَلَتْ: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾]

قال: (وَفِي اَلصَّحِيحِ) وهذه القصة مع الآية رواها البخاري تعليقًا، ورواها مسلم مسندة. (عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: شُجَّ اَلنَّبِيُّ –صلى الله عليه وسلم– يَوْمَ أُحُدٍ) أي جُرِحَ في رأسه، سبحان الله! النبي –صلى الله عليه وسلم– لمّا أراد أن يخرج من المدينة إلى أُحد لبس لامته، لبس دِرْعَه، ولبس بيضته فوق رأسه، التي يُحمى بها الرأس، فهشِّمت البيضة وجُرِحَ رأسه الشريف صلى الله عليه وسلم. (وَكُسِرَتْ

رَبَاعِيَتُهُ) يقال: رَباعِيَته، ويقال: رُباعيَته، يُفتح الراء ويُضَم وتخفَّف الياء. والرباعية: هي السن التي تلي الثنايا وقبل الناب، وهي أربع؛ ثنتان فوق وثنتان تحت. كُسِرَ سِنُّ النبي صلى الله عليه وسلم، وجُرِحَ رأسه، فجعل يَسلِتُ الدم عنه، يمسح الدم عنه؛ ويقول: «كيف يُفلح قومٌ شجُّوا نبيهم؟ وكسروا رَباعيَته؟» هكذا في الصحيح «وهو يدعوهم إلى الله»، هذه كلها في الصحيح. النبي –صلى الله عليه وسلم– أخذ يسلت الدم أي يمسح الدم عنه ويقول: «كيف يُفلح قومٌ شجُّوا نبيهم؟» جرحوا رأسه «وكسروا رَباعيَته؟ وهو يدعوهم إلى الله!» لا ذنب له إلا أنه يدعوهم إلى الله. فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

ووجه الدلالة من هذه الآية: أنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– وهو أفضل خلق الله جُرِحَ رأسه في الحرب، وكُسِرَت سِنُّه، وقُتِلَ عمه، وقُتِل نحوًا من سبعين من صحابته في معركة أحد؛ فدل ذلك دلالة بيِّنه: على أنه لا يعلم الغيب، ولا يملك جلب النفع، ولا دفع الضر، لا عن نفسه ولا عن غيره، لم يستطع الحبيب –صلى الله عليه وسلم– أن يدفع الجرح عن رأسه، ولم يستطع أن يدفع القتل عن عمه، ولا يعلم الغيب –صلى الله عليه وسلم– إلا ما أطلعه الله؛ كالرؤية الصادقة التي رآها قبل أن يذهب.

فالنبي كما أَمَرَه الله أن يقول؛ لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا، ولا يعلم الغيب. وإذا كان هذا في حال النبي صلى الله عليه وسلم حتى قال الله له: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ

الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ فليس لك من أمر عبادي شيء، وإنما أمر عبادي لي، الذي لك: أن ترشدهم، وتبيِّن لهم، وتنذرهم، وأمّا أمر عبادي فهو إليّ، إذا كان هذا في رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أفضل الخلق: لا يعلم الغيب، ولا يملك لنفسه جلب نفع، ولا دفع ضر، ولا لأصحابه، ولا لأحبابه، وليس له من الأمر شيء، فكيف بمن دونه من الخلق؟! لا شك أنه من باب أولى.

وإذا لم يكن النبي –صلى الله عليه وسلم– عالمًا للغيب، ولا مالكًا لجلب النفع، ولا لدفع الضرِّ عن نفسه ولا عن غيره؛ فإنه لا يستحق أن يُعبَد من دون الله وهو أفضل خلق الله، فكيف بمَن دونه من المخلوقات؟! كيف بمَن يأتي لشيخ ربما لا يصلي يقول: رفع عنه القلم! ويَعبده، ويُقبِّل يده يسجد عليها، ويلتمس منه الذكر، ويبايعه، ويعاهده؟! لا شك أنّ هذا أعظم الضَّلال.

وإذا عَلِمَ المؤمن هذا الحال للنبي –صلى الله عليه وسلم– فإنه سينزجر يقينًا من أن يدعو غير الله، أو من أن يستغيث بغير الله، أو ينذر لغير الله، فإنه لا يملك النفع والضر إلا الله سبحانه وتعالى.

القاضي كما نقل عنه النووي ذكر الحكمة مما أصاب النبي –صلى الله عليه وسلم– وأصاب الأنبياء قبله؛ فقال: "لُيعلَم أنهم من البشر، تصيبهم مِحَن الدنيا، ويطرأ على أجسامهم ما يطرأ على أجسام البشر، ليتيقنّوا أنهم مخلوقون مربوبون".

القاضي نقل عنه النووي في تعليقه على هذا الحديث أنّ الحكمة فيما يصيب الأنبياء وأصاب النبي –صلى الله عليه وسلم–: أن يعلم الناس أنّ الأنبياء مع ما جاءوا به من المعجزات بشر ضعفاء، يصيبهم ما يصيب البشر، ليتيقّن الناس أنهم مخلوقون مربوبون، عباد لا يُعبَدون، ورسل لا يُكذَّبون.

بعض الناس يسيء الأدب مع الله ويسيء الأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويتَّهم أهل التوحيد بأنهم يسيئون الأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم! بعض الناس يرى أنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– تُصرَف له العبادة من دون الله! فهذا أساء الأدب مع الله؛ لأنه جعل ما لله لغير الله. وأساء الأدب مع رسول الله؛ لأنه هجر كل أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم التي تأمر بالتوحيد وتنهى عن الشرك، واتَّهم أهل التوحيد بالكذب والزور والبهتان.

أهل التوحيد يحبون النبي –صلى الله عليه وسلم– أكثر من الناس أجمعين؛ فيقولون: هو رسول الله، رسول لا يُكذَّب، وعبد لا يُعبَد، ولا يُعبَد الله إلا بما شَرَعَ. فهذا أيها الإخوة هو موقف المسلم الصحيح؛ يعرف حق الله ويعرف حق رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ونقف عند هذه النقطة، ونكمل ما سطره الشيخ –رحمه الله– غدًا إن شاء الله.

الدرس العشرون: تابع شرح بابُ قَوْلِ اَللَّهُ تَعَالَى: {أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلاَ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ}الآية

بسم الله الرحمن الرحيم

درسنا في شرح كتاب التوحيد، فلا زلنا نشرح في هذ الكتاب العظيم، وقد وصلنا إلى الباب الذي عقده الشيخ قال: (بَابُ قَوْلِ اَللهُ تَعَالَى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلاَ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾. وقلنا أنّ الشيخ –رحمه الله– أراد بعقد هذا الباب أن يبيِّن أنّ شرك مَن ينتسبون إلى الإسلام الذي يفعله بعض مَن ينتسبون إلى الإسلام هو من جنس المشركين المتقدِّمين الذين قاتلهم النبي –صلى الله عليه وسلم– على ذلك الشرك. وأنّ النذر لغير الله، والاستغاثة بغير الله، ودعاء غير الله، والتبرُّك بالأشجار والأحجار والقبور وغير ذلك، هي مما يناقِض الإسلام ويرفع الإسلام. فالشيخ أراد أن يُبيِّن أنّ الشرك الذي يقع من بعض المنتسبين إلى الإسلام هو موافق لشرك المتقدِّمين في حقيقته وفي سببه وفي أثره.

فهو موافق لشرك المشركين المتقدِّمين في حقيقته، فالمتقدمون قد أشركوا بالله بعضَ خلقه، وبعض مَن ينتسبون إلى الإسلام قد أشركوا بالله بعضَ خلقه.

كما أنه موافق لشرك المشركين المتقدِّمين في سببه، فإنّ المشركين المتقدمين إنما أشركوا بالله –عز وجل– لقصدهم أن يجلب لهم أولئك الشركاء

النفع، أو يدفعوا عنهم الضر، أو ليجعلوهم زلفى إلى الله ووسائط بينهم وبين الله –عز وجل- في جلب النفع أو دفع الضر، وهكذا فعل بعض المنتسبون إلى الإسلام بإشراكهم بعض المخلوقين مع الله رجاء جلب النفع أو دفع الضر، أو أنهم يقولون: هم وسائطنا وشفعائنا عند الله عز وجل؛ فيصرفون لهم العبادة ليكونوا شفعاء لهم. وهذا هو سبب شرك المشركين المتقدمين.

كما أنهم يوافقون شرك المشركين المتقدِّمين في أثره. فإنّ شرك المتقدمين ظلم عظيم يحرَّم على الإنسان بسببه الجنة، وتوجَب له النار، ولا يُحصِّل المشرك مقصوده في الدنيا بإشراكه بالله عز وجل. وكذا مَن يشرك بالله مِن بعض مَن ينتسبون إلى الإسلام؛ أعني: مَن يفعل الشرك الذي تقدّم بيانه؛ كالنذر لغير الله عز وجل، والذبح لغير الله، والاستغاثة بغير الله، والاستعاذة بغير الله، على التفصيل الذي بيّناه فيما تقدّم من الدروس.

كما أنّ الشيخ –رحمه الله- أراد بعقْد هذا الباب أن يبيِّن لكل عاقل أنه لا يوجد مخلوق في الدنيا –مهما علا شرفه وعظم فضله- يستحق أن يُصرَف له شيء من أنواع العبادة؛ لأنّ كلَّ مخلوق في الدنيا لابد أن يتَّصف بصفات تقتضي أنه لا يستحق أن يُعبَد من دون الله عز وجل.

الأمر الأوّل: أنه لا يستطيع أن يخلق شيئًا ولو حقيرًا ولو صغيرًا.

الأمر الثاني: أنه مخلوق مربوب.

الأمر الثالث: أنه لا يستطيع أن ينصر غيره، حتى لو أراد أن ينصر غيره لا يستطيع أن ينصر غيره إلا بأمر الله عز وجل.

الأمر الرابع: أنه لا يستطيع أن ينصر نفسه.

الأمر الخامس: أنه لا يملك شيئًا.

ومن اتصف بهذه الصفات الخمس أو بواحدة منها لا شك أنه لا يستحق أن يُصرَف له شيء من أنوع العبادة، وإنما تُصرَف العبادة لله –عز وجل– الذي خلق الخلق أجمعين، والذي له الملك المطلق التام، والذي ينصر مَن شاء مِن عباده، وإذا أراد بعبده خيرًا لم يستطع أحد أن يمنع الخير عنه، وإن أراد أن يمس عبده بضر لم يستطع أحد أن يكشف الضر عنه إلا بإذن الله سبحانه وتعالى فهو المستحق للعبادة.

ومِن فقه الشيخ العظيم –رحمه الله– أنه أورَد حديثًا عظيمًا يدل كل مسلم على أنه لا يوجد مخلوق في الدنيا يستحق أن يُصرَف له شيء من أنواع العبادة؛ وهو حديث: أنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– في يوم أُحد شُجّ رأسه، فشُجَّت جبهته الشريفة صلى الله عليه وسلم، وكُسرَت رَباعيته، كسرت كسرًا ولم تُقلَع قلعًا صلى الله عليه وسلم، وكان الدم يسيل منه وهو يَسلِت الدم عنه ويقول:

«كيف يُفلح قوم شجُّوا نبيهم وكسروا رباعيته، وهو يدعوهم إلى الله» فأنزل الله –عز وجل–: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾، فإذا كان حبيبنا ورسولنا وقدوتنا سيد ولد آدم أفضل خلق الله –صلى الله عليه وسلم– لم يستطع أن يمنع عن نفسه أن يُجرَح وأن تُكسر سنُّه صلى الله عليه وسلم، ولم يستطع أن يمنع قتل عمه، وقتل السبعين من صحابته –رضوان الله عليهم– فإنّ مَن دونه أعجَز وأضعَف. ولا شك أنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– لا يجوز أن يُصرف له شيء من العبادة؛ فكيف بمَن دونه من الناس؟! والله –عز وجل– أنزل عليه قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾، فالأمر كله لله سبحانه وتعالى. فإذا كان النبي –صلى الله عليه وسلم– ليس له من الأمر شيء، ليس له أن يتصرَّف في الكون، ليس له أن يَنصر إلا بإذن الله، ليس له أن يضر أحدًا إلا بإذن الله؛ فهو لا يستحق أن يُعبد من دون الله، فمن باب أولى مَن كان دونه من الناس.

وقد وقفنا عند هذه النقطة العظيمة التي فيها الدلالة البيِّنة على أنّ الذي يُعبَد هو الله عز وجل، وأنه لا يوجد مخلوق يستحق أن يُصرف له شيء من أنواع العبادة إلا الله، بل والله لو أنّ المخلوقات كلها جُمعَت في مخلوق واحد لَمَا استحق ذلك المخلوق أن يُصرف له شيء من أنواع العبادة، لِمَا تقدّم معنا من الأمور الخمسة التي بيَّنتها الآيات التي ذكرها الشيخ رحمه الله عز وجل. ووقفنا عند هذا الحديث، فيتفضل الشيخ ياسين يقرأ لنا ما بقي من أدلة.

قال رحمه الله: [وَفِيهِ: عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اَللّٰهُ عَنْهُمَا " أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اَللّٰهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنْ اَلرُّكُوعِ فِي اَلرَّكْعَةِ اَلْأَخِيرَةِ مِنَ اَلْفَجْرِ: " اَللَّهُمَّ اِلْعَنْ فُلَانًا وَفُلَانًا " بَعْدَمَا يَقُولُ سَمِعَ اَللّٰهُ لِمَنْ حَمِدَهُ رَبَّنَا وَلَكَ اَلْحَمْدُ " فَأَنْزَلَ اَللّٰهُ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾]

(وَفِيهِ) أي: في صحيح البخاري.(عَنِ ابْنِ عُمَرَ –رَضِيَ اَللّٰهُ عَنْهُمَا– أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اَللّٰهِ –صلى الله عليه وسلم– يَقُولُ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنْ اَلرُّكُوعِ فِي اَلرَّكْعَةِ اَلْأَخِيرَةِ مِنَ اَلْفَجْرِ) وهذا ما يسمَّى عند أهل العلم بقنوت النوازل، فإذا نزلت نازلة أو مصيبة بالأمة يُقنَت في الصلاة. والنبي –صلى الله عليه وسلم– لمَّا قُتل السبعون من أصحابه، وشُجّ في رأسه، وكُسِر سنُّه –صلى الله عليه وسلم– في يوم أُحد كان يَقنُت في صلاة الفجر بعد أن يرفع رأسه من الركوع من الركعة الأخيرة من الفجر ويقول بعد أن يقول سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد: «اللهم العَن فلانًا وفلانًا»، كان النبي –صلى الله عليه وسلم– من شفقته على أصحابه يدعوا على بعض أحياء العرب باللعن، وهم بعض الأحياء الذين كانوا يؤذون أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، ويريدون فتنتهم عن دينهم، فكان النبي –صلى الله عليه وسلم– يدعوا عليهم باللعن في صلاته؛ على بعض أحياء العرب، كما كان النبي –صلى الله عليه وسلم– يدعو باللعنة على بعض الأفراد بأعيانهم، ومن ذلك ما جاء عند الترمذي أنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– قال يوم أُحد:

«اللهم اللعن أبا سفيان، اللهم اللعن الحارث ابن هشام، اللهم اللعن صفوان بن أمية»؛ فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾»، قال عبد الله بن عمر: فتاب الله عليهم فأسلموا فحسن إسلامهم). رواه الترمذي وصححه الألباني.

النبي –صلى الله عليه وسلم– خصَّ هؤلاء الثلاثة بالدعاء عليهم باللعن بعد أُحد لأنهم كانوا أشدَّ المشركين في ذلك الوقت أذية للمسلمين في القتال في أُحد فكان النبي –صلى الله عليه وسلم– يخصهم باللعن، ومع ذلك لم يُستجَب للنبي –صلى الله عليه وسلم– فيهم، وهنا عدة براهين:

البرهان الأول: أنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– ومعه سادات الأولياء صحابته –رضوان الله عليهم– كانوا يقنتون في الفجر ويسألون الله، ما سأل الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما استقل النبي –صلى الله عليه وسلم– بقدرة، بل كان النبي –صلى الله عليه وسلم– يسأل الله، ويدعو الله سبحانه وتعالى، فالنبيُّ محتاجٌ إلى الله، والمحتاج لا يُعبَد، ولذلك في بدر دعا النبيُّ –صلى الله عليه وسلم– ربه دعاء طويلًا. في أُحد بعد ما أصاب المسلمين ما أصابهم النبيُّ –صلى الله عليه وسلم– دعا في القنوت على بعض من كانوا مشركين في ذلك الوقت. ولمّا سحر النبي –صلى الله عليه وسلم– دعا ودعا ودعا حتى بيَّن الله –عز وجل– له الأمر.

البرهان الثاني: أنّ النبيَّ –صلى الله عليه وسلم– مع دعائه على هؤلاء باللعن لم يستجب الله –عز وجل– دعائه؛ بل أسلموا وحسن إسلامهم، وجاهدوا في سبيل الله، وكانوا من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

البرهان الثالث: أنّ الله أنزل على نبيه: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾. وأيضًا قبل هذه الآية كان النبي –صلى الله عليه وسلم– يدعوا على بعض المنافقين باللعن؛ لشدة أذاهم للمسلمين؛ حتى أُنزلَت هذه الآية.

إذن؛ الشيخ –رحمه الله– أورد هذه الآية ليبيِّن لنا أنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– وهو أفضل خلق الله لا يستحق أن يُعبَد، فكيف بمَن دونه من المخلوقات؟!

قال رحمة الله عليه: [وَفِي رِوَايَةٍ: يَدْعُو عَلَى صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ، وَسُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو، وَالْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ، فَنَزَلَتْ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾]

هذه الرواية جاءت مرسلة عند البخاري، وموصولة عند الإمام أحمد بلفظ: «اللهم العن الحارث بن هشام، واللهم العن سهيل بن عمرو، اللهم العن صفوان بن أمية»، فكان النبيُّ –صلى الله عليه وسلم– يدعو على هؤلاء الثلاثة، ويضاف لهم رابع وهو: أبو سفيان، ومع ذلك لم يُستجَب للنبي صلى الله عليه وسلم فيهم بل تاب الله عليهم جميعًا، وأسلموا، وحسن إسلامهم. فهذا يدل

على أنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– ليس له من الأمر شيء؛ كما نصَّت على ذلك الآية.

قال يرحمه الله: [وَفِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ –رضي الله عنه– قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اَللهِ ﷺ حِينَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾، قَالَ: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا! اِشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنْ اَللهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ اَلْمُطَّلِبِ! لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنْ اَللهِ شَيْئًا، يَا صَفِيَّةُ عَمَّة رَسُولِ اَللهِ صَلَّى اَللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! لَا أُغْنِكَ مِنْ اَللهِ شَيْئًا، يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ! سَلِينِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتِ، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ اَللهِ شَيْئًا»]

هذا الحديث في الصحيحين؛ عند البخاري ومسلم. (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ –رضي الله عنه–قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اَللهِ –صلى الله عليه وسلم– حِينَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ فأُمِرَ النبيّ –صلى الله عليه وسلم– أن يُنذر عشيرته الأقربين، وكان هذا في أوّل الأمر، فقام النبيُّ –صلى الله عليه وسلم– بما أُمِرَ به فقال: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا! اِشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ) أي: أنقذوا أنفسكم من عذاب الله، أي خلِّصوها من عذاب الله؛ وذلك بالتوحيد، فإنّ مَن مات على الشرك كان من المعذَّبين يقينًا؛ لا تنفعه شفاعة الشافعين، ولا يُشفَع له، ولا يُخرَج من النار. وسيأتينا –إن شاء الله– في الشفاعة أنّ الشفاعة تنفع الموحدين، أمّا مَن مات كافرًا فإنّ الشفاعة لا تنفعه بل هو خالد مخلَّد في النار، وتَحرُم عليه

الجنة إلا ما استُثني من تخفيف العذاب عن أبي طالب كما سيأتي –إن شاء الله–، لا يَخرُج من النار لكن يُخفَّف عنه العذاب. وسيأتي التفصيل –إن شاء الله– في باب الشفاعة.

(لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنْ اَللهِ شَيْئًا) النبي –صلى الله عليه وسلم– يقول لعشيرته الأقربين لقريش: «لا أغني عنكم من الله شيئًا»، و"شيئًا" نكرة في سياق النفي فتعمّ؛ تعمُّ كل شيء. مَن القائل؟ هو النبيُّ صلى الله عليه وسلم، هل هناك شكٌّ في نسبة هذا للنبي صلى الله عليه وسلم؟ الجواب: لا، هذا الحديث في الصحيحين. يأتي بعض الناس يقولون: لا النبيُّ –صلى الله عليه وسلم– يغني شيئًا! يُكذِّبون النبيَّ صلى الله عليه وسلم، يزعمون أنهم يحبونه ويكذِّبونه! يدعونه من دون الله ويقولون: يغني عنا شيئًا! والنبي –صلى الله عليه وسلم– يقول لعشيرته الأقربين: «لا أغني عنكم من الله شيئًا». «يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئًا» هكذا في الصحيح وإن كان لم يُذكَر هنا: «يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئًا» خصَّص بعد أن عمَّم، بدأ بقريش ثم خصَّص فذكر بني عبد مناف. (يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ اَلْمُطَّلِبِ! لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنْ اَللهِ شَيْئًا» فخَصَّ عمَّه. «يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اَللهِ صَلَّى اَللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ!» وهي أم الزبير بن العوام «لَا أُغْنِكَ مِنْ اَللهِ شَيْئًا». (وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ! سَلِينِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتِ، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ اَللهِ شَيْئًا) حتى وصل الأمر أن يقول النبيُّ –صلى الله عليه وسلم–

لابنته التي هي قطعة منه: «لا أغني عنك من الله شيئًا»، ثم المَحْ؛ قال: «سليني من مالي ما شئتِ» سليني من مالي الذي أملكه فهذا أستطيع أن أعطيكِ إياه، ومعنى ذلك: أنها لو سألته ما لا يملك فإنه لا يستطيع أن يعطيها، لا يغني عنها من الله شيئًا، وهذه الجملة جاءت هنا لفائدة عظيمة «سليني من مالي ما شئت)»: لو سألتِ النبيَّ –صلى الله عليه وسلم– ما يستطيع وما يملك لأعطاها، لكنه لا يملك الجنة والسلامة من النار إلا بالبيان، فهو لا يغني عن أحد من عباد الله شيئًا. وهذا يدل على أنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– لا يَستحق أن يُدعى من دون الله أو يُعبَد من دون الله، وإذا كان هذا النبي –صلى الله عليه وسلم– فلا شك أنّ غيره من المخلوقات من باب أولى.

وفي رواية عند الإمام أحمد والترمذي وابن حبان وصححها الألباني: قال النبي –صلى الله عليه وسلم–: «يا معشر قريش! أنقذوا أنفسكم من النار؛ فإني لا أملك لكم من الله ضرًّا ولا نفعًا»، «أنقذوا أنفسكم من النار» بتوحيدكم، بإسلامكم «فإني لا أملك لكم من الله ضرًّا ولا نفعًا» هذا مَن الذي يقوله؟ يقوله النبي صلى الله عليه وسلم، وإنّا مصدِّقون رسول الله صلى الله عليه وسلم، فالمؤمن المُحِب للنبي –صلى الله عليه وسلم– لا يدعو أحدًا من دون الله، لا يدعو رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا يستغيث برسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا يستغيث بشيء من المخلوقات.

وكما قلت لكم؛ هذا من فقه الشيخ رحمه الله، لأنّ كل مؤمن يعلم علوّ النبي صلى الله عليه وسلم؛ فإذا ثَبَتَ هذا للنبي –صلى الله عليه وسلم– مع علوّ مقامه فمن باب أولى أن يثبت لغيره.

قال يرحمه الله: [فِيهِ مَسَائِلُ. اَلْأُولَى: تَفْسِيرُ اَلْآيَتَيْنِ]

(تَفْسِيرُ اَلْآيَتَيْنِ) في ترجمة الباب.

[اَلثَّانِيَةُ: قِصَّةُ أُحُدٍ. اَلثَّالِثَةُ: قُنُوتُ سَيِّدُ اَلْمُرْسَلِينَ، وَخَلْفَهُ سَادَاتُ اَلْأَوْلِيَاءِ يُؤَمِّنُونَ فِي اَلصَّلَاةِ]

ما مراد الشيخ بهذا؟ أن يقول: إنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– فقير إلى الله، والصحابة –الذين هم رؤوس الأولياء– كانوا فقراء إلى الله، فكانوا يسألون الله، وكانوا يدعون الله عز وجل، ليس المقصود الخبر أنهم كانوا يقنتون ولكنّ المقصود بيان أنهم فقراء إلى الله عز وجل، والفقير لا يُسأل، وإنما الذي يُدعى ويُسأل هو الله سبحانه وتعالى.

[اَلرَّابِعَةُ: أَنَّ اَلْمَدْعُوَّ عَلَيْهِمْ كُفَّارٌ]

كفّار؛ حال الدعاء عليهم؛ وإلا فقد أسلموا وحسن إسلامهم، لكن عند الدعاء عليهم كانوا كفارًا.

[الْخَامِسَةُ: أَنَّهُمْ فَعَلُوا أَشْيَاءَ مَا فَعَلَهَا غَالِبُ اَلْكُفَّارِ، مِنْهَا: شَجُّهُمْ نَبِيَّهِمْ، وَحِرْصُهُمْ عَلَى قَتْلِهِ]

يعني أنهم كانوا أشد أذى للمؤمنين من غيرهم من الكفار، لذلك استحقوا أن يخصّهم النبي –صلى الله عليه وسلم– بالدعاء عليهم باللعن، ومع ذلك كان أمر الله أن يُسلموا وأن يَحسُن إسلامهم، وأن ينقلب حالهم، فكانوا ممن يجاهد في سبيل الله.

[وَمِنْهَا اَلتَّمْثِيلُ بِالْقَتْلَى، مَعَ أَنَّهُمْ بَنُو عَمِّهِمْ]

هذا لم يرد معنا في النصوص ولكن ورد في قصة أُحد.

[السَّادِسَةُ: أَنْزَلَ اَللهُ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾. السَّابِعَةُ: قَوْلُهُ: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ فَتَابَ عَلَيْهِمْ وآمَنُوا]

(فَتَابَ عَلَيْهِمْ وآمَنُوا) مع دعاء النبي –صلى الله عليه وسلم– عليهم باللعن! فهذا أكَّد أنه ليس للنبي –صلى الله عليه وسلم– من الأمر شيء.

[الثَّامِنَةُ: اَلْقُنُوتُ فِي اَلنَّوَازِلِ]

بعض أهل العلم فَهِمَ من هذا الحديث وأمثاله أنه يُسنُّ القنوت في الفجر، لكنّ الصواب: أنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– لم يداوم على هذا القنوت، وإنما كان هذا القنوت عند النوازل، وله الصحيح: أنّ السنَّة أنه إنما يُقنَت في

الفجر وغيرها عند النوازل، أمّا إذا لم تكن هناك نازلة فلا يُشرَع القنوت في صلاة الفجر.

[التَّاسِعَةُ: تَسْمِيَةُ اَلْمَدْعُوِّ عَلَيْهِمْ فِي اَلصَّلَاةِ بِأَسْمَائِهِمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِهِمْ]

ومن هذا أخذ أهل العلم أنه يجوز للإنسان أن يدعو لشخص باسمه في الصلاة؛ اللهم اشف فلانًا، اللهم اشفي فلان ابن فلان، اللهم اشفي فلانه، اللهم زوِّج فلانه، ويجوز للمظلوم أن يدعو على من ظلمه باسمه في الصلاة؛ لأنّ المظلوم يجوز له أن يدعو على من ظلمه بمقدار مظْلَمَتِه، فيجوز له أن يسمِّيه ولو كان في الصلاة.

[لَعْنُه اَلْمُعَيَّن فِي اَلْقُنُوتِ]

ولم يكن لعنًا، وإنما كان دعاءً باللعن.

[الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: قِصَّتُهُ –صلى الله عليه وسلم– لَمَّا أَنْزَلَ عَلَيْه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾. الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: جِدُّهُ –صلى الله عليه وسلم– فِي هَذَا اَلْأَمْرِ، بِحَيْثُ فَعَلَ مَا نُسِبَ بِسَبَبِهِ إِلَى اَلْجُنُونِ، وَكَذَلِكَ لَوْ يَفْعَلُهُ مُسْلِمٌ اَلْآنَ]

النبي –صلى الله عليه وسلم– كان شديد الجدّ في الدعوة إلى الله؛ ولا سيما في التوحيد، وقد عاداه قومه بل بعض أعمامه من أجل دعوته إلى التوحيد، فقام عمه أبو لهب فقال له: تبًّا لك ألهذا جمعتنا؟! وكان يمشي خلفه عندما يذهب

إلى القبائل يدعوها إلى التوحيد ويَصِفُه بالجنون، ويَصِفُه بالسَّفه، ويُلقِّبه بالألقاب، وهكذا لُقِّب النبي –صلى الله عليه وسلم– فقالوا: ساحر، وقالوا: مجنون؛ لأنهم كانوا يعرفون –لفصاحتهم– أنهم لا يستطيعون مقابلة حجة النبي –صلى الله عليه وسلم– فكانوا يلقِّبونه.

ويجب على الداعية أن يتأسَّى برسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن يكون شديد الجِدِّ في دعوة الناس إلى التوحيد والسُّنة، مخلصًا لله، متجرِّدًا، لا ينظر إلى أحد من الناس، وإنما يريد أن يرضي الله سبحانه وتعالى، يدعو إلى التوحيد، يدعو إلى السنة، يُحسِن البيان، يُحسِن الكلام، محتسِبًا في ذلك، وأن يصبر على الأذى؛ فإنه ما قام داعيةُ هدىً يومًا من الأيام إلا ولقِّب من أجل أن يُنفَّر الناس عنه، على مرِّ التاريخ، قبل النبي صلى الله عليه وسلم، عندما بُعِث الأنبياء وبعد بعثة النبي –صلى الله عليه وسلم– ما قام داعية هدى إلا وأُوذي ولقِّب، وإلى اليوم، أصحاب الباطل لأنهم لا يستطيعون أن يواجِهوا الحُجَّة بالحُجَّة، ولا أن يقفوا أمام البراهين لأهل الحق ماذا يفعلون؟ يلقِّبون أهل الحق بألقاب منفِّرة، ويَصفُون أهل الباطل بأوصافٍ مقرِّبة. يأتون إلى داعية التوحيد يقولون: هذا وهابي! ولا يزالون إلى اليوم يلقِّبون أهل الحق بالألقابٍ من أجل إبعاد الناس عنهم، ويأتون إلى مَن يدعو إلى الباطل ويقولون: العارف بالله! المُحِب لرسول الله صلى الله عليه وسلم! العلّامة! إمام هذا العصر! ويلقِّبون أهل الباطل

بالألقاب المقرِّبة؛ وهذا أمر معروف يا إخوة، لكنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– لم يترك الدعوة إلى التوحيد يومًا من أجل هذا، لم يتخاذَل ولم يتوان، ولم يأته ما يأتي الناس من الوساوس: الدعوة إلى التوحيد تفرِّق الناس! تعالوا ندعوهم إلى الأخلاق، ندعوهم إلى الصلاة، ندعوهم إلى الأشياء التي يتَّفق عليها الناس! النبي –صلى الله عليه وسلم– دعا إلى التوحيد وحذَّر من الشرك صلى الله عليه وسلم، أوذي، ولُقِّب؛ صبر صلى الله عليه وسلم. وهكذا كل داعية صادق.

فإذا أردتَ أن تعرف صدق الداعية فلا تنظر إلى الألقاب، ولا تنظر إلى الجماهريّة، ولكن انظر إلى ما يدعو، زِنْهُ بدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم، زِنْهُ بدعوة صحابة النبي صلى الله عليه وسلم، هذا المزان الصحيح الذي يُعرَف به الدعاة. والله! قد يوجد داعية في بلد يكون معه واحد أو اثنان لكنه داعية الحق. كيف نعرف هذا؟ ليس بالدعوى ولا بالألقاب ولا ولا؛ وإنما نَزِنُه بدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم، نَزِنُه بطريقة صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

[الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: قَوْلُهُ –صلى الله عليه وسلم– لِلْأَبْعَدِ وَالْأَقْرَبِ: «لَا أُغْنِي عَنْكَم مِنْ اَللهِ شَيْئًا» حَتَّى قَالَ: «يَا فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ! لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنْ اَللهِ شَيْئًا»]

وهذا واضح الدلالة على أنه لا يوجد مخلوق في الدنيا يستحق أن يُعبَد؛ لأنه إذا كان النبي –صلى الله عليه وسلم– لا يغني عن بنته من الله شيئًا، فكيف بمَن دونه من الخلائق؟!

[إِذَا صَرَّحَ - وَهُوَ سَيِّدُ اَلْمُرْسَلِينَ - أَنَّهُ لا يُغْنِي شَيْئًا عَنْ سَيِّدَةِ نِسَاءِ اَلْعَالَمِينَ، وَآمَنَ اَلْإِنْسَانُ أَنَّهُ صلى الله عليه وسلم لَا يَقُولُ إِلَّا اَلْحَقَّ، ثُمَّ نَظَرَ فِيمَا وَقَعَ فِي قُلُوبِ خَوَاصِّ اَلنَّاسِ الآن؛ تَبَيَّنَ لَهُ اَلتَّوْحِيدُ وَغُرْبَةُ اَلدِّينِ]

اليوم وفي الأزمان المتأخِّرة –للأسف– يقع الشرك في قلوب الخاصة وليس عامة الناس؛ بتعلُّقهم بالمخلوقين؛ في دعوتهم، في استغاثاتهم، في نذورهم. وهذا يدلُّك على غربة الدين، ويدلُّك على أنّ الأمّة بحاجة عظيمة إلى الدعاة الصادقين، أعظم من حاجتها إلى الأموال، أعظم من حاجتها إلى الأسلحة، أعظم ما يصيب الأمّة ما يتعلّق بتوحيدها. القتل أسهل من أن يقع الشرك. أعظم ما تبتلى به الأمّة أن يقع الشرك فيها. فالأمة بحاجة إلى الدعاة الصادقين المخلصين، الذين يترسَّمون طريق النبي صلى الله عليه وسلم.

تابع الدرس العشرون: شرح بَابُ قَوْلِ اَللَّهُ تَعَالَى: (حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ)]

[بَابُ قَوْلِ اَللهُ تَعَالَى: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾]

الله أكبر! مناسبة هذا الباب للباب الذي قبله في أحد وجهين –لا أقول "من وجهين" وإنما أقول في أحد وجهين؛ يعني في أحدهما–:

الوجه الأوّل: أنّ هذا الباب من ذِكْر الخاص بعد العام؛ لتأكيد المعنى. وذلك إذا قلنا أنّ الشيخ –رحمه الله– أراد في الباب السابق بيان أنّ كل مخلوق لا يَستحق أن يُعبَد من دون الله؛ لأنه يتَّصف بأمور:

الأمر الأول: أنه لا يخلق شيئًا.

الأمر الثاني: أنه مخلوق مربوب.

الأمر الثالث: أنه لا يستطيع نصر أحد من دون الله.

الأمر الرابع: أنه لا يستطيع أن ينصر نفسه.

الأمر الخامس: أنه لا يملك شيئًا ملكًا مطلقًا تامًّا.

فتكون الملائكة داخلة في الباب السابق، ثم خصَّها الشيخ بهذا الباب مِن باب ذِكْر الخاص بعد العام لتأكيد المعنى وتقويته. هذا أحد الوجهين.

الوجه الثاني: أنه ذَكَرَ هذا الباب لبيان القسم الثاني من المخلوقات، وهي المخلوقات العظيمة الغائبة عنّا، حيث تقدَّم في الباب السابق ما يَتعلَّق بالمخلوقات العظيمة التي نراها ونعرفها من الإنس ومَن دونهم من الأصنام والشجر والشمس والقمر وغيرها، هذه مخلوقات نراها، وتقدّم في الباب السابق أنها لا تَستحق أن تُعبَد، وبيَّن الشيخ ذلك ببيان أشرفها وأفضلها وهو النبي صلى الله عليه وسلم، ثم جاء في هذا الباب فبيَّن لنا أنّ القسم الثاني من المخلوقات؛ وهي: المخلوقات الغائبة عنا؛ وهي: الملائكة والجن، فالملائكة والجن مخلوقات موجودة يقينًا لكنّا لا نراها، هي غائبة عنّا، فأراد الشيخ أن يُثبِت بهذا الباب أنّ المخلوقات العظيمة الغائبة عنا لا تستحق أن تُعبَد من دون الله، كما أنّ المخلوقات التي نراها ونعلمها وقد نخالطها لا تستحق أن تُعبَد من دون الله. يعني هذا جواب عن سؤال: لماذا ذكر الشيخ هذا الباب بعد الباب المتقدِّم مع أنّ الباب المتقدِّم فيه ما يدل عليه؟ نقول: لأحد وجهين:

- إمّا من باب ذِكْر الخاص بعد العام لتأكيد المعنى وتقويته.
- وإمّا من باب التقسيم. الباب السابق متعلِّق بالمخلوقات التي نراها، وهذا الباب متعلِّق بالمخلوقات العظيمة الغائبة عنّا.

فمقصود الباب أيها الإخوة: أنّ الملائكة التي خلقها الله على هيئات عظيمة، وجعل لهم أعمالًا جسيمة؛ كما قال الله –عز وجل–: ﴿جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً

أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ (فاطر: ١)، فالله جعل الملائكة رسلًا، جعل للملائكة وظائف جسيمة، وزاد في خلقهم ما شاء سبحانه وتعالى، وكما قال النبي –صلى الله عليه وسلم–: (أُذِنَ لي أن أُحدِّث عن ملَكٍ من ملائكة الله من حملة العرش» أذن الله لنبيه –صلى الله عليه وسلم– أن يحدثنا عن ملَك واحد من ملائكة الله من حَمَلَةِ العرش، «إنما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبع مائة عام» ما بين الشحمة إلى العاتق يعني ما نسميه بالرقبة: مسيرة سبع مائة عام! فكيف ببقية خَلْقِ هذا الملك؟! وهذا الحديث رواه أبو داود وصححه الألباني. وكما قال النبي –صلى الله عليه وسلم–: «رأيت جبريل عند سدرة المنتهى له ستمائة جناح، يُنشَر مِن رِيشه تهاويلُ الدُّر والياقوت» رواه أحمد وصحَّحه أحمد شاكر وحسنه الألباني. يعني النبي –صلى الله عليه وسلم– يقول: «رأيت جبريل عند سدرة المنتهى» على خلقته، «له ستمائة جناح، يُنشَر من ريشه التهاويل) والتهاويل: الألوان المتعددة. يعني يُنشَر من ريشه ألوان من الدُّر والياقوت تتساقَط من ريشه. إذن هذه الملائكة الذين خلقهم الله على هيئات عظيمة لا تستحق أن يُصرَف لها شيء من العبادة؛ وذلك للأمور:

الأمر الأوّل: أنها لا تملك شيئًا.

الأمر الثاني: أنها ليست شريكة لله في ملكه. فهي لا تملك شيئًا استقلالًا، ولا تملك شيئًا مشارَكة. فهي ليست شريكة لله ولو في أصغر شيء.

الأمر الثالث: أنها ليست مساعِدة ومعينة لله على أَمْرِ خلقه. فالله له الغِنى المطلق، وهي الفقيرة إلى الله، فهي ليست مساعِدة ومعينه لله عز وجل. والله إذا أراد شيئًا إنما يقول له: كن؛ فيكون، لكن يأمر الملائكة بأمور يريدها تفضُّلًا وإنعامًا وإحسانًا على الملائكة.

الأمر الرابع: أنها لا تملك الشفاعة إلا بإذن الله، ولا تنفع شفاعتها إلا ممن رضي الله قوله وفعله؛ يعني: الموحدين في الجملة، رضي الله قوله وفعله في الجملة، ليس يعني أنه لا يكون مذنبًا، ولكن المقصود أنهم الموحِّدون.

الأمر الخامس: أنها لا تَخلق شيئًا.

الأمر السادس: أنها مخلوقة.

الأمر السابع: أنها لا تنفع إلا بأمر الله.

الأمر الثامن: أنها لا تضر إلا بإذن الله.

الأمر التاسع: أنها تخاف. والذي يخاف لا يستحق أن يكون إلهًا.

الأمر العاشر: أن عقولها تذهب. الملائكة لها عقول؟ نعم، وعقولها تذهب أحيانًا –كما سيأتينا– فلا تصلح أن تكون آلهة.

الأمر الحادي عشر: أنها تُصعَق ويُغشى عليها، ومثل هذا لا يَصلُح أن يكون إلهًا.

الأمر الثاني عشر: أنها تخضع لله.

وهذه الأمور كلها يا إخوة مَن وجدتَه يَعبُد غير الله مطلقًا بأيّ نوع من أنواع العبادة اسأله عنها جميعًا، فإنها براهين ساطعة على أنّ مَن يتَّصف بها لا يَستحق أن يُعبَد. وإذا كانت الملائكة لا تستحق أن تُعبَد فمِن باب أولى مَن كان دونها من المخلوقات.

وبهذا تعرفون فقه هذا العالم الجليل؛ كيف أنه يَفْقَه وينتقي الأدلة في أعظم صور نفعها! كلُّ الأدلة نافعة لكنها تتفاوت وتتفاضل، فالشيخ ينتقي الأدلة في أعظم صور نفعها ويبوِّب لها، ولذلك بوَّب هذا الباب العظيم.

(بَابُ قَوْلِ اَللَّهُ تَعَالَى: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ والمقصود بهم: الملائكة؛ كما دل على ذلك الأحاديث. (إِذَا فُزِّعَ): أي: أُزيل الفزع من قلوبهم. فالملائكة أولًا تَفزَع. والفَزَع: هو الخوف المفاجئ، لو أنك تسير فجاءت سيارة

مسرعة بجوارك خفت منها؛ هذا فَزَع، إذن الملائكة أولًا تَفزَع، ومادام أنها تَفزَع فهي تتفاجأ، والذي يتفاجأ لا يَعلم الغيب؛ لأنّ الذي يعلم الغيب كيف يتفاجأ؟

سبحان الله! انتبهوا إلى ما في هذه الآيات من البراهين العظيمة على توحيد الله وحرمة الإشراك بالله وأنه لا يوجَد مَن يَستحق أن يُعبَد من المخلوقات:

أولًا: أنّ الملائكة تَفزَع، تخاف.

ثانيًا: قلنا الفزع: هو الخوف المفاجئ؛ إذن: الملائكة تُفاجأ.

ثالثًا: أنها يُفزَّع عنها، أي يُزال الفَزَع من قلوبها، أي لا تملك أن تُزيل الفزع من قلوبها، ولذلك قال الله: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ فُزِّع: يعني أُزيل الفزع من قلوب الملائكة.

انظروا في هذه الكلمة هذه البراهين الثلاثة، على أنّ الملائكة لا تستحق أن يًصرف لها شيء من العبادة.

قوله: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ الملائكة لها قلوب، ولها عقول. ﴿قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ إذن ما عَلِموا ما كان وقت غشيِّهم، عندما أُغشي عليهم، عندما صُعِقوا، ما علموا؛ فاحتاجوا إلى السؤال، والذي يحتاج إلى السؤال ما يَستحق أن يُعبَد. ﴿قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ﴾ أي قال بعض الملائكة: ماذا قال ربكم؟ فقال بعضهم –إما أنه جبريل عليه السلام ويقع منه، وإمّا بعض الملائكة

أيضًا–، ﴿قالوا الحق﴾يعني: قالوا: قال الله الحق. طيِّب؛ الملائكة ما تَعرف أنّ الله يقول الحق؟! الملائكة تعرف أنّ الله حقٌّ يقول الحق، إذن ما فائدة أنّ جبريل –عليه السلام– أو بعض الملائكة يقولون: ﴿قالوا الحق﴾يعني قال الله الحق؟! هذا معروف عند الملائكة فما الفائدة؟! قال العلماء: هذا لتعظيم الله؛ وإلا فإنهم يقولون –كما سيأتينا في الحديث– ما قاله الله؛ قال: كذا وكذا، لكن يقدِّمون لذلك بقولهم: قال الحق، وهذا من باب الثناء والتمجيد لله سبحانه وتعالى.

(وَهُوَ الْعَلِيُّ) الذي له العلوّ المطلق، العلوّ في ذاته؛ فهو مستوٍ على عرشه فوق سمواته سبحانه وتعالى، ومع علوّه لا تخفى عنه خافية، هو معنا بسمعه وبصره سبحانه وتعالى، لا يخفى صغير منّا عنه، ولا يخفى كبير منّا عنه، ولا يُخفي أحدٌ أحدًا عنه سبحانه وتعالى، له العلوّ في ذاته؛ العلوّ المطلق، والعلوّ في صفاته؛ فصفاته كاملة لا يلحقها نقص، وله العلوّ في قدره، ولو العلوّ في قهره سبحانه وتعالى.

(الْكَبِيرُ) الذي لا أكبر منه سبحانه وتعالى، ولذلك عندما نصلي نقول: الله أكبر! الكبير الذي لا أكبر منه سبحانه وتعالى.

فيقول جبريل أو بعض الملائكة: ﴿قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ ثم يذكرون ما قاله سبحانه وتعالى.

ثم ذَكَرَ الشيخ الأحاديث التي تفسِّر هذه الآية.

قال رحمه الله: [وَفِي اَلصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ –رضي الله عنه– عَنْ اَلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: (إِذَا قَضى اَللهُ اَلْأَمْرَ فِي اَلسَّمَاءِ، ضَرَبَتِ اَلْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ، يَنْفُذُهُمْ ذَلِكَ: (حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ)، فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ اَلسَّمْعِ، وَمُسْتَرِقُ اَلسَّمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ، وَصَفَهُ سُفْيَانُ بِكَفِّهِ، فَحَرَّفَهَا وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ، فَيَسْمَعُ اَلْكَلِمَةَ، فَيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيهَا اَلْآخَرُ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّى يُلْقِيَهَا عَلَى لِسَانِ اَلسَّاحِرِ أَوْ اَلْكَاهِنِ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَهُ اَلشِّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ، فَيُقَالُ أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا؟ فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ اَلْكَلِمَةِ اَلَّتِي سُمِعَتْ مِنْ اَلسَّمَاءِ)]

قال: (وَفِي اَلصَّحِيحِ) أي: في صحيح البخاري. (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ –رضي الله عنه– عَنْ اَلنَّبِيِّ –صلى الله عليه وسلم– قَالَ: «إِذَا قَضَى اَللهُ اَلْأَمْرَ فِي اَلسَّمَاءِ» أي: إذا تكلَّم الله بالأمر الذي قضاه. (ضَرَبَتِ اَلْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِه) "خُضْعانًا" أو "خَضَعَانًا"؛ أي: ضربتْ بأجنحتها خاضعةً، خاضعين لله سبحانه وتعالى. (كأنه) الضمير يعود إلى وقع الصوت في قلوبهم، ليس تشبيهًا لقول الله؛ وإنما تشبيه لوَقْع القول في قلوب الملائكة. (كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ) يعني: كأنه صوت سلسلة على صخرة ملساء؛ وذلك لشدة وقْع هذا الصوت في

قلوبهم. (يَنْفُذُهُمْ ذَلِكَ) أي: يَدخل إلى قلوبهم ويَتمكَّن منها. طيِّب إذا وقع هذا سيأتينا أنه يُغشى على الملائكة، وتَسجُد الملائكة. وسيأتي بيان هذا إن شاء الله.

الذي في الحديث: «فإِذَا» ما يوجد ﴿حتى﴾ بل «فإذا» فهذا من كلام النبي صلى الله عليه وسلم. (فإذا فزّع عن قلوبهم) يعني: الموجود عندكم ﴿حتى إذا فُزِّع﴾، لا، الذي في الحديث: فإذا فُزِّعَ. الشيخ كتب الآية كما هي، والذي جاء في الحديث: «فإذا فُزِّع عن قلوبهم». (قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا: الْحَقَّ؛ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ. فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ اَلسَّمْعِ) مسترق السمع: هم مَرَدَة الجن، كانوا قبل بعثة النبي –صلى الله عليه وسلم– يتّخذون مقاعد للسمع في السماء، وكان يُرمَون بالشهب، لكن لم يكن ذلك كثيرًا؛ لأنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– سأل الصحابة الذين كانوا معه: ماذا كنتم تقولون إذا رأيتم ذلك؟ أي قبل الإسلام، إذن كانوا يُرمَون بالشهب لكنّ ذلك لم يكن شديدًا ولا كثيرًا، ولذلك كانوا يتّخذون مقاعد للسمع يسترقون السمع من قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم، فلمّا بُعِثَ النبي صلى الله عليه وسلم مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيداً وَشُهُبًا، فجاء الجن يلتمسون، يختبرون السماء؛ هل فيها منفَذ؟ فوجدوا أنها مُلئَت حرسًا شديدًا وشهبًا، دون وصولهم إلى السماء حَرَس، ومع ذلك يوجد مع الحرس شهب، ولذلك قال العلماء: إنّ الجن مُنِعوا من استراق السمع عندما بعث النبي –صلى الله عليه وسلم– وفي حال حياته، ولذلك هم لمّا رأوا

ذلك علموا أنّ هناك أمرًا عظيمًا سيقع في الأرض، ولكن بعد موت النبي –صلى الله عليه وسلم– عادوا إلى استراق السمع ولكن ليس كالسابق.

وكان مَن أراد منهم أن يسترق السمع في زمن النبي –صلى الله عليه وسلم– تدركه الشهب فلا يَصِل من استراقهم إلى الأرض شيء، متى هذا؟ في زمن النبي صلى الله عليه وسلم. فكان الوحي يَنزل إلى النبي –صلى الله عليه وسلم– نقيًّا، ولا تسترق الجن شيئًا، إذن ماذا كان في زمان النبي صلى الله عليه وسلم؟ ملئت السماء حَرَسًا شديًا وشهبًا، فإذا أخذ أحدهم يريد أن يَسترق جاءه الشهاب؛ فقضى عليه. لكنّ الراجح أنه بعد موت النبي –صلى الله عليه وسلم– عاد مردة الجن إلى ما كانوا يفعلون ولكن بأضعف مما كان.

قال: (فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ اَلسَّمْعِ) وسيأتينا –إن شاء الله– بيان هذا، (وَمُسْتَرِقُ اَلسَّمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ) لم يتَّضح لنا هنا مَن الذي وَصَفَ! هل هو النبي –صلى الله عليه وسلم– وَصَفَ لهم مسترقَ السمع؟ أو هو أبو هريرة –رضي الله عنه– هو الذي وَصَف لهم مسترق السمع؟ أو هو سفيان بن عيينة الذي وَصَف لهم مسترق السمع؟ أعني يا إخوة: "أنه هكذا بعضه فوق بعض" مَن الذي قال هذا؟ لم يتَّضح لنا. لكن الذي اتّضح لنا: أنّ الذي وَصَفَ هذا القول وبيَّنه هو سفيان، لم يتَّضح لنا أنه هو الذي قاله لكن بيَّن كيف يكون بعضهم فوق بعض، حرَّف يده وفرَّج بين أصابعه، يعني أنهم يقولون هكذا، ليسوا متلاصقين ولكنهم

متقاربون؛ ولذلك حرَّف يده وفرَّج بين أصابعه. (فَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ) يعني: فرَّقها وفرَّجها، فهذا وصْفٌ بالفعل لكون بعضهم على بعض، لكن مَن الذي قال هذا؟ الله أعلم، لم يتّضح بالرواية، وإن كان بعض أهل العلم يولون: إذا أُطلِق فهو من قول النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنه لو كان من قول أبي هريرة لبيَّنه، ولو كان من قول سفيان لبيَّنه.

(فَيَسْمَعُ اَلْكَلِمَةَ)أي: الأعلى، يسمع الكلمة التي قالتها الملائكة؛ لأنّ الله قالها. (فَيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيهَا اَلْآخَرُ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّى يُلْقِيَهَا عَلَى لِسَانِ اَلسَّاحِرِ أَوْ اَلْكَاهِنِ). وهذا له وقفة، ولعلنا نقف هنا، ونكمل الوقفات مع هذه الأحاديث في مجلسنا غدًا إن شاء الله. والله أعلم. ونجيب عن أسئلة إخواننا.

الدرس الواحد والعشرون: تابع شرح بَابُ قَوْلِ اَللَّهُ تَعَالَى: {حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ}

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَن يهدي الله فلا مضلَّ له، ومَن يُضلل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده ل اشريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء: ١]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: ٧١]

أمّا بعد:

فإنّ أحسن الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكلّ محدثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النار.

ثم يا معاشر الفضلاء؛ نواصل شرحنا لكتاب التوحيد لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب –رحمه الله عز وجل– وكنا قد وصلنا إلى نصف الباب الذي قال فيه الشيخ: بَابُ قَوْلِ اَللهُ تَعَالَى: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾.

وبيّنا أنّ مقصود هذا الباب مقصودٌ عظيم؛ إذ المقصود بيان أنّ الملائكة وهي المخلوقات التي خلقها الله –عز وجل– لوظائف جسيمة كريمة، وعلى هيئات عظيمة، وبأعداد كبيرة لا يعلمها إلا الله عز وجل، حتى أنه يدخل منها البيتَ المعمور في كلِّ يوم سبعون ألف ملك، ثم لا يَرجِعون إليه مرة أخرى. هذه المخلوقات العظيمة لا تَستحق أن يُصرَف لها شيء من أنواع العبادة. وقد بيَّنا اثني عشر سببًا تدلُّ على ذلك.

وهذه الآية التي بَوَّب بها الشيخ وترجم للباب بها تدلُّ على ذلك دلالة بيِّنة، فإنها تدل على أنّ الملائكة تفزع؛ أي: تخاف خوفًا بسبب مفاجئ، فهي أيضًا تتفاجأ، وهي أيضًا لا تستطيع أن تُزيل الفزع من قلوبها، بل الذي يُزيل الفزع من قلوبها هو الله سبحانه وتعالى. وهذا يدلُّ على أنّ الملائكة لا تَستحق أن يُصرَف لها شيء من أنواع العبادة؛ فكيف بمَن هو دونها من المخلوقات؟!

وكنّا سرعنا في حديث أبي هريرة –رضي الله عنه– ووقفنا في منتصفه. فلعل الشيخ ياسين –وفقه الله– يعيد لنا قراءة الحديث مرة أخرى.

قال الإمام المجدد –رحمه الله تعالى– في كتاب التوحيد، فِي بَاب قَوْلِ اَللهُ تَعَالَى: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾: [وَفِي اَلصَّحِيحِ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ اَلنَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا قَضَى اَللهُ اَلْأَمْرَ فِي اَلسَّمَاء، ضَرَبَتِ اَلْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِه، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ، يَنْفُذُهُمْ ذَلِكَ، حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ، فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ اَلسَّمْعِ، وَمُسْتَرِقُ اَلسَّمْعِ هَكَذَا؛ بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ، وَصَفَهُ سُفْيَانُ بِكَفِّهِ، فَحَرَّفَهَا، وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ، فَيَسْمَعُ اَلْكَلِمَةَ، فَيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيهَا اَلْآخَرُ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّى يُلْقِيَهَا عَلَى لِسَانِ اَلسَّاحِرِ أَوْ اَلْكَاهِنِ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَهُ اَلشِّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيهَا، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ، فَيَكْذِبَ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ. فَيُقَالُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا. فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ اَلْكَلِمَة اَلَّتِي سُمِعَتْ مِنْ اَلسَّمَاءِ]

قال: (وَفِي اَلصَّحِيحِ) أي: في صحيح البخاري، (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ عَنْ اَلنَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (إِذَا قَضَى اَللهُ اَلْأَمْرَ فِي اَلسَّمَاء) أي: إذا تكلم الله –عز وجل– بالوحي، أو بما أراد قضائه سبحانه وتعالى. (ضَرَبَتِ اَلْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا) أي: وضعت الملائكة أجنحتها على الأرض، والملائكة أولو أجنحة، وهم يتفاوتون في أعداد أجنحتهم. وتقدّم معنا أنّ جبريل –عليه السلام– له ستمائة جناح. وهذه الأجنحة لها ريش؛ فإنه تقدّم معنا أنه يُنشَر من ريشه تهاويل الدُّر

والياقوت. فتضع أجنحتها على الأرض (خَضَعَانًا) أو (خُضْعانًا) أي: خاضعين لله –عز وجل– لقوله. (كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ) أي: أنّ الله –عز وجل– يتكلم، وربنا –سبحانه وتعالى– يتكلم بما شاء متى شاء سبحانه وتعالى، ويتكلم بحرف وصوت، فإنّ الملائكة تسمع الكلام، ويكون وقع الصوت في قلوبها كأنه صوتُ سلسلة على صخرة ملساء، فهذا ليس تشبيهًا لكلام الله عز وجل؛ وإنما هو بيان لصفة سَمْع الملائكة لهذا الصوت، أنها تسمع الصوت هكذا: كأنه سلسلة على صفوان. (يَنْفُذُهُمْ ذَلِكَ) أي: يدخل في قلوبهم، ويَبلغ منهم كل مَبلغ. وهنا محذوفٌ؛ وهو: أنهم إذا سمعوا ذلك فزِعوا، وغُشِيَ عليهم، وسجدوا. (فإذا) –وقتُ لكن أنّ الذي في الحديث: «فإذا»– ﴿فإِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ أي: أزال الله الفزع عن قلوبهم، (قال بعضهم لبعض: ماذا قال ربكم؟) قال بعضهم: (قال الحق) يعني: قالوا: قال الحق، قال ربنا الحق، فالله الحق ويقول الحق. ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ وهذا تمجيد لله وثناء على الله قبل أن يُخبِروا بالقول الذي قاله؛ وإلا فالملائكة كلهم يعلمون أنّ الله –عز وجل–لا يقول إلا الحق. (فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ اَلسَّمْعِ) وهم مَرَدَة الجن، وهم يسترقون السمع من السماء الدنيا، أو من السحاب، وإنهم قبل بعثة النبي –صلى الله عليه وسلم– كانوا يتَّخذون مقاعد للسمع من السماء الدنيا، وكان يكثر استماعهم وإن كانوا يُرمَون بالشهب أحيانًا، ثم لمّا بُعِثَ النبي –صلى الله عليه وسلم– سُدَّ

الباب أمامهم، وسُدَّ الطريق أمامهم؛ فمُلئَت السماء حرسًا شديدًا وشهبًا، فمَن يَستمع منهم أو يحاول أن يَستمع يجد له شهابًا رصدًا، فهو لا يستطيع أن يصل إلى الأرض بشيء. وهذا كان فيه حفظٌ في زمن النبي –صلى الله عليه وسلم– إلى أن مات، فلمّا مات النبي –صلى الله عليه وسلم– عاد الجن إلى الاستماع؛ لكنه أضعف مما كان قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم. قال: (وَمُسْتَرِقُ اَلسَّمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ) وقلتُ لكم أنّ هذه الجملة لم يتَّضح من قالها، هل قالها النبي صلى الله عليه وسلم؟ أو قالها أبو هريرة؟ أو قالها سفيان؟ ولكنّ سفيان وَصَفَ لنا ما قيل بالوصف، قال: (وَصَفَهُ سُفْيَانُ بِكَفِّهِ اليمنى): هكذا جاء في بعض الروايات. (فَحَرَّفَهَا): وجاء في بعض الروايات: (فنَصَبَها): أي: نَصَبَها عَرضًا. (وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ) أي: فرَّج بين أصابعه، فهم يكونون فوق بعضهم إلى أن يبلغوا السماء الدنيا أو يبلغوا السحاب. (فَيَسْمَعُ اَلْكَلِمَةَ) أي: التي قالها الله –عز وجل– فسمعتها الملائكة، (فَيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ): أي من الجن. (ثُمَّ يُلْقِيهَا اَلْآخَرُ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّى يُلْقِيَهَا عَلَى لِسَانِ اَلسَّاحِرِ) والساحر معروف؛ وهو: مَن يتخذ تعاويذ وعزائم يعقدُها ليضر مَن أراد ضرَّه، ولن يستطيع أن يَضر أحدًا إلا بإذن الله سبحانه وتعالى. وفي هذا دلالة على أنّ السَحَرَة يستعملون الجن، ولا شك أنّ السحرة يتقرّبون إلى الجن، ولذا تجدُ بيت الساحر –مهما بلغ من الثراء– تجده في غاية القذارة والوسخ؛ لأنهم يتقرَّبون إلى الجن بهذا الوسخ

وهذه القذارة، فالساحر أقلّ ما يكون أن تكون ملابسُه قَذِرَة متَّسخة، وبعض السحرة لا يَغتسلون من الجنابة؛ سواء كانوا رجالًا أم نساء؛ تقرُّبًا إلى الجن.

(أَوْ اَلْكَاهِنِ): وهو الذي يدَّعي علم الغيب في المستقبل، أو يدَّعي معرفة المغيَّبات، يقول: إذا سافرتَ سيقع لك حادث عن النقطة الفلانية، وتحترق سيارتك! أو نحو هذا. أو يدّعي علم المغيَّبات أين تكون؛ فمثلًا: تُسرَق السيارة، فيذهب صاحب السيارة إلى الكاهن، فيقول: سيارتي أين؟ فيقول: سيارتك الآن في الطائف، سيارتك الآن في الرياض، سيارتك الآن وصلت إلى اليمن! فيدّعي أنه يَعلَم بمكان الغائبات. هذا الكاهن. وسيأتينا بيان حكم مَن يأتيه. ولا شك أنّ حكم إتيان الكهان حرام حُرْمة مغلَّظة، ولكنه قد يكون شركًا أكبر، وقد يكون دون ذلك. قد يكون كفرًا، وقد يكون دون ذلك. وسيأتي –إن شاء الله– بيان هذا في باب مستقلّ.

قوله: (فَرُبَّمَا أَدْرَكَهُ اَلشِّهَابُ) الشهاب: قطعة من النجم ناريَّة، تنفصل عنه، تسمَّى أحيانًا بـ"النيازك"، يعني يقولون: جسم ناري ينفصل عن النجم. أمّا النجوم فهي لا تنزل إلى الأرض، ولكن هذه الشهب القطع النارية التي تنفصل عن النجوم؛ وهي تُرسَل بأمر الله سبحانه وتعالى.

(فَرُبَّمَا أَدْرَكَهُ اَلشِّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا) فيقضي عليه؛ فلا تصل الكلمة إلى الساحر أو الكاهن. (وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا) إلى الكاهن أو الساحر (قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ) أي: الشهاب، (فَيَكْذِبَ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ) مَن هو الذي يَكذِب؟ قال بعض أهل العلم:

- الذي يَكذِب: هو الجني، يكذب مع الكلمة التي سمِعَها مائة كذبة، ويلقيها على الساحر أو الكاهن، فيَعتقِد فيه الساحر أو الكاهن؛ لأنّ في كلامه حقًّا.
- وقيل: إنّ الذي يكذب: هو الساحر أو الكاهن، يأخذ الكلمة التي هي الحق ويَنقُص منها ويزيد عليها؛ فيكذِب مائة كذبة. وهذا أقرب.

(فَيُقَالُ) أي: يقول الناس إذا سمعوا الكاهن، فبعض المسلمين يقولون: هذا عارف، هذا واصل! لماذا؟ ما الدليل؟ يقولون: (أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا؟) فصَدَقَ! لأنّ الكلمة التي هي حقّ قد سمِعَها وقالها؛ فتقع، فيراها الناس فيقولون: صَدَقَ! (فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ اَلْكَلِمَةِ) سبحان الله! ما أضعف الإنسان! رجل يَكذِب مائة كذبة، ويَصدُق في كلمة واحدة، يتعامى عن كلِّ الكذِب، ويُصدِّقهُ بهذه الكلمة! يقولون: هذا رجل واصل! هذا مكشوف عنه الحجاب!

قوله: (فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ اَلْكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنْ اَلسَّمَاءِ) أي: يُصدَّق في كلامه كلِّه؛ الكذب والصدق؛ بسبب تلك الكلمة التي سُمِعت من السماء.

والمراد بإيراد هذا الحديث: بيان أنّ الآية التي ذكرتْ في الترجمة هي في الملائكة، وأنّ الملائكة لا تَستحق أن تُعبَد من دون الله؛ فكذا مَن كان دونها من المخلوقات.

قال –رحمه الله–: [وَعَنْ اَلنَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اَللهِ ﷺ: «إِذَا أَرَادَ اَللهُ تَعَالَى أَنْ يُوحِيَ بِالْأَمْرِ تَكَلَّمَ بِالْوَحْيِ، أَخَذَتِ اَلسَّمَوَاتِ مِنْهُ رَجْفَةٌ أَوْ قَالَ رِعْدَةٌ شَدِيدَةٌ؛ خَوْفًا مِنْ اَلله ﷻ ، فَإِذَا سَمِعَ ذَلِكَ أَهْلُ اَلسَّمَوَاتِ، صَعِقُوا وَخَرُّوا لِلَّهِ سُجَّدًا، فَيَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جِبْرِيلُ، فَيُكَلِّمُهُ اَللهُ مِنْ وَحَيِّهِ بِمَا أَرَادَ. ثُمَّ يَمُرُّ جِبْرِيلُ عَلَى اَلْمَلَائِكَةِ، كُلَّمَا مَرَّ بِسَمَاءٍ، سَأَلَهُ مَلَائِكَتُهَا: مَاذَا قَالَ رَبُّنَا يَا جِبْرِيلُ ؟ فَيَقُولُ جبريل: "قَالَ اَلْحَقَّ، وَهُوَ اَلْعَلِيُّ اَلْكَبِيرُ. قال: فَيَقُولُونَ كُلُّهُمْ مِثْلَ مَا قَالَ جِبْرِيلُ، فَيَنْتَهِي جِبْرِيلُ بِالْوَحْيِ إِلَى حَيْثُ أَمَرَهُ اَللهُ ﷻ]

تلحظون هنا أنّ الشيخ –رحمه الله– لم يذكر مَن خرَّج الحديث كعادته، وهو في الحقيقة في النُّسخ الخطيَّة قد بيَّض لهذا الحديث –أي تَرَكَ بياضًا– ولعله أراد أن يُراجِع تخريجه ليُثبِته؛ فنسي – رحمه الله– أو لم يتمكّن.

وهذا الحديث رواه جماعة من أهل العلم؛ منهم: ابن خزيمة في التوحيد، والطبري في التفسير، وابن أبي حاتم، وابن أبي عاصم في السنة، والطبراني في مسند الشاميين. وإسناد الحديث ضعيف كما ذكر الشيخ الألباني. ولعه علتان:

- **العلة الأولى**: نُعيم بن حمّاد. ونعيم ابن حمّاد قد اختلف فيه العلماء فقال بعض أهل العلم: هو ثقة. وقال بعض أهل العلم: هو ضعيف. وقال بعضهم: صدوقٌ له أخطاء. وقال بعضهم: صدوقٌ كثير الخطأ. ومن أحسن ما قيل فيه ما قاله ابن عَديّ في "الكامل" حيث قال: "إنه أثنى عليه أقوام، وضَعّفه آخرون، وكان متصلّبًا في السنة –أي: كان صَلْبًا في السنة– مات في الحبس في محنة القول بخلق القرآن، أُنكِرَت عليه أحاديث ذكرها –وليس منها هذا الحديث الذي معنا– وباقي أحاديثه أرجو أن تكون مستقيمة". فالأحاديث التي أُنكِرت على نُعيم معدودة معلومة، وأغلبها في الفتن. والعلماء الذين عَدّوا تلك الأحاديث لم يَذكروا هذا الحديث الذي معنا. هذه العلة الأولى.

- **والعلة الثانية**: الوليد بن مسلم. وهو ثقة؛ لكنه يُدلِّس، وقد عنعن، لكنّ هذه العلة انتَفَت هنا؛ لأنّ الطبراني في مسند الشاميين روى الحديث بتصريح الوليد بالتحديث؛ فقال: "حدثنا"، وتدليس التسوية غير موجود هنا.

فتكون العلة من جهة الوليد منتفية، ومن جهة نُعيم يسيرة، فالضعف يسير.

وقد وجدنا للحديث شواهد كثيرة صحيحة. فهي تجبر ضعف الحديث.

ولذلك؛ الذي يظهر –والله أعلم– أنّ الحديث صحيح لغيره. ولعل هذا هو الذي جعل ابن خزيمة يذكر الحديث في كتاب التوحيد. وتعلمون أنّ ابن خزيمة

التزم الصحة في كتاب التوحيد، فلعله ذكره في كتاب التوحيد لشواهده الصحيحة التي تدل على صحته.

ولذلك؛ الذي ظهر لي –والله أعلم– أنّ هذا الحديث صحيح لغيره؛ لأنّ ضعفه ليس شديدًا ولأنّ شواهده صحيحة وكثيرة تَعضُده.

قال: (وعن النوَّاس ابن سمعان –رضي الله عنهما–) صحابي ابن صحابي، النواس صحابي، وسَمعان صحابي، ويقال: سِمعان، يعني إما بفتح السين، وإما بكسر السين؛ لكن قال العلماء: الفتح أشهر.

(قَالَ: قَالَ رَسُولُ اَللهِ ﷺ: «إِذَا أَرَادَ اَللهُ تَعَالَى أَنْ يُوحِيَ بِالْأَمْرِ» في هذا إثبات الإرادة لله عز وجل، والأدلة على ذلك كثيرة جدًّا. (إِذَا أَرَادَ اَللهُ تَعَالَى أَنْ يُوحِيَ بِالْأَمْرِ تَكَلَّمَ بِالْوَحْيِ) وفي هذا إثبات الكلام لربنا سبحانه وتعالى، وأنّ الملائكة تسمع كلام ربنا سبحانه وتعالى. (أَخَذَتِ اَلسَّمَوَاتِ مِنْهُ) أي: من كلام الله. (رَجْفَةٌ أَوْ رِعْدَةٌ شَدِيدَةٌ) شكَّ الراوي، والمعنى واحد، وهذا يدل على أنّ السموات فيها شعور، والله قد جعل في مخلوقاته شعورًا تخاف الله به. (خَوْفًا مِنْ اَللهِ ﷻ) السموات كلها تصيبها رجفة ورعدة لكلام الله عز وجل خوفًا من الله. (فَإِذَا سَمِعَ ذَلِكَ أَهْلُ اَلسَّمَوَاتِ) إذا سمع أهل السموات كلام الله. (صُعِقُوا) عند أوّل السماع. عندما يسمع أهل السماوات كلام الله أوّل ما يسمعون كلام الله من تعظيمهم لله وخضوعهم لله وخوفهم من الله يُصعَقون؛ أي: يُغشى عليهم.

(وَخَرُّوا لِلَّهِ سُجَّدًّا) هل هذا مع الغُشيّ؛ فيغشى عليهم خارين لله سجدًا، فيكون سقوطهم على الأرض على هيئة السجود؟ أو أنّ هذا يكون بعد أن يُفزَّع عن قلوبهم؟ «فإذا فُزِّع عن قلوبهم خروا لله سجدًا»؛ فلم يأتِ ما يدل على هذا أو هذا، والواو تقتضي مطلق الجمع، لا تدل على الترتيب، ولكنّ اليقين أنهم يحصل منهم الغُشي، ويحصل منهم السجود، فيخرون لله سجدًّا ما شاء الله، ثم يرفع جبريل رأسه. (فَيَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جِبْرِيلُ): أو قل: (فيكون أوّلُ مَن يرفع رأسه جبريلَ) يصح هذا ويصح هذا، أوّل مَن يرفع رأسه من السجود من الملائكة هو جبريل. (فَيُكَلِّمُهُ اَللهُ مِنْ وَحَيِّهِ بِمَا أَرَادَ) وهذا دليل على أنّ جبريل يسمع القرآن من الله عز وجل، وأنّ القرآن كلام الله حقيقة بحرف وصوت، سَمِعَه جبريل من ربنا سبحانه وتعالى. (ثُمَّ يَمُرُّ جِبْرِيلُ عَلَى اَلْمَلَائِكَةِ) أي: في السموات، و"ال" هنا للجنس؛ فتقتضي عموم الملائكة في كل سماء. (كُلَّمَا مَرَّ بِسَمَاءٍ، سَأَلَهُ مَلَائِكَتُهَا) أي: جميع ملائكة هذه السماء يسألون جبريل عليه السلام: (مَاذَا قَالَ رَبُّنَا يَا جِبْرِيلُ ؟ فَيَقُولُ " قَالَ اَلْحَقَّ، وَهُوَ اَلْعَلِيُّ اَلْكَبِيرُ، فَيَقُولُونَ كُلُّهُمْ) أي: كل الملائكة (مِثْلَ مَا قَالَ جِبْرِيلُ، فَيَنْتَهِي جِبْرِيلُ بِالْوَحْيِ إِلَى حَيْثُ أَمَرَهُ اَللهُ ﷻ) فجبريل هو الرسول المكلَّف من الملائكة بالوحي، يوصِل الوحي إلى مَن يأمره الله عز وجل بأن يوصلَه إليه.

وقد جاء عند الإمام مسلم –رحمه الله–: (عن ابن عباس –رضي الله عنهما– عن رجال من الأنصار من أصحاب رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أنهم كانوا جلوسًا مع رسول –صلى الله عليه وسلم– ذات ليلة إذ رُمِي بنجم – أي بشهاب؛ لأن النجوم لا تسقط، ولكن هذا من باب تسمية الشهاب بالنجم؛ لأنه ينفصل عنه– فاستنار؛ أي: رأوا نوره، فقال رسول صلى الله عليه وسلم: «ماذا كنت تقولون في الجاهلية إذا رُمي بمثل هذا؟» وهذا يدل على ما قدّمناه: أنّ الشهب كان يُرمى بها في الجاهلية قبل مَبعَث النبي صلى الله عليه وسلم، «قالوا: كنا نقول: ولد الليلة رجل عظيم، و مات رجل عظيم» إذا رأوا شهابًا قالوا: وُلِد اليوم رجلٌ عظيم، أو يقولون: مات الليلة رجل عظيم. «فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فإنها لا يُرمى بها لموت أحد ولا لحياته، ولكنّ ربنا –تبارك وتعالى– إذا قضى أمرًا سبَّح حملة العرش، ثم سبَّح أهل السماء الذين يَلُونهم، حتى يَبلغ التسبيح أهل هذه السماء الدنيا» لأنّ السماء الدنيا هي التي نراها فوقنا «فيقول: الذين يَلُون حملة العرش لحملة العرش: ماذا قال ربكم؟» فهنا الذين يسألون هم الذين يَلُون حملة العرش، والذين يقولون هم حملة العرش، «فيخبرونهم ماذا قال، فيستخبر أهل السموات بعضًا، حتى يَبلغ الخبر هذه السماء الدنيا، فتَخطَف الجنُّ السمع، فيقذفون إلى أوليائهم، ويَرمون به، فما جاءوا به على وجهه حق، ولكنهم يقرفون فيه ويزيدون». وهذا يدل على أنّ

الذي يقول: ﴿قال الحق وهو العلى الكبير﴾ أحيانًا جبريل عليه السلام، وأحيانًا حملة العرش؛ لأنه جاء في الرواية عند الإمام أحمد: «فيقولون: الحق وهو العلي الكبير». وهذا يدل على أنّ الجن يسترقون السمع من السماء الدنيا.

كما جاء عند البخاري أنهم يسترقون السمع من السحاب، والسحاب دون السماء، السحاب بين السماء والأرض، فقد ثبت في البخاري من حديث عائشة –رضي الله عنها– أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم قال: «إنّ الملائكة تنزل في العنان وهو السحاب، فتذكر الأمر قُضِي في السماء، فتَسترق الشياطين السمع فتسمعُه، فتوحيه إلى الكهان فيَكذبون معه مائة كذبة من عند أنفسهم». فهذا يدل على أنّ مردة الجن يسترقون السمع من السماء الدنيا؛ أي: قرب السماء الدنيا؛ وإلا فإنهم لا يدخلون السماء، ويسترقون السمع من السُّحب، فالملائكة تنزل إلى السُّحب، ويُحدِّث بعضها بعضًا بما قال الله، فيسترق مردة الجن الكلام ويلقونه إلى الكهان.

والمراد بهذا أنّ الملائكة عباد مكرَمون، لا يستحقون أن يُصرف لهم شيء من أنواع العبادة.

وإذا ثبتَ عندنا في الباب الأوّل أنّ أفضل الخلق وسيد الإنس محمدًا صلى الله عليه وسلم لا يستحق أن يُصرَف له شيء من العبادة، وأنّ الملائكة لا يَستحقون أن يُصرَف لهم شيءٌ من العبادة عَلِمنا يقينًا: أنه لا يوجد مخلوق

يُصرَف له شيء من العبادة؛ لا دعاء، ولا نذر، ولا استغاثة، ولا استعاذة، ولا غير ذلك من أنواع العبادة.

قال –رحمه الله–: [: فِيهِ مَسَائِلُ: اَلْأُولَى: تَفْسِيرُ اَلْآيَةِ]

﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ (سبأ: ٢٣).

[الثَّانِيَةُ: مَا فِيهَا مِنَ اَلْحُجَّةِ عَلَى إِبْطَالِ اَلشِّرْكِ، خُصُوصًا مَن تَعَلَّقَ عَلَى اَلصَّالِحِينَ، وَهِيَ اَلْآيَةُ اَلَّتِي قِيلَ إِنَّهَا تَقْطَعُ عُرُوقَ شَجَرَةِ اَلشِّرْكِ مِنَ اَلْقَلْبِ]

هذه الآية فيها دلالة بيِّنة على إبطال الشرك. وأكثر الشرك الذي يقع في أمة محمد صلى الله عليه وسلم ليس من باب عبادة الأصنام؛ وإنما من باب الغلو في الصالحين، والتعلق بالصالحين، والملائكة عباد الله المكرَمون الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، فهم عباد صالحون، وعلى هيئة وخِلْقة عظيمة؛ ومع ذلك لا يستحقون أن يُصرَف لهم شيء من أنواع العبادة؛ فكذا من دونهم من الصالحين.

[اَلثَّالِثَةُ: تَفْسِيرُ قَوْلِهِ: (قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ)]

كما تقدّم معنا.

[الرَّابِعَةُ: سَبَبُ سُؤَالِهِمْ عَنْ ذَلِكَ]

لماذا يسالون عما قال الله؟ لأنه يُغشى عليهم فيسألون.

[الْخَامِسَةُ: أَنَّ جِبْرِيلَ يُجِيبُهُمْ بقوله بَعْدَ ذَلِكَ: (إنه قَالَ كَذَا وَكَذَا)]

أن جبريل –عليه السلام– يجيبهم بعد أن يقول: ﴿قال الحق وهو العلي الكبير﴾ إنه قال كذا وكذا؛ أي: إنّ الله عز وجل قال كذا وكذا، فيخبرهم. وفي الحديث الآخر أنّ حملة العرش يخبرونهم بما قاله الله عز وجل.

[السَّادِسَةُ: ذَكَرَ أَنَّ أَوَّلَ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جِبْرِيلُ]

وهذا ظاهر.

[قوله: اَلسَّابِعَةُ: أَنَّهُ يَقُولُ لِأَهْلِ اَلسَّمَوَاتِ كُلِّهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ يَسْأَلُونَهُ]

يعني كل أهل السموات يسألون جبريل عما قال الله؛ فيخبرهم.

[الثَّامِنَةُ: أَنَّ اَلْغَشْيَ يَعُمُّ أَهْلَ اَلسَّمَوَاتِ كُلّهُمْ. اَلتَّاسِعَةُ: اِرْتِجَافُ اَلسَّمَوَاتِ لِكَلَامِ اَللهِ تعالى]

السموات ترتجف لكلام الله. وإنك لتعجب منا نحن الذين خُلقنا من تراب، وأجسادنا من لحم ودم، وفينا الشعور بالخوف، كيف نسمع كلام الله فلا نرتجف ولا ننزجر؟! نعوذ بالله من قسوة القلوب، يدخل أحدنا المسجد ويصلي مع الإمام ويقرأ الإمام آيات الوعيد وأحدنا –والعياذ بالله– يحدِّث نفسه بالمعصية وهو يسمع كلام الله! وإذا خرج من المسجد بدأ في معصية الله! لأنّ الغفلة طغت على القلوب، كأنّا لا نسمع، بل كثير منّا في الحقيقة لا يسمعون، كثير منّا في الصلاة لا يسمعون إلا التكبير، ما يقرأه الإمام لا يَسمعونه. فالذي ينبغي يا إخوة أن نجاهد أنفسنا، وأن نوقِظ قلوبنا، وأن نُحضر أسماعنا، وأن

نَقْدُر لكلام الله قَدْرَه، وأعلموا –وفقني الله وإياكم– أنّ مَن خاف الله في الدنيا صادقًا أمَّنه الله يوم القيامة يوم الفزع الأكبر، ألا يستحق هذا منا أن نجاهد أنفسنا وأن نخاف الله عز وجل، ونجاهد أنفسنا في ذلك، رجاء الفوز العظيم عند لقاء الله عز وجل بالأمن التام؟ فلا يجمع الله على عبده خوفين، مَن خاف الله في الدنيا صادقًا، وأن تتعامل مع الله، الخلق يخادَعون، أمّا الله فهو يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، إذا خِفْتَ الله صادقًا في الدنيا لن يجمع الله عليك خوفين؛ خوف الدنيا وخوف الأخرة. فينبغي يا إخوة أن تستشعر هذا الداء الذي أصابنا؛ وهو داء الغفلة، نقرأ القرآن ونحن نفكر في المعاصي! نصلي ونحن نفكر في المعاصي! ما أن نَنطلِق من المسجد حتى نبادر بالمعاصي! وهذا يدل على قسوة القلوب والعياذ بالله، نسأل الله أن يرقِّق قلوبنا لطاعته.

[الْعَاشِرَةُ: أَنَّ جِبْرِيلَ هُوَ اَلَّذِي يَنْتَهِي بِالْوَحْيِ إِلَى حَيْثُ أَمَرَهُ اَللَّهُ]

نعم؛ من السماء أو الأرض.

[الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: ذِكْرُ اِسْتِرَاقِ اَلشَّيَاطِينِ]

بيَّنا أنهم كانوا يسترقون قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم، أمّا بعد بعثة النبي صلى الله عليه وسلم إلى موته امتنع عليهم الاستراق، ثم عادوا بعد ذلك إلى الاستراق؛ وإن كان استراقهم التالي أضعف مما كان قبل البعثة.

[الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: صِفَةُ رُكُوبِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا]

التي بيَّنها سفيان.

[الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: إِرْسَالُ اَلشُّهُبِ]

وهو استراق الجن للسمع.

[الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: أَنَّهُ تَارَةً يُدْرِكُهُ اَلشِّهَابُ قَبْلِ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَتَارَةً يُلْقِيهَا فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ مِنَ اَلْإِنْسِ قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ]

لأنّ إلقاء الشهب من باب الأسباب، والأسباب قد يتحقَّق المراد منها، وقد يشاء الله ألا يتحقق، وهذا يدلنا يا إخوة على أنّ الأمر كله لله سبحانه وتعالى، فحتى هذه الشهب التي تُرسَل على الجن إن شاء الله أن تدرِك الجني أدركتْه فأهلكته، وإن لم يشأ تعطَّل هذا السبب ولم يَتحقق المقصود.

[الْخَامِسَةَ عَشْرَةَ: كَوْنُ اَلْكَاهِنِ يَصْدُقُ بَعْضَ اَلْأَحْيَانِ]

وهذا ديدن أهل الباطل، لا يمكن أن تجد شخصًا من أهل الباطل يكون كلامه باطلًا كله؛ لأنه لو كان كلامه باطلًا كله لَمَا استجاب له أحد، وما سمع له أحد، لكنّ أهل الباطل يَخلِطون باطلهم بحقٍّ، وقد يجعلون الحقَّ كثيرًا لكن الباطلَ عظيم التأثير. قد تجد رجلًا يتكلم وقد يقرِّر السنة ويتكلم عن السنة ولكن يَخلِط كلامه عن السُّنة بشيءٍ من البدعة، وهذه البدعة إذا وَقَرَت في القلب أفسدته.

ولذلك يا إخوة؛ لا حُجة لأحد في أن يقال: إنّ فلانًا كلامه فيه حق! ما في أحد يتكلم بالباطل إلا ويجعل فيه حقًّا، وإنما العبرة بحقيقة الكلام، ومراميه، وما فيه، وربما سقطت قطرة سُمٍّ في وعاء عسل فأفسدت العسل على أهله. وهذا يجعلنا نحذر فيما نسمع، فكم من شخص دخل عليه الداء من كلمة في كلام، ومن جملة في جُمل، وهذا يدلك على فقه السلف في نهيهم عن مجالسة أهل البدع، والاستماع لهم.

[السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: كَوْنُهُ يَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ. السابعة عشرة: أَنَّهُ لَمْ يُصَدَّقْ كَذِبَهُ إِلَّا بِتِلْكَ اَلْكَلِمَةِ اَلَّتِي سُمِعَتْ مِنْ اَلسَّمَاءِ]

أي أنّ الناس لم يصدقوا كَذِبَهُ الذي زاده إلا بكلمة الحق التي سُمعت من السماء؛ فيقلون: الرجل صادق؛ ألم يقل لنا كذا وقد وقع؟!

[الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ: قَبُولُ اَلنُّفُوسِ لِلْبَاطِلِ، كَيْفَ يَتَعَلَّقُونَ بِوَاحِدَةٍ وَلَا يُعْتَبَرُونَ بِمِائَةٍ كذبة؟!]

الناس أسرع إلى قبول الباطل منها إلى قبول الحق؛ لأنّ الغالب أنّ الباطل يُحدِّث الغرائز، ولا يكلِّف من العمل شيئًا، أمّا الحق فهو يحدِّث العقول، ويَبني الأعمال، وإسراع الناس إلى العواطف أكثر من إسراعهم إلى العقول.

ولذلك؛ دعاة الحق ينبغي عليهم أن يجتهدوا في الدعوة أكثر من أهل الباطل؛ لأنّ إسراع الناس إلى الباطل الذي يزخرَف ويُغلَّف أكثر من استجابتهم

للحق، لأنّ الامر كما قلنا يا إخوة، وأنا قلتُ مرارًا: أهل الباطل كلامهم يُطرِب و يُعجِب ولا يُتعِب، بل يخرج الإنسان من كلام أهل الباطل وهو يظن أنه من أصلح عباد الله ولو كان من الفساق! أمّا كلام أهل الحق فهو ثقيل. ولذلك ينبغي على دعاة أهل الحق أن يسيروا في دعوتهم، ويصبروا، نعم ستجد معوِّقات، ستجد معوِّقات من القريب منك، الإصلاح طريقه صعب، وكثير من الناس لا يريدون أن تَخطِف منهم شيء، الإصلاح طريق مُرّ؛ لكنّ عاقبته حميدة، والمصلِح يواجِه العواطف بعلم؛ بالبيِّنات والبراهين والحق، ولذلك يواجهه مخالِفوه بالسبِّ والشتم، ويحاولون إيقاف طريقه، ويزعمون أنّ هذا المصلِح لا يَستمع له أحد.

نشأنا ندرُس على مشايخنا الكبار وهناك من يقول: إنّ الشيخ لا يُسمَع له في المملكة، مجهول! يريدون أن يُنفِّروا من أهل الحق. الإصلاح طريق صعب؛ لكن مَن رزقه الله الإخلاص فليبشر؛ فإنه في طريق مستقيم؛ مبدأه في الدنيا، ومنتهاه في الجنة. وما من مصلِح أخلص لله إلا صَدَقَه الله عز وجل ولو بعد موته، وظهر أثر دعوته على الناس ولو بعد موته.

[التَّاسِعَةَ عَشْرَة: كَوْنُهُمْ يلقي بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ تِلْكَ اَلْكَلِمَةَ وَيَحْفَظُونَهَا وَيَسْتَدِلُّونَ بِهَا]

فإنهم لا يتجرَّدون من الحق بالكلية، ولكنهم يجعلون الحقَّ مَصْيَدَة للناس ليقعوا في الباطل.

[الْعِشْرُونَ: إِثْبَاتُ اَلصِّفَاتِ خِلَافًا لِلْمُعَطِّلَةِ]

نعم إثبات الصفات، فقد تقدّم معنا أنّ الله عز وجل يتكلم، وأنّ الله هو العليّ؛ له علو الذات، وعلو القهر، وعلو القدر، وأنه الكبير سبحانه وتعالى. وكلُّ مؤولٍّ للصفات لابد من أن يكون مشبِّهًا في أوّل أمرِه، معطِّلًا في آخر أمرِه، كل مَن أوّل صفة من الصفات لابد أن يكون مشبِّهًا في أوّل الأمر؛ لأنه لماذا يؤوِّل؟ لأنه شَبَّهَ. عندما يأتون مثلًا إلى قول الله عز وجل: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ أوّل ما يخطر بباله: استواء ابن آدم، ويشبِّه استواء الله باستواء ابن آدم؛ فيَنفُر من ذلك يقول: ما يليق بالله! فيؤوِّل. فأوَّل أمره: التشبيه؛ ويَؤُوْل أمرُه إلى التعطيل؛ لأنه إذا أوَّل الصفة فقد عطَّلها، إذا أوَّل صفة اليد لله بالقوة وقال: معنى يد الله: قوة الله! عطَّل الله من صفة اليد.

إذن؛ كلُّ مؤوِّل للصفات لابد أن يكون مشبِّهًا في الأوَّل معطِّلًا في التالي.

وأهل السنة والجماعة يُثبِتون الصفات الواردة في الكتاب والسنة على ما يليق بجلال ربنا سبحانه وتعالى. فلا يشبِّهون؛ لأنّ الله عندهم أعظم وأجلّ من أن يُشبَّه بأحدٍ من خَلْقِه. فكما أنّ ذاته لا تُشبِه الذوات؛ فصفاته لا تُشبِه الصفات،

فلا يشبهون. ولا يكيِّفون، بل ولا يسألون عن الصفة بكيف؟ ولا يُحرِّفون، ولا يُعطِّلون؛ لأنهم معظِّمون لله عز وجل.

[الحَادِيَةُ وَالْعِشْرُونَ: اَلتَّصْرِيحُ بِأَنَّ تِلْكَ اَلرَّجْفَةَ وَالْغَشْيَ خَوْفًا مِنْ اَللهِ ﷻ]

نعم؛ كما ورد في الحديث؛ أنّ هذا لخوفهم من الله خضعانًا لله.

[الثَّانِيَةُ وَالْعِشْرُونَ: أَنَّهُمْ يَخِرُّونَ لِلَّهِ سُجَّدًا]

نعم؛ كما تقدّم معنا؛ لكن هل سجودهم مع الغَشيّ الذي يحدث لهم أو أنه يكون بعد أن يُفزَّع عن قلوبهم؟ السجود ثابت، ووقته بالنسبة للغشي الذي يكون لهم لم يأتِ ما يدلُّ عليه.

تابع الدرس الواحد والعشرون: شرح بَابُ اَلشَّفَاعَةِ

قوله: [بَابُ اَلشَّفَاعَةِ]

هذا الباب بابٌ عظيم، ذكره الشيخ –رحمه الله– لوجهين:

الوجه الأوّل: أنّ أكثر مَن يقعون في الشرك من هذه الأمّة إنما يَقعون فيه من جهة الشفاعة، ويقولون: إنما نتقرَّب لهم ليكونوا شفعاء لنا! يَنذرون لصاحب القبر؛ فإذا قلتَ له: لماذا تنذر لصاحب القبر؟ قال: ليكون شفيعًا لي. فأراد الشيخ بيان ما يَتعلَّق بذلك.

الوجه الثاني: أنه قد تقدَّم في الباب الذي سبق الباب السابق قول النبي صلى الله عليه وسلم: «لا أغني عنكم من الله شيئًا»؛ فناسَب أن يَذكُر الشيخ هنا هذا الباب؛ ليُبيِّن أنه لا تَعارُض بين قول النبي صلى الله عليه وسلم: « لا أغني عنكم من الله شيئًا» وبين الشفاعة، وليَرُدَّ على نُفاةِ الشفاعة.

فإنّ الشفاعة ضَلَّ فيه طرفان:

- **أمّا أحدهما فنفاها،** وقال إنّ كلَّ مَن يَستحقُّ العذاب يدخل النار، وكلُّ مَن يدخل النار لا يَخرج منها؛ وهؤلاء الوعيدية من المعتزلة والخوارج، المعتزلة والخوارج يقولون: كل مَن يَستحقّ دخول النار لابد أن يدخلها، لا عفو، لا شفاعة، لابد أن يدخلها، ومَن دخل النار لا يخرج منها، فأنكروا

الشفاعة، وقالوا: إنّ الله نفى الشفاعة، وأنّ الله عز وجل قال: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ﴾ (البقرة: ٢٥٤)، قالوا: إذن لا شفاعة يوم القيامة!

وأمّا الطرف الثاني فأثبتها على غير الوجه الذي دَلّت عليه الأدلة، فوقع في الشرك بالله، فكان ذلك سببًا للوقوع في الشرك.

وتوسَّط أهل السنة والجماعة، فأثبتوا الشفاعة على الوجه الذي دلّت عليه الأدلة، ونفَوا ما يخالف الأدلة من الشفاعة –كما سيأتي–، وهذه عادة أهل السنة والجماعة في الاستدلال؛ أنهم يجمعون الأدلة، ويَردُّون الأدلة بعضها إلى بعض، يَردُّون المتشابِه إلى المحكَم، وقد تكون الأدلة كلُّها محكَمة لكن يُقيِّدون المطلَق بالمقيَّد، ويُخصِّصون العام بالخاص.

لا يلزم يا إخوة من رَدِّ الأدلة بعضها إلى بعض أن يكون أحدها أو بعضها متشابهًا، لا، بل قد يكون بعضها متشابهًا فيُردُّ إلى المحكَم.

وقد تكون كلها محكَمة لكنّ بعضها يَحتمِل معاني وبعضها لا يَحتمِل إلا معنًى واحدًا؛ فيُرَدّ ما يَحتمِل إلى ما لا يَحتمِل.

وقد يكون بعضها مطلَقًا وبعضها مقيَّدًا، فيُقيَّد المطلَق بالمقيِّد.

وقد يكون بعضها عامًّا وبعضها خاصًّا؛ فيُخصَّص العام بالخاص.

هذه طريقة أهل السنة والجماعة؛ تُجمَع الأدلة ولا يُضرَب بعضها ببعض. بخلاف غيرهم؛ فإنا نجد أنّ الوعيدية مثلًا نظروا إلى نصوص الوعيد فقط وأبطلوا نصوص الوعد، وقالوا: إنّ مرتكب الكبيرة يوم القيامة خالد مخلَّد في النار.

والمرجئة نظروا إلى نصوص الوعد وقالوا: لا يضرّ مع الإيمان ذنب.

أمّا أهل السنة والجماعة فطريقتهم في الاستدلال دائمًا: أنهم يَردُّون الأدلة إلى بعضها، وهذا ما هو ظاهر في إثبات ذات الشفاعة. فكما قلتُ لكم أنّ الوعيدية يَنفون الشفاعة أصلًا؛ لأنهم أخذوا بالأدلة التي فيها نَفي الشفاعة. ومَن انحرفوا في باب الشفاعة يُثبِتون الشفاعة بغير إذن الله ولا رضاه، ويَتَّخِذون شفعاء لم يأذن الله بهذا. أمّا أهل السنة فيَجمعون بين الأدلة كما سيأتينا في القواعد التي دلَّت عليها الأدلة في هذا الباب العظيم.

الشفاعة لغة: من الشفع. والشفع يدل على قَرْنِ شيئين، وضَمِّ أحدهما إلى الأخر. ويقال في اللغة: شَفَعَ فلانٌ لفلانٍ؛ إذا جاء لغيره ملتمِسًا طلبًا لغيره –أي تحقيق طلبٍ لغيره– أو دفع ضرٍّ عن غيره. واليوم الناس يسمُّونها: واسطة، يقول: اتخذتُ واسطة عند المسئول، فيكون التوسَّط به يَذهب إلى المسئول من أجل طلب المتوسَّط له؛ إما لتحقيق خير له، أو دفع شر عنه.

فالشفاعة اصطلاحًا: توسُّط الشافِع لغيره عند غيره لجلب منفعة أو دفع مضرة. ولذلك يقول بعضهم: الشفاعة: طلب الخير للغير،

والمراد بالشفاعة في هذا الباب: الشفاعة في الأخرة. لأنّ الشفاعة قد تكون في الدنيا، وهي في الدنيا إمّا من المخلوق للمخلوق عند المخلوق. وإمّا أن تكون بمعنى الدعاء؛ كما سنبيِّنه غدًا إن شاء الله.

مثال الشفاعة من مخلوق لمخلوق عند المخلوق: تأتيني وتقول: اشفع لي عند مدير المرور، فأنا مخلوق أشفع لك وأنت مخلوق عند مخلوق وهو مدير المرور.

وقد تكون الشفاعة في الدنيا بمعنى الدعاء، "اشفع لي" بمعنى: ادعُ لي.

والشفاعة تكون في الأخرة، وهي الشفاعة عند الله عز وجل. وهذه سنتكلم عنها –إن شاء الله– غدًا بالمقدار الذي يَسمح به شرطنا في شرح الكتاب في هذه المرحلة. وأمّا في الشرح الموسَّع –إن شاء الله– فسنورِد شُبَهًا ونجيب عنها، لكن هنا بالمقدار الذي نفهم به التوحيد، ويتحقق به المقصود.

الدرس الثاني والعشرون: تابع شرح بَابُ اَلشَّفَاعَةِ

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَن يهدي الله فلا مضل له، ومَن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) (آل عمران: ١٠٢)

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) (النساء: ١)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيمًا) (الأحزاب: ٧١)

أما بعد:

فإن أحسن الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

ثم أيها الفضلاء؛ لا زلنا نشرح في كتاب التوحيد، هذا الكتاب العظيم الذي ملأه شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب –رحمه الله عز وجل– علمًا وحكمة، فليس فيه إلا قال الله قال رسوله –صلى الله عليه وسلم– وبعض ما جاء عن الصحابة من آثار، وفي هذا غُنيَةٌ للمؤمن عن كلّ شيء، وكفاية للمؤمن في معرفة الحقّ. وكنا قد شرعنا في باب الشفاعة، وذكرنا أنّ الشيخ –رحمه الله– ذكر باب الشفاعة في كتاب التوحيد عمومًا، وفي هذا الموضع على وجه الخصوص لوجهين:

الوجه الأوّل: أنّ أكثر الشرك الواقع من بعض مَن ينتسبون إلى الإسلام إنما هو بسبب الشفاعة، فكثير ممن يَنذرون لأصحاب القبور أو يَستشفعون بهم أو يَستعيذون بهم؛ إنما يفعلون ذلك تقربًا إليهم، رجاء أن يشفعوا لهم عند الله عز وجل. فناسَب أن يذكر الشيخ –رحمه الله– باب الشفاعة بعد ما تقدّم من الأبواب.

الوجه الثاني: أنه لمّا تقدّم قول النبي صلى الله عليه وسلم: «لا أغني عنكم من الله شيئًا»، ناسَب أن يذكر الشيخ –رحمه الله– عَقِبَ ذلك ما يتعلق بالشفاعة؛ ليبيِّن أنه لا تَنافي بين قول النبي صلى الله عليه وسلم ذلك، وبين الشفاعة، وليَرُدَّ على الضالين في باب الشفاعة. فإنّ باب الشفاعة قد ضلَّت فيه طائفتان:

الطائفة الأولى: طائفة أنكرت الشفاعة، ولاسيما الشفاعة المتعلِّقة بإخراج أصحاب الذنوب من النار، أو بالشفاعة لهم بعدم دخول النار أصلًا. فإنّ الوعيدية من الخوارج والمعتزلة يُنكِرون هذه الشفاعة، ويَنفونها، وهذا فيه ضلال عظيم، وردٌّ للنصوص المتكاثرة المتواترة الدالة على هذه الشفاعة.

الطائفة الثانية: طائفة أثبتت الشفاعة على طريقة المشركين؛ في أنّ المعبودات من دون الله تَشفع لعابِدِيها عند الله عزو جل. وهذا ضلال مُبين.

والصواب في باب الشفاعة: ما دلَّت عليه النصوص بمجموعها؛ وهو: أنّ هناك:

- شفاعة منفية.
- شفاعة مثبتته.

كما بيَّنا أنّ الشفاعة في اللغة: مِن الشَّفْع، والشَّفْع هو بمعنى قرن الشيئين، أي: أن تقرن شيئًا بشيء، أو أن تَضمّ شيئًا إلى شيء آخر. وتقول العرب: شَفَعَ فلانٌ لفلان؛ إذا سعى له بطلبه عند غيره لجلب منفعة له أو دفع مضرَّة عنه.

وقلنا إنّ الشفاعة في الاصطلاح: هي طلب الشافع من غيره جَلْب خيرٍ لغيره، أو دفع ضرٍّ عنه، وقلنا إنّ بعض اهل العلم يعبِّر عنها بقولهم: طلب الخير للغير من الغير.

وقلنا إنّ الشفاعة تنقسم في الأصل إلى قسمين:

القسم الأوّل: الشفاعة في الدنيا. وهي تتنوَّع إلى نوعين:

النوع الأوّل: الشفاعة من المخلوق للمخلوق عند المخلوق. أن تشفع أنتَ يا عَبْدَ الله لأخيك عند مسئول أو وزير أو ملك أو نحو ذلك. وهذه الشفاعة إنما هي في أمور الدنيا، وهي مشروعة إذا كانت حسنة، ويثاب عليها الإنسان، فمَن شفع لأخيه شفاعة حسنة في الدنيا فإنه يؤجَر، سواء قُبِلَت شفاعته، أو رُدَّت شفاعته، قال الله عز وجل: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا﴾، من يشفع شفاعة حسنة لأخيه في الدنيا يكن له نصيب من حُسنها؛ فينال حسنةً، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «اشفعوا تؤجروا».

وشرط هذه الشفاعة التي هي في أمور الدنيا: ألا تكون في حرام، فإن كانت في حرام انقلبت إلى شفاعة سيئة. فإذا شَفَعَ الإنسان في الظلم؛ كأن يُقدَّم المؤخَّر على المتقدِّم؛ فإنّ هذا ظلم، وهذه شفاعة سيئة.

أمّا أن يَشْفَع لأحد المتساوِين ليَقدَّم؛ فهذه شفاعة حسنة. أو أن يُبدِيَ صفةً في أحدهم تقتضي أن يُقدَّم على غيره؛ كأن يُزكِّيَه ويُثني عليه ويكون لذلك قَدْرٌ بحيث يَستحق بهذا أن يُقدَّم على غيره؛ فهذه شفاعةٌ حسنة.

كذلك؛ إذا كانت الشفاعة في مخالفة النظام الذي جعله ولي الأمر؛ فهذه شفاعة محرمة.

كذلك؛ إذا كانت الشفاعة في حدٍّ من حدود الله؛ فإنها شفاعة سيئة، وشفاعة محرمة. ولذلك لمّا سرقت المخزومية وأَهَمَّ قريشًا أمرُها قالوا: إنه لا يَجرؤ على رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أسامة؛ لأنه حِبُّه وابن حِبِّه، فلمّا كلَّمه أسامة –رضي الله عنه– تلوَّن وجه صلى الله عليه وسلم وقال له: «أتشفع في حدٍّ من حدود الله»، حتى قال أسامة لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله! استغفر لي.

فهذه الشفاعة إذا كانت حسنة –وضابطها أن لا تكون في حرام– فإنها مشروعة، مطلوبة، مستحبة، ويؤجَر عليها الإنسان. أمّا إذا كانت في حرام؛ فإنها شفاعة سيئة، ويؤاخَذ بها الإنسان، والعياذ بالله.

النوع الثاني: شفاعة المخلوق للمخلوق عند الله في الدنيا. والمعني بها: الدعاء، أي: أن يدعو المخلوق للمخلوق، فهذا جائز؛ بشرط: أن يكون ذلك مطلوبًا من الحي الحاضر، فيقول الأخ لأخيه: "يا أخي! إنّ عندي مريضًا فساعدني في الدعاء له أن يشفيه الله عز وجل"، فهذه شفاعة؛ لأنه يَضمُّ دعاءه إلى دعائه، ويَضمّ حاجته إلى حاجته.

أمّا إذا كانت من الأموات؛ فهذه لا تجوز. لا يجوز أن تُطلَب الشفاعة بالدعاء من الأموات، ولا من الغائبين، وإنما يَطلُب العبد من أخيه الحي الحاضر أن يَشفع له عند الله؛ بمعنى: أن يدعو له ليُحصِّل مقصودَه. ولذلك لو

قال لك قائل: "اشفع لي عند الله"، فإنه يُستفصَل منه؛ فإن كان مراده: ادعُ لي الله عز وجل أن يَحصُل لي مقصودي؛ فهذا جائز، وهو من باب طلب الدعاء من الحي الحاضر وهو جائز. وإن كان مراده: أن يشفع له عند الله يوم القيامة؛ فهذا لا يجوز؛ لأنّ الشفاعة يوم القيامة إنما تُطلَب من الله عز وجل. هذه الشفاعة في الدنيا.

القسم الثاني: الشفاعة في الأخرة. وهي المرادة في هذا الباب. والشيخ –رحمه الله– إنما عَقَدَ الباب لهذه الشفاعة، فإنّ ربنا الجواد الكريم يَتفضَّل على عباده بشفاعة بعضهم لبعض يوم القيامة؛ وذلك:

- لإكرام الشافع.
- ونفع المشفوع له.

الله عز وجل لا يحتاج إلى الشفعاء؛ لكنه –سبحانه– من كرمه وجوده يتفضَّل على من شاء من عباده يوم القيامة بالشفاعة؛ وذلك: لإظهار إكرام الشافع؛ لأنه لا شك أنّ شفاعة الشافع تدلُّ على مقام له عند المشفوع عنده، ولنفع المشفوع له.

والشيخ –رحمه الله– ذَكَرَ أدلة فيها قواعد هذه الشفاعة.

وملخّص هذه القواعد ما يأتي:

القاعدة الأولى: أنّ الشفاعة كلَّها لله. فلا يملكها مخلوق مهما علا شرفه ومكانته، بل الشفاعة كلها لله عز وجل، فلا تُطلَب إلا من الله عز وجل، فالشفاعة يوم القيامة إنما تُطلَب من الله سبحانه وتعالى.

القاعدة الثاني: أنّ أدلة الشفاعة المطلَقة مقيَّدة بالأدلة الأخرى. فالأدلة النافية للشفاعة مقيَّدة بالأدلة المثبِتَةِ لها. والأدلة التي فيها أنّ الشفاعة تكون لمَن قال لا إله إلا الله، أو لمَن قال لا إله إلا الله يومًا، أو من ذكر الله يومًا؛ هذه مقيَّدة بالأدلة على أنّ الشفاعة إنما هي لأهل التوحيد، لمَن مات لا يشرك بالله، لمَن مات غير كافر. أمّا مَن مات مشركًا بالله فإنه خالد مخلَّد في النار، لا تنفعه شفاعة الشافعين. ومَن مات كافرًا ففعل مكفِّرًا وحَكَمْنَا عليه بالكفر بعينه، وكان ذلك موافقًا للظاهر والباطن؛ فإنه لا يدخل في أحاديث وأدلة الشفاعة؛ لأنّ أدلة الشفاعة مقيَّدة.

من ذلك؛ ما جاء أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال في الشفاعة: «إنها نائلةٌ مَن مات من أمَّتي لا يشرك بالله شيئًا».

ولذلك؛ لو أنّ شخصًا كفَّر شخصًا بسببٍ شرعيّ، ظهر له فيه أنّ الموانع منتفية، والشروط مجتمعة؛ فإنه يَعتقد بحسب ما يعلم أنّ هذا الرجلَ لا تنفعه شفاعة الشافعين. فإن كان أمره كما اعتقد فيه فمات على الكفر؛ فلا شك أنّ الشفاعة لا تنفعه.

ولذلك؛ مثلًا: مّن كان يعتقد أنّ تارك الصلاة مطلقًا كافر –كما أعتقد أنا بناءً على الأدلة– فإنه إذا عَلِمَ أنّ فلانًا من الناس قد مات تارِكًا للصلاة؛ فإنه يعتقد أنه لا تنفعه شفاعة الشافعين، لكنه لا يَجزم بهذا؛ لأنه لا يدرك يقينًا ما وافى عليه. ولذلك؛ إن كان باطنه موافق لِمَا حُكِمَ عليه في الظاهر؛ فإنه يقينًا لا تنفعه شفاعة الشافعين.

إذن؛ الأدلة المطلَقة في الشفاعة مقيَّدة بالأدلة المقيِّدة. وليس هذا مِن باب المحكَم والمتشابِه، بل أدلة الشفاعة كلُّها محكَمة، لكنّ بعضها مطلَق وبعضها مقيَّد؛ ويُرَدُّ هذا إلى هذا.

ولا شك أنّ أهل السنة والجماعة مجمِعون على أنّ من مات مشركًا بالله لا تنفعه الشفاعة، وأنه خالد مخلَّد في النار.

القاعدة الثالثة: أنّ الشفاعة في الآخرة شفاعتان:

١. شفاعة منفية.

٢. شفاعة مثبتة.

- **أمّا الشفاعة المنفية فلها أربع صور:**

الصورة الأولى: الشفاعة لأهل الشرك والكفر. فإنه لا يَشفع أحدٌ لأهل الشرك والكفر يوم القيامة، والمشركون والكفار لا تنفعهم شفاعة الشافعين.

الصورة الثانية: الشفاعة بغير إذن الله. فإنه لا يشفع شافع يوم القيامة إلا بإذن الله، والشفاعة بغير إذن الله منتفيةٌ قطعًا يوم القيامة.

الصورة الثالثة: الشفاعة لغير مَن يرضى الله عنه. فإنّ الشفاعة لغير مَن يرضى الله عنه منتفية يوم القيامة؛ فلا تكون الشفاعة إلا لمَن رضي الله عنه، إلا ما استُثني؛ وهو:

١. شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم العظمى للفصل بين القضاء، فإنها تنال الجميع.

٢. وشفاعة النبي صلى الله عليه وسلم لعمه أبي طالب.

فهتان الشفاعتان –كما سيأتي– شرطهما: الإذن من الله. وأمّا رضى الله عن المشفوع له؛ فهذا ستأتي الإشارة إليه.

الصورة الرابعة: شفاعة مَن يعبدون من دون الله لعابِدِيهم يوم القيامة. هذه الشفاعة التي يظنها المشركون قديمًا وحديثًا، يظنون أنّ عابِديهم الذين يتقرّبون لهم من دون الله يشفعون لهم عند الله ويكونون شفعاء لهم عند الله، وهذه الشفاعة منفيَّة يقينًا؛ فإنّ المعبودات من دون الله لا تشفع لعابِديها من دون الله يوم القيامة.

فهذه الشفاعة المنفيَّة، ضَبْطُها بهذه الصُوَر الأربعة.

– **أمّا الشفاعة المثبَتة؛** فهي الشفاعة التي يَتفضَّل الله بها لمَن أَذِنَ له من الشُّفعاء، ورَضِيَ عنه، ولمَن رضي عنه من المشفوع لهم. فلا بد من ثلاثة شروط في الشفاعة المثبَتة:

الشرط الأوَّل: إذن الله. فلا يمكن لأحد مهما علا شرفه وعظمت مكانته أن يشفع لأحد عند الله إلا بإذن الله.

الشرط الثاني: رضى الله عن الشافع نفسِه.

الشرط الثالث: رضى الله عن المشفوع له. هنا سؤال: ما معنى رضى الله عن المشفوع له؟ هل يعني أنه يكون من الصالحين من كل وجه؟ الجواب: لا، وإنما المقصود أن يكون موحِّدًا؛ ولو كان فاعلًا لكبائر، ما دام أنه موحِّد دخل في هذا الشرط. ولذلك شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم لأهل الكبائر من أمته، فالنبي صلى الله عليه وسول يشفع لأهل الكبائر من أمته.

إذن؛ يا إخوة! لا تفهموا من هذا الشرط "أنه لابد أن يرضى الله عن المشفوع له": أنه لابد ان يكون من الصالحين غير المذنبين! وإنما المقصود هنا: أن يكون من الموحِّدين، فإذا وافى الله وهو من الموحِّدين فإنه قد يُشفَع له بإذن الله سبحانه وتعالى. هذه الشفاعة المثبَتة.

القاعدة الرابعة من القواعد التي ضمّنها الشيخ في هذا الباب من خلال ذكر الأدلة: أنّ الشفاعة المثبَتة يوم القيامة تنقسم في الجملة إلى قسمين:

القسم الأوّل: شفاعة خاصة بالنبي صلى الله عليه وسلم، لا ينالها أحد سواه. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أُعطِيت خمسًا لم تُعطَ لأحد غيري» وذكر منها: « الشفاعة» متفق عليه. هذه الشفاعة التي أُعطيها النبي صلى الله عليه وسلم ولم تُعطَ لأحد قبله من الأنبياء هي الشفاعة الخاصة به صلى الله عليه وسلم. فهذا الحديث دليل على أنّ هناك شفاعة يَختصُّ بها النبي صلى الله عليه وسلم.

وهذه الشفاعة التي يختصُّ بها نبينا صلى الله عليه وسلم على أنواع:

النوع الأوّل: الشفاعة العُظمى، وهي من المقام المحمود، وهي شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم لأهل الموقف، حيث يشفع النبي صلى الله عليه وسلم لهم حتى يُقضى بينهم، وذلك عندما يطلبون ذلك من الأنبياء؛ بدءًا من أبينا آدم عليه السلام؛ فيتأخر الأنبياء وأولوا العزم من الرسل عن ذلك، فإذا طلبوها من النبي صلى الله عليه وسلم أن يشفع لهم عند الله قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أنا لها، أنا لها» فيستأذن النبي صلى الله عليه وسلم على ربه فيقع ساجدًا، فيَفتح الله عليه من المحامد ما لم يكن يعرفه قبل ذلك، ويطول سجوده صلى الله عليه وسلم، ثم يقال: «يا محمد! ارفع رأسك، وقل يُسمَع، وسَلْ تُعطى، واشفَع تُشفَّع»، فيومئذ يبعثه الله مقامًا محمودًا، أهل الجمع كلهم يحمدونه على هذا المقام. فهذه الشفاعة العظمى.

وهذه الشفاعة يَنتفع بها كل أهل الموقف، من جهة أنه يُفصَل بينهم في القضاء، ويَقضي الله بين الخلائق.

النوع الثاني: شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم لأهل الجنة أن يدخلوا الجنة. حيث يجتمع المؤمنون –الذين هم أهل الجنة– ويأتون أدم عليه السلام؛ فيقولون: "يا أبانا! استفتح لنا الجنة"، فيدفعها عن نفسه عليه السلام، إلى أن يأتوا إلى محمد صلى الله عليه وسلم، فيقوم، فيؤذَن له، فيأتي صلى الله عليه وسلم باب الجنة، فيَستفتح، فيقول الخازن: مَن أنت؟ فيقول: محمد، فيقول: «بك أُمرتُ، لا أَفتح لأحد قَبلك». فهنا تُفتح الجنة لأهلها، ويُدخِل النبي صلى الله عليه وسلم الجنة مَن كان مِن أمته يَدخل الجنة بغير حساب ولا عذاب من يمين الجنة، ثم يشترك الناس في أبواب الجنة.

فالمقام المحمود للنبي صلى الله عليه وسلم في هاتين الشفاعتين كما دلت على ذلك الأدلة الصحيحة.

النوع الثالث: شفاعته صلى الله عليه وسلم لعمه أبي طالب بأن يخفَّف عنه العذاب. لأنّ أبا طالب قد مات على الشرك ولم يقل لا إله إلا الله، مع تقدُّم نصرته للنبي صلى الله عليه وسلم.

قال العباس للنبي صلى الله عليه وسلم: (ما أغنيتَ عن عمك؟ فإنه كان يحوطك ويغضب لك)، "ما أغنيتَ" هذا على سبيل السؤال؛ يعني: ما الذي

أغنيتَ عن عمك فيه؟ وليس على سبيل الاستنكار أو نحو ذلك، العباس يسأل النبي صلى الله عليه وسلم: ما أغنيتَ عن عمك؟ فإن عمك أبا طالب كان يحوطك ويدافع عنك وينصرك ويغضب لك، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «هو في ضَحضاح من النار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار» متفق عليه؛ رواه الشيخان في الصحيحين.

وقد ذُكِرَ عند النبي صلى الله عليه وسلم عمُّه أبو طالب؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة، فيُجعَل في ضحضاح من النار يَبلغ كعبَيه، يغلي منه دماغه» متفق عليه. فهو لا يُخرَج من النار لكنه يُجعل في ضحضاح، هذا الضحضاح يَبلغ كعبَيه، ومن شدَّته يغلي منه دماغه، هذا الضحضاح من النار فكيف بدخولها والعياذ بالله؟! كيف بأن تحيط النار بمن دخلها والعياذ بالله؟ النار شديدة العذاب، شديدة الحر، فالعاقل من هرب منها بطاعة الله، والبعد عن معصية الله.

الشاهد: أنّ أبا طالب –وقد مات على الشرك– يشفع له النبي صلى الله عليه وسلم بإذن الله؛ ليُخفَّف عنه العذاب، لا ليُخرَج من النار، فإنّ الكفار مخلَّدون في النار. وهذا –كما قلتُ لكم– مستثنىً من شرط "رضى الله عن المشفوع له". لكنّ هذا الشفاعة لا تكون من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا بإذن الله سبحانه وتعالى.

النوع الرابع: شفاعته صلى الله عليه وسلم لأهل المدينة. لمَن عاش فيها موحِّدًا، وصبر على لأْوائها وشدتها، ولم يَتسخَّط، ومات فيها. فإن النبي صلى الله عليه وسلم يشفع لأهل المدينة. ولا شك أنّ هذه الشفاعة شفاعة خاصة بالنبي صلى الله عليه وسلم، وخاصة لأهل المدينة، فهي غير الشفاعة العامة التي تكون لأهل الكبائر من الموحدين أو لأمة محمد صلى الله عليه وسلم وإنما شفاعة خاصة لأهل المدينة.

قال النبي صلى الله عليه وسلم عن المدينة: «لا يصبر أحد على لَأْوَائها فيموت» أي: فيها «إلا كنت له شفيعًا أو شهيدًا يوم القيامة إذا كان مسلمًا» رواه مسلم في الصحيح. فهذا يدل على أنّ من أشرك في المدينة وعاش مشركًا لا يزيده ذلك إلا شرًا، ولا يَشفع له النبي صلى الله عليه وسلم. وأنّ المنافقين الذين عاشوا في المدينة لا تنفعهم شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم؛ أعني: لا يشفع لهم، وإنما يشفع لمَن كان مسلمًا، وعاش في المدينة موحدًا، وكان صابرًا على شدتها وعلى لأوائها، لا يتسخط، ولا يظهر السُّخط، ومات على ذلك.

هنا قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إلا كنت له شفيعًا أو شهيدًا» ما معنى هذا؟

- **قال بعض أهل العلم**: هكذا قالها النبي صلى الله عليه وسلم؛ فلعله وُعِدَ هكذا، أن يكون شفيعًا أو شهيدًا.

- **وقال بعض أهل العلم**: بل (أو) هنا بمعنى الواو، أي: أكون له شفيعًا وشهيدًا يوم القيامة.

- **وقال بعض اهل العلم**: بل (أو) هنا للتقسيم، أي: أكون شهيدًا للطائعين، وشفيعًا للعصاة من أهل المدينة إذا كانوا موحِّدين وصبروا على لَأْوَائها وماتوا على التوحيد. قالوا: إذن؛ أكون شهيدًا لصِنف، وأكون شفيعًا لصِنف، فأكون شهيدًا للطائعين، وأكون شفيعًا للعاصين.

- **وقال بعض أهل العلم**: أكون شهيدًا لمَن كان معي من أهل المدينة، وأكون شفيعًا لمن جاء بعدي من أهل المدينة، فكان مسلمًا موحدًا صابرًا إلى أن مات على ذلك. فالشهادة لمن رآهم النبي صلى الله عليه وسلم، والشفاعة لم جاءوا بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم من أهل المدينة.

وهذه الشفاعة بشارة لأهل المدينة، وإكرام لأهل المدينة؛ إذا هم اتقوا الله في المدينة. فأنت يا عبد الله في المدينة بين أمرين:

- إمّا الشرف العظيم والمقام الكريم إذا اتقيت الله فيها وصبرت حتى مت، فأنت في المقام العظيم، وموعود بهذه الشفاعة العظيمة.
- وإمّا –والعياذ بالله– أن تُسقِط نفسك في الشر العظيم؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «المدينة حَرَمٌ ما بين عير إلى ثور، مَن أحدث فيها

حدثًا، أو أوى فيها محدِثًا؛ فعليه لعنة الله، والملائكة، والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفًا ولا عدلًا».

إذن؛ الشفاعة الخاصة بنبينا صلى الله عليه وسلم أربعة أنواع:

١. الشفاعة العظمى لأهل الموقف أن يُقضى بينهم. وهذه من المقام المحمود.

٢. الشفاعة لأهل الجنة لدخول الجنة. وهذه أيضًا من المقام المحمود.

فالمقام المحمود للنبي صلى الله عليه وسلم في هاتين الشفاعتين: الشفاعة العظمى، والشفاعة لأهل الجنة في دخول الجنة، كما دلّت على ذلك الأدلة الصحيحة.

٣. شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم لعمه أبي طالب ان يُخفَّف عنه العذاب.

٤. شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم لأهل المدينة. وهذه –كما قلنا– شفاعة إكرام لأهل المدينة زائدة عن الشفاعة العامة للأمة.

هذا القسم الأوّل وهو الشفاعة الخاصة بالنبي صلى الله عليه وسلم.

القسم الثاني: شفاعة تكون للنبي صلى الله عليه وسلم ولغيره. يكرم الله بها من شاء من عباده. وهي أنواع:

- **النوع الأوّل:** الشفاعة لأقوام مسلمين استحقوا دخول النار؛ فيشفع النبي صلى الله عليه وسلم لهم ليُخرجوا من النار، ويشفع لهم الأنبياء، ويشفع المؤمنون، وتشفع الملائكة لأولئك القوم لإخراجهم من النار، فيُخرج الله أقوامًا من النار بالشفاعة.

هناك أناس من الموحدين يرتكبون من الذنوب ما يستحقون به دخول النار، فيدخلون النار، فيشفع النبي صلى الله عليه وسلم لهم، فيُخرَج بشفاعته أقوام كُثر منهم من النار، ويشفع الأنبياء، فيُخرج الله بشفاعة الأنبياء أقوامًا كُثر من هؤلاء، ويشفع المؤمنون فيُخرج الله عز وجل بشفاعتهم أقوامًا كُثر من هؤلاء، وتشفع الملائكة، فيُخرج الله بشفاعتهم أقوامًا كُثر من هؤلاء.

وهذه الشفاعة وإن كانت للنبي صلى الله عليه وسلم ولغيره؛ إلا أنّ النبي صلى الله عليه وسلم فيها هو المقدَّم.

- **النوع الثاني:** الشفاعة لأقوام من الموحدين يستحقون دخول النار ألّا يدخلوها.

الفرق بين الأولى والثانية: أنّ الأولى لأقوام يدخلون النار فيُشفع لهم ليُخرجوا منها، وأمّا الثانية فيُشفع لهم ألا يدخلوا النار أصلًا.

ومن ذلك ما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ليدخلن الجنة بشفاعة رجل ليس بنبيٍّ مثل الحيَّين: ربيعة، ومُضَر» رواه أحمد وصححه الالباني. «مثل الحيَّين: ربيعة، ومُضَر» أي: مثل القبيلتين الكبيرتين: ربيعة ومضر.

وفي الحديث أيضًا؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم: «يدخل الجنة بشفاعة رجل من أمتي أكثر من بني تميم»، وبنو تميم: قبيلة كبيرة جدًّا كثيرة العدد، «قيل: يا رسول الله! سواك؟» يعني هذا الرجل غيرك؟ ليس أنت؟ «قال: سواي» وإنما هو رجل من أمّة محمد صلى الله عليه وسلم. رواه الترمذي وابن ماجه وصححه الألباني. وظاهر هذا الحديث أنهم يدخلون الجنة ابتداء.

ومن ذلك أيضًا؛ قول النبي صلى الله عليه وسلم: «ما من مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلًا، لا يشركون بالله شيئًا؛ إلا شفَّعهم الله فيه» رواه مسلم في الصحيح. «ما»: نافية «من»: لتأكيد العموم، «مسلم»: نكرة، «يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلًا، لا يشركون بالله شيئًا) وهذه فضيلة التوحيد للاثنين «إلا شفَّعهم الله فيه»، وظاهر هذا: أنّ شفاعتهم في مغفرة ذنوبه ودخوله الجنة.

النوع الثالث: الشفاعة في رِفعة الدرجات في الجنة. ولهذا شُرع أن يسأل المسلم لأخيه أن يرفع الله درجته في المهدين، في الجنة. فهذا من الشفاعة العامة التي تكون للنبي صلى الله عليه وسلم ولغيره.

ومن ذلك؛ شفاعة مَن ترتفع درجته في الجنة لمَن دنت درجته في الجنة من أهله. فإذا دخل الوالد والأولاد الجنة، فارتفع الوالد عن الأولاد؛ فإنّ الله يُلحق الأولاد بأبيهم، ويكون شَفَعَ لهم بعمله الذي ارتفع به في الجنة أن يرفعهم الله عز وجل إلى درجته.

فهذه أقسام الشفاعة المثبَتة يوم القيامة بأنواعها.

هذه هي القواعد التي أخذناها من النصوص التي ذكرها الشيخ رحمه الله عز وجل في هذا الباب العظيم.

[وَقَوْلِ اَللهِ عز وجل: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُواْ إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ﴾]

الله أكبر! الله عز وجل يأمر نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ﴾ أي: أنذر بالقرآن، خوِّف بالقرآن ﴿ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُواْ إِلَى رَبِّهِمْ) أي: أنهم موحِّدون مؤمنون بما يكون يوم القيامة. فهم مصدِّقون بأنّ ما أخبر الله عز وجل به مما يكون يوم القيامة أنه واقع، فهم مؤمنون به. ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ﴾ أي: ليس لهم من دون الله ﴿وَلِيٌّ﴾ أي: ليس لهم من عذاب الله إنْ عذَّبهم وليٌّ ينصرهم ﴿وَلاَ شَفِيعٌ﴾ يشفع لهم عند الله فيخلِّصهم من عذاب الله.

هذه الآية في المشركين أو الموحِّدين؟ في الموحدين؛ لأنّ الله قال: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُواْ إِلَى رَبِّهِمْ﴾ فهؤلاء هم الموحدون، طيّب قال الله:

﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ﴾ أي: ليس لهؤلاء الموحدين ولي ولا شفيع، فهل هذا يعني أنّ الشفاعة منفية؟ الجواب: لا؛ لأنّ الله قال: ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ﴾، فالشفاعة المنفية هنا هي الشفاعة من دون الله عز وجل، بدون إذن الله، بدون رضى الله، فإنه لا شفاعة لأحد من دون الله سبحانه وتعالى.

إذن؛ هذه الشفاعة المنفية لأهل التوحيد ولغيرهم، وهي الشفاعة من دون الله، ومعنى من دون الله: أي مِن دون إذنه ولا رضاه.

[وَقَوْلِهِ: ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾]

﴿قُل لِّلَّهِ﴾ وهذا يدل على الحصر، قل يا محمد –صلى الله عليه وسلم–: ﴿لله الشفاعة جميعًا﴾، إذن الشفاعة كلها لله. وهذه الآية تدلنا على أمرين:

الأمر الأوّل: أنّ الشفاعة أنواع، وليست نوعًا واحدًا؛ لأنّ الله قال: ﴿جميعًا﴾، فجميع الشفاعات؛ إذن هي أنواع.

الأمر الثاني: أنّ الشفاعة كلها بأنواعها لله، وهذا لقطع طمع المشركين؛ فإنّ المشركين يطمعون أن تشفع لهم معبوداتهم من دون الله عز وجل. فكأنّ النبي صلى الله عليه وسلم يقول لهم: "هيهات هيهات؛ فإنّ الشفاعة لله جميعًا"، فلا شفاعة للمشركين.

وهذا أيضًا يفيدنا أنّ الشفاعة إنما تُطلَب من مالكها، فلا تُطلب من النبي صلى الله عليه وسلم لا في حياته ولا بعد موته صلى الله عليه وسلم، ولا تُطلب من الملائكة، ولا تُطلب من الأولياء، وإنما تُطلب من الله سبحانه وتعالى؛ لأنه سبحانه هو مالك هذه الشفاعة بجميع أنواعها.

فهذه الآية أثبتتْ شفاعةً، والتي قبلها نفتْ شفاعة؛ وهي: الشفاعة من دون الله –كما بيَّنا المعنى–، وهذه الآية أثبتتْ شفاعة لكن ما فُصِّلت الشفاعات، لكن بُيِّن لنا أنها لله جميعًا؛ فلا تُطلب إلا من الله.

[وَقَوْلِهِ: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾]

هذه الآية فصَّلت الشفاعة المثبتة التي هي لله عز وجل، وما معنى كونها لله عز وجل؟ ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ فلا شافع عند الله إلا بإذن الله، لا يَشفع النبي صلى الله عليه وسلم –مع علو مقامه وهو صاحب المقام المحمود– عند الله إلا بإذن الله، ولذلك نبيُّنا صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يشفع عند الله تذلَّل لله، فاستأذن أولًا، وخرَّ ساجدًا لله ثانيًا، وحَمِدَ الله بمحامد كثيرة ما كان يعلمها من قبل، يَفتح الله عليه بها، ويبقى خارًّا ساجدًا لله عز وجل وقتًا طويلًا، ولا يرفع رأسه حتى يأذن له الله (ارفع رأسك). فالنبي صلى الله عليه وسلم –مع علو مقامه– لا يشفع عند الله إلا بإذن الله عز وجل. وهذا يفيدك يا عبد الله أنّ الشفاعة إنما تُطلب من الله.

إذن؛ هذه شفاعة مثبَتة؛ وهي: الشفاعة بإذن الله عز وجل.

لاحظوا الترتيب؛ كيف رتَّب الشيخ بفقهه العظيم –رحمه الله رحمة واسعة وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء– كيف رتّب هذه الآيات:

أولًا: الشفاعة المنفية؛ وهي التي من دون الله.

ثانيًا: إثبات الشفاعة وأنها لله.

ثالثًا: بيان أنّ الشفاعة المثبَتة لا بد فيها من إذن الله سبحانه وتعالى.

[وَقَوْلِهِ: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾]

﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ﴾ مع عِظَم الملائكة ﴿في السموات﴾ مع كثرتهم ﴿لا تغني شفاعتهم شيئًا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء﴾ أن يشفع ﴿ويرضى﴾ أي: عن الطرفين: الشافع، والمشفوع له.

فذكر الشيخ هذه الآية التي فيها الشرط الثاني والثالث؛ وهو: رضى الله عن الشافع، ورضى الله عن المشفوع له.

[وَقَوْلِهِ: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ﴾ الآيتين]

قول الله عز وجل:﴿قُلِ﴾ أي: قل يا محمد للمشركين: ادعوا الذين زعمتم من دون الله؛ فإنهم لا يستطيعون إجابتكم، ولا يستحقون أن يدعوا من دون الله، لماذا؟ لأمور:

- ﴿لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ﴾ سبحان الله! كلهم؛ بل كل الخلق، لا يملكون مثال ذرة في السموات ولا في الأرض مِلكًا تامًّا مطلقًا؛ لأنه قد يأتي إنسان يقول: الإنسان ما يملك؟! نقول: الإنسان يملك ملكًا ناقصًا، مَن الذي يأمن على ما يَملكه أن يَبقى ولا يذهب؟ كلُّ واحد منّا لا يأمن على ما يَملكه من مال وأمور أن تَبقى ولا تَذهب، ربما تُسرَق الآن، ربما تُسرَق الليلة، ربما يَنزل بها بلاء. ثم إنّ الإنسان لا يَتصرَّف فيما يَملك –هذا الملك الناقص– إلا بإذن الله القدري، فقد يريد الإنسان أن يشتري بماله شيئًا لكنّ الله لم يُرِدْ ذلك قدرًا؛ فلا يستطيع. أيضًا الإنسان لا يستطيع أن يَتصرّف فيما يملك –هذا الملك الناقص– إلا بإذن الله الشرعي، فلو أراد أن يشتري حرامًا؛ لا يستطيع ذلك شرعًا؛ لأنه ممنوع من ذلك. إذن "أنّ الإنسان يملك" هذا لا يُشكِل؛ لأنّ ملك الإنسان ملك ناقص ليس تامًّا ولا مطلقًا.

﴿لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ﴾ استقلالًا، لا يَستقلّ أحدهم بملك شيء.

﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ أي: ما لهؤلاء المعبودات في السموات والأرض من شرك مع الله، فهم لا يملكون مثقال ذرة استقلالًا، ولا يملكون مثقال ذرة مشاركةً.

﴿وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ ما لله من هؤلاء المعبودِين من ظهير ومُعِين على خلقه. والذي يستحق أن يُتقرَّب إليه:

- إما مالكٌ؛ ملكًا مطلقًا تامًّا.

- وإما شريكٌ للمالك.

- وإما مُعِين للمالك.

وهذا انتفى عن الجميع.

ثم جاء: ﴿وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ هؤلاء يَرجون النَّفع من معبوديهم، الذين يتقرّبون إلى أصحاب القبور يرجون من أصحاب القبور النفع، والنفع لا يكون إلا إذا كان مالكًا ملكًا تامًا مطلقًا؛ وهذا منتفي. أو كان شريكًا للمالك؛ وهذا منتفي. أو كان معينًا وظهيرًا للمالك؛ وهذا منتفي. أو بالشفاعة وهذا بحق المشركين منتفي؛ لأنه لا يشفع عند الله عز وجل إلا من أَذِنَ له. فدلّ ذلك على المقصود.

وهذه الآية يقول العلماء: "إنها تقطع جزور الشرك". ولو أنّ هؤلاء الذين يَنذرون لأصحاب القبور، ويذبحون لهم، ويستشفعون بهم، قرأوا القرآن تدبرًا -لا تبرُّكًا كما يقولون- لانحسَم الشرك من نفوسهم؛ ولكنهم قوم يغفلون، وواجبنا نحن أن نُذكِّرهم، والهداية بيد الله سبحانه وتعالى.

[قَالَ أَبُو اَلْعَبَّاسِ: "نَفَى اَللهُ عَمَّا سِوَاهُ كُلَّ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ اَلْمُشْرِكُونَ، فَنَفَى أَنْ يَكُونَ لِغَيْرِهِ مُلْكٌ أَوْ قِسطٌ مِنْهُ، أَوْ يَكُونَ عَوْنًا لِلَّهِ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا اَلشَّفَاعَةُ، فَبَيَّنَ أَنَّهَا لَا تَنْفَعُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ اَلرَّبُّ، كَمَا قَالَ: ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى﴾ فَهَذِهِ اَلشَّفَاعَةُ اَلَّتِي يَظُنُّهَا اَلْمُشْرِكُونَ، هِيَ مُنْتَفِيَةٌ يَوْمَ اَلْقِيَامَةِ، كَمَا نَفَاهَا اَلْقُرْآنُ]

(قَالَ أَبُو اَلْعَبَّاسِ) أي: شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله–، (نَفَى اَللهُ) أي: في هاتين الآيتين المتقدِّمتَين، (عَمَّا سِوَاهُ كُلَّ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ اَلْمُشْرِكُونَ) نفى في الحقيقة كلَّ عُلْقَةٍ، تمامًا، فنفى أن يكون لغيره مُلك -أو مِلك- على وجه الاستقلال، ولو يسيرًا، أو قسطٌ منه بالمشاركة، أو يكون عونًا لله، ولم يبقَ إلا الشفاعة؛ هذا الأمر الرابع، فبيَّن أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب، إذن لن تنفع المشركين، فالشرك لا ينفع صاحبه، ولا يحقق له مقصوده؛ بل يعود عليه بالخلود في النار، والعياذ بالله.

قال: (كَمَا قَالَ تعالى: ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى﴾) فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون: أنّ المعبودات تشفع لعابديها يوم القيامة! هي منتفية يوم القيامة؛ كما نفاها القرآن.

[وَأَخْبَرَ اَلنَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «أَنَّهُ يَأْتِي فَيَسْجُدُ لِرَبِّهِ وَيَحْمَدُهُ -لَا يَبْدَأُ بِالشَّفَاعَةِ أَوَّلاً -ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: اِرْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ»].

هذا في الصحيحين. أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنه لا يَشفع استقلالًا، بل يتذلَّل لله، ويخضع لله عز وجل؛ حتى يأذن له في الشفاعة. فأخبر (أنه يأتي فيسجد لربه ويحمده ، لا يبدأ بالشفاعة أولًا) لأنه لابد من إذن الله سبحانه وتعالى، ثم يقال له: «ارفع رأسك، وقل يسمع، وسل تعط، واشفع تشفع». وهذا في الشفاعتين الخاصَّتَين بالنبي صلى الله عليه وسلم؛ في شفاعته لأهل الموقف بالقضاء، وشفاعته لأهل الجنة بالدخول. هذا الأمر يقع في الشفاعتَين، وهو – كما قلنا–من المقام المحمود.

[وَقَالَ لَهُ أَبُو هُرَيْرَةَ –رضي الله عنه–: (مَنْ أَسْعَدُ اَلنَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ؟ قَالَ: "مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ، خَالِصًا مِنْ قَلْبِه»]

أبو هريرة –رضي الله عنه– سأل النبي صلى الله عليه وسلم: (مَنْ أَسْعَدُ اَلنَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ؟) مَن الذي سيُسعَد بشفاعتك؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (مَن قال لا إله إلا الله خالصًا من قلبه»، وفي رواية: «فإنها نائلة مَن مات من أمتي لا يشرك بالله شيئًا»، فلا ينفع قول لا إله إلا الله باللسان من غير القلب؛ كما يفعل المنافقون. ولا ينفع قولها من غير توحيد؛ كما يفعل بعض المشركين الذين ينتسبون إلى الإسلام، يقول أحدهم: لا إله إلا الله؛ ويذبح للقبر! حتى بعد ما يعلم أنّ الذبح عبادة وأنّ هذا شرك يذهب ويذبح للقبر! هذا ما يدخل في الشفاعة، وإنما الذي يدخل في الشفاعة من قال: «لا إله إلا الله خالصًا من قلبه»، ومن قالها خالصًا من قلبه فإنه لابد أن يكون مؤمنًا. يعني لو أنّ شخصًا قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمدًا رسول الله، ويؤمن بالله عز وجل، ويؤمن بالملائكة، ويؤمن بالكتب، ويؤمن بالقدر، ويؤمن باليوم الآخر، لكنه يشك في الرسل، لا يؤمن بالرسل! هذا ما يدخل في الشفاعة؛ لأنه ليس مؤمنًا؛ بل هو من الكفار.

إذن؛ لابد أن يقول لا إله إلا الله خالصًا من قلبه، وأن يؤمن بأركان الإيمان الستة، فلابد أن يكون موحدًا غير مشركٍ ولا كافر، فالشفاعة لا تنال أحدًا من الكفار ولا المشركين.

[فَتِلْكَ اَلشَّفَاعَةُ لِأَهْلِ اَلْإِخْلَاصِ بِإِذْنِ اَللهِ، وَلَا تَكُونُ لِمَنْ أَشْرَكَ بِاَللهِ]

(لأهل الإخلاص) أي: لأهل التوحيد.

[وَحَقِيقَتُهُ أَنَّ اَللَّهَ سُبْحَانَهُ هُوَ اَلَّذِي يَتَفَضَّلُ عَلَى أَهْلِ اَلْإِخْلَاصِ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ بِوَاسِطَةِ دُعَاءِ مَنْ أَذِنَ لَهُ أَنْ يَشْفَعَ، لِيُكْرِمَهُ، وَيَنَالَ اَلْمَقَامَ اَلْمَحْمُودَ]

نعم؛ هذه حقيقة الشفاعة أنها تفضُّلٌ من الله، ليس حقًّا للشافع ولا المشفوع له، ليست حقًّا وإنما هي تفضُّل من الله سبحانه وتعالى. ثم إنه إذا شفع الشفعاء فإنّ الذي يُخرج الناس من النار هو الله بفضله سبحانه وتعالى، يأمر مَن شاء أن يُخرج مَن شاء، فيأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يُخرج من النار أقوامًا، ويأمر الصالحين الذين إذا أمنوا على أنفسهم قالوا: يا ربنا إخواننا كانوا يصلون معنا ويصومون معنا، يأمرهم أن يدخلوا النار ويُحرِّم أجسادهم على النار ليُخرجوا مَن يعرفون منهم، فخروجهم بفضل الله وليس بِفِعْل الشُّفعاء.

إذن؛ الشفاعة في أوَّلها فضل من الله، وفي ثمرتها فضل من الله سبحانه وتعالى، فلا يُعلَّق القلب فيها إلا بالله سبحانه وتعالى.

[فَالشَّفَاعَةُ اَلَّتِي نَفَاهَا اَلْقُرْآنُ مَا كَانَ فِيهَا شِرْكٌ، وَلِهَذَا أَثْبَتَ اَلشَّفَاعَةَ بِإِذْنِهِ فِي مَوَاضِعَ، وَقَدْ بَيَّنَ اَلنَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم أَنَّهَا لَا تَكُونُ إِلَّا لِأَهْلِ التَّوْحِيدِ والإخلاص"اهـ]

هذا واضح وبيِّن في بيان المراد في الشفاعة المثبتة والشفاعة المنفية.

و هذا في الحقيقة يجلِّي أمر الشفاعة تجلية تامَّة، ولا يبقى إلا شبهات ساقطة حقيقتها: أنّ بعض الناس –ولو انتسب إلى العلم– يقيس الله على المخلوقات، وهذا قياس فاسد ساقط.

ولعل الله يكتب لنا الشرح الموسَّع الذي قلنا أنا –إن شاء الله– سنحدد له وقتًا ونخبركم به، هناك سنعيد شرح الكتاب مع التفصيل، بحيث نبسط الادلة ونبسط الشبه ونرد عليها ونبيّن سقوطها وهكذا.

الدرس الثالث والعشرون: تابع شرح بَابُ اَلشَّفَاعَةِ

شرحنا في كتاب التوحيد، نتأمل في اعظم حق، حق ربنا سبحانه وتعالى، نقرِّره ونبيِّن ما يضاده؛ قيامًا بحق ربنا سبحانه وتعالى، ورحمة بالمسلمين، وبيانًا لهم، فإنّ كثيرًا ممن ينتسبون للإسلام يناقضون التوحيد ويقعون في الشرك وهم لا يعلمون، واليقين عندي أنه ملو علموا لتركوا هذا الأمر الذي وقعوا فيه.

وكنا قد فرغنا من الباب العظيم؛ باب: الشفاعة. وبقيت علينا مسائله، فيتفضل الشيخ ياسين يقرأ لنا.

يقول المصنف رحمه الله: [فِيهِ مَسَائِلُ: اَلْأُولَى: تَفْسِيرُ اَلْآيَاتِ]

الشيخ يذكر المسائل المستفادة من هذا الباب العظيم؛ وقال: المسألة الأولى: تفسير الآيات الواردة في هذا الباب.

[اَلثَّانِيَةُ: صِفَةُ اَلشَّفَاعَةِ اَلْمَنْفِيَّةِ]

كأنه يقول إنّ من الشفاعة: شفاعة منفية، وصفة الشفاعة المنفية قد بيَّنتها الأدلة، وذكرنا صفة هذه الشفاعة المنفية، وقلنا أنها ضُبِطَت بأربعة صور:

الصورة الأولى: الشفاعة لأهل الشرك والكفر. فإنّ هذه الشفاعة منتفية قطعًا.

الصورة الثاني: الشفاعة من غير إذن الله عز وجل. وهذه لا تكون أبدًا.

الصورة الثالثة: الشفاعة من غير أن يرضى الله عز وجل عن الشافع والمشفوع له. وهذه لا تكون أبدًا.

الصورة الرابعة: شفاعة المعبودِين من دون الله لعبّاهم يوم القيامة. وهذه لا تكون أبدًا.

[الثَّالِثَةُ: صِفَةُ اَلشَّفَاعَةِ اَلْمُثْبَتَةِ]

كأنه يقول: إنّ من الشفاعة: شفاعة مثبَتة يوم القيامة، لا شك فيها، هي من اليقين، والإيمان بها من الإيمان باليوم الآخر. فإنّ الإيمان بما جاء في الكتاب والسنة مما يقع في اليوم الآخر من الإيمان باليوم الآخر. والشفاعة المثبَتة: هي الشفاعة التي يتفضَّل الله بها لمَن يأذن له من الشفعاء ويرضى عنه، لمن يرضى عنه من المشفوع لهم.

[اَلرَّابِعَةُ: ذِكْرُ اَلشَّفَاعَةِ اَلْكُبْرَى، وَهِيَ اَلْمَقَامُ اَلْمَحْمُودُ]

ذِكْر الشفاعة الكبرى الخاصة بالنبي صلى الله عليه وسلم وهي المقام المحمود، وذكرنا انّ المقام المحمود فيه شفاعتين: الشفاعة العظمى لأهل الموقف، والشفاعة لأهل الإيمان لدخول الجنة. فهاتان الشفاعتان هما المقام المحمود الذي أعطيه النبي صلى الله عليه وسلم.

[الْخَامِسَةُ: صِفَةُ مَا يَفْعَلُهُ صلى الله عليه وسلم وأَنَّهُ لَا يَبْدَأُ بِالشَّفَاعَةِ، بَلْ يَسْجُدُ، فَإِذَا أُذِنَ لَهُ شَفَعَ]

والمقصود أنّ النبي صلى الله عليه وسلم مع أنّ الله أعطاه الشفاعة، وأَعلمه بذلك، وأعلمنا الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك، وبيَّن لنا كيف تكون يوم القيامة؛ مع ذلك لا يملك هذه الشفاعة إلا بعد أن يأذن الله عز وجل له يوم القيامة، ولذلك يأتي النبي صلى الله عليه وسلم فيَخرّ ساجدًا، ويحمد الله بمحامد عظيمة، ويبقى ساجدًا سجودًا طويلًا؛ حتى يؤذن له، ويقال له: «ارفع رأسك، وسل تعطى، وقل يسمع لك، واشفع تشفع»، وقلنا هذا يقع في شفاعتين من الشفاعات الخاصة بالنبي صلى الله عليه وسلم؛ اللتان هما: المقام المحمود: الشفاعة العظمى، والشفاعة للمؤمنين في دخول الجنة. ويقع أيضًا في موطن ثالث من الشفاعات؛ وهو: شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم لأقوام من أمته قد أُدخلوا النار أن يُخرَجوا منها، وهذا من الشفاعة المشتركة التي ليست خاصة بالنبي صلى الله عليه وسلم.

[اَلسَّادِسَةُ: مَنْ أَسْعَدُ اَلنَّاسِ بِهَا؟]

أسعد الناس بشفاعة النبي صلى الله عليه وسلم هم أهل التوحيد الذين قالوا لا إله إلا الله خالصًا ذلك من قلوبهم، ولابد أيضًا من قوله: أشهد أن محمدًا رسول الله مع شهادة أن لا إله إلا الله، فشهادة أن لا إله إلا الله مقتضية

لشهادة أنّ محمدًا رسول الله صلى اله عليه وسلم، فمَن أتى بالشهادتين خالصًا من قلبه، ولم يأتِ بما ينقضهما، ومات على التوحيد؛ فهو مستحق لشفاعة النبي صلى الله عليه وسلم.

[اَلسَّابِعَةُ: أَنَّهَا لَا تَكُونُ لِمَنْ أَشْرَكَ بِاَللَّهِ]

هي لا تنال إلا من مات من أمة محمد صلى الله عليه وسلم لا يشرك بالله شيئًا.

[اَلثَّامِنَةُ: بَيَانُ حَقِيقَتِهَا]

وأنها تفضُّل من الله، ليست حقًّا لأحد؛ وإنما هي مَحْضُ فضلٍ من الله عز وجل، مَحْضُ فضلٍ على الشافع؛ فإنّ الشافع لا يستحق الشفاعة إلا بفضل الله سبحانه وتعالى، من أجل أن يُظهِر الله إكرامه، ولذلك أعظم مَن ينال الشفاعة يوم القيامة: النبي صلى الله عليه وسلم، وله شفاعات خاصة؛ لأنه أكرم خلق الله صلى الله عليه وسلم. ويتفضَّل الله بها على المشفوع له لينفعه. فهي محض فضل ربنا سبحانه و وتعالى.

تابع الدرس الثالث والعشرون: بَابُ قَوْلِ اَللَّهُ تَعَالَى: (إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ) الآية

[بَابُ قَوْلِ اَللهُ تَعَالَى: (إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ الآية]

هذا الباب يتساءل المتسائل عندما يقرأه: ما علاقته بكتاب التوحيد؟ لماذا ذكره الشيخ في كتاب التوحيد؟ ولماذا ذكره هنا في باب الشفاعة؟ أو بعبارة أخرى: ما علاقة هذه الآية بالتوحيد؟

والجواب: أنّ ذلك لأربعة أوجه:

الوجه الأوّل: أنه لمّا ذَكَرَ الشيخ الشفاعة وبيَّن أنها لا تنفع المشركين؛ أعقب ذلك الباب بهذا الباب؛ ليَدلَّ على أنّ الاستغفار لا يكون للمشركين، ولا ينفع المشركين، وإنما ينفع المؤمنين.

فوجه العلاقة بين الشفاعة وهذا الباب: أنه تبيّن لنا في الباب السابق أنّ الشفاعة لا تكون للمشركين ولا تنفع المشركين؛ وإنما تنفع المؤمنين، فأعقب الشيخ ذلك الباب بهذا الباب ليبيِّن أنّ الاستغفار كذلك؛ لا يكون للمشركين، ولا ينفع المشركين؛ وإنما ينفع المؤمنين.

الوجه الثاني: أنه لمّا تبيَّن لنا في باب الشفاعة أنه لا يملك أحدٌ مهما علا شرفه أن يُنقِذ أحدًا من النار إلا بإذن الله سبحانه وتعالى؛ عَقَدَ الشيخ هذا الباب ليبيّن لنا أنه أيضًا في الدنيا لا يملك أحدٌ أن ينقذ أحدًا من سبب دخول النار – وهو الشرك والضَّلال والمعاصي– إلا بإذن الله سبحانه وتعالى؛ فيتبيّن للمؤمن

أنّ الأمر كلَّه لله؛ فتنقطع العلائق بكل مخلوق، ويعلِّق المؤمن قلبه بالله سبحانه وتعالى الذي له الأمر كلُّه.

الوجه الثالث: بيان أنّ هداية التوفيق لا تكون إلا من الله سبحانه وتعالى، فالتوحيد اعتقاد ذلك وطلبها من الله سبحانه وتعالى، ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الفاتحة: ٦). فمَن اعتقد أنّ أحدًا غير الله يملك هداية التوفيق فقد أشرك بالله الشرك الأكبر. ومَن طلب هداية التوفيق والإذعان من غير الله عز وجل فقد أشرك شركًا أكبر.

وقد أنكر الله عز وجل على المشركين أنهم يعبدون معبوداتهم وهي لا تهدي إلى الحق؛ قال تعالى:﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّيَ إِلاَّ أَن يُهْدَى﴾ (يونس: ٣٥)، فبيَّن الله عز وجل أنّ الذي يهدي إلى الحق هداية التوفيق والإنعام إنما هو الله، وأنّ الذي يستحق أن يُعبَد هو الذي يهدي هداية التوفيق، وأنّ كل مخلوق لا يستطيع أن يهدي أحدًا إلا أن يُهدى فيهدي غيره هداية البيان.

الوجه الرابع: أنّ هذا الباب تضمَّن أنّ النبي صلى الله عليه وسلم مع علوِّ مكانته، ومع كونه سيد ولد آدم، ومع كونه سيد الانبياء والمرسلين، ومع كونه أفضل خلق الله، لا يستحق أن يُصرَف له شيء من العبادة؛ لأنه لا يملك هداية

التوفيق لمَن أحبهم، ولو كانوا من أقربائه. فالنبي صلى الله عليه وسلم لا يملك النفع ولا الضر لأحد إلا بإذن الله، وإذا كان هذا في حق النبي صلى الله عليه وسلم فمِن باب أولى في حق مَن كان دونه من مخلوقات الله سبحانه وتعالى. فلا يوجد مخلوق في الدنيا –ولا وُجِد ولن يوجَد – يستحق أن ندعوه من دون الله، أو أن ننذر له، أو أن نستعيذ به، أو نستغيث به استغاثة العبادة كما تقدَّم معنا، أو نصرف له شيئًا من أنواع العبادة مهما كان صغيرًا.

فهذه الأوجه الأربعة لمناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد، ولمناسبة أن يكون بعد باب الشفاعة.

وبهذا يا إخوة تعرفون فقه علمائنا –رحمهم الله عز وجل–كيف أنهم يفهمون التوحيد فهمًا دقيقًا، فإنّ الناظر –من أمثالنا– لو قرأ هذه الآية ابتداء قد لا يظهر له هذه المناسبات العظيمة للتوحيد. وهذا يدلك يا طالب العلم أنك بحاجة إلى العلماء، لا يوجد طالب علم يستغني عن العلماء، فيقول: أنا الحمد الله تجاوزت القنطرة، الآن آخذ من المَعين؛ من الكتاب والسنة! أنت بحاجة لأهل العلم لتفهم ما في الكتاب والسنة.

والمعلوم أيها الإخوة؛ أنه لا يأخذ من الكتاب والسنة إلا المجتهد فيما لم يَمضِ القول فيه من الأحكام. لا يستنبط من الكتاب والسنة الأحكامَ إلا المجتهد فيما لم يمض القول فيه من الأحكام، أمّا ما بُحِث فيه وانتهى وفرغ منه

العلماء فلا يجوز إحداثُ قولٍ جديد فيه، لكن النازلة الجدية إنما يستنبطها المجتهدون.

ولذلك؛ من خطأ بعض طلاب العلم الذين لم يصلوا إلى مرتبة الاجتهاد ولو الجزئي؛ لأنّ الاجتهاد نوعان:

النوع الأوّل: مطلق؛ في الشريعة كلها.

النوع الثاني: جزئي؛ ولو في مسألة.

بعض طلاب العلم لم يصل إلى درجة الاجتهاد –ولو الجزئي– ومع ذلك إذا نزلت نازلة في بلده –لو وقعتْ في زمن الصحابة لاجتمع لها كبار الصحابة– يبادر بالفتوى فيها!

ولذلك؛ مما يحزن قلبي جدًّا أني أجد بعض طلاب العلم الذين لم يصلوا إلى درجة الاجتهاد يقينًا يفتون المسلمين في بلدانهم في الدماء وفي أمور عظيمة ينبغي أن يجتمع لها المجتهدون! وهذا لا يجوز، مهما تكالب الناس عليك، ومهما أصبح الناس يتصلون بك ويسألونك لما عندك من العلم؛ لا يجوز لك أن تَعلوَ قدرك، لا يجوز لك أن ترتفع فوق قدرك.

المسائل الكبيرة العظيمة التي تؤثر في الأمة تأثيرًا عظيمًا إنما يُرجَع فيها إلى العلماء الكبار، والواجب أن يُرجِع طالب العلم فيها الناسَ إلى العلماء الكبار، وألّا يتكبَّر ويقول: لماذا لا أشارك أنا؟ أنا أفهم، أنا عرف، أنا أدلي بدلوي! لا يا

عبد الله! هذا دين الله، هذا مبني على الهدى وعلى ما دل عليه الكتاب والسنة، والمرجِع في بيان هذه النوازل إلى العلماء الكبار، إلى أهل الاجتهاد الذين تأهلوا في هذه المسائل.

وأنا أحسِب أنّ كثيرًا من الشر العام الذي يقع بين المسلمين اليوم سببه تقدُّم الصغار على الكبار. ولذلك نجد شبابًا صغارًا في سنهم، صغارًا في عقولهم؛ يقدِّمون ويؤخِّرون في الشؤون العامة للأمّة، ويكتبون التغريدات، والبينات، يسوِّدون صحف الفيس بوك وغيرها ببيانات يتزعَّمون فيها؛ وهم لا زالوا صغارًا في سنهم، صغارًا في عقولهم، صغارًا في علمهم، هذا سبب الشر وسبب الداء وسبب البلاء، إذا لم نربِّ طلابنا، إذا لم نربِّ أنفسنا قبل طلابنا على الرجوع إلى العلماء الكبار، وأن نعرف قدرنا، وأن يعرف كل واحد قدره ومقامه الذي يتكلم فيه، وأن نعرف لمَن سبقنا فضله وجهاده وقدره وعلمه، يأتي اليوم شاب ما تجاوز الثلاثين وما عرف التديُّن إلا قبل سنتين أو ثلاث سنين، ثم يتكلم عن شيخ ربما كان يدعو إلى التوحيد والسنة ومنهج السلف الصالح –رضوان الله عليهم– قبل أن يولَد هذا الشاب ويقول: نقول لزميلنا وأخينا، وننصح أخانا، وينبغي على أخينا، ونحو ذلك! ما تَعلَموا الأدب، ما عُلِّموا الادب.

ينبغي أيها الأخوة أن نعلِّم أنفسنا قبل غيرنا الأدب الشرعي، والأدب مع العلماء الكبار، وأن نعلِّم طلابنا هذا الأمر.

يا أخي! أنت بحاجة إلى العلماء، ولو أُعطيتَ كرسيًا في المسجد النبويِّ تُدرِّس فيه، أنت بحاجة إلى العلماء، ولو أصبحتَ أستاذًا في الجامعة أنتَ بحاجة إلى العلماء، لا يزال الواحد منّا بحاجة إلى علماء الحق، إلى العلماء الربانيِّين، إلى علماء السنة، ما دام حيًّا، نسأل الله أن يكرمنا وإياكم بالأدب والعلم.

ما أنواع الهداية؟ هداية الله لخلقه –كما قرَّره العلماء–ثلاثة أقسام:

القسم الأوّل: هداية المخلوقات العامة إلى ما ينفعها في معايشها. فالله عز وجل خلق الخلق، وهدى كلَّ مخلوق إلى ما يُصلحه في معيشته مما يأكل ويَترك، كيفيَّة الأكل، كيفيَّة التناسل، وغير ذلك؛ قال الله عز وجل: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)، **قال بعض أهل العلم**: أنّ ربنا سبحانه وتعالى هو الذي سوَّى خَلْق مخلوقاته، فخَلَقَ من المخلوقات مَن يمشي على رجلين، ومنها مَن يمشي على أربع، ومنها مَن يطير، ومنها مَن يزحف، والله عز وجل يخلق ما يشاء ويختار سبحانه وتعالى. فأعطى كل شيء خلقه، ثم هداه لِمَا يُصلحه في معيشته، فهدى الإنسان إلى ما يليق به في المعيشة، وهدى النحل إلى

ما يليق بها في المعيشة، وهدى الدواب كلها إلى ما يصلحها في المعيشة، فهذه هداية عامة للمخلوقات في الدنيا.

وقال بعض أهل العلم في معنى هذه الآية: أنّ الله عز وجل أعطى كلَّ ذَكَرٍ من الخلق نظيره في الخِلْقَةِ أنثى، ثم هداهما إلى طريق التناسل؛ ليبقى النوع.

وهذا المعنى لا ينافي الاوّل؛ بل هذا خاص، والاوّل عام، وهذا –كما يقول العلماء– اختلاف تنوُّع، وليس اختلاف تضاد، فالثاني نرجعه إلى الأوّل لأنّ الأوّل عام.

القسم الثاني: الهداية إلى الدِّين في الدنيا. وهي على نوعين:

النوع الأوّل: هداية التوفيق والإذعان. أن يهدي الله قلب الرجل أو الأنثى للحق، وأن يُذعِن له، هذه الهداية لا يملكها أحدٌ من المخلوقات مهما كان شريف المقام.

ولذا؛ لم يهدِ إبراهيم عليه السلام أباه آزر، ولم يهدِ نوح عليه السلام ابنه، ولم يهدِ محمد صلى الله عليه وسلم عمَّه أبا طالب، ولا عمَّه أبا لهب. فهذه الهداية لا يملكها إلا الله سبحانه وتعالى.

ولذا؛ لا تعجب من أن تجد رجلًا يعيش في بلد التوحيد، يسمع أدلة التوحيد ليلًا ونهارًا؛ ويبقى على شركه، والعياذ بالله. بل قد يجلس في الحلقة في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم، ويسمع أدلة التوحيد الدامغة؛ ويبقى قلبُه

معلَّقًا بغير الله؛ يدعو غير الله، وينذر لغير الله، ويستحقر التوحيد وأهله. بينما قد تجد رجلًا في أمريكا أو في أوربا يُسلِم ولا يبقى أيامًا حتى يهتدي للتوحيد الخالص، ويكره الشرك. لأنّ هداية التوفيق والإذعان إنما هي من الله عز وجل، فالله يهدي من يشاء كما سيأتينا في تفسير الآية.

النوع الثاني: هداية البيان. وهذه تكون من المخلوقين بإذن الله عز وجل. فالله هو الذي يهدي في الحقيقة، ويأذن لمن يشاء بأن يهدي هداية البيان. وهذه الهداية فضل من الله أيضًا، لولا الله ما اهتدى مَن دعا إلى الهداية. فهذه الهداية بإذن الله عز وجل. وهي تقع من الأنبياء، وتقع من العلماء، فإنهم يَهدون هداية البيان، ولهذا قال الله عز وجل: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الشورى: ٥٢)، وهذه غير الهداية المنفية، هذه الهداية المثبتة؛ هداية البيان والإرشاد.

القسم الثالث من هداية الله لخَلْقه: هداية الذين آمنوا إلى الجنة وإلى منازلهم فيها. أسأل الله عز وجل أن يجعلني وإياكم منها. الله عز وجل يوم القيامة يهدي المؤمنين إلى الجنة، وإذا دخلوا الجنة كلٌّ يُهدى إلى منزله؛ كأنه منزله الذي كان يعيش فيه في الدنيا؛ يذهب إليه ولا يُخطئه. الله عز وجل هو الذي يهدي المؤمنين، ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ (يونس: ٩)، فالله عز وجل

هو الذي يهديهم إلى الجنة، ويهديهم إلى منازلهم. أسأل الله أن يجعلني وإياكم ووالدينا وأهلنا ومن نحب ممن يهديهم الله عز وجل إلى الجنة.

قوله: (بَابُ قَوْلِ اَللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِ﴾) في هذه الآية العظيمة يقول الله عز وجل لخير خلقه محمد صلى الله عليه وسلم: إنك يا محمد لا تهدي من أحببتَ هداية التوفيق والإذعان.

﴿مَن أحببتَ﴾: للعلماء قولان فيها:

القول الأوّل: مَن أحببتَ هدايتَه.

القول الثاني: مَن أحببتَه. ولكن كيف يحبُّه وهو كافر؟! المقصود: مَن أحببته حبًّا طبعيًّا؛ لا شرعيًّا، أي: الحب الفطري الموجود في طبيعة الإنسان. فالإنسان بطبيعته يحب ابنه، ولو أذاه، ولو عقَّه.

وضابط الحب الطَبعي: أنّ الإنسان لا يكتسبه، ولا يطلبه، ولا يفعل مقدماته، لكن يوجَد في القلب، وهذا لا يؤاخَذ عليه به الإنسان. لو أحب الإنسان والده المشرك حب الابن لأبيه مع بغضه له من أجل شركه؛ لا يؤاخذ به.

قوله: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ أي: أحببتَه حبًّا طبعيًّا لا شرعيًّا. والمقصود هنا هو: أبا طالب، كما سيأتينا إن شاء الله؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان حريصًا على هدايته.

﴿ولكن الله يهدي من يشاء﴾ فبيَّن الله عز وجل أنّ الهداية له سبحانه وتعالى، الهداية من الله، وهو يهدي من يشاء. فهداية التوفيق تفضُّل من الله، هداك الله إلى الإسلام؛ لا تغتر بنفسك، هذا فضلٌ من الله ونعمة. هداك الله إلى التوحيد؛ لا تغتر بنفسك، هذا فضلٌ من الله ونعمة. هداك الله إلى حب السلف الحب الصادق وإلى لزوم منهج السلف وطريق السلف؛ لا تغتر بنفسك، هذا فضل من الله ونعمة، ما نلته لشرفك، وما نلته لاجتهادك، وإنما هو فضل الله سبحانه وتعالى.

قوله: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِين﴾ فمع كون الهداية فضلًا من الله؛ فإنها تكون بعلم الله وحكمته، فالله يهدي مَن عَلِمَ أنه مستحق للهداية وأهلٌ للهداية. ويهدي مَن شاء بحكمة؛ فمَن اهتدى فبفضل الله اهتدى، وهداه الله بعلمه وحكمته. ومَن ضلَّ؛ فإنما يَضلُّ على نفسه، وأضلَّه الله بعدله وعلمه وحكمته. فالشر ليس إلى الله سبحانه وتعالى.

وهذا وقع للمؤمنين، فالله عز وجل هو الذي حبَّب الإيمان إلى المؤمنين، وزينه في قلوبهم، ولذلك خَلْقٌ كثير سمعوا النبي صلى الله عليه وسلم يدعو إلى

الله؛ آمن بعضهم، وكفر بعضهم، وهم عرب يفهمون كلام النبي صلى الله عليه وسلم فهمًا دقيقًا؛ كأبي طالب، وأبي لهب، وآمن مَن شاء الله أن يؤمن؛ لأنّ الله حبَّب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم، ﴿وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧) فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَنِعْمَةً وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (الحجرات: ٧– ٨).

فهذه الهداية؛ حبكم للإيمان، حبكم للتوحيد، حبكم للسنة، حبكم لمنهج السلف الصالح رضوان الله عليهم؛ إنما هو فضل من الله ونعمة عليكم.

ولهذا يا إخوة! الذي يُهدى لهذا حقًّا لا يغتر بنفسه، ولا يتكبَّر على خلق الله، بل تجده دائمًا خائفًا وَجِلًا؛ لأنه يعلم أنّ القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلّبها كيف يشاء، كيف لا يخاف وهو يرى الناس يتخبطون؟! كم من شخص كان معنا، كم من شخص كان داعية مشهور للتوحيد، أصبح من غلاة الصوفية، ومن دعاة التصوف الغالي! ولو شئتُ أن أذكر اسمه لذكرتُه. فالإنسان يخاف ويسأل الله الثبات، ولا يتكبر على خلق الله أبدًا، ولا يَتَأَلَّى على الله ويرفع هذا ويخفض هذا، ولكن يذكر الظاهر غير مَتَأَلٍّ على الله عز وجل، والله عليم حكيم.

إذن؛ الذي وقع للمؤمنين؛ أنّ الله حبب الإيمان إليهم، وزينة في قلوبهم، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان، وهذا فضلٌ منه ونعمة ورحمة، وهذا بعلمه وحكمته.

افهموا هذا أيها الإخوة، هذه أصول الهداية عند أهل السنة والجماعة؛ جُمِعَت في هذه الآية.

وهذا الآية كنز في التوحيد؛ لأنّ الله عز وجل يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ إذن النبي صلى الله عليه وسلم لا يملك لأحد ضرًّا ولا نفعًا إلا بإذن الله؛ لأنّ أعظم نفع في الدنيا من مخلوق لمخلوق هو الهداية، ولا يملكه المخلوق، وإنما الهداية من الله عز وجل، إذن النبي صلى الله عليه وسلم لا يملك أعظم نفع وهو هداية التوفيق، فمن باب أولى لا يملك ما دون ذلك. وإذا كان هذا للنبي صلى الله عليه وسلم سيد ولد آدم أجمعين، أفضل خلق الله، قرة عيون المؤمنين، لا يعتقد مؤمن أنّ هناك عابدًا لله أعظم من رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذا كان هذا له فما بالك بغيره من الناس؟! لا يملكون نفعًا ولا ضرًّا إلا بإذن الله، ولذلك لا يُطلب النفع إلا من الله، ولا يُطلب دفع الضر إلا من الله سبحانه وتعالى.

ثم قال الله: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِ﴾؛ إذن النبي صلى الله عليه وسلم لا يعلم بالمهتدين، إذن النبي صلى الله عليه وسلم لا يعلم الغيب؛ لأنه لا يعلم

بالمهتدين؛ لا يعلم مَن الذي سيهتدي ومن الذي لن يهتدي. ولذلك إلى أن مات عمُّه أبو طالب هو يدعوه، ما يعلم أنه سيموت على الشرك، ثم قال له: «لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ»؛ يعني حتى الأمور الشرعية ما يعلمها النبي صلى الله عليه وسلم حتى يُعلِمه الله؛ ولذلك قال: «لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ»، ما نُهِي عن الاستغفار للمشركين إذ ذاك، وما درى أنه سيُنهى، لكن قال: «لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ»، حتى نُهي عن ذلك. إذن النبي صلى الله عليه وسلم وهو شريف المقام ما كان يعلم شيئًا من الغيب إلا أن يطلعه الله سبحانه وتعالى، فيَدلُّنا ذلك دلالة بيِّنة على أنه لا يوجد مخلوق –ولن يوجد– مَن يستحق أن يُصرَف له شيء من العبادة، وإنما العبادة كلها صغيرها وكبيرها لربنا سبحانه وتعالى.

[وَفِي اَلصَّحِيحِ: عَنْ اِبْنِ اَلْمُسَيَّبِ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: (لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ اَلْوَفَاةُ، جَاءَهُ رَسُولُ اَللهِ صلى الله عليه وسلم، وَعِنْدَهُ عَبْدُ اَللهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ وَأَبُو جَهْلٍ، فَقَالَ لَهُ: يَا عَمِّ قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اَللهُ كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اَللهِ، فَقَالَا لَهُ: أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ اَلْمُطَّلِبِ؟ فأعادا، فَأَعَادَ عَلَيْهِ اَلنَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم فَأَعَادَا، فَكَانَ آخَرَ مَا قَالَ: هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ اَلْمُطَّلِبِ، وَأَبَى أَنْ يَقُولَ لَا إِلَهَ إِلَّا اَللهُ. فَقَالَ اَلنَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ»، فَأَنْزَلَ اَللهُ عز وجل: ﴿مَا

كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ وَأَنْزَلَ اَللهُ فِي أَبِي طَالِبٍ: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾]

(فِي اَلصَّحِيحِ) أي: عند البخار ي ومسلم، فهذا الحديث في الصحيحين.

(عَنْ اِبْنِ اَلْمُسَيَّبِ) أو المسيِّب؛ بالفتح والكسر، والفتح أشهر عند المحدثين، ويُذكَر عن ابن المسيَّب أنه قال: "مَن سيَّبني" أي قال: المسيَّب " سيَّبه الله"، أي أنه كان يكره هذا، وإنما يقال: المسيِّب؛ أي أنه هو الفاعل، لكنّ المشهور عند المحدثين أنها تضبَط بالفتح: المسيَّب.

(عَنْ أَبِيهِ) وقد كان صحابيًا (قَالَ: لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الوفاة) أبو طالب هو الذي ربى النبي صلى الله عليه وسلم بعد جده، واعتنى به، وكان يحبه أكثر من ولده. فلمّا بُعِثَ النبي صلى اله عليه وسلم وكذّبه قومه، ناصره أبو طالب مناصرة شديدة، ووقف في صفِّه، وقال:

والله لن يَصِلوا إليكَ بجمْعِهِم حتى أُوَسَّد في الترابِ قتيلًا

يعني قال: والله لو اجتمعوا على أن يقاتلوك لن يصلوا إليك بجمع بل سأقاتل دونك ما دمتُ حيًّا، وأُذي بسبب نصرته للنبي صلى الله عليه وسلم، ودخل الشِّعب معه لمّا قاطعته قريش، أبو طالب له أيادٍ بيضاء على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولذا كان النبي صلى الله عليه وسلم حريصًا على أن يدعوَه إلى التوحيد.

(لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ اَلْوَفَاةُ) أي: ظهرت علامتها؛ من ضعفه، ونحو ذلك، لا أنه قد عاين وغرغر؛ لأنّ مَن عاين وغرغر لا ينفعه إيمانه. فرعون لمّا رأى الغرق وكاد أن يغرق قال: ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ قيل له: ﴿آلآنَ﴾ أي: إذا حصلت الغرغرة والمعاينة انقطع التكليف؛ فلا توبة إذ ذاك. ولذلك؛ قال العلماء: معنى (لمّا حضرتِ أبي طالب الوفاة) يعني ظهرت العلامات، وكان مريضًا.

(جَاءَهُ رَسُولُ اَللهِ صلى الله عليه وسلم) أخذ العلماء من هذا: أنه يجوز للمسلم أن يعود الكافر غير الحربي؛ ولاسيما إذا رجا أن يسلم، أو أن يدعوه إلى الإسلام، أو أن يرى أخلاق المسلمين فيُسلم. لو أنّ لك جارًا نصرانيًّا أو يهوديًّا، غير حربيّ، ما يقاتل المسلمين، من المعاهدين، أو كنتَ عنده في بلادهم، ومَرِضَ، يجوز أن تزوره؛ بنيَّة أن تُظهر له أخلاق الإسلام، بنيَّة أن تدعوه إلى الإسلام، لعله أن يُسلم، لا سيما والإنسان عند المرض يَضعف ويَلين.

(جَاءَهُ رَسُولُ اَللهِ صلى الله عليه وسلم، وَعِنْدَهُ عَبْدُ اَللهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّة) وقد كان إذ ذاك كافرًا، وهذا في السنة الثامنة تقريبًا من البعثة، وأسلم في عام الفتح. (وَأَبُو جَهْلٍ) وقد مات مشركًا. ولذلك قال العلماء: شَهِدَ هذه القصة ثلاثة؛ اثنان أسلما، وواحد مات. عرفنا أنّ الذي مات على الشرك هو أبو جهل، وأنّ أحد

المسلمَين هو: عبد الله ابن أمية، فمن الثالث؟ قالوا: ابن المسيب؛ لأنّ الظاهر من حكايته للقصة أنه حضر القصة.

(فَقَالَ لَهُ) أي الرسول صلى الله عليه وسلم لعمِّه، « يَا عَمِّ!» ويصح أن يقول: يا عماه.«قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ»، هنا النبي صلى الله عليه وسلم قال له: « قل: لا إله إلا الله» بينما نجد فقهاءنا وعلماءنا يقولون: من أدب التلقين ألّا تقول للميت عند الاحتضار: قل؛ لأنه شديد التضجر فقد يقول لك: اسكت لن أقول! فيقال: من أدب التلقين عند الاحتضار أن تذكِّره لا إله إلا الله بلِين من غير أن تُضْجِرَه؛ ومن ذلك ألا تقول له: قل، فتقول: لا إله إلا الله أنتَ بنفسِك أو نحو ذلك، طيِّب هنا النبي صلى الله عليه وسلم قال له قل: لا إله إلا الله! قالوا: لأنه كان مشركًا، والتلقين المقصود منه تلقين الموحِّد أصلًا، فهذا خطاب للمشركين، هذه دعوة إلى التوحيد هنا، وليست تلقينًا.

«قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ كَلِمَةً» أو كلمةٌ. "كلمةً" على أنها بدل من لا إله إلا الله، فهي منصوبة. و"كلمةٌ" على أنها مبتدأ؛ قل: لا إله إلا الله، كلمةٌ أحاجُّ لك بها عند الله، فكلمةٌ: مبتدأ، وما بعدها خبر. «أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اَللَّهِ. فَقَالَا لَهُ أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ اَلْمُطَّلِبِ؟» لمّا خافا أن يُسلِم ويؤثِّر هذا في الناس؛ ذكَّراه بأمرٍ؛ ألا وهو: الاعتزاز بما كان عليه الأسلاف؛ قالا: (أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ اَلْمُطَّلِبِ؟)، وهذ ا يا إخوة حجة عند أهل الضَّلال دائمًا للوقوف في وجه الحق، إذا جاء

داعية توحيد إلى البلد وقال للناس التوحيد بالكتاب والسنة والبرهان؛ قام دعاة الباطل وقالوا: أترغبون عما كان عليه أباءكم وأجدادكم؟ يعني آباؤكم وأجدادكم في النار؟! أنتم إذا قلتم أنّ هذا توحيد وذلك شرك ذلك يعني أنكم تقولون: إنّ أباءكم وأجدادكم يكونون في النار، كيف هذا؟! أترغبون عما كان عليه الآباء؟! هذا النذر للقبور عادة سنوية ورثناها عن آبائنا وأجدادنا. هي الحجة هي الحجة!!

(أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ اَلْمُطَّلِبِ) وهذا دليل على أنّ عبد المطلب كان على الشرك ومات على الشرك، خلافًا لما يزعمه بعضهم من أنه أسلم، ويزعمون يقولون: ما من أحد من نسب النبي صلى الله عليه وسلم إلا وقد أسلم! وهذا باطل، ولهذا قالا له: (أترغب عن ملة عبد المطلب؟!) ولو كان عبد المطلب قد أسلم لقال له النبي صلى الله عليه وسلم: عبد المطلب مات على الإسلام فكن مثله. فدل ذلك على أنّ عبد المطلب كان على الشرك ومات على الشرك.

(فَأَعَادَ عَلَيْهِ اَلنَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم) أي اعاد عليه: «قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله»، (فَأَعَادَا) أي: قالا له: أترغب عن ملة عبد المطلب؟! (فَكَانَ آخَرَ مَا قَالَ: هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ اَلْمُطَّلِبِ، وَأَبَى أَنْ يَقُولَ لَا إِلَهَ إِلَّا اَللهُ) غيَّر الراوي كلمة (أنا) بضمير الغائب؛ لأنّ أبا طالب لم يقل: هو على ملة عبد المطلب، بل قال –عياذًا بالله–: أنا على ملة عبد المطلب، فالراوي غيَّر

فقال: "فكان آخر ما قال: هو"؛ استقباحًا لأنْ يقول "أنا" في هذه المقولة القبيحة، ولو كان ذلك على سبيل النقل عن غيره.

ولذلك؛ يذكر الفقهاء أنّ من أدب العلم: أنك إذا نقلتَ مقولة قبيحة أو مقولة مكروهة ألّا تنسبها لنفسك؛ ولو كنت حاكيًا عن غيرك، فتقول: قال هو. ولذلك –مثلًا– إذا كنتَ تشرح في الطلاق والمثال يقتضي أن تقول: قال: زوجتي طالق. قالوا: إما أن تقول: (قال هو –وبئس ما قال–: كذا)، أو تقول: (قال هو: زوجته طالق)، ولا تأتي بضمير المتكلم. هذا ليس واجبًا، لكن يقولون أنه من أدب العلم. ومما سمعتُه من بعض مشايخي: أنه يخشى على لسان العالم والشيخ والطالب أن يتعوَّد على هذه الكلمة؛ فتسبق إلى لسانه عند الغضب مع زوجته.

(وَأَبَى أَنْ يَقُولَ لَا إِلَهَ إِلَّا اَللهُ) فمات على الشرك، (فَقَالَ اَلنَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: "لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ)، وفي رواية: قال: (أما والله! لأستغفرنّ لك) ليؤكِّد هذا، وهذا يدلّ على ما قدمناه وهو أنّ حبيبنا ونبينا صلى الله عليه وسلم وحبيبنا ما كان يعلم الغيب إلا ما علَّمه الله، حتى في أمور الشرع، ولذلك قال: «لأستغفرن لك ما لم أُنْهَ عنك».

(فَأَنْزَلَ اَللهُ عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾) وهذه الآية على الصحيح تعددت أسباب نزولها:

فمنها: هذا المذكور هنا، فإذا كان هذا سببًا لنزولها، فهذه الآية يا إخوة من سورة التوبة، وسورة التوبة مدنية، والقصة مكية، إذن تأخّرت الآية عن سبب نزولها، وهذا لا غرابة فيه.

من أسباب نزولها: ما جاء عن علي –رضي الله عنه– قال: سمعتُ رجلًا يستغفر لأبويه وهما مشركان، فقلتُ له: أتستغفر لأبويك وهما مشركان؟! فقال: أو ليس استغفر إبراهيم لأبيه وهو مشرك؟! يعني قال: إبراهيم عليه السلام استغفر لأبيه وهو مشرك فأنا استغفر لأبويّ وهما مشركان. قال علي –رضي الله عنه–: فذكرتُ ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم؛ فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية. وهذا رواه الترمذي، وحسنه الترمذي والألباني.

– **وبعض أهل العلم يذكر سببًا ثالثًا**: وهو أنّ النبي صلى الله عليه وسلم استأذن ربه أن يزور قبر أمه، فأذن له، واستأذن ربه أن يستغفر لها فلم يأذن له، فأنزل الله هذه الآية: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾، لكنّ الرواية التي فيها الآية ضعيفة، نعم القصة صحيحة؛ هي في صحيح مسلم: «أنّ النبي صلى الله عليه وسلم استأذن ربه أن يزور قبر أمه فأذن له فزاها» زار القبر «واستأذن ربه أن يستغفر لها فلم يؤذن له صلى الله عليه وسلم».

فهذه الآية تعددت أسباب نزولها، ودلالتها ظاهرة: في أنّ الاستغفار لا ينفع المشركين، ولا ينبغي أن يكون للمشركين، فإنّ المشركين في الدنيا ليسوا أهلًا للمغفرة، فمن مات على الشرك ليس أهلًا أن يغفر الله عز وجل له، كما أنه ليس أهلًا للشفاعة يوم القيامة.

(وأَنْزَلَ اَللَّهُ فِي أَبِي طَالِبٍ: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ فدل ذلك دلالة ظاهرة على ما قررناه من عظم التوحيد وفضله وقطع العلائق بالخلائق، وأنّ الواجب على المؤمن أن يعلِّق قلبه بالله عز وجل، وأن يسأل الهدية من الله سبحانه وتعالى.

[فيه مَسَائِلُ: اَلْأُولَى: تَفْسِيرُ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ الآية]

وقد سمعتم معناها، ودلالاتها العظيمة على التوحيد.

[الثَّانِيَةُ: تَفْسِيرُ قَوْلِهِ: (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية]

كما تقدّم.

[اَلثَّالِثَةُ: وَهِيَ اَلْمَسْأَلَةُ، اَلْكَبِيرَةُ، تَفْسِيرُ قَوْلِهِ صلى الله عليه وسلم: (قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ) بِخِلَافِ مَا عَلَيْهِ مَنْ يَدَّعِي اَلْعِلْمَ]

(تَفْسِيرُ قَوْلِهِ صلى الله عليه وسلم: (قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ» أي أنه لا معبود بحق إلا الله. بخلاف ما يفسرها به بعض مَن يدَّعون العلم؛ بأن معناها: لا خالق ولا

رازق ولا موجِد إلا الله، أو نحو ذلك. فإنّ المشركين عَلِموا معناها؛ ولذلك أنكروا على النبي صلى الله عليه وسلم أن يدعو إليها، وفهموا من قوله: (قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا) أنه يجعل الآلهة إلاهًا واحدًا، فيجعل المعبود واحدًا. وهذا الذي فهمه أبو جهل هنا أنه يدعوه للتوحيد، ولذلك قال: أترغب عن ملة عبد المطلب؟! مع أنه معلوم أنّ عبد المطلب –كالمشركين جميعًا– يقرُّ أنّ الخالق هو الله، وأنّ الرزاق هو الله، وأنّ الناصر هو الله، ولذلك لمّا جاء جيش أبرهة ليهدم الكعبة، تعلَّقوا بالكعبة ودعوا الله عز وجل؛ لأنهم يعلمون أنّ الناصر هو الله سبحانه وتعالى، وإنما لم يأتوا بلا إله إلا الله، وهي: الإقرار واليقين والعمل بأنه لا معبود بحق إلا الله سبحانه وتعالى.

[اَلرَّابِعَةُ: أَنَّ أَبَا جَهْلٍ وَمَنْ مَعَهُ يَعْرِفُونَ مُرَادَ اَلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم إِذَا قَالَ لِلرَّجُلِ قُلْ: (لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ)؛ فَقَبَّحَ اَللَّهُ مَنْ أَبُو جَهْلٍ أَعْلَمُ مِنْهُ بِأَصْلِ اَلْإِسْلَامِ]

للأسف؛ أنّ بعض مَن ينتسبون إلى الإسلام لا يعرفون لا إله إلا الله كما عرفها المشركون، ولذلك يقول: لا إله إلا الله؛ ويشركون بالله! يقول: لا إله إلا الله؛ وينذر لأصحاب القبور! لأنهم ما عرفوا معناها، بينما المشركون الذين دعاهم النبي صلى الله عليه وسلم بها كانوا يعرفون معناها.

[اَلْخَامِسَةُ: جِدُّهُ صلى الله عليه وسلم وَمُبَالَغَتُهُ فِي إِسْلَامِ عَمِّهِ]

كما هو ظاهر.

[اَلسَّادِسَةُ: اَلرَّدُّ عَلَى مَنْ زَعَمَ إِسْلَامَ عَبْدِ اَلْمُطَّلِبِ وَأَسْلَافِهِ]

كما قلنا لكم.

[اَلسَّابِعَةُ: كَوْنُهُ صلى الله عليه وسلم اِسْتَغْفَرَ لَهُ فَلَمْ يَغْفِرْ لَهُ، بَلْ نُهِيَ عَنْ ذَلِكَ]

وهذا يدلُّ على أنّ النبي صلى الله عليه وسلم ليس له من الأمر شيء إلا ما أذن الله به. فها هو قبل أن يُنهى قد استغفر لعمه؛ أي: دعا له بالمغفرة؛ فلم يغفر الله لعمه. ولكن –كما تقدم معنا– سيشفع لعمه يوم القيامة بإذن الله ليخفَّف عنه العذاب لا ليُخرج من النار، وهذا يدل على أنّ الأمر كله لله.

[اَلثَّامِنَةُ: مَضَرَّةُ أَصْحَابِ اَلسُّوءِ عَلَى اَلْإِنْسَانِ]

وهذا ظاهر، فأبو جهل حال بين أبي طالب والإسلام؛ بتذكيره بنعرة الجاهلية.

[اَلتَّاسِعَةُ: مَضَرَّةُ تَعْظِيمِ اَلْأَسْلَافِ وَالْأَكَابِرِ]

وهذه حجة الشيطان على الناس يوحيها إلى أوليائه، إذا جئتَ تدعو الناس إلى شيء قالوا: نحن عشنا ستين سنة سبعين سنة ونحن على هذا، وتريد الآن تعلمنا وأنت ابن أمس؟! ويأتي دعاة الضَّلال ويقولون: ديننا! دين بلدنا! لا تأخذوا بالدين المستورَد من السعودية! سبحان الله عنصرية حتى في الدين! جعلوا لدين الله حدودًا وجنسية، ما بقي إلا أن يكتبوا في الجواز مسلم إسلام

مصري، مسلم إسلام جزائري، مسلم إسلام سعودي، أعوذ بالله! لكن هذه دعاوى الشياطين، يقولون: هذا النقاب الذي تتنقب به النساء وتحتشم به وتصبح في غاية العفة ما شاء الله، قالوا: هذا ليس من عاداتنا ولا من عادات آبائنا ولا أمهاتنا هذا أتى به المغتربون من السعودية! سبحان الله! وللأسف يقول هذا بعض من يُنسَبون إلى العلم من رجال ونساء، ومع أنهم يعلمون أنهم كاذبون وأنّ الصور الفتوغرافية الحديثة الموجودة –وليست القديمة– تُثبت أنّ النساء في هذا البلد كنّ يتنقبن قبل الاستخراب، وتأتي المرأة متجردة متعرية ترقص ويقولون: الفن النبيل! هذا شيء روحي! والمرأة تتنقب فيقولون: هذا مستورد، هذا ما نعرفه عند آبائنا، أمهاتنا ما كن يفعلن هذا! واحد منهم –والعياذ بالله– يقول: أمي كانت تنشر الغسيل في الشرفة بلباس البيت الرقيق، ما عرفنا هذا النقاب إلا لما جاءنا المغتربون من السعودية! أعوذ بالله كيف يتسلط الشياطين على الإنس ليمنعوهم عن الحق؟ ما يوجَد حجة تقابل الحجة؛ وإنما هي دعاوى شيطانية.

وكما قلتُ لكم يا إخوة؛ أكبر حجة يواجَه بها دعاة التوحيد في أكثر بلدان المسلمين: لم يكن آباؤنا على ما تقولون.

هذا الباب باب أن هداية التوفيق والإذعان إنما هي من الله عز وجل وأن طلبها من الله توحيد، واعتقاد أن مخلوقًا من المخلوقات يملكها أو طلب هذا من المخلوق فهذا من الشرك الأكبر، هذا الأمر أعني أن اعتقاد أن احدًا من

المخلوقات يملكون هداية التوفيق وأنها تطلب منه وقع فيه بعض الغلاة ممن ينتسبون إلى الإسلام فهناك غلاة في شيوخهم ومن يسمونهم بالأولياء، أو يسمونهم بالأقطاب فيعتقدون فيهم أنهم يعلمون الغيوب، وأنهم يهدون القلوب، وأنهم يغفرن الذنوب، وأنهم يفرجون الكروب، فما تركوا شيئًا لله إلا وجعلوه لغير الله.

[اَلْعَاشِرَةُ: اَلشُّبْهَةُ لِلْمُبْطِلِينَ فِي ذَلِكَ، لِاسْتِدْلَالِ أَبِي جَهْلٍ بِذَلِكَ. الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: اَلشَّاهِدُ لِكَوْنِ اَلْأَعْمَالِ بِالْخَوَاتِيمِ، لِأَنَّهُ لَوْ قَالَهَا نَفَعَتْهُ]

ولذلك الإنسان لا ييأس من أحد ولا يأمن على نفسه الفتنة. لا ييأس من أحد بل يدعوه ما دام على الحياة، والعبرة بالخواتيم، قد يعيش الإنسان على الكفر والشرك ثم يشاء الله فختم له بالتوحيد والإسلام، ولا يأمن الإنسان على نفسه الفتنة.

[اَلثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: اَلتَّأَمُّلُ فِي كِبَرِ هَذِهِ اَلشُّبْهَةِ فِي قُلُوبِ اَلضَّالِّينَ، لِأَنَّ فِي اَلْقِصَّةِ أَنَّهُمْ لَمْ يُجَادِلُوهُ إِلَّا بِهَا، مَعَ مُبَالَغَتِهِ صلى الله عليه وسلم وَتَكْرِيرِهِ، فَلِأَجْلِ عَظَمَتِهَا وَوُضُوحِهَا عِنْدَهُمْ اِقْتَصَرُوا عَلَيْهَا.]

وهي في الحقيقة ما يمنع كثيرًا ممن يعرفون الحق من الحق إلا أحد أمرين:

الأمر الأوّل: ما كان عليه الآباء والأسلاف، والتمسك به، وخوف تركه.

الأمر الثاني: الخوف من التعيير. ولذلك جاء في رواية عند مسلم أنّ أبا طالب قال للنبي صلى الله عليه وسلم: (لو لا أن تعيرني قريش؛ يقولون: إنما حمله على ذلك الجزع؛ لأقررتُ عينك بها)، يعني: لولا تعيرني قريش بإسلامي ويقولون: أسلم جزعًا عندما رأى الموت؛ لأقررتُ بها عينك.

ولذلك؛ بعض الناس ما يترك الشرك الذي يُفعل في بلده حتى لا يقال له: وهابي! يرضى أن يبقى مشركًا بالله ويموت على هذا والعياذ بالله، ولا يرضى أن يقال له وهابي! وما ضرَّه لو قالوا عنه ما قالوا ما دام على التوحيد والسنة؟! لا يضرك سبُّ الناس ما دمتَ قائمًا بحق الله عز وجل.

أيها الإخوة؛ هذا الباب العظيم؛ باب أنّ هداية التوفيق والإذعان إنما هي من الله عز وجل، وأن طلبها من الله توحيد، وأنّ اعتقاد أنّ مخلوقًا من المخلوقات يملكها، أو طلب ذلك من مخلوق من الشرك الأكبر، هذا الأمر –أعني اعتقاد أنّ أحدًا من المخلوقات يملك هداية التوفيق وأنها تُطلَب منه– وقع فيه بعض الغلاة ممن ينتسبون إلى الإسلام، فهناك غلاة في شيوخهم، ومَن يسمونهم بالأولياء، أو يسمونهم بالأقطاب، فيعتقدون فيهم أنهم يَعلمون الغيوب، وأنهم يَهدون القلوب، وأنهم يَغفرون الذنوب، وأنهم يُفرجون الكروب! فما تركوا شيئًا لله إلا وجعلوه لغير الله. والعياذ بالله.

هناك غلاة يعيشون بين أَظهُر المسلمين، بل يزعمون اليوم أنهم من أهل السنة، أو أنهم أهل السنة، ويُخرجون أهل التوحيد من أهل السنة! ويعتقدون في شيوخهم ومَن يسمونهم بالأولياء أنهم يعلمون الغيوب، ويهدون القلوب، ويُفرّجون الكروب؛ ولذلك يلجئون إليهم، ويغفرون الذنوب!

يعتقدون أنّ شيوخهم يهدون القلوب، ولذلك الواحد منهم يعتقد أنّ نظرة الشيخ إليه قد تكون سببًا في إيمانه إيمانًا راسخًا! كما يعتقدون أنّ نظرة الشيخ قد تُردِيه وتُخرجه من الإيمان والعياذ بالله! ولذلك عندهم ما يسمُّوه بالخرقة، إلى اليوم، ويفتخرون به و بلباس الخرقة! ولباس الخرقة إما أنه قميص مقطَّع مرقَّع، وإما أنه عمامة بيضاء يشدّها الشيخ على رأس المُريد، يزعمون أنّ المريد إذا أخذ الخرقة من الشيخ ولبسها ثَبَتَ إيمانه ولم تضرُّه فتنة بعد ذلك! يجعلون هداية التوفيق والإذعان ودلالة القلوب وهداية القلوب لشيوخهم. والعياذ بالله!

ولذلك؛ يا عبد الله لا تقل إنّ هذا الشرك الذي تتكلمون عنه هذا في الكتب القديمة وانتهى، ما من شرك تكلم عنه العلماء إلا وهو موجود بين الناس اليوم.

بل أرى وترَون أنّ دعاته اليوم قد عادوا إلى النشاط مرة أخرى. لمّا قام دعاة التوحيد والسنة بالدعوة إلى التوحيد بكل قوة ووضوح وبيان بالأدلة الدامغة انتشر التوحيد، وزالت الغشاوة عن كثير ممن ينتسبون إلى الإسلام، وضعف دعاة الباطل ودعاة الغلو وأصبح تأثيرهم في جمع البلدان ضعيفًا. فلمّا

انشغل أهل الحق والتوحيد بمسائل ينبغي أن يكون لها وزنها الشرعي، وضعف عندهم الدعاء إلى التوحيد؛ نشط أهل الباطل.

ولذلك؛ أدعو كل مَن رزقه الله العلم بالتوحيد وأكرمه بهذا المنهج الرشيد –منهج السلف الصالح رضوان الله عليهم– أن يشمِّر عن ساعد الجد في الدعوة إلى التوحيد.

أهم شيء عندنا ندعو إليه: التوحيد، وندعو إلى السنة. وما عدا ذلك فهو وسائل شريفة لحفظ دعوتنا إلى التوحيد والسنة.

فينبغي يا إخوة؛ أن نقيم دعوة التوحيد في بلداننا، نقيم دعوة التوحيد على ما قرَّره العلماء الأسلاف؛ باللين، بالرفق، بالبيان، بالوضوح، بالبرهان، بالأسلوب البسيط الذي يصل إلى الناس في بلداننا، وألّا نتوانى على هذا، وألّا نتكاسل. يجب أن نقف أمام دعاة الباطل.

أعظم شيء يا أخي؛ من حقوق جارك عليك، من حقوق بلدك عليك: أن تدعوهم إلى التوحيد، وأن تنقذهم من الشرك إن كانوا عليه. كيف نكسل؟ كيف يأتي أناس إلى أناس يدعون إلى التوحيد الخالص ويقولون لهم: قفوا ما عندكم تزكية؟! يا سبحان الله! كيف نقطع الطريق؟! داعية إلى التوحيد يدعوا إلى التوحيد، ما عُرف إلا بالسنة، ما عُرف عنده غلو، ما عُرف عنده تجاوز على العلماء، يقدّر العلماء، يَعرف فضلهم، يأتيه أناس يخرجونه من المسجد يقولون

له: لا تدعو إلى التوحيد!! ويأتي دعاة إلى البدع إلى المساجد؛ فما يحرِّكون ساكنًا لهم!! لكن يقوم داعية التوحيد هذا الذي يعلِّم التوحيد من عشرين سنة، ثلاثين سنة، يقولون: قف؛ ما عندك تزكية! التزكية مطلوبة ولكن الغلو فيها ممنوع.

وقد ذكرتُ مرارًا وتكرارًا أنّ منهج العلماء الذي لا يُختلف فيه: أنّ من الناس مَن يزكيه علمُه، فمَن عرفناه بالتوحيد الخالص، ليس التوحيد المجمَل، التوحيد التفصيلي، دعوة التوحيد التي يعرفها العلماء، وعرفناه بالسنة، ولم يؤخذ عليه غلو، ولا تجاوز على العلماء، ولا همز ولا غمز للعلماء، فو الله إنه مزكى، ولا يحتاج إلى شهادة من أحد، فإن جَمَعَ ووُجد عنده تزكية من العلماء فهذا نور على نور، لكنه ليس شرطًا.

يا أخوة! والله! يُدمي القلب ويُحزن النفس أن يقوم بعض إخواننا الذين هم على منهج طيِّب في الأصل بالوقوف أمام دعوة التوحيد. والله! دعوة التوحيد هذه أعظم واجب علينا، وأحق أهلنا علينا في كل بلد أن ندعوهم إلى التوحيد بالبيان وبالرفق وباللين وبالأسلوب الحسن، ونواجه كلام أهل الباطل بحجج الحق، مع تمسكنا بالسنة، وتقديرنا للعلماء، مَن رأيناه على هذا نفرح به، وندعو له.

والله! والله! إني أسمع عن الرجل يدعو إلى التوحيد في بعض البلدان فأُكبِره فوق نفسي، لأني أنا أدعو إلى التوحيد هنا في بلد التوحيد معي أهل التوحيد، لكن هو يدعو إلى التوحيد مع قلة المناصر، وكثرة المخالف، وهو على سنة، ما عُرف فيه ما يَجرحه.

يا إخوة! لكنك رشيدين.

أنا يحزنني أنّ بعض إخواني ممن درسوا هنا ودرسوا في الجامعة الإسلامية، وتخرّجوا من الكلية، ويدرسون في الدراسات العليا يقولون: ما نستطيع أن نقيم دروسًا في بلداننا حتى لا يقال لنا: من زكاكم؟ مع أنهم لا يظهر فيهم جرح.

يا أخوة! مَن ظهر خيره، ولم يظهر فيه ما يجرحه، قبلناه، وشجعناه على أن يعلِّم التوحيد، وشجعناه على أن يعلِّم السنة، شجعناه على أن يربط الناس بالعلماء الربانيِّين الكبار. أما أن نخطئ الطريق ونمنعهم؟!

والله! يأتيني بعض الأخوة يستنصحني عند بداية الإجازة؛ يقول: يا شيخ! أنا في دروس أهل العلم ودرست في الجامعة وأعرف، لكن والله أخشى أن أقيم درسًا في بلدي! فأقول: تخاف من أهل البدع؟ فيقول: لا والله، ما يزنون شيئًا، أنا أخاف من إخواننا!! ما هذا الطريق؟! والله ما عرفناه عن العلماء، والله ما رأينا

الشيخ ابن باز –رحمه الله– يأتيه طالب علم إلا وحثه على الدعوة وشجعه، والشيخ ابن عثيمين رحمه الله، ومشايخنا هنا كذلك.

فالله الله يا أخوة في دعوة التوحيد، والله لن تَشرفوا إلى بها، ولن تقوى الأمة إلا بها، ولن تبرأ ذممكم إلا بها. كلُّ واحد يدعو إلى التوحيد بما يستطيع، وبحسب علمه يبيِّن للناس. ومَن كان من أهل الخير وحصَّل علمًا، دَرَسَ في الجامعة الإسلامية وهو على منهج رشيد، ودَرَسَ عند أهل العلم، لو رجع إلى بلاده –ولو اسبوعًا– ليُعلِّم الناس، ولا يلتفت لأحد. هذا ديننا، هذه عقيدتنا، هذا منهجنا، هذه سنة النبي صلى الله عليه وسلم. إن لم نشجِّع على القيام بها ونشرها ودعوتها فلا خير فينا.

فأسأل الله عز وجل أن يهديني وإخواني أجمعين إلى القيام بهذا الواجب، وأن يكرمنا به، وأن يجعل ذلك سببًا في علوّ منازلنا في جنة ربِّ العالمين.

الدرس الرابع والعشرون: شرح بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ سَبَبَ كُفْرِ بَنِي آدَمَ وَتَرْكِهِمْ دِينَهُمْ هُوَ اَلْغُلُوُّ فِي اَلصَّالِحِينَ

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَن يهدي الله فلا مضلَّ له، ومَن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٢)

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ (النساء: ١)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ (الأحزاب: ٧١)

أما بعد:

فإنّ أحسن الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشرّ الأمور محدثاتها، وكلّ محدثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النار.

قال المصنف رحمة الله عليه: [بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ سَبَبَ كُفْرِ بَنِي آدَمَ وَتَرْكِهِمْ دِينَهُمْ هُوَ اَلْغُلُوُّ فِي اَلصَّالِحِينَ]

قوله: بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ سَبَبَ كُفْرِ بَنِي آدَمَ وَتَرْكِهِمْ دِينَهُمْ هُوَ اَلْغُلُوُّ فِي اَلصَّالِحِينَ:

لمّا بين الشيخ –رحمه الله عز وجل– الأمور الشركيّة التي يَكثُر وقوعها من أقوامٍ يَنتسبون إلى الإسلام، ثم بيَّن بالبراهين القاطعة التي لا شك فيها أنه لا يوجد مخلوق مهما على شرفه وفضله ودرجته يستحق أن يُصرَف له شيء من أنواع العبادة، وأنّ النفع والضرّ كلُّه بيد الله عز وجل، وأنّ النفع الحاصل من المخلوق للمخلوق في الآخرة أو في الدنيا إنما هو بفضل الله وبإذن الله عز وجل، فبيَّن بالبراهين أنّ العبادة إنما تكون لله وحده، وأنّ الأمر كله لله، وأنه ليس لمخلوقٍ من الأمر شيء إلا بأمر الله وإذنه سبحانه وتعالى. كأن سائلًا سأل: ما دام أنّ الأمر بهذا الظهور والوضوح؛ فلماذا يقع بعض الناس في الشرك؟ لماذا نجد بعض مَن يقرأون القرآن بل قد يحفظون القرآن يقعون في الشرك؟ لماذا نجد بعض مَن يعرفون الأحاديث يَقعون في الشرك مع ظهور الأدلة على التوحيد؟

عقد الشيخ –رحمه الله– هذا الباب؛ ليبيِّن أنّ السبب الأعظم للوقوع في الشرك: هو الغلو في الصالحين. فالغلو في الصالحين يَجعل على البصيرة غشاوة؛ فلا ترى الحقَّ الواضح البيِّن.

والغلوّ في اللغة: هو مجاوزة القدر والارتفاع. يقال: غلتِ الأسعار؛ يعنى: ارتفعت. ويقال: غلا الرجل في الرجل؛ أي: جاوز به قدره، وجاوز به حدَّه.

والغلو في الاصطلاح: هو مجاوزة الحدِّ.

- والحد قد يكون عقليًا يُعرَف بالعقل.
- وقد يكون عُرْفيًّا يُعرَف بالعُرْفِ والتجارب.
- وقد يكون شرعيًّا يُعرَف بالشرع ويُنسَب إليه.

والكلام هنا عن الغلو في الحدِّ الشرعي؛ أي: مجاوزة الحدِّ الشرعيّ.

وضابط الغلو الشرعيّ: أن يُترك المشروع إلى غير المشروع. فمَن ترك المشروع إلى ما لم يَشرعه الله عز وجل فقد غلا وتجاوز الحدّ.

والغلو في الدين حرام مطلقًا؛ سواء كان صغيرًا أو كبيرًا.

وينقسم من حيث أثره إلى قسمين:

القسم الأوّل: غلوٌّ هو حرام؛ لكنه لا يُخرِج من الدين. مَن فعله فقد ارتكب حرامًا وأثم؛ لكنه يبقى مسلمًا، ولا يكون فاعلًا لمكفِّر، مثال ذلك: الغلو في الأذكار. الله عز وجل شَرَعَ لنا أن نذكره كثيرًا، وذِكْرُ الله مشروع، وقد بيَّنه النبي

صلى الله عليه وسلم بقوله وفعله، فإذا جاء رجل فترك المشروع وأَحدث أمرًا غير مشروعًا؛ فأصبح يذكر الله بـ "هو"، ذكر الله بـ "هو" هذا غير مشروع، لم يَرِدْ في كتاب الله ولا في سنة رسو ل الله صلى الله عليه وسلم ولم يفعله سادة الأمة، هذا غلا في الذكر، فَعَلَ حرامًا، هل فعل شركًا؟ الجواب: لا، هو مسلم لكنه فعل حرمًا.

مثال آخر: أن يقوم الإنسان بالمولد، ويقول أنا أُحيي مولد النبي صلى الله عليه وسلم، وأنا أُحيي مولد الأشياخ، هذا ترك المشروع من محبة النبي صلى الله عليه وسلم المشروعة إلى غير المشروع؛ لأنّ هذا الأمر ليس في الكتاب والسنة، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: «مَن أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رَدّ»، هذا قد غلا ويأثم، فعل حرامًا، لكنه لا يخرج من الملة بل هو مسلم.

القسم الثاني: الغلو المكفِّر. الذي يفعل الإنسان بسببه الكفر، وقد يُحكَم عليه بعينة بالكفر إذا اجتمعتِ الشروط وانتفتِ الموانع. مثال ذلك: الغلو في النبي صلى الله عليه وسلم حتى يُعتقَد فيه ما لله. فإذا جاءنا إنسان وقال: إنّ النبي صلى الله عليه وسلم يعلم الغيب، ما من غائبة إلا ويعلمها النبي صلى الله عليه وسلم! قلنا: هذا غلو في النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنك تجاوزتَ المشروع إلى غير المشروع، وهذا كفر والعياذ بالله؛ لأنه تكذيب للقرآن وتكذيب للسنة، ولأنك جعلت للنبي صلى الله عليه وسلم ما لله، فهذا كفر، والعياذ بالله. الذي

يأتي من بلده ويَحج، ويطوف بالكعبة، ويقف بعرفة، ثم يأتي إلى المدينة ويقف عن القبر ويقول: يا رسول الله أتيتك محمَّلًا بالذنوب فاغفر لي ذنوبي! هذا شرك والعياذ بالله؛ لأنه جعل ما لله للنبي صلى الله عليه وسلم من جهتين:

الجهة الأولى: أنه دعاه، والدعاء إنما هو لله –كما تقدّم برهانه–.

الوجه الثاني: أنه طلب منه مغفرة الذنوب، ومغفرة الذنوب إنما هي لله عز وجل.

فهذا غلو، وهو كفرٌ، والعياذ بالله.

والشيخ هنا يَتحدَّث عن غلوٍّ خاصٍّ؛ وهو: الغلو في الصاحين. وذلك أَّنّ الصاحين من عباد الله –وعلى رأسهم أنبياء الله، العُبّاد لله عز وجل، عبادُ الله الصالحون– تجب محبتهم، ولهم منزلة عالية شرعًا، وإجلالهم وتعظيمهم التعظيم الشرعي من إجلال الله سبحانه وتعالى. وأخطأ في هذا طرفان:

الطرف الأوّل: جُفاة. لا يحبون عباد الله الصالحين، ولا يعرفون لهم فضلهم، ويسوُّونهم بغيرهم. وهذا ضلال وخطأ عظيم.

الطرف الثاني: غلاة. يَتجاوزن القَدْر في المحبة، وهذا هو المراد هنا، فإنّ الغلو في محبة الصالحين يقود الإنسان إلى الشر، ولربما وصل به إلى الشرك بالله عز وجل، كما يأتي في الأدلة.

فالسبب الأعظم للشرك عبر التاريخ: هو الغلو في الصالحين. فأوّل شرك وقع في الأرض ما وقع إلا بسبب الغلو في الصالحين.

وإلى يومنا هذا وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها أعظم أسباب الوقوع في الشرك: الغلو في الصالحين. لماذا يذكر لنا الشيخ هذا؟

أولًا: لنحذر ذلك، فلا نغلو في الصالحين، ولا نكون من الجفاة، وإنما نلزم الشرع في هذا.

ثانيًا: حتى يَتخلَّص مَن وقع في شيءٍ من الغلو في الصالحين من هذا ويتوب إلى الله، ويرجع إلى الله عز وجل. وهذا من تمام النصح لأمة محمد صلى الله عليه وسلم.

[وَقَوْلِ اَللهِ عز وجل: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ﴾]

اَللهِ عز وجل قال: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾، وأهل الكتاب: هم اليهود والنصارى. والغلو وُجِدَ في اليهود والنصارى، لكنه في النصارى أعظم؛ لأنّ النصارى أهل تَعبُّد بجهل، واليهود يَعلمون ولا يعملون؛ فهم أهل جفاء، لكنّ الغلو وقع من اليهود ووقع من النصارى، لكنه في النصارى أعظم، فقال الله: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ﴾، ﴿لا﴾ ناهية، ﴿ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ﴾ فنهى الله عز وجل أهل الكتاب عن الغلو في الدين.

وفي الآية الأخرى قال الله عز وجل: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ (المائدة: ٧٧): فقال الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم: قل يا محمد –صلى الله عليه وسلم– يأهل الكتاب لا تغلو في دينكم. وهذه الآية تدلّ على أنّا مخاطَبون بهذا الآية، فعندما قال الله عز وجل: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ﴾ كأنّ قائل منكم يقول مثلًا: هذا خطاب لليهود والنصارى، فما وجه الاحتجاج به إلى أمة محمد صلى الله عليه وسلم؟

وجه الاحتجاج به من وجهين:

الوجه الأوّل: أنّ ما ورد في شرعنا خطابًا لأهل الكتاب فهو شَرْع لنا، وخُصَّ أهل الكتاب بالخطاب لأنّ الغلو قد وقع منهم.

الوجه الثاني: ما في الآية الثانية: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾، إذن هذا الخطاب من النبي صلى الله عليه وسلم، فالذي يخاطبهم هو محمد صلى الله عليه وسلم، إذن النهي عن الغلو من شرعنا؛ لأنّ النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي يخاطبهم. فدلّ ذلك على أنّ الغلو في الدين حرام مطلقًا؛ سواء كان في أمر صغير أو في أمر كبير.

كيف يَتحقَّق امتثال الآية؟ يتحقق امتثال الآية بلزوم المشروع. كيف لا أغلو في ديني؟ اِلْزَمِ المشروع؛ فإذا لزمتَ المشروع سلمتَ من الغلو.

فهذه الآية بالنصِّ واللفظ والمنطوق تنهى عن الغلو، وبالتضمُّن تأمر بالاتباع؛ لأنه لا يمكن أن تكون السلامة من الغلو إلا باتباع النبي صلى الله عليه وسلم.

[وَفِي اَلصَّحِيحِ: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اَللَّهُ عَنْهُمَا فِي قَوْلِ اَللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلا سُوَاعاً وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً﴾، قَالَ: هَذِهِ أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى اَلشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ أَنِ انْصُبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمْ اَلَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ فِيهَا أَنْصَابًا وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا فلَمْ تُعْبَدْ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ، وَنُسِيَ اَلْعِلْمُ عُبِدَتْ]

قال: (وَفِي اَلصَّحِيحِ) أي: في صحيح البخاري. (عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اَللَّهُ عَنْهُمَا) ترجمان القرآن؛ الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم: «اللهم فقِّهه في الدين وعلِّمه التأويل»، يقول في قول الله عز وجل: ﴿وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾ التي تعبدونها، ﴿وَلا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلا سُوَاعاً وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً﴾ فسَّر ابن عباس رضي الله عنهما هذه الآية قال: (هَذِهِ أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ)، فوَدّ وسواع ويعوق ونسرًا هذه أسماء لرجال صالحين، كانوا يعبدون الله عز وجل قبل وقوع الشرك، لأنّ الناس بقَوا عشرة قرون بعد إهباط آدم عليه السلام إلى الأرض وهم على التوحيد، لا يعرفون الشرك، وهؤلاء الرجال كانوا يعبدون الله قبل وقوع الشرك في الأرض، فكانوا عبَّادًا لله صالحين موحِّدين.

(مِنْ قَوْمِ نُوحٍ) يعني: من القوم الذين يَنتسب إليهم نوح عليه السلام. وليس المراد: من قوم نوحٍ الذين كان نوح نبيهم، لأنّا إذا قلنا قوم نوح قد يراد بها: أنهم القوم الذين بُعِثَ إليهم نوح عليه السلام فكان نوح نبيهم. وقد يراد: القوم الذين ينتسب إليه؛ هو منه. والمراد هنا: القوم الذين ينتسبُ إليه؛ لأنّ هؤلاء الرجال كانوا قبل نوح عليه السلام، وماتوا قبل نوح عليه السلام، وعُبِدوا قبل أن يُبعَث نوح عليه السلام، أعني لمّا نُصِبَت التماثيل في مجالسهم.

(فَلَمَّا هَلَكُوا) لمّا ماتوا أتباعهم ومَن كانوا معهم أصابهم الحزن على فراقهم، وخافوا على أنفسهم أن تَقِلَّ عبادتهم لربهم، لأنهم كانوا إذا رأوا هؤلاء الرجال الصالحين نَشِطوا في العبادة. فجاء الشيطان إلى هؤلاء القوم الذين يحبون أولئك الرجال، (أَوْحَى اَلشَّيْطَانُ) أي: وسوس لهم؛ (إِلَى قَوْمِهِمْ أَنِ انْصُبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمْ اَلَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ فِيهَا أَنْصَابًا) أي: تماثيل على صورهم، أي صوِّروهم، واجعلوا هذه الصور في مجالسهم، (وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ) فهذا التمثال وَدّ، في مجلسه يسمى ودًّا، وهذا يغوث، وهذا يعوق، وهذا نسرًا، لماذا؟ هل ليعبدوهم؟ الجواب: لا، ولكن ليتذكّروهم فيَنشطوا في العبادة، هكذا وسوس إليهم إبليس، ففعلوا ونيَّتهم حَسَنَة، ما يريدون عبادة أحد من دون الله؛ بل يريدون النشاط في العبادة، ولكنهم وقعوا في هذه البدعة المحدَثة؛ وهي: نَصْبُ التماثيل تقربًّا ليَنشطوا في العبادة بسببها. (فَفَعَلُوا فَلَمْ

تُعْبَدْ) أي: أنّ القوم الذين صوَّرها لم يَعبدوها؛ لأنهم يعرفون لماذا صُوِّرتْ. (حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ) أي: مات الذين صوَّرها. هنا قال: (وَنُسِيَ اَلْعِلْمُ)، والذي في السنن: (ونُسِخَ العلم)، أو (وتَنَسَّخ العلم) أي: أنّ العلم قد رُفِعَ.

ما هو العلم الذي رُفِع؟

- **قال بعض أهل العلم**: العلم بسبب هذه التصاوير. ليس العلم مطلقًا، ولا العلم بالتوحيد؛ وإنما العلم بسبب نصْبِ هذه التماثيل.
- **وقال بعض أهل العلم**: بل العلم الذي نُسِخَ هنا هو العلم بالتوحيد؛ بسبب موت العلماء.
- **وقال بعض أهل العلم**: بل هو العلم مطلقًا. نُسِخَ العلم ورُفِع بسبب موت العلماء، فجاء الجهل. والجهل شجرة كلِّ شر.

(عُبِدَتْ) يعني جاء إبليس إليهم وقال لهم: ما صوَّرها آباءكم وأجدادكم إلا لمنزلتهم عند الله، ولأنّ لهم جاهًا ومنزلة، فعكفوا عليها؛ فعبدوها، فوقع الشرك في الأرض. أول شرك وقع في الأرض هذا الشرك؛ بسبب المجاوَزة.

والحظوا يا إخوة! أنّ إبليس لم يَنقلهم إلى الشرك مرة واحدة، بل نقلهم إلى البدعة، والبدعة بريدٌ للشرك، نقلهم إلى الإحداث، فأَمَرَهم بنصْبِ هذه التماثيل، وصَبَرَ على ذلك زمنًا طويلًا، رضي من هؤلاء القوم بهذه البدعة، وصَبَرَ عليهم طويلًا، إلى أن مات أولئك القوم، ومن المعلوم أنّ أعمار الناس في

ذلك الزمان كانت طويلة، فصبر حتى مات أولئك القوم ونُسِخَ العلم، فبدأ بأمر آخر وخطوة أخرى وهي: دعوة الناس إلى عبادتهم ليكونوا شفعاء لهم عند الله. وهكذا يفعل إبليس بالإنسان؛ يأخذه إلى الشر خطوة خطوة.

وهذا يدل على أنّ أوّل شرك وقع في الأرض هو: الغلو في الصالحين، غَلَو في الصالحين لمحبتهم؛ ففعلوا ما لم يُشْرَع، ثم وقع الشرك، والعياذ بالله.

[قَالَ اِبْنُ اَلْقَيِّمِ: قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ اَلسَّلَفِ: لَمَّا مَاتُوا، عَكَفُوا عَلَى قُبُورِهِمْ، ثُمَّ صَوَّرُوا تَمَاثِيلَهُمْ، ثُمَّ طَالَ عَلَيْهِمْ اَلْأَمَدُ فَعَبَدُوهُمْ]

(قَالَ اِبْنُ اَلْقَيِّمِ: قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ اَلسَّلَفِ) أي: قال جَمْعٌ من السلف، وهذه الأقوال موجودة في كتب التفسير، عند ابن جرير الطبري، وعند ابن أبي حاتم، وغيرهما. (لَمَّا مَاتُوا) أي: مات أولئك الصالحون. (عَكَفُوا عَلَى قُبُورِهِمْ) أي: قعدوا عند قبورهم، ثم صوّروا تماثيلهم. فأوّل الغلو هو العكوف عند القبور، والجلوس عند القبور، أوّل أمر أنهم يجلسون جلوسًا عند القبور، يجتمعون عند القبور، ثم بعد ذلك يأتيهم إبليس ويقول: البركات التي تحصل لكم، وهذه الخيرات التي تحصل في يومكم هي بسبب جلوسكم عند قبور هؤلاء الصالحين. ثم يأخذهم خطوة خطوة إلى الإشراك بالله. (ثُمَّ صَوَّرُوا تَمَاثِيلَهُمْ، ثُمَّ طَالَ عَلَيْهِمْ اَلْأَمَدُ فَعَبَدُوهُمْ) فوقعوا في نوعَين من الغلو، هما خطوتان معلومتان في الوقوع في الشرك:

الخطوة الأولى: العكوف عند القبور؛ ولو لم يُعبَد أصحاب القبور. الاجتماع عند القبور اجتماعًا مقصودًا هذه خطوة للوقوع في الشرك.

الخطوة الثانية: تصوير التماثيل. فتصوير تماثيل الصالحين سبب لعبادتهم. وهذا غلو ظاهر.

[وَعَنْ عُمَرَ،: أَنَّ رَسُولَ اَللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتْ اَلنَّصَارَى اِبْنَ مَرْيَمَ، إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا: عَبْدُ اَللهِ وَرَسُولُهُ» أَخْرِجَاهُ]

قال: (وَعَنْ عُمَرَ: ابن الخطاب) ابن الخطاب رضي الله عنه، أمير المؤمنين. والحق أنّ الذي روى هذا الحديث هو البخاري، ولم يروِه مسلم، رحم الله الجميع. فهذا الحديث في صحيح البخاري، وهو من أصحّ الأحاديث وأقواها ثبوتًا ومعنىً، لأنّ عمر رضي الله عنه قال هذا الحديث على المنبر كما عند البخاري أيضًا، والصحابة متوافرون في المدينة، ولم يردّ عليه أحدٌ من الصحابة هذا، فكأنّ جميع الصحابة الحاضرين قد روَوه، فهذا يقوّي ثبوت هذا الحديث جدًّا.

(أَنَّ رَسُولَ اَللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «لَا تُطْرُونِي» وهذا خطاب للمؤمنين، فمَن كان مؤمنًا فليَسمع؛ «لا تطروني» **والإطراء**: هو الإفراط في المدح ومجاوزة الحدّ فيه. فنهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الغلو في مدحه. «كَمَا أَطْرَتْ اَلنَّصَارَى اِبْنَ مَرْيَمَ» كما أطرتِ النصارى عيسى بن مريم عليه

السلام، ثم بلغ بهم الأمر أن قالوا: إنه ابن الله، أو قالوا: ثالث ثلاثة، أو قالوا: هو إله. وسبب هذا هو الغلو. «إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ» مَن الذي يقول هذا؟ رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما قاله عالم، ما قاله شيخ. بعض الناس من جلهم يقولون: إنّ الذين يقولون إنّ النبي صلى الله عليه وسلم عَبْدٌ هؤلاء جفاة ما يحبون النبي صلى الله عليه وسلم! والله الجفاة الذين جمعوا بين الجفوة والغلو هم الذين لا يقفون عند كلام النبي صلى الله عليه وسلم. قال: «إِنَّمَا» "إنما" أداة حصر. «إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا: عَبْدُ اَللهِ وَرَسُولُهُ» هذه الجملة فيها الرّد على الغلاة وعلى الجفاة.

«فقولوا: عبد الله» هذا ردٌّ على الغلاة، الذين يَغلون في رسول الله صلى الله عليه وسلم ويجعلونه شريكًا مع الله فيما لله؛ حتى في علم الغيب! جعلوه شريكًا لله في الجود والإعطاء مطلقًا فقالوا: "وإنّ من جودك الدنيا وضَرَّتها"!، وجعلوه شريكًا لله في علم الغيب فقالوا: "ومن علومك علم اللوح والقلم"! هذا بعض علمك! فهذا قول النبي صلى الله عليه وسلم: (عبد الله)، فهو عَبْد لا يُعبَد، فلا يَتجاوز به عبدٌ مرتبتَه.

«ورسوله» هذا ردٌّ على الجفاة، فإن النبي صلى الله عليه وسلم عبد، ولكنّ الله عز وجل شرَّفه بالرسالة، فهو عبد لا يُعبَد ورسول لا يكذَّب.

ومن عجيب الأمر يا إخوة؛ أنّ إبليس تسلَّط على بعض الناس ليَمنعهم من الاستفادة من هذا الحديث الصحيح، وقال لهم معنى «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم» أي: لا تقولوا: إني ابن الله، ثم قولوا ما شئتم! يعني: إذا اجتنبتم أن تقولوا إني ابن الله فقولوا ما شئتم! فأصبحوا يقولون الشرك في حقِّ النبي صلى الله عليه وسلم، ويقولون: ما أطريناك كما أطرتِ النصارى ابن مريم!

وسبحان الله! النبي صلى الله عليه سولم يقول في هذا الحديث ما يَردُّ هذا التفسير؛ قال: «إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله» فنهى عن الغلو في مدحه مطلقًا.

بل يا إخوة! عندما جاء وفد بني عامر إلى النبي صلى الله عليه وسلم قالوا له: (أنت سيدنا) ورسول الله صلى الله عليه وسلم سيدنا، والله! إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم سيدنا، وسيد ولد آدم اجمعين، وهو القائل عن نفسه: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»، إذن هم من حيث اللفظ ما قالوا باطلًا؛ قالوا: (أنت سيدنا)، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «السيد الله تبارك وتعالى»، قال العلماء: رأى منهم غلوًّا فأدَّبهم. وهذا شأن النبي صلى الله عليه وسلم إذا رأى الغلو أدَّب. لمّا جاء الرجل فقال: ما شاء الله وشئت، قال: «أجعلتني لله ندًّا؟! قل: ما شاء الله وحده»، ولو قال: "ما شاء الله ثم شئت" لكان صوابًا؛ لكن لمّا رأى منه الغلو أدَّبه. فهنا لمّا رأى أنهم يقولون ذلك غلوًّ أدَّبهم صلى الله عليه

وسلم فقال: «السيد الله تبارك وتعالى». قالوا: (وأفضلنا فضلًا، وأعظمنا طَولًا) أي: أنت يا رسول الله أفضلنا فضلا، وأعظمنا طَولًا؛ أي: جودًا وإنفاقًا وكرمًا. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «قولوا بقولكم أو بعض قولكم، ولا يستجرينكم الشيطان» رواه أبو داود وصححه الألباني. قولهم صحيح؛ النبي صلى الله عليه وسلم أفضل ولد آدم، وهو أجود الناس، كان أجود بالخير من الريح المرسَلة، ولذا كان يعيش فقيرًا مع كثرة ما يأتيه من المال، لكن لا يبيت المال عنده، ينفقه في سبيل الله، يمرّ الشهران والثلاثة ولا يوقَد في بيته الشريف نار، أي لا يُطبخ في بيته صلى الله عليه وسلم، وإنما يأكل التمر ويشرب الماء. فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: «قولوا بقولكم أو بعض قولكم» ما دام أنّ القول حق؛ ولكن انتبهوا: لا يستجرينكم الشيطان إلى الغلو. فدلّ ذلك على أنّ مدح النبي صلى الله عليه وسلم بما فيه من غير غلوٍّ أنّ هذا مشروع، لا بأس به، وأنّ الغلو في مدح النبي صلى الله عليه وسلم لا يُرضي النبي صلى الله عليه وسلم؛ بل هو من عمل الشيطان.

وقال رجل: (يا محمد! يا سيدنا وابن سيدنا وخيرنا وابن خيرنا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «يا أيها الناس! عليكم بتقواكم، لا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد بن عبد الله، عبد الله ورسوله، والله! ما أُحِبُّ أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله» رواه أحمد، وصححه الشيخ شعيب الأرناؤوط، والألباني،

وقالا : صحيح على شرط مسلم، فهو في غاية الصّحة. الرجل قال: يا محمد يا سيدنا وابن سيدنا وخيرنا وابن خيرنا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «يا أيها الناس! عليكم بتقواكم» أي: الزموا التقوا، واتقوا الله، وإياكم والغلو، «لا يستهوينكم الشيطان» أي: لا يقودنّكم الشيطان إلى الغلو، فإنّ الغلو من وسوسة الشيطان، «،أنا محمد بن عبد الله عبد الله، ورسوله» هذه منزلتي: عبد لا أُعْبَد، ورسول لا أُكَذَّب، «والله!» اسمَعوا يا مؤمنين، النبي صلى الله عليه وسلم يقسم، وهذا الأمر مهم، يقول للمؤمنين جميعًا: «والله! ما أُحِبُّ أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله»، يا مؤمن النبي صلى الله عليه وسلم يقول لك: «والله! ما أُحِبُّ أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله» وهي: أني عبد ورسول، كيف تأتي وتفعل ما لا يحبه النبي صلى الله عليه وسلم بزعم أنك تحب النبي صلى الله عليه وسلم؟! النبي صلى الله عليه وسلم يقسم لك وليس بحاجة لأن يقسم صلى الله عليه وسلم: «والله ما أحب» ينفي محبته صلى الله عليه وسلم، ووالله إنه لصادق، «ما أحب أن ترفعوني»، فهؤلاء الذين يقولون إنّ النبي صلى الله عليه وسلم يَتحكَّم في الكون من قبره، هذا المتمدِّح بالباطل الذي يقول: إنّ النبي صلى الله عليه وسلم في قبره يُنقِذ الغريق، ويطفئ الحريق، ويزيد الرزق! هذا رَفَعَ النبي صلى الله عليه وسلم فوق منزلته، بل جعله شريكًا لله عز وجل، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: «والله! ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني

الله)، إذن أحبُّ الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يقول: محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم عبدُ الله ورسوله.

فدلّ هذا دلالة بيِّنة على أنّ النبي صلى الله عليه وسلم كان يُبغِض الغلو، وينهى عنه في مدحه. ولا شك أنّ الغلو في المدح يقود إلى الوقوع في الشرك، والعياذ بالله.

[وعن ابن عباس رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اَللهِ صلى الله عليه وسلم: (إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ اَلْغُلُوُّ)]

قال: (وعن ابن عباس رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اَللهِ صلى الله عليه وسلم: «إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ في الدين، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ اَلْغُلُوُّ في الدين» هكذا لفظ الحديث. والحديث رواه أحمد وابن ماجه والنسائي وصححه ابن خزيمة والحاكم ووافقه الذهبي والنووي وابن تيمية والألباني. والحديث صحيح لا شك في صحته. وهو يدل على تحريم الغلو في الدين في أي أمر. لأنّ سبب الحديث إنما هو الحَصيات التي يرمي بها الحاج، فإنّ النبي صلى الله عليه وسلم في طريقه من المزدلفة إلى منى قال لابن عباس: «القط لي» فلقط له سبع حصيات، فأخذها النبي صلى الله عليه سول في كفِّه الشريف، وقال: «بمثل هذه فارموا، وإياكم والغلوَّ في الدين، فإنما أهلك مَن كان قبلكم الغلو في الدين»، يعني: إياكم والغلو في الحصى، بأن تأخذ حصياتٍ كبارًا لترمي بها، فإنّ هذا من

الغلو، فإذا نهنا النبي صلى الله عليه وسلم عن الغلو في الحصى فمن باب أولى الغلو فيما كان أكبر من ذلك، ولا سيما وأنّ لفظ الحديث عام، والعلماء يقولون: "العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب".

إياكم يا من آمنتم بي، يا معاشر المسلمين، إياكم، أُحذِّرُكم الغلوَّ؛ فاحذروه، لماذا؟ لأنه سبب للهلاك، فإنما أهلك مَن كان قبلكم الغلو في الدين، فعَبدوا غير الله بسبب الغلو في الدين.

وهذا يدل يا إخوة على ما قدّمناه؛ من أنّ الغلو مهما كان صغيرًا كان أو كبيرًا، الغلو في مجاوزة الحدّ الشرعي مهما كان صغيرًا أو كبيرًا محرَّم مطلقًا، وقد يصل بالعبد –والعياذ بالله– إلى أن يشرك بالله فيهلك، والعياذ بالله.

[وَلِمُسْلِمٍ عَنْ اِبْنِ مَسْعُودٍ، أَنَّ رَسُولَ اَللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: (هَلَكَ اَلْمُتَنَطِّعُونَ. قَالَهَا ثَلَاثًا)]

(وَلِمُسْلِمٍ) أي: في صحيح مسلم. (عَنْ اِبْنِ مَسْعُودٍ) رضي الله عنه. (أَنَّ رَسُولَ اَللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «هَلَكَ اَلْمُتَنَطِّعُونَ. قَالَهَا ثَلَاثًا» والمتنطِّعون: هم المتعمِّقون في الدين، ليس المتمسِّكين بالدين؛ وإنما هم: المتعمِّقون في الدين، المتكلِّفون ما لم يُشرَع.

وأصل التنطُّع: هو الغلو في الكلام، أن يتكلم الإنسان كأنه يتكلم من داخل الفم، يضخِّم صوته، فتَخرج الحروف من أقصى الحلق، وسبب هذا: الكبر،

فيتكلم بصوت يُخرجه من داخل فمه؛ كِبْرًا، هذا أصل التنطُّع، مأخوذ من النَّطْع؛ وهو: الغار، كأنه عندما يتكلم من آخر حلقه يُخرج الكلام من الغار، والكلام في الغار يكون له صدى، ويكون على غير حقيقته، كذا المتنطع. هذا أصل التنطع، ثم أُطلِق على التكلف والتعمُّق مطلقًا. فالنبي صلى الله عليه وسلم يقول: «هلك المتنطعون» أي: هلك المتكلِّفون في الدينِ ما لم يُشرَع، المتعمِّقون فيه بالابتداع. أمّا المستقيمون على المشروع فهؤلاء هم أهل الأمن وأهل الحياة الطيبة.

بعض الناس الآن إذا رأوا شخصًا أعفى لحيته، وقصَّر ثوبه ولو فوق الكعب بقليل، قالوا قال النبي صلى الله عليه وسلم: «هلك المتنطعون»، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إياكم والغلو في الدين»! ما هذا تنطعٌ ولا غلوٌّ، هذه استقامة، ومَن استقام فلَهُ الأمن وله الحياة الطيبة، وإنما التنطع هو التكلُّف في الدين؛، بحيث تَفعل ما لم يُشرَع، وتَبتدع بحجة أنك تريد أن تزيد في العبادة، تزعم أنك تريد مزيدًا من القرب من الله فتأتي بعبادات. هؤلاء الذين يصلون الفجر في المساجد في بعض البلدان ثم يقومون ولهم شيخ، ويبدئون في الذِّكر الجماعي بهيئة ليست مشروعة، وبألفاظ ليست مشروعة، وبطريقة ليست مشروعة، يرقصون، ويتقافزون، ويهزُّون رؤوسهم هزًّا عجيبًا، ويقولون: هو هو هو ، ويرقصون، والشيخ يرقص، ثم يتواجدون ويتساقطون على الأرض إلى أن

تشرق الشمس أو قريبًا من إشراق الشمس، هؤلاء متنطّعون متعمّقون متكلّفون مذمومون. لكن الذي يصلي الفجر ويبقى في مصلاه يذكر الله حتى تطلع الشمس وترتفع فيصلي ركعتين؛ هذا مستقيم.

ما الفرق بين هذا والأوّلين؟ الفرق أنّ هذا فَعَلَ المشروع فهو مستقيم على شرع الله، والأوّلون تعمقوا وتنطعوا؛ قالوا: ما يكفي ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، نحتاج إلى أحد من بَعد النبي صلى الله عليه وسلم يَشرع لنا حتى نزداد قربًا من الله! هؤلاء متنطعون متكلفون.

والغالب أنّ المتنطع بمقدار تنطعه يُحرَم السنة، وهذا أقلُّ هلاكه. ولا شك أنه يأثم بفعل البدع؛ وهذا هلاك معنوي، وقد يصل الأمر إلى الشرك؛ فيهلك هلاكًا هو أعظم من الموت.

فدل ذلك أيها الإخوة على أنّ الغلو والتنطع والإفراط ليس طريق النبي صلى الله عليه وسلم، ولا يحبه النبي صلى الله عليه وسلم، وليس طريق الصالحين، وليس طريقًا للفلاح، وليس طريقًا للقرب من الله، وإنما هو من وسوسة الشيطان، وسبب للهلاك، والعياذ بالله.

فدلّ ذلك على أنّ الحق للمسلم والسلامة: أن يَلزم المشروع، وأنّ الهلاك: في الابتداع والابتعاد عن سنة النبي صلى الله عليه وسلم.

[فِيهِ مَسَائِلُ: اَلْأُولَى: أَنَّ مَنْ فَهِمَ هَذَا اَلْبَابَ وَبَابَيْنِ بَعْدَهُ، تَبَيَّنَ لَهُ غُرْبَةُ اَلْإِسْلَامِ، وَرَأَى مِنْ قُدْرَةِ اَللهِ وَتَقْلِيبِهِ لِلْقُلُوبِ اَلْعَجَبَ]

بمعنى: أنك إذا تأملت في حال المنتَسبين إلى الإسلام اليوم، تجد أنّ كثيرًا من المسلمين وقعوا في الغلو في الدين، ويقابِلهم أقوامٌ وقعوا في التساهل في الدين، فكثيرٌ ممن يريدون العبادة وقعوا في الغلو، وكثير ممن ينتسبون إلى الإسلام وقعوا في التساهل. وهذه غربة أن تعيش حتى ترى هذا. ولذلك بعض إخواننا يقول: يا شيخ! أنا لمّا استقمتُ أصبحتُ أعيش في غربة، أنا غريب، أن شاذ في البلد، أنا شاذ في الحي؛ لأنّ أهل الحي منهم غلاة يتنطعون في الدين ويأتون بالبدع ولا يفعلون السنن، ومنهم متساهلون، هؤلاء يشتمونني، وهؤلاء يشتمونني! فمَن أدرك أنّ الغلو ليس من الدين، وأنّ الاستقامة على الدين واجبة؛ أدرك مدى الغربة اليوم.

وفي نفس الوقت هذا يؤكِّد ما نقوله دائمًا من وجوب أن ندعوا إلى الله، ألّا ندعوا إلى أنفسنا، وألّا نغتر بأنفسنا، وألّا نعظِّم أنفسنا؛ وإنما ندعوا إلى الله عز وجل؛ بالموعظة الحسنة، بالحجج، بالأساليب الطيبة، لعلّ الخير أن يزداد.

ولا شك يا إخوة؛ إذا وُجِدت الدعوة بإخلاص لله عز وجل ومتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنه يُحفَظ الخير الموجود ويزداد، فيَزداد الهداة هدى،

ويَرجع الضالون إلى الصراط المستقيم. فإذا أدركنا الغربة فلابد أن ندرك الواجب علينا.

[اَلثَّانِيَةُ: مَعْرِفَةُ أَوَّلِ شِرْكٍ حَدَثَ على وَجْهِ اَلْأَرْضِ؛ أنه بِشُبْهَةِ اَلصَّالِحِينَ]

ليس المقصود أنه بشبهةٍ من الصالحين، وإنما بشُبهةِ محبة الصالحين، فجاءهم إبليس وشبَّه عليهم؛ لأنهم يحبون الصالحين، وهو لم يأمرهم بمحبة الصالحين؛ بل أمرهم بالغلو في هذه المحبة، فكان ذلك سبب وقوع أوّل شرك في الأرض.

[اَلثَّالِثَةُ: مَعْرِفَةُ أَوَّلِ شَيْءٍ غُيِّرَ بِهِ دِينُ اَلْأَنْبِيَاءِ، وَمَا سَبَبُ ذَلِكَ؟ مَعَ مَعْرِفَةِ أَنَّ اَللَّهَ أَرْسِلَهُمْ]

أوّل أمرٍ غُيِّر به دين الأنبياء هو الشرك وسببه الغلو في الصالحين. والله عز وجل أرسل الرسل لتبيِّن للناس الصراط المستقيم؛ ومنه: ترك الغلو.

[اَلرَّابِعَةُ: قَبُولُ اَلْبِدَعِ مَعَ كَوْنِ اَلشَّرَائِعِ وَالْفِطَرِ تَرُدُّهَا]

سبب قبول البدع لأنّ الشيطان يزيّنها بلباس الحق. ولذلك بعض الناس إذا رأوك تنكر بدعة قالوا لك: يا أخي! هذا يذكر الله؛ فلماذا تنكرها؟! أحد الحجاج وزَّع كتابًا فيه الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم على غير المشروع؛ بألفاظ فيها بدع وشركيات، فأحد الأخوة أنكر عليه أن يوزِّع هذا على الناس، وبيَّن له أنّ هذه بدع ليست مشروعة، أنكر عليه أوّ لًا أن يوزِّع من

غير أن يؤذَن له، وهذا افتئات على ولي الأمر لا يجوز، فقام بعض الزوار فقال: لماذا تنكر عليه، ما فيه إلا الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم؟! فالشيطان يزخرف البدع بالحق فتَرُوج على المحبِّين؛ لقلَّة العلم وقلَّة من يبيِّن. لو عرض الشيطان بضاعته كما هي لَمَا قَبِلَها عاقل فضلًا عن مسلم، ولكنه لا يعرضها إلا مزخرفة بلباس الحق، ويَخلط الباطل بكثير من الحق؛ ليُشبِّه على الناس.

إذن؛ لماذا يقع الناس في البدع مع محبتهم للنبي صلى الله عليه وسلم وأنّ النبي صلى الله عليه وسلم بيَّن كل شيء وأنّ الفطرة تَرُدُّ الابتداع؟ لأنّ الشيطان يغش الناس بإظهارها في لباس الحق والحب والتقرُّب. ولا نجاة إلا بلزوم سنة محمد صلى الله عليه وسلم. مَن أراد النجاة لنفسه فليَلزم سنة النبي صلى الله عليه وسلم، ومَن أراد النجاة لأهل فليعلِّمهم سنة النبي صلى الله عليه وسلم.

[اَلْخَامِسَةُ: أَنَّ سَبَبَ ذَلِكَ كُلِّهُ مَزْجُ اَلْحَقِّ بِالْبَاطِلِ. فَالْأَوَّلُ: مَحَبَّةُ اَلصَّالِحِينَ. وَالثَّانِي: فِعْلُ أُنَاسٍ مِنْ أَهْلِ اَلْعِلْمِ وَالدِّيْنِ شَيْئًا أَرَادُوا بِهِ خَيْرًا؛ فَظَنَّ مَنْ بَعْدَهُمْ أَنَّهُمْ أَرَادُوا بِهِ غَيْرَهُ]

مَزْجُ الحق بالباطل؛ الأوّل الذي هو الحق: محبة الصالحين. وقلنا إنّ محبة الصالحين حقّ ومطلوبة شرعًا؛ لكن من غير غلو، ففعل بعض الصالحين الجاهلين أو بعض مَن يَنتسبون إلى العلم بعض الأشياء غير المشروعة بسبب

المحبة فيه مَزْج الحق بالباطل ومزج الباطل بالحق، حتى يَروج الباطل بقصد أو بغير قصد.

[اَلسَّادِسَةُ: تَفْسِيرُ اَلْآيَةِ اَلَّتِي فِي سُورَةِ نُوحٍ]

وقد فسَّرها ترجمان القرآن؛ ابن عباس –رضي الله عنهما–.

[اَلسَّابِعَةُ: جِبِلَّةُ اَلْآدَمِيِّ فِي كَوْنِ اَلْحَقِّ يَنْقُصُ فِي قَلْبِهِ وَالْبَاطِلِ يَزِيدُ]

الله أكبر! يجب أن ندرك هذا يا إخوة، من طبيعة الإنسان أنّ قلبه قلَّاب، وأنّ الحق الذي يَعلمه إذا لم يحافظ عليه بسؤال الله عز وجل الثبات –وهذا أعظم أسباب المحافظة– وبالعلم وبالعمل سيَنقص، كالماء إذا تُرِك في الحفرة فإنه يَنقص، حتى لو كانت من الصخر الصَّلت سيَنقص الماء، فكذا الخير، وإذا نقص الخير حَلَّ مكانه ضدُّه؛ وهو الباطل. فإذا عرفت هذا يا عبد الله أنّ هذا من طبيعتك؛ هذا يجعلك تجاهد في سبيل الله ولا تَغفل، الجهاد الأكبر وهو جهاد النفس، بأن تَحرص على الخير الذي أنت فيه، وأن تَحرص على الزيادة، وأن تَحذر من الباطل. إياك يا عبد الله ما دمت حيًّا أن تغفل عن عدوك.

بعض إخواننا قد يصل به الصلاح إلى درجة أنه يقول: الحمد لله أنا الآن ما أقرب الأشياء التي يبغضها الله! فيبدأ يتساهل؛ يتساهل في الحديث، يتساهل في النظر؛ فيضعف هذا. وأنا أقول بكل وضوح: إنّ الكثير منا نحن المسلمين عمومًا، وطلاب العلم خصوصًا؛ بدأ التديُّن فيهم يَضعف، ومعاصينا في

الخلوات أصبحت تَعظُم، نشاهد المحرمات، نتحدَّث بالمحرمات، والباطل في نفوسنا بدأ يَعظُم، ونحن في غفلة عن هذا الجانب.

بعضنا عنده حرص على السنة من حيث الاعتقاد والعلم؛ ولكنه يُهمِل نفسه من جهة التديُّن، فيَضعف تدينه؛ حتى أصبح بعضنا يصلُّون في البيوت، مع أنهم طلاب علم، من غير عذر! أصبحوا يقعون في أمور محرمة! لأنّا أصبحنا نغفل عن هذه القضية. لا بد أيها الإخوة أن نحبس هذه النفس من جميع الجوانب، من جهة الاعتقاد، ومن جهة العمل بالسنة، ومن جهة التديُّن، احبس نفسك، احرص على الثبات على الخير، واحذر مما حرَّم الله، واحذر من أن تؤتى من الغفلة، أو الغرور بالنفس.

للأسف؛ أنّ بعضنا أصبح كثير الكلام قليل العمل، بخلاف ما عليه السلف، فإنّ أعمالهم كانت تسبق أقوالهم، قَلَّ كلامُهم –إلا فيما يحتاج إليه– فكان مباركًا، وكثرت أعمالهم لله.

فيا معاشر المسلمين أَدركوا هذه القضية العظيمة الكبرى؛ وهي أنّ الحق إذا لم يُتعاهَد لا بد أن يَقِلّ ويَضعف، وأنّ الباطل إذا لم يُحذَر منه لا بد أن يَتسلل إلى النفس ويَقوى. وتعلَّموا وعلِّموا أنفسكم العقيدة والسنة والتديُّن، وكونوا من الصادقين.

[اَلثَّامِنَةُ: أنّ فِيهِ شَاهِدٌ لِمَا نُقِلَ عَنْ اَلسَّلَفِ أَنَّ اَلْبِدَعَة سَبَبُ اَلْكُفْرِ]

البدعة خطوة في سُلَّم الغلو، كما قلنا: إبليس يأخذ الإنسان أولًا إلى البدعة، وقد تكون بدعة صغيرة مع خير كثير جدًّا، ثم لا يزال يُمحِّض به البدعة يُمحِّض به البدعة حتى تستقر البدعة ويَذهب الحق، ثم قد يقوده إلى الشرك بالله؛ كما فعل إبليس مع هؤلاء القوم من قوم نوح.

[اَلتَّاسِعَةُ: مَعْرِفَةُ اَلشَّيْطَانِ بِمَا تَئُولُ إِلَيْهِ اَلْبِدْعَةُ وَلَوْ حَسُنَ قَصْدُ اَلْفَاعِلِ]

لا شك أنّ الغالب على مَن يفعلون البدع أنهم يريدون خيرًا، هذا الغالب، ثم بعد ذلك قد يَقعون في المكابرة والمجادلة والعياذ بالله، حُسْنُ النية لا يَسلمون به من الذنب، لكن مع ذلك إذا فعلوا البدع يُصبِحون دعاة لها؛ فيزداد إثمهم، ويُحاجّون عنها؛ فيزداد إثمهم، ويفعلون هذه البدع؛ فتقلّ محبة السنة في قلوبهم، ويقودهم ذلك إلى شر عظيم.

ولذلك؛ إبليس يحب البدعة أكثر من المعاصي، كما قال السلف: "البدعة أحب إلى إبليس من المعصية"؛ لأن البدعة تُنسَب إلى الدِّين، وتقود الإنسان إلى درجات في البُعد عن السُّنة، وقد يصل الأمر –والعياذ بالله– إلى الشرك بالله.

[اَلْعَاشِرَةُ: مَعْرِفَةُ اَلْقَاعِدَةِ اَلْكُلِّيَّةِ، وَهِيَ اَلنَّهْيُ عَنْ اَلْغُلُوِّ وَمَعْرِفَةُ مَا يَئُولُ إِلَيْهِ]

النهي عن الغلو في الدِّين مطلقًا، ولو بشيء يسير، وأنّ الغلو نفقٌ مظلِمٌ، ومنحدرٌ عميق، مَن دخله أوشك أن يَنحدِر فيه بقوة، فالسلامة في البُعد عنه أصلًا، وعدم التساهل في شيء من الغلو ولو كان يسيرًا صغيرًا.

[الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: مَضَرَّةُ اَلْعُكُوفِ عَلَى اَلْقَبْرِ لِأَجْلِ عَمَلٍ صَالِحٍ]

سيأتي هذا في الباب التالي.

[اَلثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: مَعْرِفَةُ اَلنَّهْيِ عَنْ اَلتَّمَاثِيلِ وَالْحِكْمَةِ فِي إِزَالَتِهَا]

الواجب أن لا تُنصَب التماثيل أصلًا، فإذا وُجدَت التماثيل فإنّ الواجب أن تُطمَس؛ لكنّ طمْسها إنما يَرجع إلى ولي الأمر، ولا يُسلَّط الناس على الناس. والقاعدة عند أهل العلم: "أنّ المَفسدة لا تُدفع بمَفسدة أعلى منها"، قد يرى ولي الأمر أو يجد أنّ في طمس التماثيل مفاسد، تَربوا على مَفسدة وجودها، وقد يقرِّر له العلماء ذلك بدراسة المسألة؛ فيُرتكَب أخفّ المَفسدتَين.

النبي صلى الله عليه وسلم لمّا فتح مكة وأصبح حاكمًا يستطيع أن يفعل ما يشاء لم يَهدم الكعبة مع أنها لم تُبْنَ على قواعد إبراهيم كاملة، ولم يُعِدها إلى هيئتها التي كانت على زمن إبراهيم –عليه السلام– بأن يجعل لها بابين؛ لماذا؟ لأنه ظهر له صلى الله عليه وسلم في فعل هذا مفسدة أعظم من مفسدة بقاء الكعبة على هذا الحال، ولذلك قال لأمنّا عائشة –رضي الله عنه–: «لولا أنّ قومك حديثو عهد بكفر لهدمت الكعبة وبنيتها على قواعد إبراهيم وجعلت لها بابين»، لكن مَنَعَه من ذلك صلى الله عليه وسلم المفسدة الأعظم؛ وهي: ارتداد الناس الذين أسلموا حديثاً عن دينهم. ولذلك يا إخوة؛ القاعدة عن أهل العلم: أنّ مثل هذه المسائل التي تحتاج إلى اجتهاد لا يَتصرَّف فيها الأفراد؛ وإنما يُرجَع

فيها إلى أولي الأمر من العلماء وولاة الأمر، العلماء في البيان، وولاة الأمر في العمل.

[اَلثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: عِظَمُ شَأْنِ هَذِهِ اَلْقِصَّةِ وَشِدَّةُ اَلْحَاجَةِ إِلَيْهَا مَعَ اَلْغَفْلَةِ عَنْهَا]

هذه القصة عظيمة لأنه فيها التحذير من الغلو في الصالحين، والتحذير من مكر إبليس بالناس، ومع شدة الحاجة إليها لا نجد أنّ الدعاة والوعّاظ يتكلمون عنها، بل للأسف لا نجد أنّ كثيرًا من الدعاة اليوم أو الوعاظ يتكلمون عن التوحيد أصلًا، وهذا خلل عظيم.

[اَلرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: وَهِيَ أَعْجَبُ وأعَجَبُ؛ قِرَاءَتُهُمْ إِيَّاهَا فِي كُتُبِ اَلتَّفْسِيرِ وَالْحَدِيثِ، وَمَعْرِفَتُهُمْ بِمَعْنَى اَلْكَلَامِ، وَكَوْنُ اَللهِ حَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قُلُوبِهِمْ؛ حَتَّى اِعْتَقَدُوا أَنَّ فِعْلَ قَوْمِ نُوحٍ هُوَ أَفْضَلُ اَلْعِبَادَاتِ، وَاعْتَقَدُوا أنّ نهي اَللهُ وَرَسُولُهُ عَنْهُ فَهُوَ اَلْكُفْرُ اَلْمُبِيحُ لِلدَّمِ وَالْمَالِ]

إن كنتَ تَعجب من عدم معرفة الناس بهذه القصة؛ فاعجَب من أناس يَعرفون هذه القصة، ويَعرفون البراهين القطعية على التوحيد، والأدلة الدامغة للشرك؛ ومع ذلك يُشركون بالله، ويظنون أنهم في أعلا مقامات التوحيد! فإنّ هؤلاء يَعلمون ولا ينتفعون، يقرؤون القرآن بل قد يَحتَّجون بآيات التوحيد وهم مشركون! وهذا من أعجب العجب. نسأل الله السلامة والهداية.

[اَلْخَامِسَةَ عَشْرَة: اَلتَّصْرِيحُ أَنَّهُمْ لَمْ يُرِيدُوا إِلَّا اَلشَّفَاعَةَ]

لأنهم عندما نَصبوا تلك التماثيل إنما أرادوا أن تكون وسيلة للنشاط في العبادة، ثم جعلوهم شفعاء لهم عند الله، وتقرَّبوا بالتقرُّب إليهم إلى الله عز وجل؛ فوقعوا في الشرك.

[اَلسَّادِسَةَ عَشْرَةَ: ظَنُّهُمْ أَنَّ اَلْعُلَمَاءَ اَلَّذِينَ صَوَّرُوا اَلصُّوَرَ أَرَادُوا ذَلِكَ]

بوسوسة إبليس، وهذا يا إخوة يدنا على أنّ القرب من العلماء رحمة، وأنّ البعد عنهم عذاب، فإذا كنتَ قريبًا من العلماء فإنهم يبيِّنون لك الحق، ويبيِّنون لك لماذا قالوا؟ ولماذا فعلوا؟ أمّا إذا ابتعدتَ يأتي إبليس؛ ويصرف الحق إلى الغلو.

حتى القواعد الشرعية إذا ابتعد طالب العلم عن العلماء؛ يأتي إبليس ويجعله يغلو في القاعدة؛ حتى يجاوز بها الحد، وقد يَظلم الناس بحجة القاعدة! وهذه القاعدة إنما هي عدل كلها. لو كان عند العلماء وأخذ عن العلماء وكان قريبًا منهم؛ لعلَّموه القاعدة وإعمال القاعدة. وما الشر الذي نراه اليوم إلا من أناس يَسمعون كلام أهل العلم عن بُعْد، ثم يُنزِّلونه على غير منازله.

ولذلك؛ نحن نوصي نقول: كونوا قريبًا من العلماء، وممن يَقرُب من العلماء؛ لتتعلَّموا العلم وإعمال العلم على وجه صحيح.

[اَلسَّابِعَةَ عَشْرَةَ: اَلْبَيَانُ اَلْعَظِيمُ فِي قَوْلِهِ صلى الله عليه وسلم: «لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتْ اَلنَّصَارَى اِبْنَ مَرْيَمَ». فَصَلَوَاتُ اَللهُ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، بَلَّغَ اَلْبَلَاغَ اَلْمُبِينَ]

هذا الحديث حقيقة لو انّ الناس يَفهمون ويَبتعدون عن الشُّبّه لقطع الطريق على كثير من الغلو الموجود.

[اَلثَّامِنَةَ عَشْرَةَ: نَصِيحَتُهُ إِيَّانَا بِهَلَاكِ اَلْمُتَنَطِّعِينَ]

نصيحته إيانا ببيانه هلاك المتنطعين؛ حتى لا نكون منهم، فكأن النبي صلى الله عليه وسلم قال لنا جميعًا: أنصحكم وأوصيكم وأُلزِمكم ألّا تكونا متنطعين، فإنّ التنطع طريق الهلاك.

[اَلتَّاسِعَةَ عَشْرَةَ: اَلتَّصْرِيحُ بِأَنَّهَا لَمْ تُعْبَدْ حَتَّى نُسِيَ اَلْعِلْمُ، فَفِيهَا بَيَانُ مَعْرِفَةِ قَدْرِ وُجُودِهِ وَمَضَرَّةُ فَقْدِهِ]

تقدم بيان هذا.

[اَلْعِشْرُونَ: أَنَّ سَبَبَ فَقْدِ اَلْعِلْمِ مَوْتُ اَلْعُلَمَاءِ]

ولذلك يا عبد الله؛ إذا وجدتَ عالمًا أو لقيتَ من عالمًا فاحرص على أن تنتفع من علمه، ما علمتَه سابقًا عنه لا تشتغل به إذا لقيته، اشتغل أن تزداد من علمه، فإنّ هذا العالم حيٌّ اليوم وقد تأتي مرة أخرى فتجد أنه في قبره! سواء كان العالم كبيرًا في سنّه أم صغيرًا فإن الموت يأتي فجأة. فإذا لقيتَ عالمًا فاستفد منه حتى تأخذ علمه فيبقى العلم، فإنّ العلم لا يُنتزَع انتزاعًا من صدور الرجال؛ وإنما بقبض العلماء، فإذا كان طلاب العلم يَتعلَّمون من العلماء فإنهم سيَخلفون العلماء ويبقى العلم، لكن إذا لم يَتعلموا من العلماء فإنه سيتّخذ الناس رؤوسًا

جهّالًا، لأنه لا بد لهم من رؤوس، فيُفتي أولئك الجهّال بغير علم؛ فيقع الضَّلال، والعياذ بالله.

الدرس الخامس والعشرون: شرح بَابُ مَا جَاءَ مِنْ اَلتَّغْلِيظِ فِيمَنْ عَبَدَ اَللَّهَ عِنْدَ قَبْرِ رَجُلٍ صَالِحٍ؛ فَكَيْفَ إِذَا عَبَدَهُ ؟!

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَن يهدي الله فلا مضلَّ له، ومَن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٢)

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ (النساء: ١)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ (الأحزاب: ٧١)

أما بعد:

فإنّ أحسن الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشرّ الأمور محدثاتها، وكلّ محدثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النار.

ثم أيها الفضلاء؛ نواصل شرحنا لكتاب التوحيد، الذي بُني على قال الله قال رسوله صلى الله عليه وسلم وآثار الصحابة، نشرحه بفَهم سلف الأمة، بفهم الصحابة، بفهم التابعين، بفهم الأئمة المتبوعين؛ نصحًا للأمة وقيامًا بالواجب.

فيتفضل الشيخ ياسين –وفقه الله– يقرأ لنا حيث وقفنا.

[بَابُ مَا جَاءَ مِنْ اَلتَّغْلِيظِ فِيمَنْ عَبَدَ اَللَّهَ عِنْدَ قَبْرِ رَجُلٍ صَالِحٍ؛ فَكَيْفَ إِذَا عَبَدَهُ ؟!]

معاشر الفضلاء؛ يا من أكرمكم الله بحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، هذا الباب العظيم الذي عقده الشيخ، عقده بعد أن بيَّن في الباب السابق أنّ الغلو في الصالحين هو السبب الأعظم لوقوع الشرك في الأرض؛ بدءً من أول شرك وقع على وجه الأرض، وعلى مرِّ التاريخ، وإلى يومنا هذا، وإلى أن يَرِثَ الله الأرض ومَن عليها. ولمّا كان من أعظم صور الغلو في الصالحين ما يَتعلَّق بالفتنة بقبورهم، وكان تَسلُّل الشرك إلى القلوب عند العكوف على قبور الصالحين كثيرًا وكبيرًا وخطيرًا؛ عَقَدَ الشيخ –رحمه الله عز وجل– هذا الباب؛ ليبيِّن أنّ الشرع قد سَدَّ باب هذه الفتنة سَدًّا محكَمًا، وأنه ما دخل الشرك على أقوام ممن يَنتسبون إلى الإسلام إلا بكسرهم لهذا الباب، ومخالفة النصوص البيِّنة الواضحة فيما يتعلق بالقبور، حتى أصبح تعلق مَن ينتسبون إلى الإسلام بالقبور أعظم من تعلُّقهم بالله سبحانه وتعالى، فإذا نزلت بهم نازلة لا يتذكرون

إلا أصحاب القبور، ولا يدعون إلا أصحاب القبور، عياذًا بالله من الشرك. والشرع قد حسم فتنة القبور وسَدَّ بابها سدًّا محكمًا، ومَنَعَ الذرائع إليها، ويظهر هذا في أمرين عظيمين:

الأمر الأوّل: يتعلق بالقبور ذاتها، يتعلق بذات القبور، ومن ذلك: أنّ الشرع نهى عن رفع القبور، وأمر بتسويتها. فقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بتسوية القبور؛ كما في صحيح مسلم، وقام علي –رضي الله عنه– لأبي الهيَّاج الأسدي –وكان صاحب الشرطة– (ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ ألّا تدع تمثالًا إلا طمسته، ولا قبرًا مشرِفًا إلا سوّيته)، فبيَّن علي –رضي الله عنه وأرضاه– أنّ النبي صلى الله عليه وسلم بعثه بهذا الأمر العظيم وهو أن يطمس التماثيل وأن يسوِّي القبور المشرِفة، وبَعَثَ أبا الهياج على هذا؛ وهذا يدل على استمرار هذا بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم، فلا يجوز رفع القبور إلا بالقَدْر الذي يُعرف أنه قبر، كأن يُرفع مقدار شبر إلى ذراع، وقد كان قبر النبي صلى الله عليه وسلم مسنَّمًا؛ أي: مرفوعًا عن الأرض ما يقارب الذراع. أمّا ما عدا ذلك من الرفع فإنه لا يجوز. ونهى الشرع عن البناء عليها، نهى عن أيّ بناء على القبور؛ فمن باب أولى بناء القُبب التي تدعو في صورتها إلى عبادة مَن تحتها؛ كما هو مشاهدٌ ومعلومٌ بالواقع، القبة إذا نُصِبت فإنها تدعو

بصورتها الناسَ إلى التقرُّب إلى مَن تحتها، كما هو مشاهَد في الواقع من تعلُّق الناس بالقباب.

أقول: إذا نهى الشرع عن أيّ بناء فمن باب أولى أن يتأكد النهي عن بناء القباب عن القبور. وقد نهى نبيُّنا وحبيبنا وإمامنا وقدوتنا وقرة أعيننا صلى الله عليه وسلم عن البناء على القبور؛ كما في صحيح مسلم، فالحديث صحيح ثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم.

ونهى الشرع عن الكتابة على القبور، «فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُكتب على القبر شيء» رواه ابن ماجه وصححه الألباني. فنهى النبي صلى الله عليه وسلم عن مطلَق الكتابة على القبور، وعَمَلُ حبيبنا ونبينا صلى الله عليه وسلم يدلُّ على كلِّ ذلك؛ فقد مات ابنه إبراهيم وهو الولد الذكر الوحيد الذي رُزِقَ به النبي صلى الله عليه وسلم فلم يرفع قبره، ولم يَبْنِ عليه، ولم يأمر بالكتابة عليه، وماتت ابنته رقية، وابنته أم كلثوم، ومات عمه حمزة، ومات أفاضلُ من صحابته رضوان الله عليهم؛ ومع ذلك لم يَرفع النبي صلى الله عليه وسلم قبورهم، ولم يَبْنِ عليها، ولم يأمر بالكتابة عليها، فلو كان ذلك مَكرَمةً أو شرفًا أو جائزًا لفعله النبي صلى الله عليه وسلم بهؤلاء، فلمّا رأينا النبي صلى الله عليه وسلم لم يَفعل ذلك عَلِمْنَا أنه لا يجوز.

كما أنّ مقاصد الشريعة تدل على منع كل ما تقدَّم؛ وذلك أنه متقرِّر أنّ من مقاصد الشريعة: استواء الناس في قبورهم. فالناس سواسية في قبورهم كالحج، ولا شك أنّ البناء على القبور والكتابة عليها ينافي هذا ويضاد هذا كما هو مشاهَد، فإنك ترى في مقابر الأقوام الذين يَبنون على القبور تباينًا عظيمًا بين القبور، فالأسرة الثرية الغنية تجد لها مَدفنًا مزخرفًا كبيرًا، والأسرة الفقيرة لا يوضع عليها شيء، والأسرة المتوسطة تجد لها مَدفنًا متواضعًا، فإذا دخلتَ المقبرة وجدتَ الناس في قبورهم مختلفين، هذا كأنه مدفون في قصر، وذاك مدفون في بيت، وذاك مدفون في عِشَّة، وهذا خلاف المقصود الشرعي، فإنّ المقصود الشرعي تراه في البقيع، فإذا دخلتَ البقيع وجدتَ القبور سواسية، وأنّ الناس متساوون في قبوره، وهكذا كان الناس في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، وهكذا كان في زمن الصحابة، ولا زال هذا ولله الحمد والمنَّة في بعض بلدان المسلمين.

إذن يا إخوة؛ نجد أنّ الشرع سدّ باب فتنة القبور فيما يتعلق في القبور ذاتها.

وأمّا الأمر الثاني: يتعلق بجعلها موضعًا للعبادة. حيث نهى الشرع عن جميع صور الصلاة ذات الركوع والسجود عند القبور، سواء تعددتِ القبور أو كانت قبرًا واحدًا، فليست القبور موضعًا للصلاة أبدًا، سواء صلى على القبر؛ جاء ووجد القبر وصلى فوق القبر، أو صلى إليه؛ جعله قبلة له، أو صلى عنده، ولو

كان القبر عن يمينة أو شماله أو ورائه، وسواء بُني على القبور مسجد أم لم يُبْنَ، فكلُّ هذا ممنوع شرعًا، فاتخاذ القبور مساجد كبيرة من كبائر الذنوب وشر عظيم.

وقد نص فقهاء المذاهب الأربعة على حرمة اتخاذ القبور مساجد. ودلت على ذلك الأحاديث التي معنا في هذا الباب، وسنشرحها إن شاء الله عز وجل.

كذلك؛ دلّ على ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: «الأرض كلها مسجد؛ إلا المقبرة والحمام» رواه الترمذي، وأبو داود، وابن ماجه، وصححه الألباني. النبي صلى الله عليه وسلم قال: (الأرض كلها مسجد» حيثما أدركتك الصلاة في موطنٍ من الأرض فصلِّ، هنا يدلنا على أنّ المسجد هنا مكان السجود وليس البناء، لأنه ليست الأرض كلها مبنيَّة مسجدًا، «الأرض كلها مسجد إلا المقبرة» فالمقبرة ليست مكانًا للصلاة.

ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة داخل المقبرة. رواه ابن حبان، وصححه الألباني.

ونهى النبي صلى الله عليه وسلم أن يصلي الرجل بين القبور. رواه ابن حبان، وصححه الألباني.

فهذا يدل على أنّ الصلاة ذات الركوع والسجود حرام؛ ولو كانت بين القبور؛ لو لم يكن الإنسان مستقبلًا قبراً ولا على قبر وإنما هو بين القبور.

وقال صلى الله عليه وسلم: «لا تَجلسوا على القبور، ولا تُصلوا إليها» رواه مسلم في الصحيح. «ولا تُصلوا إليها» أي: لا تجعلوها قبلة، لا تصلي والقبر أمامك؛ نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك.

وقال أنس –رضي الله عنه–: (قمتُ يومًا أصلي، وبين يديَّ قبرًا لا أشعر به) أنس رضي الله عنه يقول: كنت يومًا أصلي واستقبلتُ القبلة وبين يديّ قبرٌ لا أعلم به، لا أعلم أنّ هناك قبرًا، (فناداني عمر –رضي الله عنه–: القبر القبر!) ينادي أنسًا؛ لأنّ هذا الأمر منكَر؛ فيقول: القبر القبر! قال أنس –رضي الله عنه–: (فظننتُ أنه يريد القمر)؛ لأنه يتكلم من بعيد، وهذا يدل على عِظَم الأمر؛ ما انتظر عمر رضي الله عنه حتى يصل إلى أنس رضي الله عنه؛ بل من بعيد يقول: القبر القبر! فأنس رضي الله عنه لأنّ عمر رضي الله عنه يتكلم من بعيد سَمِعَ: القمر القمر! وجاء في رواية: أنه رفع بصره إلى القمر، (فقال عمر –رضي الله عنه– أريد القبر فإنّ القمر لا تَصِلُ إليه)، قال أنس –رضي الله عنه–: (فظننتُ أنه يعني القمر، فقال لي بعض مَن يَليني: إنما يعني القبر، فتنحيتُ عنه). هذه القصة روى أصلها البخاري تعليقًا، ووصلها عبد الرزاق والبيهقي، وقال الألباني: بإسناد صحيح. فهذا يدل على ما قرّرناه أيها الإخوة.

فإن قال قائل: يُعترض على ما قرَّرتموه في الأمرَين بدليل من الكتاب وآخر من السنة.

قلنا: ما الدليل من الكتاب؟

قال: قول الله عز وجل في قصة أهل الكهف: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِداً﴾ (الكهف: ٢١)، وهذا مِن شَرْع مَن قبلنا وشَرْع مَن قبلنا شَرْعٌ لنا. إذن هم اتخذوا عليهم مسجدا، وهذا من شرع من قبلنا، وشَرْع مَن قبلنا شَرْعٌ لنا؛ فهذا يدل على البناء على القبور وبناء المسجد على القبر؛ لأنه إذا جاز بناء المسجد جاز غيره.

قلنا: الجواب عن هذا من وجوه:

الوجه الأوّل: لا نسلِّم أنّ هذا مِن شرْع مَن قبلنا؛ فإنه ليس فِعْلَ نبي، ولا بإقرار نبي، وليس في الآية ما يدل على وجود نبيٍّ في ذلك الوقت أصلًا. إذن هذا مِن فِعْل بعض الناس، وفعْل بعض الناس ليس حجة. الآن يا إخوة فِعْلُ بعض المسلمين هل هو حجة على دين النبي صلى الله عليه وسلم؟ الجواب يقينًا: لا، فكذلك فِعْل أولئك الناس ليس حجة.

ثم إنّ بعض المفسرين قالوا: إنّ الذين قالوا هذا من المشركين. وقال بعضهم: من المسلمين. لكنّ الآية ظاهرة جدًّا في أنّ الذين قالوا إنما هم أهل الغلبة والقوة، فلم يكونوا أهل العلم ولا أهل الإتباع، وإنما أهل الغلبة والقوة: ﴿قالوا لنتخذن عليهم مسجدًا﴾، ولا عبرة بفعل أهل الغلبة والقوة. لو أنّ إنسانًا

جاءنا وقال: إنّ الحاكم –وهو له القوة– قد أمر بكذا؛ إذن هذا حلال! لضحكنا جميعًا، لأنّ الحاكم –مع قوته ومكانته إن كان مسلمًا– لا حجة في فِعله.

الوجه الثاني: أنّا لو سلَّمنا جدلًا أنه من شرْع مَن قبلنا، فإنّ العلماء متَّفقون على أنّ شرْع مَن قبلنا لا يكون شرعًا لنا إذا جاء في شرعنا ما يخالفه، هذا محل اجماع، إذا جاء في الشرع الساق شيء ثم جاءنا محمد صلى الله عليه وسلم بشيء فقد اتفاق العلماء على أنه ليس شرعًا لنا، لا اتفق العلماء على أنّ ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم يَرفع ما تقدَّم، وقد جاء في شرعنا ما يخالف هذا؛ فجاء منْع البناء على القبور، وجاء منْع اتخاذ القبور مساجد. إذن تبيَّن أنه لا حجة في الآية على بناء المساجد على القبور، ولا بناء الأبنية على القبور.

فما الدليل من السُّنة الذي يعارِض ما ذكرناه؟ قال: قبر النبي صلى الله عليه وسلم! قلنا: كيف يعارض ما ذكرناه؟ قال من وجوه ثلاثة:

الوجه الأوّل: أنّ النبي صلى الله عليه وسلم دُفِنَ في بيته بالإجماع، ومعنى ذلك أن قبره كان تحت البناء، وهذا يدل على جواز أن يكون على القبر بناء. هذا واضح. النبي صلى الله عليه وسلم دُفِنَ في بيته، وهذا محل إجماع، لا يخالف فيه أحد، قالوا: ما دام أنه دفن في بيته إذن كان عليه بناء؛ فهذا يدل على جواز أن يكون على القبر بناء!

هذا الوجه الأوّل. والجواب عنه:

أنّ الأنبياء لهم خصوصية، فإنّ موضع دفْن النبي توقيفيٌّ؛ لا يجوز تغييره، فالأنبياء يُدفنون حيث قُبضوا، وهذا خاصٌّ بالأنبياء. كل ميِّت يمكن أن تنقله إلى مكان آخر وتدفنه، إلا النبي، فإنّ من خصائص الأنبياء عليهم السلام أنهم يُدفنون في موضع موتهم، فالنبي صلى الله عليه وسلم دُفن في موضع موته، فهذه خصوصية للنبي، وليس لأحد أن يَحتج بها. هذا واضحٌ جدًّ.

يا إخوة! لمّا مات النبي صلى الله عليه وسلم الصحابة اختلفوا أين يدفنون النبي صلى الله عليه وسلم، وقال بعضهم: ندفنه في البقيع، فخاف أبو بكر الصديق –رضي الله عنه– أن يُعبَد ويُتَّخذ وثنًا، أعني قبره صلى الله عليه وسلم، ثم أخبرهم بما سَمِعَه من النبي صلى الله عليه وسلم من أنّ النبي يُدفن حيث قُبض، فدفنوه حيث مات صلى الله عليه وسلم. وهذا لخصوصية الأنبياء؛ فلا يُلحَق غير الأنبياء بالأنبياء.

لو قال قائل: سلَّمنا لكم خصوصية النبي صلى الله عليه وسلم –ولا يَملك إلا أن يُسلِّم لورود الحديث الصحيح– لكن ماذا تقولون في دفن أبي بكر وعمر –رضي الله عنهما–؟! قلنا: لمّا دُفن النبي صلى الله عليه وسلم في هذا المكان جاز دفْن غيره تَبَعًا، ويُغتفر في التوابع ما لا يُغتفر في غيرها، ويجوز تَبَعًا ما لا يجوز استقلالًا، فلم يُدفن أبو بكر الصديق –رضي الله عنه– في بيته استقلالًا، ولا عمر –رضي الله عنه، وإنما كان ذلك تَبَعًا لدفن النبي صلى الله عليه وسلم.

الوجه الثاني: أنّ النبي صلى الله عليه وسلم دُفن في بيت عائشة رضي الله عنها، ولا شك أنّ عائشة كانت تصلي في بيتها، إذن هذا يدل على جواز الصلاة عند القبور. هذا واضح يا إخوة، يقولون: إنّ النبي صلى الله عليه وسلم دُفن في بيت عائشة وهذا لا خلاف فيه ،ولا نزاع فيه، وعائشة رضي الله عنها بقيت بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم، ولا شك أنها كانت تصلي؛ إذن الصلاة عند القبور جائزة.

والجواب على هذا الوجه: أنّ المكان الذي دفن فيه النبي صلى الله عليه وسلم قد قُطع عن البيت، فكانت هناك سُترة على الباب تَفصله عن حجرة عائشة رضي الله عنها، ثم بعد ذلك بُني هذا الباب ووُضع حائط بين حجرة عائشة والقبور، فما كانت عائشة –رضي الله عنها– تصلي في المكان الذي فيه القبور.

الوجه الثالث: إن قبره في مسجده وقد أجمع العلماء على صحة الصلاة في قبر النبي صلى الله عليه وسلم، إذن تجوز الصلاة في مكان به قبر.

والجواب عن هذا الوجه: أنّ هذا جهلٌ بالواقع؛ فإنّ قبر النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن في المسجد، بل كان في بيت عائشة رضي الله عنها وهو خارج المسجد، كان النبي صلى الله عليه وسلم يقضي حاجته فيه، ويجامع زوجته فيه، فبيت عائشة –رضي الله عنها– ليس من المسجد، وبقي كذلك إلى

أن مات جميع الصحابة في المدينة. وعندما جاء الوليد بن عبد الملك خليفة للمسلمين –قيل: في سنة ثمان وثمانين، وقيل: في سنة تسعين، وقيل: في سنة إحدى وتسعين– أَدخل الحجرات في المسجد، يعني جعل المسجد شاملًا للحجرات؛ غير أنهم حَرِصوا على فَصْلِ القبر عن المسجد؛ وهذا ما يجهله كثير من الناس، كيف هذا؟ لمّا جاء عمر بن عبد العزيز –رحمه الله ورضي عنه– وقد كان الوالي على المدينة للوليد بن عبد الملك وأدخل الحجرات ماذا صنع في القبر؟ بنى حوله بناء محكَمًا، ولم يُجعل مكان من المسجد بين القبر والجهة الشرقية، يعنى القبر كان متصلًا بالجهة الشرقية، إذن المسجد من هنا ينتهي عند القبر؛ لأنّ القبر قد أحيط ببناء قوي، ثم بعد ذلك أحيط بحائط خماسي، ثم يكون مثلثًا إلى جهة الشمال، حائط خماسي له خمس زوايا حتى لا يكون مثل الكعبة، ثم حائطان ممتدان إلى جهة الشِّمال حتى يلتقيان على رأس مثلث، فمن جهة القبلة هو مخمَّس، ومن جهة الشِّمال هو رأس مثلث، وبقي القبر منفصلًا عن المسجد بهذه الحيطان، ثم هو متصل بالجهة الشرقية. واستمر الحال على هذا، لم يَدخل القبر حقيقة في المسجد، مفصول، إلى ما بعد ألف ومائتين وسبعين من الهجرة، قيل ١٢٧٧هـ أو نحو هذا؛ فُتِح مَمرٌّ في المسجد بين القبر والجهة الشرقية؛ فجُعلَت بقعة من المسجد من الجهة الشرقية، متى حصل هذا؟ بعد مرور اثني عشر قرنًا على موت النبي صلى الله عليه وسلم في سنة ١٢٧٠هـ

أو في سنة ١٢٧٧هـ، فهنا أصبح المسجد محيطًا بالقبر، بمعنى قبل ذلك كنتَ تأتي المسجد من ثلاث جهات: من جهة الجنوب، ومن جهة الغرب، ومن جهة الشمال، أمّا من جهة الشرق ما تستطيع؛ تكون خارج المسجد؛ إلا بعد أن فُتح هذا الممر فأصبحتَ تستطيع أن تأتي القبر من جميع الجهات. فالحَظوا يا إخوة! أنّ القبر أوّلًا لم يكن في المسجد مطلقًا مدة زمن الصحابة –رضوان الله عليهم– إلى أن مات آخر صحابي في المدينة في خمس وسبعين من الهجرة تقريبًا، ثم بعد ذلك بسنين حصل إدخال الحجرات من غير أن يُدخل القبر على؛ الوصف الذي ذكرناه، واستمر هذا قرون إلى سنة ألف ومائتين وسبعين، أو ألف ومائتين وسبعة وسبعين، وجُعل هذا الممر فأصبح القبر في داخل المسجد؛ أي انّ المسجد يُحيط به. ولا حجة في فِعْل المتأخرين.

الأمر الثاني: أنّ قبر النبي صلى الله عليه ولسلم ليس في مسجده إلى اليوم؛ وإنما أحاط المسجد بالقبر، كيف هذا؟ لو كان لي مزرعةً، ثم جاء رجل فاشترى الأراضي التي حول هذه المزرعة من جميع الجهات؛ هل يجعل هذا مزرعتي جزءً من مزرعته؟ الجواب: لا، ولكنّ مزرعته أحاطت بمزرعتي من جميع الجهات، فكذلك هذا الواقع؛ قبر النبي صلى الله عليه وسلم في بقعة متميِّزة؛ في بيته صلى الله عليه وسلم، والذي وقع أنّ المسجد قد أحاط به مع فصله بالحيطان التي ذكرناها أصلًا.

ثم إنّا نقول: إنّ لقبر النبي صلى الله عليه وسلم خصوصية ولمسجده خصوصية تمنع أن يقاس عليه غيره، كيف هذا؟ مسجد النبي صلى الله عليه وسلم له فضيلة خاصة لا يغني عنه مسجد آخر، وقبر النبي صلى الله عليه سلم موضعه توقيفيّ لا يجوز أن يُنقَل منه، وهذا ما لا يوجَد في أيِّ مسجدٍ فيه قبر.

فرضنا أنّ عندنا مسجدًا بالقاهرة أو بدمشق أو بالجزائر فيه قبر؛ لو أغلقنا هذا المسجد ما الذي يفوت؟ لا يفوت شيء نصلي في بقية المساجد، بيوت الله كلها سواء، طيِّب لو نقلنا القبر من المسجد ما المانع الشرعي؟ لا مانع. لكن هل ممكن هذا هنا في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم؟ هل يجوز لمسلم أن يفكِّر –مجرّد تفكير– أن يُنقَل قبر النبي صلى الله عليه وسلم؟ لا يجوز بالإجماع؛ لأنّ موضعه توقيفي، بغض النظر عن الخطأ الذي وقع بعد هذا.

هل يجوز أن نغلِق مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ونقول لأهل المدينة صلوا في بقية المساجد فكلها سواء؟ ما يجوز بإجماع أهل العلم؛ لأنه لا يغني عن مسجد النبي صلى الله عليه وسلم مسجد.

والأمر الآخر: أنّ قبر النبي صلى الله عليه وسلم لم يُبْنَ عليه المسجد، ولم يُدخَل في المسجد من أجل القبر. على القول بأنه داخل المسجد؛ لماذا أُدخل؟ من أجل توسعة المسجد. ولا تجد مسجدًا فيه قبر في الدنيا إلا ويكون المسجد قد بُني من أجل القبر فيكون القبر سابق فيُبنى عليه المسجد، أو يكون القبر

أُدخل في المسجد من أجل القبر. فصورة بناء المساجد على القبور أو إدخال القبور إلى المساجد تخالف ما وقع في قبر النبي صلى الله عليه وسلم.

وعليه؛ فلا حجة في هذا، ولا وجه لمعارضة الأدلة الصحيحة الصريحة بهذه الأمور، لم تبقَ حتى شبهة، فلا دليل يعارِض ما قرَّرناه.

ولا شك أنّ هذا الباب عظيم فإنّ أخطاء المسلمين المتعلِّقة بالقبور كبيرة جدًّا، وقادهم ذلك إلى زلل عظيم حتى وقع بعضهم في الشرك الأكبر. ففقه هذا الباب من أعظم الواجبات. وينبغي على طلاب العلم أن يبيِّنوه ويوضِّحوه للأمة محمد صلى الله عليه وسلم.

[فِي اَلصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها: أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ ذَكَرَتْ لِرَسُولِ اَللهِ صلى الله عليه وسلم كَنِيسَةً رَأَتْهَا بِأَرْضِ اَلْحَبَشَةِ، وَمَا فِيهَا مِنْ اَلصُّوَرِ، فَقَالَ: «أُولَئِكَ إِذَا مَاتَ فِيهِمْ اَلرَّجُلُ اَلصَّالِحُ أَوْ اَلْعَبْدُ اَلصَّالِحُ، بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ اَلصُّوَرَ، أُولَئِكَ شِرَارُ اَلْخَلْقِ عِنْدَ اَللهِ]

قال: (فِي اَلصَّحِيحِ) أي: عند البخاري ومسلم، فهذا الحديث متفق عليه بين الشيخين، فهو في غاية الصحة. (عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ رضي الله عنها) أم المؤمنين، وجاء في رواية أخرى: أنّ أم سلمة وأم حبيبة –رضي الله عنهما– قد ذكرتا هذا. (ذَكَرَتْ لِرَسُولِ اَللهِ صلى الله عليه وسلم كَنِيسَةً رَأَتْهَا بِأَرْضِ اَلْحَبَشَةِ» ذكرت لرسول الله: أي عند رسول الله صلى الله عليه وسلم،

وذلك في المرض الذي مرضه النبي صلى الله عليه وسلم في آخر حياته؛ لأنه جاء عند البخاري أنهما ذكرتا ذلك لمّا اشتكى صلى الله عليه وسلم، وتعلمون أنّ المرض لمّا اشتد بحبيبنا صلى الله عليه وسلم استأذن نساءه في أن يُمرَّض في بيت عائشة رضي الله عنها، فأذِنَّ له، وكنَّ يجتمعن عنده كلَّ يوم، ففي ذات يوم اجتمعن وهن يَتحدثن فذكرت أم سلمة وأم حبيبة هذه الكنيسة. وهذه الكنيسة جاء في الرواية الأخرى عند الشيخين أنه يقال لها: كنيسة مارية. (وَمَا فِيهَا مِنْ اَلصُّوَرِ) وفي رواية: ما فيها من الصور والتماثيل، (وذكرن من حسنها) أي: من حسن هذه الصور والتماثيل وإتقانها، يتحدثن مع بعضهن؛ فذكرن هذه الصور والتماثيل. وهذه الرواية فيها فائدة؛ إذ أنها تدل على أنهم كانوا يصوِّرون صورًا لها ظل، وهي المسماة بالتماثيل، ويصوِّرون صورًا ليس لها ظل وهي الرسم المسماة بالصور، يجعلون ذلك في الكنائس، ولايزال إلى اليوم يوجد هذا في الكنائس، فتجد –والعياذ بالله– أنهم يمثِّلون هيئة عيسى عليه السلام وهو مصلوب، ويمثلون تماثيل لمريم عليها السلام، ويصوِّرون صورًا لمن يُسمُّون من الأنبياء والصالحين في الكنائس. (فرفع رأسه) صلى الله عليه وسلم وهو يشتكي، مريض، وتعلمون أنّ الحمى كانت تشتد عليه، حتى كانت الحمى تكون محسوسةً من فوق اللحف التي توضَع على النبي صلى الله عليه وسلم، كان يوعك كما يوعك الرجلان أو أكثر، فرفع رأسه صلى الله عليه وسلم لمّا

سَمِعَ ذكرهن لهذا وما ذكرنه من حسن تلك التصاوير؛ يعني من جمالها، فقال صلى الله عليه وسلم: «أُولَئِكَ» قال العلماء: في التعبير بضمير البعيد فائدة أنهم مبعَدون عنا. (إِذَا مَاتَ فِيهِمْ اَلرَّجُلُ اَلصَّالِحُ أَوْ اَلْعَبْدُ اَلصَّالِحُ) شكٌّ من الراوي؛ هل قال النبي صلى الله عليه وسلم العبد الصالح او الرجل الصالح؟ «بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا»: فيَبنون أماكن العبادة على القبور، وهذا يدل على أنّ المقصود بالمسجد: موضع العبادة، لأنّ المقصود أنهم يَبنون كنائس، ما يبنون مسجًدا، لكن المقصود بالمسجد هنا: موضع العبادة. (بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا) هذا شيء، (وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ اَلصُّوَرَ) فيَجمعون بين فتنة القبور وفتنة الصور والتماثيل، قال العلماء: إنما يَبنون المسجد على القبر لعبادة الله؛ وليس لعبادة أصحاب القبور ابتداء، ويصوِّرون التماثيل ليَستأنسوا برؤيتها، ويَتشجعوا على العبادة، هذا أوَّل الأمر، ثم بعد ذلك يقعون في عبادة القبر وعبادة التماثيل.

قال: «أُولَئِكَ شِرَارُ اَلْخَلْقِ عِنْدَ اَللهِ» وهذا يدل على عظيم جرمهم حتى وُصِفوا بهذا الوصف، إذن من هم شرار الخلق؟ شرار الخلق عند الله الذين يَبنون المساجد على القبور، ويَتخذون الصور والتماثيل ولو لم يعبدوها، فكيف إذا عبدوها؟! وهذا يدل على حرمة بناء المساجد على القبور، وحرمة نصب الصور والتماثيل للصالحين وغيرهم. وهذا في آخر حياة النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا يَرُدُّ على من أغواهم الشيطان فقالوا: إنّ النهي عن اتخاذ القبور

مساجد كان في أوَّل الإسلام، قبل أن يَستقر التوحيد؛ فلمّا استقر التوحيد جاز ذلك! قالوا: هذا مثل زيارة القبور. تقدّم معنا أنّ النبي صلى الله عليه وسلم نهاهم عن زيارة القبور أوّلًا؛ ثم قال: «إني كنتُ نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزروها»، قالوا: هكذا هنا، النهي عن اتخاذ القبور مساجد، قالوا: كان في أوّل الإسلام، فلمّا استقرّ التوحيد وتمّكن من القلوب ارتفع هذا النهي! قلنا لهم: من أين لكم هذا؟ لا يُرفَع قول النبي صلى الله عليه وسلم إلا بقول النبي صلى الله عليه وسلم. ثم إنّ هذا الحديث وما بعده من الأحاديث يَرُدّ عليكم؛ لأنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال هذا في مرض موته، بعد أن استقر التوحيد وأذن للناس في زيارة القبور، فيدل على بطلان ما ذكروه.

[فَهَؤُلَاءِ جَمَعُوا بَيْنَ اَلْفِتْنَتَيْنِ: فِتْنَةَ اَلْقُبُورِ، وَفِتْنَةَ اَلتَّمَاثِيلِ]

هذا من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية بالمعنى، ومن كلام ابن القيم بالنص، وهذا ظاهر في الحديث؛ أنهم جمعوا بين هتين الفتنتين: فتنة القبور، وفتنة التماثيل والصور، وهما أساس الشر، وحبل الوقوع في الشرك، والعياذ بالله.

[وَلَهُمَا عَنْهَا، قَالَتْ: لَمَّا نَزَلَ بِرَسُولِ اَللهِ صلى الله عليه وسلم طَفِقَ يَطْرَحُ خَمِيصَةً لَهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَإِذَا اِغْتَمَّ بِهَا كَشَفَهَا، فَقَالَ وَهُوَ كَذَلِكَ: «لَعْنَةُ اَللهُ عَلَى اَلْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، اِتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»، يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا، وَلَوْلَا ذَلِكَ أُبْرِزَ قَبْرُهُ، غَيْرَ أَنَّهُ خُشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا. أَخْرَجَاهُ]

قال: (وَلَهُمَا) أي: الشيخين؛ البخاري وسلم، فهو متّفق عليه. (عَنْهَا) أي عائشة –رضي الله عنها. (قَالَتْ: لَمَّا نَزَلَ بِرَسُولِ اَللهِ صلى الله عليه وسلم) يعني لمّا أخذ في النَّزْع، لمّا جاءته سكرات الموت، وكانت سكرات الموت قد اشتدَّت بالنبي صلى الله عليه وسلم، وكان يقول: «لا إله إلا الله، إنّ للموت لسكرات» صلى الله عليه وسلم، وهو في هذا الكرب الشديد والنَّزع الشديد صلى الله عليه وسلم (طَفِقَ) ويقال: طَفَقَ. وكلاهما صحيح؛ والأفصح: الكسر، (طفق) يعني أخذ يَطْرَحُ خَمِيصَةً) أي يطرح كساءً من صوف، جاء أنه أسود وله أعلام، (عَلَى وَجْهِهِ) الشريف صلى الله عليه وسلم؛ من شدة النزع وشدة سكرات الموت، (فَإِذَا اِغْتَمَّ بِهَا كَشَفَهَا) أي: ضاق نفسه؛ كشفها، وجاء أنه كان يَبلُّها بالماء ويضعها على وجه الشريف صلى الله عليه وسلم لشدة النزع، فإذا (اغتمَّ بها) أي: ضاق نَفَسَه ؛لوجودها على وجهه؛ كشفها. (فَقَالَ وَهُوَ كَذَلِكَ) في آخر لحظة من لحظات حياته صلى الله عليه وسلم قال: «لَعْنَةُ اَللهُ عَلَى اَلْيَهُودِ وَالنَّصَارَى» لعنة الله هي الطرد والإبعاد من رحمة الله، وهي هنا من النبي صلى الله عليه وسلم:

- إمّا دعاء عليهم.
- وإمّا خبرٌ عن وقوع اللعنة عليهم. ولا شك أنهم لُعنوا.

«لَعْنَةُ اَللهُ عَلَى اَلْيَهُودِ وَالنَّصَارَى» لماذا؟ «اِتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ» أي: جعلوها موضعًا للصلاة والعبادة. والاتخاذ لا يَلزم منه البناء، لأنه كما قلنا أنّ المسجد: هو موضع الصلاة، موضع العبادة؛ سواء بُني عليه بناء أو لم يُبْنَ، بِمَ استحقوا لعنة الله؟ لاتخاذهم قبور أنبيائهم مساجد، وإذا كان ذلك في اتخاذ قبور الأنبياء فمن باب أولى في اتخاذ قبور من دونهم ممن يقال إنهم من الأولياء أو الصالحين. قالت رضي الله عنها وأرضاها: (يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا) أي: يحذِّر الأمّة، يحذِّركم مما صنعوا. لا إله إلا الله! النبي صلى الله عليه وسلم وهو يودِّع الدنيا ويفارقها في آخر لحظات حياته صلى الله عليه وسلم يحذِّر أمته من اتخاذ القبور مساجد.

ونجد بعضًا ممن قد يَنتسبون إلى العلم يُحبِّبون إلى الناس بناء المساجد على القبور! نعوذ بالله من الضَّلال. المؤمن المُحِبّ للنبي صلى الله عليه وسلم إذا عَلِمَ أنّ هذا آخر ما قاله صلى الله عليه وسلم يَعلَم أنّ هذا الأمر عظيم؛ كيف أنّ النبي صلى الله عليه وسلم وهو في النزع وهو في كرب السكرات يقول هذه المقالة العظيمة، يحذِّرنا مما صنع اليهود والنصارى، هذا ليس خبرًا لتسلية، ولا قصةً تذكَر، وإنما النبي صلى الله عليه وسلم يحذِّر أمته مما صنعوا.

قالت: (وَلَوْلَا ذَلِكَ أُبْرِزَ قَبْرُهُ) أي: لولا الخوف من أن يُبنى عليه ويُتَّخذ موضعًا للعبادة لأُبرز قبره؛ أي: أُخرِج، ولكنّ الله شاء ألّا يُبرَز قبره؛ فقَبَضَه داخل

بيته، والله حَكَمَ أنَّ النبي يُدفن حيث مات، فالله عز وجل قضى أن يُدفَن داخل بيته ولا يُبرَز، وفَهِمَ ذلك الصحابة، ولم يُبرزوا قبره للناس. وليس الإبراز بمعنى الرَّفع؛ وإنما المقصود بالإبراز: الإخراج للناس، فلم يُدفَن في البقيع ولا في غير ذلك، وإنما دُفِن في داخل بيته، ما أحد يستطيع أن يدخل بيته صلى الله عليه وسلم.

وإلى اليوم ما يستطيع أحد أن يدخل مكان قبره صلى الله عليه وسلم، حَفِظَ الله قبر النبي صلى الله عليه وسلم:

- أمّا في أوّل موته: بوجود أمِّنا عائشة –رضي الله عنها– في البيت. ما يستطيع أحد أن يدخل، وكان الناس في ذلك الوقت من الصحابة علَّمهم النبي صلى الله عليه وسلم.
- ثم بعد ذلك: ببناء الحائط.
- ثم في زمن عمر بن عبد العزير: ببناء الحائط الخماسي؛ المخمَّس والمثلث.
- ثم بعد ذلك –وأنا نسيت أن أذكرها قبل– وُضِعَ حائط من حديد. فهذا الحائط الثالث، والظاهر أنه هو الموجود الآن. وهذا في زمن العثمانيين وُضِع.

ما أحدٌ يستطيع الوصول إلى قبر النبي صلى الله عليه وسلم.

وبعضُ الدَّجالِين يَكذِبون على الناس؛ يقولون: أنا عندي مفاتيح القبر، وأنا أدخل داخل القبر وآتي بهذه التربة، هذه التربة الجرام منها بمائة ألف! وبعض العمَّال هناك يكذِبون على الناس يتاجرون. في إخواننا خير لكن بعض الناس كذّابون. أنا مرةً قرأت قصة أنّ عاملًا يزعم أنه كان يعمل في المسجد النبوي، وكان مكلَّفًا بكنس القبر، وكان يدخل إلى القبر –يزعم– ويَكنس ما حول القبر ويخبئ شيئًا من التراب في داخل لباسه، يقول: لأنّ الهيئة هناك يمنعون! كذّاب؛ ما أحد يستطيع أن يصل إلى قبر النبي صلى الله عليه وسلم.

قالت: (وَلَوْلَا ذَلِكَ أُبْرِزَ قَبْرُهُ؛ غَيْرَ أَنَّهُ خُشِيَ) أي: خَشِيَ الصحابة. وجاء في ضَبْطٍ: خَشِيَ؛ أي: خَشِيَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم. (خُشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا) وإذا كان هذا خُشِيَ على قبر النبي صلى الله عليه وسلم وهو محذور بالنسبة لقبر النبي صلى الله عليه وسلم؛ فمن باب أولى ما دونه، فما عرفتِ الأرض قبرًا أشرف من قبره، وما حوى قبرٌ أشرف من النبي صلى الله عليه وسلم، ومع ذلك خُشِيَ أن يُتخذ قبره مسجدًا فلم يُبرَز للناس.

فهذا يدلنا على الأمر الكليِّ اليقينيّ: أنه لا يجوز أن يُبنى البناء على القبر مهما كان فضل صاحب القبر.

[وَلِمُسْلِمٍ عَنْ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اَللهِ قَالَ: سَمِعْتُ اَلنَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ وَهُوَ يَقُولُ: «إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اَللهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ، فَإِنَّ اَللهَ قَدْ

اِتَّخَذَنِي خَلِيلاً كَمَا اِتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلاً لاَتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً، أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَّا فَلَا تَتَّخِذُوا اَلْقُبُورَ مَسَاجِدَ، إِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ»]

قال: (وَلِمُسْلِمٍ) أي: في صحيح مسلم. (عَنْ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اَللهِ قَالَ: سَمِعْتُ اَلنَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ) أي: بخمس ليال.

إذن انتبهوا يا إخوة؛ هذه الأحاديث في غاية الإحكام:

- قالها النبي صلى الله عليه وسلم في مرض موته. هذا الحديث الأوّل.
- قالها النبي صلى الله عليه وسلم وهو يعاني سكرات الموت عند النزع، وهو في السياق. هذا الحديث الثاني.
- قالها النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يموت بخمس، وما هذا إلا للتأكيد، وهو في هذه الحال؛ في مرض موته، قبل أن يموت بخمس، عند النزع يؤكِّد هذه القضية الكليَّة على الأمَّة.

وقد جاء أنّ هذا كان في خطبته صلى الله عليه وسلم؛ ولعلها الخطبة الأخيرة التي خرج النبي صلى الله عليه وسلم فيها إلى الناس قبل أن يموت وخطب الناس، وَهُوَ يَقُولُ: «إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اَللهِ» أي: أمتنع وأُنكِر «أن يكون لي منكم خليل» أي: من أمته. والخليل: هو الحبيب غاية المحبة، مأخوذ من الخَلَّة؛ وهي: تخلل المودة والحب في القلب تَخلُّلًا عظيمًا، وهذا يقتضي

الانقطاع. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اَللهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ؛ فَإِنَّ اَللهَ قَدْ اِتَّخَذَنِي خَلِيلاً) وفي هذا رَدٌّ على نُفاة الصفات، في هذا بيان أنّ الله يُحب؛ وقد اتخذ الله إبراهيم خليلًا، أي: اصطفاه بغاية محبته. واتخذ محمدًا صلى الله عليه وسلم خليلًا؛ فاصطفاه بغاية محبته سبحانه وتعالى، ففي هذا إثبات الصفات لربنا على ما يليق بجلال ربنا سبحانه وتعالى، وفي هذا رَدٌّ على نفاة الصفات.

قال: (فَإِنَّ اَللهَ قَدْ اِتَّخَذَنِي خَلِيلاً كَمَا اِتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلاً لَاِتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً) وجاء في رواية عند الشيخين؛ قال: «لو كنتُ متخذًا خليلًا؛ لاتخذتُ أبا بكر خليلًا، ولكن أُخوَّة الإسلام ومودته» يعني بيني وبين أبي بكر أخوة الإسلام ومودته؛ المحبة لله، وهذا يدل على أنّ الخُلَّة أعلى من المحبة؛ فهي أعلى درجات المحبة. النبي صلى الله عليه وسلم يقول: لو كنتُ متخذًا من أمتي خليلًا لاتخذتُ أبا بكر خليلًا، هل كان النبي صلى الله عليه وسلم يحب أبا بكر؟ الجواب: نعم كان يحب أبا بكر، بل أحب الناس إلى النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر، لمّا سئل: مَن أحبُّ الناس إليك؟ قال: «عائشة»، قيل: مِن الرجال: قال: «أبوها» أبو بكر الصديق. لكنه لم يَتخذه خليلًا؛ لأنّ الخُلَّة أعلى درجات المحبة.

وقد جاء في رواية للبخاري ومسلم أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ولكن أخي وصاحبي». وهذا يدل على فضل أبي الصديق –رضي الله عنه– وأنه أفضل الأمّة بعد الرسول صلى الله عليه وسلم. وفي هذا رَدٌّ على الذين يَسبونه ويَلعنونه. النبي صلى الله عليه وسلم مات وهو راضٍ عنه، قبل أن يموت بخمس يقول: «ولكن أخي وصاحبي»، «ولكن أخوة الإسلام ومودته»؛ ما ذكر إلا أبا بكر؛ لأنه أفضل الصحابة، قال: «لو كنتُ متخذًا خليلًا لاتخذتُ أبا بكر خليلًا»؛ إذن هو أفضل الصحابة. إذن أعلى مَن يحبهم النبي صلى الله عليه وسلم من الناس هو أبو بكر الصديق –رضي الله عنه، ما منعه من اتخاذه خليلًا إلا أنه خليل الله؛ كما جاء في الروايات. وفي هذا –كما قال العلماء–: إشارة إلى أنه الخليفة؛ لأنه ما دام أنه أفضل الأمّة وأحب الأمّة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فلن يتقدَّم عليه أحد، ولا يستحق أحد الخلافة من دونه. رضي الله عن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أجمعين.

قال: «أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ» أي: يتخذونها مواضع للعبادة. «أَلَّا فَلَا تَتَّخِذُوا اَلْقُبُورَ مَسَاجِدَ» هذا نهيٌ للأمّة، حتى لا يقول أحد: هذا حكاية عن اليهود أما نحن ما نُهينا! قال: «أَلَّا فَلَا تَتَّخِذُوا اَلْقُبُورَ مَسَاجِدَ» ثم أكَّ النهي فقال: «إِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ»، مع أنّ النهي تقدَّم في قوله: «فلا تتخذوا» لكن أكد النهي: «فإني أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ». فتعجب كيف

يسمع مسلم يحب النبي صلى الله عليه وسلم ذلك ثم يبني على القبر مسجدًا؟ والنبي صلى الله عليه وسلم يقول ذلك في آخر حياته.

فهذه أحاديث صحيحة محكَمه لا يتطرق إليها ضَعف، ولا يمكن أن تكون منسوخة؛ لأنّ النبي صلى الله عليه وسلم قالها في آخر حياته؛ فلم تُنسَخ. فهي محكَمة في معناها، محكَمة في ذاتها. وهذا يدل دلالة بيِّنة على حرمة اتخاذ القبور مساجد.

الدرس السادس والعشرون: تابع شرح بَابُ مَا جَاءَ مِنْ اَلتَّغْلِيظِ فِيمَنْ عَبَدَ اَللَّهَ عِنْدَ قَبْرِ رَجُلٍ صَالِحٍ؛ فَكَيْفَ إِذَا عَبَدَهُ ؟!]

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَن يهدي الله فلا مضلَّ له، ومَن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٢)

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ (النساء: ١)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ (الأحزاب: ٧١)

أما بعد:

فإنّ أحسن الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشرّ الأمور محدثاتها، وكلّ محدثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النار.

ثم يا معاشر الفضلاء، يا من أكرمكم الله عز وجل بان كنتم في مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم، في هذه المدينة التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحبها، وكان إذا قدم من سفر فرأى جدراتها حركها دابته وأوضَع راحلته؛ أي: أسرع صلى الله عليه وسلم؛ من محبته لها، ومن مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذي كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلي فيه، وكان يعلّم الناس فيه صلى الله عليه وسلم، وقال فيه صلى الله عليه وسلم: «صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه؛ إلا المسجد الحرام»، وتجتمعون في مجلس علم تلتمسون الخير والحق والهدى في أعظم حق وأعظم فرض؛ ألا وهو التوحيد، والنبي صلى الله عليه وسلم قال: (من جاء مسجدنا هذا ليتعلَّم خيرًا أو يعلِّمه كان كالمجاهد في سبيل الله». ايها الفضلاء نجتمع لنشرح شيئًا من كتاب التوحيد الذي يتعلَّق بأحبِّ شيء إلى قلوبنا وبأعظم ما طُلب منا، يتعلَّق بحق ربنا سبحانه وتعالى، وكيف لا يكون حق الله أحب شيء إلى عبد الله، حق الله أعظم ما افتُرض على الإنسان. فهذا الكتاب العظيم يتعلَّق بهذا الحق العظيم. وكنا في مجلسنا الماضي نشرح في باب: (ما جاء في التغليظ فيمن عبد الله عند قبر صالح فكيف إذا عبده؟!) وأخذنا الادلة التي فيها سدُّ الشرع للذرائع الموصلة إلى الافتتان بالقبور إلى الشرك بالله بسبب الفتنة بالقبور، وشرحنا الاحاديث الصحيحة الثابتة المحكمة عن النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الباب،

ونواصل اليوم القراءة والشرح لما تبقى في هذا الباب. فيتفضل الشيخ خليل يقرأ لنا.

قال المصنف رحمه الله في باب باب: (ما جاء في التغليظ فيمن عبد الله عند قبر صالح فكيف إذا عبده؟!): [فَقَدْ نَهَى عَنْهُ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ، ثُمَّ إِنَّهُ لَعَنَ -وَهُوَ فِي اَلسِّيَاقِ- مَنْ فَعَلَهُ، وَالصَّلَاةُ عِنْدَهَا مِنْ ذَلِكَ، وَإِنْ لَمْ يُبْنَ مَسْجِدٌ]

يقول الشيخ -وهذا من قطعة من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله-: (فَقَدْ نَهَى) أي: رسولنا وحبيبنا صلى الله عليه وسلم، (عَنْهُ) أي: نهى عن اتخاذ القبور مساجد؛ أي: مواضع للعبادة عندها كما تقدّم بيانه. والنبي صلى الله عليه وسلم نهانا عن هذا، ونوَّع فقال تارة عن أولئك الذين يتخذون القبور أنبيائهم مساجد: «أولئك شرار الخلق عند الله»، وقال تارة: «لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم»، وفي رواية عند مسلم: «وصالحيهم مساجد»، وتارة قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ألا فلا تتخذوا القبور مساجد؛ فإني أنهاكم عن ذلك»، فالنبي صلى الله عليه وسلم نهى أمته، ونهى كلَّ مَن يؤمن به ويشهد أن محمدًا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتخذ القبور مساجد. وقد نقلنا لكم أنّ فقهاء المذاهب الأربعة من الأحناف والمالكية والشافعية والحنابلة قد نَصُّوا على تحريم اتخاذ القبور مساجد.

قال: (فقد نهى عنه فِي آخِرِ حَيَاتِهِ) فهذا النهي جاء من النبي صلى الله عليه وسلم في آخر حياته قبل أن يموت بخمس، وهو في مرض موته، ثم وهو في آخر لحظة وهو يعاني سكرات الموت صلى الله عليه وسلم نهى عن ذلك، لذلك قال: (ثُمَّ إِنَّهُ لَعَنَ –وَهُوَ فِي اَلسِّيَاقِ–) أي عند الاحتضار وهو يعاني صلى الله عليه وسلم من سكرات الموت، يضع يده في الماء ويبل وجهه به، ويضع كساء أسود من صوف مخطط يضعه عل وجه، فإذا أغتم كشفه؛ ويقول: «لا إله إلا الله، إنّ للموت لسكرات»، وهو في هذا السياق وفي هذا الموضع الشديد وفي هذا النزع الشديد كان صلى الله عليه وسلم يقول: «لعنة الله على اليهود والنصارى؛ اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد». وهذا يدلك يا عبد الله على أنّ رسولك وحبيبك وإمامك صلى الله عليه وسلم مات وهو ينهى عن هذا، ويحذِّر من هذا. وهذا لا شك يجعل قلب المؤمن يَنفر من هذا المنكر العظيم، فضلًا عن أن يكون من أهله الذين يعملون به. لا شك أنّ المؤمن يفر فرارًا شديدًا من أن يكون من أهل هذا الأمر الذي مات النبي صلى الله عليه وسلم وهو يبيِّن أنه من كبائر الذنوب الذي يستحق بها المرء إذا فعلها –والعياذ بالله– لعنة الله والطرد من رحمة الله عز وجل.

قال الشيخ –تبعًا لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله–: (وَالصَّلَاةُ عِنْدَهَا مِنْ ذَلِكَ وَإِنْ لَمْ يُبْنَ مَسْجِدٌ)، الصلاة عند القبور من اتخاذها مساجد، ليس

المقصود فقط من اتخاذها مساجد أن تُبنى عليها مساجد، وإنما المقصود أن تُتَّخذ موضعًا للصلاة؛ سواء صلى فوق القبر، أو صلى إلى القبر، أو صلى بين القبور، فكل هذه الصور نهى عنها النبي صلى الله عليه وسلم.

[وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهَا: خَشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا. فَإِنَّ اَلصَّحَابَةَ لَمْ يَكُونُوا لِيَبْنُوا حَوْلَ قَبْرِهِ مَسْجِدًا]

قال: (وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهَا) أي: قول أمّنا أم المؤمنين عائشة –رضي الله عنها–: (خُشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا) أي: أن يُتَّخذ موضِعًا للصلاة، وليس المقصود أنه خُشِيَ أن يُبنى عليه مسجد؛ لأنّ الأمر كما قال الشيخ: (فإنّ اَلصَّحَابَةَ لَمْ يَكُونُوا لِيَبْنُوا حَوْلَ قَبْرِهِ مَسْجِدًا)، لا يمكن أن يبني الصحابة حول قبر النبي صلى الله عليه مسجدًا، لماذا؟ لأمرين:

الأمر الأوّل: أنهم عَلِمُوا من النبي صلى الله عليه وسلم أنّ بناء المسجد على القبر من كبائر الذنوب، وحرام حُرمة مغلَّظة، يستحق به العبد لعنة الله، ومن المحال أن يَسمع صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم من رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الأحاديث التي سمعناها ويخالفوها.

الأمر الثاني: فالمعلوم أنّ النبي صلى الله عليه وسلم دُفن في بيته، وأنّ بيته ملاصقٌ لمسجده صلى الله عليه وسلم، فمن المحال أن يأتي الصحابة ويَبنوا

مسجدًا آخر ملاصقًا لمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم. فهذا لا يمكن أن يقع من الصحابة رضوان الله عليهم.

إذن؛ من المعلوم أنّ مَن كانوا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكونوا ليَبنوا على قبره مسجدًا، فمعنى قولها: (خُشِيَ أن يُتَّخذ مسجدًا): أن يُتَّخذ موضعًا للعبادة؛ للصلاة والدعاء وغير ذلك.

[وَكُلُّ مَوْضِعٍ قُصِدَتِ الصَّلَاةُ فِيهِ، فَقَدِ اتُّخِذَ مَسْجِدًا، بَلْ كُلُّ مَوْضِعٍ يُصَلَّى فِيهِ، يُسَمَّى مَسْجِدًا]

انتبه هنا! قال الشيخ: (وَكُلُّ مَوْضِعٍ قُصِدَتِ اَلصَّلَاةُ فِيهِ، فَقَدِ اِتُّخِذَ مَسْجِدًا) أي: أنّ كل موضع يَقصِدُ الناس الصلاة فيه– أي يُقصَد ليُصلى فيه– فهو مسجد؛ سواء بُنِيَ أو لم يُبْنَ، يعني لو أنّا في حيّ ولم يُبْنَ عندنا مسجد حتى الآن، فجعلنا مكانًا سوَّرناه بشيء يسير، وأصبحنا ننادي للصلوات الخمس فيه؛ فإنه يكون مسجدًا؛ لأنه إذا نودِي للصلاة قصدناه جميعًا لنُصلِّيَ فيه؛ فهو مسجد. فلا يُشترَط أن يكون مبنيًّا عليه. إذن قال: (وكُلُّ مَوْضِعٍ قُصِدَتِ اَلصَّلَاةُ فِيهِ، فَقَدِ اِتُّخِذَ مَسْجِدًا، بَلْ) وهذا للإضراب (بَلْ كُلُّ مَوْضِعٍ يُصَلَّى فِيهِ، يُسَمَّى مَسْجِدًا) ولو كان لا يُقصَد، أيّ موضع صليتَ فيه فهو مسجد. مثلًا أنا ماشٍ بالسيارة في السفر فوقفت بسيارتي ونزلت أصلي؛ هذا مسجد. والمرأة تصلي في

بيتها؛ موضع صلاتها هذا مسجد. لأنه دلّ الدليل الشرعي على أنّ المسجد هو موضع الصلاة مطلقًا.

[كَمَا قَالَ صلى الله عليه وسلم: «جُعِلَتْ لِيَ اَلْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا»]

قَالَ صلى الله عليه وسلم: «جُعِلَتْ لِيَ اَلْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا» هذ افي الصحيحين. وهذا من خصائص أمَّة محمد صلى الله عليه وسلم، أنّ المسلم حيث ما أدركته الصلاة يصلي، وليس من شرط صحة الصلاة أن يكون في مسجد مبني، بل إذا صلى في أيّ مكان صَحَّتْ صلاته، طيب هل المراد هنا بالمسجد المبني؟ يعني أنّ الأرض كلها بُنِيَتْ؟ الجواب يقينًا: لا، ولذلك تقدّم معنا في الحديث أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الأرض كلها مسجد؛ إلا المقبرة والحمام»، فدَلَّ على أنّ المراد بالمسجد هو موضع الصلاة وإن لم يُبْنَ بناء.

[وَلِأَحْمَدَ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ عَنْ اِبْنِ مَسْعُودٍ -رَضِيَ اَللَّهُ عَنْهُ- مَرْفُوعًا: (إِنَّ مِنْ شِرَارِ اَلنَّاسِ مَنْ تُدْرِكُهُمْ اَلسَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، وَاَلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ اَلْقُبُورَ مَسَاجِدَ)، رَوَاهُ أَبُو حَاتِمٍ فِي صَحِيحِهِ]

قال الشيخ: (وَلِأَحْمَدَ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ عَنْ اِبْنِ مَسْعُودٍ -رَضِيَ اَللَّهُ عَنْهُ- مَرْفُوعًا: (إِنَّ مِنْ شِرَارِ اَلنَّاسِ مَنْ تُدْرِكُهُمْ اَلسَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، وَاَلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ اَلْقُبُورَ مَسَاجِدَ) قال: ورواه، أكثر نسخ كتاب التوحيد: (رواه) بدون واو. وفي نسخة

واحدة وهذا الذي عندنا: (ورواه) وهذا الأصل أن يقال: ورواه؛ لأنه قال في الأوّل: (ولأحمد)، يعين مع كون الاحمد رواه فقد رواه أيضًا أبو حاتم، وأبو حاتم هو ابن حبّان؛ يقال: رواه ابن حبان في صحيحه، ويقال: رواه أبو حاتم في صحيحه. فهذا الحديث رواه أحمد وابن حبان كما قال الشيخ ورواه أيضًا ابن أبي شيبة والطبراني في الكبير وصححه الألباني. والشيخ هنا قال: (بسند جيد) تبعًا لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عز وجل. وقد بيّن الشيخ الإمام الفقيه المحدّث الشيخ الألباني رحمه الله أنّ الحديث صحيح.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ مِنْ شِرَارِ اَلنَّاسِ» أي: في الدنيا «مَنْ تُدْرِكُهُمْ اَلسَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ»، جاء في صحيح مسلم أنّ النبي صلى اله عليه وسلم قال: «لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس»، لن تقوم الساعة على صالح، وإنما ستقوم على شرار الناس، فهذه الجملة الأولى موجودٌ معناها في صحيح مسلم؛ أنّ الساعة إنما تقوم على شرار الناس. ووجه ذلك: أنّ الله عز وجل يَبعث في آخر الزمان ريحًا من اليمن أَلْيَنَ من الحرير، فلا تَدَعُ أحدًا في قلبه مثال ذرة من إيمان إلا قبضته. وهذا الحديث ثبت في صحيح مسلم. يبعث ربنا سبحانه وتعالى ريحًا من اليمن هي أَلْيَنُ من الحرير، ما عملها؟ لا تدع أحدًا في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته قبل قيام الساعة. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: الله الله» رواه مسلم، يعني:

يذهب الصالحون الذين يذكرون الله، ولا يبقى إلا الشرار. وفي رواية أيضًا عند مسلم يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تقوم الساعة على أحد يقول: الله الله»، إذن لن تقوم الساعة على صالح، وإنما ستقوم على شرار الخلق.

إذن؛ «إِنَّ مِنْ شِرَارِ اَلنَّاسِ مَنْ تُدْرِكُهُمْ اَلسَّاعَةُ» أي تقوم الساعة «وَهُمْ أَحْيَاءٌ».

قال: (وَاَلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ اَلْقُبُورَ مَسَاجِدَ)، وقد تقدَّم هذا في الحديث الأوّل؛ أنهم شرار الخلق عند الله، فالذين يَتخذون القبور مساجد أشرارٌ في الدنيا؛ لأنهم يَفعلون ما حَرَّم الله، ويَتسبَّبون في الشرك بالله، وهم شرار الخلق عند الله يوم القيامة.

فهذا الحديث العظيم يبيِّن لنا أنّ بناء المساجد على القبور شرٌّ، وأنّ الذين يَفعلونه أشرار. وكيف يرضى المسلم المصدِّق بالنبي صلى الله عليه وسلم أن يَفعل الشرَّ الذي وَصَفَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم أهلَه أنهم من شرار الخَلق؟ لا شك أنّ في هذا زجرًا عظيمًا عن اتخاذ القبور مساجد.

[فِيهِ مَسَائِلُ: اَلْأُولَى: مَا ذَكَرَ اَلرَّسُولُ صلى الله عليه وسلم فِيمَنْ بَنَى مَسْجِدًا يُعْبَدُ اَللهُ فِيهِ عِنْدَ قَبْرِ رَجُلٍ صَالِحٍ، وَلَوْ صَحَّتْ نِيَّةُ اَلْفَاعِلِ]

أوّل أمر ما ذكره النبي صلى الله عليه وسلم فيمن بنى على القبر مسجدًا وجعله موضعًا للصلاة في قوله صلى الله عليه وسلم: (أولئك شرار الخلق)، ولم يُلتَفتْ إلى نيتهم، فهذا يدلك يا عبد الله على عِظم الأمر.

[اَلثَّانِيَةُ: اَلنَّهْيُ عَنْ اَلتَّمَاثِيلِ فإذا اجْتَمَعَ الأمْرَانِ تَغَلَّظَ الأمْر]

النهي عن تصوير التماثيل، والتماثيل: هي الصور التي لها ظل، إذا أَقمتها يكون لها ظل، هذه تماثيل، هذا منهيٌّ عنها، ومن أعظم أسباب الوقوع في الشرك نَصْب التماثيل.

[اَلثَّالِثَةُ: اَلْعَبْرَةُ فِي مُبَالَغَتِهِ صلى الله عليه وسلم فِي ذَلِكَ، كَيْفَ بَيَّنَ لَهُمْ هَذَا أَوَّلًا، ثُمَّ قَبْلَ مَوْتِهِ بِخَمْسٍ قَالَ مَا قَالَ، ثُمَّ لَمَّا كَانَ فِي النَّزْعِ لَمْ يَكْتَفِ بِمَا تَقَدَّمَ]

وهذا يجعل المؤمن حريصًا على البَعْد عن هذا الأمر الذي مات النبي صلى الله عليه وسلم وهو يُحذِّر منه.

[اَلرَّابِعَةُ: نَهْيُهُ عَنْ فِعْلِهِ عِنْدَ قَبْرِهِ قَبْلَ أَنْ يُوجَدَ اَلْقَبْرُ]

النبي صلى الله عليه وسلم قال وهو في النزع: «لعنة الله على اليهود والنصارى اتَّخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، قالت أم المؤمنين عائشة –رضي الله عنها–: يُحذِّر ما صنعوا، قبل أن يموت صلى الله عليه وسلم ويكون له قبر نهاهم عن هذا الأمر.

[اَلْخَامِسَةُ: أَنَّهُ مِنْ سُنَنِ اَلْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فِي قُبُورِ أَنْبِيَائِهِمْ]

بمعنى أنه لو لم يَرِدْ إلا أنّ هذا من فعل اليهود والنصارى لوَجَبَ علينا أن نخالفهم؛ لأنّ النبي صلى الله عليه وسلم كان يخالفهم، فكيف وقد وَرَدَت النصوص المغلّظة في هذا الأمر.

[اَلسَّادِسَةُ: لَعَنُهُ إِيَّاهُمْ عَلَى ذَلِكَ]

وهذا يدلُّ على أنّ بناء المساجد على القبور من كبائر الذنوب.

[اَلسَّابِعَةُ: أَنَّ مُرَادَهُ صلى الله عليه وسلم تَحْذِيرُنَا عَنْ قَبْرِهِ]

كما قالت أمُّنا عائشة –رضي الله عنها–: _يحذِّر ما صنعوا).

[اَلثَّامِنَةُ: اَلْعِلَّةُ فِي عَدَمِ إِبْرَازِ قَبْرِهِ]

أنّ الصحابة خَشوا أن يُتَّخذ مسجدًا.

[اَلتَّاسِعَةُ: فِي مَعْنَى اِتِّخَاذِهَا مَسْجِدًا]

وهو أن يُتَّخذ موضعًا للتعبُّد، وليس المقصود أن يُبنى مسجد عليه، لِمَا ذَكَرنا من الأمرين.

[اَلْعَاشِرَةُ: أَنَّهُ قَرَنَ بَيْنَ مَنْ اِتَّخَذَهَا وَبَيْنَ مَنْ تَقُومُ عَلَيْهِمْ اَلسَّاعَةُ، فَذَكَرَ اَلذَّرِيعَةَ إِلَى اَلشِّرْكِ قَبْلَ وُقُوعِهِ مَعَ خَاتِمَتِهِ]

قَرَنَ في حديث ابن مسعود بين من تقوم عليهم الساعة وهم المشركون، وبين اتخاذ القبور مساجد وهذا ذريعة إلى الشرك، فذَكَر الذريعة والسبب، وذكر ما تُوصِل إليه وهو الشرك.

[الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: ذِكْرُهُ فِي خُطْبَتِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ بِخَمْسٍ، اَلرَّدَّ عَلَى اَلطَّائِفَتَيْنِ اَللَّتَيْنِ هُمَا أَشَرُّ أَهْلِ اَلْبِدَعِ، بَلْ أَخْرَجَهُمْ بَعْضُ أَهْلِ اَلْعِلْمِ مِنَ اَلثِّنْتَيْنِ وَالسَّبْعِينَ فِرْقَةً، وَهُمْ اَلرَّافِضَةُ وَالْجَهْمِيَّةُ]

مراد الشيخ أنّ في الحديث الرَّد على مَن يَتَنَقَّصون صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويلعنون خير الأمّة بعد رسولها؛ يلعنون أبا بكر –رضي الله عنه– ويَحكمون عليه في النار، مع أنّ النبي صلى الله عليه وسلم بين فضله كما تبيَّن معنا. والرَّد على مَن يُعطِّلون الصفات؛ لأنّ الحديث فيه إثبات الخُلَّة لله، فالله عز وجل ثَبَتَ له في ما يَتعلق بالمحبة ثلاثة أمور:

الأمر الأوّل: الخُلَّة. وهذه الخُلَّة من الله إنما ثبتت لعبدَين من عباد الله: إبراهيم عليه السلام، ونبيُّنا صلى الله عليه وسلم، فهذه الصفة متعلقة بهذين النبيين الكريمين فيما علمناه.

الأمر الثاني: المحبة. فالله يُحِبُّ ويُحَبُّ، المؤمنون يحبون الله، والله يحب المؤمنين.

الأمر الثالث: المودة. فالله ودود.

وفي هذا ردٌّ على الذين يؤوّلون الصفات أو ينفونها.

[وَبِسَبَبِ اَلرَّافِضَةِ حَدَثَ اَلشِّرْكُ وَعِبَادَةُ اَلْقُبُورِ، وَهُمْ أَوَّلُ مَنْ بَنَى عَلَيْهَا اَلْمَسَاجِدَ. اَلثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: مَا بُلِيَ بِهِ صلى الله عليه وسلم مِنْ شِدَّةِ اَلنَّزْعِ]

النبي صلى الله عليه وسلم كان يُضعَّف عليه البلاء في حياته وعند مماته صلى الله عليه وسلم؛ وذلك ليُضعَّف له الأجر، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يوعَك إذا مرض كما يوعَك الرجلان، في حياته صلى الله عليه وسلم، وتشد عليه الحمى، وعند موته كان يعاني من السكرات جدًّا حتى أنه يأخذ الماء ويَبُلّ وجهه الشريف صلى الله عليه وسلم، ويضع الخميصة على وجه ويقول: «لا إله إلا الله، إنّ للموت لسكرات»، وفي هذا فائدتان:

الفائدة الأولى: عظم مقام النبي صلى الله عليه وسلم، وأنّ البلاء لا ينافي المقام. لأنّ بعض الناس إذا رَأوا رجلًا مبتلى أساءوا الظن به، ولربما جاء بعض الغِلاظ وقالوا له: هذا من ذنوبك، هذا يدل على أنك مذنب! ولا شك أنّ الذنوب قد تكون سببًا للبلاء؛ لكن كما قال العلماء: "في باب البلاء يُسيئ المرء الظن بنفسه، ويُحسن الظن بإخوانه". فإذا نزل بأحدنا البلاء يسيئ الظن بنفسه، يقول :ما جاءني هذا البلاء إلا بسبب ذنوبي، إلا من بعدي عن الله، ويتوب ويراجع ويؤوب. وإذا رأى البلاء نزل بأخيه أحسن الظن بأخيه ويقول: لعل الله أراد به منزلة، لعل هذا لعلوِّ مقامه عند الله عز وجل، ولا يمنع من أن يذكِّره بغير غِلظة. فكون أنّ النبي صلى الله عليه وسلم كان يُبتلى ويشتدّ عليه البلاء حتى في موته، فيه بيان أنّ شدة البلاء لا تنافي عظم المقام، ولا تدل على نقص.

الفائدة الثانية: أنّ النبي صلى الله عليه وسلم بشر، ليس له من الأمر شيء، حتى عندما مات صلى الله عليه وسلم ما مَلَكَ أن يَدفع عن نفسه شدَّة النَّزع، بل كان يحاول أن يُخفِّف عن نفسه، فيأخذ ماء ويمسح وجهه الشريف صلى الله عليه وسلم، يأخذ كساء ويضعه على وجهه، وإذا اغتم كشفه، ما يملك، إذا وضع الكساء على وجه واختنق وضَعُفَ تنفسه رفعه عن نفسه، لنَعْلَم أنّ حبيبنا ونبينا صلى الله عليه وسلم إنما هو بشر ليس له من الأمر شيء، وإنما الأمر كله لله، فلا نعبده من دون الله، ولا نَصرف له مقدار شعرة من العبادة، ولكن نضعه في مقامه، فلا نكون جفاة في حقه صلى الله عليه وسلم، فإذا ذكرنا أنّ النبي صلى الله عليه وسلم بشر؛ نَذْكُرُ أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، شرَّفه الله عز وجل بالرسالة، وهو سيد ولد آدم صلى الله عليه وسلم.

[اَلثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: مَا أُكْرِمَ بِهِ صلى الله عليه وسلم مِنَ اَلْخُلَّةِ]

النبي صلى الله عليه وسلم خليل الله، اتَّخذه اللهُ خليلًا، واتَّخذ الله خليلًا.

الله عز وجل اتَّخذ حبيبنا صلى الله عليه وسلم خليلًا، وليس صحيحًا ما يقوله بعض الناس الذين يتكلمون بأهوائهم بدون الرجوع إلى النصوص والأدلة؛ من قول بعضهم: إبراهيم خليل الله، ومحمد صلى الله عليه وسلم حبيب الله، ويزعمون أنّ المحبة أعلى من الخُلَّة! وليس الأمر كذلك، بل الخُلَّة أعلى، ولذلك اتَّخذ الله محمدًا صلى الله عليه وسلم خليلًا؛ فهو خليل الله، والنبيُّ

صلى الله عليه وسلم اتَّخذ ربَّه خليلًا، ولم يَجعل لأحد في هذا نصيبًا، لم يَتَّخذ من البشر خليلًا، وإنما اتَّخذ اللهَ خليلًا، مع كونه يحب عائشة، ويحب أبا بكر، ويحب الصحابة، رضوان الله عليهم.

[اَلرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: اَلتَّصْرِيحُ بِأَنَّهَا أَعْلَى مَنْ اَلْمَحَبَّةِ]

لأنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل»، وأثبت المحبة، فدلَّ ذلك على أنّ الخُلَّة أعلى من المحبة.

[اَلْخَامِسَةَ عَشْرَةَ: اَلتَّصْرِيحُ بِأَنَّ اَلصِّدِّيقَ رضي الله عنه أَفْضَلُ اَلصَّحَابَةِ رضي الله عنهم]

بلا شك، بل هو أفضل الأمّة، بل هو أفضل البشر بعد الأنبياء –رضي الله عنه وأرضاه–؛ لأنّ النبي صلى الله عليه وسلم كان يحبه محبة شديدة، فهو أحب الناس إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ومات النبي صلى الله عليه وسلم وهو على ذلك، وما مَنَعَهُ أن يتخذه خليلًا إلا أنه اتخذ الله خليلًا، ولولا هذا المانع لاتخذه خليلًا، فماذا يقول المؤمن بعد ذلك في أبي بكر الصديق –رضي الله عنه؟ ألا يحب المؤمن أبا بكر الصديق رضي الله عنه محبة شديدة كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يحبه؟ بلى والله.

[اَلسَّادِسَةَ عَشْرَةَ: اَلْإِشَارَةُ إِلَى خِلَافَتِهِ رضي الله عنه]

إذا ثبت أنه أفضل الأمّة وأنّ النبي صلى الله عليه وسلم مات وهو يحبه أشد الناس محبة، وهو راضٍ عنه؛ دلَّ ذلك على الأَولى بالخلافة بعد موت رسول الله صلى الله عليه وسلم.

تابع الدرس السادس والعشرون: بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ اَلْغُلُوَّ فِي قُبُورِ اَلصَّالِحِينَ يُصَيِّرُهَا أَوْثَانًا تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اَللَّهِ

[بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ اَلْغُلُوَّ فِي قُبُورِ اَلصَّالِحِينَ يُصَيِّرُهَا أَوْثَانًا تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اَللَّهِ]

لمّا تقدّم بيان أنّ السبب الأعظم لوقوع الشرك في الأرض هو الغلو في الصالحين، وبيان أنّ الشرع قد غلَّظ في عبادة الله عند قبر رَجُلٍ صالح عَقَدَ الشيخُ هذا الباب ليبيِّن أنّ أعظم الغلو في الصالحين شرًّا هو: الغلو في قبورهم. الغلو في الصالحين شرٌّ، وأشرُّه الغلو في قبورهم. وهذا يبيِّن لنا أمرين:

الأمر الأوّل: أنّ السبب الأعظم لوقوع أقوامٍ من أمّة محمد صلى الله عليه وسلم في الشرك: هو الغلو في القبور، فتنة القبور. وحيث ما قرأتَ أو توجَّهتَ اليوم فوجدتَ أرضًا يُشرَك فيها بالله من أقوامٍ يَنتسبون إلى الإسلام ستجدُ أنّ السببَ الأعظم هو القبور، والفتنة بالقبور، وهذا يجعلنا نَحْذَر من هذه الفتنة العظيمة.

الأمر الثاني: أنّ الشرع إنما غلّظ في عبادة الله عند قبر الرجل الصالح؛ لكون ذلك ذريعةً إلى الشرك. لماذا غلَّظ الشرع في عبادة الله عند قبر رجل صالح؟ الجواب: لأنّ ذلك ذريعةً إلى الشرك.

قال: (بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ اَلْغُلُوَّ فِي قُبُورِ اَلصَّالِحِينَ) الغلو في قبور الصالحين كله حرام، لكنه:

- قد يكون شركًا أكبر.

- وقد يكون بدعة.

- وقد يكون محرَّمًا.

وأضرب لك مأمثلة: رجل جاء عند القبر وقال: يا سيدي فلان أغثني! هذا غلوٌّ في هذا القبر وفي المقبور، وهذا شرك أكبر؛ لأنه صرف العبادة –وهي الدعاء والاستغاثة– لصاحب القبر.

مثال آخر: رجل جاء عند قبر رجل صالح وقال: اللهم أغثني! وهو يَعتقد أنّ للبقعة فضلًا وأثرًا في إجابة الدعاء، ترك بيته وترك المسجد وذهب عند القبر، وهو يعتقد أنّ لهذا المكان فضلًا وأنّ له أثرًا في إجابة الدعاء؛ هذه بدعة.

مثال آخر: رجل دعها الله عند القبر ولم يعتقد فضيلة المكان؛ لكن قَصَدَ أن يدعو عند القبر؛ فهذا حرام؛ لكونه ذريعة إلى الشرك.

مثال آخر: رجل دعا الله عند القبر لأمر عارِض؛ هذا ليس غلوًّا، هذا دعاء، مباح. مثلًا: رجلٌ رأى رجلًا عند القبر يَفعل شركًا أو حرامًا فقال له: اتقِ الله هذا يُغضِب الله ونهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له: أنت كذا وكذا. فقال: أسأل الله أن يهديك، هذا دعا الله عند القبر أو ما دعا؟ دعا لكن لسبب عارض، ليس للقبر، وليس للبقعة، هذا جائز. هذا دعاء.

إذن؛ الغلو قد يكون شركًا اكبر: إذا كان من باب صرف العبادة لصاحب القبر.

وقد يكون بدعة إذا اعتقد فضيلة المكان.

وقد يكون حرامًا إذا عَبَدَ الله عند القبر بقَصْد من غير اعتقاد خصوصية المكان. هو يَعتقد أنّ عبادة الله هنا وهناك كلها سواء؛ فهذا حرام.

أمّا إذا عَبَدَ الله لسببٍ عارِض واقتضى هذه العبادة؛ فهذا جائز ومشروع، ما في بأس.

مثلًا: مَن جاء بذبيحة وذبحها عند القبر لصاحب القبر؛ هذا شرك أكبر؛ لأنه جعل الذبح للمقبور.

أمّا إذا جاء بالذبيحة وذبحها لله، ليس لصاحب القبر، ولكن اعتقد فضيلة المكان؛ فهذه بدعة.

وإذا ذبح الذبيحة عند القبر من غير اعتقاد لفضيلة المكان، يقول: كله سواء ذبحتْ هنا أو ذبحتْ هناك، لكن تَعمَّد الذبح عند القبر؛ هذا حرام. لأنه يأتي جاهل يراه يذبح عند القبر فيقول: رأيت الشيخ يذبح عند القبر، فيأتي ويذبح عند القبر. وقد سدَّ النبي صلى الله عليه وسلم هذا الباب.

الصدقة مثلًا؛ لو أنّ الإنسان جاء عند القبر وتَصدَّق بمبلغ متقرِّبًا لصاحب القبر بهذه الصدقة؛ هذا شرك أكبر.

أمّا إن كان معتقدًا أنّ الصدقة هنا لله أفضل من غيرها؛ فهذه بدعة.

وإن كان متصدقًا لله من غير تخصيص لفضيلة المكان بل يرى أنّ الصدقة في كل مكان سواء لكن يَخُصُّ المكان؛ هذا حرام.

تصدَّق لعارِض؛ مرَّ بالقبور فرأى مسكينًا فقيرًا عند القبور فأعطاه صدقة، هذا جائز مشروع؛ لأنّ هذا لأمر خارِج عن القبر.

إذا ضبطنا هذا يا إخوة فإنّ الأمور تَنضبِط عندنا. الغلوّ في قبور الصالحين –بمعنى مجاوزة الحد الشرعي– حرام كله. لكن هل نقول: إنّ كل غلو في قبور الصالحين يكون شركًا؟ الجواب: لا، بل قد يكون شركًا أكبر، وقد يكون بدعة –وهي أعظم من الذنوب–، وقد يكون محرمًا، ذنبًا، هذا الغلو، فإن كان على الوجه المشروع فهذا جائز وليس من الغلو.

يقال الشيخ: (مَا جَاءَ أَنَّ اَلْغُلُوَّ فِي قُبُورِ اَلصَّالِحِينَ يُصَيِّرُهَا أَوْثَانًا تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اَللهِ) الأوثان جمع وثن، والوثن: كل ما يُعبَد من دون الله، سواء كان مصوَّرًا على صورة ذي روح، أم لم يكن مصوَّرًا؛ كالقبر والشجر والشمس والقمر والبقر، فهذه كلها أوثان إذا عُبِدَت من دون الله عز وجل.

لو قال قائل: قبر الرجل الصالح يُصبح وثنًا؟ نعم، يصبح وثنًا إذا عُبِدَ من دون الله، بل إنّ قبر النبي صلى الله عليه وسلم لو عُبِدَ من دون الله –ولن يكون– لأصبح وثنًا بكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم، مع أنّ الله أكرم رسوله صلى

الله عليه وسلم فحَفِظَ قبره من أن يُعبَد؛ أي بموضعه، أمّا ما يقع في قلوب الناس فهذا في قلوب الناس وليس في القبر.

[ورَوَى مَالِكٌ فِي اَلْمُوَطَّأِ أَنَّ رَسُولَ اَللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: (اَللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ اِشْتَدَّ غَضَبُ اَللهِ عَلَى قَوْمٍ اِتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ)]

قال: (ورَوَى مَالِكٌ فِي اَلْمُوَطَّأِ)، الموطأ هو أوّل الكتب الصحيحة، وكان يُرى أنه أصحّ كتاب على وجه الأرض حتى ألّف البخاري صحيحه. ومالك أعلى إسنادًا من البخاري، ولكن مالكًا رحمه الله لم يَشترط الصحة في الموطأ بخلاف البخاري.

هذا الحديث الذي معنا رواه مالك مرسَلًا عن عطاء، وهو تابعي، رَفَعَه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، لكنّ الحديث رواه البزار، وأبو يعلى، والبيهقي في "معرفة السنن"، وابن عبد البر، وصحَّحه الشيخ ناصر رحمه الله عز وجل بمجموع شواهده، ورواه أحمد بلفظ: «اللهم لا تجعل قبري وثنًا، لعن الله قومًا اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، وصححه الشيخ أحمد شاكر، وقال الشيخ الأرنؤوط: إسناده قوي، وحسَّنه الشيخ الألباني. فالحديث ثابت.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: «اَللَّهُمَّ » أي: يا الله! فدعا الله عز وجل «لَا تَجْعَلْ» أي لا تُصيِّر «قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ» فكل ما عُبِدَ من دون الله فهو وثن، حتى قبر النبي صلى الله عليه وسلم لو عُبِدَ من دون الله لصار وثنًا، ولكنّ الله حفظه.

وقوله: (يُعْبَدُ) هذا للتوكيد؛ وإلا فلا يُسمى وثنًا إلا إذا كان يُعبَد من دون الله، ولكن كما يقول العلماء: هذا وصْفٌ كاشِف يزيد المعنى ويؤكِّده.

إذن؛ يا مؤمن إذا سمعتَ النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «اللهم» يتوسل إلى الله، يسأل الله: «لا تجعل قبري وثنًا يعبد»، هل يليق بك وأنت المحِبّ للنبي صلى الله عليه وسلم أن تَصرف شيئًا من العبادة للنبي صلى الله عليه وسلم وهو في قبره؟! أن تأتي من السودان أو من مصر أو من تركيا أو من أمريكا أو من أيّ مكان فيه إخوان لنا من المسلمين، تأتي إلى القبر وتناديه وتدعوه من دون الله والنبي صلى الله عليه وسلم كان يخاف من هذا؟! تعلم أنّ النبي صلى الله عليه وسلم كان يخاف من هذا ويسال الله ألا يجعل قبره وثنًا يُعبَد؛ كيف تطيب نفسك أن تَصرف له شيئًا من أنواع العبادة؟!

قال النبي صلى الله عليه وسلم: «اِشْتَدَّ غَضَبُ اَللهِ» وفي هذا إثبات صفة الغضب لله، على ما يليق بجلال الله، غضب الله ليس كغضب الناس؛ لا في الحقيقة ولا في الأثر، ولذلك نحن إذا سَمِعْنَا الصفة أثبتناها بمعناها على ما يليق بجلال ربنا سبحانه وتعالى، ونفينا التمثيل، وأَبينا التعطيل. والله يغضب؟ نعم؛ بل غضب الله يتفاوت، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم هنا: «اشتد غضب الله»أي: ازداد غضب الله.

وفي صحيح البخاري عندما يسأل الناس الأنبياء يوم القيامة أن يشفعوا لهم عند الله، ويأتون إلى آدم عليه السلام، فيعتذر أبونا آدم عليه السلام، ويقول: «إنّ ربي قد غضب غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله»، عندما يأتيه الناس يقولون: أنت أبو البشر، اشفع لنا عند الله، أي: أن يقضي بين الخلائق، فيقول: «إنّ ربي قد غضب غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله»، فدل ذلك على أنّ ربنا يغضب سبحانه وتعالى، وأنّ غضبه يتفاوت. فنحن نُثبِت لله الغضب على ما يليق بجلال ربنا، ولا نؤوّل ولا نعطِّل ولا نمثِّل، وهذا يقتضي منا يا إخوة أن نخاف من غضب الله، والله يغضب إذا انتُهِكت محارمه، فنَحذَر من الحرام، ومن انتهاك المحارم.

قال: «اشتدَّ غضب الله عَلَى قَوْمٍ» أيّ قوم اتصفوا بهذه الصفة: (اِتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ)، فانظر يا عبد الله؛ جمع النبي صلى الله عليه وسلم بين التحذير من الشرك وبين اتخاذ الوسيلة إلى الشرك؛ قال: «اللهم لا تجعل قبري وثنًا يعبد» هذا الشرك، ثم قال: «اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»؛ لأنّ هذا وسيلة إلى الوقوع في الشرك.

[وَلِابْنِ جَرِيرٍ بِسَنَدِهِ عَنْ سُفْيَانَ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى﴾، قَالَ: كَانَ يَلُتُّ لَهُمُ اَلسَّوِيقَ، فَمَاتَ، فَعَكَفُوا عَلَى قَبْرِهِ. وَكَذَا قَالَ أَبُو اَلْجَوْزَاءِ، عَنْ اِبْنِ عَبَّاسٍ: كَانَ يَلُتُّ اَلسَّوِيقَ لِلْحَاجِّ]

روى ابن جرير بإسناد صحيح عن مجاهد، ومجاهد هو تلميذ ابن عباس رضي الله عنهما، عرض مجاهد على ابن عباس رضي الله عنهما آية آية، وابن عباس يفسرها له، فهو من أعلم الناس بالتفسير، قال في قول الله عز وجل: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى﴾ قال: (كَانَ يَلُتُّ لَهُمْ اَلسَّوِيقَ) يعني هذا رجل صالح، كان يُعرَف بالصلاح والأعمال الطيبة، ومن صلاحه أنه كان يَقعُد على طريق الحجاج من جهة الطائف، وهناك صخرة يَلُتّ عليها السويق، والسويق: هو الشعير إذا حُمِّصَ بالنار، ثم دُقَّ، ثم أضيف إليه عسل أو سمن أو زيت أو ماء، ويَكمُل إذا أضيف إليه التمر. فأُخِذ الشعير فحمِّصَ بالنار ثم دُقَّ، وبعض الناس يأخذ الدخن ويُحمّص بالنار، ثم يُدق، ثم يضاف إليه سائل؛ عسل، زيت، ماء، ويضاف إليه التمر، فكان يفعل ذلك ليُطعم الحجاج، فكان يُعرف بالصلاح، فهو لاتٌّ، وخُفِّفَت التاء. (فَمَاتَ) فلمّا مات قُبِر عند الصخرة التي كان يَلُتّ عليها (فَعَكَفُوا عَلَى قَبْرِهِ) صاروا إذا جاءوا يَمرُّون على قبره ويعكفون، ليست زيارة شرعية للسلام والدعاء، بل ليعكفوا على قبر، ويَبقَون عند قبره؛ وهذه بدعة، العكوف عند القبر بدعة، وهو سبب للوقوع في الشرك، ثم ما لَبِثَ أن عبدوه، وانتقلتِ العبادة إلى الصخرة التي كان يَلُتّ عليها، فعظَّموا الصخرة مع تعظيمهم للقبر وعبدوها من دون الله. فدلَّ ذلك على أنّ الغلو في قبور الصالحين يقود إلى أن تُعبَد من دون الله عز وجل.

وتقدّم معنا أنّ بعض أهل العلم –منهم مجاهد– ذكروا أنّ "اللات" مشتق من اسم الله، ولا تَعارض بين الأمرين، فإنه كان لاتًّا؛ بالتشديد؛ أي: يَلُتّ السويق، فلمّا مات وعكفوا على قبره وعبدوه؛ نقلوا اسمه من اللاتِّ إلى اللاتْ، واللاتْ اشتقوها من "الله"، من اسم الله عز وجل، وهذا من إلحادهم في أسماء الله عز وجل.

(وَكَذَا قَالَ أَبُو اَلْجَوْزَاءِ) وهو تابعي ثقة (عَنْ اِبْنِ عَبَّاسٍ: كَانَ يَلُتُّ اَلسَّوِيقَ لِلْحَاجِّ)، وذَكَرَ الشيخ هنا لفائدة أنه كان رجلًا صالحًا؛ فهو يلت السويق للحجاج؛ فهذا يدل على صلاحه؛ لأنه يطعم الحجاج.

[وَعَنْ اِبْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اَللَّهُ عَنْهُمَا– قَالَ: لَعَنَ رَسُولُ اَللَّهِ صلى الله عليه وسلم زَائِرَاتِ اَلْقُبُورِ، وَالْمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا اَلْمَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ. رَوَاهُ أَهْلُ اَلسُّنَنِ]

قال: (وَعَنْ اِبْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اَللَّهُ عَنْهُمَا– قَالَ: لَعَنَ رَسُولُ اَللَّهِ صلى الله عليه وسلم زَائِرَاتِ اَلْقُبُورِ، وَالْمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا اَلْمَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ. رَوَاهُ أَهْلُ اَلسُّنَنِ) رواه أبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، ورواه الإمام أحمد أيضًا، فرواه الخمسة.

قال: (وَعَنْ اِبْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اَللَّهُ عَنْهُمَا– قَالَ: لَعَنَ رَسُولُ اَللَّهِ صلى الله عليه وسلم زَائِرَاتِ اَلْقُبُورِ) اختُلِف في هذا اللفظ "زائرات"؛ هل هو ثابت أو ضعيف؟ والتحقيق: أنّ لفظ "زائرات القبور" ضعيف؛ لأنّ إسناد هذا الحديث

ضعيف، لكن وَرَدَ عن ثلاثة من الصحابة: «لعن الله زَوَّارات القبور» أو «زُوَّارات القبور» ضبطت هكذا، وضبطت هكذا. وهذه اللفظة "زَوَّارات" أو "زُوَّارات "صحيحة بشواهدها.

إذن؛ هذا اللفظ يدل على أنّ زيارة النساء للمقابر كبيرة من كبائر الذنوب، تقتضي اللعن، وتوجِب اللعن.

لو قال قائل: النبي صلى الله عليه وسلم لعن زوَّارات، وكيف تقول: إن زيارة النساء، وزوَّارات صيغة مبالغة؟ قلنا: إنّ أهل العلم قالوا: إنّ زوَّارات هنا صفة لكثرة النساء، وليست لكثرة الزيارة، فهنّ زوَّارات لكثرتهن، وهذا مشاهَد، المرأة ما تذهب لوحدها، بل تذهب مع مجموعة من النساء، فقالوا: زوّارات هنا ليست صفة لفعلهن وإنما هي صفة لعددهن، أي انهن كثيرات عند الزيارة ولو مرة واحدة.

الوجه الثاني: إنّ صفة التفضيل هنا يُراد منها النفي مطلقًا، كقوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾يعني: لا يَظلم مطلقًا، فالمقصود بالزوّارات هنا: النهي عن الزيارة مطلقًا، انّ النساء لا يزرن القبور مطلقًا.

وقلت لكم: إنّ بعض أهل العلم ضَبَطَ هذه اللفظة بضم الزاي: (زُوَّارات)، وقالوا: هي جمع زُوَّارة، وزُوَّارة: يعني زائرة، على غير قياس في اللغة، فزُوَّرات هنا بمعنى جمع للزائرة، جمع زُوَّراة ولو كان مرة واحدة، فدل ذلك على تحريم

زيارة النساء للمقابر، وقد مرّت المسألة مرارًا في دروسنا، وذكرنا خلاف أهل العلم فيها، وقلنا: إنّ الراجح عندنا: أن زيارة النساء للمقابر حرام، ولكن المرأة إذا مرّت بالمقابر من غير قصد الزيارة يُشرَع لها أن تسلِّم وتدعو لأهل القبور.

(لَعَنَ رَسُولُ اَللهِ صلى الله عليه وسلم زَائِرَاتِ اَلْقُبُورِ) إذن هذه الجملة من الحديث ضعيفة بهذا اللفظ، والصحيح: (زَوَّرا ت القبور) أو (زُوَّرات القبور).

قال: (وَالْمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا اَلْمَسَاجِدَ) معنى هذه الجملة مواترٌ صحيح، وإن كان الإسناد هنا ضعيفًا، لكنّ معنى الجملة صحيح؛ لأنه ورد عندنا عدد من الأحاديث في ذلك.

(وَالسُّرُجَ) لم يأت هذا اللفظ إلا بهذا الإسناد، وهذا الإسناد اختلف فيه أهل العلم، صححه بعضهم كشيخ الإسلام ابن تيمية، وضعفه بعضهم كالشيخ الألباني، ونَصَّ جمع من أهل العلم على أنه ، وهذا الأقرب –والله أعلم– انه ضعيف. ما معنى: (وَالْمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا اَلْمَسَاجِدَ والسُّرُج)؟ يعني الذين يَتخذون السُّرج على القبور، فيَضعون على القبر سراجًا، وهذا سبب للغلو فيه، ومجاوزة الحدّ فيه.

لو وُضِعَت الأنوار في المقبرة، هل هذا جائز؟

نصَّ أهل العلم على أنّ هذا لا يجوز إلا عند الحاجة، مثلًا أرادوا أن يَدفنوا ميتًا بالليل يجوز أن يتخذوا سراجًا، ليستبينوا المكان والموضع ونحو ذلك،

ويدل لذلك أنّ النبي صلى الله عليه وسلم لما ذهب إلى البقيع بالليل –تقدّم معنا في قصة عائشة رضي الله عنها– لم يأخذ معه سراجًا وهو يزور، وإنما ذهب وسلَّم ودعا طويلًا ثم عاد.

إذن؛ الأصل أن لا تُتَّخذ السُّرج في المقابر إلا عند الحاجة وبمقدار الحاجة.

[فِيهِ مَسَائِلُ: اَلْأُولَى: تَفْسِيرُ اَلْأَوْثَانِ]

(تفسير الأوثان) من حديث النبي صلى الله عليه وسلم، وهو أنّ الوثن: هو الذي يُعبَد من دون الله، فما عُبِدَ من دون الله صُيِّر وثنًا، ولم لم يكن تمثالًا، ولو لم يكن موجودًا عند الجاهلية؛ لأنّ بعض الناس يقولون: الوثن هو الذي كان موجودًا عند الجاهلية، نقول: النبي صلى الله عليه وسلم قال: (اللهم لا تجعل قبري وثنًا يُعبَد)؛ ولم يكن ذلك عند الجاهلية.

[اَلثَّانِيَةُ: تَفْسِيرُ اَلْعِبَادَةِ]

وأن العبادة من جهة التعبُّد هي: التذلل والخضوع على وجه الخوف والرجاء والمحبة.

[اَلثَّالِثَةُ: أَنَّهُ صلى الله عليه وسلم لَمْ يَسْتَعِذْ إِلَّا مِمَّا يُخَافُ وُقُوعُهُ]

نعم؛ لأنّ بعض الناس يقولون: الشرك لا يقع في أمّة محمد صلى الله عليه وسلم، ولذلك يشركون ويقولون: أمّة محمد صلى الله عليه وسلم بريئة من

الشرك! يَعبدون القبور ويقولون: لا يقع الشرك في أمّة محمد صلى الله عليه وسلم! وسيأتينا الباب قريبًا للردّ على هذه الشبهة.

من الأدلة على أنّ الشرك قد يَقع في أمّة النبي صلى الله عليه وسلم: أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: «اللهم لا تجعل قبري وثنًا يُعبد» فلو لم يكن ذلك محتمَلًا لَمَا سأل النبي صلى الله عليه وسلم النجاة والسلامة منه، فلمّا دعا عَلِمْنَا أنه يمكن أن يقع، لكنّ الله أجاب دعاءه صلى الله عليه وسلم فلا يُتَّخذ قبره وثنًا.

[اَلرَّابِعَةُ: قَرْنُهُ بِهَذَا اِتِّخَاذَ قُبُورِ اَلْأَنْبِيَاءِ مَسَاجِدَ]

جَمَعَ بين الشرك ووسيلة الشرك. الشرك: أن يُتخذ القبر وثنًا، ووسيلة الشرك: أن يُبنى على القبر مسجد؛ فإنه الحبل الموصِل إلى الوقوع في الشرك.

[اَلْخَامِسَةُ: ذِكْرُ شِدَّةِ اَلْغَضَبِ مِنْ اَللهِ]

كما بيَّنا.

[اَلسَّادِسَةُ: وَهِيَ مِنْ أَهَمِّهَا: مَعْرِفَةُ صِفَةِ عِبَادَةِ اَللَّاتِ اَلَّتِي هِيَ أَكْبَرِ اَلْأَوْثَانِ]

كيف عَبَدَ الناس اللات؟ لمّا مات الرجل الصالح، عكفوا على قبره، ثم قادهم ذلك إلى أن عبدوه. وهذه طريقة الشيطان في اصطياد الناس لإيقاعهم في الشرك بالله عز وجل.

[اَلسَّابِعَةُ: مَعْرِفَةُ أَنَّهُ قَبْرُ رَجُلٍ صَالِحٍ]

لِمَا قال ابن عباس –رضي الله عنهما-: (كان يَلُتُّ السويق للحاج) إذن كان رجلًا صالحًا.

[اَلثَّامِنَةُ: أَنَّهُ اِسْمُ صَاحِبِ اَلْقَبْرِ، وَذِكْرُ مَعْنَى اَلتَّسْمِيَةِ]

أنه اللّات، وقلنا: (اللات) إمّا أنه: اللّات، فخُفِّف، أو أنه مشتق من اسم الله عز وجل.

[اَلتَّاسِعَةُ: لَعْنُهُ زَوَّارَاتِ اَلْقُبُورِ]

كما بيَّنا.

[اَلْعَاشِرَةُ: لَعْنُهُ مَنْ أَسْرَجَهَا]

وهذا لم يثبت بإسناد صحيح، لكنه لم يكن في زمان النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يفعله مَن بعده من الصحابة –رضوان الله عليهم-، فدل على حرمته.

الدرس السابع والعشرون: شرح بَابُ مَا جَاءَ فِي حِمَايَةِ اَلْمُصْطَفَى صلى الله عليه وسلم جَنَابَ اَلتَّوْحِيدِ وَسَدِّهِ كُلَّ طَرِيقٍ يُوَصِّلُ إِلَى اَلشِّرْكِ

بسم الله الرحمن الرحيم:

إنّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدي الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) (آل عمران: ١٠٢)

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً) (النساء: ١)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً) (الأحزاب: ٧١)

أما بعد:

فإن أحسن الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

قال رحمه الله: [بَابُ مَا جَاءَ فِي حِمَايَةِ اَلْمُصْطَفَى صلى الله عليه وسلم جَنَابَ اَلتَّوْحِيدِ وَسَدِّهِ كُلَّ طَرِيقٍ يُوَصِّلُ إِلَى اَلشِّرْكِ]

لمّا ذكر الشيخ –رحمه الله– أنّ السبب الأعظم للشرك هو الغلو في الصالحين، وأنّ الغلو في قبور الصالحين هو أشر ذلك الغلو الذي يدعو إلى الشرك؛ بيَّن في هذا الباب أنّ النبي صلى الله عليه وسلم حمى جناب التوحيد من هذا الباب –أعني ما يتعلق بالقبور– ولم يُرِد الشيخ –رحمه الله– أن يَتحدث في هذا الباب عن حماية النبي صلى الله عليه وسلم للتوحيد من كل وجه؛ فإنّ هذا –وإن كان حاصلًا– فإنّ النبي صلى الله عليه وسلم منذ أن بعثه الله إلى آخر لحظة له في الدنيا كان يدعو إلى التوحيد، وكان يحذِّر من الشرك، وكان يَحمى جناب التوحيد، وقد تقدّم معنا شيءٌ من ذلك، وأنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله)، ولمّا قال القوم: أنت سيدنا، قال: (السيد الله تبارك وتعالى)، ولمّا قالوا: أنت أعظمنا فضلًا، وأعظمنا طولًا، قال: «قولوا بقولكم أو بعض قولكم ولا يستجرينكم الشيطان»، وقال صلى الله عليه وسلم: «إنما أنا محمد بن عبد الله، عبد الله ورسوله، والله إني لا أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله»، وما تقدَّم معنا من الأبواب السابقة إنما هو من حماية النبي صلى الله عليه وسلم

لحمى التوحيد، لكنّ الشيخ في هذا الباب أراد أن يبيِّن حماية النبي صلى الله عليه وسلم حِمى التوحيد من جهة القبور، ويدلك على ذلك أمران:

الأمر الأوّل: أنّ الشيخ هنا لم يَذكر إلا ما يَتعلق بحماية جناب التوحيد من جهة فتنة القبور.

الأمر الثاني: أنّ الشيخ –رحمه الله عز وجل– عَقَدَ الباب قبل الأخير حول هذا الموضوع؛ في باب ما جاء في حماية النبي صلى الله عليه وسلم حِمى التوحيد وسدِّه طرق الشرك. فهذا باب خاصّ، وذلك باب عام. فهذا يدل على أنه إنما أراد هنا حماية النبي صلى الله عليه وسلم لحِمى التوحيد من جهة فتنة القبور.

فإن قال لنا قائل: لماذا غلَّظ الشيخ وعَقَدَ أبوابًا كثيرة متعدِّدة متعلِّقة بفتنة القبور؟ فعَقَد بابًا فيما جاء من أنّ سبب شرك بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين، وعَقَدَ بابًا في ما جاء في التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح فكيف إذا عَبَدَه، وعَقَدَ بابًا فيما جاء من أنّ الغلو في قبور الصالحين يُصيِّرها أوثانًا تُعبَد من دون الله، ثم عَقَدَ بابًا في حماية النبي صلى الله عليه وسلم جناب التوحيد وسَدِّه كل طريق يوصِل إلى الشرك؟

قلنا: لأنّ فتنة أقوامٍ من هذه الأمّة بالقبور عظيمة جدًّا، حتى أَلِفُوا ما يُفعَل عند القبور، وأصبحت طبائعهم وفِطَرهم لا تُنكِر ذلك، بل إنّ الواحد منهم

يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنّ محمدًا رسول الله؛ ويَذبح لصاحب القبر! فلمّا خَفَّ الوازع الطَبْعِي شدَّد الشيخُ في الوازع الشَّرعي. لأنّ الإنسان يَزعه عن الشر وازعان:

- طبعي فطري، موجود في فطرته وطبعه.
- شرعي.

فإذا خفَّ الوازع الطبعي لسبب من الأسباب؛ فإنه يُشرَع أن يُشدَّد في الوازع الشرعي؛ حتى يَحصل المقصود شرعًا من الزَّجر.

قال الشيخ: (بَابُ مَا جَاءَ فِي حِمَايَةِ اَلْمُصْطَفَى صلى الله عليه وسلم)، لله عِبادٌ اصطفاهم واختارهم وهم عِباد أخيار، كما قال الله –عز وجل– عن إبراهيم وإسحاق ويعقوب: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ﴾ (ص: ٤٧)، الله ذكر عن إبراهيم وإسحاق ويعقوب انهم عنده من عباده الذين اصطفاهم الأخيار، ولا شك أنّ النبي صلى الله عليه وسلم من هؤلاء المصطفين الأخيار، بل هو سيدهم وأشرفهم، فالمصطفى هنا هو النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إنّ الله اصطفى كِنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كِنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم» رواه مسلم في الصحيح، فالنبي صلى الله عليه وسلم مصطفى، وإنكار بعض الأشياخ إطلاق لفظ المصطفى على النبي صلى الله عليه وسلم مجانبٌ

للصواب، النبي صلى الله عليه وسلم يقال له: المصطفى، ولا شك أنه خير الأخيار المصطفين صلى الله عليه وسلم.

ومعنى اصطفى: أي اختار، وجعلهم صفوة خَلقه، من الصَّفْوَة، وصَفْوَة الشيء: هي خَيْرُه، والصافي: هو النَّقي الذي لا كَدَرَ فيه.

قال: (بَابُ مَا جَاءَ فِي حِمَايَةِ اَلْمُصْطَفَى صلى الله عليه وسلم جَنَابَ اَلتَّوْحِيدِ)، جناب التوحيد: أي جهة التوحيد، وناحية التوحيد، أي أنّ النبي صلى الله عليه وسلم جَعَلَ للتوحيد حِمى، وحَماه من أن يُنتَهك، أو أن يُقترَب منه. ولا شك أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قد فَعَلَ ذلك ولا سيما فيما يَتعلق بفتنة القبور، والأحاديث التي تقدَّمت معنا من تغليظ النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك؛ إنما هي من حماية النبي صلى الله عليه وسلم جنابَ التوحيد.

قال: (وَسَدِّهِ كُلَّ طَرِيقٍ يُوَصِّلُ إِلَى اَلشِّرْكِ) لم يعلق عليها الشيخ سليمان

[وَقَوْلِ اَللهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾]

قال الله عز وجل:﴿ لَقَدْ﴾، واللام هنا يقول العلماء: موطئة للقسم، فكل ما جاء في هذه الآية مؤكَّد بثلاث مؤكِّدات:

- بالقسم الموطأ له.
- وباللام.

- وبقد.

والله –عز وجل– إذا أكَّد شيئًا فذلك لبيان عِظَمه، وإلّا فالله صادق القِيل، لكن يوكِّد لبيان عِظَم الشيء.

﴿لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ﴾ أي: مرسَل من الله، ﴿مِنْ أَنفُسِكُمْ﴾ فيها أقوال:

- **قال بعض أهل العلم**: أي من جنسكم أيها البشر. وهذا يدل على أنه رسول من الله عز وجل، فإنه بشر مثلكم يأكل كما تأكلون، ويشرب كما تشربون، لكنه جاء بأمر لا تستطيعونه، فجاءكم بالقرآن، وجاءكم بالوحي، جاءكم بأخبار السابقين، وجاءكم بأمور تقع، وقد رأيتم وقوع بعضها، وهذا يدل على أنه رسول من عند الله سبحانه وتعالى، فليس لبشريٍّ منكم أن يأتي بمثل ما أتى به صلى الله عليه سولم.

- **وقال بعض أهل العلم**: ﴿من أنفسكم﴾ يعني: من المؤمنين، من جنس المؤمنين؛ سواء كانوا عربًا، أو عجمًا، المهم أنهم من المؤمنين، كما قال الله عز وجل: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾، قالوا: فهذه الآية تفسِّر هذه الآية، ﴿من أنفسكم﴾ أي: منكم معاشر المؤمنين.

والقول الثالث لأهل العلم: ﴿مِنْ أنفسكم﴾ أي: أيها العرب؛ لأنّ النبي صلى الله عليه وسلم عربي بُعِثَ في العرب، يقول قائل: النبي صلى الله عليه وسلم بُعِث للناس كافة، بل بُعِث للجن والإنس، فلماذا يُخَصّ العرب هنا؟

يقال: لأنّ الخطاب كان لهم، ولإقامة الحجة عليهم، فهم الذين كانوا يُخاطَبون في ذلك الوقت، ثم غيرهم تَبَعٌ لهم.

وإن كنا نستظهر –والله أعلم– المعنى الأوّل؛ وهو: أنّ النبي صلى الله عليه وسلم من البشر، ومع ذلك جاء بما تَعجَز عنه البشر، ولا يمكن أن يكون ذلك إلا بوحي من الله عز وجل، فهذا يدل على أنه رسول.

قوله عز وجل: ﴿عَزِيزٌ ﴾ يعني: صعب عليه ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: ما أشْقاكم وأتْعَبكم. فالنبي صلى الله عليه وسلم من صفاته أنه يَصعُب عليه ما يَشُق على الأمّة، ويَصعُب عليه ما يُعنِتُ الأمة، ويَتجنَّب ذلك صلى الله عليه وسلم. ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ أي: حريص على ما ينفعكم. إذن اتصف النبي صلى الله عليه وسلم بصفتين عظيمتين:

الصفة الأولى: حرصه على تجنيب الأمّة الضُّر والشرَّ وما يَشق؛ لأنه إذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يَصعُب عليه ما يَشق على الأمّة؛ فمن باب أولى يَصعُب عليه ما يضر الأمّة. فهذا في جانب دفع الشر، ودفع التعب، ودفع المشقة.

الصفة الثانية: أنه حريص على ما ينفع الأمّة، وهذا في باب جلب الخير.

﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ وما أعظم هذا الخطاب! هذا الخطاب لكل مؤمن. ﴿رَؤُوفٌ﴾ أي: عظيم الرحمة، فقد بلغ من الرحمة منتهاها بالنسبة للبشر.

﴿رَّحِيمٌ﴾ أي: كثير الرحمة. فالنبي صلى الله عليه وسلم بالمؤمنين كثير الرحمة، عظيم الرحمة، صلى الله عليه وسلم.

وهذا يدل على أنّ النبي صلى الله عليه وسلم كان يَحمى جناب التوحيد؛ من أين هذا؟ لأنّ أعظم منفعة على الإطلاق للإنسان أن يوحِّد الله سبحانه وتعالى، فلا شك أنّ النبي صلى الله عليه وسلم كان حريصًا على التوحيد، ومن جهة أخرى: أنه كان حريصًا على منع الشرك؛ لأنه كان يَصعب عليه أن يقع أحد في الشرك؛ لأنه إذا صَعُبَت عليه المشقة على الأمّة فمن باب أولى أن يَصْعُب عليه ويَعِزّ عليه أن يقع أحد من أمته في الشرك.

إذن؛ النبي صلى الله عليه وسلم حمى جناب التوحيد، وسدَّ طرق الشرك.

لأنّ بعض الناس لم يَفهم وجه إيراد الشيخ لهذه الآية في هذا الباب، فبعض أهل العلم اجتهد في هذا وقال: هذه الآية كالموطئة لِمَا بعدها، يعني أنه كما أنه بهذه الصفات فهو قد جاء بكذا وكذا.

ولكنّ الصواب أنّ هذه الآية فيها دليل على أنّ النبي صلى الله عليه وسلم حَمى حِمى التوحيد، وسَدَّ طرق الشرك، كما أنها موطئة لِمَا بعدها من الأحاديث.

في هذه الآية فائدة عظيمة للمؤمن عامّة ولطالب العلم خاصة؛ وهي: أن يَتشبَّه بالنبي صلى الله عليه وسلم في هذا، لن نكون مثله أبدًا صلى الله عليه

وسلم؛ لكن يُشرَع لنا أن نَتشبَّه بالنبي صلى الله عليه وسلم؛ فيَصعب علينا ما يُعنِت الأمّة، ما يشق على الأمّة لا نأخذه كما نشرب الماء البارد، يَصعُب علينا الأمر الذي يَشق على أمّة محمد صلى الله عليه وسلم، ويؤلمنا في قلوبنا، ونسعى عن إبعاد المشقة عن الأمّة بالوجوه المشروعة.

وإذا كانت الأمّة اليوم تعانى من اضطهاد أعدائها وكثرة المخالفين للسنة، فإنه ينبغي ألّا نشق على الأمّة بألفاظنا، نحرص على أن تكون ألفاظنا دالة على الخير، دالة على الحق، فاضحة للباطل من غير مشقة على الأمّة، نحرص على ذلك ما أمكننا، نحرص على ما ينفع المؤمنين؛ وأعظم ما ينفع المؤمنين أن يَسلَموا في دينهم، أن نَدلَّهم على التوحيد، وأن نَدلَّهم على السنة، وأن نحذِّرهم من الشرك، وأن نحذِّرهم من البدع، وأن نَدلَّهم على الأعمال الصالحة، وأن تكون في قلوبنا رحمة، مَن حُرِم الرحمة وحُرِم الرفق حُرِم الخير كله، تكون في قلوبنا رحمة للأمّة كلها، ثم رحمة لطلاب العلم، ثم رحمة لمَن استقاموا على الطريق وكانوا على صراط مستقيم، الغِلْظَة عندنا آخر الأدوية، وهذا هو الشرع، والله! لا نَلتَفِت إلى مَن يَعيب علينا هذا الكلام؛ لأنّ هذا ديننا، هذا فعْل النبي صلى الله عليه وسلم، تَعلَّمنا من سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ومن النصوص ومن سيرة السلف الصالح أجمعين، وتعلَّمنا من علمائنا الذين تربينا على أيديهم –منهم من مات ومنهم من هو حي– على أنّ الغِلظة آخر الأدوية، نقدِّم

الرحمة ونبدأ بالرحمة، ويا ليتنا نرحم إخواننا حتى الذين يُخطئون علينا، ما أجملها من منزلة وما أزكاها من مرتبة أن يَبلغك عن أخيك أنه قال فيك قولًا غليظًا لا تستحقه ومع ذلك ترحم أخاك أن تنطق فيه بكلمة! وهذه مرتبة عليَّة أسأل الله أن يرزقنا الجهاد لنَصِل إليها؛ لا سيما في هذا الزمان الذي يواجه فيه أهل السنة الحرب الشعواء، إذا أمكنك أن تُغمِض عينيك عن أمور تَصدُر من إخوانك لا تَقدَح في دينك، فإن كنتَ ترى أنها تَقدح في دينك رَددتها بدون غِلظة، ولم تَقدح في إخوانك الذين هم على الجادة، ليس فيهم ما يُقدَح فيهم سوى أنهم أغلظوا عليك مثلًا، فإن أمكن أن تُغمِض وتتعامل بالرحمة فهذه منزلة عليَّة، نحتاج أن نجاهد أنفسنا فيها لنصل لهذه المرتبة؛ لنتشبه بالنبي صلى الله عليه وسلم، فقد يَبلغك عن أخيك كلام، واليوم الحريصون على نقل الكلام الذي يُفسِد القلوب كُثر، يأتيك الواحد ويتحدث معك، ويتألم معك، ويجاريك في الكلام، ويَستحثُّك على الكلام، فإذا أخذ شيئًا طار به إلى أخيك، وقال: رأيتَ فلانًا لا يتقي الله يقول فيك: كذا وكذا! اليوم هذا كثير موجود، فلنُفسِد هذه الفتنة، وإذا بلغك شيء من أخيك إن كان ما يحتاج إلى ردّ ولا كلام فاتركه كلية، وإن كان يحتاج إلى ردّ فردّ بكلام طيب يَندفع به الشر، وإن حصل قبل أن تَردّ أن تتصل بأخيك الذي تكلم بهذا الكلام ليَردّه هو لكان هذا أحسن، ثم لا تَنشغل

عن دعوتك، سِرْ بدعوتك إلى الله ما دمتَ على الجادة، ما دمتَ على السنة وطريقة أهل العلم.

يا إخوة! يا معاشر المؤمنين! نحتاج إلى أن نتدبر هذه الآية؛ أن نحاول أن نتشبَّه بالنبي صلى الله عليه وسلم في هذه الصفات العظيمة، ما أحوجنا إلى هذا في كل زمان ولكنّا في هذا الوقت العصيب أَحوَج، فلنتخلَّق أيها الأخوة بهذه الأخلاق، ولا يصدنكم عنها أنّ أناسًا قد يُغلِظون عليكم، فإنه ما تَمسك متمسِّك بالحق إلا أُوذي، لكنّ الشأن أن يَصبر ويَستمر ويَسير على دعوة الحق، ولو لَمَحَ باطلًا –ولو صغيرًا– في كلامه هو فَهِمَهُ أو أنّ أحدًا –ولو كان عدوًا له وليس اخًا– أشار إليه في كلامه؛ رَجَعَ وأناب إلى الله، وقال: أستغفر الله، هذا الكلام باطل، هذا المعنى الذي أشرت إليه باطل، يرجع إلى الله، وما أحوج الدعوة إلى هذا. أسأل الله عزو جل ان يرزقنا الصدق والمجاهدة حتى ننال هذه المرتبة العليَّة.

الشاهد: أنّ هذه الآية فيها دليل على حماية النبي صلى الله عليه وسلم لجناب التوحيد.

[عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ –رضي الله عنه– قَالَ: قَالَ رَسُولُ اَللهِ صلى الله عليه وسلم: «لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَلَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ»، رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ وَرُوَاتُهُ ثِقَاتٌ]

قال الشيخ: (رواه أبو داود بإسناد حسن ورواته ثقات) والشيخ في هذا تَبِعَ ابن تيمية رحمه الله حيث قال عن هذا الحديث: "حسن، رواته ثقات مشاهير"، والحديث رواه أبو داود وأحمد. وقد حسَّن إسناده شيخ الإسلام ابن تيمية وقال كما ذكرنا: "رواته ثقات مشاهير"، وحسَّن إسناده ابن القيم، وحسَّن إسناده ابن عبد الهادي، بل قال ابن عبد الهادي: "إنه حسن جيد الإسناد وله شواهد يرتقي بها إلى درجة الصحة". وحسَّن إسناده أيضًا الحافظ ابن حجر، وصحح إسناده النووي والالباني. فالحديث ثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم.

قال: (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ –رضي الله عنه– قَالَ: قَالَ رَسُولُ اَللهِ صلى الله عليه وسلم: «لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا»، وجاء في الحديث: «لا تجعلوا بيوتكم مقابر» رواه مسلم ، وجاء في الحديث أيضًا: «لا تتخذوا بيوتكم مقابر، صلُّوا فيها) رواه أحمد وابن حبان وصححه الألباني.

وهذه القطعة من الحديث تدل على أنه لا يجوز دفن الموتى في البيوت؛ لأنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا تجعلوا بيوتكم مقابر»، وهذا له حِكَمٌ متعددة:

الحكمة الأولى: أن دَفن الموتى في البيوت يُفسدها، فإذا دُفن الميت في البيت فإنه لا يُصلّى في هذا الموطن، ويَفسُد البيت على أهله.

الحكمة الثانية: أنه ذريعة إلى تعظيم القبور إذا كانت في البيوت، فإنّ الشيطان يأتي للناس ويقول: ما دُفن هذا الميت في البيت دون المقابر إلا لعِظَم حاله، أو لأنه كان يُستشفى به، أو لأنه كان يُستشفع به، حتى يُعظَّم، فيقود ذلك إلى الوقوع في الشرك.

الحكمة الثالثة: لأنه بناء عليه، وقد نُهينا عن ذلك كما تقدَّم.

الحكمة الرابعة: لأنّ دفن الميت في البيت يَحرُم الميت من دعوات المسلمين عند الزيارة للمقابر، إذا دُفن الميت في المقابر فإنه كلما جاء زائر للمقابر وسلَّم على أهل القبور ودعا لهم دَخَلَ هذا في الدعوة، لكن إذا دُفن في بيته حُرِمَ من هذه الدعوة.

فإن قال قائل: دفن النبي صلى الله عليه وسلم في بيته! قلنا: هذه خصوصية للنبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنّ النبي يُدفَن حيث مات، وهذا له حكمة عظيمة كما تقدّم معنا: وهو حماية قبر النبي صلى الله عليه وسلم من أن يُجعل وثنًا يُعبَد.

كما تدل هذه الجملة: «لا تجعلوا بيوتكم مقابر» على أنّ القبور تُمنَع الصلاة عندها؛ لماذا؟ لأنه في اللفظ الآخر قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تتخذوا بيوتكم مقابر، صلوا فيها»، إذن المقابر لا يُصلى فيها، فدل ذلك على هذا.

والأمر الثالث الذي تدل عليه هذه الجملة الشريفة التي صدرتْ من نبينا صلى الله عليه وسلم: استحباب صلاة النافلة في البيت؛ لقوله: (صلوا فيها)، واستحباب قراءة القرآن في البيت؛ لأنه جاء في بعض الروايات عند مسلم وغيره: «لا تجعلوا بيوتكم مقابر، إنّ الشيطان يَفِرُّ من البيت الذي تُقرأ فيه سورة البقرة»، فنهى النبي صلى الله عليه وسلم عن أن نجعل بيوتنا مقابر، ثم قال: «إنّ الشيطان يَفِرُّ من البيت الذي تُقرأ فيه سورة البقرة»، فدل ذلك على استحباب قراءة القرآن في البيت. بعض الناس لا يجعل قراءة القرآن إلا في المسجد، لا يقرأ في بيته، وهذا يفوِّت على نفسه أجرًا؛ لأنّ في قراءة القرآن في البيت أجرًا، ويفوِّت على بيته الخير، فيكثر فيه الشر، وقد تدخله الشياطين، وقد تكون فيه مشاكل، كثير من الناس يأتوننا هذه الأيام يقولون: يا شيخ أنا بيتي كله مشاكل! قد يكون من الأسباب أنّ أهل البيت لا يقرأون القرآن في هذا البيت.

قال صلى الله عليه وسلم: «وَلَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا» أي: لا تكرِّروا الزيارة تكرارًا دائمًا، وإنما الزيارة تكون للغريب الذي يأتي للمدينة، وتكون لمَن قَدِمَ من سفر من أهل المدينة. ثم اختلف العلماء في زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم لأهل المدينة إذا كانوا مقيمين فيها:

منهم: مَن منعها وقال: لم يؤثر هذا عن الصحابة، ولا عن أحد من السلف.

ومنهم من قال: أنها مشروعة بقصْد الاعتبار والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم؛ من غير إكثار. وهذا عندي أرجح –والله أعلم–، أنّ الذي في المدينة إن شاء في فترات متباعدات أن يَذهب إلى قبر النبي صلى الله عليه وسلم ليتَّعظ ويَعتبر؛ هذا النبي صلى الله عليه وسلم مقبور في قبره، وليُسلِّم عليه فهذا جائز؛ لعموم الأدلة: «ألا إني نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها فإنها تذكر الأخرة» أو «فإنها لكم تذكرة» أو «(فإنها لكم عبرة».

فمعنى: «لا تجعلوا قبر عيدًا» أي: لا تكرِّروا الزيارة تكرارًا دائمًا على وجه مخصوص، كمَن يُخصِّصون الفجر لزيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم، بعض الناس كلما صلى الفجر في المسجد النبوي ذهب فسلَّم؛ هذا جَعَلَ القبر عيدًا. أو مَن يجعلون الجمعة وقتًا لزيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم؛ فهذا جَعَلَ القبر عيدًا. أو مَن يجعل ذلك في كل شهر. أمّا أن يزور –كما قلنا– من غير تخصيص بوقت ولا إكثار؛ فالراجح من أقوال أهل العلم: أنّ هذا لا بأس به.

أيضًا مما يدخل في قول النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تجعلوا قبري عيدًا» أي: لا تقصدوا القبر في أوقاتٍ معيَّنة، فإنّ العيد يُعاد في وقتٍ معيَّن، فلا تخصِّصوا الزيارة بوقت معيَّن، وهذا ما فهمه السلف من هذا، لسنا الذين فهمنا هذا بل هذا فهمه السلف من الصدر الأوّل؛ فقد جاء عن سهيل بن أبي سهيل أنه قال: (رآني الحسن بن الحسن بن على بن أبي طالب عند القبر، فناداني وهو

يتعشى) البيوت كان بعضها بجوار بيوت النبي صلى الله عليه وسلم، وكما قلنا أنّ القبر كان خارج المسجد، فكان الحسن يتعشى فرأى سهيلًا عند القبر، فقال: هلمّ إلى العشاء، وكان من أجود الناس، الحسن زيد العابدين كان يُضرب بكرمه المثل، فقال: هلم إلى العشاء. (قلت: لا أريده. فقال: مالي رأيتك عند القبر. قلت: سلمتُ على النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: إذا دخلتَ المسجد فسلِّم) ما يحتاج أن تذهب إلى القبر، لأنه من السنة إذا دخلتَ المسجد أن تقول: بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله، هذا يكفي، إذا دخلتَ المسجد وسلَّمت يكفي، ما يحتاج أن تذهب إلى القبر، (ثم قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «(لا تتخذوا قبري عيدًا، ولا تتخذوا بيوتكم قبورًا، وصلُّوا عليّ، فإن صلاتكم تبلغني حيثما كنتم»، ثم قال لسهيل: ما أنتم ومَن في الأندلس إلا سواء، سلامكم يبلغ وسلامهم يبلغ كما سيأتينا إن شاء الله. هذه القصة رواها سعيد ابن منصور، قال الألباني: بإسناد جيد. وأيضًا القصة التي معنا تدل على ذلك.

قال: «وَصَلُّوا عَلَيَّ» الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم من أفضل الأعمال، عبادة سهلة شريفة، وقد تقدم مرارًا بيان فضلها، وأنّ من صلى على النبي صلى الله عليه وسلم واحدة صلى الله عليه بها عشر صلوات، ومحى عنه عشر خطيئات، ورفع له عشر درجات، الله أكبر! صلى الله عليه وسلم، مع أنها حق للنبي صلى الله عليه وسلم، ودالة على محبة النبي صلى الله عليه وسلم،

ودالة على السلامة من البخل، إذا قلتَ أنتَ: صلى الله عليه وسلم؛ صلى الله عليك عشرة صلوات، ومحى عنك عشرة خطيئات، ورفع لك عشر درجات، فإذا قلتها مرتين أصبحت عشرين، وإذا قلتها ثلاثًا أصبحت ثلاثين، وهكذا، ما أكثر ما فرطنا في الأجور! أسأل الله أن يهدينا.

والنبي صلى الله عليه وسلم سُرَّ واستَبشر ببشارة، فقد رؤي السرور العظيم في وجه النبي صلى الله عليه وسلم وقال: «أتاني آتٍ من ربي»، وفي رواية: «إنّ جبريل قد أتاني»، وفي رواية: «إنّ المَلك قد أتاني، فقال: يا محمد! أمَا يَسرُّك أن أصلي على مَن صلى عليك واحدة عشر صلوات، وأسلِّم على مَن سلَّم عليك تسليمة واحدة عشر تسليمات» أو كما ورد، فسُرَّ النبي صلى الله عليه وسلم بهذا؛ سُرَّ لأنه يُصلَّى عليه ويُسلَّم عليه، وسُرَّ من أجلكم أيها الأمة، أنّ الله جعل لكم بسببه في كل صلاة عشر صلوات، وفي كل سلام عشر تسليمات، صلى الله عليه وسلم، ما أعظم ما أكرم الله الأمّة به صلى الله عليه وسلم!

قال: «وَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ» ما العلاقة بين قول النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تجعلوا قبري عيدًا» وبين قوله: «وَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ»؟ العلاقة: أنّ الذي يذهب إلى القبر مرارًا، قد يَحتج فيقول: أنا أريد أن أُسلم فقط، وأصلي على النبي صلى الله عليه وسلم، فحَسَمَ النبي صلى الله عليه وسلم الباب؛ فقال: صلُّوا عليَّ من أي مكان «فإنّ صلاتكم

تبلغني حيث كنتم»، وهذا يدل على أنّ النبي صلى الله عليه وسلم حَمى حِمى التوحيد، فبيَّن لنا أنّ القبور لا يُصلى عندها، ولكن جاء بجملة حوت فوائد كثيرة: «لا تجعلوا بيوتكم قبورًا»، وهذا أيضًا يدلّ على أنّ الصحابة كانوا يَعرفون أنّ القبور لا يُصلى عندها؛ لأنه لو لم يكون يعرفون ذلك لكانت هذه الجملة ضائعة لا فائدة منها «لا تجعلوا بيوتكم قبورًا»، لا تفيد.

وأيضًا حَمى حِمى التوحيد بمَنْع تكرار زيارة قبره بكثْرة؛ لأنّ ذلك قد يقود إلى الوقوع في الشرك، وحَسَمَ الباب والذرائع، فقد يأتي شخص فيقول: أنا ما أذهب إلا لأصلي على النبي صلى الله عليه وسلم! فقال: «صلُّوا عليَّ فإنّ صلاتكم تبلغني حيث كنتم».

وكيف يبلغه تسليمنا وصلاتنا عليه صلى الله عليه وسلم؟

بيَّن لنا النبي صلى الله عليه وسلم ذلك فقال: «إنّ لله ملائكة سيَّاحين في الأرض، يُبلِّغوني من أمّتي السلام» رواه أحمد، والنسائي، وابن حبان، وصحَّحه الألباني. فهؤلاء الملائكة ما وظيفتهم؟ سيَّاحون في الأرض؛ أي يذهبون في الأرض وينتشرون في الأرض، «يُبلِّغوني من أمّتي السلام» وهذا يدلّ على كثرتهم؛ لأنه كلّما سلم أحدٌ على النبي صلى الله عليه وسلم من الأمّة بلَّغت الملائكة النبيَّ السلامَ، قال العلماء: وهذا يشمل الأمّة كلها؛ سواء كان المسلِّم

رجلًا، أو امرأة، او صبيًا، أو عبدًا، أو غير ذلك. فالملائكة تبلِّغ النبي صلى الله عليه وسلم سلام أمّته.

وقال صلى الله عليه وسلم: «ما من أحد يسلِّم عليَّ إلا رَدَّ الله عليَّ روحي حتى أَرُدَّ عليه السلام» رواه أحمد، وأبو داود، وقال ابن حجر: رجاله ثقات، وحسّنه الألباني. أي أنّ سلامكَ على النبي صلى الله عليه وسلم يَبلُغه، بل يَرُدُّ النبيُّ صلى الله عليه وسلم السلام.

بعض أهل العلم قال: هذا الحديث الأخير خاصٌّ بمَن سلَّم عليه عن قُرْب.

وبعض أهل العلم قال: بل هو عام، فحيث ما سلَّم مسلم على النبي صلى الله عليه وسلم رَدَّ الله عليه روحه، فرَدَّ السلام على المسلم.

وقوله: «وَصَلُّوا عَلَيَّ » دليل على أنه يُشرَع أن يُصلَّى على النبي صلى الله عليه وسلم ولو بدون التسليم؛ لأنه قال: «وَصَلُّوا عَلَيَّ»، ما قال: صلوا علي وسلموا، إنما قال: «وَصَلُّوا عَلَيَّ»، فيصح أن تقول: صلى الله عليه، ويصح أن تقول: صلى الله عليه وسلم، ويصح أن تقول: أن تُفرِد السلام، فتقول: وعليه السلام. كل هذا جائز؛ خلافًا لمَن كَرِهَ إفراد الصلاة، أو كَرِهَ إفراد السلام.

[وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ اَلْحُسَيْنِ –رضي الله عنه–: (أَنَّهُ رَأَى رَجُلاً يَجِيءُ إِلَى فُرْجَةً كَانَتْ عِنْدَ قَبْرِ اَلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَيَدْخُلُ فِيهَا فَيَدْعُو، فَنَهَاهُ وَقَالَ: أَلَا

أُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا سَمِعْتُهُ مِنْ أَبِي عَنْ جَدِّي عَنْ رَسُولِ اَللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا، وَلَا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، فَإِنَّ تَسْلِيمَكُمْ لَيَبْلُغُنِي أَيْنَ كُنْتُمْ»، رَوَاهُ فِي اَلْمُخْتَارَةِ]

هذا الحديث مُسلسَل بآل البيت، (عَنْ عَلِيِّ بْنِ اَلْحُسَيْنِ –رضي الله عنه–: أَنَّهُ رَأَى رَجُلاً يَجِيءُ إِلَى فُرْجَةً) أي: فتحة كانت موجودة (كَانَتْ عِنْدَ قَبْرِ اَلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم) فتحة في الجدار كانت عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم، (فَيَدْخُلُ فِيهَا فَيَدْعُو) يُخصِّص هذا المكان للدعاء (فَنَهَاهُ) عن ذلك، قال العلماء: نهاه عن الأمرين: عن دخوله في الفُرجة، وعن دعائه عند القبر، دخوله في الفرجة: أي تخصيص هذا المكان، وعن دعائه عند القبر. (وَقَالَ أَلَا أُحَدِّثُكُمْ) الظاهر –والله أعلم– أنه لمّا نهاه كان هناك رجال، فأراد أن يُفيدهم؛ فقال: (أَلَا أُحَدِّثُكُمْ) يعني للرجل ومَن وُجِد (حَدِيثًا سَمِعْتُهُ مِنْ أَبِي) الحسين –رضي الله عنه– (عَنْ جَدِّي) علي بن أبي طالب –رضي الله عنه–، والله! إنّا نحبهم، ولا يحبهم إلا مؤمن، ولا يَغلوا فيهم إلا ضَالٌّ (عَنْ رَسُولِ اَللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا، وَلَا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، فَإِنَّ تَسْلِيمَكُمْ لَيَبْلُغُنِي أَيْنَ كُنْتُمْ»قال: (رواه في المختارة) يعني رواه الضياء المقدسي الحنبلي في كتابه الاحاديث المختارة. وهذا الحديث مع القصة رواه ابن أبي شيبة، وأبو داود، وعبد الرزاق، وجوَّد إسناده الشيخ الألباني؛ قال: هو صحيح بطرقه

وشواهده. والذي في هذا الحديث هو الذي في الذي تقدَّم، ولكنّ الشاهد من القصة: أنّ السلف فَهِموا من قول النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تجعلوا قبري عيدًا» النهي عن تكرار الزيارة، وتخصيص الزيارة بأشياء معيَّنة، أو أوقات معيَّنة.

جاء اللفظ كما رواه الشيخ عند الضياء المقدسي في "الأحاديث المختارة". وجاء عند ابن أبي شيبة وأبي داود: «وصلوا علي فإنّ صلاتكم تَبلغني حيثما كنتم». وجاء عند عبد الرزاق وابن أبي شيبة قال: «وصلوا عليَّ حيثما كنتم؛ فإنّ صلاتكم تبلغني»، وجاء عند البزار قال: «وصلُّوا وسلِّموا عليّ –أو وصلُّوا عليَّ وسلِّموا– فإنّ صلاتكم تبلغني» فعند البزار جَمَعَ بين الصلاة والسلام. فدلّ ذلك على أنّ تسليمنا على النبي صلى الله عليه وسلم تَبلغه، وعلى أنّ صلاتنا عليه صلى الله عليه وسلم تَبلغه.

فدلَّ هذا على أنّ النبي صلى الله عليه وسلم حَمى حِمى التوحيد حماية تامَّة، وأنّ الصحابة والسلف قد فَهِموا ذلك، فلم يُؤثَر عن الصحابة أنهم كانوا يكرِّرون الزيارة إلى قبر النبي صلى الله عليه وسلم، بل لم يُنقَل عنهم أنهم كانوا يزورون القبر، فهذا يدل على فهم الصحابة لحماية النبي صلى الله عليه وسلم لجناب التوحيد، وكذلك السادة من التابعين، ومَن بعدهم من الأئمة المعتبَرين.

[فِيهِ مَسَائِلُ: اَلْأُولَى: تَفْسِيرُ آيَةِ بَرَاءَة]

كما بيَّنا؛ ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾.

[اَلثَّانِيَةُ: إِبْعَادُهُ أُمَّتَهُ عَنْ هَذَا اَلْحِمَى غَايَةَ اَلْبُعْدِ]

حِرْص النبي صلى الله عليه وسلم على ألّا تقترب الأمَّة من الشرك أبدًا، وأن تكون الأمة داخلة في حِمى التوحيد، كان النبي صلى الله عليه وسلم حريصًا على ذلك أشد الحرص.

اَلثَّالِثَةُ: ذِكْرُ حِرْصِهِ عَلَيْنَا وَرَأْفَتِهِ وَرَحْمَتِهِ]

وهذا يقتضي منّا أن نقوم بحقِّه، وأعظم حقّه أن نتَّبعه، وأعظم الاتِّباع على الإطلاق الاتِّباع في التوحيد، ما اتَّبع مَن ضيَّع التوحيد، ما اتَّبع مَن دَخَلَ في الشرك، أعظم اتِّباع أن نكون من الموحِّدين.

[اَلرَّابِعَةُ: نَهْيُهُ صلى الله عليه وسلم عَنْ زِيَارَةِ قَبْرِهِ عَلَى وَجْهٍ مَخْصُوصٍ؛ مَعَ أَنَّ زِيَارَتَهُ مِنْ أَفْضَلِ اَلْأَعْمَالِ]

قال: (عَلَى وَجْهٍ مَخْصُوصٍ) أي: على صفة مخصوصة؛ كتكرار الزيارة وكثرتها، (مَعَ أَنَّ زِيَارَتَهُ مِنْ أَفْضَلِ اَلْأَعْمَالِ) يعني من الأعمال الفاضلة، لا لخصوص قبره صلى الله عليه وسلم؛ وإنما لمشروعية زيارة القبور، وأنها من الأعمال التي فعلها النبي صلى الله عليه سولم في حياته، فزار قبور البقيع، وسلَّم على أهل القبور، ودعا لهم، وزار قبور الشهداء ومعه أصحابه، فمع أنّ زيارة القبور من أفضل الأعمال نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن تخصيص قبره

بشيء؛ لأنّ هذا يقود إلى التعظيم الزائد المُغالى فيه، الذي يقود الإنسان إلى الشرك، والعياذ بالله.

[اَلْخَامِسَةُ: نَهْيُهُ عَنْ اَلْإِكْثَارِ مِنْ اَلزِّيَارَةِ]

قال: (نَهْيُهُ عَنْ اَلْإِكْثَارِ مِنْ اَلزِّيَارَةِ) اِلْحَظ أنّ الشيخ فَهِمَ هذا؛ أنّ النهي إنما هو عن الإكثار لا عن مطلَق الزيارة، فمَن كان من أهل المدينة ويزور أحيانًا في أوقات متباعدة للاتعاظ والاعتبار والسلام؛ فهذا لا بأس به.

[اَلسَّادِسَةُ: حَثُّهُ صلى الله عليه وسلم عَلَى اَلنَّافِلَةِ فِي اَلْبَيْتِ]

لقوله: «لا تجعلوا بيوتك قبورًا»، أي صلوا فيها، وقد صُرِّح بهذا في بعض الروايات.

[اَلسَّابِعَةُ: أَنَّهُ مُتَقَرِّرٌ عِنْدَهُمْ: أَنَّهُ لا يُصَلَّى فِي اَلْمَقْبَرَةِ]

لأنّ النبي صلى الله عليه وسلم اكتفى بقوله: «لا تجعلوا بيوتكم قبورًا»، فهذا يدلّ على أنه قد قدَّم لهم أنّ الصلاة في المقابر لا تجوز.

[اَلثَّامِنَةُ: تَعْلِيلُه صلى الله عليه وعلى آله وسلم ذَلِكَ بِأَنَّ صَلَاةَ اَلرَّجُلِ وَسَلَامَهُ عَلَيْهِ يَبْلُغُهُ، وَإِنْ بَعُدَ، فَلَا حَاجَةَ إِلَى مَا يَتَوَهَّمُهُ مَنْ أَرَادَ اَلْقُرْبَ]

فسَدَّ الذريعة لكثرة الزيارة. وكما قال: «ما أنتم ومَن في الأندلس إلا سواء».

[اَلتَّاسِعَةُ: كَوْنُهُ صلى الله عليه وسلم فِي اَلْبَرْزَخِ تُعْرَضُ أَعْمَالُ أُمَّتِهِ فِي اَلصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَيْهِ]

يُعرَض عليه الصلاة والسلام؛ هذا الذي دَلَّ عليه الدليل، ولم يَدل دليل على غير ذلك، فلم يَدلّ على أنّ صلاتنا المفروضة تُعرَض عليه، أو أنّ صدقتنا تُعرَض عليه، وإنما الذي يُعرَض عليه ما يَتعلق به؛ وهو صلاتنا وسلامنا عليه، صلى الله عليه سلم، وهو يَرُدُّ السلام على مَن سلَّم عليه.

الدرس الثامن والعشرون: بابُ مَا جَاءَ أَنَّ بَعْضَ هَذِهِ اَلْأُمَّةِ يَعْبُدُ اَلْأَوْثَانَ

الحمد الله رب العالمين، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فمعاشر الفضلاء؛ نواصل شرحنا لكتاب التوحيد للإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب –رحمه الله عز وجل–، ولا شك أنّ وقوفنا على هذا الكتاب، وفَهمنا لِمَا فيه، يدلُّنا دلالة واضحة بيِّنة على أنّ هذا الشيخ –رحمه الله– كان من الأئمة المتَّبعين، والعلماء الناصحين، فما جاء بشيء جديد، ولا جاء بمنكَر، وإنما قرَّب للأمَّة ما في كتاب ربها، وما في سنة نبيها صلى الله عليه وسلم مما يَتعلق بأهمِّ أمورها وأعظم أمورها؛ وهو: التوحيد.

ولا شك أنّ المنصِف الذي يخاف الله عز وجل ويَتجرَّد للحق إذا سَمِعَ ما في هذا الكتاب، عَلِمَ يقينًا أنّ ما فيه هو الحق الذي يجب على كل مسلم أن يتَّبعه، ويَحرُم على المسلم أن يخالفه.

وقد كنا –بحمد الله– فرغنا من الباب الذي عَقَده الشيخ في حماية المصطفى صلى الله عليه وسلم جناب التوحيد وسدِّه كل طريق يوصِل إلى الشرك. ونواصل اليوم من حيث وقفنا.

[بابُ مَا جَاءَ أَنَّ بَعْضَ هَذِهِ اَلْأُمَّةِ يَعْبُدُ اَلْأَوْثَانَ]

لمّا تقدَّم بيان صورٍ من الشرك الظاهر التي تقع من أقوام ممن يَنتسبون إلى الإسلام، وتقدَّمتِ البراهين على أنها شرك، وتقدَّم بيان السبب الأعظم لوقوع الشرك، كأن قائلًا قال: إنما هذا في الأمم السابقة، أمّا في أمة محمد صلى الله عليه وسلم فلا يقع! وهذه شبهة مَنعَت كثيرًا ممَّن ينتسبون إلى الإسلام من الانتفاع من النصوص الواردة في التحذير من الشرك، ونجد أنّ بعض مَن ينتسبون إلى الإسلام يقعون في الشرك، فيَنذرون للقبور، أو يَستغيثون بها، أو غير ذلك من الصُّوَر التي تقدَّمت، ومع ذلك يقولون: إنّ الشرك لا يقع في أمّة محمد صلى الله عليه وسلم! فكانت هذه الشُّبهة غِشاوة أَعْمَت بعض مَن ينتسبون إلى الإسلام عن النصوص الواضحة الصريحة في التحذير من الشرك، وخَدَّرت بعض المسلمين؛ حتى أصبحوا يَقعون في الشرك وهم آمنون؛ لهذه الشُّبهة، فعَقَدَ الشيخ هذا الباب ليبينِّ أنّ بعض هذه الأمّة يَقعون في الشرك؛ وذلك نصحًا للأمّة، وقد أقام الشيخ الأدلة على هذا.

وهناك أدلة أخرى لم يذكرها الشيخ تدلُّ دلالة بيِّنة على أنّ الشرك سيقع في هذه الأمّة؛ ومنها حديث أبي هريرة –رضي الله عنه– أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا تقوم الساعة حتى تَضطرِب أليات نساء دَوس على ذي الخَلَصة» متفق عليه. وذو الخَلَصَة: طاغية دَوس التي كانوا يَعبدونَ في الجاهلية.

وجاء عند مسلم: «كانت صنمًا تَعبدها دَوس في الجاهلية بِتبَالة»، لاحِظوا أنّ راوي الحديث هو أبو هريرة –رضي الله عنه–، وهو دَوسيٌّ مِن قبيلة دَوس، ودَوس كانت قد أسلمت بدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ حيث قال النبي صلى الله عليه وسلم: «اللهم اهدِ دَوسًا وأتِ بهم»، فأسلَمت دَوس، لكنّ النبي صلى الله عليه وسلم أخبر بهذا الخبر الذي يقع في آخر الزمان: «لا تقوم الساعة حتى تَضطرب أَلَيات): أَلَيات: جمع إِلْيَة؛ أي: عُجُز النساء، قال بعض أهل العلم: هذا يدل على أنهن يَركبن الدواب للوصول إلى ذي الخَلَصة، أي يأتين من بعيد، وهذا معنى اضطراب أَلَياتهن؛ أنها تَضطرب فوق الدواب.

وقال بعض أهل العلم: هذا يدلّ على شدة الازدحام؛ أنهن يَزدحمْن على هذا الصنم– والعياذ بالله– على ذي الخلص، أي أنهم يعبدونه.

وذو الخَلَصَة: صنم بتبَالَة، وتَبَالة: قرية بعد الطائف من جهة اليمن،، فهي من الجزيرة.

إذن؛ سيقع بعض هذه الأمّة في الشرك وفي جزيرة العرب.

أيضًا؛ مما يدل على ذلك: أحاديث الدجال، فإنّ الأحاديث الكثيرة الواردة في الدجال دلَّت على أنّ من هذه الأمّة مَن سيؤمن بالدجال، وسيصدِّق بالدجال وهذا كُفْر، بل من أهل المدينة مَن سيَخرج إلى الدجال، الدجال إذا جاء إلى

المدينة تَمنعه الملائكة من دخولها، ويَنزل بالجُرف، فيَخرج إليه بعض أهل المدينة، جُموع من المدينة يَخرجون، ويؤمنون بالدجال، وهذا يدلُّك يا عَبد الله دلالة واضحةً يقينيةً على أنّ من أمّة محمد صلى الله عليه وسلم مَن يقع في الكفر، ومنهم مَن يقع في الشرك؛ أي أنهم يفارِقون الإسلام.

كما يدلُّك لذلك: صنيع العلماء، فإنه ما من كتاب معتمَد في الفقه إلا وفيه كتاب أو باب عن الرِّدة وأحكام المرتدِّين، فلو كانت الرِّدة لا تقع في الأمّة لماذا يَضع الفقهاء كتابًا حول أحكام الرِّدة؟

فإن قال لنا قائل: هذا الذي قرَّرتموه معارَض بحديث صحيح؛ ألا وهو حديث جابر –رضي الله عنه– قال: سمعتُ النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «إنّ الشيطان قد أَيِسَ أن يَعبده المصلُّون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم) رواه مسلم في الصحيح. قالوا: فدلّ هذا على أنّ الشرك لا يقع في الأمّة.

قلنا: أولًا: الدليل أضيَقُ من المدلول، الدعوى أوسَع من الدليل؛ لأنّ الدليل يَتعلَّق بجزيرة العرب، والدعوى تتعلَّق بالمسلمين في كل مكان، ولا شك أنّ هذا الحديث لا يدلّ على أنّ الشرك لا يقع في أمّة محمد صلى الله عليه وسلم، فالجواب على هذا الحديث من وجوه:

الوجه الأوّل: أنّ هذا الحديث فيه خبر عن إبليس أنه يَئِس أن يَعبده المصلُّون؛ أيْ أنّ ذلك في ظنِّ إبليس لمّا رأى قوة التوحيد في جزيرة العرب،

وصلابة الصحابة في دينهم، لمّا رأى ذلك وظنّ أنّ الناس يستمرون على ذلك – وإبليس لا يعلم الغيب– يَئِس أن يَعبده أولئك المصلُّون، ويأْسُ إبليس لا يَلزم منه الوقوع؛ لأنه لا يعلم الغيب، يَئِسَ بناءً على ما رأى، بل حتى أنبياء الله يَأسُهم لا يَلزم منه الوقوع؛ كما قال عز وجل: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا﴾ (يوسف: ١١٠)، فالرُّسل يَئِسوا؛ فجاءهم نصر الله، على أيِّ حال كان المراد بالرُّسل هنا، فاليأس لا يَلزم منه الوقوع، فيأْسُ إبليس لا يَلزم منه أنه لن يَعبد أحدٌ الأصنام في جزيرة العرب، وهذا أمر ظاهر، لم يُخبِر النبي صلى الله عليه وسلم أنّ هذا سيكون ولكن أخبر عن يأس إبليس.

وهنا فائدة عظيمة: وهي أنّ نجاة الناس إنما هي في قوة التوحيد وفي قوة تمسكهم بالدين؛ لأنّ إبليس لمّا رأى قوة توحيد الصحابة وصلابتهم في دينهم يئِس من أن يُعبَد، إذن إذا أردنا القوة للأمّة ماذا نفعل؟ ندعوها إلى التوحيد، ونحثُّها على التمسك بالسنة، وعلى حسن عبادة الله سبحانه وتعالى.

الوجه الثاني: أنّ المقصود بالحديث: أنّ الشرك لا يَقع من جميع الأمّة. ولا شك –بحمد الله– أنّ الشرك لن يقع من جميع الأمّة، بل ستبقى طائفة على التوحيد والسنة والحق منصورة، فيكون المقصود بالمصلِّين: جميع المصلِّين.

الوجه الثالث: أنّ (الـ) هنا للعهد؛ والمقصود بهم: الصحابة؛ لأنّ المعهودِين في ذلك الزمان هم الصحابة، فالشيطان أَيِس أن يَعبده أحد من الصحابة –رضوان الله عليهم–.

فهذا يدلك يا عَبد الله على أنّ هذا الحديث لا يدلّ على أنّ الشرك لن يقع في أمّة محمد صلى الله عليه وسلم.

ويدل أيضًا على عدم عموم الحديث: الواقع، فهناك من ادَّعى النبوة، واتَّبعه بعض الناس وارتَّدوا؛ كأبي الأسود، ومسيلمة، وسُجاح، وتَبِعَهم بعض الناس وارتدوا عن دينهم؛ فدلّ ذلك على أنّ الحديث ليس عامًّا في نفي عبادة الأوثان عن أمّة محمد صلى الله عليه وسلم.

قال: (بابُ: مَا جَاءَ أَنَّ بَعْضَ) ما قال: "أنّ هذه الأمّة"؛ لأنّ الأمّة بمجموعها محفوظة من الشرك، أن تكون الأمّة كلها مشرِكة هذا لا يقع، وإنما سيقع الشرك من بعضها. (بعض هَذِهِ اَلْأُمَّةِ) ليدلك على أنّ المقصود: أمّة الإجابة، وليست أمّة الدعوة، الأمّة القريبة وهي أمّة الإجابة؛ لأنّ النبي صلى الله عليه وسلم له أمّتان:

- **أمّة الدعوة:** وهم كل مَن وُجِدَ بعد بعثة النبي صلى الله عليه وسلم من الإنس والجن.

- **وأمة الإجابة**: وهم مَن استجابوا للنبي صلى الله عليه وسلم، وشهدوا أن لا إله إلا الله، وأنّ محمدًا رسول الله.

قال: (يَعْبُدُ ٱلْأَوْثَانَ)، وقد تقدّم أنّ الأوثان: جَمْعُ وَثَن؛ وهو كلُّ ما يُعبد من دون الله؛ سواء كان على صورة أم لم يكن على صورة.

[وَقَوْلهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾]

يقول الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾، وهذا الاستفهام للتقرير والتعجيب، يعنى أنه أمر عجيب هذا الذي صَدَرَ منهم.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ قال بعض أهل العلم: ترى هنا رؤية بصرية؛ لأنّ ترى لا تُعَدَّى بـ (إلى) إلا إذا كانت رؤية بصرية؛ يعنى: ألم تَرَ ببصرِك؟

وقال بعض أهل العلم: بل هي رؤية بالقلب والعِلْمِ، يعني: ألم ترَ بقلبك وعلمك؟ لأنّ النبي صلى الله عليه وسلم ما رأى هذا ببصره. هذا إذا قلنا: إنّ الآية خاصة بمَن نزلت فيه؛ وهو كعب ابن الأشرف، فإنّ هذا وقع في مكة ولم يَرَهُ النبي صلى الله عليه وسلم ببصره. ويكون عُدِّي بـ(إلى) هنا لأنه نَزَلَ باليقين منزلة البصر، يعني أنه متيقّن من ذلك كما لو أنه رآه ببصره.

وإذا قلنا: إنّ هذه الآية في عموم اليهود، فإنّ من اليهود مَن كان بالمدينة وكان النبي صلى الله عليه وسلم يراهم، فيكون معنى ترى: البصرية.

وقد يُراد الأمران، فيكون رأى ذلك من اليهود الذين رآهم ببصره، ورأى بعِلْمِه وقلبه بالخبر الذي بَلَغَه من الله عز وجل وهو يقين.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ أي: أُعْطُوا حظًّا من الكتاب، ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: أي يصدِّقون ﴿بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾، قال بعض السلف: الجِبت والطاغوت صنمان كانا يُعبدان من دون الله، صنم يقال له: الجِبت، وصنم يقال: له الطاغوت.

وقال بعض أهل العلم: الجِبت: هو الصنم، والطاغوت: رجال يعبِّرون عن الأصنام، فيَنقُلون –بِزَعْمِهِم– إلى الناس، فيقولون: الصنم يقول لكم كذا، اذبحوا بدنة، اذبحوا بقرة، هذا الذي عبَّر به بعض السلف بقولهم: الطاغوت مترجمو الأصنام، يعني: الذين يَزعمون أنهم يتكلَّمون بلسان الأصنام، ويَنقلون للناس ما تريده الأصنام.

وقال بعض السلف: الجِبت: هو السِّحر، والطاغوت: هو الشيطان.

وقال بعض أهل العلم: الجِبت: هو الساحر، والطاغوت: هو الكاهن.

وهذا كله من اختلاف التنوُّع؛ لأنها تفسير بالمثال، ولذلك قال ابن جرير الطبري –رحمه الله عز وجل– في تفسيره: "الجِبت والطاغوت اسمان لكلِّ معظَّم بعبادة من دون الله، أو طاعة، أو خضوع له، كائنًا ما كان ذلك، من حجر أو إنسان أو شيطان". يقول: الجبت والطاغوت اسمان لكل ما يُعظَّم بعبادة من

دون الله، أو طاعة له من دون الله، أو خضوع له أيا كان ذلك المعظم سواء كان حجرا أو بشرًا أو شيطانًا، ويشمل كل ما تقدَّم ذِكْر السلف له.

وتقدَّم أنّ الطاغوت: كل ما تجاوز به العبد حدَّه من معبود أو متبوع أو مطاع. وتكلمنا مَن الذي يسمى طاغوتًا، وبيّنا أنّ هذا له اعتباران:

الاعتبار الأوّل: اعتبار الذات والحقيقة. وهذا لا يجوز أن يُطلق على مَن لا يرضى بعبادته من دون الله؛ كعيسى عليه السلام، والملائكة عليهم السلام، وعُزير عليه السلام، وغيرهم.

الاعتبار الثاني: باعتبار المعبودِين التابِعين. فهذا يسمى طاغوتًا بمعنى أنه قد اتُّخِذ طاغوتًا، وإن كان الأدب ألّا يطلَق عليه طاغوت هكذا مباشرة، وإنما يقول: اتَّخذه الجهَّال طاغوتًا، اتَّخذَه المشركون طاغوتًا.

وعلاقة هذه الآية بالباب من ثلاثة وجوه:

الوجه الأوّل: أنّ الآية دلَّت على أنّ بعض أهل الكتاب يُشركون، ودلَّ الحديث القادم –إن شاء الله– على أنّ من الأمّة مَن سيتَّبع أهل الكتاب؛ فيفعل كما يفعلون، فما دام بعض أهل الكتاب يشركون فإنّ بعض هذه الأمّة سيُشركون؛ لأنهم يتَّبعون أهل الكتاب.

الوجه الثاني: أنّ الآية دلَّت على أنّ العلم لا يَعصِم الإنسان من الوقوع في الشرك؛ لأنّ الله عز وجل قال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوْتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ﴾ (آل عمر ان: ٢٣)، إذن عندهم عِلْم، ومع ذلك عِلمهم لم يَعصمهم من الوقوع في الشرك، فكأنّا نقول لمَن يقول: إنّ الشرك لا يقع في أمة محمد صلى الله عليه وسلم، نقول له: لماذا تقول هذا؟ يقول: لأنّ العلم موجود، القرآن موجود، والسنة موجوده، والله حفظهما! فنقول له: إنّ وجود العلم لا يَمنع من وقوع الشرك، وإن كان يُقلِّل منه ولا شك، ولكن نجد في الواقع بعض الدكاترة في الشريعة قد يَبلغ أعلى مرتبة ويُسمى استاذًا في الجامعة ثم هو يُقرِّر للناس النذور للقبور، والاستغاثة بغير الله! فالعِلم لا يَمنع من الوقوع في الشرك.

الوجه الثالث: أنّ بعثة النبي صلى الله عليه وسلم لا تَمنع من الوقوع في الشرك بعده؛ لماذا؟ لأنّ هؤلاء اليهود قد بُعِثَ لهم موسى عليه السلام، وقد بيَّن لهم غاية البيان؛ ومع ذلك أشركوا بعده. فكذلك بعثة النبي صلى الله عليه وسلم، لا تَمنع من وقوع الشرك في أمّته من بعده، فانسدَّ الباب.

بعبارة أخرى: كأنّا قلنا لمَن يقول لنا: إنّ الشرك لن يقع في هذه الأمّة أبدًا، وأنّ مَن قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنّ محمدًا رسول الله؛ لا يرتد أبدًا! كأنّا قلنا له: لماذا لا يقع مَن قال أشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمدًا رسول الله في

الشرك؟ هل ذلك من أجل العلم؟ فإن قال: نعم، قلنا: إنّ العلم لا يَمنع من الوقوع في الشرك؛ كما في الآية.

أو كان ذلك لأنّ النبي صلى الله عليه وسلم بُعِثَ وبيَّن؟! فإن قال: نعم، قلنا: إنّ بعثة موسى عليه السلام وقد بُعِثَ وبيَّن –ولا نشك في ذلك– لم تَمنع اليهود من الوقوع في الشرك بعده.

فدلَّت هذه الآية بالوجوه الثلاثة على أنّ من أمّة محمد صلى الله عليه وسلم مَن سيقع في الشرك والعياذ بالله.

[وَقَوْلهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللهِ مَن لَّعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾]

يقول الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم: قلْ للمستهزئين بكم المسفِّهين دينكم، وهم من اليهود: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللهِ﴾ أي: جزاء عند الله عز وجل. ﴿مَن لَّعَنَهُ اللهُ﴾ واليهود قد لعنهم الله عز وجل، ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ فالغضب صفة لربنا سبحانه وتعالى على ما يليق به سبحانه وتعالى، والله قد غَضِبَ على اليهود، ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ﴾ أي: مَسَخَ بعضهم قردة، وهذا مَسْخٌ حقيقي، فحوّل الله صورة بعضهم إلى صورة القردة، ولا يعني هذا أنّ القردة هم أولئك الممسوخون، لا، فالقردة كانت موجودة قبل اليهود، ثم مُسِخوا على صورتها، ومَن مُسِخَ لا يكون له نَسْل، يموت ويَنقطع، فالمَسخ

له خاصة، ثم يموت. ﴿وَالْخَنَازِيرَ﴾ فالله مَسَخَ بعض اليهود على صورة الخنازير؛ وذلك لقُبح صنيعهم، وعجَّل الله لهم المَهانة في الدنيا قبل الآخرة. نعوذ بالله من الهَوان. ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ أي: ومَن عَبَدَ الطاغوت. وهذا يدلّ على أنّ من اليهود مَن أشركوا، وهذا المراد.

وعلاقة الآية بالباب هي نفس علاقة الآية الأولى بالباب.

[وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِداً﴾]

هذه الآية في قصة أصحاب الكهف، الفتية الذين آمنوا وآووا إلى الكهف؛ لمّا اطلع عليهم قومهم ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ﴾ مَن هم هؤلاء؟ للعلماء فيهم أقوال:

-قال بعض أهل العلم: هم المشركون؛ لأنهم هم الذين من عادتهم يَبنون المساجد على القبور، كما تقدَّم في حديث أم سلمة وحبيبة.

- وقال بعض أهل العلم: هم من المسلمين؛ ولكن ليسوا أنبياء.

- وقال بعض أهل العلم: هم الحكَّام أهل القوة، وهذا ظاهر الآية، وتقدّم معنا أنه لا حجة في فِعْلِهم.

﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم﴾ للعلماء فيها أقوال:

-قال بعض أهل العلم: يعني على قبورهم، لنتخذن على قبورهم مسجدًا، وهذا وجه الدلالة هنا؛ أنّ من عادة الأمم السابقة اتخاذ القبور مساجد، وهذا من

كبائر الذنوب، وقد يكون من الشرك الأصغر ما لم يعبدوهم؛ فإن عبدوهم أصبح شركًا أكبر.

- وقال بعض اهل العلم: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم﴾ يعني لنتخذن على الكهف مسجدًا، يعني لنجعلن مكانهم الذي كانوا فيه مسجدًا، وليس على قبورهم.

- وقال بعض أهل العلم: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم﴾ أي بجوارهم مسجدًا، لماذا؟ قالوا: ظنوا أنهم عادوا إلى النوم كما كانوا، فقالوا: لنبنينّ لهم مسجدًا بجوارهم، إذا استيقظوا من نومهم صلّوا فيه.

وأظهر التفاسير: الأوّل؛ ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم﴾ لنتخذن عليهم هم- أي على قبورهم- مسجدًا. ولا حجة في هذا، وهذا من الضَّلال الذي حكاه الله عن تلك الأمّة، من ضلالهم أنهم قالوا: لنتخذن عليه مسجدًا.

والمقصود: أنّ ذلك كان موجودًا في الأمم السابقة، والأمّة سيتبع بعضها الأمم السابقة، فاتخاذ المساجد من هذا الباب.

[وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ -رَضِيَ اَللهُ عَنْهُ- أَنَّ رَسُولَ اَللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «لَتَتَّبِعُنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذْوَ اَلْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اَللهِ: اَلْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؟. قَالَ: «فَمَنْ ؟»، أَخْرجَاهُ]

الشيخ –رحمه الله– تَبِع في ذكر لفظ الحديث شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- فذكره كما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله؛ وإلا فإنّا لم نجد

هذا الحديث بتمام لفظه في شيء من كتب السنن، معناه موجود في الصحيحين لكنّ هذا الحديث بتمام لفظه لم نجده في شيء من كتب السنن، وإنما جاء في صحيح البخاري أنّ النبي صلى الله عليه سولم قال: «لتتبعن مَن كان قبلكم شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم» قلنا: يا رسول الله! اليهود والنصارى؟ قال: نعم». ولفظ مسلم: «لتتبعن سَنن الذين من قبلكم، شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، حتى لو دخلوا في جحر ضَبٍّ لاتَّبعتموهم»، قلنا: يا رسول الله! اليهود والنصارى؟ قال: «فمن».

إذن؛ معنى الحديث موجود في الصحيحين؛ لكنّ تمام هذا اللفظ المذكور هنا ليس موجودًا في الصحيحين ولا في شيء من كتب السُّنة، نعم وَرَدَ بمعنى قريب منه؛ في قول ما رُوِيَ أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ليُحمَلن شرار هذه الأمّة على سُنن الذين خَلَوا من قبلهم من أهل الكتاب، حذو القُذة بالقُذة» هذا جاء عند الغمام أحمد في المسند لكن إسناده ضعيف، وصححه بعض أهل العلم بشواهده.

نشرح الحديث على اللفظ الذي ذكره الشيخ أولًا: (عَنْ أَبِي سَعِيدٍ -رَضِيَ اَللهُ عَنْهُ- أَنَّ رَسُولَ اَللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «لَتَتَّبِعُنَّ»، وهذا الخطاب للأمّة، وهو خطاب عامٌّ يُراد به الخصوص؛ لأنّ الأمّة كلها لن تتَّبع اليهود

والنصارى؛ وإنما بعض الأمّة سيتَّبعون اليهود والنصارى، وإلّا فهناك الطائفة المنصورة والفرقة الناجية لا تتَّبع اليهود والنصارى.

«سَنَنَ» بفتح السين؛ مفرد، بمعنى: طريق، وضُبِطَ بضم السين (سُنن) فتكون: جمع سُنة؛ أي: طرق، فإذا قلنا: (سَنن) فهو مفرد؛ بمعنى: طريق، وأُفرِد لأنه سواء في الشر، طريق شر، مهما تنوَّعت الصور فهو طريق شر، وإذا قلنا: (سُنن) فهي طرق.

« لتتبعنّ سنن مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ» معنى ذلك: أنّ بعض الأمّة قد يتَّبع اليهود في كذا، وبعضها قد يتَّبع اليهود في شيء آخر، وهكذا.

«حَذْوَ اَلْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ» القُذَّة: ريش السَّهم. وكانوا قديمًا يَضعون في السَّهم ثلاثة رِيَش، ويُشترَط لها أن تكون متساوية تمامًا؛ لماذا؟ لأنّ هذه الرِّيَش تَضبِط السّهم إذا انطلق، تصبح كأنها جناح له فلا يميل يمينًا ولا يسارًا حتى يَصل إلى مرماه، ويَشترطون فيها أن تكون متساوية حتى لا يختل السهم، وقالوا: لو نَقصت هذه عن هذه ولو شيئًا يسيرًا يَختل السهم، إذن ماذا كانوا يفعلون بالريش؟ يأخذون الريشة ويأتون بريشة ثانية ويوازنونها بها؛ حتى تكون مثلها تمامًا، ثم يأتون بالثالثة، وهذا مَثَلٌ يُضرَب للتساوي، تقول: ..... فلان حذو القذة بالقذة، كما يقولون في التعبيرات اليوم: كأنك صورة منه. والمقصود شدَّة الاتِّباع.

قوله: (حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ): وهو الغار. (ضَبٍّ) معروف، وهو الدابة الزاحفة. وجحر الضب يَتَّصف بصفتين:

الصفة الأولى: أنه ضيِّق.

الصفة الثانية: كثير التعرُّج.

والمقصود أنه لو كان اتِّباعهم صعبًا جدًّا لاتَّبعتموهم، لا يمكن لإنسان أن يدخل في جحر ضب، اليد بصعوبة تدخل في جحر ضب، لكن حتى لو فَرَضْنا أنهم دخلوا في جحر ضب لدخلتموه، وهذا يدل على شدة الاتِّباع.

(قَالُوا) ولم يُعيَّن القائل (يَا رَسُولَ اَللهِ! اَلْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؟) يصح النَّصب فتقول: اليهودَ والنصارى، أي: تعني اليهود والنصارى؟ ويصح الرفع: اليهودُ والنصارى؛ يعني: يا رسول الله! هم اليهود والنصارى؟ (فقَالَ صلى الله عليه وسلم: «فَمَنْ ؟»). والمقصود: اتِّباع اليهود والنصارى في المعاصي وما يَتعلَّق بالدين من بدع وشركيات.

وقد جاء في حديثٍ قريبٍ من هذا عند البخاري: (أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قيل له: يا رسول الله! كفارس والروم؟ قال: «فمَن الناس إذن؟»). هنا قال: «اليهود والنصارى»، وفي حديث عند البخاري قريب من هذا في المعنى(قالوا يا رسول الله: كفارس والروم؟ قال: «فمَن الناس إذن؟»، ففسَّره بأنهم فارس والروم.

قال العلماء: المقصود بـ «كفارس والروم» فيما يَتعلق بالحُكم والسياسة. واليهود والنصارى فيما يَتعلق بالديانة.

ووجه الدلالة من الحديث ظاهرة: وهي أنّ النبي صلى الله عليه وسلم أخبرنا في هذا الحديث الصحيح أنّ بعض الأمّة سيتَّبعون أهل الكتاب اليهود والنصارى في كل شيء.

وجاء عند الشافعي بسند قال عنه ابن حجر: صحيح: «في حُلْوه ومُرِّه»؛ أي: تقلِّدون اليهود والنصارى في الحُلو والمُر.

وثَبَتَ بالأدلة أنّ بعض أهل الكتاب يُشركون ويؤمنون بالجبت والطاغوت، وهم بعد بعثة النبي صلى الله عليه وسلم كفار إذا لم يؤمنوا به، فدلّ ذلك على أنّ بعض أمّة محمد صلى الله عليه وسلم سيشركون؛ لأنهم يتَّبعون أهل الكتاب في كل شيء.

وهذا فيه تحذير شديد من موافقة أهل الكتاب فيما ظهر أنه حُلو من أفعالهم، أو كان مرًّا. يعني لا يجوز لنا أن نتشبَّه بأهل الكتاب.

[وَلِمُسْلِمٍ عَنْ ثَوْبَانَ –رَضِيَ اَللهُ عَنْهُ– أَنَّ رَسُولَ اَللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «إِنَّ اَللهَ زَوَى لِيَ اَلْأَرْض، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ اَلْكَنْزَيْنِ: اَلْأَحْمَرَ، وَالْأَبْيَض، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ بِعامَّةٍ، وَأَنْ لا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُّوا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، فَيَسْتَبِيحَ

بَيْضَتَهُمْ، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ: إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ، وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَلَوْ اِجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا، حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِيَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا)]

قال الشيخ: (وَلِمُسْلِمٍ) أي: أنّ هذا الحديث المذكور قد رواه الإمام مسلم. (عَنْ ثَوْبَانَ –رَضِيَ اَللهُ عَنْهُ– أَنَّ رَسُولَ اَللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «إِنَّ اَللهَ زَوَى لِيَ اَلْأَرْضَ» زوى: أي قبض أطرافها وجَمَعها، أي: أنّ الله جَمَعَ الأرض للأجل محمد صلى الله عليه وسلم. قال: «فَرَأَيْتُ» لم يأتِ في الحديث ما يبيِّن هذه الرؤية؛ هل هي رؤية عين في اليقظة؟ أو رؤية في المنام؟ ما جاءنا شيء، ما نَقطع بشيء، قد يكون هذا في المنام، فيكون الله قد أَرى نبيه صلى الله عليه وسلم في المنام أقطار الأرض؛ مشارقها ومغاربها، وقد يكون هذا برؤية عين، فيكون الله عز وجل –وهو على كل شيء قدير– قد جَمَع الأرض حقيقة في اليقظة للنبي صلى الله عليه وسلم؛ فرأى مشارقها ومغاربها بعينة صلى الله عليه وسلم. فلا نجزم بهذا ولا بهذا؛ فالحديث محتمِل للأمرين، ولا نَستبعد شيئًا؛ فإنّ الله على كل شيء قدير.

قال: «فرأيتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا» سبحان الله ما قال النبي صلى الله عليه وسلم وشمالها وجنوبها! فرأى النبي صلى الله عليه وسلم جميع مشارقها

ومغاربها. قال العلماء: في هذا إشارة إلى أنّ الفتوحات ستمتد إلى جهة المشرق والمغرب أكثر من جهة الشمال والجنوب، وأنّ امتدادها إلى جهة الشمال والجنوب يكون قليلًا بالنسبة لامتدادها إلى جهة المشرق والمغرب. وبهذا تَعرفون فائدة الألفاظ في السُّنة.

وبالمناسبة؛ نحن في زمن اتُّخِذ فيه رؤوس جهَّال، ونُسِبوا إلى العلم، وأصبحوا يقدَّمون للناس على أنهم دكاترة وأهل علم، وقد يَغرُون الناس بالنسبة إلى جامعات كبيرة؛ وهم دجالون، كذّابون، ما عندهم علم، بالأمس أسمَعني بعض الأخوة مقطع لدكتور بجامعة عريقة يقول: هذه الألفاظ التي بالبخاري ومسلم وبالسنن ليست كلام النبي صلى الله عليه وسلم، هذه ألفاظ منسوبة إليه! هذا الدجال الكذَّاب المنتَفخ بالدكتوراة، يكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وللأسف كان هذا مقطعًا من شيء في قناة فضائية تُعرَض للناس! واليوم الدجالون كُثُر يحارِبون سنة النبي صلى الله عليه وسلم. يجب أن نحارِب هؤلاء، وألّا نستمع لهم، بل أرى من المنكَر أن تُنشَر مقاطعهم، ولو على سبيل الإنكار، بعض الإخوة من سبيل الحميَّة يرسِل هذه المقاطع للناس، ويسمعها بعض الناس، وأنت لا تَملك قلوب الناس، ولا تَعلَم عِلم الناس؛ قد تَقع هذه الشُّبَه في قلوب بعض الناس! فيجب أن يُحارَب هؤلاء، لا يُستمَع لهم. مَن سَمعناه يُنكِر سُنة

النبي صلى الله عليه وسلم أو يهوِّن من شأنها ضربنا به عرض الحائط، ولا نَستمع له، ولا نَسمح للأحد أن يُسمعنا كلامه؛ إلا إذا كنا من أهل العلم ونَسمع لنبيِّن فهذا شيء آخر له مجاله الخاصّ.

يا أمّة محمد صلى الله عليه وسلم! لا تَسمحوا لمَن يريدون أن يُشكِّكوكم في دينكم، مَن يريدون أن يُخرِجوكم من سَعة دينكم وصفاء دينكم إلى ظلمة الشبهات، إذا لم نَثق بسنة النبي صلى الله عليه وسلم كيف نصلي؟! إذا لم نَثق بما في البخاري ومسلم والسُّنن على ما بيَّنه النُّقاد كيف نصلي؟! ما يستطيع واحد منّا يَعرف كيف يصلي؟ كيف نَعبد الله؟! الصحابة –رضوان الله عليهم– ورُوَّاة الحديث كانوا من أشد الناس تحريًا في الألفاظ؛ حتى إذا شك أحدهم جاء بـ(أو)، مثل ما تقدَّم معنا في الحديث، قد يكون المعنى واحدًا، لكن من شدة التحري قال: (الرجل الصالح، أو العبد الصالح)، شك الراوي، فلمّا شك قال: (أو)، مع أنّ الأمر قريب.

ديننا لا يقوم إلا بسنة النبي صلى الله عليه وسلم، ديننا قام على الأمرين: على الكتاب والسنة، ولا يمكن أن نفهم ديننا إلا بالسنة، فإنها فصّلت ما في القرآن. فيجب على الأمّة أن تحافظ على هذا، وأن تبرأ إلى الله ممن يخالِفون في هذا. لا يمكن أن يضيِّع الله السنة، بل الله حَفِظَ السنة كما حَفِظَ القرآن، حَفِظَها برواةٍ ثقات متقنين ضابطين، وبنقَّادين يبيِّنون الصحيح من الضعيف.

قال: «وَإِنَّ أُمَّتِي» أي: أمّة الإجابة «سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زَوَيَ» أي: ما زوى الله لي، وفي رواية: «مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا»، «وَأُعْطِيتُ اَلْكَنْزَيْنِ اَلْأَحْمَرَ» مَن المعطى؟ النبي صلى الله عليه وسلم. «الاحمر» أي: الذهب، «وَالْأَبْيَضَ» أي: الفضة. والمراد بالكنزين: كنزا كسرى وقيصر، وذلك أنّ الغالب على أموال الفرس الدنانير؛ وهي من الذهب، والغالب على أموال الروم الدراهم؛ وهي من الفضة.

طيّب؛ النبي صلى الله عليه وسلم قال: «وأُعطيتُ» بينما المعلوم أنّ هذا الإعطاء إنما كان متأخِّرًا في زمن عمر –رضي الله عنه–؛ فهل هنا إشكال؟ الجواب: لا؛ لأنّ المعنى وأُعطيتُ لأمَّتي الكنزين، فالذي أُعطِي في الحقيقة الأمّة لكن بسبب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكأنّ الذي أُعطى هو الرسول الله صلى الله عليه وسلم حقيقةً، وإذا فهمناها على هذا يزول الإشكال: أُعطيت لأمَّتي الكنزَين. فالمُعطى النبيُّ صلى الله عليه وسلم لأمّته.

«وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي» سبحان الله النبي صلى الله عليه سلم بالمؤمنين رؤوف رحيم، يخاف على الأمّة ويدعو الله للأمّة كثيرًا، «أَلَّا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ)، وفي رواية: «بسنة عامّة» وهكذا هي في صحيح مسلم؛ في بعض النسخ: «بسنة بعامة»، وفي بعض النسخ: «بسنة عامة»، والمقصود: بقحط عامٍّ يُهلكهم. والقحط إذا أصاب الأرض ما الذي يقع؟ يقع الجوع والعطش، وإلّا القحط ذاته لا يُهلكهم، وإنما الذي يُهلكهم الجوع إذا جاء القحط، ولذلك في رواية ابن

ماجه وغيره بسند صحيح: «ألَّا يُهلكها بجوع عام». أن يكون الهلاك بسبب الظمأ؛ لأنّ القحط إذا وُجِد وُجِد الجوع ووُجِد الظمأ؛ لأنّ القحط يكون متى؟ إذا عُدِم الماء، وإذا عُدِم الماء عُدِم النبات، وإذا عُدِم النبات وُجِد الجوع.

إذن يكون حقيقة المعنى: ألَّا يهلكها بجوع عام، ولا بظمأ عام، ومعنى عام: أي يَعمّ الأمّة.

«وَأَلَّا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُّوا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ» يعني من الكفار، وهنا سؤال: لماذا قيَّد النبي صلى الله عليه وسلم دعاءه هنا بقوله: «من سوى أنفسهم» فاستثنى مَن يَتسلَّط عليهم من أنفسهم؟ لماذا لم يَجعل الدعاء بالحفظ عامًّا؟ لماذا قال: «من سوى أنفسهم» ولم يقل: وألّا يُسلِّط عليهم عدوًا فيَستبيح بيضتهم؟

قال بعض أهل العلم: لأنّ النبي صلى الله عليه وسلم سَبَقَ وأن سأل الله للأمّة ألّا يَجعل بأسهم بينهم، فلم يُعطِه الله ذلك، كما في الصحيح؛ ولذلك قيَّد هنا؛ لأنه عَلِمَ أن تأمين الأمّة من وقوع بأسهم بينهم ممتنِع. على أنه جاء في رواية ابن ماجه لهذا الحديث: «وألّا يَلبِسهم شيعًا، ويُذيق بعضهم بأس بعض»، فعلى ما في ابن ماجه عام، ولكن على هذا الحديث لماذا قيَّد؟ قلنا: لأنه سبق سأل ربه سبحانه وتعالى ألّا يَجعل بأسهم بينهم فلم يعطِه ذلك.

«يَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ» أي: جماعتهم، أي: فيُهلكهم جميعًا.«وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ: إِنِّي» هكذا في الصحيح :«إني»، «إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً» أي: حَكَمتُ حكمًا قدريًّا كونيًّا؛ لأنّ قضاء الله نوعان:

النوع الأوّل: قضاء كوني قدري. وهذا يَعمّ؛ ما يحب وما لا يحب، وهو نافِذ؛ كقضاء الله على بني آدم الموت، قضى الله بالموت على بني آدم، هذا قضاء عامٌّ على بني آدم، على مَن يحبه الله، وعلى مَن لا يحبه الله، فهذا نافِذ.

النوع الثاني: قضاء شرعي. وهو خاصٌّ بما يحبه الله، وقد يقع وقد لا يقع. الله أراد من أبي بكر أن يؤمن؛ فوقع، فآمن، وأراد من أبي طالب أن يؤمن، حَكَمَ بهذا شرعًا؛ لكنّ أبا طالب لم يؤمِن.

والمقصود هنا: الحكم القدري؛ ما الدليل؟ قول الله عز وجل: «فإنه لا يُرَدّ» وهذه صفة القضاء الكوني القدري.

وقضاء الله الكوني القدري قد يكون مطلقًا غير مقيَّد؛ وهذا لا يُرَدُّ أبدًا، وقد يكون مقيَّدًا بسبب؛ فهذا يرتبط بسببه، ولكنّ هذا بالنسبة لِمَا في أيدي الملائكة، أمّا في ما عند الله فهو معلوم. يعني قد يقيَّد حُكم الله القدري بالنسبة لِمَا عند الملائكة بالدعاء؛ فيقال: إن لم يدعو يُنزَل عليه المرض، هذا الذي عند الملائكة، أمّا الذي عند الله فالله عَلِمَ الأشياء بحقائقها، فإذا دعا فإنّ المرض لا يُنزَل عليه. وهذا معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم: «لا يَرُدُّ القضاء إلا

الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر) رواه الترمذي، وحسّنه الألباني. يقول قائل: طيّب هنا في الحديث «إذا قضيتُ قضاء فإنه لا يُرَد»؟! نقول هذا القضاء الكوني المطلَق، أمّا القضاء الكوني المقيَّد بالدعاء أو نحوه فقد يُرَد بالنسبة لِمَا في أيدي الملائكة. مثال: عُمْر فلان عند الملائكة قد يكون ستين وقد يكون ثمانين، إن بَرَّ بأبوَيه ووَصَل رَحِمه فعُمره ثمانون، فالملائكة تَنظر فيه، فإن لم يَبَرَّ بوالديه ولم يَصِلْ رَحِمه عَلِمَت الملائكة أنّ عمره ستون مثلًا؛ فيُقبض عند الستين، فإذا بَرَّ بوالديه ووَصَل رحمه عَلِمت الملائكة أنّ عمره ثمانون؛ فيُمَد في عمره بالنسبة لِمَا عند الملائكة ثمانون.

قوله: «وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ» فأعطى الله نبيه صلى الله عليه وسلم ألَّا يُهلكهم بقحط يَعمُّهم؛ أي: يَعم جميع بلدانهم. وأيضًا في الحديث الآخر: أعطاه أن لا يُهلك أمَّته بالغرق، فلا تَهلك الأمّة كلها بالغرق، وقد يقع هذا لبعضها.

«أَلَّا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُّوا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ» يعني أعطيتك لأمّتك ألَّا أُسلِّط عليهم الكفار فيَستبيحوا جماعتهم عامّة، نعم قد يَتسلط الكفار على بلد أو بلدين أو ثلاثة أو أربع ولكن لن يتسلطوا على جميع بلدان المسلمين.

قوله: «وَلَوْ اِجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا» أي مَن بنواحيها، «حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِيَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا».

الدرس التاسع والعشرون: تابع شرح باب ما جاء في أنّ بعض هذه الأمّة يَعبُد الأوثان

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَن يهدي الله فلا مضلَّ له، ومَن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٢)

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ (النساء: ١)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ (الأحزاب: ٧١)

أما بعد:

فإنّ أحسن الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشرّ الأمور محدثاتها، وكلّ محدَثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النار.

نواصل شرحنا لكتاب التوحيد، وكنّا نقرأ في باب عظيم؛ وهو: باب ما جاء في أنّ بعض هذه الأمّة يَعبُد الأوثان. وقد تقدَّم بيان أنّ هذه الشبهة قد أضرَّت بكثير من المسلمين؛ وهي: أنّ هذه الأمّة لا يقع فيها الشرك، وأنّ مَن أسلم وأتى بالشهادتين لا يرتد، فعَقَدَ الشيخ هذا الباب لِيَكشف هذه الشُّبهة، ولِيَزيل هذه العِماية عن الأعيُن، لِيَنتبِه المسلم، ويَنتبِه الغافل، ويَعلَم أنّ هذه الأمّة كسائر الأمم قد يقع من بعضها الشرك والعياذ بالله، وإن كانت هذه الأمّة قد حُفِظت من أن يقع الشرك من جميعها؛ ولكن قد يقع من بعضها. وأقام الشيخ الأدلة على أنّ الشرك قد وقع في الأمم السابقة، وأقام الدليل على أنّ أقوامًا من هذه الأمّة سيتّبعون الأمم السابقة في كل ما فعلوه، وما دام أنه قد ثَبَتَ أنّ الشرك قد وقع في الأمم السابقة فإنّ أقوامًا من هذه الأمّة سيقعون في الشرك؛ لِصِدْقِ خبر النبي صلى الله عليه وسلم. وكنّا شرعنا في حديث ثوبان، وتقّفنا في أثناء شرحه، فيعيد الشيخ ياسين –وفقه الله– قراءة الحديث ليذكّرنا به.

[وَلِمُسْلِمٍ عَنْ ثَوْبَانَ –رَضِيَ اَللهُ عَنْهُ– أَنَّ رَسُولَ اَللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: (إِنَّ اَللهَ زَوَى لِيَ اَلْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ اَلْكَنْزَيْنِ: اَلْأَحْمَرَ، وَالْأَبْيَضَ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَلَّا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ، وَأَلَّا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ: إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ

لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ، وَأَلَّا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَلَوْ اِجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا، حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِيَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا)]

هذا الحديث الصحيح في صحيح مسلم حديث عظيم، فيه بشارات للامّة، وتحذيرٌ لها، (عَنْ ثَوْبَانَ -رَضِيَ اَللَّهُ عَنْهُ- أَنَّ رَسُولَ اَللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اَللَّهَ زَوَى لِيَ اَلْأَرْضَ» معنى زَوى: أي جَمَعَ وقَبَضَ، أي: أنّ الله عز وجل جَمَعَ الأرض لنبيِّه صلى الله عليه وسلم. قال: «فَرَأَيْتُ» ولم يأتِ دليل على نوع هذه الرؤية، هل هي رؤية بالعين الباصرة في اليقظة؛ فيكون الله عز وجل جَمَعَ الأرض وطوى أطرافها للنبي صلى الله عليه وسلم حتى أصبح النبي صلى الله عليه وسلم يَنظر إلى مشارقها ومغاربها بعينيه في اليقظة؟ هذا محتمَل، والله على كل شيء قدير سبحانه وتعالى. أو أنه رأى ذلك في المنام؛ فأراه الله الأرض، فرأى مشارقها ومغاربها في المنام؟ ورؤيا الأنبياء حق لا كَذِبَ فيها ولا تَخليط، ولا خطأ فيها. الحديث محتمِل للأمرين، ولم يأتِ دليل يعيِّن أحد الاحتمالَين.

قال: «فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا» أي: رأيتُ جميع مشارقها، وجميع مغاربها، فجميع نواحي الشرق من الأرض قد رآها النبي صلى الله عليه وسلم،

وجميع نواحي الأرض من الغرب قد رآها النبي صلى الله عليه وسلم، قال العلماء: ولم يَذكر شمالها وجنوبها، وفي هذا إشارة إلى أنّ فتوحات المسلمين ومُلْكَ المسلمين سيَمتدّ في الشرق والغرب أكثر منه في الشمال والجنوب، وهذا الواقع.

وقال العلماء: إنّ في هذا دليلًا أنّ الإسلام سيَدخل جميع المشارق، وسيَدخل جميع المغارب، فما من جزءٍ في المشرق إلا وسيَدخله الإسلام، وما من جزء في المغارب إلا سيَدخله الإسلام؛ لأنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: «وإنّ أمّتي» أي: أمّة الإجابة «سيبلغ مُلكها ما زَوى» أو زُوِيَ، ضُبِطت الكلمة بالضبطَين، (ما زَوى) أي: ما زَوى الله لي، و(ما زُوي): ظاهر، (ما زُوِي، أو ما زَوى لي منها) وهذا يجعلنا نقطع بأنّ الإسلام سيصل جميع المشارق والمغارب، ومنها ما وصله فعلًا، ومنها ما سيصله يقينًا وقطعًا، والله غالب على أمره.

قال: «وَأُعْطِيتُ اَلْكَنْزَيْنِ: اَلْأَحْمَرَ، وَالْأَبْيَضَ» يعني: أُعطِيت لأمّتي الذهب والفضة، فالأحمر: هو الذهب، والأبيض: هو الفضة. وفي هذا بشارة للأمّة في ذاك الوقت؛ أنهم سيَستولون على ملك كسرى وقيصر، وذلك أنّ الغالب على أموال الفُرس كانت الدنانير؛ وهي من الذهب، والغالب على أموال الروم كانت الدراهم؛ وهي من الفضة، والمقصود: أنّ الأمة ستَفتح فارس والروم، وسيُغلَب

فارس والروم من أمّة محمد صلى الله عليه وسلم، وقد وقع هذا في زمن عمر – رضي الله عنه–.

قال صلى الله عليه وسلم: «وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي» دعا الله عز وجل لأمّته «أَلَّا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ»، قلتُ لكم أنّ في بعض نسخ كتاب التوحيد: «بسنة عامة»، وهكذا هي في نسخ مسلم؛ ففي بعض نسخ مسلم: «بسنة بعامة»، وفي بعض نسخ مسلم: «بسنة عامة»، والمعنى واحد، والمقصود: ألَّا يُهلكهم الله بقحط عام يَعمّ المسلمين جميعًا، ويُبيد المسلمين جميعًا، وقلت لكم: إنّ الهلاك بالقحط يكون بالجوع أو بالعطش، أو بهما معًا ؛ لأنّ القحط يَذهب معه الطعام، ولذلك جاء في رواية عند ابن ماجه: «(بجوع عام»، وكذلك القحط معناه فَقْدُ الماء؛ فيصيب ا لناس العطش. «(وَأَلَّا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُّوا» يعاديهم، ويحاربهم، ويَتسلَّط عليهم بقوته «مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ». وقلت لكم: إنّ النبي صلى الله عليه وسلم قيَّد دعوته بهذا القَيد ولم يُطلِق؛ لأنه سَبَقَ أن سأل الله لأمّته ألَّا يجعل بأسه بينهم، ولم يعطه الله ذلك، فعَلِمَ النبي صلى الله عليه وسلم أنّ بأس الأمّة سيكون بينهم، فسأل الله ألَّا يسلِّط عليهم عدوًّا كافرًا. «فَيَسْتَبِيحَ» هذا معطوف على «وألَّا يسلِّط»،« بَيْضَتَهُم» أي: جماعتهم، فالنبي صلى الله عليه وسلم سأل ربنا سبحانه وتعالى ألَّا يسلط علينا عدوًّا يُبيد جميع الأمّة. «وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ» وهذا دليل على أنّ ربنا سبحانه وتعالى يتكلم متى شاء بما شاء،

كلامًا حقيقيًّا، على ما يليق بجلال ربنا سبحانه وتعالى، وأنّ كلام ربنا ليس محصورًا في الكتب المنزَّلة؛ وإنما الله يتكلم متى شاء كيف شاء سبحانه وتعالى. وكلامه –كما هو واضح في الأدلة وضوح الشمس– بحَرْفٍ وصوت. «وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ؛ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً» قَضَيْتُ قَضَاءً: أي حَكَمْتُ حُكمًا كونيًّا قدريًّا «فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ»، أمّا القضاء الشرعي فإنه قد يُرَدّ، ولا يستجيب من طُلِب منه ذلك، وقلتُ لكم: إنّ القضاء القدري الكوني إذا كان مطلَقًا فإنه لا يُرَدُّ وسيقع، هو واقعٌ، ولذلك العلماء يقولون: القضاء الكوني القدري ملازِمٌ للوقوع، والقضاء الشرعي ملازِمٌ للمحبة.

أمّا إذا كان القضاء الكوني القدري مربوطًا بسبب؛ فإنه قد يُرَدّ، ولذلك قلت لكم: جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «(لا يَرُدّ القضاء إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر) رواه ابن ماجه بإسناد حسَّنه الألباني. «فلا يَرُدّ القضاء إلا الدعاء» قال العلماء: هذا القضاء المقيَّد بالدعاء، فيكون في أيدي الملائكة أنّ فلانًا إن دعا لا يُنزَل به كذا، وإن لم يدعو يُنزَل به كذا، أو إن دعا يُعطى كذا، وإن لم يَدْعُ يُحرَم من كذا، فإن دعا وقع ما عُلِّق على الدعاء، وإن لم يَدعُ لم يقع، أو العكس إذا كان في باب المنع.

قال: «وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ» ما مناسبة هذه الجملة للدعاء؟ المناسبة: أن يتيقَّن المؤمنون أنّ ما في هذا الحديث واقع، لا يستطيع أحد ولا جَمعات مَنْعَهُ.

قال: «وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَلَّا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ بِعَامَّة» فاستجاب الله هذه الدعوة؛ ألَّا يهلك الأمّة بقحط يَعمُّها، وجاء في الحديث الآخر: «ألَّا يهلك الأمّة بالغرق»، فالأمان العام وقع من هذا، وهذا قضاء الله الكوني الذي سيقع يقينًا. فنحن نقول بيقين: إنّ هذه الأمّة لن تُباد بقحط عام، ولا بجوع عام، ولا بعطش عام، ولا بغرق عام.

وهذا يدل على أنّ بعضها قد يَهلَك بسبب هذا، قد يصيب بلدًا من البلدان جوع؛ فيموت الناس، قد يأتي سيل أو شيء من البحر كإعصار أو نحو ذلك فتُغرَق مجموعة من المسلمين؛ لأنّ هذا قُيِّد بـ «سنة بعامة».

قال: «وَأَلَّا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ» يعني: من الكفار «فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ» أي: يُبيد جماعتهم «وَلَوْ اِجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا» أي: لو اجتمع عليها مَن بنواحيها من الكفار، وساروا بجيش واحد، لو أنّ القوى العظمى الكافرة، والقوى الصغرى الكافرة، لو اجتَمعت في جيش واحد وقوة واحدة وسارت لتُبيد المسلمين لن تستطيع، نعم قد تتغلَّب على بلد أو بعض البلدان، أمّا أن تتغلَّب على جميع المسلمين فلا.

ولاحظوا أنّ الأمان هنا من أمرين:

الأمر الأوّل: الإبادة والقضاء. فالأمّة مؤمَّنة من أن يُبيدها أعداؤها الكفار.

الأمر الثاني: التسلُّط والحُكم. فالأمّة مؤمَّنة من أن يُسلَّط الكفار عليها، تسلُّطًا عامًّا شاملًا.

قال: «حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا» أي: أنّ بأسهم سيكون بينهم، «وَيَسْبِيَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا» أي: يأسر بعضهم بعضًا من الرجال، ويسبي بعضهم نساء بعض. وهذا الأمر واقع من الخوارج عبر الأزمان، فإنهم من بَغيِهم وجَهلِهم عابوا على علي –رضي الله عنه– أنه قاتَل ولم يَسْبِ ولم يَغنَم، وهم عبر تاريخهم يَستحلُّون أموال المسلمين.

وإن تَعجب فعَجَبٌ قول بعض الناس: إنه لا يوجد خوارج اليوم! إذا لم يوجَد هؤلاء الخوارج اليوم فلا خوارج، هؤلاء خوارج ومطعَّمون ببِدَعٍ فوق بِدَعِ الخوارج، هم شرٌّ من الخوارج المتقدِّمين.

الخوارج موجودون في العراق، وفي الشام، وفي ليبيا، وفي اليمن، ولهم وجود في كثير من بلاد المسلمين، ولا سيما الخوارج القَعَدَة. كفانا الله شرَّ الخوارج أجمعين.

ولا يَلزم –باتفاق العلماء– أن يقول الخارجي عن نفسه: أنا خارجي، وإلا ما وُصِفَ أحدٌ بأنه خارجي؛ لأننا لا نعرف عبر التاريخ أنّ أحدًا منهم قال: أنا خارجي، أو رضي أن يوصَف بأنه خارجي، ولكنّ العبرة بالوصْف، وهذه قاعدة أهل السنة والجماعة: المبتدع نَصِفُهُ بأنه مبتدع ولو قال: أنا من أهل السنة. ما

رأيتُ يومًا مبتدعًا يقول أنا مبتدع، بل يقول: أنا على خير، أنا على سنة، أنا على هدى. فلا يلزم –باتفاق العلماء– أن يقولوا على أنفسهم أنهم خوارج، وإنما الواجب العدل والنظر في الصفات الشرعية. ولذلك –مثلًا–هؤلاء الذين سُمُّوا بداعش –هم ما يَتسمَّون بداعش وإنما سُمُّوا، وإلا فإنهم يَتسمَّون زورًا بالدولة الإسلامية في العراق والشام، هذا أصل نَحت داعش، ثم وُسِّعَت– هؤلاء منهم خوارج، ولا شك، ويَنطبق عليهم وَصْف الخوارج ويزيدون، ومنهم مَن فيه صفات من صفات الخوارج، لكنهم لا يَنطبق عليهم وصْف الخوارج من كل وجه، ومنهم بُغاة دون الخوارج، والعبرة بالوَصْف الشرعي، وتحقُّق الوصْف الشرعي.

إذا رأيتَ هؤلاء الخوارج اليوم تجد أنهم يَستحلُّون أموال المسلمين إذا دخلوا مدينة، يأخذون سيارتهم، ويأخذون بيوتهم، ويأخذون أموالهم، وهم على الراجح من أقوال أهل العلم من الأمّة، وليسوا كفارًا، ولكنهم على خطر شديد، فالوصْف فيهم شديد، والوعيد فيهم شديد، ولذلك أنا أرى –والله أعلم– أنهم يدخلون في هذا: «حتى يكون بعضهم يُهلك بعضًا، ويَسبي بعضهم بعضًا».

[وَرَوَاهُ الْبَرْقَانِيُّ فِي صَحِيحِهِ، وَزَادَ: «وَإِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي اَلْأَئِمَّةَ اَلْمُضِلِّينَ، وَإِذَا وَقَعَ عَلَيْهِمْ اَلسَّيْفُ، لَمْ يُرْفَعْ إِلَى يَوْمِ اَلْقِيَامَةِ، وَلَا تَقُومُ اَلسَّاعَةُ حَتَّى يَلْحَقَ حَيٌّ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ، وَحَتَّى تَعْبُدَ فِئَامٌ مِنْ أُمَّتِي اَلْأَوْثَانَ، وَإِنَّهُ

سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي كَذَّابُونَ، ثَلَاثُونَ، كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، وَأَنَا خَاتَمُ اَلنَّبِيِّينَ، لَا نَبِيَّ بَعْدِي، وَلَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى اَلْحَقِّ مَنْصُورَةٌ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اَللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى)]

قال: (وَرَوَاهُ الْبَرْقَانِيُّ فِي صَحِيحِهِ) الْبَرْقَانِيُّ أو البَرَقاني، و(الْبَرْقَانِيُّ) هكذا ضبطه عند أكثر أهل العلم؛ وهو الحافظ أحمد بن محمد أبو بكر البَرْقاني، المتوفى سنة خمس وعشرين وأربعمائة من الهجرة، وله كتب مشهورة في السنة؛ منها صحيحه الذي أشار إليه الشيخ. وهذه الزيادة رواها الإمام أحمد أيضًا، وابن ماجه، وأبو داود، وقال الشيخ الألباني: صحيح على شرط مسلم، وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط: صحيح على شرط مسلم، فاتفق الشيخان على هذا الحكم. فالحديث صحيح في غاية الصحة؛ لأنه يُشبِه أحاديث صحيح مسلم في الصحة، فهو على شرط مسلم.

قال: (وَزَادَ) فيه «وَإِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي اَلْأَئِمَّةَ اَلْمُضِلِّينَ» الْحَظ يا أخي انّ يالنبي صلى الله عليه وسلم قال: «وإنما» و"إنما" أداة حصر؛ فكأنّ النبي صلى الله عليه وسلم حصر خوفه على أمّته من الأئمة المضلِّين، وهذا للدلالة على عِظَم أثر الأئمة المضلِّين في الأمّة. والإمام: هو الذي يُقتدى به. قال بعض أهل العلم: هو من الطريق؛ لأنّ الطريق يسمى إمامًا، فلمّا كان الإمام يُسلَك وراءه سُمِّي إمامًا.

وقال بعض أهل العلم: بل هو من الإمام بمعنى قُدَّام، أي: المقدَّم، فلمّا كان يُقتدى به كان إمامًا، والإمام المقتدى به قد يُقتدى به في الخير فيكون إمام خير، وقد يُقتدى به في الشر فيكون إمام شر.

قال: «أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي اَلْأَئِمَّةَ» قال العلماء: والأئمة هنا تشمل العلماء؛ علماء الضَّلالة، والحكّام؛ حكام الفساد والضَّلالة، كلهم يدخلون في الأئمة المضلِّن، وهذه الأئمة تُبتلى بعلماء سوء يَنتسبون إلى العلم؛ لكن إمّا أنهم يَحملون العلم بلا زكاء أَنْفُس؛ فلا يَنتفعون بالعلم ولا يَنفعون به؛ بل يتَّخذون علمهم وسيلة لصَدِّ الأمّة عن الحق والاستقامة، وإمّا أنهم يَتعالَمون ولا علم عندهم، وكلا الصِّنفَين موجود اليوم، وتَسمع عجبًا ممَّن يَنتسبون إلى العلم اليوم، وقد يُسمي نفسه –ولا يُسمَّى– مفتي الدولة الفلانية، خاصة في الدول الكافرة –لأنه ما يوجَد سلطة فيسمي نفسه مفتي كذا– وهو ليس المفتي لكن يتسمى بهذا الاسم، ثم يُضِلّ الناس.

سمعتُ لأحدهم يقول: الحج إلى جبل الطور أسمى وأرفع من الحج إلى الكعبة! ويزعم أنّ النبي صلى الله عليه وسلم حج إلى الطور، وأنّ الطور وادٍ مقدّس فهو أَقْدس من الكعبة! ولا شك أنّ الطور وادٍ مقدَّس، الوادي الذي يقع عليه الجبل، ولكنه لا يُحَجُّ إليه، ولم يَرِدْ أنّ النبي صلى الله عليه وسلم حَجَّ إليه،

وابن عمر –رضي الله عنه– لمّا سأله رجل: قال: أذهب إلى الطور؟ قال: "دَعْكَ من الطور؛ فإنه لا تُشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد".

وسمعتُ أحدهم يقول للناس: إنه لا يوجد دليل على تحريم الخمر! أعوذ بالله، ويسمونه دكتورًا! هذا الذي يَصدُق فيه قول بعضهم: إنّ الدكتور منحوت من ديكٍ وثَور. لا علم عندهم ويَتعالمون، أو أنّ عندهم علمًا ولكن لا زكاة عندهم؛ فيَدْعون الناس إلى البدع ويُسفِّهون التوحيد والسنة.

وكذلك تُبتلى الأمة بحكَّام ضُلَّال، أهل فساد.

ولا يعني هذا أنّ كل عالِم هو من علماء الضَّلالة، بل علماء الحق والنور والهدى كُثُر والحمد الله، ولا يعني هذا أنّ كل حاكم من حكَّام الضَّلالة.

يا إخوة؛ من الظلم الموجود الآن أنّ بعض الناس يَصِفْ الحكَّام جميعًا بأنهم طواغيت، وللأسف بعض الناس ما يقف عند هذه الجملة. الحكام المسلمون منهم أخيار ومنهم دون ذلك، ومنهم مَن قد يرتد، والعياذ بالله، والعدل: الحَذَرُ في الأحكام، وعدم إطلاق الأحكام إلا إذا استبان الحُكم، واستبان الخير في الإطلاق، لابد من الأمرين. لابد أن يستبين الحكم؛ يكون كالشمس؛ وإلا فاسكت. وأن يستبين الخير في الإطلاق؛ وإلا فاسكت.

قال: «وإنما أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي اَلْأَئِمَّةَ اَلْمُضِلِّينَ» ولذلك يا عَبْدَ الله؛ ما كل ما جاءك مقطعًا للدكتور الفلاني، وللأستاذ الدكتور الفلاني فتحتَ أذنك وقلبك له،

لا تَسمع إلا لمَن عُرِفَ بالهدى، وعُرِفَ بالخير، وإلا فاعلم أنّ النبي صلى الله عليه وسلم خاف على الأمّة الأئمة المضلِّين، وقال العلماء: كلّما بَعُدَ العهد عن زمن النبوة كلّما كَثُرَ الأئمة المضلِّون.

قال: «وَإِذَا وَقَعَ عَلَيْهِمْ اَلسَّيْفُ، لَمْ يُرْفَعْ إِلَى يَوْمِ اَلْقِيَامَةِ» يعني: إذا وقع السيف على الأمّة لم يُرفع رَفْعًا كليًّا، قد يَخِفّ حينًا، ويزيد حينًا. وقد وقع السيف على الأمّة في فتنة مقتل عثمان –رضي الله عنه– فانكسر الباب، ومنذ ذلك الحين لم يُرفع السيف عن الأمّة، ولن يُرفع، لكن كما قلنا قد يَخِفّ، كيف يَخِفّ؟ بالتوحيد والسنة، وكيف يَكثُر؟ بالشرك والبدعة، كيف تأمن الأمّة من السيوف؟ أوّل أمر وأهمّ امر وأعظم أمر: أن يُنشَر التوحيد، وأن تُنشَر السُّنة، ويُحرَص على ذلك؛ فيخفّ أمر السيف، لأنه يا إخوة أهل السنة لا يَرفعون السيوف إلا جهادًا واضحًا كالشمس في سبيل الله. أوّل أمر نشر التوحيد والسُّنة، ثم إعداد القوة.

قال: «وَإِذَا وَقَعَ عَلَيْهِمْ اَلسَّيْفُ، لَمْ يُرْفَعْ عنهم إِلَى يَوْمِ اَلْقِيَامَةِ» جاءت (عنهم) في بعض الروايات. «وَلَا تَقُومُ اَلسَّاعَةُ حَتَّى يَلْحَقَ حَيٌّ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ» اختلف العلماء في هذه الجملة:

فقال بعض أهل العلم: يلحق حيٌّ من أمّتي بالمشركين؛ أي: في دينهم؛ فيقع الشرك من هذا الحي.

وقال بعض أهل العلم: بل المراد أن يسافر المسلمون إلى ديار الكفار للإقامة عندهم. وهذا ظاهر اللفظ؛ أنّ المراد: أن يسافر المسلم من غير ضرورة إلى ديار الكفار ليقيم بين ظهرانَيهم. وهذا المتقرِّر عند أهل العلم: "أنّ ذهاب المسلم إلى ديار الكفار ليقيم بين ظهرانَيهم من غير ضرورة حاقة –يعني ما خاف على نفسه في بلاد المسلمين مثلًا– أن أنّ هذا حرام لا يجوز، وأنه شر عظيم". وقد أدرك مَن ذهب إلى هناك هذا بَعد مرور سنين. وأيَّد هؤلاء العلماء قولهم هذا –أعني أنّ هذا هو المراد بالجملة– كما قلت: بظاهر اللفظ، وبأنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال بعدها: «وحتى تَعبُد فِئامٌ من أمّتي الأوثان»، فقالوا: إذا حَمَلْنا الجملة الأولى على أنّ هذا الحيَّ يَلحق بالمشركين في الشرك تكون الجملة الثانية بمعناها؛ فيكون ذلك تأكيدًا. والتأسيس أولى من التأكيد.

العلماء يقولون: إذا احتمَل الكلام معنىً جديدًا ومعنى سابقًا، فالأولى حَمْلُه على معنى جديد؛ لأنّ التأسيس أولى من التأكيد، لانّ التأكيد فيه تعطيل بعض اللفظ، أمّا التأسيس ففيه حَمْلُ اللفظ على تمام معناه.

قال: «وَحَتَّى تَعْبُدَ فِئَامٌ مِنْ أُمَّتِي اَلْأَوْثَانَ» فئام: أي جماعات، وفي رواية: «حتى تَعبُد قبائل» قبائل، وليست قبيلة واحدة، فئام جمعات تَعبُد الأوثان. فهذا دليل على وقوع الشرك في هذه الأمّة، وأنّ من أمّة محمد صلى الله عليه وسلم مَن سيرتَدّ ويَعبُد الاوثان.

جاء بعض الناس فقال: لا، «من أمتي» أي: أمة الدعوة، فهؤلاء هم المشركون الأصليون أصلًا! قلنا: سبحان الله! النبي صلى الله عليه وسلم قال: «وحتى تَعبُد»، لو كان المراد المشركين الأصلين لَمَا قال: «وحتى تَعبُد»؛ لأنها عابِدة أصلًا، ولكنّ المقصود: من أمّة الإجابة، جماعات من أمّة الإجابة بعد أن كانت تَعبُد الله تَرتَدّ، وتصبح تَعبد الأوثان.

قال: «وَإِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي كَذَّابُونَ، ثَلَاثُونَ» الكذّابون في الأمّة كُثر، وفي زماننا كَثُرَ عددهم –لا كثَّرهم الله، وهدى ضالّ المسلمين– لكنّ النبي صلى الله عليه وسلم هنا ذكر رؤوس الكذابين، رؤوس الكذابين: ثلاثون، يخرجون عبر الأزمنة، لا يُشتَرط أن يَجتمعوا في زمن واحد، «كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ» والمراد: أنه إذا زعم أنه نبي فإنّ أفرادًا من الأمّة سيصدِّقونه، وما من مدَّعي يَدَّعي إلا ويجد له أتباعًا. الآن يأتي واحد لا تجد عنده من العلم شيئًا، ويقول: أنا عالم، فتجد أناسًا يتَّبعونه ويؤيِّدونه ويقولون: أنه عالم! مهندس طيران ثم يَتسمَّى بالشيخ، فتجد من الناس مَن يسميه العلامة، وهو يُخرِّف التخاريف التي يُدرِك صغار طلاب العلم أنها ضَلالة. بل في بلد من بلاد المسلمين ادَّعتِ امرأة أنها جبريل، فكان لها أتباع، مع أنّ كَذِبَها ظاهر من كل وجه، ومع ذلك كان لها أتباع في ذلك البلد! وهذا غلام أحمد القدياني، قال: إنه نبي، وله أتباع كُثر!

ومِن عَجَبٍ؛ أنّ أحدهم يقول: أنا نبي، والنبي صلى الله عليه وسلم بشَّر بي، كيف؟ قال: معنى اسمي عند العرب: لا، والنبي صلى الله عليه وسلم قال: «غير أنه لا نبيَّ بعدي» فبشَّر بي! وهذا من جهله بالعربية، ولو كان كما يقول: لكان: «لا نبيٌّ بعدي»، لكن أريد أن أقول يا إخوة: الناس ما إن يقوم مدّعي يدّعي شيئًا إلا ويجد له أتباعًا، وهذا يدل على أنّ بعض الأمّة سيرتدُّون باتِّباع هؤلاء الدجالين.

قال: «وَأَنَا خَاتَمُ اَلنَّبِيِّينَ، لَا نَبِيَّ بَعْدِي»، وقد أجمعت الأمّة على أنّ النبي صلى الله عليه وسلم هو خاتم الأنبياء والمرسلين، حتى أنّ عيسى –عليه السلام– عندما ينزل في آخر الزمان من السماء سيَحكم بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم، بل إنه إذا نزل ووجدهم صافِّين للصلاة لا يتقدَّم ليُصلي بهم، ويقول: «إمامكم منكم» يتقدَّم إمامهم صلي بهم.

قال: «وَلَا تَزَالُ طَائِفَةٌ» أي جماعة «مِنْ أُمَّتِي عَلَى اَلْحَقِّ مَنْصُورَة» هي على الحق، وهي منصورة من الله عز وجل، ينصرها الله. قال العلماء: النصر الواقع يقينًا هو نصر الحجة والبيان والبرهان، فإنّ مَن كان على السنة يُنصَر على غيره بالحجة والبرهان. ولذلك تجد أنّ الذين يخالِفون السنة في كل مكان يواجهونها بأمرين أو بأحدهما:

الأمر الأوّل: السَّب والشتم والكذب عليهم.

الأمر الثاني: استعداء أصحاب السلطة عليهم.

وقد تُنصَر بالقوة أيضًا، فيكون لها دولة، ويكون لها قوة، ويكون لها جناب، كما حَدَثَ في هذه الدولة المباركة، عندما تحالَف الإمامان: محمد بن سعود، ومحمد بن عبد الوهاب، فقامت دولة التوحيد وأصبح لها قوة، وأصبح لها هيبة في بقاع الأرض وأصقاع الأرض.

قال: «لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ» مَن خذلهم: أي لا يضرّهم مَن لم يوافقهم من المسلمين ولم ينصرهم، «وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ» كما في الروايات «حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اَللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى): المراد (بأمر الله) –أو(الساعة) كما جاء في بعض الروايات– ليس المراد: قيام الساعة؛ وإنما المقصود: حتى يأتي أمر الله قُرْبَ قيام الساعة، حيث تَهُبُّ ريح ليِّنة أنعم من الحرير من جهة اليمن تَقبِض أرواح المؤمنين؛ فلا يبقى مؤمن، فتُعبَد اللات والعزى، ومعنى ذلك أنه يبقى شيء من الزمن بعد قَبْضِ أرواح المؤمنين، فلا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق. إذن؛ معنى: «حتى يأتي أمر الله» أي: أمر الله بخروج هذه الريح التي تَقبِض أرواح المؤمنين.

الرواية الأخرى: «إلى أن تقوم الساعة» معناها: قال العلماء:

- إلى أن تقوم ساعتهم، ومَن مات قامت قيامته.

- أو أنّ المقصود: إلى قُرْبِ قيام الساعة؛ بدليل الأحاديث الأخرى.

الشاهد من الحديث صراحة: قول النبي صلى الله عليه وسلم: «وحتى تَعبُد فئام من أمّتي الأوثان».

[فِيهِ مَسَائِلُ: اَلْأُولَى: تَفْسِيرُ آيَةِ اَلنِّسَاءِ]

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوْتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾

[اَلثَّانِيَةُ: تَفْسِيرُ آيَةِ اَلْمَائِدَةِ]

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللهِ مَن لَّعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ (المائدة: ٦٠)

[اَلثَّالِثَةُ: تَفْسِيرُ آيَةِ اَلْكَهْفِ]

﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِداً﴾ (الكهف: ٢١).

وكلها قد فسّرناها وبيّنّا معناها.

[اَلرَّابِعَةُ –وَهِيَ أَهَمُّهَا–: مَا مَعْنَى اَلْإِيمَانِ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ فِي هَذَا اَلْمَوْضِعِ؟ هَلْ هُوَ اِعْتِقَادُ قَلْبٍ؟ أَوْ هُوَ مُوَافَقَةُ أَصْحَابِهَا مَعَ بُغْضِهَا وَمَعْرِفَةُ بُطْلَانِهَا؟]

يعني ما معنى إيمان هؤلاء الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب بالجبت والطاغوت؟ هل هم يَعتقدون في الأصنام؟ الجواب: أنّ اليهود لا يَعتقدون في الأصنام؛ وإن عَبدوا عزيرًا لكنهم لا يَعتقدون في الأصنام.

أو هو موافقة أصحابها؟ يعني الرضى بفعل أصحابها، والثناء عليهم، والقول إنهم أهدى من المؤمنين سبيلًا؟ فمَن رضي بالكفر، وأقرَّه إقرارًا للكفر ذاته –لأنه قد يُقَرّ أهل الكفر كما في أهل الكتاب في العهد والذمة، لكن لا يُقَرّ الكفر– فمَن أقرّ الكفر، ورضي به، وصحَّحه؛ فهو كافر وإن لم يكن من أهله. فالذي يقول مثلًا: الذين يَعبدون بوذا على دين صحيح، وهم من أهل الجنة، وأنا راضٍ بديانتهم، ولكنى لست بوذيًا؛ فهو كافر ولو كان يصلي مع المسلمين.

ولكن –كما قلتُ يا إخوة– في الأحكام يكون الأمر إلى أهلها، ولا يُعتدَى فيها، بعض الجَهَلَة الآن يقول: الحكام كفار، فإن قيل لهم لماذا؟ يقولون: لأنهم راضون بالكفر! هؤلاء أَبْغَضوا، فكفَّروا، فبَحَثُوا عن الأسباب.

والله يا أخوة! تتبَّعتُ أحوال التكفيريين الذين يَعتدون في التكفير، فوجدت أنّ الأغلب عليهم الدنيا، وأنهم يُبغِضون من أجل الدنيا، ثم يكفِّرون من أجل الدنيا، ثم يُلْبِسون تكفيرهم لباس الدين، ويُلَبِّسون على العامَّة.

إذن؛ معنى قول الشيخ: (أو هو موافقة أصحابها) يعني: الرضى بكفرهم، والإقرار بالكفر، (مع بُغْضِها) يعني: حتى لو ادّعوا بُغضها وأنهم يقولون: إنها باطلة؛ لكنهم يَرضَون بها؛ فهم كفار، فكيف إذا رضوا بها وأقروها وأحبوها؟ لا شك أنّ الأمر أعظم.

[اَلْخَامِسَةُ: قَوْلُهُمْ: إِنَّ اَلْكُفَّارِ اَلَّذِينَ يَعْرِفُونَ كُفْرَهُمْ أَهْدَى سَبِيلاً مِنَ اَلْمُؤْمِنِينَ]

وهذا طريق الضُّلال، الآن تجد من الضُّلال الذين ينتسبون إلى الإسلام مَن يَصِفون الموحِّدين بأنهم أكفر من اليهود والنصارى! أنا سمعتُ مَن يقول: إنّ فلانًا الكافر أحسن وأهدى من الوهابية! يعني أهل التوحيد. وهذا طريق الضُّلال، رأسهم اليهود، سألهم كفار قريش: مَن أهدى نحن أم محمد؟ قال كعب بن الأشرف ومَن معه من اليهود: بل أنتم أهدى سبيلًا! وهكذا طريق أهل الضَّلال.

[اَلسَّادِسَةُ: -وَهِيَ اَلْمَقْصُودَةُ بِالتَّرْجَمَةِ-: أَنَّ هَذَا لَا بُدَّ أَنْ يُوجَدَ فِي هَذِهِ اَلْأُمَّةِ؛ كَمَا تَقَرَّرَ فِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه]

(أنّ هذا) يعني الإيمان بالجبت والطاغوت، وهو الشرك والكفر.

[اَلسَّابِعَةُ: تَصْرِيحُهُ بِوُقُوعِهَا -أَعْنِي عِبَادَةَ اَلْأَوْثَانِ- فِي هَذِهِ اَلْأُمَّةِ فِي جُمُوعٍ كَثِيرَةٍ]

لقوله: «حتى تَعبد فئام من أمّتي الأوثان»

[اَلثَّامِنَةُ: اَلْعَجَبُ اَلْعُجَابُ؛ خُرُوجُ مَنْ يَدَّعِي اَلنُّبُوَّةَ. مِثْلُ اَلْمُخْتَارِ مَعَ تَكَلُّمِهِ بِالشَّهَادَتَيْنِ، وَتَصْرِيحِهِ أَنَّهُ مِنْ هَذِهِ اَلْأُمَّةِ، وَأَنَّ اَلرَّسُولَ حَقٌّ، وَأَنَّ اَلْقُرْآنَ حَقٌّ، وَفِيهِ

أَنَّ مُحَمَّدًا خَاتَمُ اَلنَّبِيِّينَ، وَمَعَ هَذَا يَصْدَّقُ فِي هَذَا كُلِّهِ مَعَ اَلتَّضَادِّ اَلْوَاضِحِ، وَقَدْ خَرَجَ اَلْمُخْتَارُ فِي آخِرِ عَصْرِ اَلصَّحَابَةِ رضي الله عنهم، وَتَبِعَهُ فِئَامٌ كَثِيرَةٌ]

الشيخ يقول: العجب العجاب خروج مَن يدَّعي النبوة مثل: المختار بن أبي عبيد، هذا المختار خرج في أواخر زمن الصحابة، يعني لا زال العلم طريًّا، وكان يُقِرُّ بالشهادتين، فيشهد أن لا إله إلا الله، وأنّ محمدًا رسول الله، ويشهد أنّ القرآن حق؛ ولكنه يزعم أنه نبي! والقرآن يكذِّبه، والسنة تكذِّبه؛ لأنّ فيهما أنّ النبي صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين، ومع ذلك؛ فبعض الذين يقرأون القرآن اتَّبعوه، وآمنوا به، وصدَّقوه؛ مع هذا التضاد الظاهر، ولهذا نقول: ما من مدَّعي يَدَّعي إلا ويجد له أتباعًا يصدِّقونه.

[اَلتَّاسِعَةُ: اَلْبِشَارَةُ بِأَنَّ اَلْحَقَّ لا يَزُولُ بِالْكُلِّيَّةِ كَمَا زَالَ فِيمَا مَضَى، بَلْ لَا تَزَالُ عَلَيْهِ طَائِفَةٌ]

أي أنّ أمّة محمد صلى الله عليه وسلم مؤمَّنة مَن أن يترك جميعها الحق، نعم بعض الأمّة قد يَترك الحق، أمّا أنّ جميع الأمّة يترك الحق كما وقع لبعض الأمم السابقة فهذا لا يكون، كما تقدم في الحديث.

[اَلْعَاشِرَةُ: اَلْآيَةُ اَلْعظيمة؛ أَنَّهُمْ مَعَ قِلَّتِهِمْ لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ]

أهل الحق في كل زمان قِلَّة، ولكنهم مع كونهم قِلَّة وكونهم طائفة لا يَضرُّهم مَن خذلهم –وهم كُثُر– أوخالفهم –وهم كُثُر– وهذا بنصر الله تعالى وحفظه.

[الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أَنَّ ذَلِكَ اَلشَّرْطَ إِلَى أشراط اَلسَّاعَةِ]

في بعض نسخ الكتاب: (إلى قيام الساعة)، وفي بعضها: (إلى أشراط الساعة) يعني: إلى ختام أشراط الساعة الكبرى، بعد أن تطلع الشمس من مغربها يكون هذا.

[اَلثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: مَا فِيهِ مِنَ اَلْآيَاتِ اَلْعَظِيمَةِ. مِنْهَا: إِخْبَارُهُ بِأَنَّ اَللهَ زَوَى لَهُ اَلْمَشَارِقَ وَالْمَغَارِبَ، وَأَخْبَرَ بِمَعْنَى ذَلِكَ، فَوَقَعَ كَمَا أَخْبَرَ، بِخِلَافِ اَلْجَنُوبِ وَالشَّمَالِ، وَإِخْبَارُهُ بِأَنَّهُ أُعْطِيَ اَلْكَنْزَيْنِ، وَإِخْبَارُهُ بِإِجَابَةِ دَعْوَتِهِ لِأُمَّتِهِ فِي اَلِاثْنَتَيْنِ، وَإِخْبَارُهُ بِأَنَّهُ مَنَعَ اَلثَّالِثَةِ]

وهذا يقرِّر ما تقرَّر سابقًا؛ من أنّ النبي صلى الله عليه وسلم عَبْدُ الله ورسوله، ليس له من الأمر شيء سوى أن يسأل الله، وقد سأل الله فأعطاه بعض سؤله، ومَنَعَه بعض سؤله، وهذا يدل على أنّ الذي يُسأل هو الله سبحانه وتعالى.

[وَإِخْبَارُهُ بِوُقُوعِ اَلسَّيْفِ، وَأَنَّهُ لَا يُرْفَعُ إِذْ وَقَعَ، وَإِخْبَارُهُ بِإِهْلَاكِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا، وَسَبْيِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا، وَخَوْفِهِ عَلَى أُمَّتِهِ مِنَ اَلْأَئِمَّةِ اَلْمُضِلِّينَ، وَإِخْبَاره بِظُهُورِ اَلْمُتَنَبِّئِينَ فِي هَذِهِ اَلْأُمَّةِ، وَإِخْبَارُهُ بِبَقَاءِ الطَّائِفَةِ اَلْمَنْصُورَةِ، وَكُلُّ هَذَا وَقَعَ كَمَا أَخْبَرَ، مَعَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا مِنْ أَبْعَدِ مَا يَكُونُ فِي اَلْعُقُولِ]

هنا المراد: الجملة الأخيرة؛ وهي الرَّد على الذين يقولون: غير معقول أنّ مَن أسلم يشرك! فيقول له الشيخ: هذه الأمور المذكورة في الحديث من ناحية النظر العقلي الضعيف هي أَبْعَد ما يكون، لكنّ النبي صلى الله عليه وسلم أخبر بها؛ فهي حقٌّ ولو لم نرها وقعت، فكيف وقد رأينا ما وقع منها.

[اَلثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: حَصْرُهُ اَلْخَوْفَ عَلَى أُمَّتِهِ مِنَ اَلْأَئِمَّةِ اَلْمُضِلِّينَ]

والمقصود: أنّ شر الأئمة المضلِّين شر عظيم على أمّة محمد صلى الله عليه وسلم.

[اَلرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: اَلتَّنْبِيهُ عَلَى مَعْنَى عِبَادَةِ اَلْأَوْثَانِ]

وهي أنها عبادة غير الله سبحانه وتعالى مطلقًا؛ سواء كان المعبود صنمًا، أو قبرًا، أو شجرًا، أو قمرًا، أو شمسًا، أو بقرًا، أو فَرْجًا، أو غير ذلك، اليوم في الأرض أقوام يَعبدون فَرْج المرأة، وأقوام يَعبدون فَرْج الرجل، فهذه كلها أوثان، فكل ما عُبِدَ من دون الله فهو وثن.

الدرس الثلاثون: بَابُ مَا جَاءَ فِي اَلسِّحْرِ

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَن يهدي الله فلا مضلَّ له، ومَن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٢)

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ (النساء: ١)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ (الأحزاب: ٧١)

أما بعد:

فإنّ أحسن الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشرّ الأمور محدثاتها، وكلّ محدثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النار.

ثم يا معاشر المؤمنين؛ أذكِّركم بكثرة الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في هذا اليوم، فاللهم صل على محمد وعلى آل محمد؛ كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم، اللهم صلِّ على النبي الأميّ، اللهم صلِّ على محمد، وعلى أزواجه، وعلى آله، وعلى ذريته، وعلى صحبه أجمعين.

ثم أيها الفضلاء؛ إنّ أعظم الكنوز للموحِّد وأغلاها: العلم النافع؛ فإنّ العلم النافع خير ما يكتنزه المؤمن، ولذا؛ كان نبينا صلى الله عليه وسلم يسأل الله أن ينفعه بما علمه، وأن يرزقه علمًا، وأن يزيده علمًا.

والعلم النافع ما اتَّصف بصفات أربع:

أولاها: أن يكون العلم حقًّا في ذاته.

وثانيها: أن يكون صاحبه مخلصًا في طلبه وفي بذله.

وثالثها: ان يثمر العمل.

ورابعها: أن تتزكى به النفوس والقلوب.

أما أوّلها؛ فهو أن يكون العلم حقًّا في ذاته، ولا يكون العلم حقًّا في ذاته إلا إذا كان متَّصلًا بكتاب الله وبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبفهم صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فالعلم:

قال الله قال رسوله قال الصحابة أولوا العرفان

ليس العلم بزخرفة الأقوال، ليس العلم ببلاغة الألسنة، ليس العلم باستنباطات العقول المَحضة، ليس العلم بما تشتهيه الأنفس؛ وإنما العلم ما ذكرناه.

وأما الصفة الثانية: فهي أن يكون صاحب العلم مخلصًا لله في طلبه، مخلصًا لله في بذله، فلا خير في أيّ أمر إلا بالإخلاص لله عز وجل، إنّ الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصًا، وابتُغي به وجهه. ولا خير في طلب العلم لغير وجه الله، «من تعلَّم علما مما يبتغى به وجه الله، لا يتعلَّمه إلا ليُصيب به عَرَضًا من الدنيا لم يَجد عَرْفَ الجنة يوم القيامة».

وأما الصفة الثالثة: فهي أن يثمر العلم العمل، فقد هتف العلم العمل فإن أجابه وإلا ارتحل. وإن العبد سيُسأل بين يدي الله عز وجل عن علمه ماذا عمل فيه. العلم شجرة والعمل ثمرة، وبركة الأشجار إنما تَظهر في بركة الثمار.

وأما الصفة الرابعة: فهي أن يُثمر العلم تزكية القلوب وتأديب النفوس، فالعلم لابد أن يكون له أثرٌ على قلب صاحبه، فيصبح القلب زكيًّا بهذا العلم، قد أخرج المفاسد وأدخل الخيرات والبركات، ولابد من أن يكون المتعلِّم العلم النافع متأدبًا، صحاب أدب، وصاحب خلق عظيم.

وإن الأمّة في هذا الزمان قد ابتليت في هذا الباب بطائفتين:

أمّا طائفة فإنها لم تُحصّل العلم من أصله؛ إنما حملت علمًا بمشتهيات النفوس، أو بمحض العقول، أو نحو ذلك، فتَقلِب الحق باطلًا، والباطل حقًّا، والسنة بدعة، والبدعة سنة، فهؤلاء غاشُّون للأمة، مخادعون للأمة، لا يقودون الأمة إلى الخير .

وطائفة حملت شيئًا من العلم؛ لكنها لم تتأدب، ولم تتلقَ الأدب؛ فكان إفسادها كثيرًا، وإصلاحها قليلًا.

والموفَّق في باب العلم من التزم سنة رسول الله صلى اله عليه وسلم، وسار على سيرة الصحابة رضوان الله عليهم، فكان علمه حقًّا في ذاته ، وكان عمله سريعًا بعلمه، يكاد يَسبق عمله علمه من مسارعته إلى إرضاء الله عز وجل، وإنّ التُّؤَدَة في كل شيء خير إلا في أمور الآخرة، فإنّ المطلوب في أمور الآخرة العجلة إلى الله والإسراع والمسابقة، وكان على خلق عظيم متأسيًا بالنبي صلى الله عليه وسلم ما استطاع، فأسأل الله عز وجل أن يجعل مجالسنا هذه من المجالس التي يُدار فيها العلم النافع، وأن يجعلني وإياكم ممن أخلصوا لله عز وجل في هذا الطلب والبذل، وأن يكرمنا بالأدب والرحمة للأمّة، والمسارعة إلى الجنات.

درسنا اليوم في شرح كتاب التوحيد. ونواصل شرح هذا الكتاب العظيم النافع الذي ملئ إخلاصًا ونصحًا لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ،هذا الكتاب الذي مَن قرأه وهو متجرّد لله عز وجل يعلم علم اليقين أنّ الأمّة ما أصيبت في

مقتَل إلا عندما أَخلَّت بالتوحيد، ووقعت في أنواع الشرك؛ حيث انتشر الجهل بين كثير من المسلمين؛ فوقعوا في أنواعٍ من الشرك، وأنّ الأمة لو قرأتْ هذا الكتاب مخلصة لله عز وجل متجرِّدة عن نزعات الهوى وعن نزغات الشياطين؛ ستجد أنّ فيه الخير العظيم الذي تعود فيه الأمة إلى ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه. فيتفضل الشيخ خليل يقرأ لنا.

[بَابُ مَا جَاءَ فِي اَلسِّحْرِ]

لمّا فَرَغَ الشيخ –رحمه الله– من بيان أنواع الشرك في العبادة، التي يكثر وقوعها بين المسلمين، وكثير من الذين يفعلونها لا يعلمون أنها حرام، فضلًا عن أن تكون شركًا، فبيَّن بالأدلة المبيِّنة لكل مسلم يخاف الله أنها شرك، وبيَّن سبب ذلك، وبيَّن أنّ من أمّة الإجابة مَن سيَعبد الأوثان بأوضح بيان وأنقى كلام؛ شرع –رحمه الله– في ذِكْرِ أمور تقع من كثير من المسلمين، وفي الغالب عن جهل، وهي كفر أو شرك؛ زاجرًا عنها ومحذِّرًا منها، وبدأ بالسحر؛ لكثرة وقوعه، وعظيم ضرره، وعظيم أثره.

والسحر في اللغة له معانٍ؛ منها: الخديعة. ومنها: كلُّ ما فيه من الشيطان مَعونة، فكل ما فيه من الشيطان مَعونة تُسمِّيه العرب سحرًا. ومنها: صرف الشيء عن حقيقته، فصرف الشيء عن حقيقته تسميه العرب سحرًا. ومنها: الإزالة من حال إلى حال، فالإزالة من حال إلى حال تسميها العرب سحرًا.

ومنها ما خَفي ودَقَّ سببه، فما خفي وكان سببه دقيقًا بحيث لا يكاد أن يدركه الناس يسمى سحرًا، ولذلك يقال عن الشيء الخفي جدًّا: أخفى من السحر، إذا أراد العربي أن يبيِّن شدَّة خفاء شيء قال: أخفى من السحر؛ لأنّ السحر ما خَفِيَ ودَقَّ سببه.

والسَّحْرُ: فِعْلُ الساحر. والفاعل: ساحِر أو سَحَّار.

والسِّحر في الاصطلاح: اسم جامع لأنواع مختلفة يَجمعُها الخفاء. ولكنّ أشرّ أنواعه المنتشِرة: عُقَدٌ ورُقى وعزائم يُنفَث فيها، وتؤثِّر في القلوب والأبدان بإذن الله الكوني. أشرُّ أنواع السحر المنتشرة بين الناس: عُقَد تُعقَد من أسلاك أو قماش ونحو ذلك، ورقى وعزائم؛ أي: تَمْتَمات بكلمات يُتَمْتَم بها، يُنفَثُ فيها، فيُجمع فيها بين ثلاثة أمور:

الأمر الأول: عَقْد.

الأمر الثاني: عزائم ورقى.

الأمر الثالث: نَفْث.

وتؤثِّر في القلوب والأبدان بإذن الله عز وجل الكوني، فهي تؤثّر في القلوب بإذن الله الكوني، فيَنقلِب القلب من المحبة إلى العداوة، ومن القُرب إلى البُعد، وتؤثر في الأبدان فيَخرج أنواع من الأمراض على البدن، وقد يُظَن أنها أمراض عضوية وهي من السحر، حتى ما يسمى بمرض السرطان؛ فإنه تبيَّن لنا

بالتجارب أنّ من أسباب وقوعه السحر، وإذا فُكَّ السحر زال هذا المرض بعون الله وتوفيقه.

ولمّا كان هذا النوع أشرّ أنواع السحر؛ وجدنا أنّ بعض أهل العلم يُعرِّف السحر به، وهو في الحقيقة نوع، وليس كلّ السحر في لسان العلماء.

وهل للسِّحر حقيقة؟ أو هو تَخييل؟

الجواب: الذي عليه جماهير العلماء، بل عليه جماهير الناس: على أنّ للسحر حقيقة، وأنّ للسحر شرًّا يصيب الناس بإذن الله الكوني، وقد دلَّ على ذلك كتاب الله، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والواقع يصدِّق ذلك.

أمّا أدلة الكتاب:

الدليل الأوّل: قول الله تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ (البقرة: ١٠٢)، فبيَّن الله عز وجل أنّ السحر يَحدث به التفريق بين المرء وزوجه، وما ذلك إلّا لأثره في القلوب؛ حتى يكره الزوج زوجته، أوتكره الزوجة زوجها.

وقال الله عز وجل في هذه الآية: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ﴾(البقرة: ١٠٢)، فأثْبَت الله عز وجل أنّ السحر يَضُرّ لكن بإذنه الكوني القدري، فإنه لا يَخرج شيء عن قَدَرِ الله، ولا يستطيع أحدٌ أن يَضر أحدًا لم يكتب الله أن يَضرَّه، فالأمر كله لله سبحانه وتعالى.

الدليل الثاني: قول الله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ (الفلق:٤)، والنفثات: السواحر اللاتي يَنفثن في العُقَد ويَسحرْن الناس بها، قال الله عز وجل: ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ﴾، فأثْبَتَ للنفاثات شرًّا، ولو لم يكن لشرهن واقعًا لَمَا كان للاستعاذة من شرهنّ معنى، فدلّ ذلك على أنّ للسِّحر والسَّحرة شرًّا يصيب الناس.

وأمّا أدلة السنة:

الدليل الأوّل: قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَن تَصبَّح كل يوم سبع تمرات عجوة؛ لم يضره في ذلك اليوم سُمٌّ ولا سِحر» متفق عليه. «مَن تصبح» يعني: في أوّل الصباح، فأَكَلَها بعد أن صلى الصبح. «سبع تمرات عجوة» هل المقصود تمر معيَّن؟ وهو ما يسمى بالمدينة والحجاز بالعَجوة؟ أو هو كلُّ تمر؟ الذي يظهر –والله أعلم– أنّ أنفعه في هذا الباب: عجوة العالية، تمر العَجوة المعروف عند أهل المدينة، الذي يُزرَع ويُغرَس في العالية، ثم عجوة المدينة، ثم العجوة من أيّ مكانٍ كان، ثم التمر.

فمَن وَجَدَ عجوة العالية فبِها ونِعْمَت، ومَن وَجَدَ عجوة المدينة فبِها ونِعْمَت، ومَن وجد العجوة مطلقًا فبها ونِعْمَت، فإن عَدِمَ ذلك كله ووَجَدَ تمرًا من تمر بلاده، أو من تمور المدينة التي لا تسمى عجوة عند أهل المدينة فليَتصبَّح بها، ولا يُخلِينَّ نفسه من هذا الخير. «لم يَضرُّه في ذلك اليوم سم ولا

سحر» فهذه من أسباب الوقاية، من أسباب الوقاية من السموم، ومن أسباب الوقاية من السحر؛ أن يتصبّح المسلم في كل يوم بسبع تمرات على ما ذكرنا.

وهذا يدل على أنّ للسحر ضررًا يُتقى، وتُبذل الأسباب لاتقائه، ومن تلك الأسباب –بل أنفعها على الإطلاق بعد ذكر الله– ما في هذا الحديث. وأنّ ضرر السحر قد يقع على الأبدان إذا لم يَبذل الأسباب، فقد يُسحَر ويَتضرَّر بهذا السحر كما هو ظاهر في هذا الحديث.

الدليل الثاني: عن عائشة –رضي الله عنه– قالت: سُحِرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى كان يُخيَّل إليه أنه يفعل الشيء، وما يفعله» متفق عليه. النبي صلى الله عليه وسلم سَحَرَه رجل يقال له: لَبيد بن الأعصم، ولكنّ الله عز وجل عاصِمٌ نبيَّه صلى الله عليه وسلم من الناس، فلم يؤثِّر السحر في دين النبي صلى الله عليه وسلم، ولا في سائر أموره؛ وإنما أثَّر في شيء واحد؛ وهو: أنه صلى الله عليه وسلم كان يُخيَّل إليه أنه يأتي أهله وما أتى أهله صلى الله عليه وسلم من أثر هذا السحر. وما هذا إلا لحكمة عظيمة؛ لكي نعلم يا عباد الله أنّ الأمر كله لله، وأنّ الأسباب إنما تؤثِّر بعون الله سبحانه وتعالى، وإلّا فالنبي صلى الله عليه وسلم خير مَن ذَكَرَ الله على الإطلاق، ما كان يَغفل عن ذكر الله عز وجل، وما كان يَحجزه عن ذكر الله إلا الجنابة –صلى الله عليه وسلم– ومع ذلك سُحِر؛ لنتعلم أنّ الله إذا شاء عطَّل السبب؛ فتتعلَّق قلوبنا تعلقًا تامًّا مطلقًا بربنا سبحانه

وتعالى، ولكي نعلم أنّ حبيبنا وسيّدنا وقرة عيوننا ومَن نحبه فوق محبة كل محبوب دون الله سبحانه وتعالى أنه مع كونه رسولًا قد شرَّفه الله بالرسالة فهو عَبْدٌ من عبيد الله يصيبه ما يصيب العباد، فلا يُصرَف له شيء من أنواع العبادة، وإنما العبادة كلها صغيرها وكبيرها أولها وآخرها لله رب العالمين، ربِّ محمد صلى الله عليه وسلم وصحبه، ورب العالمين أجمعين.

والشاهد: أنّ النبي صلى الله عليه وسلم سُحِرَ، وتأثر بالسِّحر في ناحية يسيرة من حياته، وهي الناحية التي ذكرناها. فدل ذلك على أنّ للسحر حقيقة وتأثيرًا حقيقيًا بإذن الله الكوني.

والواقع شاهِد مصدَّق لهذه القضية القطعية، فكم من شخص ابتُلي، بل رُؤيَ كالمجنون بين الناس، يسير في الطرقات هائمًا على وجه، فلمّا وُجِدَ السحر وفُكَّ وقُرئ عليه وتُخُلِّص منه عاد هذا سويًّا عاقلًا، والقصص التي نعرفها ويعرفها غيرنا مما لا يَردُّه إلا مكابر شاهدة على هذه الحقيقة.

وأمّا حكم السحر: فالسحر يَتنوَّع من جهة حكمه إلى أنواع:

النوع الأوّل: سحر يُتقرَّب به إلى الشياطين. سحر لا يُراد منه صرف ولا عطف ولا إضرار بأحد؛ وإنما يَفعله أولئك السَّحرة تقرُّبًا إلى آلهتهم أو تقربًا إلى الشياطين، فبعضهم يزعم أنّ للنار إلهًا فيَتقرَّبون إلى ذلك الإله بأنواع من السحر. وهذا السحر كفر باتفاق العلماء، لا يجتمع مع الإسلام أبدًا، ولا يَفعل

هذا السحر إلا الكفار؛ يَتقرَّبون به إلى الطواغيت، يَتقرَّبون به إلى الشياطين، ويَتقرَّبون به إلى مَن يسمونهم الشفعاء، أو مَن يسمونهم الآلهة.

النوع الثاني: سحر يُستعان فيه بالجن، ويَتقرَّب فيه الساحر إلى الجن بأنواع القرابين؛ من أجل تحقيق المقصود من السحر. إذن هنا سحرٌ يُقصَد به الصرف أو العطف أو الإضرار بأحد، فيُستعان فيه بالجن، فيستعين الساحر فيه بالجن، وينادي الجن، ويكتب العزائم باسم الجن، ويَتقرَّب إلى الجن بالقربان وأنواع القرابين، وقد يَطلب ممن يريد أن يُسحَر له شيئًا من التَّقرُّب، ولو بنملة أو ذبابه.

والفرق بين هذا النوع والأوّل: أنّ الأوّل يُتقرَّب بنفس السِّحر إلى الشياطين، أمّا الثاني فيُتقرَّب إلى الجن والشياطين من أجل تَحقُّق السحر. وهذا أيضًا كفر أكبر يخرج من الملة باتفاق العلماء، فإنّ فيه تقرُّبًا إلى غير الله عز وجل، واعتقادًا في المخلوق أنه يؤثِّر باستقلاله، وأنه يعلم الغيب. وستأتي الادلة على كفر هذا السحر وكفر الساحر.

النوع الثالث: سحر بالأدوية والتراكيب. بحيث يضع الساحر مادة تؤكَل أو تُشرب تؤثِّر في الجسد نشاطًا أو خمولًا، أو تؤثِّر في العقل، أو تؤثِّر في القلب، فهذا السحر ليس فيه عزائم ولا رقى ولا نفث ولا استعانة بالجن؛ وإنما مادة يركِّبها الساحر من أشياء، أو يَعرِفها، ويكون تأثيرها خفيًّا، يَضعها في مطعوم أو مشروب، فإذا أُكِل ذلك المطعوم أو شُرِبَ ذلك الشراب تأثَّر مَن أكله أو شربه

في نفسه، فإمّا أن يجد في نفسه خمولًا، أو نومًا دائمًا طويلًا مستمرًا، و كسلًا عظيمًا، وإمّا أن يجد نشاطًا زائدًا، وإمّا أن يجد في عقله نسيانًا وذهولًا، وإمّا أن يجد في قلبه انصرافًا عن الناس وحبًّا للعزلة ونحو هذا.

وسُمِيَ هذا النوع سحرًا لأنّ سببه خفي؛ فلا يُطَّلَع على سببه، ولأنه يؤثِّر فيمن مَن تعاطاه كما يؤثِّر السِّحر.

وهذا ينقسم في حكمه إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأوّل: أن تكون المادة الموضوعة مُسكِرة أو مخدِّرة، وهذا حرام وكبيرة من كبائر الذنوب، أيًّا كان القَصْد.

القسم الثاني: ألَّا تكون المادة مُسكِرة ولا مخدِّرة، ويكون المقصود الإضرار بالشخص، وهذا حرام، وكبيرة من كبائر الذنوب.

القسم الثالث: ألَّا تكون المادة مُسكِرة ولا مخدِّرة، ويكون المقصود نفع الشخص. كعلاجه مثلًا؛ ولا سيما في ما يتعلَّق بالأمراض النفسية ونحو هذا، فهذا جائزٌ مباحٌ إذا كان الدواء معروفًا نَفْعُه عند أهل الخبرة.

النوع الرابع: سحر التخييلات، والأخذ بالعيون، وما يسمى بخفة اليد. سحرٌ لا حقيقة له سوى التخييل، والأخذ بالعيون، فهذا الساحر يأخذ بعيون الناس حتى يُخيَّل لهم الشيء أنه كذا وليس بكذا، وقد يَستعمِل في ذلك خفَّة يده أو نحو ذلك. وسمي سحرًا لخفائه ودِقَّته، فهو شيء يَخفى على العامّة، وإذا

نظرتَ إليه ظننته سحرًا في الحقيقة وإنما هو خيال، كما فَعَلَ سَحَرَة فرعون، فإنّ سحرهم من باب سحر التخييلات، ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْاْ سَحَرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ﴾(الأعراف: ١١٦)، فسِحْرهم كان للأعين ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ (طه: ٦٦). ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ﴾ أخذوا بعينه وعيون الناس حتى يُخيَّل إلى الناظرين أنّ الحبال والعِصيّ حيّات تسعى؛ وليست كذلك.

وهذا حكمه بحسب المقصود منه، وبحسب ما يَتضمنه، وما يؤدِّي إليه.

فإذا كان المقصود منه الإضرار بالناس؛ كالسرقة؛ فهذا حرام.

وإذا كان يتضمن حرامًا؛ كالاستعانة بالجن؛ فهذا حرام، وقد يكون شركًا بحسب نوع الاستعانة.

وإن كان يؤدّي إلى شر فهو حرام.

وإن خلا من ذلك فهو ليس من فِعْلِ أهل المروءات.

وستاتي –إن شاء الله– أنواع أخرى للسحر في الباب التالي، نتكلم عنها في موضعها.

والسِّحر الذي فيه الاستعانة بالجن والتقرُّب إليهم كُفْرٌ كما تقدَّم معنا، السحر الذي يكون فيه اعتقاد أنّ السَّحرة أو مَن يَستعينون بهم من الجن يؤثِّرون تأثيرًا مستقلًّا، أو يعلمون الغيب كُفْرٌ بالله عز وجل، وكذلك السِّحر الذي تكون

فيه استعانة بالجن وتقرُّب إليهم ولو بنملة، ولو بجناح طائر، ولو بنوع من البخور؛ فهذا كُفْرٌ بالله عز وجل، وهذا ينطبق على الساحر، وعلى مَن ذَهَبَ إلى الساحر مصدِّقًا له، فمَن ذَهَبَ إلى الساحر مصدِّقًا له وأنه يَعلم الغيب، وأنه يؤثر تأثيرًا مستقلًّا، فقد كفر بما أُنزِل على محمد صلى الله عليه وسلم، ويدل لذلك أدلة منها: قول الله عز وجل: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيْاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ (البقرة: ١٠٢). يقول الله عز وجل: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ عليه السلام، فهو نبي من أنبياء الله، ما جاء إلا بالحق، والهدى، والعلم، والبيان، ولكنّ اليهود كفروا؛ فإنهم يَتعلَّمون السحر، ويُعلِّمون السحر، فدلَّ ذلك على أنّ سبب كُفْرِهم هو تَعليمهم السحر للناس، فدلّ ذلك على أنّ هذا النوع من السحر كُفْرٌ. واليهود قبَّحهم الله من أعلم الناس بالسحر قديمًا وحديثًا.

وأيضًا؛ يدل لذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ﴾، ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ﴾ أي الملَكان ببابل: هاروت وماروت، ما يعلمان من أحد السحر ﴿حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ﴾ أي: فلا تتعلم السِّحر فتكْفُر؛ لأنّ تعلُّم السحر كُفر.

وكذلك؛ يدل له حديث أبي هريرة معنا في هذا الباب، وسنشرحه إن شاء الله عز وجل.

وأيضًا؛ يدل له ما تقدَّم معنا في الأبواب السابقة من أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: «والتِّولة شرك» رواه أحمد، وأبو داود بإسناد صحيح. والتولة: شيء يُصنَع ويزعمون أنه يُحبِّب الزوجة في زوجها والزوج في زوجته، فذاك سحر العطف، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم إنه شرك.

كذلك؛ ما جاء عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه –وسيأتينا– قال: «مَن أتى ساحرًا، او عرّافًا، أو كاهنًا–أو قال: أو كاهنًا، أو عرَّافًا– فصدَّقه بما يقول؛ فقد كفر بما أُنزِل على محمد» رواه البيهقي، وابن أبي شيبة، والبزار، قال ابن حجر: بسند جيد، ومثله لا يقال بالرأي؛ أي أنّ هذا وإن كان من كلام ابن مسعود –رضي الله عنه وأرضاه– إلَّا أنّ له حُكم الرَّفع إلى النبي صلى الله عليه وسلم. والشاهد منه قول ابن مسعود –رضي الله عنه–: «مَن أتى ساحرًا، فصدَّقه بما يقول؛ فقد كفر بما أُنزِل على محمد»، فإذا كان الذي يأتي الساحر ويصدِّقه بما يقول يكون كافرًا بما أُنزل على محمد صلى الله عليه وسلم؛ فكيف بالساحر نفسه؟ وكيف بمَن يَعتقد بالساحر فوق التصدِيق؟ فهذا لا شك أنه أعظم وأنه كفر أكبر يُخرِج من الملة، والعياذ بالله.

[وَقَوْلِ اَللهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ﴾ (البقرة: ١٠٢)]

هذه الآية العظيمة معناها: ولقد عَلِمتِ اليهود في التوراة التي يَتلونها لَمَن اختار السحر، واستبدَل العلم بالسِّحر ما له من نصيب في الآخرة؛ أي: في الجنة، وأنّ النار مثواه ومأواه. لقد علمت اليهود بما عندهم في التوراة أنّ مَن استبدل العلم بالسحر واختار السحر وكان من أهله أنه لا نصيب له في الجنة، في الآخرة، وإنما مأوه النار، ومثواه النار، وهذا يدل على كفْر الساحر ومَن اختار السحر.

وقال بعض أهل العلم: معنى ﴿مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ﴾ ما له من دين يثاب عليه، أي أنه بالسحر خرج من الدين المَرضيّ وأصبح من الكفار، فما له في الآخرة من دين.

وعلى المعنيَين: فإنّ الآية تدل على كُفر الساحر والعياذ بالله، وأنه لا خير في هذا السحر.

[وَقَوْلِهِ: (يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ) (النساء: ٥١). قَالَ عُمَرُ: اَلْجِبْتُ اَلسِّحْرُ، وَالطَّاغوتُ اَلشَّيْطَانُ]

وقوله تعالى على سبيل الذَّم لهم: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾، وقد تقدَّمت هذه الآية ولكنّ المراد هنا ما جاء في أثر عمر –رضي الله عنه– قال: (الجبت السحر، والطاغوت الشيطان) هذا الأثر رواه ابن جرير بإسناد صحيح عن عمر رضي الله عنه، ورواه البخاري في الصحيح تعليقًا، وجَمْعٌ من السلف

فسَّر الجبت بالسحر؛ منهم: عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– كما معنا هنا، ومنهم مجاهد، والشعبي، وأبو العالية.

وقال بعض السلف –كابن سرين–: الجبت: هو الساحر.

فبعض السلف فسّروا الجبن بالسحر، وبعض السلف فسَّروا الجبت بالساحر. وهذا المراد هنا.

ووجه إيراد الآية في هذا الباب: أنّ الله ذمَّهم أنهم يؤمنون بالسِّحر والسَّحرة، وهذا يدل على أنّ هذا ينافي الإيمان بالله سبحانه وتعالى، فهذه الآية تدلّ على أنّ أخذ السحر –والعياذ بالله– إيمانٌ بالجبت، والإيمان بالجبت أعظم الكفر، أعظم الكفر: الإيمان بالجبت والطاغوت.

[وَقَالَ جَابِرٌ رضي الله عنه: اَلطَّوَاغِيتُ كُهَّانٌ، كَانَ يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ اَلشَّيْطَانُ، فِي كُلِّ حَيٍّ وَاحِدٌ]

هذا الأثر عن جابر –رضي الله عنه– أيضًا رواه ابن جرير في تفسيره بإسناد صحيح، وعلَّقه الإمام البخاري في الصحيح. (قال جَابِرٌ:) وهو جابر بن عبد الله –رضي الله عنه وعن أبيه–، قال: (اَلطَّوَاغِيتُ كُهَّانٌ، كَانَ يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ اَلشَّيْطَانُ) أي: الذي يسترق السمع. (فِي كُلِّ حَيٍّ وَاحِدٌ) في كل قبيلة من قبائل العرب واحدٌ يرجعون إليه، ويتكهن لهم.

يقول قائل: ما مناسبة هذا الأثر لباب السحر؟ هذا يناسِب أن يَذكُره في باب ما جاء في الكهان؛ فلماذا ذكره هنا؟ المناسبة: أنّ هذا الأثر دلَّ على أنّ الطاغوت قد يكون من الجن، وقد يكون من الإنس، فالكاهن هنا الذي يَنزِل عليه الجني بما استرَق السمع وما كَذَبَ فيه: طاغوت؛ وهو من الإنس، والجني الذي يَنزِل عليه بهذا: طاغوت؛ وهو من الجن، وهذا بعينه موجود في السحر؛ فإنّ الساحر يستعين بالجن، ويَتقرَّب إليهم، فالجن هنا طواغيت للساحر، اتخذهم الساحر طواغيت، وكثيرٌ من الناس يَعتقدون في الساحر أنه يعلم الغيب، وأنه يضرّ الناس بنفسه، ويخافون منه خوف السِّر، فإنّ الواحد منهم يكون في بيته مع زوجته؛ فإذا ذكرت اسم هذا الساحر بسوء، قال: اسكتي سيضرنا! هذا خوف السِّر، وهو كفر على ما سيأتينا بيانه في باب الخوف.

فبعض الناس قد اتخذوا الساحر طاغوتًا وهو من الإنس.

إذن؛ في السحر طاغوت من الجن، وطاغوت من الإنس، كما في الكِهانة، فإنّ فيها طاغوتًا من الجن، وطاغوتًا من الإنس.

الدرس الواحد والثلاثون: تابع شرح بَابُ مَا جَاءَ فِي اَلسِّحْرِ

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَن يهدي الله فلا مضلَّ له، ومَن يُضلل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده ل اشريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء: ١]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: ٧١]

أمّا بعد:

فإنّ أحسن الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكلّ محدثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النار.

أما بعد:

كنا شرعنا في باب ما جاء في السحر، وبيَّنا أنّ الشيخ –رحمه الله– لمّا بين أنواعًا من شرك العبادة وهي أنواعٌ يَكثُر وقوعها من فئام يَنتسبون إلى الإسلام، وهم لا يعلمون أنها حرام في الغالب، فضلًا عن كونها شركًا، بل إنّ الكثرين منهم يَعتقدون أنها من أفضل القربات إلى الله عز وجل، فبيَّن الشيخ بالبراهين الواضحة أنّ هذه الأعمال من الشرك، وفيما ذكره الشيخ مَقنَع لمَن كان يخاف الله، ويخاف لقاء الله عز وجل، ليَنزجِر عن هذه الأعمال، ويَهجُر هذه الأعمال، لمّا بيَّن الشيخ ذلك، وبيَّن أنه لا أحد يأمن على نفسه ذلك؛ فإنّ فئامًا من أمّة محمد صلى الله عليه وسلم سيعبدون الأوثان، وبيَّن سبب ذلك؛ أَعْقَبَ ذلك ببيان أنواعٍ يَكثر وقوعها ممَّن يَنتسبون إلى الإسلام، وهي كفر أو شرك أو شعبة من شُعَبِ الكفر أو الشرك؛ زجرًا عنها وتحذيرًا منها، وبدأ بالكلام عن السحر، وهو من أخبث ما يقع بين الناس، وكم أفسد السِّحر والسُّحار في هذه الدنيا، فكم فرَّقوا بين القلوب المتحابة، وكم أنزلوا من الفساد بالناس بإذن الله الكوني، فبيَّن الشيخ في هذا الباب ما فيه مُزدَجر لمَن كان يخاف الله عز وجل ويخشى من عذابه.

وبيّنا أنّ السحر اسم جامع لأمور متنوعة يجمعها شدة الخفاء، وأنّ أخبث أنواع السحر العُقَدُ التي تُعقَد، ويُتَمتم عليه بكلام، ويُنفَث فيها؛ فتؤثّر في القلوب

والأبدان بإذن الله الكوني. وبيَّنا أنّ للسحر حقيقة، وأنّ للسحر شرًّا يَصل إلى المسحور بإذن الله الكوني، وأقمنا الأدلة البيِّنة على ذلك.

وبيَّنا أنّ السحر من جهة حكمه يتنوَّع إلى أنواع:

النوع الأوّل: ما يُتقرَّب به إلى الشياطين والمعبودات من دون الله، فيُتقرَّب بنفس السحر؛ كما تفعله بعض القبائل الوثنية من إقامة حفلات السحر، يَتقرَّبون بها إلى معبوداتهم، وكما يَفعل عَبَدَة الشيطان في هذا الزمان الذين يقيمون حفلات للسِّحر يَتقرَّبون بهذا السحر إلى لشيطان، وهذا كفر بيِّن، أجمع أهل العلم على أنه كفر يُخرِج من الملة.

النوع الثاني: السحر الذي يُستعان فيه بالجن، ويُتقرَّب إلى الجن بأنواع القرابين؛ من أجل تحقيق المقصود من السحر، فيكون المقصود من السحر مثلًا: التفريق بين الزوجين، فيَستعين الساحر بالجن، ويُقرِّب لهم القرابين، وقد يَطلب ممَّن يَطلب السحر منه أن يذبح فأرًا أو دجاجة أو بطة أو شاة أو غير ذلك، وكلُّ ذلك تَقرُّب إلى الشياطين، وهذا السحر كفر باتِّفاق أهل العلم، وبيَّنا أنّ هذا السحر كُفْر بالنسبة للساحر؛ لأنّ الساحر يَستعين بالجن ويَتقرَّب إليهم، وهذا شرك بالله عز وجل، ويَدَّعي علم الغيب، وهذا كُفْر بالله عز وجل، ويَدَّعي أنه يؤثِّر بسحره بذاته، وهذا كفر بالله عز وجل. وأنّ الذي يَطلب السحر من الساحر بهذا النوع يَكفُر أيضًا؛ لأنه مقرٌّ بهذا السحر وراضٍ به، والمقِرّ بالكفر

وراضٍ به يكون كافرًا والعياذ بالله، ولأنه يشارِك الساحر في الاستعانة بالجن والتقرُّب إليهم، وهذا كفر والعياذ بالله، وأقمنا الادلة على ذلك.

النوع الثالث: السحر بالأدوية والمواد، بحيث يضع الساحر في الطعام أو الشراب مادة يركبها أو يخترعها وتؤثِّر في القلوب، تؤثِّر نسيانًا أو بلادة ذهن، وتؤثر في الأبدان نشاطًا أو كسلًا، أو عدم قدرة على الجماع، أو نحو ذلك. وهذا سُمي سحرًا لِمَا فيه من خفاء سببه؛ ولأنه يؤثّر فيمن يتعاطاه كتأثير السحر تمامًا. وقلتُ إنّ هذا النوع من حيث حكمه ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأوّل: إن كانت المادة مُسكِرة أو مخدِّرة؛ فهذا حرام وكبيرة من كبائر الذوب.

القسم الثاني: إن كانت المادة ليست مُسكِرة ولا مخدِّرة، ولكن يقصد منها الإضرار بالشخص؛ فهذا الفعل حرام وكبيرة من كبائر الذنوب.

القسم الثالث: إن المادة ليست مُسكِرة ولا مخدِّرة، ويراد من ذلك نَفْعُ مَن توضَع له، كأن يكون مريضًا يحتاج أن يُوضَع له الدواء خِفية وهذا الدواء ثبت بالتجربة أنه نافع، فيوضَع للمريض خِفية، وهو بقصد نَفْعِه؛ فهذا مباح.

النوع الرابع: سحر التخييل والأخذ بالعيون وخِفَّة اليد. وقلنا إنّ هذا السحر يَختلف حُكمه بحسب المقصود منه، وبحسب ما يَتضمَّنه، وبحسب ما يؤول إليه:

- فإن كان المقصود منه شرًّا فهو حرام؛ كسرقة أموال الناس ونحو ذلك.

- وإن تَضمَّن الاستعانة بالجن فهذا حرام.

- وقد يكون شركًا أكبر إذا كانت الاستعانة على الوجه الذي هو شرك؛ كما تقدَّم معنا فيما يتعلَّق ببيان حكم الاستعاذة والاستعانة والإستغاثة.

- وإن كان بالتقرُّب إلى الجن فهذا شرك أكبر وكفر بالله سبحانه وتعالى.

- وإن لم يكن فيه حرام فإنه ليس من فِعْلِ أهل المروءات.

وشَرَعْنَا في قراءة ما ذكره الشيخ من النصوص، وهي نصوص تدلّ على شر السحر، وعلى كفر السحرة والعياذ بالله. وقد بيّنا ما يَتعلق بالآيتين اللتين ذكرها الشيخ رحمه الله عز وجل. ووقفنا عند حديث أبي هريرة رضي الله عنه، فيتفضل الشيخ ياسين يقرأ لنا.

[وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ –رضي الله عنه– أَنَّ رَسُولَ اَللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «اِجْتَنِبُوا اَلسَّبْعَ اَلْمُوبِقَاتِ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اَللهِ! وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «اَلشِّرْكُ بِاَللهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ اَلنَّفْسِ اَلَّتِي حَرَّمَ اَللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ اَلرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ اَلْيَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ اَلزَّحْفِ، وَقَذْفُ اَلْمُحْصَنَاتِ اَلْغَافِلَاتِ اَلْمُؤْمِنَاتِ»]

هذا الحديث ورد في بعض نسخ كتاب التوحيد أنّ الشيخ قال عَقِبَه : (أخرجاه)، وبُيِّض في بعض النسخ ولم يُذكَر هذا، والحديث في الصحيحين عند البخاري ومسلم، و(عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ –رضي الله عنه– أَنَّ رَسُولَ اَللهِ صلى الله عليه

وسلم قَالَ: «اِجْتَنِبُوا اَلسَّبْعَ اَلْمُوبِقَاتِ» اجتبوا: أي لا تقربوهنّ، ابتعدوا عنهن، وهذا أعظم في النهي والتحريم من قول: (اتركوا)؛ لأنّ اجتنبوا يدل على عدم القُربان أصلًا، وعلى وجوب المباعَدة، وأن يكون الإنسان بعيدًا عن هذه السبع.

«اِجْتَنِبُوا اَلسَّبْعَ اَلْمُوبِقَاتِ» أي: المهلِكات.

وهذه السبع مهلِكات للعبد في الدنيا:

- إمّا معنىً؛ وذلك بسوء أثرهن على العبد، فإنّ لهن أثرًا على القلب، حتى يُظلِم القلب بهن، ويصبح العبد بهن لا يَعرف معروفًا، ولا ينكر منكرًا، وهذا –والله– هو الموت والهلاك العظيم.

- وإمّا بالهلاك الحسي، بأن يُقتل حدًّا، أو قصاصًا، أو تعزيرًا.

- وكذلك هنّ مهلِكات يوم القيامة، مهلكات للعبد إذا لقي الله؛ لأنهن من أسباب دخول النار، والخلود فيها، أو الخلود الطويل؛ لأنّ هذه الذنوب منها ما يُوجِب الخلود الدائم في النار وهو: الشرك بالله والسحر، ومنها ما يُوجِب الخلود بمعنى المُكْثِ الطويل في النار والعياذ بالله، والغمسة الواحدة في النار ألمها عظيم، جاء في الحديث: «يؤتى يوم القيامة بأنْعَم رجل يوم القيامة في الدنيا من أهل النار فيُغمَس غمسة في النار، فيقال: هل رأيتَ نعيمًا قط؟ فيقول: لا ما رأيتُ نعيمًا قط»، وقليل ما في النار عذاب شديد، فأَخَفُّ أهل النار عذابًا رجل في أخمص قدميه جمرتان يَغلي منهما دماغه! فكيف بمَن دخلها وطال مكثه فيها؟!

لا شك أنّ المؤمن يخاف من عذاب الله ولو كان قليلًا، ولا يَستقلّ من عذاب الله شيئًا. فهن موبقات في الدنيا موبقات في الآخرة.

(قَالُوا: يَا رَسُولَ اَللهِ! وَمَا هُنَّ؟ قال: «اَلشِّرْكُ بِاَللهِ»، وأقبح ذنب على الإطلاق الإشراك بالله؛ أن تجعل مع الله ندًّا وهو خلقك، أن تجعل مع الله ندًّا وهو الذي رزقك، فهذا قبيح شرعًا، قبيح طبعًا، العاقل لو تَجرَّد لعَلِمَ قُبْح الشرك، فكيف بالمؤمن الذي يَقرأ كتاب الله، ويَسمع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم؟

قال: «وَالسِّحْرُ»، السحر إن كان فيه اعتقاد علم الغيب، واعتقاد أنّ الساحر يؤثّر سِحْرُه بذاته، أو كان فيه تقرُّب إلى الجن والشياطين فهو كفر، فيكون هذا من باب عطف الخاصِّ على العام، فالعام هو الشرك بالله، والسحر نوع من الشرك بالله، ويكون هذا العطف لبيان عظيم شأن السحر، فإنّ ذِكْرَ الخاصِّ بعد العام إن كان في الخيرات فهو يدل على شَرَفِ الخاصّ، وإن كان في الشرِّ –كما معنا هنا– فهو يدل على شدَّة قُبْحِ الخاصّ. وإذا قلنا: إنّ السحر هنا يَشمل كل أنواع السحر ما كان منها كفرًا وما لم يكن كفرًا؛ فإنّ هذا يتنوع –أي هذا العطف– إن أُرِيد ما كان كفرًا من السحر فهو من باب عطف الخاصِّ على باب العام، وإن لم يُرَدْ به ذلك فهذا ذنب آخر وكبيرة من كبائر الذنوب وإن كانت ليست شركًا.

قال: «(وَقَتْلُ اَلنَّفْسِ اَلَّتِي حَرَّمَ اَللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ»، من أعظم الورطات وأشد المهلكات أن يصيب المؤمن دمًا حرامًا حرَّمه الله عليه، لم يأذن الله له فيه، سواء كان هذا الدم دم مؤمن أو دم مؤمَّن، في الحديث: «ولا يزال المؤمن معنِقًا صالحًا؛ ما لم يُصِبْ دمًا حرامًا، فإذا أصاب دمًا حرامًا بَلَّحْ» بلَّح: أي انقطع من الخيرات، والعياذ بالله.

قال: «وَأَكْلُ اَلرِّبَا»، مَن أَكَلَ الربا فقد أهلك نفسه؛ لأنّ الله آذانه بحرب منه ومن رسوله صلى الله عليه وسلم، وكيف يأمَن مَن يحاربه الله ويحاربه رسوله صلى الله عليه وسلم؟! أقْبَح متناوَل: الربا، وأقْبَح مأكول على الإطلاق: الربا، مهلِك للعبد من الجهة التي ذكرناها، ومهلِك للعبد من جهة مَحْقِ بركة مال العبد، فإنّ الله يَمحق الربا، ومهلِك للعبد من جهة أنه يؤول بالمُرابي إلى الفقر، فالربا –وإن كثر– فهو إلى قلة؛ كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم، ومهلِك للعبد بما يَقع في قلبه من ظُلمة بسبب أكله لهذا الحرام البيِّن، وتمتد هذه الظلمة –والعياذ بالله– إلى ذريته. نعوذ بالله من سوء الحال.

قال: «وَأَكْلُ مَالِ اَلْيَتِيمِ»، فأكل مال اليتيم مهلِك للعبد في الدنيا؛ لأنّ الذي يأكل مال اليتيم كأنما يأكل نارًا في بطنه، والنار تُحرِق ولا تَنفع وتُهلِك ولا تَرفَع، فأكْلُ مال اليتيم سببٌ للهلاك في الدنيا، فكيف بالهلاك في الآخرة لآكل الربا وآكل مال اليتيم؟!

قال: «وَالتَّوَلِّي يَوْمَ اَلزَّحْفِ» إذا التقى الصَّفان في الجهاد المشروع وتعيَّن القتال على المؤمن؛ فإنّ التولي –لغير مصلحة الجهاد– كبيرة من كبائر الذنوب، ومن أقبح الذنوب، وهي مهلِكة للعبد بالعار وبالذم والقُبح في الدنيا، وبعظيم العقاب في الآخرة. أمّا التولي لمصلحة الجهاد؛ بأن يتولى إلى جهة، أو يَمكر بالعدو؛ فهذا من فنون القتال، وقلنا إنّ هذا إنما هو في الجهاد المشروع، أمّا مَن ذهب إلى جهاد غير مشروع في حقِّه، كمَن ذهب من أهل الآفاق إلى سورية أو إلى اليمن –فرَّج الله عن أهلهما وكَسَرَ الله عدَّوه فيهما، وأقرَّ أعين المسلمين بنُصرة أهل الحق والهدى، وخَذَلَ عدو الدين، ومَن نصره وأيّده وقرّر معه– مَن يذهب من أهل الأفاق إلى سورية أو إلى اليمن؛ فإنّ هذا ليس جهادًا في حقِّه هو؛ لأنّا قرَّرنا مرارًا أنّ الذي ظهر لنا بالدراسة الشرعية –بعيدًا عن التأثر العاطفي أو بالآخرين–: أنّ القتال في سورية لمَن كان من أهل سورية، أو وقع البلاء وهو هناك، لمَن أَخلص لله عز وجل؛ جهاد مشروع. وأمّا للآفاقيين فإنه ليس جهادًا شرعيًّا، ولا تتوفر فيه شروط الجهاد الشرعي. ونحن إنما نتكلم نصحًا للأمّة، لا نتأثر بالعواطف، وننظر في المسائل النظر الشرعي الذي يجب علينا، فلو أنّ أمّا الآفاقيَّ ذهب إلى سورية أو إلى اليمن، ثم وهو هناك والصفوف ملتَحِمة عَلِمَ أنّ فِعْلَه ليس مشروعًا؛ فسعى في العودة والتَّرْك توبة من هذا الفعل؛ فهذا ليس من التولي يوم الزحف، بل هذا مشروع ومحمود، وهو من التوبة الصادقة. وكذا مَن

غرَّر به خوارج العصر فذهب إلى صفِّهم، وقد يكون مخلِصًا راغبًا في نصرة دين الله، وغُرِّر به، وظن أنّ هذا هو الطريق، فذهب، فلمّا ذَهَبَ هناك رأى حال القوم، وتَبدَّى له قُبْحُ ما هم عليه في الحقيقة بعد أن ينكشف القناع، فأراد أن يعود؛ فهذا ليس من التولي؛ وإنما هو من التوبة الواجبة التي يجب عليه أن يفعلها، وأن يعود إلى أهل السنة، وأن يكون معهم.

قال: «وَقَذْفُ اَلْمُحْصَنَاتِ اَلْغَافِلَاتِ اَلْمُؤْمِنَاتِ» أي: اللاتي حَفِظَ الله فروجهن، والأصل في المؤمنة أنها محصَنة، لا يجوز قذفها، بل يا إخوة مَن تبرَّجت وخَرجت متبرِّجة إلى الشارع، يجوز سبُّها بفِعْلها؛ لأنها مجاهرة بالفسق، لكن لا يجوز قذفها، ولا يجوز أن تُرمى بالزنى، ولا يجوز لمؤمن يخاف الله عز وجل أن يرمى مؤمنة بالزنى ما لم يَرَ المِرْوَدَ في المِكْحَلة، ويَشهد معه ثلاثة، فإذا حصل هذا جاز له. أمّا إذا لم يَرَ ولكن هي مستَهتِرة متهتِّكة متبرِّجة والله لا يجوز له أن يقذفها بالزنى. لو رآها مع رجل تَدخل بيته وهي أجنبية عنه؛ لا يجوز له أن يَقذفها بالزنى. لو رآها وقد علاها الرجل ورأى المِرْوَد في المِكْحلة لكن لم يَرَ ذلك غيره؛ فإنه –وإن اعتقد في قلبه أنها زانية– لا يجوز له أن يقذفها، ولو قَذَفَها وطلبتْ حَدَّ القذف لحُدَّ، أمّا إذا رأى المِرْوَد في المِكْحَلَة وشَهِدَ معه ثلاثة فكانوا أربعة؛ فهنا يجوز. وما الدليل على أنه إذا رآها وقد علاها الرجل ورأى المِرْوَد في المِكْحَل وتيقَّن زِناها أنه لا يجوز له أن

يرميها بالزنى لفظًا؟ الدليل: أنّ الشرع أوجَب حَدّ القذف عليه إذا لم يَشهد معه ثلاثة آخرون، فدلّ ذلك على أنه جُرْم وأنه كبيرة من كبائر الذنوب. إذا كان هذا في المؤمنة، فهو كذلك في المؤمن، لكنه لمّا كان الغالب أن يكون القذف للمرأة لضعفها وقلَّة حيلتها نُصَّ على المحصنات، وإلا فالمحصَن كذلك.

والقاعدة: أنه يُصان عِرضُ الإنسان بمقدار ما صان عِرضَه، فإن صانه من كل وجه صِين عرضه من كل وجه، وإن جاهَر بفسق جاز ذِكْرُه بهذا الفسق، وأمّا القذف بالزنى فلا يجوز إلا على ما ذكرنا.

وتُضبَط أيضًا: «المُحْصِنات»، تُضبَط: المحْصَنات، وقلنا: هن اللاتي حَفِظَ الله فروجهن، وتُضبَط: «المُحْصِنات» ومعناها: اللاتي حَفِظن فروجهن، فهن محصِنات؛ أي: حافظات لفروجهن، الغافلات عن هذا القذف، المؤمنات.

والشاهد: أنّ النبي صلى الله عليه وسلم عَدّ السحر من الموبقات، التي يجب على المسلم أن يَبتعد عنها وألّا يقربها، وألّا يقرب أهلها. وهذا يدل على أنه لا يجوز أن يكون الإنسان ساحرًا، ولا أن يذهب إلى الساحر، لا بِغرَض أن يَطلب منه السحر، ولا بغرَض أن يَتفرَّج على سحره. وأمّا الذهاب لمنعه والإنكار عليه من قادِر فهذا مشروع؛ لأنّ النبي صلى الله عليه وسلم أَمَرَك أيها المؤمن أن تَجتنب السحر، ولا يمكن أن تَجتنب السحر إلا باجتناب السَّحرة والبعد عنهم وعدم قربانهم.

فهذا الحديث حديث عظيم، فيه حِفْظ العبد، وفيه إبقائه على طريق السلامة والبعد عن المهلكات.

الدرس الثاني والثلاثون: بَابُ مَا جَاءَ فِي اَلسِّحْرِ

إنّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَن يهدي الله فلا مضلَّ له، ومَن يُضلل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده ل اشريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء: ١]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: ٧١]

أمّا بعد:

فإنّ أحسن الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكلّ محدثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النار.

ثم يا معاشر الفضلاء، نواصل شرحنا لكتاب التوحيد، لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله عزو جل، هذا الكتاب عظيم الفائدة، عظيم

العائدة، عظيم البركة. نسأل الله عز وجل أن يجعلنا ممن فَهِمَه، وعَمِل بما فيه، واجتنب الشرك والكفر بأنواعه كلها. وكنا نشرح في باب ما جاء في السحر، وشرحنا بعض ما ذكره الشيخ في الباب، فيتفضل الشيخ ياسين يقرأ لنا من حيث وقفنا.

[وَعَنْ جُنْدَبٍ مَرْفُوعًا: «حَدُّ اَلسَّاحِرِ ضَرْبُهُ بِالسَّيْفِ»، رَوَاهُ الترمذي، وَقَالَ: اَلصَّحِيحُ أَنَّهُ مَوْقُوفٌ]

قال: (وَعَنْ جُنْدَبٍ مَرْفُوعًا قال: «حَدُّ اَلسَّاحِرِ ضَرْبُهُ بِالسَّيْفِ» أو «ضربَةٌ بالسيف»، يصح هذا ويصح هذا. قال: (رَوَاهُ الترمذي)، ورواه أيضًا عبد الرزاق، والطبراني في الكبير، (وَقَالَ: اَلصَّحِيحُ أَنَّهُ مَوْقُوفٌ)، وضعَّف الألباني المرفوع، فالمرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم ضعيف، لكن هذا ثابت عن جُندب الذي يقال له: جُندبُ الخير.

قال: «حَدُّ اَلسَّاحِرِ» وهذا يدل على أن قَتْل الساحر الوارد هنا عقوبةٌ مقدرة شرعًا، وليست عقوبةً تعزيرية، وهذا يجعلنا نقول: إنّ الظاهر أنّ هذا الكلام – وإن كان موقوفًا– إلا أنّ له حُكم الرفع؛ لأنه أضافه إلى الشرع بقوله: «حَدّ»؛ والحد عقوبة مقدَّرة شرعًا.

قال: «حَدُّ اَلسَّاحِرِ»: وهو الذي عُرِفَ بالسحر، وكان معروفًا به. «ضَرْبَةٌ بِالسَّيْفِ» أو «ضربُهُ بالسيف» أي أنّ حدَّه أن يُقتل.

[وَفِي صَحِيحِ اَلْبُخَارِيِّ عَنْ بَجَالَةَ بْنِ عَبَدَةَ قَالَ: كَتَبَ عُمَرُ بْنُ اَلْخَطَّابِ – رضي الله عنه– أَنِ اُقْتُلُوا كُلَّ سَاحِرٍ وَسَاحِرَةٍ. قَالَ: فَقَتَلْنَا ثَلَاثَ سَوَاحِرَ]

قال: (وَفِي صَحِيحِ اَلْبُخَارِيِّ عَنْ بَجَالَةَ بنِ عَبَدَةَ قَالَ: كَتَبَ إلينا) هكذا في صحيح البخاري، (عُمَرُ بْنُ اَلْخَطَّابِ –رضي الله عنه–) أي أنّ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه كَتَبَ إلى وُلاته في الأقاليم، قال: (أَنِ اُقْتُلُوا كُلَّ سَاحِرٍ وَسَاحِرَةٍ. قَالَ: فَقَتَلْنَا ثَلَاثَ سَوَاحِرَ)، أقول: إنّ خبر بجالة في كتابة عمر رضي الله عنه هذا الكتاب إلى عمّاله ووُلاته في الأقاليم موجودٌ في صحيح البخاري، لكنّ الشاهد منه المتعلِّق بالسحر وقتل الساحر ليس في صحيح البخاري، ولكن رواه أبو داود، والشافعي، وعبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، والبزَّار، وأبو يعلى، والدارقطني، والبيهقي، وغيرهم.

إذن: (أَنِ اُقْتُلُوا كُلَّ سَاحِرٍ وَسَاحِرَةٍ. قَالَ: فَقَتَلْنَا ثَلَاثَ سَوَاحِرَ) هذا ليس في صحيح البخاري، أصل الكتاب في صحيح البخاري، أمّا هذه الجملة المتعلِّقة بقتل الساحر فإنها ليست في صحيح البخاري، لكن رواها جَمْعٌ من أهل العلم، وإسناد الرواية صحيح، صحَّحه ابن حزم، والألباني، وابن باز. فهذه الرواية وإن لم تكن في البخاري إلا أنها صحيحة الإسناد، ثابتةٌ عن عمر بن الخطاب –رضي الله عنه–، وكان ذلك قبل موته بسنة، كتب هذا الكتاب وأَمَرَ فيه بأمور؛ ومنها: (أنِ اقتلوا كل ساحر وساحرة)، فكان رأي عمر رضي الله عنه الذي أَمَرَ به: أن

يُقتل الساحر؛ ذكرًا كان أو أنثى. وأخبر بجالة أنهم في ناحيتهم فعلوا هذا، وقتلوا ثلاث سواحر؛ أي: ثلاث نساء ساحِرات.

[وَصَحَّ عَنْ حَفْصَةَ -رَضِيَ اَللَّهُ عَنْهَا- أَنَّهَا أَمَرَتْ بِقَتْلِ جَارِيَةٍ لَهَا سَحَرَتْهَا، فَقُتِلَتْ. وَكَذَلِكَ صَحَّ عَنْ جُنْدَبٍ]

قال: (وَصَحَّ عَنْ حَفْصَةَ -رَضِيَ اَللَّهُ عَنْهَا- أَنَّهَا أَمَرَتْ بِقَتْلِ جَارِيَةٍ لَهَا سَحَرَتْهَا، فَقُتِلَتْ) هذه القصة رواها مالك في الموطأ، والطبراني، والبيهقي، وغيرهم، وإسنادها صحيح. (أَنَّهَا أَمَرَتْ بِقَتْلِ جَارِيَةٍ لَهَا سَحَرَتْهَا، فَقُتِلَتْ) فهذه جارية مملوكة لحفصة رضي الله عنها، فهذه الجارية سحرت حفصة رضي الله عنها وأقرَّت بذلك، فأمرت حفصة رضي الله عنها بقتلها، فقُتلت. (وَكَذَلِكَ صَحَّ عَنْ جُنْدَبٍ) صحّ عنه أنه قَتَل ساحرًا، كان الساحر في مجلس الأمير، وكان يُخيِّل للناس أنه يَقطع رأسه ثم يعيده مكانه، وفي بعض الروايات: (أنه يَقطع رأس رجل ثم يعيد مكانه)، وفي اليوم التالي جاء جندب –رضي الله عنه– منتشقًا سيفه فلمّا فَعَلَ الساحر ذلك ضَرَبَ رأسه بسيفه؛ وقال: فليُعِدْه إن استطاع، وقال: حَدّ الساحر ضرْبَةٌ بالسيف.

[قَالَ أَحْمَدُ: عَنْ ثَلَاثَةٍ مِنْ أَصْحَابِ اَلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم]

أي ثَبَتَ قَتْل الساحر عن ثلاثة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم؛ وهم: عمر رضي الله عنه، وحفصة رضي الله عنها، وجندب رضي الله عنه. وزِدْ

على ذلك -أيضًا- ثلاثة؛ هم: ابن عمر –رضي الله عنهما–، وعثمان –رضي الله عنه–، حيث جاء في قصة حفصة –رضي الله عنها- أنّ جارية لحفصة سحرتها، فاعترفت بذلك، فأَمَرَت بها أن تُقتل فقُتلت، فأنكر ذلك عليها عثمان، فقال ابن عمر له: (ما تُنكِر على أم المؤمنين من امرأة سَحَرتْ واعتَرَفتْ؟! فسَكَتَ عثمان)، هنا هذه الجارية سَحَرَت أم المؤمنين حفصة –رضى الله عنها–، فأمرت حفصة أن تُقتل فقُتلت، فأنكر عثمان عليها ذلك، قال العلماء: أنكر عليها أنها قتلتها دون أن تَرجِع إليه وهو أمير المؤمنين، والحكم في مثل هذا – أعني في القتل- إليه يُرجَع فيه إلى الحاكم، فقال له ابن عمر: (ما تُنكر على أم المؤمنين من امرأة سحرت واعترفت)، فسكت عثمان- رضي الله عنه-؛ أي أنه أقرَّ هذا؛ لأنّ الجارية مملوكة، وللسيد –على الراجح من أقوال أهل العلم- أن يُقيم الحَدّ على مملوكه، فهي أقامت الحَدّ على مملوكتها هذه الجارية، فلا يُنكَر عليها، فسكت عثمان رضي الله عنه. فاجتمع في هذه القصة رأي حفصة، ورأي ابن عمر –رضي الله عنهما–، ورأي عثمان –رضي الله عنه- حيث سكت بعد أن أخبره ابن عمر –رضي الله عنهما- أنّ المرأة هذه الجارية سحرت واعترفت، فدلّ على إقراره.

وأما الثالث الذي نضيفه: فهو قيس بن سعد –رضي الله عنه–، فقد قتل ساحرًا؛ كما رواه عنه ابن عبد البر بإسناده.

فهؤلاء ستة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اتَّفق رأيهم على قتل الساحر، ولا يُعلَم لهم من الصحابة مخالِف؛ فكان إجماعًا.

فإن قيل: قد روى مالك والبيهقي عن أمّنا عائشة –رضي الله عنها– أنها كانت قد أعتقت جارية لها عن دُبر –أي أنها تُعتَق بعد موتها– فسحرتها تلك الجارية فعَلِمَت أمّنا عائشة –رضي الله عنها– بأنّ سبب مرضها هو سحر تلك الجارية لها، فسألتها، فاعترفت، فقالت: (ما حملك على هذا؟ قالت: أردتُ أن أُعتق)، أرادتْ أن تموت أمُّنا عائشة رضي الله عنها لتُعتق، فقالت: (مَن أسوء العرب ملكة نفس؟ –أسوء الناس ملكة: أي خبيث النفس– فقالوا: فلان، أوقوم. فباعتها لأولئك القوم)، والقصة صحيحة. فعائشة رضي الله عنها هنا لم تقتلها، وباعتها، وهذا يدل على أنها ما كانت ترى قتل الساحر. فعائشة رضي الله عنها خالَفت!

قلنا: حَمَلَ أهل العلم فعل عائشة –رضي الله عنها– على أنّ الجارية لم تكن معروفة بالسحر، وليست هي الساحرة بنفسها، أو أنها كانت جاهلة، فعذرتها عائشة –رضي الله عنها–، لكن عاملتها بنَقيض قصدها الفاسق، فإنّ قصدها الفاسِد أن تُعتَق، فباعتاها حتى لا تُعتق.

ولهذا ذهب جمهور أهل العلم على أنّ العبد المدبَّر إذا قتل سيده فإنه لا يُعتق؛ معاملة له بنقيض قَصْدِه الفاسد. ووضع الجمهور قاعدة تَضبط لنا مسائل

كثيرة: "كلُّ فائدة تَحصل بالموت تَنتفي بالقتل". أي: أنّ كل فائدة تَحصل للإنسان بالموت تَنتفي إذا قَتَلَ مَن تَحصُل منه تلك الفائدة، مثلًا: الميراث، الميراث يَحصل بالموت، فلو أنّ الوارِث قَتَلَ مورِّثه حُرِمَ من الميراث. وكذلك الوصية، الوصية تَحصل بالموت، فلو أنّ الموصى له قَتَلَ الموصي فإنه يُحرَم من الوصية. وهكذا المعاملة بنقيض القصد الفاسد.

الشاهد: أنّ أهل العلم القائلين بمقتضى هذه الآثار قالوا: إنّ أثر عائشة رضي الله عنها لا يعارِض أراء الصحابة الآخرين –الستة الذين ذكرناهم–؛ لأنّ أثر عائشة رضي الله عنها– لم يتحقَّق فيه المقتضي من أنّ تلك الجارية ساحرة بنفسها، أو وُجد المانع وهو جهلها، أو أنها لم تُعرَف بالسحر أو الإضرار بالناس.

هذه الآثار تدل على قَتْلِ الساحر.

وقد اختلف العلماء هل يُقتَل الساحر أو لا؟

– ذهب الجمهور؛ الحنفية والمالكية والحنابلة: إلى أنّ الساحر يُقتَل؛ لظاهر هذه الآثار عن الصحابة رضوان الله عليهم، ولم يُعلَم لهم مخالِف كما ذكرنا، وأمّا أثر عائشة فأجابوا عنه بما ذكرنا.

– وذهب الشافعي وتَبِعَه اصحابه: إلى أنّ الساحر لا يُقتل إلا في حالَين:

الحالة الأولى: أن يُقرَّ على نفسه بالكفر، فلا يكفي أنه ساحر، ولكن لابد أن يَعترف هو أنه في سحره يكفر، فإذا اعترف على نفسه بالكفر في سحره؛ فإنه يُستتاب؛ فإن تاب وإلا قُتل. هذا رأي الشافعية. هذه الحالة الأولى.

الحالة الثاني: أن يُقرّ على نفسه أنه قَتَلَ أحدًا بسحره، وفي هذه الحال يُقتَل قصاصًا، ولا يستتاب، أي يُقتصّ منه، وفي بقية الحالات لا يُقتل الساحر، ما عدا هاتين الحالتين لا يُقتل الساحر، لماذا يا معاشر الشافعية؟ قالوا: لأنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا يَحل دم امرء مسلم إلا بإحدى ثلاث»، فقالوا: جعل النبي صلى الله عليه وسلم أصلًا؛ وهو: أنّ دم المسلم لا يَحل إلا بإحدى ثلاث: «النفس بالنفس، والثيِّب الزاني، والتارِك لدينه المفارِق للجماعة»، فيقولون: إذا اعترف على نفسه بالكفر؛ فهذا تَرَكَ دينه، وإذا اعترف على نفسه بالقتل؛ فهذا من باب قتل النفس بالنفس، وإذا لم يكن ذلك كذلك دَخَلَ في قول النبي صلى الله عليه وسلم: «لا يَحل دم امرء مسلم»، فيكون دمه حرامًا.

وأمّا آثار الصحابة فقالوا: معارَضة بأثر عائشة –رضي الله عنه– فنعود إلى الحديث.

والصواب –والله أعلم–: أنه إذا عُرِف الساحر بالسحر الذي هو كُفر؛ فإنه يُقتَل حدًّا لرِدَّته، فهذا حَدّ الردة، فالساحر الذي يُعرَف بالسحر الذي هو كُفر فهذا مرتد، والمرتد حدُّه القتل، فهذا يُقتل رِدَّة، حَدًّا. أمّا إذا لم يُعرَف بالسحر

الذي هو كفر؛ ولكنه ساحر، إما بالأدوية أو نحوها؛ فهذا يَرجع حكمه إلى القاضي أو الحاكم، فإن رأى قَتْلَه تعزيرًا؛ قَتَلَه. يعني يا إخوة القاضي قد لا يَثبُت عنده أنّ هذا الساحر يتعاطى السحر الذي هو كفر لكن يَثبُت عنده أنه ساحر، ويرى أنه فَتَنَ الناس، وفُتِنَ به الناس؛ فيرى قَتْلَه تعزيرًا له، ودرأً لهذه الفتنة؛ فله ذلك، أو رأى أنه يُضِرّ بالناس إضرارًا عظيمًا، فيرى أن يَقتله تعزيرًا؛ فله ذلك، وإن لم يَرَ قتْله؛ فله ذلك. فليس هذا القتل هنا عقوبة مقدَّرة لا بد منها. هذا الراجح. والله اعلم.

ويكون فِعْلُ الصحابة –رضوان الله عليهم– من أحد الأمرين: إمّا لأنّ أولئك السحرة عُرفوا بالسحر الذي هو كفر فيُقتلون رِدّة. وإمّا أنّ هذا كان تعزيرًا لأولئك السحرة.

إذا قلنا إنّ الساحر يُقتل؛ فهل يُستتاب قبل قتله؟

اختلف العلماء القائلون بقتله –الذين هم الجمهور –:

– فذهب أكثرهم أنه لا يُستتاب. إن ثَبَتَ عليه السحر قُتل، ولا يستتاب؛ لماذا؟ قالوا:

لأنّ هذا هو ظاهر الآثار، ظاهر أثر عمر –رضي الله عنه–، وأثر حفصة –رضي الله عنها–، وأثر جندب –رضي الله عنه–، آثار الصحابة ظاهرها عدم الاستتابة، فنَعمل بذلك.

ولأن سِحره في نفسه، لا يزول بالتوبة، قد تَعلَّم السحر فيبقى السحر معه، فلا يزول بتوبته، فلا يؤمَن ضَرَرُه، قد نَقبض على الساحر ويَثبُت عليه السحر، ويقول: تبت إلى الله، لن أسحر بعد اليوم! من أجل ألّا نقتله، ثم بعد شهر أو شهرين أو ثلاثة يعود فيَسحر؛ لأنّ السحر معه في نفسه لا نستطيع أن ننتزعه منه، فلا يؤمَن شره وضَرره.

- وذهب بعضهم إلى أنه يستتاب. قالوا: لأنّ الكافر يستتاب؛ فمن باب أولى مَن كان دونه في الكفر، أو كان دونه في الجُرم. يقولون: الكافر المَحْض يستتاب قبل قتله، لو أنّ شخصًا كان مسلمًا ثم أنكر وجود الله –والعياذ بالله– وأعلن هذا؛ هذا كافر لا شك في كفره، لكنه يستتاب؛ فإن تاب وإلا قُتل مرتدًّا، قالوا: فمن باب أولى الساحر الذي وإن كان كافرًا إلا أنه دون كُفر هذا الكافر، وجُرمه أقلّ من جُرم ذلك الكافر.

أيضًا قالوا –بوجهٍ قوي–: لأنّ الكافر الأصلي إذا كان ساحرًا ثم أسلم قُبِلَ ذلك منه ولم يُقتل، فالكافر الأصلي لو كان ساحرًا ثم أسلم فإنه بالاتفاق لا يُقتَل، والإسلام يَجُبّ ما قبله، طيّب أليس سحره في نفسه أو يزول بالإسلام؟ سحره في نفسه، هو يَعرف السحر، ألا يُخشى ضرره؟ بلى يُخشى ضرره، قالوا: ومع ذلك اتفقنا على أنه لا يُقتَل، فدلّ ذلك على أنّ الساحر يُستتاب، فإن تاب وإلا قُتل.

هذا الخلاف قد انعقد بعد اتفاق العلماء على أنّ توبة الساحر فيما بينه وبين الله –إن صدق فيها– تصح، الساحر إن تاب توبة صادقة فإنه بالنسبة لِمَا بينه وبين الله تَصح توبته، ولا يُحال بين مذنِب والتوبة، ولكنّ الكلام في الحكم في الدنيا، فهل نقتله؟ أو لا بد أن نستتيبه ثم إن لم يَتُبْ نقتله؟ هذه هي المسألة.

والذي يظهر –والله أعلم–: أنه إن كان قَتْلُه لكفره فإنه يُستتاب؛ لأنّ الأدلة دلت على أنّ الكافر يُستتاب. أمّا إن كان قَتْله لضرره أو فتنته فكان تعزيرًا؛ فهذا يعود إلى تقدير الحاكم، فقد يَقتله بدون أن يستتيبه؛ لأنّ القصد من قَتْله خارِج عنه، يعني ليس متعلّقًا به، وإنما متعلق مثلًا بخوف الفتنة أو خوف الضرر، فعليه ننظر إلى سبب قَتْله، فإن كان سبب قَتْله الكفر فإنه يستتاب ولا بد، أمّا إن كان سبب قَتْله فتنة الناس به أو إضراره بالناس، ورأى الحاكم القاضي أن يُقتَل؛ فله أن يقتله بدون أن يستتيبه، بل له أن يقتله ولو أظهر التوبة؛ لأنّ المقصود من قَتْله خارجًا عنه ليس متعلّقًا به وإنما متعلّق بغيره. هذا تحقيق المسألة في قتل الساحر واستتابته.

[فِيهِ مَسَائِلُ: اَلْأُولَى: تَفْسِيرُ آيَةِ اَلْبَقَرَةِ]

وقد تقدم بيان معناها.

[اَلثَّانِيَةُ: تَفْسِيرُ آيَةِ اَلنِّسَاءِ]

﴿يؤمنون بالجبت والطاغوت﴾ وقد تقدم بيان معناها.

[اَلثَّالِثَةُ: تَفْسِيرُ اَلْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَالْفَرَقُ بَيْنَهُمَا]

وقد تقدَّم الكلام عن هذا في الباب وقبله أيضًا.

[اَلرَّابِعَةُ: أَنَّ اَلطَّاغُوتَ قَدْ يَكُونُ مِنَ اَلْجِنِّ وَقَدْ يَكُونُ مِنَ اَلْإِنْسِ]

وأخذ هذا من أثر جابر؛ أنّ الطواغيت: كهّان، كان يَنزل عليهم الشيطان، فالكاهن بالنسبة للناس طاغوت، والشيطان بالنسبة للكاهن طاغوت، فقد يكون الطاغوت من الجن، وقد يكون الطاغوت من الإنس، وقلنا: هذا موجود في الساحر، فالساحر بالنسبة له الشيطان طاغوت، وهو بالنسبة للناس طاغوت. كام تقدّم بيانه.

[الْخَامِسَةُ: مَعْرِفَةُ اَلسَّبْعِ اَلْمُوبِقَاتِ اَلْمَخْصُوصَة بِالنَّهْيِ]

المخصوصة بالنهي المؤكّد؛ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات»، وإلا فالمنهيَّات أوسع من هذا.

[اَلسَّادِسَةُ: أَنَّ اَلسَّاحِرَ يَكْفُرُ]

كما تقدم.

[اَلسَّابِعَةُ: يُقْتَلُ وَلَا يُسْتَتَابُ]

لظاهر آثار الصحابة، فإنّ ظاهر آثار الصحابة: قَتْل الساحر بدون استتابة.

[اَلثَّامِنَةُ: وُجُودُ هَذَا فِي اَلْمُسْلِمِينَ عَلَى عَهْدِ عُمَرَ، فَكَيْفَ بَعْدَهُ؟!]

وجود السَّحرة في خير القرون، في القرن الأوّل؛ في زمن عمر –رضي الله عنه–، فكيف بما بعده من القرون؟! لا شك أنّ هذا موجود، ولا شك أنّ في زماننا توسَّع الناس في السحر توسعًا عظيمًا، حتى أصبح كأنه من الأمور المباحة، وأصبحت المرأة تذهب إلى السواحر والسحرة، وقد يُسمَّون بالشيوخ والمباركين! –ولا خير فيهم ولا بركة– من أجل أن تَسحر زوجها؛ حتى لا يتزوج ثانية، وبعض الآباء المغفَّلين قد يَذهب إلى السحرة من أجل أن يَسحر ابنته حتى لا تَميل إلى الرجال وتَذهب معهم، وقد اتصلت بي امرأة قبل زمن تشكو حالها وهي متزوجة ولا تستطيع أن تجعل زوجها يقربها؛ وذلك أنّ أباها وهي صغيرة أسقاها سحرًا ربطها عن الرجال! وهذا –للأسف– أصبح كثيرًا جدًّا في زماننا، فيجب علينا وعلى طلاب العلم أن نبيِّن قُبْح هذا الأمر، وعظيم جُرمه، وعظيم خطره، وأن يُنشَر هذا للناس؛ حماية للدين، وحماية للناس.

تابع الدرس الثاني والثلاثون: شرح بَابُ بَيَانِ شَيْءٍ مِنْ أَنْوَاعِ السِّحْرِ

[بَابُ بَيَانِ شَيْءٍ مِنْ أَنْوَاعِ السِّحْرِ]

لمّا تقدَّم بيان ما جاء في السحر، وبيان قُبْح السحر، وأنّ من السحر كفرًا أكبر يُخرج من الملة؛ أَعْقَبَ الشيخ ذلك الباب ببيان ما جاء في النصوص تسميته سحرًا، وأنه أنواع في حقيقته، فليس نوعًا واحدًا؛ فكذلك هو أنواعٌ في أحكامه، فليس حكمه واحدًا. وكل هذه الأنواع التي سُميت سحرًا يَجمعها: الخفاء في السب، والأثر في القلوب والأبدان.

[قَالَ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، حَدَّثَنَا عَوْفٌ، عَنْ حَيَّانَ بْنِ الْعَلَاءِ، حَدَّثَنَا قَطَنُ بْنُ قَبِيصَةَ عَنْ أَبِيهِ: أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «إِنَّ الْعِيَافَةَ، وَالطَّرْق، وَالطِّيَرَةَ، مِنَ الْجِبْتِ»]

هذا الحديث رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي، وابن حبان، وابن أبي شيبة، والطبراني في الكبير، وصحَّحه ابن حبان –ما دام ابن حبان رواه فهو يصححه– وحسَّنه النووي وابن باز، وقال ابن مفلح والشوكاني: إسناده جيد، وضعَّفه الألباني وابن عثيمين. ولا شك أنّ إسناده ضعيف، وأنّ طرقه لا يَشُدُّ بعضها بعضًا، فهو ضعيف الإسناد؛ وإن لم يكن ضعفه شديدًا.

قَالَ: «إِنَّ الْعِيَافَةَ»، العيافة فسّرها بعض أهل العلم بأنها: هي زَجْرُ الطير. وزَجْر الطير معناه: زَجْرُه لترتيب العمل عليه؛ كفًّا أو إقدامًا. فكانت العرب إذا

أرادت شيئًا –ولا سيّما السفر–ورأت طائرًا زجرته، فإن طار ناحية اليمين قالوا: سفر خير، وسافروا، وإن طار ناحية الشمال قالوا: شُؤم، ورَجعوا، ولم يسافروا. فكان هذا من تطيُّر العرب. وسيأتي إن شاء الله باب نتحدّث فيه عن التطيُّر.

قال: «وَالطَّرْقَ»، فسّره بعض أهل العلم: بأنه الخط. يُخَطُّ في الأرض –وغالبًا في الرمل– لمعرفة المستقبل، فيَذهب الرجل أو الشاب إلى هؤلاء الذين يَخطُّون ويَطرقون، ويقول: خُطُّوا لي، فيَخطُّون له في الرمل، ويقولون: أنت ستتوظف، أو لن تجد وظيفه، أو ستتزوج امرأة طويلة بيضاء، ليست من بلدكم، وستقع لك مصيبة، ونحو هذا. ومثله كلُّ خَطٍّ، كقراءة خطوط الكف، بعض الناس يزعمون أنهم يقرأون خطوط الكف ويَعرفون بها المستقبل والأمراض، فيقولون: هات أَقرأ لك الكف، ويقول لك: أنت مريض بكذا، وأنت يحصل لك كذا، فهذا داخل في الطَّرق. وكذلك الخطوط على الورق لمعرفة المستقبل. ومثله: الفنجال، فنجال القهوة، فإنه إذا شُرِبت القهوة يكون في الفنجال خطوط، ويأتي بعض الناس يقرأون بزعمهم أنّ هذه الخطوط لمعرفة المستقبل.

- وقيل إنّ الطرق: هو ضرب الأرض بالحصى. يأخذ مجموعة من الحصى ويضربها بالأرض لمعرفة الغيب.
- وقيل: الطَّرق: هو التنجيم؛ كما قال ابن حبان.

–وقيل: هو اللعب بالحجارة للأصنام. كان أهل الجاهلية يفعلون هذا.

ولا تَعارُض بين هذه المعاني؛ فكلها تَدخل في معنى الطَّرق.

قال: «وَالطِّيَرَةَ» أي: التشاؤم. وسيأتي الكلام عنها في باب التطيُّر. «من الجِبْتِ» وتقدم معنا أنّ جمعًا من السلف منهم عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– يفسِّرون الجبت بالسحر.

وهذه هي مناسبة ذكر الشيخ هذا الحديث هنا: أنّ العيافة والطَّرق والجِبت من السحر .

كيف تكون العيافة من السحر؟ تكون العيافة من السحر:

- ولأنّ فيها ادِّعاء علم الغيب والمستقبل كالسحر.
- ولأنّ لها أثرًا في القلوب؛ من جهة التصديق والإقدام أو الكَفّ.

وأما الطَّرق؛ فالطرق أيضًا من السحر لنفس الأمرين: لخفاء السبب، ولأنه يؤثّر في القلوب إقدامًا أو كفًّا.

وأمّا الطيرة: فسيأتي الكلام عنها بالتفصيل إن شاء الله.

[قال عَوْفٌ: الْعِيَافَةُ زَجْرُ الطَّيْرِ، وَالطَّرْقُ الْخَطُّ يُخَطُّ بِالْأَرْضِ]

عوف ابن أبي جميلة، روى هذا عنه أبو داود، وأحمد، والطبراني في الكبير، والبيهقي في الآداب، وهذا صحيح عنه؛ كما صحَّحه الألباني رحمه الله، وقد تقدّم معنى العيافة والطَّرق.

[وَالْجِبْتُ قَالَ الْحَسَنُ: رَنَّةُ الشَّيْطَانِ. إِسْنَادُهُ جَيِّدٌ]

قال: (وَالْجِبْتُ قَالَ الْحَسَنُ: رَنَّةُ الشَّيْطَانِ)، الذي عند الإمام أحمد "في المسند" والبيهقي "في الآداب": قال: (الجبت هو الشيطان)، ولم أقف على جملة (رنة الشيطان) في شيء من الكتب التي رَوَتْ هذه الروايات، لكنّ ابن كثير في التفسير وابن مفلِح عَزَو هذه الجملة إلى المسند للإمام أحمد، ولم أَرَها في المسند، ولعلها في نسخة لم تَصِلْنا، أمّا في النسخ التي وصلتنا، قال: إنه الشيطان. وعلى هذه الرواية ما معنى (رَنَّةُ الشَّيْطَانِ)؟ ذكر بعض أهل العلم أنه لم يَقِف فيها على كلام؛ كشيخ الإسلام بن تيمية، وصاحب تيسير العزيز الحميد. وفسَّرها بعض أهل العلم بأنّ الرَّنة: هي الصوت الحزين. فالمقصود صوت الشيطان الذي يأمر فيه الناس بالشر، ولا يأمر الشيطان إلا بالشر. رنة الشيطان: أي صوت الشيطان؛ حيث يأمر الناس فيه بالشر. وهذا أحد التفسيرات للجبت، وإلا فقد تقدَّم معانٍ للجبت.

[وَلِأَبِي دَاوُدَ وَالنَّسَائِيِّ، وَابْنِ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ الْمُسْنَدُ مِنْهُ]

ولكن بالنسبة لأبي داود روى المسند والتفسير أيضًا، وأمّا النسائي وابن حبان فنعم إنما رَويا المسند إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وقد علمتم ما فيه وأنّ هذا الحديث ضعيف الإسناد، وإن لم يكن العلماء قد اتفقوا على ضعفه كما سمعتم في الحكم عليه.

الدرس الثالث والثلاثون: تابع شرح بَابُ بَيَانِ شَيْءٍ مِنْ أَنْوَاعِ السِّحْرِ

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَن يهدي الله فلا مضلَّ له، ومَن يُضلل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده ل اشريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء: ١]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: ٧١]

أمّا بعد:

فإنّ أحسن الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكلّ محدَثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النار.

ثم يا معاشر الفضلاء؛ أسأل الله عز وجل بأسمائه الحسنى وصفاته العلا أن يجعل مجلسنا هذا مجلسًا مرحومًا، وأن يكرمنا فيه بمغفرته ورضوانه، وأن يكتب لنا الاجور التي أعدّها لأهل العلم وطلابه، وأن يزيدنا من فضله. هذا المجلس منعقِد لشرح كتاب التوحيد لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله عز وجل.

وكنا نشرح في الباب الذي عَقَدَه الشيخ –رحمه الله– لبيان شيء من أنواع السحر. وقد تقدّم معنا أنّ من أنواع السحر العيافة، وهي: زَجْر الطير، بمعنى: إثارة الطير وتحريكه من أجل الإقدام أو الإحجام، فإن طار الطير ناحية اليمين قالوا: إنه يُمْنٌ وبركة، وأقْدَموا على الفعل، وإن طار ناحية الشِّمال قالوا: شؤمٌ، وأحْجَموا عن الفعل.

والعيافة من السحر؛ وذلك: لأنّ سببها خفيّ، ولأنها تؤثر في القلوب إقدامًا وإحجامًا، كالسحر الذي هو خَفِيٌّ في سببه، ويؤثر في القلوب والأبدان بإذن الله الكوني.

وذكرنا أيضًا أنّ من السحر: الطرق؛ وهو: الخط يُخَطُّ في الأرض لمعرفة المستقبل، وهذا له صور متعدِّدة، وفسَّره بعض أهل العلم بألفاظ متقارِبة، وهذا لأيضًا من السحر: لخفائه، ولأثره من جهة اعتقاد معرفة الغيب، ومعرفة المستقبل، ونحو ذلك.

وذَكَرَ الشيخ من ذلك أيضًا الطيرة، وسيأتي لها باب مستقِلّ، واستدلّ على هذا بحديث أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إنّ العيافة، والطَّرق، والطيرة، من الجِبت»، وقلنا إنّ هذا الحديث قد اختلف العلماء في الحكم عليه، فصحَّحه ابن حبان، وقال ابن مُفلح والشوكاني: إسناده جيِّد، وحسَّنه النووي وابن باز، وضعَّفه الألباني، وقلنا لكم إنّ النظر في إسناده يقتضي القول بأنه ضعيف، وإن كان ضَعفه ليس شديدًا. ولا شك أنّ الأمور الثلاثة المذكورة فيه أمور مذمومة شرعًا، محرَّمة لا يجوز قُربانها.

ونواصل ما ذكره الشيخ في هذا الباب، فيتفضل الشيخ ياسين يقرأ لنا حيث وقفنا.

[وَعَنِ اِبْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «مَنِ اِقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ النُّجُومِ، فَقَدِ اِقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ، زَادَ مَا زَادَ»، رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ]

هذ االحديث حديث ابن عباس رضي الله عنهما رواه أبو داود كما قال المصنف، والإمام أحمد، وصحّحه جَمْع من أهل العلم؛ منهم: النووي، وابن تيمية، والألباني، وابن باز، والحديث صحيح.

(عَنِ اِبْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «مَنِ اِقْتَبَسَ» أي: مَن تَعلَّم، «شُعْبَةً» أي: جزءًا، «مِنَ النُّجُومِ» أي من عِلْمِ النجوم،

وهذا العلم عِلم خاصّ من علم النجوم، وهو ما يسمى بعلم التأثير، وذلك أنّ علم النجوم على أربعة أنحاء:

النحو الأوّل: أن يَتعلَّم النجوم والكواكب ليَجعلها علامات على الأمور المحسوسة؛ كالجهات مثلًا، يتعلَم النجوم والكواكب ليجعلها علامات على جهة الشرق، وجهة الغرب، وجهة القبلة، وهذا يُسمَّى بعلم التَّسيير، وهذا جائز، وقد امتنّ الله عز وجل علينا بهذا العلم؛ بقوله تعالى: ﴿وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (النحل: ١٦)، أي أنّ الله جعل لكم علامات في النهار؛ تَعرفون بها الطُّرق، وهداكم في سيركم في الليل في البر والبحر بالنجوم؛ فتعرفون الجهات بمعرفة الكواكب.

النحو الثاني: هو الاستدلال بالنجوم على أزمنة بعض ما يقع في المستقبل بمعرفة سير الكواكب المعتاد؛ كمعرفة زمن دخول الصيف، أو زمن دخول الشتاء، أو زمن حصول الكسوف، أو زمن حصول الخسوف. فهذه أزمنه لأمورٍ تقع في المستقبل تُعرَف بتعلُّم سَير الكواكب المعتاد، سيرها في أبراجها المعتادة. وهذا ليس من ادِّعاء علم الغيب، وإنما هو معرفة بالأسباب المعتادة، وهذا قد يَصدُق وقد يَتخلَّف، وهذا علم جائز، وهو من علم التسيير أيضًا، فتُجعل الكواكب علامات على هذه الأزمنة بسبب ظاهر؛ ماهو السبب الظاهر؟ هو

سيرها المعتاد في أبراجها، فمَن عَرَفَ سير الأبراج المعتاد فإنه يستطيع أن يعرف هذا.

النحو الثالث: معرفة النجوم والكواكب؛ لمعرفة أحداث المستقبل، فيقال: هذا العام سيموت الحاكم الفلاني، والعالم الفلاني، وفلان سيتزوج، وفلان سيتوظف؛ بالنظر إلى الكواكب والأفلاك، ويقولون مثلًا: إذا كان الشخص وُلِد في برج الجوزاء، وتزوج بامرأة وُلِدت في برج العقرب، فإنه تَحدث بينهما مشاكل، ولا يُستدام هذا النكاح، ومثل ما يفعلون في الجرائد والمجلات يقولون: حظك هذا الأسبوع، أو حظك هذا اليوم، بالنظر في الكواكب، وهذا يسمى بعلم التأثير، وهو المقصود هنا في هذا الحديث.

النحو الرابع: فهو اعتقاد أنّ الكواكب تؤثِّر في الكون، وإضافة الوقائع إليها، فيقول القائل: نزل علينا المطر بكوكب كذا، وجاء الإعصار بكوكب كذا، ونحو ذلك، فيُضيفون الفعل إلى الكوكب، ويَعتقدون أنّ الكواكب مؤثِّرة بذاتها، وهذا سيأتي له باب مستقل إن شاء الله، وهو نوع من أنواع الكفر.

المقصود بقول النبي صلى الله عليه وسلم: «مَن اقتبس شُعبة من النجوم» أي: مَن تَعلَّم جزءً من علم النجوم؛ وهو علم التأثير الذي يُتخرَّص فيه بمعرفة المستقبل، وأحداث المستقبل «فَقَدِ اِقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ» أي: فقد تَعلَّم

شعبة من السحر، « زَادَ مَا زَادَ» كلّما زاد من تَعلُّم عِلم النجوم هذا كلّما زاد سحرًا وإثمًا.

إذن؛ ادِّعاء معرفة أحداث المستقبل بمعرفة علم النجوم نوعٌ من السحر بدلالة هذا الحديث الصحيح.

- فإن اعتقد أنّ الذين يَتعلَّمون النجوم يعلمون الغيب؛ فهذا كفر، إن اعتقد المتعلِّم أو غيره فيه أنه بهذا يعلم الغيب؛ فهذا كفرٌ أكبر والعياذ بالله.
- وإن اعتقد أنّ هذه أسباب لمعرفة هذه الأحداث؛ فهذا كفر أصغر. يعني أنه لم يَعتقد أنه يَعلم الغيب، أو لم يَعتقد فيه سامعه أو الناظر إليه أنه يَعلم الغيب؛ لكن اعتقد أنه يَعرف هذه الأحداث بأسباب معرفته بالنجوم، لا أنه يعلم الغيب؛ فهذا كفر أصغر والعياذ بالله. وكلها شر والعياذ بالله.

[وَلِلنَّسَائِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَة: (مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً ثُمَّ نَفَثَ فِيهَا فَقَدْ سَحَرَ، وَمَنْ سَحَرَ فَقَدْ أَشْرَكَ، وَمَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ)]

هذا الحديث رواه النسائي، حسَّنه ابن مفلح، وقال الإمام ابن باز: منقطعٌ؛ لكن له شواهد من حيث المعنى. وضعَّفه الألباني. ولاشك أنّ معناه صحيح وإن كان في إسناده ضَعف، لكن معناه صحيح لا شك فيه.

قال: «مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً ثُمَّ نَفَثَ فِيهَا فَقَدْ سَحَرَ» وقلت لكم أنّ هذا النوع أخبث وأشهر أنواع السحر، بحيث يكون فيه عُقد وعزائم وتَمتمات ونَفْث؛ فيؤثِّر في الأبدان والقلوب بإذن الله الكوني، فهذا لا شك أنه سحر، قال تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ (الفلق: ٤)، والنبي صلى عليه وسلم إنما سُحِرَ بهذه الطريقة، سَحَرَه لبيد بن الأعصم بهذه الطريقة، وقلنا لكم إنّ النبي صلى الله عليه وسلم مع كونه سُحِرَ لم يؤثِّر ذلك فيه إلا من جانب واحد وهو أمر يَتعلّق بالدنيا لا يَضر دينه ولا عقله، وهو ما يَتعلق بأمر نسائه، فيُخيَّل إليه أنه أتى امرأته وهو لم يَفعل صلى الله عليه وسلم، فهذا السِّحر أخبث أنواع السحر وفيه الاستعانة بالجن والتقرُّب إليهم بالقرابين. فلا شك أنّ الذي عَقَدَ عُقدة وتَمتم فيها ونَفَثَ لِيَضُرّ أو يؤثِّر في قلب إنسان أو في بدن إنسان أنه قد سَحَرَ، وهذا لا يُشَكُّ فيه أبدًا.

ومَن سَحَرَ فقد أشرك، تقدَّم معنا من الأدلة ما يدلّ على أنّ السحر كُفر، وأنّ الساحر كافر لا سيما هذا النوع من السحر، وقد فصّلنا لكم أنواع السحر من حيث الحكم، فهذا النوع يَحصل فيه الاستعانة بالشياطين والتقرُّب إليهم بالقرابين، فلا شك أنه شرك بالله عز وجل، وكُفر مُخرِج من الملة.

قال: «وَمَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ»، وقد تقدّم معنا هذا فيما يَتعلَّق بالتمائم، ولا شك أنّ مَن علَّق قلبه بشيء وَكَلَه الله إلى ذلك الشيء، ومَن وَكَلَه الله إلى

المخلوق فقد خاب وخَسر، ومَن تَعلَّق بالسحرة وَكَلَه الله إلى السَّحرة، ومَن وَكَلَه الله إلى هؤلاء القوم الذين لا خير فيهم فقد خاب وخَسر، وإذا وَكَلَه الله إليه في الدنيا فهو أهل لأن يعاقَب في الآخرة.

ووجه الدلالة من هذا الحديث: بيان نوع من أنواع السحر؛ وهو سحر العُقد والنَّفث. وكما تقدّم أنه من أشرّ انوا عالسحر.

[وَعَنِ اِبْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «أَلَا هَلْ أُنَبِّئُكُمْ مَا الْعَضْهُ؟ هِيَ النَّمِيمَةُ، الْقَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ]

(وَعَنِ اِبْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «أَلَا هَلْ أُنَبِّئُكُمْ مَا الْعَضْهُ؟)، (العَضْهُ) وهذا هو الأشهر عند المحدِّثين، وقيل: (العِضَه) بكسر العين وفتح الضاد، وهذا هو الأشهر عند أهل اللغة.

و(الْعَضْهُ) قال بعض أهل العلم: هو البهتان والكذب. أي أنّ النبي صلى الله عليه وسلم يقول: هل أنبئكم ما البهتان والكذب؟

–وقال بعض اهل العلم: العَضْهُ: هو السحر في لغة العرب، وقالوا: إنه لغة قريش، يُسمُّون السحر العَضْه. وقد جاء عند الطحاوي والطبراني أنّ عبد الله بن مسعود –رضي الله عنه– قال: كنا نقول في الجاهلية: إنّ العَضْهَ هو السِّحر.

إذن؛ من معاني العَضْه: السحر، وهو المراد هنا على تقرير الشيخ؛ لأنّ الشيخ ذكر هذا الحديث لبيان شيء من أنواع السحر، فيكون الشيخ يختار أنّ معنى العَضْه السحر.

وكلا المعنَيين صحيح بالنسبة للنميمة، جاء في بعض الروايات كما عند البخاري في الأدب المفرد أنه لمّا قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: «ألا هل أنبئكم ما العَضْه؟»، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «هي النميمة القالة بين الناس». والنميمة فسَّرها النبي صلى الله عليه وسلم أنها القالة بين الناس، أي: أنها نقل الكلام بين الناس على وجه الإفساد بينهم.

والنميمة كلها فساد، فهي أوّلًا تُفسِد حياة صاحبها، ومَن ابتُلي بالنميمة كان كمَن ابُتلي بالجَرَب، لا يهدأ حتى يَنِمّ، ولذلك لابد أن يكون مشَّاء، فمَن ابتُلي بها –والعياذ بالله– لا يَستقر له قرار ولا يَهدأ له بال إلا بأن يسعى بالنميمة بين الناس. وهي تُفسِد آخرة صاحبها، فالمشي بالنميمة بين الناس سبب لعذاب القبر والعياذ بالله؛ كما ثبت ذلك في الحديث في الصحيحين في قصة الرجلين في قول النبي صلى الله عليه وسلم: «إنهما يعذبان، وما يعذبان في كبير، بلى إنه لكبير، قال: أمّا أحدهما فكان يمشي بالنميمة بين الناس». وهي أيضًا –والعياذ بالله– سبب للحرمان من دخول الجنة؛ وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا يدخل الجنة قَتَّات» والحديث في الصحيحين، والقَتَّات: هو النمام.

والنميمة تُشبِه السحر في خفائها، فالنمام يَحرص على إخفاء سعيه عن كلا الطرفين، المنقولُ الكلام منه، والمنقولُ الكلام إليه، والغالب أنّ النمام يَنقل للطرفين، ولذلك لا يؤمَن النمام، إذا نَقَلَ إليك، ورأيتَ منه الحرص على أن يُفسِد قلبك على أخيك؛ فاعلَم أنه سيَنقل عنك، وأنّ الذي تراه الآن بأمِّ عينيك يَحدُث من وراء ظهرك فيك.

وهي أيضًا تُشبِه السحر في أثرها؛ فهي تفرِّق بين الأحبة، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «شرار عباد الله المشّاؤون بالنميمة، المفرِّقون بين الأحبة، الباغون بالبرآء العَنَت» رواه البخاري في الأدب المفرد، وأحمد، وحسَّنه الألباني. «شرار عباد الله» أي: شرار أمّة الإجابة المشاؤون بالنميمة، الذين يَنقلون الكلام بين الناس على سبيل الزِّعاية والإفساد، وهم مشاؤون؛ لأنه كما قلنا مَن ابتُلي بالنميمة لا يَهدأ حتى يَنمّ بين الناس. «المفرقون بين الأحبة» فإنهم بالنميمة يفرِّقون بين الأحبة، وهذا فِعْل السحرة. «الباغون بالبُرآء العَنَت) أي: المشقَّة.

وجاء عن أنس –رضي الله عنه– أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أتدرون ما العَضْهُ؟»، قالوا: الله ورسوله أعلم، فقال: «نَقْلُ الحديث من بعض الناس إلى بعضٍ؛ ليُفسدوا بينهم» رواه البخاري في الأدب المفرد، وصحَّحه الألباني. فالنميمة تُشبِه السحر في التفريق بين القلوب، والتفريق بين المتحابِّين.

وقد رَوى أبو نعيم في الحلية عن يحيى بن أبي كثير أنه قال: "يُفسِد النَّمام في ساعة ما لا يُفسِده الساحر في شهر".

ومن المقولات السائرة: "يُفسِد النَّمام في ساعة ما لا يُفسده الساحر في سنة"، فإفساد النمام أعظم من إفساد الساحر.

فالنميمة شرُّها عظيم، ويَعظُم قُبْحها إذا كانت بين طلاب العلم الذين يَجتمعون على الهدى والسنة وعلى منهج السلف الصالح، يجتهدون في تحصيل العلم فيأتي نمّام يَنقل كلام هذا إلى هذا، ويَنقل كلام هذا إلى هذا؛ على سبيل الإفساد، فهذا من أَقبَح صور النميمة.

وأَقبَح منه: سَعْيُ النمام بين الشيخ وطلابه، الذين يَجمعهم العلم والمنهج الرشيد والحب في الله، فقد يرى النمام أنّ الشيخ قريبٌ من طلابه؛ فيسعى للإفساد بين الشيخ والطلاب.

وأَقبَح من ذلك: النمام الذي يسعى للإفساد بين المشايخ الذين يَجتمعون على الحق والهدى والتوحيد السنة والمنهج السلفي الرشيد، فيَنقل كلامًا من هذا إلى هذا، ومن هذا إلى هذا؛ بقصْد الإفساد بينهم. وكلُّ هذا من كبائر الذنوب، ومن قبائح الأفعال.

والواجب على الإنسان أن يَحذر من النميمة حذرًا شديدًا، وألّا يَغُرّهُ الشيطان، وألَّا يَغشَّه الشيطان.

واليوم تطوّرت أساليب النميمة بوسائل التواصل الاجتماعي، وأصبحت النميمة كثيرة جدًّا، ولا يحتاج النمام إلى أن يَتحرك بنفسه، وإنما برسالة يُرسلها إلى هذا، ورسالة يُرسلها إلى هذا؛ بقصْد الإفساد والعياذ بالله. هذا كلُّه إذا كان صادقًا في كلامه، ويَنقل كلامًا سَمِعَه بقصد الإفساد والعياذ بالله.

أمّا إن كان كاذبًا؛ فيَكذب على هذا ويَكذب على هذا؛ فهذا جَمَعَ بين ثلاث جرائم: النميمة، والغيبة، والكذب والبهتان.

النميمة والغيبة: لأنه يذكر أخاه في غيبته بما يكره. والكذب والبهتان: لأنه كاذب في الكلام الذي ينقله، وهذا شرٌّ عظيم، العياذ بالله.

إذن؛ تبيَّن لنا أنّ النميمة نوع من السحر؛ من جهة أثرها، وهذا يدل على عظيم جرم النمام.

[وَلَهُمَا عَنِ اِبْنِ عُمَرَ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا–: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا»]

قال: (وَلَهُمَا) أي: للشيخين؛ البخاري ومسلم. والحق أنّ هذا الحديث إنما رواه عن ابن عمر البخاري، ورواه مسلم عن عمار بن ياسر. والبخاري رواه

بقصة، ومسلم لم يذكر هذه القصة التي من أجلها قال النبي صلى الله عليه وسلم هذه الجملة، وذلك أنّ البخاري روى عن ابن عمر –رضي الله عنهما– أنه جاء رجلان إلى النبي صلى الله عليه وسلم من المشرق، فخطبا، فعَجِبَ الناس لبيانهما، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «إنّ من البيان لسحرًا».

والبيان نعمة من الله عز وجل، الله عز وجل عَلَّم الإنسان البيان. والبيان على قسمين:

القسم الأوّل: البيان عن مراد الإنسان مطلقًا. وهذا حاصِل لكل عاقل، يريد أن يَشرب يبيِّن أنه يريد أن يَشرب، يريد أن يمشي ويذهب يبيِّن أنه يريد أن يذهب ويمشي، فهذا البيان حاصِل لكل إنسان، وليس هو المراد هنا.

القسم الثاني: إتقان البيان؛ بالفصاحة والبلاغة التي تأخذ الألباب. وهذا هو المراد هنا: «إنّ من البيان لسحرًا».

ما مراد النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : «إن من البيان لسحرًا)؟ هل أراد أن يَذمّ البيان؟ أو أراد أن يَمدحه؟

- مَن نَظَرَ إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم: «إنّ من البيان لسحرًا»، والسحر إنما يَرِدُ في الشرع مذمومًا، قال: أراد هنا ذَمّ البيان.

- "ومَن نَظَرَ إلى أنّ القصة لا تدلّ على الذَّم قالوا: أراد مدح البيان؛ لأنه يأخذ بالقلوب والألباب.

ولا شك أنّ الكلام هنا ليس عن كل البيان وإنما عن بعض البيان، فإنّ (مِن) هنا تبعيضية؛ لأنه جاء في الرواية الأخرى: «إنّ بعض البيان لسحر»، فالمراد هنا: بعض البيان. فهل أراد النبي صلى الله عليه وسلم المدح أو الذم؟ من أهل العلم من قال: المراد المدح، ومن أهل العلم من قال: المراد الذَّم.

وقال الحافظ بن رجب –رحمه الله–: "إن أُريد به المدح؛ فالمعنى: أنه يُستمال به القلوب، ويُرضى به الساخط، وإن أُريد به الذّم؛ فالمعنى: أنه يُكتَسب به من الإثم ما يُكتَسب بالسحر ".

قال: "إن أُريد به المدح؛ فالمعنى: أنه يُستمال به القلوب" يعني: أنه يؤثِّر أثرًا طيِّبًا، فيُستمال به القلب إلى الحق، فالبليغ يَجلب قلوب الناس إلى الحق. قال: "ويُرضى به الساخط": فقد يَسخط حتى الحاكم على إنسان فيَرُدّ بكلام بليغ فيَرضى الحاكم.

قال: "وإن أريد به الذّم": يعني إن اريد به الذم فيكون البيان هنا البيان المذموم الذي يُقلَب به الحق باطلًا، فإنّ المراد: أنه يُكتسب به من الإثم ما يُكتسب به من السحر.

وقال بعض أهل العلم: بل هذا بيان للواقع. وهذا اختاره الشيخ ابن عثيمين –رحمه الله–. «إنّ من البيان لسحرًا» يأخذ بالألباب ويَسحر النفوس، وأمّا المدح والذّم ليس مرادًا هنا. يعني يقولون: لمّا رأى النبيُّ صلى الله عليه وسلم الناسَ عجبوا من خطبة هذين الرَّجلين وكيف انجذب الناس إليهما؟ قال: «إنّ من البيان لسحرًا» وهذا الواقع، لكن هل هو ممدوح أو مذموم؟ هذا بحسب ما فيه.

فإن كان البيان لبيان الحق، والدعوة إلى الحق، وجذب قلوب الناس إلى الحق؛ فهذا ممدوح محمود.

وإن كان لبيان الباطل وقَلْب الحق باطلًا، والتلبيس على الناس، كما يفعله بعض الناس اليوم، يستخدم قدرته في البلاغة في التأثير على الناس في صَرْفِهم عن الحق؛ فهذا مذموم.

إذن؛ لا يُمدَح الإنسان بالبلاغة حتى يُرى إلى ما يدعو، فإن كان يدعو إلى الحق والهدى والسنة؛ فهذا محمود، مأجور، يُثنى عليه وعلى ما يَدعو إليه. وإن كان يَدعو إلى الباطل ويُزخرف الباطل بلسانه وبيانه؛ فهذا مذموم، وبيانُه شُؤم عليه وعلى الناس. عياذًا بالله من سوء الحال. فالعبرة بالبيان بما يكون فيه من حق أو باطل.

ووجه الدلالة: أنّ النبي صلى الله عليه وسلم بيَّن أنّ من البيان لسحرًا، فمن أنواع السحر البيان، وهذا السحر قد يكون حلالًا مشروعًا، وقد يكون حرامًا ممنوعًا. فإن كان لزخرفة الباطل –والعياذ بالله– أو لإبعاد الناس عن الحق بزخرفة الكلام والاستدلالات العامّة بعيدًا عن الدليل الخاصّ؛ فهذا حرام. وإن كان لبيان الحق؛ فهذا محمود مشروع.

وقد ذُكِرَ أنّ شابًّا خَطَبَ عند عمر بن عبد العزيز، وكان شابًّا بالنسبة للقوم الذين معه، فقال له عمر بن عبد العزيز: السِّن السِّن، يعني: قدِّم مَن هو أَسَنُّ منك، فقال: يا أمير المؤمنين! لو كان الأمر بالسِّن لكان في الأمّة مَن هو أولى منك بالخلافة"، وأراد بهذا أن يقول: إنّ الأمر بالصلاحية، وأني أَصلَح قومي بالخطابة، ولم يُرِدْ أن يقول ذلك أمام قومه، فخطب وكان مما خطب أنه قال: "إنّا قومٌ ما جاءت بنا إليك رغبة، ولا منك رهبة. فأمّا الرغبة فقد عَمّ الخير، وأمّا الرهبة فقد أَمِنّاها بعَدلك. قال له: إذن مَن أنتم؟– ما جئتم لرغبة، ولا جئتم لرهبة؛ فمن أنتم؟– فقال: إنّا قومُ شُكر، أتينا لنشكرك، والسلام عليك يا أمير المؤمنين، فقال: إنّ هذا السحر الحلال". فهذا شاب بليغ أَوجَز العبارة في لُطْف عظيم، وحقَّق ما يريد، فهذا سحر حلال.

[فِيهِ مَسَائِلُ: الْأُولَى: أَنَّ الْعِيَافَةَ وَالطَّرْقَ وَالطِّيَرَةَ مِنَ الْجِبْتِ]

وتقدّم أنّ المقصود (من الجبت): أي من السحر؛ لأنّ جَمْعًا من السلف قد فسَّروا الجبت بأنه السحر، وهذا المناسب للباب؛ لأنّ الشيخ هنا يتكلم عن شيء من أنواع السحر.

[الثَّانِيَةُ: تَفْسِيرُ الْعِيَافَةِ وَالطَّرْقِ]

وقد تقدم.

[الثَّالِثَةُ: أَنَّ عِلْمَ النُّجُومِ من أنواع مِنَ السِّحْرِ]

لحديث ابن عباس.

[الرَّابِعَةُ: الْعَقْدُ مَعَ النَّفْثِ مِنْ ذَلِكَ]

كما في حديث النسائي.

[الْخَامِسَةُ: أَنَّ النَّمِيمَةَ مِنْ ذَلِكَ]

نعم

[السَّادِسَةُ: أَنَّ مِنْ ذَلِكَ بَعْضُ الْفَصَاحَةِ]

(بعض الفصاحة) ليست كل الفصاحة، فمن السحر المذموم بعض الفصاحة.

تابع الدرس الثالث والثلاثون: شرح بَابُ مَا جَاءَ فِي الْكُهَّانِ وَنَحْوِهِمْ

[بَابُ مَا جَاءَ فِي الْكُهَّانِ وَنَحْوِهِمْ]

لمّا تقدَّم الكلام عن السحر والسحرة، وكان من الناس مَن يشارك السحرة في ادِّعاء علم الغيب والمستقبل بغير أسباب حسيَّة معلومة، وتتعلَّق قلوب بعض الناس بهم فيذهبون إليهم، وقد يَطلبون منهم ما يَطلبون من السحرة، من حَلّ السحر ونحوه، ناسَب أن يَذكُر الشيخ هنا هؤلاء؛ وهم: الكهّان والعرّافون.

ومن جهة أخرى: أنه لمّا كان كثير من الناس يذهبون إلى السحرة والكهان والعرافين لحَلّ السحر؛ ناسَبَ أن يتكلم الشيخ هنا عن الكهان والعرافين قبل أن يتكلم عن النُّشرة؛ التي هي: حَلّ السحر، وأن يتكلم عن حُكم الذهاب إليهم.

فكان هذا مناسبًا للباب السابق: من جهة أنّ الكهنة والعرافين يُشبهون للسحرة. وكان مناسبًا للباب اللاحق: من جهة أنّ كثيرًا من الناس إذا اعتقدوا أنّ فيهم سحرًا ذهبوا إلى السحرة والكهان والعرافين لمعرفة مَن سحرهم، ولحَلّ السحر عنهم؛ فناسَب أن يَذكر الشيخ الكلام عن الكهان والعرافين، وعن حُكم الذهاب إليهم في هذا الباب.

[رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ بَعْضِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «مَنْ أَتَى عَرَّافًا، فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ، فَصَدَّقَهُ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا»]

الحديث بهذا اللفظ بتمامه ليس في مسلم، وإنما الذي عند مسلم وعند كثير من المحدِّثين: «مَن أتى عرافًا فسأله عن شيء؛ لم تُقبل له صلاة أربعين ليلة»، فليس في رواية مسلم: فصدَّقه، بل ولا في رواية أكثر المحدِّثين، وإنما جاء هذا في رواية الإمام أحمد بلفظ: «مَن أتى عرافًا؛ فصدّقه؛ لم تُقبل له صلاة أربعين يومًا» وإسناد أحمد صحيح.

إذن؛ رواية مسلم، وأكثر المحدثين ليس فيها (فصدّقه)، ورواية الإمام أحمد فيها (فصدقه) والإسناد صحيح، لكن ما حكم هذه الزيادة؟ هل هي من زيادة الثقة المقبولة؟ أو هي شاذة –من باب مخالفة الثقة للثقات–؟ لأنّ أكثر الثقات قد رَوَوا الحديث بدون جملة (فصدَّقه)، وزاد أحد الثقات هذه الجملة: (فصدَّقه)، فهل هذه من باب زيادة الثقة –وزيادة الثقة مقبولة–؟ أو من باب مخالفة الثقة للثقات– ومخالفة الثقة للثقات شاذة ضعيفة لا تُقبل–؟

هذا محلّ نظر وتَرَدُّد، فهي محتمِلة لأن تكون من باب مخالفة الثقة للثقات؛ وذلك لأنها تقتضي قيدًا لا يوجد في الرواية المطلَقة، ولأنّ التصديق جاءت عليه عقوبة أخرى مغلَّظة.

ويُحتمَل أن تكون من باب زيادة الثقة، ويكون لها وجه؛ سنذكره إن شاء الله عند الحديث عن أحوال الذهاب إلى السحرة والكهان والعرافين.

قال: «مَنْ أَتَى عَرَّافًا»، العرّاف: هو الذي يدّعي معرفة أماكن الغائبات بمقدِّمات لا توصِل إلى ذلك في العادة. مثلًا: يَغيب الرجل عن البيت، يُفقَد، فيذهب بعض الناس إلى العراف فيقول: والدكم عند القوم الفلانيين، والدكم ذهب إلى مدينة كذا، فيدَّعي أنه يعرف مكان الغائب؛ بماذا؟ بمقدمات يزعمها لا توصِل إلى ذلك في العادة، وإنما ذلك –والعياذ بالله– باستعانته بالشياطين.

وقولنا "بمقدمات لا توصل إلى ذلك في العادة"؛ لإخراج من يعرف أماكن الغائبات بمقدِّمات تدل على ذلك بالعادة؛ كالقافة، القائف: الذي يقتفي الأثر ليوصِلك إلى مكان الغائب؛ فهذا يَستدل بمقدِّمات توصِل إلى ذلك في العادة، فالقائف قد يمشي خلف البعير مثلًا ويقول لك مثلًا: قد وقف البعير هنا؛ لأنه يعرف آثار البعير، وقد يوصلك إلى مكانه، فهذا ليس عرافًا؛ لأنه يَصل إلى أماكن الغائبات بمقدِّمات توصِل إلى ذلك في العادة، وهي مقدِّمات معلومة. وإنما العراف الذي يدّعي معرفة أماكن الغائبات بمقدِّمات لا تُعلَم، فهي لا توصِل إلى ذلك في العادة، فهو عرّاف.

قال: «فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ»، والعرّاف إنما يُسأل عن أماكن الغائبات، «فَصَدَّقَهُ» هذه رواية الإمام أحمد، أمّا رواية مسلم وأكثر المحدِّثين ليس فيها «فصدقه»، «لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا» أو (لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا» أي: أنه لا يُثاب عليها، وأمّا هي فهي مطلوبة منه، وتَصحّ منه إن أتى بها صحيحة، وتَبرأ

ذمّته منها؛ غير أنه لا يَكتسب بها ثوابًا لمدة أربعين يومًا. إذا أذّن الظهر وَجَبَ عليه أن يصلي الظهر، ما يقول: لا، أنا عندي إجازة أربعين يومًا! يجب أن يصلي الظهر، طيّب صلاها وأتى بشروطها وواجباتها وأركانها فهي صحيحة، هل يجب عليه بعد الأربعين يومًا أن يَقضي هذه الصلوات؟ الجواب: لا، ذمته تبرأ، لكن لا ثواب، والعياذ بالله.

وإذا كان هذا فيمَن أتى العرّاف فسأله، فما بلك بالعراف نفسه؟! وسيأتي –إن شاء الله– أنّ الذين يذهبون إلى العرّافين ليسوا على سواء في الحكم، وإن كان الذهاب إليه حرام على كل حال؛ إلا في حالة واحدة وهي: لإحقاق الحق وإظهار باطلهم، وما عد هذا فالذهاب إلى السحرة والعرافين والكهنة حرام، ولكنه درجات فبعضها أشد حرمة من بعض كما سنبيّنه إن شاء الله عزو جل.

الدرس الرابع والثلاثون: تابع شرح بَابُ مَا جَاءَ فِي الْكُهَّانِ وَنَحْوِهِمْ

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَن يهدي الله فلا مضلَّ له، ومَن يُضلل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده ل اشريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء: ١]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: ٧١]

أمّا بعد:

فإنّ أحسن الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكلّ محدَثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النار.

ثم يا معاشر الفضلاء؛ أبشروا وأمِّلوا الخير العظيم من ربكم سبحانه وتعالى، فأنتم تجتمعون في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتَذكرون الله، حيث يَغفَل كثيرٌ من الخَلق عن ذِكْر الله عز وجل، والعبد إذا ذَكَرَ الله عز وجل في وقت الغفلة عَظُمَ ثوابه وعَظُمَ عمله، ولذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: «العبادة في الهَرْجِ كالهجرة إليّ»؛ لأنّ العبادة في وقت الفتن يَغفَل عنها كثيرٌ من الناس. وفي الحديث قال النبي صلى الله عليه وسلم: «وصلُّوا بالليل والناس نيام»، وهذا لأنّ الصلاة في آخر الليل حيث ينام كثيرٌ من الناس يَعظُم أجرها؛ لأنها تقع في وقت غفلة. وأنتم بحمد الله تجتمعون في بيت من بيوت الله، تتلون كتاب الله، وتَعلَمون سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، تتدارسون في أعظم الحقوق وأجلاها وأَولاها؛ في حق ربنا سبحانه وتعالى، قال صلى الله عليه وسلم: «ما اجتمع قومٌ في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم؛ إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفَّتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده»، وأنتم أتيتم إلى مسجد من المساجد تتعلَّمون الخير، «ومَن غدا إلى المسجد لا يريد إلا ان يتعلَّم خيرًا او يُعلِّمه كان له أجر حاجٍّ تامًّا حجته»، وأنتم بحمد الله اجتمعتم في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم على الخير والهدى، والنبي صلى الله عليه وسلم قال: «مَن جاء مسجدنا هذا، لم يأته إلا ليتعلَّم خيرًا أو يعلِّمه؛ كان كالمجاهد في سبيل الله». فأسأل الله عز وجل بأسمائه

الحسنى وصفاته العلى أن يفقِّهنا في دينه، وأن يكتب لنا هذه الفضائل، وفوقها مما لا نَعلم، وأن يزيدنا من فضله سبحانه وتعالى.

درسنا أيها الإخوة؛ لا زال كعهدكم به في شرح كتاب التوحيد لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله عز وجل. ولا زلنا نشرح في باب ما جاء في الكهان ونحوهم.

وقد نقدَّم أنّا ذكرنا أنّ الشيخ ذكر هذا في كتاب التوحيد وفي هذا الموطن على وجه الخصوص لوجهين:

الوجه الأوّل: أنه لمّا تقدَّم الكلام عن السحرة والسحر، وكان من الناس مَن يُشبِهِ السحرة في ادِّعاء علم الغيب، والإخبار بأمور المستقبل، والاستعانة بالشياطين، وتتعلَّق بهم قلوب الناس، وهم الكهان والعرافون؛ ناسَب أن يَذكر الشيخ هذا الباب بعد ان تكلَّ معن السحرة والسحر.

الوجه الثاني: أنه لمّا كان بعض الناس إذا أصيب لهم مبتلى بالسحر ذهب إلى الكهان والعرافين من أجل حَلّ السحر عنه، ومن أجل كشف هذا البلاء، ناسَب أن يذكر الشيخ رحم هالله ما جاء في الكهان ونحوهم من العرافين والمنجِّمين، بعد أن تكلَّم عن السحر والسحرة، وناسَب أن يبيِّن حُكم الذهاب إليهم. وبهذا تَعرِف لماذا أَدخل شيخ الإسلام –رحمه الله– هذا الباب بين الباب المتعلِّق بما جاء في السحر، والباب المتعلِّق بما جاء في النشرة –والنشرة هي حَلّ

السحر– ؟ فلماذا أدخل الشيخ بين البابين هذا الباب: باب ما جاء في الكهان ونحوهم؟ الجواب: أنه لمّا كان بعض الناس يذهبون لحَلّ السحر إلى السحرة أو الكهان أو العرافين، ناسَب أن يَتكلَّم الشيخ عن الذهاب إلى الكهان والعرافين قبل أن يَتكلَّم عن النشرة.

وقد تقدَّم الكلام عن الحديث الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم: «مَنْ أَتَى عَرَّافًا، فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا» وهذه هي رواية الإمام مسلم وكثير من المحدثين الذين روَوا هذا الحديث، وفي رواية أخرى: «مَن أتى عرافًا فصدَّقه لم تُقبَل له صلاة أربعين يومًا»، وهذه رواية الإمامة أحمد وإسنادها صحيح. غير أنّ الشأن في جملة: (فصدَّقه) هل هي من زيادة الثقة فتكون مقبولة؟ أو هي من رواية مخالفة الثقة للثقات، فتكون ضعيفة مردودة؟ والأمر مُحتمِل للأمرين، وسيأتي –إن شاء الله– حَمْلُ الكلام في هذا الحديث على وجهٍ صحيح؛ على تصحيح رواية: (فصدَّقه)، وأنها من باب رواية زيادة الثقة.

فيتفضل الشيخ ياسين يقرأ لنا من حيث وقفنا.

[وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ– عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «مَنْ أَتَى كَاهِنًا، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ؛ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم)، رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ]

هذا الحديث عند أبي داود بلفظ: «مَن أتى كاهنًا فصدَّقه بما يقول؛ فقد بَرِئ مما أُنزِل على محمد»، وصححه الألباني. وعند ابن ماجه: «مَن أتى كاهنًا فصدَّقه بما يقول؛ فقد كفر بما أُنزِل على محمد»، وبهذا تعرف أنّ اللفظ المذكور في المتاب هو الموافق لرواية ابن ماجه، رحمه الله عز وجل، ورواه أيضًا بهذا اللفظ الخلال "في السنة"، وهو أيضًا عند الترمذي والنسائي بلفظ: «مَن أتى كاهنًا فقد كفر بما أُنزِل على محمد صلى الله عليه وسلم»، فهو عند الترمذي والنسائي بغير جملة: (فصدَّقه). والحديث صحيح، صحَّحه الألباني وغيره من أهل العم.

قال: «مَنْ أَتَى كَاهِنًا»، وفي الحديث السابق: «مَن أتى عرّافًا» وفسَّرنا العراف: هو الذي يدَّعي معرفة أماكن المغيبات بمقدِّمات لا تدلُّ ولا توصِل على ذلك في العادة، وأمّا الكاهن: فهو الذي يدَّعي معرفة الغيب، معرفة أمرو المستقبل، بغير أسباب حسية توصِل إلى ذلك في العادة.

إذن؛ ما الفرق بين العرّاف والكاهن؟

العرّاف: يدّعي أنه يعرف أماكن الأشياء الغائبة. أمّا الكاهن: فيدّعي أنه يَعرف الأشياء التي تقع في المستقبل، فلان سيتزوج فلانه، فلان سيولَد له مولود، فلان لن يولَد له، فلان سيعيش عمرًا طويلًا، فلان سيموت في عمر صغير ونحو ذلك.

وبعض أهل العلم يرَون أنّ العرّاف والكاهن بمعنىً واحد. ولا شك أنهما يتَّفقان في ادّعاء علم الغيب.

قال: «فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ» أتاه فصدّقه بما يقول من علم المغيَّبات وما يقع في المستقبل، «فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم» سنتكلم عن هذه الجملة بعد فراغ الكلام على الحديث الذي يليه وأثر ابن مسعود.

[وَلِلْأَرْبَعَةِ وَالْحَاكِمِ –وَقَالَ: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِهِمَا–: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: «مَنْ أَتَى عَرَّافًا، أَوْ كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ؛ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم»]

قوله: (وَلِلْأَرْبَعَةِ: هنا اختلفت نسخ الكتاب، ففي بعض نسخ الكتاب: (والأربعة)، يعني أنه رواه أبو داود والأربعة، وهو كذلك؛ فإنّ الحديث رواه الأربعة على اختلاف في بعض الألفاظ، رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه، لكن يُشكِل على ذلك أنّ أبا داود من الأربعة، فكيف يقول: رواه أبو داود والأربعة؟ ويمكن أن يُجاب عن هذا الإشكال بأحد وجهين:

الوجه الأوّل: أنّ المراد: بقية الأربعة. يعني يكون مراده بقول (والأربعة): بقية الأربعة.

الوجه الثاني: أن يكون المراد: رواه أبوداود والأربعة الباقون من الخمسة؛ لأنه إذا قيل: رواه الخمسة؛ فهم أصحاب السنن الأربعة مع الإمام أحمد. وهذا

الحديث رواه الإمام أحمد، فيكون المعنى: رواه أبو داود والأربعة الباقون من الخمسة.

وفي بعض النسخ: (وَلِلْأَرْبَعَةِ) ولكن هذا عليه إشكال أكبر من الذي قبله؛ لأنّ هذا اللفظ الثاني الذي ذكره الشيخ هنا لم يَرْوِه أحدٌ من الأربعة، فكيف يقول الشيخ: (وللأربعة)؟! لكن قال بعض الشرَّاح: لعله تَبِعَ في نسبة هذا اللفظ إلى الأربعة الحافظَ ابن حجر في فتح الباري، حيث نَسَبَ هذا اللفظ التالي لأصحاب السنن الأربعة والحاكم، أو تَبِعَ الحافظ المنذري في الترغيب والترهيب؛ فإنه نَسَبَ هذا اللفظ التالي لأصحاب السنن الأربعة. فالأمر محتمِل أن يكون: (والأربعة) وله وجهٌ صحيح، أو (وللأربعة) ولا يكون صحيحًا ولكنه تَبِعَ في هذا الوهم الحافظَين: الحافظ بن حجر، والحافظ المنذري.

قال: (وَالْحَاكِمِ –وَقَالَ: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِهِمَا–) نعم هذا الحديث رواه الحاكم وقال: صحيح على شرطهما، ووافقه الذهبي.

قال: (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ) في بعض نسخ كتاب التوحيد بعد كلمة (عن) بياض، وفي بعض النسخ: عن ابن عباس، وهذا غلط. وفي بعض النسخ: (عنه) أي: عن أبي هريرة، وهذا الصواب. ومَن يقرأ هكذا فيقول: (عنه: مَن أتى) يظن أنّ الشيخ يريد أنّ هذا من كلام أبي هريرة رضي الله عنه، لكنّ الصواب أنه يريد أنه مرفوع، فهو يريد أن يقول رواية أخرى لحديث أبي هريرة عن النبي صلى الله

عليه وسلم أنه قال: «مَن أتى عرّافًا أو كاهنًا» فزاد في هذه الرواية: (عرّافًا)، ولهذا ذكر الشيخ هذه الرواية. «مَنْ أَتَى عَرَّافًا، أَوْ كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ»، وقلنا إنّ هذا الحديث بهذا اللفظ صحَّحه الحاكم، ووافقه الذهبي، وصحَّحه ابن باز، وحسّنه الأرناؤوط، وقوَّاه الحافظ بن حجر في الفتح. فالحديث بهذا اللفظ أيضًا ثابت. «مَنْ أَتَى عَرَّافًا، أَوْ كَاهِنًا» و (أو) هنا للتنويع، فمن أتى عرّافًا فصدَّقه بما يقول فقد كفر بما أُنزل على محمد ، ومَن أتى كاهنًا فصدَّقه بما يقول فقد كفر بما أُنزل على محمد صلى الله عليه وسلم.

ما وجه أنّ مَن أتى عرّافًا أو كاهنًا فصدَّقه بما يقول يَكفُر بما أُنزل على محمد؟ أو بعبارة أخرى: ما الرابط بين الذهاب إلى الكاهن أو العرّاف وتصديقه بما يقول والكفر بما أُنزِل على محمد صلى الله عليه وسلم؟

وجه ذلك: أنّ العرّاف والكاهن يدَّعيان علم الغيب، والقرآن الذي أُنزل على محمد صلى الله عليه وسلم يَنفي أن يَعلَم أحدٌ الغيب إلا بوحي من الله، قال الله عز وجل:﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ﴾ (آل عمران: ١٧٩) ، فالله بيَّن لنا بيانًا لا لَبْسَ فيه أنّ الله ما كان ليُطلِع خَلقه على الغيب؛ إلا أن يَجتبي رسولًا فيوحي إليه ما يشاء سبحان هوتعالى. وقال تعالى: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ (يونس: ٢٠)، فهذا حصر في أنّ الغيب إنما

هو لله عز وجل. فمّن صدَّق القرآن كذَّب العرّافين والكهان ولا بد، ومَن صدَّق العرّافين والكهان كذَّب القرآن ولا بد.

إنّ صدّقتَ القرآن فإنك ستكون مطمئن القلب أنه لا يوجَد أحدٌ من المخلوقات يَعلَم الغيب إلا بوحيٍ من الله لرسله في أمور أراد الله أن يُطلِع عليها خَلقه، كما في أشراط الساعة التي أخبرنا عنها النبي صلى اله عليه وسلم، فأنتَ مطمئن القلب؛ فحيث ما جاءك مخلوق، أيًّا كان ما تَسمَّى به؛ تسمى بالكاهن، أو بالعرّاف، أو بالشيخ، أو بالولي، أو بالسيد أيًّا ما تسمى به، إذا جاءك وادَّعى أنه يَعلم ما في غَدٍ عَلِمتَ يقينًا أنه كذَّاب؛ لأنك على يقين من خبر الله سبحانه وتعالى، ومَن صدَّق المخلوق في عِلمه الغيب فقد كذَّب القرآن.

إذن؛ مَن أتى عرافًا أو كاهنًا فصدَّقه بما يقول، والكاهن والعرّاف إنما يخبران عن الغيب، فقد كفر بما أُنزل على محمد؛ لأنه صدَّق ما يَنفيه القرآن، فيكون ذلك تكذيبًا بما أُنزل على محمد صلى الله عليه وسلم، ولذلك في رواية أبي داود: «فقد بَرِئ مما أُنزل على محمد صلى الله عليه وسلم».

[وَلِأَبِي يَعَلَى بِسَنَدٍ جَيِّدٍ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه مِثْلُهُ مَوْقُوفًا]

روى مَعمَر وأبو داود الطيالسي: (عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قال: «مَن أتى كاهنًا فسأله وصدّقه بما يقول فقد كفر بما أُنزل على محمد صلى الله

عليه وسلم»، وروى ابن الجعد عن ابن مسعود –رضي الله عنه– أنه قال: «مَن أتى عرّافًا أو كاهنًا فصدّقه بما يقول؛ فقد كفر بما أُنزل على محمد».

إذن؛ الرواية الأولى: «مَن أتى كاهنًا»، الرواية الثانية: «مَن أتى عرّافًا أو كاهنًا».

وروى ابن الجَعد وابن أبي شيبة والبزَّار أبو يعلى عن ابن مسعود –رضي الله عنه– قال: «مَن أتى عرّافًا، أو ساحرًا، أو كاهنًا؛ فصدّقه بما يقول؛ فقد كفر بما أُنزل على محمد»، قال الحافظ ابن حجر –رحمه الله–: "إسناده جيِّد، ومثله لا يقال بالرأي"، أي: أنّ له حُكم الرفع.

فالرواية الثالثة فيها: «من أتى عرافًا، أو ساحرًا، أو كاهنًا». وهذا الأثر صحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه وله حكم الرفع إلى النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنّ مثله لا يقال بالرأي.

فهذه الأحاديث مبيِّنة لحكم الذهاب إلى الكهان والعرافين والسحرة.

ولا شك أيها الفضلاء أنّ الذهاب إلى الكهان أو العرافين أو السحرة حسًّا: بالذهاب إلى أماكنهم، أو معنىً: بالاتصال بهم بالهاتف، أو مشاهدة قنواتهم الفاسدة المُفسِدة؛ حرام مطلقًا، إلا لرَدِّ باطلهم. لا يجوز لمسلم يشهد أن لا إله إلا الله، وأنّ محمدًا رسول الله أن يذهب إلى كاهن، أو يذهب إلى عرّاف، أو

يذهب إلى ساحر لأيِّ سبب من الأسباب؛ إلا إذا كان ذهابه لرَدِّ باطلهم، وبيان الحق، والإنكار عليهم.

قال معاوية ابن الحكم للنبي صلى الله عليه وسلم: (إنّ منّا رجالًا يأتون الكهان، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تأتهم» رواه مسلم، «لا تأتهم» وهذا نهي مطلَق، يبقى على إطلاقه، لا يجوز لمسلم أن يذهب إلى الكهان مطلقًا.

وسأل أناس رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الكهان، فقال: «ليسوا بشيء» متفق عليه. وهذا يدل على أنه لا قيمة لهم ولا عِلْمَ عندهم مطلقًا، النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ليسوا بشيء»، و(شيء) هذه نكرة، تقال للتقليل أصلًا، وقد ذُكرَت في سياق النفي فتَعُمّ. «ليسوا بشيء» فلماذا يذهب إليهم؟ لا عذر عند الإنسان في ذهابه إلى الكهان أو العرافين أو السحرة، فإنهم ليسوا بشيء.

ثم إنّ الذهاب إلى العرافين أو الكهان أو السحرة على درجات وأحوال:

الدرجة الأولى: أن يذهب إليهم ويسألهم ويصدِّقهم؛ مع اعتقاده أنهم يَعلَمون الغيب، يعتقد أنهم يَعلَمون الغيب لأيّ سبب من الأسباب. بعض الناس يقولون: هؤلاء ساداتنا الصالحون، مكشوف عنهم الحجاب! هذا يعتقد أنهم يعلمون الغيب، فكذَّب القرآن.

أو مع علمهم أنهم يَستعينون بالشياطين أو يتقرَّبون إليهم؛ فهذا كفر أكبر مُخرِج من الملة؛ لأنه مكذِّب للقرآن، بتصديقه للكهان هو مكذِّب للقرآن؛ ولأنه جاعِلٌ ما لله لغير الله، فهو جَاعِل علم الغيب الذي لله لغير الله سبحانه وتعالى.

وإذا ذهب إليهم وسألهم وصدّقهم بما يقولون؛ مع علمه أنهم يتقرَّبون إلى الشياطين؛ فقد رَضِيَ بتقربهم، وتَسبَّب في تقرِّبهم؛ فيكون بذلك مشركًا بالله، والعياذ بالله.

ويدلّ لهذه الدرجة: الحديث الذي معنا: «فقد كفر بما أُنزِل على محمد صلى الله عليه وسلم».

الدرجة الثانية: أن يذهب إليهم ويسألهم ويصدّقهم؛ مع اعتقاده أنهم لا يَعلَمون الغيب، وأنه لا يَعلم الغيب إلا الله، ومع عدم علمه أنهم يتقرَّبون إلى الشياطين، وإنما يَعتقد أنه يَعلَمون ما يقولون بطريق الإلهام مثلًا، أو بطريق العِلْم فيقول: هؤلاء عندهم من العلم ما ليس عندنا، أو نحو هذا، فهذا كفر أصغر، وهو كفر دون كفر، وقد يدخل في عقوبة أنه لا تُقبَل له صلاة أربعين يومًا؛ على رواية الإمام أحمد: «فصدّقه بما يقول لم تُقبَل له صلاة أربعين يومًا».

ونازَع بعض أهل العلم في هذا؛ وقالوا: بل إن صدَّقهم فهو كافر كفرًا أكبر، وقالوا: العبرة بتصديقه.

وتوقف بعض أهل العلم.

والأقرب –والله أعلم– هو ما ذكرناه: أنه من الكفر الأصغر؛ لأنه لا يوجَد فيه ما يوجِب الكفر الأكبر، فهو لا يَعتقد أنهم يَعلَمون الغيب، ولا يَعلمُ أنهم يتقرَّبون إلى الشياطين.

الدرجة الثالثة: أن يذهب إليهم لا ليسألهم ولا ليصدّقهم ولا يكون غرضه إظهار باطلهم؛ وإنما كما يقال: يريد أن يطّلع، أو يريد أن يضحك، وغير ذلك؛ فهذا حرام، وهو متوعَّد بأن لا يَقبل الله له صلاة أربعين ليلة. فهذا الذي يفتح قناة السحرة والدجالين يقال فيها: الشيخ الروحاني، الأستاذ الدكتور أبو عبيدة، عالم الروحانيات، والحاصل على شاهدة الروحانيات من بريطانية، "حشفًا وسوء كَيْلة"، ويُشغِّلون في قنواتهم القرآن، ويَكذِبون على الناس، ويُرتِّبون مع بعض الناس يتصلون عليهم ويُظهِرون أنهم لمّا الشيخ تَمتم أنه بدأ الشيطان يتكلم ونحو ذلك، الذي يفتح هذه القنوات للاطلاع ليس للعلم للرَّد عليهم وبيان حالهم، وإنما للاطلاع أو يريد يرى؛ هذا حرام لا يجوز، بل الذي يفعل هذا يُعرِّض نفسه ألّا تُقبَل له صلاة أربعين يومًا.

الدرجة الرابعة: أن يذهب إليهم لإظهار باطلهم، وكشف زَيف أقوالهم، أو للإنكار عليهم، ولا تترتَّب على ذهابه مفسَدة أعظم؛ فهذا جائز؛ بل مشروع.

ولذلك لمّا ظهر أمر ابن الصائد، أو بن صياد في المدينة في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، فظنّ بعض الصحابة أنه الدجال الذي حذَّر منه النبي صلى الله

عليه وسلم، وهو دجال ولكنه ليس الأعور الدجال، فذهب النبي صلى الله عليه وسلم إليه، وتخبّأ خلف الشجر رجاء أن يسمع كلامه، فرأته أمه –أم ابن صياد أو ابن صائد–رأت الرسول صلى الله عليه وسلم، فأعْلَمَته، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «قد خبّأتُ لك خبأً فما هو؟» فقال ابن صياد: الدُّخْ. ولم يستطع أن يقول ما خبّأه له النبي صلى الله عليه وسلم كاملًا، فالنبي صلى الله عليه سول خبأً له الدُّخان، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «اخسأ، فلن تعدو قَدْرك»، فهنا النبي صلى الله عليه وسلم قال له: «قد خبأتُ لك خبأً فما هو؟» ليُظهِر حقيقته ويكشف للصحابة زيف كلامه، فهذا مشروع. مَن كان قادرًا على أن يُظهِر باطلهم ويَكشفهم ويُنكِر عليهم فهذا مشروع، ولذلك كان شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله– يأتيه المنجّمون ويناظرهم، ويبيِّن لهم بطلان عِلْمِهم، وبطلان ما يدَّعون. فهذا إذا كان بهذه الحال وهذه الدرجة فهذا جائزٌ وصحيح.

[وَعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَينٍ مَرْفُوعًا: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَطَيَّرَ أَوْ تُطُيِّرَ لَهُ، أَوْ تَكَهَّنَ أَوْ تُكُهِّنَ لَهُ، أَوْ سَحَرَ أَوْ سُحِرَ لَهُ، وَمَنْ أَتَى كَاهِنًا، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ» ، رَوَاهُ الْبَزَّارُ بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ]

هذا الحديث رواه البزّار –كما قال الشيخ–، وقال المنذري والهيثمي "في الزواجر" وابن باز: بإسناد جيد، وقال الألباني: "السند جيِّد لولا عنعنة الحسن،

وهو مدلس، لكن له شاهد"، وذكره الشيخ في السلسلة الصحيحة، وقال: صحيح بمجموع طرقه. فهذا الحديث صحيح.

قال: (عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَينٍ مَرْفُوعًا) يعني إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لَيْسَ مِنَّا» أي: ليس على طريقتنا، ولا على منهاجنا. وهذه لا تَنفي الديانة أصلًا، ولكنها بحسب الأحوال، فقد يكون معنى «ليس منّا»: ليس على دينينا مطلقًا، وقد يكون: ليس على سنتنا ومنهاجنا وإن كان من المسلمين، لكنه واقعٌ في حرام. «ليس منّا مَنْ تَطَيَّرَ» التطير: هو زجر الطير وتحريكه للنظر هل يُقدِم أو يُحجم. «أَوْ تُطُيِّرَ لَهُ» كأن يقول لشخص: أنتَ عندك معرفة بالطيور وأحوالها وذهابها فازْجُرْ لي الطير، فأنا مسافر غدًا، هل أسافر أو لا أسافر؟ فهذا تُطيِّر له. وسنتكلم عن الطِّيرة في باب ما جاء عن التطيُّر ونفصِّل فيها إن شاء الله.

قال: «أَوْ تَكَهَّنَ» أي: تكهَّن هو، «أَوْ تُكُهِّنَ لَهُ» أي: طلب من الكاهن أن يَتكهن له، مثل الذين يذهبون إلى الذين يقرؤون الكف ويقولون: اقرأ لي الكف أريد أن أعرف مستقبلي، أو يذهبون إلى النساء اللاتي يقرأن بالفنجال، أو يضربن على الرمل لمعرفة المستقبل، وهذا للأسف موجود في بعض البلدان المسلمين، حتى أني رأيته في بعض بلدان المسلمين العربية في السوق! هؤلاء الكهان يَجلسون مع الذين يَبيعون السلع، كأنهم يبيعون سلعة، وأغلبهم من النساء.

قال: «أَوْ سَحَرَ » بنفسه، «أَوْ سُحِرَ لَهُ» إمّا بعَقْدِ السحر، يريد أن يسحر شخصًا، أو يسحر امرأة، أو امرأة تريد أن تَسحر رجلًا وهي لا تَعرف السحر، فتذهب إلى الساحر فتقول: اكتب لي حجابًا، أنا أريد أن يعشقني فلان، هذا عَقْدٌ للسحر، أو يريد أن يَضر إنسانًا فيَعْقِد له، أو لِحَلّ السحر بالسحر، فإنّ مَن طلب من الساحر أن يَحُلّ السحر فقد طلب أن يَسحر له، لأنه ما هي صنعة الساحر إلا السحر، فهذا يدلّ دلالة بيِّنة على أنه لا يجوز الذهاب إلى السحرة من أجل حلّ السحر كما سيأتي بيانه بالأدلة المقنِعة إن شاء الله عز وجل.

قال: «وَمَنْ أَتَى كَاهِنًا، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم»، وقد تقدَّم بيان ما يَتعلَّق بهذا.

[وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، دُونَ قَوْلِهِ: (وَمَنْ أَتَى)، إِلَى آخِرِهِ]

يعني أنّ الطبراني رواه عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا: «ليس منّا مَن تطيَّر أو تُطير له، أو تَكهن أو تُكهن له، أو سَحر أو سُحر له»، قال الشيخ: بإسناد حسن، قال الألباني: حسن لغيره. فهذه الرواية في درجة الحسن.

[قَالَ الْبَغَوِيُّ –رحمه الله–: الْعَرَّافُ: الَّذِي يَدَّعِي مَعْرِفَةَ الْأُمُورِ بِمُقَدِّمَاتٍ يَسْتَدِلُّ بِهَا عَلَى الْمَسْرُوقِ وَمَكَانِ الضَّالَّةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ]

البغوي قال: "العرّاف: الذي يدَّعي معرفة الأمور بمقدِّمات أسبابٍ يَستدلُّ بها على مواقعها، كالمسروق مَن الذي سَرَقها؟ ومعرفة مكان الضَّالة، وتُتَّهم المرأة بالزنى، فيقول: مَن صاحبها -أي مَن الذي زنى بها- ونحوي ذلك من الأمور". يعني هو بمعنى الكلام الذي ذكره شيخ الإسلام عنه، لكنّ هذا هو الكلام بلفظه، وأصل هذا الكلام للخطابي، لأبي سليمان الخطابي صاحب معالم السنن، فإنّ الذي يظهر –والله اعلم– أنّ البغوي أخذ هذا الكلام عنه، حيث قال الخطابي في المعالِم: "العرّاف: هو الذي يَزعُم أنه يَعرِف الأمور بمقدِّمات أسبابٍ، يَستدِل بها على مواقِعها، كالشيء يُسرَق فيعرف المَظنون به السَّرقة، وتُتَّهم المرأة بالزنى، فيَعرف مَن صاحبها، ونحو ذلك من الأمور". هو نفس كلام البغوي، وتعلمون أنّ الخطابي متقدِّم جدًّا على البغوي؛ فهذا كلام الخطابي.

والشُّراح يَذكرون أنّ الكلام كلَّه إلى قوله: "وقيل الذي يُخبِر عمَّا في الضمير" كله للبغوي، وليس الأمر كذلك، ويظهر لي –والله أعلم– أنّ شيخ الإسلام إنما أراد المعنى الأوّل:" قال البغوي: العرّاف الذي يدّعي معرفة الأمور بمقدِّمات يُستدَل بها على المسروق– هو في الحقيقة أنا عندي مضبوط هكذا (يُستدَل)، لكنّ الصواب: يَستدِلّ هو– ومكان الضالة ونحو ذلك". إلى هنا ينتهي كلام البغوي؛ لأنّ قوله: "وقِيلَ: هُوَ الْكَاهِنُ. وَالْكَاهِنُ: هُوَ الَّذِي يُخْبِرُ

عَنِ الْمُغَيَّبَاتِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، وَقِيلَ: الَّذِي يُخْبِرُ عَمَّا فِي الضَّمِيرِ" ليس موجودًا عند البغوي، نعم عرَّف الكاهن ولكن ليس بهذا اللفظ، وأمّا "وقيل: هو الكاهن، وقيل هو الذي يخبر عما في الضمير"، هذا ليس من كلام البغوي، ولا يوجد في كلام البغوي ولا يوجد في كلام الخطابي. فيظهر لي –والله أعلم– أنّ الشيخ رحمه الله يريد بكلام البغوي ما ينتهي إلى قوله: "ونحو ذلك".

[قَالَ الْبَغَوِيُّ: الْعَرَّافُ الَّذِي يَدَّعِي مَعْرِفَةَ الْأُمُورِ بِمُقَدِّمَاتٍ يَسْتَدِلُّ بِهَا عَلَى الْمَسْرُوقِ وَمَكَانِ الضَّالَّةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وقيل: هو الكاهن]

يعني يقول شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب: (وقيل: هُوَ الْكَاهِنُ)، قال بعض أهل العلم: العرّاف هو الكاهن، فهما لفظان لمعنىً واحد، وبعضهم قال: الكاهن أَعَمُّ من العرّاف، فالكهانة جِنس، والعرافة نوع من أنواع الكهانة.

[وَالْكَاهِنُ: هُوَ الَّذِي يُخْبِرُ عَنِ الْمُغَيَّبَاتِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ]

قال الخطابي: "هو الذي يدّعي مطالعة علم الغيب، ويُخبِر الناس عن الكوائن"، فهو يدّعي انه يطّلع على الغيب، ويخبر الناس عن الكوائن يعني التي تقع في المستقبل.

[وَقِيلَ: الَّذِي يُخْبِرُ عَمَّا فِي الضَّمِيرِ]

وهذا بحثتُ عنه بحسب جهدي في كتب أهل العلم فلم أجده، لكن لا شك أنّ معناه موجود، ولذلك النبي صلى الله عليه وسلم لمّا أراد أن يَكشف أمر ابن

صائد أو ابن صياد خبأ له شيئًا، وقال: «قد خبئت لك شيئًا»، لأنّ الكهان والعرافين يدَّعون أنهم يَعلمون ما في ضمير الإنسان، وهذا واضح، الآن الكاهن إذا دخل عليه شخص قال له: لا تخبرني، أنتَ أمّك فلانة، وعندك مشكلة كذا وكذا! يدّعي أنه يَعرف ما في نفس الإنسان دون أن يتكلم، وهو يُخبر شيطانُ المريض شيطانَه، يعني الرُّسل تَسبِق، شيطان المريض يَسبق إلى شيطان المشعوذ هذا الكاهن، فيقول: هذا القادم عنده كذا وكذا، وأمّه كذا، وأبوه كذا، وزوجته كذا، فشيطان الكاهن يُخبر الكاهن، فإذا دَخَلَ عليه الرجل قال: يا الله! مكشوف عنه الحجاب، والله عرف اسم أمي بدون أن أخبره، أخبرني بما يقع في غرفة النوم! والله الشيطان أخبره، فهذا معلوم من أحوال الكهنة، فقيل: إنّ الكاهن، وقيل: العراف، هو الذي يخبر عمّا في الضمير.

[وَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ –رحمه الله–: الْعَرَّافُ اسْمٌ لِلْكَاهِنِ، وَالْمُنَجِّمِ وَالرَّمَّالِ، وَنَحْوِهِمْ، مِمَّنْ يَتَكَلَّمُ فِي مَعْرِفَةِ الْأُمُورِ بِهَذِهِ الطُّرُقِ]

يعني بمعنى أنّ الكاهن: كلُّ مَن يدَّعي معرفة المغيَّبات أو الغائبات، سواء بعلم النجوم أو بالخط أو بالكهانة أو بغير ذلك، كلُّها يَصدُق عليها أنها كهانة، لكنّ شيخ الإسلام لم يَجزِم بهذا؛ وإنما قال: "والعرّاف" –هكذا قال، ولم يقل: الكاهن– قال: "والعراف قد قيل إنه اسم عام للكاهن والمنجِّم والرمَّال ونحوهم ممَّن يَتكلم بهذه الطُّرق.

إذن عندنا ملحوظتان:

الملحوظة الأولى: أنّ شيخ الإسلام لم يقلْ: الكاهن، ولكن قال: "العراف قد قيل" بمعنى أنه يُسنِده إلى غيره، أمّا ما ذكره الشيخ قال: "العراف: اسم للكاهن".

الملحوظة الثانية: أنه على جهة التضعيف لا على جهة التقوية.

ثم اسمع تمام الكلام؛ قال رحمه الله: "ولو قيل: إنه في اللغة اسمٌ لبعض هذه الأنواع، فسائرها يَدخل فيه بطريقة العموم المعنويّ"، يعني هذا هو الأقوى عند شيخ الإسلام؛ أن يقال: إنّ العرّاف هو اسم لنوع من هؤلاء، وهو كما قلنا: الذي يدَّعى أماكن الغائبات، "ولكنّ الكاهن والمنجّم والرَّمال يَدخل في العرّاف بطريق العموم المعنوي"، أي: عموم العلة؛ لأنّ العموم نوعان:

النوع الأوّل: العموم اللفظي: هو بعموم الكلام، فأقول: كلُّ المؤمنين يَدخلون الجنة. هذا عموم لفظي؛ أي أنّ كل مؤمن لا بد أن يدخل الجنة، سواء سبق ذلك دخوله النار، أم لم يَسبق.

النوع الثاني: العموم المعنوي: وهو عموم العلة. مثلًا؛ نقول: كل مُسكِر فهو خمر؛ لماذا؟ لعموم العلة؛ وهي: الإسكار، كل ما أسكر من مشروبٍ – وهذا الأصل في الخمر– أو مطعوم، أو مشموم، فهو خمر، هذا عموم بالعلة، ما

هي العلة؟ الإسكار، كل ما وُجِدَ فيه الإسكار فهو خمر بالعموم المعنوي ،لا العموم اللغوي.

فهنا كل هذه الأنواع تَدخل في اسم العرّاف من جهة العموم المعنوي؛ لعموم العلة؛ وهي: ادِّعاؤهم علم الغيب، فكلُّ مَن يدَّعي علم الغيب يَصح أن نسمِّيه عرّافًا، وإن كان ذلك لا يصح لغة، ولكن من باب العموم المعنوي.

[وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ضي الله عنهما فِي قَوْمٍ يَكْتُبُونَ: أَبَا جَادٍ، وَيَنْظُرُونَ فِي النُّجُومِ: مَا أُرَى مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ لَهُ عِنْدَ اللهِ مِنْ خَلَاقٍ]

قال: (وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ضي الله عنهما فِي قَوْمٍ يَكْتُبُونَ: أَبَا جَادٍ، وَيَنْظُرُونَ فِي النُّجُومِ: مَا أُرَى) –ما أَرَى أو: ما أَرَى– (مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ لَهُ عِنْدَ اللهِ مِنْ خَلَاقٍ)، رواه بهذا اللفظ بتمامه البيهقي في "السنن الكبرى" وفي "الآداب". وإسناده صحيح، ظاهر الصِّحة. (قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ضي الله عنهما فِي قَوْمٍ يَكْتُبُونَ: أَبَا جَادٍ) أبجد هوِّز حُطي كلمن، هذه الحروف يكتبها بعض الناس ويُركِّبون منها أخبارًا مستقبلية، فيدَّعون معرفة المستقبل بطريق هذه الكتابة، ويَنظرون في النجوم والكواكب، ويدَّعون معرفة ما يَحدث في المستقبل بهذا. قال: (ما أَرَى أو ما أُرى (مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ لَهُ عِنْدَ اللهِ مِنْ خَلَاقٍ) ومعنى من خلاق: من نصيب في الجنة، أو من دين، يعني لا أرى مَن فعل ذلك له عند الله من دين يُثاب عليه يوم القيامة. والمقصود: مَن ادَّعى علم الغيب، أو مَن صدَّق مَن يدَّعي علم الغيب في

عِلْمِه الغيب؛ فإنه بهذا يَكفُر –كما تقدّم بيانه–. وسيأتي –إن شاء الله الكلام– عن التنجيم.

[فِيهِ مَسَائِلُ: الْأُولَى: أَنَّهُ لَا يَجْتَمِعُ تَصْدِيقُ الْكَاهِنِ مَعَ الْإِيمَانِ بِالْقُرْآنِ]

لأنّ الكاهن يدَّعي علم الغيب، والقرآن يخبرنا ربنا سبحانه وتعالى فيه أنه لا يَعلم الغيب إلا الله، فلا يمكن أن يَجتمع تصديق الكاهن مع تصديق القرآن، فإمّا أن تُكذِّب الكاهن، وإمّا –والعياذ بالله– أن تكذِّب القرآن.

[الثَّانِيَةُ: التَّصْرِيحُ بِأَنَّهُ كُفْرٌ]

لقوله: «فقد كفر بما أُنزِل على محمد».

[الثَّالِثَةُ: ذِكْرُ مَنْ تُكُهِّنَ لَهُ]

يعني: مع مَن تكهَّن، فالحكم ليس خاصًّا بمن تكهَّن، بل حتى مَن تُكهِّن له.

[الرَّابِعَةُ: ذِكْرُ مَنْ تُطَيِّرَ لَهُ]

يعني مَع مَن تَطيَّر.

[الْخَامِسَةُ: ذِكْرُ مَنْ سُحِرَ لَهُ]

يعني مع مَن سَحَرَ، فالأمر عظيم، وقد ذكرنا درجات الذهاب إلى الكهان والعرافين والسحرة.

[السَّادِسَةُ: تَعَلَّمَ أَبَا جَادٍ]

بل في بعض النسخ: (ذِكْرُ مَن تَعلَّم أبا جاد) وهذا أَجوَد؛ لأنه يَتَّسق مع بقية المسائل؛ ذِكْر مَن تعلم أبا جاد مع النظر في النجوم، وقد تقدَّم معنا شيءٌ مما يَتعلَّق فيمن اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر، فهنا ذُكِرَ أبا جاد مع النظر في النجوم؛ فحُكمه حكمه، حكم تَعلُّم أبا جاد والعمل بهذا في ادِّعاء علم الغيب كالنظر في النجوم.

[السَّابِعَةُ: الْفَرْقِ بَيْنَ الْكَاهِنِ وَالْعَرَّافِ]

وجاء في بعض النسخ: ذِكْرُ الفرق بين الكاهن والعراف، وقد عَلِمنا أنّ من أهل العلم مَن يفرِّق بينهما، بأنّ العرّاف: يدّعي معرفة أماكن الغائبات، والكاهن: يدَّعي معرفة أمور المستقبل المغيَّبات. وبعض أهل العلم يقول: العراف هو الكاهن. وبعض أهل العلم يقول: هو نوعٌ من الكاهن. يعني من أهل العلم مَن يفرِّق بينهما، ومن أهل العلم مَن يقول هما سواء.

الدرس الخامس والثلاثون: شرح بَابُ مَا جَاءَ فِي النُّشْرَةِ

إنّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَن يهدي الله فلا مضلَّ له، ومَن يُضلل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده ل اشريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء: ١]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: ٧١]

أمّا بعد:

فإنّ أحسن الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكلّ محدَثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النار.

ثم يا معاشر الفضلاء؛ مرحبًا، ثم مرحبًا، ثم مرحبًا بطلاب العلم، مرحبًا بكم وأسأل الله عز وجل أن يكتب لي ولكم ما نحب وفوق ما نحب.

نواصل شرحنا لكتاب التوحيد الذي هو حق ربنا سبحانه وتعالى على العبيد.

وقد فرغنا من الكلام عما يَتعلَّق بالسحر والكهان ونحوهم. واليوم –إن شاء الله عز وجل– نتكلم عن أمر عظيم، كَثُر فيه الخَلْط عند بعض مَن لم يُحسِن هذا الباب؛ ألا وهو: ما يتعلَّق بحَلّ السحر عن المسحور، في هذا الباب العظيم الذي عَقَدَه الشيخ في هذا الكتاب العظيم. فيتفضل الشيخ ياسين يقرأ لنا.

[بَابُ مَا جَاءَ فِي النُّشْرَةِ]

لمّا تقدَّم الكلام عن السحر وعن حكمه، وأنّ له حقيقة، وأنه قد يَضر بإذن الله الكوني؛ عَقَدَ الشيخ هذا الباب ليبيِّن أنّ السحر الذي يُعقَد يمكن أن يُحَلّ، وليبيِّن ما الذي يجوز من طرق الناس في حَلِّه، وما الذي لا يجوز. فإنّ الناس يَسعون إذا ابتُلي عندهم مبتَلىً بالسحر في حَلّ هذا السحر، ولهم في ذلك طرائق متعددة، فعَقَدَ الشيخ هذا الباب ليبيِّن للأمّة ما الذي يَحِلّ من هذه الطرائق، وما الذي يَحرُم.

النُّشرة: هي حَلُّ السحر عن المسحور، وهي إمّا أنها من النَّشر، والنَّشر: هو فَرْقُ ما طُوِيَ وفَرْدُه، فالسجادة –مثلًا– إذا طُويتْ إذا فَرَدَها الإنسان وفرَّق أطرافها عن بعض نقول: نَشَرَها. والنُّشرة بهذا المعنى كأنها تَنشُر ما طَواهُ الساحر في العُقَدِ وتفرِّقه.

وإمّا أنها مأخوذة من النَّشر والتَّنشِير؛ وهو: الكشف والإزالة والتَّجلِية، فيكون المعنى: أنه بالنُّشرة يُكشَف عن المبتلى بالسحر ما فيه من البلاء، ويزال عنه، ويُجلَّى عنه.

إذن؛ النُّشرة في أصلها: إمّا أنها مأخوذةٌ من النَّشر؛ بمعنى: فَرْق المطوي وفَرْده، وإمّا أنها من التَّنشير بمعنى الكشف والإزالة والتجلية.

[عَنْ جَابِرٍ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم سُئِلَ عَنْ النُّشْرَةِ؟، فَقَالَ: «هِيَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ» ، رَوَاهُ أَحْمَدُ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ، وَأَبُو دَاوُدَ]

هذا الحديث حديث جابر رضي الله عنه رواه الإمام أحمد، وأبو داود، وعبد الرزاق، قال ابن مُفلِح: بسند جيِّد، ووافقه على ذلك ابن باز، وصحَّحه النووي والألباني، وحسَّنه ابن حجر، وتَعقَّب الشيخ الألباني ابن حجر في تحسينه فقط وبيَّن أنّ الحديث صحيح.

(عَنْ جَابِرٍ: –رضي الله عنه– أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم سُئِلَ عَنْ النُّشْرَةِ؟) ومعنى ذلك: أنّ النُّشرة –التي هي حَلّ السحر عن المسحور– كانت معروفة في زمان النبي صلى الله عليه وسلم، فسُئل النبي صلى الله عليه وسلم عن النشرة، و(الـ)هنا في (النشرة): إمّا أنها للعهد، أيْ سُئل عن النشرة المعهودة عند أهل الجاهلية، وهي التي يُذهَب فيها إلى السحرة والكهان والعرافين، فالمعهود

عند أهل الجاهلية أنهم يَحُلُّون السحر عن المسحور بالذهاب إلى السحرة والكهان والعرافين.

ويُحتمَل أن تكون (الـ) هنا للجنس، أيْ: عن جنس النشرة، أي: عن حَلّ السحر عن المسحور. فَقَالَ النبي صلى الله عليه وسلم: «هِيَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ» أي أنها لا يُتوصَّل إليها إلا بالتقرُّب إلى الشياطين، فلا يكاد يَعرفها إلا ساحرٌ متقرِّب إلى الشياطين، أو كاهن متقرِّب إلى الشياطين، أو عرّاف متقرِّب إلى الشياطين. فهنا إذا كانت (الـ) للعهد؛ فالأمر واضح، فالنبي صلى الله عليه سئل عن الذهاب إلى السحرة والكهان والعرافين لحَلّ السحر، فقال: «هِيَ من عَمَلِ الشَّيطان» أي: لا يتوصَّلون إلى هذا الحَلّ إلا بالتقرُّب إلى الشياطين.

لكن إذا قلنا: إنّ (الـ) للجنس؛ يكون المعنى إذن: أنّ الأصل في النشرة أنها محرَّمة، وأنها من عَمَلِ الشياطين، إلا ما دلَّ الدليل على جوازه، أو أُجْمِع على جوازه.

فإذا جاءنا شخص يسألنا على النشرة، نقول له: الأصل أنها من عمل الشيطان؛ إلا إذا كان المعمول به في النشرة دلّ الدليل على جوازه –كما سيأتي عن شاء الله–، أو أَجْمَع العلماء على جوازه، فإنه يَخرُج عن هذا الأصل.

[وَقَالَ: سُئِلَ أَحْمَدُ عَنْهَا؟، فَقَالَ: ابْنُ مَسْعُودٍ يَكْرَهُ هَذَا كُلَّهُ]

ظاهر هذا في قول الشيخ- رحمه الله-: (وقال) أنّ هذا يعود إلى أبي داود؛ وقال أبو داود. ومعلوم أنّ أبا داود له سؤلات للإمام أحمد، وهذا كتاب مطبوع، وقد رجعتُ إلى سؤلات أبي داود لأحمد فلم أجد فيها هذا الكلام، وراجعت مسائل الإمام أحمد برواية ابنه عبد الله، وبرواية الكوسج، وغيرها، فلم أعثر على هذا الكلام، لكنّ هذا الكلام نَقَلَه بعض أهل العلم عن الإمام أحمد كابن مفلح، فإنه قال عن بعض تلاميذ الإمام أحمد –وهو جعفر- أنه سئل الإمام أحمد عن النشرة، فقال: "ابن مسعود يَكره هذا كلّه". وكراهية ابن مسعود رضي الله عنه للنشرة ثابتة، فقد روى ابن أبي شيبة بإسناد صحيح عن إبراهيم النخعي صاحب ابن مسعود –رضي الله عنه- قال: "كانوا يكرهون التمائم والرقى والنُّشَر"، (كانوا) يعني ابن مسعود وأصحابه، كانوا يكرهون التمائم والرقى والنُّشؤ، والنُّشر: يعني النُّشرة، فهي جمعٌ للنُشْرة. فكراهية ابن مسعود للنشرة ثابتة.

قال: (سُئِلَ أَحْمَدُ عَنْهَا؟) يعني عن النُّشرة (فَقَالَ: ابْنُ مَسْعُودٍ يَكْرَهُ) والكراهية عند السلف الأصل فيها أنها للتحريم، فالسلف إذا قالوا: أَكره أو يُكره، فإنما يَعنون بذلك الحُرمة، ليس كما اصطلح عليه المتأخِّرون: أنّ المَكروه ما نُهي عنه نهيًا غيرَ جازم، وإنما المكروه عند المتقدِّمين أنه المحرَّم،

وقد يراد به المكروه كراهة تنزيه، لكنّ الأصل أنه المحرَّم، أي أنهم كانوا يحرِّمون النُّشرة، كان ابن مسعود كان يحرِّمها مطلقًا.

هل قوله: يَكره هذا كله) عائد إلى النُّشرة كلها؛ فيكون ابن مسعود رضي الله عنه يحرِّم النشرة كلها؟ يُحرِّم ما كان فيه حرام لحرمته الظاهرة، ويُحرِّم ما لم يكن فيه حرام لأنه ذريعة إلى الحرام؟ هذا مُحتمَل.

أو يكون المراد بـ (كله) هنا ما فيه حرام، فلا يَدخل ما فيه حلال، ورجَّح الشيخ ابن عثيمين –رحمه الله– هذا، وقال: لأنّ حَلّ السحر بأمور حلال لم يُحرِّمه أحد.

لكن ظاهر عبارات السلف أنهم كانوا يَنهون عن النُّشرة مطلقًا؛ لأنّ الغالب عليها الحرام، فإمّا أنهم حرَّموا ما هو حرام –وهذا لا شك في تحريمه– وإمّا حرَّموا المباح؛ لأنه ذريعة إلى الحرام. وإن كان هذا مرجوحًا كما سيأتي إن شاء الله عز وجل.

[وَفِي الْبُخَارِيِّ عَنْ قَتَادَةَ، قُلْتُ لِابْنِ الْمُسَيِّبِ: رَجُلٌ بِهِ طِبٌّ أَوْ يُؤْخَّذُ عَنِ امْرَأَتِهِ، أَيُحَلُّ عَنْهُ؟ أَوْ يُنْشَرُ؟ قَالَ: لَا بَأْسَ بِهِ، إِنَّمَا يُرِيدُونَ بِهِ الْإِصْلَاحَ، فَأَمَّا مَا يَنْفَعُ، فَلَمْ يُنْهَ عَنْهُ]

هذا الأثر رواه البخاري معلَّقًا عن قتادة، لم يروه موصولًا بإسناده، وإنما وصله الأثرم في كتاب السنن، والطبري في كتاب التهذيب بإسناد صحيح. وسيأتي بيان لفظه.

لمّا ذكر الشيخ عن الإمام أحمد أنّ ابن مسعود رضي الله عنه كان يَكره النُّشرة كلها، أَعقَب ذلك برأيٍ لسعيد بن المسيب، وهو من السلف، ومن سادات التابعين. (عَنْ قَتَادَةَ، قُلْتُ لِابْنِ الْمُسَيِّبِ) أو المسيَّب، وقلت لكم أهل العلم يضبطونه بهذا وهذا، وأكثر المحدِّثين على ضبطه بالفتح المسيَّب، (رَجُلٌ بِهِ طِبٌّ) أي: به سحر، (أَوْ يُؤَخَّذُ عَنِ امْرَأَتِهِ) أي: يُمنَع من جماعها، لا يستطيع أن يأتي امرأته، في بعض الروايات: (رجل به طِبٌّ يؤخَّذ عن امرأته) يعني أنه مسحور سحر التفريق، لا يستطيع أن يصل إلى امرأته، يَقدِر على كل شيء لكن إذا أراد أن يجامع امرأته لا يستطيع. (أَيُحَلُّ عَنْهُ؟ أَوْ يُنَشَّرُ؟) أيحل عنه هذا السحر، أو ينشَّر؟ والْحَظوا أنّ السؤال هنا مطلَق، (قَالَ: لَا بَأْسَ بِهِ) يجوز أن يُحَلّ عنه السحر، (إِنَّمَا يُرِيدُونَ بِهِ الْإِصْلَاحَ) أي إنما يريدون بهذا العمل –الذي هو النُّشرة– الإصلاح، بإزالة السحر، فيَنتفع الزوج والزوجة فلا يَقع التفريق، (فَأَمَّا مَا يَنْفَعُ، فَلَمْ يُنْهَ عَنْهُ) وسأتكلم عن شيء يتعلق بهذا بعد أن نأخذ أثر الحسن.

[وَرُوِيَ عَنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ قَالَ: لَا يَحِلُّ السِّحْرَ إِلَّا سَاحِرٌ]

هذا الأثر مرتبط بأثر ابن المسيِّب، ومعه، وقد جاء في رواية واحدة، قال الحافظ ابن حجر: (قال قتادة: وكان الحسن يَكره ذلك، ويقول: لا يَعلم ذلك إلا ساحر)، هذا معنى لا يَحُلّ السحر إلا ساحر، يعني: لا يكاد يَقدر على حَلّ السحر إلا ساحر، وهذا يبيِّن وجه كراهية ابن مسعود رضي الله عنه للنُّشرة؛ وهو: لا يكاد يَقدر على حَلّ السحر إلا ساحر.

وذكر الحافظ ابن حجر في "تغليق التعليق" أنه رواه ابن جرير في كتاب "تهذيب الآثار"، قال الحافظ: (قال أبو جعفر بن جرير في تهذيب الأثار له، وذكر إسناده إلى قتادة عن سعيد بن المسيب، أنه كان لا يرى بأسًا إذا كان الرجل به سحر أن يمشي إلى مَن يُطلِق ذلك عنه)، قال: (هو صلاح، قال: (وكان الحسن يَكره ذلك، ويقول: لا يَعلم ذلك إلا ساحر، فقال سعيد: لا بأس بالنشرة، إنما نهي عمّا يَضر، ولم يُنَه عما ينفع)، هذه الجملة الأخيرة مهمة جدًّا في فَهْمِ أثر بن المسيِّب: (إنما نهي عمّا يَضر، ولم يُنَه عما ينفع). قال الحافظ: إسناده صحيح.

فمقصود سعيد بن المسيِّب هو التداوي، أن يتداوى، كما صرَّح به في رواية ابن عبد البر بإسناده إلى قتادة عن سعيد بن المسيِّب في الرجل يؤخَّذ عن امرأته، فيَلتمس مَن يداويه، فقال سعيد: (إنما نهى الله عما يَضر، ولم يَنه عما ينفع) قال الحافظ إسناده صحيح.

إذن؛ مقصود سعيد بن المسيِّب: هو التداوي، وليس مقصوده الذهاب إلى السحرة، كما زعم بعضهم، بدليل قوله: (نهى الله عما يضر، ولم ينه عما ينفع)، والسحر يضر ولا ينفع، وسعيدٌ يَعلَم هذا يقينًا، كما أنّ سائر المسلمين الذين يقرؤون القرآن يَعلَمون هذا يقينًا، فإنّ الله عز وجل قال: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ﴾ (البقرة: ١٠٢)، وهذا في السحر، إذن: السحر يَضر و لا يَنفع. فقول سعيد: (نهى الله عما يضر) يعني من التداوي؛ كالذهاب إلى السحرة، (ولم يَنْهَ عما يَنفع)؛ كالرُّقى ونحو ذلك مما سيأتي إن شاء الله.

ويؤيد ذلك؛ ما رواه إبراهيم الحربي بإسناده إلى قتادة عن سعيد بن المسيِّب قال: (قلتُ له: -أي قلتُ لسعيد بن المسيِّب- رجلٌ به طِبٌّ -أي سِحر- أَيُحَلّ عنه؟ فقال: (إن استطعت أن تَنفع أخاك ففعلْ)، والخطاب لمَن؟ لقتادة، وقتادة ليس ساحرًا، قتادة عالم، من كبار علماء التابعين، قال: (إن استطعتَ أن تَنفع أخاك ففعل) يعني إن استطعت أن تَحِلّ السحر عن أخيك المسحور ففعل، ومعلوم أنّ قتادة لا يَحِلّ السحر بالسحر، فدلّ ذلك دلالة بيِّنه على أنّ المراد هو التداوي بما أباح الله، وليس حَلّ السحر بالسحر.

فتحصّل لنا مما تقدّم: أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال في النُّشرة: «هي من عمل الشيطان»، وأنّ السلف اختلفوا في النُّشرة، فمنهم مَن كَرِهَها مطلقًا؛ كابن مسعود وأصحابه، إمّا لأنّ فيها حرامًا، وإمّا لأنها ذريعة إلى الحرام.

ومن السلف مَن فصَّل: فأجاز ما يَنفع؛ وهو ما أباحه الله، وحَرَّم ما يضر؛ وهو ما حرَّمه الله عز وجل. وسيأتي هذا التفصيل البيِّن في كلام ابن القيم رحمه الله.

[قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ: النُّشْرَةُ حَلُّ السِّحْرِ عَنِ الْمَسْحُورِ، وَهِيَ نَوْعَانِ: أَحَدُهُمَا: حَلٌّ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ؛ وَهُوَ الَّذِي مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ، وَعَلَيْهِ يُحْمَلُ قَوْلُ الْحَسَنِ، فَيَتَقَرَّبُ النَّاشِرُ وَالْمُنْتَشِرُ إِلَى الشَّيْطَانِ بِمَا يُحِبُّ، فَيُبْطِلُ عَمَلَهُ عَنِ الْمَسْحُورِ وَالثَّانِي: النُّشْرَةُ بِالرُّقْيَةِ وَالتَّعَوُّذَاتِ وَالْأَدْوِيَةِ وَالدَّعَوَاتِ الْمُبَاحَةِ. فَهَذَا جَائِزٌ]

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ: النُّشْرَةُ حَلُّ السِّحْرِ عَنِ الْمَسْحُورِ) تقدّم تعرفها، (وَهِيَ نَوْعَانِ: أَحَدُهُمَا: حَلٌّ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ؛ وَهُوَ الَّذِي مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ) الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم: «هو من عمل الشيطان»، ولا يَحصل إلا بالتقرُّب إلى الشياطين، (وَعَلَيْهِ يُحْمَلُ قَوْلُ الْحَسَنِ) وقول ابن مسعود أيضًا؛ أنّ مقصودهم حَلّ السحر بسحرٍ مثله، وهذا أحد الأوجه عند أهل العلم في تفسير كلام السلف. (فَيَتَقَرَّبُ النَّاشِرُ وَالْمُنْتَشِرُ) الساحر والمسحور له، (إِلَى الشَّيْطَانِ) يتقرَّب الساحر حقيقة إلى الشيطان، ويتقرَّب المسحور له أحيانًا حقيقة إلى الشيطان، فيقال له: اذبح أرنبًا؛ من صفته كذا، أو اذبح شاةً، من صفتها كذا، وقد يقول الساحر: لا تَذكر اسم الله عليها، وقد يأمره بخنقها، ألّا يذبحها بل يَخنقها خنقًا، وهذا تقرُّب إلى الشياطين، وقد يَتقرَّب المسحور الذي يَطلب حَلّ السحر

عنه من الساحر إلى الشياطين بواسطة الساحر؛ لأنه إذا طلب من الساحر أن يَحُلّ السحر عنه فكأنه طلب من الساحر أن يتقرَّب إلى الشياطين؛ لأنّ المعلوم أنّ الساحر لا يَحِلّ السحر إلا إذا تقرَّب إلى الشياطين، فيكون بذلك متقرِّب إلى الشياطين، وهذا كُفر.

وبهذا نعرف حُكم حَلِّ السحر بالسحر: فإنّ حَلّ السحر بالسحر حرام لا يجوز، وقد دلَّت على ذلك أدلة كثيرة جدًّا:

- منها: أنّ النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن إتيان الكهّان مطلقًا، والكهان يَدخل فيهم السحرة، ويَدخل فيهم العرّافون، حَلّ السحر بسحر مثله لا يتأتّى إلا بإتيان السحرة والعرافين، وهذا منهي عنه.

- ومنها: هذا الحديث الذي معنا؛ أنّ النبي صلى الله عليه وسلم سُئل عن النُّشرة فقال: «هي من عمل الشيطان»، سواء قلنا: (الـ) هنا للعهد أو للجنس، فإنّ الذهاب إلى السحرة لحَلّ السحر داخِل في الحديث يقينًا.

- ومنها: ما تقدَّم من أدلة الكتاب والسنة في تحريم السحر مطلقًا، ولم يُستثنى من ذلك شيء.

- ومنها: ما تقدَّم من الأدلة الدالة على أنّ السحر يَضر مطلقًا ولا يَنفع.

- ومنها: قول النبي صلى النبي صلى الله عليه وسلم: «ليس منّا مَن تَكهن أو تُكهن له، أو سَحر أو سُحر له»، (أو سُحر له): وهذا يشمل أن يُسحر له لعَقْدِ السحر، أو يُسحر له لفَكِّ السحر.

- ومنها: ما تقدَّم من قول النبي صلى الله عليه وسلم: «لا بأس بالرُّقى ما لم تكن شركًا»، ولا شك أنّ حَلّ السحر بسحرٍ مثله من الشرك.

- ومنها: ما تقدَّم من قول النبي صلى الله عليه وسلم: «تداوَوا عباد الله، ولا تتداوَوا بمحرَّم»، ولا شك أن الذهاب إلى السحرة محرَّم.

- ومنها: إجماع الصحابة على قَتْل الساحر من غير تفصيل، وقد ذكرنا أنّ ستة من الصحابة صرَّحوا بقتل الساحر، ولا يُعلَم لهم مخالِف، فكان هذا إجماعًا منهم.

- ومنها: أنّ في هذا ذريعة للسَّحرة ليدّعي الساحر أنه إنما يَنفع الناس ولا يَضرُّهم، فإذا قُبِضَ على ساحر قال: ماذا بكم؟ أنا مثلي مثل المستشفيات، أنا أنفع الناس، أنا أُحِلّ السحر عنهم، أنا أُطلِق سراحهم من السحر، من أجل أن يصلي مع الناس، ويصوم مع الناس، ويُحسن إلى أهله، أنا محسِن، كيف تأخذوني إلى السجن؟! كيف تحكمون بقتلي؟!

- مما يدل على حُرْمَة هذا: أنّ مَن ذهب إلى الساحر فانتفع بشيءٍ مما فَعَلَ بالظاهر سيَتعلَّق قلبه به، اليوم ذهب ليَحُلّ السحر عنه، غدًا يذهب ويقول: والله

أنا عندي مشكلة في الرزق، ما تأتيني أموال مهما عملتُ، اعمل لي حجابًا! أنا عندي مشكلة في الولد، ما يأتيني إلى بنات –ونِعمّ المولود البنت– لكن بعض الناس يقول: اعمل لي حجاب لكي أُرْزَق ولدًا، ويقول: بركاتك يا سيدي! لا شك أنّ هذا ذريعة لتعلُّق القلب بالساحر، ولا شك أنّ الشرع جاء بمَنْع هذه الذريعة قَطعًا.

وأمّا قول مَن قال بِحَلّ السحر عن المسحور بسحرٍ مثله: إنّ هذه المسألة خلافية! فإنّا نقول: أمّا السلف فلم يَختلفوا في هذه المسألة، ومَن نَسَبَ إلى أحد من السلف أنه قال بِحَلّ السحر بسحر مثله؛ فقد أساء واعتدى، فإنه لا يوجَد كلمة واحدة عن السلف فيها حَلّ السحر بسحر مثله، وإنما فيها النُّشرة التي تَنفع، وإنما وقع الخلاف من بعض المتأخِّرين من الفقهاء، والخلاف من بعض المتأخرين من الفقهاء لا قيمة له. ولو سلَّمنا جدلًا بوجود الخلاف؛ فإنّ الخلاف يُحتجُّ له، ولا يُحتجُّ به، فنُرجِع الخلاف إلى الأدلة، والأدلة ليس فيها حرفٌ واحد يدلُّ على جواز حَلّ السحر بسحر مثله.

وأمّا قول بعض مَن أجاز هذه الصورة: إنّ هذا من الضرورة، والضرورات تبيح المحذورات! قلنا: إنّ حِلّ المحرَّم بالضرورة له شروط، لا توجَد هنا، منها:

الشرط الأول: ألّا يكون المحرَّم أعظم ضررًا من الضرورة. والفقهاء لمّا ذَكروا هذا الشرط مثَّلوا له بمثال –قد لا يكون واقعًا ولكن لتقريب الحال– قالوا: كما لو وَجَد المضطر الذي يكاد أن يَهلك من الجوع جُثَّة نبي؛ فإنه لا يجوز له أن يأكل منها؛ لأنّ الأكل من جُثَّة النبي أعظم ضررًا من هلاكه، أن يَهلك أخفّ ضررًا من أن يأكل من جثة النبي.

مثال آخر: لو أنّ الإنسان أُكرِه بالقتل على قَتْل مسلمٍ، إنسان جاء ووضع المسدَّس على رأس مسلم وقال: خُذ هذا المسدس واقتل محمدًا من المسلمين وإلا قتلتك، الآن يوجَد ضرورة: إذا لم يَقتل محمدًا سيقتُله هذا الظالم! هنا أجمع العلماء على أنه لا يجوز له أن يقتل محمدًا؛ لأنّ قتله لمحمد أعظم ضررًا من قتل هذا الظالم له؛ لأنه إن قتل محمدًا فقد قتله وكان ظالمًا له، وإن قُتِل فقد قُتِل مظلومًا.

إذن؛ الشرط الأوّل لإباحة المحرَّم للضرورة: ألّا يكون المحرَّم أعظم ضررًا من ضرر الضرورة.

ولا شك يا إخوة؛ أنّ الذهاب إلى السحرة وطلب حَلّ السحر وتصديقهم بما يقولون أعظم ضررًا من الابتلاء بالسحر. لو أنّ الإنسان بقي مسحورًا إلى أن يموت لكان ذلك خيرًا له من أن يَذهب إلى ساحر ليَحُلّ السحر عنه؛ لأنّ

الذهاب إلى الساحر على هذه الصورة شرك وكفر، ولا يوجَد في الدنيا ضرر أعظم من ضرر الكفر والشرك.

الشرط الثاني من شروط حِلّ المحرَّم بالضرورة: ألّا تكون المنفعة بارتكاب المحذور مَوهومَة أو محتمِلة. والانتفاع من الساحر موهوم؛ لأنّ الله نفى النَّفع عنه، أو محتمِل؛ فلا يجوز.

الشرط الثالث من شروط حِلّ المحرّم بالضرورة: ألّا يوجَد ما يُغنِي عن ارتكاب المحرَّم. وبحمد الله يوجَد ما يُغني عن ارتكاب المحرم؛ من الرقى مع الصبر، والأدوية الشرعية، أو الأدوية المباحة.

قال ابن القيم –رحمه الله–: (وَالثَّانِي: النُّشْرَةُ بِالرُّقْيَةِ، وَالتَّعَوُّذَاتِ، وَالْأَدْوِيَةِ، وَالدَّعَوَاتِ الْمُبَاحَةِ؛ فَهَذَا جَائِزٌ.)، والرقية تكون من الكتاب والسنة الصحيحة. وَالتّعوذات؛ سواء وَرَدَتْ في السنة أو لم تَرِدْ، إذا كان التعوُّذ صحيحًا فهذا من الدواء ومن الرقية. وَالدَّعَوَاتِ ، ويُشترط في الدعاء ألّا يَتضمَّن محرّمًا، لا يُشترط في الدعاء أن يكون مأثورًا، ولكنّ المأثور أنفع، لكن يُشترط فيه ألّا يَتضمن محرَّمًا، فيجوز لك وأنت ترقي مريضًا أن تقرأ عليه الآيات، وأن تقرأ عليه ما ورد في السنة من الأدعية، وأن تُعوِّذه بما شئتَ مما لم يكن حرامًا، وأن تَدعوَ له بما شئتَ ما لم يكن حرامًا. وقد تقدّم أنّ الرُّقى لا بأس بها ما لم تكن شركًا.

ويُحَلّ السحر أيضًا بالأدوية النبوية؛ كالاستشفاء بماء زمزم، فماء زمزم شفاء سُقْمٍ، وهذا يَشمل جميع الأسقام بما فيها السحر، والتصبُّح بسبع تمراتٍ عَجوة، الكمال فيها أن تكون من عالية المدينة، ثم مما بين الحرَّتين من المدينة، ثم من المدينة مطلقًا، ثم من العَجوة من أيِّ مكان، ثم من التمر من أيِّ مكان، هذا علاج نبويٌّ سواء لدفع السحر، أو لدفع من السحر.

فالمسحور يَتصبَّح كل يوم بسبع تمرات عجوة، أحسن شيء أن تكون من تمر العالية في المدينة، فإن لم يكن فليكن من التمر الذي بين الحرتين في الدينة، يعني في حدود الحرم، فإن لم يكن فليكن من عجوة المدينة ولو في خارج حدود المدينة، فإن لم يكن فليكن من العجوة من أيِّ مكان، ولكن من تمر العجوة الذي يُسمى العجوة، فإن لم يكن فليتصبَّح بسبع تمرات من أيِّ تمر، ومن أيِّ بلد.

وكذلك الحبة السوداء، فالحبة السوداء من الأدوية النبوية، وهي شفاء من كل داء إلا السّام، إلا الموت، ولم يحدِّد النبي صلى الله عليه وسلم كيف يُستشفى بها، فيَدخل في ذلك كل ما يَعرفه الناس من طُرق للتداوي بالحبة السوداء، فمثلًا: أن يأخذ سبع حبات سوداء، ويضعها في فيه، ويُغلِق فيه ويَطحنها طحنًا، هذه أحسن طريقة للتداوي بالحبة السوداء. يأخذ سبع حبات لأنّ المختصون قالوا: هذا هو المقدار النافع منها، ويضعها في فيه، ويغلق فيه

ويطحنها وفمه مغلق، قالوا: لأنّ أنفع ما فيها هو الزيت الطيار، الذي يحصل أثناء الطحن، فإذا أغلق فمه فإنه يَدخل إلى داخل الجسد. وهذه أنفع الطّرق في التداوي بالحبة السوداء.

أو طَحَنَها واستنشقها، وبعض العلماء قال: يأخذ خمس حبات ويَطحنها ويَستنشقها بأنفه، أو طحنها ووَضَعَ معها زيتًا واستنشقها، أو أخرج زيتها وادّهن به، أو شَرِبَ منه، فالحبة السوداء شفاء، وكل ما عَرَفَ الناس من طُرق الانتفاع بها يَدخل في الحديث؛ لإطلاق النبي صلى الله عليه وسلم. هذا نسميها الأدوية النبوية.

إذن؛ عندنا الرقية، والأدوية النبوية، والادوية المباحة.

والأدوية المباحة: أي الأدوية بالأسباب الحسية الظاهرة، التي عُلِمَ بالتجربة أنها تَنفع ولا محظور فيها. فهذه أيضًا يُحَلّ بها السحر، وإن جُمِعت معها الرقية فهذا أنفع وأقوى.

ومن ذلك ما قاله عبد الرزاق، قال: (قال الشعبي: لا بأس بالنُّشرة العربية) يعني: بالنُّشرة التي يفعلها الأعراب، قال: (والنُّشرة العربية: أن يَخرج الإنسان إلى موضع عَضَاهٍ) أي: إلى موضع فيه أشجار ذات شوك صغير، يعني في البوادي (فيأخذ عن يمينه وعن شماله من كل ثمر يَدُقُّه، ويقرأ فيه، ثم يَغتسل به). فهذه نُشرة جُمِع فيها بين الرقية ونُشرة الأعراب. يخرج إلى البادية التي فيها

الأشجار ذات الأشواك الصغيرة، ويأخذ من ثمارها، ويأخذ من أوراقها من يمينه، ومن شماله، ومن هنا ومن هنا، ثم يَجمعه، ثم يدقُّه دقًّا، بين حجرين، أو بأيِّ طريقة، حتى لو وضعها في الخلاط المتوفر اليوم، ثم يَصبّ عليها ماء، وإن كان من زمزم فهذا حَسَن، ويَقرأ فيه الرقية، والدعوات والتعوُّذات المباحة التي ليس فيها حرام، ثم يغتسل به، ويَشرب منه إن كان لا يَضر، فهذا مما يَنفع، وجُرِب.

ومنها: ما قاله مَعمَر في جامعه؛ حيث قال: (وفي كُتب ابن وهب: أن تأخذ سبع ورقات من سدر أخضر، فتدقّه بين حجرين، ثم تَضربه في الماء، وتقرأ فيه آية الكرسي، وذوات قُلْ، ثم تَحسو منه ثلاث حسوات، وتَغتسل به، فإنه يَذهب عنه كلُّ ما به إن شاء الله تعالى، قال: وهو جيد للرجل إذا حُبِس عن أهله)، ذكره معمر في جامعه، والقرطبي في تفسيره، والحافظ في الفتح، عن ابن وهب في بعض كتبه أنه قال: تؤخَذ سبع ورقات من سدر أخضر، السدر: ورق النَّبْق المعروف، موجود حتى في الشوارع، ولكن يأخذ سبع ورقات خضراء، ليست الجافة التي عند العطارين، ثم يدقها بين حجرين؛ أي: يدقُّها دقًّا، ثم يضربه في الماء؛ أي: يَخلطه في الماء، ويقرأ فيه آية الكرسي، وذوات قُل: ﴿قل هو الله أحد﴾، و﴿قل أعوذ برب الفلق﴾، و﴿قل أعوذ برب الناس﴾)، والشيخ ابن باز –رحمه الله يقول: "يقرأ فيه آيات السحر والحسد مع آية الكرسي وذوات قل"،

ثم يَحسو منه ثلاث حسوات؛ أي: يَشرب منه ثلاث حسوات، وبعض أهل العلم يقول: يُترَك تحت السماء؛ يعني ما يُدخَل في الثلاجة أو شيء، ويَشرب منه ثلاث مرات، ويَغتسل منه (فإنه يُذهِب كلَّ ما به من سحرٍ)؛ ولا سيما فيما يتعلق بحبس الرجل عن زوجته، أو تكريه المرأة في زوجها، فإنه ينفع، وهذا تتابَع عليه العلماء، فأوصى به ابن القيم، وأوصى به شرَّاح كتاب التوحيد، وأوصى به الشيخ ابن باز، وقالوا: إنّ التجربة دلَّت على نفع ذلك.

ومنه أيضًا؛ ما قاله حمّاد بن شاكر، وهو أحد كبار العلماء، كما نقله عنه الحافظ في فتح الباري، حمّاد بن شاكر من العلماء المتقدِّمين الكبار له كُتب، نَقَل عنه الحافظ في فتح عن بعض كتبه أنه قال: "وأمّا النشرة فإنه يَجمع أيام الربيع"- يعني أيام تفتح الأزهار والورود-" ما قَدر عليه من ورد المَفازة"- يعني من الورد البري التي تكون في البر والصحراء- "ورد البساتين"- يعني يجمع الورد من البر ومن البساتين-" ثم يُلقيها في إناء نظيف، ويَجعل فيها ماء عذبًا، ثم يغلي ذلك الورد في الماء غليًا يسيرًا"- ما يجعله يَطبخ، وما يجعله حتى يفور، ولكن يغليه غليًا يسيرًا-"ثم يُمهِله، حتى إذا فَتَرَ الماء أفاضه عليه"، وهذا دواء مباح، فإن جَمَعَ مع هذا الرقية فهذا أحسن، ليجمع بين العلاج الحسي المجرَّب وبين الرقية، فإنّ هذا مما يُذهب الله به السحر.

فهذه أدوية مباحة دلّت عليه التجربة، مع الأدوية النبوية، مع الرُّقى، مع تعليق القلب من قبل ومن بعد بالله عز وجل، فمَن فعل ذلك فإنه حقيقٌ بأن يُرفَع عنه هذا البلاء.

إذن؛ كيف نعالج السحر علاجًا مباحًا؟ بالرقية، ما تحتاج إلى شيخ، المهم أن تقرأ القرآن على نفسك، وأنت على يقين، إيّاك أن تقول: أجرِّب، القرآن شفاء، ما فيه تجربة، اقرأ وأنتَ على يقين، وكما يقول ابن القيم عن الرقى: "إنما السيف بضارِبه"، اقرأ أنت، والقراءة على المسحور تحتاج إلى صبر، اقرأ ساعة أوساعتين أو ثلاث ساعات في اليوم، واليوم الثاني، وفي اليوم الثالث، اقرأ على نفسك أوعلى مَن تُحب، وعوِّذهم، وادعُ لهم، واحْرِص على الأدوية النبوية.

وأيضًا مما نَعرفُه أنه أثناء الرقية يَظهر لك أين يكون الألم، وقد تَعرف ذلك أنتَ من نفسك بأن تَضع يدك على أعضاء جسدك أثناء الرقية، فهناك مواطن بالجسد لا يكاد مَن يرقي أو يُرقى يَصبر على وَضْع يده عليها، ربما قفز من مكانه لو وَضَعَ يده عليها، بعض الناس في الرأس، وفي الشعر، وهذا كثير في الناس، لو وَضَعَت يدك في الشعر وأنتَ ترقي نفسك أو ترقي غيرك، تجد أنّ الذي يُقرأ عليه لا يُطيق ذلك، هذه علامة على أنّ هذا المكان هو أشدّ الأماكن تأثُّرًا، فإذا أردتَ أن تضع الزيت تَضع عليه، وإذا أردتَ أن تضع عليه شيئًا من الأدوية المباحة تضع عليه، وتقرأ عليه، ونحو ذلك.

الرقية، الأدوية النبوية، زمزم، تمر العجوة، الحبة السوداء، والادوية المباحة التي دلّت عليها التجارِب؛ سواء التي ذكرناها أو لم نذكرها؛ بشرط: ألّا يكون فيها حرام، ولا يُقيَّد ذلك بعددٍ معيَّن، وإنما يفعله الإنسان حتى يُذهِب الله ما فيه إن كان مبتلى. فهذه أدوية مباحة ينفع الله بها مَن سُحِر إن شاء الله.

قوله: فِيهِ مَسَائِلُ: في بعض النسخ قال فيه مسألتان، وهذا لا إشكال فيه، ولكن هنا قال فيه مسائل، فهل فيه إشكال؟ لا إشكال؛ لأن بعض أهل العلم قال: إن أقل الجمع اثنان. فيكون ذلك لا إشكال فيه على هذا القول أن الاثنان وما فوقهما جماعة.

[فِيهِ مَسَائِلُ: الْأُولَى: النَّهْيُ عَنِ النُّشْرَةِ]

(النَّهْيُ عَنِ النُّشْرَةِ) يعني مطلقًا، فيكون الشيخ يرى أنّ الأصل في النُّشرة أنها حرام؛ إلّا ما دلّ الدليل على جوازه، أو أَجمع العلماء على جوازه.

[الثَّانِيَةُ: الْفَرَقُ بَيْنَ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ وَالْمُرَخَّصِ فِيهِ مِمَّا يُزِيلُ الْإِشْكَالَ]

(الثَّانِيَةُ: الْفَرَقُ بَيْنَ الْمَنهِيِّ) الذي هو الأصل، (وَالْمُرَخَّصِ فِيهِ) الذي دلّ الدليل على جوازه، أو أجمع العلماء على جوازه، (مِمَّا يُزِيلُ الْإِشْكَالَ) ويدفع الاضطراب، ويدفع الأوهام، ويدفع الخطأ الذي وقع فيه بعض الناس في كلامهم عن حَلّ السحر، وهو ما وَرَدَ في كلام ابن القيم من ضَبْطٍ دقيق لِمَا يجوز وما لا يجوز في النُّشرة.

تَلحَظون هنا أنّ الشيخ ياسين قرأ: (فيه مسائل)؛ وذكر الشيخ مسألتين! في بعض نسخ الكتاب قال: (فيه مسألتان) هنا ما فيه إشكال، لكن لمّا قال: (فيه مسائل) وذكر مسألتين هل هنا إشكال؟ نقول: لا إشكال؛ لأنّ بعض أهل العلم يرون أنّ أقلّ الجمع اثنان، فيكون ذلك لا إشكال فيه على هذا القول: أنّ الاثنان فما فوق فهما جماعة.

الدرس السادس والثلاثون: شرح بَابُ مَا جَاءَ فِي التَّطَيُّرِ

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَن يهدي الله فلا مضلَّ له، ومَن يُضلل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء: ١]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: ٧١]

أمّا بعد:

فإنّ أحسن الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكلّ محدَثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النار.

ثم يا معاشر الفضلاء؛ نواصل شرحنا لكتاب التوحيد، للإمام المجِّد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله عز وجل. وقد كنا وقفنا عند باب ما جاء في التطيُّر، فيتفضل الشيخ ياسين –وفقه الله– يقرأ لنا.

قوله: [بَابُ مَا جَاءَ فِي التَّطَيُّرِ]

تقدم أنّ الشيخ لمّا عَقَدَ أبوابًا في أنواع من شرك العبادة، وهي الأنواع التي يَكثُر وقوعها ممَّن يَنتسبون إلى الإسلام، والغالب عليهم أنهم يَجهلون أنها حرام؛ فضلًا عن أنها شرك، فلمّا بيَّن ذلك وحذَّر منه أيَّما تحذير؛ عَقَدَ أبوابًا في أمور يَكثر وقوعها ممَّن ينتسبون إلى الإسلام، وهي كفر أو شعبة من الكفر، وبدأ بباب ما جاء في السحر وما يَتعلَّق به ويَتْبَعه، ثم عَقَدَ هذا الباب في التطيُّر، ولا شك أنّ التطيُّر يقع من كثير ممَّن يَنتسبون إلى الإسلام، فناسَب بيان حكمه وما يَتعلَّق به.

ومن جهة أخرى: أنه تقدَّم في باب بيان شيءٍ من أنواع السحر أنّ الطيرة من الجبت؛ أي: من السحر، فناسَب أن يَعقِد الشيخُ البابَ بعد باب ما جاء في السحر وما يَتعلَّق به.

والتطيُّر: هو التشاؤم، والتشاؤم: هو توقُّع حصول الشَّر؛ برؤية مخلوق أو حركته؛ مما يَمنع العبد مما أراده.

"توقُّع حصول الشر": أي أن يَتوقَّع العبد حصول الشر بأيِّ سبب؟ برؤية مخلوق، مثلًا: يَخرج من بيته فيرى قطًّا أعور فيرجع ويدخل إلى البيت، أو يَخرج من بيته فيرى قطًّا أسود فيَرجع إلى البيت، أو يخرج من بيته فيقع به حادث فيقول: أنا تصبحتُ بوجه مَن اليوم؟

"توقُّع حصول الشر أو رَدُّ حصول الشر برؤية مخلوق أو حركته": إذا خرج من البيت فطار طائر ناحية الشمال، قال: خروج مشؤم! ورَجَعَ إلى البيت.

"مما يَردّ العبد مما يريد": الطيرة لا تكون طيرة إلا إذا رَدّتِ العَبْدَ عما يريد.

والتطيُّر أمر قديم في الأُمم، وُجِدَ قبل الإسلام، وُجِد في الأُمم السابقة، فأصحاب القرية التي جاءها المرسلون، زعموا أنهم يَتطيرون بأولئك الرُّسل؛ (قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ) (يس: ١٨)، وأصحاب موسى من الكَفَرَة؛ فرعون وقومه، تَطيَّروا بموسى ومن معه؛ (وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ) (الأعراف: ١٣١)، وقوم صالح تَطيَّروا بصالح ومن معه، فالطيرة قديمة، وقريش تَطيَّروا بالنبي صلى الله عليه وسلم ومَن معه، فالتطيُّر داءٌ قديم.

والتطيُّر فيه شر عظيم، وهو من جهة حكمه:

- إن كان المتطيِّر يَعتقد أنّ الذي يَتطيَّر منه يؤثِّر بذاته بدون أمر الله ومشيئته؛ فهذا شرك أكبر. إن كان يَعتقد أنّ هذا القط الأعور، أو هذا الكلب الأسود يَجلب له الشر بذاته؛ فهذا شرك أكبر.
- وإن كان يَعتقد أنّ الذي يَتطيَّر به سبب لحصول الشر؛ فهذا شرك أصغر؛ لأنه جَعَلَ ما ليس سببًا سببًا.
- وإذا كان الأمر يَحصُل في القلب من انقباضٍ ونحوه لا عن اعتقاد؛ فهذا إن دَفَعَهُ الإنسان ولم يؤثِّر في عمله فهذا معفوٌّ عنه. يعني لو أنّ الإنسان حصل له انقباض في قلبه، لكنه سار في طريقه، ولم يَنسب شرًا وقع له بعد ذلك إلى هذا الأمر؛ فهذا معفوٌّ عنه، وهذا قد أَذْهَبَهُ الله عنه بالتوكل من جهة أَثَرِهِ، فلم يكن له أثرٌ في قلبه.

والتطيُّر تَضيق به الدنيا، فالمتطيِّر تَضيق دنياه، لا يكاد يَفعل شيئًا إلا بضيقٍ وعَنَتٍ، فإنّ التطيُّر كالجَرَب؛ يَكبُر، ويَكثُر، ويُعدي –أيضًا– مَن حوله، فتَضيق الحياة.

وهو سبب للحرمان في الآخرة، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لن ينال الدرجات العلى مَن تَكهَّن أو استَقسَم، أو رَجَعَ من سفر تطيُّرًا» رواه الطبراني، وغيره، وقال الألباني: حسن لغيره. يعني أراد أن يسافر فرجع عن السفر تطيُّرًا، لن ينال الدرجات العلى.

كما أنّ التطيُّر فيه سوء ظنٍّ بالله عز وجل، والله عند ظنِّ عبده به، يُعامِل عبده بحسَب ظنه به، فالمتطيِّر يَظن بالله السوء، فيعامله الله عز وجل بذلك، وقد يُعاقَب باعتقاده، فيَحصل له السوء بقَدَرِ الله بسبب تطيُّره، فيكون طائره معه؛ "طائره معه" يعني: أنّ الذي يخاف منه قد يقع له بتقدير الله عقوبة على هذا الذنب، فالتطيُّر شرٌّ كله. ولذلك عَقَدَ الشيخ رحم هالله هذا الباب نصحًا للأمّة.

[وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: (أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ)]

– قال بعض أهل العلم: هذه الآية في حقِّ فرعون وقومه، الذين كانوا إذا أصابتهم حسنة قالوا: هذه لنا، إنما جاءتنا لاستحقاقنا لها، فنحن أهل لها! وهذه سوءة؛ فإنما الحسنة إنما هي من فضل الله عز وجل، وإن أصابتهم سيئة من جَدْبٍ أو قحط أو مصيبة من مصائب الدنيا، قالوا: هذه بشؤم موسى وقومه، ما جاءنا الشر إلا عندما عرفناهم! فكان الجواب: (أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللهُ) أي: أنّ الأمر كله من خير أو شر إنما هو بتقدير الله، فما أصابهم من خير وحسنة فبفضل الله، وما أصابهم من سيئة فبإذن الله بما كسبت أيدهم وبسبب ذنوبهم، فبَلِيَّتهم جاءتهم من ذنوبهم، وجاءتهم من كفرهم، وهي بإذن الله القدَري. هذا أصح أقوال أهل العلم في تفسير الآية.

– وقال بعض أهل العلم: معنى: (أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللهُ) أي: أنّ عِلْمَ ما يؤول إليه الأمر عند الله، لا يَعلَمه طائر فيُتشاءَم منه ولا غيره. فعندما يرى

المتشائم الطائرَ يذهب شِمالًا فيتشاءم منه ويقول: سَفْرَةٌ مشؤمة! لا عِلْمَ عند الطائر، وإنما علم الغيب عند الله سبحانه وتعالى، فلا حقيقة للطِّيَرة؛ لأنّ كل مخلوق لا يَعلَم ما أمامه من خير أو شر، فالطِّيرة وَهْمٌ لا حقيقة لها. وهذا أيضًا معنىً وجيه، ولا يَمنع شيءٌ إرادة الأمرين، فإنهما لا يتنافيان.

والشيخ رحمه الله عز وجل– إنما ذَكَرَ هذه الآية لأمرين:

الأمر الأوّل: بيان أنّ الطِّيرة لا حقيقة لها، وأنا وَهْمٌ، وأنه لا يَعلمَ ما يَحصل للإنسان في قابِل وقته إلا الله سبحانه وتعالى، لا العقل يُدرِك والمخلوقات تُدرِك ما يقع في المستقبل، فالطيرة لا حقيقة لها.

الأمر الثاني: بيان أنّ الطِّيَرة من أخلاق المشركين، أعداء الأنبياء والرسل، ولم تقع من المؤمنين. وفي هذا تنفير وتحذير من الطيرة.

نسيت أن أذكر لماذا سمي التطير بالتطير، وهو التشاؤم؛ والتشاؤم أوسع من التطير؟!

ذكر العلماء أنّ أصل التشاؤم: هو التشاؤم بالطيور، بأنواع منها؛ كالتشاؤم بالغراب، والعِقاب، فكانوا إذا رأوا غرابًا قالوا: مصيبة قادمة! وإذا رأوا عقابًا، قالوا: عقوبة قادمة! وكذلك التشاؤم بالبومة، فكانوا إذا رأوا بومة واقعة على بيت رجل، قالوا: سيموت فيه ميت اليوم! أو التشاؤم بألوانها، فيتشاءمون

بالغراب، أو التشاؤم بحركاتها. فلمّا كان أصل التشاؤم الطيور سُمِّي التشاؤم: طِيَرة.

[وَقَوْلِهِ: {قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ}]

القرية التي جاءها المرسلون، وقال أهل القرية الكَفَرة لأولئك المرسلون: إنّا تطيَّرنا بكم، قال الله عز وجل: (قَالُوا)أي: الرسل، بوحي من الله عز وجل، (طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ) قال بعض أهل العلم: معناها: ما قدَّره الله عز وجل عليكم من خير أو شر في أعناقكم، أي أنه مكتوب عليكم منذ الولادة، وهو مكتوب في اللوح المحفوظ، قبل خَلْق المخلوقات، لكنّ المقصود هنا: أنه مكتوب عليكم منذ الولادة؛ فهو في أعناقكم، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إنّ أحدكم يُجمَع خَلْقُه في بطن أمِّه أربعين يومًا، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يَبعث الله ملَكًا، فيؤمَر بأربع كلمات، ويقال له: اكتب عمله، ورزقه، وأجله، وشقي، أو سعيد»، فالإنسان إذا اكتملت خِلْقَته في بطن أمّه، وأراد الله أن تُنفَخ فيه الروح؛ بَعَثَ له ملَكًا، وأَمَرَه أن يَكتب أربع كلمات: أن يَكتب عمله، وأن يَكتب رزقه، وأن يَكتب أجله، وأن يَكتب هل هو شقي أو سعيد، فما يصيب الإنسان من خير أو شر مكتوب، وهو في عنقه كما قال العلماء.

وقال بعض أهل العلم: معنى ﴿طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾ أي: أنّ سبب ما يُصيبكم من شر من أنفسكم؛ لأنّ التطيُّر إنما هو في الشر، فيقول الله عز وجل لهم: إنما يصيبكم من شر ليس بسبب الطيور، ولا بسبب ما تشاءمون به؛ وإنما بما كسبت أيديكم، بسبب سيئاتكم، فإذا أردتم السلامة فتَخلَّصوا من السيئات، وأعظم السيئات: الشرك بالله. وهذا أيضًا معنىً صحيح، وكلا المعنيَين تَحتمِله الآية، ولا تَدافُع بينهما.

والمراد من ذِكْرِ هذه الآية هو المراد من ذِكْرِ الآية السابقة؛ وهو: بيان أنّ الطِّيَرة لا حقيقة لها؛ بل هو سبب موهوم، وبيان أنّ التطيُّر أنما هو من صفات أعداء الله والمرسلين، فهو من صفات الكفار، وليس من صفات المؤمنين.

[عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ –رضي الله عنه– أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «لَا عَدْوَى، وَلَا طِيَرَةَ، وَلَا هَامَةَ، وَلَا صَفَرَ» أَخْرَجَاهُ، زَادَ مُسْلِمٌ: «وَلَا نَوْءَ، وَلَا غُولَ»]

هذا الحديث العظيم حديث ابي هريرة رضي الله عنه في الصحيحين فيه أمور عظيمة، أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لَا عَدْوَى»، والعدوى: هي انتقال المرض من المريض إلى الصحيح.

وقد اختلف العلماء في المراد بهذا النفي، هل المراد نفي العدوة حقيقة، فلا توجَد عدوة أصلًا؟ أو أنّ المراد: نَفْيُ تأثير العدوى بذاتها؟

والصحيح: الثاني، النبي صلى الله عليه وسلم هنا قال: «لا عدوى»، وفي آخر الحديث نفسه قال: «وفِرَّ من المجذوم فرارك من الأسد» وهذا عند البخاري في الصحيح؛ أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا عدوى، ولا طيرة، ولا هامة، ولا صفر، وفر من المجذوم فرارك من الأسد».

وأيضًا؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا يُورِدَنّ مُمْرِضٌ على مُصِحّ» أخرجاه في الصحيحين. ومعنى ذلك: لا يورِد صاحبُ الإبل المريضة إبلهُ على إبل صحيحة.

وأيضًا؛ جاء أنّ النبي صلى الله عليه وسلم جاءه وفد ثقيف، وفيهم رجل مجزوم؛ أي: مصاب بالجذام، فأرسَل إليه النبي صلى الله عليه وسلم: «أنّا قد بايعناك، فارجِع» رواه مسلم في الصحيح، أي أنّ النبي صلى الله عليه وسلم لم يبايعه مباشرة، بل أرسل إليه: «أنّا قد بايعناك فارجع».

وأيضًا؛ جاء أنه لمّا قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا عدوى»، قال أعرابي: يا رسول الله! فما بال إبلي تكون في الرمل كالظباء، فيأتي البعير الأجرَب فيَدخل بينها فيُجْرِبها؟ قال: «فمَن أعدى الأوّل».

إذن؛ عندنا نَصٌّ يَنفي العدوى: «لا عدوى»، وأيضًا قول النبي صلى الله عليه وسلم للأعرابي: «فمَن أعدى الأوّل»، وعندنا نصوص فيها انتقال المرض؛

منها: «فِرَّ من المجزوم فِرارك من الأسد»، (لا يُورِدنّ مُمْرِضٌ على مُصِحّ»، وفَعَلَ النبي صلى الله عليه وسلم ذلك! فماذا نفعل؟

العلماء منهم من ادَّعى النَّسخ، ومنهم من ادَّعى الترجيح، ومنهم من ادَّعى الجمع، والقاعدة: أنّ الجمع مقدَّم على النسخ والترجيح، فالصحيح: هو الجمع، كيف نجمع؟ الصحيح من أقوال أهل العلم هو ما قدَّمناه؛ وهو أن قول النبي صلى الله عليه وسلم: «لا عدوى» أي أنها لا تؤثر بذاتها، وإنما تأثيرها بإذن الله القدري، فإن شاء أجرى ذلك، وإن شاء منع ذلك، فقد تجد شخصًا يخالِط مريضًا فلا يَنتقل إليه المرض، وتجد آخر يخالِط مريضًا فيَنتقل إليه المرض، فالأمر بإذن الله عز وجل القدري.

فالذي نُفِيَ إنما هو اعتقاد أهل الجاهلية؛ أنّ المرض يؤثر بذاته، وينتقل بذاته.

أمّا اتخاذ الأسباب لمنع هذا السبب فهذا مشروع، ولذلك النبي صلى الله عليه وسلم قال للرجل من وفد سقيف، وكان مجزومًا: «ارجِع فقد بايعناك». وهذا الذي لا بد منه، فإنّ الواقع يشهد أنّ من الأمراض ما يَنتقل من المريض إلى مَن يخالطه، ومن الأمراض ما لا يَنتقل، ولا يمكن أن تأتي الشريعة بما يخالِف الواقع والحِسّ، وهذا أمر بيِّنٌ من النصوص.

إذن؛ لو سَألَنا أحدٌ: هل هناك عدوى؟ يكون الجواب بالتفصيل:

- إن قصدك أنّ العدوى تحصل بذاتها، وتؤثر بذاتها؛ فلا عدوى يقينًا.
- وإن كان قصدك أنّ العدوى سبب من الأسباب بإذن الله القدري؛ فهذا موجود، وهذه العدوى موجودة.

قال: «وَلَا طِيَرَةَ»، والمقصود: أنّ الطِّيَرة ليست سببًا لحصول الشر، كما تقدَّم معنا. وسيأتي في آخر الباب: هل هناك تشاؤم مستثنى أو لا؟ يعني هذا الحديث فيه نَفْيُ الطِّيَرة وهو انّ الطِّيَرة ليست سببًا في حصول الشر، لكن في آخر الباب –إن شاء الله– سأتكلم عن شيء تكلم عنه العلماء؛ وهو: هل هناك شيءٌ مستثنى في الشؤْم؟ هل هناك فيه شؤم حقيقة؟ هذه المسألة سأبسطها إن شاء الله وأبيِّن أدلتها في آخر الباب.

قال: «وَلَا هَامَةَ»، الهامَة بالفتح عند أكثر العلماء؛ وهذا هو الصواب. وقد اختلف العلماء في تفسير الهامة على أقوال:

القول الأوّل: إنّ الهامة: ما كانت تَعتقِده العرب من أنّ القتيل إذا قُتِلَ ولم يؤخَذ بثأره، أنّ دودة تَخرج من رأسه، وتدور عند قبره، وتقول: اسقوني، اسقوني! أي من دم قاتِل هذا القَتيل. وقيل: إنّ اليهود كانت تقول: إنها تدور حول قبره سبعة أيام! فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا هامَة» أي لا توجَد هذه الدودة التي تَزعم العرب أنها تكون موجودة.

القول الثاني: إنّ العرب كانت تقول: إنّ القتيل إذا قُتِل، ولم يؤخَذ بثأره، تَنقلب عظامه طائرًا يقال له الصَّدى، وقيل: إنّ روحه تصبح طائرًا يطير في الحي! فنفى النبي صلى الله عليه وسلم ذلك وقال إنه ليس حقيقة، ولا يوجَد.

القول الثالث: إنّ الهامة هي البومة، طائر البومة المعروف، وقد كانوا يتشاءمون به، فإذا وقع على البيت قالوا: يموت ميت، أو تَنزل مصيبة. وبعض العرب عدّى ذلك حتى أصبح يتشاءم من كل ذي عين واسعة، حتى الإنسان، لو جاءه إنسان وكانت عيناه واسعتَين فإنه يَتشاءم منه كالبومة، فنفى النبي صلى الله عليه وسلم ذلك، يعني لا شؤْم في البومة، فيعود هذا إلى الطِّيَرة، فهذا نوع من أنواع الطِّيَرة، فيكون النبي صلى الله عليه وسلم عمَّم فقال: «ولا طِيَرة» أي: لا شؤْم في شيء، «ولا هامة» أي: لا شؤْم في البومة، ويكون ذلك لتأكيد نفي التشاؤم، ولا سيما من طائر البوم.

قال: «وَلَا صَفَرَ»، اختلف العلماء في معناها على أقول:

القول الأوّل: إنّ صفر هو شهر صفر المعروف، فهل لا يوجد شهر صفر؟ الجواب: لا، لكن قال بعض أهل العلم «لا صفر» أي: لا شؤْم في شهر صفر، لأنّ العرب كانت تتشاءم بشهر صفر، فإذا دخل شهر صفر لم يَعقِدوا عَقْدًا، ولم يسافروا سفرًا، ويقولون: إنه شؤم!

وكان بعض المسلمين إلى قريب يَعتقد في شهر محرَّم -ليس في شهر صفر- الشؤم، ولا يَعقِدون فيه عَقْد النكاح. ومن الأمثلة السائرة عند العوام يقولون: "ولد عاشور أَقْشَر قاشور"، ولد عاشور: يعني محرَّم، يعني الذي يكون من عَقْدِ النكاح في محرَّم، أكثر قاشور: أي أنه صاحب شر وصاحب سوء! فكانوا يتشاءمون بعقد النكاح في محرم، وهذا من هذا، «ولا صفر» أي: لا شؤم في صفر ولا في غيره من الشهور.

القول الثاني: المراد بالنفي هنا: نفي النَّسيء الذي كانت تفعله قريش، فكانت تقدِّم وتؤخِّر في الأشهر كما تشاء، فتَجعل الأشهر الحُرُم في الأشهر التي تريد، تقديمًا وتأخيرًا، وكان أكثر تأخيرهم لشهر صفر، فقال صلى الله عليه وسلم: «لا صفر»، لأنه كما هو معلوم أنّ الزمان لم يكن على هيئته قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنّ العرب كانت تَعبَث في الأشهر، من أجل أن تقع الأشهر الحُرُم في غير أوقاتها، يُسمُّونها باسمها: ذي الحجة وذي القعدة ومحرم ورجب؛ لكنهم يقدِّمون ويؤخِّرون. ثم استدار الزمان كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض في عام حجة النبي صلى الله عليه وسلم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا صفر» أي: لا نسيئ بعد اليوم، ولازال الزمان على هيئته إلى اليوم بحمد الله.

القول الثالث: صفر هو داء يصيب البطن بزعم العرب. وهذا الذي نحى إليه البخاري في الصحيح. العرب يقولون: إنّ في البطن دودة يُهيِّجها الجوع، وقد تَقتل صاحبها! كانت العرب تقول: في بطن الإنسان دودة، هذه الدودة إذا جاع الإنسان تَهيج في بطنه، وقد تقتله، ويقولون: إنها مُعدِية بذاتها، وهي أعدى من الجرب! فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا صفر» يعني: لا دودة في البطن يُهيِّجها الجوع وتَقتل صاحبها، ولا تُعدِي بذاتها.

ولا مانع من إرادة المعاني الثلاثة، وهذا من جوامع كَلِمِهِ صلى الله عليه وسلم؛ أنه يَجمَع المعاني المتعدِّدة في الجملة الواحدة.

قال: (زَادَ مُسْلِمٌ: (وَلَا نَوْءَ،» وهذا جاء عند مسلم في حديث أبي هريرة –رضي الله عنه– أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا عدوى، ولا هامَة، ولا نَوء، ولا صفر»، في هذا الحديث زاد: «ولا نَوء»، ومعنى «لا نَوء»: أي أنّ المطر لا يكون بالأنواء، وأنه لا يُنسَب إلى الأنواء، وإنما المطر بفضل الله ورحمته. ولذا يا عبد الله تَرى السُّحب تَنعقد على مكان، حتى يتهيأ أهله لنزول المطر؛ فيَنزل المطر في مكان آخر، تنعقد السُّحب حتى يزعم أهل البلد أنّ المطر نازل بحسب العادة، ألم نرَ هذا في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم؟ نرى العمال يَطوون السجاد لأنّا نرى أنّ السحب قد انعقدت جدًّا؛ ثم لا يَنزل المطر، وفي

منطقة أخرى ما كانوا يرون إلا سحابًا قليلًا؛ فإذا بالسحاب يَنعقِد فجأة ويَنهمِر المطر، هو بفضل الله وبرحمته سبحانه وتعالى.

قال: «وَلَا غُولَ»، هذا أيضًا زاده مسلم ولكن من حديث جابر –رضي الله عنه– أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا عدوى، ولا طِيَرة، ولا غُول». وقول بعض الناس: إنّ الشيخ أخطأ عندما قال: (زاد مسلم: «ولا نوء، ولا غول»؛ ظانًّا منهم أنّ الشيخ جعلهما حديثًا واحدًا! هذا غلط؛ لأنّ الشيخ قال: (زاد مسلم: «ولا نوء، ولا غُول»، وهذا صحيح: مسلم زاد في حديث أبي هريرة: «ولا نوء»، وزاد في حديث جابر: «ولا غول».

قال: «وَلَا غُولَ»، ما هو الغُول؟ جمْعها: غِيلان. كانت العرب تَزعم أنّ هناك جنسًا من الشياطين يقال لها: الغِيلان، تَتعرَّض للناس في الطُّرق، فتُضلِّهم وتُهلكهم، وهي تتغوَّل؛ أي: تتلوّن ألوانًا، فتَظهر لهم بصورة جمل، فإذا ذهبوا يَطردونه تاهوا وهلكوا، أو صورة غزال، أو مثلًا تُسمِعهم صوت الماء، فيَذهبون يَطلبون الماء في هذه الصحراء فيتيهون فيهلكون، أو تُسمِعهم صوت قوم عندهم جلبة وحديث، فيذهبون فلا يجدون شيئًا، وقد يهلكون! هكذا كانت تقول العرب، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «ولا غول»، ومعناه:

– قال بعض أهل العلم: يعني: لا وجود للغيلان، ولا حقيقة، هذا وهْم.

– وقال بعض أهل العلم: بل المقصود نَفْيُ ضررها، وأنها تَضر الناس، وتُهلك الناس بذاتها، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «ولا غول»؛ وإلا فهي موجودة، هكذا قال بعض أهل العلم، وإليه مال النووي، واستدلوا لذلك: «بأنّ النبي صلى الله عليه وسلم أَمَرَ إذا تغوَّلت الغيلان بالأذان» ولكنّ هذا الحديث ضعيف، ولا يوجد حديث يُثبِت وجود هذه الغيلان.

والشاهد: أنّ النبي صلى الله عليه وسلم نفاها، فشرُّها منتفي. وهل حقيقتها منتفية؟ الدليل محتمِل، ولم نجد من الأدلة ما يُنافيه. والواقع الله أعلم به، بعض الناس يحكي وجود هذا، وبعض كبار السن كانوا يحدثوننا بأنهم كانوا إذا ذهبوا بالقوافل يجدون شيئًا من هذا، فإذا نزلوا في الليل في مكان يرَون عن بُعْد نيرانًا وضجيجًا كأنّ القوم عندهم فرح، والناس كانوا في جوع، فإذا ذهبوا إلى ذاك المكان أبعد، وهكذا، فإن كان الواقع صحيحًا، فتكون موجودة حقيقة، لكنها لا تَضر بذاتها؛ بدليل قول النبي صلى الله عليه وسلم: «ولا غول».

إذن؛ ضررها بذاتها منتفٍ قطعًا،، وأمّا موجودها فنفْيُه محتمِل، وإن كان الغالب نَفْي وجودها؛ إلا إذا وُجِد من الواقع ما يَدل على وجودها.

والشاهد من الحديث: قول النبي صلى الله عليه وسلم: «ولا طيرة، ولا هامة، ولا صفر»، لأنّ هذا كله من التشاؤم، (لا طيرة): بالمعنى العام، (ولا

هامة): على أحد المعاني تشاؤم، (ولا صفر): على أحد المعاني تشاؤم. فهذا كله داخل في التطيُّر.

ومن جهة أخرى: أنّ الحديث كله يَنفي التطيُّر؛ لأنه ينفي هذه الأسباب أنها أسباب للشر والضرر، وأنّ السبب هو الذي جعله الله سببًا، وأَعْلَمنا أنه سبب؛ إمّا بالشرع، فدلَّت الأدلة الشرعية على أنه سبب، وإمّا بالحِسّ والتجربة، فدلَّت التجربة المحسوسة المعلومة أنه سبب، وما عدا ذلك فأوهام لا حقيقة لها. وَمنَ اعتقد أنها سبب؛ فقد أشرك شركًا أصغر. ومَن اعتقد أنها مؤثرات بذاتها وخارِجة عن إذن الله الكوني وقدره؛ فهذا شرك أكبر، والعياذ بالله.

الدرس السابع والثلاثون: تابع شرح بَابُ مَا جَاءَ فِي التَّطَيُّرِ

إنّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَن يهدي الله فلا مضلَّ له، ومَن يُضلل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء: ١]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: ٧١]

أمّا بعد:

فإنّ أحسن الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكلّ محدَثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النار.

أما بعد:

فدرسنا في أعظم حق عُرِف، وفي أعظم حق وُصِف، في حقّ ربنا سبحانه وتعالى، في التوحيد الذي هو حق الله عز وجل على العبيد، وهو أَمْر يجب على المسلم وجوبًا مؤكدًا أن يُعظِّمه، وأن يَعرف شأنه، وأن يُعلي منه، وأن يَحرِص على تَعلُّمه، وعلى العمل به.

ولا زال حديثنا في باب التطير، وذلك أنّا ذكرنا أنّ الشيخ –رحمه الله– من سعة علمه ونصحه للأمّة؛ لمّا عَقَدَ أبوابًا في بيان الشرك العملي الذي يقع من كثير ممَّن ينتسبون إلى الإسلام؛ انتقل إلى عَقْدِ أبواب في أمور يَكثُر وقوعها من الناس، وهي كفر أو شعبة من الكفر، ومن هذه الأبواب ما يَتعلَّق بباب التطيُّر، وبيّنا أنّ التطير معناه: توقُّع حصول الشر برؤية مخلوق أو حركته؛ مما يَمنع الإنسان مما يريد. وشَرَحْنا الآيات التي أوردها الشيخ في صدر الباب، وشيئًا من الأحاديث التي أوردها الشيخ رحمه الله عز وجل. ونتم في مجلسنا هذا شرح بقية الأحاديث التي ذكرها الشيخ رحمه الله.

[وَلَهُمَا عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: (لَا عَدْوَى، وَلَا طِيَرَةَ، وَيُعْجِبُنِي الْفَأْلُ)، قَالُوا: وَمَا الْفَأْلُ؟. قَالَ: «الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ»]

قال: (وَلَهُمَا) أي: للشيخين؛ البخاري ومسلم. (عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «لَا عَدْوَى»، وتقدّم معنا أنّ العدوى: هي انتقال داء المريض إلى غيره ممن يخالِطه، وقلنا: إنّ النفي هنا إنما هو لكون

العدوى تَضرُّ بنفسها، وتصيب المريض بالمرض بذاتها. وبيَّنا سابقًا الجَمْع بين هذا النفي وبين الأحاديث الدالة على اجتناب المريض؛ كقول النبي صلى الله عليه وسلم: «فِرَّ من المجذوم فرارك من الأسد»، وتقدّم تقرير هذا. قال: «وَلَا طِيَرَةَ»، وقد تقدّم بيان أنّ الطيرة محرَّمة.

قال: «وَيُعْجِبُنِي الْفَأْلُ»، وفي رواية عند مسلم قال: «وأحبُّ الفأل الصالح»، قَالُوا: وَمَا الْفَأْلُ؟ قَالَ: «الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ».

وجاء عند الشيخين؛ البخاري ومسلم: (قالوا: وما الفأل؟ قال: «الكلمةالصالحة يسمعها أحدكم».

وفي رواية عند مسلم قال: «الكلمة الحسنة والكلمة الطيبة».

إذن؛ النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب الفأل، وكان يعجبه الفأل، وقد فسَّر الفأل بأنه: الكلمة الطيبة يسمعها الإنسان، أو الكلمة الصالحة يسمعها الإنسان، أو الكلمة الحسنة يسمعها الإنسان. والمعنى واحد. فالكلمة الطيبة إذا سَمِعَها الإنسان فإنها تُدخل السرور على قلبه، ويقوى في نفسه حسن ظنه بالله عز وجل، ولهذا كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يحب الفأل ويعجبه الفأل؛ لأنّ الفأل موافِقٌ لطبع الإنسان، فالإنسان بطبعه إذا سَمِعَ ما يَسُر من كلمة طيبة أو نحوها فإنه يُسَرُّ بذلك ويتفاءل، و هي لا تخالف الشريعة، بل تؤكِّد ما جاء في الشرع من حُسن الظن بالله سبحانه وتعالى.

والنبي صلى الله عليه وسلم استعمل الفأل، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يعجبه إذا خرج إلى حاجته أن يَسمع: يا راشد، يا نجيح، ففي حديث أنس –رضي الله عنه–قال: (إنّ النبي صلى الله عليه وسلم كان يُعجِبه إذا خَرج لحاجته أن يسمع: يا راشد، يا نجيح) رواه الترمذي؛ وقال: حسن صحيح، وصحَّحه الضياء في "المختارة"، والألباني. فالنبي صلى الله عليه وسلم إذا خَرج لحاجة يريد قضاءها يُعجبه أن يسمع كلمة: يا راشد! فهذا فأل، كلمة طيبة يسمعها وهو خارج لحاجته، يا نجيح! يعني: يا ناجح المقصِد، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يعجبه هذا الفأل.

وقد سأل الأصمعي ابن عون عن الفأل، فقال: "هو أن يكون مريضًا؛ فيسمع: يا سالم! أو يكون طالبًا؛ فيسمع: يا راشد يا نجيح!". أن يكون مريضًا، وهو –مثلًا– خارِج للمستشفى؛ يسمع رجلًا ينادي فيقول: يا سالم! فهذه كلمة طيبة مناسبة للمريض، فيتفاءل، أو يقال: يا صحيح! أو يكون طالبًا لحاجة؛ فيسمع: يا راشدًا يا نجيح! ونحو ذلك، فهذا هو الفأل، وكان يُعجِب النبي صلى الله عليه وسلم.

[وَلِأَبِي دَاوُدَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: ذُكِرَتِ الطِّيَرَةُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ: «أَحْسَنُهَا الْفَأْلُ، وَلَا تَرُدُّ مُسْلِمًا، فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ

مَا يَكْرَهُ، فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ: لَا يَأْتِي بِالْحَسَنَاتِ إِلَّا أَنْتَ، وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَاتِ إِلَّا أَنْتَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ»]

قال: (وَلِأَبِي دَاوُدَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ) هكذا في جميع نُسخ كتاب التوحيد: عن عقبة بن عامر. والحديث كذلك عند ابن السُّني في "عمل اليوم والليلة": عن عقبة بن عامر. وعند أبي داود: عن عروة بن عامر، وليس عقبة، وقد قال الشيخ الألباني –رحمه الله– عن ذِكْرِ عُقبة في الإسناد: أظنه محرَّفًا عن بعض النُّساخ"، فهو عن عروة، ومقصودي: أنّ الشيخ –رحمه الله– لم يخطئ لمّا قال: عُقبة، ولم يجيء باسم لم يَرِدْ، بل ورد في إسناد هذا الحديث عند ابن السني، لكنّ الصواب: أنه عن عروة بن عامر.

والحديث سكت عنه أبو داود، وقد ذكر أبو داود في رسالته إلى أهل مكة أنّ ما سكت عنه فهو صالح. وصحَّحه النووي. وأعلَّه كثير من العلماء بالإرسال؛ لأنّ الذي عليه الجمهور: أنّ عروة بن عامر تابعي، وليس من الصحابة؛ فهو مرسَل، وضعَّفه الألباني.

قال: (ولأبي داود بسند صحيح) هذا مأخوذ من كلام النووي في رياض الصالحين. (عَنْ عُروة بْنِ عَامِرٍ قَالَ: ذُكِرَتِ الطِّيَرَةُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم) تذاكَر الناس الطِّيَرة، (فَقَالَ: «أَحْسَنُهَا الْفَأْلُ» أي: أنّ الحَسن هو الفأل، أمّا الطِّيَرة فلا طِيَرة، والفأل هنا يقابِل الطِّيَرة؛ لأنّ الطِّيَرة: هي توقُّع الشر برؤية

مخلوق أو حركته، أمّا الفأل: هو توقُّع الخير بسماع الكلمة الطيبة، ويجتمعان في التوقُّع، لكنّ الطيرة في توقُّع الشر، والفأل هنا في توقُّع الخير. وإن كان العلماء يقولون في أصل الفأل: إنه يقع في الشر والخير، ولكن المراد هنا هو توقُّع الخير.

قال: «أَحْسَنُهَا الْفَأْلُ»، أي أنّ الحَسن هو الفأل، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يحبه ويعجب النبي صلى الله عليه وسلم.

قال: «وَلَا تَرُدُّ مُسْلِمًا» وهذا يدلُّ على أنّ الطِّيَرة المذمومة التي يُذَمُّ فاعلها: إذا كانت تَرُدّ الإنسان عن حاجته، أمّا مجرد أنه إذا رأى شيئًا يَكرهه يقع في نفسه كراهته والخوف من الشر ولكنه لا يَرُدُّه ذلك عن حاجته بل يَدفع ذلك بالتوكل على الله؛ فهذا لا يُذَمُّ به الإنسان. فلو أنّ إنسانًا خرج من بيته، فلمّا خرج وفتح باب بيته؛ فإذا بقطٍّ أعوَر مخسوف إحدى العينَين عند الباب، فلمّا رآه كَرِهَ ما رأى؛ وتوقَّع حصول الشر، فرَجَعَ وأغلق الباب، لم يَخرج؛ هذا تطيَّر، وهذا مذموم. وإن اعتقد أنّ هذا بعينه يَضرّ؛ فهذا شرك أكبر. وإن اعتقد أنّ هذا سبب للضُرّ؛ فهذا شرك أصغر.

آخَر؛ فتح باب بيته يريد أن يَخرج لحاجته، فرأى قطًّا أعوَر كريه المنظر؛ فكَرِهَ ذلك، وخاف من الشر، لكن توكل على الله ومضى؛ هذا لا يُذَمّ.

ولذلك؛ ذَكَرْنا في تعريف التطيُّر: أنه مما يَرُدّ الإنسان عن حاجته. أمّا مجرد الكراهة وخوف الشر من غير أن يَترتب على ذلك أن يَرُدّ ذلك الإنسان عن حاجته؛ فهذا ليس مما يُذَمّ به الإنسان.

قال: «فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يَكْرَهُ» إذا رأى شيئًا كريهًا يكرهه، «فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ» أي: يا الله، «لَا يَأْتِي بِالْحَسَنَاتِ إِلَّا أَنْتَ، وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَاتِ إِلَّا أَنْتَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ»، وفي هذا تمام التوكل على الله عز وجل، وأنّ الأمر كله بيد الله سبحانه وتعالى.

[وعن ابْنِ مَسْعُودٍ مَرْفُوعًا: «الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، وَمَا مِنَّا إِلَّا، وَلَكِنَّ اللهَ يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ»، رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَالتِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ، وَجَعَلَ آخِرَهُ مِنْ قَوْلِ ابْنِ مَسْعُودٍ]

قال: (وعن ابْنِ مَسْعُودٍ مَرْفُوعًا» إلى النبي صلى الله عليه وسلم «الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، الطِّيَرَةُ شِرْكٌ»، وقد تقدَّم أنّ الطِّيَرة كلها شرك، فإن اعتقد أنّ هذه الأشياء تَضر بأنفسها؛ فهذا شرك أكبر، وإن اعتقد أنها سبب للضرر؛ فهذا شرك أصغر.

قال: «وَمَا مِنَّا إِلَّا» هكذا معلَّقًا، ما منّا إلا ماذا؟ ما منّا إلا مَن يَقع في قلبه كراهة رؤية المكروه، والخوف من الشر برؤيته. «ما منا» نحن البشر، «إلا» إلا ويقع في قلبه كراهة المكروهات إذا رآها، والخوف من الشر عند رؤيتها؛ وذلك لعجز الإنسان وضَعفه، وبحكم العادة. «وَلَكِنَّ اللهَ يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ» هذا الفرق

بين المؤمن وضعيف الإيمان أو عديم الإيمان، كلُّ البشر إذا رأى أحدهم شيئًا كريهًا يكرهه في قلبه، يكره هذا الشيء الكريه، ويخاف من الشر، ولكن الفرق بين المؤمن وعديم الإيمان أو ضعيف الإيمان: أنّ المؤمن يتوكل على الله ويمضي، ولا يَرُدُّه ذلك عما يريد، فإذا كان يريد السفر فرأى شيئًا يكرهه؛ فإنه يَمضي متوكِّلًا على الله، إذا رأى غرابًا أو رأى كلبًا بهيمًا أو رأى إنسانًا كريه المنظر أو نحو ذلك؛ فإنه مع الكراهة وانقباض قلبه يتوكل على الله ويمضي. أمّا عديم الإيمان فإنه إذا رأى ذلك لا يمضي بل يرجع، ولا يفعل ما يريد، وهو يعتقد أنّ هذا سيضره بنفسه. وأمّا ضعيف الإيمان فإنه كذلك لا يمضي في طريقه، ويرجع، ويعتقد أنّ هذا سبب لأن يَحصُل له الشر في الطريق والضرر.

إذن؛ المؤمن لا تَرُدُّه الطِّيَرة عن حاجته؛ بل يتوكل على الله عز وجل.

قال الشيخ: (رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَالتِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ)، أيضًا: صحَّحه الحاكم، ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني أيضًا.

قال الشيخ: (وَجَعَلَ آخِرَهُ مِنْ قَوْلِ ابْنِ مَسْعُودٍ) أي أنّ الترمذي جعل آخره من قول ابن مسعود، بمعنى: أنّ المرفوع منه: هو قول النبي صلى الله عليه وسلم: «الطيرة شرك، الطيرة شرك» إلى هنا ينتهي كلام النبي صلى الله عليه وسلم، ثم يأتي كلامٌ لابن مسعود –رضي الله عنه– أنه قال: (وما منا إلا، ولكنّ الله يُذهبه بالتوكل)، وعلى هذا القول يكون آخر الحديث مدرجًا؛ وهو من كلام

ابن مسعود. لكنّ هذا خلاف الظاهر، والظاهر –والله أعلم– أنّ الكلام كلَّه من كلام النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنّ الأصل عدم الإدراج، ولا يوجد دليل يدلّ على هذا الإدراج، ولذلك قال الإمام الألباني –رحمه الله عز وجل–: "ولا حجة هنا في الإدراج، فالحديث صحيح بكامله".

وقد جاء في الحديث: أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إذا تَطيَّرتم فمضوا وتوكلوا على الله»، قال الألباني: أميل إلى ثبوته. «إذا تَطيرتم فمضوا وتوكلوا على الله» أي إذا رأيتم ما يُتطيَّر به في العادة؛ فوقع في أنفسكم الكراهة والخوف؛ فامضوا ولا تَرجعوا عما تريدون، وتوكلوا على الله.

[وَلِأَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَمْرٍو: «مَنْ رَدَّتْهُ الطِّيَرَةُ عَنْ حَاجَتِهِ، فَقَدْ أَشْرَكَ»، قَالُوا: فَمَا كَفَّارَةُ ذَلِكَ؟ قَالَ: «أَنْ تقُولَ: اللَّهُمَّ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُكَ، وَلَا طَيْرَ إِلَّا طَيْرُكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ»]

قوله: (وَلِأَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَمْرٍو–رضي الله عنهما–: «مَنْ رَدَّتْهُ الطِّيَرَةُ عَنْ حَاجَتِهِ، فَقَدْ أَشْرَكَ»، هذا يبيِّن ما تقدَّم من أنّ الإنسان لا يُذَمُّ بالتطيُّر إلا إذا رَدّه ذلك عن حاجته، أو اعتقد أنّ هذه الأشياء تضرُّ بنفسها؛ حتى لو لم يتطيَّر لو لم تَرده عن حاجته، مَن اعتقد أنّ مخلوقًا يَضرّ بذاته؛ فهذا شرك أكبر والعياذ بالله، فإذا لم تَرُدّ الطِّيَرة الإنسان عن حاجته بل توكل على الله؛ فهذا لا يُذَمّ بهذا.

قال: (قَالُوا: فَمَا كَفَّارَةُ ذَلِكَ؟) وهذا يدلّ على أنه ذنب يحتاج إلى كفارة، وهنا قال العلماء: المقصود بالكفارة: ما يُذهِب إثم الذنب، وما يَدفع ذلك الذنب، يعني هذه الكفارة فيها الفائدتان:

الفائدة الأولى: دَفْع إثم الذنب إذا وقع.

الفائدة الثانية: دَفْع الذنب قبل وقوعه.

قال: (قَالُوا: فَمَا كَفَّارَةُ ذَلِكَ؟ قَالَ: «أَنْ تقُولَ»، وفي رواية: «أن تقولوا»، «اللَّهُمَّ لَا خَيرَ إِلَّا خَيْرُكَ، وَلَا طَيرَ إِلَّا طَيْرُكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ» أي أنّ الأمر كلَّه لله، فلا يصيب الخيرُ الإنسانَ إلا بأمر الله، ولا يصيب الشرُّ الإنسانَ إلا بإذن الله، ولا إله إلا الله. والحديث صحيح، صحَّحه الشيخ أحمد شاكر والألباني –رحمها الله–.

[وَلَهُ مِنْ حَدِيثِ الْفَضْلِ بْنِ عَبَّاسٍ: «إِنَّمَا الطِّيَرَةُ مَا أَمْضَاكَ أَوْ رَدَّكَ»]

قال: (وَلَهُ) أي: للإمام أحمد، «مِنْ حَدِيثِ الْفَضْلِ بْنِ عَبَّاسٍ –رضي الله عنهما– أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّمَا الطِّيَرَةُ مَا أَمْضَاكَ أَوْ رَدَّكَ»، في قوله: «أو رَدّك» لا إشكال؛ لأنّ الطِّيَرة فيها الكراهة، وقد تَرُدّ الإنسان عن حاجته فتكون ذنبًا، لكن «ما أمضاك» هذا فيه إشكال؛ من جهة: أنّ المتطيِّر لا يَمضي في حاجته إذا تطيَّر، وإنما الفأل الحسن هو الذي يَجعل الإنسان يزداد إقدامًا على ما يريد، وقد تقدَّم أنّ الفأل مما يُعجِب النبي صلى الله عليه وسلم، ويُحبه النبي

صلى الله عليه وسلم. والحديث كما قال الشيخ: رواه الإمام أحمد، وهو ضعيف، ضعّفه الشيخ أحمد شاكر، وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب صاحب الكتاب: "فيه رجل مختلَف فيه، وفيه انقطاع"، وكلام شيخ الإسلام هذا مأخوذ من مَجمَع الزوائد. فهذا الحديث ضعيف، وما فيه من أنّ الطيرة ما يَرُدّ الإنسان معناه صحيح، وقد تقدَّم في الأحاديث السابقة أنّ الطِّيَرة التي يُذَم بها الإنسان: ما يَرُدّ الإنسان عن حاجته.

إذا تقرَّر هذا وأنه لا طِيَرة، فهل يُستثنى من ذلك شيء؟ هل هناك أشياء فيها شؤم؟ وإذا وجدها الإنسان يتركها؟

الجواب: جاء في حديث عبد الله بن عمر –رضي الله عنهما– قال: سمعتُ النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «إنما الشؤم في ثلاثة: في الفَرس، والمرأة، والدار» متفق عليه، وفي رواية لهما: «إنْ كان الشؤم في شيء: ففي الدار، والمرأة، والفَرس»، وفي رواية لمسلم: «إن يكن من الشؤم شيء حق: ففي الفَرس، والمرأة، والدار»، وفي رواية للشيخين: «لا عدوى، ولا طِيَرة، والشؤم في ثلاث: في المرأة، والدار، والدابة»، وعند مسلم عن جابر بن عبد الله –رضي الله عنهما– يُخبِر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إنْ كان في شيء؛ ففي الرَّبع، والخادم، والفَرس»، «إن كان» يعني: الشؤم، «ففي الرَّبع»: أي الدار، «والخادم، والفَرس».

فهذه الأحاديث أفادت أنه لا شؤم في غير الأربعة المذكورات، لا شؤم في الغراب، ولا شؤم في الحمار، ولا شؤم في إنسان كريه المنظر؛ لأنّ الحصر في الحديث حَصَرَ الشؤم في هذه الأربعة.

وأمّا الشؤم في هذه الأربعة: وهي الدار، والدابة التي يركبها الإنسان، والمرأة، والخادم، فهو ثابت بهذه الأحاديث الصحيحة التي لا مَطعَن فيها، لكن اختلف العلماء في معنى الشؤم هنا على ثلاثة أقوال:

القول الأوّل: ذهب جَمْع من أهل العلم؛ منهم الإمام مالك، وابن قُتيبة، والخَطابي، وابن باز، وابن عثيمين –رحمهم الله جميعًا– إلى أنّ هذه الأحاديث على ظاهرها، وأنها مستثناة من الطِّيَرة المحرَّمة، وأنّ هذا شر قدريّ، قد بيَّن الله أسبابه، وتدلُّ القرائن على أسبابه.

يقول أصحاب هذا القول: هذه الأربعة قد تدلّ القرائن على أنها أسباب للشر القدريّ، فليست المرأة شؤمًا دائمًا، بل قد تكون المرأة خيرًا وبركة على الزوج وعلى البيت، وهذا الغالب على المرأة إذا كانت صالحة، أن تكون خيرًا وبركة على بيتها وسببًا لإسعاد أهل البيت، لكن قد تكون المرأة شؤمًا، فتدخل على الرجل فتدلُّ القرائن على أنها شؤم؛ وذلك إذا توالَت عليه المصائب بعد دخولها عليه. وقد تكون الدابة شؤمًا، فقد يشتري الإنسان سيارة وتكون شؤمًا، ليس الأصل في السيارة أو الدابة أنها شؤم، بل الأصل أنها خيرًا، ولكن قد تكون

شؤمًا، مثلًا إنسانًا اشترى سيارة، وأصبحت الحوادث تقع منه كثيرًا، إنسان يقود من ثلاثين سنة، وقَلّ أن يقع له حادث، وعندما اشترى سيارة جديدة أصبح كل يوم يصدم سيارة، فهنا القرائن دلَّت على أنّ هذه السيارة بعينها فيها شؤم. أو الدار؛ ينتقل الإنسان إلى دار فتتوالى عليه حوادث سيئة فيها، ينتقل إلى الدار فيَمرض، ويصبح عنده مرض، ويمرض أبنائه، وكل يوم هو في المستشفى؛ فهذه القرائن تدل على أنّ هذه الدار فيها شؤم، ليس الأصل في الدار أنّ فيها شؤمًا، ولكن قد تكون الدار شؤمًا.

وكذلك الخادم؛ قد يأتي الإنسان بخادم –والأصل في الخادم العبد المملوك، لكن لا يمنع هذا من سعة المعنى إلى مَن يأتي به الإنسان ليَخدمه– فقد يأتي الإنسان بخادم فتتوالى عليه المصائب والشرور.

فأصحاب هذا القول يرَون أنّ الشؤم على ظاهره في هذه الأربع.

يقول الشيخ ابن باز –رحمه الله–: قد تكون المرأة مشؤمة على زوجها، فإذا ظهر منها ما يدل على شؤمها في سوء أخلاقها معه"–وهذا في الحقيقة الشؤم في الصفات –"وسوء سيرتها معه"– وهذا شؤم في سوء الفعل – "أو ترادُف الحوادث عليه لمّا تزوجها"– يعني ترادف الحوادث السيئة عليه–؛ من خسارة أو كساد في تجارته، أو فساد في مزرعته، أو ما أَشْبَه ذلك؛ فلا مانع من طلاقها"– فإذا دلت القرائن على أنّ هذه المرأة شؤم؛ فلا مانع من أن يطلقها–قال الشيخ:

"وهكذا الدار؛ إذا توالت عليه الحوادث فيها، وسوء الأحوال فيها، والأمراض عليه وعلى أولاده فيها؛ فلا بأس من الانتقال عنها"- وهذا ليس من الطيرة المحرَّمة، فلا يقال له: تطيرتَ! إذا انتقل من هذه الدار- قال: وهكذا الدابة؛ من ناقة أو فرس، ونحو ذلك، إذا لم يَرَ فيها فائدة، ورأى منها شرًّا؛ كمن توالَت عليه حوادث بأسبابها؛ فلا بأس أن يبيعها ويستبدلها بغيرها". اهـ

وقال الشيخ ابن عثيمين –رحمه الله–: "ربما يكون بعض المنازل، أو بعض المركوبات، أو بعض الزوجات مشؤومًا، بجَعْلِ الله بحكمته مع مصاحبته إمّا ضررًا وإمّا فوات مَنفعة". وكلام الشيخ –رحمه الله– هنا فيه فوائد، لأنّ الشيخ –رحمه الله– يقول: "ربما" وهذا للتقليل، فلا يُتوسَّع في هذا. بعض الناس كلّما نظر إلى امرأته قال: صحيح إنّ المرأة شؤم! بل والله الشؤم والقبح في هذا الكلام، فالمرأة خير، وإن كان قد يكون فيها شؤم وهذا قليل، ولذلك قال الشيخ: "ربما"، " يكون بعض" وهذا أيضًا للتقليل، "بعض المنازل، أو بعض المركوبات، أو بعض الزوجات مشؤومًا" بذاته؟ لا، ولكن: "بِجَعْلِ الله بحكمته مع مصاحبته"–يعني ملازمته– "إمّا ضررًا وإمّا فوات منفعة"، فهذا كما قلنا: شرٌّ قدريّ دلَّت القرائن على أسبابه، وأخبرنا النبي صلى الله عليه وسلم بأنها قد تكون أسبابًا.

القول الثاني: قال بعض العلماء: "ليس المقصود التشاؤم بهذه الأصناف، وإنما المقصود: ما فيها من صفات سيئة". ليس المقصود أنّ هذه الأصناف يكون فيها شؤم، وتكون سببًا لحصول الشر، وإنما المراد: أنّ هذه الأصناف تتَّصف بصفات سيئة تُشقي صاحبها، ومُصاحِبها؛ كضيق الدار، وسوء جيرانها. يقولون: الشؤم في الدار ليس أنها سبب لحصول الحوادث السيئة، وإنما الشؤم في الدار: أن تكون ضيقة قليلة المرافِق، فيَضيق صدر الإنسان، فمن شقاوة المرء الدار؛ تكون ضيقة قليلة المرافق. وكذلك قالوا: من شؤم الدار: سوء الجيران، أن يكون للإنسان جيران أهل أذى، وهذا أشد على الإنسان أذىً وشقاءً من ضيق الدار، لأن يعيش الإنسان في غرفة واحدة مع مرافقها، أوسَع عليه من أن يعيش في دار واسعة بجوار جار سيء، وهذه من أسباب الشقاء، الجار السوء، نعوذ بالله منه.

وفي المرأة؛ قالوا: كسلاطة اللسان؛ أن تكون المرأة سليطة اللسان، وخاصة على زوجها، تكون سيئة الكلام، فبدلًا من أن تُدخِل السرور على نفسه كلّما رأته وجلست معه أدخلت عليه الشقاء، فتقول مثلًا: أنتَ أضعف من الرجال، شوف ما شاء الله الرجال يأتون بكذا وكذا، وأنت حتى القليل ما تستطيع أن تُحضرَه، أنتَ ضعيف، وأنتَ كذا وكذا، فتضيِّق عليه حياته.

والشؤم في الدابة؛ مثلًا أن لا يكون فيها نفع.

القول الثالث: قال بعض العلماء: بل المعنى: أنّ التشاؤم الذي يقع من الناس أكثره في هذه الأصناف. فهو خبر عن أحوال الناس، وليس تقريرًا لأمر، فيقولون: غاية ما في هذا الحديث: أنّ النبي صلى الله عليه وسلم يخبرنا أنّ التشاؤم الذي يقع من الناس أكثره في هذه الأصناف.

وهذا القول أضعف الأقوال، وقد رَدّه المحقِّقون: بأنّ النبي صلى الله عليه وسلم ما بُعِثَ ليُخبرنا بواقع الناس، وإنما بُعِثَ ليُعلِّمنا ويبيِّن لنا شرع الناس.

وأقوى الأقوال: هو القول الأوّل –والله أعلم– وهو: أنّ الحديث على ظاهره؛ إذ لا يوجَد دليل على صَرْفه عن ظاهره.

فهذا مستثنى من الطِّيَرة المحرَّمة، وليس من الطِّيَرة المذمومة، لكن بشرط: أن تدلّ القرائن على ذلك، وألّا يوجَد ما يدل على سبب آخر.

يعني لو أنّ الإنسان بعدما تزوّج خسر في التجارة وأصبح يخسر، لكن الحال أنه بعدما تزوّج أصبح ينام في البيت كثيرًا ولا يَهتم بتجارته؛ هنا سبب خسارته تفريطه، وليس المرأة.

لو أنّ الإنسان بعدما تزوّج وأخذ المرأة، وهو يسير إلى البيت صُدِمت سيارته وهي معه، فأوّل مرة يأخذها من بيت أهلها أو من الوليمة إلى بيته وفي الطريق صُدمت السيارة، فهذا يقع للناس، يمشي الإنسان ويَحدث له اصطدام، لكن لو تكرَّرت الحوادث ولم يُعلَم سبب آخر؛ فهذا دليل على الشؤم. فلا

يعاب الإنسان ولا يُذَم إذا تَخلَّص من سبب هذا الأمر فطلق المرأة، أو انتقل من الدار، أو باع الدابة.

[فِيهِ مَسَائِلُ: الْأُولَى: التَّنْبِيهُ عَلَى قَوْلِهِ: (أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللهُ)، مَعَ قَوْلِهِ: (طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ). الثَّانِيَةُ: نَفْيُ الْعَدْوَى. الثَّالِثَةُ: نَفْيُ الطِّيَرَةِ. الرَّابِعَةُ: نَفْيُ الْهَامَةِ. الْخَامِسَةُ: نَفْيُ الصَّفَرِ]

هذا كله قد تقدّم بيانه بيانًا وافيًا.

[السَّادِسَةُ: أَنَّ الْفَأْلَ لَيْسَ مِنْ ذَلِكَ، بَلْ مُسْتَحَبٌّ]

كما تقدّم معنا وأنّ الفأل: هو الكلمة الطيبة التي تؤكِّد في نفس الإنسان حسن ظنه بالله، والمطلوب من المؤمن: أن يُحسن الظن بالله، فإذا فعل الأسباب فإنه يتوكل على الله؛ محسنًا ظنه بربه. ولذلك المؤمن مِقدام على خَيرِه إذا فَعَلَ الأسباب المشروعة. فإذا سَمِعَ ما يؤكد ذلك فإنّ هذا هو الفأل.

[السَّابِعَةُ: تَفْسِيرُ الْفَأْلِ. الثَّامِنَةُ: أَنَّ الْوَاقِعَ فِي الْقُلُوبِ مِنْ ذَلِكَ مَعَ كَرَاهَتِهِ لا يَضُرُّ بَلْ يُذْهِبُهُ اللهُ بِالتَّوَكُّلِ. التَّاسِعَةُ: ذِكْرُ مَا يَقُولُ مَنْ وَجَدَهُ. الْعَاشِرَةُ: التَّصْرِيحُ بِأَنَّ الطِّيَرَةَ شِرْكٌ. الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: تَفْسِيرُ الطِّيَرَةِ الْمَذْمُومَةِ]

قال: (تَفْسِيرُ الطِّيَرَةِ الْمَذْمُومَةِ)وهي: أنها ما رَدّك عن حاجتك.

الدرس الثامن والثلاثون: شرح بَابُ مَا جَاءَ فِي التَّنْجِيمِ

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَن يهدي الله فلا مضلَّ له، ومَن يُضلل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء: ١]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: ٧١]

أمّا بعد:

فإنّ أحسن الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكلّ محدَثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النار.

[بَابُ مَا جَاءَ فِي التَّنْجِيمِ]

تقدَّم أنّ الشيخ –رحمه الله– لنصحه للأمّة عَقَدَ أبوابًا في أمور يَكثُر وقوعها من جماعات تنتسِب إلى الإسلام؛ وهي كفر أو شعبة من الكفر، وبدأ بالسحر والكهانة، ثم أتْبَعه بالتطيُّر؛ وهو شعبة من السحر، ثم أعقبه بالتنجيم؛ وهو شعبة من السحر؛ كما تقدَّم معنا: «من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر، زاد ما زاد» هكذا قال النبي صلى الله عليه وسلم، وبهذا يظهر دقة الشيخ –رحمه الله– في ترتيب هذه الأبواب.

ووجه كون التنجيم من السحر:

- **أنّ التنجيم يَعتمِد على أمر خَفي**، ليس على أسباب معلومة أجراها الله عز وجل وأَعلَمها لعباده؛ وإنما يَعتمد على أمر خفي، فيأتي المنجِّم زاعمًا أنّ هذا العام سيحصل فيه من الكوارث كذا وكذا، وسيموت فيه الزعيم الفلاني، ويولَد فيه شخص عظيم، ويُفتح فيه كذا، وتَحصل مصيبة في بلد كذا؛ بأمور خفية، ليست أمورًا معلومة جعلها الله عز وجل أسبابًا، وهذا مثل السحر؛ لأنّ السحر أمر خفي يَعتمد على أمور خفية.

- **ولأن في التنجيم ادّعاء علم الغيب**، كما أنّ في السحر نوعًا من ادّعاء علم الغيب.

والنجوم من مخلوقات الله عز وجل، خلقها الله عز وجل في السماء، وامتنّ بها على عباده، والله لا يَمتنّ إلا بعظيم نافع، فالعظيم سبحانه لا يَمتنّ على عباده

إلا بالأمور العظيمة التي يَعظُم نفعلها لعباده سبحانه وتعالى، ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فالله عز وجل خلق النجوم على هذه الهيئة العجيبة، وهذه الأحجام الكبيرة، ولا زال الناس يكتشفون في خَلق النجوم الشيء الكثير من جهة عِظَمِ خِلْقَتها، وما يَتعلّق بالدِّقة العظيمة في سَيرها، والله عز وجل الذي خلقهن هو الذي أمرهن بهذا الانتظام العجيب في الكون؛ فأطعْنه، فالله عز وجل له الخَلق سبحانه وتعالى، وله الأمر.

والله عز وجل قد خلق النجوم لحِكَم عظيمة، ومنافع كبيرة، بيَّنها سبحانه في كتابه الكريم، فمَن ابتغى بالنجوم غير ما خَلقها الله له وأخبرنا به فقد ضَلَّ وغوى؛ ولذا بدأ الشيخ –رحمه الله– هذا الباب وافتتحه بافتتاح موفَّق عظيم؛ وهو ما يدلّ على ما خلق الله عز وجل له النجوم، وما في ابتغاء ما وراء ذلك من الفتنة والشر، فكان قول الشيخ: (بَابُ مَا جَاءَ فِي التَّنْجِيمِ) أي: ما جاء من النصوص وآثار السلف في علم التنجيم من جهة تَعلُّمه، ومن جهة حُكمه، فافتتح الشيخ –رحمه الله– بقوله:

[قَالَ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ: قَالَ قَتَادَةُ: خَلَقَ اللهُ هَذِهِ النُّجُومَ لِثَلَاثٍ: زِينَةً لِلسَّمَاءِ، وَرُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ، وَعَلَامَاتٍ يُهْتَدَى بِهَا، فَمَنْ تَأَوَّلَ فِيهَا غَيْرَ ذَلِكَ أَخْطَأَ وَأَضَاعَ نَصِيبَهُ، وَتَكَلَّفَ مَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ. انْتَهَى]

قال: (قَالَ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ) هذا الأثر علَّقه البخاري في صحيحه، ووَصَلَه غيره كالطبري في تفسيره، وابن أبي حاتم في تفسيره. قال: (قَالَ قَتَادَةُ) وهو العالم الكبير التابعي، الثقة الثَّبْت، واسع العِلم، رحمه الله عز وجل رحمة واسعة. قال: (خَلَقَ اللهُ هَذِهِ النُّجُومَ لِثَلَاثٍ:) ثلاث حِكَم عظيمات، (زِينَةً لِلسَّمَاءِ) فالله عز وجل زيَّن السماء الدنيا بالنجوم، وجعلها زينة لها، وهذا ظاهر؛ فإنّ العبد في الليل، إذا نظر إلى السماء، ورأى تلألؤ النجوم في السماء، رأى هذه الزينة لهذه السماء. (وَرُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ) فجعل في السماء نجومًا تُحفَظ بها السماء من استراق الشياطين السمع. (وَعَلَامَاتٍ يُهْتَدَى بِهَا) في ظلمات البر والبحر، يَعرف بها العباد الجهات وطريق السير، فيكون الواحد فيهم في ظلمة البحر وفي لجة البحر ويَعرف إلى أين يتّجه، مع أنّ البحر لا علامة فيه، بل هو مكان مستوي الجهات، فإذا كان في الظُلمة فالأمر أشد، ومع ذلك فالعبد –بما علَّمه الله– يَنظر في النجوم فيَعرف الجهة، ويسير ولا يَتيه في البحر، وكذلك في البر إذا كان في السَّحر وفي ظلمة الليل البهيم؛ فإنه يستطيع أن يَعرف الجهة، بالنظر في النجوم بما علَّمه الله عز وجل. (فَمَنْ تَأَوَّلَ فِيهَا غَيْرَ ذَلِكَ) فظنَّ أنها

أسباب لِمَا لم يجعلها الله أسبابًا له، أو أنها مؤثِّرة في الكون، فكما يقول بعض الضُّلال الذين ما عرفوا التوحيد: إنّ الكواكب العُلوية تؤثّر في المخلوقات السفلية، ويعنون بالكواكب العلوية: النجوم، والمخلوقات السفلية: مَن على الأرض. (أَخْطَأَ) أي: أخطأ الهُدى، وضَلّ عن طريقه. (وَأَضَاعَ نَصِيبَهُ) فإنّ نصيب العبد ينبغي أن يكون في الخير، فإذا تأوَّل في النجوم غير ما خَلقها الله له؛ فإنه يكون أضاع نصيبه من الخير، (وَتَكَلَّفَ مَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ) فهذا تكلُّف، وليس علمًا، وهو يُخضِع العبد المخلوق لمخلوق مثله، ويصبح العبد يخاف من النجوم، والله أكرم العبد فجعل خوفه من رب النجوم سبحانه وتعالى.

وهذا الأثر عن قتادة له تمام؛ فقد جاء في هذا الأثر أنّ قتادة قال: **"وإن أناسًا جَهَلة بأمر الله، قد أَحدَثوا في هذه النجوم كهانة** –وجعلوا يتكهنون بها– **مَن أعرَس بنجم كذا وكذا؛ كان كذا وكذا**– يأتي الآن المنجِّمون فيقولون: أنتَ من كوكب الزهرة، فإذا تزوجتَ امرأة من كوكب كذا حصلت لكما السعادة، وتُرزقان بالأولاد، ونحو ذلك– **ومَن سافر بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا** – ويقول المنجِّمون اليوم للناس: أنت من برج الجوزاء، فإذا تاجرتَ في هذا الأسبوع فستحصل لك خسارة عظيمة، وإذا تاجرتَ في هذا الأسبوع سيكون سفرك غير موفَّق، ونحو ذلك– **ولعمري ما من نجم إلا ويولَد به الأحمر والأسود، والقصير والطويل والحسن والذميم** - يقول: النجوم ما لها تأثير لو

نظر العقلاء، فكل نجم وكل برج يولَد فيه أحمر وأبيض وأسود، ليس هناك نجم خاصٌّ بالبِيض، يولد فيه البيض، ممنوع على السود، ممنوع على السمر، ممنوع على الحمر، وإنما يولَد الناس هذا أحمر، وهذا أبيض، وهذا أسود، وهذا طويل، وهذا قصير، وهذا جميل، وهذا دميم، في نجم واحد، وفي وقت واحد- **وما عَلِمَ هذا النجم وهذه الدابة وهذا الطائر شيئًا من الغيب، وقضى الله أنه لا يَعلَم مَن في السموات ومَن في الأرض الغيب إلا الله"**.

وهذا الذي قرَّره قتادة، قرَّره كثير من السلف، ومن ذلك قول بلال العَنْزي: "مَن قال في هذه النجوم سوى هذه الثلاث؛ فهو كاذِب آثم مفترٍ مبتدِع". رواه عنه الطبري في تفسيره. فهذه الأمور الثلاثة التي ذكرها الإمام قتادة –رحمه الله عز وجل- هي التي خَلق الله النجوم لها، وأخبرنا بها في كتابه:

الأوّل: أنها زينة للسماء.

الثاني: أنها رجوم للشياطين، فبها تُحفَظ السماء، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (٦) وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾ [الصافات: ٦-٧]، وقال الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٥]

الثالث: أنها علامات يُهتدى بها في ظلمات البر والبحر، قال الله عز وجل: {وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ}[النحل: ١٦]، وقال سبحانه: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} [الأنعام: ٩٧].

ولمّا كان ذلك كذلك؛ كانت العلوم التي يتعاطاها الناس والمتعلِّقة بالنجوم من جهة التفصيل أربعة:

النوع الأوّل: عِلْمُ دراسة النجوم من جهة مواقعها وطبيعتها وأحجامها وسَيرها، وهذا جزء مما يُسمى بعِلم الفَلك، ويُبنى على أشياء محسوسة؛ وهذا عِلْمٌ مباح.

النوع الثاني: عِلْمُ التَّسيير. أي: عِلْمُ معرفة كون النجوم علامات على الجهات، ونحوها؛ وهذا علم جائز لا حرج في تعلُّمه على الراجح من أقوال أهل العلم، نعم بعض السلف من منعوا منه، لكنّ الصواب أنه علم جائز، بل في الحقيقة أنّ تعلُّمه من غير تكلُّف وتعمُّق مستحب؛ لِمَا في ذلك من نَفْع الناس، وكلُّ عِلم نافع للناس لا ضَرر فيه فتعلُّمه مستحب، تعلُّم الطب مستحب، وتعلُّم الهندسة مستحب؛ لأنّ فيه نفع للناس، ولا ضرر فيه، وإذا تَعلَّم أفراد من الأمّة هذه العلوم فإنهم يُغنون الأمّة عن الكفار، وهذا أمر مطلوب.

وقد يكون تَعلُّم هذا العلم واجبًا على الإنسان، وذلك إذا كان لا يستطيع معرفة القبلة إلا بمعرفة النجوم، فهنا يجب عليه أن يتعلَّم هذا؛ لأنّ معرفة جهة القبلة واجبه، وما لا يَتم الواجب إلا به فهو واجب.

النوع الثالث: عِلْمُ الاستدلال بالنجوم على أمور تقع في المستقبل بحكم التجربة والمعتاد بأمور حسية؛ كمعرفة زمن دخول الحَرّ، وزمن دخول البرد، فيقال: إذا طلع نجم كذا فهذه بداية فصل الصيف، أو إذا طلع نجم كذا يشتد الحَر، أو إذا طلع نجم كذا فهذه بداية فصل الشتاء، أو إذا طلع نجم كذا فإنه وقت اشتداد البرد، أو معرفة زمن الكسوف والخسوف، كما يحصل اليوم؛ يقولون: سيحصل في سنة كذا كسوف أو خسوف، وهذا ليس من باب ادّعاء علم الغيب، وإنما بدراسة سَير النجوم المعتاد، فيَعرفون بهذا زمن الكسوف والخسوف؛ لأنّ الله جعل هذا على طريقة منتظِمة، بدون اعتقاد أنها مؤثّرة، وإنما على أنها علامات جعلها الله في الكون لهذه الأمور وقد عُرِفت وعُلِمت، فليست أمورًا موهومة، وليست أمورًا خفية؛ فهذا العلم جائز لا حَرج فيه على الراجح، وإن كان من أهل العلم من حرَّمه سدًّا للذرائع، لكنّ هذا العلم لا مَحذور فيه؛ إذ لا يُعتَقد فيه تأثير الكواكب في الأحداث، ولا يُعتَقد فيه أنها أسباب حيث لم يجعلها الله أسبابًا، وإنما يُعرَف بمسيرها حدوث هذه الأمور بحكم العادة، ودراسة سَير الكواكب دراسة علميّة.

النوع الرابع: علم التأثير. وهو عِلْمُ النظر في النجوم لمعرفة الأمور الغيبية وما يقع للأفراد والجماعات في المستقبل، أو اعتقاد تأثير الكواكب في الكون؛ بحيث يضاف الفِعْلُ إليها. يأتي المنجِّمون في بداية كل سنة ميلادية ويقولون: هذه السنة سيَحدث فيها من الأحداث كذا وكذا، ويموت أربعة من الزعماء، وتُضرَب بعض الدُّول، ونحو ذلك، فيدَّعون علم الغيب بغير أسباب شرعية، ولا حسية، وإنما أمور خفية وأوهام. أو يُعتَقد تأثير الكواكب في الأحداث في الأرض، ويُنسَب ذلك إلى الكواكب، فيقول القائل مثلًا: مُطرنا بنوء كذا، ليس أنّا مُطرنا في نوء كذا أي في زمن كذا، لا، ولكن يقول: مطرنا بنوء، والباء هنا –كما سيأتينا في الباب التالي–:

–إمّا أنها تأثيرية. ويكون المعنى: أنّ النجم هو الذي أثَّر في المطر. وهذا والعياذ بالله شرك أكبر.

– وإمّا أنها للسببية. أي: مُطرنا بسبب الكوكب، بسبب النجم، وهذا شرك أصغر.

فعِلم التأثير حرام وهو شعبة من السحر، بل هذا كفر أكبر؛ لأنّ فيه ادِّعاء علم الغيب، وفيه تكذيب القرآن، ولأنّ فيه اعتقاد أنّ النجوم مؤثِّرات من دون الله عز وجل، فهذا كفر أكبر يُخرج من الملّة.

وقد خاف النبي صلى الله عليه وسلم على أمته في آخر الزمان الإيمان بالنجوم، فقد جاء في الحديث: أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إنّ أخوَف ما أتخوَّف على أمّتي آخر الزمان ثلاثًا: إيمانًا بالنجوم، وتكذيبًا بالقَدَر، وحَيف السلطان». قوله: «إيمانًا بالنجوم» ليس المقصود الإيمان بوجودها، والإيمان بكونها زينة، وبكونها رجومًا، وبكونها علامات معلومة، فإنّ هذا من الدين، وإنما المقصود: الإيمان بالنجوم في علم التأثير الذي بيَّناه. «وتكذيبًا بالقدر» يأتي أناس ويقولون: لا نؤمن بالقَدَر. «وحَيف السلطان» أي: ظلم وجور السلطان، فإنّ هذا خافه النبي صلى الله عليه وسلم على أمّته آخر الزمان، وهذا يدل على أنه سيقع وقوعًا كثيرًا منتشرًا، وإنّ شرَّه عظيم، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إنّ أخوَف ما أتخوَّف على أمّتي آخر الزمان» رواه أبو عمرو الداني، وذكره الألباني في الصحيحة، وقال: له شواهد كثيرة، يرتقي بها إلى درجة الصِّحة.

وهناك شيء يَتعلَّق بعلم التأثير يكون شركًا أصغر؛ وهو: اعتقاد أنّ النجوم أسباب لقَدَرِ الله عز وجل، فمَن يولَد في البرج الفلاني يكون سعيدًا بقدر الله، ومَن يولد في البرج الفلاني يكون جميلًا بقدر الله، فهؤلاء يقولون: الأمور بقَدَرِ الله وبمشيئة الله، ولكن يجعلون النجوم أسبابًا لأقدار الله، والله لم يجعلها أسبابًا؛ فهذا شرك أصغر؛ لأنّ من الشرك الأصغر أن يَجعل العبد سببًا لشيءٍ لم

يجعله الله سببًا شرعيًا له ولا عاديًا، فلم تدل الأدلة الشرعية على أنه سبب، ولم تدلّ الأدلة العادية المعلومة على أنه سبب، فجَعْلُه سببًا من الشرك الأصغر.

ويمكن إجمال هذه العلوم الأربعة إلى عِلمين:

الأوّل: عِلم التسيير. ويدخل فيها الأوّل والثاني والثالث. وهذا جائز على الراجح.

الثاني: علم التأثير. وهو النوع الرابع على ما فصّلناه.

[وَكَرِهَ قَتَادَةُ تَعَلُّمَ مَنَازِلِ الْقَمَرِ، وَلَمْ يُرَخِّصِ ابْنُ عُيَيْنَةَ فِيهِ، ذَكَرَهُ حَرْبٌ عَنْهُمَا. وَرَخَّصَ فِي تَعَلُّمِ الْمَنَازِلِ أَحْمَدُ وَإِسْحَاقُ]

هنا يتكلم المصنف عن حُكم تعلُّم منازل القمر والنجوم وأبراج الشمس من أجل معرفة العلامات، لا من أجل التأثير، تعلُّم التأثير مُجمَع على تحريمه وأنه داخل في الشرك، لكن ما حكم تعلُّم منازل القمر؟ لأنّ القمر له منازل في الشهر، كل يوم له منزلة، الله عز وجل قدَّر القمر منازل خلال الشهر، ثمان وعشرون منزلة، والشمس لها أبراج، اثنا عشر برجًا في السنة، وهذه الأبراج فيها الفصول الأربعة، في كل ثلاثة أبراج فيها فصل؛ الربيع والصيف والخريف والشتاء.

ما حكم تعلُّم منازل القمر وأبراج الشمس والنجوم أين تَطلُع وعلى أيِّ هيئة ومتى في الليل؟

اختلف السلف في تعلُّم ذلك من أجل معرفة العلامات:

- **فكَرِهَ بعض السلف ذلك، وكَرِهَ عند السلف يعني: حرَّم**. قال: (وَكَرِهَ قَتَادَةُ تَعَلُّمَ مَنَازِلِ الْقَمَرِ) أي: حرَّم ومَنَعَ من تعلُّم منازل القمر مطلقًا، (وَلَمْ يُرَخِّصِ ابْنُ عُيَيْنَةَ فِيهِ) أيضًا حرَّم ذلك ابن عيينة؛ وذلك سدًّا للذريعة، يخافون أن يتدرَّج الشيطان بالإنسان في تعلُّم هذه المنازل، فالأوّل يتعلَّم هذه المنازل لمعرفة الأماكن والعلامات، ثم يأخذه الشيطان خطوة يقول: أُدرُس ما يقوله هؤلاء من تأثير الأبراج في الكون! حتى يقع في المحذور، فقالوا: سدًّا للذريعة نحرِّم تعلُّم المنازل.

- **وذهب جمهور العلماء والخلَف إلى أنّ تعلُّم منازل القمر والنجوم وأبراج الشمس من أجل عِلم التَّسيير، من أجل غير المحظور: جائز**، بل النافع منه مستحب أو واجب؛ ولذلك قال: (وَرَخَّصَ فِي تَعَلُّمِ الْمَنَازِلِ أَحْمَدُ وَإِسْحَاقُ)، بل ذكر الإمام أحمد –رحمه الله– أنه تعلَّم شيئًا من هذا عن أهل مكة. وهذا هو الراجح الظاهر رُجحانه.

الدرس التاسع والثلاثون: تابع شرح بَابُ مَا جَاءَ فِي التَّنْجِيمِ

إنّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَن يهدي الله فلا مضلَّ له، ومَن يُضلل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء: ١]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: ٧١]

أمّا بعد:

فإنّ أحسن الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكلّ محدَثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النار.

أما بعد:

فمازلنا نشرح كتاب التوحيد، ولازلنا نشرح الأبواب الذي عَقَدَها الشيخ –رحمه الله– في أمور يَكثُر وُقوعها من جَمعات ممَّن يَنتسبون إلى الإسلام؛ وهي كفر أو شعبة من الكفر، عَقَدَها الشيخ –رحمه الله– لبيان حُكمها، وتحذير الأمّة منها، وهذه الأبواب يَجمعها اعتقاد التأثير، أو ادّعاءُ عِلم الغيب، أو جَعْلُ شيءٍ سببًا.

ونحن ما زلنا نشرح في باب ما جاء في التنجيم. وقد تقدّم أنّ العِلم الذي يُسمى بعِلم التنجيم يَنقسم من حيث التفصيل إلى أربعة أقسام:

القسم الأوّل: علم دراسة النجوم من جهة ترتيبها ومواقعها ونحو ذلك. وهذا علم جائز مباح، لا محظور فيه، ولا يؤدِّي إلى محظور.

القسم الثاني: عِلم دراسة النجوم من جهة كونها علامات على الأماكن، كمعرفة الجهات الأربع الأصلية، ومعرفة الجهات الفرعية، ومعرفة اتجاه القبلة، وهذا العِلم جائز بل مستحب؛ لأنّ فيه نفعًا للناس في دينهم ودنياهم، وكلُّ عِلم فيه نَفْع للناس في دينهم ودنياهم فتعلُّمه مستحب. بل قد يكون تعلُّم هذا العِلم واجبًا؛ إذا كان يترتَّب عليه واجب؛ كمعرفة جهة القبلة للصلاة.

القسم الثالث: عِلم دراسة النجوم من جهة كونها علامات على أمور تقع في المستقبل على جهة الاعتياد. فتُعرَف هذه لعلامات على جهة العادة والتجربة والدراسة؛ مع عدم اعتقاد تأثيرها، بل الاعتقاد أنّ الموجِد هو الله سبحانه

وتعالى، وإنما هي علامات على قَدَرَ الله عز وجل جَعَلها ربي سبحانه وتعالى وعلَّمنا إياها، وهذا جائز مباح، لا حَرج فيه.

والْحظوا أنّا قلنا: "من جهة كونها علامات على أمور تقع بحكم الاعتياد من غير اعتقاد تأثير النجوم فيما يقع"؛ لأنه لو اعتقد معتقِد أنّ النجوم مؤثِّرة بذاتها في هذه الأمور فهذا كفر وشرك أكبر.

لكن إذا كان من باب أنها علامات على أمور تقع في المستقبل؛ كحصول المَدّ والجزر في البحر، وحصول الكسوف والخسوف، ووقت نزول الأمطار، ونحو ذلك، من جهة كونها علامات، ولذلك القائل بها يقول: إنّ الكسوف يحدث في وقت كذا إن شاء الله عز وجل، وهو يعلم أنّ هذه العلامة قد تَصدُق ويتحقق الأمر، وقد يتخلف الأمر، فالأمر كله لله سبحانه وتعالى، وإنما هذه علامات، وهذا العلم: جائز.

ويَجمع هذه الأقسام الثلاثة: أنها علم التسيير، علم يَنبني على دراسة سير النجوم، ويُعرَف منه أمور جعلها الله عز وجل تُعرَف بذلك، وهي أمور محسوسة، وليست أمورًا موهومة وخيالات.

القسم الرابع: عِلم التأثير؛ بحيث تُدرَس هذه النجوم، ويُعتقَد بأنها مؤثّرة في الكون بذاتها، وأنّ الكوكب الفلاني يوجِد كذا وكذا، ويَحصل منه كذا وكذا،

وهذا شرك أكبر وكفر أكبر؛ لأنّ مَن اعتقد ذلك فقد جعل ما لله لغير الله سبحانه وتعالى، واعتقد أنّ للكون مدبِّرًا مع الله سبحانه وتعالى، وهذا شرك في الربوبية.

وكذلك؛ يدخل في علم التأثير: ادّعاء علم الغيب بالنظر في النجوم، بحيث يدّعي المدّعي أنه بعلمه بالكواكب والنجوم والفَلك يَعرِف ما يَحصل في هذه السنة، أو في هذا الأسبوع، أو في هذا اليوم، أو ما يَحصل لهذا العَبد بعينه، وهذا شرك أكبر، وكفر أكبر؛ لأنّ فيه ادّعاء عِلم الغيب، ومشاركة الله عز وجل في عِلم الغيب.

ويُلحَق بهذا: ادّعاء أنّ النجوم والكواكب أسباب لِمَا يقع في الأرض؛ مع اعتقاد أنّ الأمر بقدر الله سبحانه وتعالى؛ وهذا شرك أصغر؛ لأنّ مَن اعتقد ذلك قد جَعَلَ ما ليس سببًا شرعيًّا ولا سببًا عاديًّا سببًا؛ وهذا من الشرك الأصغر.

ويَدخل في ذلك: ما يسمى بمعرفة الحَظ عن طريق الأبراج وعن طريق الفَلك، فيقال: اِعْرِف حظك اليوم، أو اعْرِف حظك هذا الأسبوع، أو اعْرِف حظك هذا الشهر، أو اعْرِف حظك هذه السنة! وما يَفعله بعض الناس عند انتهاء السنة الميلادية وبداية السنة الأخرى؛ يَجلسون ويأتون بدجالين يسمونهم علماء الفلك، يقولون: هذه السنة سيحدث فيها من المصائب كذا وكذا، وسيموت فيها أربعة من الكبار، وسيموت فيها مشهور، ونحو ذلك! فإنّ هذا –والعياذ بالله– يدخل في هذا النوع، فإن اعتُقِد أنّ هذه الكواكب مؤثرة بذاتها؛ فهذا شرك

أكبر، وإن اعتُقد بأنها أسباب وأنّ الأمر بقدر الله؛ فهذا شرك أصغر. وكنا قد شرحنا بعض ما أورده الشيخ في الكتاب، وبقي لنا بعضه، نكمله اليوم.

[وَعَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «ثَلَاثَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ: مُدْمِنُ الْخَمْرِ، وَقَاطِعُ الرَّحِمِ، وَمُصَدِّقٌ بِالسِّحْرِ» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ]

هذا الحديث رواه أحمد وابن حبان في صحيحه؛ كما قال المصنِّف، ورواه الحاكم في "المستدرَك"، ورواه الطبراني، وغيرهم، وقد صحَّحه ابن حبان، وصحَّحه الحاكم، وأشار إلى ضعف في إسناده ينجبر، وفي إسناده ضَعف ومقال؛ لكنّ الشيخ ناصر الألباني -رحمه الله- ذكر للحديث طريقين، ثم قال: الحديث بمجموع الطريقين حسن، وقال في صحيح الترغيب: صحيح لغيره، فالحديث بمجموع طرقه ثابت، ولا شك أن معناه صحيح، فإن الذي فيه قد دلت عليه أدلة كثيرة.

قال: (عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: (ثَلَاثَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ»، «ثلاثة» ليس المقصود حَصْر الذين لا يَدخلون الجنة في هذه الأصناف الثلاثة، وإنما المقصود: التحذير من الوقوع فيما يتَّصف به أهل هذه الصفات، «لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ» ما معنى لا يدخلون الجنة؟

- **قال بعض أهل العلم**: معناه: أنهم لا يدخلون الجنة أبدًا، وأنهم يُخلَّدون في النار، وذلك إذا استحلُّوا هذه الأمور العظيمة ورأوها حلالًا؛ فإن هذا كفر يُخرِجهم من ملة الإسلام، وبهذا لا يكونون من أهل الجنة أبدًا.

- **وقال بعض اهل العلم**: معنى «لا يدخلون الجنة»: أي ابتداءً؛ فهم لا يدخلون الجنة ابتداءً؛ وإنما يؤخَّرون عن دخول الجنة، بل –والعياذ بالله– يؤخرون عن دخول الجنة زمنًا طويلًا، فهم من أواخر مَن يدخل الجنة؛ وذلك إذا كانوا مرتكبِين لهذه الكبائر غير مستحلِّين لها، فإنّ ارتكابهم لهذه الكبائر وإصرارهم عليها لا يُخرجهم من ملة الإسلام لكنه ذنب عظيم يَترتَّب عليه –والعياذ بالله– دخول النار، والبقاء فيها مدة طويلة، والبُعد عن الجنة مدة طويلة، وهذا لا شك أنه عذاب عظيم، فإنّ المعلوم أنّ الغمسة الواحدة في النار عذاب عظيم، «فإنه يؤتى يوم القيامة بأنْعَم رجل كان في الدنيا من أهل النار؛ فيُغمَس غمسة في جهنم، فيقال: هل رأيتَ نعيمًا قط؟ فيقول: لا ما رأيت نعيمًا قط»، وإنّ أهوَن الناس عذابًا في جهنم رجل في أخمص قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه، وهو في ضَحْضَاح من النار، ويقف على جمرتَين يغلي منهما دماغه، فكيف –والعياذ بالله– بمَن يدخل جهنم؟ وكيف –والعياذ بالله– بمَن يبقى فيها زمنًا طويلًا؟! من هؤلاء؟ قال صلى الله عليه وسلم: «مُدْمِنُ الْخَمْرِ»، والخمر: هو ما خامَر العقل وغطاها من مشروب أو مشموم أو غير ذلك، كلُّ ما يغطي عقل

الإنسان بتعاطي الإنسان فهو خَمر، قال ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– على المنبر بحَضرة صحابة النبي صلى الله عليه وسلم؛ حيث قال: (الخمر ما خامَر العقل)، وأقرّه على ذلك صحابة النبي صلى الله عليه وسلم؛ فهو إجماع منهم. وبهذا نَعرِف خطأ بعض المسلمين الذين يتساهلون في بعض ما يغطي العقل، ويقولون: إنه ليس خمرًا، ويظنون أنّ الخمر هو المشروب فقط! فنجد بعض المسلمين يتساهلون في الحشيش، ويشربونه كالدخان، ويقولون: هو مكروه مثل الدخان –مع أنّ الدخان بذاته حرام– لكن يظنون أنه ليس من الخمر، وهو –والله–من الخمر؛ لأنه يغطي العقل، كذلك الذين يتساهلون في تناول القات، ويضعونه في أفواههم، ويقولون: إنّا ما شربنا شيئًا، وإنه ليس خمرًا! وهو خمر، فإنّ الخمر ما خامَر العقل، والنبي صلى الله عليه وسلم قال: «كلُّ مُسْكِرٍ خمر، وكلُّ مُسْكِرٍ حرام»، فكل ما أسكر العقل، وغطّى العقل، وغيَّر العقل؛ فهو خمر، «وكل مسكر حرام» على الإطلاق.

ومدمن الخمر هو المداوم على شربها حتى يموت غير تائب منها، فهو يتعاطاها دائمًا ويداوم على شربها، ويموت –والعياذ بالله– وهو مدمن لها.

والمدمن للخمر إن كان مستحلًّا لها فهذا كفر –والعياذ بالله– يُخرج من الملة؛ لأنّ حُرمة الخمر قطعية، والعلم بها قطعي، لكن إذا كان الإنسان لا يَعلَم أنّ ما يتعاطه خمر وكان مستحلًّا له؛ فهذا جاهل، لا يقال: إنه كافر لأنه مستحلّ،

حتى يُعلَّم، فيُعلَّم أنّ هذا خمر، وتقام عليه الحجة، فإذا عَلِمَ ثم استحلَّها فإنه يَكفُر. ولذلك لو جاءنا إنسان يعيش بين ظهراني المسلمين وقال: شرب الخمر حلال! فإنّا نقول: إنّ هذا كفر يُخرج من الملة. وإذا جاءنا إنسان قال: الحشيش حلال، أو القات حلال، أو مكروه ليس حرامًا! فإنّا ننظر: فإن كان عالمًا بأنها خمر ومع ذلك استحلها؛ فهذا كفر أكبر.

أمّا إذا لم يَعلَم أنها خمر فإنّا لا نكفِّره؛ ولكنّا نعلِّمه، ونبيِّن له، ونقرِّر له بالأدلة أنّ هذا الذي يتعاطاه خمر.

وشرب الخمر كبيرة في ذاته، لكنّ إدمان الخمر أشدّ وأعظم، والذي يُدمِن الخمر –والعياذ بالله– متوعَّد بألَّا يدخل الجنة؛ والأمر كما ذكرنا:

- إن كان مستحلًّا لها مع الإدمان؛ فهو لا يَدخل الجنة أبدًا.
- وإن كان غير مستحلّ لها؛ فهو لا يَدخل الجنة ابتداء، فهو متوعَّد بهذا الوعيد الشديد.

يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «ثلاثة لا يدخلون الجنة أبدًا: الديُّوث، والرَّجْلة من النساء، ومدمن الخمر» رواه البيهقي في "الشُّعب"، وصحَّحه الألباني. «ثلاثة لا يدخلون الجنة أبدًا» أي أنهم –والعياذ بالله– يَدخلون النار، ويمكسون فيها زمنًا طويلًا كأنهم مؤبَّدون. «الديُّوث»: هو الذي يَرضى الفجور والزنى في أهله، ولا يغار إذا رأى الفجور في أهله، والعياذ بالله بعض المؤمنين

اليوم يظنون أنّ من التحضُّر أن يَسمَح لابنته أن تصاحِب صديقًا، وأن تمشي معه، وأن تواعده، وأن يبقى معها، بل وأن يواقعها ويزني بها، ويرَون هذا من التحضُّر، وأنّ مَنْعَ هذا من التزمُّت! ولا شك أنّ مثل هذا يَدخل في الدِّياثة والعياذ بالله، ولذلك ينبغي على المؤمنين أن تكون عندهم غَيرة على محارم الله، وأن تكون عندهم غَيرة على أعراضهم، وألَّا يرضى المسلم بالخَبَثِ في أهله، وألَّا يرضى بالزنى في أهله أبدًا. «والرَّجْلة من النساء»: هي التي تتشبَّه بالرجال، وتفعل أفعال الرجال، وهو الذي ظهر في هذا الزمان، وأصبح بعض النساء يَتشبَّهن بالرجال حتى في اللباس والتصرُّفات، بل إنّ بعضهن يَعملن الرياضة من أجل تربية العضلات من أجل أن يكنّ كالرجال، وهذه هي المقصودة في الحديث، والعياذ بالله. «ومدمن الخمر» وهذا الشاهد من الحديث.

وفي الحديث الآخر: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ثلاثة لا يَدخلون الجنة: العاقّ لوالديه، والمدمن على الخمر، والمنّان بما أعطى» رواه النسائي، وصحَّحه الحاكم والذهبي والألباني. «العاق لوالديه» العاق لهما بأيِّ أنواع العقوق، باللفظ مثلًا؛ أن يقول لأبيه أو لأمّه: أفٍّ لكما، أو أن يقول لأبيه: أفٍّ لك أتعبتني، أو يقول لأبيه: ما أكثر ما تطلب مني، أو يقول لأبيه: أنت مزعج، أو يقول لأبيه: أنت لست كسائر الآباء، فهذا عقوق. أو كان عقوقًا بالفعل؛ كقطع الزيارة، وقطع إعطاء المال، والضرب أحيانًا، والعياذ بالله، فكل عقوق الوالدين

يَدخل في هذا الوعيد الشديد، والعياذ بالله. قال: «والمدمن على الخمر»، «والمنان بما أعطى» الذي يعطي الناس ثم يعود عليهم بالمَنّ، كلّما أعطى أحدًا مَنّ عليه بما يُعطي، والمَنّ بالعطية على المؤمنين من كبائر الذنوب، وليس المراد أن يَفعل ذلك مرة، وإنما المراد أن تكون ذلك صفة له، ولذلك قال: «المنّان» والمنان: هو المُكثِر بالمَنّ على عباد الله عز وجل، فالمَنّ مرة واحدة معصية، ولكنّ المقصود هنا أن يكون الإنسان متَّصفًا بهذه الصفة العظيمة. قال: «وَقَاطِعُ الرَّحِمِ» والرحم: هي القرابة من جهة الأب أو من جهة الأم. وصلة الرحم واجبة، وهي تكون بحسب حال الإنسان، وبحسب القرابة الموصولة، فليس وَصْلُ الأقارب درجة واحدة، بل هذا يَختلف بحسب حال الإنسان نفسه من غِنى وفقر وقُرب وبُعد، وبحسب درجة القرابة، فالعم ليس كابن العم، وابن العم ليس كابنة العم، ونحو ذلك، فإنّ الصلة إنما تكون بالجائز، يعني إن ابن العم تكون صلته مثلًا بالزيارة والحديث معه ما بين الفينة والفينة، أمّا ابنة العم فلا تكون صلتها بالزيارة، وإنما تُزار بالإحسان ونحو ذلك.

وقطيعة الرحم –والعياذ بالله– سبب للحرمان من الجنة، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: « لا يدخل الجنة قاطع» رواه الشيخان. «قاطع» أي: لرَحِمِه؛ كما ورد ذلك مصرَّحًا به في بعض الروايات.

وقاطع الرحم –عياذًا بالله من القطيعة– لا يجد خيرًا أبدًا، وكيف يجد الخير وقد قَطَعَه الله عز وجل؟! كيف يَتسلل الخير إلى مَن قطع رَحِمَه فقطعه الله؟! وقد قال الله عز وجل للرَّحم: «أمَا ترضَين أن أَصِلَ مَن وَصَلَك، وأن أقطع مَن قَطَعَك، قالت: بلى. قال: فذاك لكِ» متفق عليه، فالله عز وجل جعل للرَّحم أن يَصِلَ مَن وصلها، فالذي يَصِلُ رَحِمَه يُبشِر بالخير حتى لو كان عنده نَقص، فإنّ الغالب أنّ واصل الرَّحم يؤول أمره إلى خير؛ لأنّ الله عز وجل يَصِلُه. وأعظم الصلة: الهداية إلى صراط الله المستقيم، أمّا قاطع الرَّحم فإنه لا يُبشَّر إلا بالشر، حتى لو كانت له حال في الدنيا مستقيمة، فإنّ الغالب أنّ أمره يؤول إلى شر، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ما من ذنب أَجْدَر أن يُعجِّل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر له في الآخرة: من البغي، وقطيعة الرحم» رواه أبوداود، والترمذي، وابن ماجه، وصحَّحه الألباني. فقطيعة الرَّحم ذنب تُعجَّل عقوبته في الدنيا، ويرى القاطع أثر جريمته وهو يسير على الأرض، ولو لم يكن إلا أن يرى القطيعة في أولاده له لكفى بذلك عقوبة، فكيف وهو مهدَّد بأنواع العقوبات؟!

وقطيعة الرحم تمنع الإنسان –والعياذ بالله– من رحمة الله، ومن مغفرة الله سبحانه وتعالى، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «إنّ أعمال بني آدم تُعرَض كل خميس ليلة الجمعة، فلا يُقبَل عمل قاطِع رَحِم» رواه أحمد، وحسَّنه الألباني

والأرناؤوط. فأعمال بني آدم تُعرَض على ربنا سبحانه وتعالى كلّ خميس ليلة الجمعة فيَقبل الله الصالح من أعمال عباده –جعلني الله وأياكم ممَّن يَقبَل الله أعمالهم– إلا قاطع الرحم؛ فإنّ قاطع الرحم لا يَقبَل الله عمله؛ حتى لو كان مخلِصًا فيه، وحتى لو كان على سنة فيه، فتحقَّقت شروط القبول من كونه مخلصًا لله ومتَّبعًا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنّ قطيعة الرحم مانع يَمنع من القبول والعياذ بالله.

لذا؛ قطيعة الرحم شأنها عظيم، وجُرمها كبير، وأثرها على الإنسان عظيم، ولذلك ينبغي علينا أن نتواصى بصلة الرحم، وأن يحذِّر بعضنا بعضا بقطيعة الرحم، وأنّ من أعظم حقوق أخيك عليك إذا رأيته قاطعًا للرحم أن تحذِّره من هذا الذنب، وأن تحاول أن تَزجُره عن هذا الذنب بذكر النصوص في ذلك.

قال: «وَمُصَدِّقٌ بِالسِّحْرِ»، التصديق بالسحر له معنيان يخلِط بينهما بعض الناس فيخطئون:

المعنى الأوّل: التصديق بوجود السحر وبوقوعه وأنه يؤثر أثرًا حقيقيًّا بإذن الله القدري، فيصدِّق الإنسان أنّ هناك سحرًا، وأنّ السحر واقع من بعض الأشرار، وأنه قد يُفرَّق به بين المرء وزوجه بإذن الله القدري، وقد يُمنَع بسببه الإنسان من الخير؛ فيُحبَس في بيته، فلا يستطيع أن يَخرج، ولا يستطيع أن يَخرج إلى المسجد، أو يُمنَع من الولد فلا يُنجِب، بل قد يتسبب ذلك في الأمراض

الحسية كالسكر ونحو ذلك بإذن الله القدريّ. وهذا ليس ممنوعًا بل هو من الدين أن تصدِّق بذلك؛ لأنّ الأدلة من القرآن والسنة والواقع المعلوم قد دلَّت على ذلك دلالة بيِّنة.

المعنى الثاني: تصديق السَّحرة واعتقاد أنّ لهم تأثيرًا في الكون، أو اعتقاد أنهم يعلمون الغيب، أو أنهم يتسلطون على الجن والجن يؤثِّرون في الكون، أو نحو ذلك، وهذا هو المذموم، والخَلْطُ بين المعنيَين يؤدِّي إلى فساد، فقد سَمِعْنَا بعض الناس يُنكِر وُجود السحر ويقول: إنّ التصديق بوجود السحر حرام؛ لأنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ثلاثة لا يَدخلون الجنة»، وقال: «ومصدِّق بالسحر»، إذن من صدَّق بالسحر لا يَدخل الجنة! وهذا خَلْطٌ، وكيف يقول النبي صلى الله عليه وسلم ذلك وقد جاء إثبات السحر في القرآن، وسُحِرَ هو صلى الله عليه وسلم فيما يتعلق في أمره مع نسائه؟! ولم يكن سحره فيما يتعلق بالدين والوحي، وإنما فيما يتعلق بنسائه، فكان يُخيَّل إليه صلى الله عليه وسلم أنه جامع امرأته وهو لم يجامعها، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يقوم ليغتسل من الجنابة؛ ظنًّا أنه جامَع، وهو لم يجامِع، ولكنّ المقصود هو المعنى الثاني.

وقد تقدَّم معنا أنّ مَن يُصدِّق أنّ السحرة يؤثّرون بذواتهم، أو أنّ الجن الذين يَستعينون بهم يؤثّرون بذواتهم، أو أنهم يَعلَمون الغيب، أو يخافهم خوف السر؛ أنّ هذا شرك أكبر، وكفر يُخرِج من الملة.

ما مناسبة هذا الحديث لباب التنجيم؟ مناسبته لباب التنجيم: في قول النبي صلى الله عليه وسلم: «ومصدِّق للسحر»، سبحان الله! أين التنجيم من السحر؟ نقول: تذكروا ما تقدّم معنا في الحديث؛ أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مَن اقتبس شعبة من النجوم؛ فقد اقتبس شعبة من السحر، زاد ما زاد». «مَن اقتبس شعبة من النجوم» أي بعِلْمِ التأثير «فقد اقتبس شعبة من السحر»، « زاد ما زاد» أي: كلّما زاد اقتباسًا من عِلْمِ التأثير للنجوم زاد سِحرًا.

إذن؛ التنجيم نوع من السحر؛ لأنّ التنجيم ادّعاء الأثر وعلم الغيب بأمور خفية لا تُعلَم، فهو كالسحر؛ ولأنّ له أثرًا في نفوس الناس من صدِّهم عما يريدون، فبعض الناس إذا كان يريد أن يسافر هذا الأسبوع فتح الجريدة فلمّا قرأ: حظّك هذا الأسبوع، وجد أنهم قالوا: ستَحدث لك مصيبة هذا الأسبوع! قال: إذن نؤجِّل السفر إلى الأسبوع القادم! فهو يؤثر في قلوب بعض الناس كتأثير السحر.

إذن؛ مَن صدَّق بالنجوم وتأثيرها فهو مصدِّق بالسحر؛ لأنّ النجوم شعبة من السحر.

[فِيهِ مَسَائِلُ: الْأُولَى: الْحِكْمَةُ فِي خَلْقِ النُّجُومِ]

كما تقدّم؛ أنّ النجوم والكواكب من خَلق الله العظيم الذي فيه آيات كبرى، وأنّ الله عز وجل لا يَفعل شيئًا إلا لحكمة، ثِقْ أيها المؤمن أنك لا ترى شيئًا في

الكون إلا ولله فيه حِكمة، فالله لا يَخلق شيئًا عبثًا. والنجوم لها حِكم عظيمة منها:

الحكمة الأولى: أنها زينة للسماء، فالله عز وجل جعلها زينة للسماء، وهذا ينعكس على العبد من جهة صفاء خاطره، ومن جهة سعادة قلبه، فالإنسان إذا نظر في النجوم ورأى عظيم خِلقتها وتَفكَّر فيها، ورأى تلألؤها وجمالها صفى قلبه وارتاح بهذه الزينة العظيمة التي جعلها الله عز وجل، بل ويزداد إيمانه.

الحكمة الثانية: أنّ النجوم تُحفَظ السماء بها من الجن، من استراق السمع، فهي رجوم للشياطين.

الحكمة الثالثة: أنها علامات على الجهات؛ نهتدي بها.

هذه هي الحِكم العظيمة من خَلق الله النجوم، علَّمنا الله إياها، وبيَّنها لنا.

[الثَّانِيَةُ: الرَّدُّ عَلَى مَنْ زَعَمَ غَيْرَ ذَلِكَ]

مَن علَّق بالنجوم أمرًا غير هذه الثلاث فقد أخطأ وضَلّ وغوى، فإنّ هذه الثلاث هي الحِكمة من خَلق النجوم.

[الثَّالِثَةُ: ذِكْرُ الْخِلَافِ فِي تَعَلُّمِ الْمَنَازِلَ]

أي: ذِكْر الخلاف في تَعلُّم المنازل للاهتداء بها في السير، وليس الاختلاف في تَعلُّم النجوم من أجل التأثير؛ لأنّ هذا متَّفق على أنه شرك وحرام، وإنما السلف اختلفوا في هل يجوز للمسلم أن يَتعلَّم منازل النجوم ليَعرف جهة

الشّمال من الجنوب من الشرق من الغرب من جهة القبلة؟ فبعض السلف حرَّم ذلك سدًّا للذريعة، لكنّ جمهور أهل العلم من السلف والخَلَف على أنّ هذا ليس حرامًا؛ بل هو مستحب، وهذا الراجح. لكنّ المقصود إذا كان السلف قد اختلفوا في تَعلُّم المنازل لأمر مباح، فكيف بتعلُّم منازل النجوم لأمر يُضادّ الدين؟ لا شك أنه حرام قطعًا.

[الرَّابِعَةُ: الْوَعِيدُ فِيمَنْ صَدَّقَ بِشَيْءٍ مِنْ السِّحْرِ، وَلَوْ عَرَفَ أَنَّهُ بَاطِلٌ]

في بعض النسخ: (الوعيد الشديد) وهو أقرب، وهو أنه لا يَدخل الجنة، قال: «فِيمَنْ صَدَّقَ بِشَيْءٍ مِنْ السِّحْرِ»، السحر شُعَبٌ كثيرة، فمَن صدَّق بشيء من السحر كمَن صدَّق بالتنجيم المؤثِّر؛ فهو متوعَّد بألَّا يَدخل الجنة.

وانتبهوا لهذه الجملة! قال: «وَلَوْ عَرَفَ أَنَّهُ بَاطِلٌ»، بعض الذين لا يَفهمون طريقة العلماء في الكلام يقولون: هذا تناقض، كيف يصدِّق ويَعرف أنه باطل؟! وليس الأمر كذلك، لأنّ المقصود: ولو عَرَفَ أنه من صُنْع أهل الباطل، لو كان يَعرف أنّ هذا من صُنْع الأشرار وأهل السوء وأهل الضَّلالة لكن يُصدِّق بذلك.

أو المقصود: ولو عَرَفَ أنه حرام، فبعض الناس يقول: نعم هذا التنجيم واعرَفْ حظَّك هذا حرام، لكن أريد أن أعرف حظي، وأريد أن أعرف هل هذه البنت التي سأتزوجها تناسبني أو لا؟ يقال له: هل ستستشير؟ هل ستستخير؟ قال: لا، أنا سأنظر في الأفلاك، في النجوم، أسألها أنتِ مولودة متى؟ وأذهب إلى

هؤلاء المنجمين، وأقول لهم: أنا مولود في سنة كذا وفي شهر كذا وفي يوم كذا، وزوجتي مولودة في يوم كذا وشهر كذا وسنة كذا، انظرْ لنا هل نتناسَب؟ هل نتوافَق؟ يأتي هذا الذي يسمُّونه عالِم بالفَلك أو عالِم بالأبراج يَحسِب يقول: أنتَ من برج كذا وعمرك كذا، فهي كذا درجة، وامراتك كذا من برج كذا وعمرها كذا فهي كذا درجة، إذن: لا تتناسبان! فهذا يقول: أنا أعرف أنه حرام، لكن أريد أن أعرف هل تناسبني أو لا؟ هذا –والعياذ بالله– وقع في كبيرة عظيمة من كبائر الذنوب. هذا معنى «وَلَوْ عَرَفَ أَنَّهُ بَاطِلٌ» ولو عرف أنه من صُنع أهل الباطل، أو ولو عَرف أنه حرام، لكنه يُصدِّق به؛ بقوله أو عمله. بقوله: كأن يسأل. أو عمله: كل يوم يفتح الجريدة على حظك هذا اليوم.

وبعضهم مساكين يقول: أنا فقط أريد أن أتفاءل، وهذا من ضحك الشيطان عليهم، فالفأل هو الكلمة الطيبة، وليس صنع الدجالين والكذّابين الذين يخالفون شرع الله سبحانه وتعالى.

تابع الدرس التاسع والثلاثون: شرح بَابُ مَا جَاءَ فِي الِاسْتِسْقَاءِ بِالْأَنْوَاءِ

[بَابُ مَا جَاءَ فِي الِاسْتِسْقَاءِ بِالْأَنْوَاءِ]

هذا أخر الأبواب التي عقدها الشيخ في أمور يَكثُر وقوعها من جماعات ممَّن ينتسبون إلى الإسلام وهي كفر أو شعبة من الكفر، وهو متعلِّق بالباب الذي قبله من جهة تعلُّقه بالنجوم. وقد تقدّم في باب ما جاء في التطيُّر أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ولا نَوء»، ولذلك ناسَب أن يتكلم الشيخ –رحمه الله– هنا عن الاستسقاء بالأنواء.

والْأَنْوَاءِ: جمع نَوء، مِن ناء، وناء في لغة العرب تأتي بمعنيين:

المعنى الأوّل: مالَ إلى السقوط، فإذا مالَ إلى السقوط وكاد أن يَسقط يقال: ناء، كأنّ الشيء أَثْقَله فأخذ في السقوط.

المعنى الثاني: نَهَضَ بتثاقُل، كأنه يَحمل شيئًا ثقيلًا يُثقِله عن النهوض.

فالجامع بين المعنيَين: الثِّقَل.

والأنواء سُميت بذلك لأنّ النَّوء نجم إذا غاب مع طلوع الفجر طَلَعَ في قِبَالَته وفي حِيَالِه نجم في تلك الساعة من الجهة المقابِلة، يعني إذا غاب النجم عند الفجر في جهة المغرب، طلع مباشرة في نفس اللحظة نجم يساويه في جهة المشرق، فانظروا! النجم يَسقط والنجم يَظهر، هذا المعنى اللغوي الموجود هنا، فالنَّوء سُمي نوءً من هذا؛ لأنّ النجم الذي في جهة المغرب يميل إلى جهة

السقوط حتى يسقط، والنجم الذي في جهة المشرق في نفس اللحظة في الجهة المقابلة يَنهض ويَظهر؛ فسُمي نوءً.

وقد يراد بالنوء: الكوكب.

والعلماء المتقدِّمون يقولون: إنّ الأنواء عن العرب: ثمانية وعشرون نجمًا، تَعرف العرب مَطالِعها، وتُسمِّيها بأسماء، وهي في أزمنة السنة كلها، من بداية السنة إلى نهايتها، كلّما سقط نجم منها طلع نجم آخر؛ حتى تنتهي السنة، والعرب في الجاهلية كانوا يقولون: إذا طلع النَّوء هاجَت الرياح ونَزلت الأمطار، ثم أصبحوا يَنسِبون نزول المطر إلى النَّوء، ويقولون: مطرنا بنوء كذا، الذي أمطرنا هو نوء كذا.

والاِسْتِسْقَاء: هو طلب السُّقيا؛ لأنّ الألف والسين والتاء تدل على الطلب، فمعنى استسقى: أي طلب السقية.

والمراد بالاستسقاء بالنجوم هنا أمور:

الأمر الأوّل: طَلَبُ المطر من النجوم، يعني: الاستغاثة بالنجوم ، بالنوء، بالكوكب، وهذا قليل نادر حتى عند المشركين الأوائل. يقال: يا نوء أمطرنا! يا نوء ارزقنا المطر! وهذا شرك أكبر؛ لأنّ الدعاء عبادة، وهذا شرك أكبر في الألوهية، ومثله: أن يُطلَب المطر من المخلوقات –كالجن مثلًا– بالسؤال أو التقرُّب، يعني بعض المسلمين من أهل القرى في الجبال إذا غاب المطر

يذبحون ذبائح، ويتركونها في رؤوس الجبال، ما يذبحون على سبيل الصدقة رجاء أن يُنزل الله عليهم المطر، لا، بل يذبحون ذبيحة أو بقرة ويتركونها في رأس الجبل، ويطلبون بهذا المطر، لا يذبحونها لله، وإنما يذبحونها للجن وأمثالهم، هذا –والعياذ بالله– من الشرك الأكبر.

وبعض الناس إذا قَلَّ الماء في النهر يأتون ويَرمون بأشياء في النهر، بعضهم يرمون قطع معدنية، وبعضهم يرمون ورودًا في النهر، وبعضهم يرمون حيوانات في النهر؛ ليفيض الماء، فهؤلاء يَتقرَّبون بهذا إلى غير الله؛ وهذا شرك أكبر، وهذا مأخوذ من المشركين القدامى الذين يجعلون لكل شيء إلهًا، ويَعتقدون أنّ إله الماء في الأنهار، فكانوا إذا لم يأتِ فيضان للنهر في عام قدَّموا فتاة ورمَوها في النهر لهذا الإله، وانتقل هذا إلى بعض المسلمين، وهذا من الشرك الأكبر.

الأمر الثاني: نسبة المطر إلى النجوم، نسبة المطر إلى الأنواء، فيقال: مُطرنا بنوء كذا! فهنا إذا اعتقد أنّ النوء هو المؤثِّر وهو الذي أَوجَد وهو الذي أَنزَل؛ فهذا شرك أكبر يُخرج من الملة. وإن اعتقد أنّ الموجِد هو الله ولكنّ النوء سبب؛ فهذا شرك أصغر؛ لأنه جَعَلَ ما ليس سببًا شرعيًّا ولا عاديًّا سببًا.

هل يجوز أن يقول: مطرنا في نوء كذا؟ مطرنا في نوء الثُّريا؟ أو: يَنزل المطر علينا في نوء الثُّريا؟ هذا ليس من الممنوع؛ لأنّ هذا زمان حصول الأمر؛ كما تقول: مطرنا في الصيف، مطرنا في الشتاء، مطرنا في شهر محرّم، مطرنا في نوء

كذا، أو تقول: العادة أنّ المطر يَنزل على بلادنا في الثلاثة الأشهر الأُوَل من السنة الميلادية، هنا أنت تعتقد أنّ الذي يُنزِل المطر هو الله، ولا تَجعل النوء والوقت سببًا؛ ولكنك تُخبِر عن الزمن المعتاد لنزول المطر، فإن شاء الله أنزَل الله المطر في هذا، وإن شاء لم يُنزله.

لكن نَصّ أكثر العلماء على أنّ قول: "مطرنا في نوء كذا" مكروه، هو ليس من الممنوع الذي نتحدَّث عنه لكن قالوا: مكروه، كراهة التشبُّه في اللفظ، يعني هو قريب من قولهم: مطرنا بنوء كذا، فيُكرَه أن يقول الإنسان: مطرنا في نوء كذا، وإنما يقول مثلًا: مطرنا في شهر كذا، أو مطرنا في فصل كذا.

الأمر الثالث: نسبة النعمة باللفظ إلى غير الله. ليست النسبة هنا باعتقاد التأثير أو السببية، لا، وإنما نسبة النعمة بالألفاظ، فيقال: مطرنا بنوء كذا، لا باعتقاد أنها مؤثرة، ولا باعتقاد أنها سبب، لكن تُنسَب النعمة إليها لفظًا، وهذا نوع من أنواع الشرك الخفي، وهو شرك يتعلَّق بالألفاظ؛ حيث يَعرِف العبد نعمة الله ثم ينكرها بلسانه، حيث يَنسِبها إلى غيره، أو بفعله، والشيخ سيعقد بابًا خاصًّا لهذا في باب ما جاء في قول الله عز وجل: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النحل: ٨٣] ، هذا نوع من أنواع الشرك الخفي، حيث يَنسِب العبد النعمة إلى غير الله وقد لا يَشعر بذلك شعورًا بيِّنًا ولذلك هو خفي، مثل أن يقال: لولا الكلب لسُرِقْنا، يعني يأتي لصٌّ فيَنبح الكلب فيتنبَّه أهل البيت ويضيئون

النور فيَفِرّ اللِّص، فيأتي الإنسان بغير انتباه يقول: لولا الكلب لسُرِقْنَا، فنَسَبَ هذه النعمة إلى الكلب، وغَفَلَ قلبُه باللفظ عن الله عز وجل، فهذا شرك خفي.

بعض الناس يقول: والله لولا مهارة السائق لحصل لنا حادث فظيع، لولا مهارته مِتْنَا جميعًا! هنا الناظر يرى أنّ السائق ماهر، وتَصرَّف بحِكمة، فيَغفَل عن هذه القضية فيَدُبّ الشرك الخفي هنا فيَنسِب الأمر إلى السائق مباشرة، ويَغفَل قلبه عن المنعِم حقيقة وهو الله، هذا عند أهل العلم يسمى: بشرك الألفاظ، ليس شركًا في المعتقَد، هو من الشرك الخفي، لا يُخرِج من الملة؛ لكنه حرام.

الدرس السبعون: تابع شرح بَابُ مَا جَاءَ فِي الِاسْتِسْقَاءِ بِالْأَنْوَاءِ

إنّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَن يهدي الله فلا مضلَّ له، ومَن يُضلل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء: ١]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: ٧١]

أمّا بعد:

فإنّ أحسن الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكلّ محدَثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النار.

لا زلنا نتفقَّه في أمر عظيم، هو أعظم الحقوق، وأشرف الحقوق، ألا وهو التوحيد حق ربنا سبحانه وتعالى، حيث نشرح كتاب التوحيد، ولا شك أنّ أمّة

محمد صلى الله عليه وسلم لو فَهِمَت ما في هذا الكتاب لَمَا رَضِيَت به بديلًا، فإنما ما في هذا الكتاب هو ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم طيّبًا صافيًا نقيًّا. ولا شك أنّ المؤمن إذا فَهِمَ نصوص التوحيد فإنّ قلبه يطمئن، ويَشعر بحلاوة عظيمة هي أعظم من حلاوة العسل والسكر؛ إنها حلاوة الإيمان.

ولا زلنا نشرح في باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء، وقد تقدَّم معنا أنّ الِاسْتِسْقَاءِ بِالْأَنْوَاءِ يراد به أمور:

الأمر الأوّل: طلب المطر من النجوم والكواكب، والاستغاثة بالنجوم والكواكب، وهذا شرك أكبر يُخرِج من ملة الإسلام، وهو شرك في الألوهية؛ لأنّ هذا قد دعا الكواكب، والدعاء هو العبادة، فيكون عابدًا للكواكب، والعياذ بالله.

الأمر الثاني: نسبة إيجاد المطر، وإنزاله إلى الكواكب، فيقول القائل – والعياذ بالله مما يقول– إذا نَزَلَ المطر: الذي أَنزَل علينا هذا المطر هو الثُّريّا، أو نحو ذلك من الكواكب، وهذا شرك أكبر يُخرِج من ملة الإسلام؛ لأنه نَسَبَ ما لله لغير الله سبحانه وتعالى، وهذا شرك في الربوبية؛ لأنه جعل من المخلوقات ما يشارِك الله في تدبير الكون وإنزال المطر.

الأمر الثالث: أن يَعتقد أنّ النوء هو السبب، مع اعتقاده أنّ نزول المطر بأمر الله عز وجل، وهذا شرك أصغر؛ لأنه جَعَلَ ما ليس سببًا سببًا.

الأمر الرابع: أن يَعتقد أنّ المطر إنما نَزَلَ بأمر الله عز وجل، لكن يَنسِب باللفظ نزول المطر إلى النَّوء، وهذا من كُفر النعمة، وهو كُفر خَفيّ يَتعلَّق بالألفاظ ولا يُخرِج من الملة، فهو هنا لا يَنسب المطر إلى النَّوء اعتقادًا ولا تَسّبُّبًا، وإنما باللفظ فقط، وهذا كُفر النعمة. وسيأتينا في باب مستقلّ.

وتقدَّم: أنّ القائل لو قال: مُطرنا في نوء كذا، أنّ هذا لا يَدخل في المذموم؛ لأنّ المقصود أنّ وقت نزول المطر كان في النوء كذا، فهذا كقول القائل: مطرنا في شهر كذا، أو مطرنا في فصل الصيف، أو مطرنا في فصل الشتاء، أو مطرنا في فصل الربيع، ونحو ذلك، لكن نَصَّ كثير من العلماء على أنه يُكرَه أن يقول: مطرنا في النوء، أو مطرنا في نوء كذا؛ لِمَا في ذلك من مشابهة اللفظ القبيح؛ ولأن كلامه قد يُساء فَهمه، ويُساء الظن به، ويُنسَب إلى المعنى القبيح، وإنما يقول: مطرنا في يوم كذا، أو في شهر كذا، أو في فصل كذا.

وفي هذا المجلس نقرأ ما ذكره الإمام –رحمه الله عز وجل– ونعلِّق عليه. فيتفضل القارئ الكريم يقرأ لنا.

[وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: {وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ}]

هذه الآية جاءت في سياق الذَّم، قال الله عز وجل: {وَتَجْعَلُونَ} أي: وتُصيِّرون. «رِزْقَكُمْ» أي: شكركم؛ على ما فسَّرها به كثير من السلف؛ ومنهم ابن عباس –رضي الله عنهما– فمعنى الآية: أنكم تُصيِّرون شكركم لله على نعمة

المطر أنكم تكذِّبون، فتَنسِبون هذه النعمة إلى غير مُسدِيها؛ فتقولون: مُطرنا بنوء كذا، وصَدَقَ نوء كذا، وصَدَقَنَا النوء، ونحو ذلك من العبارات القبيحة التي تُنسَب فيها نعمة المطر إلى غير الله عز وجل، فهذا يدلّ على أنه لا يجوز أن يُنسَب المطر إلى غير الله عز وجل، وإلى غير رحمة الله سبحانه وتعالى. وقد تقدّم أنّ هذه النسبة يَختلف حكمها بحسب الاعتقاد.

[وَعَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ –رضي الله عنه– أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: ((أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ لَا يَتْرُكُونَهُنَّ: الْفَخْرُ بِالْأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ، وَالِاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ، وَالنِّيَاحَةُ)). وَقَالَ: ((النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا، تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ، وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ))،رَوَاهُ مُسْلِمٌ]

قال: «أَرْبَعٌ» أي: أربع خصال، وليس المقصود هنا الحصر، وإنما المقصود عَدّ هذه الأربع. «فِي أُمَّتِي» أي: تكون في أمّة الإجابة، ولا تَنقطع، قال العلماء: "والمقصود أنها توجَد في مجموع الأمّة، لا من جميع الأمّة"، وبعبارة أخرى: المقصود أنها تقع من بعض الأفراد لا من جميع المسلمين، فهي لا تَنقطع من الأمّة لكنها لا توجَد من جميع الأمّة، بل هناك من الأمّة مَن يَسلَم منها، لكنها تقع من بعض المسلمين.

قال: «مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ» أي: من شأن الجاهلية، ومن صفات أهل الجاهلية، والجاهلية هنا المراد بها: الجاهلية المطلَقة، والجاهلية المطلقة: هي ما بين انقطاع الرُّسل وبعثة النبي صلى الله عليه وسلم. فإنّ المعلوم أنّ النبي صلى الله عليه وسلم بُعِثَ على انقطاع وفترة من الرسل، فما قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم إلى بعثة عيسى عليه السلام أو فترة الرسل هذه تسمى جاهلية مطلَقة، نسبة إلى الجهل؛ لأنّ الغالب عليها هو الشرك والكفر والمعاصي، وكل مَن عصى الله فهو جاهل.

وهذه الجاهلية المطلَقة قد انفصمت ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم، فلن يكون في الأرض بعد النبي صلى الله عليه وسلم جاهلية مطلَقة، وإنما قد يكون هناك جاهلية نسبية كأن توجَد في مكان دون آخر [انقطاع ١٣: ٢٠]،

أو أن تَصِفَ فرد بصفة من صفات الجاهلية، أمّا الجاهلية العامّة التي تَعُمّ الأرض فلن تكون بعد بعثة النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنّ هناك طائفة من أمّة محمد صلى الله عليه وسلم منصورة، وفِرْقَة ناجية، تتمسك بالحق وتُظهِر الحق حتى يأتي أمر الله، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: «مَن قال هَلَكَ الناس فهو أهلكَهم»، وفي رواية: «فهو أهلكُهم» رواه مسلم في الصحيح. من قال على سبيل الازراء والتنقُّص: هَلَكَ الناس؛ فهو أهلكَهم؛ أي: أشدّهم هلاكًا، وفي

رواية: فهو أهلكُهم؛ أي أنه هو الذي تَسبَّب في هلاكهم، فلا يصح أن يقال: هَلَكَ الناس؛ على سبيل الازراء والاحتقار للناس، أو على سبيل التعميم.

أمّا الجاهلية النسبية فتقال، ولذلك النبي صلى الله عليه وسلم يقول في هذه الحديث: «أربعٌ في أمّتي من أمر الجاهلية»، فهذا شيءٌ نسبيّ، ولذلك لمّا تَسابَّ أبو ذر رضي الله عنه مع رجل فعيَّره بأمِّه، قال له النبي صلى الله عليه وسلم: «أعيَّرته بأمِّه؟! إنك امرؤ فيك جاهلية» رواه البخاري. وجاء في الروايات الأخرى الصحيحة أنّ أبا ذر سَبّ بلالًا –رضي الله عنه– وقال له: "يا ابن السوداء"؛ على سبيل الاحتقار والتنقُّص، وإلا فالسواد لونٌ ليس فيه عيب مطلقًا، بل هو كالبياض وغيره من الألوان، ولكنّ المقصود أنّ العبارة خرجت من أبي ذر على سبيل التعيير بأنه كان عبدًا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «أعيَّرته بأمِّه؟! إنك امرؤ فيك جاهلية». إذن الجاهلية النسبية قد توجَد في أمّة محمد صلى الله عليه وسلم.

قال: «لَا يَتْرُكُونَهُنَّ» أي: أنّ هذه الصفات والخصال لن تَنقطع بالكلية، وليس المقصود أنّ كل فرد من الأمّة لن يَتركهن، فمن الأمّة مَن سيَترك هذه الصفات، ولكنّ المقصود أنّ هذه الخصال لن تَنقطع في أمّة محمد صلى الله عليه وسلم.

قال: «الْفَخْرُ بِالْأَحْسَابِ»، الفخر: هو التعالي على الناس والتَّعاظُم، والفخر مذموم في ذاته، وصفات المؤمنين التواضع، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إنّ الله أوحى إليَّ: أن تواضعوا، حتى لا يفخر أحد على أحد» رواه مسلم في الصحيح. قول النبي صلى الله عليه وسلم: «إنّ الله أوحى إليَّ» لتأكيد الأمر وتعظيم الأمر في النفوس، وإلّا فكلُّ السُّنة وحْي من الله عز وجل، فالنبي صلى الله عليه وسلم لا ينطق إلا بالوحي، ولكنّ هذا لاستثارة النفوس. قال: «إنّ الله أوحى إليَّ: أن تواضعوا» أي: يا معاشر المؤمنين «حتى لا يَفخر أحد على أحد».

قال: «الفخر بالأحساب»، الأحساب: هي شَرف الآباء والأجداد، وقد يُراد بها شَرف الإنسان نفسه. فُسِّر الحَسَبُ بهذا وبهذا. والفخر بالأحساب معناه: تعداد الإنسان شَرَفَهُ والخصال التي تكون فيه وفي آبائه وفي أجداده على سبيل التعاظُم والتعالي على الناس. وهذا من صفات أهل الجاهلية. هل يعني هذا أنّ الأحساب لا توجد؟ الجواب: لا، بل الأحساب ثابتة، وتَفاضُل الناس في الشَّرف بحسب الأصول ثابت، ولذلك سأل الصحابة الرسول صلى الله عليه وسلم: مَن أكرم الناس؟ فقال صلى الله عليه وسلم: «أكرمهم أتقاهم»، قالوا: ما عن هذا نسأل، فقال: «أكرمهم نبي الله يوسف؛ نبي ابن نبي، ابن نبي، ابن خليل الله»، قالوا: ما عن هذا نسأل، قال: «تسألون عن معادن العرب؟»، قالوا: نعم،

قال: «خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فَقِهُوا». فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يُنكِر عليهم أنّ للعرب معادن وأحساب، بل أثبت هذا؛ ولكن بيَّن لهم أنّ الخَيْرِيّة ليست بالحسَب المجرَّد؛ وإنما خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فَقِهوا، فإذا جمع الإنسان بين شَرف الحسب وتقوى الله عز وجل فهذا أعظم وأرفَع لشأنه. أمّا إذا كان الشخص حسيبًا لكنه قليل التقوى فإنّ هذا ليس فيه شرف وكرم، وإنما الكرم بتقوى الله عز وجل. فإذا كان الإنسان حسيبًا في شرفه ونسبه مع تقواه لله عز وجل فهذا أعظم في شرفه. أيضًا؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم: «تجدون الناس معادن، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فَقِهُوا»، فمَن كان من الأشراف في الجاهلية وأسلم وكان فقيهًا؛ فإنه شريف. والحديثان في الصحيحين؛ عند البخاري ومسلم.

وأيضًا؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم: «تُنكَح المرأة لأربع: لحَسَبِها»، فأثبت الحسب وأنّ هناك حَسَبًا، ولكن بيَّن أنّ الخيرية في أن تُنكَح المرأة لدينها: «فاظفر بذات الدين تَرِبَتْ يداك».

إذن؛ الحسب من حيث ذاته ليس منفيًّا، ولكنّ الحرام أن يتعالى الإنسان به ويتعاظم به على الناس، أو يُنسَب الكرم إليه مجرَّدًا، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: «مَن بَطَّأ به عمله لم يُسرِع به نَسَبُه» رواه مسلم في صحيحه. فالعبرة بالتقوى، والشأن بالتقوى، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ

أَتْقَاكُمْ)(الحجرات: ١٣)، وإذا جمع الله للعبد شرفًا في حَسَبِهِ وتُقىً فهذا نور على نور.

الشاهد: أنّ الفخر بالأحساب والتعاظم على الناس واحتقار الناس لشَرَفِ الإنسان محرَّم، ومن صفات أهل الكفر، وليس من صفات أهل الإيمان.

قال: «وَالطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ»، والنسب: نسبة الإنسان إلى آبائه وأجداده. والطعن في الأنساب يراد به أمران:

الأمر الأوّل: التشكيك في نسب الناس المعروف. فيأتي إنسان فيقول: والله فلان أشك أنه ابن فلان! أو يقول: أشك أنه من القبيلة الفلانية! وهو منسوب إليها ومعروف بالنسبة إليها، فالتشكيك في الأنساب الثابتة المستفيضة بين الناس لا يجوز، وهو من صفات أهل الجاهلية.

الأمر الثاني: عيب أنساب الناس، وشَينها ووصفها بالقُبْحِ، فيُعاب الفلاينة، أو القبيلة الفلانية، أو النسب المعيَّن يُنسَب إلى العيب والقُبْح، وهذا أيضًا من صفات أهل الجاهلية. والغالب التلازُم بين الفخر بالأحساب والطعن في الأنساب، الغالب أنّ مَن يَفخر بنسبه وحسبه يَطعن في أنساب الناس، وهما صفتان ذميمتان قبيحتان، ليستا من صفات أهل الإيمان، فكيف إذا اجتمعتا؟! الأمر أقبح، والأمر أشد نكارة.

قال: «وَالِاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ»، الاستسقاء بالنجوم هو المراد هنا، وهو على المعاني الأربعة التي قدّمناها:

المعنى الأوّل: طلب المطر من النجوم.

المعنى الثاني: نسبة إيجاد المطر إلى النجوم والكواكب.

المعنى الثالث: اعتقاد أنّ الكواكب هي سبب نزول الأمطار.

المعنى الرابع: نسبة هذه النعمة باللفظ إلى النجوم والكواكب. وهذا يقع من أهل الجاهلية، فإن كثيرًا من أهل الجاهلية يعتقدون أن الذي ينزل المطر هو الله سبحانه وتعالى، ولكن يَنسبون هذه النعمة إلى الأنواء والكواكب، فكثير من أهل الجاهلية لو سُئلوا: مَن الذي أنزل المطر من السماء، فأحيا به الأرض بعد موتها؟ فسيقولون: الله، ولكن يَنسبون النعمة إلى غير الله سبحانه وتعالى.

فهذه الأمور الأربعة في الاستسقاء بالنجوم من صفات أهل الجاهلية، وحكمها يختلف كما ذكرناه في مقدِّمة الكلام.

قال: «وَالنِّيَاحَةُ»، النياحة: فِعْلٌ يُفعَل إذا مات الميت. فإنّ من صفات أهل الجاهلية إذا مات الميت يفعلون أفعالًا كلها قبيحة؛ منها: النياحة. والنَّوح: هو صوت الحمام، ومعنى ذلك: أنّ أهل الجاهلية إذا مات الميت يَبكون على طريقة معينة لإظهار الجزع، فإذا مات الميت عندهم يبكون بصوت بطرية معيَّنة تُشبِه نَوْحَ الحمام، يُظهرون أنهم يَبكون من قلوبهم جزعًا، فيكون كأنّ الصوت

يَخرج من الصدر ومن القلب، وهذا أقرب ما يكون إليه: صوت الخاشع في صلاته إذا غَلَبَهُ البكاء، فإنه يبكي بطريقة تَتقطَّع؛ لأنه يريد أن يَكتم هذا البكاء ولا يُظهره، ولكنّ البكاء يَغلبه، فيكون كأنه قطَّع بكاءه. وأهل الجاهلية إذا مات الميت عندهم يبكون على هذه الطريقة كما يَنوح الحمام؛ لإظهار الجزع، وهذا حرام.

أمّا البكاء، ودمع العيب، والصوت العادي الذي يَغلب على الإنسان من غير إظهار الإنسان له؛ فهذا من الرحمة التي توجَد في قلب الإنسان، فكون الإنسان إذا مات له ميت يبكي، وتَخرج دموعه، وقد يَخرج منه صوت البكاء لكنه المعتاد، يَغلبه، وليس على سبيل إظهار الجزع؛ فهذا ليس حرامًا، هذه من الرحمة التي جعلها الله في قلوب العباد. ليس المطلوب من المؤمن إذا بلغه نبأ موت قريب له ألّا يبكي، وإنما الحرام أن يجزع ويُظهر الجزع والتسخُّط.

إذن؛ النياحة: هي البكاء بصوت معيَّن لإظهار الجزع. ومما يفعله أهل الجاهلية: النَّدب إذا مات الميت؛ وهو: تعداد مآثر الميت؛ كأن يقول: وا سنداه! مَن لنا بعدك؟! أنتَ الذي كنت وكنت! وهذا يُجمَع مع النياحة في الغالب، ولكنّ النَّدب غير النياحة، وقد تُطلَق النياحة فتَشمل الكُلّ.

والنياحة من صفات أهل الجاهلية، وليست من صفات أهل الإيمان، فصفات أهل الإيمان: الصبر، وبعض الناس تَرْقَى نفسُه حتى يرضى بقدر الله،

والصبر واجب، والرضى سنة، مستحب، ولا يُطيقه –الرضى- كلُّ أحد، وإنما يُطيقه من أنار الله بصيرته فرأى المنحة في المحنة، ولكنّ الواجب هو الصبر، والصبر لا ينافيه البكاء، وإنما الذي ينافيه ما فيه سخط وإظهار للتَّفجُّع والجزع.

وَقَالَ: «النَّائِحَةُ»؛ لماذا خَصَّ المرأة مع أنّ النياحة تقع من الرجل والمرأة؟! قالوا: لأنّ الأغلب أنّ النياحة تكون من المرأة، وإلَّا فالنياحة حرام، والعقوبة واحدة سواء كان النائح رجلًا، أو امرأة، فهو حرام، ولكنه يَغلب على النساء، ولا يزال إلى اليوم يَغلب على النساء، وللأسف أنّ بعض المسلمين لم يقتصروا على النوح بأنفسهم؛ بل يَستأجرون، يوجَد نساء في المدينة مشهورات، إذا مات الميت يأتين عند بيته، ويَبكين بطريقتهن التي تدل على الجزع، ويُعدِّدن ويَندِبن ويأخذن أُجْرَة، وللأسف أنّ بعض المسلمين قد يَتفاخر بهذا؛ يقال: فلان ثلاثة أيام ما شاء الله والنساء يَندبن! يتفاخرون بخصال أهل الجاهلية! والعياذ بالله.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: «النَّائِحَة إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا»، وهذا دليل على سعة رحمة الله، وأنّ العبد مهما أذنب فأكثر أوأغلظ، سواء جاء بذنوب كثيرة، أو بذنوب عظيمة غليظة؛ فتاب إلى الله عز وجل؛ فإنّ الذنب يسقط ويَنْمَحي، بل يفرح الله بالتائب، ليس فقط أنّ الله يعفو عن التائب، لا، ليس عفوًا فقط؛ بل يُمحى الذنب بالكليّة كأنه ما فَعَلَه أصلًا، ويُمحى أثره، وفوق هذا:

يَفرح الله بالتائب، ويُبدِّل سيئاته حسنات. فسبحان الله! كيف يَسمع المؤمن بهذا ويبقى على ذنبه مُصرًّا؟!

«النَّائِحَة إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا» يعني: إذا لم تَتُبْ قبل أن تتيقَّن الموت، فإذا تابت بعد تيقُّن الموت؛ بأن غرغرت ووصلت الروح إلى مكانٍ يَعْلَم الإنسان أنها خارجة، فتابت؛ فإنّ هذه التوبة لا تنفع.

واختلف العلماء: هل إذا تيقَّن العبد الموتَ بغير الغرغرة ووُصول الروح إلى الحلقوم لا تَصحّ توبته؟ كمَن أصيب بمرض وقال الأطباء: إنه سيموت منه، وما نعرف له علاج، وهذا مرض فتاك يموت صاحبه، هنا؛ مَن أصيب بهذا المرض يَتيقَّن الموت، فهل إذا تاب تُقبل توبته؟ أم أنه يكون كالذي تيقَّن الموت بالغرغرة ووصول الروح إلى الحلقوم؟

الراجح من أقوال العلم: أنّ توبته تُقبَل؛ لأنه مهما يكن من أمر فإنه لا يزال يرجو الحياة، ويبقى له من الحياة ما يَستلذُّ به، ولذلك الكفار –والعياذ بالله– إذا قيل لأحدهم: أنت مريض مرض ستموت فيه، يقول: كم بقي لي؟ يقال: بقي لك شهر، أو بقي لك ستة أشهر، فيذهب يعمل الموبقات، يقول: ما بقي إلا يوم، ما بقي إلا شهر! يَستلِذّ. أمّا المؤمن هنا يُقبِل على الله، ويُطيع الله، ويتوب، ولا زال يرجو في الدنيا بقاء، فهذا ليس كالذي بلغت فيه الروح الحلقوم.

قال: «النائحة إذا لم تتب قبل موتها» المقصود بالموت هنا: أن تصل إلى درجة تتيقن معها الموت؛ بأن تبلغ الروح الحلقوم، فتغرغر بروحها. وليس المراد التوبة بعد الموت، بعد الموت لا توبة، لكن التوبة قد تكون قبل تيقُّن الموت بحيث أنّ العبد لا يزال يرجو الدنيا فهذه مقبولة، أو تكون بعد تيقُّن الموت، وهذه تكون إذا بلغت الروح الحلقوم؛ فهذه لا تكون مقبولة، كتوبة فرعون لمّا غَشِيَه اليم ورأى أنه غَرِقَ قال: آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل! فلم يُقبل ذلك منه.

قال: «النائحة إذا لم تتب قبل موتها تُقَامُ يوم القيامة»، في معنى «تقام» أقوال:

- **قال بعض أهل العلم**: معنى «تقام»: تُحشَر يوم القيامة. فالناس يُحشرون جميعًا وهذه تُحشر على هذه الصفة.
- **وقال بعض أهل العلم**: بل تقام بين الناس يوم القيامة وتُظهَر للناس على سبيل الخزي لها والفضيحة –والعياذ بالله–.

قال: «وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ»: السَّربال أو السِّربال: هو القميص. والقَطِرَان: هو مادة تُستَحلَب من شجر معيَّن، تُطلى بها الإبل إذا أصابها الجَرَبُ، وهي مادة شديدة الحرارة، فتُحرِق الجَرَبَ، وهي شديدة الاشتعال، يعني تتصف بصفتين:

الصفة الأولى: أنها شديدة الحرارة. ولذلك إذا وُضعت على الجَرَب فإنها تُحرق الجرب.

الصفة الثانية: أنها سريعة الاشتعال. لو وُضعت عليها نار لاشتعلت.

وبعض اهل العلم قال: هي الزِّفت. لكن الزِّفت هذه المادة ما كانت معروفة.

فالصحيح: ما قاله العلماء المتقدِّمون: أنّ القطران: مادة تَستَحلِبها العرب من شجرة معيَّنة، وهذه المادة شديدة الحرارة، سريعة الاشتعال، تُطلى بها الإبل عند الجَرَب.

قال: «وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ)، الدِّرع: هو اللباس الذي يلي الجسد. والمعنى: أنه يُسلَّط عليها الجَرَب والحِكَّة في جسدها، فيغطي الجَرَب جسدها، فيكون كدرع المرأة الذي يلي جسدها. المرأة كانت تَلبس درعًا؛ وهو: قميص يلي الجسد، ثم تَلبس عليه سربالًا؛ وهو: القميص الذي يكون فوق. فالمقصود: أنّ الجَرَب يُسلَّط على النائحة، وتُسلَّط عليها الحِكَّة في جسدها يوم القيامة، ويغطي ذلك جسدها، فيكون كدرع المرأة، ويُطلي هذا بالقطران، فيكون فوق الدرع كأنه قميص، فماذا تعاني هذه النائحة والعياذ بالله؟ بأيِّ شيء تُعذَّب في الحشر؟ بأن يُسلَّط عليها الجَرَب والحِكَّة في جميع جسدها، ثم يوضَع القطران فوق هذا، والقطران هنا لا يُحرِق الجَرَب، ولكنه يزيدها حرارة وألمًا، فيُجمَع لها بين ألم

الجَرَب وحرارة القطران والعياذ بالله، وهذا في المحشَر فكيف بما بعده؟! وهذا يدلّ على أنّ النياحة من الكبائر العظيمة، ومن الذنوب الكبيرة، والنبي صلى الله عليه وسلم عندما ذكر لنا هذا الحديث لم يخبرنا به على سبيل القصة أو على سبيل الخبر؛ وإنما على سبيل التحذير.

والمقصود: أن يَحذَر كل مؤمن من هذه الخصال الأربع، وأنّ الأمر يحتاج إلى شدة انتباه، فالمؤمن ينبغي عليه ويجب عليه أن يراقب نفسه من ناحية هذه الخصال الأربعة: الفخر بالأحساب -فإنّ الإنسان أحيانًا يَفخر بحسبه بدون أن يَشعر، يَتسلط عليه الشيطان- والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة.

فمقصود النبي صلى الله عليه وسلم: التحذير من هذه الصفات، وتنبيه المؤمن حتى يكون أشد حذرًا من هذه الصفات، التي هي من صفات أهل الجاهلية.

الدرس الواحد والأربعون: تابع شرح بَابُ مَا جَاءَ فِي الِاسْتِسْقَاءِ بِالْأَنْوَاءِ

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَن يهدي الله فلا مضلَّ له، ومَن يُضلل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء: ١]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: ٧١]

أمّا بعد:

فإنّ أحسن الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكلّ محدَثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النار.

يا معاشر المسلمين، يا من اجتمعتم في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، يا من شهتم أن لا إله إلا الله، وأنّ محمدًا رسول الله، يا من علمتم أنّ رسولكم صلى الله عليه وسلم بدأ دعوته بالتوحيد، وأخذ يدعو إلى التوحيد إلى أن مات، وختم حياته بالدعوة إلى التوحيد صلى الله عليه وسلم.

نواصل شرحنا لكتاب التوحيد، للإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب –رحمه الله عز وجل رحمة واسعة– هذا الكتاب الذي يتعلق بأعظم حقٍّ على الإطلاق؛ ألا وهو حق ربا سبحانه وتعالى، ويتعلق بأعظم فرض على الإطلاق؛ ألا وهو توحيد الله سبحانه وتعالى. وما زلنا نشرح في باب ما جاء في باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء.

وقد تقدم معنا أنّ الاستسقاء بالأنواء على أربعة أنحاء:

الأوّل: أن يُستغاث بها، وأن يُطلب المطر منها، فيقال مثلًا: يا نوء الثريا أغثنا أو اسقنا أو نحو ذلك، وهذا شرك أكبر يُخرج من الملة الإسلام؛ لأنّ الدعاء عبادة، فلا يجوز صَرْفُه لأحد من المخلوقات، لا لملَك ولا لنبي ولا لولي ولا لشمس ولا لقمر ولا لنجوم ولا لحجر، وإنما الدعاء حقُّ الله الخالص، فمَن صرف شيئًا منه لغير الله فقد أشرك بالله، فالدعاء هو العبادة.

الثاني: اعتقاد أنّ الأنواء والنجوم هي التي تؤثِّر بذاتها في المطر، فهي التي تُنشئ السحاب الثِّقال، وهي التي تُسيُّرها إلى الأرض، وهي التي تُنزِل المطر، وهذا شرك أكبر، وكفر أكبر يتعلق بالربوبية.

وهذان النوعان نادرا الوقوع حتى في أهل الجاهلية قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم.

الثالث: اعتقاد أنّ الأنواء سبب نزول المطر. وهذا شرك أصغر؛ لأنه اعتقد أنّ ما ليس سببًا سببٌ، وهذا شرك أصغر، فإنّ اعتقاد ما ليس سببًا سببًا شرك أصغر.

الرابع: أن يُضيف المطر إلى النوء مع اعتقاد أنّ مُنزِل المطر هو الله سبحانه وتعالى؛ ولكنه يُضيف المطر إلى النوء لفظًا، وهذا شركٌ خَفيّ؛ يُسمّى: كفر النعمة، حيث يَنسب العبد النعمة التي أنعم الله بها على خَلقه إلى شيء من مخلوقاته، وهذا كُفر خفيّ أصغر؛ لأنّ كثيرًا من الناس لا يَتنبه له. مثلًا: بعض الناس إذا أنقذه الشرطي من اللِّص قال: لولا الشرطي لسُرِقْنا اليوم، أو: لو لا الشرطي لقُتِلْنا اليوم! فيضيف النعمة إلى المخلوق، ويَغفل عن إضافتها إلى المنعِم لها حقًّا؛ وهو الله سبحانه وتعالى، الذي قدَّر أن يكون هذا الشرطيُّ موجودًا، وأقْدَرَ الشرطيَّ على إنقاذ هذا الرجل. فإضافة النعمة إلى المخلوق مع

الغفلة عن إضافتها إلى مسديها والمنعِم بها كفرٌ خفيّ. وسيأتي باب مستقلّ نبيِّن فيه هذا الأمر ونفصِّله ونبيِّن وجوهه إن شاء الله عز وجل.

أمّا قول الناس: مُطرنا في نوء كذا، مُطرنا في نوء الثريا مثلًا! فهذا ليس من الوجه المحرَّم المنهيِّ عنه.

ومثله قول الناس: جاءنا النوء! يعني: جاءنا المطر، فهذا ليس من النوع المنهي عنه، لكن نَصّ كثيرٌ من العلماء على أنه مكروه؛ لمشابهته للفظ المَنهيِّ عنه، وحتى لا يُساء الظن بقائله. بمعنى: أنه لو قال الإنسان: مُطرنا في نَوء كذا، أو جاءنا النَّوء! فإنّ هذا لا يكون حرامًا؛ لأنّ مقصوده "بمطرنا في نَوء كذا" أنّ هذا هو الوقت، وقوله: جاءنا النَّوء! يعني: جاءنا المطر، لكن يُكرَه، والأولى أن يَستغنى عن هذه الألفاظ؛ فيقول مثلًا: مُطرنا في يوم كذا، أو في شهر كذا، أو في فصل كذا، ويقول: جاءتنا الرحمة، أو جاءنا المطر، أو جاءنا فضل الله، أو نحو ذلك من الألفاظ التي لا تشابه اللفظ القبيح.

وقد تقدَّم معنا بعض ما أورده الشيخ رحمه الله عز وجل في هذا الكتاب في هذا الباب عظيم الفائدة. ونكمل اليوم إن شاء الله شرح بقية ما أورده الشيخ –رحمه الله– في هذا الباب. فيتفضل الشيخ ياسين يقرأ لنا.

[وَلَهُمَا عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ –رضي الله عنه– قَالَ: صَلَّى لَنَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَةِ عَلَى إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلِ، فَلَمَّا

انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ، فَقَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمَ، قَالَ: «قَالَ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ؛ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا؛ فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ»]

قال الشيخ: (وَلَهُمَا) أي: للشيخين؛ البخاري ومسلم، فهذا الحديث متَّفق عليه، والحديث المتَّفق عليه في غاية الصِّحة، قد تجاوَز القَنطرة.

قال: (عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ –رضي الله عنه– قَالَ: صَلَّى لَنَا) والمعنى: صلى بنا، كما في بعض الروايات عند مسلم وغيره. وقال: (صلى لنا) لأنّ الإمام يصلي للناس، فكما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «يُصلُّون لكم»، فهو يصلي للناس. قال: (صلى لنا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَةِ) والحديبية: المكان المعروف بجوار مكة، وهو الذي وقع فيه الصُّلح المشهور بين النبي صلى الله عليه وسلم وكفار قريش، وكان فتحًا عظيمًا، إذ جعله الله عز وجل سببًا لفتح مكة. هذا المكان صلى فيه النبي صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح، (عَلَى إِثْرِ سَمَاءٍ) أي: عَقِبَ مطر. وسُمِّي المطر سماء لأنه يَنزل من السماء، ولأنه رِزْق، ورزقنا كما أخبرنا الله عز وجل في السماء: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ (الذاريات: ٢٢)، فسُمِّي المطر سماء. فكان الناس قد مُطِروا بفضل الله ورحمته في الليل، فلمّا أصبح النبي صلى الله عليه وسلم وصلى بالناس ثم

انصرف أقبل على الناس، كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا صلى بالناس فسلَّم من صلاته يقول: «أستغفر الله، أستغفر الله، أستغفر الله، اللهم أنت السلام ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام»، يقولها وهو متوجِّه إلى القبلة، فإذا قالها انصرف وأقبَل على الناس بوجهه، ما يأخذ ذات اليمين وذات الشمال، وإنما السنة أنّ الإمام يُقبِل على المأمومين بوجهه، ففعل النبي صلى الله عليه وسلم ذلك.

قال: (فقال للناس: «هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟»، وهذا أسلوب تشويق ولفت للقلوب؛ لأنّ المعلوم أنهم لا يدرون ماذا قال الله عز وجل، فهذا ليس سؤالًا ليُعرَف الجواب، وإنما لتشويق النفوس إلى ما فيه، وهذا من أساليب النبي صلى الله عليه وسلم في تعليم الناس، ويؤخَذ منه: أنه ينبغي على الخطيب والداعية والواعظ والمعلِّم أن يُخاطِب الناس بما يَصِلُ إلى قلوبهم، وبما يَلفت أنظارهم، ويشوِّق نفوسهم إلى كلامه.

قال: (قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمَ)، وهذا من الأدب، فإنهم ما قالوا: لا، ولو قالوا: لا؛ لكان ذلك سائغًا، لكنهم أحالوا العلم إلى مَن يَعلَم؛ فقالو: الله أعلم، فالله عز وجل علمه أحاط بكل شيء سبحانه وتعالى، ورسوله أعلم، وهذا يقال في زمن النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنّ النبي صلى الله عليه وسلم يوحَى إليه وهو حي صلى الله عليه وسلم.

أمّا بعد موته فهل إذا سُئل المؤمن عن شيء يقول: الله ورسوله أعلم؟ هذا فيه تفصيل:

- فإن كان الأمر مما يَتعلَّق بالدين والدِّيانة؛ فإنه يقال: الله ورسوله أعلم.

- أمّا إن كان الأمر مما يَتعلَّق بنوازل الناس وما يقع في الناس بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم؛ فإنه لا يقال: الله ورسوله أعلم، وإنما يقال: الله أعلم. وتعلمون أنّ النبي صلى الله عليه وسلم يوم القيامة عندما يأتي أقوام من أمّتة يعرفهم بسماهم –وهو أثر الوضوء عليهم– فيأتون ليشربوا من حوضه؛ فتذودهم الملائكة عن الحوض، فيقول النبي صلى الله عليه وسلم: «أمتي أمتي»، فيقولون: (إنك لا تدري ما أحدَثوا بعدك)، فوقائع الناس وأحوال الناس وما وقع للناس بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم، فالنبي صلى الله عليه وسلم لا يَعلَم به، إلا ما أخبره الله به فأخبرنا به من الوقائع التي تقع في المستقبل.

قال: (قَالَ) أي: قال النبي صلى الله عليه وسلم، «قال» أي: الله سبحانه وتعالى، ومن هنا يصبح الحديث قدسيًّا؛ لأنّ هذا قول الله عز وجل وحكاه النبي صلى الله عليه وسلم. قال: «أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ»، أصبحَ هنا تَصلح أن تكون على بابها؛ أصبح: من الصُّبح، وتصلح أن تكون بمعنى: صار؛ أي: صار من عبادي، وكل الناس عباد الله. «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر» أي: كافر بي. «فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ؛ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ

بِالْكَوْكَبِ». أمّا مَن قال: مُطرنا بفضل الله ورحمته، فاعتقد أنّ المنعِم هو الله، وأضاف النعمة إلى مسدِيها، فكان اعتقاده حسنًا وكان لفظه حسنًا. كان اعتقاده حسنًا؛ لأنه اعتقد أنّ المنعم بالمطر هو الله، وأنّ الذي أنزل المطر هو الله. وكان لفظه حسنًا؛ لأنه أضاف النعمة باللفظ إلى مسدِيها سبحانه وتعالى. قال: «فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ» ومعنى كافر بالكوكب: أنه كافر بما يَعتقده المشركون في الكوكب، لا أنه كافر بوجود الكوكب غير مصدِّق بوجود الكوكب ولا بمسير الكواكب، لا؛ وإنما كافر بما يَعتقده أهل الجاهلية في الكوكب؛ من كونه يُنزِل المطر، أو كونه سببًا لهذا المطر، أو من إضافة هذه النعمة إليه. قال: «وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا) أي: بنجم كذا وكذا، «فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ».

وفي قوله سبحانه وتعالى فيما حكاه عنه نبيه صلى الله عليه وسلم «كافرٌ بي» الأمر فيه كما قال الإمام الشافعي، والإمام الشافعي محمد بن إدريس الشافعي، جمع الله له أمورًا من العلم فاق بها الناس، فمن العلوم التي فاق بها الناس: علمه بأصول الفقه، وبالناسخ والمنسوخ، وعلمه بأوجه الفقه والاستنباط، ولكنّ المراد هنا علمه بالعربية، فهو فصيح اللسان، وقد نصَّ النُّحاة على أنّ الشافعي ممَّن يُحتجُّ بكلامه في النحو، فالشافعي فصيح اللسان، لم تَدخله العُجْمَة التي دَخلت إلى ألسنة بعض الناس في زمنه ولا اللحن، وهو

من أعلم الناس بلسان العرب، الشافعي –رحمه الله رحمة واسعة– قال عن هذا الكلام: "هذا كلام عربي محتمِل المعاني"، ومعنى هذه الجملة: أنه يَحتمِل عدَّة معاني؛ فيُحمَل عليها كلِّها باختلاف الأحوال:

– «كافر بي» أي: كفرًا أكبر لا يبقى معه إيمان، يَنقض الإيمان بالكلية، وذلك إذا اعتقد أنّ هذا النَّوء وهذا الكوكب هو الذي أنزل المطر، فأضاف إيجاد المطر إلى الكوكب، وإيقاع المطر إلى الكوكب، وإنزال المطر إلى الكوكب، فهذا كافر كفرًا أكبر يَنقض إيمانه.

– وإن اعتقد أنّ النَّوء سبب نزول المطر، وأنّ حركته وسقوطه في تلك الليلة وظهور الكوكب الآخر الذي يقابله هو سبب المطر؛ فهذا كفر أصغر، لا يَنقض الإيمان ولكنه يُنقصه، فالكواكب كلُّها ليست سببًا، لا يؤثِّر فيها ما في الأرض ولا تؤثِّر فيما في الأرض، لا يؤثِّر فيها ما في الأرض؛ فلا تتحرك لموت عظيم أو ولادة عظيم، ولا يحصل لها شيء من أجل هذا. ولا تؤثِّر فيما في الأرض؛ فهي ليست سببًا لِمَا يَحدث في الكون، وإنما قد تكون وقتًا، وهذا معنى قول بعض أهل العلم: "إنها سبب"، انتبهوا! قد يوجَد في كلام بعض العلماء أنه يقول: "إنها سبب"، لو قرأ كلامه كلَّه ستجد أنه يقول: إنها وقت لحصول كذا، فيقولون: القمر إذا كان في كذا؛ فهو سبب للمدّ والجزر، يعني أنه وقت حصول المد، أو وقت حصول الجزر. فمَن جعلها سببًا؛ فهذا كفر أصغر.

- ومن أضاف المطر أضاف النعمة إلى الكوكب باللفظ فقط؛ فهذا كفر النعمة.

فهذه الجملة «كافرٌ بي» دلّت على كلّ هذه المعاني. وهذا معنى قول الإمام الشافعي: "هذا كلام عربي محتمِل المعاني".

وقد قال ابن عبد البَرّ الإمام الفقيه المالكي المتفنِّن –رحمه الله رحمة واسعة– قال كلامًا حسنًا هنا حيث قال: "وأمّا قوله صلى الله عليه وسلم حاكيًا عن الله عز وجل: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر»؛ فمعناه عندي على وجهين:

أحدهما: أنّ القائل: مطرنا بنوء كذا، أي: بسقوط نجم كذا، أو بطلوع نجم كذا، إن كان يعتقد أنّ النَّوء هو المنزِل للمطر، الخالِق له، والمُنشئ للسحاب من دون الله؛ فهذا كافر كفرًا صريحًا يَنقُل عن المِلَّة، وإن كان من أهلها –يعني: حتى لو كان مسلمًا في الأصل، فقال هذا معتقِدًا هذا الاعتقاد فإنه يَكفُر كفرًا صريحًا– وإن كان من أهلها اُستُتِيبَ– أي: يُطلب منه التوبة، وهكذا كل مرتَّد، كلُّ مرتدّ لا بد أن يُستتاب، ويُطلَب منه الرجوع إلى الدين، ولا يجوز قتله قبل أن يُستتاب، إلا ما ذَكَرَه العلماء في سَبِّ النبي صلى الله عليه وسلم– فإنّ بعض أهل العلم يرَون أنّ سابَّ النبي صلى الله عليه وسلم يُقتَل بدون استتابة، ولو تاب فإنه يُقتَل، وهم هنا يَنظرون إلى حقِّ النبي صلى الله عليه وسلم، فيقولون: إنّ قَتْلَه وعدم

استتابته إنما هي بسبب حقِّ النبي صلى الله عليه وسلم، وإلا فالأصل في المرتدّ أنه يُستتاب، والراجح عندي والله أعلم: أنه حتى في حق ساب النبي صلى الله عليه وسلم فإنه يستتاب، فإن تاب قُبِلت توبته ولم يُقتل– فإن رَجَعَ إلى ذلك – يعني: إلى التوبة– إلى الإيمان بالله وحده، وإلّا قُتِلَ إلى النار– يعني: قُتِلَ كفرًا– فكان من أهل النار، فإنّ الكافر مخلد في النار.

وإن كان أراد أنّ الله عز وجل جَعَل النَّوء علامة للمطر ووقتًا له، وسببًا من أسبابه – يريد بالسبب: أنه علامة ووقت؛ لأنه قال: علامة ووقت، فهذا بنفس المعنى– فهذا مؤمن لا كافر، ويَلزمه مع هذا أن يَعلم أنّ نزول الماء بحِكمة الله عز وجل ورحمته وقُدرَته، لا بغير ذلك، كيف يشاء سبحانه لا إله إلا هو"، ثم قال بعد أن قرَّر الأمرَين: "والذي أُحِبُّهُ لكلِّ مؤمن أن يقول: مُطرنا بفضل الله ورحمته".

فهذا الإمام الموفَّق المالكي –رحمه الله عز وجل– بيَّن معنى هذا الحديث؛ وأنّ الكفر هنا يكون كفرًا أكبر: إذا اعتقد الإنسان أنّ النَّوء هو الذي يُنزل المطر. أمّا إذا اتعقد أنه علامة وسبب من الأسباب؛ بمعنى: وقت لنزول المطر؛ فهذا مؤمن وليس كافرًا. لكن اِلْحَظوا ماذا قال –رحمه الله–: "ويلزمه مع هذا أن يَعلم أنّ نزول الماء بحِكمة الله عز وجل ورحمته وقدرته، لا بغير ذلك"، لا بالنَّوء، ولا بغير النَّوء.

ثم نقل –رحمه الله– عن الشافعي –رحمه الله– قوله في هذا الحديث: "كان صلى الله عليه وسلم قد أُوتي جوامع الكَلِمِ، وإنما تَكلَّم بهذا الكلام في زمن الحديبية، بين ظهرانَي قوم مؤمنين ومشركين –كان هناك المشركون وكان هناك المؤمنون بالنبي صلى الله عليه وسلم– فالمؤمن يقول: (مُطرنا بفضل الله ورحمته)، وذلك إيمان بالله؛ لأنه لا يُمطِر ولا يُعطي ولا يَمنع إلا الله وحده –الله أكبر! هذا التوحيد، هذا الذي عليه سلف الأمّة وأئمة الإسلام؛ أبو حنيفة، مالك، الشافعي، أحمد، كلُّهم على هذا، لا يُعطي ولا يَمنع إلا الله، فالقلب معلَّق بالله، لا يُعلَّق بأحد من الناس، لا يُعلَّق بملَك، ولا يُعلَّق بنبي، ولا يُعلَّق بولي، ولا يسأل الخير إلا من الله، فالمؤمن إذا أراد خيرًا أو أراد رزقًا قال: اللهم ارزقني، يا الله، لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، ارزقني ولدًا، يا ربي لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، مسني الضر فارفع عنى الضر يا رب العالمين، المؤمن إن أصابته مصيبة أو وقع له حادث يقول: يا الله، يا ربي، المؤمن لا يمكن أن يدعوَ غير الله، لا يمكن أن يقول: يا سيدي اعليش، أو يا سيدي فلان ارزقني! أبدًا. إذا وقع له حادث ما يقول: يا أولياء الله، يا أقطاب، أو يا أوتاد! أبدًا، يخاف من الله، ويستحي من الله أن يُشرِك معه أحدًا، ويُعلِّق قلبه بالله، توحيدٌ خالِص، لا يَرزق ولا يعطي ولا يَملك إلا الله سبحانه وتعالى– يقول: لا يُمطِر ولا يُعطي ولا يَمنع إلا الله وحده لا النَّوء؛ لأنّ النَّوء مخلوق لا يَملك

لنفسه شيئًا ولا لغيره –وهذا شأن كلِّ مخلوق، حتى أشرف المخلوقات محمد صلى الله عليه وسلم؛ لا يملك لنفسه شيئًا، ولا لغيره صلى الله عليه وسلم، وإنما هو مشرَّف بالنبوة، ومحفوظٌ بحفظ الله، ومنصور بنصر الله سبحانه وتعالى، لا يَملك لنفسه شيئًا صلى الله عليه وسلم، ولذلك في غزوة أحد جُرِحَ صلى الله عليه وسلم وشُجَّ عند جبهته، ودخلت حَلقة المِغْفَر في فمه صلى الله عليه وسلم، وسقط في حفرة، وسُحِر صلى الله عليه وسلم، مع حِفْظِ الله له، لنعلم نحن أمّة محمد صلى الله عليه وسلم أنه لا يوجَد مخلوق مهما شَرُفَ فإنه لا أشرف في المخلوقات من النبي صلى الله عليه وسلم، لا يوجد مخلوق مهما شَرُفَ يَملك لنفسه شيء من دون الله، فضلًا عن أن يَملك لغيره، «يا فاطمة ابنة محمد! لا أُغني عنك من الله شيئًا»، بنته حبيبته –رضي الله عنها– حبيبة المؤمنين، نُحبُّها، حبيبتنا ابنة حبيبنا –رضي الله عنها– وصلى الله على أبيها وسلم، يقول لها: «لا أُغني عنك من الله شيئًا». فكلُّ مخلوق لا يَملك لنفسه شيء من دون الله، يأتون يقولون: هذا ولي! إن كان وليًّا لله حقًّا فهو عَبْدٌ لله صالح، لا يَرضى بأن يُدعا من دون الله إن كان حيًّا، ومن الظلم له ولك أن تدعوَه من دون الله إن كان ميتًا. يجب أن نأخذ بالقرآن والسنة وما كان عليه الصحابة. هؤلاء المدلِّسون الذين يُدلِّسون على الناس ويُحبِّبون إليهم الشرك يجب أن نَنصرِف عنهم، ولا نَسمع لكلامهم أبدًا–قال الشافعي فيما نقله عنه ابن

عبد البر: "ومَن قال: مُطرنا بنَوء كذا؛ يريد: وقت كذا؛ فهو كقوله: مُطرنا في شهر كذا؛ وهذا لا يكون كفرًا. ومَن قال بقول أهل الشرك من الجاهلية الذين كانوا يُضيفون المطر إلى النَّوء أنه أَمْطَر؛ فهذا كفر يُخرج من ملة الإسلام– يضيفونه: أي إضافة إيجاد– والذي أُحِبُّ أن يقول الإنسان: مُطرنا في وقت كذا، ولا يقول: بنَوء كذا، وإن كان النوء هذا الوقت".

فهذا كلام علماء المسلمين، وكلام أئمة المسلمين في التوحيد واحد، غير أنّ منهم مَن يُجمِل ومنهم مَن يُفصِّل، فالتوحيد تَجِده ممتدًا بسلسلة من نور من وقتنا هذا إلى أن تَصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، لن يَنقطع أبدًا، تَنقل اليوم عن عالم مات عن عالم مات عن عالم مات عن عالم مات إلى أن تَصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ كلُّه بمعنى واحد، بخلاف ما يخالِف التوحيد فلا بد أن يَنقطع دون رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل لا بد أن يَنقطع دون فُضلاء الإسلام. فهذا شأن عظيم.

[وَلَهُمَا مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ مَعْنَاهُ، وَفِيهِ: (قَالَ بَعْضُهُمْ: لَقَدْ صَدَقَ نَوْءَ كَذَا وَكَذَا)، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَة: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾، إلى قوله: ﴿تُكَذِّبُونَ﴾]

قال الشيخ: (وَلَهُمَا) أي: للبخاري ومسلم. والحقُّ أنّ هذا الحديث ليس عند البخاري، لكن لعل الشيخ أراد ما عند البخاري تعليقًا من تفسير الآية،

فالذي عند البخاري: أنّ ابن عباس قال في قوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ قال: شُكْرَكم. أمّا هذا الحديث فهو ليس عند البخاري، ولكنه عند مسلم؛ ولفظه: عن ابن عباس –رضي الله عنهما– قال: مُطِرَ الناس على عهد النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «أصبح من الناس شاكِر، ومنهم كافر»– أصبح من الناس شاكر لهذه النعمة، ومنهم كافر– «قالوا: هذه رحمة الله، وقال بعضهم: لقد صدق نَوء كذا وكذا»، هذا لَف ونَشْر مرتَّب، قال ابن عباس –رضي الله عنهما–: إنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أصبح من الناس شاكِر ومنهم كافر»: هذا لَف، ثم جاء النَّشر: منهم شاكر قال: «هذه رحمة الله». وقال بعضهم: وكافر قال: «لقد صدق نوء كذا وكذا)، هذا لَف ثم نَشْر مرتَّب على نفس السياق السابق، فالأوّل هو الأوّل، والثاني هو الثاني.

(قَالَ بَعْضُهُمْ: لَقَدْ صَدَقَ نَوْءَ كَذَا وَكَذَا)، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الْآية: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ حتى بلغ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾)، وابن عباس –رضي الله عنهما– لم يُرِدْ أنّ هذه الآيات كلَّها نَزلت بسبب هذه القصة؛ وإنما أراد آخرها وهو: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾؛ لكن ذَكَرَ هذه الآيات لارتباطها، قال: (فأنزل الله هذه الآية: ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾، ﴿فَلا أُقْسِمُ﴾ما معنى (لا) هنا؟ يقول العلماء: (لا) صِلة، تفيد توكيد القسم وتعظيمه، لا النفي، قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ (البلد: ١)، (لا) هنا ليست نافية؛

وإنما هي صلة، ما فائدتها؟ تفيد توكيد القسَم، وأنه عظيم، فيكون المعنى: إنْ كنتُ مُقْسِمًا فأُقسِم بمواقع النجوم. وهذا فيه دلالة على تعظيم هذا القسم.

﴿بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ مواقع النجوم: أي مَساقِط هذه الكواكب ومَطالعها، وذلك أنّ هذه الكواكب فيها آيات عظيمة، وفي طلوعها وسقوطها آية عظيمة تدلّ على الله سبحانه وتعالى، إذ أنّ هذه الكواكب مع عِظَمِ حجمها وعُلوِّها في السماء تَسير بانتظام بديع، لا تتخلَّف، وقتُ سقوطها لا يَتخلَّف، ووقت طلوعها لا يَتخلَّف، فمَن الذي أوجدها؟ ومَن الذي حركها؟ ومَن الذي دبّرها؟ ومَن الذي جعلها على هذا الانتظام؟ إنه الله سبحانه وتعالى، لا يمكن أن يقال غير هذا. ففيها آيات وعِبَر عظيمة.

وقال بعض أهل العلم: مواقع النجوم: هي مواقع نجوم القرآن؛ لأنّ القرآن لم يَنزل دَفْعَة واحدة وإنما نَزَلَ منجَّمًا، ويقولون: السياق يدلّ على هذا؛ لأنّ الآيات بعده في القرآن، والسياق يَحتمِل الأمرين، ولا تَدافُع؛ فيَصحّ أن يُراد هذا وهذا، إذ أنّ اللفظ في القرآن إذا احتمَل معنيَين لا تَدافُعَ بينهما فإنه يُحمَل عليهما.

﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ هذه الآية التي نزلت بسبب هذه القصة تقدَّم معنا معناها: وتصيِّرون شُكركم نعمة الله عليكم حيث أنزل عليكم المطر أنكم تكذِّبون، فتَنسبون المطر إلى النَّوء وتقولون: مُطرنا بنَوء كذا وكذا.

[فِيهِ مَسَائِلُ: الْأُولَى: تَفْسِيرُ آيَةِ الْوَاقِعَةِ﴾

﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ (الواقعة: ٨٢)، وقد بيَّنا معناها.

[الثَّانِيَةُ: الْأَرْبَعِ الَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ]

وفي بعض النُّسخ: (ذِكْرُ الْأَرْبَعِ الَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ)؛ ماهي؟ الفخر بالأحساب، والطعن بالأنساب، والاستسقاء بالأنواء، والنياحة على الميت. وقد فصّلناها وبيَّنا شأنها.

[الثَّالِثَةُ: ذِكْرُ الْكُفْرِ فِي بَعْضِهَا]

يُشير الشيخ هنا إلى ما تقدَّم معنا من ذِكْرِ الكفر في الاستسقاء بالأنواء: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر»، وكذلك إلى حديث أبي هريرة –رضي الله عنه– أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: «اثنتان في الناس هما بهم كُفر: الطعن في النَّسب، والنياحة على الميت» رواه مسلم في الصحيح، فالنبي صلى الله عليه وسلم سَمَّى هذه الثلاثة كفرًا، فالشيخ عندما يقول: (ذِكْرُ الكفر في بعضها) أي: في هذه الثلاثة: الاستسقاء بالأنواء –كما في الحديث الذي معنا هنا– والطعن في النسب، والنياحة على الميت.

[الرَّابِعَةُ: أَنَّ مِنَ الْكُفْرِ مَا لَا يُخْرِجُ مِنَ الْمِلَّةِ]

وهذا أمرٌ مهم، وهذا فَهم السلف والعلماء؛ أنّ النصوص تُفهَم بحسب الدليل عليها، بحسب سياقها، بحسب ما يدلّ على المعاني، لا بالأهواء، فليس

كلُّ لفظ كُفر في الكتاب والسنة يُخرِج من الملة، بل الكفر إذا ورد في الكتاب والسنة فهو ينقسم إلى قسمين:

القسم الأوّل: كفر أكبر يُخرج من الملة.

القسم الثاني: كفر أصغر لا يُخرج من الملة.

ثم ليس كلُّ ما سُمِّي كفرًا أكبر في كتاب الله أو في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أو في لسان العلماء يُكَفَّر فاعله عينًا، بل قد يقول العلماء: هذا شرك أكبر، لكن لا يعني أنّ مَن فَعَلَ هذا بعينه يقال: إنه مشرِك شركًا أكبر خارج من الملة فورًا، وإنما يُنظَر إلى الشروط وانتفاء الموانع. ولذلك الظَّلمة والجَهَلة الذين يقولون: كتب محمد بن عبد الوهاب فيها التكفير! هؤلاء ما يفهمون، ولا يقرأون ولا يريدون أن يَفهموا، كتب شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب فيها التربية على ما في الكتاب والسنة. هذا الشيء شرك أكبر، دلَّ الدليل على أنه شرك أكبر؛ نقول: شرك أكبر، فالذي يستغيث بالأولياء، نقول: الاستغاثة بالأولياء شرك أكبر، لكن هل هذا الذي استغاث خارِج من الملة؟ ننظر؛ فإن اجتَمعتِ الشروط، وانتفتِ الموانع كُفِّرَ بعينه، وإلا لم يُكَفَّر. انظر ماذا يقول الشيخ؟ "أنّ من الكفر ما لا يُخرج من الملة"؛ لأنّ النبي صلى الله عليه وسلم سَمَّى هذه الثلاث كفرًا، وهذه الثلاث بالنسبة مثلًا للطعن في النسب ليس كفرًا

أكبر، وبنسبة للنياحة ليست كفرًا أكبر، وبالنسبة للاستسقاء بالأنواء قد تكون كفرًا أكبر وقد تكون كفرًا أصغر.

[الْخَامِسَةُ: قَوْلُهُ: «أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ» بِسَبَبِ نُزُولِ النِّعْمَةِ]

والنعمة هنا: المطر، والشيخ هنا يشير أنّ هذا الكفر في الغالب هو كفر النعمة، وهو الكفر الخفي، بحيث يضاف الخير إلى المخلوق مع غفلة القلب عن المنعِم، فالمخلوق لا يَعتقد أنّ المنعِم هو المخلوق، ولا أنه مؤثِّر، ويَعتقد أنّ المنعِم هو الله، لكن عند اللفظ يَغفل قلبه عن المنعِم ويُسنِد باللفظ النعمة إلى غيره، وهذا كفر النعمة، وهذا الغالب في هذا الباب.

[السَّادِسَةُ: التَّفَطُّنُ لِلْإِيمَانِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ]

(فِي هَذَا الْمَوْضِعِ) يعني: عند نزول المطر، والإيمان عند نزول المطر: أن يَعتقد المسلم أنّ المطر نعمة من الله، أنزله الله عز وجل وأوجَده، وأن يُضيف هذه النعمة إلى مسدِيها؛ فيقول: مُطرنا بفضل الله ورحمته، فيَجتمع الاعتقاد الحَسن واللفظ الحَسن.

[السَّابِعَةُ: التَّفَطُّنُ لِلْكُفْرِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ]

(التَّفَطُّنُ لِلْكُفْرِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ) أي: عند نزول المطر؛ بإضافة هذه النعمة إلى النَّوء؛ على الوجوه التي فصّلناها: كفر أكبر ، كفر أصغر، كفر خفي؛ وهو كفر النعمة.

[الثَّامِنَةُ: التَّفَطُّنُ لِقَوْلِهِ: «لَقَدْ صَدَقَ نَوْءَ كَذَا وَكَذَا»]

وأنه كقولهم: مُطرنا بنَوء كذا، أن يقول القائل: لقد صَدَقَنا النَّوء، وما أَخْلَفَنا النَّوء موعده، فهذا كقولهم: مُطرنا بنَوء كذا، فيتنوَّع الحُكم فيه بتلك الأنواع.

[التَّاسِعَةُ: إِخْرَاجُ الْعَالِمِ التعليم لِلْمَسْأَلَةَ بِالِاسْتِفْهَامِ عَنْهَا لِقَوْلِهِ صلى الله عليه وسلم: «أَتَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟»]

وهذا من أساليب الخطاب، والأمر أوسع من هذا؛ وهو إخراج العالِم للمتعلِّم المسألة فيما يُشوِّقه إليها ويوصِلها إلى قلبه، فيَختار من الأساليب ما يَحصُل به كذا. وليس صحيحًا أنّ التَّفنُّن في الأساليب من غير تقعُّر يخالِف السنة. بعض الناس لعدم إدراكه لِمَا في السنة إذا وَجَدَ خطيبًا بليغًا يأتي بالأساليب البليغة المشوِّقة من غير تَقَعُّر ولا تَكلُّف؛ يقول: هذا ليس من منهج العلماء، هذا ليس من السنة! وهذا غلطٌ عظيم، بل أبلغ الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم من سار على طريقه من العلماء، فالبلاغة سنة، ومطلوبة، والبليغ لا يحتاج إلى الوقت الطويل؛ لأنه يوصِل الفائدة بأبغ عبارة وأوْجَز عبارة، والذين يُطِيلون في الخُطب، فيأخذ ساعة وساعة ونصف؛ هذه ثَرْثَرة، السُّنة في الخطبة أن تكون قصيرة، ببلاغة، توصِل المطلوب وتُحقِّق الفائدة. ولذلك تعلُّم العربية وتعلُّم البلاغة من العلوم التي كان يَهتم بها السلف، وكان السلف يخافون اللحن

في الكلام، ولو قيل لأحدهم: إنك لحنتَ، لكانت هذه مصيبة عندهم. ولذلك لا يليق بطالب العلم أن يكون لسانه لحَّانًا، يَنصِب الفاعل، ويرفع المفعول به، لا يعرف الحال ولا الصفة! لا يليق بطالب العلم أن يكون كذلك، ولذلك تعلُّم النحو شريف، وكان السلف يهتمون به، وتعلُّم البلاغة مطلوب، ومن التأصيل في العلم أن يَتعلَّم طالب العلم النحو، والبلاغة، وأن يكون لسانه فصيحًا، فإن هذا زَيْنٌ للعِلم، ويوصِل العِلم إلى الناس. والعوام –وإن كانوا لا يتكلمون الفصحى– إذا تكلَّم المتكلِّم بالفصحى البليغة غير المُقعَّرة يفهمون ويُعجِبهم الكلام.

[الْعَاشِرَةُ: وَعِيدُ النَّائِحَةِ]

بأنها إذا ماتت ولم تتب فإنها –والعياذ بالله– تقام وعليها سربال من قطران، ودرع من جَرَبٍ، أي أنه –كما ذكرنا– تُسلَّط عليها الحِكَّة في جلدها، وتُطلى بما يُشبِه القَطران وهو شديد الحرارة، فيَجتمع عليها ألم الحِكَّة وحرارة القطران، من غير أن يُذهِب القطران الجَرَب، والقاعدة: أنّ الجزاء من جنس العمل، فالنائحة في الدنيا كانت تَحرِق قلوب أهل الميت، وتزيد أَلَمَهم، إذا ناحت وأصبحت تبكي على الطريقة الخاصة وتَندب وتَضرب على رأسها وتَضرب وجهها، وتَشق جيبها، أهل الميت يزدادون ألمًا، والحُرقة في قلوبهم على ميتهم

تزداد، فكما كانت تُحرِق قلوب أهل الميت في الدنيا تُحرَق بهذا وتؤلَم بهذا يوم القيامة. نسأل الله السلامة من عذاب الله، ومن أسباب عذاب الله.

وبهذا نكون قد ختمنا هذا الباب. وهذا الباب هو آخر الأبواب المتعلِّقة بالقِسم الذي ذكرنها؛ وهو: ذِكْرُ أنواعٍ يَكثُر وقوعها ممَّن يَنتسبون إلى الإسلام وهي كفر أو شعبة من كفر.

وبهذا تَعلم أنّ شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب قسَّم الكتاب تقسيمًا علميًّا بديعًا:

- بدأ بالمقدِّمات؛ ببيان معنى التوحيد، وفضل التوحيد، وبيان ما يضادّه على سبيل الإجمال.

- ثم انتقل إلى قسم آخر؛ وهو: الشرك العملي الذي يَكثر وقوعه من الناس، فذكر أبوابًا.

- ثم انتقل إلى القسم الثالث؛ وهو: بيان أبوابٍ متعلِّقة بأمورٍ هي كفر أو شُعبة من كفر، ويَكثر وقوعها من المسلمين.

من الدرس القادم سيبدأ الشيخ بالقسم المتعلِّق بالقلوب وما فيه من توحيد أو شرك، الحب، والخوف، وغير ذلك.

وهذا تقسيم بديع، ويدلُّ على فِقْهِ هذا الإمام، وعلى حُسن صنيعه في كتبه رحمه الله.

وأقول: والله! لولا أنّ قُطَّاع الطُّرق حالوا بين أمّة محمد صلى الله عليه وسلم وكتب شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب لأَقْبَل الناس عليها وأحبُّوها؛ لِمَا فيها من الخير والنفع والتقسيم البديع النافع ولاعتمادها على قال الله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فأسأل الله أن يَهديَ الأمّة، وأن يأخذ بنواصيها إلى الخير، وأن يَكفيها شرَّ قُطاع الطُّرق، وأَشَرُّ قُطاع الطُّرق الذين يَقطعون الطريق إلى العلم والتوحيد والسنة. نعوذ بالله من شرهم.

الدرس الثاني والأربعون: شرح بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ}

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَن يهدي الله فلا مضلَّ له، ومَن يُضلل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء: ١]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: ٧١]

أمّا بعد:

فإنّ أحسن الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكلّ محدَثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النار.

ثم يا معاشر المؤمنين؛ نواصل تفقُّهنا في أمر هو أعظم أمورنا على الإطلاق؛ ألا وهو توحيد ربنا سبحانه وتعالى، حيث نشرح كتاب التوحيد. واليوم –إن شاء الله عز وجل– ندخل في قسم جديد من أقسام هذا الكتاب؛ ألا وهو: القسم المتعلِّق بأعمال القلوب وما يَتعلَّق بها من توحيد أو شرك. وذلك أنّ الشيخ –رحمه الله– قد قسَّم الكتاب أقسامًا. واليوم –إن شاء الله عز وجل– ندخل في هذا القسم. فهذا القسم الذي فيه هذا الباب والأبواب التي تليه يَتعلَّق بالأعمال القلبية؛ كالحب، والخوف، والرجاء، والصبر، وما يَتعلَّق بذلك من توحيد أو شرك.

[بَابُ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ}]

وتستطيع أن تقول: إنّ هذا الباب: باب الشرك في المحبة، أو أن تقول: باب محبة العبودية.

والمحبة لا تُعرَّف؛ لأنها أمر وجداني يَعرِفه الإنسان بطبعه، فلا تَحدُّها الكلمات، ومَن رام تعريفها بالكلام فإنه يُبْهِما ويُخفيها، ولذلك من أراد أن يعرِّفها بالكلام لم يَنضبِط له تعريف، فكانت تعريفات المحبة عند المعرِّفين لها تزيد على ثلاثين تعريفًا، وذلك كما قلنا لأنّ المحبة أمر وجداني؛ كما قرَّره

الحافظ ابن حجر، والحافظ ابن القيم، فلا يمكن تعريفها بالكلام، وإنما يَعرِفها الإنسان من نفسه.

والمحبة لها شأن عظيم عند الإنسان، لها شأن عظيم في حياته كلها، ولها شأن عظيم في توحيده لله عز وجل.

أمّا شأنها في حياة الإنسان: فهي أنّ الإنسان في حياته لابد له من حركة، قال تعالى: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ (المدثر: ٣٧)، والحركة إنما تكون عن المحبة، فالإنسان لا يَفعل شيئًا إلا عن محبة، فهو يأكل لأنه يحب الأكل، ويشرب لأنه يحب الشرب، وبل يتعاطى الدواء المُرَّ ويَتحمَّل الألم من أجل أنه يحب الصحة والعافية، ويحب الحياة، ويحب السلامة، نعم هو لا يحب الدواء ولكنّ الذي يدفعه إلى تعاطي الدواء أنه يحب الصحة ويحب العافية ويحب الحياة ويحب السلامة، ويفعل الإنسان ما يُكْرَه عليه؛ لأنه يحب السلامة، ويحب النجاة، نعم هو لا يحب ما يُكْرَه عليه؛ ولكن يفعله من أجل أنه يحب أن يَسلم، ويحب أن ينجو.

فالشاهد: أنّ الإنسان لا يَتحرك حركة إلا عن محبة.

وأما شأن المحبة في توحيد الإنسان: هي أنّ المحبة توحيد، وهي داخلة في قو ل الله عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:

٥٦]، وذلك أنّ العبادة لابد فيها من كمال المحبة، وكما الذُلّ، وكما التعظيم، وكمال الخضوع، وكمال الخوف، وكمال الرجاء.

فالعبادة لابد فيها من ستة أمور:

الأمر الأوّل: كمال المحبة. فالعبادة بلا محبة أو العمل بلا محبة ليس عبادة.

الأمر الثاني: كمال الخوف. فلابد في العبادة مع المحبة من كمال الخوف.

الأمر الثالث: كمال الرجاء. فلابد مع كمال الخوف كمال الرجاء.

الأمر الرابع: كمال الذل.

الأمر الخامس: كمال الخضوع.

الأمر السادس: كمال التعظيم.

فالمحبة توحيد، ولذلك كان شأنها عند المسلم عظيمًا.

وحتى تَعرِف أحكام المحبة وما يتعلق بها من توحيد وشرك؛ فلا بد من أن تَعرِف أقسامها.

وقد اختلف العلماء في طريقة تقسيم المحبة:

- **فمنهم: مَن قسمها فقال: إنّ المحبة تنقسم إلى قسمين:**

القسم الأوّل: محبة تتعلق بالله عز وجل. وهذه المحبة تنقسم إلى أنواع:

النوع الأوّل: محبة الله. وهذه محبة العبودية التي يتبعها الخوف والرجاء والذُلّ والخضوع، فهذه محبة خالصة لله عز وجل، وخاصّة لله عز وجل.

النوع الثاني: محبة لله أو في الله. ومعنى ذلك: أن يُحِبَّ العبد ما يحبه الله عز وجل، ومَن يحبه الله عز وجل، وأن يحب مَن يَفعَل ما يحبه الله.

أن يحب العبد ما يحبه الله: فيحب التوحيد، ويحب الصلاة، ويحب كلَّ ما أمر الله به، فما أمر الله بشيء إلا وهو يحبه، فيحب السواك مثلًا، ويحب الإحسان إلى اليتيم، فهذا حب لله، ويحب النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنّ الله يحبه سبحانه وتعالى، ويحب الصالحين.

وكذلك؛ أن يحب مَن يفعل ما يحبه الله: فيحب الذي يصلي في الله؛ لأنه يصلي، ويحب الذي يذكر الله في الله؛ لأنه يذكر الله عز وجل.

النوع الثالث: المحبة مع الله. والمحبة مع الله ممنوعة ومحرَّمة، وهي تنقسم إلى أنواع:

النوع الأوّل: محبة العبودية. بأن يُحِبَّ أحدًا دون الله محبة تقتضي الذل والخضوع والخوف والرجاء والعبودية، وهذا –والعياذ بالله– شرك أكبر، الذي يحب رجلًا يقول: إنه ولي من أولياء الله، يحبه حبًّا يقتضي منه أن يرجوه، وأن يخاف منه خوف السِّر، وأن يدعوه، وأن يطلب منه الرزق، وأن يطلب منه الولد، فهذا شرك أكبر، وهو من صنيع مشركي الجاهلية.

النوع الثاني: أن يحب ما يُبغِضه الله. أن يحب المرء المحرَّمات؛ فيحب الزنى، ويحب شرب الخمر، ويحب الشرك مثلًا، فهذا –والعياذ بالله– إن كان حبًّا للشرك مع العلم بأنه شرك؛ فهذا شرك أكبر. وإن كان حبًّا للمعاصي؛ فهذا معصية عظيمة، ويكون حكمها بحسب حكم المعصية، فمَن أحب الزنى فهذا الحب كبيرة من كبائر الذنوب، وهكذا.

النوع الثالث: حب مَن يعصي الله عز وجل.

- وهذا إذا كان العاصي كافرًا؛ فإن كان حبُّه له من أجل دينه؛ فهذا كفر أكبر والعياذ بالله، يُخرِج من ملة الإسلام. وإن كان حبُّه له دون ذلك؛ فهذا معصية وحرام، وهو على خطر عظيم.

- وإن كان حبُّه له من الحب الذي لا يُملَك مع بذله ما يُملَك؛ فهذا لا يؤاخَذ به.

- وإن كان العاصي ليس كافرًا ولكنه عاصٍ لله عز وجل؛ كمبتدع أو زانٍ أو كذَّاب أو نحو ذلك؛ فهذا يَثبُت له الإسلام، ومَن ثبت له الإسلام ثبتت له المحبة، لكن لا يجوز حبه لمعصيته، ولا يجوز حبه كحب الصالحين، وإنما يَنقُص حبه وجوبًا بحسب ما فيه من المعصية، وأمّا إظهار الحب أوعدم إظهاره فهذا يَتعلَّق بأمور أخرى ليست متعلِّقة بدرسنا هذا.

النوع الرابع: حب ما يقطع الإنسان عن حب الله، أو يُنقِص حب الإنسان لله عز وجل؛ وهذا أيضًا محرَّم، فكلُّ الحب مع الله محرَّم. مثال: أن يحب الرجل امرأته حبًّا يَشغله عما يجب عليه، أو يدفعه إلى فِعْلِ ما حُرِّم عليه، فهذه محبة تدفع العبد إلى نقص محبته لله عز وجل، وهذا حرام.

إذن؛ المحبة المتعلقة بالله: إمّا مشروعة وإما ممنوعة.

- **فالمشروع منها**: محبة الله، والمحبة لله، والمحبة في الله.

- **والممنوع منها**: المحبة مع الله عز وجل.

القسم الثاني: **المحبة لا تتعلَّق بالله عز وجل. فهذه تتنوَّع إلى أربعة أنواع**:

النوع الأوّل: الحب الطَّبْعِي. حب الإنسان ما يوافق طبعه؛ كالأكل، والشرب، والحديث مع الناس، والنوم، فهذا حب مركوز في طبع الإنسان، ومن طبيعة الإنسان.

النوع الثاني: حب الإجلال، أو الشفقة أو الرِّفق. وهو المحبة بين الوالد والولد، فمحبة الولد لوالده محبة إجلال، ومحبة الوالد لولده محبة شفقة.

النوع الثالث: محبة الأُلْفَة والخُلْطَة. كمحبة الرجل لصديقه، ومحبة الرجل لزوجته، ونحو ذلك.

النوع الرابع: محبة الإحسان الدنيوي. بمعنى: المحبة التي سببها الإحسان الدنيوي. فيحب الرجل رجلًا لأنه أحسن إليه بأمر دنيوي، كأن أجرى

له عملية مثلًا وأحسن فيها وأتقن، ونفعه الله بهذه العملية، فإنه يحب هذا الطبيب؛ لأنه أحسن إليه.

وفي الحقيقة؛ أنّ هذه الأنواع الأربعة كلها يمكن أن تعود إلى النوع الأوّل؛ وهو: الحب الطبعي المركوز في طبع الإنسان.

وهذه المحبة بأنواعها يمكن أن تُقسَّم إلى قسمين لنعرِف حكمها:

القسم الأوّل: محبةٌ تُعارِض محبة الله. يعني: أن تكون هذه المحبة لهذه الأمور معارِضة لمحبة العبد لله عز وجل، أي تقتضي منه فِعْلَ ما حرَّمه الله، أو ترك ما أوجَبه الله. وهذا القسم يعود إلى المحبة مع الله، فإذا تعلَّق به هذا الأمر عاد إلى المحبة مع الله على الأنواع التي ذكرناها.

القسم الثاني: محبة لا تتعارَض مع محبة الله، وهذه المحبة مباحة، لا شيء فيها، أن يحب الإنسان الأكل؛ لا شيء في هذا، لكن لو أنّ حبه للأكل دعاه إلى أن يُفطِر في نهار رمضان؛ فإنّ هذا ينتقل إلى القسم الأوّل؛ فينتقل إلى المحبة مع الله عز وجل.

أمّا كون الإنسان يحب الأكل فهذا مباح، وكون الإنسان يحب الشرب فهذا مباح، وكون الإنسان يحب زوجته فهذا الحب مباح، لا يَمنعه الشرع، ولا شيء فيه، ولا عيب فيه، ويدل لذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده، ووالده، والناس أجمعين»، ووجه

الدلالة: أنّ النبي صلى الله عليه وسلم أثبت حب الولد والوالد والناس أجمعين؛ ولذلك قال: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أَحَبّ إليه» أي: أحبَّ إليه من حبه لهؤلاء، إذن حبه لهؤلاء ليس منكَرًا؛ وإنما هو أمر مباح. وقد يكون هذا الحب مستحبًّا، كحب الولد لوالده إرضاءً لله عز وجل، وكذلك أن يحب العبد أمور الدنيا لأنها تعينه على طاعة الله، مثلًا: يحب النوم لأنه يرى في نفسه أنه إذا نام يقوم نشيطًا للعبادة، فيحب النوم من أجل هذا، فيتركب عنده النوم من جانبين: الحب الطبعي للنوم، وحب هذا النوم لأنه يعينه على طاعة الله عز وجل؛ فهذا الحب مستحب ويؤجَر عليه الإنسان.

وبعض أهل العلم قسّم المحبة إلى أقسام:

القسم الأوّل: محبة العبادة، وهي: محبة الله، والمحبة الخالصة لله، التي لا يجوز لمسلم أن يجعلها لغير الله عز وجل، وهي محبة العبودية؛ التي تقتضي العبادة والذل والخضوع والرجاء والخوف.

القسم الثاني: محبة هي عبادة، أي: محبة تتقرَّب بها إلى الله عز وجل، وتعبد الله عز وجل بها، وهي أن تحب لله، وتحب في الله سبحانه وتعالى.

القسم الثالث: محبة أمور الدنيا، وهي: أن تحب أمورًا في دنياك.

وبعض أهل العلم قال: المحبة تنقسم إلى قسمين:

القسم الأوّل: محبة مشتركة. ويعنون بها: أنه يجوز للمسلم أن يجعلها لمخلوق، أي: يجوز للمسلم أن يحب المخلوق في هذه المحبة، وهي ثلاثة أنواع:

النوع الأوّل: المحبة الطَّبْعِية.

النوع الثاني: محبة الإجلال والشفقة.

النوع الثالث: محبة الأُلْف والمخالطة.

القسم الثاني: محبة خاصة، وهي لا تجوز إلا لله عز وجل، وهي: محبة العبودية.

وهذا التقسيم هو الموجود في أكثر كتب شروح كتاب التوحيد.

فإن قال لنا قائل: هم في هذا التقسيم ذكروا لنا المحبة الخاصة التي هي لله عز وجل خالصة، وذكروا لنا: محبة أمور في الدينا، فأين الحب في الله، والحب لله؟

نقول: هو عندهم يَتْبَع محبة الله؛ لأنه لا يَتحقَّق إلا إذا أحب العبد الله عز وجل، فهو تابِع لمحبة الله عز وجل. فمحبة الرسول صلى الله عليه وسلم ومحبة الصالحين ومحبة ما أمر الله عز وجل به تابِعة لمحبة الله سبحانه وتعالى.

وخلاصة الأمر: أنّ محبة الله توحيد، وهي أصل كل محبة مشروعة، فكل ما دون الله يُحَبُّ لله ولا يُحَبُّ مع الله. كل ما دون الله؛ الملائكة، الأنبياء

عليهم السلام جميعًا؛ إنما يُحبَّون لله عز وجل، ولا يُحبَّون مع الله، فلا يُحَبُّ مخلوق مع الله سبحانه وتعالى؛ وإنما حبّهم يَتْبَع حبنا لله عز وجل، وأعظم حبٍّ بعد حبِّ الله حبّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما سيأتي في شرح النصوص التالية إن شاء الله عز وجل.

وبهذا التقسيم تكون عرفتَ أحكام المحبة، وإذا عرفتَ هذا التقسيم فإنه لا تَختلط عليك الأحكام، ولا تَختلط عليك الأمور، فاضْبِط هذا ينضبِط لك باب المحبة إن شاء الله عز وجل.

[قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ)]

الله عز وجل قال: (وَمِنَ النَّاسِ)، (من) هنا تبعيضيَّة، ليس كل الناس يَفعل هذا، ولكنّ بعض الناس يفعلون هذا. قال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللهِ أَندَاداً﴾، والند: هو النظير والمثيل، وأعظم الظلم وأكبر الذنب أن تجعل لله ندًّا وهو خَلقك. فمن الناس مَن يتخذ من دون الله أندادًا، كيف يَتَّخذهم؟ يحبونهم كحب الله، فمَن أحب كحب الله؛ فقد اتَّخذ من دون الله ندًّا، وهذه الآية في محبة العبودية، فمعنى هذه الآية: أنّ من الناس مَن يتَّخذ من دون الله أندادًا، عبر بعض المفسرين فقال: آلهة، وقال بعض المفسرين: أصنامًا، وقال بعض المفسرين: رجالًا يطيعونهم كطاعة الله. وهذا كلُّه صحيح.

قال: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ﴾ ما معنى هذا؟

قال بعض المفسِّرين: يحبونهم كحبهم لله. أي: أنّ المشركين يحبون الله– وهذا الغالب على المشركين أنهم يعرفون الله، ويحبون الله، بل قد يقولون عن الله: الإله الأعظم، ويقولون عن آلهتهم: الآلهة الصغرى– ولكنهم يحبون الآلهة والأنداد كحبهم لله، فحبهم ليس خالصًا لله عز وجل، وهذا الواقع، فإنك إذا وجدتَ المشرك الكافر تجده يقول: أنا أحب الله، والنصراني الذي يقول: إنّ الله ثالث ثلاثة –والعياذ بالله– يقول: أنا أحب الله، ولكنه يحب المسيح عليه السلام كحبه لله، ولا يحبه لله، أمّا نحن المسلمين نحب المسيح عيسى عليه السلام لله. وهذا أقوى القولين في تفسير الآية، فيكون المعنى: يحبون أندادهم كحبهم لله عز وجل.

وقال بعض المفسرين من السلف والخلَف: أي يحبون أندادهم كحب المؤمنين لله، فيحبون أندادهم وآلهتهم كحبكم يا معاشر المؤمنين لربكم سبحانه وتعالى. والأول أولى أقوى.

قال:﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ ما معنى هذه الجملة؟ إذا قلنا: إنّ المعنى يحبون أندادهم كحبهم لله؛ يكون المعنى: والذين آمنوا أشد حبًّا لله منهم؛ لأنّ المشركين يحبون الله، ولكنّ المؤمنين أشد حبًّا لله؛ لأنّ حبهم لله

خالص، وحب هؤلاء لله حب شِرْكيّ، فالذين آمنوا أشد حبًّا لله، فالذين آمنوا أشد حبًّا لله.

وإذا قلنا: يحبون أندادهم كحب المؤمنين لله، فيكون المعنى: والذين آمنوا أشد حبًّا لله من حب هؤلاء لأنددهم؛ لأنّ حب المؤمن لله حب يقينٍ وثباتٍ، أمّا حب المشرك لله مهما بلغ فلن يكون حب يقين؛ وإنما هو حب كفر، ابدًا لا يمكن ان يكون حب المشرك لآلهته عن يقين، وإنما هو حب كفر.

وهذه الآية عند جميع المفسرين في محبة العبودية، فدلّ ذلك على أنّ محبة العبودية توحيد، وأنّ صرفها لمخلوق شرك أكبر. فالذين يحبون الأولياء –سواء كان المحبوب وليًّا لله حقًّا أو لم يكن وليًّا لله حقًّا لكنه يُسمى وليًّا– فالذين يحبون هؤلاء الأولياء محبة يَتعلق بها الطلب والرجاء والخوف؛ فهؤلاء اتخذوهم أندادًا من دون الله، يحبونهم كحب الله عز و جل. وهذا فيمن سوَّى المخلوق بالله في المحبة. وليس المقصود بالتسوية هنا: التنصيف، بأن يكون حبه لله نصفًا، وحبه للصنم نصفًا، فيكون ما دون ذلك لا يَدخل فيه هذا، لا؛ وإنما المقصود أصل التسوية، أصل التسوية بين المخلوق والله في محبة العبودية شرك أكبر، حتى لو كان حبه لله أكثر، لكنه يَجعل للمخلوق محبة العبودية فهذا شرك أكبر. فكيف بمَن يحب المخلوق محبة عبودية أكثر من الله؟! وهذا للأسف يقع من بعض مَن يَنتسبون إلى الإسلام وهم لا يشعرون أحيانًا، بعض

الناس يحب المقبورين في قبورهم أكثر من حبه لله، ولذلك يخاف منهم خوف السِّر أعظم من خوفه من الله! وهذه علامة أنّ المحبة له أكثر من محبته لله، أن يعصي الله؛ ليس عنده إشكال، لكن أن يعصي القيِّم على قبر الولي – القيّم الذي يكذب على الناس ويقول: جاءني الولي بالأمس وقال: قلْ لفلان يتصدَّق على قبري، ويَنذر لقبري– فلا يعصي القيّم أبدًا.

وبعض الناس إذا قيل له قل: والله! على أمر وهو كاذب؛ ممكن أن يحلف، ولكن إذا قيل له قل: وقبر سيدي فلان! لا يمكن أن يحلف؛ لأنه يخاف من هذا المقبور أن يضره، فهذا حبه لغير الله أعظم من حبه لله، فكيف بمَن لا يحب الله أصلًا. فشأن المحبة عظيم.

وهذه الآية قد جاءت بقاعدة عظيمة في الدين، يُعرف بها التوحيد في باب المحبة من الشرك.

ولا شك أنّ شرك المشركين إنما كان من هذا الباب: شرك المحبة، فالغالب على المشركين أنهم إنما وقعوا في الشرك من هذا الباب.

[قوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾]

هذه الآية دلَّت على أمور في المحبة:

الأمر الأوّل: أنّ حب الآباء والأبناء والتجارة وأمور الدنيا؛ إذا لم يتعارَض مع محبة الله فهو مباحٌ، وليس ممنوعًا؛ لأنّ الله قال في آخر الآية: ﴿أَحَبَّ

إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ)، فدل ذلك على أنها إذا لم تكن أحب إلى الإنسان من الله ورسوله فهي مباحة.

الأمر الثاني: دلّت على أنّ محبة الله ومحبة رسوله صلى الله عليه وسلم واجبة.

الأمر الثالث: أنّ تكميل محبة الله ومحبة رسوله صلى الله عليه وسلم واجبة. فأصل المحبة واجب، وتكميل المحبة واجب؛ لأنّ الله عز وجل رتَّب الوعيد والوعد بالعقوبة على ترك هذا الأمر؛ فدلّ على أنه واجب.

[قوله: عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ، وَوَالِدِهِ، وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» أَخْرَجَاهُ]

الشيخ بعد أن أورَد الآيتين أورَد هذا الحديث؛ ليبيِّن مسألة الحب في الله ولله؛ بذِكْرِ أعظم هذا النوع؛ وهو: حب رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: (عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ»، هذا النفي هل هو لنفي أصل الإيمان أو لنفي الإيمان الواجب أو لنفي الإيمان المستحب؟ الجواب: هذا لنفي كمال الإيمان الواجب. «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» فالنبي صلى الله عليه وسلم يجب أن يُحَب، ويجب أن يكون حبّنا له مقدَّمًا على حب كل محبوب دون الله، كل محبوب دون الله يجب أن يكون حبّنا للنبي صلى الله عليه وسلم مقدّمًا عليه، بل

حب كل المحبوبين جملة دون الله يجب أن يكون حبّنا للنبي صلى الله عليه وسلم مقدّمًا عليه، ليس كل محبوب لوحده بل كل المحبوبين جملة من دون الله عز وجل- فحب الله هو أصل الحب- يجب ان يكون حبّنا للنبي صلى الله عليه وسلم مقدّمًا عليه.

ونفي الإيمان الذي يَتعلَّق بحب النبي صلى الله عليه وسلم -وليس في هذا الحديث؛ لأنّ في هذا الحديث هو معلَّق بأمر معيَّن؛ وهو: أن يكون الحب للنبي صلى الله عليه وسلم أعظم من حب غيره- فنفي الإيمان المتعلِّق بمحبة النبي صلى الله عليه وسلم قد يكون لنفي أصل الإيمان، يعني لو قلت: لا يؤمن مَن لا يحب النبي صلى الله عليه وسلم؛ فإنّ هذا إمّا أن يدلّ على نفي أصل الإيمان؛ أنه لا يكون عنده إيمان أصلًا، وذلك: إذا انتفى حب النبي صلى الله عليه وسلم من قلبه بالكلية، والعياذ بالله، حتى لو قال: أنا أشهد أنّ محمدًا رسول صلى الله عليه وسلم، لكن لا أحبه، فهذا كاذب في قوله، لو شهد أنّ محمدًا رسول الله لأحَبَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا انتفى الحب للنبي صلى الله عليه وسلم من القلب بالكلية انتفى الإيمان بالكلية، فلا يكون مؤمنًا مَن لا يحِب النبي صلى الله عليه وسلم أصلًا.

وقد يكون بمعنى: نفي كمال الإيمان الواجب، فهو مؤمن لكنه عاصي، إيمانه الواجب ناقص، وذلك في حق مَن يحب مخلوقًا أكثر من محبته لرسول

الله صلى الله عليه وسلم، مَن يحب زوجته أكثر من محبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم؛ هذا عاصي، نعم أصل الإيمان موجود ولكنّ إيمانه الواجب ناقص، وهو عاصي.

وهنا أنبّه إلى شيء يتعلَّق بهذا الأمر: بعض الرجال يقول لمرأته مثلًا: أنا أعبدك، يريد أن يقول: أنا أحبك محبة شديدة، ولكن يقول: أنا أعبدك! وبعض الناس مثلًا يقول لامرأته: أنا أحبك أكثر من الناس أجمعين الأحياء والاموات، وهذا لا يجوز، ولو كان يقصد ما فيهما إذا قال: أنا أعبدك، لكان هذا كان كفرًا. وإذا قال: أنا أحبك أكثر من الناس أجمعين الأحياء والأموات، لو كان يقصد ما فيهما لكان ذلك نقصًا في إيمانه الواجب؛ لأنّ هذا يشمل النبي صلى الله عليه وسلم.

وقد يكون بمعنى: نفي كمال الإيمان المستحَب، وذلك في حق مَن لا يحب بعض سنن النبي صلى الله عليه وسلم التي ليست واجبة، هو لا يُبغضها ولكن لا يُحبها، مثل بعض الناس يقول: أنا ما أحب السواك! هذا نقص في كمال إيمانه المستحب؛ لأنه من كمال الحب للنبي صلى الله عليه وسلم أن تحِبَّ حتى أفعاله الجِبِلِّيّة ولو لم تَفعلها.

إذن؛ نفي الكمال المتعلِّق بمحبة النبي صلى الله عليه وسلم:

- قد يكون بمعنى: نفي أصل الإيمان.

- وقد يكون بمعنى: نفي كمال الإيمان الواجب. وهو المراد بهذا الحديث قطعًا.

فنفي الإيمان المتعلق بشيء؛ لم يَرِدْ في النصوص إلا فيما يتعلق بالواجبات، ولم يَرِدْ فيما يتعلق بالمستحبات. ولكن من حيث الاستعمال والحُكم: فإنّ نفي الإيمان المتعلق بحب النبي صلى الله عليه وسلم قد يكون بمعنى نفي كمال الإيمان المستحب.

[وَلَهُمَا عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ، وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ؛ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ»، وَفِي رِوَايَةٍ: «لَا يَجِدُ أَحَدٌ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى...» إِلَى آخِرِهِ]

أشير بامر يتعلَّق بهذا الحديث ثم نرجع إليه إن شاء الله في الدرس التالي بحول الله وقوته، هذا الحديث فيه تحصيل أصل المحبة، وتكميلها، وتفريعها، ودفع ما يضادها.

فيه تحصيل أصل المحبة وتكميلها؛ في قول النبي صلى الله عليه وسلم: «أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما»، هذا فيه تحصيل أصل المحبة وتكميل المحبة، تحصيل الأصل؛ لأنه لا يمكن أن يكون أحب حتى يحب.

والتكميل: «أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما». وتفريع المحبة: «أن يحب المرء لا يحبه إلا لله» هذا تفريع عن محبة الله عز وجل. ودفع ما يضادها: في قول النبي صلى الله عليه وسلم: «وأن يَكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه، كما يَكره أن يُقذف في النار»، فإنّ هذا –أي أن يعود في الكفر– يضاد محبة الله.

فهذا الحديث حديث عظيم، سوَّر المحبة بالسُّور الكامل؛ تحصيلها، تحقيقها، تفريعها، دفع ما يضادها، ولا تَسلَم المحبة للإنسان إلا بهذا السُّور.

الدرس الثالث والأربعون: تابع شرح بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ}

إنّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَن يهدي الله فلا مضلَّ له، ومَن يُضلل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء: ١]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: ٧١]

أمّا بعد:

فإنّ أحسن الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكلّ محدَثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النار.

أيها الفضلاء؛ نواصل وقفاتنا مع أعظم الحقوق، وأنفع الحقوق، مع حق ربنا وإلهنا ومولانا وسيدنا، ذي الأسماء الحسنى، والصفات العلى، ذي الآلاء الكبرى، والنِّعم التي لا تُعَدّ ولا تُحصى، ستِّير العيوب، وغفَّار الذنوب، خيره إلى عباده نازِل، وشر عباده إليه صاعد، يَخلُق فيَكفرون، ويُنعِم فلا يَشكرون، لولاه ما خُلقنا، ولا عَقِلْنا، لولاه ما صلينا ولا ركعنا، لولاه ما صُمنا وحجَّينا سبحانه وتعالى، حقُّه أعظم الحقوق، وأعظم ما فُرِض على الإنسان، وذلك من خلال شرح كتاب التوحيد لشيخ الإسلام، وناصِح المسلمين، ومجدِّد ما اندثر من الدين: محمد بن عبد الوهاب التميمي –رحمه الله وسائر علماء المسلمين–، ونبدأ اليوم إن شاء الله في باب عظيم، وهو باب يتعلق بالمحبة.

[قوله: بَابُ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ)

من هنا يبدأ قسم جديد من أقسام كتاب التوحيد؛ ألا وهو القسم المتعلِّق بأعمال القلوب، التي لها تَعلُّق بالتوحيد، حيث أنّ الشيخ –رحمه الله– قسَّم كتاب التوحيد إلى كليات، وإن لم يصرِّح بها، إلا أنّ المتأمِّل في الكتاب يجد هذا الترتيب البديع، ثم قسَّم كل كلِّيٍّ إلى أبواب، وبدأ الشيخ قِسْمَ ما يَتعلَّق بأعمال القلوب المتعلِّقة بالتوحيد بالمحبة؛ لأنّ المحبة منها ما هو أصل في التوحيد،

ومنها ما هو من آثار وثمار التوحيد، ومنها ما يضاد التوحيد. فالمحبة لبُّ العبادة، وحقيقة العبادة، وهي شرطٌ في العبادة، فلا تكون عبادة الله عبادة إلا إذا كانت عن محبة، ومن حق ربنا علينا أن نحبَّه الحب المطلَق، فوق كلِّ حُبّ، وأن يكون حبَّنا لله أصل كل حب، فما تَفرَّع عن حبِّنا لربنا تقرَّبنا به إليه سبحانه وتعالى، وما ضادّ حبَّنا لربِّنا تبرَّأنا منه، ورددناه.

والمحبة تنقسم من حيث حقيقتها إلى خمسة أقسام:

القسم الأوّل: محبة طبَعِيَّة مركوزة في طبع الإنسان؛ كمحبة الإنسان للأكل، والشرب، وملذات الدنيا المباحة، ومحبة الإنسان لمصالحه، فهذا أمر طَبَعِيّ مركوزٌ في نفس الإنسان، ويَتفاوت فيه الناس، فمثلًا؛ نبينا صلى الله عليه وسلم كان يحب الحلوى، ويحب الشراب البارد، ويحب الدبَّاء، و يحب الطِّيب، و يحب النساء، فهذه المحبة الطبَعِيَّة في الأصل لا يَتعلَّق بها مدح ولا ذم؛ لأنها من طبع الإنسان، إلا في حالين:

الحالة الأولى: أن يكون الدافع لهذه المحبة حُبَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكون الإنسان يحب الطِّيب لأنّ النبي صلى الله عليه وسلم يحبه، من طبيعته أنه يحب الطيب لكن لمّا عَلِمَ أنّ النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب الطيب أصبح يحبه أكثر؛ لحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو كان

يحب الدباء من طبعه، لكن لمّا عَلِمَ أنّ النبي صلى الله عليه وسلم يحب الدباء أصبح يحبه أكثر، فهنا يُثاب على هذه المحبة، ويُمدَح على هذه المحبة.

الحالة الثانية: أن يجعل حبه لهذه الأشياء الحب الطبعي سببًا لزيادة حبه لله وتقرُّبه لله سبحانه وتعالى، فيحبها لأنها تعينه على طاعة الله، يحب النوم كما يحب كل إنسان النوم ولكنّ هذا الفاضل يحب النوم لأنه يتقوَّى به على طاعة الله، فيزيد على الحب الطبعي حب هذه الأمور لأنها تزيده قربًا إلى الله، وتعينه على التقرُّب إلى الله سبحانه وتعالى.

القسم الثاني: محبة رحمة وإشفاق أو احترام. محبة الرحمة والإشفاق مثل محبة الأم لولدها. ومحبة الاحترام مثل محبة الولد لأبيه، ومحبة التلميذ لشيخه، فهذه محبة دافعها الاحترام. وبعض أهل العلم يقول: الاجلال، والمقصود بالإجلال هنا: الاحترام. وهذه المحبة يَتعلق بها المدح شرعًا من جهة ما يَتعلَّق بها من رحمة أو احترام. فالرحمة يُمدَح بها الإنسان. والاحترام لذي الاحترام يُمدَح به الإنسان؛ لأنّ هذا من إجلال الله سبحانه وتعالى.

القسم الثالث: محبة إلْفٍ وأُنْس. فالإنسان يحب من يخالطه في العادة؛ كمحبة المسافر لرفقائه في السفر، ومحبة الجليس لجلسائه، فهذه محبة إلف وأُنس، وهذه محبة مكتسبة جائزة؛ إلا إذا وُجِدَ في الشرع ما يَدفعها؛ كابتداع، وإظهار للفسق، فإنه إذ ذك تَندفع هذه المحبة ولا سيما في الظاهر.

القسم الرابع: محبة لله، ومحبة في الله. وهذه عبادة واجبة على المكلَّف في الجملة، ورأسها وأعلاها حب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم حب الأنبياء، ثم حب الصالحين؛ ورأسهم صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

القسم الخامس: محبة ذُلّ وخضوع وكمال طاعة وتعظيم. وهذه محبة عبودية، يجب أن تكون لله عز وجل، ولا يجوز أن تُصرَف لأحد من المخلوقين، قليلها وكثيرها صرفه لغير الله شرك أكبر. هذه المحبة لا تكون إلا لله عز وجل؛ فصرْفُها لغير الله محبة مع الله، وهو صنيع المشركين الأوّلين. والناس المشركون في باب محبة العبادة على دركات، بعضها أظلم من بعض.

فمنهم مَن يحب الله عز وجل ولكنه يحب الأنداد كحبِّه لله؛ فيسوِّي بين الله وبين مخلوقاته في المحبة، سواء سوَّى بين الله عز وجل والأصنام في المحبة، أو سوَّى بين الله عز وجل ومَن يسمِّيهم بالأولياء والصالحين في المحبة، وهذا هو صنيع المشركين الأولين.

ومنهم مَن يحب الله ولكنه يحب الأنداد أكثر من حبه لله سبحانه وتعالى، فتجد تعظيمه لهم في قلبه أعظم من تعظيمه لله، وحرصه على حقِّهم –بزعمه– أعظم من حرصه على حق الله تعالى، تجده يقضي الليل والنهار يدافع عن حقوقهم المزعومة، ويَذمُّ ويعادي مَن يدعو إلى حق الله، ويدعو إلى توحيد الله، عدُّوه الذي يقول: محِّضوا حق الله لله، ولا تَصرفوا شيئًا من حق الله لغير

الله، فهذا في حقيقة الأمر يحب هؤلاء الأنداد الذين جعلهم نظراء لله أعظم من حبه لله عز وجل، وهؤلاء أسوء من الأوّلين.

ومنهم مَن يحب الأنداد ولا يحب الله أصلًا، وهذا –والعياذ بالله– شرُّ مَن وطئ الأرض، فيَصرِف للأنداد حقَّهم –بزعمه– وهو شرك، ولا يَصرِف لله عز وجل حقَّه من التوحيد، ولا يحب الله مطلَقًا.

هذا تقسيم المحبة من جهة حقيقتها. ونستطيع أن نقسِّم المحبة من جهة حكمها إلى أربعة أقسام:

القسم الأوّل: محبة فرض واجب، هذه المحبة فرض واجب على المكلَّف؛ كمحبة الله، فهذا فرض مطلَق، ومحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وهذا متفرِّع عن حب الله، ومحبة الصالحين.

القسم الثاني: محبة مباحة؛ وهي المحبة الطَّبَعِيَّة التي في طبع الإنسان بشرطين:

الشرط الأول: ألّا تكون محبة لِمَا حرَّم الله. فلا يأتي مثلًا إنسان فيقول: أنا بطبعي أحب الخمر! نقول: لا يجوز، أو يقول: أنا بطبعي أحب النساء الأجنبيات عني! فنقول: هذا مرض وليس طبعًا، ولا يجوز.

الشرط الثاني: ألّا تساوي محبة الله، أو تُقدَّم على محبة الله سبحانه وتعالى.

القسم الثالث: محبة محرَّمة. كالمحبة مع الله، وتقديم محبة أحد من البشر على محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكمحبة ما حرَّم الله، وكالمحبة التي حرَّمها الله كمحبة الكفار غير الطَبَعِيَّة.

القسم الرابع: محبةٌ مستحبة، فضيلة يُستحَب للمسلم أن يُوقِعها؛ وهي: محبة ما يحبه رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير الواجبات؛ فهذه محبة طبَعِيَّة، وكذا محبة الأمور الطبعية لكونها تُعين على طاعة الله؛ فهذه محبة طبعية، وهي محبة مستحبة.

فهذا تقسيم المحبة من جهة حكمها.

وإذا عرفتَ تقسيم المحبة عرفتَ لِمَ ذَكَرَ الشيخ المحبة في كتاب التوحيد؛ لأن محبة التعظيم والذلّ والخضوع وكمال الطاعة عبادة، فَفِعْلُها توحيد، وصَرْفها لغير الله شرك؛ ولأن المحبة لله من آثار التوحيد ومن ثمار التوحيد؛ فناسَب أن يَذكُر هذا الباب في كتاب التوحيد.

ثم إنّ الشيخ –رحمه الله– بوَّب الباب بهذه الآية العظيمة؛ ليُنبِّه مَن يَنتسبون إلى الإسلام إلى خطورة ما يفعله بعضهم في باب المحبة لمَن يُسمُّونهم بالأولياء الصالحين، فإنّ بعض مَن يَنتسبون إلى الإسلام يَغلُون في محبة الأولياء الصالحين؛ حتى يقع أحدهم في صنيع المشركين، بل أشد، ولذا ذكر الشيخ هذه الآية بيانًا وتحذيرًا؛ لأنّ ربنا سبحانه وتعالى في هذه الآية ذمّ المشركين بكونهم

يَتَّخذون من دون الله أندادًا، لا يزعمون أنهم يَخلقون، ولا يزعمون أنهم يَرزقون؛ وإنما يُشرِكونهم مع الله في محبة التعظيم؛ فيُحبُّون أندادهم كحب الله.

فكيف بمَن يزعم ممَّن ينتسبون إلى الإسلام أنّ الأولياء يَخلقون، وأنّ الولي قادر على خَلْق الولد في بطن أمِّه، وأنهم يَرزقون، وأنهم يُدبرون الكون ويَتصرفون فيه، ويُحبهم كحب الله، بل حبُّه لهم وخوفه منهم ورجائه لهم أشد من حبه لله، وخوفه من الله، ومن رجائه لِمَا عند الله، إذا أعياه أمر فَزِعَ قلبه إلى أولئك الأولياء؛ يدعوهم، ويَتقرَّب إليهم، ولا يَرِدُ على قلبه ربه سبحانه وتعالى؟! لا شك أنّ هؤلاء أسوأ حالًا من أولئك المشركين الأوّلين، عياذًا بالله من الخذلان.

والله عز وجل قال: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ﴾ أي: أنّ المشركين يساوُون غير الله بالله في محبة التعظيم، فهم يسوُّون الله خالقهم والمنعِم عليهم وعلى الناس أجمعين بمخلوقاته الضعفاء المحتاجين إلى الله عزو وجل في المحبة، وهذا هو الضَّلال المبين؛ أي: الضَّلال البيِّن، فإنّ هذا الضَّلال يدركه العاقل بعقله قبل أن يَعرف ذلك بآيات الله عز وجل وبأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو الضَّلال المبين والظُّلم العظيم، كما قال الله عز وجل عن أهل النار: (قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَاللهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ) (الشعراء: ٩٦-٩٨)، كانوا يسوُّون الله سبحانه وتعالى

بمخلوقاته، أو يسوُّون المخلوقات بالله في المحبة، فكُبْكِبُوا في جهنم أجمعين، وكانوا يَتلاوَمون، وتبيَّن لهم حيث لا ينفعهم ذلك أنهم كانوا في ضلال مبين؛ إذ كانوا يسوُّون تلك المخلوقات بالله رب العالمين في المحبة.

وقيل: إنّ المعنى: إنّ المشركين يُحبون أندادهم كما يحب المؤمنون الله، وهذا ضعيف؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى قال: **(وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ)**، فكيف يَذكر الله في أوّل الآية التساوي ثم يَنفيه في آخر الآية؟! فهذا المعنى ضعيف.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ قيل في معناه أقوال:

- **أنّ حب المؤمنين لله أشد من حب الكفار لله**؛ لأنّ حب المؤمنين لله خالص، حب التعظيم والعبادة لا يَصرفونه لنبي ولا لولي ولا لشجر ولا لصنم؛ وإنما هو لله فقط سبحانه وتعالى. أمّا حب المشركين لله فهو حب شرك؛ إذ يسوُّون المخلوق بالخالق في هذه المحبة.

- **وقيل**: إنّ المعنى: أنّ المؤمنين أشد حبًّا لله من حب المشركين لأندادهم.

وبهذا تَعلَم مناسبة التبويب بهذه الآية الشريفة.

[قوله: (قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ) إلى قوله: (أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ الآية]

أورد الشيخ في هذا الباب قول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)(التوبة: ٢٤). حيث أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يَتوعَّد المؤثرين هذه الثمانية التي تتعلَّق بها القلوب عادة؛ وهي: الآباء، والأبناء، والإخوان، والأزواج، والعشيرة، والأموال المكتسبة، والتجارة التي يَخاف عليها الإنسان أن تضيع، والمساكن الطيبة التي يحبها الإنسان، أمر الله نبينا صلى الله عليه وسلم أن يَتوعَّد مَن آثر هذه المذكورات بهذا الوعيد العظيم؛ وهو: أن يَنتظر عقاب الله، فهو يَعلَم وعيد الله ويَنتظر عقاب الله، وهذا أشدّ لألَمِه، وأعظم لعقابه، أنه يَعلَم أنه سيَنزل به عقاب ولا يدري متى ينزل، فهو في خوف دائم، وفي قلق دائم، وهذا من أشد أنواع العذاب (وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ).

وفي هذه الآية: دليل على أنّ محبة هذه الأمور الثمانية مباحة جائزة؛ إذا لم تتعارَض مع حب الله؛ لأنّ الله لم يَذمّ حبها مطلَقًا، وإنما ذَمّ تقديمها على حب الله وعلى حب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا كان الإنسان يحب أباه؛ فهذا ليس مذمومًا بل مطلوب، إذا كان يحب ولده؛ فهذا ليس مذمومًا بل مطلوب، وإذا كان يحب زوجته؛ فهذا ليس مذمومًا بل مطلوب، وإذا كان يحب

ماله؛ فهذا ليس مذمومًا بل مطلوب، وهكذا، ولكنّ المذموم الممنوع أن يقدِّم حبها على حب الله وعلى حب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

والحب لهذه الثمانية إن كان من باب محبة الذلّ والتَّعبد والتعظيم؛ فإنه شرك أكبر، وإن لم يكن من هذه المحبة؛ فهو كبيرة من كبائر الذنوب، وقد يكون شركًا أصغر.

والْحَظوا ترتيب الشيخ! حيث بدأ بالآية التي بوَّب لها، وهذه في محبة الشرك، المحبة التي يقع فيها التوحيد الخالص أو الشرك الأكبر؛ وهي: محبة التعظيم والتعبُّد، ثم ذكر الآية الثانية وفيها تقديم محبة المحبوبين على محبة الله ومحبة رسوله صلى الله عليه وسلم؛ وهذه المحبة قد تكون شركًا أكبر، وقد تكون كبيرة من كبائر الذنوب، بحسب نوعها. ثم ذكر الشيخ –رحمه الله عز وجل– الأحاديث المتعلقة بالمحبة.

[عَنْ أَنَسٍ –رضي الله عنه– أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» أَخْرَجَاهُ]

أورد الشيخ –رحمه الله عز وجل– هذا الحديث ليتكلَّم عن محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهذا الحديث رواه الشيخان؛ البخاري ومسلم. قال: (عَنْ أَنَسٍ –رضي الله عنه– أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «لَا يُؤْمِنُ

أَحَدُكُمْ»، دائمًا إذا نُفِيَ الإيمان في النصوص فإمّا أن يكون النفيُ متسلطًا على الحقيقة، وإمّا أن يكون متسلطًا على الكمال، وهذا بحسب الأدلة.

فقوله: «لا يؤمن أحدكم»:

قد يكون معناه: لا يقع الإيمان في قلبه أصلًا.

وقد يكون معناه: لا يؤمن أحدكم الإيمان الكامل.

وهذا النفي هنا للأمرين باختلاف الحال، فإن كان العبد لا يحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أصلًا، ولا يجد لرسول الله صلى الله عليه وسلم حبًّا في قلبه؛ فهذا ليس مؤمنًا أصلًا، وينتفي عنه الإيمان بالكلية.

وإن كان العبد يحب رسول الله صلى الله عليه وسلم غير أنه يحب نفسه أكثر من حبه لرسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فهذا إيمانه ناقص نقصًا شديدًا، وإن كان أصل الإيمان حاصل عنده.

«لا يؤمِنُ أَحَدُكُمْ» هذا يشمل الذكر والأنثى، «حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» ويَشمل هذا نفس الإنسان؛ كما قال عمر للنبي صلى الله عليه وسلم: (والله يا رسول الله لأنت أحب إليَّ من كل أحد إلا من نفسي، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا يا عمر؛ حتى أكون أحبَّ إليك من نفسك» يعني: لا يَكمُل إيمانك حتى أكون أحب إليك من نفسك، قال: (فو الله يا رسول الله لأنت الآن أحب إلي من نفسي)، وفي هذا دليل على أنّ المحبة

تتغير، فقد يتغيَّر الأمر من حب إلى بُغض، وقد يتغيَّر الأمر إلى محبة أكمَل، فعمر –رضي الله عنه– فور أن عَلِمَ أنّ كمال الإيمان يَستلزم كمال حب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يكون حبه فوق كل حب بشريٍّ حتى فوق حب نفس الإنسان؛ أحبَّ النبي صلى الله عليه وسلم أكثر من حبه لنفسه، وهذا دليل على عِظَم إيمان عمر –رضي الله عنه–، وكذا المؤمن إذا سَمِعَ هذا فإنّ قلبه ينقاد إلى أن يكون حب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه أعظم من حبه لنفسه. فهذه محبة واجبة، وهي محبة لله، متفرِّعة ونابعة من حب الله، فرسول الله صلى الله عليه وسلم نحبه؛ لأنه رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ ولأنّ الله رَحِمَنا به، ولأنه جاهد في تبليغ الدين حق الجهاد، وأدّى الأمانة، فنحبه صلى الله عليه وسلم فوق حبنا لكل بشر.

ودليل هذه المحبة: حُسن الاتِّباع لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وتقديم محبوب رسول الله صلى الله عليه وسلم على محبوب كل محبوب، وألا تعبد الله إلا بما شرع وبيَّن صلى الله عليه وسلم، **﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾** (آل عمران: ٣١).

وحب رسول الله من حب الله، متفرِّع عن حب الله، فعلامة حب رسول الله صلى الله عليه وسلم: أن تُحسِن اتِّباعه، ولا يعني هذا أنّ مَن لم يتَّبع النبي صلى الله عليه وسلم في بعض العبادات أنه لا يكون محبًّا لرسول الله صلى الله

عليه وسلم؛ وإنما يكون حبه ناقصًا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، يعني: الذي لا يتَّبع رسول الله صلى الله عليه وسلم في شيء؛ فهذا لا يحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أصلًا، الذي يأتينا ويقول: أنا أحب رسول الله ولكن لا أصلي ولا أصوم ولا أتصدق، نقول له: كذَّاب. لو قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنّ محمدًا رسول الله، وقال: أنا أحب الله، وأحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، لكنه لا يصلي ولا يصوم ولا يعمل شيئًا لله مع علمه وقدرته؛ فهذا كاذب، صاحب بهتان، وليس صاحب إيمان.

أمّا مَن كان يتَّبع رسول الله صلى الله عليه وسلم لكنه يخالف في بعض الأمور؛ كمَن يقيم المولد مثلًا، لكنه يتَّبع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سائر الأعمال، فهذا لا نقول: إنه لا يحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن نقول: إنّ حبه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ناقص، وبدعته هذه تُبعِده عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا يحبها الله، ولا يَقبلها الله، وقد تزيد على قلب العبد حتى تَرِين على قلبه والعياذ بالله، فيصبح كالكوز مُجخِّيا لا يَقبل معروفًا ولا يُنكِر منكرًا ولا باطلًا.

[وَلَهُمَا عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ، وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ

يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ)]

قال الشيخ: (وَلَهُمَا) أي: للشيخين؛ البخاري ومسلم –رحمهما الله–.

قال: (عَنْهُ) أي: أنس –رضي الله عنه–. (قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «ثَلَاثٌ» أي: ثلاث خصال. وعَدُّ هذه الخصال الثلاث ليس حصرًا لأسباب وجود لذة الإيمان؛ وإنما لبيانٌ لكمال هذه الخصال في هذا الباب، فكلُّ ما شَرَعَه الله إن أدَّاه العبد مخلِصًا لله ومتَّبعًا لرسول الله صلى الله عليه وسلم؛ زاد في إيمان العبد، ووَجَدَ العبد لذته في قلبه، لكنّ هذه الثلاث فيها كمال الموعود في هذا الحديث على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ» أي: مَن وُجدْن فيه، «وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ» فللإيمان حلاوة؛ وهي لذة يجدها العبد في قلبه، وسعادة يجدها العبد في قلبه، فيعيش بين الناس في الأرض كأنه في جنة، بل يعيش بين الهموم كأنه في جنة، تحيطه الكروب وتحيطه الهموم وهو في غاية اطمئنان القلب، وفي غاية سعادة القلب، في قلبه لَذّة لا يوحِشه في طريقه قِلّة السائرين، ولا قِلّة المناصرين، ولا قِلّة المتجمهرين حوله؛ لأنه يأنس بالله سبحانه وتعالى، الله عز وجل جعل له في قلبه حلاوة هي أعظم ما ذِيقَ من حلاوة في الدنيا، أشد من حلاوة العسل، وأشد من حلاوة السكر، حلاوة تخالِط القلوب. قال: «أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا» أي: أن يقدِّم حب

الله وحب رسوله صلى الله عليه وسلم على كل حب، حتى لو كان الحب مأذونًا فيه أو مشروعًا فيه فإن حدَّه دون حب الله، ودون حب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا زاد عن ذلك كان محرَّمًا.قال: «وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ» وهذا من ثمرة حبه لله؛ أن يحب المرءَ لا يحبه إلا لله.

وأسباب المحبة بين الناس كثيرة: خيرها وأزكاها وبرُّها ومستقرَّها والباقي منها في الدنيا والآخرة أن يكون ذلك لله، أن تحب العبد لله، وليس الحب لله قولًا باللسان؛ وإنما الحب لله أمر يَقِرُ في القلب لوجود سببه، ويُشرَع أن يُعبَّر عنه باللسان، بعض الناس كلّما لقي إنسانًا قال: أحبك في الله! ولم يَعلَم سببًا يقتضي حبه في الله ولله، هذا غلط. فإنّ الحب في الله ولله حب يَقِرُ في القلب لوجود سببه، لصلاح هذا الرجل، لاتباعه للسنة، لذبِّه عن السنة، فإذا وُجِدَ الحب في الله في القلب حقيقة شُرِعَ للمرء أن يُخبر أخاه أنه يحبه في الله؛ لتزداد المحبة بين المؤمنين.

قال: «وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَن يُقْذَفَ فِي النَّارِ»، الكفر نارٌ معنوية أشد إحراقًا من النار الحسية، فو الله! والله! لو جُمِعَت نيران الدنيا في مكان واحد وقُذِفَ فيها العبد لكان هذا أهوَن من أن يكون مشركًا بالله سبحانه وتعالى. فالشرك بالله نارٌ معنوية أشدّ إحراقًا من النار الحسية، وهو سبب للخلود في نار جهنم والعياذ بالله.

فمَن أنقذه الله من الكفر، وتَعلَّم التوحيد، وانصرَف عن عبادة الأولياء، وعبادة أصحاب القبور، والنذر لهم، والدعاء لهم، مَن أنعم الله عليه بهذه النعمة وأصبح يَكرَه أن يعود في ذلك الكفر وذلك الشقاء كما يَكرَه أن يُقذَف في النار؛ هذا يعبد الله فوق توحيده بعبادة عظيمة هي سبب لأن يجد في قلبه حلاوة الإيمان.

قال العلماء: ويُلحَق بهذا مَن كان على كبيرة من الكبائر؛ فأنقذه الله منها، وتاب منها، فأصبح يَكره أن يعود إليها وإلى أهلها؛ كما يَكره أن يُقذَف في النار، فإنه يَدخل في هذا الشَّرف، وفي هذه العبادة، وفي هذا الثواب، وفي هذا المآل، وأن يجد حلاوة الإيمان في قلبه.

[وَفِي رِوَايَةٍ: (لَا يَجِدُ أَحَدٌ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى...)، إِلَى آخِرِهِ.

قال الشيخ: (وَفِي رِوَايَةٍ) أي: للبخاري.«لَا يَجِدُ أَحَدٌ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يحب المرء لا يحبه إلا لله، وحتى أن يُقذَف في النار أحبُّ إليه من أن يَرجِع إلى الكفر بعد أن أنقذه الله منه، وحتى يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما» وهذه الرواية بمعنى الرواية السابقة، لكنّ النبي صلى الله عليه وسلم هنا قال: «لا يجد أحد» فنفى وُجْدَان حلاوة الإيمان إلا بهذه الثلاث. قال: «أَحَدٌ» "أحدٌ" نكرة في سياق النفي؛ فتعمّ كل أحد؛ أي: لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى يحقِّق هذه الثلاث، فلا يجد حلاوة الإيمان إلا إذا وُجِدَ أصل هذه الثلاث في قلبه، فإذا

وُجِدَ أصل هذه الثلاث في قلبه؛ فإنه يجد حلاوة الإيمان في عبادة الله سبحانه وتعالى، وكلّما كَمُلَ تحقيقه لهذه الثلاث كلّما زادت حلاوة الإيمان في قلبه، فلا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى يكون حبُّ الله في قلبه، وحتى يكون حبُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم في قلبه، وحتى يحقِّق التوحيد ويَكره الكفر، وحتى يحب الصالحين في أصل المحبة، فإذا وُجِدَ هذا في قلبه فإنه يجد لذة الإيمان بما يَتقرَّب به إلى الله سبحانه وتعالى، وكلّما زاد تحقيقه لهذه الثلاث زاد كمال اللذة وكمال الحلاوة في قلبه.

الدرس الرابع والأربعون: تابع شرح بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ}

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَن يهدي الله فلا مضلَّ له، ومَن يُضلل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء: ١]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: ٧١]

أمّا بعد:

فإنّ أحسن الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكلّ محدَثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النار.

يا معاشر الفضلاء؛ إنّ أعظم الكنوز على الإطلاق: توحيد الله سبحانه وتعالى، فتوحيد الله حقُّ الله على عباده، فهو أعظم حق وُصِف، وأشرف فرض عُرِف، أعظم الفرائض على الإطلاق، ومفتاح الخير على الإطلاق. وإنّ المؤمن لَيَحرِص على التوحيد أشد من حرصه على نفسه. ونحن في هذا المجلس في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم نتفقَّه في التوحيد، **ومَن يُرِدِ الله به خيرًا يفقِّه في الدين**.

ولا زلنا في باب قول الله عز وجل: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ} (البقرة: ١٦٥). وقد بيَّنا المحبة وأنواعها؛ من جهة حقيقتها، ومن جهة حُكمها. وبيَّنا أنّ الموحِّد المؤمن يَجعل حبَّه حبَّ التألُّه والتعبُّد والخضوع والتذلُّل لله وحده لا شريك له، ولا يَصرف منه شيئًا لغير الله سبحانه وتعالى، كما أنه يحب لله، ولا يحب مع الله، يحبُّ لله؛ فحبُّه بأمر الله أو بإذن الله سبحانه وتعالى، أمّا ما لا يأذن الله فيه من الحب فإنّ المؤمن يَبتعد عنه، ويجاهد نفسه عنه؛ كحب الرجل للمرأة الأجنبية، فإنّ المسلم يجاهد نفسه ويدفع هذا الحب، ولو وقع الحب في قلبه فإنه يجعل قلبه مقبرته، ولا يَخرج منه كلامٌ ولا فِعلٌ من أثر هذا الحب المحرَّم؛ إلا أن يشاء الله أن يتزوج تلك المرأة.

وبيَّنا أنّ صَرْفَ محبة التذلُّل لغير الله شرك أكبر، وأنّ تقديم محبة غير الله على محبة الله أو مساوة محبة غير الله لمحبة الله؛ كبيرة من كبائر الذنوب، أو

شرك أصغر بحسب مقامتها. وأنّ الحب الذي لم يأذن فيه الله عز وجل حب محرَّم لا يجوز للمؤمن أن يفعله. وبيَّنا أنّ المشركين على مَرِّ الأزمان يَصرفون محبة التذلُّل لغير الله عز وجل؛ فيحبُّون الأصنام كحبهم لله عز وجل، ويحبُّون أهل القبور كحبهم لله عز وجل، وتؤثِّر هذه المحبة في نفوسهم عبادة باطنة إلى أولئك الذين يحبونهم. ونكمل اليوم ما يتعلق بهذا الباب، ثم ننتقل للباب المتعلِّق بالخوف.

[وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: مَنْ أَحَبَّ فِي اللهِ، وَأَبْغَضَ فِي اللهِ، وَوَالَى فِي اللهِ، وَعَادَى فِي اللهِ، فَإِنَّمَا تُنَالُ وَلَايَةُ اللهِ بِذَلِكَ، وَلَنْ يَجِدَ عَبْدٌ طَعْمَ الْإِيمَانِ - وَإِنْ كَثُرَتْ صَلَاتُهُ وَصَوْمُهُ - حَتَّى يَكُونَ كَذَلِكَ، وَقَدْ صَارَتْ عَامَّةُ مُؤَاخَاةِ النَّاسِ عَلَى أَمْرِ الدُّنْيَا، وَذَلِكَ لَا يُجْدِي عَلَى أَهْلِهِ شَيْئًا. رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ]

هذا الأثر عن ابن عباس –رضي الله عنه– قال الشيخ فيه: (رواه بن جرير)، وقد تطلَّبتُ هذا الأثر في تفسير ابن جرير الطبري فلم، لكن نَسَبَهُ إلى الطبري ابن رجب –رحمه الله عز وجل– فلعل الشيخ –رحمه الله– تابَع ابن رجب على هذه النِّسبة. وهذا الأثر رواه ابن المبارك في الزهد بلفظ: "أَحِبَّ لله، وأبْغِضْ لله، وعادي في الله، ووالي في الله؛ فإنه لا تُنال وِلاية الله إلا بذلك، ولا يَجد رجل طعم الإيمان –وإن كثرت صلاته وصيامه– حتى يكون كذلك، وقد صارت مؤاخاة الناس اليوم في أمر الدنيا، وذلك لا يُجزِي عن أهله شيئًا يوم

القيامة". ورواه الطبراني في الكبير وأبي نُعيم في "الحلية" عن ابن عمر -رضي الله عنهما-، وفي أسانيد هذا الأثر ضَعف، لكنّ معناه صحيح، وقد تلقَّته الأمّة بالقَبول، وقرَّره نُقَّاد العلم وأهل التوحيد وأهل العقيدة السلفية في كتبهم.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: (مَنْ أَحَبَّ فِي اللهِ، وَأَبْغَضَ فِي اللهِ، وَوَالَى فِي اللهِ، وَعَادَى فِي اللهِ) هذه الجملة من الأثر ثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «مَن أحب لله، وأبغض لله، وعادى لله، وأعطى لله، ومنع لله؛ فقد استكمل الإيمان» رواه أبو داود، وصحَّحه الألباني. «مَن أحب في لله» فكان حبُّه لله عز وجل، يحب الرجل لا يحبه إلا لله عز وجل، يحبه لصلاحه، ويحبه لخيره، وعلامة هذا الحب: أنه لا يزداد بالقرب الدنيوي، ولا يزداد بالإحسان الدنيوي، ولا يَنقص بالبُعد؛ لأنّ الصفة التي تعلق بها هذا الحب لا تَتغيَّر بالقرب والبُعد، ولا تتغير بالإحسان الدنيوي وبعدمه، فالرجل يحب الرجل لأنه صالح، سواء كان هذا الرجل الصالح في مدينته أو كان في مدينة أخرى بعيدة عن مدينته. وهذا الحب إنما يكون إذا وُجِدَت مقدِّماته، وليس صحيحًا أنّ الرجل يلقى الرجل لا يَعرف عن صلاحه شيئًا فيقول له: أحبك في الله! إلا إذا عنى بذلك أصل المحبة؛ وهو أنه يحبه في الله لكونه مسلمًا، فإنّ مَن ثَبَتَ له الإسلام ثبتت له المحبة في القلب، وأمّا التعبير عن ذلك فهذا له شأن آخر.

إذن؛ مَن أحب في الله؛ أي: كان سبب حبِّه ما يحبه الله؛ وهو الصلاح والتقى. ويتفاوت الناس في هذا الحب، فالمؤمن يحب المسلمين جميعًا في الله لإسلامهم، وهذا الحب يكون في قلب المؤمن ثم يُظهِر حبه لمَن لم يوجَد ما يَمنع من إظهار حبه له، ويُخبره أنه يحبه في الله؛ كما أمر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك. أمّا مَن وُجِدَ فيه مانِع شرعي يَمنع من إظهار حبه له فإنه لا يُظهِر له الحب؛ كالمبتدع، والفاسق المجاهر بفسقه، لكن قال أهل العلم: لا مانع من إظهار الحب له إذا اقتضى المقام الشرعي ذلك؛ كأن يكون ناصحًا له فيما بينه وبينه، فيقول له: إني أحبك! وهو صادق، يحبه لكونه مسلمًا، وإن كان يُبغضه لكونه فاسقًا مجاهرًا بفِسقه، أو لكونه مبتدعًا مخالِفًا لسنة الرسول صلى الله عليه وسلم.

ثم يتفاوت المسلمون في حب المسلم لهم، كلّما عَظُمَ صلاح الرجل كلّما عَظُمَ حبه في قلب الرجل المسلم، والصالحون الذين عُرِفَ عنهم أنهم عباد أبرار وأولياء لله –وليست دعاوى وإنما أعمالهم تدلّ على ذلك– فإنهم أعلى الناس محبة في قلب الرجل المؤمن، ورأسهم وأعلاهم رُسُلُ الله عليهم السلام، ورأسهم ومقدَّمهم محمد صلى الله عليه وسلم، ثم صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم الصالحون الفضلاء الذين لهم قَدَمُ سَبْقٍ ولهم فضل عظيم على أمّة محمد صلى الله عليه وسلم بعد فضل الله سبحانه وتعالى.

قال: (وأبْغَضَ في الله) يُبغِض مَن يُبْغِض الله، ومَن يُبغِض رسول الله صلى الله عليه وسلم.

يُبغِض مَن يُبْغِض الله، وكل مشرك فهو مبغِضٌ لله سبحانه وتعالى؛ لأنّ محبته لله محبة شركية، ويُبغِض مَن يُبغِض رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكلُّ مَن كذَّب رسول الله صلى الله عليه وسلم في كونه رسولًا إلى الناس جميعًا فهو مبغِض لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فيُبغِضه المؤمن بُغضًا خالصًا لا محبة معه؛ إلا أن تكون المحبة محبة طبَعِيَّة غالبة على الإنسان ولا تؤثّر في بُغضِه لمَن يُبغِض الله ويُبغِض رسوله صلى الله عليه وسلم لهذه الصفة القبيحة فيه.

ويُبغِض المبتدعة من المسلمين، فإنّ المبتدع إمّا أن تكون بدعته شركية تُخرجه من ملة الإسلام، وحَكَمَ عليه علماء السنة بأنه مشرك بعينه؛ فهذا يَلتحِق بالنوع الأوَّل: مَن يُبغَض بغضًا خالصًا. وإمّا أن تكون بدعته ليست شركية في ذاتها، أو كانت بدعته شركية لكن لم يَحكُم علماء الإسلام عليه بعينه أنه مشرك بتلك البدعة الشركية؛ فهذا يُبغَض لبدعته، ويُحَب لإسلامه، هذا فيما يتعلق بما في القلب، بمعنى: المبتدع الذي لم يَخرج عن الإسلام ببدعته لا تُبغِضه بغضًا مطلقًا كبُغض المشركين؛ بل له في قلبه حبٌّ يقتضيه الإسلام، وله بُغض تقتضيه بدعته، أمّا إظهار ذلك فالأصل ألَّا تُظهِر حبه؛ وإنما تُظهِر بُغضه؛ زجرًا له، ومنعًا

لغيره من أن يكون على شاكلته، وإعزازًا للسنة، وانتصارًا لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فهنا نحن بين طرفين:

طرف يقول: إنّ المبتدع لا يُحَبُّ مطلقًا حتى في القلب؛ وهذا غلط؛ فإنّ مَن قام به الإسلام ثَبَتَت له محبة في القلب.

والطرف الثاني يقول: نُظهِر للمبتدع المحبة، كما نُظهِر لأهل السنة، وكما نُظهِر للصالحين، وهذا غلطٌ.

والصواب الذي عليه السلف ما بيَّناه.

إذن؛ يَدخل في البُغض في الله أن تُبغِض الفاسق لفسقه، وهذا الفاسق يَجتمع في قلب المؤمن في حقِّه حبٌّ وبُغض، حب لإسلامه وما يَعمل من الصالحات، وبُغض لفسقه.

قال: (وَوَالَى فِي اللهِ)، الموالاة: درجة عالية في المحبة تستوجب النُّصرة. فأصلها درجة عالية في المحبة، يَتْبَعها أفعال من النُّصرة والقُرب ونحوها، فوالى في الله؛ فكانت محبته في الله، ونصرته لمَن يُحَبُّ في الله، يَنصر أهل السنة، ويَنصر أولياء الله، ويكون معهم، يأنس بهم، ويألَفُهم ويألفونه، يأنس بهم، إذا رأى الرجل من أهل السنة سُرَّ به ولو كان من بلد بعيد.

قال: (وَعَادَى فِي اللهِ)، المعادة هنا: هي الأفعال المبنية على البُغض في الله. فهو يَبتعد عمَّن يُبغَض في الله، ولا يكون معه، ولا يجالسه.

ومَن سلَّم قلبه لله واستَتْبَع ذلك؛ بأن كان ما في قلبه لله؛ فقد نال ولاية الله، وكان من أولياء الله، فإنّ ولاية الله عز وجل تُنال بذلك، ولاية الله ليست ميراثًا يورَث، فهذا وليُّ الله لأنه ابن الشيخ فلان! وليست تُنال بالنَّسب ولا بالجنسيات ولا بالدعاوى؛ وإنما تُنال ولاية الله بتقوى الله. لا يمكن أن يكون وليًّا لله إلا مَن وحَّد الله توحيدًا خالصًا، لا يمكن أن يكون وليًّا لله إلا مَن أخلص لله في قلبه، وظهر الصلاح على جوارحه؛ فكان فاعِلًا لفرائض الله، مجتنبًا لمحارم الله، متقرِّبًا إلى الله بالنوافل، فإذا فعل ذلك نال ولاية الله. ومن أعظم العلامات على ذلك: أن يكون القلب لله، وأن يكون ما في القلب لله، فإنّ هذه الدرجة لا يصلها إلا الموحِّد الذي تقرَّب إلى الله عز وجل بما يحبه الله. ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما: (فَإِنَّمَا تُنَالُ وِلَايَةُ اللهِ بِذَلِكَ)، والولاية تَصح أن تقال: بكسر الواو أو بفتح الواو. ثم قال ابن عباس رضي الله عنهما: (وَلَنْ يَجِدَ عَبْدٌ طَعْمَ الْإِيمَانِ)، وقد تقدَّم أنّ الإيمان له طعم حلو جدًّا، أحلى من كلِّ حلاوةٍ في الدنيا، أشد من حلاوة العسل وإن جُمِع، وأشد من حلاوة السكر وإن جُمع، حلاوة عظيمة تكون في القلب؛ تورِث طمأنينة، وحياة طيبة، وحياة سعيدة. وهذا الطعم يقع في قلب كل مؤمن؛ لكن لن يَجد طعمه ولن يجد حلاوته إلا مَن حقَّق ذلك؛

كما تقدَّم في الحديث: «لا يجد أحد حلاوة الإيمان...» ،وقد شرحنا هذا الحديث، ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما: (وَلَنْ يَجِدَ عَبْدٌ طَعْمَ الْإِيمَانِ - وَإِنْ كَثُرَتْ صَلَاتُهُ وَصَوْمُهُ - حَتَّى يَكُونَ كَذَلِكَ)، لأنّ أعظم الأعمال: أعمال القلوب، التوحيد وما يتعلق بأعمال القلوب، فإذا وُجِدَ ذلك في المؤمن وَجَدَ طعم الإيمان. قال: (وَقَدْ صَارَتْ عَامَّةُ مُؤَاخَاةِ النَّاسِ عَلَى أَمْرِ الدُّنْيَا)، عامّة مؤاخاة الناس صارت على الدنيا، وهذا في زمن ابن عباس –رضي الله عنهما–، في زمن فيه صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعون، في القرن المفضَّل، في القرون الأوّل خير القرون، يقول ابن عباس رضي الله عنهما: (وَقَدْ صَارَتْ عَامَّةُ مُؤَاخَاةِ النَّاسِ عَلَى أَمْرِ الدُّنْيَا)، الأصل أنّ المؤمن يؤاخي لله، وتكون أخوَّته لله. ومن أجمل ما قرأتُ في ذلك ما قرَّره شيخ الإسلام بن تيمية بأمرين:

الأمر الأوّل: أنّ المؤمن للمؤمن كاليدين؛ تغسل إحداهما الأخرى.

المؤمن لأخيه المؤمن كاليد لليد الأخرى، لا يَغُشّ المؤمن أخاه المؤمن، ولا يُظهِر له أنه على خير وهو على خلاف ذلك، وإذا رآه خالَف السنة لا يُجامِله؛ بل يَنصحه ويبيِّن له؛ لأنه يُحِب له ما يُحِب لنفسه–.

الأمر الثاني: أنّ المؤمن لأخيه المؤمن كاليد والعين؛ إذا دمعت العين مسحت اليد دمعها، وإذا تألّمت اليد أسالت العين دمعها.

هذا الأصل في المؤمن.

وابن عباس –رضي الله عنهما– يقول في ذلك الزمان: (وَقَدْ صَارَتْ عَامَّةُ مُؤَاخَاةِ النَّاسِ عَلَى أَمْرِ الدُّنْيَا وَذَلِكَ لَا يُجْدِي عَلَى أَهْلِهِ شَيْئًا)، وفي رواية: (لا يُجزي على أهله شيئًا) أي أنه لا يَنفعهم؛ فإنّ الذي ينفع العبد إنما هو الحب في الله سبحانه وتعالى، والحب في الدنيا ليس مذمومًا على الإطلاق، كون الرجل يحب الرجل لكونه شريكًا معه في التجارة لا لصلاحه؛ فهذه المحبة لا تُذَمّ على الإطلاق وإنما تُذَمّ إذا عارَضت الحب لله، فإنها إذ ذاك تكون مذمومة.

[وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ –رضي الله عنهما– فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: (وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ) قَالَ: الْمَوَدَّةُ]

هذا الأثر رواه بن جرير في تفسيره، وابن أبي حاتم، والحاكم، وصحَّحه الحاكم، ووافقه الذهبي. (﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾، قَالَ: الْمَوَدَّةُ) وذلك أنّ كلَّ مودة في الدنيا تَنقطع يوم القيامة، بل تَنقلب إلى عداوة؛ لظهور أثرها السيئ؛ إلا مودة المتقين؛ فإنها موصولة في الدنيا والآخرة، الحب الحقيقي لله سبب للمودة بين المؤمنين في الدنيا والآخرة، فكل خليل وكل حبيب يكون عدوًّا لحبيبه يوم القيامة إلا المتقين، فإنّ المحبة التي كانت بينهم في الدنيا تَعظُم في الآخرة؛ لأنّ أثرها خير على المؤمن يوم القيامة، فيزداد المؤمن حبًّا لأخيه المؤمن.

﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ﴾ أي: المشركين، ﴿الأَسْبَابُ﴾ الموصِلة بينهم، يعني: المودة، طبعًا كل صلة بين الناس مَردّها إلى المحبة، مردّها إلى المودة، وهذا التفسير جاء عن جَمْعٍ من السلف، فثبت عن مجاهد أنه قال: "﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾ يعني: المودة"، وهذا يدلك يا عبد الله على أنّ المحبة النافعة الباقية الدائمة التي لا تَنقطع أبدًا: هي المحبة في الله، والمحبة لله عز وجل. أمّا غيرها من المَحابّ فإنه يَنقطع ولا يَستمر.

[فِيهِ مَسَائِلُ: الْأُولَى: تَفْسِيرُ آيَةِ الْبَقَرَةِ]

في قول الله عز وجل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ﴾ (البقرة: ١٦٥)، وقد شرحناها وفسَّرناها.

[الثَّانِيَةُ: تَفْسِيرُ آيَةِ بَرَاءَة]

في قول الله عز وجل: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ﴾ (التوبة: ٢٤) إلى آخر الآية. وقد فسرناها وبينا معناها.

[الثَّالِثَةُ: وُجُوبُ مَحَبَّتِهِ صلى الله عليه وسلم عَلَى النَّفْسِ وَالْأَهْلِ وَالْمَالِ]

في كثير من النُّسخ: (وجوب محبته صلى الله عليه وسلم على النفس والأهل المال)، وفي بعض النُّسخ: (وجوب تقديم محبته صلى الله عليه وسلم على النفس والأهل والمال)، وفي بعض النُّسخ: (وجوب محبته صلى الله عليه وسلم وتقديمها على النفس والأهل والمال)، وأصح هذا من جهة المعنى:

(وجوب تقديم محبته صلى الله عليه وسلم على النفس والأهل والمال)؛ لأنه قال: (على) فلا بد من وجود ما يَصلُح أن تَتعلَّق به. ولا شك أنه يجب على المؤمن أن يحب النبي صلى الله عليه وسلم أكثر من محبته لنفسه، وما دام أنه يجب أن يحبه أكثر من محبته لنفسه فإنه يجب أن يحبه أكثر من محبته لكل بشريّ، ولكل محبوب من مَحابّ الإنسان في الدنيا. فالنبي صلى الله عليه وسلم تُقدَّم محبته على محبة النفس، وعلى محبة المال، وعلى محبة مُتَعِ الدنيا، وعلى محبة الأهل، وقد تقدّم بيان ذلك وان النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من أهله وماله»، وتكلمنا عن حديث عمر –رضي الله عنه– مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما قال: (والله يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي)، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا يا عمر؛ حتى أكون أحب إليك من نفسك»، فقال: (فو الله يا رسول الله لأنت الآن أحب إلي من نفسي).

[الرَّابِعَةُ: أَنَّ نَفْيَ الْإِيمَانِ لَا يَدُلُّ عَلَى الْخُرُوجِ مِنَ الْإِسْلَامِ]

نفي الإيمان على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: نفي أصل الإيمان. فإذا قيل: لا يؤمن؛ أحيانًا يكون المعنى: لم يؤمن أصلًا، لا يوجَد الإيمان في قلبه.

الدرجة الثانية: نفي الإيمان الواجب. ومعناه: نفي خَصْلة من خِصال الإيمان الواجبة.

الدرجة الثالثة: نفي كمال الإيمان.

وقول النبي صلى الله عليه وسلم: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من ولده، ووالده، والناس أجمعين» قد يكون المراد به: نفي أصل الإيمان؛ وذلك إذا لم يكن العبد محبًّا للنبي صلى الله عليه وسلم أصلًا. وقد يكون المراد به: نفي خَصلة من خصال الإيمان الواجبة، فيكون فيه نفي كمال الإيمان الواجب، وهذا هو الظاهر من الحديث؛ ولذلك قال الشيخ: (أنّ نفي الإيمان لا يدل على الخروج من الإسلام)، فإنّ مَن أحبَّ ولده أكثر من النبي صلى الله عليه وسلم فقد أَثِمَ؛ لكنه لا يَخرج من الإسلام. ومَن أحبَّ نفسه أكثر من حبه للنبي صلى الله عليه وسلم فقد أَثِمَ بعد أن عَلِمَ الوجوب؛ لكنه لا يَخرج عن الإسلام. ولذلك عمر رضي الله عنه –وهو مَن هو؟!– لمّا قال: (والله يا رسول! الله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي)، قال له النبي صلى الله عليه وسلم: «لا يا عمر، حتى أكون أحبَّ إليك من نفسك»، فلمّا عَلِمَ عمر –رضي الله عنه– ذلك فورًا لقوة إيمانه أصبح النبي صلى الله عليه وسلم أحبَّ إليه من نفسه، ولم يأمر النبي صلى الله عليه وسلم عمر بشيء؛ لأنه كان مؤمنًا، ولم يكن حبُّه لنفسه أكثر أو مثل حبه للنبي صلى الله عليه وسلم قادحًا في إيمانه، ولم يكن

آثمًا أيضًا: لعدم العلم، بل هذه تدلّ على رفعة ومنزلة عمر –رضي الله عنه– في الإيمان؛ فإنه فور أن عَلِمَ تحوَّل قلبه إلى ما يحبه الله، وإلى ما يحبه رسول الله صلى الله عليه وسلم. فدل ذلك على أنّ نفي الإيمان لا يَدل على الخروج من الإيمان.

وهذا ما جَهِلَتْه الخوارج والمُكفِّرة؛ فإنهم حيثما وَجدوا نصًّا فيه نفي الإيمان؛ حَكَموا على مَن انتفى الإيمان عنه بالكفر، وهذا من جهلهم وبُعدهم عن السلف الصالح –رضوان الله عليهم–.

وأنت يا طالب العلم إذا وجدت نصًّا فيه نفي الإيمان؛ فراجِع كلام العلماء الأثبات حتى تَعلَم درجة هذا النفي، هل لنفي أصل الإيمان؟ أو لنفي الكمال الواجب؟ أو لنفي الكمال المستحب؟

[الْخَامِسَةُ: أَنَّ لِلْإِيمَانِ حَلَاوَةٌ قَدْ يَجِدُهَا الْإِنْسَانُ وَقَدْ لَا يَجِدُهَا]

قال: (أَنَّ لِلْإِيمَانِ حَلَاوَةٌ)، وهذه الحلاوة توجَد مع وجود الإيمان في القلب، لكنّ ذوقها –وهذا معنى: يجدها– إنما يكون لبعض المؤمنين الذين تحققت فيهم أسباب وجود حلاوة الإيمان: «أن يكون الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما، وأن يُحِبَّ المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه؛ كما يَكره أن يُقذف في النار»، ويُلحق بذلك: أن يكره أن يعود في

الذنب الكبير بعد أن تاب الله عليه منه؛ كما يَكره أن يُقذف في النار. وكذلك مثلًا تجد المرأة طعم الإيمان إذا أطاعت زوجها.

إذن؛ للإيمان حلاوة، قد يجدها الإنسان و قد لا يجدها، وقد تَعظُم في قلب الإنسان حتى يعيش منعَّمًا في الدنيا في قلبه وإن أحاطت به الكروب، ويكون في جنة، يكون في نعيم وهو في الدنيا.

[السَّادِسَةُ: أَعْمَالُ الْقُلْبِ الْأَرْبَعة الَّتِي لَا تُنَالُ وِلَايَةُ اللهِ إِلَّا بِهَا، وَلَا يَجِدُ أَحَدٌ طَعْمَ الْإِيمَانِ إِلَّا بِهَا]

من اعظم ما تُنال به ولاية الله: تسليم القلب لله، وأن يكون ما في قلب المؤمن لله، وفي الله سبحانه وتعالى. وهذه الأعمال الأربعة هي: أن يحب لله، ويُبغض لله، ويوالي لله، ويعادي لله.

[السابعةُ: فَهْمُ الصَّحَابِيِّ لِلْوَاقِعِ أَنَّ عَامَّةَ الْمُؤَاخَاةِ عَلَى أَمْرِ الدُّنْيَا]

فَهْمُ الصحابي ابن عباس –رضي الله عنهما–، وفي الرواية الأخرى: ابن عمر –رضي الله عنهما–، لواقع الناس؛ فَهمًا حقيقيًّا مبنيًّا على الفقه في الدين، وليس فَهمًا للواقع يقود العبد إلى أن يخالِف النصوص بحجة فقه الواقع، فإنّ بعض الناس يترك النصوص الصحيحة مثلًا والثابتة التي لا شك فيها في وجوب طاعة ولي الأمر المسلم في غيرة معصية الله، ووجوب الصبر عليه مهما كان حاله ما دام في دائرة الإيمان، يَترك ذلك إلى تحبيب الناس في الثورات

والانقلابات، بل وغرس المتفجرات في ديار المؤمنين، وقتل رجال الجيش بحجة فهم الواقع وفقه الواقع، وهذا ليس فَهمًا ولا فقهًا؛ بل هو ظلُمة أوجدها الاستسلام للواقع، وعدم الاستضاءة بنور الوحي.

السلف كانوا يَفهمون الواقع، ويُصحِّحون الواقع، ويُصلِحون الواقع بنور الكتاب والسنة. أمّا أن يَتَتَبَّع الإنسان ما يُفعَل من المعاصي، ويُشغِل نفسه بذلك، ويُشغِل الناس بذلك، وإذا خطب الخطبة كانت خطبة الجمعة عنده نشرة الأخبار، يُجمِّع ما في الصحف، وما في وكلات الأنباء العالمية، ويَعِظُ الناس بوكالة رويتر وما شابه ذلك من وكلات الكفار، فهذا جهل وليس فقهًا للواقع، ولا فَهمًا للواقع.

فالواجب على طلاب العلم وعلى الدعاة أن يَرجعوا إلى طريقة السلف الصالح –رضوان الله عليهم– في فَهمهم لواقع الأمّة، ومعالجتهم لواقع الأمّة.

وقد رأى بن عباس أنّ عامة مؤاخاة الناس في ذلك الزمان صارت للدنيا، فكيف في زماننا هذا؟ الذي بَعُدَ الناس فيه عن عهد النبوة، وبَعُدَ كثير من الناس عن نور النبوة، وفي الأمّة خير، ولا نزال نرجو الخير من أمّة محمد صلى الله عليه وسلم.

[الثَّامِنَةُ: تَفْسِيرُ {وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ}]

قلنا إنّ الأسباب هنا: المودات والمحبة. فإنّ جميع الأسباب بين الناس تَؤول إلى هذا السبب وهو: المودة.

[التَّاسِعَةُ: أَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مَنْ يُحِبُّ اللهَ حُبًّا شَدِيدًا]

أكثر المشركين يحبون الله، وقَلّ أن تجد إنسانًا عاقلًا لا يحب الله، على الإطلاق، أكثر المشركين يحبون الله، وتجد في قلوبهم محبة الله، بل قد تجد في قلوبهم محبة شديدة لله، ولذلك قال الله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾، أشد: أفعل تفضيل، يقابلها: شديد، وشديد يقابله: ضعيف، أَصحّ يقابله: صحيح، وصحيح يقابله: ضعيف، فكون الذين آمنوا أشد حبًّا لله يعني: أنّ المشركين عندهم حب شديد لله، ولكنه حب فيه شرك، فهم يحبون أندادهم كحب الله، أو أشد من حبهم لله سبحانه وتعالى.

فكون الشيخ يقول: (أنّ من المشركين من يحب الله حبًّا شديدًا) لا يقصد به أن يَمدح المشركين، أو أنّا نحبهم لأنهم يحبون الله؛ وإنما مقصوده: أنّ حبهم الشديد لله لم يَمنع كونهم مشركين بالله. فالذي يأتي من أمّة محمد صلى الله عليه وسلم ويذبح لغير الله، يذبح لسيدي فلان، يأخذ كبشًا، أو بقرة، أو دجاجة، ويذبح لصاحب القبر، أو يَنذر لصاحب القبر، أو يدعو غير الله، فإذا قلت له: هذا شرك أكبر، قال: كيف تقول أنا مشرك وأنا أحب الله؟! قلبي مليء بحب الله؟

نقول: إنّ وجود الحب في القلب لا يَمنع أن يكون العبد مشركًا؛ إذا وُجِدَ فيه ما يقتضي ذلك. فهذا مراد شيخ الإسلام رحمه الله.

[الْعَاشِرَةُ: الْوَعِيدُ عَلَى مَنْ كَانَت الثَّمَانِيَةُ عنده أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ دِينِهِ]

وقد تقدّم هذا في آية براءة. وقلنا: إنّ مَن يُقدِّم هذه المحبوبات على محبته لله ومحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنّ هذا يكون شركًا أصغر، أو يكون من كبائر الذنوب؛ بحسب مقامات ذلك.

[الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أَنَّ مَنِ اتَّخَذَ نِدًّا تُسَاوِي مَحَبَّتُهُ مَحَبَّةَ اللهِ، فَهُوَ الشِّرْكُ الأَكْبَرُ]

من اتخذ ندًّا يحبه محبة تألُّه وتذلُّل وخضوع وطاعة باطنة وخوف قلب – خوف السِّر كما سيأتي– أنّ هذا شرك أكبر. وأنّ حال المشركين أنهم يحبون الله؛ لكنّ حبهم لأندادهم يساوي محبتهم لله أو أشد من محبتهم لله سبحانه وتعالى. فالذي يترك حق الله من أجل الحق المزعوم المكذوب لأصحاب القبور؛ فهذا قد تَلبَّس بالشرك الأكبر. الذي يَنذر لأصحاب القبور ولا يجعل نذره لله، والذي يدعو أصحاب القبور ولا يجعل دعاءه لله، والذي يستغيث بأصحاب القبور ولا يجعل استغاثته لله؛ هذا قد اتَّخذ ندًّا يحبه أشد من محبته لله وإن زعم خلاف ذلك، فإنه لو كان يحب الله محبة الموحِّدين لَمَا صَرَفَ شيئًا من أنواع العبادة لغير الله سبحانه وتعالى.

وبهذا نكون فرغنا من باب المحبة. ثم إنّ الشيخ –رحمه الله– سيعقد بابًا عظيمًا يتعلق بالخوف. وفقه الخوف من أدقّ الفقه، وينبغي للموحِّد أن يَعرف معنى الخوف، وأقسام الخوف من جهة الحقيقة، وأقسام الخوف من جهة الأثر، وأن يَعرف الأدلة الدالة على ذلك. فما أعظمه من باب عقده الشيخ وجلى فيه الحق! وما أحوجنا إلى فقهه. وهذا الباب –إن شاء الله– سنشرحه ونبيِّنه ونقف معه وقفات تأصيلية بحول الله وقوته.

الدرس الخامس والأربعون: باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: (إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَن يهدي الله فلا مضلَّ له، ومَن يُضلل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء: ١]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: ٧١]

أمّا بعد:

فإنّ أحسن الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكلّ محدَثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النار.

وهذا المجلس عن علم شريف يتعلَّق بحق ربنا سبحانه وتعالى؛ يتعلق بالتوحيد، ومن المعلوم أنّ أمّة محمد صلى الله عليه وسلم كلها تُعظِّم التوحيد، وتُعظِّم حق الله سبحانه وتعالى؛ إلا أنّ الكثرين من أمّة محمد صلى الله عليه وسلم لا يَعلمون تفاصيل التوحيد، ولا كيف يُحقَّق التوحيد؛ فيدخل عليهم الخَلل في هذا الباب من جهلهم بتفاصيل التوحيد، ولذا كان من أوجب الواجبات اليوم أن يُقرَّر التوحيد، وأن يُعلَّم التوحيد على وجه التفصيل والتأصيل. ونحن بحمد الله نحاول أن نُسهِم في هذا الباب بما نستطيع من خلال شرح كتاب التوحيد، وبيان مقصده، وبيان التأصيل والتفصيل في أبوابه بما تقتضيه الحاجة.

وقد فرغنا في المجلس السابق من الباب المتعلِّق بالحب. ونَشرع في مجلسنا هذا الذي أسأل الله عز وجل أن يبارِك فيه، وأن يبارك من جلس فيه ومن استمع إليه، وأن يجعلنا جميعًا مبارَكين حيثما كنا. نشرع في هذا المجلس في شرح باب عظيم يَتعلَّق بالخوف، نبيِّن معناه، وكيف يتعلق بالتوحيد.

[باب قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: (إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)]

هذا هو الباب الثاني من الأبواب المتعلقة بقسم أعمال القلوب المتعلقة بالتوحيد، حيث تقدَّم أنّ الشيخ –رحمه الله عز وجل– لم يَسرِد أبواب الكتاب

سَردًا كيفما اتَّفق؛ وإنما قسَّم الكتاب أقسامًا يدركها مَن يَفقَه الكتاب ويَعرِف منهج الشيخ –رحمه الله–. وقد جعل من أقسام الكتاب قسم أعمال القلوب التي لها تَعلُّقٌ بالتوحيد، حيث ذكر الشيخ في الباب الأوّل منها ما يتعلق بالمحبة، ثم أعقبه بهذا الباب؛ وهو: باب الخوف، وإذا ذُكِرَ الخوف فإنه يُذكَر معه الرجاء، وهذه الأمور الثلاثة العظيمة وهي: المحبة، والخوف، والرجاء، يَرتبط بعضها ببعض، إذ العبادة لا تكون عبادة إلا إذا كانت عن محبة وخوف ورجاء مع ذلٍّ وتعظيم لربنا سبحانه وتعالى، والإنسان منا وهو في الدنيا يسير إلى الله، وهو في سيره إلى الله بين أمرين لا ثالث لهما: إمّا أن يَتقدَّم وإمّا أن يتأخَّر (لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ) (المدثر: ٣٧)، والإنسان في سيره إلى الله لكي يكون متقدِّمًا لابد له من هذه الأمور الثلاثة: المحبة، والخوف، والرجاء.

فالمحبة تدفعه ليسير؛ لأنّ مَن أحبَّ شيئًا تقدَّم إليه، فكيف بمَن أحب الله سبحانه وتعالى؟! فإنّ حب العبد لله يَدفعه ليتحرك ويتقدَّم ويسير.

والخوف يحميه من الانحراف، ويَقِيه من الانحراف ذات اليمن أو ذات الشمال، فالخوف كالسُّور حول الطريق الذي يسير فيه الإنسان إلى الله سبحانه وتعالى.

الرجاء يجعله يسابق ويسارع؛ لأنّ الإنسان وهو يرجو ما عند الله يجعله ذلك يسابق غيره، ويسارع إلى ما عند الله سبحانه وتعالى.

فلابد للمرء الموفَّق في سيره إلى الله من هذه الأمور الثلاثة، وإذا عُدِمت انقطع السَّير بالكلية، وإذا ضَعفت ضَعُف سَير العبد، فيكون تأخُّره أكثر من تقدُّمه. ومن هنا تَعلَم يا عبد الله أهمية هذه الأمور الثلاثة.

والخوف في اللغة: الذعر والفزع.

وأمّا في اصطلاح العلماء: هو انفعالٌ في القلب من توقُّع ضرر أو أذى أو عقوبة؛ يُثمِر فِعلًا أو تركًا أو اعتقادًا.

"انفعال في القلب"؛ فمحلّ الخوف: القلب، وهو انفعالٌ لسبب، لابد للخوف من سبب يُثيره في القلب، ولذلك يقولون: هو انفعالٌ؛ أي أنه أثر سببٍ يكون في القلب. "من توقُّع ضرر"؛ فإذا توقَّع الإنسان ضرر فإنه يخاف. "أو أذى"؛ فإذا توقَّع أن يؤذَى يَخاف. "أو عقوبة"؛ فإذا كان يتوقَّع عقوبة عاجلة أو آجلة فإنه يخاف. وهذا الخوف ليس مجرَّد انفعال في القلب بل "يَترتب عليه فِعْلٌ"؛ إمّا أن يَفعل فعلًا ليتجنَّب سبب الخوف؛ يتجنب الأذى أو الضرر أو العقوبة. "أو يثمر تركًا"؛ فيترتّب عليه ترك. "أو اعتقاد"؛ فإذا لم يترتّب عليه فعل أو ترك؛ يترتَّب عليه اعتقاد.

وحتى تَفهم الخوف وأحكامه، لابد أن تَعرِف أقسامه، وهو يُقسَّم عند أهل العلم باعتبارات ثلاثة:

- **الاعتبار الأوّل في تقسيم الخوف: باعتبار حقيقته، وهو ينقسم إلى أقسام أربعة:**

الأوّل: خوف السِّر.

الثاني: الخوف من مخلوق خوفًا يجعل السلم يفعل حرامًا او يترك واجبًا.

الثالث: خوف وعيد الله.

الرابع: الخوف الطَّبْعِي.

القسم الأوّل: خوف السِّرّ. وهذا الخوف تَضبِطه أمور ثلاثة، فحتى تَعرف أنّ خوفك هذا خوف سِرٍّ أو لا فاعرِفْ هذه الأمور الثلاثة، إذا اجتمعت هذا الأمور الثلاثة فهو خوف سِرّ.

الأمر الأوّل: أن يكون من غائب حقيقة، أو حُكمًا، أو حسًّا.

"أن يكون من غائب"؛ فخوف السِّر لابد أن يكون من غائب. وهذا الغائب إمّا أنه:

"غائب حقيقة"؛ مثل: أن يَجلس إنسان في المدينة ويخاف من رجل في المغرب! هذا الرجل غائب، لكن وهو جالس في المسجد النبوي إذا قال له أحد: فلان، قال له: اسكت حتى لا يؤذينا! سواء سمي وليًّا، أو سمي ساحرًا، أو سمي مشعوذًا، المهم أنه غائب حقيقة.

"أوحكمًا"؛ مثل المقبور في القبر الموجود في المجلس، يعني إنسان عند قبرٍ والمقبور في قبره؛ هذا غائب حُكمًا، وإن كان موجودًا بين يدي الإنسان في قبره.

أو حسًّا، فالإنسان لا يُحسِّه بحواسه الخمس، مثل الجن، الجن قد تكون مع الإنسان موجودة؛ لكنّ الإنسان لا يُدرِكهم بحواسه. وكذلك ربنا سبحانه وتعالى فهو معنا سبحانه وإن كنا لا نُدرِكه بالحواس.

الأمر الثاني: أن يكون ذلك بالقدرة لا بسبب حِسِّيّ.

يعني: أن تخاف منه لأنّ عنده قدرة على إيذائك، ليس بسبب حسي مثل: ملك أو سلطان ظالم يستطيع أن يؤذيك، لا، وإنما بالقدرة، يقولون: هذا الوليّ المزعوم عنده قدرة على إيذائك في أيّ مكان! فلا يكون لهذا الخوف سبب حسي، وإنما سببه قدرة مزعومة أو قدرة حقيقية.

الأمر الثالث: أن يُثمِر طاعة باطنة، ولابد، لأنّ مَن اعقد في غائب أنه قادر على أن يؤذيه فلابد أن يُثمِر هذا طاعة باطنة في قلبه. وقد يَترتَّب على ذلك طاعة ظاهرة؛ لكنّ الأصل أنها طاعة باطنة في القلب.

فإذا وُجِدَت هذه الأمور فهذا الخوف خوف سِرٍّ.

وهذا الخوف –خوف السِّر– نوعان:

النوع الأوّل: خوف الموحِّدين، خوف أهل التوحيد؛ وهو: الخوف من الله عز وجل. وخوف السِّر لا يكون إلا من الله عز وجل القوي العزيز القادر الذي على كل شيء قدير. فالموحِّد يخاف الله عز وجل، كما قال الله عز وجل: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ (النحل: ٥٠)، وكما قال عز وجل: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللهَ﴾ (الأحزاب: ٣٩).

النوع الثاني: خوف المشركين. كالذين يخافون من الأصنام، ومن المقبورين، وممَّن يسمونهم بالأولياء أن يضروهم أو يؤذوهم بقدرتهم.

فخوف السِّر ليس فيه أمر وسط؛ إمّا توحيد وإمّا شرك أكبر. فإن كان من الله: فهذا توحيد، وإن كان من غير الله: فهذا شرك أكبر يخالف الإسلام من كل وجه، ويُخرِج من ملة الإسلام. وسيأتي بيان الأدلة في كلام الشيخ رحمه الله.

القسم الثاني: الخوف من مخلوق يقود إلى ترك واجب أو فِعل محرَّم.

وهذا القسم حرام، وهو من الشرك الأصغر، أن يخاف الإنسان من مخلوق حتى يترك ما أوجبه الله عليه من أجله، أو يفعل الحرام من أجله؛ فهذا حرام، ومن الشرك الأصغر، ليس من الشرك الأكبر.

ولا يدخل في هذا تَرْك الواجب وفِعْل الحرام من أجل الإكراه، إذا كان الإنسان مكره إكراهًا بشروطه التي فصّلناها مرارًا فإنه لا يدخل في هذا، مثال: أن يكون لِصٌّ واقف أمام بيته، ويريد أن يسرق بيته –إمّا أن يَعلَم ذلك بعينه، أو

بغلبة الظن– لو خرج إلى صلاة الفجر لاعتُدِيَ على عرضه في بيته، أو سُرِق ماله -هذا غالب الظن- فهذا مُكرَه، وله أن يبقى في بيته ويصلي الفجر في بيته، ولا يقال: إنه خاف فترك الواجب فوقع في حرام.

مثال آخر: إنسان وُضِعَ السلاح على رأسه، وقيل له –والعياذ بالله-: سُبَّ محمد صلى الله عليه وسلم، فسَبَّ محمدًا صلى الله عليه وسلم وقلبه مطمئن بالإيمان وبتعظيم النبي صلى الله عليه وسلم؛ هذا مُكرَه، ومعذور شرعًا.

وإنما الذي يَدخل في هذا ألَّا يكون هناك إكراه ويترك الواجب أو يفعل الحرام بسبب هذا الخوف.

القسم الثالث: خوف وعيد الله. وهذا خوف واجب على المكلَّف؛ أن يخاف وعيد الله، وأن يخاف عقوبة الله، وأن يخاف النار، ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ (إبراهيم: ١٤)، فهناك الخوف من الله؛ الذي تقدَّم في خوف السر، وهناك خوف وعيد الله سبحانه وتعالى؛ وهذا فرض على المكلف.

القسم الرابع: الخوف الطَّبْعِي، المركوز في طبيعة الإنسان؛ وهو: الخوف من مخلوق قادر على الأذى بسبب حِسِّي. فيكون هذا المخلوق المَخوف قادرًا على أن يؤذي؛ كأن يكون حاضرًا، قادرًا.

"بسبب حسي"؛ ليس بالقدرة، كالخوف من الحيوانات المفترسة، والخوف من العقارب، والخوف من الظالم القادر على الأذى. فكون الإنسان

إذا رأى سبعًا مفترسًا خاف منه؛ هذا خوف طَبْعِيّ موجود في طبيعة الإنسان، وهذا الحيوان مؤذي.

وهذا الخوف لا يؤاخَذ به الإنسان، وليس قادحًا في الإنسان، قال تعالى عن موسى وهارون –عليهما السلام–: (قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى) (طه: ٤٥)، فموسى وهارون –عليهما السلام– لعِلْمِهما بجبروت فرعون خافا إذا وصلا إليه ودعواه إلى التوحيد أن يَفرُط عليهما فيؤذيهما أو أن يطغى، وهذا ليس قادحًا في الإنسان. وقال الله عز وجل عن موسى –عليه السلام–: (فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ) (القصص: ٢١)، فهذا خوف طبعي لا يؤاخَذ به الإنسان، ولا يُعاب به الإنسان.

الاعتبار الثاني في تقسيم الخوف: اعتبار أثره في نفس الإنسان، ويقسَّم إلى خمسة أقسام:

القسم الأوّل: خوف يدفع العبد إلى طاعة الله، واجتناب معاصيه. فهو يخاف الله، وخوفه من الله يدفعه إلى أن يفعل الواجبات وإلى أن يترك المحرَّمات، وهذا محمود.

القسم الثاني: خوف يدفع العبد إلى طاعة باطنة لغير الله، وإلى تعلُّق القلب بالمخوف منه. خوف يدفع العبد إلى طاعة باطنة لغير الله؛ كالتعظيم، وإلى تعلُّق القلب بغير الله؛ بالمخوف منه، وهذا شرك أكبر.

القسم الثالث: خوف يدفع العبد إلى القنوت من رحمة الله، فيخاف حتى يقنط من رحمة الله، ويظن أنّ الله لا يرحمه، وأنّ الله لا يغفر له، فهذا خوف محرَّم مذموم ولو كان يزعم أنه يخاف الله، إذا دفعه هذا الخوف إلى أن يكون قانطًا من رحمة الله –حتى لو كان ذلك بسبب ذنوب منه وكبائر– وقاده الخوف إلى أن يقنط من رحمة الله، تقول له: تُبْ يا أخي، فيقول: ولماذا أتوب؟ أنا لا يُغفَر لي، أنا فعلت وفعلت! فيقنط من رحمة الله عز وجل، فهذا الخوف محرّم مذموم.

القسم الرابع: خوف يدفع العبد إلى ترك واجب عليه، أو فِعل محرَّم عليه، وهذا مذموم محرَّم، ويَعدُّه العلماء من الشرك الأصغر؛ إلا في باب الإكراه.

القسم الخامس: خوف له سببه الظاهر، ويدفع العبد إلى فعل الأسباب المباحة؛ ليتجنب الضرر، وهذا مباح، مثلًا: يخاف الإنسان من السبع، والسبع موجود، هذا سبب ظاهر، فإذا رأى حيوانًا مخوفًا يخاف منه، ويفر منه، دفعه خوفه إلى اتِّخاذ سبب مباح. أو: يَعلم بظالم يؤذي الناس؛ فيدفعه ذلك إلى أن يجتنب هذا الظالم ويبتعد عن هذا الظالم، كما فعل موسى –عليه السلام– فإنه لمّا خاف منهم فَرّ، وخرج من المدينة خائفًا يَترقَّب، فهذا جائز.

الاعتبار الثالث في تقسيم الخوف: اعتبار الداعي إليه، وهو ثلاثة أقسام:

القسم الأوّل: خوف يدعو إليه الله سبحانه وتعالى. فالله يأمر به ويدعو إليه، والذي يحرِّكه في قلب المؤمن: إيمانه بالله، فيكون مؤمنًا بالله وبقدرته فيخاف الله عز وجل، وهذا هو الخوف المشروع.

القسم الثاني: خوف يدعو إليه الشيطان. فهذا الخوف يدعو إليه إبليس ويزيِّنه في قلوب مَن يطيعونه، وهذا هو الخوف الممنوع.

القسم الثالث: خوف تدعو إليه النفس، أو قُلْ: تدعو إليه طبيعة الإنسان – لكن نقول "النفس" ليَعُمّ أنواعًا كثيرة، أشمل من طبيعة الإنسان–، هذا الخوف قد يدعو إليه طبع الإنسان؛ كالخوف من بعض الحيوانات، وقد يدعو إليه شيء آخر في النفس مثل الوسوسة، بعض الناس عنده خوف وسواسي؛ فيخاف من بعض الأشياء أن تؤذيه وهي ليست مؤذية، إذا سلَّم على إنسان يصيبه خوف، إذا مس شيئًا بيده يصيبه خوف، فتجده يغسل يده في كل وقت وحين؛ من خوف في نفسه، هذا ليس خوفًا طبعيًّا ولكنه خوف تدعو إليه النفس لخلل ومرض، وهذا يجب على المرء أن يعالجه.

إذن الخوف الذي تدعو إليه النفس قد لا يكون مذمومًا؛ كالخوف الذي له سبب ظاهر، وفي طبيعة الإنسان. وقد يكون مذمومًا؛ كالخوف بسبب الوساوس ونحو ذلك.

فهذه تقسيمات الخوف باعتباراتها الثلاثة، ومَن فهمها وضَبَطَها يفهم أحكام الخوف في الشرع، ويفهم كيف يتعلق الخوف بالتوحيد.

قال الشيخ: (باب قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾)؛ يعني: إنما ذلكم الشيطان يخوفكم بأوليائه من الكفار والطواغيت والقبور؛ فلا تخافوهم، لا تخافوا مَن يخوِّفكم الشيطان بهم، يخوِّفكم الشيطان بالقبور وأصحاب القبور؛ فلا تخافوهم. ﴿وَخَافُونِ﴾ أي: أفردوني بهذا الخوف، فلا تجعلوا هذا الخوف إلا من الله سبحانه وتعالى. ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فجعل الله –عز وجل– شرط الإيمان به: الخوف منه سبحانه وتعالى. فدلّ ذلك على أنّ خوف السِّر من غير الله –عز وجل– ينافي الإيمان.

فالواجب على الموحِّد ألَّا يخاف خوف السِّر إلا من الله سبحانه وتعالى، وألَّا يخاف من أحد خوف السِّر أبدًا، ولا يَتحقَّق التوحيد إلا بالبراءة من خوف السِّر من غير الله سبحانه وتعالى.

ودلّت هذه الآية على أمور تتعلّق بالخوف:

- **الأمر الأوّل**: أنّ الخوف واقع، وهذا أمر يقينيّ لا يَشك فيه عاقل.
- **الأمر الثاني**: أنّ الخوف ينقسم إلى قسمين:

القسم الأوّل: خوف يدعو إليه الله سبحانه وتعالى.

القسم الثاني: خوف يدعو إليه الشيطان. وهذا في خوف السر.

- **الأمر الثالث**: أنّ من الخوف ما يؤمَر به، ومن الخوف ما يُنهى عنه؛ لأنّ الله عز وجل قال: ﴿فَلاَ تَخَافُوهُمْ﴾ وهذا نهي، ﴿وَخَافُونِ﴾ وهذا أمر.
- **الأمر الرابع**: أنّ خوف السِّر من غير الله ينافي الإيمان بالكلية. فإذا وُجِدَ خوف السر من غير الله سبحانه وتعالى ارتفع الإيمان، وانتفى الإيمان.

فشرط الإيمان: ألّا يخاف العبد خوف السِّر إلا من الله سبحانه وتعالى.

في قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ﴾، قال أكثر المفسرين: معناه: يخوِّفكم بأوليائه، يخوِّفكم أنتم بأوليائه. وقال بعض المفسرين: أنه يخوِّف مَن يطيعونه، ﴿فلا تخافوهم﴾ أي: الشياطين الذين يخوِّفون مَن يطيعونهم، ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

وهذه الآية متعلقة بخوف السِّر.

[وَقَوْلِهِ: (إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللهَ فَعَسَى أُوْلَئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ) (التوبة: ١٨)]

في هذه الآية يذكر الله –عز وجل– أعظم المقامات في الإيمان، ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ﴾ حقيقةً ﴿مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللهَ﴾ هذا وجه الشاهد: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللهَ﴾ أي: لم يَخَفْ إلا الله عز وجل. وقد دلت الأدلة على أنّ هذا هو خوف السِّر، فلا يخشى إلا الله سبحانه

وتعالى. ويَدخل في ذلك: أنّ العبد لا يخاف المخلوقين خوفًا يجعله يفعل حرامًا، أو يترك واجبًا، فإنه يدخل في هذه الآية عند أهل العلم.

فدلّ ذلك على أنّ التوحيد لابد فيه أن يكون خوف السِّر من الله، فمن أركان التوحيد: أن يكون خوف العبد خوف سِرٍّ من الله سبحانه وتعالى وحده.

[وَقَوْلِهِ: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللهِ) الآية]

هذه الآية وردت مورِد الذّم، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ﴾ فيُظهر الإيمان، ﴿فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللهِ) ولابد لمن أظهر الإيمان من أن يُفتَن ويبتلى: (أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ) (العنكبوت: ٢)، لابد من الفتنة، لابد من الابتلاء، لابد من الاختبار. ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللهِ﴾ ففعل الحرام من أجل الخوف من الناس، أو ترك الواجب من أجل الخوف من الناس. وهنا في الآية: أنّ فتنة الناس وأذى الناس حاصِل لهذا الإنسان، فيجعل أذى الناس أعظم في نفسه من عذاب الله، أو كعذاب الله، فيدعوه ذلك إلى أن يفعل الحرام، أو يترك الواجب، ولا يدخل في ذلك الإكراه؛ فإنّ الإكراه عذر شرعي، وإنما المقصود هنا: ما يكون بغير عذر من الله، يترك الواجب أو يفعل الحرام بسبب فتنة الناس، مثل ما يقع من بعض الناس: يذهب إلى بلاده وقد أعفى لحيته؛ لأنّ النبي صلى الله

عليه وسلم قال: «اعفوا اللحى»، «أكرموا اللحى»، فيذهب وقد أعفى لحيته، فيصبح بعض الناس في بلاده يستهزئون منه، ويسخرون من لحيته، أو يقولون: وهّابي، جاءنا بدين جديد، جاء باللحية من السعودية! فبعض الناس يجعل فتنة الناس كعذاب الله فيَحلِق لحيته.

بعض الناس يهتدي إلى السلفية التي هي دين الله، والتي هي واجب على المؤمن أن يتمسك بها، السلفية التي جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم، وفَهِمَها الصحابة، وعلَّموها للأخيار من بَعدهم، ولازال الأخيار يُعلِّمون الأخيار هذه السلفية الحقَّة، فاهتدى إلى السلفية ومَنّ الله عليه بها، ثم إذا عاد إلى بلاده وهو يعيش في وسط فيه جمعات حزبية ويُصبِحون يؤذونه بالكلام أو غيره بما لا يصل إلى حد الإكراه؛ فيترك السلفية، أو يتظاهر أنه مع هؤلاء الحزبيين الدعاة إلى الباطل والشر وما يمزِّق أمّة محمد صلى الله عليه وسلم، وما يؤدي إلى صَرْف القلوب عن الله؛ إلى مخلوقين يَتعلَّق بهم، فيجعل فتنة الناس كعذاب الله، هذا خوف مذموم.

بعض الناس يقول: أنا لا أستطيع أن أُظهِر التوحيد، لماذا؟ هل تُضرَب؟ تُجلَد؟ تُقتَل؟ يقول: لا، لكن الناس لا يحبونني إذا أظهرتُ التوحيد! أو يؤذونني بالكلام! أو نحو ذلك، فهذا يجعل فتنة الناس كعذاب الله.

والواجب على المؤمن إذا أنعم الله عليه بنعمة شرعية أن يتمسك بها، وأن يُظهرها، وأن يدعو إليها، وأن يُنافِح عنها، مالم يُكرَه إكراهًا تتوفر فيه الشروط، فيَترك شيئًا من أجل الإكراه مع اطمئنان قلبه بالحق، وعدم نُكوص قلبه عن الحق.

الدرس السادس والأربعون: تابع شرح باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: (إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَن يهدي الله فلا مضلَّ له، ومَن يُضلل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء: ١]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: ٧١]

أمّا بعد:

فإنّ أحسن الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكلّ محدَثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النار.

ثم يا معاشر الفضلاء؛ في مسجد رسولنا صلى الله عليه وسلم نواصل تفقُّهنا في حق ربنا سبحانه وتعالى، في توحيد ربنا، نتكلم عن التوحيد الوارد في كتاب الله، وعلى لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم، والذي فَهِمَه سلف الأمّة وقرَّروه واعتقدوه، وأجمَعَتِ كلمتهم عليه، لا نُخادع الناس بالعواطف الملفَّقة، ولا بالكلمات المنمَّقة، وإنما نَبني كلامنا على الدليل الواضح البيِّن من كتاب الله، ومن سُنَّة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا نُقرِّر إلا ما أجمَعَت عليه كلمة سلف هذه الأمّة، نشرح كتاب التوحيد.

ولازلنا في قسم أعمال القلوب المتعلقة بالتوحيد، ولازلنا في الباب العظيم الذي عَقَدَه الشيخ –رحمه الله عزَّ وجلَّ– باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِين﴾ [آل عمران:١٧٥].

وقد تقدَّم الكلام عن الخوف، وبيَّنا أنّ الخوف المحمود هو خوف السر من الله عزَّ وجلَّ، الخوف من القوي العزيز الذي على كل شيءٍ قدير، الأمور كلها بيده سبحانه وتعالى، لو اجتمع الخَلق كلهم على أن يدفعوا أمرًا أراده ما استطاعوا.

الخوف من الله عزَّ وجلَّ خوفًا لقدرته سبحانه، خوفًا يُثمِر الطاعة الباطنة. وأنّ الخوف المحمود هو الذي يقود العبد إلى ما يُرضي الله عزَّ وجلَّ من مسارعةٍ إلى الطاعة وثباتٍ عليها، واجتنابٍ للمعاصي.

وبيَّنا أنّ الخوف المذموم هو خوف السِّر من غير الله عزَّ وجلَّ، وهذا أَشَرّ أنواع الخوف؛ لأنه من الشِّرك الأكبر. كما أنّ من الخوف المذموم: الخوف الذي يجعل العبد يَقنط من رحمة الله، فيترك الطاعة، أو يستمر على المعصية. كما أنّ من الخوف المذموم: الخوف الذي يقود العبد إلى أن يترك الواجب، أو يفعل الحرام؛ خوفًا من الناس، وتقديمًا لخوفه من الناس على خوفه من الله عزَّ وجلَّ.

وقد شرحنا الآيات التي ذكرها الشيخ –رحمه الله عزَّ وجلَّ– من جهة مناسبتها للباب، وما يُحقِّق مقصود الباب من معانيها. ووقفنا عند الأحاديث التي ذكرها الشيخ –رحمه الله عزَّ وجلَّ– فيتفضل الشيخ ياسين وفقه الله والسامعين يقرأ لنا.

[عَنْ أَبِي سَعِيدٍ –رضي الله عنه– مَرْفُوعًا: إِنَّ مِنْ ضَعْفِ الْيَقِينِ أَنْ تُرْضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ اللهِ، وَأَنْ تَحْمَدَهُمْ عَلَى رِزْقِ اللهِ، وَأَنْ تَذُمَّهُمْ عَلَى مَا لَمْ يُؤْتِكَ اللهُ، إِنَّ رِزْقَ اللهِ لَا يَجُرُّهُ حِرْصُ حَرِيصٍ، وَلَا يَرُدُّهُ كَرَاهِيَةُ كَارِهٍ]

هذا الحديث الذي ذكره الشيخ رواه أبو نعيمٍ في (الحلية) والبيهقي في (الشُّعب)، وإسناده واهٍ جدًّا، فإسناده في غاية الضَّعف، وقد رُوِي أيضًا عن ابن مسعودٍ –رضي الله عنه– مرفوعًا؛ رواه أبو نُعيمٍ والبيهقي، وإسناده ضعيف، ولذلك في بعض نُسخ كتاب التوحيد جاء عن أبي سعيد؛ وهو صحيح، وجاء في بعض النُّسخ عن ابن مسعود؛ وهو صحيح، فقد رُوي عن أبي سعيدٍ، ورُوي عن

اين مسعود، وروي أيضًا عن أنسٍ –رضي الله عنه– رواه ابن وَدعان في (الأربعين)؛ وإسناده ساقط.

إذن رُوي الحديث عن ثلاثةٍ من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم: عن أبي سعيدٍ، وعن ابن مسعودٍ، وعن أنس رضي الله عنهم أجمعين، لكنّ جميع رواياته ضعيفةٌ جدًّا، ولا يُقوِّي بعضها بعضًا، فالحديث من جهة الإسناد ضعيف، لكنّ معناه صحيح؛ تدلّ عليه أدلة الشريعة وقواعدها.

قال: (عَنْ أَبِي سَعِيدٍ –رضي الله عنه– مَرْفُوعًا: إِنَّ مِنْ ضَعْفِ الْيَقِينِ)، اليقين هو: الاعتقاد الجازم، والعِلم الذي لا يُخالطه شك؛ وهو الإيمان كلُّه؛ كما قال ابن مسعودٍ –رضي الله عنه–: "اليقين الإيمان كله". واليقين من فرائض الدين التي لا بُدّ منها، فواجبٌ وفرضٌ على العبد أن يكون على يقين، أن يكون على يقينٍ من أنّ أمر الله حق، ومن أنّ وعده صدق، ومن أنّ قَدَرَه عدل، ومن أنّ الأمر كله لله. لا بُد من اليقين.

وهذا اليقين يَقوى ويَضعُف، ولذلك ينبغي على العبد دائمًا أن يَعمل على ما يقوِّي يقينه؛ من قراءة القرآن بتدبر، ومن التفكر في مخلوقات الله، ومن النظر إلى نفسه، فإنّ هذا يقوِّي يقينه. فمن جهة قوة اليقين جاء مثلًا قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة:٢٦٠] إبراهيم عليه السلام كان يعلم علم اليقين أنّ الله يحيي الموتى؛ لكنه –عليه السلام– لكمال عبوديته لله عزَّ وجلَّ طلب ما يقوِّي يقينه، فطلب من ربه أن يُريَه كيف يُحيي الموتى؛ ليزداد يقينًا، وهذا معنى:

﴿لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة:٢٦٠]. وأمّا ضَعف اليقين ففي مثل هذا الحديث الذي معنا.

ولضعف اليقين علامات وأسباب جاءت في هذا الحديث: «أَنْ تُرْضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ اللهِ»، اليقين يا عبد الله: أن تُرضِي الله عزَّ وجلَّ، وأن تَستجلب رضا الناس بإرضاء الله سبحانه وتعالى، فتقدِّم ما يُريده مولاك على ما يُريده الناس أو يُريده هواك؛ لأنك توقِن أنّ الأمر كله لله، وأنّ القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يُقلّبها كيف يشاء سبحانه وتعالى، فالذي يُرضِي ويُسخِط هو الله سبحانه وتعالى، لو بذلتَ للناس كل ما يستطيع إنسانٌ أن يَبذله؛ إذا لم يُرِدِ الله أن يَرضَوا عنك فلن يرضى عنك أحد، ولو فعلتَ ما يُسخِط الناس لأنّ الله أمرك به وأراد الله أن يرضى عنك الناس سيرضى عنك الناس، فأنتَ على يقينٍ من هذا، فخشيتك من الله، وحسيبُك الله سبحانه وتعالى، قال الله عز وجل: ﴿وَيَخْشَوْنَهُ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللهَ وَكَفَى بِاللهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب:٣٩] هذا هو اليقين.

ومن ضَعف اليقين –يُقال: ضَعف، ويُقال: ضُعف، لكن ما يُقال: ضِعف؛ لأنّ ضِعف بكسر الضاد: الزيادة، وأمّا ضَعف وضُعف، هما لغتان للعرب، ويعني: النقص– فضَعف اليقين أن تُرضي الناس بسخط الله، أن تخاف الناس أو ترجو ما عند الناس خوفًا أو رجاءً يجعلك تترك الواجب من أجل إرضاء الناس، أو تفعل الحرام من أجل إرضاء الناس.

بعض الناس تأمره زوجته بترك واجب، تقول له: احلق لحيتك، أو تطلب منه فِعل حرام؛ كان تقول: احضر لنا كذا من المحرَّمات، فيقول: والله أخاف من

لسانها، وأخاف ألّا ترضى عني وتذهب وأنا عندي أولاد! هذا من ضَعف اليقين، ولن ينال بهذا مقصوده كما سيأتينا إن شاء الله.

إذن؛ من أسباب ضَعف اليقين وعلامات ضَعف اليقين: أن تُرضِي الناس بسخط الله سبحانه وتعالى، فتُعاوِض رضا الله بسخط الناس، وبئست المعاوضة، وإنه والله لَلْخسران أن تَستبدل رضا الله بسخط الله عزَّ وجلَّ؛ بأن تطلب رضا الناس وتقدِّمه على رضا الله سبحانه وتعالى. هذا السبب الأوّل والعلامة الأولى.

قال: (وأن تَحمدهم على رزق الله)، الله عزَّ وجلَّ هو الرزاق، وهو المعطي، لا معطي غيره سبحانه وتعالى، قد يجعل الله بعض خَلقه سببًا لرزقك، لكنّ المعطي هو الله على كل حال؛ سواءً جاءك الرزق بواسطة أحدٍ من الخلق أو بغير واسطة من الخلق، المعطي على الحالين هو الله سبحانه وتعالى؛ ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقسم للناس ويُعطي الناس: «إِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ وخازن وَاللهُ يُعْطِي» رواه البخاري في الصحيح. فالنعمة من الله، والله يُعطي.

فاليقين يا عبد الله: أن تَعتقد ذلك، وتَعلَم علمًا يقينيًّا أنّ ما قَسَمَه الله لك لا يستطيع أحدٌ من خَلق الله بل ولا خَلق الله جميعًا منعك منه، وما لم يَقْسِمه الله لك لن يستطيع أحدٌ من خَلق الله، بل الخلق جميعًا أن يوصِله إليك، تَعتقد هذا مع بذل الأسباب المشروعة، ما تقول: أنا على يقين، ولا تبذل الأسباب المشروعة، تقول: رزقي سيأتيني وأنا في بيتي! –وهذا سيأتينا –إن شاء الله– في الباب التالي عندما نتكلم عن التوكل– وهذا يقتضي يا عبد الله أن يتعلق قلبك

بالله طلبًا للرزق، وحمدًا مطلقًا عند حصول الرزق. أن يكون قلبك معلقًا بالله عند طلبك للرزق، وأن تحمد الله الحمد المطلَق عند حصول الرزق.

فالمحمود على الإنعام هو الله سبحانه وتعالى، وليس للمخلوق منك إلا شكرَ معروفه، ما نقول: أهمِل المخلوق إذا جعله الله سببًا لوصول النعمة إليك، إذا جعله الله سببًا لحصول الرزق، بل اشكر معروفه، وهذا من شكر الله، لا يُنافي حمد الله، ولا يُنافي شكر الله أن تشكر معروف المخلوق، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «مَنْ لَا يَشْكُرِ النَّاسَ لَا يَشْكُرُ اللهَ» رواه الترمذي وصحَّحه، قال الترمذي: هذ حديثٌ صحيح، وصحَّحه الألباني.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «مَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ» رواه أبو داود، والنسائي، وصحَّحه الألباني.

إذن؛ اليقين في باب النِّعم الواصِلة أن تَعلَم أنّ المعطي والمنعِم هو الله، وأن تحمد الله، وأن تشكر الله، ومن شكر الله أن تشكر من جعله الله سببًا لوصول النعمة إليك.

وضَعف اليقين هنا: أن تَحمد المخلوق حمدًا يُقارِب حمدك لله، فضلًا عن أن تُساوي حمدك للمخلوق بحمدك لله، فضلًا عن أن تَنسِب الخير للمخلوق وتنسى الله.

ضعف اليقين أن تَحمد المخلوق حمدًا يُقارِب حمدك لله، هذا من ضعف اليقين، فكيف إذا جعلتَ حمدك للمخلوق مساويًا لحمدك لله؟! فكيف إذا

أصابتك النعمة من طريق مخلوقٍ نَسيتَ الله ولم تشكره، ولم تنسِب النعماء إليه، وحمدت المخلوق؟! لا شك أنّ هذا من ضَعف اليقين.

ومن ضعف العقل أن تُضيف النعمة إلى السبب وتنسى المسبِّب. هذا السبب الثاني لضعف اليقين والعلامة الثانية.

والسبب الثالث والعلامة الثالثة: «**وَأَنْ تَذُمَّهُمْ عَلَى مَا لَمْ يُؤْتِكَ اللهُ**»، هذا متعلِّق بسابقه، فقد تقدَّم أنّ اليقين أن تَعلَم أنّ المعطي هو الله، وأنّ المانع هو الله، وأنّ الخَلق لو اجتمعوا جميعًا بقوةٍ واحدة على أن يُعطوك كِسْرةً من تمرٍ لم يكتبها الله لك لن يستطيعوا ذلك، وأنّ الخَلق لو اجتمعوا جميعًا بقوةٍ واحدة على منعك من أمرٍ قد كتبه الله عزَّ وجلَّ لك لن يستطيعوا ذلك.

فإذا طلبتَ من مخلوقٍ شيئًا من أمور الدنيا؛ مثلًا قلت له: أعطني مالًا، أعطني سيارتك، فلم يُعطك، فإنّ اليقين أن تعتقد أنّ الله لم يُرِدْ لك أن تأخذ هذا، إذ لو أراد الله لك أن تأخذ هذا لاستجاب العبد لطلبك، يقينًا، فإذا لم يستجب فاليقين أنك مباشرة لا تَلفت إلى المخلوق؛ وإنما يلتفت قلبك إلى الله، وتَعلم أنّ الله لم يُرِدْ لك أن تحصل على هذا، وبالتالي فإنك لا تَذمّ المخلوق على هذا، فمن ضعف اليقين أن تَذمّ المخلوق على امتناعه عن إعطائك شيئًا؛ من جهة عدم الإعطاء، أمّا من جهة سوء الخلق، من جهة البخل، هذه صفات في المخلوق، لكن من جهة عدم الإعطاء أنت على يقين أنّ الذي منع هو الله سبحانه وتعالى، هذا المخلوق لا يستطيع أن يمتنع إذا أراد الله أن تأخذ هذا الشيء.

فمن ضعف اليقين أن تَذمّ المخلوقين على ما لم يؤتك الله.

هذه أسبابٌ، ثلاثة، وعلاماتٌ ثلاثة على ضعف اليقين، ويَظهر فيها أنّ المؤمن عزيز، يرتبط قلبه بالله سبحانه وتعالى.

قال: «إِنَّ رِزْقَ اللهِ لَا يَجُرُّهُ حِرْصُ حَرِيصٍ، وَلَا يَرُدُّهُ كَرَاهِيَةُ كَارِهٍ»، هذه جملةٌ تعليلية لكل ما سبق، تدفع كلَّ ضَعف اليقين. قال: (إِنَّ رِزْقَ اللهِ) ومنه رضا الناس (لَا يَجُرُّهُ حِرْصُ حَرِيصٍ)، والله! مهما حرِصْتَ ما لم يكتبه الله لن يكون، لو سَعيت الليل والنهار في أن تُرضي الناس؛ إذا لم يكتب الله لك أن يرضى عنك أحدٌ من الناس فلن يرضى عنك أحدٌ من الناس، لا بذكائك، لا بعملك، لا بمالك، لا بتنازلاتك.

الرزق المادي «لَا يَجُرُّهُ حِرْصُ حَرِيصٍ، وَلَا يَرُدُّهُ كَرَاهِيَةُ كَارِهٍ»، لو أرضيت الله ولزمت التوحيد والسُّنَّة وأراد الله أن يرضى عنك مَن في خيرك رضاه –رضا الناس جميعًا ليس فيه الخير، الخير أن يرضى عنك أهل الخير– فإنّ الناس –أعني أهل الخير– سيرضَون عنك.

وخلاصة كل هذا: أن توقِن أنّ سبب كل خيرٍ لك في العاجل والآجل هو طاعة الله، والاجتهاد في إرضائه سبحانه، و تَثبُتَ على هذا الطريق. وضعف اليقين عكس هذا. فهذا هو معنى هذا الحديث المَروي الذي قلنا: إنّ إسناده ضعيف لكن معناه صحيح.

يقول قائل: أين الخوف في هذا الحديث؟ والجواب: أنّ الداعي إلى ضعف اليقين المذكور في الحديث: هو الخوف أو الرجاء، ما الذي يجعل

الإنسان يلتمس رضا الناس بسخط الله؟ إمّا أنه خائف، وإمّا أنه يرجو ما عندهم. ما الذي يجعل الإنسان يَحمد المخلوق على نعمة الله؟ إمّا أنه خائفٌ منه، فيَحمده بما ليس فيه، وإمّا أنه يرجو ما عنده؛ يريد أن يَستجلِب الذي عنده.

ويَتْبَع هذا: أنّ الذي يجعل الإنسان يَذمّ الناس: إمّا عدم حصول الرجاء، وإمّا اندفاع الخوف. ما الذي يجعل الإنسان يرتاح في الذَّم؟ إمّا أنه لا يخاف، مثل الآن خفافيش الظلام الذين يَذمُّون الناس في الإنترنت، في المواقع الإلكترونية، يجلس في بيته ويَتسمَّى أبو فلان، وقد يقول زورًا وكذبًا: أبو فلان السلفي! ولا يَظهر عليه من السلفية ما يدلّ على ذلك، ويَسبّ الناس في بلده وفي غير بلده، وإذا جاء أمام شرطي أو استُدعي في مكان كان من أحسن الناس لفظًا! أهل الحق في نقدهم لأهل الباطل كلامهم علانية، وبنقدٍ علميٍّ يقوم على البرهان، أمّا هؤلاء الذين يَذمُّون ويَخترعون ذمًّا وسبًّا؛ لأنهم آمنون.

فالذَّم لعباد الله سببه: إمّا عدم الخوف. طبعًا بعض الناس –والعياذ بالله– نظرته إلى الناس، ما يخاف من الله، ولا ننفي الخوف مطلقًا؛ لكن نقول: في عمله هذا لا يخاف من الله، وإنما نظره إلى الناس؛ ولذلك لمّا أصبح هناك أنظمة تَضبط هذه الأشياء الإلكترونية خَفّ هذا الأمر.

أو يكون سببه: اندفاع الرجاء، إذا لم يَرْجُ من الإنسان شيءٍ، خلاص يئس منه، أو لا يرجو منه شيئًا؛ فإنه قد يذمّه.

أمّا المؤمن الموقِن صاحب الحقّ فحَمْدُه لله، وإذا حَمِدَ مخلوقًا –أي: أثنى عليه– فلله، يخاف من الله، ويرجو ما عند الله، وإذا ذَمّ مخلوقًا فلله، يخاف الله، ويرجو ما عند الله سبحانه وتعالى.

وبهذا تَعلم أيها الكريم مناسبة الحديث للباب؛ وهو: أنّ ضَعف اليقين سببه: إمّا الخوف، وإمّا الرجاء؛ على ما بيّنّاه.

[وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وعلى آله وسلم قَالَ: «مَنِ الْتَمَسَ رِضَا اللهِ بِسَخَطِ النَّاسِ رضي الله وَأَرْضَى عَنْهُ النَّاسَ، وَمَنِ الْتَمَسَ رِضا النَّاسِ بِسَخَطِ اللهِ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَسْخطَ عَلَيْهِ النَّاسَ» رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ فِي (صَحِيحِهِ)]

هذا الحديث قال عنه الشيخ الألباني –رحمه الله–: صحيحٌ لغيره– أعني برواية ابن حبان–، وقد رواه ابن المبارك، والبغوي، والترمذي من وصية أمِّنا عائشة –رضي الله عنها– لمعاوية –رضي الله عنه– ، وذلك أنّ معاوية –رضي الله عنه– كتب لأمِّنا عائشة –رضي الله عنها– أن تكتب له كتابًا توصيه فيه، فكتبت إليه: أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «مَنْ الْتَمَسَ رِضَا اللهِ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللهُ مُؤْنَةَ النَّاسِ، وَمَنْ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخطِ اللهِ عزَّ وجلَّ وَكَلَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ إِلَى النَّاسِ»، وقال الألباني: صحيح. فهذا الحديث صحيحٌ، «مَنْ الْتَمَسَ» الالتماس هو: الطلب بتذلُّل، «مَنْ الْتَمَسَ رِضَا اللهِ بِسَخَطِ النَّاسِ» فجعل عِوض رضا الله سخط الناس؛ رضي الله عنه وأرضى عنه الناس. والمقصود: أنّ مَن التمس رضا الله ولو سخط الناس، تمسَّك بتوحيده

ولو سخط الناس، لو قالوا: وهابي، لو قالوا ما قالوا يتمسك بالتوحيد، يتمسك بالسُّنَّة مهما قال الناس، فإنه موعودٌ بأن يكفيَه الله مؤنة الناس، ومادام أنّ الله يكفيك مؤنة الناس، فكيف تخاف منهم؟ بل أنت على يقين أنّ ما يَصلك من أذى الناس إنما هو رفعة لك، فلا تخاف من الناس. «وَمَنْ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللهِ عزَّ وجلَّ» فجعل عِوض رضا الله إرضاء الناس، فيُرضي الناس بما يُسخط الله؛ فيترك الواجب أو يَفعل الحرام من أجل أن يُرضي الناس؛ سَخِطَ الله عليه، وأسخَط عليه الناس، فالقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلِّبها كيف يشاء.

والداعي لذلك إنما هو الخوف والرجاء، فالذي يلتمس رضا الله ولو أسخَط الناس؛ الذي يدعوه إلى هذا: خوفه من الله، ورجاؤه ما عند الله عزَّ وجلَّ. والذي يلتمس رضا الناس ولو أسخط الله؛ الذي يدعوه إلى هذا: خوفه من الناس أو رجاء ما في أيدي الناس. وبهذا تعرف مناسبة الحديث للباب.

وهذا الحديث فيه قاعدةٌ شرعيةٌ قطعية؛ وهي: أنّ المقصود الحَسن مع العمل الصالح سببٌ لحصول الخير، وأنّ المقصود الفاسد سببٌ لأن يُعامَل الإنسان بنقيض قَصْدِه. فالذي قَصْدُه أن يُرضي الله ولَزِمَ سُنَّة رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو موعودٌ بالخير؛ في العاجل والآجل. والذي قَصْدُه أن يُرضي الناس ولو بسخط الله سبحانه وتعالى؛ فإنه يُعامل بنقيض قصده الفاسد، ماذا يُريد؟ يُريد أن يُرضي الناس؟ سيُخِط الله عليه الناس، بل والله حتى مَن رضي عنه اليوم ينقلب عليه غدًا، أو يكون رضاه عنه سببًا لاستمراره فيما يضره.

يعني البعض يأتي إلى بعض دعاة الباطل يقول: ما شاء الله، انظر، قد رضي عنه الناس، فهذا علامة على أنّ الله قد رضي عنه! لا، انظر إلى السبب؛ فإن كان السبب قصدًا حسنًا وعملًا صالحًا؛ فإنك ترجو أن يكون رضا الناس لأنّ الله رضي عنه. أمّا إذا تَخلَّف القصد الحسن أو تَخلَّف الصلاح في العمل؛ فليس هذا علامة على رضا الله سبحانه وتعالى، وإنما هؤلاء الناس الذين يرضَون عنه اليوم قد يَنقلبون عليه غدًا ويسخطون عليه، وقد يكون رضاهم عنه سببًا لاستمراره في الباطل حتى يلقى الله وهو على هذا الباطل والعياذ بالله. وهذا فِقهٌ عظيم يَتعلَّق بهذا الحديث.

وقبل أن نُغادر هذا الباب –أعني باب الخوف– أذكر أمرين فاتني أن أذكرهما في التمهيد للباب:

الأمر الأوّل: ذِكْرُ بعض الألفاظ الشرعية المقارِبة للخوف؛ وهي:

الأوّل: الخشية–عندنا الخوف وعندنا الخشية– والخشية هي: الخوف المقرون بالعِلم والتعظيم. فهي من أعلى درجات الخوف؛ لأنّ الخوف قد تخاف ممَّن تَعلَمه وتَعلم بأسه، وقد تخاف ممَّن تجهله، قد تخاف ممَّن تُعظِّمه، وقد تخاف ممَّن تذمُّه، أمّا الخشية فهي خوفٌ بعلمٍ وتعظيم.

كما أنّ الخشية خوفٌ دائم؛ لأنّ سببها في القلب. أمّا الخوف فإنما يكون عند وجود سببه.

والخشية للعلماء، وكلما زاد العِلم زادت الخشية، والخوف للعموم، الخوف يَشترك فيه العامّة والعلماء، والخشية تكون من العِلم، وليس المقصود

بالعلماء مَن يُسمَّون بالعلماء، وإنما المقصود بالعلماء: مَن يَعلَمون، كلّما عَلِمَ العبد حق الله، وأسماء الله، وصفات الله؛ زادت خشيته لله، وكلّما زاد كلّما زادت خشيته لله عزَّ وجلَّ، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء﴾ [فاطر:٢٨] ولذلك يقول العلماء: الخوف للعامة، والخشية للعلماء.

واللفظ الثاني: الرَّهبة، والرهبة –كما يقول العلماء–: هي خوفٌ مقرونٌ بالهَرَبِ، فالرهبة: الإمعان في الهَرَبِ من المَكروه. ولاحظوا المجانَسة بين الرهبة والهرب، الحروف واحدة، فالرهبة: خوفٌ مقرونٌ بالهرب؛ أو كما عبَّر بعض أهل العلم: الإمعان في الهرب من المكروه. وكل مَن تخافه وتَرهبه تَفِرُّ منه إلا الله؛ فإنك إذا رهبته فررت إليه ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللهِ﴾ **[الذاريات:٥٠]** سبحان الله**!** كل مَن تَرهبه تَفِرّ منه، ما تَقرب منه، العامّة في أمثالهم ماذا يقولون؟ يقولون: ابعِد عن الشر وغنِّي له**!** كل مَن ترهبه تَفر منه إلا الله عزَّ وجلَّ، كلّما ازدادت رهبتك من الله كلّما فررت إليه سبحانه وتعالى.

واللفظ الثالث: الوَجَل، والوجل هو: رَجَفَان القلب لتَذكُّر مَن يُخاف سلطانه أو تُخشى عقوبته. الوجل: حركة في القلب، اضطراب في القلب، رجفان في القلب، إذا تذكَّر صاحبه مَن يُخاف سلطانه أو تُحذَر عقوبته.

الرابع: الهَيبة. وهي: خوفٌ مقارِنٌ للإجلال والمحبة. الهيبة خوف ولكنه خوف مخصوص، خوف مقارِن للإجلال والمحبة، فالهيبة خوف المحبِّين.

الخامس: الإشفاق. والإشفاق: خوفٌ يدعو إلى العناية. تقول: أشفقتُ عليك؛ يعني: خفتُ عليك فاعتنيتُ بك.

فهذه الألفاظ الخمسة لها تَعلُّق بالخوف، بل هي من الخوف، ولكنه خوفٌ مخصوص. فمن فِقه هذا الباب أن نُدرِك معانيها. وقد لخصتُ لكم ما أبحر فيه أهل العلم في هذا الباب.

والأمر الثاني: ذكرنا أنّ الإنسان في سَيره إلى الله عزَّ وجلَّ يُحرِّكه الحب، ويَحرُسه الخوف، ويُسارِع به الرجاء. قلنا: إنّ الإنسان وهو في الدنيا يسير إلى الله، وهو في سيره بين خطوتين لا ثالث لهما: تقدُّم وتأخُّر. هو في سيره إلى الله يدعوه إلى التقدُّم: المحبة، ويحرسه من الزلل: الخوف، ويَردُّه إلى الصراط: الخوف، قد يزِل الإنسان وهو في سيره إلى الله، لكن إذا زَلَّ ردَّه الخوف إلى الصراط. ويُسارع به الرجاء؛ كلّما عَظُمَ رجاؤه لِمَا عند الله كلّما سارع وسابق إلى الطاعات. ذكرنا هذا، لكن ما الذي يُغلِّبه الإنسان من الخوف أو الرجاء وهو يسير إلى الله؟

- قال بعض أهل العلم: يُغلِّب الخوف.
- وقال بعض أهل العلم: يُغلِّب الرجاء.

والتحقيق: أنّ المؤمن في سيره إلى الله يكون بين الرجاء والخوف، لا يزيد هذا على هذا، ولا يزيد هذا على هذا، يُعبِّر العلماء فيقولون: "كجناحي طائر"، الطائر تتساوى جناحاه، لا يكون هذا الجناح طويلًا، وهذا الجناح قصيرًا، فالإنسان يطير إلى إرضاء الله عزَّ وجلَّ بجناحَي: الخوف والرجاء؛ كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿نَبِّىءْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيم (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيم﴾ [الحِجر:٤٩-٥٠]، فتأمَّل هنا! كيف جمع الله في هذا النبأ العظيم بين

الخوف والرجاء، ﴿نَبِّىءْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الحِجر:٤٩] فهذا باب الرجاء، ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ﴾ [الحِجر:٥٠] هذا باب الخوف.

وفي الآية الأخرى قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿اعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة:٩٨]، سبحان الله! في الآية الأولى تقدَّم الرجاء وتأَخَّر الخوف، وفي الآية الثانية تقدَّم الخوف وتأَخَّر الرجاء، ولكنّ الآيتان تدلان على أنّ المؤمن يكون بينهما؛ بالخوف والرجاء، ولكنه قد يُغلِّب أحدهما لحاجةٍ وسبب، فإذا رأى من نفسه قنوطًا من رحمة الله، –والقنوط من رحمة الله لا بُد أن يؤدِّي إلى أحد أمرين: إمّا إلى تأخُّر عن الطاعة، أو إلى استمرار في معصية– يعني الإنسان إذا كان في معصية وقنط من رحمة الله، يقول: أنا الله لن يرحمني، ماذا يفعل؟ يستمر في المعصية، لماذا أترك المعصية، أنا لن يرحمني الله؟ وإذا كان على طاعة فقنط من رحمة الله سيُبطئ عن الطاعة، وقد يتركها بالكلية، يقول: أنا في كذا وفي كذا الله لن يرحمني، وبالتالي نشاطه للطاعة سيضعف حتى يضمحل ويذهب، فإذا رأى من نفسه ميلًا إلى القنوط: غلَّب جانب الرجاء، وقرأ في القرآن ما يتعلق بالرجاء، وقرأ في الأحاديث ما يتعلق بالرجاء.

وإذا رأى من نفسه ميلًا إلى التوسُّع والاعتماد على رحمة الله ومغفرته لاسيما في السِّر، فيرى أنّ نفسه بدأت تفعل بعض المعاصي ويقع في النفس: "إنّ الله غفورٌ رحيم"، وأنت تُصلي والصلاة كفارة للذنوب، أنت تتوضأ والوضوء

كفارة للذنوب! فيرى من نفسه ميلًا إلى التوسُّع والوقوع في الذنوب؛ فإنه يُغلِّب جانب الخوف، ويقرأ في النصوص في الكتاب والسُّنَّة ما يُعظِّم الخوف في قلبه.

كذلك؛ إذا كان في جانب قوةٍ وصحة يُغلِّب جانب الخوف؛ لأنّ القوة والصحة قد تدعو الإنسان إلى أن يطغى، فيُغلِّب جانب الخوف. وإذا كان فيه ضعف ومرض يُغلِّب جانب الرجاء، طبعًا ليس المقصود بالقوة: الصحة والعافية المعتادة، وإنما المقصود: إذا رأى من نفسه قوة وصحة فإنه يُغلِّب جانب الخوف؛ حتى يُهذِّب نفسه، وإذا كان فيه ضعف ومرض، مثلًا مرّت به حوادث أو خذله الناس، فانكسَر قلبه؛ يُغلِّب جانب الرجاء، إذا كان في مرض يُغلِّب جانب الرجاء.

وكذلك في آخر حياته؛ إذا رأى أنه بدأ يضعف، وأنّ الموت قرُب، ورأى العلامات: وَهَنٌ في الجسد، وشَيبٌ في الشعر، وشيب الشعر هو النَّذير، رأى هذا فإنه يُغلِّب جانب الرجاء، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ» رواه مسلمٌ في الصحيح، ففي حال الإقبال على الله وشعور المرء بالموت لاسيما عند وصول علاماته الظاهرة أو الواصِلة، فأَحَسَّ الإنسان بالموت؛ فإنه يُغلِّب جانب الرجاء.

هذا هو الباب العظيم الذي له أثره العظيم في توحيد المؤمن وفي سير المؤمن إلى الله، والقاعدة الكلية: أنك كلّما حقَّقت التوحيد ضَعُفَ الخوف من قلبك؛ إلا ما كان طبيعيًا، كلّما حققت التوحيد ضعف الخوف من الخَلق من قلبك إلا ما كان طبعيًّا في الفطرة في الطبع، فكلّما حقَّقت التوحيد تَعلَّق قلبك

بالله وانصرف عن الناس، حتى أنّ من الناس مَن لا يرى الناس شيئًا إلا فيما حدَّه الله له، ليس بمعنى يحتقرهم، لا، ولكن في سيره إلى الله لا يرى الناس شيئًا، يُجِلُّ الناس ويحترمهم ويُعطيهم حقهم على وُفْقِ ما شرع الله، ولكن لا يلتفت إليهم في سيره إلى الله عزَّ وجلَّ، فلا يترك طاعةً ولا يُبطئ عنها من أجل الناس، ولا يفعل حرامًا ولا يقترب منه من أجل الناس، ولا يُرائي الناس، ولا يُسمِّع الناس، كلّما حقق التوحيد كلّما انقطع خوفه من الخَلق وتَعلَّق قلبه بالله إلا ما كان خوفًا طبعيًّا.

[فِيهِ مَسَائِلُ: الْأُولَى: تَفْسِيرُ آيَةِ آلِ عِمْرَانَ]

﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل **عمران**:١٧٥]، حيث دلت الآية على أنّ الخوف من الله من الإيمان، وشرطٌ في الإيمان، وأنّ الخوف منه ما هو مأمورٌ به، ومنه ما هو منهيٌّ عنه، ويدخل في الخوف المنهي عنه خوفان: خوف السِّر: وهذا إذا حصل من المخلوق فإنه يَنقض الإيمان، وخوف المخلوق خوفًا يدعو إلى ترك الواجب أو فعل الحرام، وهذا يُنقِص الإيمان. يعني إذا خاف الإنسان من المخلوق خوف السِّر هذا يُبطِل إيمانه، ينقض إيمانه. وإذا خاف من المخلوقين خوفًا يدعوه إلى أن يترك الواجب ويفعل الحرام، فهذا يُنقص إيمانه.

[قال –رحمه الله–: الثَّانِيَةُ: تَفْسِيرُ آيَةِ بَرَاءَة]

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللّهِ﴾ [التوبة:١٨] والشاهد منها قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللّهَ﴾ [التوبة:١٨] فكان خوفه من الله. وقد تقدم الكلام عن هذا.

[الثَّالِثَةُ: تَفْسِيرُ آيَةِ الْعَنْكَبُوتِ]

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللهِ﴾ [**العنكبوت**:١٠]، الإنسان إذا قال: إنه آمن؛ فلا بُد أن يُفتَن، لا تَحسبن يا عبد الله أنك تقول: آمنت ولا تُفتن، لا بُد أن تُفتَن، فمن الناس مَن يقول: آمنت بالله، فيُفتَن بالناس، ويخاف من الناس، فيجعل فتنة الناس كعذاب الله أو أشد، فيترك الواجب أو يفعل الحرام من أجل خوفه من الناس.

[الرَّابِعَةُ: أَنَّ الْيَقِينَ يَضْعُفُ وَيَقْوَى]

كما في الحديث: «**إِنَّ مِنْ ضَعْفِ الْيَقِينِ**» أو ضُعف اليقين، وهذا لا شك فيه كما قدمناه؛ أنّ اليقين يقوى ويضعف، طيب ما فائدة هذا؟ أن تسعى يا عبد الله إلى تقوية يقينك، وأن تجتنب ما يُضعِف يقينك؛ لأنّ اليقين الإيمان كله.

[الْخَامِسَةُ: عَلَامَةُ ضَعْفِهِ وَمِنْ ذَلِكَ هَذِهِ الثَّلَاثُ]

أن تلتمس رضا الناس بسخط الله عزَّ وجلَّ، وأن تَحمَد الناس على رزق الله، وأن تَذمّ الناس على ما لم يؤتِك الله.

[السَّادِسَةُ: أَنَّ إِخْلَاصَ الْخَوْفِ لِلَّهِ مِنَ الْفَرَائِضِ]

نعم كما دلت عليه الأدلة المذكورة في الباب كلها.

[السَّابِعَةُ: ذِكْرُ ثَوَابِ مَنْ فَعَلَهُ]

(ذِكْرُ ثَوَابِ مَنْ فَعَلَهُ) وهو: أنّ الله عزَّ وجلَّ يرضى عن عبده، ويُرضي عنه من الناس من في رضاهم عنه الخير له، ويُؤَمِّنه يوم القيامة، لا يجمع الله لعبده بين خوفين، فمَن خاف الله في الدنيا أمَّنه يوم القيامة، إذا أردتَ الأمن يوم الفزع الأكبر فخَفِ اليوم.

[الثَّامِنَةُ: ذِكْرُ عِقَابِ مَنْ تَرَكَهُ]

إذا كان هذا تركًا للخوف الذي هو توحيد؛ ترك لخوف السِّر: فهذا نقضٌ للإيمان، وإبطال للإيمان. وإذا كان هذا الخوف ليس خوف السِّر لكنه يجعل العبد يترك الواجبات أو بعض الواجبات ويفعل بعض المحرمات: فهذا نقصٌ في الإيمان، يُعاقَب عليه الإنسان، ومن العقوبة في الدنيا: أن يُسخِط الله العباد على العبد، أو يَبتليه برضاهم عنه، ويستدرجه بهذا والعياذ بالله. وأن يكون ذلك سببًا لدخول النار وللفزع يوم القيامة. فمن أمِنَ في الدنيا وترك خوف الله اشتد فزعه يوم القيامة. نسأل الله السلامة، ونسأل الله عزَّ وجلَّ أن يرزقنا الخوف منه في الدنيا، والأمن يوم القيامة.

وبهذا ننتهي من هذا الباب العظيم الذي من فقهه حصَّل خيرًا عظيمًا.

وبهذا –يا إخوة– تعرفون أنّ التوحيد كله خير، ما يوجد باب في التوحيد إلا وفيه خير عظيم. يا إخوة لا تستقيم الطاعة كما يُريد الله إلا مع التوحيد، والله، حتى الصوفية الذين عندهم خلل في التوحيد ويزعمون أنهم عُبّاد تجد عندهم خللًا في العبادة الصحيحة، ما تجد عندهم نشاطًا للعبادة الصحيحة، بعضهم

يأتون إلى الحج إلى قُرب بيت الله عزَّ وجلَّ ويرقصون ويغنون ويضربون بالدفوف والطبول في منى وفي عرفة، في عرفة بدل من أن يقفوا ويتذللوا تجدهم يرقصون ويغنون! بعضهم يأتي إلى مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويسكن في فندق قريب من مسجد النبي صلى الله عليه وسلم، ما تجد عنده اجتهاد في الذهاب إلى المسجد النبوي ولزوم حِلق أهل العلم، بل اجتهاده في الذهاب إلى شيوخٍ من شيوخ الباطل، وإلى بدع، وقد يجتمعون في غرفة من غرف الفندق ويُقيمون ويُحدِثون بدعًا، ويغفلون عن قول النبي صلى الله عليه وسلم: «الْمَدِينَةُ حَرَمٌ مَا بَيْنَ عَيْرٍ إِلَى ثَوْرٍ، مَنْ أَحْدَثَ فِيهَا حَدَثًا، أَوْ آوَى مُحْدِثًا، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يَقْبَلُ اللهُ مِنْهُ صَرْفًا، وَلَا عَدْلًا»

الاستقامة على الطاعة إنما تكون بالتوحيد. ولذلك –يا إخوة– أوجب الواجبات أن نتعلَّم التوحيد، وأوجب ما يجب من تعليم الناس أن نُعلِّم الناس التوحيد؛ لكن بعِلم، وبصيرة، وبأسلوبٍ طيب، وبدلالة، وبصبر، والله! ما دعا داعٍ إلى التوحيد إلا أوذي، أوّلهم الأنبياء عليهم السلام، ثم الصالحون من بعدهم، فالداعي إلى التوحيد يحتاج أن يصبر، اصبر على كلام الناس وماذا يضرك؟ قد أوذيَ مَن هو خيرٌ منك، ولكن ادعُ بعِلم، ورحمة، ورفق، وأسلوبٍ حسن ما أمكن هذا.

فأسأل الله عزَّ وجلَّ أن يجعلنا من عباده الموحِّدين، وأن يفقِّهنا في دينه، وأن يجعلنا من المعظِّمين لحقِّه.

الدرس السابع والأربعون: شرح بَابُ قَوْلِ اَللَّهِ تَعَالَى: (وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)

إنّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَن يهدي الله فلا مضلَّ له، ومَن يُضلل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء: ١]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: ٧١]

أمّا بعد:

فإنّ أحسن الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكلّ محدَثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النار.

ثم يا معاشر الفضلاء؛ إنّ من أعظم نِعم الله عز وجل على عبده في إسلامه: أن يوفِّقه للجلوس في حِلَقِ العِلم، فإنه «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفَّتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده»، «ومن غدا إلى المسجد لا يريد إلا أن يتعلم خيرًا أو يعلِّمه؛ كان له كأجر حاج تامًّا حجته». وتَعْظُم النعمة إذا كان الجلوس في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم، حيث قال النبي صلى الله عليه وسلم: «مَن جاء مسجدي هذا ليتعلَّم خيرًا أو يعلِّمه كان كالمجاهد في سبيل الله». فنسأل الله –عز وجل– أن يزيدنا من فضله، وأن يكتب لنا خير ما كتب لعباد جلسوا في مسجد يَتعلَّمون الخير ويُعلِّمونه.

أيها الإخوة؛ مجلسنا هذا نتفقَّه فيه في أعظم حق، وفي أعظم فضل، نتفقَّه فيه في حق ربنا سبحانه وتعالى، نتفقَّه في التوحيد، الذي هو حق الله عز وجل على العبيد، نقرِّر حق ربنا بقال الله عز وجل وقال رسوله صلى الله عليه وسلم، نقرِّر ما أجمع عليه صدر الأمّة، وأجمع عليه أهل السنة من التوحيد من حق ربنا سبحانه وتعالى، وذلك من خلال شرح كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد.

وكنا في المجالس الأخيرة السابقة قد شرعنا في قسم من أقسام كتاب التوحيد؛ ألا وهو: الأعمال المتعلِّقة بالقلوب التي لها تعلُّق بالتوحيد، ونواصل بشرح الأبواب المتعلقة بهذا الأمر.

[قوله: بَابُ قَوْلِ اَللهِ تَعَالَى: (وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)]

لا زال الشيخ –رحمه الله– يذكر أعمال القلوب التي لها تعلُّق بالتوحيد، ومن المناسب جدًّا أنّ الشيخ –رحمه الله– ذكر باب التوكل بعد باب الخوف؛ وذلك أنّ مَن توكل على الله ذهب خوفه من غير الله، وكلّما عَظُمَ التوكل على الله عز وجل كلّما ضَعُفَ الخوف من غير الله في قلب العبد، قال الله تعالى: (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) (آل عمران: ١٧٣). جاء عن جابر بن عبد الله –رضي الله عنهما– أنه غزى مع النبي صلى الله عليه وسلم غزوة قِبَلَ نجد –أي: ناحية نجد– فلمّا قَفَلَ رسول الله صلى الله عليه وسلم –أي: رجع إلى المدينة– أدركتهم القائلة في وادٍ كثير العضاة –أي: في وادٍ كثير الشجر والشوك– فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونزل أصحابه معه، وتفرَّق الناس في العضاة –أي: في الشجر– يستظلون بالشجر، ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت سَمُرَة، وكان من عادة الصحابة رضوان الله عليهم أنهم إذا نزلوا فرأوا شجرة كبيرة تركوها لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فعلَّق بها رسول الله صلى الله عليه

وسلم سيفيه، قال جابر –رضي الله عنه–: فنمنا نومة، ثم إذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعونا، فجئناه فإذا عنده أعرابي جالس، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنّ هذا اخترَط سيفي وأنا نائم» يعني: أخذ سيفي من الشجرة وسلَّه وأنا نائم، «فاستيقظت وهو في يده صلتًا» يعني: استيقظت وإذا به واقف عند رأسي، وإذا بالسيف مسلولًا في يده، «فقال لي: مَن يمنعك مني؟ قلت: الله، فها هو جالس» متفق عليه.

وفي رواية عند مسلم: «فقال لي: ما يمنعك مني» يعني: أنا الآن معي السيف ولا يوجد أحد من أصحابك، فمَن يمنعك مني؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «الله»، فقال الثانية: مَن يمنعك مني؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «الله، فشام السيف» شام السيف: أي ردَّه إلى غِمْدِه.

فانظروا أيها الأخوة كيف أنّ التوكل على الله في قلب النبي صلى اله عليه وسلم جعله لا يخاف هذا الأعرابي، مع كونه ممسكًا لسيف، سالًّا السيف! لكنه التوكل على الله سبحانه وتعالى.

والتوكل لغة: هو الاعتماد على الغير في أمرٍ ما، مع إظهار العجز.

التوكل اصطلاحًا: هو صدق اعتماد القلب على الله سبحانه وتعالى في استجلاب المنافع ودفع المضار؛ مع فِعل الأسباب.

إذن؛ التوكل يقوم على أمرين:

الأمر الأوّل: أمر في القلب.

الأمر الثاني: يتعلق بالجوارح.

أمّا الذي يتعلَّق بالقلب: فهو اعتماد القلب على الله سبحانه وتعالى في استجلاب منفعة أو دفع مَضرة. هو الثقة بما عند الله، والإيمان بقدرة الله سبحانه وتعالى؛ مما يجعل القلب يعتمد على الله عز وجل في جلب المنفعة ودفع المَضرة.

وأمّا الذي يتعلق بالجوارح: فهو فِعل الأسباب المشروعة صغيرة كانت أو كبيرة. فالتوكل اعتماد القلب على الله عز وجل مع فِعل الأسباب المشروعة.

فالقلب يعتمد على الله، والجوارح إنما تُفعَل لأنّ الله أجرى سنَّته في كونه بربْط المسببات بأسبابها، ولا يَعتمد عليها القلب، وإنما الاعتماد على الله سبحانه وتعالى.

فالرجل يَتزوج من أجل أن يحصِّل الولد؛ لكنّ قلبه يَعتمد على الله في تحصيل الولد. والرجل يذهب إلى السوق فيبيع ويشتري؛ ولكنّ القلب معلَّق بالله الرَّزاق سبحانه وتعالى. والفلاح يغدوا إلى حقله مبكرًا يَحرث الأرض ويَبذر البَذْر ويَضع المواد؛ ولكنّ قلبه معتمد على الله في تحصيل المقصود، فهذا هو التوكل.

فليس التوكل اعتماد القلب وإهمال الأسباب، بل هذا تواكل، وجهل بالشرع، وخلاف العقل، فإنّ كل عاقل يدرِك أنه لابد من فِعل الأسباب، وفِعل الأسباب هو الذي جاء به الشرع، الله عز وجل قال لمريم –عليها السلام– لمّا حملت بعيسى –عليه السلام–: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ (مريم: ٢٥)، الله قادر على أن يُسقِط لها الرُّطب بدون أن تَهُزّ لكن أمرها بفِعل السبب.

والله عز وجل قال لأيوب –عليه السلام–: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ (ص: ٤٢)، والله قادر على أن يُخرِج الماء من الأرض بدون هذا.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم –وهو سيد المتوكِّلين– يفعل الأسباب صلى الله عليه وسلم في أموره كلها.

إذن؛ لابد في التوكل من بذل السبب مع اعتماد القلب على الله، لا على السبب، وقد جمع النبي صلى الله عليه وسلم بينهما في حديث واحد حيث قال: «لو أنكم توكلتم على الله حق التوكل؛ لرُزقتم كما يُرزَق الطير، تغدوا خماصًا، وتروح بطانًا» رواه الترمذي، وابن ماجه، وصحَّحه الألباني. انظروا؛ قال: «لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما تُرزق الطير» هل تُرزَق وهي في عشها؟ الجواب: لا، وإنما تغدوا خماصًا؛ أي:جائعة، وتروح بطانًا، فهي تَبذل السبب، فهكذا التوكل.

وقد ذكر بعض أهل العلم أنّ التوكل ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأوّل: الاعتماد القلبي المطلَق على مَن يُتوكَّل عليه، بحيث يَعتقد أن بيده جلْب النفع، أو دفع الضُّر. وهذا التوكل إن كان على الله فهو التوحيد، ومنزلته من الدين منزلة عظيمة، بل قال أهل العلم: إنه نصف الدين؛ لقول الله عز وجل: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ (هود: ١٢٣)، فكان الدين قسمين: عبادة، وتوكل، وكما قال الله عز وجل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة: ٥)، عبادة، وتوكل، واستعانة بالله سبحانه وتعالى.

وهذا التوكل يَجلب للعبد محبة الله سبحانه وتعالى، قال عز وجل: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران: ١٥٩)، كما أنّ هذا التوكل سبب لنصر الله عز وجل، فما توكل عبد على ربه إلا نصره الله سبحانه وتعالى، قال عز وجل: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (آل عمران: ١٦٠)، فدلّ هذا على أنّ التوكل سبب في نصر الله تبارك وتعالى.

وهذا التوكل على الله سبب لحفظ العبد من الشيطان، فإنّ مَن توكل على الله حفظه من الشيطان، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (النحل: ٩٩).

وهو سبب لكفاية الله عبده، قال عز وجل: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلًا﴾ (النساء: ٨١).

وصَرْفُ شيء من هذا التوكل لغير الله شرك أكبر، فالذي يَعتمد بقلبه اعتمادًا مطلقًا على مخلوق في أيِّ أمر؛ سواء كان صغيرًا أو كبيرًا؛ فقد أشرك شركًا أكبر. وكذلك إذا توكل على غير الله مع الله، فلو توكل على الله وتوكل على غيره معه سبحانه وتعالى: فهذا شرك أكبر.

بعض الناس يعتمد بقلبه في تحصيل نفع أو دفع ضر على المقبورين، وعلى مَن يسمَّون بالأولياء، فيتوكل عليهم، فإذا رجا الرزق ما ذهب قلبه إلى ربه معتمدًا عليه؛ وإنما يذهب إلى ذلك المقبور في قبره يَعتمد عليه! ولذلك إذا وقع في كربة لا يلجأ إلى الله؛ وإنما يلجأ إلى المقبور في قبره! وهذا شرك أكبر يُخرِج من ملة الإسلام.

وهذا الشرك كما قال العلماء له صُورٌ منها:

الصورة الأولى: التوكل على المقبورين مطلقًا. فتوكل القلب على المقبورين شرك أكبر.

الصورة الثانية: التوكل على الغائبين مطلقًا. فاعتماد القلب على الغائبين شرك أكبر.

الصورة الثالثة: التوكل على الحي الحاضر فيما لا يَقدر عليه؛ هذا أيضًا شرك أكبر.

وضابطها: تعلُّق القلب بالمتوكَّل عليه من المخلوقين.

أمّا تعلق القلب بالله، والاعتماد المطلَق على الله؛ فهذا هو التوحيد.

النوع الثاني: اعتماد القلب على الغير في الرزق والمعاش وأمور الدنيا، بحيث يَتعلق القلب بالمتوكَّل عليه غير الله سبحانه وتعالى من جهة كون ذلك سببًا. فهذا النوع يعتمد فيه القلب على أسبابٍ، ويَتعلق بها؛ من جهة كونها أسبابًا، لا من جهة كونها مسببات، وهذا شرك أصغر، مثل: أن يعتمد الإنسان على وظيفته في حصول المال؛ ويتعلق قلبه بهذا؛ فهذا شرك أصغر.

انتبهوا للفرق بين فِعل السبب وتعلُّق القلب بالسبب:

فِعل السبب: توكُّل.

وتعلق القلب بالسبب: شرك أصغر.

ولكن**!** إذا تعلَّق القلب بالسبب على أنه مسبِّب جالب ودافع: يصبح شركًا أكبر.

إذن؛ اعتماد القلب على غير الله له صورتان:

الصورة الأولى: اعتماد القلب على غير الله من جهة كونه جالبًا للنفع، أو دافعًا للضر، وهذا شرك أكبر.

الصورة الثانية: تعلُّق القلب بغير الله من جهة كونه سببًا. يعني مع اعتقاد أنّ الجالب للخير هو الله، والدافع للضر هو الله، لكن يتعلَّق القلب بالسبب، فهذا شرك أصغر.

أمّا فعل السبب مع تعلُّق القلب بالله؛ فهذا هو التوكل على الله، وهو التوحيد.

القسم الثالث: الاعتماد على المخلوق الحي القادر فيما يَقدِر عليه على أنه سبب، فهذا جائز. "الاعتماد على المخلوق الحي": هذا أَخْرَج الميت، "القادر": هذا أَخْرَج العاجِز؛ كالغائب، "فيما يَقدِر عليه": هذا أَخْرَج ما لا يَقدِر عليه، "على أنه سبب": هذا أَخْرَج تعلُّق القلب به. فهذا جائز.

مثلًا: توكِّل أخاك في أن يُراجِع دائرة حكومية عنك، فأنت اعتمدتَ عليه –وهو قادر على ذلك– على أنه سبب: فهذا جائز.

وهذا في الحقيقة: توكُّل باعتبار المعنى اللغوي، وليس توكُّلًا باعتبار المعنى الشرعي. فانتبهوا للفرق بين الأمرَين! فهذا توكل باعتبار معنى اللغة؛ لأنّ التوكل في اللغة: هو الاعتماد على الغير في أمرٍ ما، أمّا بالمعنى الشرعي فليس توكُّلًا؛ لأنّ التوكل في المعنى الشرعي: هو اعتماد القلب. وهذا في الحقيقة يُسمَّى: توكيلًا، وهذا أولى من تسميته توكُّلًا؛ حتى لا يُوهِم، فينبغي أن يُسمَّى: توكيلًا.

بناءً على هذا؛ هل يصح أن يقول العبد: توكَّلت عليك في المعاملة الفلانية؟

قلنا: إذا كان مراده بقوله: "توكلت عليك في الأمر الفلاني": اعتمدتُ عليك؛ من جهة كونه سببًا لا من جهة تعلُّق القلب؛ فالمعنى صحيح؛ لكنّ اللفظ خاطئ، فينبغي أن يقول: وكَّلتك، أو نحو ذلك.

هل يجوز أن يقول إنسان لآخر: توكَّلت على الله ثم عليك؟ مثال: وكَّلته أنتَ في مراجعة البلدية اليوم، وقلت له: انتبه! فإني متوكِّل على الله ثم عليك، أو: توكلتُ على الله ثم عليك، هل يجوز هذا؟

الجواب: رخَّص فيه بعض أهل العلم، ومَنَعَهُ بعضهم.

والتحقيق: أنه إذا كان مراده بالتوكل اعتماد القلب: فهذا حرام لا يجوز، بل هو إمّا شرك أكبر: إذا نظر إلى كونه جالبًا للخير أو دافعًا للضر، أو شرك أصغر: إذا تعلَّق القلب به باعتبار سببًا.

أمّا إذا كان مراده: الاعتماد –وهو المعنى اللغوي– فالمعنى صحيح، ومع ذلك يُنهَى عن هذا اللفظ؛ سدًّا للذريعة، فلا ينبغي أن يقول: توكلت على الله ثم عليك.

ثم إنّ الشيخ –رحمه الله– بدأ الباب وترجم له بهذه الآية العظيمة: (وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) (المائدة: ٢٣)، الله أكبر! ما أعظم وقْع هذه الآية

على القلب! (وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُواْ) ما قال الله هنا: توكلوا على الله، بل قال: (وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُواْ)، والعلماء يقولون: تقديم المعمول، وتقديم المجرور يدلّ على الحَصر، فالمعنى: اعتَمِدوا بقلوبكم على الله لا على غيره إن كنتم مؤمنين؛ أي: إن كنتم صادقين في إيمانكم.

والتوكل بالقلب على غير الله قد يُذهِب الإيمان بالكلية، وقد يُنقِص الإيمان، وكلا الأمرَين يدخلان فيه هذه الآية: (وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ):

- فإذا توكل الإنسان على غير الله معتقدًا أنه يجلب النفع أو يدفع الضر؛ فهذا يُذهب إيمانه. وقد اشترَط الله عز وجل للإيمان هنا: التوكل عليه سبحانه وتعالى.
- وإن كان توكُّله على غير الله وتعلُّق قلبه بغير الله على أنه سبب لا أنه مسبِّب؛ فهذا شرك أصغر يُضعِف الإيمان.

ومن هنا تعرِف فِقه الشيخ في إيراده للأدلة؛ حيث ترجم بهذه الآية التي تدلّ على أنّ التوكُّل شرطٌ للإيمان، فالتوكل شرط لصحة الإيمان، وشرط لكمال الإيمان. فالتوكل على الله سبحانه وتعالى شرط لصحة الإيمان وكمال الإيمان. ويقابله التوكل على المخلوق؛ قد يُذهِب الإيمان كله، وقد يُذهِب بعض الأيمان؛ كما بيَّناه.

[وَقَوْلِهِ: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ) اَلْآيَةَ]

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ العلماء يقولون: (إنما) أداة حَصْر، ففيها حَصْر المؤمنين في المتَّصِفين بهذه الصفات: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، ففيها عبادة الخوف من الله عز وجل، فالمؤمن إذا ذُكِر الله عنده يخاف من الله عز وجل، سواء كان مقيمًا على طاعة، أو كان فاعلًا لمعصية، يخاف من الله عز وجل. فإذا كان مقيمًا على طاعة عَظُمَ إخلاصه لله وثباته على الطاعة؛ لخوفه من الله. وإذا كان فاعلًا لمعصية تَرَكَ المعصية؛ لخوفه من الله؛ وذلك لتعظيم قلبه لله سبحانه وتعالى.

الصفة الثانية: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ وهذا دليل على صِدْق إيمانهم، فكلّما قرأوا القرآن أو سَمِعوا القرآن؛ زاد إيمانهم. وفي هذه الآية دليل على زيادة الإيمان، وما يزيد فإنه يَنقص، فهو دليل لأهل السنة والجماعة على أنّ الإيمان يزيد ويَنقص.

الصفة الثالثة: ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: يعتمدون بقلوبهم على الله، لا على غيره سبحانه وتعالى. فدلّ هذا على أنّ التوكل على الله عبادة مفروضة، فهي من فرائض الدين، ومن أصول الدين.

[وَقَوْلِهِ: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ} الآية]

وقول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ ومَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ المُؤْمِنِيْن} (الأنفال: ٦٣)، ومعنى هذه الآية: {يا أيها النبي} وهذا خطاب لمحمد صلى الله عليه وسلم {حَسْبُكَ اللهُ} أي: أنّ الله كافِيك، فما يكفيك إلا الله سبحانه وتعالى، أمّا الخَلق فلو اجتمعوا جميعًا على أن يَنفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، فلا يكفيك إلا الله سبحانه وتعالى.

وقول الله عز وجل: {ومَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ المُؤْمِنِيْن} للعلماء فيه رأيان:

المعنى الأوّل: العطف هنا على لفظ الجلالة؛ فالمعنى: حسْبك الله وحسْبك مَن اتَّبعك من المؤمنين. وهذا خطأ، يقينًا؛ فإنّ التوكل لا يكون إلا على الله، واعتماد القلب لا يكون إلا على الله؛ كما قال الله تعالى: {قُلْ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ} (الزمر: ٣٨)، وكما قال الله عز وجل: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ} (آل عمران: ١٧٣).

المعنى الثاني–وعليه أكثر العلماء–: أنّ العطف على الكاف، فالمعنى: حسْبك الله وحسْبُ مَن اتَّبعك من المؤمنين: الله، فشأن أهل الإيمان جميعًا: أنّ حسْبهم الله سبحانه وتعالى. وهذا ظاهر جدًّا؛ فبمجرَّد التأمُّل في الآية يتبيَّن لك هذا المعنى، وأنّ المعنى الأوّل خطأ؛ لأنّ الله عز وجل قال: {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ

حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} (الأنفال: ٦٤)، فالمتبوع مقدَّم على التابع، فكيف يكون التابع حسْبًا للمتبوع؟! لا شك أنه لا يمكن أن يكون.

فالمعنى: أنّ الله سبحانه حسْب المؤمنين جميعًا. وهذا يدل على أنه يجب أن يكون التوكل على الله؛ لأنه إذا كان الله حسْب المؤمنين؛ فإنه يجب على المؤمنين أن يَتوكلوا على الله سبحانه وتعالى.

[وَقَوْلِهِ: {وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ}]

الله أكبر! هذه جملة شرطية، فشَرَطَ الله عز وجل لكفاية اللهِ عبدَه: أن يَتوكل العبد عليه، فمَن أراد أن يكفيه الله فليتوكل على الله، ومفهوم الآية: أنّ مَن توكَّل على غير الله خَذَلَه الله سبحانه وتعالى، ووَكَلَه إلى ذلك الضعيف الذي لا يَجلب خيرًا ولا يَدفع ضرًا.

فهذه الآية دلّت على وجوب التوكل على الله عز وجل، وعلى حُرْمة التوكل على غير الله سبحانه وتعالى.

[وَعَنِ اِبْنِ عَبَّاسٍ –رضي الله عنهما– قَالَ: {حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ –عَلَيْهِ اَلسَّلَامُ– حِينَ أُلْقِيَ فِي اَلنَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم حِينَ قَالُوا لَهُ: {إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا } اَلْآيَةَ، رَوَاهُ اَلْبُخَارِيُّ]

هذا الأثر الصحيح عن ابن عباس –رضي الله عنهما– فيه خبران صحيحان:

الأوّل: عن ابن عباس –رضي الله عنهما– قال: ({حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} قالها إبراهيم عليه السلام– حين أُلقي في النار) وهذا أمر له حُكم الرفع.

فأخبر ابن عباس –رضي الله عنهما– بهذا الخبر الصادق؛ وهو: أنّ الخليل إبراهيم –عليه السلام– لمّا أُلقيَ في النار كانت آخر كلمة قالها: حسبنا الله ونعم الوكيل.

الأمر الثاني: قالها الخليل محمد صلى الله عليه وسلم حين قال لهم الناس: {إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ}. وذلك؛ أنه في غزوة أُحد لمّا وقع ما وقع، وأصاب المسلمين ما أصابهم، وذهب المشركون، وهم في الطريق إلى مكة نَدِموا؛ فقالوا: نرجع فنقضي على محمد وصحبه، لماذا تركناهم؟! فمَرّ بهم رجل ذاهب إلى المدينة، فقالوا له: أخبر محمدًا أنّا قادمون إليه، فجاء هذا الرجل، وكان النبي صلى الله عليه وسلم جريحًا، وكان بعض الصحابة جرحى، وفي غاية التعب، فقال لهم: إنّ الناس قد جمعوا لكم، زادوا قوة إلى قوتهم السابقة، وهم قادمون لاستئصالكم، وأنتم في هذه الحال من الضَّعف! فزادهم إيمانًا بوعد الله؛ وقالوا:

"حسبي الله ونعم والكيل"، فلمّا قالوها أَوقَع الله الرعب في قلوب المشركين فرجَعوا إلى مكة.

فهذه الجملة عظيمة المعنى عظيمة الأثر: حسبنا الله ونِعم الوكيل، {حَسْبُنَا اللَّهُ} أي: كافينا الله سبحانه وتعالى. وما دام أنّ الله كافينا فإنّا نتوكل عليه سبحانه وتعالى. {وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} ونِعم الوكيل الله سبحانه وتعالى، ومعنى الوكيل: المفوَّض في الأمر، فالله حسبنا فعليه نتوكل، ونِعم المفوَّض في الأمر، فنفوِّض أمرنا كله إليه سبحانه وتعالى.

وهكذا شأن المؤمن دائمًا يقول: حسبي الله ونِعم الوكيل، يقولها تصوُّرًا، ويعتقدها قلبًا، ويعمل بها في جميع أموره.

يقول العلماء: تصوُّر التوكل سهل، وتحقيقه صعب.

تصوُّر التوكل سهل؛ فكل مَن ينتسبون إلى الإسلام يتصوَّرون التوكل على الله، لكن إذا جئت إلى التحقيق تجد أنّ الذين يحقِّقون التوكل قِلَّة، ويظهر هذا عند المصائب والشدائد. إذا وقع حادث يتبيَّن لك مَن يتوكل على الله ومَن يتوكل على غير الله سبحانه وتعالى. إذا وقع حادث المؤمن ينادي: يا الله! ويتوكل على الله، وغيره يتوكل على المخلوق؛ فيقول مثلًا: يا سيدي فلان! الغوث الغوث.

في الكلام؛ كل مَن ينتسِب إلى الإسلام يقول: نتوكل على الله! لكن إذا جئت إلى التحقيق تجد أنّ الناس يَتمايَزون في هذا الأمر. فالمؤمن يقول: توكلت على الله، ويقول: حسبنا الله ونعم الوكيل، ويمتلئ قلبه يقينًا بهذا، وثقة بما عند الله، بحيث لا يبقى لمخلوق في القلب مكان بهذا الاعتبار. ويَعمل بهذا في أموره كلها.

[فِيهِ مَسَائِلُ: اَلْأُولَى: أَنَّ اَلتَّوَكُّلَ مِنَ اَلْفَرَائِضِ]

لقول الله عز وجل: {وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} (المائدة: ٢٣)، ولقول الله عز وجل: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ} الآية (الأنفال: ٢). والتوكل فرْض على المؤمن في صِغار الأمور وفي كبارها، وفي جميع الأحوال. أكثر المؤمنين يتصوَّرون التوكل في الرِّزق، ولكنّ التوكل فرْض في جميع الأمور.

التوكل على الله عند الإعراض عن الأعداء؛ كما قال الله عز وجل: {فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ} (النساء: ٨١).

والتوكل على الله عز وجل عند إعراض الناس عن العبد؛ قال الله عز وجل: {فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} (التوبة: ١٢٩).

والتوكل على الله عند مسالَمة الأعداء؛ قال تعالى: {وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ} (الأنفال: ٦١).

والتوكل على الله عند الخوف من المصائب؛ قال الله عز وجل: {قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} (التوبة: ٥١).

فالتوكل على الله فرْض مطلَقًا؛ في جميع الأمور، وجميع الأحوال.

[اَلثَّانِيَةُ: أَنَّهُ مِنْ شُرُوطِ اَلْإِيمَانِ]

فشرْط الإيمان: التوكل على الله. فمَن توكَّل على غير الله قد يَذهب إيمانه بالكلية، وقد يَنقص إيمانه. فإن كان اعتماد القلب على غير الله عز وجل مع اعتقاد أنه يجلب النفع ويدفع الضر: فهذا يُذهب الإيمان. وإن كان اعتماد القلب على المخلوق من جهة أنه سبب لا من جهة أنه يجلب الخير ويدفع الضر: فهذا شرك أصغر، يُنقص الإيمان.

[اَلثَّالِثَةُ: تَفْسِيرُ آيَةِ اَلْأَنْفَالِ]

{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} (الأنفال: ٢)

[اَلرَّابِعَةُ: تَفْسِيرُ اَلْآيَةِ فِي آخِرِهَا]

{يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} (الأنفال: ٦٤).

[اَلْخَامِسَةُ: تَفْسِيرُ آيَةِ اَلطَّلَاقِ]

﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ (الطلاق: ٣)، وكلُّها قد بيَّناها.

[اَلسَّادِسَةُ: عِظَمُ شَأْنِ هَذِهِ اَلْكَلِمَةِ، وَأَنَّهَا قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ -عَلَيْهِ اَلصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- وَمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم فِي اَلشَّدَائِدِ]

وهكذا شأن المؤمن؛ يقول: حسبنا الله ونعم الوكيل. وأمّا حال الشرك -والعياذ بالله- الذي يقع فيه حتى بعض الذين يَنتسبون إلى الإسلام فهذا ينافي الإيمان؛ وهو نداء الأولياء، ونداء الصالحين، والاعتماد عليهم في جلب النفع ودفع الضر؛ فهذا -والعياذ بالله- ليس من شأن الصالحين بل هو شأن المشركين، والعياذ بالله.

الدرس الثامن والأربعون: باب قَوْلِ اَللَّهِ تَعَالَى: {أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللَّهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ}

إنّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَن يهدي الله فلا مضلَّ له، ومَن يُضلل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء: ١]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: ٧١]

أمّا بعد:

فإنّ أحسن الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكلّ محدَثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النار.

ثم يا معاشر الفضلاء؛ نواصل شرحنا لكتاب التوحيد الذي هو حقُّ الله على العبيد، نتكلم عن أعظم الفرائض وأحبِّها إلى المسلم، وأعظم الحقوق على الإطلاق، عن حقِّ ربنا سبحانه وتعالى. ولا زلنا مع قسم أعمال القلوب التي لها تَعلُّق بالتوحيد.

[باب قَوْلِ اَللهِ تَعَالَى: {أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ}]

لمّا ذكر الشيخ –رحمه الله– باب الخوف، وتضمَّن الباب الكلام عن الرجاء، وأعقَبه باب التوكل الذي يُضعِف في القلب الخوف من غير الله سبحانه وتعالى، ويقوِّى تعلُّق القلب بالله عز وجل، وبما عند الله سبحانه وتعالى؛ أعقب ذلك بهذا الباب، وهذا الباب متعلق بآفتين قلبيتَين متقابلتَين، هما آفتان تقطعان صاحبهما عن الخير:

أمّا إحدى الآفتَين: فسببها الغلو في الرجاء، يغلو العبد في الرجاء وفي النظر إلى سعة رحمة الله عز وجل حتى يقع في هذه الآفة؛ ألا وهي: الأمن من مكر الله. فيَلحَظ المَخذول سعة رحمة الله، وعِظَم مغفرة الله عز وجل؛ فلا يقوده ذلك إلى الشكر وحسن الذِّكر، وإنما يقوده إلى التساهل في الواجبات، والجرأة على المحرَّمات، فيأمن مكر الله؛ فلا يَفعل الواجب متَّكِلًا ومعتمِدًا على سعة رحمة الله، وعلى أنّ الله غفور رحيم.

وامّا الآفة الثانية: فسببها التنطُّع في الخوف حتى يقنط من رَوح الله، وييأس من رَوح الله عز وجل، ويَقعد عن الخيرات؛ ليأسه من رحمة الله، فإذا يئس من رحمة الله لا يَردُّه ذلك عن ذنب، كذلك الرجل الذي سأل راهبًا وقد قتل تسعة وتسعين نفسًا، هل له من توبة؟ فقال: لا أرى لك توبة، فيئس من رحمة الله، فماذا فعل؟ قَتَلَ الراهب. ولا يفعل الواجبات لأنه يئس من رحمة الله عز وجل.

إذن؛ هاتان الآفتان تجتمعان في أمر وهو: أنّ مآلهما واحد؛ ألا وهو: الانقطاع عن الخيرات؛ بالجرأة على المحرَّمات، وترك الواجبات.

ويختلفان في سببهما: أمّا الأمن من مكر الله فسببه التوسُّع في الرجاء. وأمّا اليأس من رَوح الله فسببه التنطع في الخوف.

والأمن من مكر الله ينقسم من حيث حكمه إلى قسمين:

القسم الأوّل: أَمْنٌ من مكر الله، هو كُفْر يُخرِج العبد من الإسلام، ويَنقله عن ملة الإسلام بالكلية، وذلك: إذا انعدم الخوف من القلب بالكلية؛ لا يوجَد خوف في القلب، فهذا كُفْر بالله؛ لأنه تكذيب لصريح القرآن، وصريح السنة مما لا يَحتمل تأويلًا؛ ولأنه ذَمٌّ لله عز وجل بأعظم الذَّم.

القسم الثاني: هو كبيرة من كبائر الذنوب، يعني لا يَنقل من ملة الإسلام ولا يُخرج من ملة الإسلام ولكنه كبيرة من كبائر الذنوب، وذلك: إذا وُجِدَ أصل

الخوف، فأصل الخوف من الله موجود في القلب؛ لكن يتوسَّع هذا المخذول في الرجاء حتى يَترك الواجبات ويَفعل المحرَّمات، فهذه كبيرة من كبائر الذنوب.

وأمّا اليأس من رَوح الله والقنوط من رحمة الله فيُقسَّم من حيث حقيقته وذاته إلى قسمين:

القسم الأوّل: قنوط من رحمة الله في الأمور الأخروية. يعني: يقنط من رحمة الله فيما يتعلق بالآخرة؛ كأن يقنط من رحمة الله، وأن يقنط من مغفرة الله، فهذا قنوط من رحمة الله عز وجل فيما يتعلق بأمور الآخرة. وهذا القسم يتنوَّع إلى نوعين:

النوع الأوّل: قنوط من رحمة الله فيما يتعلق بأمور الآخرة يَتعلَّق بالإنسان نفسه.

النوع الثاني: قنوط من رحمة الله فيما يتعلق بالآخرة يَتعلَّق بغير الإنسان نفسه، يتعلق بإنسان آخر.

أمّا النوع الاوّل؛ فمعناه: أنّ الإنسان يقنط من رحمة الله لنفسه، ويقنط من مغفرة الله لنفسه، وهو يَتفرَّع إلى فرعين:

الفرع الأوّل: أن يقنط من رحمة الله ومن قَبول الله عز وجل للتوبة، سواء عمَّم أو خصَّص. عمَّم؛ كأن يقول: أنا مذنب، والله لا يغفر للمذنبين، الله لا يقبل

التوبة من المذنب! أو خصَّص؛ فقال: أنا لا يقبل الله توبتي، ولا يغفر الله لي! فهنا قَنَطَ من رحمة الله، ومن قبول الله للتوبة.

الفرع الثاني: أن يقنط من وقوع التوبة منه، وإن قال: إنّ الله يغفر الذنب ويقبل توبة التائب، لكن أنا لا تقع مني التوبة، وأنا لا أصلح أن أتوب، أنا لن أتوب! فقَنَطَ من جهة وقوع التوبة منه، مع اعتقاده أن من تاب يقبل الله توبته، ويغفر الله له، لكن يقول: أنا ما أصلح، أنا لا أتوب، أنا لن أتوب! فهذا قَنَطَ من رحمة الله من هذه الجهة.

فمن الناس مَن يقنط من رحمة الله من الجهة الأولى، ومن الناس مَن يقنط من رحمة الله من الجهة الثانية. وحيث ما ظفر الشيطان بمطلوبه فهو المقصود عنده.

وأمّا القنوط من رحمة الله لغير الإنسان؛ فهذا قد يقع فيه بعض الناس وهم لا يشعرون، وهو: اعتقاد أنّ الله لا يغفر لفلان مع إسلامه، أو لا يتوب الله على فلان، فيقول: الله عز وجل لا يغفر لفلان، ذاك المسرِف على نفسه بالذنوب لن يغفر الله ذنبه، ذاك الذي وقعت له ووقت له لكنه ما زال على ذنوبه، لا يرحمه الله، لا يغفر الله له! أو يقول لأخيه المسلم المذنب: أنت لن تدخل الجنة! فهذا قنوط من رحمة الله لغير الإنسان. لم يقنط من رحمة الله من جهة نفسه، لكن

قَنَطَ من جهة رحمة الله لغيره من المسلمين. فهذا أيضًا داخلٌ في القنوط من رحمة الله تعالى.

القسم الثاني: القنوط من رحمة الله فيما يتعلَّق بالدنيا؛ أي: فيما يتعلق بالأمور التي تقع في الدنيا؛ كالقنوط من فرج الله، يكون الإنسان في كربة ويَقنط من فرج الله، مع أنّ فرج الله قريب، أقرب إليه من النَّفَس، ولكن لله حِكمة، يقع الفرج متى شاء الله سبحانه وتعالى، لكنه يَقنط من فرج الله، وقد يقوده ذلك –والعياذ بالله– إلى أن يَقتل نفسه، فهذا قنوط أيضًا من رحمة الله، ويأس من رَوح الله عز وجل.

وابتدأ الشيخ رحم هالله بهذه الآية التي في أول الباب: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ وهذه الآية متعلِّقة بالآفة الأولى؛ وهي: الأمن من مكر الله، وهذه الآية في أهل القرى، الذين أنعم الله عليهم بالنِّعم، فلم يشكروها، ولم يَذكروا الله بها، ولم يوحِّدوا الله عز وجل، بل ظنوا أنهم قد أُعطوا هذه النِّعم لقوتهم، أو لذكائهم، أو لقدرتهم، أو لعِظَم مكانتهم عند الله، فقال الله فيهم: {أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ} (الأعراف: ٩٧)، فهم لعِظَم أَمْنِهم من مكر الله ينامون ملء عيونهم مع شركهم بالله سبحانه وتعالى؛ فكأنهم أمِنوا أن يأتيهم عذاب الله أمنًا مطلقًا، أن يأتيهم عذاب الله بالليل وهم نائمون، ولذلك ناموا مع طغيانهم، ولو كانوا يخافون عذاب الله لَمَا ناموا

مع طغيانهم، فهم أمِنوا مكر الله أمنًا عظيمًا مع أنهم يَعلمون أنّ عذاب الله قد أصاب بعض القرى بياتًا وهم نائمون، كما حصل لقوم لوط.

ثم قال الله: ﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ أي: أنهم لعِظَم أمنِهم من مكر الله يلعبون في نهارهم، ويلهون في دنياهم، فكأنهم أمِنوا أن يأتيهم عذاب الله وانتقامه نهارًا؛ كما وقع لبعض القرى قبلهم.

ثم جاء الحُكم العامّ: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ﴾ أي: أمِنوا مكر الله باستدراجهم بالنِّعم مع عدم شكرها، وعدم توحيدهم له عز وجل. {فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ} الذين هم غاية الخسارة. ولا يأمن أحد مكر الله إلا خسر، إمّا أن يَخسر دينه بالكلية؛ وذلك: إذا ذهب الخوف من قلبه بالكلية، وإمّا أن يخسر بعض دينه؛ وذلك: إذا بقي معه أصل الخوف. ويَخسر أيضًا في دنياه، فالخسران ملازِم لمَن أمِن مكر الله. فهم في غاية الخسارة.

فإن قال القائل: قد عرفنا أنواع الأمن من مكر الله، فما معنى المكر؟

المكر: هو الإيقاع بالخَصم بطريقة خفيَّة. وإن شئت قُل: هو التوصُّل إلى الإيقاع بالخَصم وهو لا يَشعر.

والمكر من جهة أصله:

- قد يكون مذمومًا قبيحًا.

- وقد يكون ممدوحًا محمودًا.

فالمكر المذموم: هو المكر بمَن لا يَستحق أن يُمكَر به؛ كالمكر بالغافل من غير تنبيهه، يأتي مثلًا مجرم من الناس فيَمكر بإنسان غافل في غفلته حتى يوقعه في أمر يكرهه، وكمكر الكفار بالمؤمنين في كل زمان ومكان، فإنه مكر مذموم؛ لأنه مكرُ ظالمٍ بمظلوم، ومكرُ باغٍ بمَن لا يستحق.

إذن؛ متى يكون المكر مذمومًا؟ إذا كان مكرًا بمَن لا يستحق، فهو من باب الظلم ومن باب البغي.

وأمّا المكر الممدوح والمحمود: فهو المكر بمَن يستحق، كمَن أنعم الله عز وجل عليه بالنِّعم، ودلَّه على وجوب شكرها، وعلَّمه كيف يشكرها، فلم يَشكُر، بل كَفَرَ بنِعم الله عز وجل، فيَمكر الله به بزيادة النِّعم عليه؛ حتى يستدرجه، حتى إذا أَخَذه أَخْذ عزيز مقتدر، فلم يُفلِته. فهذا مكْر ممدوح محمود؛ لأنّ هذا المكر قد يكون في مقابلة مكر أهل الباطل؛ كمكْر الكفار بالمسلمين، فالكفار يمكرون بالمسلمين والله يَمكر بالكفار، فهذا مكر محمود، فالله ناصر عباده، ويمكر بمَن يمكر بعباده الموحِّدين، كما قال الله عز وجل: {وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ} (الأنفال: ٣٠)، يمكر أهل الشرك بالمؤمنين الموحِّدين، ويمكر الله بالمشركين، وكما قال الله عز وجل: {وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} (النمل: ٥٠).

وقد يكون مكر الله بمَن يَستحق أن يُمكَر به من جهة أنّ الله قد أنعَم عليه وبيَّن له وذكَّره بمذكِّرات بالشكر، فلم يشكر، بل قد ألحَّ في طغيانه، وكفر بنِعم الله عز وجل. وهذا المكر يكون ممدوحًا محمودًا؛ لأنه عدل وحِكمة، فهذا المكر لا يكون إلا من عليم حكيم، ويكون عن قدرة، فهو مدح، والله عز وجل لا يُعجِزه شيء في الأرض ولا في السماء.

فهذه الآية دلَّت على أن لله مكرًا.

والمكر صفة فعلية، لا تضاف إلى الله عز وجل بالإطلاق، ولا تُنفى عن الله عز وجل بإطلاق؛ لأنّ المكر منه ما هو ممدوح، ومنه ما هو مذموم، فتكون هذه الصفة مقيَّدة، فتضاف إلى الله حيث دلّ الكلام على أنّ المكر ممدوح، وتُنفى عن الله حيث دلّ الكلام على أنّ المكر مذموم. ولا يُشتَق من هذه الصفة اسم، فلا يُسمَّى الله بالماكر؛ لأنّ هذا الفعل منه ما هو محمود ومنه ما هو مذموم.

هذه الآية العظيمة التي بدأ بها الشيخ دلَّت على أمور:

الأمر الأوّل: أنّ لله عز وجل مكر، وهذا المكر في غاية العدل، وفي غاية الحكمة، وفي غاية القوة، وفي غاية القدرة.

الأمر الثاني: أنّ الأمن من مكر الله حرام؛ لأنّ الله عز وجل قال: {أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ} وهذا استفهام استنكاري، وهذا يدلّ على الحُرمة، وأيضًا لأنّ الله عز وجل قال: {فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ} وهذا أيضًا يدلّ على حُرمة

الأمن من مكر الله، بل يدلّ على أنّ الأمن من مكر الله كبيرة من كبائر الذنوب إن لم يَصل إلى الكفر على ما بيَّناه؛ لأنّ الله غلَّظ هنا فيه فقال: {فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ}.

الأمر الثالث: دلّت هذه الآية بمفهومها على أنّ المؤمنين المفلِحين لا يأمنون مكر الله؛ لأنّ الله حَصَرَ الأمن من مكره في الخاسرين، فدلّ ذلك على أنّ المفلِحين المؤمنين لا يأمنون مكر الله سبحانه وتعالى.

الأمر الرابع: وفي هذه الآية مَلمَح عظيم، ينبغي أن يَلمحه المؤمن؛ وهو: أنّ المؤمن لا يأمن مكر الله، بل يكون خائفًا من الله، وفي نفس الوقت لا يخاف مكر الماكرين من الكافرين وأهل الباطل، لا يخاف منهم خوفًا يقوده إلى القعود عن الحق، أو التخاذِل عن الحق، وإنما يَعلم ويوقِن أنّ أهل الباطل يمكرون بأهل الحق، وأنّ الكفار يمكرون بأهل الإسلام، ويَحذَر من مكرهم حَذَرَ الزكيّ الذكي، ويَعلم أنّ المكر كله لله سبحانه وتعالى؛ كما قال الله عز وجل: (وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ) (الرعد: ٤٢)، وهذا وعيد للكفار الذين يمكرون بالمؤمنين.

إذن؛ من هذه الآية تَعلَم يا مؤمن: أنّ الكفار وإن مكروا بالمؤمنين إلا أنّ مكرهم في خسار، فلا يخاف المؤمنون مكر الكفار ومكر أهل الباطل خوفًا يُقعِده عن الحق. يأتي بعض الناس –مثلًا– إلى طالب علم يتكلم عن الخوارج،

ويُحذِّر منهم، ويبيِّن صفاتهم، ويَفضحهم، ويبيِّن خوارج العصر، فيقول له: يا أخي! هؤلاء أهل مكر، يمكرون بك، اترك هذا الأمر، لا تتكلم فيهم، ربما يقتلونك، فإنهم أهل غدر، أهل مكر! المؤمن يَعلم أنهم أهل مكر، ويَعلم أنّ من أعظم صفاتهم أنهم أهل غدر؛ لكنه يوقِن أنّ المكر لله جميعًا، وأنّ الله إن شاء حَفِظَه، وإن شاء إكرامه قدَّمه. والمكر يعود على أهل الباطل.

بعض الناس يأتي على المؤمنين فيقول: الكفار أهل قوة، وأهل مكر، وأهل كذا، فينبغي أن نترك شيئًا من ديننا من أجل الكفار حتى لا يغضب علينا الكفار، لكن لا بأس نذهب نصلي ما يغضب الكفار! والله الكفار يغضبون من الصلاة، لكن المخذِّلون هكذا يقولون: نترك الأمور التي تغضب الكفار. المؤمن يَعلم أنّ الكفار يمكرون، ولكنه يَعلم أنهم يَخسرون، ويعلم أنّ المكر لله جميعًا.

[وَقَوْلِهِ: {وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّآلُّونَ}]

هذه الآية فيها الكلام عن الآفة الثانية؛ ألا وهي: القنوط من رحمة الله.

وهذه الآية من كلام إبراهيم –عليه السلام– للملائكة الذين جاؤوه في صورة بشر، فبشروه بغلام عليم، وقد كان كبيرًا في السن، وكانت امرأته عجوزًا، فكانت الأسباب غير قائمة لأن يَلِد، رجلٌ طاعنٌ في السن، وامرأته عجوز! وهؤلاء على صورة بشر، بشروه بغلام عليم، فقال لهم: أبشرتموني بهذا الغلام وأنا قد مسني الكبر فبما تبشرون؟! تبشِّرون شيخًا هَرِمًا بأنه يُولَد له غلام! فقالوا: ﴿بَشَّرْنَاكَ

بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ﴾، فَفَهِمَ هنا أنها بشارة من ربه، فقال –عليه السلام–: {وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ}، فلا يَقنط من رحمة الله مهتدي، وإنما يَقنط من رحمة ربه: الضَّال والعياذ بالله: الضَّال عن الهداية إلى الواجب عليه؛ وهو: أن لا يقنط من رحمة الله عز وجل، والضال عن عِظَمِ رحمة الله، وقُرب فرج الله سبحانه وتعالى. فهو ضال عما وَجَبَ عليه؛ وهو: عدم القنوط، وهو ضال عن سعة رحمة الله. ولو أدرك العبد سعة رحمة الله لَمَا قَنَطَ من رحمة الله أبدًا.

وكما ذكرنا سابقًا؛ أنّ القنوط من رحمة الله سببه: التنطُّع في الخوف.

وأيضًا من أسبابه: ضعف الإيمان بأسماء الله وصفاته سبحانه وتعالى؛ لا سيما ما يتعلق بالقُدرة والرحمة، فإنّ القنوط من فرج الله في أمور الدنيا من أسبابه ضعف الإيمان بأنّ الله على كل شيء قدير، والقنوط من رحمة الله في الآخرة سببه ضعف الإيمان بسعة رحمة الله سبحانه وتعالى.

وقد دلَّت هذه الآية الشريفة على حُرمة القنوط من رحمة الله عز وجل، وعلى وجوب رجاء ما عند الله؛ رجاء مَشُوبًا بخوف.

ومهما كان حال العبد مع إسلامه فإنه لا يجوز له أن يقنط من رحمة الله وأن ييأس من روح الله، لا من جهة تَخلُّصه من الذنب، ولا من جهة تَخلُّصه من أثر الذنب، بل المؤمن يرجو الله أن يَتخلَّص من ذنبه ويعمل، ويرجو الله أن

يَتخلَّص من أثر ذنبه، ويعمل، قال اله عز وجل: {قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} (الزمر: ٥٣)، {قُلْ يَاعِبَادِيَ} انظر كيف هذا الرجاء! ما قال الله: قل يا مسرفين يا مذنبين، بل قال: {قُلْ يَاعِبَادِيَ}، فالعبد وإن أسرف على نفسه بالذنب فهو عبدٌ لله، {لَا تَقْنَطُوا} مع ذنوبكم {مِنْ رَحْمَةِ اللهِ}، فكيف بمَن خفَّت ذنوبه وقلَّت ذنوبه؟! {إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا} أي: لمَن تاب، فلا تقنط يا عبد الله من تركك للذنب؛ لأنّ هناك من عباد الله مَن يتوب، وأنت عبدٌ لله، ولا تقنط من زوال أثر الذنب؛ فإنّ الله يغفر الذنوب جميعًا، هَبْ أنك أسرفت على نفسك بكل ذنب، ثم وقفت لحظة فندمت على ما مضى، وأقلعت عن كل ذنب، وعزمت على ألَّا تَرجع إلى الذنوب، وإن كان هناك حق لآدمي رَددته أو استحللت منه: تُهدَم كل هذه الذنوب، كأنك ما فعلت يومًا ذنبًا قط، بل يُبدِّل الله سيئاتك حسنات؛ في الدنيا: بأن يعينك على الطاعات وقت ما كنت تفعل المعاصي، وفي الآخرة: بأن يأمر الله –عز وجل– ملائكته بأن يجعلوا مكان كل ذنب حسنة، فكيف تقنط من رحمة الله؟!

هذه السَّعة العظيمة في هذه الآية الكريمة التي سماها السلف: "أرجى آية في القرآن"، فالمؤمن لا ييأس من رحمة الله، مع العمل.

رجاء المؤمن فيه صفتان:

الأولى: أنه مشوب بخوف. وهذا الخوف هو السُّور الحاجِز من الوقوع في اليأس من رحمة الله والأمن من مكر الله.

الثانية: أنه مع عمل. لا يأتي ويقول: الله غفور رحيم؛ ويترك الواجبات! بل يقول: الله غفور رحيم؛ ويفعل الواجبات، ما يقول: يا أخي رحمة الله وسعت كل شيء، وأنا شيء، ويستمر في المعاصي! لا، بل يعمل على ترك المعاصي، ويرجو ما عند الله.

[وَعَنِ اِبْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ رَسُولَ اَللهِ صلى الله عليه سُئِلَ عَنِ اَلْكَبَائِرِ؟ فَقَالَ: «اَلشِّرْكُ بِاَللهِ، وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اَللهِ، وَالْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اَللهُ»]

هذا الحديث عن ابن عباس –رضي الله عنهما– مرفوعًا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، رواه: البزار، والطبراني، وغيرهما، وتكلم بعض أهل العلم في إسناده وقالوا: في إسناده نظر، لكن حَكَمَ عليه جَمْع من أهل العلم بأنه حسن؛ كالعيني، وبيَّن الإمام الألباني –رحمه الله– أنه حسن، وأنّ له شواهد تقويه، وذكر هذا الحديث في السلسة الصحيحة.

كما أنه ورد موقوفًا على ابن عباس –رضي الله عنهما– في كتب التفسير، وفي بعض كتب الأثار؛ ككتاب شعب الإيمان للبيهقي، والموقوف على ابن عباس –رضي الله عنهما– صحيح، والمرفوع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حسن.

قال: (أَنَّ رَسُولَ اَللهِ صلى الله عليه سُئِلَ عَنِ اَلْكَبَائِرِ؟) الكبيرة: ما نهى الله – عز وجل– عنه في كتابه، أو على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم نهيًا جازمًا؛ مع التغليظ. أي: ما نهى الله عز وجل عنه نهيًا جازمًا: هذا هو المحرم، فإذا كان مع النهي تغليظ: فهذه هي الكبيرة.

فإذا خُصَّ الذنب بتغليظ فإنه كبيرة؛ كوَصْف فاعله بأنه خاسر، ووَصْف فاعله بأنه ليس منّا، وكلعن فاعله، وكالتوعُّد عليه بخصوص بالنار أو بالخزي والندامة يوم القيامة، فهذه هي الكبائر.

والكبائر أغلظ الذنوب، ولذلك لا تُغفَر إلا بتوبة، ومغفرتها بالتوبة شاملة لكل الكبائر حتى الشرك، فمَن تاب من الشرك غفر الله له. أو تُغفَر الكبائر: برحمة الله وسعة عفوه إن لم تكن شركًا أكبر، ويدخل في عفو الله وسعة رحمته: رحمة الله بشفاعة الشافعين وغير ذلك.

قال: «سُئِلَ عَنِ اَلْكَبَائِرِ؟ فقال: اَلشِّرْكُ بِاَللهِ»، والشرك بالله أكبر الكبائر، وقد تكلمنا عنه مرارًا. «وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اَللهِ» وسيأتي الكلام عن رَوح الله ورحمته في أثر ابن مسعود. «وَالْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اَللهُ».

وهذا الحديث فائدته: أنّ اليأس من روح الله، والأمن من مكر الله من كبائر الذنوب.

[وَعَنِ اِبْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: أَكْبَرُ اَلْكَبَائِرِ: اَلْإِشْرَاكُ بِاَللهِ وَالْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اَللهِ، وَالْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اَللهِ، وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اَللهِ. رَوَاهُ عَبْدُ اَلرَّزَّاقِ]

هذا الأثر عن ابن مسعود –رضي الله عنه– رواه مَعمَر في "الجامع"، وعبد الرزاق، وابن جرير في التفسير، وإسناده إلى ابن مسعود صحيح، يقينًا؛ كما قال ابن كثير، فهو مجزوم بصحته إلى ابن مسعود رضي الله عنه.

قال رضي الله عنه: (أَكْبَرُ اَلْكَبَائِرِ: اَلْإِشْرَاكُ بِاَللهِ، وَالْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اَللهِ، وَالْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اَللهِ)، القنوط من رحمة الله من كبائر الذنوب، وقد جاء في الحديث: «أنّ القَنوط من رحمة الله لا يُسأل عنه؛ لعِظَم ذنبه» والحديث رواه أحمد، وابن حبان، وصحَّحه الألباني. وقد تقدم الكلام عن معنى القُنوط من رحمة الله.

قال: (وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اَللهِ)، واليأس من رَوح الله من أكبر الكبائر؛ كما قال يعقوب لبنيه: {إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ} (يوسف: ٨٧)، وقد بيَّنا أنّ اليأس من روح الله قد يكون كفرًا، وقد يكون كبيرة من الكبائر.

هنا تَلحَظون شيئًا في كلام ابن مسعود أنه قال: القنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله، فذكرهما معًا!

هنا قال بعض أهل العلم –بل كثير من أهل العلم–: هما مترادفان، لا فرق بينهما، فيكون ذِكْر الثاني من باب التأكيد بالتنويع، يعني: من باب تأكيد الأوَّل

بتنويع العبارة، كما نَذْكُر في الشرح أحيانًا: نشرح الكلمة بجملة، ثم نذكر جملة ثانية نشرح بها العبارة؛ من باب تنويع المعنى في العبارة؛ وإلا فالمعنى واحد.

وقال بعض أهل العلم: بل بينهما فرق، والفرق: أنّ القنوط من رحمة الله هو أشد اليأس من رَوح الله سبحانه وتعالى؛ لماذا؟ قالوا: لأنّ القنوط من رَوح الله هو اليأس من رَوح الله مع الجزم والعزم بعدم وقوع رحمة الله سبحانه وتعالى. فالقنوط من رحمة الله هو أشرّ اليأس من روح الله. وعلى هذا: يكون هذا في كلام ابن مسعود –رضي الله عنه– من باب عطف العام على الخاص؛ لأنه قال: والقنوط من رحمة الله؛ وهذا خاص، ثم قال: واليأس من روح الله، فعَطَفَ العام على الخاص.

وقال بعض أهل العلم: بينهما فرق، والفرق: أنّ اليأس من رَوح الله إذا كان في القلب ولم يُثمِر عملًا. وأنّ القنوط من رحمة الله: إذا كان في القلب وأثمر عملًا، ظهر على الجوارح. إذن: القنوط من رحمة الله أشد من اليأس من روح الله؛ لأنّ اليأس من روح الله في القلب فقط، أمّا القنوط من رحمة الله فهو في القلب ويُثمِر عملًا، ويَظهر العمل على الجوارح.

وقال بعض أهل العلم: عكس الأوّل، قالوا: إنّ اليأس أشرّ من القنوط؛ لأنّ الله قال في اليأس: {إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ}، وقال في

القنوط: {وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ} (الحجر: ٥٥)، قالوا: والكفر أشد من الضَّلال. لكن هذا القول محل نظر.

وقال بعض أهل العلم: القنوط أعمّ من اليأس؛ لأنّ القنوط عُلِّق برحمة الله: (القنوط من رحمة الله)، ورحمة الله تشمل حصول النِّعم واندفاع النِّقم، فحصول النِّعم برحمة الله، واندفاع النِّقم من رحمة الله، أمّا اليأس فعُلِّق بِرَوح الله، ورَوح الله في الغالب يُطلَق على اندفاع النِّقم. إذن: الرحمة أوسع من الرَّوح؛ لأنّ الرحمة متعلِّقة بحصول النِّعم واندفاع النِّقم، أمّا الرَّوح ففي الغالب استعمالًا أنه يَتعلَّق باندفاع النِّقم.

هذا ما ذكره أهل العلم في الفرق بين القنوط من رحمة الله واليأس من رَوح الله، والأصل الترادف. ولو قلنا قاعدة أهل العلم في الإيمان والإسلام: إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا؛ لكان صوابًا. فإذا قلنا: القنوط من رحمة الله، ثم سكتنا، وقلنا مرة أخرى: اليأس من روح الله، فهما بمعنى واحد. وإذا ذكرناهما معًا –كما ذكر ابن مسعود رضي الله عنهما– يكون للقنوط معنىً، ولليأس معنى آخر، على ما ذكرناه من هذه الفروق التي ذكرها أهل العلم.

[فِيهِ مَسَائِلُ: اَلْأُولَى: تَفْسِيرُ آيَةِ اَلْأَعْرَافِ]

{أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ} (الأعراف: ٩٩).

وقد فسَّرناها.

[اَلثَّانِيَةُ: تَفْسِيرُ آيَةِ اَلْحِجْرِ]

{قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ} (الحجر: ٥٦). وقد فسّرناها.

[اَلثَّالِثَةُ: شِدَّةُ اَلْوَعِيدِ فِيمَنْ أَمِنَ مَكْرَ اَللهِ]

﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾فهو خاسر، وهذا وعيد بخسرانه، وأنّ الأمن من مكر الله من الكبائر، وأهل الكبائر متوعَّدون بالنار.

[اَلرَّابِعَةُ: شِدَّةُ اَلْوَعِيدِ فِي اَلْقُنُوطِ]

أنه ضال، وأنّ القنوط من رحمة الله من الكبائر، وأهل الكبائر متوعَّدون بالنار.

وبهذا نكون ختمنا هذا الباب العظيم الذي تتعلق به منافع كثيرة.

الدرس التاسع والأربعون: بَابٌ: مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ الصَّبْرُ عَلَى أَقْدَارِ اللَّهِ

إنّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَن يهدي الله فلا مضلَّ له، ومَن يُضلل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء: ١]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: ٧١]

أمّا بعد:

فإنّ أحسن الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكلّ محدَثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النار.

ثم يا معاشر الفضلاء؛ نواصل شرحنا لكتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد، ولا تطيب الحياة إلا به، ولا يَحسُن المآل إلا به، فإنه حق ربنا سبحانه وتعالى.

وقبل أن نشرع في الباب الذي سنشرحه اليوم؛ أشير إلى أنّ بعض الأخوة ذكروا لي أني ذكرتُ تقسيم القنوط من رحمة الله –عز وجل– من جهة الحقيقة والذات، ولم أذكر تقسيم القنوط من رحمة الله من جهة الحُكم، وكنت أحسِب أني قد ذكرتُ ذلك، ولكني على يقين أنّ الكلام عن هذا جاء في آخر الدرس في الإجابة على الأسئلة، لكن مادام أنّ الشرح هو الأصل فأشير إلى هذا التقسيم.

فأقول: إنّ القنوط من رحمة الله ينقسم من جهة حكمه إلى قسمين:

القسم الأوّل: هو كفر ناقِل عن ملة الإسلام، ومُخرِج عن دين الإسلام؛ وذلك: إذا انعدم الرجاء بالكلية، فلم يكن عند العبد رجاء أبدًا، فهذا كفر يناقض الإسلام ولا يجامعه؛ لأنّ فيه تكذيبًا لصريح الكتاب والسنة.

القسم الثاني: أنه من كبائر الذنوب؛ وذلك إذا وُجِد أصل الرجاء لكن حصل القنوط؛ فإنه إذ ذاك يكون من كبائر الذنوب.

ثم ننتقل إلى باب عظيم يحتاجه المسلم في كل لحظة من حياته، عَقَدَه الشيخ في هذا الكتاب العظيم؛ ألا وهو: باب الصبر على أقدار الله.

[بَابٌ: مِنَ الْإِيمَانِ بِاللهِ الصَّبْرُ عَلَى أَقْدَارِ اللهِ]

لازلنا مع قسم الأعمال القلبية، والعبادات القلبية التي لها تَعلُّق بالتوحيد، وتتعلق بها مخالَفات تنافي التوحيد أو تنافي كمال التوحيد. والشيخ في هذا الباب يتكلم عن عبادة الصبر التي لها شأن عظيم، وذكر أهل العلم أنها نصف الإيمان، وأنها من الإيمان بمنزلة الرُّوح من الجسد، والصبر ضياء للمؤمن؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه مسلم: «والصبر ضياء». والصبر أوسع ما يُعطاه المؤمن من العطاء؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ما أعطي أحد خيرًا أوسع من الصبر»، فأوسع الخيرات التي يُعطاها المؤمن: الصبر. والصبر أجره لا منتهى له إلا الجنة، قال الله عز وجل: {إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ} (الزمر: ١٠)، فلا منتهى لأجر الصبر إلا جنة رب العالمين التي يرزقها الله عباده بما صبروا. والصبر فضائله عظيمة وواسعة.

والصبر من الإيمان، ولا شك، وهو ملازِم للإيمان؛ فلا يخلو إيمان عن صبر؛ لأنّ الإنسان في إيمانه ما بين طاعة واجتناب معصية وصبر على نزول الأقدار، وفي كلِّ هذا هو محتاج إلى الصبر، فلا يخلو إيمان العبد من الحاجة إلى الصبر.

ومناسبة الباب للتوحيد: أنّ الصبر من أعظم معالم التوحيد، ومن أعظم شعائر الإيمان، وخصال الإيمان، وأنه تتعلق به مخالَفات قد تقود العبد إلى الكفر والعياذ بالله.

والصبر لغة: هو الحَبْس، فكل حبس يسمى صبراً.

والصبر شرعًا: هو حَبْس النفس على مراد الله سبحانه وتعالى. أن يحبس العبد نفسَه على مراد مولاه سبحانه وتعالى.

وقسَّم العلماء الصبر إلى ثلاثة أقسام:

الأوّل: صبرٌ على المأمور.

الثاني: وصبر عن المحظور.

الثالث: وصبر على المقدور.

القسم الأوّل: صبر على المأمور. بأن يحبس العبد نفسَه على طاعة الله عز وجل، فلا يَنِدُّ عن الطاعة من أجل لذة دنيوية، ولا شهوة جسمانية، ولا رغبة إنسانية، وإنما يَحبس نفسه على طاعة الله. فإذا أراد أن ينام عن الصلاة حبس نفسه عن هذه الإرادة، وحبس نفسه على طاعة الله، وقام وتوضأ، وذهب إلى المسجد، وصلى الفجر مع المسلمين، وهكذا في كل طاعة. وهذا القسم من الصبر –الصبر على طاعة الله، الصبر على المأمور– أعظم درجات الصبر، أو أعظم مراتب الصبر، أو أعظم أقسام الصبر.

القسم الثاني: الصبر عن المحظور وعن معصية الله. بحيث يحبس العبد نفسه عن معصية الله، وكلّما قام الداعي إلى المعصية كلّما كانت منزلة الصبر أعظم. والعلماء يقولون: إنّ الصبر على المعاصي مرتبتَين:

المرتبة الأولى: أن يصبر عن المعصية خوفًا من عذاب الله. فإذا دعته نفسه إلى المعصية، وتزخرفت له المعصية، وازدلفت إليه المعصية؛ ذكَّر نفسه بعذاب الله عز وجل؛ فصبر خوفًا من عذاب الله.

المرتبة الثانية –وهي أعلى وأكمل من المرتبة الأولى–: وهي أن يصبر عن معصية الله حياء من الله، فيحبس نفسه عن معاصي الله حياء من الله، يستحي من الله أن يراه وهو على المعصية، يستحي من الله أن يَسمع منه القول الذي هو معصية، يستحي من الله أن يَسمع منه كلامه في المعصية، فهو لعظيم إيمانه بأنّ الله –عز وجل– يَعلم حاله كله، ويَسمع صوته كله، ويطلع على ما في قلبه، ويراه حيث ما كان، يستحي من الله أن يكون على معصية. وهذه مرتبة أعلى من التي قبلها.

القسم الثالث: صبر على أقدار الله عز وجل. أن يصبر العبد على أقدار الله المؤلمة، فإنّ العبد في الدنيا تنزل به المصائب، وينزل به ما يؤلِمه؛ فيحتاج إلى الصبر.

والصبر بأقسامه الثلاث: واجب بإجماع الأمّة، أجمعت أمّة الإسلام على أنّ الصبر على الطاعة، والصبر عن المعصية، والصبر على أقدار الله؛ واجب وفرض متعيِّن على المكلَّف.

والعبد المؤمن يفعل الأسباب، ويتوكل على الله، ويعلِّق قلبه بالله، ويرجو الخير من الله قبل وقوع الأمر، فإذا وقع الأمر عَلِمَ أنه من الله، وأنه بإذن الله، وأنه لا يجري شيء في كون الله إلا بمشيئة الله القدرية سبحانه وتعالى، فيصبر، ويُسلِّم، ويَمنع نفسَه من الجزع؛ لأنه على يقين أنه لو اجتمع الخَلق كلهم بإنسهم وجنِّهم وملائكتهم وجماداتهم على منع ما وقع لَمَا استطاعوا أن يَمنعوا شيئًا منه فضلًا عن أن يَمنعوه، وما دام ذلك كذلك فإنّ المؤمن يُسلِّم لأمر الله، ويصبر، ويمنع نفسه من الجزع، ويمنع نفسه من التسخُّط بالقلب، ومن التسخُّط باللسان، ومن التسخُّط بالجوارح.

وصبر المؤمن: صبرٌ بالله، وصبرٌ لله، وصبرٌ مع الله. يدور مع هذه الأمور الثلاثة.

صبر بالله؛ فإنّ المؤمن يوقِن أنه لا صبر له إلا بالله، وأنه لن يصبر إلا بالله سبحانه وتعالى، فيستعين المؤمن بربه في هذا؛ كما قال الله: {وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ} (النحل: ١٢٧)، اصبر واعلَم وأيقِن: أنك لن تصبر إلا بعون الله سبحانه وتعالى. والمؤمن إذا أيقن بهذا وتصبَّر واستعان بالله عز وجل؛ فإنه سيَصبر؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ومَن يتصبَّر يُصبِّره الله» متفق عليه. «مَن يتصبَّر» أي: مَن يَعلم أنه لا صبر إلا بالله فيستعين بالله، ويطلب من الله

الصبر، ويَبذل من نفسه الصبر؛ فإن الله عز وجل يصبِّره ولا بدّ، ويوفقه إلى الصبر.

والمؤمن يكون صبره لله؛ فيصبر لكونه يعظِّم الله، ولكونه يرجو ما عند الله، ولكونه يخاف الله. لا يصبر لكونه رجلًا كما يقول بعض الناس: اصبر فأنت رجل**!** لا يصبر حتى يكون أمام الناس متجلِّدًا، وإنما يصبر لله سبحانه وتعالى.

والمؤمن يكون صبره مع الله؛ أي: يدور صبره مع الله سبحانه وتعالى، فما أرده الله عز وجل منه فَعَلَه، فهو في جميع أحواله يدور مع مراد الله سبحانه وتعالى.

والمعلوم أنّ قَدَرَ الله جارٍ على المؤمن وعلى الكافر. والعلماء يقولون: الناس مع أقدار الله على مرتبتين:

المرتبة الأولى: المرتبة المحمودة. فالناس فيها على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: الصبر، والتسليم، وحبس النفس والقلب عن التسخُّط على قَدَرِ الله. فيصبر المسلم ويَحبس نفسه عن التسخُّط، فلا يقول بلسانه ما فيه تسخُّط، لا يقول: لماذا أنا من بين الناس؟ لماذا أنا تَنزل بي هذه المصيبة؟ أو كما يقول بعض الناس –والعياذ بالله–: لماذا يا ربي؟، ويَمنع قلبه من التسخُّط على قدر الله ولو لم ينطق بلسانه، ويَمنع نفسه من أن تفعل ما يدل على التسخُّط

وعدم التسليم؛ كأن يضرب وجه، أو يضرب جبهته، أو يقطِّع ثيابه أو عمامته أو نحو ذلك. وهذه الدرجة واجبة وفرضٌ على المكلَّف باتفاق العلماء.

الدرجة الثانية: الرضى بقدر الله. وهذه مرتبة فوق الصبر؛ لأنّ الصبر يكون مع كراهية القلب لِمَا وقع، لكن لا تَجزُّع ولا تَسخُّط من المقدور، أمّا الرضى فهو اطمئنان القلب وسكينته، واستواء الأمرين فيه؛ كأن الأمر ما وقع، فالقلب مطمئن وراضٍ بما جرى؛ لأنه عَلِمَ أنه من الله. وهذه الدرجة قد اختلف العلماء في حكمها على أقوال:

القول الأوّل: أنها واجبة.

القول الثاني: أنها مستحبة. وهذا هو الراجح؛ فإنّ الله –عز وجل– لم يأمرنا بالرضى؛ وإنما أمرنا بالصبر، فما زاد عن الصبر فهو كمال مستحب.

الدرجة الثالثة –وهي أعلى المراتب المحمودة–: الشكر. وهو: أن يشكر العبد ربه على المصيبة؛ لا من جهة ذاتها؛ وإنما من جهة ما يراه فيها من خيرات، أن يوقن أنّ الله عز وجل لم يُنزل المصيبة إلا لحِكمة، وأنّ المِحنة فيها منحة، وأنّ المصيبة للمؤمن لا تتكشَّف إلا عن خير، فهو ينظر إلى ما فيها لا إلى ذاتها؛ فيشكر الله عز وجل، ويراها نعمة باعتبار ما فيها. وهذه مرتبة الكُمَّل من عباد الله سبحانه وتعالى. وهذه المرتبة لا شك أنها ليست واجبة.

وأضرب مثلًا يقرِّب لنا هذه الدرجات:

رجل احترق بيته؛ فسلَّم، وصبر، ولم يتجزَّع؛ مع المرارة في قلبه، والكراهة في قلبه؛ فهذا أتى بالواجب.

ورجل احترق بيته فعَلِمَ أنه بأمر من الله، وأنه عن حكمة من الله، فسلَّم ورضي، واطمئن قلبه بقدر الله، فهذا أتى بالرضى.

ورجل احترق بيته، فرأى أنّ هذا لابد من أن يؤول إلى خير، وأنّ فيه خيرات عَلِمَها أو لم يَعْلَمها؛ فشكر الله على ما أجرى، لا على ذات المصيبة، فهذا أتى بالدرجة العليا.

ويُعين المؤمن على تحقيق هذه الدرجات أمور:

الأمر الأوّل: أن يستعين بالله، وأن يسأل الله –عز وجل– أن يثبِّته عند نزول القدر المؤلم، وكلّما عظمت الاستعانة بالله كلّما عَظُمَ توفيق العبد إلى هذه الدرجات، حتى يبلغ الأمر بالعبد أن يكون شاكرًا لله –عز وجل– على جميع أحواله عند السراء وعند الضراء.

الأمر الثاني: أن يتذكَّر أنه عبد، وأنّ الذي يُجري الأقدار المؤلمة هو الله سيَّده سبحانه وتعالى، والعبد ليس له مع سيده سوى التسليم والخضوع.

الأمر الثالث: أن يتذكَّر أنّ ربه الذي أجرى عليه الأقدار المؤلمة رؤوف رحيم، عليم حكيم سبحانه وتعالى، ولتمام حكمته، وإحاطة علمه لا يُسأل عما

يَفعل وهم يسألون، فلا يَسأل ربه عن فعله سبحانه وتعالى؛ لأنه موقن أنّ فعل الله عز وجل في غاية الإحكام، وفي غاية الحكمة.

الأمر الرابع: أن يتذكَّر أنّ ربه سبحانه وتعالى لا يفعل شيئًا إلا لحكمة، فهذه المصيبة التي نزلت به لا شك أنها لحكمة، وأنّ هذه الحِكَم تعود على العبد: إما لتنبيهه من غفلة، وإما لتكفير سيئاته في الدنيا قبل يوم القيامة، وإمّا لرفع درجاته في الجنة. فإذا نزلت المصيبة بالمؤمن فهي لحكمة من هذه الحِكم، إمّا أن يكون غافلًا مسرفًا على نفسه، فيُنزل الله عز وجل به المصيبة ليتنبَّه من غفلته، وليَرجع إلى الله عز وجل، وكم من شخص كان مغرِقًا في المعاصي، معرِضًا عن طاعة الله عز وجل؛ فأنزل الله به مصيبة جللًا؛ فأصبح من عباد الله المكرَمين، وأصبح من العبَّاد، وأصبح من أهل المسجد. وقد تكون المصيبة لتكفير سيئات العبد في الدنيا حتى لا يؤاخَذ بها في الآخرة. وقد تكون المصيبة لرفعة درجة العبد في الجنة، فيكون قد قصَّر عن درجته في الجنة بعمله؛ فيُنزل الله عز وجل به المصيبة ويصبِّره عليها لترتفع درجته في الجنة. وهذه الأمور الثلاثة خير للمسلم من الدنيا وما فيها، فإذا عَلِمَ المسلم أنه بهذه المصيبة لا يخلو من واحدة من هذه الحِكم أو من جميعها؛ فإن هذه المصيبة تهون عليه جدًا.

الأمر الخامس: أن يتذكَّر أنّ الذي ابتلى بالمصيبة وبالقدر المؤلم هو المنعِم سبحانه وتعالى، فهذه المصيبة تنغمر في نِعم الله عز وجل التي لا

تحصى، فالذي أخذ منك فكانت مصيبة هو الذي أعطاك سائر النِّعم، ولو قارَنت هذه المصيبة بنِعم الله عز وجل عليك لكانت نقطة في بحر، ولا شك في هذا الامر. هذا من جهة غمر المصيبة في عظيم نِعم الله على العبد. ومن جهة أخرى: أنّ الذي أنعَم بما قبل المصيبة هو الذي أنزل المصيبة، مثلًا: كنت صحيحًا، مَن الذي رزقك الصحة؟ الله سبحانه وتعالى، أصابك المرض، مَن الذي أخذ منك شيئًا من الصحة؟ هو الله، الذي أعطاك الصحة أخذ منك شيئًا من الصحة. مثال آخر: مات الولد، مَن الذي رزقك بالولد؟ هو الله، هو الذي أخذ؛ «لله ما أعطى ولله ما أخذ» سبحانه وتعالى.

الأمر السادس: أن ينظر العبد عند نزول قدر الله المؤلم إلى ما سَلِمَ له من الخيرات، وأن ينظر إلى ما أصاب غيره من المصائب، وأن يتذكَّر أنه كان يمكن أن يصيبه أعظم مما أصابه.

"أن ينظر إلى ما سلم له من الخيرات"؛ ذُكِرَ أنّ أحد السلف أصابه مرض، فقُطعَت رجله، ومات ولده، فقال: الحمد الله إن أخذ رِجلًا فقد أبقى بقية الجسد، وإن أخذ ولدًا فقد أبقى بقية الأولاد.

"وأن ينظر إلى ما يصيب غيره من المصائب"؛ والعامة يقولون: ما رأى مصيبة غيره هانت عليه مصيبته؛ فيتسلى بهذا الأمر، وأن يتذكّر أنه كان يمكن أن

يصاب بأعظَم ولكنّ الله لَطَفَ به. ومهما بلغت المصيبة فلابد فيها من لُطْف، فيتذكّر العبد أنه كان يمكن أن يصاب بأعظم وأكثر من هذا.

الأمر السابع: أن يتذكَّر أنّ ابتلاء الله لعبده دليل على حب الله للعبد، أو إرادة الله الخير للعبد. فالابتلاء دليل على حب الله للعبد؛ ولذلك الابتلاء بمقدار حب الله للعبد. أو: هو دليل على إرادة الله الخيرَ بعبده. كما سياتي بيانه في النصوص بحول الله عز وجل.

وما أحوجنا إلى معرفة هذه الأمور، فإنّ غفلة الناس عن هذه الأمور جعلتهم يَبتعدون كثيرًا عن درجات الصبر عند نزول أقدار الله المؤلمة.

المرتبة الثانية: وهي المذمومة. وهي: التسخُّط عند نزول القدر بالقلب أو اللسان أو العمل. وهي محرَّمة بإجماع الأمّة. والناس في هذه المرتبة على دركات، حتى قد يَصل الأمر بالإنسان إلى الكفر، فبعض الناس –والعياذ بالله– يصل به تسخُّطه إلى أن يكفر بالله سبحانه وتعالى. وإني لأجزم أنّ الملحدِين إنما وقعوا في الإلحاد بسبب اختلال الصبر في المرتبة العليا، فلو نظرت إلى سبب الإلحاد لوجدت أنه يعود إلى نظرهم في المصائب التي يصيب الله عز وجل بها عباده؛ فيقودهم ذلك إلى الإلحاد؛ لأنهم ما عرفوا أولًا أنّ المصائب عن حكمة، وما عرفوا ثانيًا الواجب عند نزول المصيبة، ويصل الأمر ببعض الناس أنه إذا أصابه ضراء أو مصيبة أو فتنة انقلب على وجهه، وارتد، وكفر بالله، فخسر الدنيا

والأخرة، قال عز وجل:﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ (الحج: ١١).

[وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: {وَمَن يُؤْمِن بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ}]

هذه الآية لابد من ربطها بصدرها؛ حيث قال الله عز وجل: {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ}. {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ} (مصيبة) نكرة تقدمتها (من) في سياق النفي؛ فتقتضي الاستغراق المطلَق، فكل المصائب تدخل في هذا.

والمصيبة: هي ما نزل بالمؤمن مما يؤلمه في نفسه، أو فيمن يحب، أو فيما يحب من مال وغيره.

وما من مصيبة تَنزل بإنسان إلا وهي بمشيئة الله القدرية، فإنه لا يجري في كون الله إلا ما شاء، وفيها العدل المطلَق، فالله لا يظلم الناس شيئًا لا في الدينا ولا في الآخرة، تعالى الله أن يظلم سبحانه وتعالى، فهو العدل، وهو الذي أمر بالعدل سبحانه وتعالى، وفيها حكمة تامّة، فهي ليست عبثًا ولا لإيلام الناس، وإنما لحكمة تامّة تعود على العباد ولابد. ومع ذلك فما من مصيبة تنزل إلا وهي من أنفسنا، وبسبب منا، وبسبب ما كسبته أيدي الناس.

{وَمَن يُؤْمِن بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ} جملة شرطية؛ فِعل الشرط وجواب الشرط، فما معناها؟

قال بعض أهل العلم: ﴿وَمَن يُؤْمِن﴾أي: بما تقدَّم؛ فيؤمن أنه ما من مصيبة إلا بإذن الله وفيها العدل وفيها الحكمة ﴿يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ أي: يهدي قلبه إلى الصبر والتسليم. إذن: مَن يؤمن بأنه ما مصيبة إلا بإذن الله القدري، وهو عدل وحكمة، ويَتيقَّن من ذلك؛ يهدي قلبه إلى الصبر، أو ما هو أعلى منه.

وقال بعض أهل العلم: ﴿وَمَن يُؤْمِن﴾أي: بما تقدَّم، ويصبر، ويحتسب، ويَمنع قلبه ولسانه عن التسخُّط؛ يهدِ قلبه إلى الاسترجاع عند المصيبة فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، ومَن قال هذا أبدله الله خيرًا مما أصابه، يعني أنّ مَن آمن أنّ المصيبة بإذن الله، وفيها العدل، وفيها الحكمة، فصبر واحتسب؛ وفَّقه الله إلى أن يَسترجع عند حصول المصيبة، وهذا سبب أن يُبدِله الله خيرًا مما أُخِذ منه.

وقال بعض أهل العلم: ﴿وَمَن يُؤْمِن﴾ أي: يؤمن بأنّ المصيبة بإذن الله القدريّ، وفيها عدل الله، وفيها الحكمة التامّة، ويصبر، ويحتسِب، يعوِّضه الله خيرًا بالهداية في قلبه، فيرزقه الله الهداية، والهداية خير مما أُخِذ في المصيبة، بل خيرٌ من الدنيا وما فيها.

ولا مانع من الكل، فهذا تنوُّع، وليس تضادّ.

وهذه الآية تدلُّ على أنّ الصبر من الإيمان، وهذا مراد الشيخ؛ لأنّ الله قال: {وَمَن يُؤْمِن بِاللهِ} فالمراد بها هنا: الإيمان بما تقدَّم –وهو ما يتعلق بالمصيبة–. فالصبر من الإيمان؛ لأنه فُسِّرت بأنه مَن آمن بأنّ المصيبة بإذن الله القدري

وبعدله وبحكمته وصبر واحتسَب، هذا معنى {وَمَن يُؤْمِن}، فكان الصبر مع هذا الاعتقاد من الإيمان بالله سبحانه وتعالى.

[قَالَ عَلْقَمَةُ: هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ الْمُصِيبَةُ، فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللهِ، فَيَرْضَى وَيُسَلِّمُ:

(قَالَ عَلْقَمَةُ) علقمة النخعي من كبار التابعين، ومن فقهاء التابعين، وقد سمع كبار الصحابة –رضوان الله عليهم–. ذكر ابن جرير في تفسيره بعدة أسانيد أنه سُئل عن هذه الآية: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾، فقال: هو الرجل تصيبه المصيبة، فيَعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلِّم. قوله: (هُوَ الرَّجُلُ) ليس تخصيصًا للذكر دون الأنثى، وإنما هي تعبير عن الإنسان، (تُصِيبُهُ الْمُصِيبَةُ) هي ما ينزل بالإنسان مما يؤلم، (فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللهِ) أي: بإذن الله عز وجل القدري، وبعدله وحكمته، (فَيَرْضَى وَيُسَلِّمُ) أي: يصبر ويحتسب ويسلِّم، وقد تكون على بابها؛ فتكون الدرجة الثانية وهي: الرضى.

[وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «اِثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ»]

لمّا ذكر الشيخ أنّ الصبر على أقدار الله من الإيمان، ودلَّل على اهذا، انتقل إلى ما ينافي الصبر، وإلى الأفعال التي تنافي الصبر، وتنافي كمال التوحيد. فقال: (وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ) وهو كذلك، (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه

وسلم قَالَ: «اِثْنَتَانِ فِي النَّاسِ» اثنتان: يعني خصلتان في الناس، «هُمَا» أي: الخصلتان، «بِهِمْ» ما معنى بهم؟

قال بعض أهل العلم: يعني منهم، «هما منهم– أي: من الناس– كُفر».

وقال بعض أهل العلم: «بهم» بمعنى فيهم، «هما فيهم –أي: في الناس– كفر»، وتلحظون أنّ الكفر جاء منكّرًا، ليس معرَّفًا، وبالاستقراء وجدنا أنّ الكفر إذا جاء منكَّرًا في النصوص فهو يعني: خَصلة من خصال الكفر، فهو كفر دون كفر. بخلاف ما لو جاء معرَّفًا فإنه يعني الكفر الأكبر؛ إلا أن يَصرفه صارف.

«هما بهم كفر» أي: كفر دون كفر، يعني أنهما من خصال الكفار، فمَن فَعَلَهما من المؤمنين لم يَخرج من الإيمان، لكن يكون متَّصفًا بخصلة من خصال الكفار؛ فينقُص إيمانه، وينقُص توحيده، ما هما؟

«الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ» ومعناه: أن ينفي أنساب الناس المعلومة، أو يشكِّك فيها، يقال مثلًا: فلان يزعم أنه ابن فلان، أو إذا قيل له مثلًا: فلان ولد فلان، يقول: نعم يقولون! يشكِّك في النسب المعلوم، وهذا من كبائر الذنوب، وهو من خصال الكفار.

وقد يكون الطعن في النسب بمعنى: التهوين من أنساب الناس، فإذا قيل: فلان ابن فلان الفلاني، فعل فعلًا يدل على التنقُّص ولو بإشارة؛ كأن يشير بوجهه، أو يُشيح، أو نحو ذلك، أو قال: مثل ما يفعله الجهال اليوم يقولون:

فلان مئة وعشرة، وفلان مئتين وعشرين! وهذه العصبية الأرضية أفسدت على كثير من الناس دينهم وأخلاقهم، حتى بعض الفضلاء؛ تجد أنه يُذكَر له الفاسق ممن يعظِّم نسبهم؛ فيهلل ويكبِّر ويرحِّب. ويُذكَر له العالِم ممَّن يستهين بنسبهم؛ فيبرُد في الترحيب والكلام. وهذه من الأمراض. واليوم أضرّ الناس في دينهم: عصبيتان مَقيتتان محرَّمتان شرعًا:

الأولى: العصبية الأرضية. فيقال: فلان من أرض كذا؛ شريف عظيم! حتى أنّ بعض الناس ينصر مبتدعًا داعية في دعوته لأنه من بلده! لا يتكلم فيه ولا في بدعته لأنه من بلده! لا يترك الكلام فيه خوفًا من الفتنة واستغناء بكلام غيره، لا؛ وإنما تعصب للأرض، وقد يقدِّم مبتدع أرضه على السنيِّ في أرض غيره! وهذا بلاء مبين، يجب على المسلم أن يعالج نفسه منه، فإنّ الإكرام بالتقوى، وبخصال التقوى.

الثانية: العصبية الحزبية. الحزبيات المحرَّمة التي فرّقت المسلمين وأضرَّت بدين المسلمين.

إذن الطعن في النسب قد يكون بالطعن في الأنساب المعلومة والتشكيك فيها، وقد يكون بالتهويل من أنساب الناس، فإذا اجتمع مع الطعن في النسب الفخر بالحسب اجتمعت خصلتان مذمومتان في الإنسان.

«وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ» وهي: كل ما يَظهر منه الجزع والتسخُّط؛ غير أنها تُخَصُّ في الغالب بالأقوال، بعض العامة يسمونه: التعداد، بمعنى: يعدِّد على الميت، إذا مات الإنسان يعدد على الميت فيقول: كان وكان، يا جبلي ويا رأسي، ويا عصبتي، مَن لي بعدك؟ نياحة على الميت. وقد يُستأجر بعض الناس للنياحة، متخصِّصون! وبعضهم المتبرِّعون؛ وخاصة من النساء، إذا سمعتْ بميت في القرية جاءت تسعى من آخر القرية تصرخ وتعدد وتَلطُم! وقد تكون مستأجَرة، وهذا من خصال الكفار، وهو كفر دون كفر، ولا شك أنه من كبائر الذنوب.

وهذا وجه الدلالة من الحديث في الباب: أنّ النياحة على الميت من التسخُّط المحرَّم، وهي تنافي الصبر.

[وَلَهُمَا عَنِ اِبْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه مَرْفُوعًا: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الْخُدُودَ، وَشَقَّ الْجُيُوبَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ»]

(وَلَهُمَا) أي: للشيخين، (عَنِ اِبْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه مَرْفُوعًا) أي: للنبي صلى الله عليه وسلم. وذكر هذه الصفات. ولعلنا نؤجل الكلام عنها إلى الدرس القادم إن شاء الله.

الدرس الخمسون: تابع شرح بَابٌ: مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ الصَّبْرُ عَلَى أَقْدَارِ اللَّهِ

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَن يهدي الله فلا مضلَّ له، ومَن يُضلل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء: ١]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: ٧١]

أمّا بعد:

فإنّ أحسن الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكلّ محدَثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النار.

ثم يا معاشر الفضلاء؛ نواصل شرحنا لكتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد، لشيخ الإسلام الإمام المصلح: محمد بن عبد الوهاب– رحمه الله عز وجل رحمة واسعة وسائر علماء المسلمين– هذا الكتاب الذي مَن تأمله بقلب المؤمن ونظر فيه بعين المنصِف عَلِمَ أنه حق كله من أوّله إلى آخره، ليس فيه إلا ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأجمع عليه صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويَعلم أنّ ما في هذا الكتاب يحتاجه المؤمن أعظم من حاجته إلى الطعام والشراب والنَّفَس؛ لأنّ فيه تحقيق ما خُلق الإنسان من أجله؛ ألا وهو عبوديته لله عز وجل بإخلاص، أن يعبد الله عز وجل مخلصًا له الدين، فمن أجل هذا خلق؛ {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} (الذاريات: ٥٦)، وهذا الكتاب فيه تحقيق هذا الأمر العظيم، ولذا حُقَّ لطالب العلم أن يقرأه بنفسه مرارًا، وأن يكرره على الناس تكرارًا؛ لِمَا فيه من عظيم الفائدة وعظيم العائدة.

ولا زلنا مع الباب العظيم الذي يحتاجه كل مسلم، الذي قال فيه الشيخ: (بَابٌ: مِنَ الْإِيمَانِ بِاللهِ الصَّبْرُ عَلَى أَقْدَارِ اللهِ)، وهذا الباب هو آخر باب في قسم أعمال القلوب التي لها تَعلُّق بالتوحيد.

والعلماء عندما يتكلمون عن الصبر فإنهم يتكلمون عنه في ثلاثة أنحاء:

الأوّل: في معنى الصبر وأقسامه وأحكامه.

الثاني: في بيان ما ينافيه.

الثالث: فيما يُعين عليه.

والشيخ في هذا الباب الذي بين أيدينا سار على هذه الطريقة، فبيَّن منزلة الصبر، ثم تكلم عما يضاده وينافيه، ثم تكلم عما يُعين عليه.

وقد تقدَّم في مجلسنا السابق الكلام عن المقدِّمة التأصيلية للصبر، وبدأنا في قراءة ما كتبه الشيخ رحمه الله، وفرغنا من التعليق على الآيات، وشرعنا في الأحاديث. فلعل الشيخ ياسين يعيد لنا حديث أبي هريرة –رضي الله عنه– في صحيح مسلم.

[وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ –رضي الله عنه– أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «اِثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ»]

هذا الحديث في صحيح مسلم، سبق أن شَرَعْنا في شرحه، ولم نُتِمَّ شرحه، (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ –رضي الله عنه– أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «اِثْنَتَانِ» أي: خصلتان، وصفتان، «فِي النَّاسِ» أي: في أمّة محمد صلى الله عليه وسلم، لا تزال باقية فيهم، «هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ» أي: هما فيهم كفر، أي: أنهما من خصال الكفر، لا أنّ مَن يفعلهما كافر، فإنّ حقيقة الكفر ليست فيه، فليس كفره كفرًا أكبر، وإنما يَفعل خَصلة من خصال الكفار، وهذا يدل على أنها كبيرة من

كبائر الذنوب، فإن من علامات الكبائر أن يوصف الفعل أنه من فعل الكفار، أو من فعل أهل الجاهلية، فهاتان الخصلتان المذمومتان شرعًا الواقعتان من كثير من الناس فهي منهم وفيهم كفر: «الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ».

وسبق أن ذكرنا أنّ الطعن في النسب الثابت على ثلاثة أرجاء، كلها حرام لا تجوز:

الأولى: نفي النسب الثابت. والنسب الثابت يَثْبُت بالشهرة، فمَن شُهِرَ بأنه ابن فلان أو من القبيلة الفلانية فإنه لا يجوز نفي نَسَبِه فيقال: إنه ليس ابن فلان، أو نحو ذلك؛ فهذا حرام.

الثاني: يكون بالتشكيك فيه وإن لم يُنْفَ، فيقول الإنسان: لا أدري والله عن كلامه، لا أدري عما يدَّعيه، أو يقول: الله أعلم، أو يشير بيده، أو يشير بعينه، أو يشير بوجه بما يدل على التشكيك في النسب، فهذا أيضًا حرام.

الثالث: عيب الأنساب الثابتة، ونسبة العيب إليها مما لا يكون من أصحابها، فهذا أيضًا حرام.

«وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ» وهذا وجه الشاهد؛ لأنّ النياحة على الميت تنافي الصبر، وجامع ما ينافي الصبر: أنه التسخُّط على المقدور بالقلب أو اللسان أو بالفعل.

التسخُّط عند نزول المقدور بالقلب: بأن يَعتقد مثلًا أنه لا يَستحق أن يَنزل به هذا، أو يعتقد أنّ هذا ظُلم، فهذا ينافي الصبر، وهو تسخُّط، وليس الحزن في القلب من التسخُّط، فإنّ الله لا يعذِّب بحزن القلب، بل من فطرة الإنسان أن يَحزن عند نزول المصيبة، ولذلك لم يكن الرضى واجب وإنما كان كمالًا؛ وهو أن يستوي الأمران في القلب. فالتسخُّط بالقلب: هو اعتقاد ما لا يجوز عند نزول المقدور.

التسخُّط باللسان: أن يقول الإنسان ما يكون فيه تَسخُّط، ومنه قول بعض العامّة عند نزول المصيبة: لماذا أنا؟ أو كما يقولون بلسان العامة: إش معنى أنا؟ ماذا فعلتُ حتى يَنزل بي هذا؟ فهذا من التسخُّط. ومنه: النياحة، وسأعود إليها.

وقد يكون التسخُّط بالفعل: كأن يضرب الإنسان نفسه عند نزول المصيبة، أو يقطِّع جلده، ومن التسخُّط بالفعل عند نزول المصيبة: أن يَكُفَّ الإنسان عن خير أراده بسبب نزول المصيبة، يكون مثلًا أراد أن يتصدق، فتنزل به المصيبة؛ فيترك الصدقة من أجل نزول المصيبة، لا لسبب آخر.

ومن التسخُّط بالقول: النياحة على الميت. والنياحة على الميت من كبائر الذنوب، وقد كان من بيعة النبي صلى الله عليه وسلم للنساء عدم النياحة، وهذا يدل على أهمية الأمر وعظمه، فإنما البيعة إنما وقعت على الأمور العظام، وقد

ثبت في الصحيحين أنّ النبي صلى الله عليه وسلم كان يبايع النساء على عدم النياحة.

والنياحة حرام من الرجال ومن النساء، قال ابن عبد البر: أجمع العلماء على أنّ النياحة لا تجوز للرجال والنساء.

والنياحة: أصلها من النَّوح؛ وهو: صوت الحمام. ولذلك النياحة على الميت على أنحاء:

الناحية الأولى: رفع الصوت بتعداد محاسن الميت على وجه التسخُّط. أن يُرفع الصوت بتعداد محاسن الميت –واقعة أو مزعومة– على وجه التسخُّط، وهذا من النياحة، كأن تقول المرأة: وا جبلاه، وا عِزَّاه، مَن لي بعدك؟ تركتنا لمَن؟ وترفع صوتها بهذا، وكذلك الرجل، فإنّ هذا من النياحة، وهو شر على النائح وعلى مَن نِيح عليه، شر على النائح: لأنه مرتكب لكبيرة من كبائر الذنوب. وشر على مَن نِيح عليه: لأنه يوكَل به ملكان يَلكُذانه إذا قيل فيه شيء ويقال له: أنت كذلك؟ أنت كذلك؟»، وقد ثبت بهذا الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. بل ثبت أنّ عبد الله بن رواحة –رضي الله عنه– لمّا أُغشيَ عليه أخذت أخته تعدِّد، فأفاق فقال: ما قلتِ شيئًا إلا لُكِذْتُ، وقيل لي: أنت كذلك! فلمّا مات لم تَنُحْ عليه، وهذا في البخاري.

«وإن الميت ليعذَّب ببكاء أهله عليه» أي: بنياحة أهله عليه، وذلك إذا أوصى بالنياحة، أو كان يَعلم أنّ أهل البلد يَنحون على الميت فلم ينههم عن ذلك، ولم يوصِ بعدم النياحة عليه، لأنه إذا سكت كان كالمُقرّ بالعادة الجارية فيكون من فِعْلِه؛ فيعذَّب ببكاء أهله عليه.

الناحية الثانية: البكاء بصوت مخصوص على وجه التجزُّع والتسخُّط. يعنى: البكاء بصوت على غير وجه العادة، على وجه التجزع على الميت والجزع والتسخط لِمَا وقع، وهو الرَّنَّة المحرَّمة، ومنه سمِّيت النياحة نياحة، واضح؟ يعني: يبكي الرجل أو المرأة عند حصول المصيبة ولا سيما عند موت الحبيب بغير الطريقة المعتادة، وإنما بطريقة معيَّنة مرتَّبة تدل على التجزع والتسخط؛ فهي متكلَّفة، ليست أمرًا من عادة الإنسان في البكاء، كأن يُزِفّ بالصوت بالطريقة غير المعتادة، فهذا من النياحة، وهو أصل تسميتها.

الناحية الثالثة: رفع الصوت على سبيل الجزع، ولو لم يكن فيه تعداد، هذا الفرق بين الثاني والأوّل، فالأول: رفع مع تعداد، والثالث: رفع على سبيل الجزع والتسخط؛ كأن يصيح الإنسان ويرفع صوته. وقد جاء أنه لمّا توفي ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم صاح أسامة بن زيد –رضي الله عنه وعن أبيه، الحب بن الحب– صاح –أي رفع صوته بالصياح– فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «ليس هذا منّا، ليس لصارِخ حَظٌّ، القلب يحزن، والعين تدمع، ولا نقول

ما يُغضِب الرب» رواه ابن خزيمة، وحسَّنه الألباني. والشاهد منه: أنّ أسامة بن زيد لمّا بلغه موت إبراهيم ابن رسولنا صلى الله عليه وسلم صاح ورفع صوته، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «ليس هذا منّا» يعني: ليس منا مَن يصيح عند المصيبة. ويصيح ليس بالمعنى عند العامة: يبكي؛ لأنّ العامّة يقولون: صاح: يعني بكى، لا، ولكن يصيح يعني يرفع صوته على سبيل التجزع والتسخط. قال صلى الله عله وسلم: «ليس لصارخ حظ» يعني: نصيب؛ لأنّ هذا الفعل ليس من الإسلام، وليس من أفعال المسلمين.

الناحية الرابعة: فِعْل ما يدلّ على النياحة. كالاجتماع في بيت الميت لغير التعزية، وصنع الطعام للاجتماع عليه بعد موت الميت.

يقول جرير بن عبد الله –رضي الله عنه–: "كنا نرى الاجتماع إلى أهل الميت وصَنعة الطعام من النياحة"، رواه ابن ماجه، وصحَّحه الألباني. «كنا» يعني: معاشر الصحابة، وقوله "كنا" الأظهر فيه أنه في زمن النبي صلى الله عليه وسلم. ولو لم يكن في زمن النبي صلى الله عليه وسلم فإنه يدلّ على الإجماع–إجماع الصحابة–، فهو حجة على كل حال، سواء أراد "كنا" أي: في زمن النبي صلى الله عليه وسلم –وهو الأظهر–، أو أراد "كنا" أي: الصحابة بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم؛ فإنّ هذا يدلّ على الإجماع، والإجماع حُجَّة.

قال –رضي الله عنه–: (كنا نرى الاجتماع إلى أهل الميت)، والاجتماع إلى أهل الميت له صورتان:

الصورة الأولى: الاجتماع إلى أهل الميت لغير التعزية؛ كأن يبقى الإنسان عندهم الفترات الطوال يتحدّث ويأكل ويشرب وهذا هو المراد هنا.

الصورة الثانية: أن يذهب ليعزيهم التعزية المشروعة ثم يَنصرِف، ويجتمع أهل الميت للرِّفق بالناس لا من أجل الاجتماع؛ وإنما لتباعد البيوت، وتباعد المسافات، فحتى لا يُشَقّ علي الناس فيَذهب المعزِّي المحِب إلى هذا في طرف البلد وإلى هذا في طرف البلد وإلى هذا في وسط البلد يجتمع أهل الميت في مكان واحد رفقًا بالناس؛ فهذا جائز، وإن كان من مشايخنا مَن يَمنع هذا ويوصي بعدمه، لكن الأظهر –والله أعلم– أنّ هذا جائز؛ لأنه لا يخالف الشرع في شيء، وليس فيه تسخط ولا غير ذلك.

الشاهد: أنّ ما يفعله بعض الناس من الاجتماع في بيت أهل الميت، والأُنس، ويَتردَّدون كل يوم، ويَمدحون فيقولون: فلان ما شاء الله ما غاب عن العزى! هذا ليس جائزًا، وإنما الجائز أن يذهب الإنسان إلى العزى ثم يَنصرِف.

وبعض الناس في الحقيقة تعزيته مصيبة على أهل الميت؛ لأنه يُثقِل عليهم، فهم يريدون الراحة وهو يريد يتحدث! يأتي من الصباح ويجلس عندهم إلى

منتصف الليل، يأكل ويشرب، والناس في غاية التعب! وهذا في الحقيقة مع مخالفته للشرع مخالف للمقصود من التعزية.

قال –رضي الله عنه–: (وصَنعة الطعام) أي: في أيام العزاء، وله حالان:

الحالة الأولى: أن يكون بغير سبب معتاد؛ وإنما سببه الموت، فهذا يقول: الغداء اليوم عليّ، وهذا يقول: العشاء عليّ، وربما قال أحدهم: الفطور عليّ، هذا حرام ومن النياحة، والنياحة من كبائر الذنوب، ما نقول هذا نحن، بل قاله صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

الحالة الثانية: أن يكون ذلك لسبب معتاد، جرت العادة بصنع الطعام من أجله؛ كأن يَقْدُم قوم من سفر، وجرت عادة الناس إذا قدم حبيب أو صديق من سفر أن يُذبَح له ويُكرَم، فيُفعَل هذا ويقدَّم عند أهل الميت؛ فهذا لا بأس به وأن يجتمع مَن حضر، يجوز أن يأكل الضيف ومَن حضر مع الضيف ومَن دُعيَ أيضًا؛ لأنّ هذا ليس للعزاء وليس للموت وإنما لذلك السبب، فهذا لا حرج فيه.

إذن؛ الناحية الرابعة من النياحة على الميت: صنع ما يدلّ على النياح، وهو عند السلف أمران:

الأوّل: الاجتماع عند أهل الميت لغير العزاء، ومقدار العزاء. وهذا على الراجح، فإنّ بعض أهل العلم يرى العموم.

الثاني: صنع الطعام عند الموت. وأقبحه أن يكلَّف أهل الميت بهذا، فالناس يجتمعون وأهل الميت يُطعِمون، فتُجمَع عليهم مع مصيبة موت ميتهم هذه التكاليف!

ومنه: ما يفعله بعض المؤمنين اليوم من صُنْع رِواقٍ واستئجار صالة في المساجد للعزاء، ويتكلَّف أهل الميت مبالغ بسبب ذلك، فإنّ هذا من المحرَّم، ويدخل فيه النياحة. فينبغي للمؤمنين أن يَتنبَّهوا إلى هذا الأمر.

والمقصود: أنّ النياحة على الميت مما ينافي الصبر.

[وَلَهُمَا عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ مَرْفُوعًا: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الْخُدُودَ، وَشَقَّ الْجُيُوبَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ»]

(وَلَهُمَا) أي: الشيخين: البخاري ومسلم، (عنِ ابْنِ مَسْعُودٍ مَرْفُوعًا) أي: إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لَيْسَ مِنَّا» يعني: ليس على طريقتنا، وليس على سنَّتنا، وليس على منهجنا، وليس المراد أنه ليس من المسلمين، وأنه يَخرج بهذا عن الإسلام، لا، وإنما المقصود: أنه ليس على طريقتنا، وليس على سنّتنا. وهذا يدل على أنّ المذكور في الحديث من كبائر الذنوب، وقد جاء عن أبي أمامة –ضي الله عنه– : «أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن الخامِشة وجهها، والشاقّة جيبها، والداعية بالويل والثُّبور» رواه ابن ماجه، وابن خزيمة، وصحَّحه الألباني.

فمما يُلعَن به الإنسان –والعياذ بالله– ويُطرَد به من رحمة الله: هذه الأمور الثلاثة التي تنافي الصبر بالأفعال.

«ليس منا مَنْ ضَرَبَ الْخُدُودَ» أي: عند نزول المصيبة يضرب خدَّه على وجه التسخُّط، فيَضرب خدَّه ووجهه بيده. وهذا يشمل الرجل والمرأة. ويدخل فيه: ضرب كل عضو من أعضاء الجسد، كأن يضرب رأسه، أو يضرب فخذه، أو يضرب يده، كلها تدخل، وإنما خُصَّت الخدود هنا لأنها الغالبة، الغالب أنّ المتجزِّع –والعياذ بالله– عند نزول المصيبة يضرب خدَّه، فلا يكون خاصًّا بضرب الخدود، بل ضرب أيّ عضو من الأعضاء عند نزول المصيبة بسبب نزولها تسخط وحرام وكبيرة من كبائر الذنوب، سواء وقع ذلك من رجل أو من امرأة.

«وَشَقَّ الْجُيُوبَ»، الجيب ليس ما نَفهمه اليوم، وإنما الجيب: هو الفتحة التي يُدخَل منها القميص من الرأس يسمى جيبًا. والمقصود: مَن شَقّ ثوبه عند نزول المصيبة بأيِّ طريقة من الطرق؛ فإنّ هذا حرام، ومن كبائر الذنوب، سواء كان ذلك من رجل أو كان من امرأة.

«وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ»، قال بعض أهل العلم: معناه: "ناح على الميت بطريقة أهل الجاهلية، وصوَّت على الميت بطريقة أهل الجاهلية"، والذي جعلهم يقولون هذا هو السياق؛ لأنّ السياق فيما يُفعَل عند الموت، فكانت

دعوى الجاهلية هنا خاصة بما يَتعلَّق بالموت وهو النياحة على الميت، وهذه من خصال الكفار.

وقال بعض أهل العلم: تشمل كل ما تدعو إليه الجاهلية من التعصُّب والانتصار للأنساب وغير ذلك، ويدخل فيها النياحة.

لكنّ الأوّل أقرب لأنه الأَوْفَق للسياق.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يبايع النساء على عدم فِعل هذه الخصال. تقول إحدى المبايعات: بايعْنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ألّا نَخمِش وجهًا–أي: لا يُمسَك الوجه بالأصابع على سبيل التسخُّط، سواء شَقّ الخد أو لم يَشق الخد– ولا ندعو ويلًا–وهذه دعوى الجاهلية– ولا نشق جيبًا، ولا نَنشُر شعرًا –أي: لا ننشر شعرًا عند نزول المصيبة–، وهذه الأمور كانت من فعل أهل الجاهلية، رواه أبو داود، وصحَّحه الألباني. فدلّ هذا الأمر على أنّ هذه الخصال من كبائر الذنوب، وهي تنافي الصبر.

[وَعَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ الْخَيْرَ، عَجَّلَ لَهُ الْعُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا، وَإِذَا أَرَادَ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُوَافِيَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»]

هذا الحديث رواه الترمذي، والحاكم، وسكت عنه الذهبي، وصحَّحه الطحاوي، وقال الألباني: حسن صحيح. (عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه

وسلم قَالَ: «إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ الْخَيْرَ» الإرادة هنا: هي الإرادة القدرية الكونية، والله عز وجل قد يريد كونًا وقدرًا بعبده الخير بفضله، وقد يريد لعبده الشر بعدله، والكل عن علمه سبحانه وتعالى، فالله عَلِمَ ما هو كائن، وعِلْمُ الله محيط بكل شيء، الله يَعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، وكتب ما عَلِمَه مما هو كائن إلى يوم القيامة، أمر القلم بكتابة هذا –وسياتينا هذا في مراتب القدر–، وشاءه سبحانه وتعالى، وخَلَقَهُ. فالله عز وجل يريد بعبده قدرًا وكونًا الخير؛ وهذا بعلم الله وفضله، وقد يريد بعبده قدرًا وكونًا الشر؛ وهذا بعلم الله وعدله، والله لا يظلم الناس شيئًا لا في الدنيا ولا في الآخرة، بل فِعْلُ الله كله عدل مطلَق، وكلا الأمرين –أعني: الخير والشر– عن حكمة تامّة، ولذلك فِعْلُ الله كله خير؛ لأنه عن حكمة تامَّة كان، والشر ليس إلى ربنا سبحانه وتعالى؛ وإنما هو شر بالنسبة إلى المخلوق، وهذا معنى قول بعض السلف: "الشر في مفعولاته وليس في فعله"، ففعل الله كله خير؛ لأنه عن حكمة، وإنما يكون شرًّا بالنسبة إلى المخلوق.

«إذا أراد الله بعبده الخير» بعبده هنا: المقصود به المؤمن، أمّا الكافر فلا يدخل هنا؛ لأنّ ما يصيب الكافر في الدنيا له حكمتان:

الحكمة الأولى: التذكرة؛ لعله أن يَرجِع عن كفره، وأن يُسلِم، يصيبه الله ببعض المصائب لعله أن يؤمن، لعله أن يُراجِع.

الحكمة الثانية: أنها عقوبة معجَّلة، وما عند الله أشد وأبقى.

«إذا أراد الله بعبده الخير عجَّل له العقوبة في الدنيا»، "عجَّل له العقوبة في الدنيا" لماذا؟ لأنّ ابن آدم خطاء، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «كل بني آدم خطّاء»، فالعبد لابد له من ذنب، ولابد له من خطيئة، وهذه الخطيئة تستدعي عقوبة، ويستحق صاحبها أن يعاقَب بالنار يوم القيامة؛ إلا أن يعفو الله سبحانه وتعالى، فإذا أراد الله بعبده الخير وكان قد أذنب –ولا بد من الذنب– عجَّل له العقوبة في الدنيا؛ بمعنى: أصاب منه، وقد جاء أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مَن يُرِدِ الله به خيرًا يُصِبْ منه» رواه البخاري في الصحيح. مَن يُرِدِ الله به قَدَرًا خيرًا يُصِبْ منه، ويُنزِل به مصيبة؛ لأنّ هذه المصيبة يُكفَّر بها ذنبه، وهي عقوبة في الدنيا، وهي إذا قورِنَت بعقوبة الدنيا نقطة في بحر، فيكون نزول المصيبة بالمؤمن خيرًا له، وهذا يسلِّي المؤمن ويعينه على الصبر.

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ما من مسلم يصيبه أذى إلا حاتَّ الله عنه خطاياه كما تَحات ورق الشجر» متفق عليه. قال: «ما من مسلم»؛ نكرة في سياق النفي تقدمتها "من"؛ فيقتضي العموم، «يصيبه أذى» في نفسه، أو ولده، أو ماله، أو أحبابه، و(أذى) نكرة؛ أيّ أذى صغيرًا كان أم كبيرًا، «إلا تحاتّ عنه خطاياه» أي: ذنوبه، وهذا عند جمهور أهل العلم متعلِّق بالصغائر، أمّا الكبائر فلابد لها من توبة، «كما تحات ورق الشجر».

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كفَّر الله بها عنه حتى الشوكة يشاكها» متفق عليه. «ما من مصيبة»؛ نكرة في سياق النفي تقدمتها "من" فتقتضي استغراق العموم والشمول، كل مصيبة من قول أو فعل صغيرة أو كبيرة تصيب المؤمن إلا كُفِّر عنه من خطياه بمقدارها، فإن كانت المصيبة صغيرة كُفِّر عنه بما يوازيها، وإن كانت كبيرة كُفِّر عنه بما يوازيها.

وقال صلى الله عليه وسلم: «لا يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نَفْسِه، وولده وماله، حتى يلقى الله وما عليه خطيئة» رواه أحمد، والترمذي، وقال الألباني: حسن صحيح. فلا يزال البلاء بالمؤمن حتى يَدَعُه يخرج من الدنيا وليس عليه خطيئة، وهذا عند جمهور أهل العلم متعلَّق بالصغائر، وهي أكثر ما يقع من المؤمنين، فإنّ الكبائر يَقِلّ وقوعها من المؤمن بخلاف الصغائر.

وعن أم العلاء قالت: عادني رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا مريضة، فقال: «أبشري يا أم العلاء» مريضة ويبشِّرها «فإنّ مرض المسلم يُذهِب الله به خطاياه كما تُذهِب النار خَبَثَ الذهب والفضة» رواه أبو داود، وصحَّحه الألباني. والْحَظوا هنا مَلْحَظًا: لم يَقُلِ النبي صلى الله عليه وسلم: خَبَثَ الحديد؛ بل قال: «خَبَثَ الذهب والفضة»؛ لأنّ المؤمن مثل الذهب والفضة، ويَلحقه خَبَثَ مثل التراب الذي يغطي الذهب، فالمرض إذا نزل بالمؤمن فإنه يُذهِب خطاياه ويبقى الصافي، مثل الذهب والفضة. ولا شك أنّ المؤمن إذا عَلِمَ هذا أدرك أنّ في

المحنة منحة، وهذا يعينه على الصبر، بل لو أيقن يعينه على الرضى، بل لو تيقّن يعينه ذلك على الشكر؛ لِمَا في هذه المصيبة من خير عظيم أراده الله عز وجل بعبده.

والمقصود هنا: العبد الصابر، أمّا الذي يتسخط –والعياذ بالله– فهذا لم يُرَدْ به الخير، الذي إذا نزلت به المصيبة تسخط بقلبه أو بقوله أو بفعله هذا لم يُرَدْ به الخير؛ بل أراد الله به شرًّا.

«وَإِذَا أَرَادَ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ» بعدله سبحانه وتعالى، « أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ» فلم يُصِبْ منه، «حَتَّى يُوَافِيَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» يعني: حتى يوافيَ هو به يوم القيامة، فيأتي يوم القيامة وعليه ذنبه، فيعاقَب به يوم القيامة.

الشاهد: أنّ الشيخ ذكر هذا من باب ذكر ما يعين المؤمن على الصبر. وقد تقدّم ذكر أمور تعين المؤمن على الصبر.

[وَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ اللهَ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَى، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخْطُ» حَسَّنَهُ التِّرْمِذِيُّ]

هذا الحديث رواه الترمذي، وابن ماجه، وذكره الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة. «إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ» "إن عظم الجزاء" يشمل الثواب والعقاب «مَعَ

عِظَمِ الْبَلَاءِ»، «وَإِنَّ اللهَ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا اِبْتَلَاهُمْ» فالبلاء دليل على حب الرحمن سبحانه وتعالى؛ لِمَا تقدَّم من أنّ في البلاء إرادة الخير.

إذن؛ إذا نزل البلاء بالمؤمن فإنه يَعلَم أمرين عظيمين:

الأوّل: أنّ الله أراد به الخير إن صبر.

الثاني: أنّ الله يحبه إن امتثل شرعه.

وهذان إن باع الإنسان الدنيا بما فيها من أوّلها إلى آخرها بهذين الأمرين لَمَا كان خاسرًا: إرادة الله به الخير، وحب الله له. والله لو أنّ الإنسان جَمَعَ الدنيا من أوّلها إلى آخرها واشترى بها حب الله لَمَا كان خاسرًا، فكيف والأمر أنّ مصيبة نزلت به ويحتاج أن يصبر فقط؟!

وقد قال أبو سعيد الخدري: يا رسول اللهّ أيُّ الناس أشد بلاءً؟ لمّا رأى النبي صلى الله عليه وسلم تشتد عليه الحمى، حتى أنه كانت توضَع عليه الثياب واللُّحف فتوضع اليد فوق اللُّحف فيُشعَر بالحرارة صلى الله عليه وسلم! فلمّا رأى هذا وكان النبي صلى الله عليه وسلم يوعَك في حال المرض كما يوعَك الرجلان، قال: يا رسول الله! أيُّ الناس أشد بلاءً؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «الأنبياء»، قال قلت: ثم مَن يا رسول الله، قال: (ثم الصالحون، إن كان أحدهم ليُبتلى بالفقر حتى ما يجد أحدهم إلا العباءة يَحوفها»، حتى اللباس لا يجد لباسًا، لا يجد إلا العباءة يستتر بها، وهو صالح، ومع هذا يقول النبي صلى

الله عليه وسلم: «وإن كان أحدهم ليَفرح بالبلاء كما يَفرح أحدكم بالرخاء» رواه ابن ماجه، وصحَّحه الألباني. فكان الصالحون مع نزول المصائب بهم يفرح أحدهم بالبلاء إذا نزل به؛ لأنه يَعلَم أنّ الله يريد بعبده الخير هنا، وأنّ الله يحب العبد إذا ابتلاه، فيفرحون، وقد كان السلف يفعلون ذلك؛ فكان أحدهم إذا مرَّ به زمن لم تَنزل به مصيبة يتفقَّد نفسه: ما الذي فعلته؟ ما الذي أخَّر البلاء؟ وذلك لقوة إيمانهم.

وقد جاء في الحديث: أنه في يوم القيامة يودّ أهل العافية لو أنهم كانوا قد نُشروا بالمناشير. يوم القيامة إذا رأى أهل العافية ما يُعطاه أهل البلاء من الصبر من عظيم الثواب يودّ الذي كان معافى في الدنيا والذي كان إذا رأى المبتلى قال: الحمد الله الذي عافني مما ابتلاك به –وهذا مشروع ولكن لا يُسمِعه– فيوم القيامة إذا رأى ما يعطاه المبتلى من الثواب يتمنى أنه لو كان في الدنيا قد نُشِرَ بالمناشير ؛ لعظم الثواب، ولكن هذا لا يعني أنه في الدنيا يتمنى هذا، لا يجوز، بل يسأل الله العافية، لكنّ المقصود: أنّ أهل البلاء مع الصبر ينالون ثوابًا عظيمًا يوم القيامة، وهذا يعين المؤمن على الصبر.

إذن؛ إذا عَلِمَ المؤمن أنّ الله إذا أراد به خيرًا ابتلاه، وأن الله عز وجل إذا أحب عبدًا ابتلاه، وأنّ ثواب الصبر على البلاء يوم القيامة عظيم جدًّا، فإنّ هذا

يعينه على الصبر، بل قد يصل إلى الرضى، بل قد يصل إلى شكر الله عز وجل على هذه المصيبة .

«فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَى» هذا تفسير لأوّل الحديث: (إنّ عِظَم الجزاء مع عظم البلاء)، «فمَن رضي فله الرضى» هذه الرابعة، من رضي: أي لم يَسخط، ليست هذه مرتبة الرضى الاصطلاحية عند أهل العلم؛ وإنما هي الصبر بأنواعه: صبر أو رضي أو شكر؛ فله الرضى من الله عز وجل. إذن مَن صبر عند المصيبة رضي الله عنه.

«وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخْطُ» مَن سخط وتَسخَّط يَسخط الله عليه؛ لأنه فَعَلَ كبيرة من كبائر الذنوب، فالتسخُّط عند نزول المصيبة من كبائر الذنوب.

إذن؛ عظم الجزاء مع عظم البلاء، فمَن ابتلي فرضي؛ عظم ثوابه، وله الرضى من الرحمن. ومَن ابتلي فسخِط فله السخط والعياذ بالله؛ لأنه فعل كبيرة من كبائر الذنوب.

إذن؛ الشيخ –رحمه الله عز وجل– من فِقْهِه ومعرفته لطريقة العلماء ذكر الأمور الثلاثة التي لابد من ذكرها في مسألة الصبر:

–ما يتعلق بالتأصيل في الصبر ودرجته.

– ما ينافيه. وقد ذكر الشيخ أمثلة على القول والفعل.

– ما يعين عليه.

فكل هذا قد ورد في هذا الباب. ولو أنّ المؤمن قرأ هذا الباب بفقه لاستراح راحة عُظْمَة في الدنيا؛ لأنّ الذي يزعج المؤمن في الدنيا نزول البلاء فإذا قرأ ما في هذا الباب ذهب هذا الإزعاج، فيهنأ بحياته، ويرجى له الدرجة العليا يوم القيامة، فيعيش حياة طيبة، ويرجى له المقام الطيب في جنة الخلد. فما أحوجنا إلى هذا الباب وإلى فقه ومعرفة حدِّه!

[فِيهِ مَسَائِلُ: الْأُولَى: تَفْسِيرُ آيَةِ التَّغَابُنِ]

﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾، وقد تقدم بيانها ومناسبتها للباب.

[الثَّانِيَةُ: أَنَّ هَذَا مِنَ الْإِيمَانِ بِاللهِ]

لا شك أنّ الصبر على أقدار الله من أعظم شُعَبِ الإيمان.

[الثَّالِثَةُ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ]

وأنه من كبائر الذنوب، وأنه من خصال الكفر، ومن أفعال الكفار التي ينبغي على المسلم أن يتنزه عنها.

[الرَّابِعَةُ: شِدَّةُ الْوَعِيدِ فِيمَنْ ضَرَبَ الْخُدُودَ، وَشَقَّ الْجُيُوبَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ]

أنه ليس منا، ليس على طريقتنا، وأنه ملعون والعياذ بالله.

[الْخَامِسَةُ: عَلَامَةُ إِرَادَةِ اللهِ بِعَبْدِهِ الْخَيْرَ]

العلامة: أن يُنزِل به البلاء وأن يصبِّره على ذلك، ولذلك كان الصالحون يشتاقون إلى البلاء.

[السَّادِسَةُ: عَلَامَةُ إِرَادَةِ اللهِ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ]

عَلَامَةُ إِرَادَةِ اللهِ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ بعدله؛ وهو: أن يمسِك عنه ولا يُنزِل به البلاء حتى يوافيَ يوم القيامة بذنبه. وهذا لا يعني أنّ المؤمن يسأل الله البلاء، بل يسأل الله العافية، لكن إذا نزل به البلاء بإرادة الله عز وجل صَبَرَ، وإن كَمُلَ رَضِيَ، وإن عَظُمَ إيمانه شَكَرَ.

[السَّابِعَةُ: عَلَامَةُ حُبِّ اللهِ لِلْعَبْدِ]

من علامات حب الله للعبد أن يبتليه، فنزول البلاء علامة على حب الله للعبد، ولذلك لا ينبغي لنا أن نحتقر مبتلى، نحمد الله على العافية ونسأل الله العافية لكن لا نحتقر المبتلى؛ فإنّ البلاء للمؤمن الذي يفعل ما يخالف شرع الله عند نزول البلاء علامة على حب الله للمبتلى، وهذا أنواع، قد يبتلي الله المرأة بشيء يعكّر جمالها، قد يبتليها الله بالبهاق مثلًا فتصبر وتحتسب، هذه علامة على أنّ الله يحبها، قد يبتلي الله العبد بمرض قد لا يُحِسّ به الناس ولا يدركه الناس لكن هو يعاني منه ويتألم منه ويصبر ويحتسب؛ هذه علامة على أنّ الله يحبه، لا سيما إذا وُفِق للصبر؛ فهذا دليل بين على حب الله عز وجل له.

[الثَّامِنَةُ: تَحْرِيمُ السَّخَطِ]

وأنه من كبائر الذنوب، وقد يصل التسخط بالعبد إلى أن يَكْفُر بالله والعياذ بالله، إمّا بأن يترك دين الله لنزول المصيبة به أو بغيره كما يفعل الملاحدة اليوم، فإنّ كثيرًا ممَّن لَعِبَ بهم الشيطان إنما ألحدوا لِمَا يرونه من المصائب؛ وهذا لقلّة عقلهم وجهلهم بالشرع. وإمّا بأن يعتقد في الله ما هو كفر، كأن يعتقد –وأعوذ بالله من هذا الاعتقاد– أنّ الله ظالم، أعوذ بالله صعب أن يقولها الإنسان لولا البيان، يعتقد بنزول المصيبة أنّ الله سبحانه وتعالى ظالم –والعياذ بالله–، فهذا يصل إلى الكفر، وإذا نزل عن هذا فهو كبيرة من كبائر الذنوب.

[التَّاسِعَةُ: ثَوَابُ الرِّضَا بِالْبَلَاءِ]

من ثواب الرضى بالبلاء وأعظمه وأكمله وأكرمه: أنّ الله يرضى عن العبد، وإذا رضى الله عن عبد أرضاه. وليس معنى إرضائه أنه لا تَنزل به مصيبة؛ ولكن المعنى: أنه يرضيه في الدنيا بالاستقامة، ويرضيه في الآخرة بعلوّ المنزلة، فمَن ابتُلي فرضي فمِن جزائه وأعظم جزائه: أن يرضى الله عنه، ومَن رضي الله عنه جاءه كل خير في الدنيا والآخرة.

الدرس الواحد والخمسون: شرح بَابُ مَا جَاءَ فِي الرِّيَاءِ

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَن يهدي الله فلا مضلَّ له، ومَن يُضلل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء: ١]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: ٧١]

أمّا بعد:

فإنّ خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكلّ محدَثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النار.

ثم يا معاشر الفضلاء؛ درسنا في إكمال شرح كتاب التوحيد، ولا شك أنّ التوحيد أعظم وأثمن واغلى ما عند المؤمن، وأنّ فقه التوحيد ينبغي أن يحرص عليه المؤمن؛ لأنّ التوحيد به صلاح القلوب، وصلاح القلوب سبب لكل صلاح، فكل صلاح مع فساد القلب لا خير فيه ولا يكون صلاحًا في الحقيقة، أمّا إذا وُجِد التوحيد ووُجِد معه صلاح الاعمال فإنّ الاعمال يعظم فضلها ويَعظُم أجرها، بل إنّ اهل العلم قرَّروا أنّ الموحِّد ولو كثرت ذنوبه أحسن حالًا مما نقص توحيده ولو عظُمَت عباداته، فينبغي على المؤمن أن يحرص على ما يصلح قلبه ويصلح عمله ويرضي ربه سبحانه وتعالى من قبل وبعد؛ وهو التوحيد. فنكمل شرح ما اورده شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله عز وجل في كتاب التوحيد. وهذا الكتاب كل من قرأه من المؤمنين يتعلَّق قلبه به لا ينظر إلى الناس ولكن ينظر إلى ما في هذا الكتاب، فو الله لقد قرانا الكتاب مرارًا وتكرارًا فلم نجد فيه إلا قال الله قال رسوله صلى الله عليه وسلم مع تقرير فَهم السلف الصالح رضوان الله عليهم، وإني لأجزم جزمًا أسأل عنه بين يدي الله عز وجل أنّ كل ما في هذا الكتاب قد اجمع عليه صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسلف الأمّة وفيه الخير كله لأمّة محمد صلى الله عليه وسلم. فنواصل شرح ما في هذا الكتاب.

[بَابُ مَا جَاءَ فِي الرِّيَاءِ]

الشيخ –رحمه الله– عقد هذا الباب والباب الذي يليه ليبيِّن شرك الإرادة والقصد، فللإرادة شرك بيَّنه شيخ الإسلام –رحمه الله عز وجل– في هذين البابَين: هذا الباب والباب الذي يليه.

الرياء: مصدر راءى مراءاة ورياء، **ومعناه في اللغة**: أَظهَر العمل الصالح على خلاف ما يُبطِن، أو: إظهار خلاف ما في الباطن.

ولذلك مثلًا لو لقيتَ إنسانًا فبششت في وجه وكلمته بكلام طيب وأنت تُبغِضه في قلبك فأنت راءيته لغة؛ لأنك أظهرت له خلاف ما في باطنك.

وأصله مشتق من الرؤية.

أمّا الرياء في الشرع: هو إظهار العمل الصالح أمام الناس بقصد مدحهم.

إظهار العمل الصالح: فالرياء متعلق بالأعمال الصالحة، فمَن أظهر عادة من العادات أمام الناس ليمدحه الناس لا يقال إنه راءى شرعًا؛ وإنما الرياء متعلق بالأعمال الصالحة.

أمام الناس بقصد مدحهم: فهو يقصد بهذا الإظهار أن يُثني عليه الناس، وأن يمدحه الناس، وأن يذكره الناس بخير. مثلًا: يذهب إلى المسجد أوّل الناس، هو الذي يفتح باب المسجد، وهذا عمل صالح؛ لكنه يريد من هذا أن يقال: فلان حمامة مسجد، فلان لا يغيب عن المسجد، فلان أوّل الناس دخولًا

وآخر الناس خروجًا! هذا قصده؛ يريد أن يُمدح، سواء أراد مع ذلك وجه الله أو لم يُرِدْ؛ كله رياء.

وقولنا: "بقصد مدحهم" قَيْد مهم؛ لأنّ الإنسان لو أظهر العمل الصالح أمام الناس لقصد مشروع فهذا ليس رياء؛ بل محمود ويثاب عليه الإنسان، مثلًا: لو أنك علمتَ أنّ هناك من الناس مَن يتأثر بك ويَقتدي بك، فأظهرت لهم ولو بلحن القول أنك تقوم الليل؛ رجاء أن يقتدوا بك، لا بقصد أن يمدحوك، ولا بقصد أن يُثنوا عليه –وهذا سياتي في التسميع إن شاء الله–. أو كنّا في رحلة معًا، فقمتُ الليل، وأظهرتُ العمل أمامكم، ورفعتُ صوتي بالقراءة لتسمعوا ذلك؛ وأنا قصدي أن تقتدوا بي، ليس قصدي أن أُمدَح ولا أن يُثنى علي، فهذا أمر محمود لأنه من الأمر بالمعروف؛ لكنه أمر دقيق لا ينبغي للإنسان أن يَغفل فيه، فإنّ بين الأمرين شعرة، ومَن لم يجاهد نفسه فقد يقع، والسلامة لا يعدلها شيء.

يعني مثلًا: ذهبتَ إلى أمك تسلِّم عليها بعد صلاة العشاء، وجلست معها تسامرها، ثم قمت أمامها تصلي وردك من تلك الليلة، وقصدت أن تُظهِر هذا لأمك، لا من أجل أن تمدحك، ولا من أجل أن تُثني عليك؛ لكن من أجل أن تَسُرّ قلبها، وأن تُفرِح قلبها، فهذا محمود ومقصود شرعًا، ومن البر والإحسان، هذا ليس من الرياء.

فضابط الرياء: أن يكون الإظهار بقصد مدح الناس للإنسان.

ومن الرياء: التسميع. والفرق بينهما:

-أنّ الرياء يتعلق بإظهار العمل الصالح ليُرى.

- أمّا التسميع فيتعلق بالكلام.

والتسميع له أربع صور:

الصورة الأولى: أن يُسمِّع الإنسان بعمله الصالح أثناء العمل بقصد أن يُمدح. مثال: إنسان مع إخوانه في الغرفة، قام يصلي من الليل، وما انتبه له أحد أنه قام يصلي من الليل، فكبر وما انتبه له أحد، فرفع صوته بقراءة الفاتحة من أجل أن يُسمِعهم، ليعرفوا أنه يصلي من الليل، هذا أثناء العمل، وهذا تسميع ورياء.

الصورة الثانية: أن يقع بعد العمل وقد كان مقصودًا عند العمل. مثال: إنسان قام يصلي من الليل وما رآه أحد، لكن وهو يصلي -إمّا قبل أو أثناء العمل- قَصَدَ أنه غدًا سيحدِّث الناس أنه صلى، هذا لم يقع أثناء العمل أنه سمَّع؛ ولكن قَصَدَ التسميع أثناء العمل، فلمّا أصبح وصلى الفجر مع أصحابه إمّا أنه صرَّح وقال: يا أخي قيام الليل في هذه الليالي صعب ومتعب، البارح ما كدت أستيقظ لصلاة الفجر بعد أن صليت! أو يقول لهم: ما سمعتم الصوت المزعج البارحة وأنا أصلي كدت أن أسلِّم من ذلك الصوت! ومقصوده أن

يخبرهم أنه كان يصلي! فهذا من التسميع المحرَّم الذي يُبطِل العمل على ما يأتي تفصيله.

الصورة الثالثة: أن يسمِّع بعمله بعد العمل من غير أن يكون ذلك مقصودًا عند العمل، أن يَتحدَّث بعمله الصالح بعد فراغه منه من أجل أن يُمدَح. مثلًا: يكون صلى الليل لله، ما قصد التسميع، لكن لمّا صلى الفجر وجلس مع أصحابه جاء الشيطان يتلاعب وقال: أخبرهم أنك كنت تصلي البارحة حتى يرفعوك، انظر ما أحد يلتفت لك، لكن لو عرفوا أنك صالح وتقيم من الليل يقدِّمونك ويرفعونك! فقال: أنا البارحة صليت أو كذا حتى يُشعرهم أنه صلى، فهذا ليس من التسميع وليس له أثر في العمل؛ لكنه حرام، هو بذاته حرام، لكن لا أثر له في العمل؛ لأنّ العمل قد مضى وانقضى بشروطه وتمامه، فلا أثر له.

الصورة الرابعة: أن يسمِّع بعمله لقصد مشروع، وليس لقصد المدح –الصور الثلاثة المتقدِّمة كلها بقصد المدح أمّا الصورة الرابعة: أن يسمِّع بعمله لقصد مشروع– ولقصد أن يشجع الناس، مثال: رجل عنده مال، وأنعم عليه فأكرمه مع المال بحب التصدُّق، فكان يجلس مع أغنياء فيهم بخل، فقال لهم مثلًا: أنا بحمد الله أتصدّق وكلّما تصدقت وجدت خيرًا.

كان هناك رجل من الأغنياء يحدث الشيخ ابن باز –رحمه الله– يقول: ما طلبني الشيخ ابن باز شيئًا من المال إلا أعطيته، مهما كان، قال: لأنه يضعه في

موضعه، يقول: وما أعطيت الشيخ شيئًا إلا ورُدَّ لي أربعة أضعافه من الله عز وجل.

فلو أنّ رجلًا أنعم الله عليه بالمال وجلس مع أغنياء وأخبرهم أنه يتصدق وأنه بحمد الله ما ينقص ماله من الصدقة، بل كلّما تصدق اندفعت عنه شرور، وحصلت له خيرات، وزاد ماله؛ بقصد أن يشجعهم على الصدقة، لا بقصد أن يُمدح، ولا بقصد أن يُثنى عليه، فهذا عمل صالح يؤجَر عليه، ولو استجابوا واقتدوا به فإنه يكون له أجرهم. فيجب التفريق بين هذه الأمور.

والرياء والسمعة من الأعمال القبيحة، وقد بيَّن النبي صلى الله عليه وسلم سوء عاقبة الرياء والمرائين؛ فقال صلى الله عليه وسلم: «إنّ أوّل الناس يُقضى يوم القيامة: رجل استُشهد» أي: فيما يظهر للناس، قُتل في المعركة؛ فظنوه شهيدًا «استشهد، فأُتي به فعرَّفه نِعَمَه فعَرَفها، فقال: ما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استُشهدتُ، قال: كذبت، ولكنك قاتلت ليقال: جريء، وقد قيل، ثم أُمِرَ به فسُحِب على وجهه حتى أُلقي في النار» هذا أوّل الثلاثة، رجل عنده قوة وشجاعة وقاتل في سبيل الله فيما يراه الناس، في معركة شرعية، حتى قُتِل، فعرّفه الله نعمه، فعرفها، فقيل له: ما عملتَ فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استُشهدتُ، فيقال: كذبت، وإنما قاتلت ليقال: هو جريء هو شجاع، وقد قيل، ثم أُمر به، فسحب على وجه حتى ألقى في النار.

«ورجل تعلَّم العلم وعلَّمه، وقرأ القرآن، فأُتي به فعرَّفه نعمه، فعَرَفها، فقال: فما عملت فيها؟ قال: تعلَّمتُ العلم وعلَّمته، وقرأتُ فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلَّمت ليقال عالم، وقرأت القرآن ليقال هو قارئ، وقد قيل، ثم أُمر به فسُحب على وجهه حتى أُلقى في النار»، رجل تعلَّم العلم، وهذا من أشرف الأعمال الصالحة، وعلَّمه، وقرأ القرآن، فأُتي به، فعرَّفه نعمه؛ كيف أنّ الله يسَّر له أن يُعلِّم وأن يجالس وأن يحفظ القرآن، فعَرَفها، فقال: فما عملت فيها؟ الله أكبر ما أعظمه من سؤال أذاب قلوب الصالحين! كان السلف الصالح –رضوان الله عليهم– يخافون من هذا السؤال خوفًا شديدًا، قال: فما عملت فيها؟ قال تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن، أي: لك يا رب، قال: كذبت، ما تعلَّمت لهذا وما علَّمت، وإنما تعلَّمت ليقال عالم، ترائي الناس، وقد قيل، ثم أُمر به فسُحب على وجهه حتى أُلقي في النار.

«ورجل وسَّع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال كله، فأُتي به فعرَّفه نعمه، فعَرَفها، فقال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن يُنفَق فيها إلا أنفقتُ فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال: هو جواد، وقد قيل، ثم أُمِر به فسُحب على وجهه حتى أُلقى في النار»، فهذا الثالث رجل أنعم الله عليه بالمال، ولم يكن بخيلًا شحيحًا؛ بل أنفَق وأنفَق وأنفَق؛ ولكنه كان يقصد رئاء الناس، فأُتي به فعرَّفه نعمه، فقال: فما عملت فيها؟ فقال: ما تركت من سبيل

تحب أن ينفَق فيها إلا أنفقتُ فيها لك، قال: كذبت، ولكنك أنفقتَ ليقال: هو جواد، كريم، وقد قيل، ثم أُمِر به فسُحب على وجهه فأُلقي في النار. وهذا مآل شديد يجعل المؤمن يخاف الرياء خوفًا شديدًا.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «مَن سمَّع سمَّع الله به، ومَن راءى راءى الله به» والحديث في الصحيحين. أي: مَن سمَّع الناس بالعمل الصالح في الدنيا ليُمدَح سمَّع الله به يوم القيامة على رؤوس الخلائق ليُفضَح، فيُحقِّره ويُصغِّره في ذلك الموقف العظيم، ومَن راءى الناس بعمله الصالح ليُمدَح راءى الله به يوم القيامة على رؤوس الخلائق ليُفضَح. وهذا مآل شديد، فالمرائي -والعياذ بالله- متوعَّد بالفضيحة في العرصات، ومتوعَّد بالنار.

وقد سمَّى النبي صلى الله عليه وسلم الرياء شركًا؛ فقال صلى الله عليه وسلم: «إياكم وشرك السرائر»، قالوا: يا رسول الله! وما شرك السرائر؟ قال: «يقوم الرجل فيصلي فيزيِّن صلاته جاهدًا؛ لِمَا يرى من نظر الناس إليه، فذاك شرك السرائر» رواه ابن خزيمة، والبيهقي، وابن أبي شيبة، وحسَّنه الألباني. فحذَّر النبي صلى الله عليه وسلم أمّته من شرك السرائر، وفسَّر هذا الشرك بمثال؛ وهو: أن يقوم الرجل فيزيِّن صلاته؛ لماذا؟ هل لأنه خاشع أو لأنه يخاف الله؟ لا، ولكن لِمَا يرى من نظر الناس إليه، فيجتهد في خشوعها وإطالتها لِمَا يرى من نظر الناس إليه، فهذا شرك السرائر.

وقال صلى الله عليه وسلم: «إنّ أخوَف ما أخاف عليكم: الشرك الأصغر»، قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «الرياء». رواه أحمد، والطبراني والبيهقي في الشعب، وصحَّحه الألباني. وهذا يدل على أنّ الرياء من أقبح أنواع الشرك الأصغر؛ لأنّ النبي صلى الله عليه وسلم كأنه خَصَّه به، فقال: الرياء.

فالأصل في الرياء أنه شرك أصغر، وقد يصل –والعياذ بالله– إلى درجة لا تَصدُر من مؤمن؛ بل هي النفاق الخالص؛ وذلك: إذا غلب على أعمال الإنسان، سواء في الأصل أو في الفرع، يأتي بالشهادتين رياء، يصلي رياء، يصوم رياء، ولا يذكر الله إلا قليلًا، وهذه الدرجة لا تصدر من مؤمن بل هي النفاق، فمَن كان متَّصفًا بهذا فهو منافق نفاقًا خالصًا؛ كما قال الله عز وجل عن المنافقين: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (النساء: ١٤٢)، فالأصل في الرياء أنه شرك أصغر، لكن لا ينبغي للإنسان أن يتهاون فيه ويقول: هو شرك أصغر! لانه يكفي أنه شرك أصغر حتى يَحذَره المسلم، فكيف وهو قد يَترقَّى حتى يُدخِل الإنسان في عِداد المنافقين ويُخرِجه من عِداد المؤمنين؛ وذلك إذا غلب على أعماله كلها.

ما أثر الرياء في الأعمال؟

- إن كان الرياء في العمل كله؛ فإنه يُبطله باتفاق العلماء، سواء كان يريد مع الرياء وجه الله –وهذا الغالب على المسلمين إذا وقع هذا منهم– أو كان يريد

الرياء فقط، فإنّ هذا العمل باطل حابِط باتفاق العلماء. فإن كان العمل واجبًا وَجَبَ على فاعل هذا أن يتوب إلى الله وأن يُعيد هذا العمل. وإن كان العمل مستحبًا وَجَبَ على فاعل هذا أن يتوب إلى الله.

مثال: إنسان دخل في الصلاة المكتوبة، فرأى مَن يُعظَّم، رأى الملك أو رئيس الدولة، أو رأى شيخًا، أو رأى رجلًا ثريًّا يحب طلاب العلم ويحب الصالحين، فراءى من أوّل الصلاة إلى أن قال: السلام عليكم ورحمة الله، السلام عليكم ورحمة الله، وهو يرائي، هذا صلاته باطلة، وتَنقلب من كونها عملًا صالحًا يثاب عليه إلى كونها عملًا يعاقَب عليه، ما الواجب عليه؟ أن يتوب إلى الله حتى يزيل الإثم، وأن يُعيد هذه الصلاة، فإنّ ذمته لا زالت مشغولة بهذه الصلاة.

مثال آخر: إنسان جاء إلى المسجد النبوي لصلاة التراويح، فرأى مَن يُعظَّم، فراءاه بصلاة التراويح، في العادة يصلي ثلاث ركعات ثم يمشي، لكن هذه المرة بقي إلى أن سلَّم الإمام، لأنه كلّما سلَّم رأى الرجل المعظَّم جالسًا، فيقوم يصلي مع الإمام؛ يرائي هذا الرجل من أوّل هذه الصلاة إلى آخرها، إلى أن أوتَر، فهذا عمل باطل، ويَنقلب من كونه عملًا صالحًا إلى كونه عملًا يعاقَب عليه، والواجب عليه أن يتوب إلى الله، ولا يجب عليه أن يعيدها لأنها نافلة.

- أمّا إذا وقع الرياء في بعض العمل، ففيه تفصيل في نقاط:

النقطة الأولى: أن يوجَد الرياء في أصل العمل الذي يتصل بعضه ببعض؛ مثل الصلاة، فالصلاة عمل واحد، مفتَتح بالتكبير ومختَتم بالتسليم، فإذا وُجِدَ الرياء في أصل العمل، فعندما كبَّر تكبيرة الإحرام كان يرائي؛ فهذا العمل باطل باتفاق السلف، والواجب على مَن فعله أن يتوب إلى الله، وأن يَخرج من هذا العمل فورًا، وأن يبدأه من جديد.

مثال: إنسان في صلاة المغرب ابتُلي؛ ضحك عليه الشيطان فمع تكبيرة الإحرام راءى رجلًا من الناس مهما كان، فبعدما قرأ الفاتحة وسمع الإمام يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة: ٥)، تنبَّه فقال: كيف أقرأ وأسمع ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وأصرِف نيتي إلى هذا المخلوق؟! هل يكفيه هذا؟ الجواب: لا، بل يجب أن يتوب، ثم يقطع هذه الصلاة ويبدأ من جديد؛ لأنها لم تنعقد أصلًا، فقد بدأت باطلة، فإذا استمر فإن البطلان يستمر حتى إذا دفع الرياء، وهذا يغفل عنه كثير من الناس. إذن؛ إذا وقع الرياء في أصل العلم الذي يتصل بعضه ببعض ثم أراد الإنسان أن يتخلص منه؛ فليتب إلى الله ويقطع هذا العمل، ويبدأ العمل من جديد، يكبِّر تكبيرة الإحرام ليبدأ مخلصًا.

النقطة الثانية: أن يوجَد الرياء في أثناء العمل، ويدفعه صاحبه أثناء العمل.

مثال: إنسان كبر في الصلاة مخلصًا لله، ثم في الركعة الثانية سمع صوت الشيخ قد دخل المسجد، وهو يريد تزكية من أجل الدراسات العليا، فلمّا سمع

صوت الشيخ زاد في إظهار الخشوع وتطبيق السنة؛ مراعاة للشيخ، لكن سرعان ما تذكّر فقال: أعوذ بالله مَن الشيخ وأنا قد قلت الله أكبر؟! فدَفَعَ هذا الرياء، فهذا عمله صحيح، ولا يضر هذا القصدُ عَمَلَه؛ لأنه قد تاب، والتائب من الذنب كمَن لا ذنب له، وقد بدأ مخلصًا وختم مخلصًا، فيَصدُق عليه أنه قد عَمِلَ العمل الصالح خالصًا لله عز وجل.

النقطة الثالثة: أن يوجَد الرياء في أثناء العمل؛ لكنه يستمر إلى الفراغ من العمل، وهذا في العمل الذي يتصل بعضه ببعض.

مثال: إنسان دخل في الصلاة مخلصًا لله، وفي الركعة الثانية سَمِعَ شخصًا دخل يريد منه دنيا فراءاه، ثم استمر مرائيًا إلى أن قال: السلام عليكم ورحمة الله، السلام عليكم ورحمة الله! الفرق بين هذا وبين الذي قبله: الذي قبله ما خَتَمَ مرائيًا، ولذلك يسميه العلماء خاطِر؛ واندفَع، أمّا هذا: فرضي بالرياء، واستمر عليه إلى أن فرغ، فهو لم يتب في أثناء العمل.

وقد اختلف العلماء في حكم عمله: والراجح –والله أعلم– أنّ عمله يَبطُل؛ لأنه عَمِلَ عملًا أشرك فيه مع الله غيره، ومَن عمل عملًا أشرك فيه مع الله غيره تركه الله وشركَه، فالله منه بريء، وهو للذي أشرَك.

ما الواجب عليه؟ إن كان العمل واجبًا يجب عليه أن يتوب إلى الله وأن يعيده، وإن كان العمل مستحبًّا يجب عليه أن يتوب إلى الله سبحانه وتعالى.

النقطة الرابعة: أن يوجَد الرياء في العمل الذي يَتجزّأ، وهنا يَبطُل ما وقع فيه الرياء دون غيره.

مثال: بعد الصلاة يوجَد أذكار: أستغفر الله ، أستغفر الله، أستغفر الله، اللهم أنت السلام ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام، لا إله إلا الله، إلخ، إنسان قال: أستغفر الله مخلصًا لله، ثم لَمَحَ شخصًا بجواره فجاءه الرياء في الثانية فقال: أستغفر الله، وهو يرائي، ثم رجع إلى الإخلاص في الثالثة، قال: أستغفر الله، ما الحكم؟ قوله أستغفر الله الأوّل صحيح، وقوله أستغفر الله الثانية باطل حابط، وقوله أستغفر الله الثالثة صحيح، إذن؛ ماذا يفعل إذا أراد أن يَتخلَّص؟ يتوب إلى الله من الرياء ليزول الذنب، ويقول: أستغفر الله ثالثة؛ حتى يأتي بالذكر المشروع، هذا ليس واجبًا، ولكن مستحب.

التسبيح: سبحان الله، والحمد الله، والله أكبر، ولا إله إلا الله، كل كلمة ذكر. مثال: إنسان جالس في المسجد يقول: سبحان الله، والحمد الله، والله أكبر ولا إله إلا الله لله، مخلصًا لله، فدخل عليه رجل ففُتن به؛ فقال: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم، وهو يرائي! ثم رجع إلى الإخلاص، قوله هذا: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم الذي راءى فيه يَبطل، أمّا ما قبله وما بعده الذي حُلِّي بالإخلاص لا يَبطل؛ بل هو عمل صالح يُقبَل منه.

هذا ما يتعلق بالرياء من جهة أثره في العمل، ولعلنا نذكر بعض الأحكام أثناء التعليق على الأدلة.

[وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ} الآية (الكهف: ١١٠، فصلت: ٦)]

هذه الآية العظيمة التي مُلئَت بالتوحيد يقول الله عز وجل فيها: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾، بدأ بها الشيخ –رحمه الله– ليبيِّن الأصل في هذا الباب وغيره؛ وهو: ألَّا يُعبَد إلا الله، وألَّا يُصرَف شيء من العبادة لغير الله عز وجل.

ودلالة هذه الآية على هذا الأصل من ثلاثة أوجه:

الوجه الأوّل: في قول الله عز وجل آمرًا نبيه أن يقول: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾، فالمعبود بحق إله واحد هو الله، فالمعبودات كلها لو جُمعِت في إله واحد لَمَا كانت مستَحقَّة لقليل عبادة، فكيف وهي مفرَّقة؟ ﴿أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾، والإله: هو المعبود المستحق للعبادة، وما عدا الله ممَّن تُصرَف لهم العبادات فإنهم لا يَستحقون العبادة، وهذا الصَّرف شرك.

الوجه الثاني: في قوله –عز وجل–: {فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا}، والعمل الصالح: هو الذي يكون صاحبه مخلصًا لله ومتَّبعًا لرسول الله صلى الله عليه وسلم. والله! ليس في الدنيا عمل صالح يخلو من هذين: الإخلاص لله، والمتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

شَرْطُ قَبولِ السَّعيِ أنْ يَجتَمعَا فيه: إصابةٌ وإخلاصٌ معا

الوجه الثالث: في قول الله –عز وجل–: {وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا}، "أحدًا" نكرة في سياق النهي؛ فتَعمّ كل أحد، إذا جاءنا شخص وقال: هذه الآيات التي تذكرونها في التوحيد والنهي عن الشرك، هذه في عبادة الأصنام، أولئك الذين يعبدون الحجر، ويعبدون البقر، أمّا نحن ما نعبد الأصنام، نحن ما نشرِك، نحن نعبد نبيًّا نجعله شفيعًا، كيف تجعله شفيعًا؟ قال: أدعوه، أنذر له، أذبح له، إذن هو يَصرِف العبادة له، نقول له: هذا أحد أو ليس أحدًا؟ إن قال: ليس أحدًا؛ فقد خالف العقلاء، إن كان يعتقد هذا فعقله ذاهب، مرفوع عنه القلم، وإن قال: هو أحد، قلنا: ربك قال: {وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا}، وانظر يا عبد الله كيف أنّ ربنا سبحانه وتعالى قال: {وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا}، ما قال: ولا يشرك بعبادة الله؛ بل قال: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ}؛ لأنّ الذي خلقك ورباك بالنِّعم هو الله، فهو المستحق بالعبادة، كيف يَخلُق ويُعبَد غيره؟! كيف يُنعِم ويُعبَد غيره؟!

ثم تأمل في هذه الآية كيف بُدئت بالتوحيد، وخُتِمت بقول ربنا: {وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا}، {يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ} التوحيد، ثم خُتِمَت: {وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا}؛ لتَعلَم أيها المسلم أنّ التوحيد لابد فيه من: توحيد الله والبراءة من الشرك، ما يكفي أن تقول: لا إله إلا الله، ولا تتبرأ من الشرك، لابد من التحلية والتخلية، لابد من إثبات التوحيد والبراءة من الشرك بكل صوَره.

ثم إنّ هذه الآية فيها فوائد، منها:

الفائدة الأولى: في قوله تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ} مَن المخاطب؟ محمد صلى الله عليه وسلم، {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ} هذا فيه: بيان مقام النبي صلى الله عليه وسلم، وفيه رَدٌّ على الغلاة، وردٌّ على الجفاة. ردٌّ على الغلاة الذين يقولون: إنّ محمدًا صلى الله عليه وسلم ليس بشرًا، بل هو نور خالص –كما يقولون–، الله الذي خلقه سبحانه وتعالى وكرَّمه يقول له: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ}، ويكفي هذا، لكن تأمل قال: {أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ} قال: {مثلكم}حتى ما يأتي تأويل، ما يأتي مؤوِّل فيقول: بشر يعني كذا، قال: {مِثْلُكُم}، ولكن ليس كسائر البشر: {يُوحَى إِلَيَّ}، وفي هذا ردٌّ على الجفاة الذين يجعلون النبي صلى الله عليه وسلم كسائر الناس، ويجعلون كلامه ككلام

سائر الناس، فيقولون: السنة هذه نأخذ بها في الفضائل فقط، وبحسب عقولنا، فيجعل أحدهم نفسه كالنبي صلى الله عليه وسلم! وهؤلاء جفاة.

أمّا أهل العدل والحب الحقيقي للنبي صلى الله عليه وسلم فإنهم يقولون: إنه بشر لا يُعبَد ونبي لا يُكذَّب صلى الله عليه وسلم. يعتقدون أنه بشر؛ لكنه خير البشر، ويعتقدون أنه من ولد آدم لا يستحق شيئًا من العبادة؛ لكنه سيد ولد آدم صلى الله عليه وسلم، شرَّفه ربه بأن جعله خاتم الأنبياء والمرسلين، وسيد ولد آدم أجمعين، صلى الله عليه وسلم وعلى سائر الأنبياء.

الفائدة الثانية: في قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ مَن كان يؤمِّل لقاء ربه، وهذا هو اللقاء الخاص الذي يكون عن رضى، والمعنى: مَن كان يرجو لقاء ربه راضيًا عنه، وإلا فكل إنسان يكدح في هذه الدنيا ثم سيلاقي الله، سواء كان صالحًا أم غير صالحًا، سواء ممن يؤتى كتابه بيمينه، أو يؤتى كتابه من وراء ظهره، سيلاقي الله هذا اللقاء العام، أمّا الذي في هذه الآية فهو اللقاء الخاص، فمَن كان يرجو لقاء ربه راضيًا عنه ربه، تريد أن تلقى الله يوم القيامة والله راضٍ عنك؟ اِلزم هذين: اعمل صالحًا ولا تشرك بالله أحدًا.

إذن؛ الذي يأتيك ويقول لك: استغِث بأهل القبور، انذِر لأهل القبور! هل يُغيِّر من عقيدتك شيئًا لو لم يَنزل في التوحيد إلا هذه الآية؟ والله لا يُغيِّر من

العقيدة شيئًا، فكيف والقرآن كله توحيد؟! من أوّله إلى آخره يأمرنا بالتوحيد الخالص ويحذِّرنا من الشرك بأنواعه، فمَن كان منكم يريد ويَأمُل ويَطلب ويسعى أن يلقى الله وهو راضٍ عنه: فليعمل عملًا صالحًا، ولا يشرك بعبادة ربه أحد. وقد قرَّر شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله– من وجوه كثيرة أنّ هذه الآية تدل على أنّ المؤمنين يرَون الله في عرصات يوم القيامة.

فهذه الآية يا إخوة كنز عند المؤمن، ينبغي أن يجعلها شِعارًا، ولا يَغفل عنها أبدًا، بل يتذكرها دائمًا، ويجعل ما فيها في عمله دائمًا.

ما علاقة الآية بالباب؟

علاقة الآية بالباب: أنها بيَّنت أنّ الرياء محرَّم؛ لأنّ الرياء من الشرك –كما سيأتينا–، وهذه الآية –بالوجوه الثلاثة التي ذكرناها– دلت على النهي المؤكِّد عن الشرك، والرياء ينافي الإخلاص، فيَدخل في عموم هذه الآية.

[وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا: «قَالَ تَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ مَعِي فِيهِ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ]

هذا الحديث في صحيح مسلم، يرويه نبينا صلى الله عليه وسلم عن ربنا سبحانه وتعالى، فهو حديث قدسي؛ لفظه ومعناه من الله عز وجل، غير أننا لم نُتعبَّد بلفظه كالقرآن، ولم يُتحَدّ الناس بلفظه كالقرآن، «قَالَ تَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ» أي: أنّ الله سبحانه وتعالى له الغنى المطلَق عن الشرك؛

لماذا؟ لأنه المستحق للعبادة سبحانه وتعالى، وكل من سواه لا يستحق شيئًا من العبادة، فالله أغنى الشركاء عن الشرك، ومعنى «أغنى« هنا: أنّ له الغنى المطلَق التام الكامل عن الشرك. «مَنْ عَمِلَ عَمَلاً» "عملًا" نكرة في سياق الشرط فيَعمّ كل عمل، كل عمل يُعمَل لله في أصله يَدخل في هذا؛ صغيرًا أو كبيرًا، فالدعاء عمل يدخل في هذا، والذبح عمل يَدخل في هذا، والصلاة عمل تَدخل في هذا، «مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ مَعِي فِيهِ غَيْرِي» أي: أراد وجه الله وأراد غيره؛ فجمع بينهما، لاحِظوا هذا لم يُرِدْ غير الله فقط، لا، وإنما أشرك: أراد وجه الله وأراد غير الله، «تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ» أي: لا جزاء له من الله، بل يقال له: اُطلُب جزاءك ممَّن أشركته مع الله، وهيهات هيهات أن يكون ذلك!

ولذلك جاء في الحديث أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إذا جمع الله الناس ليوم القيامة ليوم لا ريب فيه، نادى منادٍ: مَن كان أشرَك في عَمَلٍ عَمِلَه لله أحدًا؛ فليَطلُب ثوابه من عند غير الله، فإنّ الله أغنى الشركاء عن الشرك» رواه الإمام أحمد، والترمذي، وحسَّنه الألباني، وقال الأرنؤوط: صحيح لغيره. يوم القيامة ينادي منادٍ: مَن عمل لله –ولم يقل: لغير الله– من عمل لله أشرك فيه أحدًا مع الله فليَطلب ثوابه من عند غير الله، والناس كلهم في ذلك اليوم فقراء لا يملكون شيئًا؛ «فإنّ الله أغنى الشركاء عن الشرك».

وجاء الحديث الذي معنا بلفظ: «قال الله عز وجل: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمَن عمل لي عملًا أشرك فيه غيري فأنا منه بريء، وهو للذي أشرَكَ» رواه الإمام أحمد، وابن ماجه، وصحَّحه الألباني. فهذا يدل على أنّ مَن عمل لله عملًا صالحًا لكن أشرك فيه غيره معه فإنّ الله لا يقبله.

وهذا يدل –أيضًا– على أنه يأثم؛ كيف يدل على أنه يأثم؟ لأنّ الله قال: «تركته وشركه»، وهذا يدل على أنه يُغضِب الله، فهو آثم بهذا. هذا إذا عَمِلَ العمل لله وأشرك فيه مع الله، فكيف بمَن عَمِل العمل لغير الله؟ كيف الذي يأتي ويسأل أهل القبور؟ يأتي لأصحاب القبور ويقول: يا فلان المدد، يا فلا الولد! جعل الدعاء لصاحب القبر خالصًا! إذا كان الذي يدعو الله ويدعو غير الله مع الله يَرُدّ الله دعاءه وعمله ويَغضب عليه، فكيف الذي يجعل دعاءه كله لغير الله؟! ويَكذِبون على الناس يقولون: إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأصحاب القبور! والله لا يزيدونهم إلا ويلًا وثبورًا.

وجه مناسبة هذا الحديث للباب: أنّ مَن راءى فقد أشرك مع الله، فيكون عمله حابطًا، لا يقبله الله إلا إذا تاب أثناء العمل ولم يكن في أصل العمل، وما عدا ذلك فكل صوَر الرياء تدخل في هذا الحديث.

الدرس الثاني والخمسون: تابع شرح بَابُ مَا جَاءَ فِي الرِّيَاءِ

إنّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَن يهدي الله فلا مضلَّ له، ومَن يُضلل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء: ١]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: ٧١]

أمّا بعد:

فإنّ أحسن الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكلّ محدَثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النار.

ثم يا معاشر الفضلاء؛ إنّ درسنا في التوحيد، ولا زلنا نتحدث عن البابَين اللذَين عقدهما الشيخ –رحمه الله– للكلام عن شرك الإرادة والقصد، حيث

تقدم الكلام عن الرياء، وبيَّنا أنّ الرياء: أن يُظهِر العبد العمل الصالح أمام الناس ليَمدحوه. وبيَّنا حكم الرياء، وأنّ الأصل في الرياء انه شرك أصغر؛ فهو أعظم من كبائر الذنوب وأعظم من البدع؛ إذ هو من الشرك، ولكنّ الأصل فيه أنه شرك أصغر لا يُخرِج من الملة؛ ولكنه قد يَتدرج بالإنسان حتى يصل إلى درجة لا تَصدُر من مؤمن، بل تكون من المنافق النفاق الخالص؛ وهي: أن يغلب الرياء على أعمال الإنسان كلها أصلها وفرعها، فيرائي الناس بأعماله كلها ولا يذكر الله إلا قليلًا، فهذا –والعياذ بالله– لا يجامع الإيمان، ولا يَصدُر من مؤمن؛ وإنما هو من النفاق الخالص.

وبيَّنا أثر الرياء على الأعمال، وقلنا إنّ الرياء إذا وُجِد في العمل كله من أوّله إلى آخره فإنّ العمل يَبطل باتفاق العلماء، فإن كان العمل واجبًا وَجَبَ عليه أن يتوب إلى الله وأن يعيد ذلك العمل؛ لأنّ ذمته لم تبرأ منه، وإن كان مستحبًّا فالواجب عليه أن يتوب إلى الله، وإذا أتى به مرة أخرى فهذا خير له؛ لأنّ الأوّل لم يُقبل منه بل هو باطل مردود عليه.

و بيّنا أنّ الرياء إذا طرأ على العمل ولم يكن موجودًا في العمل كله فإنه لا يَخلو من أحوال:

الحال الأولى: أن يوجَد في أصل العمل الذي يَتصل بعضه ببعض. وهنا لا ينعقد هذا العمل أصلًا، بل يكون العمل باطلًا، فإذا أراد الإنسان أن يَتخلَّص من الرياء فالواجب عليه أن يَخرج من العمل، وأن يَبدأ العمل من جديد.

الحال الثانية: أن يطرأ الرياء في أثناء العمل ثم يدفعه صاحبه قبل أن يختمه، فيكون العامل بدأ مخلصًا وختم مخلصًا. وهذا لا يضر العمل، بل ولا يُنقِص الثواب؛ لأنه لمّا دفعه تائبًا خائفًا من الله فقد محى هذا الذنب، فالندم توبة، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له، فلا يبقى هذا الذنب أصلًا، والعمل قد انعقد في أصله، وخُتم بخير، فلا يضرُّه هذا الرياء.

الحال الثالثة: أن يطرأ الرياء أثناء العمل بعد أن انعقد على الإخلاص ويستمر إلى ختام العمل. فهذا محل خلاف، والراجح –والله أعلم–: أنه يُبطِل العمل، وأنه إذا وقع في أمر واجب وَجَبَ على العبد أن يتوب إلى الله وأن يعيد هذا العمل الواجب، أمّا إذا وقع في عمل مستحب وَجَبَ عليه أن يتوب إلى الله، وإن أعاده فخير له.

الحال الرابعة: أن يقع الرياء في العمل الذي لا يتصل بعضه ببعض، بل يقع على أجزاء منفصلة ينفصل بعضها على بعض انفصالًا كليًّا. فهذا يبطل منه ما وقع فيه الرياء، أمّا ما لم يقع فيه الرياء فإنّ العمل يكون صحيحًا.

بقيت نقطة لم أذكرها البارحة، أظن أنني نسيتها:

ما الحكم لو أنّ الإنسان عمل العمل الصالح مخلصًا لله -عز وجل-، ثم عَلِمَ الناس بعمله، فأثنوا عليه خيرًا؟

الجواب: هذا لا يخلو من حالين:

الحال الأولى: أن يكون علم الناس بعمله من جهته وقَصَدَ من ذلك أن يَمدحوه، فهذا من التسميع، وهو حرام في ذاته، ويأثم به الإنسان، لكنّ التحقيق: أنه لا يُبطِل العمل؛ لأنّ العمل قد مضى صحيحًا فلا يَعقُبه هذا بالإبطال.

الحال الثانية: أن يعلم الناس بعمله الصالح من غير طريقه أو من غير قَصْدٍ منه؛ فيُمدَح ويُثنى عليه؛ فيُسَر بهذا ويفرح بهذا، وهذا لا يضر عمله؛ بل هو من الإيمان، ومن علامات الإيمان؛ فإنّ النبي صلى الله عله وسلم قال: «مَن سرَّته حسنته، وساءته سيئته؛ فذاك المؤمن» رواه الترمذي، وصحَّحه الألباني. فمَن سرَّته الحسنات وفرح بأنه أطاع الله سبحانه وتعالى، وساءته سيئته، فإذا زلَّت القدم ووقع في معصية ساءه ذلك، وقاده ذلك إلى الندم والتوبة، فذاك المؤمن الممدوح.

وسُئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الرجل يعمل الخير فيثني عليه الناس فيَسرُّه ذلك؟ فقال صلى الله عليه وسلم: «تلك عاجل بشرى المؤمن» رواه مسلم في الصحيح.

فالمسلم إذا عمل عملًا صالحًا وقَبِلَه الله منه فإنه يُبشَّر، يُبشَّر في الدنيا بما يدل على قَبول عمله الصالح، ويُبشَّر في الآخرة بالجنة.

يُبشَّر في الدنيا بما يدل على قبول عمله الصالح؛ ومن ذلك: أن يرى همته في الأعمال الصالحة قد علت وارتفعت بعد أن عمل عملًا صالحًا، فهذا دليل على أنّ عمله الصالح قد قُبِل، فإنّ من علامة قَبول العمل الصالح: أن يفعل العبد عملًا صالحًا بعده. فإذا وجد المؤمن في نفسه ارتفاعًا في همته وعلوًّا في همته بعد أن عمل عملًا صالحًا فإنّ هذه بشارة بأنّ عمله قد قُبل، فيفرح ويرجو ولا يغتر بهذا. ومن البشارات: أن يثني الناس الصالحون عليه بعمله الصالح من غير قَصْدٍ منه، فإنّ هذه علامة على أنّ الله قد قَبِلَ عمله، وهذه البشرى العاجلة، ومَن حصلت له البشرى العاجلة تحققت له البشرى الآجلة، وبُشِّر يوم القيامة في الآخرة بالجنة.

هذا ملخّص لأهم ما ذكرناه في درسنا البارحة، وقرأنا بعض ما كتبه الشيخ وشرحناه، وبقي الحديث الاخير، يقرأه الشيخ ياسين وفقه الله والسامعين.

[وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ –رضي الله عنه– مَرْفُوعًا: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ؟»، قَالُوا: بَلَى. قَالَ: «الشِّرْكُ الْخَفِيُّ، يَقُومُ الرَّجُلُ فَيُصَلِّي فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ؛ لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ» رَوَاهُ أَحْمَدُ]

هذا الحديث رواه الإمام أحمد، وابن ماجه، والحاكم وصحَّحه، ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني. وهذا الحديث الصحيح فيه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم خرج على أصحابه يومًا وهم يتذاكرون المسيح الدجال، فقال صلى الله عليه وسلم: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ؟»، «أَلَا أُخْبِرُكُمْ» "ألا" أداة عَرْضٍ، يُقصَد منها التنبيه على أمر مهم، فعندما أقول مثلًا: ألا أخبركم عن شرط قبول العمل؟ أي: أعرض عليكم أن أخبركم بشرط قبول العمل، ومقصودي: أن أنبّهكم إلى أنّ الأمر الذي سأخبركم عنه عظيم، ولذلك يقول العلماء: "ألا" أداة عَرْضٍ يُقصَد منها التنبيه على عظم الأمر.

«أَلَا أُخْبِرُكُمْ مَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ؟» ومعنى هذا: أنّ النبي صلى الله عليه وسلم كان يخاف على أمّته من الفتن، ومن أعظم ما كان يخافه النبي صلى الله عليه وسلم على أمّته من الفتن: فتنة الدجال، التي هي أعظم فتنة ما بين خَلْق آدم –عليه السلام– إلى قيام الساعة، وما من نبي إلا كان حقًّا عليه أن يُحذِّر أمّته من فتنة المسيح الدجال، ولذا شُرِعَ لنا أن نستعيذ بالله من فتنة المسيح الدجال في كل صلاة، ولكن هناك أمر هو أخوَف عند النبي صلى الله عليه وسلم على الأمّة من المسيح الدجال.

وقيل: المسيح الدجال سُمِّي المسيح لأنه يَمسح الأرض كلها في أربعين يومًا، يطأ الأرض كلها في أربعين يومًا؛ إلا مكة والمدينة.

وقال بعض أهل العلم: سُمِّي المسيح لأنه ممسوح العين اليمنى، فعينه اليمنى ممسوحة، ولا مانع من الأمرين، فهو سُمِّي المسيح لهذا وهذا.

(الدجال) أي: أنّ صفته اللازمة الغالبة الظاهرة أنه كثير الكذب، شديد الكذب، عظيم الكذب، ولا شك، فهو يكذب أعظم الكذب وأظلم الكذب؛ يزعم أنه إله، فهو دجال، وهو من بني آدم، وسيَخرج في آخر الزمان، وخروجه من علامات الساعة الكبرى. وقد بيَّنا ما يتعلَّق به في شرحنا على كتاب الفتن وأشراط الساعة من صحيح الإمام مسلم.

(قَالُوا: بَلَى) يا رسول الله أخبرنا، قال: (الشِّرْكُ الْخَفِيُّ)، سماه النبي صلى الله عليه وسلم شركًا، ووَصَفَه بكونه خفيًّا؛ وذلك لأمرين:

الأمر الأوّل: أنّ طرائقه خفيّة، يَتسلل إلى القلب تسلُّلًا، فهو شركٌ خفيّ، ولذلك قَلّ مَن يسلم منه من الناس.

الأمر الثاني: لأنّ مكانه القلب، فهو خفيّ؛ لا يطلع عليه أحد من الناس.

ثم فسَّره النبي صلى الله عليه وسلم بالمثال؛ قال: «يَقُومُ الرَّجُلُ فَيُصَلِّي فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهَ؛ لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ»، وفي رواية: «من نظر الرَّجل».

قال: «يَقُومُ الرَّجُلُ» هذا عند أهل العلم يسمى: مفهوم اللَّقب، وليس له مفهوم مخالَفة، فهذا لا يُخرِج المرأة مثلًا، بل المرأة مثل الرجل في هذا، «فيصلي فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهَ، لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ إِلَيْه» وهذا هو الرياء.

إذن؛ النبي صلى الله عليه وسلم يخاطِب أصحابه الذين هم أزكى الأمّة على الإطلاق بأنه صلى الله عليه وسلم يخاف عليهم الرياء أعظم من خوفه عليهم من المسيح الدجال؛ لماذا؟ مع أنّ فتنة المسيح الدجال أشد فتنة وأعظم فتنة! لماذا يخاف النبي صلى الله عليه وسلم على أصحابه فتنة الرياء أعظم من خوفه عليهم من فتنة المسيح الدجال؟ قال العلماء:

الوجه الأوّل: لأنّ المسيح الدجال له علامات ظاهرة تدلّ على دَجَلِه وتَدفع فتنته، فهو كذّاب ظاهر الكذب، يدّعي أنه إله؛ وهذا كَذِبٌ ظاهر، وهو ممسوح العين اليمنى؛ فهو ناقص، ونَقْصُه ظاهر، ومكتوب بين عينيه "كافر": (ك، ف، ر)؛ يقرأها كل مؤمن قارئً كان أو لم يكن يقرأ، فحتى الذي لا يعرف يقرأ الحروف يقرأها على جبين الدجال بين عينيه: (ك، ف، ر). هذا وجه.

أمّا الرياء فهو أمر خفي، ليست له علامات، يتسلل إلى القلب تسلُّلًا، وتُمِدُّه الشهوة النفسانية، فطبيعة الإنسان أنه يحب أن يُمدَح، فهذا الخفي الذي تُمِدُّه الشهوة الإنسانية في نفس الإنسان يتسلل تسللًا؛ فهو أشد من هذه الناحية من فتنة المسيح الدجال.

الوجه الثاني: أنّ فتنة المسيح الدجال لها زمن تقع فيه، وقد يدرك الإنسان هذا الزمن وقد لا يدركه، أمّا الرياء يمكن أن يقع فيه الإنسان في أيِّ وقت، وفي أيِّ مكان، فقد يقع فيه الإنسان في أشرف الأوقات وأشرف الأمكنة ممكن ان

يقع الإنسان في الرياء، في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم أو في المسجد الحرام، وفي وقت الصلاة يمكن أن يقع الإنسان في الرياء.

إذن؛ شدّة خوف النبي صلى الله عليه وسلم الرياءَ على أصحابه وأمّته أعظم من خوفه عليهم من فتنة المسيح الدجال؛ بسبب هذين الوجهين.

فإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم خاف الرياء على الصحابة؛ فإنه يجب على كل واحد منّا أن يخاف الرياء على نفسه، وأن يكون حارسًا لقلبه، وأن يجاهد نفسه جهادًا عظيمًا في هذا الباب.

إياك يا عبد الله أن تأمن الرياء وأن تقول: الحمد الله أنا سليم من الرياء، فإنّ من أَمِنَه أوشك أن يُفتَن، ولكن خَفْ على نفسك من الرياء، وكلّما كثرت أعمالك الصالح فليَشتد خوفك، وكن حارسًا لقلبك مانعًا من تسلل الرياء إليه، فإن تَسلَّل الرياء إليك فاجتهد في إخراجه من قلبك، وجاهد نفسك في هذا الشأن.

[فِيهِ مَسَائِلُ: الْأُولَى: تَفْسِيرُ آيَةِ الْكَهْفِ]

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ)، وقد فسرناها.

[الثَّانِيَةُ: الْأَمْرُ الْعَظِيمُ فِي رَدِّ الْعَمَلِ الصَّالِحِ إِذَا دَخَلَهُ شَيْءٌ لِغَيْرِ اللهِ]

نعم، والله إنه لأمر عظيم أن يُرَدّ العمل الصالح على صاحبه وألّا يقبله الله، والله! إنها لمصيبة، والله! لأن يصاب الإنسان بذهاب ماله وعياله وأهله والدنيا

أهوَن من أن يصاب بمصيبة أن يُرَدّ عليه عمله، فمَن رُدَّ عليه عمله فقد أصيب بمصيبة عظمى أعظم من مصائب الدنيا كلها.

والشاهد من هذا: أنّ المؤمن إذا عَلِمَ سبب هذه المصيبة الكبرى وهي الرياء؛ يجب عليه أن يُخلِّص أعماله من الرياء وأن يجاهد في ذلك جهادًا عظيمًا، ألا ترَون أنّ الإنسان يُجهِد نفسه في اليوم كله من أوّله إلى آخره ولربما كان صائمًا ومع ذلك يعمل من أجل أن يحصِّل شيئًا من المال، فكيف لا يجاهد في دفع المصيبة العظمى وهي رَدُّ العمل عليه؟! وذلك بتجنُّب سبب ذلك.

[الثَّالِثَةُ: ذِكْرُ السَّبَبِ الْمُوجِبِ لِذَلِكَ؛ وَهُوَ: كَمَالُ الْغِنَى]

الله عز وجل إذا عمل العبد العمل له وأشرَك فيه معه غيره، أيًّا كان الذي أشرك به، سواء كان ملكًا أو رسولًا أو وليًّا أو شمسًا أو قمرًا أو حجرًا أو غير ذلك؛ فإنّ الله يَرُدُّ عليه عمله ويَغضب عليه؛ لكمال غناه سبحانه وتعالى، فهو أغنى الشركاء عن الشرك سبحانه وتعالى.

[الرَّابِعَةُ: أَنَّ مِنَ الْأَسْبَابِ أَنَّهُ تَعَالَى خَيْرُ الشُّرَكَاءِ]

أنّ من أسباب رَدِّ العمل الذي يقع فيه شيء من الشرك: أنّ الله خير الشركاء؛ فلا ينازِع شريكه، بل إذا وُجِدَ شريك في العمل ترك العمل للشريك، سبحانه وتعالى فهو خير الشركاء.

[الْخَامِسَةُ: خَوْفُ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم عَلَى أَصْحَابِهِ مِنَ الرِّيَاءِ]

نعم النبي صلى الله عليه وسلم خاف الرياء على أصحابه خوفًا شديدًا؛ وأنتم تَبَعٌ للصحابة في هذا الخوف، فالنبي صلى الله عليه وسلم كان يخاف عليكم الرياء، النبي صلى الله عليه وسلم بالمؤمنين رؤوف رحيم، يريد للمؤمنين جميعًا أن يَتخلَّصوا مما يُغضِب الله، وكان يخاف على أمّته الفتن، ويحذِّر أمّته من الفتن، وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم خاف على أصحابه الذين يربيهم ويعلمهم الرياءَ فمن باب أولى أنتم في هذا الزمان ومَن يأتي بعدكم.

[السَّادِسَةُ: أَنَّهُ فَسَّرَ ذَلِكَ: أَنَّ يُصَلِّي الْمَرْءُ لِلَّهِ، لَكِنْ يُزَيِّنُهَا لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ إِلَيْهِ]

هذه الفائدة فيها أنّ النبي صلى الله عليه وسلم فسَّر الرياء والشرك الخفي: بأن يصلي المرء لله، ليست صلاته خالصة لغير الله، بل يصلي لله، لكن يدخلها الشرك، يزيِّنها لِمَا يرى من نظر رجل إليه، فكيف بمَن كانت صلاته كلها رياء من أوّلها إلى آخرها؟! والنبي صلى الله عليه وسلم فسّر الرياء بهذا المثال لأنه من أكثر صور الرياء وقوعًا.

وهذا يرشدك يا عبد الله إلى أنّ الشيطان أحرص ما يكون في باب الرياء أن يُدخِل الرياء عليك في الصلاة؛ لأنّ أعظم أعمالك الصلاة، فإذا أفسد عليك الصلاة فقد نال منك المُنى، ولذا ينبغي أن نتنبه لصلاتنا، وأن نحرس صلاتنا، وألَّا نغفل عنها طرفة عين.

تابع الدرس الثاني والخمسون: شرح بَابٌ مِنَ الشِّرْكِ إِرَادَةُ الْإِنْسَانِ بِعَمَلِهِ الدُّنْيَا

[بَابٌ مِنَ الشِّرْكِ إِرَادَةُ الْإِنْسَانِ بِعَمَلِهِ الدُّنْيَا]

هذا الباب الثاني من أبواب شرك الإرادة والقصد. وأوّل ما نبدأ به: ما الفرق بين هذا الباب والباب الذي قبله؟ لأنّ بعض الناس قالوا: لِمَ لم يُدمِج الشيخ البابَين في باب واحد؟ لماذا فرَّق بينهما؟ بعض الناس ظنوا أنهما بمعنى واحد؛ فالرياء وإرادة الدنيا بمعنى واحد، وليس الأمر كذلك، بل بين البابَين فرق من ثلاثة أوجه:

الوجه الأوّل: من جهة المقصود. ففي باب الرياء المقصود: الذكر والثناء، ففي باب الرياء الإنسان يقصد أن يُمدَح، وأن يُثنى عليه، وأن يُذكَر بالألسنة ذكرًا حسنًا، أمّا في هذا الباب فالمقصود: مصلحة دنيوية؛ من مال أو زوجة أو نحو ذلك.

الوجه الثاني: من جهة الباعث على المقصود، ما الذي بعث الإنسان على المقصود في الرياء؟ وما الذي بعث الإنسان على المقصود في إرادة الدنيا؟ أمّا في الرياء فالباعث: تعظيم المخلوق، لمّا عظَّم المرائي المخلوق وعَظُمَ في قلبه رءاه، لو لم يَرَهُ عظيمًا لَمَا رءاه.

إذن؛ الباعث على الرياء: تعظيم المخلوق.

أمّا الباعث على إرادة الدنيا: فهي شهوة النفس، ، النفس تحب المال، وتحب الدنيا، فالباعث على إرادة الدنيا الشهوة وليس تعظيم المخلوق.

الوجه الثالث: من جهة المشرَّك. ففي الرياء المشرَّك مخلوق، فهو شرك في نية المعمول له، المرائي عندما صلى لله ولهذا المخلوق من أجل أن يمدحه، عمل العمل لله ولهذا المخلوق من أجل أن يَمدحه.

أمّا إرادة الدنيا فإنما هي في العمل لأجله وليس في المعمول له، يعني: الذي يصلي ويريد بالصلاة أن يُعطى أمولًا من المحسنين، هو صلى لله، المعمول له هو الله، لكن عمل العمل من أجل ماذا؟ من أجل أن يحصل على المال، ويحصل على الثواب.

إذن؛ المشرَّك في الرياء: المخلوق، فهو شرك في نية المعمول له. أمّا في إرادة الدنيا فليس الشرك في نية المعمول له؛ وإنما في العمل لأجله، لماذا عمل العمل؟ من أجل كذا وكذا، من أجل الثواب ومن أجل الدنيا.

فهذه فروق ثلاثة تدلك يا عبد الله على الفرق بين البابين، وأنّ باب الرياء أخبث من إرادة الدنيا.

حكم إرادة الإنسان بعمله الدنيا: قد يكون شركًا أكبر وقد يكون شركًا أصغر، فمتى يكون شركًا أكبر؟ ومتى يكون شركًا أصغر؟

يكون شركًا أكبر: إذا كان في الأعمال كلها، في أصلها –وهو الدخول في الإسلام– وفي فروعها، كلها من أجل الدنيا، فإذا كان عمل الإنسان كله من أوّله إلى آخره، ما من عمل له إلا من أجل الدنيا فهذا شرك أكبر، فإن كان لم يأتِ بالشهادتين فهذا المشرك، وإن أتى بالشهادتين فهذا المنافق.

المشرك ما أتى بالشهادتين، وعمله كله للدنيا، فهذا مشرك أصلًا.

المنافق أظهَر أنه مسلم، لماذا أظهر أنه مسلم؟ هل خوفًا من الله؟ لا، بل من أجل الدنيا، فمَن أظهر الإسلام وعمله كله –أصله وفرع– للدنيا فهو منافق، ومَن لم يظهِر الإسلام وعمله كله للدنيا فهو المشرك.

وما عدا ذلك يكون شركًا أصغر، بمعنى: إذا كانت إرادة الدنيا في بعض العمل فهذا شرك أصغر.

ما أثر إرادة الدنيا على العمل؟

إن كانت إرادة الإنسان الدنيا في العمل خالصة للدنيا، "خالصة" أي: العمل كله للدنيا، فالعمل باطل، وصاحبه آثم؛ لقوله تعالى: (مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ) (هود: ١٥)، وهذه الآية سيذكرها الشيخ ونتكلم عنها إن شاء الله، ولقول النبي صلى الله عليه وسلم: «مَن تعلَّم علمًا مما يُبتغى به وجه الله، لا يَتعلَّمه إلا ليصيب به عَرَضًا من الدنيا؛ لم يجد عَرْفَ الجنة يوم القيامة» رواه أبوا داود، وابن ماجه، وصحَّحه الألباني.

فدلّ هذا على أنه إذا كانت النية للدنيا فقط فالعمل حابط باطل وصاحبه آثم، وقد اتفق العلماء على هذا.

أمّا إذا حدثت إرادة الدنيا في العمل، ولم يكن العمل كله للدنيا، فللعلماء أربع اتجاهات، يعني مثلًا: إنسان يصوم من أجل الثواب، ومن أجل أن يُعطى من أموال المحسنين –لأن المحسنين يعطون الصُّوام– فهو أراد الدنيا وأراد الدين، هنا للعلماء أربع اتجاهات:

الاتجاه الأوّل: يرى أنّ كل إرادة للدنيا –قلَّت أو كثرت– في العمل تُبطله، مثال ذلك: مَن توضأ للوضوء والتبرُّد، مثلًا الجو حار واقترب وقت الصلاة فقام يتوضأ بنيتَين: نية دينية وهي الوضوء الشرعي، ونية دنيوية وهي أن يتبرَّد، قال هؤلاء –ولاحظوا أني أذكر قول العلماء، أمّا اختياري فسأذكره فيما بعد–: وضوؤه باطل ولا يصح أن يصلي به؛ لأنّ الله عز وجل قال: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ (البينة: ٥)، وهذا غير مخلص، وقالوا: أيضًا لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «إنّ الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصًا، وابتُغي به وجهه» رواه النسائي، وقال الحافظ بن حجر: إسناده جيد، وقال الألباني: حسن صحيح.

أين الدلالة؟ الدلالة: أنّ النبي قال: «إنّ الله لا يَقبل من العمل إلا ما كان له خالصًا وابتغي به وجهه» وهذا لم يكن خالصًا لله.

وممَّن ذهب إلى هذا ونصره: ابن حزم الظاهري.

الاتجاه الثاني: أنّ العمل يصحّ مع إرادة الدنيا، بل إنّ إرادة الدنيا لا تضر العمل، ولا تُنقِص الأجر؛ لماذا؟ قالوا: لأنّ الله أذن في ذلك، كما في قوله سبحانه: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ (البقرة: ١٩٨)، وهذا في الحج في التجارة بإجماع أهل العلم، يعني أنّ الله أذن لنا في ذهابنا إلى الحج أن ننوي الحج ونريد التجارة، وهذه إرادة للدنيا. وأيضًا قالوا: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «مَن أحب أن يبسَط له في رزقه، ويُنسأ له في أجله فليصل رحمه» والحديث في الصحيحين. قالوا: إذن النبي صلى الله عليه وسلم حث على إرادة الدنيا بصلة الرحم، ولكن ليست خالصة وإنما يريد وجه الله ويريد أن يوسَّع عليه في الرزق.

الاتجاه الثالث: العبرة بالأصل والباعث، فإن كان الباعث والأصل والمحرَّك النية الدينية فالعمل صحيح وإن تَبِعَتْه نية الدنيا.

مثال: شخص حج عن الغير وأخذ مالًا ولكن نيته الحج والإحسان إلى أخيه، ونوى النقود تَبَعًا، فالمحرِّك له هو الحج، هذا لا يضر العمل. أمّا إن كان الأصل والباعث والمحرِّك النية الدنيوية، فلولا الدنيا لَمَا تحرَّك وما فَعَلَ؛ فهذا عمله باطل.

مثلًا: العمال الذين يساعدون في تجهيز السُّفر لتفطير الصائمين، ويأخذون مكافئة من أصحاب السُّفر، إن كان أصل النية التقرُّب إلى الله والإحسان بهذا العمل ونية الأُجرة والمكافئة تابعة؛ فعملهم صحيح، ويثابون عليه. أمّا إذا كانت النية الأصلية هي الدنيا والتقرُّب كان تابعًا، يعني: لولا الأجرة ما قاموا وتعبوا وجاؤوا بالماء والقهوة والشاي، لولا الأجرة جلس على العمود، فهذا عمله باطل، لا يثاب عليه.

الاتجاه الرابع: النظر إلى الغالب على القلب، إن كان الغالب على القلب نية الدنيا فالعمل باطل، وإن كان الغالب على القلب النية الدينية فالعمل صحيح.

هذه اتجاهات العلماء الأربعة في المسألة. **والتحقيق –والله أعلم–: التفصيل في النقاط التالية:**

النقطة الأولى: أن يريد العبد بالعمل وجه الله ويريد من الدنيا ما أذن الله بإرادته، فهذا لا يضر العمل، بل هو جمْع بين الحسنين.

مثل: أن يحج بنية الحج والتقرُّب وأن يبيع بضاعته، مثلًا يأتي من المغرب ومعه بضاعة، أو يأتي من أوزباكستان ومعه بضاعة، أو يأتي من أمريكا ومعه بضاعة، ماذا يريد؟ يريد الحج، ويريد أن يبيع بضاعته، فهذا لا يضر العمل، ولا يُنقِص الأجر؛ لأنّ الله عز وجل أذن في ذلك: {لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا

مِنْ رَبِّكُمْ} (البقرة: ١٩٨)، وهذه كما قال الشيخ الأمين: في التجارة بإجماع المفسرين.

مثال آخر: أن يصل الرجل رَحِمَه تقربًا إلى الله وإرادة أن يوسَّع عليه في رزقه ويُنسأ له في أجله، فهذا لا يضر العمل، وقد أذن الله فيه على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم.

مثال ثالث: أن يقتل المسلم الكافر في المعركة يريد وجه الله، ويريد سَلَبَه، هذا لا يضر؛ لأنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مَن قَتَلَ قتيلًا فله سَلَبَه» هذا حث، فهذا ما يضر.

النقطة الثانية: أن يريد العبد بالعمل وجه الله ومصلحة دنيوية تحصل بالعمل؛ سواء نواها أو لم ينوها فهي حاصلة حاصلة.

مثال: التبرُّد بالوضوء ألا يحصل بالوضوء؟ يحصل سواء نويتَ أو لم تنوِ، إذا جئت تمشي إلى المسجد ودخلت المسجد ألا تجد برد المكيف؟ تجده؛ نويت ذلك أو لم تنوِه، يعني لو أنّ واحدًا دخل المسجد وهو لا يريد التبرد؛ يأتيه الحر في المسجد؟! لا، البرد حاصل حاصل، وهذا لا يضر العمل؛ لأنّ النية لم تُكسِبه شيئًا، النية زائدة ليس لها أثر، التبرد حاصل حاصل، فهذا لا يضر العمل.

النقطة الثالثة: أن يريد العبد بالعمل وجه الله ومصلحة دنيوية غير ما تقدَّم، وكانت النية الأصلية: الدنيا، ولولاها لَمَا فعل، فهذا العمل باطل؛ لعموم الأدلة،

مثل: أن يحج عن الغير لأجل المال، فلولا المال لَمَا حج، وبقي مع عياله، لكن من أجل المال يحج، فهذا أصل النية هو الدنيا، والتقرب تابِع، فهذا العمل باطل.

النقطة الرابعة: أن يريد العبد بالعمل وجه الله ومصلحة دنيوية غير ما تقدَّم، وكانت النية الأصلية: الدينية، وأمّا الدنيا فتابعة، فهذا لا يبطل العمل ولكن يُنقِص الأجر.

إذا عَلِمْنا هذا؛ فينبغي أن يَعلَم المؤمن أنّ الأكمل للعبد: أن يريد بالعمل وجه الله، وألّا يريد الدنيا مطلقًا؛ سواء ما أُذِنَ فيه، أو ما يحصل، أو كانت النية الأصلية الدينية، أو كانت النية الأصلية الدنيوية، لكن إذا كانت النية الأصلية الدنيوية هذا يُبطِل العمل، الأكمل للعبد أن يريد وجه الله، أمّا الدنيا فستأتيه، ما يحتاج أن ينوي إرادتها، لقول الله عز وجل: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ} (النساء: ١١٤)، التحقيق في معنى هذه الآية: أنّ مَن كان يريد ثواب الدنيا فليرضى الله، وليعمل لله؛ لأنّ ثواب الدنيا وثواب الآخرة إنما هو من عند الله، وإذا أرضيتَ الله أتاك ثواب الدنيا وأتاك ثواب الآخرة.

أيضًا يدل لذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: «مَن كانت الآخرة همَّه جعل الله غناه في قلبه، وجَمَعَ له شَمْلَه، وأتته الدنيا وهي راغمة» رواه الترمذي، وابن ماجه، وصحَّحه الألباني.

إذن؛ الكمال للمؤمن أن يبتغي بعمله الصالح وجه الله، وإذا ابتغى وجه الله فليُبشِر بالفضل من الله سبحانه وتعالى، تأتيه الدنيا أحلى وأبْرَك وأكمل مما أرادها.

وهذا كله إذا كانت الدنيا مقصودة لذاتها، وأمّا إذا كانت المصلحة الدنيوية مرادة للاستعانة بها على العمل الصالح؛ فإنّ هذا من الإرادة الطيبة، ولا يضر.

مثال: إمام يريد أن يأخذ سكن المسجد، سكن المسجد مصلحة دنيوية، لكن لماذا يريد أن يأخذ سكن المسجد؟ ليكون قريبًا من المسجد فيعتني بالمسجد والصلاة، إذن هذه المصلحة الدنيوية لإكمال العمل الصالح، فهذا لا يضر، بل ممدوح.

مثال آخر: مؤذِّن يريد أن يحصل على سكن المسجد ليكون قريبًا من المسجد فلا يفرِّط في الأذان ولا يتأخَّر عن الأذان، هذا جيد.

مثال ثالث: مؤذِّن يريد مع ابتغاء وجه الله أن يأخذ المكافئة؛ لماذا؟ ليتفرَّغ للأذان حتى لا يذهب يعمل بعيدًا، هذا جيد، لا يضر العمل.

مثال رابع: طالب يدرس في الجامعة الإسلامية ويريد الشهادة، ما يريد أن يزداد علمًا، فالعلم عنده من أوّل، يجد العلم في الحلقات أكثر من الجامعة –هذا على سبيل التنزُّل– لكن يريد الشهادة الدنيوية، ولا يدرس في الجامعة إلا من أجل الشهادة، هو يريد وجه الله لكن يريد الشهادة الدنيوية ولا يريد زيادة العلم،

ولكن لماذا يريد الشهادة؟ حتى يدعو بها إلى الله؛ لأنه لا يُسمح له أن يكون إمامًا إلا إذا كان يحمل شهادة، لا يُسمح له بالدعوة إلا إذا كان يحمل شهادة، فهو يريد الشهادة ليستعين بها على عمل صالح، هذا لا يضر، بل يُمدَح ويشجَّع عليه.

مثال خامس: يدرس في المدرسة أويدرس في الجامعة من أجل أن يحصل على الشهادة ليحصل على المال، ليتوظَّف، ولكن مراده من هذا؟ أن يستعين بذلك على الدعوة، لأن الإنسان لا يستطيع أن يعيش بدون مال، فيريد أن يحصِّل مالًا ليدعو إلى الله، وليعلِّم الناس، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، فهذا لا يضر عمله.

إذن؛ إرادة مصلحة دنيوية من أجل الاستعانة بها على إرضاء الله سبحانه وتعالى لا تضر العمل، بل هي من الإرادات الممدوحة التي يثاب عليها الإنسان.

قال الشيخ: (بابٌ: من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا)، "من" للتبعيض، أي: من بعض الشرك، ليس كل الشرك، بعض الشرك هذا. (من الشرك) أي: جنس الشرك، وقد يكون أكبر، وقد يكون أصغر، كما بيَّنا، وإن كان الأصل في المسلم أن الذي يقع منه –إن وقع– الشرك الأصغر، الشرك الأكبر لا يقع إلا من منافق أو مشرك أصلًا، ولذلك بعض الشرَّاح فسر الشرك هنا: بالشرك الأصغر؛

لأن هذا هو الذي يقع من المسلم. (إرادة الإنسان) أي: قصْد الإنسان بعمله، (بعمله) عمل الإنسان ينقسم إلى قسمين: عادات، وعبادات.

القسم الأوّل: عادات. وهي أمور الدنيا، وهذه لا يضر الإنسان أن يريد بها الدنيا.

مثال: شخص تاجر يبيع ويشتري في العقار، وفي الألات، ويريد الأموال، فهل نقول: هذا شرك أنت أردتَ الدنيا؟ الجواب: لا؛ لأنّ هذه الأصل فيها أنّ الإنسان يريد الدنيا، وإن كان الأكمل للإنسان أن يريد بها ما يرضي الله، يبيع ويريد بهذا البيع أن يحصِّل أمولًا يَتصدَّق بها، ينام ويريد بهذا النوم مع الراحة أن يتقوّى على طاعة الله، يأكل –في غير الصيام– ويريد بهذا الأكل أن يتقوّى على طاعة الله، هذا أكمل. لكن لو أنّ إنسانًا يجلس على الصحن ويأكل ما في الصحن كله، ولا يريد إلا أن يملأ بطنه، ما يريد أن يتقوى على طاعة الله، ما يخطر هذا أصلًا على باله، هل فَعَلَ حرامًا؟ لا، هل أشرك؟ لا.

إذن؛ العادات لا تدخل معنا، فمَن أراد بها الدنيا لا يُذَمّ ولا يأثم.

وأمّا العبادات، فهي القُرَبُ التي يُتقرَّب بها إلى الله عز وجل فهي المرادة هنا.

إذن؛ (بعمله الصالح) الذي يُتقرَّب به إلى الله. (الدنيا) مصالح الدنيا.

الدرس الثالث والخمسون: تابع شرح بَابٌ مِنَ الشِّرْكِ إِرَادَةُ الْإِنْسَانِ بِعَمَلِهِ الدُّنْيَا

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَن يهدي الله فلا مضلَّ له، ومَن يُضلل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء: ١]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: ٧١]

أمّا بعد:

فإنّ أحسن الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكلّ محدَثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النار.

ثم إن درسنا أيها الفضلاء في حق ربنا سبحانه وتعالى، في التوحيد الذي نحتاج أن نتدارسه وأن نتذاكره دومًا، كيف لا وهو حق ربنا، أعظم حق عُرِف، وأشرف فرض وُصِف، حق الله سبحانه وتعالى.

وفي هذا الزمان قَلّ اهتمام كثير من المؤمنين المسلمين بالتوحيد، فدخل عليهم الخلل في توحيدهم اعتقادًا، فأصبح بعض الناس يتسلل لهم الخلل في اعتقادهم في التوحيد بسبب عدم عنايتهم بالتوحيد، حتى قد يصل الأمر ببعضهم أن يسوِّي في الديانة بين أهل التوحيد وبين أهل الفِرق الضالة، وأن يعتقد في حق الله ما لا يجوز اعتقاده، أو يَصرف شيئًا مما لله لغير الله عز وجل، ويعتقد أنّ هذا دين.

ودخل الخلل على كثير من المسلمين من جهة العمل، فأصبح بعض المسلمين ينذرون لأصحاب القبور، وهم يظنون أنهم بهذا من أهل الجنة، ومن المسارعين بالخيرات، وهم في الحقيقة ظالمون، قد أشركوا بالله عز وجل، وأعطوا ما لله لغير الله سبحانه وتعالى.

كل هذا بسبب عدم عناية كثير من المسلمين اليوم بالتوحيد تعليمًا وتعلُّمًا، وبسطًا وتفصيلًا.

ونحن نشرح في كتاب التوحيد، ولا زلنا مع الباب العظيم الذي يتعلق بإرادة العبد بعمله الصالح الدنيا: (من الشرك إرادة العبد بعمله الدنيا). وقد تقدَّم الكلام عن مقدِّمة هذا الباب.

وبيَّنا: أن مَن كانت إرادته في جميع أعماله الدنيا؛ فإنه ليس مؤمنًا، بل إمّا مشرك، وإمّا منافق، فإن كان لم يُظهِر الشهادتين فإنه مشرك، وهذا الأصل في المشركين أنّ أعمالهم إنما يريدون بها الدنيا. وإن كان قد أظهر الشهادتين ونطق بهما ظاهرًا غير أنّ أعماله كلها كبيرها وصغيرها للدنيا فهو منافق نفاقًا اعتقاديًّا وليس من المؤمنين.

أمّا مَن كان عمله الصالح لله غير أنه يريد الدنيا في بعض عمله، فهذا من الشرك الأصغر.

وقلنا: إنّ العبد إذا أراد بعمله الصالح الذي يُتقرَّب به إلى الله وجه الله وما أَذِنَ الله به من الدنيا وما أذن الله أن يراد بهذا العمل من الدنيا، فهذا محمود وليس مذمومًا، وهو من الجمْع بين الحسنيين؛ كمَن ينوي بالحج وجه الله وينوي التجارة، يبتغي فضلًا من الله، ومَن ينوي بقتل المشرك في المعركة إعلاء كلمة الله سبحانه وتعالى ويريد أن يأخذ سَلَبَه، وكمَن ينوي بصلة الرَّحم إرضاء الله وأن يُنسأ له في أجله –أي: يؤخر له في أجله– ويبسَط له في رزقه، فكل هذا محمود، لا يضر العمل ألبتة.

وبيَّنا: أنّ المسلم إذا أراد بعمله الصالح وجه الله ومصلحة دنيوية تحصل من العمل؛ سواء نواها أو لم ينوِها، مثل: أن يدخل المسجد ليصلي ويَتبرّد بهواء المكيف، فهذا التبرُّد حاصل له، ليس متعلِّقًا بنيته، لو لم ينوِ لتَبرَّد، وإن نوى تبرَّد، فالنية لا أثر لها، وهذا أيضًا لا يضر العمل.

أمّا إذا أراد المسلم بعمله الصالح وجه الله ومصلحة دنيوية لم تَرِدْ في النصوص، وليست حاصلة من العمل قطعًا، وكان المحرِّك له الدنيا، وكان ابتغاء وجه الله تابعًا، فهذه الإرادة الفاسدة تُبطِل العمل وتفسِد العمل، فلو أنّ إنسانًا حج حج البدل عن غيره وهو يريد المال، لم يحركه للحج إلا المال، ثم أراد وجه الله تبعًا، فحج للمال –وإن أراد وجه الله تبعًا– فهذا حجه باطل. فإن قال قائل: أنا أخذت مالًا من زيد من الناس لأحج عن أبيه، وكانت نيتي الأصلية المال، لولا المال ما حججت، وكنت أريد وجه الله تبعًا، ومضى هذا، ماذا أفعل؟ نقول: يجب عليك أن تردّ المال إلى أهله، وأن تخبرهم أنّ حجك قد وقع فيه مبطِل؛ ليحجّوا عنه، أو تحج عنه من مالك مخلصًا لله عز وجل، وهنا لا يَلزَم أن تخبر من أعطاك المال.

أمّا مَن عمل العمل الصالح وهو يريد وجه الله، فالنية الأصلية وجه الله عز وجل، إرضاء الله عز وجل، والتقرب إلى الله، وأراد الدنيا تبعًا، فهذا لا يُبطِل العمل، لكن يُنقِص الأجر.

مثال: إنسان حج عن الغير حج البدل، وهو يريد وجه الله، ويريد الإحسان لأخيه، وأراد مع ذلك الدنيا تبعًا، فهذه الإرادة مُنقِصة في الأجر؛ لأنّ فيها خللًا في النية، لكنها لا تُبطِل العمل؛ لأنّ الأصل أنه أراد وجه الله سبحانه وتعالى.

هذا إذا أراد الدنيا لذاتها.

أمّا إذا أراد الدنيا لمصلحة شرعية، فهذا ليس مذمومًا، مثل: أن يدرس ليحصل على الشهادة؛ من أجل أن يكون معلِّمًا للناس، أو أن يكون داعية، أو أن يتوظف في وزارة الشؤون الإسلامية أو في غيرها؛ من أجل أن يحصِّل على المال ليتفرَّغ للدعوة، أو ليكون ذلك أنشَط له في الدعوة، فهذا لا يضر، وليس مذمومًا؛ لأنّ مآله ابتغاء وجه الله سبحانه وتعالى.

قرَّرنا: أنّ الكمال للمؤمن: أن يخلص نيته لله في العمل الصالح، ومَن أخلص نيته لله في العمل الصالح أتته الدنيا أحسن وأكثر وأبرَك وأنفع مما لو نواها، فالخير في الإخلاص لله عز وجل.

هذا مختصرٌ مما ذكرناه في قدَّمة هذا الباب. ثم نقرأ ما ذكره الشيخ من الأدلة ونعلِّق عليه، فيتفضل الدكتور ياسين يقرأ لنا.

[وَقَوْلُهُ تَعَالَى: {مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ} (هود: ١٥)، الْآيَتين]

ومقصود الشيخ بقوله (الآيتين) أي: أكمِل الآيتين، ولذلك نصبها، قال تعالى:﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ فمقصوده من العمل الصالح: الدنيا، إنما يريد الدنيا، وما فيها من زينة فانية، {نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ} أي: نعطيهم من الدنيا تفضُّلًا من الله، لا استحقاقًا منهم. هذا الذي عمل العمل الصالح وهو يريد به الدنيا عمله باطل فليس له حق، بل هو آثم يستحق العقوبة، لكنّ الله –عز وجل– تفضُّلًا منه سبحانه وتعالى يعطيه من الدنيا ولا يُنقَص شيئًا، {أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} أولئك الذين يريدون بالعمل الصالح الدنيا، ليس لهم في الآخرة إلا النار، إن كانوا ممَّن يريدون الدنيا بجميع أعمالهم فلهم النار مخلدون فيها، لا يخرجون منها أبدًا. وإن كانوا أرادوا الدنيا ببعض أعمالهم فهم متوعَّدون بدخول النار، وإن كانوا لا يخلَّدون فيها. {وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا} هذه الأعمال الصالحة التي عملوها حابطة، أي: باطلة من أصلها، {وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}.

إذن؛ دلَّت هذه الآية: على أنّ إرادة الدنيا بالعمل الصالح حرام، ويستحق صاحبها دخول النار. إن كانت إرادته للدنيا من باب الشرك الأكبر فهو مخلَّد في النار، وإن كانت إرادته الدنيا من باب الشرك الأصغر فهو متوعَّد بدخول النار.

وأنّ العمل الصالح إذا أريد به الدنيا فقط يَبطُل ولا يُقبَل، فمَن كانت إرادته بالعمل الصالح الدنيا فعمله باطل، ويجب عليه أن يعيده إذا كان واجبًا، مثلًا: إنسان صلى صلاة الظهر وهو لا يريد إلا الدنيا، ما أراد وجه الله، عمله باطل، ويجب عليه أن يعيد صلاة الظهر وأن يأتي بها.

أيضًا؛ قال الله عز وجل: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ} (الشورى: ٢٠)، الذي يريد حرث الدنيا الله يؤتيه، وما له في الآخرة من نصيب، هذا بمعنى الآية السابقة، لكن هل هذا مطلَق؟ الجواب: لا، بل مقيَّد.

سؤال آخر: هل كل مَن أراد الدنيا بعمله الصالح يعطيه الله الدنيا؟

ظاهر هاتين الآيتين وإطلاق هاتين الآيتين أنّ الجواب يكون: نعم؛ لأنّ الله قال: {نُؤْتِهِ مِنْهَا}؛ لكنّ هذا الإطلاق مقيَّد، فليس كل مَن أراد الدنيا آتاه الله عز وجل الدنيا؛ كما قال الله عز وجل: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ} (الإسراء: ١٨)، انظروا إلى القيدَين: ففيها قيدين: {عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾، فليس كل ما أراده ينالُه، حتى لو أراد الله عز وجل أن يعطيه يعطيه ما يشاء سبحانه وتعالى.

أيضًا؛ ليس كل من أراد الدنيا أعطي الدنيا، وإنما من أراد الله أن يعطيه، وكما قلنا: هذا الإعطاء فضل من الله، وليس حقًّا لهم؛ لأنّ عملهم حابط باطل، لا جزاء له إلا النار.

فدلت هذه الآيات على أنّ مَن أراد الدنيا حبط عمله، وكان في الآخرة من الخاسرين. وأنّ مَن أراد الآخرة رزقه الله الخير والبشرى في الدنيا، ورزقه في الآخرة البشرى والحسنى وزيادة. ويظهر لكم بهذا عباد الله خسران مَن أراد بعمله الصالح الدنيا، وفوز مَن أراد بعمله الصالح الآخرة؛ فأراد ارضاء الله سبحانه وتعالى.

[وفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ، تَعِسَ عَبْدُ الْخَمِيصَةِ، تَعِسَ عَبْدُ الْخَمِيلَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِي، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلَا اِنْتَقَشَ، طُوبَى لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، أَشْعَثَ رَأْسُهُ، مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ، إِنْ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ، إِنْ اِسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ، وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ»]

قال: (فِي الصَّحِيحِ) أي: في صحيح البخاري. (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ، تَعِسَ عَبْدُ الْخَمِيصَةِ»، تكرار «تعس» ليس عند البخاري، وإنما الذي عند البخاري:

«تعس عبد الدينار، وعبد الدرهم، وعبد الخميصة»، وأمّا تكرار «تعس» فهو عند الطبراني في الأوسط.

«تعس عبد الخميلة» لم أرَ هذا اللفظ في شيء من كتب السنة، وإنما ورد عند البخاري لفظ: «القطيفة»، وفسَّرها بعض أهل العلم بالخميلة، لكنّ هذا اللفظ: «الخميلة» لم أجده في شيء من كتب السنة، فيُشطَب عليه هنا.

قال: «تعس» ما معنى تَعِسَ؟

قال بعض أهل العلم: أيْ بَعُدَ، وأبعده الله.

وقال بعض أهل العلم: لَزِمَه الشر. هو ماذا يريد؟ يريد خير الدنيا، وتعس عكس ما يريد، لَزِمَه الشر.

وقال بعض أهل العلم: لا أفاق من عثرته، فإنه عاثِر. فمعنى تعس: الدعاء عليه بأن لا يفيق من هذه العثرة.

وقال بعض أهل العلم: سقط على وجهه.

وقال بعض أهل العلم: معنى تعس: على بابها؛ أي: شقي ولم يَسعد، فتكون الدنيا التي طلبها من أجل السعادة سببًا لشقائه، هو لماذا يريد الدنيا؟ يريد الدنيا يفرح، ويريد أن يكون سعيدًا، فتكون الدنيا التي طلبها بالعمل الصالح سببًا في شقائه.

قال: «تعس عبد الدينار»، الدينار: هو النَّقد من الذهب. «وعَبْدُ الدِّرْهَمِ» الدرهم: هو النَّقد من الفضة. «وعَبْدُ الْخَمِيصَةِ» الخميصة: كساء قيل أسود وقيل أحمر، له أعلام: يعني فيه خطوط، فهو كساء مخطَّط، والمقصود به هنا: الثوب.

وجاء في بعض روايات البخاري: «وعبد القطيفة»، والقطيفة: قيل ثوب لها أهداب، له أطراف، وقيل القطيفة: هي الفراش. ونفس هذين المعنيين ذُكِرا للخميلة، فقيل الخميلة: ثوب له أهداب، وقيل: هو الفراش.

والمقصود: تعس مَن عَبَدَ النقد، وتعس مَن عَبَدَ ثوبه، سبحان الله! هل هناك إنسان يَعبُد ثوبه؟ نعم، هذا الثوب الذي لا يساوي شيئًا، من الناس مَن يعبده. تعس مَن عَبَدَ فراشه، الذي ينام عليه ويجلس عليه، كيف عبدها؟ عبدها بأن طلبها وأرادها بالعمل الصالح؛ فكان كالعابد لها؛ لأنه أرادها، بدل أن يريد الله أراد هذه الدينا، أو أرادها مع إرادة وجه الله عز وجل. ثم إنّ الغالب على مَن يريد الدنيا أن يكون ذليلًا، لا يمكن أن ترى العزة في عبد يريد الدنيا، إذا رأى غنيًّا ما يراه عبدًا لله مثله يحبه لصلاحه وتقواه، لا؛ وإنما يتذلَّل له من أجل الدنيا، ويكذب عليه يقول: أنت كذا، وأنت كذا، وقلبي يحبك! وهو كذاب، ولكنه ذليل من أجل الدنيا. إذا جاء عند مديره أو رئيسه دائمًا تجده في ذلة، لأنه يريد الدنيا، فكان كالعابد لها؛ لأنه متذلِّل من أجلها.

قال: «إِنْ أُعْطِيَ رَضِي، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ»، هذا تفسير لتلك العبودية، أنّ حاله يكون: إن أُعطي من الدنيا رضي، وإن لم يُعطَ منها سخِط وغضِب، فرضاه تابع للدنيا، وغضبه تابع للدنيا، فقلبه معلَّق بالدنيا.

وقد يَظهر هذا في عمل الإنسان، فإذا وجد الدنيا في العمل الصالح نَشِطَ له، وأقبَل عليه، وواظب عليه، وإذا فقد الدنيا في ذلك العمل كان من المتباطئين عنه، المتباعدين عنه، وقد يصل هذا –والعياذ بالله– إلى رضى العبد عن الله، فإذا أعطي الدنيا رضي، وإذا مُنِعَ شيئًا من الدنيا سخِط على الله، وسخِط على قدر الله، وهذا ما نراه في بعض الناس، إذا حُرِمَ شيئًا من الدنيا قال: هذا ظلم، لماذا أنا؟ وأنا وأنا وأنا، ما أجد ما أشتري به لباس العيد لأولادي، وفلان يشتري ويشتري، هذا ظلم! أعوذ بالله، هذا قدر الله، فقد يصل الحال بهذا في رضاه عن ربه، وسخطه عن ربه أن يكون تابعًا للدنيا، والعياذ بالله.

قال: « تَعِسَ وَانْتَكَسَ»، أعاد النبي صلى الله عليه وسلم هذه الجملة: «تعس». ومعنى (تعس) هنا: قال بعض اهل العلم: دعاء. وخاب وخسر مَن دعا عليه النبي صلى الله عليه وسلم.

وقال بعض أهل العلم: «تعس»: خبر من النبي صلى الله عليه وسلم أنه سيكون هكذا.

قال: «وانتكس» أي: سقط على رأسه، فعلى أحد المعاني في «تعس»: سقط على وجهه، «وانتكس»: سقط على رأسه، وهو إمّا دعاء وإمّا خبر.

قال: «وَإِذَا شِيكَ» أي: أصابته شوكة، «فَلَا انْتَقَشَ» أي: لا وجد مَن يخرجها له بالمنقاش، سبحان الله! يصل من الدناءة والذلة والضعف وقلّة الحيلة إلى هذه الدرجة؛ أنّ الشوكة الصغيرة التي تدخل في رجله وتؤذيه لا يستطيع أن يخرجها، ولا يجد من الناس وأهل الدنيا مَن يخرجها له.

ثم ذكر النبي صلى الله عليه وسلم أمرًا آخر يقابل هذه الدناءة، وهذه الإرادة الفاسدة؛ فقال: «طُوبَى»،: وطوبى كما قال بعض أهل العلم: هي الجنة. وقال بعض أهل العلم: باب من أبواب الجنة. وقال بعض أهل العلم: شجرة في الجنة. وقال بعض أهل العلم: طوبى معناها: له الطِّيب كله في الدنيا والآخرة. وهذا أظهر الأقوال، أنّ معنى «طوبى»: له كلُّ طيِّب، لمَن؟ «لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ» برباط فرسه، «فِي سَبِيلِ اللهِ» يجاهد في سبيل الله الجهاد المشروع، ليس جهاد الكذابين والخوارج، وإنما الجهاد الذي شرعه الله عز وجل، «أَشْعَثَ رَأْسُهُ» من اشتغاله بالجهاد لم يهتم برأسه، ولم يسرِّح شعره، ولذلك شعره مشعَّث من اشتغاله بطاعة الله سبحانه وتعالى، «مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ» أي: في سبيل الله. «إِنْ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ» يكون حيث يؤمَر، لا يطلب الرئاسة، ولا الزَّعامة، ولكن حيث يؤمَر، إن أُمِرَ بأن يكون في حراسة الجيش كان في حراسة

الجيش، «وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ» الساقة: يعني آخر الجيش، والغالب الذين يُترَكون في آخر الجيش الذين ليست لهم مكانة. «كَانَ فِي السَّاقَةِ» كان في الساقة وجاهد في سبيل الله، «إِنْ اِسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ» ليس حريصًا على الشهرة وأن يعرفه الأشراف وأصحاب الملك وأصحاب الرئاسات، همُّه أن يرضي الله. وما دخل الخلل على أحد أكثر من دخوله من جهة حب المناصب والرئاسات والشهرة وقلوب الناس، قد يقود هذا المتكلِّم إلى أن يُغيِّر في دين الله من أجل أن يأتي الناس بشيء يحبه الناس من أجله! لكن هذا ما يريد هذا وإنما يريد إرضاء الله؛ ولذلك إذا استأذن لم يؤذَن له، إذا ذهب عند صاحب سلطة واستأذن، قالوا: مَن؟ قالوا: رجل، قالوا: ما اسمه؟ قالوا: فلان، قال: اتركوه، ننظر ننظر! فهذا الرجل ما يُعرَف مع عظيم فعله وأنه من المجاهدين في سبيل الله. «وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ» إن شَفَعَ لأحد لم تُقبَل شفاعته؛ لانه غير معروف؛ مع أنه من عباد الله الصالحين.

والمقصود: أنّ النبي صلى الله عليه وسلم يَمدح مَن أراد وجه الله، ولم يسعَ للدنيا بعمله الصالح، لم يطلب شهرة بتعليمه وتدريسه وكلماته في الإعلام، لم يُرِدْ شهرة ولم يُرِدْ كلام الناس ولم يُرِدْ أن يقدِّمه أهل المناصب، وإنما أراد إرضاء الله، فهمُّه أن يَعلِّم الناس ما يريده الله، لا أن يقول للناس ما يريده الناس. فإذا جاء عنده مريض يذهب إلى المستشفى يقف مع الناس في الطابور، في

المستشفى العادي مع عامة الناس مع فضله وعلمه وعمله؛ لأنه ما سعى لأهل الدنيا.

وهذا لا يعني ذمّ مَن أحبه الناس من غير سعيٍ منه، ولا مَن رُفِعَ قدره بين الناس من غير سعيٍ منه، فهذا فضل الله يؤتيه من يشاء، فقد يكون العبد من أحسن الناس إخلاصًا لله ويُرزَق المكانة عند الناس، وإذا استأذن يؤذَن له، وإذا شَفَعَ يُشفَّع، فانتبهوا لِمَا أقول، لا يعني أنّ الإنسان الذي له مكانة عند أهل الجاه، ويحبه الناس وتُقبل شفاعاته أنّ هذا يكون مذمومًا، لا والله، وإنما المذموم أن يسعى العبد إلى هذا، وأن تكون طُلْبَتُه هذه الأمور، وغايته هذه الأمور.

إذن؛ العبد مع عمله الصالح واجتهاده لا يخلو من ثلاثة أحوال:

الحال الأولى: أن يجتهد في العمل الصالح ولا يَعرِفه الناس، لكنّ الله عز وجل يَعلَم حاله وما هو عليه من خير، وهذا عبد محمود، طوبى له، له كلّ طيِّب.

الحال الثانية: أن يكون مجتهدًا في طاعة الله، ومخلصًا لله، ويَعرِفه الناس، وتكون له مكانة عند الناس، فهذا أيضًا محمودٌ غير مذموم.

الحال الثالثة: أن يريد الإنسان باجتهاده في عملٍ صالح المنزلة عند الناس؛ نالها أو لم ينلها، وهذا مذموم، قد فاته الخير في الدنيا والآخرة.

فيتحصَّل من هذا كله: أنّ الخير للمؤمن أن يريد بعمله وجه الله، وأنّ إرادة الدنيا بالعمل الصالح محرَّمة مذمومة على الوجه الذي فصَّلناه في اوّل الكلام.

[فِيهِ مَسَائِلُ: الْأُولَى: إِرَادَةُ الْإِنْسَانِ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الْآخِرَةِ]

تضمَّنت هذه الجملة فائدتان:

الفائدة الأولى: أنّ هناك من الناس مَن يريد بالعمل الصالح إرادة الدنيا.

والفائدة الثانية: أنّ هذا مذموم؛ كما ورد في النصوص.

[الثَّانِيَةُ: تَفْسِيرُ آيَةِ هُودٍ]

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ﴾ (هود: ١٥). وقد شرحناها وفسّرناها.

[الثَّالِثَةُ: تَسْمِيَةُ الْإِنْسَانِ الْمُسْلِمِ عَبْدَ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ وَالْخَمِيصَةِ]

أي: أن يكون عابدًا للدنيا ومع كونه مسلمًا، ولا يَمنع كونه مسلمًا من كونه عابدًا للدنيا؛ هذا إذا أراد الدنيا ببعض عمله. أمّا مَن أراد الدنيا بكل أعماله فإنه لا يكون مسلمًا.

[الرَّابِعَةُ: تَفْسِيرُ ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ]

كما قلنا، هذا تفسير للعبادة، لعبادة الدينار والدرهم والخميصة والقطيفة، أنّ القلب يتعلق بها، فرضاه تابع للدنيا، وغضبه تابع للدنيا، حتى قد يصل به

الأمر إلى أن يكون رضاه عن الله تابعًا للدنيا، وغضبه وسخَطه من قدر الله تابعًا للدنيا.

[الْخَامِسَةُ: قَوْلُهُ: «تَعِسَ وَانْتَكَسَ»]

أي: أنّ النبي صلى الله عليه وسلم جمع له بين الأمرين؛ دعاء أو خبرًا.

[السَّادِسَةُ: قَوْلُهُ: (وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ»]

أي: يصبح من المهانة والذلة والضَّعف بحيث لا يحصِّل أسهل أمور الدنيا، عقوبة له بنقيض قَصْدِه، هو أراد بعمله الصالح أن يحصِّل الدنيا وأن يجلب الدنيا، فيُعامَل بنقيض قصده، حتى يصبح من الهوان والذلة بحيث لا يحصِّل أقلّ أمور الدنيا. ومن الناس –والعياذ بالله– مَن يطلب الدنيا بإغضاب الله؛ فيذلّه الله بألّا يتمكن من التمتع بالدنيا، بعض الناس قد يعمل للدنيا، ويلهيه التكاثر، ويقدِّم ذلك على عبادته لله عز وجل، فإذا جمع المال لا يستطيع أن يأخذ منه شيئًا أو أن يأكل منه، كما قلنا سابقًا: قد يكون بعض الناس من الصالحين ويبتلى بالمرض ولا يتمتع بالدنيا، هذا لا نتكلم عليه، لكن نتكلم: أنّ الله قد يعاقب العبد النَّهِمَ الذي يريد الدنيا فيلهوا عن العبادة بأن يجمع الدنيا، ثم ينظر إلى الدنيا فلا يستطيع أن يتمتع بها، وكم عرفنا من القصص في هذا الباب.

[السَّابِعَةُ: الثَّنَاءُ عَلَى الْمُجَاهِدِ الْمَوْصُوفِ بِتِلْكَ الصِّفَاتِ]

والمقصود: الثناء على من أطاع الله يريد وجه الله قاطعًا نظره عن الناس وعما في أيدي الناس، فليس المقصود المجاهد فقط، هذا مثال، وإنما المقصود: الذي يطيع الله يريد وجه الله قاطعًا نظره عن الناس، كأنهم غير موجودين، لا يريد منهم ثناء، وقاطعًا نظره عما في أيدي الناس لا يريد الدنيا، فهذا مُثنىً عليه.

تابع الدرس الثالث والخمسون: شرح بَابٌ مَنْ أَطَاعَ اَلْعُلَمَاءَ وَالْأُمَرَاءَ فِي تَحْرِيمِ مَا أَحَلَّ اَللَّهُ أَوْ تَحْلِيلِ مَا حَرَّمَ اللهُ فَقَدْ اِتَّخَذَهُمْ أَرْبَابًا من دون الله

[بَابٌ مَنْ أَطَاعَ اَلْعُلَمَاءَ وَالْأُمَرَاءَ فِي تَحْرِيمِ مَا أَحَلَّ اَللهُ أَوْ تَحْلِيلِ مَا حَرَّمَ اللهُ فَقَدْ اِتَّخَذَهُمْ أَرْبَابًا من دون الله]

هنا يصح للقارئ أن يقول: (بابُ) مَن أطاع العلماء والأمراء، ويصح له أن يقول: (بابٌ) من أطاع العلماء والأمراء.

إذا قلنا: إنّ "مَن" هنا شرطية؛ فإنه يقال: (بابٌ) مَن أطاع العلماء والأمراء. وهذا أولى.

وإذا قلنا: "مَن" هنا موصولة بمعنى الذي؛ فإنه يقال: (بابُ).

والأوّل أولى؛ كما قال شيخنا الشيخ ابن عثيمين، وهو الأَوفَق للسياق.

(بَابٌ مَنْ أَطَاعَ اَلْعُلَمَاءَ وَالْأُمَرَاءَ) أي: مَن أطاع مَن له مكانة، وهذا لا مفهوم له؛ لأنه خرج مخرَج الغالب، أنّ الغالب أنّ الذين يطاعون هم العلماء والأمراء، لكن لا مفهوم له، فيدخل في ذلك: مَن أطاع شياطين الأنس أو الجن، مَن أطاع هواه، مَن أطاع التجار، في ماذا؟ في تحريم ما أحلّ الله، فيحرِّم ما أحلّ الله لأمرهم، وتحليل ما حرَّم الله فيُحِلُّ ما حرّم الله لأمرهم، (فَقَدْ اِتَّخَذَهُمْ أَرْبَابًا) من دون الله، أربابًا: جمْع رب، والرب يأتي بمعنيين:

الأوّل: الإله؛ أي: المألوه المعبود، فيكون معنى الرب: المعبود، فيكون المعنى هنا: أنّ مَن أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحلّ الله وتحريم ما حرَّم الله فقد اتخذهم معبودات. وسنبيِّن وجه هذا إن شاء الله.

الثاني: الرب بمعنى: المتصرِّف. والتصرَّف نوعان:

النوع الأوّل: كوني قدري.

النوع الثاني: شرعي أمري.

والمقصود هنا: الرب بمعنى المتصرِّف شرعًا وأمرًا. فالمقصود: أنّ مَن أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحلّ الله، وتحليل ما حرَّم الله فقد جعلهم مشارِكين لله في التشريع والأمر. وسنبيِّن وجه هذا.

(فَقَدْ اِتَّخَذَهُمْ أَرْبَابًا) من دون الله، وهذا شأن أهل الكفر والضَّلال، أنهم يطيعون الكبراء والسادة، ولا يلتفتون إلى شرع الله عز وجل، قال تعالى:﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾ (الأحزاب: ٦٧)، هذا شأن أهل الكفر وأهل الضلال، أنهم يطيعون الكبراء وأهل المكانة وأهل القوة ولا يلتفتون إلى شرع الله. وسنفصِّل إن شاء الله ما يتعلَّق بهذا.

وهذا الباب وما بعده من الأبواب إلى آخر الكتاب متعلقة بلوازم التوحيد وما يضاد تلك اللوازم، فمن لوازم التوحيد: طاعة الله، من لازم توحيد الله أن تطيع الله، ومن لازِم شهادتك أنّ محمدًا رسول الله أن تطيع رسول الله صلى الله

عليه وسلم. ويضاد ذلك: أن تطيع مخلوقًا مخالفًا لطاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم. وسنفصل هذا في درس غد بحول الله وقوته.

الدرس الرابع والخمسون: تابع شرح بَابٌ مَنْ أَطَاعَ اَلْعُلَمَاءَ وَالْأُمَرَاءَ فِي تَحْرِيمِ مَا أَحَلَّ اَللَّهُ أَوْ تَحْلِيلِ مَا حَرَّمَ اللهُ فَقَدْ اِتَّخَذَهُمْ أَرْبَابًا من دون الله

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَن يهدي الله فلا مضلَّ له، ومَن يُضلل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء: ١]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: ٧١]

أمّا بعد:

فإنّ أحسن الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكلّ محدَثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النار.

أما بعد.

نواصل شرحنا لكتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد، وما من مؤمن عرف الله إلا وهو يحب التوحيد، ويعظِّم التوحيد، وينشرح صدره إذا سمع التوحيد؛ لأنه حق ربه سبحانه وتعالى، ولا عز للأمّة إلا بالتوحيد، فمَن أراد الخير والبركة له ولأسرته ولحيِّه ولمدينته ولدولته ولسائر المسلمين فعليه بالتوحيد تعظيمًا وتعلُّمًا وتعليمًا.

ونحن –بحمد الله– في هذا الكتاب المبارَك "كتاب التوحيد" لا نسمع إلا قال الله، وقال رسوله صلى الله عليه وسلم، وما قرَّره سلفنا الصالح من حق ربنا سبحانه وتعالى.

ونواصل شرحنا لهذا الكتاب. فيتفضل الشيخ الدكتور ياسين يقرأ لنا.

[بَابٌ مَنْ أَطَاعَ اَلْعُلَمَاءَ وَالْأُمَرَاءَ فِي تَحْرِيمِ مَا أَحَلَّ اَللهُ أَوْ تَحْلِيلِ مَا حَرَّمَهُ فَقَدْ اِتَّخَذَهُمْ أَرْبَابًا من دون الله]

سبق بيان معنى هذه الترجمة، وذكرنا أنّ الشيخ بدأ من هذا الباب إلى آخر الكتاب في قسم جديد من الأقسام؛ ألا وهو القسم المتعلق بلوازم التوحيد وبيان ما يضاد ذلك.

وهذا الباب والذي يليه متعلِّق بحق الله عز وجل في التشريع، وأنّ الله عز وجل هو المتصرِّف في أمر عباده في التشريع، فلا شَرْعَ إلا ما شَرَعَه الله، ولا حُكم إلا ما حَكَمَ الله به أو أرشد إلى طريقه.

ومن المعلوم أنّ من لوازم التوحيد طاعة الله سبحانه وتعالى، وطاعة رسوله صلى الله عله وسلم التي هي من طاعة الله، ولا يقوم الدين إلا بطاعة الله وطاعة رسوله صلى اله عليه وسلم، ومَن لم يطع الله لم يَعبده، وكيف يَعبد الله وهو لا يطيعه سبحانه وتعالى؟! فطاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم فريضة عظمى، قال الله عز وجل: {قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ} (آل عمران: ٣٢)، وقال الله عز وجل: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ} (الأنفال: ٢٤)، وهذه الطاعة المطلَقة شرطٌ في الإيمان، فلا يكون العبد مؤمنًا إذا أبى أن يطيع الله بالكُليَّة، قال الله عز وجل: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا} (الأحزاب: ٣٦)، وقال الله عز وجل: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ} (النساء: ٦٥)، وطاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم أصل الطاعات عند المؤمن، فما كان عائدًا إليها يكون محمودًا، وما كان مخالفًا لها يكون مذمومًا.

فطاعة الأمراء –مثلًا– على نوعين:

النوع الأوّل: طاعتهم في غير معصية الله، سواء أَمروا بما أَمر الله به، أو أَمروا بأمر مسكوت عنه في الشرع. وهذه الطاعة دين لله وتقوى وإيمان، أن تطيع أميرك المسلم إذا أمرك بما أمر الله به، أمرك بالصلاة مع الجماعة فأطعته؛ تثاب على طاعتك لله أوّلًا، وعلى صلاتك، وعلى طاعتك لولي أمرك، فيُضاف إليك ثواب آخر، وإذا أمرك ولي أمرك المسلم بأمر مسكوت عنه في الشرع رأى فيه مصلحة عامّة فأَمر به؛ فإنّ طاعتك له دين تثاب عليه، فليست طاعة ولي الأمر المسلم في هذين الأمرين من باب السياسة، ولا من باب التزلُّف، ولا من باب طلب الدنيا، ولا من باب طلب المناصب، وإنما من باب إقامة دين الله عز وجل؛ لأنّ الله عز وجل قال: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ} (النساء: ٥٩)، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أَحَبّ وكَرِهَ ما لم يؤمَر بمعصية، فإذا أُمِرَ بمعصية فلا سمع ولا طاعة» متفق عليه.

فطاعة الأمراء هذه عائدةٌ إلى طاعة الله، وإلى طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، فهي محمودة شرعًا، ومن هنا تُدرِك السِّر في قول الله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ}، ما قال الله: وأطيعوا أولى الأمر منكم، لأنّ طاعة ولاة الأمر إنما تكون محمودة إذا كانت

راجعة إلى طاعة الله، راجعة إلى طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك في أمرين:

الأوّل: أن يأمر ولاة الأمر بما أمر الله به أو أمر به رسوله صلى الله عليه وسلم.

الثاني: أن يأمر ولاة الأمر بما هو مسكوت عنه، لا يخالف دين الله.

أمّا النوع الثاني: طاعتهم في معصية الله. وهذا حرام ومعصية، إذا أمر الملك أو رئيس الدولة أو أمير البلاد بأمر هو معصية لله لا يجوز أن يطاع في هذه المعصية، ومن الغلو أن يقال: إنّ ولي الأمر يطاع مطلقًا من أجل المصلحة العامّة، لا، وإنما إذا أَمر بمعصية فإنه لا يطاع في هذه المعصية، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وهذه من قواعد الدين القطعية، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: «على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أَحَبّ وكَرِهَ ما لم يؤمر بمعصية» فجعل الحَدّ إذا أُمر بمعصية، فإن أُمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة.

طاعة العلماء الثانية لمّا كانت مخالِفة لطاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم كانت مذمومة.

وطاعة العلماء أيضًا على نوعين:

النوع الأوّل: أن يطيعهم الجاهل حيث يسألهم ويعمل بفتواهم، وأن يطيعهم مَن كان دون الاجتهاد؛ بحيث يأخذ من أقوالهم ما نَصَرَه الدليل. وهذه طاعة لله ودين وخير وبركة؛ لأنّ الله قال: {فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} (النحل: ٤٣)، فاللهُ أوجَب على مَن لا يَعلَم أن يسأل مَن يَعلَم، ولازم ذلك أن يأخذ بقوله، وإلا ما كان لسؤاله فائدة. وعلى هذا العمل من زمن صاحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يومنا، من زمن صحابة النبي صلى الله عليه وسلم والناس يسألون علماءهم إلى يومنا هذا، ولن يَدخل الفساد على الناس إلا إذا تركوا العلماء وتَجاسروا على ما لا يَجسُر عليه العلماء، هناك انتظر الفساد، وانتظر الطوام الكبرى التي تزلزل كيان الأمّة. فالرجوع إلى العلماء حق وخير وبركة، يشجعه أهل العلم الربانيون ولا يحاربونه.

النوع الثاني: طاعة العلماء مع وضوح الدليل على خلاف قول العالم. وهذه معصية وحرام بإجماع العلماء، قال الإمام الشافعي-رحمه الله-: "أجمع الناس على أنّ مَن استبانَت له سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن له أن يَدَعَها لقول أحد من الناس كائنًا من كان".

بعض المسلمين تأتي فتقول له: يا أخي افعل كذا في صلاتك ؛ لأنّ النبي صلى الله عليه وسلم فعل وقال، في وضوئك افعل كذا؛ لأنّ النبي صلى الله عليه وسلم فعل وقال، فيقول: لكنّ الإمام ما قال هذا! وهذه معصية، أن تُعرِض عن

فِعْلِ النبي صلى الله عليه وسلم من أجل عدم فعل غيره، الإمام معذور ما بلغه، ولو بلغه ما فعل، الإمام مالك –رحمه الله– ما كان يأخذ بالتخليل بين الأصابع في الوضوء، فلمّا أخبره أحدهم بالحديث في الباب رآه بعد ذلك يُخلِّل، هكذا هم علماؤنا، وهذا اعتقادنا فيهم، فلا يجوز للإنسان إذا اتَّضح له الدليل وعَلِمَ الدليل أن يطيع عالمًا؛ لأنّ هذا العالم لو اتَّضح له هذا الدليل لَمَا قال بقوله، ولَفَعَلَ ما دلَّ عليه الدليل.

إذن؛ عرفنا أنّ الطاعة لغير الله عز وجل ولغير رسوله صلى الله عليه وسلم ميزانها: طاعة الله، وطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما عاد إلى طاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم فهو محمود ودين، وما خالف طاعة الله أو طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم فهو مذموم وحرام.

وهذه الطاعة المحرَّمة للعلماء والأمراء وهي الطاعة التي تخالِف طاعة الله وطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم تنقسم إلى أقسام خمسة من جهة الحكم:

القسم الأوّل: أن يطيعهم وهو يعتقد أنّ لهم أن يُحلُّوا الحرام، وأن يُحرِّموا الحلال. وهذا شرك أكبر ينافي الإسلام؛ لأنه جعل لهم ما لله، وصرف ما لله عز وجل إلى غير الله سبحانه وتعالى. مثل ما يقوله بعض الغلاة في شيوخهم يقول: الشيخ يرى ما لا يرى المريد، فالشيخ له أن يَقلِب الحلال حرامًا، وأن يَقلِب الحرام حلالًا، ولا يجوز أن يُعصى الشيخ ولو أمر بالحرام البيِّن، أو حرَّم

الحلال البيِّن! ولذلك يقول بعض الغلاة: كن مع الشيخ كالميت مع المغسِّل، لا يقول: لا، ولا تعترض.

القسم الثاني: أن يطيعهم اعتقادًا وعملًا، فيَعتقد ما يقولون دينًا، ويَعمل به، مع وضوح الدليل على خلافه عنده؛ لكنه يُعرِض عنه، وهذا شرك أكبر والعياذ بالله.

وتعلمون: أنّ الكلام على الفعل، أمّا الفاعل فقد تكون عنده موانع تَمنع أن يوصَف بأنه مشرك.

القسم الثالث: أن يطيعهم عملًا وهو يعتقد أنّ قولهم خير وأصلَح من قول الله وقول رسوله صلى الله عليه وسلم. بعض الناس يَعرِف ما في القرآن وما في السنة، ويَعرِف أنّ الله حَكَمَ على هذا الشيء بأنه حرام، مثلًا: الربا، حكم الله عليه بأنه حرام، والنبي صلى الله عليه وسلم حكم عليه بأنه حرام، وأجمع العلماء أنه حرام، لكن يأتي بعض المعمَّمين اليوم ويُحلِّلون صورًا كثيرة من صور الربا، فيأتي إنسان يقول: أنا أعرف الذي في القرآن والذي في السنة، ولكن قول هؤلاء بأنّ هذه الصور حلال أحسن للناس وأصلَح وخير من حكم الله! وهذا –والعياذ بالله– شرك أكبر.

القسم الرابع: أن يطيعهم عملًا في الشرك، فهو لا يعتقد ولكن يطيعهم، يأمرونه بالشرك فيعمل الشرك وهو يَعلَم أنه شرك، لكن الشيخ أمره! يعلم أنّ

أخذ بقرة أو شاة أو عصفورًا إلى القبر وذبحه لصاحب القبر شرك، ولكن الشيخ قال له: خذ بقرة، أو خذ شاة، واذهب بها إلى مقام سيدي فلان واذبحها لصاحب القبر، فيطيعه في هذا، فهذا شرك أكبر؛ لأنه عمل بالشرك.

القسم الخامس: أن يطيعهم عملًا لا اعتقادًا في غير الشرك، مع اعتقاده الحكم الشرعي. يَعرِف أنّ شرب الدخان حرام –واليوم أنا أظن أنّ كل عاقل من المسلمين يدرك أنّ شرب الدخان حرام– فيعرف أنّ شرب الدخان حرام ولكن وجد دكتورًا في الجامعة يشرب الدخان وقال له: شرب الدخان مكروه، ليس بحرام، وهو يعرف أنه حرام، لكن أطاع هذا الدكتور عملًا لا اعتقادًا، فشرب الدخان لفتوى هذا الدكتور، فهنا قال بعض أهل العلم: هذا من الشرك الأصغر، لاحِظوا أنّ الكلام ليس عن شرب الدخان وإنما عن طاعة الشيخ وشرب الدخان بهذه الطاعة، شرب الدخان بنفسه معصية فقط؛ لكن كونه يطيع مخلوقًا في شرب الدخان عملًا لا اعتقادًا قال بعض أهل العلم إنه شرك أصغر، لماذا شرك أصغر؟ قالوا: من جهة الطاعة؛ لأنه أطاع المخلوق فيما يَعلَم أنه معصية.

وقال بعض العلماء: بل هو معصية كسائر المعاصي، ليس من الشرك الأصغر؛ لأنه لم يطعهم في التحريم والتحليل بل يعتقد أنه حرام ولكنه عَمِلَ المعصية. وهذا الذي يظهر لي والله أعلم، انه ما دام يعتقد الحكم الشرعي فهذه معصية كسائر المعاصي.

وأعود وأُذكِّر أنّا لا نتكلم عن الطاعة المشروعة؛ أن يطيع العالِم حيث أُمِر بهذا، وإنما نتكلم عن الطاعة المحرَمة.

هذا التقسيم من جهة المطيعِين.

أمّا من جهة المطاعِين، الذين يطاعُون في هذا –ولاحظوا أن الكلام عن الطاعة المحرَّمة–فإنهم على قسمين:

القسم الأوّل: مجتهد بذل ما يجب عليه، وطلب الحق بطرقه، فقال ما توصَّل إليه باجتهاده، ثم تبيَّن أنّ قوله يخالف دليلًا لم يطَّلع عليه. فهذا مجتهد مخطئ، مغفور له خطؤه، ومثاب على اجتهاده، معلوم فضله، لكن ليس لمَن عَرَفَ الدليل على خلاف قوله أن يتَّبعه في ذلك القول. مثل الأئمة الأربعة، نحن نعتقد اعتقادًا جازمًا لا نشك فيه أنه ما من إمام من الأئمة الأربعة قال قولًا إلا وهو مبنيٌّ على اجتهاده، وعلى بذل ما يستطيع، وأنه لا يوجد إمام يَثبُت عنده الدليل ويَتعمَّد مخالفة الدليل. ولكن في نفس الوقت نعتقد أنهم ما أحاطوا بكل الأدلة، فقد يُخطئون وقد يُصيبون، فمخطئهم فاضل، مغفور له خطؤه، وله أجر على اجتهاده. ومصيبهم فاضل، وله أجران: أجر على اجتهاده، وأجر على صوابه. فهؤلاء وإن أطاعهم بعض الناس طاعة محرَّمة –وأنا على يقين أنّ ذلك الإمام لو رأى هذا الرجل يطيعه في هذا بعد وضوح الدليل لنهاه عن هذا –

فهؤلاء المطاعُون أئمة وفضلاء ولا يذمُّون أبدًا، ولكن يُذَمُّ من يطيعهم وقد عَلِمَ الدليل بخلاف قولهم.

القسم الثاني: مفرِّط ليس من أهل الاجتهاد، ولم يبذل ما يجب في طلب الحق، ومع ذلك يَحكُم في الحلال والحرام. فهذا على جرم كبير، وخطر عظيم، وإن مدحه الناس، وإن اجتمع على كلامه جماعات من الناس، هذا يكون من باب افتراء الكذب على الله ولو أصاب، ولذلك يقول الله عز وجل: {وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ}(النحل: ١١٦)، والله! الذي يجرؤ على أن يقول: هذا حرام، وهذا حلال، وهو ليس من أهل الشأن ولم يَبذُل ما يجب عليه في هذا الباب لا يُفلح، ولا يفلح مَن اتَّبعه.

إذا عرفنا هذا نقرأ ما ذكره الشيخ ونعلِّق عليه.

[وَقَالَ اِبْنُ عَبَّاسٍ: يُوشِكُ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْكُمْ حِجَارَةٌ مِنَ اَلسَّمَاءِ، أَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اَللَّهِ صلى الله عليه وسلم. وَتَقُولُونَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ؟!]

هذا الأثر بهذا اللفظ ليس له أصل في الكتب المسنَدة التي بين أيدينا، وإنما ورد في كلام العلماء منسوبًا إلى ابن عباس بدون إسناد، وورد في كلام شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله– منسوبًا إلى ابن عباس بدون إسناد، وظنُّ بعض الفضلاء أنّ شيخ الإسلام ابن تيمية ذكره بإسناد وَهْمٌ، سببه أنّ شيخ الإسلام

ذكر أثرًا لابن عمر –رضي الله عنهما– بالإسناد، ثم ربط به كلام ابن عباس، فظنَّ بعض الفضلاء أنّ هذا الإسناد لأثر ابن عباس، وليس كذلك، وإنما هو في كلام شيخ الإسلام ابن تيمية منسوبًا إلى ابن عباس بدون إسناد، وكذلك –مثلًا– في كلام ابن القيم –رحمه الله– منسوبًا إلى ابن عباس –رضي الله عنهما– بلا إسناد، وكذا هو مشهور في ألسنة علمائنا المعاصرين بهذا اللفظ لكن بدون إسناد.

لكنّ معناه جاء بألفاظ أخرى، فقد روى الإمام أحمد في المسند، وابن عبد البر في الجامع، عن ابن عباس –رضي الله عنهما– أنه قال: (تمتَّع رسول الله صلى الله عليه وسلم)، ما معنى تمتَّع؟ يعني: حجَّ متمتِّعًا، وهذا على أحد وجهين:

الوجه الأوّل: أنّ السلف كانوا يسمُّون القِران تمتُّعًا، فالقِران أحد التَّمتُّعَين.

الوجه الثاني: أنّ النبي صلى الله عليه وسلم أمر أصحابه بالتمتُّع، وقال: «لو استقبلتُ من أمري ما استدبرتُ لَمَا سُقتُ الهَدي ولَجعلتُها عُمرة».

فقال ابن عباس –رضي الله عنهما–: (تمتَّع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال عروة ابن الزبير –ضي الله عنهما–: نهى أبو بكر وعمر عن المتعة) –أي: متعة الحج، وليس متعة النساء– (فقال ابن عباس –رضي الله عنهما–: أُراهُم سيَهلكون! أقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويقول: نهى أبو

بكر وعمر!)، هذا رواه الإمام أحمد مسندًا في المسند، وابن عبد البر مسندًا كذلك، وابن حزم في حجة الوداع، وغيرهم، لكنّ إسناده ضعيف.

وروى الإمام ابن حزم في حجة الوداع بإسناده إلى الإمام عبد الرزاق عن معمَر عن أيوب قال: (**قال عروة لابن عباس: ألا تتقي الله ترخِّص في المتعة** – أي: في متعة الحج– **فقال ابن عباس: سلْ أمَّك يا عروة**– فإنها تَعلَم أنّ النبي صلى الله عليه وسلم حج قارِنًا، وأمر أصحابه بالتمتع– **فقال عروة: أمّا أبو بكر وعمر فلم يفعلا ذلك** –يعني: لا يأمران الناس بمتعة الحج– **فقال ابن عباس: والله ما أراكم منتهين حتى يعذبكم الله، أحدثكم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتحدثوننا عن أبي بكر وعمر!)**، **يعني**: تعارِضون قول النبي صلى الله عليه وسلم برأي أبي بكر أو عمر، يوشك أن يعذبكم الله سبحانه وتعالى.

وروى هذا أيضًا ابن عبد البر؛ لكنه رواه بدون إسناد إلى عبد الرزاق، فلم يذكر إسناده إلى عبد الرزاق، بخلاف ابن حزم، ابن حزم في حجة الوداع ذكر إسناده إلى عبد الرزاق، أمّا ابن عبد البر فحكاه عن عبدالرزاق بدون إسناد بينهما. فهذا يدلُّ على أنّ الأثر له أصل، وأنّ ابن عباس –رضي الله عنهما– خشي أن ينزل عذاب على الناس بسبب معارَضة بعض الناس قول الرسول صلى الله عليه وسلم برأي أبي بكر وعمر.

قال ابن عباس: (يُوشِكُ) أي: يقترب، (أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْكُمْ حِجَارَةٌ مِنَ اَلسَّمَاءِ) أي: يعذبكم الله بنزول حجارة من السماء؛ لأنّ الحجارة التي تنزل من السماء على بعض المعذَّبِين ما هي من الظالمين ببعيد؛ كما أخبر الله، وهذا ظلم، وبهذا تعرف لماذا قال ابن عباس –لو صحَّ هذا الأثر عنه بهذا اللفظ–: (يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء)، لماذا خصها دون سائر أنواع العذاب؟ لأنّ الله قال: {وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ}(هود: ٨٣)، قال: (أَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اَللهِ صلى الله عليه وسلم، وَتَقُولُونَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ؟!)، أبو بكر وعمر أفضل الأمّة بعد نبيها صلى الله عليه وسلم على الإطلاق، فأفضل الأمّة النبي صلى الله عليه وسلم، ثم عيسى عليه السلام؛ لأنّ عيسى عليه السلام من أمّة محمد صلى الله عليه وسلم إذا نزل، ولذلك بعض أهل العلم يُلغِز بهذا فيقول: رجل من أمّة محمد أفضل من أبي بكر؟ هو عيسى عليه السلام عند نزوله، فإنه عند نزوله عليه السلام سيكون على شريعة محمد صلى الله عليه وسلم، ثم أبو بكر، ثم عمر، فهما أفضل الأمّة، بل النبي صلى الله عليه وسلم أمر بالرجوع إلى سنَّتهما في قوله صلى الله عليه وسلم: «فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، تمسكوا بها، وعَضُّوا عليها بالنواجذ»، ومع ذلك يقول ابن عباس –رضي الله عنهما– للناس: يوشك أن ينزل عليكم عذاب، بسبب معارضتكم قول الرسول صلى الله عليه وسلم برأي أبي بكر وعمر،

فكيف بمَن هو دونهما من أمّة محمد صلى الله عليه وسلم؟! وسيأتي مزيد كلام عن هذا إن شاء الله.

[وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ –رحمه الله–: عَجِبْتُ لِقَوْمٍ عَرَفُوا اَلْإِسْنَادَ وَصِحَّتَهُ، وَيَذْهَبُونَ إِلَى رَأْيِ سُفْيَانَ، وَاَللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ الآية. أَتَدْرِي مَا اَلْفِتْنَةُ؟ اَلْفِتْنَةُ اَلشِّرْكُ، لَعَلَّهُ إِذَا رَدَّ بَعْضَ قَوْلِهِ أَنْ يَقَعَ فِي قَلْبِهِ شَيْءٌ مِنَ اَلزَّيْغِ فَيَهْلَكَ]

وكلام الإمام أحمد هذا رواه بعض تلاميذه، وهو مشهور في كتب أصحابه سواء في مؤلفاتهم العقدية، أو في مؤلفاتهم الفقهية. وعندنا في هذا الكلام أمران:

الأمر الأوّل: في قول الله عز وجل: {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}، حيث حذَّر الله عز وجل هذا التحذير الشديد لمَن؟ للذين يخالفون عن أمر النبي صلى الله عليه وسلم، والحَظ هنا أنّ الله عز وجل قال: {يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ}، مع أنّ هذا الفعل يتعدى بنفسه، يقال: خالَف أمر النبي صلى الله عليه وسلم، وفلانٌ يخالِف أمر النبي صلى الله عليه وسلم، فلماذا أدخل الله عز وجل حرف (عن) هنا؟ لابد أنّ لهذا فائدة، والفائدة كما قال العلماء: أنّ المخالفة هنا ضُمِّنتِ الإعراض، فأصبح المعنى: فليَحذَر الذين يخالفون أمر النبي صلى الله عليه وسلم مُعرِضِين عنه إلى غيره، إذن

ليست كل مخالَفة؛ لأنّ الإنسان قد يخالِف الحديث اجتهادًا ولا يَعلَم بالحديث، فلا يدخل معنا. وقد يخالِف جهلًا، فلا يَدخل معنا. إذن مَن الذي يدخل معنا هنا؟ الذي يَعلَم أمر النبي صلى الله عليه وسلم ثم يُعرِض عنه ويعطيه ظهره إلى غيره، حذَّرهم الله عز وجل هذا التحذير الشديد بأن تصيبهم فتنة.

ومعنى(فتنة): قال بعض أهل العلم: بليَّة تنزل بهم.

وقال بعض أهل العلم: عقوبة.

وقال بعض أهل العلم: بلاء في القلب؛ إمّا شرك وإما بدعة. وهذا الراجح.

فالذي يُعرِض عن أمر النبي صلى الله عليه وسلم يقع في الشرك، يقع في الشرك الأصغر على ما بيَّنا، أو يقع في الشرك الأكبر على ما بيَّنا، أو يقع في بدعة، ويعتقد أنه أحسن من النبي صلى الله عليه وسلم.

لا يوجد أحد يستطيع يقول بلسانه: أنا أحسن من النبي صلى الله عليه وسلم –أنا لا أظن أنّ شخصًا يقول: أشهد أنّ محمدًا رسول الله، يجرؤ أن يقول بلسانه: أنا أحسن من النبي صلى الله عليه وسلم– لكن بحاله وفعله هناك كُثُر، فالذين يفعلون البدع حالهم يقول: نحن أفضل من النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنهم يفعلون ما لم يفعله النبي صلى الله عليه وسلم ويعتقدون هذا دينًا.

فهذه الآية دليل على عظم مصيبة من أعرض عن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وطلب الهدى في غيره مع علمه بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم.

الأمر الثاني: قول الإمام أحمد؛ حيث قال: (عجبت) وهذا تعجب استنكار (لقوم عرفوا الإسناد وصحته) أي: أنهم يعرفون الأدلة، ليسوا عوام ما يعرفون الأدلة، بل يعرفون الأدلة، (يذهبون إلى رأي سفيان) من كبار العلماء وخيارهم، ولكنّ الإمام أحمد تكلم عن أقوام يعرفون الحديث الصحيح ويتركونه إلى رأي سفيان –رحمه الله وسائر علماء المسلمين– (والله تعالى يقول: {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}. أَتَدْرِي مَا اَلْفِتْنَةُ؟ اَلْفِتْنَةُ اَلشِّرْكُ) هذا أحد الأوجه (لَعَلَّهُ إِذَا رَدَّ بَعْضَ قَوْلِهِ أَنْ يَقَعَ فِي قَلْبِهِ شَيْءٌ مِنَ اَلزَّيْغِ فَيَهْلَكَ) أي: يقع في قلبه شيء من الشرك ثم قد يَعظُم حتى يصل إلى الشرك الأكبر والعياذ بالله فيَهلك.

وهذا الكلام للإمام أحمد مثال لكلام العلماء المتقدمين، وإلا فالعلماء المتقدِّمون تتَّحد كلمتهم على أنّ الحق مربوط بالدليل، وأنّ التعبُّد مربوط بالدليل، وأنّ العلماء مُرشِدون إلى الحق، وليس لمَن ظهر له الدليل أن يتركه من أجل قول عالم، هذا محلّ اتِّفاق بين العلماء المتقدمين.

ولا شك أنّ ترك الدليل من أجل قول عالم معذور لم يطَّلع على الدليل خلاف الشرع وخلاف العقل.

أمّا كونه خلاف الشرع؛ فإنّ الله عز وجل قال: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} (النساء: ٥٩)، مَن هم أولوا الأمر منا؟ هم العلماء والحكام المسلمون، فأمرنا الله أن نطيعهم في غير المعصية. {فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ} أي: وقع الخلاف بين العلماء، هل قال الله: فردُّوه إلى الله والرسول وأولي الأمر منكم؟ لا، بل قال: ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ﴾ قِفُوا هنا، فلا يُرَدّ إلى الخلاف وإنما يُرَدّ إلى الكتاب والسنة، ويؤخَذ بما دلَّ عليه الدليل، {إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} فإنكم ستلقون الله وسيحاسبكم الله، {ذَلِكَ خَيْرٌ} أي: ذلك الذي تفعلون بالرَّدّ إلى الكتاب والسنة خيرٌ لكم في دينكم، {وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} يعني: وأحسن عاقبة لكم في أموركم.

إذن؛ ما المشروع لنا إذا اختلف العلماء؟ أن نَرُدّ إلى الكتاب والسنة، ونأخذ من أقوال علمائنا بما قوّاه الدليل.

وأمّا كونه خلاف العقل؛ فإنّ مَن وصل إلى المقصود، ثم تركه لمخالفته طريقةً من طرق الوصول إليه، يكون فِعْلُه مخالفًا للعقل.

وأضرب لكم مثالًا يبيِّن لكم هذه القاعدة: ألا ترَون لو أنّ رجلًا في صحن المطاف يرى الكعبة بأمِّ عينيه، أراد أن يصلي فأخرج البوصلة ووضعها على الأرض، فالبوصلة أشارت إليه على خلاف الكعبة، فجعل الكعبة خلف ظهره وقال: الله أكبر، يصلي! فقالوا له: أليست هذه الكعبة؟ قال: بلى، قالوا: ألا ترى هذه الكعبة؟ قال: بلى، قالوا: لماذا لا تصلي إليها؟ قال: لأنّ البوصلة التي ترشدني إلى الكعبة قالت: القبلة إلى الجهة الأخرى! هل هذا عاقل؟ لا والله. وكذلك العلماء، العلماء طريق موصِل إلى الحق، فإذا تبيَّن للإنسان الحق بالدليل، الذي يقول: لا لا أنا ما آخذ بقول الله وقول رسوله صلى الله عليه وسلم وإنما آخذ بقول العالم الفلاني؛ لأنّ العالم الفلاني ما قال بهذا الدليل! هذا يترك الحق الذي يراه ووصل إليه من أجل اختلاف الطريق، وهذا خلاف العقل.

إذن؛ الشرع والعقل يدعونا إلى أنه إذا اختلف العلماء نأخذ بالقول الذي دلّ عليه الدليل واتَّضح لنا، مع معرفة فضل العلماء وعدم سوء الأدب معهم.

والعلماء يستدلون بهذه الآية التي استدل بها الإمام أحمد على وجوب العمل بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم، ووجوب العمل بفعله صلى الله عليه وسلم.

قال بِشر ابن عمر أحد تلاميذ الإمام مالك الكبار: (سمعت مالك بن أنس كثيرًا إذا حدَّث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بحديث فيقال له: وما تقول

أنت؟ أو وما رأيك؟ فيقول مالك: {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ})، ليس مرة ولا مرتين ولا ثلاثة يسمعه يقول هذا، بل كثيرًا، الإمام مالك إذا حدَّث الناس بحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض الناس يأتيه يقول: ما رأيك أنت يا إمام في المسألة؟ فجوابه الآية فقط: {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} (النور: ٦٣).

وروى ابن عربي المالكي بإسناده إلى سفيان بن عيينة قال: (سمعت مالك بن أنس وأتاه رجل فقال: يا أبا عبد الله من أين أُحرِم؟ –مالك رحمه الله في المدينة، عالم المدينة في زمنه– فقال: أَحرِم من ذي الحليفة، من حيث أحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال الرجل: إني أريد أن أُحرِم من المسجد، فقال له مالك: لا تفعل، فقال: إني أريد أن أحرم من المسجد من عند القبر، فقال له مالك: لا تفعل فإني أخاف عليك الفتنة، فقال الرجل –لجهله–: وأيُّ فتنة في هذا؟! إنما هي أميال أزيدها! –ماذا تقول أنت؟ فتنة! أيُّ فتنة هذه إنما هي اميال أزيدها وأنا محرِم في طاعة الله– فقال له الإمام –بنور العلم–: وأيُّ فتنة أعظم من أن ترى أنك سبقت إلى فضيلة قصَّر عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم؟! إني سمعت الله عز وجل يقول: {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}.

وقال الإمام الشافعي في الأمِّ: قال تعالى: {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ} فعُلِمَ أنّ الحق: كتاب الله، ثم سنة نبيه صلى الله عليه وسلم، فليس لمُفْتٍ ولا لحاكم أن يُفتِيَ ولا يَحكُم حتى يكون عالمًا بهما، ولا أن يخالفهما، ولا واحدًا منهما بحال، فإذا خالفهما فهو عاصٍ لله عز وجل، وحكمه مردود). مَن خالف الكتاب والسنة سواء كان مفتي أو حاكم مع علمه بالدليل فهو عاصٍ لله، وقوله وحكمه مردود، ولا يجوز العمل به. وهذا هو الذي اتفقت عليه كلمة العلماء.

[وَعَنْ عَدِيٍّ بْنِ حَاتِمٍ: أَنَّهُ سَمِعَ اَلنَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يَقْرَأُ هَذِهِ اَلْآيَةَ: ﴿اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ﴾ الآية، فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ. قَالَ: «أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اَللهُ فَتُحَرِّمُونَهُ؟ وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اَللهُ فَتُحِلُّونَهُ؟»، فَقُلْتُ: بَلَى. قَالَ: «فَتِلْكَ عِبَادَتُهُم» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَاَلتِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ]

حديث عَديّ بن حاتم هذا رواه جمع من أهل العلم، منهم الترمذي، والطبريّ، والطبرني في الكبير، ولم أرَ الحديث والقصة في مسند الإمام أحمد، والشيخ هنا قال إنّ الترمذي حسَّنه، والذي رأيته في الطبعات التي بين يديّ أنّ الترمذي قال: "هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب، وأُطَيفُ بن أَعْيَن ليس بمعروف في الحديث"، ما معنى هذا الكلام؟ الترمذي يقول: هذا حديث غريب، وإذا قال الترمذي: "هذا حديث غريب" فقط هكذا؛

فهذا يعني أنّ الحديث ضعيف عنده، قال: "لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب، وأُطَيفُ بن أَعْيَن ليس بمعروف في الحديث" أي: أنه مجهول.

ووجدتُ الشيخ الألباني –رحمه الله– في السلسلة الصحيحة قال: "قال الترمذي: حسن غريب"، فزاد "حسن"، ثم قال –رحمه الله–: "التحسين المذكور لم يَرِد في النسخة التي ننقل عنها"، يعني: لم يَرِد في سنن الترمذي في النسخة التي ينقل عنها الألباني، "وإنما هي زيادة استفدتها من تخريج الكشاف للحافظ العسقلاني". فعلِمنا من كلام الشيخ الألباني –رحمه الله– أنّ تحسين الترمذي للحديث معروف عند العلماء، ذكره ابن حجر وهو من الحفّاظ، وذكره السيوطي، وذكره جمع من أهل العلم. فلعله في نسخة لم تبلغنا، وإنما في النُّسخ التي بلغتنا أنه قال: حديث غريب.

وقد ذكر الشيخ ناصر –رحمه الله– هذا الحديث في السلسة الصحيحة، وحكم عليه بأنه حسن، فهو صالح للاحتجاج.

قال: (عَنْ عَدِيٍّ بْنِ حَاتِمٍ: أَنَّهُ سَمِعَ اَلنَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يَقْرَأُ هَذِهِ اَلْآيَةَ) وذلك قبل أن يُسلِم، جاء –رضي الله عنه– قبل أن يُسلِم إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو متعلِق صليبًا من ذهب؛ لأنه كان نصراني، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «يا عَديّ ألقي عنك هذا الوثن»، كان يمشي فرآه النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «يا عدي ألقي عنك هذا الوثن»، فنحّاه عنه، فاقترب

من النبي صلى الله عليه وسلم فسمع النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ هذه الآية: ﴿اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ﴾، ﴿اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ﴾: جَمْعُ حَبْر أو حِبْر، والأحبار من اليهود. {وَرُهْبَانَهُم}: جمع راهب، أو هو مفرد: رُهبان، وهو من النصارى.

فالأحبار: هم الذين يحملون ما أُثِرَ عن موسى عليه السلام بزعمهم، وهو ما يسمى بالعهد القديم. ونقول: "بزعمهم" لأن أكثر الذي في أيديهم ليس مأثورًا عن موسى عليه السلام وإنما هو محرَّف.

والرهبان: هم الذين يحملون المأثور عن موسى وعيسى عليهما السلام بزعمهم، أيْ ما يُعرَف بالعهد القديم والعهد الجديد.

فالأحبار علماء اليهود، والرُّهبان علماء النصارى.

قال: (فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ)، إذن ماذا فهم عدي من قول الله عز وجل: ﴿أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ﴾؟ ما عمن يأرباب: أي معبودات؛ ولذلك عدي –رضي الله عنه– قال: (إِنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ)، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اَللهُ فَتُحَرِّمُونَهُ؟» يعني: وأنتم تعلمون، الأحبار والرهبان من وظائفهم تغيير الأحكام، يكون مكتوب في الكتاب أنّ هذا حرام، فله أن يقول لهم: هذا حلال. قال: «وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اَللهُ فَتُحِلُّونَهُ؟» أي: وأنتم تعلمون، (فَقُلْتُ: بَلَى) هذا يكون، وهو الواقع، أنّ اعتقادنا وعملنا تابع لقول الأحبار

والرهبان، قَالَ: «فَتِلْكَ عِبَادَتُهُم»، فتبيَّن أنّ طاعة الكبراء والعلماء الطاعة المحرَّمة التي فيها مخالفة لطاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم عبادة لهم، فأدنى ما تكون شرك أصغر، وتصل إلى أن تكون شركًا أكبر يخرج من الملة.

[فِيهِ مَسَائِلُ: الْأُولَى: تَفْسِيرُ آيَةِ اَلنُّورِ]

{فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}.

[اَلثَّانِيَةُ: تَفْسِيرُ آيَةِ بَرَاءَةٌ]

{اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ}.

[اَلثَّالِثَةُ: اَلتَّنْبِيهُ عَلَى مَعْنَى اَلْعِبَادَةِ اَلَّتِي أَنْكَرَهَا عَدِيٌّ –رضي الله عنه]

وهي عبادة الطاعة، أنهم يطيعونهم بخلاف طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

[اَلرَّابِعَةُ: تَمْثِيلُ اِبْنِ عَبَّاسٍ بِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، وَتَمْثِيلُ أَحْمَدَ بِسُفْيَانَ]

يعني تمثيل ابن عباس –رضي الله عنهما– بأمثل وأحسن وأعلم أهل زمانه: أبو بكر وعمر، وأنه لا يجوز للمسلم أن يعترِض على قول الرسول صلى الله عليه وسلم بقول أبي بكر وعمر، فكيف بمَن دونهما من العلماء؟! وتمثيل

الإمام أحمد بسفيان الذي كان من كبار علماء عصره وإليه المنتهى في العلم، فكيف بمَن دونه من العلماء؟!

[اَلْخَامِسَةُ: تَغَيُّرُ اَلْأَحْوَالِ إِلَى هَذِهِ اَلْغَايَةِ. حَتَّى صَارَ عِنْدَ اَلْأَكْثَرِ عُبَادَةُ اَلرُّهْبَانِ هِيَ أَفْضَلُ اَلْأَعْمَالِ، وَتُسَمَّى: اَلْوِلَايَةُ، وَعِبَادَةُ اَلْأَحْبَارِ هِيَ اَلْعِلْمُ وَالْفِقْهُ، ثُمَّ تَغَيَّرَتْ اَلْحال إِلَى أَنَّ عُبِدَ مِنْ دُونِ اَللهِ مَنْ لَيْسَ مِنَ اَلصَّالِحِينَ، وَعُبِدَ بِالْمَعْنَى اَلثَّانِي مَنْ هُوَ مِنَ اَلْجَاهِلِينَ]

يقول: إنّ الجهل قد كثر في أمّة محمد صلى الله عليه وسلم حتى تغيَّرت الأحوال إلى هذه الغاية من السوء، فتغيَّرت أحوال كثيرين من الأمّة، لا كلَّ الأمّة، من السنة إلى البدعة، ومن التوحيد إلى فعل الشرك ظنًّا أنه التوحيد؛ بسبب اندثار العلم، وقلَّة المعلِّمين للتوحيد.

قال: (حَتَّى صَارَ عِنْدَ اَلْأَكْثَرِ عُبَادَةُ اَلرُّهْبَانِ) ما هي عبادة الرهبان؟ طاعة العلماء في مخالفة طاعة الله وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم (هِيَ أَفْضَلُ اَلْأَعْمَالِ) أفضل العمل عندهم أن تطيع العالم ولو علمتَ الدليل بخلافه! حتى قال قائل –والعياذ بالله مما قال–: إنّ الأخذ بالظواهر كفر، وأنه يجب الأخذ بأقوال العلماء ولا نأخذ بالأدلة.

قال: (وَتُسَمَّى: اَلْوِلَايَةُ). وفي بعض النسخ: (ولا سيما الوِلاية). وفي بعض النسخ: (وتسميتها الوِلاية). يعني بعض الناس يقول: الولي له ما لله، حتى بلغ

بحال بعض أهل هذا العصر أن يقول: إنّ للولي أن يَخلُق الجنين في بطن أمّه! وصلنا إلى الشرك في الربوبية، ما جرؤ أن يقول كفار قريش هذا! يأتي شخص يحدّث الناس بسلوك الطريق فيقول: إنّ لأوليائنا أن يَخلقوا الأجنة في بطون أمهاتهم، وإنما منعهم من ذلك خوف اختلاط الأنساب! يعني يقول هذا الضال: الولي يستطيع أن يأتي إلى زوجة الرجل فيَخلق جنينًا في بطنها، ليس من ماء زوجها، فخاف الأولياء أن تختلط الأنساب فتركوا، وهم يستطيعون، والله! ما جرؤ على هذا كفار قريش!

ويقولون: أولياؤنا ساداتنا، يتحكَّمون في الكون، الكون يقوم على الأولياء والأقطاب! حتى يحدِّث بعضهم بعضًا بخرافات، ويتباكَون ويقولون: الله أكبر! يقولون: جاء ملك الموت فقبض روح شاب، هو ابن مريدة عند الشيخ، فذهبت إلى الشيخ قالت: يا شيخ يا شيخ مات ابني الآن، قُبِضت روحه، فدخل الشيخ في الغرفة، وصعد إلى السماء فوجد ملك الموت صاعدًا إلى السماء بالأرواح،- جهل حتى بأبسط ما في الشرع، فإنّ الذي يصعد بالأرواح ليس ملك الموت، وإنما ملائكة يأخذون الروح من ملك الموت ويضعونها في ماء هو معلوم- يقولون: وجد ملك الموت طائرًا صاعدًا بالأرواح إلى السماء والأرواح في قُفَّه، فلم يَعرِف روح الولد، كيف وهو وليّ ما يعرف روح الولد كما يزعمون أنه يعلم كل شيء؟! استطاع يصعد إلى السماء وما يعرف روح الولد؟! فصكّ ملك

الموت على وجهه، وأخذ القُفَّة ونثرها، فعادت الأرواح إلى كل مَن مات في هذه الليلة! يسمع هذه القصة المساكين فيكبرون: الله أكبر يا سيدنا الشيخ! يلعبون على الناس يلعبون بدينهم، يضيعون دينهم والعياذ بالله، ما نفعوهم بشيء وإنما والله يضرون الناس أعظم الضرر، ويقولون: هذه من الولاية.

نحن نؤمن أنّ لله أولياء، فمن عباد الله مَن يصل إلى درجة الولاية ويكون وليًّا لله، ونؤمن أنّ لهم كرامات، ونُثبِت كرامات الأولياء، ولكن لا ولاية إلا بالشرع، ولا كرامة إلا في الشرع.

وبعض الناس يقولون: الولي والشيخ يأخذ من اللوح المحفوظ، ولذلك لا تعترض عليه، فلو قال لك: هذا الذي هو حرام في القرآن والسنة هو حلال، لا تعترض فتكفُر؛ لأنه أخذ من اللوح المحفوظ!

هذا معنى قول الشيخ: (وتسمى الولاية)، ليست الولاية الشرعية التي في الكتاب والسنة، ويثبتها عباد الله الذين هم على الكتاب والسنة، وإنما الولاية التي أدخلها الشيطان على بعض أمّة محمد صلى الله عليه وسلم.

قال: (وَعِبَادَةُ اَلْأَحْبَارِ هِيَ اَلْعِلْمُ وَالْفِقْهُ) يعني: أن يُرَدّ الدليل من القرآن والسنة لقول عالم من العلماء، أصبح هو الفقه، ويُنهي عن التفقُّه بالأدلة.

وعجبتُ أنّ أحد طلاب الجامعة الإسلامية يقول: أنا لا أحضر درس الشيخ سليمان في الفقه؛ لماذا؟ لأنه يذكر الأقوال والأدلة ويرجِّح، ونحن نريد

الفقه أقوال الأئمة فقط، قال أبو حنيفة، وقال مالك، وقال الشافعي وقال أحمد، هذا علم يوصِل إلى الفقه، الفقه: أن تتقرّب إلى الله بقال الله قال رسوله صلى الله عليه وسلم، ونحن في درسنا بحسب ضعفنا وبحسب جهدنا نجمع بين معرفة أقوال العلماء، ومعرفة فضلهم، والإشارة إلى أدلتهم، وبيان الأقوى من أدلتهم، لكن بعض الناس صار عنده عمى عن الطريق؛ فيظن أنّ الفقه أن يأخذ بالأقوال ولا يلتفت إلى الأدلة!

قال: (ثُمَّ تَغَيَّرَتْ اَلْأَحْوَالُ) يعني: صارت أسوء عند بعض الناس (إِلَى أَنَّ عُبِدَ مِنْ دُونِ اَللهِ مَنْ لَيْسَ مِنَ اَلصَّالِحِينَ) يعني كله شر، عبادة غير الله كلها شر، لكن بعض الناس كانوا يعبدون الصالحين، فتغيَّر الأمر عند بعض الأمّة حتى أصبحوا يعبدون مَن ليسوا من الصالحين، كل مَن قيل لهم: إنه سيد، وأنه صاحب ولاية عبدوه! حتى قال لنا بعض مشايخنا الكبار –وكان يدرِّس في هذا الكرسي– من مصر: أنّ هناك قبرًا قُبِرَ فيه كلب، فمرّ صاحبه على أهل القرية فقالوا له: قبر مَن هذا؟ فقال: قبر سيدي كِليب، فصاروا يتقرّبون لسيدي كِليب ويذبحون له، ويطلبون منه المدد، ويضعون له النذور، وصار له سدنة!

وأنا رأيت في دولة من دول المسلمين رجلًا لا يصلي، ومن أوسخ ما رأيت من البشر، قَذِر، ويلبس عمامة هي إحرام كبير اِسْوَدّ من كثرة الوسخ، ومع ذلك لمّا جاء –لأنه الشيخ بن الشيخ ابن الشيخ، فالولاية بالوراثة فوصلت إليه–

رأيتُ الناس فرّوا من أماكنهم وذهبوا إليه، وانكبوا عليه، الذي يُقبِّل يده، والذي يُقبِّل ر أسه، والذي يأخذ من التراب الذي يمشي عليه! صدق الشيخ قال: (حتى عُبِدَ من دون الله من ليس من الصالحين)، عبادة الملائكة وعبادة الانبياء وعبادة الصالحين من دون الله شرك أكبر وعمل خبيث، لكن بلغ الحال من بعض الأمّة اليوم أنهم يعبدون مَن ليس من الصالحين أصلًا.

قال: (وَعُبِدَ بِالْمَعْنَى اَلثَّانِيَ) أي: بمعنى الاتّباع لأقوالهم (مَنْ هُوَ مِنَ اَلْجَاهِلِينَ) نعم والله، خاصة في زماننا اليوم، زمان الفضائيات والسوشال ميديا، الشيخ الذي تدعمه القنوات الفضائية أو يكون عنده متابعون بالملايين، قد يكون يظهر في القنوات الفضائية وهو عالم، وقد يكون له متابعون وهو عالم، لكنّ اليوم الميزان عند الناس ليس العلم وإنما الظهور والبروز، فيطاع مَن لا علم عنده، أو مَن قلّ علمه ويقدَّم على العلماء، ويُترك كلام العلماء بالأدلة من أجل كلامه! حتى أصبح بعض الناس عقائدهم منوطة بالكلام، فإذا جاء شخص من المشاهير وقال كلامًا غيَّر عقيدته على حسب ما يقول هذا!

ونحن نقول: المشهور والمغمور ميزانه العلم الصحيح، فمَن كان على علم صحيح يعلِّم الناس قال الله قال رسوله صلى الله عليه وسلم ولم يُعرَف بانحراف فهو عالم سواء كان مغمورًا أو مشهورًا.

أمّا مَن عُرِفَ بمخالفة العلماء وقلَّة العلم والاتيان بشواذ الأمور فهذا يَدخل في كلام الشيخ.

أصبح بعض الناس يَتلقَّون دينهم عن المجاهيل، الآن للأسف بعض المسلمين يستفتون الإنترنت، كلّما نزلت عنده مشكلة قال: ما نحتاج إلى الشيوخ، لماذا؟ يقول: عندنا الشيخ قوقل، ويدخل يكتب سؤاله ويأتيه الجواب، والله أعلم مَن الذي أفتاه، تأتيه الفتوى من أبي القعقاع، قال: تنظيم الدولة الإسلامية مجاهدون في سبيل الله، يقومون بدين الله، يحاربهم الطواغيت، وحبهم دين، المفتي: ابو القعقاع. بعض الناس مساكين يأخذون دينهم من هؤلاء المجاهيل الذين لا نور عندهم.

أنا وقفتُ على أوراق مع بعض طلاب العلم من مواقع الرافضة، لمّا وجدوا قال الله وقال رسوله صلى الله عليه وسلم قالوا: ما شاء الله!

جاء رجل إلى أحد المشايخ وقد طلق امرأته أربع طلقات، فقال له الشيخ: خلاص هذه أربعة طلقات متفرقات وزدت طلقة، فهي محرمة عليك، قال: أنا استفتيت لمّا طلقت الثالثة، فقال له الشيخ: مَن استفتيت؟ قال: استفتيتُ شابًّا إمام مسجد، أصبح فيما بعد –ونحن نعرفه– من تنظيم داعش، ذهب إليه وقال: يا شيخ أنا طلقت امرأتي ثلاث طلقات وكذا، فقال: أنت تحبها؟ فقال: نعم والله، قال: هي تحبك وتريدك؟ قال: نعم، قال: ارجع لها!

أصبح الناس يأخذون دينهم عن هذه المواقع، وعن طريق المجاهيل في هذه المواقع، وعن مَن قَلَّ علمهم، وهذا خطر عظيم على الدين، فيجب علينا جميعًا أن نعمل جاهدين على ردِّ أمتنا إلى الصراط المستقيم؛ وهو لزوم العلماء، هذه الأمّة خيرها وبركتها في أن تجتمع مع علمائها، وأن ترجع إلى علمائها، وأن تجلس إلى علمائها، وأن تأخذ الأحكام من علمائها، وأن تعظِّم الدليل، فليس البحث عن الأيسر لي، كقول بعضهم: ابحث لي يا شيخ عن مخرج!

مرة من المرات اتصل بي مرة شخص يسأل في معاملة، فقلت له: هذه المعاملة من كبائر الذنوب، وإن فعلتَ فإني أخشى عليك لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. فقال: يا شيخ أنا اتكلم عن سبعين مليون، هذه المعاملة فيها سبعين مليون! قلت: وإن كان فيها سبعون مليون هذا لا يغيِّر من الحكم شيئًا.

أذكر لكم لطيفة: جاء لي رجل إلى مكتبي، وعرض علي معاملة دولية، السمسرة فقط فيها بمئتي مليون دولار، وهؤلاء سماسرة خمسة، فعرضوا علي المسألة، فقلت لهم: والله هذه المسألة حرام واضح، ما فيها طريق للحلال. قالوا: يا شيخ مئتين مليون، انظر فيها، فقلت لهم: طيب اعطوني الملف، أخذت الملف ودرسته في يومين، ما وجدت طريقًا، لا يمكن أن يكون حلالًا بأيّ صورة من الصور، فأرجعت لهم الملف وقلت: يا أخوة هذا حرام، والله لو

تأخذون مليار هذا حرام، إذا تريدون الحرام فهذا حرام، وإذا كنتم وقّافين فهذا حرام انتهوا. فقالوا: يا شيخ ما رأيك ندخلك معنا؟ لعلك تعيد النظر وتجد مخرجًا! نعوذ بالله من الفتنة.

عزُّ الأمّة ونورها العلم والرجوع إلى العلماء المعروفين، الذين ينتسبون إلى التعليم في الأماكن الظاهرة المعروفة، والذين يُشهَد لهم بالعلم، وأن يُتلقى عنهم العلم، وأن تؤخَذ عنهم الفتاوى، ومن الظلم البيِّن أن يُرجع إلى غير العلماء، وأن يؤخذ الدين عن غير العلماء، وأن يقدَّم الصغار على الكبار، وأن لا يُلتَفت إلى ما قتضته الأدلة الشرعية.

الدرس الخامس والخمسون: شرح باب قول الله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ} الْآيَاتِ

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَن يهدي الله فلا مضلَّ له، ومَن يُضلل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء: ١]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: ٧١]

أمّا بعد:

فإنّ أحسن الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكلّ محدَثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النار.

ثم أيها الفضلاء؛ درسنا في شرح كتاب التوحيد، وشرحنا هذا كما تعلمون شرح تأصيليّ، أي أننا نبيِّن المراد بالباب، ونضبطه، ونبيِّن المراد بالنصوص، بحيث نفهم التوحيد فهمًا سليمًا، وتنشرح به صدورنا، ونعمل على تحقيقه.

وإن شاء الله عز وجل في شرحنا الثاني لكتاب التوحيد سيكون الشرح موسَّعًا؛ حيث نضيف إلى الشرح فوائد متعلقة بالباب أو بالنصوص، ونورِد الشبهات ونجيب عنها إن شاء الله عز وجل.

ونواصل شرحنا لكتاب التوحيد.

[باب: قول الله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً} الْآيَاتِ]

هذا الباب من القسم الذي ذكرناه، وهو القسم الذي يتحدَّث فيه الشيخ –رحمه الله– عن لوازم التوحيد، وما يضاد ذلك. وهذا الباب مرتبط بالباب السابق ارتباطًا بيِّنًا شديدًا؛ وذلك أنّ من لوازم التوحيد أن يكون التشريع له عز وجل فيجب أن تكون الطاعة لله عز وجل، ويضاد ذلك أن يطاع مخلوق فيما يخالف طاعة الله سبحانه وتعالى، وهذا تقدم في الباب السابق.

ثم مادام أنّ التشريع لله فإنه يجب أن يكون التحاكم إلى شرع الله، فالحكم لله عز وجل، ويضاد ذلك: أن يكون التحاكم إلى ما يخالف شرع الله، وهذا الذي يقرِّره الشيخ في هذا الباب.

إذن؛ البابان متعلِّقان بالتشريع، ولكن الباب السابق متعلق بالطاعة، وهذا الباب متعلق بالتحاكم.

فمن لوازم التوحيد: أن يكون الحكم لله عز وجل، فيكون الشأن عند المؤمن كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إنّ الله هو الحَكَم وإليه الحُكم» رواه أبو داود، والنسائي، وصحَّحه الألباني.

فمن لوازم التوحيد التي هي من قطعيات الشريعة: أنّ الحكم لله عز وجل، كما قال الله عز وجل: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ (الأنعام: ٥٧)، فالحكم كله لله عز وجل، وكما قال سبحانه: {لَهُ الْحُكْمُ}(الأنعام: ٦٢)، فالله سبحانه وتعالى له الحكم الكوني، وله الحكم الشرعي، وله الحكم الجزائي، فالله له الحكم كونًا وقدرًا، وله الحكم شرعًا وأمرًا، وله الحكم جزاءً وعقابًا، وما دام ذلك كذلك فإنه يجب أن يكون التحاكم إلى حكم الله، إلى شرع الله عز وجل.

والتحاكم بين الناس على ثلاثة أنحاء:

الأوّل: التحاكم إلى شرع الله. إذا وقع بين الناس نزاع في أمر من أمورهم الدينية أو الدنيوية يتحكامون إلى الكتاب والسنة، إلى شرع الله عز وجل، وهذا

فرض من الفرائض القطعية في الدين، ولا عدل في غيره، إنما العدل في التحاكم إلى شرع الله عز وجل.

الثاني: التحاكم إلى أنظمة تخالف شرع الله. فلله حُكمٌ وللنظام حُكمٌ آخر والعياذ بالله، وللقانون حُكم آخر والعياذ بالله. الله عز وجل يقول: تقطع يد السارق، والنظام يقول: يُسجن السارق، ولا تُقطع يده. فالتحاكم إلى هذه الأنظمة التي تخالف شرع الله عز وجل معصية كبرى، وجريمة عظمى، وسبب للظلم وللفساد في الأرض. وسيأتي فيها تفصيل في درجات هذا الحكم إن شاء الله عز وجل، ولكن نتكلم الآن عن الحكم الإجمالي.

الثالثة: التحاكم إلى أنظمة بشرية لا تخالف شرع الله. التحاكم إلى أنظمة وضعها بشر ولكنّ هذه الأنظمة لا تخالف شرع الله عز وجل، بل هي في أمورٍ مسكوتٍ عنها شرعًا أو نحو ذلك مما لا يخالف شرع الله، وهذا التحاكم جائز، وهو في حقيقته راجع إلى التحاكم إلى شرع الله؛ لأنّ شرع الله عز وجل جاء بالعدل، وبحفظ ضروريات الناس فإذا وُجِدَت أنظمة تَحفظ للناس العدل وضرورياتهم وهي لا تخالف شرع الله عز وجل فهي من شرع الله ومقتضاه، وهذا مراد قول الإمام بن القيم: "إنّ المقصود بالحكم: العدل، فحيث ما وُجِدَ العدل فثَمَّ حكم الله". ليس المقصود أنّ للبشر أن يضعوا أنظمة تخالف شرع الله يعتقدون أنها تحقق العدل؛ لأنّ هذا لا عدل فيه، وإنما المقصود: أنه إذا وُجِد

العدل بالحكم بأن كان بما نُصَّ عليه في الكتاب أو السنة، أو أجمع عليه علماء الأمّة، أو كان باجتهاد عند عدم النَّص، سواء جُعِلَ ذلك نظامًا أو رَجع إلى القاضي، فهذا من حكم الله عز ودجل؛ لأنّ المقصود من حكم الله العدل بين الناس، وحفظ ضرورياتهم.

وبهذا تَعلَم جواب السؤال: متى يكون التحاكم إلى الأنظمة البشرية معصية كبرى –على ما يأتي من تفصيل أحكامه–؟ ومتى يكون جائزًا؟

الجواب: إذا كان النظام البشري مخالفًا لشرع الله؛ بحيث وُجِدَ نصٌّ على الحكم ووُضِعَ في النظام حُكم يخالفه؛ فهذا جريمة كبرى ومعصية عظمى، أمّا إذا كان النظام البشري لا يخالف شرع الله، ويحقِّق المقصود الشرعي من التحاكم؛ فالتحاكم إليه جائز.

إذا كان ذلك كذلك؛ فإنّ التحاكم إلى أنظمةٍ تخالف شرع الله ليس على درجة واحدة، بل هو على أقسام، ولابد من ضبطها حتى لا تختلط الامور–:

القسم الأوّل: أن يتحاكم المتحاكم إلى تلك الأنظمة متنقِّصًا شرع الله، وكارهًا لشرع الله. مثل: أن يَستكبر عن شرع الله، ويرى أنه أكبر من أن يُحكَم عليه بشرع الله سبحانه وتعالى، أو يقول: الشريعة لا دخل لها في هذه الأمور، هذه تجارة، ما دَخْلُ الدين في التجارة؟ فهو يتحاكم إلى الأنظمة مع إعراضه عن حكم الله، وكراهيته لحكم الله، وهذا –والعياذ بالله– كفر أكبر.

القسم الثاني: أن يتحاكم إلى تلك الأنظمة المخالفة لشرع الله وهو يعتقد أنها أحسن من حكم الله، وأحرى بتحقيق العدل من حكم الله، وهذا كفر أكبر.

القسم الثالث: أن يتحاكم إلى تلك الأنظمة المخالفة لشرع الله عز وجل وهو يعتقد أنها مساوية لشرع الله، فالكل عنده سواء، فما جاء في كتاب الله، وما جاء في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم عنده مساوٍ لِمَا جاء في كتاب القانون الفرنسي، أو القانون الإنجليزي، أو ما وضعه بما يسمّونهم بفقهاء القانون مما يخالف شرع الله، وهذا –أيضًا– كفر أكبر.

القسم الرابع: أن يتحاكم إلى تلك الأنظمة المخالفة لشرع الله وهو يعتقد أنّ حكم الله أحسن وأكمل وأعدل لكن يعتقد أنه يجوز التحاكم إلى ما خالَفه، إذا كلمته قال: نعم حُكم الله أحسن للناس وأكمل لكن يجوز التحاكم إلى ما يخالف حكم الله، وهذا أيضًا كفر أكبر.

وتلْحَظون هنا أمرين لابد منهما:

الأمر الأوّل: أنّ الحكم هنا على الفعل، لا على الفاعل، نحن هنا لا نحكم على المتحاكِم و لكن نَحكم على التحاكم الذي هو الفعل، أمّا الحكم على الفاعل فله شأن آخر يُنظَر فيه في اجتماع الشروط وانتفاء الموانع، كما هو معلوم. وهذا الحال في كتاب التوحيد كله، فإنّ ما يذكره الشيخ –رحمه الله– من

أحكام إنما هي أحكام على الأفعال لا على الفاعلين، وهنا يخطئ فريقان عند قراءة كتاب التوحيد:

الأوّل: فريق يكفِّر الناس بأعيانهم، فبمجرَّد فِعْلِ ما بيَّن الشيخ في كتابه أنه شرك أكبر أو كفر أكبر، فكلّما وجد مَن فَعَلَ ما بيَّن الشيخ أنه كفر أكبر أو شرك أكبر، قال: كافر بعينه، مشرك بعينه، وهذا خطأ؛ لأنّ الحكم على الفعل يختلف عن الحكم على الفاعل.

الثاني: فريق يتَّهم كتاب التوحيد بتكفير الناس، فمثلًا: الشيخ قال في الكتاب: كذا كفر، فيقول: انظر قال: كفر، أو قال الشيخ: شرك، فيقول: انظر قال: شرك، وهذا موجود في القرآن والسنة، وهذا لأنهم لم يفهموا هذه القضية الشرعية؛ وهي أنّ الحكم هنا إنما هو على الأفعال.

ويَلحق بهم فريق ثالث –نذكره من باب المناسبة–: وهم فريق يكرِّسون في أذهانهم أن الحكم على معيَّن بأنه كافر يعني جواز قتله. فإنّ كثيرًا من وسائل الإعلام اليوم وكثيرًا من الذين يتكلمون ولا علم عندهم في الحقيقة وإن أخذوا شهادات يكرِّسون في أذهان السامعين أو من حكم عليه بالكفر بعينه جاز قتله.

ولذلك كلّما وجدوا عالمًا قال: فلان كافر، قالوا: هو الذي يحث على القتل! وهذا جعل بعض شباب المسلمين يقعون في وحل دماء الناس، ونجد أنّ بعض شبابنا يُقتِّلون ويُدمِّرون ويُفجِّرون وقد يقتل الواحد منه نفسه في هذا وهو

يظن أنه بهذا يجاهد في سبيل الله؛ لأنه كُرِّسَ في ذهنه أنه مَن حُكِمَ بكفره جاز قتله، وهذا مخالف لشرع الله عز وجل، فإنه لا يجوز قتل أحد إلا بجريمة ثابتة، وبحكم ممَّن له الحُكم، ولا يُنفِّذ ذلك إلا ولي الأمر أو مَن ينيبه؛ وزيره و مَن يمثِّله.

فأهل السنة والجماعة في كلامهم العدل والحكمة والرحمة، يُفرِّقون في الحكم بين الفعل والفاعل، ثم لو فرضنا أنّ فاعلًا ثبت عليه أنه كافر فإنهم لا يُجيزون لأفراد الناس قتله، وإنما يقتل إذا ثبت جرمه، وحَكَمَ عليه بالقتل مَن له الحُكم، ويقتله ولي الأمر أو مَن يقوم مقامه، فهذا الأمر ينبغي أن يتنبه له.

الأمر الثاني: أنّ هذه الأحكام المذكورة متعلقة بأمر خفي، متعلقة بما في القلب، فلا يجوز لأحد أن يتسلط على قلوب الناس، فيقول: هذا يعتقد كذا، وهذا يعتقد كذا، إلا إذا صرَّح هو بمعتقده، والأصل فيمَن أتى بالشهادتين الإسلام حتى يَثبُت خلاف ذلك.

إذن؛ ذكرنا أربعة أقسام كلها من الكفر الأكبر.

القسم الخامس: أن يتحاكم إلى تلك الأنظمة وهو يعقد أنه عاص ولكن تغلبه شهوته وهواه، فهذه كبيرة من كبائر الذنوب وليست كفرًا.

مثال: شخص تعامل بمعاملة ربوية، فأقرض شخصًا مئة ألف على أن يردها مئتي ألف، ثم اختصما.

المقترض يعلم أنه إذا تحاكم إلى المحكمة الشرعية ستحكم المحكمة الشرعية برَدّ ماله فقط، فيردّ له مئة ألف، لكن لو تحاكم إلى القانون يَحكمون له بمقتضى العقد، وكما يقولون: العقد شريعة المتعاقدين، فيحكمون له بمئتي ألف، فلشهوته وهواه تحاكم إلى القانون وهو يعتقد أنه عاص لكن يريد الدنيا هنا، فهذه معصية كبرى ومن كبائر الذنوب، وهو على خطر عظيم.

بقي أمرٌ يتحدَّث عنه العلماء ويحتاجه الناس ولابد من بيانه: وهو التحاكم إلى أنظمة تخالف شرع الله حال الاضطرار، إذا كان الإنسان مضطرًا، مثال ذلك: تعامَل تاجر مسلم مع تاجر كافر في بلد ذلك التاجر الكافر، ثم وقعت بينهما خصومة، فهنا لا يمكن للتاجر أن يتحاكم إلى المحاكم الشرعية في البلد المسلم؛ لأنّ القضية وقعت في بلد الكفر، فهو بين أمرين:

- إمّا أن يتحاكم إلى المحاكم في بلاد الكفر وهي تحكم بالأنظمة التي تخالف شرع الله.
- وإمّا أن يُضيع حقَّه.

فما عنده إلا أحد هذين الطريقين.

وأشد من ذلك اضطرارًا: لو أنّ التاجر الكافر رفع القضية إلى المحكمة في بلاده، في هذه الحال التاجر المسلم ما عنده أيّ اختيار هل يرفع أو لا يرفع، القضية رُفِعت، وهو ملزم.

ومن صور الاضطرار التي تقع بين المسلمين الذين يعشون في أوروبا: مثلًا: لو أنّ رجلًا ترك زوجته وهجرها، وأبى أن يطلقها، فهي إمّا أن تبقى معلقة لا مُزوَّجة ولا مطلقة طول عمرها مع الفتن والبلاء، وإمّا أن ترفع أمرها إلى المحاكم في تلك البلد لتحكم لها، فهي في حال ضرورة.

هنا من أهل العلم من يقول: يترك حقه ما لم تَستحكم الضرورة، يقولون: لا يجوز أن يترافع إلى تلك المحاكم؛ لخطورة الأمر، ما لم تستحكم الضرورة، فيبقى لا اختيار مطلقًا، مثل ما ذكرت في المثال الثاني رُفعت القضية من قِبَل الكافر فهو ما أمامه خيار إلا أن يأتي، وإلا يتضرر ضررًا بالغًا، وقد يُحجَز على ماله كله، ومثل المرأة التي مثَّلنا لها ولو كانت فتيَّة وخافت على عرضها وعلى دينها لو استمرت على هذا الحال؛ فهنا يجوز.

وقال أكثر العلماء –وهو الراجح–: يجوز له أن يتحاكم إلى تلك الأنظمة مع كراهيته له بشروط:

الشرط الأوّل: أن يكون كارهًا لتلك الأنظمة، ولا يرضى بها، وقلبه متطمئن بأن شرع الله هو الحق، ولكنه مكرَه، فهو يذهب إليها مكرهًا كارهًا.

الشرط الثاني: أن يكون الضرر متحقِّقًا، ليس موهومًا ولا متوقعًا؛ وإنما متحقق وموجود.

الشرط الثالث: أن يكون الضرر عظيمًا، ما تكون في عشرة آلاف أو عشرين ألف، فمفسدة التحاكم إلى تلك الأنظمة أعظم من مفسدة ذهابها، وإنما يكون الضرر عظيمًا، والمفسدة فيه عظيمة.

الشرط الرابع: أن لا يوجد طريق غير تلك المحاكم. يعني المرأة هذه التي ضربنا لها مثالًا لو كان يوجد مركز إسلامي ينظر بمقتضى الشرع ويحكم لها حكمًا ملزِمًا لا يجوز لها أن تذهب إلى تلك المحاكم.

الشرط الخامس: أن يقتصر المتحاكم على حقه الشرعي ولا يأخذ ما يزيد على ذلك. يعني يأخذ فقط حقه الشرعي الذي لو تحاكم إلى محكمة شرعية حكمت له به، وألا يزيد على ذلك، ما زاد عن حقه الشرعي حتى لو حكمت به المحكمة هذه لا يجوز له أن يأخذه، بل يقتصر على حقه الشرعي.

فإذا كان ذلك كذلك؛ فإنّا تكلمنا عن التحاكم لا عن الحكم، التحاكم غير الحكم، التحاكم هو الترافع إلى هذه الأحكام.

وأمّا الحكم مسألة أخرى، لم نتكلم عنها هنا؛ لأنّ الشيخ لم يُرِدْها، فالشيخ إنما أراد التحاكم إلى غير شرع الله عز وجل.

ولعلنا في شرحنا الموسَّع –إن شاء الله– نبسط الكلام عن الحكم.

(بَاب قول الله تَعَالَى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ

بِهِ﴾)، ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ هذا الاستفهام قال بعض أهل العلم: إنكاري، أي: يُنكِر حالهم وفِعلهم.

وقال بعض أهل العلم: هو أسلوب تعجيب وتعجُّب للإنكار، أسلوب تعجيب للسامع، وتعجُّب من المتكلم، والمقصود من هذا التعجيب: الإنكار.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾: الزعم –في الغالب–: هو القول الكاذب، نقول: زعم فلان أنّ خالدًا قدم من السفر، ومقصودنا: كَذَبَ، فإنّ خالدًا لم يَقدُم من السفر، وهذا الغالب.

وقد يطلق الزعم على الكلام الذي فيه شبهة؛ يحتمل الصدق ويحتمل الكذب، فتقول مثلًا: هل صحيح أنّ فلانًا في المدينة، فأقول لك: زعم فلان، يعني عندي فيه اشتباه، يمكن أن يكون صدقًا ويمكن أن يكون كذبًا.

وقد يطلَق ويراد به إسناد القول إلى الغير، يعني ليس كذبًا عندك وليس فيه شبهة، لكن أردتَ أن تُسنده إلى غيرك، فتقول: زعم فلان كذا، لك أن تقول: زعم الشيخ سليمان كذا، ليس مرادك أنه كَذَبَ ولا أنّ في كلامه احتمالًا، ولكن أردتَ أن تَنسِب القول له، وهذا يستعمله العلماء، فتجد أنهم يقولون: زعم أحمد، زعم مالك، زعم الخليل بن أحمد، بمعنى: أنك تُسنِد القول إليه.

والمقصود بالزعم هنا: الأوّل؛ وهو : القول الكاذب.

﴿الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ طبعًا من أركان الإيمان أن تؤمن بما أُنزل على النبي صلى الله عليه وسلم وما أُنزل على الرسل السابقين، لابد من ذلك، لكنّ إيمانك بما أُنزل على محمد صلى الله عليه وسلم يكون إيمانًا مع اتِّباع؛ تؤمن بالقرآن وتتَّبع القرآن، وإيمانك بالكتب السابقة التي أُنزلت على الأنبياء السابقين إيمان مع اعتقاد النسخ؛ طبعًا من حيث ذاتها، أمّا الموجود بين أيدي الناس فمحرَّف، لكن حتى الصحيح منها قد نُسخ، وأصبح لا يجوز العمل به، وإنما العمل بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم.

﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ﴾ والْحَظوا أنّ الله ما قال: يتحاكمون، فلم يُسنِد الأمر إلى الفِعل وإنما أسند الأمر إلى الإرادة، والإرادة أين؟ في القلب، فمناط الحكم بالكفر على ما في القلب، أعني في هذا الباب؛ باب التحاكم.

{يُرِيدُونَ} هذا يُخرِج الذي لا يريد أن يتحاكم إلى الطاغوت لكنه مضطر –كما ذكرنا في حال الضرورة–، أو جاهل ما يعرف أنّ هذا يخالف شرع الله، أو كارِه لكن غلبته الشهوة.

﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ﴾، الطاغوت من الطغيان، وهو: كل ما تجاوز به العبد حدَّه من معبود أو معبود أو مطاع.

"كل ما تجاوز به العبد حدَّه"؛ أي: مقامه.

"من معبود"، وهذا ليس فيه تفصيل، ليس للمخلوق في العبودية شعرة، فكل مَن عَبَدَ مخلوقًا أو صَرَفَ له عبادة ولو مقدار شعرة فقد جعله طاغوتًا، وتجاوز به حدَّه، هل لأحد من مخلوقات الله مهما عظم نصيب في العبادة ولو كان قليلًا؟ لا والله، ما كانت العبادة إلا لله، {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا} (الجن: ١٨).

"أو متبوع": هو الذي يقول فيُسمع لقوله، أو يَفعل فيُقتدى به. فإمامنا في المسجد متبوع، فإذا كبَّر كبَّرنا، وإذا ركع ركعنا، وإذا سجد سجدنا، فهذا هو المتبوع الذي إذا قال سُمِع قوله، سُمِع: أي عُمِلَ بقوله، وإذا فعل اقتُدي به، فإذا تجاوزت بالعبد المتبوع حدَّه في الاتباع فقد جعلتَه طاغوتًا.

أو مطاع"، وهو: الذي يأمر فيطاع، كالملك والأمير والعالم، فالطاعة متعلقة بالأمر.

وتقدَّم أنّ الطاغوت نفسه يكون طغوتًا حقيقة في ذاته إذا دعا إلى ذلك، أو رضي بذلك، أو لم يكره ذلك. أمّا إذا كان يكره ذلك ولا يرضى به ولو عَلِمَ به لردَّه فهذا ليس طاغوتًا في ذاته؛ مثل: الأنبياء عليهم السلام، هناك مَن عبدهم، فهم ليسوا طواغيتًا في ذاتهم، هل الانبياء طواغيت في ذاتهم؟ لا والله، هم رسل الله ولكن اتخذهم أولئك العبَّاد طواغيت، فإذا أُطلِق عليهم هذا فباعتبار المتَّخِذِ

لا باعتبار المتَّخَذِ، ولذلك الأدب هنا أن يقال: اتخذهم أقوامهم طواغيت، ولا يقال عنهم بذاتهم طواغيت؛ من باب التأدُّب معهم.

ويترتَّب على هذا؛ مآل الطواغيت يوم القيامة، فإنّ الطاغوت الذي دعا أو رضي فإنه يدخل مع معبوديه النار تعذيبًا له. ومَن لم يكره ممن لا شعور له كالشمس والقمر والحجارة والأصنام، هذه ليس لها شعور ، ما يقال فيها راضية أوغير رضية، ولا يتحقق منها الكراهية، فهي لا تكره ذلك، فهذه الطواغيت تدخل النار تبكيتًا لعابديها، تُحشَر مع عابديها في النار تبكيتًا لعابديها وزيادة في عذاب عابديها.

أمّا عباد الله الذين يكرهون ذلك لكن ظلم أقوام فتجاوزوا بهم حدَّهم فهؤلاء عنها مبعدون، هؤلاء سبقت لهم من ربهم الحسنى، فهؤلاء مبعدون عن النار، وهم من أهل الجنة.

هذا باختصار تذكير بما تقدَّم في اوّل الباب.

وهذه الآية تدل على أنّ الطواغيت ليست الأصنام فقط كما يقول بعض الناس، فإنّ الله سمَّى ما يُتحاكم إليه مما يخالف شرع الله طاغوتًا، {وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ} .

وهذه الآية قبلها كان الأصل الشرعي، ثم جاء بيان هذا الانحراف؛ قال الله عز وجل: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ

تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} (النساء: ٥٩)، هذا الأصل الشرعي، حال أهل الإيمان: طاعة الله، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، وطاعة العلماء والأمراء في ما لا يخالف طاعة الله، فإن تنازعتم واحتجتم إلى التحاكم فتحاكموا إلى كتاب الله وإلى سنة رسول الله، ردُّوه إلى الله وإلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾هذا يدل على أنّ هذا التحاكم شرط في الإيمان، ولا يكون الإنسان مؤمنًا إلا إذا تحاكم إلى كتاب الله أوسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، على ما بيّناه في الأقسام، {ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا}. ثم جاءت هذه الآية: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ} وهم المنافقون، يزعمون بألسنتهم ولا إيمان في قلوبهم، ومن فسادهم أنهم يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أُمروا أن يكفروا به.

قوله: {وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً} الْآيَاتِ. لم يعلق عليها الشيخ سليمان.

[وَقَوْله: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ}]

قول الله عز وجل: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ} مَن هم؟ المنافقون، وهذه الآية في صفات المنافقين في أوَّل سورة البقرة. {لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ} الإفساد في الأرض نوعان:

- **حسيّ**. كأن تُهدم البيوت وتُقتَّل الأنفس، وتُقطع الأشجار، هذا إفساد حسي.

- **معنوي**. بالمعاصي، ومخالفة شرع الله عز وجل.

والآية تشمل الأمرين، فالمنافقون في الحقيقة مفسدون حسًّا ومعنىً.

﴿قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ قال بعض أهل العلم: هذا إذا قال لهم الضَّعَفَة الذين معهم: ﴿لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ﴾، قالوا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ غايتنا الصلاح والإصلاح، ونحن أهل الصلاح والإصلاح. ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾، ﴿ألا﴾ هذا تأكيد. ﴿إنهم هم﴾ فجاء ضمير الفصل للتأكيد،﴿المفسدون﴾ جاءت (الـ) للحصر، فكأنه لا مفسِد في الأرض غيرهم، كأنّ الفساد قد انحصر فيهم.

يقول قائل: ما مناسبة الآية للباب؟

الجواب: أنّ هذه الآية في صفات المنافقين، أنهم هم المفسدون، فأفعالهم إفساد للأرض، ماذا من أفعال المنافقين؟ ما في الآية السابقة التي في رأس الباب: أنهم يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت، فعَلِمْنا من مجموع الآيتين أنّ إرادة التحاكم إلى الطاغوت إنما هي من أفعال المنافقين والمشركين، وأنها من أعظم الإفساد في الأرض، ونعم والله، إنّ إنشاء المحاكم الوضعية التي تخالف شرع الله والتحاكم إليها من أعظم أسباب الفساد في الأرض، ولذلك تجد في بعض

البلدان يأتي رجل ويغتصب جارته، يزني بها ويغتصبها، ويُحكم عليه بسنتين ونصف، ثم يخرج وبعد ستة أشهر يغتصب ابنة جاره بنت الأربع عشرة عامًا ويحكمون عليه بسبع سنين، وبعد سبع سنين يخرج ويغتصب رضيعة؛ لأنّ هذه الأحكام الوضعية لا تَمنع الإجرام بل تشجِّع الإجرام، فمن أعظم أسباب الفساد في الأرض التحاكم إلى ما يخالف شرع الله عز وجل، وهذا مراد الشيخ –رحمه الله– أن يبيِّن أنّ التحاكم إلى الطاغوت إلى ما يخالف شرع الله من أعظم أسباب الفساد في الأرض، من أين جاء بهذا التحاكم؟ من الآية السابقة: أنّ من صفات المنافقين أنهم يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت، والمنافقون هم المفسدون، إذن من أعظم الإفساد التحاكم إلى الطاغوت. هذا مراد الشيخ رحمه الله.

[وَقَوْله: {وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا}]

لمّا تقدم أنّ المنافقين هم المفسدون في الأرض، وأنّ من أفعالهم التحاكم إلى الطاغوت وهذا من أعظم الفساد؛ جاء الشيخ –رحمه الله– بهذه الآية التي تدل على الأصل العام؛ وهو أنه لا يجوز للمسلم أن يفسِد في الأرض لا حسًّا ولا معنىً، فإنّ الله أصلح الأرض بحكمه القدري وبحكمه الشرعي، فلا يجوز للمسلم أن يفسدها أو يفسِد فيها، وشَمَلَ هذا: النهي عن الإفساد في الأرض بالتحاكم إلى الطاغوت.

وهذه الآيات الثلاثة لابد أن تصلها ببعضها حتى تعرف مراد الشيخ، فهي آيات تتصل ببعضها في المعنى.

وَقَوْله: {أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ} الآية]

﴿أَفَحُكْمَ﴾ الهمزة للاستفهام للإنكار. ﴿الْجَاهِلِيَّةِ﴾: كل ما خالف شرع الله، سواء ما كان قبل الشرع في فترة الجاهلية، أو ما كان بعد الشرع؛ فإنه من الجاهلية، ولذلك أحكام قريش قبل الإسلام من أحكام الجاهلية، وأحكام البادية الأعراف القبلية التي تخالف شرع الله من أحكام الجاهلية، وما يُحدِثه أهل المُدن من أحكام تخالف شرع الله قالوا: والله نحن في بيت فلان هذا الحكم عندنا، هذا عرفنا، وهي تخالف شرع الله؛ فهي من أحكام الجاهلية، فالذي يريد حكم الفرنسيين والإنجليز هذا يبتغي حكم الجاهلية، الذي يبحث عن القوانين الفرنسية والإنجليزية والرومانية واليونانية هذا يبتغي حكم الجاهلية، والذي يأخذ بحكم الأعراف والقبائل التي تخالف شرع الله هذا ابتغى حكم الجاهلية، يقول: والله قبيلتنا ما أستطيع، فيقال له: الله عز وجل يقول، قال: لا، يقال له: النبي صلى الله عليه وسلم يقول، قال: لا، هذه قبيلتنا، ما أستطيع، هذا ابتغي حكم الجاهلية.

﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ أي: يطلبون ويريدون. {وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} أي: لا أحسنَ من الله حكمًا، لكن لِمَن؟ لقوم يوقنون،

لأهل اليقين، يوقنون ويعتقدون أنّ خير حكم هو حكم الله. أهل اليقين حتى في الأمور القدرية يعتقدون أنّ حكم الله هو خير ما لهم في هذا، مثال: إنسان ذاهب إلى عمرة فحدث حادث وانقلبت السيارة، فالموقن يعلم أنّ هذا الأمر هو خير ما يحصل هنا؛ لأنه حكم الله القدريّ، ولا أحسن من حكم الله، ربما انقلبت السيارة به هنا فسَلِم ولو أنه تقدَّم ربما احترق، وهذه نافعة في الإيمان بالقدر والتسليم، أن تَعلم أنّ خير حكم هو حكم الله، ولكن هذا يكون إذا وقع الأمر، فإذا وقع الأمر علمتَ أنه حكم الله، وأنه أحسن الأحكام، فقد يصل بك الأمر إلى مرتبة الصديقين: تشكر الله على المصيبة، لا من جهة ذاتها ولكن من جهة أنها حكم الله وأنه خير حكم في هذا، وأنّ الله يجعل فيها منحًا عظيمة قد تعلمها أو قد لا تعلمها، ولكنّ الموقن إذا وقع حكم الله القدري علم أنه خير حكم، وأنّ غيره قد يورثه شرًّا عظيمًا لو وقع.

وكذلك في حكم الله الشرعي، فحكم الله خير الأحكام، وكل حكم خالف حكم الله فلا خير فيه.

الدرس السادس والخمسون: تابع شرح باب: قول الله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ} الْآيَاتِ

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَن يهدي الله فلا مضلَّ له، ومَن يُضلل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء: ١]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: ٧١]

أمّا بعد:

فإنّ أحسن الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكلّ محدَثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النار.

ثم يا معاشر الفضلاء؛ نواصل شرحنا لكتاب التوحيج الذي هو حق الله على العبيد. ولازلنا مع الباب العظيم الذي عقده الشيخ في هذا الكتاب؛ وهو باب قول الله عز وجل: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً}، وقد تقدم بيان أنّ قضية هذا الباب: هي التحاكم إلى ما يخالف شرع الله، وليست الحكم بغير ما أنزل الله.

والتحاكم: هو الترافع إلى مَن يحكم بتلك الأحكام، فهو فِعلٌ لعامّة الناس.

وقد بيَّنا أنّ ما يَتحاكم إليه الناس بالنسبة إلى شرع الله على ثلاثة أقسام:

القسم الأوّل: التحاكم إلى شرع الله. وهذا هو المشروع، وفيه العدل كلُّه، وفيه الخير كلُّه، ففرض على المؤمن إذا أراد أن يتحاكم أن يتحاكم إلى شرع الله عز وجل.

القسم الثاني: التحاكم إلى ما يخالف شرع الله. أي: التحاكم إلى أحكام وضعها البشر وهي مخالِفة لشرع الله، كالحكم على السارق التي اجتمعت فيه الشروط وانتفت في حقِّه الشبهات بالسّجن لا بقطع اليد، وكالحكم على القاتل عمدًا بالسّجن المؤبَّد لا بالقصاص، وهذا حرام، وجريمة كبرى، وظلم عظيم، ولا يحقِّق العدل وإن تَوَهَّم الجهال أنّ فيه عدلًا.

القسم الثالث: التحاكم إلى أحكام وضعها البشر لا تخالف شرع الله عز وجل، وهذا التحاكم جائز، بل هذا في الحقيقة من شرع الله؛ لأنّ شرع الله عز وجل يأمر بالعدل، ويأمر بحفظ ضروريات الناس، فوضع أحكام كأحكام المرور ونحو ذلك مما يَضبِط مصالح الناس ولا يخالف شرع الله ليس ممنوعًا بل مطلوب شرعًا، وبالتالي فالتحاكم إلى تلك الأحكام التي لا تخالف شرع الله ليس حرامًا بل هو من شرع الله عز وجل.

ثم بيّنا أنّ التحاكم إلى ما يخالف شرع الله عز وجل ليس على درجة واحدة بل على دركات وأقسام:

القسم الأوّل: أن يتحاكم العبد إلى ما يخالف شرع الله وهو مبغِض لشرع الله، كارِه لشرع الله عز وجل، متنقِّص لشرع الله عز وجل، وهذا كفر أكبر.

القسم الثاني: أن يتحاكم العبد إلى ما يخالف شرع الله وهو غير كاره لشرع الله، لكنه يرى أنّ ما خالف شرع الله أحسن من شرع الله، وأكمل، وأحرى بتحقيق العدل، وأنسَب إلى الزمان مما شرعه الله عز وجل، وهذا كفر أكبر، وإن كان دون سابقه؛ لأنّ سابقه مبغِض لشرع الله عز وجل.

القسم الثالث: أن يتحاكم العبد إلى ما خالف شرع الله وهو يرى أنّ حكم المخلوقين يساوي حكم الخالق الحكيم سبحانه وتعالى، وهذا –أيضًا– كفر أكبر.

القسم الرابع: أن يتحاكم العبد إلى ما خالف شرع الله وهو يعتقد أنّ حكم الله أحسن ولكن يجوز أن يُتحاكم إلى ما خالف شرع الله، وهذا -أيضًا- كفر أكبر.

ونَبّهتُ إلى أنّ هذا الحكم على الفعل الذي هو التحاكم، لا على الفاعل الذي هو المتحاكم، فإنّ الفاعل للحكم عليه طريق أخرى تحتاج إلى نظر في شروط وانتفاء موانع، مع النظر إلى الأصل والتمسك به حتى يُتيقَّن خلافه؛ أعنى: الإسلام، وأنّ الأصل فيمن أتى بالشهادتين الإسلام.

القسم الخامس: أن يتحاكم العبد إلى ما خالف شرع الله وهو يعتقد أنّ التحاكم إلى ما يخالف شرع الله حرام ومنكر لكن غلبته الدنيا والشهوة والهوى، فهذا كفر دون كفر، وليس كفرًا أكبر، ولا يُخرج من الملة، لكنه جريمة كبرى، وخطر عظيم.

وهذا كله في حال الاختيار.

أمّا في حال الاضطرار، إذا اضطُّر الإنسان إلى هذا التحاكم، فقد ذكرنا كلام أهل العلم، وأنّ من أهل العلم من يرى أنه لا يجوز للإنسان أن يتحاكم إلى ما خالف شرع الله ولو في حالة الاضطرار؛ إلا إذا استَحكمت الضرورة، ما معنى إذا استَحكمت الضرورة؟ يعني لم يكن للإنسان خيار في أن يتحاكم أو لا

يتحاكم؛ كأن حاكَمه غيره إلى تلك الأحكام، فلابد له أن يذهب، أمّا أن يتحاكم بنفسه قالوا: لا يجوز.

وذهب أكثر العلماء أنه في حال الضرورة يجوز بشروط:

الشرط الأوّل: أن يكون الضرر متحقِّقًا لا موهومًا ولا بعيدًا.

الشرط الثاني: أن يكون الضرر عظيمًا لو لم يتحاكم. أمّا إذا كان الضرر سهلًا يتحمله الناس فلا يجوز له أن يتحاكم إلى ما خالف شرع الله من أجله.

الشرط الثالث: أن لا يوجد طريق لدفع الضرر سوى هذا التحاكم، فإذا وُجِد طريق مباح ولو بالرجوع إلى طالب علم في البلد يَفصل في المسألة ويَحلّ النزاع فإنه لا يجوز هذا التحاكم.

الشرط الرابع: ألا يأخذ من حكم هذه المحكمة إلا حقَّه المشروع، وألا يزيد على ذلك ولو حكمتْ به تلك المحكمة، فلا يأخذ حكمها بخلاف الشرع، وإنما يأخذ حكمها الذي يُحكَم له به شرعًا وإن كان بطريق القانون الوضعي.

الشرط الخامس: أن يكون كارهًا لهذا التحاكم، فلولا الضرورة لَمَا تحاكم.

وشرحنا مراد الشيخ من الآيات الذي ذكرها في الباب، ووقفنا عند إيراده للسنة.

[عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمرو أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ». قَالَ النَّوَوِيُّ: حَدِيثٌ صَحِيحٌ رُوِّيْنَاهُ فِي كِتَابِ الْحُجَّة بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ]

هذا الحديث رواه صحابيان جليلان؛ فرواه عبد الله بن عَمرو –رضي الله عنه– كما عندنا هنا، ورواه أيضًا أبو هريرة –رضي الله عنه وأرضاه–، وقد روى هذا الحديث جَمع من العلماء؛ منهم ابن أبي عاصم في السُّنة، والأصبهاني في الترغيب، والبغوي.

وقد اختلف العلماء في إسناده، فقال النووي كما في الأربعين النووية: حسن صحيح، ورُوِّيناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح. وقال الذهبي في الكبائر: إسناده صحيح. وقال ابن حجر في الفتح: رجاله ثقات، وذكر تصحيح النووي له، وسكت عنه، لم يخالفه. وصحَّحه الشيخ أحمد شاكر.

وقال ابن باز –رحمه الله وسائر علماء المسلمين–: ضعَّفه بعض أهل العلم، ولكنّ معناه صحيح. فالشيخ ابن باز يرى أنّ إسناده ضعيف ولكنّ معناه صحيح. وضعَّفه ابن رجب في جامع العلوم والحكم. وضعَّفه الألباني، وضعَّفه الشيخ مقبل الوادعي.

والناظر في إسناد الحديث يرى أنه ضعيف، ولا يمكن أن يصحَّح من جهة الإسناد، ولكنّ معناه صحيح كما قال الشيخ ابن باز –رحمه الله–، فإن التوحيد

والنطق بالشهادتين يقتضي أن يكون مَيل الإنسان ومراده مقيَّدًا بشرع الله، فلا يميل إلى ما حرَّم الله، ولا يريد إرادة جازمة ما حرَّم الله، ولا يفعل ما حرَّم الله، فهذا مقتضى التوحيد لكنه ليس شرطًا فيه، بمعنى: أنّ الذي يميل إلى أمر حرَّمه الله، أو أراد أمرًا حرَّمه الله، أو فعل أمرًا حرَّمه الله لا يَكفُر بهذا؛ إلا:

-إذا كان هوه كلُّه تَبَعًا لِمَا خالف شرع الله.

-أو كان هواه هذا مبنيًّا على كُرْهِ شرع الله، فإنه إذ ذاك يكون كفرًا.

- أو كان استحلالًا لِمَا حرَّم الله، فإنه يكون كفرًا.

متى يكون ميل الإنسان وإرادته وعمله بما خالف شرع الله كفرًا؟

الجواب: في أحوال.

الحالة الأولى: أن تكون إراداته كلها تَبَعًا لِمَا خالف شرع الله.

الحالة الثانية: أن يكون ميله إلى ما خالف شرع الله كرهًا لشرع الله عز وجل وبغضًا لشرع الله مع علمه لشرع الله.

الحالة الثالثة: أن يكون ذلك استحلالًا لِمَا حرَّم الله مع علمه بما حرَّم الله.

فإذا سَلِمَ من كل هذا فإنه لا يكون كفرًا لكنه يكون حرامًا.

قال: «لَا يُؤْمِنُ»، هذه الجملة عند أهل العلم من علامات الكبائر، فنفي الإيمان عن فِعل شيء، أو عن فاعل شيء يدلُّ على أنّ ذلك الشيء من كبائر

الذنوب. «لا يؤمن أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ» أي: ميله وما يشتهيه. «تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ» أي: لا يخالف ما جئت به في الكتاب والسنة.

ووجه إيراد هذا الحديث في هذا الباب: أنّ التحاكم إلى ما خالف شرع الله عز وجل يدخل في كون الهوى مخالفًا لِمَا جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم، فليس تبعًا لِمَا جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم.

[وَقَالَ الشَّعْبِيُّ: كَانَ بَيْنَ رَجُلٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَرَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ خُصُومَةٌ، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: نَتَحَاكَمُ إِلَى مُحَمَّدٍ؛ عَرفَ أَنَّهُ لَا يَأْخُذُ الرِّشْوَةَ، وَقَالَ الْمُنَافِقُ: نَتَحَاكَمُ إِلَى الْيَهُودِ؛ لِعِلْمه أَنَّهُمْ يَأْخُذُونَ الرِّشْوَةَ، فَاتَّفَقَا أَنْ يَأْتِيَا كَاهِنًا فِي جُهَيْنَةَ فَيَتَحَاكَمَان إِلَيْهِ، فَنَزَلَتْ (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ). وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي رَجُلَيْنِ اِخْتَصَمَا، فَقَالَ أَحَدُهُمَا: نَتَرَافَعُ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم. وَقَالَ الْآخَرُ: إِلَى كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ. ثُمَّ تَرَافَعَا إِلَى عُمَرَ رضي الله عنه، فَذَكَرَ لَهُ أَحَدُهُمَا الْقِصَّةَ، فَقَالَ لِلَّذِي لَمْ يَرْضَ بِرَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم: أَكَذَلِكَ؟ قَالَ: نَعَمْ. فَضَرَبَهُ بِالسَّيْفِ فَقَتَلَهُ]

هنا يذكر الشيخ سبب نزول الآية التي ترجم بها للباب، وأسباب النزول المذكورة هنا من جهة الإسناد ضعيفة؛ لكنّ شهرتها عند علماء الإسلام وقبول العلماء لها وتعدُّد طرقها تشهد أنّ لها أصلًا.

وقد أشار بعض الناس أنّ الشيخ مقبل الوادعي ذكر هذا السبب في الصحيح المسنَد من أسباب النزول، والحقيقة: أنه لم يذكر هذا السبب وإنما ذكر شيئًا آخر غير هذا.

ولكن أقول: إنّ شهرة هذا السبب عند أهل التفسير وعلماء الإسلام قاطبة، وقبول العلماء لهذا، وتعدُّد طرق هاتين القصتين يشهد لها بالاعتبار.

(قالَ الشَّعْبِيُّ) هو الإمام التابعي المعروف. (كَانَ بَيْنَ رَجُلٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَرَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ خُصُومَةٌ) احتاجا معها إلى التحاكم. (فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: نَتَحَاكَمُ إِلَى مُحَمَّدٍ) صلى الله عليه وسلم (عَرِفَ أَنَّهُ لَا يَأْخُذُ الرِّشْوَةَ) اليهودي يعرف أنّ محمدًا صلى الله عليه وسلم حَكَمٌ عدل، يحكم بالعدل، ولا يقبل الرشوة، ولا يظلم حتى أعدى الأعداء، ويعلم أنّ الحق له.

تنبيه: ليس صحيحًا ما قاله بعض الشراح من أنّ اليهودي هنا أحسن حالًا من المنافق! كلهم سواء، لكنّ اليهودي يَعرف أنّ الحق له وأنه إذا رُفعت الخصومة إلى مَن يحكم بالعدل سيَحكم له، وهو على يقين من أنّ محمدًا صلى الله عليه وسلم لا يحكم إلا بالعدل، ولا يقبل الظلم على أحد، ولا يقبل الرشوة، فقال: نتحاكم إلى محمد. أمّا المنافق فيعلم أنّ الحق عليه، وأنه إذا لم يتخذ الطرق الملتوية سيُحكم عليه، فماذا يريد؟ يريد اليهود، يريد قوم هذا اليهودي الذي هو خصمه؛ لأنه يَعلم أنّ اليهود يقبلون الرشوة، فإذا أشار إلى

اليهودي بالرشوة حَكَمَ على أخيه، فاختصما ولم يتفقا، ثم اتفقا على أن يأتيا كاهنًا في جهينة، والكاهن: هو الذي يدَّعي علم المستقبل، وقد كانت العرب تُعظِّم الكهّان وتجعلهم قضاة، فكان هناك كاهن في جهينة فاتفقا على أن يأتيا إليه فيتحاكما إليه، فنزلت الآية: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ} أي: أنها في شأن المنافق، فإنه أبى أن يتحاكم إلى شرع الله أوّلًا وطلب اليهود، ثم ثانيًا طلب الكاهن، فنزلت الآية.

(وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي رَجُلَيْنِ اِخْتَصَمَا، فَقَالَ أَحَدُهُمَا: نَتَرَافَعُ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم. وَقَالَ الْآخَرُ: إِلَى كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ) اليهودي، وجاء في بعض الطرق أنهما اتفقا على التحاكم إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فتحاكما إلى النبي صلى الله عليه وسلم فلم يرضيا بحكمه، يعني في البداية أحدهما طلب التحاكم إلى غير الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم تحاكما إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، ولمّا حكم النبي صلى الله عليه وسلم لم يرضى أحدهما بحكمه، وطلب أن يتحاكم إلى أبي بكر، وهذا الرجل الذي لم يرضَ بحكم النبي صلى الله عليه وسلم منافق، فأرسلهما النبي صلى الله عليه وسلم إلى أبي بكر، فلما جاءا عند أبي بكر وسمع قال: ما كنتُ لأحكم بين رجلين لم يرضَ أحدهما بحكم النبي صلى الله عليه وسلم فردّهما، فعادا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأرسلهما إلى عمر، فلمّا جاءا وقصّا الخبر على عمر –رضي الله عنه–

قال عمر للرجل المنافق: لم ترضَ بحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: نعم لم أقبله، وأريد أن تحكم بيننا، فقال: انتظراني، فدخل بيته، واخترط سيفه، وخرج فضرب عنق المنافق، وقال: هذا حكمي فيمن لم يَقبل حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنزلت الآية.

هنا إشكال: كيف قتل عمر –رضي الله عنه– هذا الرجل وهو ليس ولي أمر؟ وهذا إنما هو من عمل ولي الأمر؟

أُجيبَ عن هذا بأجوبة:

-**قال بعض اهل العلم**: إنّ عمر –رضي الله عنه– غار على رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يملك نفسه، وهذا قاله بعض أهل العلم ولكنه عندي ليس بقوي والله أعلم.

-**قال بعض اهل العلم**: إنّ عمر –رضي الله عنه– كان وزير رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان يُنفِّذ الأحكام، فقتله بحكم كونه وزيرًا لرسول الله. وهذا أقوى من الذي قبله.

لكنّ الأقوى والله أعلم: أنّ عمر فهم من إرسال الرسول صلى الله عليه وسلم الرجلين له أنه ما أرادا منه أن يحكم بينهما؛ لأنّ هذا ما يجوز، يدرك عمر –رضي الله عنه– أنه لا يجوز أن يحكم بينهما بعد حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّ عمر يدرك هذا. إذن لمّا جاءا

وقد أرسلهما رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهم عمر أنّ المراد ليس أن يحكم بينهما، ولكن المراد أن يقتل مَن لم يقبل حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ففهم من صنيع رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه أراد منه شيئًا غير الحكم؛ وهو شيء واحد: أن يقتل هذا المنافق، وجريمته أنه لم يَقبل حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم.

[فِيهِ مَسَائِلُ: الْأُولَى: تَفْسِيرُ آيَةِ النِّسَاءِ، وَمَا فِيهَا مِنَ الْإِعَانَةِ عَلَى فَهْمِ الطَّاغُوتِ]

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا}. قوله: (وما فيها من الإعانة على فهم الطاغوت) يعني: بيان أنّ الطاغوت ليس الأصنام فقط، بل كل ما تجاوز العبد حدَّه من معبود أو متبوع أو مطاع، على ما فسرناه سابقًا، فإنّ الله سمى الحكم المخالف لشرعه طاغوتًا، وهذا ليس صنمًا، فدلّ ذلك على أنّ الطاغوت أوسع من الأصنام.

[الثَّانِيَةُ: تَفْسِيرُ آيَةِ الْبَقَرَةِ: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ}]

وبيان أنها في المنافقين، وأنّ من أعظم الإفساد في الأرض: التحاكم إلى ما يخالف شرع الله عز وجل، وهو من شأن المنافقين.

[الثَّالِثَةُ: تَفْسِيرُ آيَةِ الْأَعْرَافِ: {وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا}]

وتضمَّن هذا: تحريم التحاكم إلى ما يخالف شرع الله؛ لأنه من أعظم الإفساد في الأرض، ومن شان المفسدين في الأرض.

[الرَّابِعَةُ: تَفْسِيرُ: {أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ}]

وقد تقدم بيان أنّ هذا إنكار عليهم في طلبهم حكم الجاهلية، وبيَّنا حكم الجاهلية.

[الْخَامِسَةُ: مَا قَالَ الشَّعْبِيُّ فِي سَبَبِ نُزُولِ الْآيَةِ الْأُولَى]

كما بيَّنا.

[السَّادِسَةُ: تَفْسِيرُ الْإِيمَانِ الصَّادِقِ وَالْكَاذِبِ]

الإيمان الصادق الذي فيه قَبول شرع الله، والإيمان الكاذب الذي فيه ردّ شرع الله، فالمنافقون يزعمون بألسنتهم أنهم مؤمنون وهم كَذَبَةٌ، ومن هذا الكذب الذي يعيشون فيه أنهم يريدون التحاكم إلى الطاغوت، فالإيمان الكاذب هو القول باللسان مع بغض شرع الله عز وجل وعدم التحاكم إليه.

[السَّابِعَةُ: قِصَّةُ عُمَرَ مَعَ الْمُنَافِقِ]

وأنه عَلِمَ أنه بهذا كافر، وفهم أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد منه قتله. وهذا يدل على أنّ مَن لم يَقبل شرع الله يَكفُر بهذا.

[الثَّامِنَةُ: كَوْنُ الْإِيمَانِ لَا يَحْصُلُ لِأَحَدٍ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ صلى الله عليه وسلم]

كما فسّرنا وبيَّنا في معنى الحديث.

تابع الدرس السادس والخمسون: شرح بَابُ مَنْ جَحَدَ شَيْئًا مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ

[بَابُ مَنْ جَحَدَ شَيْئًا مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ]

تقدم معنا في أوَّل شرحنا لكتاب التوحيد أنّ هذا الكتاب أَلَّفه شيخ الإسلام –رحمه الله– في توحيد الألوهية فقط، توحيد العبودية، ولذلك كان عنوان الكتاب: (كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد)، وحق الله على العبيد: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا.

والشيخ في هذا الكتاب لم يتعرَّض لتوحيد الربوبية، ولا لتوحيد الأسماء والصفات؛ إلا من جهة تعلُّقها بتوحيد الألوهية، ومن هذا الباب، فإنّ هذا الباب متعلِّق بالأسماء والصفات؛ لكن من جهة تعلُّق هذا بتوحيد الألوهية، وذلك أنّ الشيخ –رحمه الله– قد ذكر هذا الباب في قسم لوازم توحيد الألوهية وما يضاد ذلك، كما بينّا سابقًا أنّ هذا القسم الذي نشرح فيه الآن: هو قسم لوازم توحيد الألوهية وما يضاد ذلك، وذلك أنّ من لوازم توحيد الألوهية: إثبات صفات الكمال لله عز وجل، فمن لوازم إثبات الألوهية لله أن يُثبت العبد لله صفات الكمال؛ لماذا؟ لأنّ الذي لا يتَّصف بشيء لا يكون موجودًا إلا في الأذهان، لا يكون موجودًا في الخارج، بل هو عدم، ولذلك نُفاة الصفات بالكلية إنما يَعبدون عدمًا، فهو عندهم لا موجود ولا معدوم، ولا في داخل العالم ولا في خارج العالم، ولا أوّل ولا آخر، ولا ظاهر ولا باطن! فهو معدوم، الذي لا

يتَّصف بشيء الذي يسميه المناطقة "الوجود المطلق" هذا في الأذهان، لا يكون موجودًا في الخارج.

ومَن لا يتَّصف بصفات الكمال ناقص عاجز، والعاجز لا يكون إلهًا، كما قال الله عز وجل في نفي ألوهية آلهة الكفار: {إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٩٤) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ} (الأعراف: ١٩٤- ١٩٥). {إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ} كل هذه الآلهة التي تُعبَد من دون الله ظلمًا، إنما هم عباد، فكيف يكون العبد معبودًا؟! {عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ} إذن هم لا يسمعون الدعاء، فهم في نقص، ولو سمعوا ما استجابوا، وليس لهم صفات كمال. {أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا} فأقام الله الحجة على الكفار بأنّ آلهتهم لا تستحق أن تُعبَد لأنها ضعيفة عاجزة؛ لعدم اتصافها لصفات الكمال.

إذن؛ من لوازم الألوهية أن تُثبِت لله عز وجل صفات الكمال، الصفات التي وصف الله عز وجل بها نفسه، ووصفه بها رسوله صلى الله عليه وسلم؛ بمعانيها الظاهرة؛ على ما يليق بجلال الله عز وجل. فالمؤمن يُعظِّم الله عز وجل في نفسه فلا يجرؤ على نفي ما أثبتَه، أثبت الله أنه كلم موسى، المؤمن الذي

يعظِّم الله لا يجرؤ على أن يقول: لا ما كلم الله موسى، ولا يجرؤ أن يظن أنّ الله حدَّث الناس عن أعظم معلوم بالألغاز التي لا تُفهم لأوّل مرة، أعظم معلوم هو الله، لا يمكن للمسلم وقد عظَّم الله أن يظن أنّ الله في باب تعريفنا به سبحانه وتعالى يستعمل الإلغاز، ويجعل الكلام على غير ظاهره في جميع سياقاته، ولا يجرؤ على أن يُشبِّه الله بشيء من خَلقه، ولا يجرؤ على أن يطمع أن يدرك كيفية صفة الله عز وجل.

كما أنّ المسلم يعظِّم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلا يعتقد أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن عالمًا بربه العلم الحقيقي، وأنّ المتأخرين من أمّته عرفوا ربه أكثر منه صلى الله عليه وسلم، ولا يجرؤ أن يظن أنّ النبي صلى الله عليه وسلم كان ناقص البلاغة حتى لا يستطيع أن يعبِّر عن صفات الله عز وجل بما يُفهَم.

كما يعظِّم المسلم صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلا يجرؤ أن يظن أنّ المتأخرين من الأمّة أعلم بربهم من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلا يجرؤ أن يقول: طريقة السلف أسلم، وطريقة الخلف أعلم وأحكم.

وبالتالي؛ يُثبِت صفات الله عز وجل من غير تحريف ولا تمثيل، ولا تكيف ولا تعطيل.

والأسماء في كل ما تقدَّم كالصفات، فإنّ أسماء الله عز وجل ليست أعلامًا مجرَّدة؛ بل هي متضمِّنة للصفات، فكل اسم من أسماء ربنا سبحانه وتعالى فيه صفة أو أكثر، فالسميع فيه إثبات صفة السمع لله عز وجل، والبصير فيه إثبات صفة البصر لله عز وجل، وجحد شيء من الأسماء أو الصفات يضاد هذا.

والشيخ هنا قال: (بابُ: من جحد شيئًا من الأسماء والصفات)، فيكون المعنى: بابُ الذي جحد شيئًا من الأسماء والصفات ما حكمه؟ ويصح أن تقول: بابٌ من جحد شيئًا من الأسماء والصفات، فيكون المعنى: بابٌ من جحد شيئًا من الأسماء والصفات فقد كَذَّبَ الله ورسوله.

وجَحْد شيءٍ من الأسماء والصفات الأصل العام فيه أنه كفر أكبر؛ لأنه تكذيب لله وتكذيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم، مثلًا: الله عز وجل يقول: {أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ} (تبارك: ١٦)، وذاك يقول: الله ليس في السماء! والله عز وجل يقول: {وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا}(النساء: ١٦٤) وذاك يقول: ما كلم الله موسى تكليمًا! والرسول صلى الله عليه وسلم يقول: «يَنزل ربنا»، وذاك يقول: لا يَنزل ربنا! فهذا تكذيب لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم.

لكن في نفس الوقت يوجد أصل آخر يقول: التأويل يمنع تكفير المعيَّن. فالذي يَنفي صفة من الصفات، أو اسمًا من الأسماء متأوِّلًا لا يكفَّر بعينه، وإن كان فعله كفرًا؛ لأنه تكذيب لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم.

أهل السنة والجماعة أصولهم هداية وأمان، فيها حفظ الدين، وفيها حفظ أمور الناس.

حفظ الدين: جحدُك لصفة في القرآن أو في السنة تكذيب للقرآن والسنة، فاحذر فإنّ هذا كفر.

حِفْظ أمور الناس: التأويل يَمنع تكفير المعيَّن، فمن تأوَّل صفة من الصفات أو بعضها، أو تأوَّل الصفات فإنه لا يُكفَّر بعينه، وإن كان من أهل البدع وعلى خطر عظيم.

وجَحْد الأسماء والصفات على دركات، الجحد الذي وقع في الأمّة بعد سلفها الصالح. مضى الصحابة وهم يُثبتون الأسماء والصفات على معانيها الظاهرة على ما يليق بجلال الله، ومضى فضلاء الأمّة على ذلك، إلى أن جاء الجَهم بن صفوان، فأظهر بليَّة إنكار الصفات والأسماء وجَحْدِها، وقد أخذ هذا عن شيخه الجَعد بن درهم الذي حكم عليه الأمير خالد القَسْري بالقتل؛ لنفيه صفات الله عز وجل، وفي يوم عيد الأضحى بعد أن خطب الناس خطبة عيد الأضحى قال: ضحوا تقبل الله ضحياكم، وإني مضحٍّ بالجعد بن درهم فإنه يقول ويقول وذكر نفيه للصفات، فنزل وضرب عنقه. والجعد بن درهم أخذ هذه البليَّة عن اليهود، وكان شيخهم الأعظم لبيد الذي سحر رسول الله صلى الله عليه وسلم.

إذن؛ بعد ذهاب السلف وفضلاء الأمّة ظهر في أثناء وجود علماء كبار هذا الضال الجهم الذي حكم المحقِّقون عليه بالكفر، وأخذ عقيدته عن الجعد.

فكان الناس في جحد الأسماء والصفات على دركات أو درجات:

الأولى: جحد الأسماء والصفات بالكلية، تعطيل الله عز وجل من أسمائه وصفاته بالكلية، وهؤلاء أشرُّ القوم.

الثانية: إثبات الأسماء وجحْد معانيها ومعاني الصفات. يقولون: نُثبت أنّ الله سميع لكن بلا سمع، بصير لكن بلا بصر، قدير لكن بلا قدرة، حي لكن بلا حياة، عليم لكن بلا علم، فيثبتون أسماء جوفاء، ويَنفون المعاني، وهؤلاء دون الأوّلين.

الثالثة: إثبات الأسماء وبعض الصفات ونفي باقيها أوتأوُّل باقيها، وهؤلاء دون مَن سبقهم.

الرابعة: إثبات ألفاظ الأسماء والصفات وتفويض معانيها، وهم فرقتان:

الفرقة الأولى تقول: نعلم أنّ للأسماء والصفات معانٍ لكنها خلاف الظاهر ولا ندري ما هي، فهؤلاء مؤوِّلة مفوِّضة.

مؤوِّلة: لأنهم يقولون هي خلاف الظاهر.

مفوِّضة: لأنهم يقولون: المعاني المرادة نتوقف فيها، لا ندري ما هي.

الفرقة الثانية تقول: نُثبت لها معانٍ لكن نفوِّض فيها إلى الله، فما نذكر هذه المعاني، ما نقول: هي موافقة للظاهر أو مخالفة للظاهر، هي كذا وهي كذا، لا نقول ذلك. إذن: يثبتون الأسماء والصفات وأنّ لها معانٍ لكن يفوِّضون هذه المعاني.

وكل هؤلاء قد أخطئوا الطريق، وخالفوا السلف، ومن قبل ذلك خالفوا الكتاب والسنة.

فهذا هو المراد بهذا الباب.

[وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: {وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ}]

-قال بعض اهل العلم: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ أي: وهم يكفرون بالألوهية ووحدانية الله ويكذِّبون بها، وهم يجحدون بوحدانية الله وألوهية الله ويكذبون بها، أي: أنّ كفار قريش كانوا يجحدون وحدانية الله، لاحِظوا: لا يجحدون الله، ولا ينكرون وجود الله؛ وإنما يجحدون وحدانية الله، وبهذا يُعرَف خطأ من قال من أهل العلم في معنى هذه الآية﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ أي: يَكفُرون بالمسمى. لا، هم ما يَكفُرون بالمسمى، هم يؤمنون بوجود الله، ويؤمنون بالله، لكن بعض اهل العلم قال: يكفرون بوحدانية الله. لو قيل لهم: الله، لا يخالِفون، هم يؤمنون بأنّ الله هو الخالق وهو الرزاق، لكن إذا قيل لهم: لا إله إلا الله؛ يكفُرون.

إذن؛ بعض أهل العلم قال: يكفرون بوحدانية الله، وعلى هذا القول ليس المراد هنا أنهم يكفرون باسم الرحمن، وإنما المراد أنهم يكفرون بوحدانية الله؛ لأنّ الله قال بعد ذلك: {وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ}(الرعد: ٣٠)، قالوا: فكان الجواب في تقرير اسم الرحمن أو في تقرير ألوهية الله عز وجل؟ في تقرير ألوهية الله عز وجل، إذن الذي كفروا به هو وحدانية الله عز وجل.

-**وقال بعض اهل العلم**: أنهم كفروا باسم الرحمن، كما قال الله عز وجل: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ} (الفرقان: ٦٠)، لاحِظوا: ما قالوا: ومَن الرحمن؟ لأنهم يؤمنون بوجود الله؛ وإنما قالوا: وما الرحمن؛ لأنهم ينكرون اسم الرحمن.

وفي صلح الحديبية كما جاء في صحيح البخاري، لمّا قال النبي صلى الله عليه وسلم للكاتب: «اكتب باسم الله الرحمن الرحيم»، قال سهيل: (أمّا الرحمن فوالله ما أدري ما هو، اكتب باسمك اللهم). انتبه لقول سهيل: قال: (أمّا الرحمن) أي: اسم الرحمن (فوالله) أي: يُثبِت وجود الله عز وجل، (ما أدري ما هو؟) إذن كان إنكاره لاسم الرحمن.

واليقين: أنّ كفار مكة كانوا يكفرون بهذا وهذا، فكانوا يكفرون بوحدانية الله، وكانوا يكفرون باسم الرحمن، فكلا المعنيين داخلٌ في الآية.

ووجه الدلالة من الآية للباب على المعنى الثاني؛ لأنّ الله سماه كفرًا، فجحد اسم من أسماء الله كفر؛ كما سمى الله جحد اسمه الرحمن كفرًا.

[وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ: قَالَ عَلِيٌّ: حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ، أَتُرِيدُونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ؟!]

هذا الأثر في صحيح البخاري بالإسناد المتصل، ليس معلَّقًا؛ لأنّ البخاري قال: "قال عليٌّ"، فالذي يقرأ هكذا ويتعجَّل –مثل عادة بعض طلاب العلم– يقول: هذا معلَّق؛ لأنّ البخاري ما ذكر إسنادًا، ولكنّ البخاري قال: قال علي، ثم ذكر الأثر ثم قال: حدثنا فلان عن فلان، فذكر الإسناد بعد الأثر. والمتعجِّلون والباحثون عن طريق الشبكة العنكبوتية والمتعالمون اليوم ربما عَجِلوا وقالوا: هذا معلَّق، وهو ليس معلَّقًا؛ بل موصول في صحيح البخاري. ولكن فيه كلمة واحدة هنا متغيرة، الذي في صحيح البخاري قال علي –رضي الله عنه–: (حدِّثوا الناس بما يعرفون، **أتحبون** أن يُكذب الله ورسوله؟).

وهذا الأثر أثر عظيم، وله فوائد عظيمة، وضلّ أقوام في فهمه، فحملوه على غير معناه. فالشيخ ذكره لفوائد متعدِّدة في هذا الباب.

الدرس السابع والخمسون: تابع شرح بَابُ مَنْ جَحَدَ شَيْئًا مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَن يهدي الله فلا مضلَّ له، ومَن يُضلل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء: ١]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: ٧١]

أمّا بعد:

فإنّ أحسن الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكلّ محدَثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النار.

ثم يا معاشر الفضلاء؛ درسنا في كتاب التوحيد، وأحلى ما يسمعه المؤمن حق ربِّه: التوحيد، الفرق بين الموحِّد والمشرك: أنّ الموحِّد المؤمن المسلم الراجي الخائف إذا سمع التوحيد أقبل، وانشرح صدره، وفرح أن يسمع كلامًا عن حق ربِّه. أمّا المشرك علم أو لم يعلم فإنه إذا سمع كلمة التوحيد ضاق صدره، واكفهر وجه، ولربما هرب من المجلس هروبًا، عياذًا بالله من سوء الحال.

ولا زلنا في باب: (مَنْ جَحَدَ شَيْئًا مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ) وقد وقفنا عند أثر علي رضي الله عنه.

[وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ: قَالَ عَلِيٌّ –رضي الله عنه–: حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ، أَتُرِيدُونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ؟!]

هذا الأثر في صحيح البخاري، وهو أثر صحيح عن أمير المؤمنين، وحبيب المؤمنين: علي بن أبي طالب –رضي الله عنه وأرضاه–، وهو من كبار علماء وحكماء الصحابة رضوان الله عليهم، قال: (حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ) ليس المقصود حدِّثوا الناس بما يعلمون؛ لأنّ تحديث الناس بما يعلمون تحصيل حاصل، ولكنّ المقصود: حدِّثوا الناس بما يمكن أن يعرفوه، وبما يمكن أن يفهموه، راعوا أحوال الناس عند التعليم.

وهذا الأثر يحتاجه كل عالم معلِّم، وكل شيخ معلِّم، فإنّ مَن يعلِّم الناس يجب عليه أن يعلِّمهم الحق، وحرام عليه حرمة مغلَّظة أن يعلِّم الناس شيئًا من الباطل لهوى نفسه، أو لشهوة نفسه، أو ليحبه الناس، أو ليعظِّمه الناس، فإنّ هذا من أبطل الباطل، وأشرِّ الأفعال، ويجب عليه أيضًا أن يترفَّق بالخَلق عند إيصال الحق، وأن يختار لهم من الألفاظ أحسنها، ومن الأساليب ألطفها؛ لكي يفهموا الحق، ويصل الحق إلى قلوبهم.

نعم، لا يوجد أحد من الناس يملك قوب الناس، {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ} (القصص: ٥٦)، ولكنّ الإنسان يملك حسن اللسان، بحيث يَتلطَّف في إيصال الحق إلى الخَلق، وكلّما عَذُبَ الشيء وطاب كلّما سهل تقبُّله وقَبوله على الناس.

بقي السؤال الذي يثور في الأذهان: لماذا أورد الشيخ هذا الأثر في باب من جحد شيئًا من الأسماء والصفات؟ ما علاقة هذا الأثر بالأسماء والصفات؟

الجواب: الذي يظهر لي –والله أعلم– أنّ الشيخ أورد هذا الأثر لفوائد تتعلق بهذا الباب:

الفائدة الأولى: أنّ مَن يحدِّث الناس في باب الأسماء والصفات ينبغي أن يختار من الألفاظ والأساليب ما يقرِّب الحق إلى أذهانهم، وألَّا يَهجم عليهم بالمسائل هجومًا، بل يُمهِّد لهم، ويُقرِّب المعاني إلى أذهانهم؛ حتى لا يكون لهم

فتنة، كما قال ابن مسعود –رضي الله عنه–: (ما أنت محدِّثٌ قومًا حديثًا لا تَبلُغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة) رواه مسلم في الصحيح. (ما أنت محدث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم) أي: أنك لم تقرِّبه إلى عقولهم حتى يبلغ عقولهم؛ (إلا كان لبعضهم فتنة).

وقال عروة: (ما حدثتَ –وتُضبَط أيضًا: ما حدَّثتُ– أحدًا بشيء من العلم قط لم يبلغه عقله إلا كان ضلالًا عليه) كما عند ابن عبد البر في "الجامع". والمقصود هنا: ليس أن تَكفّ عن تحديث الناس بالحق والعقيدة والدين، ولكنّ المقصود: أن تقرِّب الحق إلى عقول الناس، بحيث تبلغه عقولهم.

الفائدة الثانية: أنّ مَن يحدِّث الناس في باب الأسماء والصفات ينبغي أن يَكفَّ عن تحديث العامة ببعض الدقائق التي لا تَهمُّهم في صحيح المعتقَد، ويصعب عليهم فهمها؛ حتى لا يكون ذلك لهم فتنة، إذا صحَّ المعتقد فلا ينبغي لمن يتحدَّث في الأسماء والصفات أن يذكر بعض الدقائق التي تصعب على العامّة، ويصعب عليهم فهمها؛ لأنّ هذا لو ذُكِرَ لهم قد يجعلهم يعودون إلى فساد في العقيدة.

وأذكر أنّ هناك أستاذًا كان معنا في الجامعة الإسلامية، وقد تركها، كان مبتلىً بتحديث الطلاب عن دقائق في الصفات جاءت في أحاديث مختلَفٍ في إسنادها؛ فكان فتنة للطلاب، فكيف العامّة؟ وهذا فقه جليل، إنما يُحدَّث العامّة

في باب الأسماء والصفات بما يَصحّ به المعتقَد وما جاء في القرآن والسنة الصحيحة البيِّنة، أمّا الدقائق وبعض التفاصيل التي لا تُهِمّ العامّة في صحيح معتقَدهم ويصعب عليهم فهمها فيجب تركها؛ لأنها تؤول بهم إلى التكذيب.

الفائدة الثالثة: الرَّدّ على الذين يزعمون أنّ الكلام في الأسماء والصفات فتنة. بعض الناس يقولون: لا تحدِّثوا الناس في الأسماء والصفات، فإنّ هذا فتنة، ولربما ذكروا هذا الأثر، وفي هذا الأثر رَدٌّ عليهم؛ لأنّ الذي يُنهى عن تحديث الناس به هو الذي يؤدِّي إلى تكذيب الله وتكذيب رسوله صلى الله عليه وسلم. أمّا تحديث الناس بالأسماء والصفات فيزيدهم معرفة بالله، ويزيدهم إيمانًا بالله، العبد إذا آمن أنّ الله سميع يسمع كلامه؛ يجعله ذلك يحفظ لسانه، وإذا آمن أنّ الله يراه سبحانه وتعالى؛ يجعله ذلك إذا خلا بنفسه وأراد المعصية يخاف، يقول: الله يراني، أنا أستحي من أبي أن يراني ولا أستحي من الله وهو يراني؟! إذن تحديث الناس بالأسماء والصفات يزيدهم إيمانًا وتقىً وتديُّنًا، فلا يدخل في أثر علي –رضي الله عنه–.

والصحابة الذين قالوا: (حدِّثوا الناس بما يعرفون) كانوا يحدِّثون الناس بالأسماء والصفات، يقرأون عليهم القرآن ومعظم آيات القرآن فيها الأسماء والصفات، ويحدِّثون الناس بالأحاديث الصحيحة التي فيها الأسماء والصفات.

ولذلك؛ من فقه الشيخ أنه ذكر أثر علي –رضي الله عنه– ثم ذكر أثر ابن عباس الذي بعده حيث كان يحدِّث الناس بالصفات.

الفائدة الرابعة: بيان أنّ نصوص الصفات على ظاهرها على ما يليق بجلال الله، إذ لو لم تكن على ظاهرها لكانت فتنة –وهي ليست فتنة بل تصديق لله ورسوله صلى الله عليه وسلم– وتؤدِّي إلى أن يُكذَّب الله عز وجل ويُكذَّب رسوله صلى الله عليه وسلم، لكنها على ظاهرها، فمَن آمن بها على ظاهرها فقد صدَّق الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، ومَن كذَّب بها أو جحدها فقد كذَّب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

[وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنِ ابْنِ طَاوُسٍ عَنْ أَبِيهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ –رضي الله عنهما–: أَنَّهُ رَأَى رَجُلاً اِنْتَفَضَ لَمَّا سَمِعَ حَدِيثًا عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فِي الصِّفَاتِ اِسْتِنْكَارًا لِذَلِكَ، فَقَالَ: مَا فَرَقُ هَؤُلَاءِ؟ يَجِدُونَ رِقَّةً عِنْدَ مُحْكَمِهِ، وَيَهْلِكُونَ عِنْدَ مُتَشَابِهِهِ؟! اِنْتَهَى]

هذا الأثر بهذا الإسناد من أصح الآثار، فهذا الإسناد من أصح أسانيد المسلمين، ومن أجود الأسانيد على الإطلاق، فهذا إسناد جيِّد صحيح في غاية الصحة. وفيه: أنّ ابن عباس –رضي الله عنهما– كان يحدِّث الناس عن حديث عظيم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم: «تَحاجَّت الجنة والنار، فقالت النار: أُوثِرتُ بالمتكبرين والمتجبِّرين، فقالت

الجنة: فمالي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقَطُهم وعُراتهم»، يا عبد الله إذا كنت فقيرًا فلا تسخط، وإذا كنت ضعيفًا فلا تسخط، وإذا لم يكن عندك جاه عند الناس فلا تسخط، فإنّ أكثر أهل الجنة فقراء صابرون، وأغنياء شاكرون، لكنّ الأغنياء بالنسبة للفقراء في الأرض وللأزمان قلّة، والشاكرون من الأغنياء أقلّ القليل، فأهل الجنة فقير صابر؛ وهذا أكثر أهل الجنة، وغني شاكر؛ وهؤلاء قلّة، فأكثر أهل الجنة من الضعفاء، فهل يضرُّك يا عبد الله ضعفك في الدنيا إن كنت مؤمنًا صابرًا وأنت في الآخرة من أهل الجنة؟ والله لا يضرُّك ولو كنت من أفقر الناس، وأضعف الناس، ما دمت على صبر وإيمان فإنّ هذا لا يضرُّك؛ فإنّ أكثر أهل الجنة الضعفاء. «فقال الله تبارك وتعالى للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي، وقال للنار: أنت عذابي أعذِّب بك من أشاء من عبادي، ولكل واحدة منكما ملؤها، فأمّا النار فلا تمتلئ حتى يضع رجله فتقول: قط قط قط، ويزوي بعضها إلى بعض، ولا يظلم الله عَزَّ وَجَلَّ من خلقه أحدًا، وأمّا الجنة فإنّ الله عَزَّ وَجَلَّ ينشئ لها خلقًا آخر»، فالجنة واسعة وستمتلئ، ولا تضيق، بل هي واسعة لأصحابها مع ملئها، أسأل الله أن يجعلني وإياكم ووالدينا ومن نحب من أهلها، وأن يجعلنا كما تقابلنا في هذا الدرس على خير إخوانًا في الجنة على سرر متقابلين. والنار لها ملؤها على سعتها، ولكنّ الله لطيف بعباده، فأمّا النار يُلقَون فيها، فيها سعة –نعوذ بالله من النار، نعوذ بالله من النار، نعوذ بالله من النار–

أهلها يُقذَفون فيها ويَخِرُّون فيها وهي وتقول: هل من مزيد؟ هل من مزيد؟ فلا تمتلئ، حتى يضع الله تبارك وتعالى رجله –أو قال: قدمه– فيها، فتقول: قط قط، فهناك تمتلأ ويُزوى بعضها إلى بعض، ولا يظلم الله عَزَّ وَجَلَّ من خلقه أحدًا، وأمّا الجنة فإن الله عَزَّ وَجَلَّ ينشئ لها خلقًا آخر.

هذا الحديث كان يحدِّث به ابن عباس –رضي الله عنهما– عن أبي هريرة –رضي الله عنه– عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. أو حدَّث به رجلٌ ابنَ عباسٍ –رضي الله عنهما– عن أبي هريرة، فكان هنالك رجلٌ يجلس معهم، فلمّا سمع الحديث انتفض وارتعد؛ استنكارًا لذلك! فقال ابن عباس –رضي الله عنهما–: (مَا فَرَقُ هَؤُلَاءِ؟) أي: ما الذي يخيف هؤلاء. فَرَق: بمعنى خوف، وضُبِطت أيضًا: ما فرَّق هؤلاء؟ أي: ما فرَّق هؤلاء بين الحق والباطل. (يَجِدُونَ رِقَّةً عِنْدَ مُحْكَمِهِ) تَرِقُّ قلوبهم عند المعاني الواضحة. (وَيَهْلِكُونَ عِنْدَ مُتَشَابِهِهِ؟!) يعني: عند المعاني التي فيها أمور وتحتاج إلى علم وبيان وقوة إيمان.

فدلَّ ذلك على أنّ الصحابة –رضوان الله عليهم– يؤمنون بالقرآن كله، يؤمنون بمُحكَمه ويَرِقُّون عنده، ويؤمنون بمتشابهه ويطلبون علمه ممن عنده علمه، وممن عَلِمَ القرآن كله: ابن عباس، يقول مجاهد: (عرضتُ القرآن على ابن عباس آية آية، أسأله عن كل آية ويخبرني).

فليس في القرآن ما لا يُفهَم معناه، لكن قد يكون المعنى فيه غموض، يحتاج إلى مزيد علم، أو يحتاج إلى عالم فتَّاح يبيِّن معناه، أو قد يَغْمُض عليَّ ويَتَّضِحُ لك.

فإن قال قائل: أنتَ تقول: كل ما في القرآن معلوم المعنى، لا يوجد شيء في القرآن لا يُعرَف معناه: فما معنى: (الم)، (حم)، (كهيعص) ؟

نقول: هذا السؤال جهل باللغة؛ لأنّ الكلام ثلاثة أقسام: اسم، وفعل، وحرف.

كلامُنا لفظٌ مفيدٌ كاستَقِم   اسمٌ وفِعلٌ ثم حَرفٌ الكَلِمْ

الاسم: فيه معنى غير مرتبط بزمن، والفعل: فيه معنى وزمن، والحرف: لا معنى له في ذاته. فلا يصح عند العقلاء أن تقول: ما معنى في؟ ما معنى إلى؟ ما معنى ألف؟ وهكذا عند كل العقلاء، في أيّ لغة، لو جئتَ لرجل إنجليزي وقلت له ما معنى E ؟ يقول لك: أن تمجنون؟! فالحرف لا يُسأل عن معناه، وإنما معناه يتعلق بغيره.

إذن؛ الحرف لا معنى له، فلا يجوز أن يقال: ما معناه؟ ولكنه ذُكِرَ في القرآن لفائدة، (الم)، أيها العرب هذه حروفكم ومنها هذا القرآن فأتوا بسورة من مثله. ليست حروفه أعجمية بل من حروفكم فأتوا بسورة من مثله، ولن يستطيعوا.

إذن؛ مقصود ابن عباس –رضي الله عنهما– أنّ حال الصحابة والمؤمنين أنهم يؤمنون بالقرآن والحديث الصحيح كله، ما عرفوا معناه لوضوح معناه فالحمد الله، وما لم يعرفوا معناه أيقنوا أنه حق لا شك فيه، وطلبوا معناه عند العلماء.

أمّا أهل الفتنة فيَرِقُّون عند محكمه، ويَهلكون عند متشابهه، ويَردُّون المحكَم بالمتشابه.

أهل السنة أهل الحق إذا جاء نصٌّ فيه غموض أوضَحوه بالنصوص الأخرى. وأهل الفتنة أهل الباطل إذا جاء نصٌّ فيه غموض شوَّشوا به على النصوص الأخرى.

[وَلَمَّا سَمِعَتْ قُرَيْشٌ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ أَنْكَرُوا ذَلِكَ، فَأَنْزَلَ اللهُ فِيهِمْ: {وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ}]

روى ابن جرير عن مجاهد –وهو تابعي– أنه لمّا قالت قريش في صلح الحديبية: وما الرحمن؟ لا ندري ما الرحمن! أنزل الله تعالى قوله: {وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ} (الرعد: ٣٠)، ولكنّ مجاهدًا تابعيّ؛ فهذا ضعيف.

والواحديّ في أسباب النزول نَسَبَ هذا إلى أهل التفسير، ولم أقف على أثر صحيح أنّ هذا هو سبب نزول قول الله عز وجل: {وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ}،

لكن لا شك أنّ هذا يفسِّر كفرهم بالرحمن، وأنّ كفرهم بالرحمن –كما قدَّمنا– على جهتين:

- كفر بوحدانية الله.
- كفر باسم الرحمن.

[فِيهِ مَسَائِلُ: الْأُولَى: عَدَمُ الْإِيمَانِ بِشَيْءٍ مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ]

(عَدَمُ الْإِيمَانِ بِشَيْءٍ مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ) ما يصلح هكذا، وإنما الصواب: (عَدَمُ الْإِيمَانِ بِجَحْدِ شَيْءٍ مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ) وهكذا في كثير من النسخ، (عدم الإيمان) يعني: أنّ الإيمان يُعدَم عند جَحْد شيء من الأسماء والصفات؛ لماذا؟ لأنه تكذيب لله وتكذيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

لكن هل المتأوِّل للصفات يكفر؟ لا، بعينه لا يكفر؛ للقاعدة: التأويل يَمنع تكفير المعيَّن.

[الثَّانِيَةُ: تَفْسِيرُ آيَةِ الرَّعْدِ]

﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ وقد شرحناها.

[الثَّالِثَةُ: تَرَكُ التَّحْدِيثِ بِمَا لَا يَفْهَمُ السَّامِعُ]

نعم، : تَرَكُ التَّحْدِيثِ بِمَا لَا يَفْهَمُ السَّامِعُ، وما لا يُفهِم السامع، يعني: أنّ الإنسان إذا رأى أنّ السامع ليس في حالة ليفهم الكلام، مثلًا: وجده غضبان، حدّثته بعلم فغضب، لأنه ما يعرفه أصابه غضب، لا تستمر معه، اسكت، لماذا؟

لأنّ الغضبان كالمجنون، ولربما وصل إلى الجنون، فإذا استمريتَ معه سيكذِّب ويأتي بأمور عظام، ولذلك اتركه، وهذا حكمة في كل شيء: لا تحدِّث غضوبًا، مَن كان غضبان فاتركه. أكثر أسباب الطلاق اليوم تبدأ بغضب يسير، فترى المرأة زوجها قد غضب فلا تَكفّ، تحاول أن تقنعه وتستمر، فيطلقها، وربما العكس. وأكثر القطيعة بين طلاب العلم بسبب استمرارهم في الحديث مع الغضب.

ولذلك العقل: أن تعرف متى تتكلم ومتى تسكت، ومعرفة متى تسكت أصعب من الأولى، أن تعرف متى تتكلم يمكن يعرفها كثير، ولكن أن تعرف متى تسكت هذه صعبة، وأكثر الضرر الذي يدخل إلى الناس من جهة أنهم لا يعرفون متى يسكتون. لذلك الحكمة هذه يجب أن نحفظها ونعمل بها.

فمراعات حال السامع وأنه قابل لأن يَفهم مهمة عند التحديث، فإذا رأيتَ منه عدمَ قابلية للفهم فاتركه إلى وقت آخر، أو اتركه إلى غيرك، فسبحان الله القلوب لها مفاتيح، فقد تكون أنت مفتاحًا لهذا القلب، وقد يكون أخوك مفتاحًا لقلب الآخر، لكنّ الحق لا يُترَك ولكن يُستعمَل ما يوصِل الحق إلى الناس، فتراعي حال السامع.

أيضًا؛ ترك التحديث بما لا يُفهِم السامع، بعض طلاب العلم الآن يخطبون خطب الجمعة، يخرجونها من كتب الأوّلين، وبنفس عبارات الأوّلين، والناس

اليوم بصعوبة يفهمون اللغة العربية الفصحة، فكيف ببعض الكلام القديم الذي أصبح الآن لا يُستعمل؟! والله بعض الخطباء أنا لا أكاد أفهم ما يقول، أنا الذي درستُ العربية دراسة، وقضيتُ في الدراسة أكثر عمري، والله أحيانًا أسمع خطبة حتى تنتهي لا أكاد أفهم ما يقول؛ لأنه ينتقي صعب الكلام من بطون الكتب، هذا ما يُفهِم الناس، ولكنّ الإنسان يختار من الكلام ما يُفهِم الناس، فيذكر النصوص من الكتاب والسنة وآثار السلف، ويذكر الكلام السهل الذي يفهمه الناس.

إذن؛ نقول: ترك التحديث بما لا يَفهم السامع، وما لا يُفهِم السامع، يعني الأسلوب الذي لا يُفهِم السامع، على ما فصّلناه عند ذكر الأثر.

[الرَّابِعَةُ: ذِكْرُ الْعِلَّةِ: أَنَّهُ يُفْضِي إِلَى تَكْذِيبِ اللهِ وَرَسُولِهِ، وَلَوْ لَمْ يَتَعَمَّدْ الْمُنْكِرُ]

ذكر العلة في ترك التحديث بما لا يَفهم السامع: أنّ هذا قد يُفضي إلى أن يُكذَّب الله، ويُكذَّب رسوله صلى الله عليه وسلم. بعض الناس إذا ذكرتَ له حديثًا وكان معرِضًا وقلت له: هذا حديث الرسول صلى الله عليه وسلم، قال: ولو، ليس صحيحًا! فيؤدِّي إلى تكذيب الله وتكذيب رسوله صلى الله عليه وسلم ولو لم يتعمَّد المكذِّب (المنكَرَ)؛ هذا ضبط، يعني: هو ما يريد أن يكذِّب

لكن يؤول أمره إلى التكذيب. والضبط الآخر: ولو لم يتعمد المنكِرُ: يعني الجاحد المكذِّب لا يتعمد التكذيب لكن يفضي أمره إلى التكذيب.

[الْخَامِسَةُ: كَلَامُ اِبْنِ عَبَّاسٍ لِمَنْ اِسْتَنْكَرَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، وَأَنَّهُ أَهْلَكَهُ]

وأنّ جَحْدَ شيءٍ من الأسماء والصفات الثابتة في الكتاب والسنة سبب للهلاك، وأنّ حال المؤمن أن يؤمن بكل ما ثبت في الكتاب والسنة على ظاهره على ما يليق بجلال الله سبحانه وتعالى.

تابع الدرس السابع والخمسون: شرح بَابٌ: قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: (يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا) الْآيَةِ

[بَابٌ: قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: (يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا) الْآيَةِ]

من لوازم التوحيد: العلم والاعتقاد أنّ النعم من الله، فمن لازم توحيدك لله عز وجل أن تعلم وتعتقد أنّ كل نعمةٍ حصلتْ أو حاصلة أو ستحصل لك فهي من الله وحده لا شريك له، وأنّ كل نقمة وبليَّة دُفِعَت عنك فمن الله عز وجل، وأن تَنسِب ذلك إلى الله باللسان وأن تستعملها في طاعة الرحمن، قال الله عز وجل:﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ﴾ (النحل: ٥٣)، وقال: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ (إبراهيم: ٣٤)، وقال:﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ} (المائدة: ٧)، وقال: {وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ} (الضحى: ١١)، وهذا هو شكر النعمة الواجب، وهو متعلق بالقلب واللسان والجوارح.

أفادتكم النَّعماءَ مني ثلاثةً   يدي ولساني والضميرَ المحجَّبَا

ويتعلق بلوازم التوحيد أيضًا: أن يعتقد المسلم أنّ الله عز وجل قد يجعل لنعمته سببًا من مخلوقاته، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إنما أنا قاسم والله يعطي» رواه الشيخان. يعني: النبي صلى الله عليه وسلم يقول لأصحابه: هذا الرزق الذي أقسِّمه بينكم هذا من الله، الله هو المنِعم وهو المعطي وإنما أنا قاسم، أي: أنا سبب أوصِل لكم نعمة الله، وإلا فالنعمة من الله عز وجل.

والمخلوق الذي يجعله الله سببًا للنعمة حقه أن يُشكَر، وأن يُدعا له، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «مَن لا يَشكرِ الناس لا يَشكرُ الله» رواه أبو داود، والترمذي، وصحَّحه الألباني.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «مَن صنع إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له؛ حتى تروا أنكم قد كافأتموه» رواه أبو داود، وصحَّحه الألباني.

هذا كله من لوازم التوحيد، أن تَعتقد وتَعلَم أنّ النِّعم كلها من الله، وأن تضيفها إلى الله بلسانك، وأن تستعملها في طاعة الله، وأن تشكر من جعله الله سببًا لحصول النعمة.

ويضاد ذلك: كفران النِّعم.

وكفر النعمة قد يكون بالقلب؛ بأن يعتقد العبد بأنّ النعمة من المخلوق، فالمخلوق موجِدها ومسديها والمنعِم بها، وهذا كفر أكبر.

بعض الناس –أعوذ بالله– تقول له: مَن رزقك هذا الولد؟ يقول: الولي. من أين هذا المال الذي أصابك؟ يقول: من الشافعي، من السيدة زينب، من الحسين، من التيجاني! هذا كفر أكبر، يضيف النعمة إلى المخلوق، أنّ المخلوق هو المنعِم والمسدِي والموجِد.

في النِّعم لا يجوز أن يَلتفت القلب إلى غير الله، فالنِّعم كلها من الله لا يُشاركه في ذلك مخلوق؛ لا ملك، ولا نبي، ولا ولي؛ مع فضلهم.

وقد يكون كفر النِّعم باللسان، وهذا كفر أصغر، أو شرك أصغر، لا يُخرج من الملة، كيف؟ بأن يضيف النعمة إلى غير الله عز وجل بلسانه، كأن يضيفها إلى المخلوق فقط على سبيل إضافة النعمة، فيقول مَن نجى من حادث: لولا مهارة السائق لكنا هلكى! وهذا من باب التحدث بالنعمة وإضافة النعمة، فهنا أضاف النعمة بلسانه إلى مهارة السائق. هذا كفر أصغر.

أو أن يضيفها باللسان إلى الله والمخلوق على وجه التسوية، فيقول: لولا الله والسائق كنا هلكى! لولا الله ورجل الأمن الذي استأجرتُه لسُرقت الخزينة! هذا شرك أصغر، وكفر أصغر؛ لأنه سوَّى غير الله باللفظ، أمّا لو كان بالاعتقاد لكان كفر أكبر.

أمّا إذا أضافها إلى المخلوق مع إضافتها إلى الله عز وجل، ثم ذكر المخلوق بلفظ لا يقتضي التسوية على أنّ المخلوق سبب يُذكَر ويُشكَر؛ فهذا لا بأس به. مثال: يقول: لولا الله ثم مهارة السائق لهلكنا. فهنا أضاف النعمة إلى الله، ثم أضافها إلى المخلوق بما لا يقتضي التسوية، بشرط أن يكون ذلك على أنّ المخلوق سبب لا موجِد. يقول: لولا الله ثم مهارة السائق، فالله منعِم ومهارة السائق سبب لنعمة الله، فهذا جائز.

وهنا أنبِّه على دقيقة لابد من بيانها حتى لا تختلط الأحكام على الناس: وهو أنّ الكلام هنا إنما هو في إضافة النعمة؛ يعني في الكلام عن إضافة النعمة، أمّا إذا كان الكلام في الإخبار عن السبب المجرَّد الواقع؛ أي: الإخبار عن سبب واقع، فهنا يجوز أن يقال: لولا كذا لكان كذا؛ أي: إذا كان المذكور سببًا عادةً أو شرعًا للشيء فحصل فأخبرتَ أنه سبب، لا إضافة النعمة، لا، وإنما أنه سبب، فهذا جائز، مثال: تقول: لولا وصول الجندي لقتلني هذا المجرم. أنت هنا لا تتحدث عن النعمة، ولكن تتحدث عن السبب، تُخبر عن سبب نجاتك، أنّ سبب نجاتك هذا كان وصول الشرطي، هذا جائز. ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم عن أبي طالب: «لولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار» رواه البخاري في الصحيح. فالنبي صلى الله عليه وسلم قال: «لولا أنا»، لمّا أخبر أنّ أبا طالب في ضحضاح من النار، قال: «لولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار» هذا خبر عن السبب؛ وإلا فالمنعِم والذي تضاف إليه النعمة هو الله عز وجل، فما شفع النبي صلى الله عليه وسلم لأبي طالب إلا بإذن الله سبحانه وتعالى.

إذن؛ إضافة الشيء إلى سببه المعلوم شرعًا أو عادةً من باب الخبر عن السبب لا من باب التحدِّث عن النعمة وإضافة النعمة يجوز أن يقال فيه: لولا كذا.

فلو جاءنا شخص وقال: لولا السائق لهلكنا! ننظر؛ إن كان من باب التحدُّث عن النعمة؛ نقول هذا: شرك أصغر لا يجوز، وإن كان من باب الخبر عن السبب، وليس من باب التحدث عن النعم؛ فهذا جائز.

لكن لا يجوز في باب الإخبار عن السبب أن يسوَّى بين الله والمخلوق، ما يجوز أن تقول: لولا الله والسائق لهلكنا! حتى لو كان من باب الإخبار عن السبب؛ فإنّ الله لا يسوَّى به مخلوق؛ لا عقيدة ولا لفظًا، وسيأتينا في الدرس غدًا إن شاء الله أنّ تسوية المخلوق بالخالق إمّا عقيدة، وإمّا لفظ، وسيترتب عليها كلامنا عن مسألة الحلف بغير الله، هل هو كفر اكبر او كفر أصغر؟ سنبيِّنه غدًا إن شاء الله في الدرس.

وقد يكون كفر النِّعم بالجوارح؛ وذلك: بأن يستعمل نعمة الله في معصية الله. قال أحد السلف لأحد العصاة –وأنا أذكر المعنى–: "إذا وجدتَ مكانًا لم يخلقه الله، وزمانًا لم يخلقه الله، ونعمة لم ينعِم بها الله فاعصِ الله". تريد أن تعصي الله؟ فإذا وجدتَ مكانًا لم يخلقه الله فاعصِ الله فيه، أو وجدتَ مكانًا لم يخلقه الله فاعصِ الله فيه، أو وجدتَ نعمة لم ينعم الله بها فاعصِ الله بها.

هل يوجَد مكان ما خلقه الله؟ كل الأماكن خلقها الله، فمن المرذول شرعًا وطبعًا أن يُنعِم الله عليك بالمكان فتعصي الله فيه. يرزقك الله بيتًا يأويك تغلق باب الغرفة على نفسك ترتاح وتنزع وتنام فتقوم تأتي بامرأة فاجرة فتدخلها في

هذا المكان! الله ينعِم عليك بهذا المكان الذي لك فيه من النِّعم ما الله به عليم فتعصي الله في هذا المكان؟! الله أمد في عمرك فكيف تعصي الله بهذا؟ بصرك الذي تبصر به نعمة من الله فكيف تعصي الله به؟! سمعك نعمة من الله فكيف تعصي الله بها؟! يدك نعمة من الله فكيف تعصي الله بها؟! فمن كفر النِّعم أن تعصي الله بنعمه، فخير الله إليك نازل، وشرُّك إليه صاعد، والعياذ بالله، فهذا كفران النِّعم. وهذه مقدمة هذا الباب، ونشرح الباب غدًا إن شاء الله.

الدرس الثامن والخمسون: تابع شرح بَابٌ: قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: (يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا) الْآيَةِ

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَن يهدي الله فلا مضلَّ له، ومَن يُضلل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء: ١]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: ٧١]

أمّا بعد:

فإنّ أحسن الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكلّ محدَثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النار.

ثم يا معاشر الفضلاء؛ لا زلنا مع شرح كتاب التوحيد، مع باب قول الله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾.

وقد تقدَّم معنا أنّ كفر النعمة أو جحد النعمة أو نكران النعمة قد يكون بالقلب، بأن يضيفها المنعَم عليه إلى المخلوق إيجادًا؛ فيعتقد بقلبه أنّ المنعِم هو المخلوق، وهذا كفر أكبر وشرك أكبر.

وقد يكون باللسان؛ بأن يضيف النعمة إلى المخلوق باللسان؛ سواء أضافها إلى المخلوق فقط؛ مثل قول: لولا مهارة السائق لهلكنا، أو أضافها إلى الله والمخلوق بلفظ يقتضي التسوية؛ مثل قول: لولا الله ومهارة السائق لهلكنا، وهذا شرك أصغر وكفر أصغر.

أمّا إذا قال: لولا الله ثم مهارة السائق، فإن هذا جائز؛ لأنّ هذا يقتضي التأخير والتراخي، ويكون من باب ذِكْرِ السبب مع ذِكْرِ المنعِم، فالمنعِم هو الله، والسبب هو مهارة السائق.

وقلنا هذا في باب إضافة النِّعم.

أمّا في باب الأخبار وليس في باب إضافة النِّعم فيجوز أن يقول الإنسان: لولا مهارة السائق لانقلبت السيارة، وهذا من باب الخبر عن السبب، لا من باب إضافة النِّعم، ومَن اشتبَهَ عليه الأمران فليتركهما، يعني إن كان لا يدري هذا من باب الخبر أو من باب إضافة النعمة فليتركهما.

وقد يكون كفران النعم بالجوارح؛ بأن يستعمل النعمة في معصية الله، وهذه معصية تضاف إلى المعصية.

ونقرأ الترجمة من أول الباب.

[قوله: بَابٌ قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: {يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا}]

في بعض نسخ الكتاب أكمل الشيخ الآية: {وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ}، وفي بعض النسخ قال: (الآية) يعني: أَكمِلْ الآية.

﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ أوّلًا: مَن هؤلاء؟ هؤلاء قريش، ﴿يَعْرِفُونَ﴾ أي: يدركون ذلك بقلوبهم، ويعرفون ذلك بحواسهم، فهم يدركون أنّ الله يُنعِم، ويعرفون نِعَم الله، لكن ما المراد بنِعْمَةَ الله هنا؟

- **قال بعض العلماء**: هو محمد صلى الله عليه وسلم. ولا شك أنّ محمدًا صلى الله عليه وسلم ونبوّته أعظم النِّعم.

-**وقال بعض أهل العلم**: هي نعم الله التي ذكرها الله في سورة النحل. هذه الآية في سورة النحل، وسورة النحل تسمى عند العلماء بسورة النِّعم؛ لأنّ الله ذكر فيها كثيرًا من النِّعم، فقالوا: المراد هو هذه النِّعم التي ذكرها الله في سورة النحل.

-**وقال بعض أهل العلم**: بل المراد كل النِّعم. وهذا هو الصحيح؛ لأنّ الله قال: {يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللهِ} و"نعمة" مفرد مضاف، والمفرد المضاف يَعمّ؛ فيشمل كل نعمة.

قال: ﴿ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾أي: ثم يجحدونها، ثم يكفرون بها، وهذا يدل على أنّ جُحْدان النِّعم من صفات الكفار.

﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ مَن المقصود بالضمير في "أكثرهم"؟

-**قال بعض أهل العلم**: قريش، وهنا لا إشكال، يكون المعنى: وأكثر قريشٍ الكافرون بك، والقليلون منهم آمنوا بك، وهذا واضح: فقريش أكثرهم لم يؤمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم عندما دعاهم إلى الإسلام، والذين آمنوا عدد قليل، فيكون المعنى: وأكثر قريش هم الكافرون بك، وأقلُّهم هم الذين آمنوا بك.

لكن الإشكال في قول بعض أهل العلم: إنّ المراد بالضمير في قوله: {وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ}: الكفار، فيكون السياق: أكثر الكفار هم الكافرون. هنا يوجد إشكال: هل أكثر الكفار كفار؟ أو كل الكفار كفار؟ كل الكفار كفار، فكيف يكون هذا؟ قالوا: المراد بالكفر هنا: كفر الجحود؛ لأنّ كفر كفار قريش بالنبي صلى الله عليه وسلم نوعان:

النوع الأوّل: كفر جحود. يعني: أنّ قلوبهم عارِفة ومقرَّة لكنهم يكفرون بألسنتهم، هم لا يكذِّبون النبي صلى الله عليه وسلم حقيقة، أبدًا، هم يعلمون أنه صادق صلى الله عليه وسلم.

النوع الثاني: كفر تكذيب. يعني: منهم مَن كفَّر النبي صلى الله عليه وسلم وهو يكذِّبه، لكن مَن هم الاكثر؟ الأكثر هم الذين كفروا بالنبي صلى الله عليه وسلم كفر جحود؛ كما قال الله عز وجل: {فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ} (الأنعام: ٣٣)، هذا الأكثر، وقليل منهم مَن كان مكذِّبًا، فيصبح المعنى: وأكثرهم الكافرون بك كفرَ جحودٍ، وقليلٌ منهم كافر بك كفرَ تكذيبٍ.

ولذلك؛ إذا قرأتَ للعلماء كلامًا فلا تستعجل وتضحك من كلامهم. نحن إذا قرأنا هكذا: {وَأَكْثَرُهُم} يعني: وأكثر الكافرين الكفرون، إذا استعجلنا نقول: المعنى كيف يكون صحيحًا هكذا؟! ولكن إذا رأينا ما يريدون عرفنا أنّ له وجهًا. ولذلك ينبغي أن نحترم كلام العلماء، وألا نهزأ به، وألا نضحك منه، بل ينبغي أن نراجع ونتدبَّر حتى نفهمه.

[قَالَ مُجَاهِدٌ مَا مَعْنَاهُ: هُوَ قَوْلُ الرَّجُلِ: هَذَا مَالِي وَرِثْتُهُ عَنْ آبَائِي]

هذا رواه ابن جرير بإسناده، وابن أبي شيبة عن مجاهد، والشيخ رواه بالمعنى، أمّا لفظه فقال: (المساكن، والأنعام، وسرابيل الثياب، والحديد)

سرابيل الثياب: الثياب، الحديد: الدُّروع (يعرفه كفار قريش ثم ينكرونه، بأن يقولوا: هذا كان لآبائنا وورثناه عنهم).

بعض الناس الذين عندهم أموال إذا جئته وقلت له: اتقِ الله في مالك، فالله أنعم عليك بهذا المال، أعطِ الفقراء، قال: هذا تعبتُ فيه أنا وآبائي وأجدادي، هذا بتعبنا، أجدادي كانوا يفعلون، وأبي كان يفعل، وأنا أفعل! هذا من كفران النِّعم.

فكان كفار قريش كانوا لا يقرُّون بأنّ ما في أيديهم من أموال وخيرات من الله عز وجل، وإنما يقولون: هذا من آبائنا وأجدادنا ورثناه. وهذا قد يكون بالقلب واللسان، وقد يكون باللسان فقط.

[وَقَالَ عَوْنُ بْنُ عَبْدِ اللهِ: يَقُولُونَ: لَوْلَا فُلَانٌ لَمْ يَكُنْ كَذَا وكذا]

عون بن عبد الله تابعي، أيضًا الشيخ روى كلامه بالمعنى، قال: (يقولون: لولا فلان ما كان كذا وكذا، ولولا فلان ما أصبتُ كذا وكذا) رواه ابن جرير في تفسره بإسناده، ورواه ابن أبي حاتم بغير إسناد، وإسناد ابن جرير ضعيف، ولكنّ المعنى صحيح، وهذا تفسيرٌ لجحود النعمة الذي ذكره الله عز وجل في الآية.

[وَقَالَ اِبْنُ قُتَيْبَةَ: يَقُولُونَ: هَذَا بِشَفَاعَةِ آلِهَتِنَا]

يعني: أنّ كفار قريش كيف يجحدون النعمة؟ يقولون: هذه النِّعم ما جاءتنا إلا بشفاعة آلهتنا؛ بشفاعة الأصنام، وليست بفضل الله، وإنما بشفاعة آلهتنا، وهذا أقبح ما يكون.

وللأسف؛ بعض المنتسبين إلى الإسلام اليوم يقولون هذا، فإذا كانت بلادهم طيبة، وعندهم زروع طيبة قالوا: هذا بشفاعة سيدنا فلان في القبر، هذه بركة سيدنا فلان، هذه بشفاعة مولانا، طابت أرضنا، وطاب ماؤنا، وحَسُن هواؤنا ببركة سيدنا المقبور! وهذا –والعياذ بالله– شرك أكبر؛ لأنهم يسندون هذه النعمة حقيقة إلى هذا المخلوق.

فإذا كان إسناد النعمة إلى المخلوق بالقلب والاعتقاد؛ فهو شرك أكبر. وإذا كان باللسان فهو شرك أصغر.

[وَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ بَعْدَ حَدِيثِ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الَّذِي فِيهِ: إِنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: «أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ» الْحَدِيثِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ، وَهَذَا كَثِيرٌ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، يَذُمُّ سُبْحَانَهُ مَنْ يُضِيفُ إِنْعَامَهُ إِلَى غَيْرِهِ وَيُشْرِكُ بِهِ. قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: هُوَ كَقَوْلِهِمْ: كَانَتِ الرِّيحُ طَيِّبَةً، وَالْمَلَّاحُ حَاذِقًا، وَنَحْوَ ذَلِكَ مِمَّا جرى عَلَى أَلْسِنَةِ كَثِير]

هذا كلام شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله–، قال بعد أن ذكر حديث زيد بن خالد الذي فيه: إنّ الله تعالى قال: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر

بالكواكب» الذي تقدَّم معنا وشرحناه، وبيَّنا ما فيه من فوائد عقدية، قال: (وَهَذَا كَثِيرٌ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، يَذُمُّ سُبْحَانَهُ مَنْ يُضِيفُ إِنْعَامَهُ إِلَى غَيْرِهِ وَيُشْرِكُ بِهِ)، مَن أضاف النِّعم إلى مخلوق فقد أشرك، إن أضافها بقلبه فقد أشرك الشرك الأكبر، وإن أضافها بلسانه فقد أشرك الشرك الأصغر.

قال شيخ الإسلام: (قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: هُوَ كَقَوْلِهِمْ: كَانَتِ الرِّيحُ طَيِّبَةً، وَالْمَلَّاحُ حَاذِقًا)، إذا سلمت السفينة فقيل لهم: كيف سلمتم؟ قالوا: كانت الريح طيبة، وكانت الريح موافقة، وكان الملاح حاذقًا –الملاح: وهو قائد السفينة، وسمي ملّاحًا؛ لأنّ الغالب أنّ السفن تكون في البحر والبحر مالح– فيضيفون النِّعم إليهم لا إلى الله عز وجل.

قال: (وَنَحْوَ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ جَارٍ عَلَى أَلْسِنَة كَثِير) قوله: "مما هو جار على ألسنة كثير" لم أجدها في كلام شيخ الإسلام ابن تيمية، فلعلها في بعض نسخ مجموع الفتوى مما لم نقف نحن عليه.

[فِيهِ مَسَائِلُ: الْأُولَى: تَفْسِيرُ مَعْرِفَةُ النِّعْمَةِ وَإِنْكَارِهَا]

{يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُون}، معنى المعرفة: أنه قد يَعرف هذا بالحواس، ويُقرّ بهذا بقلبه، والإنكار: هو الجحود، وهذا بيَّنا أنّ هذا قد يكون بالقلب واللسان والجوارح.

[الثَّانِيَةُ: مَعْرِفَةُ أَنَّ هَذَا جَارٍ عَلَى أَلْسِنَة كَثِير]

هذا الواقع؛ أنّ كثيرًا من الناس يسندون النعمة إلى غير الله، وهذا نسمعه من المسلمين كثيرًا، يقولون: لولا السائق، لولا أنّ الطريق جيد، لولا الإطارات جديدة! من باب إضافة النعمة، وهذا من الشرك الأصغر.

[الثَّالِثَةُ: تَسْمِيَةُ هَذَا الْكَلَامِ إِنْكَارًا لِلنِّعْمَةِ]

نعم، يسمى إنكارًا، ويسمى جحودًا، ويسمى كفرًا، ويسمى كفرانًا، فكلها ألفاظ شرعية لهذا الفعل وهذا القول.

[الرَّابِعَةُ: اِجْتِمَاعُ الضِّدَّيْنِ فِي الْقَلْبِ]

يعني: أنه قد يجتمع ضِدان في القلب، بمعنى: قد يجتمع في القلب الحب والبغض في إنسان واحد، فإنسان واحد قد تحبه وتبغضه، فيجتمع في قلبك حبك له وبغضك له.

مثلًا: إنسان محافظ على الصلاة في المسجد ويشرب الدخان؛ فتحبه لأنه يصلي، وتبغضه لأنه يشرب الدخان.

مثال آخر: إنسان محافظ على الصلاة في المسجد وصاحب أخلاق لكن يشرب الخمر أحيانًا؛ فتحبه لطاعته؛ لأنه يصلي في المسجد وصاحب خُلق، وتبغضه لأنه يشرب الخمر.

والشيخ ذكر هذا هنا لأنه اجتمع في قلوب الكفار معرفة النعمة وكفر النعمة، فعرفوا النعمة بقلوبهم وحواسهم؛ ولكنهم كفروا بها فلم يؤمنوا بالله عز وجل؛ فاجتمع الضدان في قلوبهم: معرفة النعمة وكفران النعمة.

الدرس التاسع والخمسون: شرح بَابٌ قول الله تعالى: (فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَن يهدي الله فلا مضلَّ له، ومَن يُضلل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء: ١]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: ٧١]

أمّا بعد:

فإنّ أحسن الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكلّ محدَثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النار.

ثم إنّ درسنا يا فضلاء في أمر حبيبٍ إلى قلوب المؤمنين المعظِّمين لله عز وجل، في التوحيد، حيث نشرح كتاب التوحيد. فنواصل شرح ما تيسّر من هذا الكتاب العظيم.

[قوله: بَابٌ قول الله تعالى: (فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)]

مراد هذا الباب من جهتين:

الجهة الأولى: بيان بعض الألفاظ التي يكثر وقوعها على ألسنة المسلمين، وهي من الشرك الأصغر. وما أحوجنا إلى هذا، فكثيرون منا يتكلمون بكلام لا يرضي الله، بل هو من الشرك بالله، وإن كان شركًا أصغر وهم لا يشعرون، فما أحوجنا إلى أن نعلم هذا، وسنذكر جملة من الألفاظ التي نسمعها من المسلمين وهي من الشرك الأصغر.

الجهة الثانية: بيان أنّ الشرك الأصغر أشرُّ من كبائر الذنوب التي هي معاصي، وأن يَحذَر المؤمن من الجرأة على الشرك الأصغر لكونه وُصِفَ بكونه أصغر؛ ولأنه لا يُخرِج من الملة، فبعض الناس إذا قلت له: هذا شرك أصغر يتجرأ؛ لأنه وُصِفَ بكونه أصغر.

اِعْلَم يا عبد الله أنّ الشرك الأصغر أعظم من كبائر الذنوب العملية، أعظم من الكذب، وأعظم من الزنى، وأعظم من اليمين الغموس، فهو أشرُّ الذنوب بعد الشرك الأكبر.

ومراتب الذنوب أعلاها إثمًا الشرك الأكبر، ثم الشرك الأصغر، ثم البدع، ثم بقية المعاصي؛ الكبائر ثم الصغائر.

فمراد الشيخ الثاني من هذا الباب: أن ينبِّهنا إلى هذه القضية حتى لا نقع في الشرك الأصغر تساهلًا وجرأة.

قال: (بَابُ قول الله تعالى: {فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ})، هذا الخطاب أصله لكفار قريش، {فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا}، "أندادًا" نكرة تشمل كلَّ نِدّ، والند: هو النظير، والشبيه، والمساوِي، {وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} أنه لا نِدّ لله عز وجل. وهذه الآية يخاطَب بها كل إنسان، {فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}.

وهذا يشمل النهي عن تسوية الله بخلقه؛ بالاعتقاد أو باللسان، مَن سوَّى الله بخَلقه فقد جعل المخلوق ندًّا للخالق، فإن كان قد سوَّى الخالق بالمخلوق بقلبه واعتقاده فهذا شرك أكبر يُخرج من الملة. أمّا إذا سوَّى الخالق بالمخلوق في اللفظ فقط؛ فقال مثلًا: ما شاء الله وشئت، فهذا شرك أصغر، لا يَخرج عن كونه شركًا لكنه لا يُخرج عن ملة الإسلام، فهو شرك أصغر. وقد فسَّر ابن عباس –رضي الله عنهما– هذه الآية بتفسير عظيم وهو ما أورده الشيخ.

[قَالَ اِبْنُ عَبَّاسٍ فِي الْآيَةِ: الْأَنْدَادُ هُوَ الشِّرْكُ، أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ عَلَى صَفَاةٍ سَوْدَاءَ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ، وَهُوَ أَنْ تَقُولَ: وَاللهِ، وَحَيَاتِكَ يَا فُلَانة، وَحَيَاتِي.

وَتَقُولَ: لَوْلَا كُلَيْبَةُ هَذَا لَأَتَانَا اللُّصُوصُ، وَلَوْلَا الْبَطُّ فِي الدَّارِ لَأَتَى اللُّصُوصُ. وَقَوْلُ الرَّجُلِ لِصَاحِبِهِ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ. وَقَوْلُ الرَّجُلِ: لَوْلَا اللهُ وَفُلَانٌ. لَا تَجْعَلْ فِيهَا فُلَانًا، هَذَا كُلُّهُ بِهِ شِرْكٌ. رَوَاهُ اِبْنُ أَبِي حَاتِمٍ]

ابن أبي حاتم في التفسير روى هذا عن ابن عباس –رضي الله عنهما– بإسناد جيِّد، يَثبُت به هذا الأثر، حيث فسَّر هذه الآية، فقال: (الْأَنْدَادُ هُوَ الشِّرْكُ، أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ عَلَى صَفَاةٍ سَوْدَاءَ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ)، وهذا تفسير بنوع من أنواع الأنداد؛ لأنّ جَعْل الأنداد لله أعمّ من هذا، الشرك الأكبر من باب جَعْل الأنداد لله، والشرك في الألفاظ من باب جَعْل الأنداد لله، لكنّ ابن عباس –رضي الله عنهما– أراد أن ينبِّه على تنديدٍ خاصٍّ، وشرك خاصٍّ، هو أخطر ما يكون على المؤمنين؛ لأنه خفي. الشرك الأكبر قد يَتنبَّه له من أتى بالشهادتين، لكنّ هذا الشرك الخفيَّ يَتسلَّل إليه وهو لا يدري.

ثم انظر دقة ابن عباس –رضي الله عنهما– فإنه لم يقل الشرك الخفي وسكت، ولكن قال: (أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ)، ودَبِيبِ النَّمْلِ: هو صوت وأثر مشي النمل، ما أحدٌ يسمع صوت مشي النمل، وما أحد يرى أثر مشي النمل، لو رأى أحدنا نملة أمامه وعلى الرمل وتمشي؛ لا نرى أثرها في النمل. (على صَفَاةٍ سَوْدَاءَ) وهي الحصاة الملساء، وهذه الحصاة الملساء سوداء، (فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ)، مَن الذي يستطيع أن يرى دبيب النمل بهذه الصفة؟ لا أحد؛ ولا

بالميكروسكوب. ومراد ابن عباس –رضي الله عنهما– أن يقول لك: انتبه يا مؤمن، فهذا الشرك خفي فأوصِد الباب جيدًا. (وَهُوَ أَنْ تَقُولَ: وَاللهِ، وَحَيَاتِكَ يَا فُلَانة)، تريد أن تحلف للمرأة أو للزوجة مثلًا فتقول لها: والله وحياتك، فتحلف بحياتها مع حلفك بالله، وهذا فيه أمران عظيمان كلاهما من الشرك الأصغر:

الأمر الأوّل: أنك سوَّيتَ بين الله وحياتها في اللفظ، لأنك قلت: والله وحياتك، فسوَّيت بين الخالق والمخلوق في اللفظ، وهذا من الشرك الأصغر.

الأمر الثاني: أنك حلفت بغير الله، والحلف بغير الله من الشرك الأصغر.

أو تقول: (وَحَيَاتِي، وَتَقُولَ: لَوْلَا كلبة هَذَا لَأَتَانَا اللُّصُوصُ)، في بعض نسخ كتاب التوحيد: لولا كُلَيْبَةُ هذا. وقد بحثتُ عن هذه الكلمة بالتصغير في الكتب التي بين يديّ من كتب السنة وغيرها فلم أعثر عليها، وهي في تفسير ابن أبي حاتم: كلبة، وليست كُلَيْبَةُ، لكن قلت: لعل هذا في بعض الكتب فبحثت وبحثت فلم أجد، لكن هذا موجود، بل ذكر حفيد الشيخ أنه بخط الشيخ مكتوب كُلَيْبَةُ (فلولا كُلَيْبَةُ هذا)، وهذا لا يخل بالمعنى، ولكن مقصودنا من حيث لفظ الرواية.

(لَوْلَا كلبة هَذَا لَأَتَانَا اللُّصُوصُ) هذا من الشرك الأصغر؛ لأنّ فيه إضافة النعمة إلى المخلوق، إضافة النعمة إلى هذه الكلبة، أنه بنباحها وحراستها ما

جاءنا اللصوص، وهذا تقدَّم معنا أنه إن كان من باب الحديث عن النعمة وإضافة النعمة يكون من الشرك الأصغر.

(وَلَوْلَا الْبَطُّ فِي الدَّارِ لَأَتَى اللُّصُوصُ) البط هذا الطائر كثير الصوت، كثير الفزع، فصوته عالٍ، وإذا رأى شيئًا يفزع ويشتد صوته، فلو جاء لصٌّ إلى الدار فإنه إذا سمع صوت البط يخاف ويفزع، وإذا دخل فإنّ صوت البط يعلو فيتنبَّه أهل الدار، ومثل البط الوز، في بعض البلدان يضعون في البيت الوز من أجل حماية البيت، فيأتي إنسان فيقول: لولا البط لسُرقنا، لولا الوز لسرقنا، من باب إضافة هذه النعمة، فهذا حرام لا يجوز، وهو من الشرك الأصغر.

(وَقَوْلُ الرَّجُلِ لِصَاحِبِهِ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ) وهذا سيأتي في باب مستقل ونشرحه إن شاء الله. (وَقَوْل الرَّجُلِ: لَوْلَا اللهُ وَفُلَانٌ) هذا من باب الخبر، وحكاية السبب، ولكنه حرام، لأنه قال: "و"؛ لولا الله وفلان، فهذا حرام على الحالين، إذا كان من باب السبب والخبر، أو من باب إضافة النعمة؛ لماذا؟ لأنه ذكر الواو فكان حرامًا، فلا يجوز من باب ذكر السبب أن تقول: لولا الله والبط؛ لأنك ذكرت الواو وهذا يقتضي التسوية، والتسوية بين الخالق والمخلوق في الألفاظ من الشرك الأصغر، وإذا كان من باب إضافة النعمة فهنا محذوران:

الأوّل: أنك أضفت النعمة إلى المخلوق؛ وهذا شرك أصغر.

الثاني: أنك سوَّيت بين الله والمخلوق؛ وهذا شرك أصغر.

(لَا تَجْعَلْ فِيهَا فُلَانًا)، تفسير ابن أبي حاتم له طبعتان، إحدى الطبعتين فيها: لا تجعل فيها فلان، والأخرى فيها: لا تجعل فيها فلانًا. والشيخ هنا ذكر الرواية التي في الطبعة الأخرى: (لا تجعل فيها فلان)، وهذا على الحكاية، حكاية القول السابق: لولا الله وفلان، لا تجعل فيها فلان، حكاية القول، ولذلك لم يَنصبها على الحكاية وإنما على الرَّفع؛ لأنها على الحكاية. وأما رواية: (لا تجعل فيها فلانًا) فهذا الأصل. (هَذَا كُلُّهُ) يعني الذي تقدم (بِهِ) يعني بقائله (شِرْكٌ)،يعني: مَن قال هذا القول فقد وقع في شرك التسوية بالألفاظ.

وقد ذكرنا أنّ التسوية بالألفاظ شرك أصغر، والتسوية بالاعتقاد شرك أكبر.

[وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ –رضي الله عنه– أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ» رَوَاهُ التِّرمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ، وَصَحَّحَهُ الْحَاكِمُ]

الشيخ –رحمه الله– هنا قال: (وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ)؛ وقد وَهِمَ في هذا –رحمه الله–، فإنّ الراوي ليس عمر –رضي الله عنه– وإنما الراوي هو ابن عمر –رضي الله عنهما–، فقد روى الترمذي أنّ ابن عمر –رضي الله عنهما– سمع رجلًا يقول: لا والكعبة! يعني: أنه يُقسِم بالكعبة، فقال ابن عمر: لا يُحلَف بغير الله، فإني سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «مَن حَلَفَ بغير الله فقد كفر أو أشرك»، ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن. وهذا التردُّد من أحد الرواة.

ورواه أبو داود بالجزم: «مَن حَلَفَ بغير الله فقد أشرك».

ورواه أحمد بلفظ: «مَن حَلَفَ بغير الله فقد كفر وأشرك».

ورواه الحاكم بلفظ: «مَن حَلَفَ بغير الله فقد كفر».

إذن؛ جاء بلفظ «فقد أشرك»، وجاء بلفظ: «فقد كفر وأشرك»، وجاء بلفظ: «فقد كفر».

والحديث قال فيه المنذري: إسناده صحيح أو حسن، وصحَّحه ابن حِبان، والحاكم، والذهبي، وابن تيمية، وابن القيم، وابن الملقِّن، وابن كثير، والشوكاني، والصنعاني، وأحمد شاكر، وابن باز، والألباني. فقد صحَّحه جماعة من فحول العلماء.

فالحديث صحيح لا شك فيه، وهو يدلُّ على تحريم الحلف بغير الله، بل يدلُّ على أنّ الحلف بغير الله من الشرك الأصغر، أن يقول الرجل: وحياة أبي ما أخذت كذا! أو: ورأس أمي ما تكلمتُ فيك! والنبي، وجبريل، والكعبة ما فعلت كذا! هذا من الشرك الأصغر، وقد يصل إلى الشرك الأكبر –والعياذ بالله– إذا كان تعظيم المخلوق في قلب الحالِف أعظم من تعظيم الله.

وهل هناك مَن يُعظِّم المخلوق أعظم من تعظيم الله؟! نعم والله، بعض الناس يمكن أن يحلف بالله كاذبًا، لكن لا يمكن أن يحلف بالولي كاذبًا!

ولذلك بعض الناس في بعض البلدان إذا كان خصمه كذوبًا ما يقول له: اِحلفْ بالله؛ لأنه إذا قال له: احلف بالله، قال: جاءك الفرج! فيقول له: احلف بالولي، ما يستطيع، يخاف من الولي أن يحلف به كاذبًا! فهذا عظَّم الولي في قلبه أكثر من تعظيم الله، فهنا يصبح الحلف به شركًا أكبر.

بعض الناس يمكن أن يحلف بالله كاذبًا في المسجد، ولكن لا يمكن أن يحلف كاذبًا في تربة الولي! يعظِّم الولي أكثر من تعظيم الله عز وجل، فهنا نَصَّ الفقهاء الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة إلى أنّ هذا شرك أكبر.

فمَن قام بقلبه عند الحلف تعظيم المخلوق حتى ساوى تعظيمه لله، أو كان أعظم من تعظيمه لله نصَّ الفقهاء في المذاهب الأربعة وغيرهم على أنه شرك أكبر.

أمّا إذا لم يكن ذلك كذلك وإنما على سبيل الحلف؛ فهذا شرك أصغر؛ بدلالة هذا الحديث.

ويدلُّ لتحريم ذلك أيضًا: قول النبي صلى اله عليه وسلم: «مَن حلف بالأمانة فليس منَّا» رواه أبو داود، وصحَّحه الألباني. «مَن حلف بالأمانة فليس منَّا» أي: ليس على طريقتنا، فيَحرُم الحلف بالأمانة.

ويدلُّ لذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تحلفوا بآبائكم، فمَن كان حالفًا فليحلف بالله» رواه البخاري، ومعناه عند مسلم. وإذا كنا لا نحلف بآبائنا فمن باب أولى ألَّا نحلف بأبنائنا وغير ذلك.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تحلفوا بالطواغي ولا بآبائكم» وهذا عند مسلم في الصحيح. «لا تحلفوا بالطواغي» أي: الطواغيت، فسبحان الله! كيف قرن النبي صلى الله عليه وسلم بين الحلف بالطواغيت وبين الحلف بالآباء. وسيأتينا حديث اليهودي الذي جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

فإن قال لنا قائل: إنّ النبي صلى الله عليه وسلم لمّا سئل: أيُّ الصدقة أعظم أجرًا، قال: «أمَا وأبيك لتُنبأنَّه»، ولمّا قال الأعرابي الذي سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإسلام فأخبره النبي صلى الله عليه وسلم عن الإسلام فولّى الأعرابي وهو يقول: (لا أزيد على هذا ولا أَنقص، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أفلح وأبيه إن صَدَق» رواه مسلم في الصحيح. فيعترض معترض ويقول: النبي صلى الله عليه وسلم قال: «وأبيك»، «وأبيه» وهذا قَسَم بالأب! فلماذا لا نقول: إنّ الحلف بغير الله مكروه؟ قد يورِد بعض الناس هذا، وهذا يذكره بعض الناس اليوم.

نقول: إنّ الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم: «مَن حَلَفَ بغير الله فقد كفر أو أشرك»، وقال فيه: (لا تحلفوا بالطواغي ولا بآبائكم» لا يمكن أن يكون مكروهًا، ما يوجد في الشريعة شيء هو شرك وهو مكروه.

إذن؛ كيف نجيب على هذين الحديثين؟

أجاب العلماء بأجوبة كثيرة؛ وأقواها جوابان:

الجواب الأوّل: أنّ هذا مما جرى على الألسنة ولا يُقصَد به معناه، وهذا موجود في العربية وفي كلام النبي صلى الله عليه وسلم، ألا ترون أنّ العرب تقول: اِفعَل كذا تَرِبَت يداك، ما معنى تَرِبَت يداك؟ أصل معنى تربت يداك: اِلتَصقت يدك بالتراب من الفقر، فأصلها دعاء بالفقر، ثم أصبح الناس يستعملونها بغير قصد الدعاء، وإنما تُذكَر في الكلام، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: «فاظفر بذات الدِّين تَرِبَت يداك»، فهل نقول: إنّ النبي صلى الله عليه وسلم يدعو على مَن يتزوج صالحة بالفقر؟! أبدًا، ولكن هذا جرى على الألسنة.

ومنه أيضًا: «ثقلتك أمك»، فإنّ معناها في الأصل: فقدتك أمك، فهو دعاء بالموت، لكن أصبح يجري على الألسنة بدون هذا المقصود، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ –الذي يحبه، والذي قال له: «والله إني لأحبك»– قال له: «ثقلتك أمك يا معاذ»، فهل كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو على معاذ

بالموت؟ الجواب: لا، لكن جرى على اللسان، ونُقِلَ من أصل المعنى إلى غير المقصود، ومنه هذه الجملة: «وأبيك لتفعلن»، فليس هذا من باب القَسَم وإنما جرى على الألسنة، فإن قصد به الإنسان القَسَم كان حرامًا.

الوجه الثاني: أنّ هذا كان قبل النهي، فإنّ هذا كان موجودًا في لغة العرب، وكانت الصحابة تستعمله؛ إلى أن جاء النهي.

وخلاصة ذلك يا مؤمن يا مَن تحب محمدًا صلى الله عليه وسلم: أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال قولًا صحيحًا لا شك فيه: «مَن حَلَفَ بغير الله فقد كفر»، أو قال: «فقد أشرك»، فما الذي يجعلك تتساهل في هذا؟ لماذا تقول: والنبي، والكعبة، وجبريل، وأبي، وحياتي، وحيات أبنائي، ورأس أمي؟! لماذا تقول هذا وقد سمعت قول النبي صلى الله عليه وسلم: (من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك»؟! فلا تتَّبع تأويل مَن تأوَّل، فإنّ التزامك بالنبي صلى الله عليه وسلم نور وصدق وبرهان على إيمان العبد.

[وَقَالَ اِبْنُ مَسْعُودٍ: لَأَنْ أَحْلِفَ بِاللهِ كَاذِبًا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَحْلِفَ بِغَيْرِهِ صَادِقًا]

هذا الأثر رواه عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وصحَّحه الألباني.

يقول ابن مسعود رضي الله عنه –وهو الصحابي الفقيه، من كبار فقهاء الصحابة–: (لَأَنْ أَحْلِفَ بِاللهِ كَاذِبًا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَحْلِفَ بِغَيْرِهِ صَادِقًا)،

الحلف بالله كاذبًا من كبائر الذنوب، وهي اليمين الغموس التي تَغمس صاحبها في النار، ومع ذلك يقول هذا الصحابي الجليل: لأن أحلف بالله كاذبًا –وهذه كبيرة من كبائر الذنوب– أَحبُّ إليَّ من أن أحلف بغير الله صادقًا)؛ لماذا؟ لأنّ الحلف بالله كاذبًا كبيرة ومعصية، والحلف بغير الله صادقًا أو كاذبًا شرك أصغر، والشرك الأصغر أعظم من الكبيرة المجرَّدة.

ومراد الشيخ من ذكر هذا: أن يؤكِّد لك أنّ المستقرَّ عند الصحابة: أنّ الحلف بغير الله شرك أصغر، ولذلك جعل ابن مسعود الحلف بالله كاذبًا أحبَّ إليه من الحلف بغير الله صادقًا.

هل يمكن بعد هذا أن يأتي أحد فيقول: الحلف بغير الله مكروه؟! كيف يكون مكروهًا وابن مسعود –رضي الله عنه– يقول: (الحلف بغير الله كاذبًا – وهذا من كبائر الذنوب– أحبّ إليه من الحلف بغير الله)؛ فكيف يكون الحلف بالله مكروهًا؟ لا ورب الكعبة، الحلف بغير الله شرك أصغر أعظم من كبائر الذنوب المجرَّدة.

[وَعَنْ حُذَيْفَةَ –رضي الله عنه– أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «لَا تَقُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ فُلَانٌ. وَلَكِنْ قُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ شَاءَ فُلَانٌ»، رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ]

وهذا سنتكلم عنه في الباب القادم؛ فنؤجِّله.

[وَجَاءَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ: أَنَّهُ يَكْرَهُ أنْ يقولَ الرَّجلُ: أَعُوذُ بِاللهِ وَبِكَ، وَيَجُوزُ أَنْ يَقُولَ: بِاللهِ ثُمَّ بِكَ. قَالَ: وَيَقُولُ: لَوْلَا اللهُ ثُمَّ فُلَانٌ. وَلَا تَقُولُوا: لَوْلَا اللهُ وَفُلَانٌ]

هذا الأثر عن هذا التابعي الفقيه رواه مَعمَر في (الجامع) بإسناد صحيح.

(أَنَّهُ يَكْرَهُ أن يقول الرَّجل: أَعُوذُ بِاللهِ وَبِكَ) هنا وقفة: "أكره، ويُكرَه، ويَكرَه" عند السلف يعني: يَحرُم، ليس هو المكروه عند المتأخِّرين، لا، وإنما لفظ الكراهة عند السلف يعني: التحريم، فإذا وجدتَ في لسان الصحابي: أكره، أو يكره، أو هذا مكروه، فاعلم أنه يقصد أنه يَحرُم. وكذا عند التابعين.

(أَنَّهُ يَكْرَهُ أن يقول الرجل: أَعُوذُ بِاللهِ وَبِكَ، وَيَجُوزُ أَنْ يَقُولَ: أعوذ بِاللهِ ثُمَّ بِكَ) تقدَّم أنّ الاستعاذة على هيئة الدعاء لا تكون إلا بالله، وجعلها للمخلوق شرك أكبر.

أمّا الاستعاذة بالمخلوق بالفعل أو بالطلب على غير هيئة الدعاء؛ بأن تستعيذ بالمخلوق الحي القادر الحاضر فيما يقدر عليه: فهذا جائز. تقول مثلًا: أعوذ بهذا الجبل من الفتن، ما معنى هذا؟ أصعد إلى هذا الجبل فرارًا من الفتن، وهذا معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم: «ومَن وجد ملجأ أو مَعاذًا فليَعُذْ به». تقول للقاضي: أعوذ بك من ظلم خصمي لي، هذا يجوز. ويجوز أن تقول:

أعوذ بالله ثم بك من ظلم الظالم، مثلًا: شخصٌ يضرب شخصًا ضعيفًا، فمرَّ به رجل قوي، فقال يا فلان: أعوذ بالله ثم بك من هذا، فهذا جائز.

لكن لا يجوز أن تقول: أعوذ بالله وبك؛ لماذا؟ لأنك تسوِّي بين الخالق والمخلوق، إذا قلت: أعوذ بالله وبك، فأنت تسوِّي بين الخالق والمخلوق؛ وهذا لا يجوز، حتى فيما يقدر عليه المخلوق؛ ما يجوز، فيكون هذا من شرك التسوية بالألفاظ.

إذن؛ ما يقع من العبد يجوز أن يقال فيه: ثم كذا، وما لا يمكن أن يقع من العبد لا يجوز أن يقال فيه: ثم كذا.

مثلًا: المشيئة، هل للعبد مشيئة؟ نعم العبد له مشيئة، يعني ممكن أن تقع المشيئة من العبد، فهل يجوز أن نقول: ما شاء الله وشئت، أو: إن شاء الله وشئت؟ لا يجوز؛ لماذا؟ لأنّ الواو تقتضي التسوية، ولا يجوز أن نسوِّي المخلوق بالخالق، ولكن يجوز أن تقول: ما شاء الله ثم شئت، إن شاء الله ثم شئت.

وأمّا ما لا يقدر عليه المخلوق فلا يجوز أن يقال فيه: ثم.

وهنا مسألة: هل يجوز للإنسان أن يقول: توكلت على الله ثم عليك؟

اتفق العلماء على أنّ التوكل بمعنى التفويض المطلَق واعتماد القلب لا يكون للمخلوق أبدًا؛ وإنما هو لله عز وجل، فالتوكل بمعنى اعتماد القلب الاعتماد المطلَق إنما هو على الله.

لكن هل يجوز للمسلم أن يقول: توكلت على الله ثم عليك باعتبار الاعتماد الظاهري؟

صورة المثال: أنا عندي معاملة بالمحكمة، فالمفترض أن اراجع غدًا، فقال لي موظف: لا تأتي، أنا سأحضر لك المعاملة، فقلت له: المعاملة مهمة، فقال: ولا تتعب نفسك، أنا سأحضر لك المعاملة، هل يجوز أن أقول: أنا متوكل على الله ثم عليك في إحضار المعاملة؟

- **أكثر العلماء يقولون:** لا يجوز أن تقول: توكلت على الله ثم عليك، فالتوكل لا يكون للمخلوق. وأقدم من رأيته نبَّه على هذا: ابن عرفة المالكي في تفسيره، حيث علَّق على قول صاحب كتاب (لحن العامة): أنّ العامّة تقول: توكلت على الله ثم عليك، والصواب قول: توكلت على الله ثم عليك، قال ابن عرفة: "والصواب أنه لا حظَّ للمخلوق في التوكل"، فما يجوز أن يقال: توكلت على الله ثم عليك.

وكذا العلماء المعاصرون؛ أكثرهم يمنعون هذا؛ كالشيخ محمد بن إبراهيم، والشيخ صالح آل الشيخ.

- **وبعض أهل العلم أجاز هذا فيما يقدر عليه المخلوق**، ومنهم: شيخنا الشيخ ابن باز، فإنه لمّا سُئل في "نور على الدرب": هل يجوز أن أقول: أنا متوكل على الله ثم عليك؟ قال: "نعم يجوز، (ثم) يجوز، ولكن (و) لا يجوز، والأحسن أن يقول: وكلتك، لا توكلت عليك، فلا يقول: توكلت؛ لأنّ بعض أهل العلم يَمنع من هذا". يعني شيخنا الشيخ ابن باز يرى أنه يجوز أن يقول الإنسان: توكلت على الله ثم عليك، بمعنى: اعتمدت عليك فيما تَقدِر عليه، بعد تفويضي لله، واعتمادي على الله.

وشيخنا الشيخ ابن عثيمين –رحمه الله– يرى نفس الرأي: أنه يجوز.

واللجنة الدائمة –بتوقيع الشيخ ابن باز، وعبد الرزاق عفيفي، وابن غديان– أفتت بجواز هذا.

لكنّ الأحسن أن يُسَدَّ هذا الباب بالكلية، ويقال: إنه لا يجوز أن يُسنَد التوكل إلى المخلوق؛ لأننا وجدنا أنّ النصوص تحصر التوكل في التوكل على الله سبحانه وتعالى. فالتوكل اعتماد القلب وهذا لا يجوز أن يُجعَل للمخلوق، فلهذا أقرب أن يُسَد هذا الباب بالكلية، وأن يُمنَع من هذه الجملة.

(قَالَ: وَيَقُولُ: لَوْلَا اللهُ ثُمَّ فُلَانٌ. وَلَا تَقُولُوا: لَوْلَا اللهُ وَفُلَانٌ) وقد تقدم الكلام عن هذا.

[فِيهِ مَسَائِلُ: الْأُولَى: تَفْسِيرُ آيَةِ الْبَقَرَةِ فِي الْأَنْدَادِ]

وأنها تشمل كل جَعْلِ ندٍّ لله عز وجل؛ سواء بالاعتقاد أو بالألفاظ.

[الثَّانِيَةُ: أَنَّ الصَّحَابَةَ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ– يُفَسِّرُونَ الْآيَةَ النَّازِلَةَ فِي الشِّرْكِ الْأَكْبَرِ أَنَّهَا تَعُمُّ الْأَصْغَرَ]

كما فسَّرها ابن عباس –رض الله عنهما– وذكر الشرك الأصغر.

[الثَّالِثَةُ: أَنَّ الْحَلِفَ بِغَيْرِ اللهِ شِرْكٌ]

بنصِّ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.

[الرَّابِعَةُ: أَنَّهُ إِذَا حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ صَادِقًا فَهُوَ أَكْبَرُ مِنَ الْيَمِينِ الْغَمُوسِ]

لأنه شرك أصغر.

[الْخَامِسَةُ: الْفَرْقُ بَيْنَ الْوَاوِ وثُمَّ فِي اللَّفْظِ]

لأنّ (و) تقتضي المساواة، ولا يجوز تسوية الخالق بالمخلوق، و(ثم) تقتضي الترتيب والتراخي وتأخير الرُّتبة؛ فجازَت.

تابع الدرس التاسع والخمسون: شرح بَابٌ مَا جَاءَ فِيمَنْ لَمْ يَقْنَعْ بِالْحَلِفِ بِاللَّهِ

[بَابٌ مَا جَاءَ فِيمَنْ لَمْ يَقْنَعْ بِالْحَلِفِ بِاللهِ]

لمّا تقدَّم الكلام عن الحلف بالله وأنه من لوازم التوحيد، وعن الحلف بغير الله وأنه شرك؛ عقد الشيخ هذا الباب؛ لأنّ الاقتناع بالحلف بالله والرضى بذلك من لوازم التوحيد، ومن تعظيم الله عز وجل.

فمن تعظيم الموحِّد لله عز وجل في قلبه أن يرضى بالحلف بالله ولا يَطلب الحلف بغير الله، وأن يُسلِّم لمَن حلف بالله عز وجل، وقد يَعظُم تعظيم الله في قلب المؤمن حتى يُصدِّق من حلف بالله وإن كان الحِسُّ يدل على كَذِبه، فيَلتمس له الأعذار حتى يصدِّقه، لتعظيمه لله في قلبه.

وأضرب مثالًا هنا ومثالًا من السنة، أمّا المثال هنا: لو أنك لو كنت مواعدًا شخصًا أن يأتيك ضحىً، فلم يأتِ، فلقيته بعد العصر، فقلت له: يا فلان لِمَ لم تأتِ على الموعد؟ فقال: والله كنت مسافرًا! وأنت كنت قد رأيته بعينك، فتصدِّقه في قوله إنه كان مسافرًا، وتلتمس له العذر، إن كنتَ رأيته قبل الموعد، تقول: لعله سافر بعد ما رأيته، وإن كنت رأيته بعد الموعد تقول: لعله قدم بعدما فات الموعد، لماذا؟ لأنك تُعظِّم الله في قلبك تعظيمًا شديدًا، فلمّا قال لك: والله! صدَّقت بالله.

وأمّا المثال في السُّنة: فما جاء عن أبي هريرة –رضي الله عنه– أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: (رأى عيسى بن مريم –عليه السلام– رجلًا يسرق

فقال له: أسرقتَ؟ قال: كلا والله الذي لا إله إلا هو، فقال عيسى: آمنتُ بالله، وكذَّبتُ عيني» رواه البخاري في الصحيح. وفي رواية عند مسلم قال: «آمنت بالله وكذَّبتُ نفسي»، فعيسى عليه السلام رأى بعينيه رجلًا يسرق، فقال للرجل: أسرقتَ؟ فقال: كلا والله الذي لا إله إلا هو! يعني: ما سرقتُ، وحلف، فقال نبي الله عيسى عليه السلام: «آمنت بالله». فتعظيم الله في قلبه عظيم حتى صدَّقه مع أنه رآه يسرق. قال العلماء: يعني التَمَسَ له العذر؛ فقال: لعله كان يأخذ مالًا له وأنا ظننته يسرق! لعله وكيل عن صاحب المال فأخذ من ماله! من أجل أنه حلف له بالله. وهذا كمال وليس بواجب، ولكنّ الواجب: أن يرضى المسلم بالحلف بالله ويُسلِّم. فهذا من لوازم التوحيد.

(باب ما جاء في من لم يقنع بالحلف بالله) أي: لم يرضَ، ولم يُسلِّم بالحلف بالله.

[عَنْ اِبْنِ عُمَرَ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، مَنْ حَلَفَ بِاللهِ فَلْيَصْدُقْ، وَمَنْ حُلِفَ لَهُ بِاللهِ فَلْيَرْضَ، وَمَنْ لَمْ يَرْضَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ» رَوَاهُ اِبْنُ مَاجَهْ بِسَنَدٍ حَسَنٍ]

هذا الحديث رواه ابن ماجه ولفظُه: أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا تحلفوا بآبائكم، مَن حَلَفَ بالله فليَصدُق، ومَن حُلفِ له بالله فليَرْضَ، ومَن لم يرضَ بالله فليس من الله» هذا لفظ بن ماجه –بزيادة لفظ الجلالة: ومن

لم يرض بالله– وقد حسَّنه الحافظ ابن حجر في (الفتح). وقال ابن كثير: إسناده جيِّد وقوي. وصحَّحه الألباني.

ورواه البيهقي بلفظ: «لا تحلفوا بآبائكم، مَن حَلَفَ بالله فليَصدُق، ومَن حُلِفَ له بالله فليرضَ، ومَن حُلِفَ له بالله فلم يرضَ فليس من الله». جُمَلٌ عظيمة متعلِّقة باليمين: «لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ» هذا نهي، والنهي يقتضي التحريم، وتخصيص الآباء خرج مخرج الغالب؛ وهو أنّ الغالب أنهم كانوا يحلفون بآبائهم، فلا مفهوم له، فلا يعني أن نحلف بالكعبة والأبناء؛ بل يشمل كل حلف بغير الله.

قال ابن عمر –رضي الله عنه– إنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ألا مَن كان حالِفًا فلا يحلف إلا بالله»، فكانت قريش تحلف بآبائها فقال: «لا تحلفوا بآبائكم» متفق عليه. وفي حديث ابن عمر: «لا تحلفوا بآبائكم، مَن كان حالفًا فليحلف بالله».

وفي حديث أبي هريرة، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تحلفوا بآبائكم، ولا بأمهاتكم، ولا بالأنداد، ولا تحلفوا إلا بالله، ولا تحلفوا بالله إلا وأنتم صادقون» رواه أبو داود، والنسائي، وصحَّحه الألباني.

«مَنْ حَلَفَ بِاللهِ فَلْيَصْدُقْ» يجب على المؤمن أن يكون صادقًا في حلفه بالله عز وجل. والحلف بالله مع علم الإنسان أنه كاذب هذه هي اليمين الغموس،

التي تَغمِس صاحبها في النار، وهي من كبائر الذنوب. قال النبي صلى الله عليه وسلم: «الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس» رواه البخاري. فيجب على المؤمنين أن يحذروا.

للأسف؛ اليوم كثر الحلف بالله مع علم الإنسان أنه كاذب، فيقول: والله كذا، وهو يعلم أنه كاذب، وهذه كبيرة من كبائر الذنوب في أيِّ أمر، ولكن إثمها يشتد إذا كانت في الحقوق وأكل أموال الناس؛ «فمَن حلف على يمين يقتطع بها مال امرئٍ مسلم هو فيها فاجر؛ لقيَ الله وهو عليه غضبان» متفق عليه. وهذا خطر عظيم. فمَن حلف بالله فليَصدُق.

«وَمَنْ حُلِفَ لَهُ بِاللهِ فَلْيَرْضَ» معنى هذه الجملة:

أوّلًا: أنّ مَن حُلِفَ له بالله فليرضَ بالحلف بالله، ولا يطلب الحلف بغير الله. بعض الناس اليوم إذا قال له الرجل: والله ما أخذت مالك! والله ما دخلت بيتك! والله ما سببتك! ما يقنع بهذا؛ يقول: قولوا: وحياة أبنائي! قولوا: وذمتي! قولوا: ورأس أبي! ما يرضَ بالحلف بالله، يريد حلفًا بغير الله، وهذا يكون كمن حلف بغير الله؛ لأنّ المتسبب في الشيء كفاعله؛ فيكون وقع في الشرك الأصغر. مَن طلب من أحد أن يحلف بغير الله وقع في الشرك الأصغر.

الأمر الثاني في تفسير هذه الجملة: أنّ مَن حُلِف له بالله في القضاء؛ فليرضَ؛ لأنّ هذا شرع الله، والواجب على المسلم أن يُسلِّم لشرع الله. فلو كان لك حق

عند فلان، وادَّعيتَ عليه عند القاضي، فقال القاضي: عندك شهود؟ قلت: ما عندي، أنا أعطيته ثقةً فيه، فقال له القاضي: احلف بالله، فحلف، وَجَبَ عليك أن ترضى. ليس المقصود أن تعتقد في قلبك أنه ليس لك حق، لا، ما دام تعرف أنّ لك حقًّا فهذا في قلبك، لكن سَلِّم للحُكم؛ لأنه شرع الله سبحانه وتعالى.

الأمر الثالث: أنّ مَن حلف لك بالله على شيء فصدِّقه؛ ما لم يوجَد ما يكذِّبه. فمن حلف لك بالله على شيء أنت تصدِّقه فيه؛ صدِّقه، في شيء يَغلِب على ظنك أنه صادق فيه؛ صدِّقه، في شيء لا تَعرف ما يُكذِّبه؛ صدِّقه، أمّا إذا كنت تَعرف الذي يكذِّبه وأنه كذَّبا في هذا؛ لا يجب عليك أن تصدِّقه، لكن لو صدَّقته لكان هذا كمالًا في خُلقك وتعظيمك لله سبحانه وتعالى.

«وَمَنْ لَمْ يَرْضَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ» هذا وعيد شديد، ويدلُّ على أنّ عدم الرضى بالقَسَم بالله: كبيرة من كبائر الذنوب. وذكرنا: إن كان يطلب القَسَم بغير الله؛ فهذا شرك أصغر. وإن كان لا يرضى بالحُكم أو لا يصدِّق؛ فهذه كبيرة من كبائر الذنوب؛ إلا إذا وُجِدَ ما يدلُّ على كَذِبه، فلا يلزم الإنسان أن يصدِّقه.

[فيه مسائل: الْأُولَى: النَّهْيُ عَنِ الْحَلِفِ بِالْآبَاءِ]

وبالتالي النهي عن الحلف بغير الله؛ بالآباء أو بالأبناء وبالأمهات وبالكعبة، فالحلف بغير الله كله منهيٌّ عنه.

[الثَّانِيَةُ: الْأَمْرُ لِلْمَحْلُوفِ لَهُ بِاللهِ أَنْ يَرْضَى]

كما تقدَّم بيانه.

[الثَّالِثَةُ: وَعِيدُ مَنْ لَمْ يَرْضَ]

كما قدّمناه.

وبهذا ينتهي هذا الباب.

الدرس الستون: شرح بَابُ: قَوْلِ مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ

إنّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَن يهدي الله فلا مضلَّ له، ومَن يُضلل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء: ١]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: ٧١]

أمّا بعد:

فإنّ أحسن الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكلّ محدَثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النار.

في هذا المجلس وما يليه من المجالس نواصل شرحنا لكتاب التوحيد، لنتفقّه في أعظم حق، وأشرف حق، وأعلا حق، إنه حقُّ الحقِّ سبحانه وتعالى،

حقُّ الله سبحانه وتعالى، فهو أعظم الحقوق على الإطلاق، وأعظم الفرائض على الإطلاق، من أجله خَلَقَ الله عز وجل الجن والإنس، فأنت يا عبد الله ما خُلِقتَ ولا رُبِّيتَ ولا أُنعِم عليك إلا من أجل أن توحِّد الله سبحانه وتعالى. وبه بُعِثَ جميع الرُّسل، فما بُعِثَ رسول إلى أمّة إلا وهو يدعو إلى التوحيد واجتناب الطاغوت.

والتوحيد يَختبر المسلم قلبه به، فإن وجد أنه إذا سَمِعَ آيات التوحيد وأحاديث التوحيد وتقريرات العلماء للتوحيد؛ انشرح صدره، وسُرَّت نفسه، وأقبل على ذلك بفرح؛ فذلك يدل على أنّ قلبه قلب سليم.

أمّا إذا وجد من نفسه أنه إذا سَمِعَ الكلام عن التوحيد؛ انقبضت نفسه، واشمأز قلبه، ورغب في ترك المكان أو في عدم الاستماع؛ فذلك يدل على أنّ قلبه مريض، وعلى أنّ تعظيمه لله ناقصٌ لا يليق بالمؤمن، فالمؤمن ينشرح صدره عند سماعه لحق ربه سبحانه وتعالى.

ومن الناس من ضلوا ضلالًا بعيدًا؛ فإذا سمعوا التوحيد انقبضوا عنه، ولربما سبُّوا أهله، وإن يشرك بالله فيُذكَر لغير الله ما لله؛ يؤمنوا وتنشرح صدورهم! وذاك والله غاية الضلال، ونعوذ بالله منه.

[بَابُ: قَوْلِ مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ]

أي: ما حُكمه؟ أهو شرك أو دون ذلك؟ وإن كان شركًا فما نوعه؟ والجواب يأتي من الأدلة المذكورة في الباب، ولا شك أنّ الأدلة دلَّت على أنه شرك؛ أن يقول الإنسان: ما شاء الله وشئت– بالواو– دلت الأدلة على أنه شرك، وأنّ الأصل فيه أنه شرك أصغر، وقد يكون شركًا أكبر؛ كما سنبيِّن إن شاء الله.

وهذا الباب هو في قسم مكملات توحيد الألوهية، ومتممات توحيد الألوهية، وما يتعلق بما يضاد كمال التوحيد.

والمعلوم؛ **أنّ التوحيد يكون:**

- بالاعتقاد.
- ويكون بالعمل.
- ويكون بالألفاظ.
- **وكذلك الشرك:**
- يكون بالاعتقاد.
- ويكون بالعمل.
- ويكون بالألفاظ.

وهذا الباب متعلِّق بشرك الألفاظ.

ومن المعلوم المستقرّ شرعًا وواقعًا: أنّ للعبد مشيئة، فيشاء العبد الفعل، ويشاء الترك. فلو طلبتُ منك مثلًا: مائة ريال؛ قلتُ: اعطني مائة ريال، فإنك إن

شئت أعطيتني، وإن شئت لم تعطني، وهذا أمر ظاهر، وقد قال الله عز وجل: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ (التكوير: ٢٨)، فأثبتَ للعبد مشيئة؛ لكنّ مشيئة العبد تحت مشيئة الله سبحانه وتعالى، فلا يكون في كون الله عز وجل إلا ما شاءه سبحانه وتعالى، كما قال الله: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ (التكوير:٢٩)، فمشيئة العبد تحت مشيئة الرحمن سبحانه وتعالى. فالكمال للمؤمن أن قول: "ما شاء الله وحده"؛ لأنّ مشيئة المخلوق تحت مشيئة الله سبحانه وتعالى.

وقد تقدّم حديث حذيفة –رضي الله عنه–؛ وفيه: أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا تقولوا: ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله وحده» رواه أبو داود الطيالسي –رحمه الله– بإسنادٍ صحيح. فنبينا صلى الله عليه وسلم نهانا أن نقول: ما شاء الله وشاء فلان، وأمرنا أن نقول: ما شاء الله وحده، وهذا الكمال للمؤمن.

ويجوز للمؤمن أن يقول: "ما شاء الله ثم شاء فلان"؛ مما له فيه مشيئة؛ لأنّ مشيئة الإنسان في هذه الجملة تابعة لمشيئة الله سبحانه وتعالى، فـ(ثُم) –كما هو معلوم– تقتضي الترتيب والتراخي، فتكون مشيئة الإنسان تابعة لمشية الله، ومتراخية عن مشية الله سبحانه وتعالى، فهذا جائز أن يقول المؤمن: ما شاء الله ثم شاء فلان.

وقد تقدّم في حديث حذيفة –رضي الله عنه– أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا تقولوا: ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان» رواه الإمام أحمد، وأبو داود، وصحَّحه الألباني والأرنؤوط.

وهذا يدل على أنّ للمؤمن في قوله هنا مقامَين:

-مقام كمال.

-مقام دونه.

مقام الكمال؛ أن يقول: ما شاء الله وحده.

والمقام الذي هو دونه –وهو جائز لا حرج فيه–: أن يقول: ما شاء الله ثم شاء فلان.

هذا قول الموحِّدين.

ومن الشرك: أن يضيف الإنسان المشيئة إلى مَن لا مشيئة له؛ كالأموات؛ فيقول: ما شاء صاحب القبر! فهذا من الشرك، ولا يجوز أن يقول الإنسان: ما شاء الله ثم شاء صاحب القبر! لأنّ الميت لا مشيئة له هنا.

كذلك؛ أن يضيف المشيئة إلى حي في أمر لا مشيئة له فيه؛ كأن يقول: إن شاء الله ثم شئتَ أن أُرْزَق ولدًا! فإنّ المخلوق لا مشيئة له في رَزْقِ الولد، فهذا من الشرك.

ومن الشرك الأصغر: أن تسوَّى مشيئة المخلوق بمشيئة الله عز وجل في اللفظ؛ بأن يقال: ما شاء الله وشئت، أو: ما شاء الله وشاء فلان، أو يقال: إن شاء الله وشئت –بالواو–؛ فإنّ الواو تقتضي التسوية.

فمَن قال هذا القول لا يخلو من حالين:

الحال الأولى: ألَّا يعتقد بقلبه التسوية وإنما يقول هذا بلسانه. فهذا شرك أصغر -كما يدل **عليه الحديث التالي إن شاء الله**-.

الثانية: إن اعتقد التسوية في قلبه، وأنّ مشيئة المخلوق مساوية لمشيئة الله عز وجل، وقال: ما شاء الله وشئت! فهذا شرك أكبر؛ لأنه جعل المخلوق ندًّا لله عز وجل.

وقد دلّ على هذا الحكم أدلة كثيرة؛ منها: أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا تقولوا: ما شاء الله وشاء فلان»، فهذا نهي، والنهي يقتضي التحريم. والشيخ ذكر ما يدل على أنه شرك.

[عَنْ قُتَيْلَةَ: أَنَّ يَهُودِيًّا أَتَى النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ: إِنَّكُمْ تُشْرِكُونَ، تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ. وَتَقُولُونَ: وَالْكَعْبَةِ. فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَحْلِفُوا أَنْ يَقُولُوا: وَرَبِّ الْكَعْبَةِ. وَأَنْ يَقُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ شِئْتَ. رَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَصَحَّحَهُ]

هذا الحديث رواه النسائي وصحَّحه، وصحَّحه الألباني، وروى الإمام أحمد قريبًا منه، وصحَّحه الأرنؤوط. (عَنْ قُتَيْلَةَ)، هذه صحابية، اسمها: قتيلة بنت صيفي الجهنية، شرَّفها الله بصحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم. (أَنَّ يَهُودِيًّا) واليهود: هم الذين ينتسبون إلى موسى عليه السلام. قيل: سمُّوا باليهود لأنهم قالوا: إنا هدنا إليك. وقيل: سمُّوا باليهود لأنّ جدهم الأكبر اسمه يهود. واليهود في أوّل الأمر كانوا يعيشون في المدينة.(أَتَى النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ: إِنَّكُمْ تُشْرِكُونَ) هذا اليهودي جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم لا لينصح الأمّة عن الشرك، ولكن ليتنقَّص محمدًا صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فيريد أن ينتقم منهم، كأنه يريد أن يقول: أنتم تقولون: إنّا نشرك، وأنتم تشركون! (تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ. وَتَقُولُونَ: وَالْكَعْبَةِ) فسمَّى هذا شركًا بحَضْرة النبي صلى الله عليه وسلم، «فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَحْلِفُوا أَنْ يَقُولُوا: وَرَبِّ الْكَعْبَةِ» فالنبي صلى الله عليه وسلم أقرّ اليهودي على أنّ الحلف بالكعبة -وهي مخلوق عظيم، ولها حُرمة عظيمة- من الشرك، وأنّ قول: ما شاء الله وشئت؛ من الشرك، بل أمر الصحابة أن يقولوا إذا أرادوا الحلف: ورب الكعبة، وقد تقدَّم معنا ما يَتعلَّق بالحلف، وأنّ الواجب على المؤمن أن يجتنب الحلف ما استطاع، وألَّا يجعل الله عُرْضَة لأيمانه، وإذا حلف

أن يحلف بالله، وإلا فواجب عليه أن يسكت، وأن الحلف بالمخلوق شرك أصغر.

«وَأَنْ يَقُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ شِئْتَ» فدلَّ هذا على جواز أن يقول المؤمن: ما شاء الله ثم شئت.

والفرق بين قول القائل: ما شاء الله وشئت، وما شاء الله ثم شئت بيِّن؛ لأنّ (و) تقتضي التسوية، أمّا (ثم) فتقتضي الترتيب والتعاقب والتراخي.

ومن فوائد هذا الحديث:

الفائدة الأولى: أنّ صاحب الباطل قد يقول الحق؛ لا لإظهار الحق؛ وإنما لغرضٍ فاسد، فمَن عُرِفَ بالباطل لا يُغتَر بقوله الحق، فإنّ صاحب الباطل قد يقول الحق لا للحق؛ كهذا اليهودي، قد قال حقًّا ودلَّ على خير، لكن لا من أجل الحق؛ وإنما من أجل سبِّ النبي صلى الله عليه وسلم، وسبِّ أمّته بهذه الطريقة الخفيَّة.

الفائدة الثانية: أنّ المؤمن يَقبل الحق إذا ظهر أنه حق مهما كان قائله، سواء قاله مشرك، أو قاله مبتدع، أو قاله فاسق، فإذا ظهر أنه حق فإنّ المؤمن يَقبله، لكن لا يُطلَب الحق من أهل الباطل؛ لأنّ الأصل في أهل الباطل الإضلال والضلال، وأنهم لا يُرشِدون إلى الحق؛ وإنما يُرشِدون إلى الباطل.

فيجب التفريق بين قبول الحق وبين طلب الحق، فبعض الناس يخلط بين الأمرين؛ فيَردُّ الحق إذا جاء من مبتدع، ويقول: لا نأخذ الحق من المبتدع، ولا نطلب الحق من المبتدع، فيخلط بين الطلب والقبول!

وبعض الناس بالعكس؛ يقول: نطلب الحق من المبتدع، ونطلب الحق من المبتدع، نطلب الحق من المشركين –ونقصد بالحق: المتعلِّق بالدِّين–، وكلا الطرفين مخطئ، فإنّ هناك فَرقًا بين طلب الحق، وبين قبول الحق، فقد نُهينا أن نطلب الحق من اليهود، وأن نأخذ أوراقًا من أوراق أهل الكتاب، ولكن في هذا الحديث قَبِلَ النبي صلى الله عليه وسلم الحقَّ من اليهودي.

فهذه فائدة نفيسة، يخطئ فيها كثيرٌ من طلاب العلم في هذه المسألة؛ فضلًا عن العوام.

ففي هذا الحديث: بيان أنّ الحق يُقبَل من قائله إذا ظهر أنه حق؛ لكن في نفس الوقت لا يُغتَر بقائله؛ فيقول: فلان والله يقول الحق وهم يقولون: هو مبتدِع! ما دام ظهرت بدعته وأنه على بدع ويدعو إلى الباطل فلا يُغتَر بقوله الحقَّ.

الفائدة الثالثة: ألَّا يُغَر الناس به، فيُرفَع من شأنه ويُنسَب إليه الحق، ويُمدح بهذا؛ إلا إذا كان على سبيل الحكاية كما في هذا الحديث.

الفائدة الرابعة: أنّ كيد أهل الباطل لأهل الحق يؤول إلى خير لأهل الحق.

فهذا اليهودي ما أراد الخير للأمّة؛ وإنما جاء كائدًا متربِّصًا؛ ومع ذلك نفع الله بهذا الأمّة، وخلَّص الله الأمّة من هذا الشرك.

ولذلك؛ اِشتَغل بإصلاح ما بينك وبين الله، واحرصْ على أن تكون على توحيد وسُنَّة، ولا يَشغلنك ما يَكيده الأعداء والجهال؛ فإنّ الله ناصرٌ مَن ينصر دينه ومَن يَحفظ دينه، لكن المهم أن لا يكون العَطَبُ من عندك، لا في قلبك، ولا في قولك، ولا في فعلك.

فكيد أهل وأهل الشر وأهل الفجور لأهل الحق يؤول إلى خير. وكم كاد أهل الباطل لأهل الحق ونسبوهم إلى النقائص؛ فكان ذلك سببًا لنشر كلامهم بين الناس، ونَشْرِ الحق بين الناس.

[وَلَهُ أَيْضًا عَنْ اِبْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ رَجُلاً قَالَ لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ. فَقَالَ: «أَجَعَلْتَنِي لِلَّهِ نِدًّا؟! قُلْ: مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ»]

(وَلَهُ) أي: للنسائي. وهذا الحديث رواه البخاري في الأدب المفرد، والطبراني في الكبير بلفظ: «جَعلت لله ندًّا، ما شاء الله وحده». ورواه أحمد والنسائي بلفظ: «أجعلتني لله عَدلًا»، وهي بمعنى النِّد «قل: ما شاء الله وحده». وقال الأرنؤوط: صحيح لغيره وصحَّحه الألباني بشواهده، وصحَّحه الشيخ أحمد شاكر.

هذا الرجل جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ)، قال هذا لمَن؟ لأشرف مَن وطئ الأرض صلى الله عليه وسلم، لسيد ولد آدم أجمعين صلى الله عليه وسلم، لأشرف المخلوقات صلى الله عليه وسلم قال له: ما شاء الله وشئت. فماذا قال النبي صلى الله عليه وسلم؟ قَالَ: (أَجَعَلْتَنِي لِلَّهِ عَدلًا؟!» فأنكَر عليه، وهذا استفهام إنكار وتعجب، أنكر عليه وتعجَّب من فِعله وقوله. وفي الرواية الأخرى: حَكَمَ؛ فقال: «جعلتَ لله ندًّا»، فبهذا الكلام قد جعلتَ لله ندًّا، والله عز وجل حرَّم علينا أن نجعل له ندًّا سبحانه وتعالى.«قُلْ: مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ» فلمّا كان هذا في هذا المقام أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يقطع الذرائع فما قال له قُل: ما شاء الله ثم شئت، بل قال له «قل: ما شاء الله وحده»؛ فأرشَدَه إلى درجة الكمال؛ حتى يقطع الذريعة في هذا المقام.

فدلّ ذلك على أنّ قول: "ما شاء الله وشئت" من الشرك؛ لأنّ جعل ندٍّ لله عز وجل شرك، وقد يكون شركًا أصغر، وقد يكون شركًا أكبر.

[وَلِابْنِ مَاجَهْ عَنِ الطُّفَيْلِ أَخِي عَائِشَةَ لِأُمِّهَا، قَالَ: رَأَيْتُ كَأَنِّي أَتَيْتُ عَلَى نَفَرٍ مِنَ الْيَهُودِ، قُلْتُ: إِنَّكُمْ لَأَنْتُمُ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ. قَالُوا: وَأَنْتُمْ لَأَنْتُمُ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ. ثُمَّ مَرَرْتُ بِنَفَرٍ مِنْ النَّصَارَى فَقُلْتُ: إِنَّكُمْ لَأَنْتُمُ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ. قَالُوا: وَإِنَّكُمْ لَأَنْتُمُ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ. فَلَمَّا أَصْبَحْتُ

أَخْبَرْتُ بِهَا مَنْ أَخْبَرْتُ، ثُمَّ أَتَيْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم فَأَخْبَرْتُهُ، قَالَ: «هَلْ أَخْبَرْتَ بِهَا أَحَدًا؟»، قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ. فَإِنَّ طُفَيْلاً رَأَى رُؤْيَا أَخْبَرَ بِهَا مَنْ أَخْبَرَ مِنْكُمْ، وَإِنَّكُمْ قُلْتُمْ كَلِمَةً كان يَمْنَعُنِي كَذَا وَكَذَا أَنْ أَنْهَاكُمْ عَنْهَا، فَلَا تَقُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ. وَلَكِنْ قُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ»]

هذه رؤية رواها ابن ماجة عن حذيفة –رضي الله عنه–، وذِكْرُ حذيفة في رواية هذا الحديث وَهْمٌ من ابن عيينة –رحمه الله– كما نبَّه عليه المحقِّقون، ونبَّه عليه ابن حجر في فتح الباري، وأنّ الراوي هنا ليس حذيفة رضي الله عنه؛ وإنما وَهِمَ ابن عيينة فذَكَرَه عن حذيفة.

فالذي عند ابن ماجه عن حذيفة: أنّ رجلًا من المسلمين رأى في النوم أنه لقيَ رجلًا من أهل الكتاب، فقال: نِعْمَ القوم أنتم لولا أنكم تشركون؛ تقولون: ما شاء الله وشاء محمد، وذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم، فقال صلى الله عليه وسلم: «أما والله إن كنتُ لأعرفها، قولوا: ما شاء الله ثم محمد» هكذا رواه ابن ماجه، وليس بالتمام الذي ذكره الشيخ في الكتاب، ثم ذكر ابن ماجه إسناده إلى الطفيل أخي عائشة، بعد أن ذَكَرَ الحديث عن حذيفة ذكر إسناده إلى الطفيل أخي عائشة، ولم يَذكُر بعده لفظ الحديث.

وهذه الرؤية أيضًا رواها أحمد وابن أبي شيبة عن الطفيل بقريبٍ مما ذكره الشيخ هنا، وجاء في آخر الرواية: أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أمّا بعد. فإنّ طفيلًا رأى رؤيا، وأخبر بها من أَخْبَرَ منكم، وإنكم تقولون كلمة كان يمنعني الحياء أن أنهاكم عنها، فلا تقولوا: ما شاء الله وشاء محمد» صحَّحه الأرنؤوط.

(عَنِ الطُّفَيْلِ) وهو صحابي ليس له إلا هذا الحديث، وهو أخو عائشة لأمها. ذكر بعض العلماء: أنّ والد الطفيل جاء مكة، وتزوج أم رومان، وأنجب منها الطفيل، ومات، ثم تزوجها أبو بكر –رضي الله عنه– فأنجب منها عائشة، فهو أخو عائشة لأمِّها.

(قَالَ: رَأَيْتُ كَأَنِّي) أي: رأيت في المنام. (أَتَيْتُ) وفي بعض الروايات: مررتُ. (عَلَى نَفَرٍ مِنَ الْيَهُودِ)، وفي بعض الروايات: على رَهْطٍ من اليهود؛ وهم جماعة ما بين الثلاثة إلى العشرة من الرجال. (قُلْتُ: إِنَّكُمْ لَأَنْتُمْ) وفي بعض النسخ: قلت: إنكم أنتم –بدون اللام– (الْقَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ) عزير: رجل صالح، نَسَبَه اليهود إلى الله؛ قالوا: هو ابن الله! تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا. (قَالُوا: وَأَنْتُمْ لَأَنْتُمُ الْقَوْمُ) أي: معاشر المسلمين (لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ)، لم يجدوا في كلام الصحابة ولا في أفعالهم ولا في اعتقادهم شرك؛ سوى هذه المقولة: ما شاء الله وشئت، كانوا يقولونها قبل أن يُنهَوا عنها، فلم تكن ممنوعة في حقِّهم. قال: (ثُمَّ مَرَرْتُ بِنَفَرٍ مِنْ

النَّصَارَى) أتباع عيسى –عليه السلام– الذين قالوا: نحن أنصار الله. (فَقُلْتُ: إِنَّكُمْ لَأَنْتُمُ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ. قَالُوا: وَإِنَّكُمْ لَأَنْتُمُ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ)، فاليهود والنصارى ما وَجدوا إلا هذا يَعيبون به الصحابة –رضوان الله عليهم–. قال: (فَلَمَّا أَصْبَحْتُ أَخْبَرْتُ بِهَا مَنْ أَخْبَرْتُ، ثُمَّ أَتَيْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم فَأَخْبَرْتُهُ، قَالَ: «هَلْ أَخْبَرْتَ بِهَا أَحَدًا؟»، قُلْتُ: نَعَمْ) وسبب هذا السؤال غير ظاهر –والله أعلم–، ولكن بعض أهل العلم قال قولًا لا يظهر أنه سديد؛ قالوا: النبي صلى الله عليه وسلم سأله هذا السؤال لأنه لو لم يُخبِر أحدًا بها لأمره بالسكوت وألَّا يُخبِر أحدًا بها! ولكن هذا لا يظهر –والله أعلم–؛ لأنّ النبي صلى الله عليه وسلم بنى عليها خيرًا وحقًّا، وفيها خير وحق لهذه الأمّة.

(قَالَ: فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: (أَمَّا بَعْدُ. فَإِنَّ طُفَيْلاً رَأَى رُؤْيَا، أَخْبَرَ بِهَا مَنْ أَخْبَرَ مِنْكُمْ، وَأَنَّكُمْ قُلْتُمْ كَلِمَةً كان يَمْنَعُنِي كَذَا وَكَذَا أَنْ أَنْهَاكُمْ عَنْهَا»، الرواية الأخرى مفسِّرة: «كان يمنعني الحياء أن أنهاكم عنها»، لماذا كان يمنعه الحياء صلى الله عليه وسلم؟ لأنه لم يَنزل عليه فيها شيء، كان يكرهها صلى الله عليه وسلم، ولا يحبها، وكان يعرفها منهم إذا سمعها؛ لكن لم يُوحى إليه فيها شيء؛ فلم ينههم، فالنبي صلى الله عليه وسلم ما كان ينهاهم عما يَكره إلا بوحي، فكيف لأحد أن يوجِب على الناس أن يأخذ بقول قائلٍ بلا دليل؟!

ليس لأحد أن يقول: هذا حلال وهذا حرام، وهذا حق وهذا باطل، وهذا صاحب حق وهذا صاحب باطل؛ إلا بدليل، فإن جاء بالدليل وكان الدليل صحيحًا، وكانت دلالته صحيحة وسَلِمَ من معارَضة مثله أو أقوى منه؛ وَجَبَ لزومه، وإن تخلَّف واحدٌ من هذه فلا يجب على الأمّة أن تَلزم قول أحد من الناس كائنًا من كان بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإلزام الناس بقول فلان لأنه قول فلان باطل وبدعة ولا يجوز، وإنما يُلزَم الناس بالحق، ولا يجوز لأحد أن يقول: نُلزِم بقول فلان لأنه لا يقول إلا حقًّا ولا يقول إلا عن دليل! نعم هو بنفسه لا يقول إلا ما يَعتقد أنه حق، لو لم يَعتقد أنه حق ما قاله، هذا الظن بالعلماء، ولا يقول إلا عن دليل قام عنده، نحن نجزم بهذا؛ أنّ العلماء المعتبَرين لا يقولون للأمّة إلا ما اعتقدوا في أنفسهم أنه حق، وما قام الدليل عليه عندهم، ولكن بالنسبة لنا لا يَلزمنا أن نأخذ بقول العالم في أيِّ شيء وفي أيِّ باب لأنه العالم الكبير، ولأنه المجاهد الكبير، لا؛ وإنما يَلزمنا أن نأخذ بالحق، فمَن ظهر له الحق وَجَبَ عليه أن يَلزمه، كيف يَظهر الحق؟

١. بأن يقوله عالم معتبَر. فلا نأخذ الكلام ممَّن لا عبرة به.

٢. وأن يقوم عليه الدليل.

٣. وأن يَصحَّ الدليل عندنا. لأنّ الدليل قد يُختلَف فيه، فقد يصح عند فلا، ولا يصح عند فلان.

٤. وأن تكون دلالته صحيحة؛ لأنّ الإنسان قد يَستدل بالدليل الصحيح ولكن دلالته لا تصح على المطلوب.

٥. وأن يَسلَم من معارَضة دليل مثله –يساويه– أو أقوى منه.

ولو عَلِمَ الناس أنّ الذي يجب لزومه هو الحق لارتحنا، لأنّ بعض الناس يترك الحق الذي قام دليله الصحيح وصحَّت دلالته ولم يوجَد ما يعارِضه مثله أو أقوى منه؛ لأنّ فلانًا قال بعكس هذا القول! فيترك الحق من أجل فلان، يقول: ما دام العلماء اختلفوا فلا تُلزِمني! أقول: ما دام ظهر لك أنه الحق فلا يجوز لك أن تتركه، ولا يجوز لك أن تقول: اختلف الإمام مالك والإمام أحمد في هذه المسألة فاتركني أختار! نقول: لا، مادام ظهر لنا أنّ الحق والراجح هو القول الفلاني فيجب علينا أن نأخذ به.

أمّا إذا تعارَضت الأدلة؛ فإنّ الإنسان يأخذ بالحق. فلزوم الحق واجب متى ما أضاء نوره؛ في الفقه، وفي الحكم على الرجال، وفي جميع المسائل. وهذا هو الوسط الذي كان عليه سلف الأمّة –رضوان الله عليهم–، الإلزام إنما هو بالحقِّ، ولا يجوز للإنسان أن يترك الحق لقول فلان أو قول فلان.

فكان النبي صلى الله عليه وسلم يمنعه الحياء من أن ينهاهم عن هذه الكلمة؛ لأنه لم يَنزل فيها وحي، فلمّا جاءت هذه الرؤية –وهي حق وقد أقرَّها

النبي صلى الله عليه وسلم– رتَّب عليها أنه نهاهم عن قول: ما شاء الله وشاء محمد.

ودلّ هذا الدليل: على أنّ هذه شرك أصغر؛ لأنه لو كان شركًا أكبر لَمَا امتنع النبي صلى الله عليه وسلم عن نهيهم عنه، ولا ما تأخَّر الوحي بالنهي عنه، فإنّ النهي عن الشرك الأكبر جاء من أوّل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ولم يُتدرَّج فيه بشيء؛ فدلّ ذلك على أنه من الشرك الأصغر.

ومن هنا يُعلَم أنّ قول الصحابة: "ما شاء الله وشئت" لا يُعابون به، فلا يجوز لأحد أن يأتي اليوم ويقول: الصحابة كانوا يقولون الشرك الأصغر! لأنهم لم يكونوا قد نُهوا عنه، ولم يُعلَم حكمه؛ حتى نهى عنه النبي صلى اله عليه وسلم، وإنّا على يقين أنّ الصحابة لما نُهوا عن هذا انتهوا، ولم يعودوا إلى قول هذا القول.

[فِيهِ مَسَائِلُ: الْأُولَى: مَعْرِفَةُ الْيَهُودِ بِالشِّرْكِ الْأَصْغَرِ]

معرفة اليهود والنصارى بالشرك الأصغر، اليهود في الحديث الأوّل وفي حديث الثاني حديث الطفيل، والنصارى في الحديث الثاني حديث الطفيل، يعرفون الشرك الأصغر مع ما عندهم من تحريف في الكتاب.

ومن الأسف؛ أنّ بعض المسلمين الذين حفظ الله لهم كتابهم وسنة نبيهم صلى الله عليه وسلم؛ لا يَعرفون الشرك الأكبر، بل يَتقرَّبون إلى الله بالشرك

الأكبر، ويحبون المشركين، ويُبغِضون الموحِّدين، ويَسبون الموحِّدين. بعض من ينتسبون إلى الإسلام لا يعرفون الشرك الأكبر، فيأتي الواحد منهم مع فقره ينذر أن يذبح لصاحب القبر بقرة، وربما ما أكل أطفاله لحم البقر إلا في النادر، ليس عنده نقود وينذر لصاحب القبر أن يذبح بقرة، وإذا استطاع أن يأتي بالبقرة وذبحها عند القبر ينشرح صدره! وهذا من الشرك الأكبر، ولكنهم لا يَعلمون، وقُطَّاع الطرق كُثُر؛ يُبغِّضون إليهم التوحيد، ويحببونهم في الشرك والعياذ بالله، فضلًا عن الشرك الأصغر.

فاليهود أعلم بالتوحيد وما يضاده من بعض المسلمين؛ لا من جهة ما في الإسلام ولكن من جهة الجهل الذي خيَّم على بعض المسلمين، فبعض المسلمين لا يقرؤون القرآن ولا يسمعون القرآن إلا في العزاء، إذا سمعوا القرآن في بيت، قالوا: من الذي مات؟ سبحان الله! كلام الله إذا سُمِعَ في بيت يدلُّ على أنه هناك مصيبة وميت مات! لأنّ كثيرًا من المسلمين أصبحوا لا يقرؤون القرآن، وإذا قرؤوا القرآن يقرؤونه للبركة فقط، ولكن لا يقرؤونه ليتعلَّموا وليتفقَّهوا وليرجعوا ويتعظوا، ولذلك الواحد منهم يقرأ السورة حتى ينتهي منها ما يستفيد منها شيئًا غير القراءة، فضلًا عن الحديث، فكثير من المسلمين لا يعتنون بأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا الجهل جعل للشيطان

مدخلًا على قلوب بعض المسلمين، وأعانه على ذلك أقوامٌ يتكسَّبون من أموال المسلمين بهذا الشرك الذي يدعون إليه، والعياذ بالله.

[الثَّانِيَةُ: فَهْمُ الْإِنْسَانِ إِذَا كَانَ لَهُ هَوًى]

أي: أنّ صاحب الهوى قد يَفهم الحق، ويَعرف الحق، ويقول الحق، ويُرشد إلى الحق، لكن له غرضٌ فاسِد يريد أن يصل إليه غير بيان الحق، فهؤلاء اليهود فتَّشوا في مقولات المسلمين وعرفوا الحق؛ وهو أنّ هذه الجملة: "ما شاء الله وشاء ومحمد" شرك، وفهموا هذا مع أنهم أصحاب هوى، وأشرنا سابقًا أنّ الحق يُقبل ولو كان من صاحب هوى، ولكن لا يُطلب الحق إلا من صاحب حق.

[الثَّالِثَةُ: قَوْلُهُ صلى الله عليه وسلم: «أَجَعَلْتَنِي لِلَّهِ نِدًّا؟!» فَكَيْفَ بِمَنْ قَالَ: يَا أَكْرَمَ الْخَلْقِ مَا لِي مَنْ أَلُوذُ بِهِ سِوَاكَ. وَالْبَيْتَيْنِ بَعْدَهُ؟]

قوله صلى الله عليه وسلم: «أجعلتني لله ندًّا»، «أجعلتني لله عدلًا»، «جعلت لله ندًّا»، لهذا الرجل الذي قال هذه المقولة: "ما شاء الله وشئت"، مع أنّ الإنسان له مشيئة؛ لكن لمّا سوَّى بين مشيئة الله ومشيئة المخلوق الضعيف؛ أنكر عليه النبي صلى الله عليه وسلم. وقد تقدَّم أنّ النبي صلى الله عليه وسلم حمى حمى التوحيد، وكان ينهى عن الغلو نهيًا شديدًا، فقال: «قل: ما شاء الله وحده»، فكيف بمَن غلا غلوًّا فاحشًا فجعل ما لله لعبدٍ من عباد الله؟! فقال هذه

الأبيات، وهي من قصيدة البُردة، لمحمد بن سعيد بن حماد الصنهاجي، المعروف بالبوصيري، وقد توفي سنة ست وتسعين وستمائة من الهجرة، كتب قصيدة البردة وفيها قوله –والعياذ بالله–:

يا أكرمَ الخلق ما لي من ألوذُ به   سواك عند حلولِ الحادث العَمم

إن لم يكن في معادي آخذًا بيدي   فضلًا وإلا فقُلْ يا زَلَّة القدم

ولن يضيق رسولَ الله جاهُك بي   إذا الكريم تجلَّى باسم منتقم

فإنّ من جودك الدنيا وضَرَّتها   ومن علومك عِلم اللوح والقلم

هذه الأبيات التي أشار إليها الشيخ.

فهذه الأبيات جعل فيها قائلها ما لله لرسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى أنه لو قال: يا خالق الخَلق؛ لأحسن، لو جعل هذا لله لكان حسنًا، لكنه جعل هذا لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولا شك أنّ هذا الغلو يُبغضه رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقينًا، سبحان الله! رجل يقول له: ما شاء الله وشئت، فيقول: «أجعلتني لله ندًّا؟!»، فكيف لو جاءه قائل فقال:

يا أكرمَ الخلق ما لي من ألوذُ به   سواك عند حلولِ الحادث العَمم

إن لم يكن في معادي آخذًا بيدي   فضلًا وإلا فقُلْ يا زَلَّة القدم

ولن يضيق رسولَ الله جاهُك بي   إذا الكريم تجلَّى باسم منتقم

فإنّ من جودك الدنيا وضَرَّتها   ومن علومك عِلم اللوح والقلم

لا شك أنّ هذا ينهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم، فإنه من الشرك الذي قضى النبي صلى الله عليه وسلم عمره من بداية بعثته إلى أن مات ينهى عنه.

والواجب على المسلمين ترك هذه القصيدة.

ومن أسف؛ أنّ بعض المسلمين يَتغنَّون بهذه القصيدة كل سنة فيما يسمى بالمولد، ويذكرون هذه الأبيات الشركية والعياذ بالله!

ولو تجرَّد الإنسان من الهوى، ومن الأُلفة لهذا الشيء لظهر له –من غير أن يكون عالمًا– ما في هذه الأبيات من شرك ومن غلو فاحش، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم ينهى عن الغلو.

[الرَّابِعَةُ: أَنَّ هَذَا لَيْسَ مِنَ الشِّرْكِ الْأَكْبَرِ. لِقَوْلِهِ: يَمْنَعُنِي كَذَا وَكَذَا]

يعني: من الشرك الأصغر؛ لأنه لو كان من الشرك الأكبر لنهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم فورًا، فلمّا منعه الحياء وتأخَّر الوحي فيه عَلِمْنَا أنه ليس من الشرك الأكبر بل من الشرك الأصغر.

[الْخَامِسَةُ: أَنَّ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةَ مِنْ أَقْسَامِ الْوَحْيِ]

لأنّ النبي صلى الله عليه وسلم رتَّب عليها، فنهاهم، بعد أن كان يمنعه الحياء من نهيه عن هذه الجملة.

[السَّادِسَةُ: أَنَّهَا قَدْ تَكُونُ سَبَبًا لِشَرْعِ بَعْضِ الْأَحْكَامِ]

رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم وحي، فإذا أخبرنا النبي صلى الله عليه وسلم عن رؤية رآها فهذا وحي نؤمن به ونعتقده، وإن كان في الأحكام عَمِلْنا به، وأمّا رؤيا غيره فقد تكون سببًا في بعض الأحكام وذلك في زمن النبي صلى الله عليه وسلم؛ كالرؤية في الأذان مثلًا، فالرؤيا في الأذان كانت سببًا لمشروعية الأذان، ولكنّ رؤيا غير النبي صلى الله عليه وسلم تكون سببًا لبعض الأحكام في زمن النبي صلى الله عليه وسلم.

أمّا بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم؛ فلا تكون الرؤيا سببًا لشرع شيء من الأحكام، أبدًا، بل إذا رأى الإنسان رؤيا وكان فيها ما يخالف شرع الله، أو كان فيها أمر بعبادة لم تكن في زمن النبي صلى الله عليه وسلم؛ عَلِمْنا يقينًا أنها من الشيطان وليست رؤيا؛ لأنّ الشيطان هو الذي يأمرنا بخلاف شرع الله عز وجل.

بعض الناس يأتي ويقول: أنا رأيت في المنام مَن يقول لي: اقرأ سورة كذا بعد العصر كل يوم! حتى بعضهم يأتينا يقول: أنا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لي: إني أحبك، فاقرأ سورة الزلزلة بعد العصر أو بعد المغرب كل يوم! إذا طلبنا منه أن يَصِف النبي صلى الله عليه وسلم ما يستطيع، وبعضهم يقول: مثل النور، ويقولون: الذي رأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فقد رآه، نعم هذا صحيح، لكن بشرط أن يأتي بوصْفه صلى الله عليه وسلم. بعض

الناس يأتي ويقول: أنا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام، فيقال له: كيف؟ فيقول: طويل، نقول له: لا ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأنه لا بد أن يأتي بوصْفه، فقد يأتي الشيطان ويزعم أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن لا يستطيع أن يتمثَّل به، فلا يمكن أن يأتي على وصْف الرسول صلى الله عليه وسلم، فإذا جاء وأمر الإنسان بخلاف شرع الله وقال: لا تَصْم هذه السنة، عنك إجازة من الصوم، الناس يصومون رمضان لكن أنت عبد ولي عندك راحة من الصوم فلا تَصُمْ هذا العام! هذا علمنا مباشرة أنها من الشيطان. ولو أمر بعبادة لم تكن في زمن النبي صلى الله عليه وسلم؛ نعلم مباشرة أنها من الشيطان.

أمّا الرؤية الصالحة يراها المؤمن لنفسه أو يرها لغيره؛ فهي من المبشِّرات، يستبشر بها الإنسان، ولا يَغتر بها.

أمّا بناء الأحكام على الرؤى، مثل: أن تقول: الشيخ الفلاني رأى أنّ مَن صلى كذا، والشيخ الفلاني رأى أنّ مَن خرج يدعو أربعين يومًا أنه يحصل له كذا، هذه الرؤى لا يُبنى عليها أحكام مهما كان الرائي لها، وإنما الرؤية الصالحة بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم من المبشِّرات.

الدرس الواحد والستون: شرح بَابٌ مَنْ سَبَّ الدَّهْرَ فَقَدْ آذَى اللَّهَ

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَن يهدي الله فلا مضلَّ له، ومَن يُضلل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء: ١]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: ٧١]

أمّا بعد:

فإنّ أحسن الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكلّ محدَثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النار.

درسنا في شرح كتاب التوحيد، والتوحيد علم لابد أن يَتعلَّمه كل مسلم؛ لأنه حق الله عز وجل، ومَن لم يتعلَّم التوحيد يوشك أن يقع في ضده؛ كما نرى في كثير ممن ينتسبون إلى الإسلام؛ هم يحبون التوحيد لكنهم لم يَتعلَّموا تفاصيل التوحيد؛ فوقعوا في كثير من الشرك وهم يظنون أنهم بهذا يُرضون الله عز وجل.

وكتاب التوحيد لا يستغني عنه مسلم؛ ففيه الخير العظيم، وفيه التوحيد الذي هو حق الله عز وجل، الذي لا يجوز أن يُصرَف لغير الله سبحانه وتعالى.

وقد تبيَّن لنا في مجلس الأمس في شرح باب (قول: ما شاء الله وشئت)، أنّ هذه الجملة قد نهى عنها النبي صلى الله عليه وسلم نهيًا صحيحًا صريحًا، فهي حرام بنهي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنّ الأدلة الصحيحة دلت على أنها من الشرك بالله، وأنّ اليهود والنصارى كانوا يَعلمون أنّ هذه الجملة وأنّ الحلف بالمخلوقات من الشرك بالله عز وجل، ولعل هذا مما جاءهم من شريعة موسى عليه السلام وشريعة عيسى عليه السلام مما لم يدخله التحريف، فكانت اليهود والنصارى يعلمون أنّ قول: "ما شاء الله وشئت" من الشرك، وأنّ الحلف بالمخلوقات مهما عَظُمت من الشرك بالله عز وجل.

وتبيَّن لنا أنّ هذا الشرك هو الشرك الأصغر، فمَن قال: "ما شاء الله وشئت" فقد وقع في الشرك الأصغر؛ ما لم يَعتقد أنّ مشيئة المخلوق تساوي مشيئة الله،

فإن اعتقد بقلبه أنّ مشيئة المخلوق مساوية لمشيئة الله عز وجل، أو اعتقد أنّ مشيئة الله لا تقع إلا إذا وقعت مشيئة المخلوق؛ فهذا شرك أكبر، والعياذ بالله.

وتبيَّن لنا أنّ إضافة المشيِّة إلى الخلوق الحي فيما لا مشيئة للمخلوقين فيه من الشرك بالله عز وجل، وإضافة المشيئة إلى الأموات من الشرك بالله عز وجل، فمَن قال: ما شاء الله وشئت يا سيدي فلان، أو قال: ما شاء الله ثم شئت يا سيدي فلان، وهو ميت؛ فهذا من الشرك بالله عز وجل.

ومن قال: ما شاء الله ثم شئت يا سيدي فلان أن أُرْزَق ولدًا أو نحو هذا؛ فإنه من الشرك بالله عز وجل، فإنّ هذا لا مشيئة فيه إلا لله سبحانه وتعالى، والأموات لا مشيئة لهم.

وعَلِمْنا أنّ المؤمن الموحِّد والموفَّق والمتأدِّب مع الله عز وجل يجتنب سُبل المشركين، فإذا أراد أن يقول قال: ما شاء الله ثم شئت، ومن كمال الأدب أن يجعل المشيئة لله وحده سبحانه وتعالى فيقول: ما شاء الله وحده، هكذا علَّمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنا لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم لقابِلون، ولتعليمه لقابِلون مسلِّمون، هكذا يكون المؤمن إذا جاءه قول حبيبه صلى الله عليه وسلم يرضى ويُسلِّم تسليمًا، ويأبى كل ما يضاد ذلك؛ مهما زخرفه المزخرفون، ومهما حاول أن يحسِّنه البلغاء، فإنّ قول النبي صلى الله عليه وسلم وحي يوحي، وهو أزكى من أقوال البشر، فالمؤمن يفرح بقول النبي

صلى اله عليه وسلم، ويَقبل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويُسلِّم تسليمًا.

[بَابٌ مَنْ سَبَّ الدَّهْرَ فَقَدْ آذَى اللهَ]

لازلنا مع بيان أنّ الأدب مع الله عز وجل من كمال التوحيد، وأنّ تأدُّب المؤمن مع ربه سبحانه وتعالى في الألفاظ من كمال توحيده لربه سبحانه وتعالى، فهذا الباب متعلِّق بهذا.

قال: (باب مَن سبَّ) السب: هو الشتم، وأعلاها: اللعن، ومن السَّب: نسبة النقائص إلى الشيء، فمَن نَسَبَ النقيصة إلى الشيء فقد سبَّه. (الدَّهر) الدهر: هو الزمان؛ كالليل، والنهار، واليوم، والأسبوع، والشهر، والسنة، والعمر. ويُطلَق الدهر أيضًا على الأبد، كما يُطلَق على الزمن الطويل؛ كعمر الإنسان، وعمر القوم، ومنه: صيام الدهر، "فصيام الدهر" أي: صيام العمر، وصيام داود نصف الدهر؛ يعني: نصف العمر. والمقصود بالدهر هنا: الزمان؛ سواء كان قليلًا أو كان قليلًا.

(باب من سب الدهر) أي: شتم الدهر، أو لعن الدهر، أو أضاف النقيصة إلى الدهر، مثل قول بعض الناس –والعياذ بالله–: لعن الله اليوم الذي عرفتك فيه، أو لعن الله اليوم الذي عرَّفني بك، أو نحو ذلك. (فَقَدْ آذَى اللهَ) يقول العلماء: الأذى: هو ما خفَّ أثره وضَعُف، وأسبابه كثيرة؛ فهو يحصل بالسب،

فمَن سبك فقد آذاك؛ وإن لم يضرك فإنه قد آذاك، ويحصل بالتنقُّص، فمثلًا: مَن قال لك: أنت كسول عن طلب العلم، فقد آذاك، وإن لم يحصل لك بذلك ضرر. وكذلك يحصل بالفعل، فلو أنّ إنسانًا قلب يده أمامك كالمتنقِّص لك فإنه يؤذيك، مع أنّ أثره فيك ضعيف، وهو دون الضرر.

ولذلك؛ يحصل الأذى من المخلوق لله عز وجل، ولا يحصل الضرر من المخلوق لله عز وجل، ويدل على ذلك: كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أمّا كتاب الله؛ قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا) (الأحزاب: ٥٧)، فهناك مَن يؤذي الله، ويؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومَن آذى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد آذى الله سبحانه وتعالى.

وفي السنة؛ منها ما معنا هنا في الحديث الذي يرويه النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه يقول: «يؤذيني ابن آدم».

إذن؛ الأذى من ابن آدم لله عز وجل يحصل إمّا بقوله أو بفعله.

أمّا الضرر؛ فلا يضر مخلوق الله عز وجل الله أبدًا، كما قال الله عز وجل: (إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)(آل عمران: ١٧٧)، وكما في الحديث الذي يرويه النبي صلى الله عليه وسلم عن

ربه: «يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني»، فالمخلوق لا يضر الله عز وجل أبدًا.

أمّا الأذى فهو ثابت في الكتاب والسنة، وتأويل هذا لا دليل عليه.

وهذه الباب متعلِّق بنسبة المكروهات إلى الدهر. ونسبة المكروهات إلى الدهر أنواع:

النوع الأوّل: وصْف اليوم بالمكروه الذي وقع فيه. كأن تقول: هذا اليوم حرُّه شديد، هذا اليوم حرُّه متعِب، أو تقول عن اليوم الذي كثرت فيه المصائب عليك: هذا يوم شديد، فهذا وصْفٌ، وليس سبًّا، وهذا جائز.

فيجوز أن يُنسَب المكروه إلى اليوم على سبيل الوصف أو الخبر؛ من غير تنقُّص، ومن غير سبٍّ. كما قال الله عز وجل:(فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ) (القمر: ١٩)، فهذا وصْف لليوم لِمَا وقع فيه من العذاب. فإذا وَصَفَ الإنسان الزمن بوصْف لِمَا وقع فيه على سبيل الوصْف أو الخبرية من غير تنقُّص ولا سَبٍّ فهذا جائز.

النوع الثاني: نسبة المكروه إلى الدهر على أنّ الدهر هو الفاعل لذلك المكروه حقيقة. فهذا –والعياذ بالله– شرك أكبر أو كفر أكبر، وهو اعتقاد الدَّهرية أو الدُّهرية، وشيخنا الشيخ ابن عثيمين ذهب إلى أنّ الضم أصح، والمشهور في

الكتب هو بالفتح. الدهرية يعتقدون أنّ الدهر هو فاعل الأشياء، وهو فاعل المكروهات، وهذا من الكفر الأكبر، والعياذ بالله.

النوع الثالث: أن يَسب الدهر لوقوع المكروه فيه؛ لا لأنه فاعل له. وهذا حرام، وحقيقته أنه سب لله عز وجل؛ لأنّ الذي قدَّر المكروه وأجرى المكروه ليس اليوم ولا الأسبوع ولا الشهر وإنما الذي قدَّر المكروه وأجرى المكروه هو الله لحكمة عظيمة، فالله لا يفعل شيئًا إلا لحكمة، فالذي يسب اليوم إنما يسبُّه لوقوع المكروه فيه، فيكون حقيقة الأمر أنه سَبَّ الله، لكنّ هذا ليس كفرًا أكبر؛ وإنما هو كفر أصغر؛ لماذا؟ لأنه لم يَسبّ الله مباشرة، ولم يُرِدْ سب الله، ولم يَعتقد سب الله.

إذن؛ مَن سبَّ الله سبًّا مباشرًا بما يُعلَم أنه سَبٌّ؛ فهذا كفر أكبر مخرج من الملة.

ومَن سَبَّ الله لكن لا مباشرة؛ بحيث يَغلب على الظن أنّ السابَّ لا يَعلَم أنه يسبُّ الله عز وجل؛ فهذا كفر أصغر.

إذن؛ ما حكم سب الدهر؟ سب الدهر حرام، وهو من الكفر، فإن سب الدهر لأنّ المكروه وقع فيه؛ فهذا كفر أصغر، فإن عَلِمَ أنّ حقيقة سب الدهر هي سب الله عز وجل مع ذلك سب الدهر؛ فهذا كفر أكبر ؛ لأنه بهذا يسب الله وهو يَعلَم أنه يسب الله عز وجل. وهذا هو المراد بهذا الباب.

[وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: (وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ) الْآيَةِ]

ذكر الشيخ هذه الآية التي يخبر الله عز وجل فيها عن منكري البعث، وأغلب الكفار من غير أهل الكتاب ينكرون البعث، فالله عز وجل أخبر عنهم، فقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ لا حياة إلا حياتنا الدنيا، وهذا إنكار للآخرة وللبعث، وزَعْمٌ أنه لا توجد حياة آخرة.قالوا: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾!

-**قال بعض أهل العلم**: "نموت نحن ويحيا أولادنا"، يموت الآباء ويحيا الأولاد، ولمّا كان الأولاد حياةً لآبائهم -كما يقول العامّة اليوم: "ما مات مَن خلَّف"؛ لأنّ الولد يبقى يُذكِّر الناس بأبيه- قالوا: نموت نحن الآباء ونحيا بحياة أولادنا، ويحيا أولادنا، فكأنها حياة لهم. وهذا معنىً واضح جدًّا.

-**وقال بعض أهل العلم**: المعنى على الترتيب؛ فيكون المراد: نحيا ثم نموت ولا بعث. وهذا معنىً ذكره بعض السلف.

{وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ} أي: ما يهلكنا إلا طول العمر، فتطول أعمارنا فنَهلك، فالدهر هو الذي يقلِّب الأمور، فينسبون الحوادث إلى دورة الدهر، وأنّ الدهر هو الذي يَفعل هذا. {وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ} قطعًا، فيقينًا أنه لا علم عند دهريّ، ولا علم عند ملحِد، يقينًا لا علم عندهم. {إِنْ هُمْ إِلا يَظُنُّونَ}

"يظنون" هنا يعني: يَتوهَّمون، فإنه لا يوجد عندهم ما يسبب الظن، حتى ما يسبب الظن غير موجود، وإنما هو وَهْمٌ أوحاه الشيطان إليهم.

وهذه حقيقة كل مَن يخالف التوحيد؛ لا علم عنده، يقينًا، وإنما يعيش على أوهام وخرفات لا حقيقة لها.

فإن قال قائل: ما مناسبة الآية للباب؟ لماذا ذكر الشيخ الآية في هذا الباب مع أنّ الباب في سبِّ الدهر وهؤلاء يَنسِبون الأحداث إلى الدهر؟

الجواب: مناسبة الآية للباب من ثلاثة أوجه:

الوجه الأوّل: بيان أنّ مَن سبَّ الدهر ناسبًا الفعل إلى الدهر ومعتقدً أنّ الدهر هو الذي أنزل فيه المصيبة، فقد كفر كفرًا أكبر؛ لأنه موافِق لقول أولئك الكفار: {وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ}. كأن يقول: ما أمات ابني إلا هذا اليوم المشؤوم! وما احترقت سيارتي إلا بفعل هذا اليوم المشئوم! فمَن اعتقد أنّ الدهر هو الذي فعل؛ فهذا كفر أكبر.

إذن؛ من سب الدهر معتقدًا أنه هو الفاعل حقيقةً لذلك الأمر؛ فقد كفر كفرًا أكبر؛ بدلالة هذه الآية.

الوجه الثاني: أنّ مَن سب الدهر فقد وافَق الكفار في هذا الفعل؛ فإنّ من صنيع الكفار أنهم يسبون الدهر؛ بدلالة هذه الآية. يقول قائل: أين السبّ في هذه الآية؟! نقول: مَن اعتقد أنّ الدهر هو الذي يفعل الأمور ويقلِّب الأمور فلابد أن

يَسبّه؛ لماذا؟ لأنه ستقع أحداث مؤلمة فيه فيسبُّه. فكان من صنيع الكفار أنهم يسبون الدهر، فمَن سبَّ الدهر من المسلمين فقد وافَق الكفار في صنيعهم؛ وإن لم يكن كافرًا كفرًا أكبر؛ لأنه لا يَنسِب الفعل إلى الدهر وإنما يسبّ الدهر.

إذن؛ في الوجه الثاني: أنّ في الآية بيان أنّ من صنيع الكفار سب الدهر، فمَن سب الدهر من المسلمين وهو لا يَعتقد أنّ الدهر فاعل؛ فقد شابَه الكفار في السبِّ وإن لم يعتقد أنّ الدهر فاعل، فيكون بذلك فيه شعبة من كفر، يكون مرتكبًا للكفر الأصغر.

الوجه الثالث: بيان أنّ الدهر ليس من أسماء الله؛ دَفعًا لتوهُّم مَن قد يَتوهَّم من الحديث التالي أنّ الدهر من أسماء الله.

معلوم أنّ بعض أهل العلم أخذوا من هذا الحديث الذي سيأتي أنّ الدهر من أسماء الله، ومنهم ابن حزم –رحمه الله–، وهذا غلط، بل قال بعض أهل العلم: غلط فاحش، فإنّ الدهر ليس من أسماء الله عز وجل، ومما يدل على ذلك هذه الآية؛ فلو كان الدهر من أسماء الله لكان قولهم: {وَمَا يُهْلِكُنَا إِلا الدَّهْرُ} صحيحًا؛ لأنّ الدهر هو الله، من أسماء الله الدهر! لكنّ الله عابَهم على هذا، فدلّ ذلك على أنّ الدهر ليس من أسماء الله عز وجل.

إذن؛ شيخ الإسلام –رحمه الله– ذكر هذه الآية لثلاثة أوجه، الوجه الثالث: دفع تَوهّم أنّ الدهر من أسماء الله عز وجل، لأنّ من يسمع الحديث التالي قد

يتوهَّم أن الدهر من أسماء الله عز وجل، فإذا قدَّمنا الآية وفهمناها لا يَرِد علينا هذا الوهم، فإنّ الله عز وجل عابَهم على قولهم: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلا الدَّهْرُ﴾.

وبالمناسبة؛ ابن حزم وغيره من بعض العلماء الذين قالوا: إنّ الدهر من أسماء الله عز وجل، لا يعنون بالدهر الزمان، لا يعنون اليوم والنهار والشهر والسنة والأسبوع، لا، ولكن يعنون بالدهر: الأزل والقَدِم، ففسَّروا الدهر: بالأبد القديم، والأزل القديم.

لكن نقول: إنّ قول إنّ الدهر من أسماء الله قولٌ غير صحيح؛ بدلالة هذه الآية.

[وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ، أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ». وَفِي رِوَايَةٍ: «لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ؛ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الدَّهْرُ»]

قال: (وَفِي الصَّحِيحِ) أي: في الصحيحين: صحيح البخاري ومسلم. واللفظ المذكور هنا لمسلم. (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «قَالَ اللهُ تَعَالَى» فنبينا صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق يخبرنا أنّ ربنا سبحانه وتعالى قال هذا القول العظيم: «يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ»، وقد تقدّم معنى بيان معنى الأذى، «يَسُبُّ الدَّهْرَ» هذا من أذى ابن آدم لله عز وجل أنه يسب الدهر، فيقول: يا خيبة الدهر، أو: لعن الله الشهر، أو يقول: هذا شهر ملعون، هذا

يوم خبيث، على سبيل السب والتنقُّص. «وَأَنَا الدَّهْرُ» يقول الله: وأنا الدهر؛ يعني: وأنا مدبِّر الدهر، فالدهر زمان جامد لا يَفعل شيئًا؛ وإنما هو ظرف للأفعال، مَن الذي جعله ظرفًا للأفعال؟ الله عز وجل.

وقال بعض أهل العلم: المعنى: وأنا فاعل ما في الدهر، يعني: هم لماذا يسبون الدهر؟ للأفعال التي فيه؛ نزلت به مصيبة، أو نزل به بلاء، فالله عز وجل هو الفاعل؛ لأنه هو المقدِّر والمجري سبحانه وتعالى، وإن كان الشر ليس إليه؛ لأنّ فِعْله كلَّه عن حكمة تامّة.

وفي رواية: «وأنا الدهر بيدي الأمر» أي: أنّ الأمور كلها بيد الله، لا تجري إلا بقضائه وقدره؛ حلوها ومرُّها.

«وأنا الدهر أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ» فالذي يحدث في الليل والنهار فإنما الذي يجريه هو الله سبحانه وتعالى.

إذن؛ مَن سبَّ الدهر فحقيقة أمره أنه يسبُّ الله، لكنه لا يَكفُر بهذا؛ لأنه لا يسبّ الله بحسب علمه ومراده؛ وإن كان في الحقيقة يعود كلامه إلى سبِّ الله سبحانه وتعالى.

قال: (وَفِي رِوَايَةٍ:) عند مسلم «لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ» لا تسبوا الدهر مهما كان، ومهما حصل، « فِإنَّ اللهَ هُوَ الدَّهْرُ» يعني: أنّ الله عز وجل هو مقلِّب الدهر، وهو

الذي يجري الحلو والمُرّ، والخير والشر، فإن سَبَبْتَ الدهر لشر وقع فيه فقد سببتَ الله سبحانه وتعالى.

[فِيهِ مَسَائِلُ: الْأُولَى: النَّهْيُ عَنْ سَبِّ الدَّهْرِ]

لقوله صلى الله عليه وسلم: «لا تسبوا الدهر»، والنهي المطلَق يقتضي التحريم.

إذن؛ سب الدهر ونسبة النقائص إلى الليالي والأيام حرام. وهذا الحرام يتفاوت، فاللعن أشد من مجرَّد السبّ، والكل حرام.

[الثَّانِيَةُ: تَسْمِيَتُهُ آَذَى اللهَ]

إذن ارتقى، فوصل إلى درجة الكفر، ولكنه كفر أصغر؛ لأنّ السابّ هنا لا يريد سبّ الله عز وجل، بل اليقين أنه لو عَلِمَ أنه سبٌّ لله لَمَا سبَّ.

[الثَّالِثَةُ: التَّأَمُّلُ فِي قَوْلِهِ: «فَإِنَّ اللهَ هُوَ الدَّهْرُ»]

وأنّ هذه الجملة فيها بيان سبب كون سب الدهر أذىً لله عز وجل، وأنّ المراد أنّ الله هو مدبِّر الدهر، وأنّ الدهر ليس من أسماء الله.

[الرَّابِعَةُ: أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ سَابًّا، وَلَوْ لَمْ يَقْصِدْهُ بِقَلْبِهِ]

وهذه قضية مهمة جدًّا، سب الله عز وجل يكون النظر فيه إلى حقيقة، فمَن سب الله عز وجل بما يُعلَم أنه سبٌّ فقد كفر، حتى لو جاءنا وقال: أنا ما قصدتُ أن أسبّ الله، أنا كنت غضبان! نعم لو غضب غضبًا حتى أصبح مثل المجنون

ولكن دون ذلك ما نقبل أن يقول: أنا كنت غضبان. بعض الناس –والعياذ بالله– يلعن الله ويلعن ربَّ ولده في اليوم عشرين مرة، ثم يأتي بعض الناس يقولون: ما قصد! شأن الله ومقام ربنا سبحانه وتعالى أعظم من أن نلتمَّس للناس الأعذار الميتة.

مَن سب الله بما يُعلَم أنه سبّ فقد كفر. والمرجِع في السب: العُرف، فهناك أمور يتَّفق العقلاء أنها سب، وهناك أمور قد تكون في مكان سبًّا وفي مكان آخر ليست سبًّا، فيُرجَع فيها إلى العُرف.

هنا الحَظْ؛ أنّ الذي سبَّ الدهر لم يَقصد أن يسبّ الله –يقينًا– ولكنّ الله عز وجل قال: «يؤذيني ابن آدم»، والنبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا تسبوا الدهر»؛ فدلّ ذلك على أنه سبٌّ ولو لم يَقصد، لكن لمّا لم يكن السبُّ مباشرة لله عز وجل كان كفرًا أصغر.

أمّا السب المباشر لله؛ فهو كفر أكبر مخرِج من الملة لا يُتوقَّف فيه ولا يُتردَّد فيه ما دام أنّ المتكلم عاقل –ليس بسكران ولا مجنون– ويَعلَم أنّ ما قاله سبٌّ.

تابع الدرس الواحد والستون: شرح بَابٌ التَّسَمِّي بِقَاضِي الْقُضَاةِ وَنَحْوِهِ

[بَابٌ التَّسَمِّي بِقَاضِي الْقُضَاةِ وَنَحْوِهِ]

لا زلنا مع قسم الأمور التي فيها كمال التوحيد وتعظيم الرب، وفي ضدِّها منافاة لكمال التوحيد. فهذا الباب في التسمِّي بأسماءَ تنافي الآدب مع الله سبحانه وتعالى، ولذلك قال الشيخ: (باب التسمي بقاضي القضاة ونحوه) أي: ما حُكم التسمِّي بقاضي القضاة ونحوه؛ سواء تسمَّى به هو، أو سمّاه غيره ورضي؟ يعني: تسمَّى هو بقاضي القضاة، أو سمّاه الرئيس بهذا ورضي بهذا الاسم، ما حكمه؟

الجواب: يؤخَذ من الأدلة، وقد دلَّت الأدلة على أنه حرام وينافي كمال التوحيد، كما يتبيَّن لنا إن شاء الله عز وجل. وذلك: لأنّ هذه الأسماء فيها وَصْف المخلوق بالكمال التام في فِعْلٍ كماله لله عز وجل وليس للمخلوق. عندما يقال: "قاضي القضاة" معناه: أكمل القضاة، رئيس القضاة جميعًا، ومَن يمضي حكمه على جميع القضاة! والمعلوم أنّ الله عز وجل يقضي بين الخلائق، فإذا تسمَّى الإنسان بقاضي القضاة فمعنى ذلك أنه رئيس وكبير القضاة مطلقًا، وفي هذا إساءة أدب مع الله عز وجل؛ هذا أوّلًا. لماذا إساءة أدب مع الله؟ لأنّ الله يقضي بين العباد، فهذا اللفظ "قاضي القضاة" فيه سوء أدب مع الله عز وجل.

ومن وجه آخر: أنه كَذِبٌ، فلا يمكن لإنسان أن يكون قاضي القضاة كلِّهم ولو كانوا من البشر فقط، لوقلنا "قاضي القضاة" يُقصد به من البشر فقط، فلا يمكن أن يكون إنسان قاضي القضاة جميعًا.

وكذلك ملك الأملاك، أو ملك الملوك، فإنّ الله عز وجل ملك يوم الدين، الله ملك سبحانه وتعالى، فعندما يسمَّى إنسان بـ"ملك الملوك" فهذا إساءة أدب مع الله عز وجل؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى ملك، فإذا سمَّيت أحدًا أنه "ملك الملوك" فقد أسأت الآدب مع الله سبحانه وتعالى.

ومن وجه آخر: فإنّ ملك المخلوق ناقص مهما علا، فملكك لسيارتك ناقص، وملكك لبيتك ناقص، فقد يذهب منك فجأة ولا يبقى شيء، فالملك على بلاده مهما كان فملكه ناقص، قد يخرج عليه أحد، وقد لا يطيعه أحد، وإن انتظَم له فإنه سيموت وسيتركه، إذن ملك الإنسان ناقص، فكيف يقالك ملك الأملاك؟! لا شك أنه كَذِبٌ، فإنه لا يكون ملك الأملاك.

هذا إذا أُطْلِق فقيل: قاضي القضاة، أو شاهان شاه –شاهان: الملوك، شاه: ملك، أي: ملك الملوك؛ بلغة الفرس–.

أمّا إذا قُيِّد؛ فقيل: قاضي قضاة مصر، قاضي قضاة الأردن، قاضي قضاة العراق، قاضي قضاة العرب، قاضي قضاة الترك، قاضي قضاة مكة، فقيُّد بِقَيْد يَحول دون عمومه؛ فهذا ليس فيه إساءة أدب مع الله عز وجل؛ تنتفي إساءة

الأدب مع الله عز وجل؛ لأنه قُيِّد، فإن كان صدقًا فهو جائز –كما نَصَّ على ذلك الشيخ ابن باز والشيخ ابن عثيمين– ولكن الأفضل: تركه، وأن يُستغنى عنه.

يقول العلماء: إنما ابتُلي بهذه الألقاب أهل المشرق، أمّا أهل المغرب فقد سَلِموا؛ لأنهم يقولون: قاضي الجماعة، وقاضي المؤمنين، ونحو ذلك.

إذن؛ إذا أضيف فليس فيه سوء أدب مع الله، وهو جائز إذا كان صادقًا، إذا كان هذا الرجل كبير القضاة في الأردن، أو كبير القضاة في مصر، وترجع إليه أحكام القضاء في هذا البلد؛ فإنه جائز، ولكنّ الأولى الاستغناء عنه بغيره، فيقال: رئيس قضاة البلد، أو قاضي الجماعة، أو يسمى قاضي تمييز، المهم يسمَّى بأسماء بعيدة عن هذه الألفاظ، وإن كان ذلك جائزًا ما دام أنه مقيَّد، كما نصَّ على ذلك كما قلنا شيخنا الشيخ ابن باز، وشيخنا الشيخ ابن عثيمين، رحم الله الجميع.

وأَلْحَق العلماء بهذا التسمِّي بما لا يكون إلا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، كالتسمِّي بسيِّد الناس، فيقال: هذا سيد الناس، أو سيد الآدميين، أو سيد ولد آدم، فإنّ في هذا سوء أدبٍ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل ومع الرسل أيضًا؛ لأنك إذا قلت: "سيد الناس"؛ أليس محمدًا صلى الله عليه وسلم من الناس؟ فتكون أسأت الأدب مع الرسول صلى الله عليه وسلم وإن لم تقصد، لكن هذا سوء أدب لفظي، أليس الرسل جميعًا من بني آدام؟ بلى،

فتكون قد أسأت الأدب مع الرسل لفظًا، وإن لم تَقصد. فمن هنا قال العلماء: إنّ هذا يُلحَق بهذه الألفاظ فيُمنَع منه.

[فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ –رضي الله عنه– عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «إِنَّ أَخْنَعَ اِسْمٍ عِنْدَ اللهِ رَجُلٌ تَسَمَّى مَلَكَ الْأَمْلَاكِ، لَا مَالِكَ إِلَّا اللهَ». قَالَ سُفْيَانُ: مِثْلُ شَاهَانْ شَاهْ. وَفِي رِوَايَةٍ: «أَغْيَظُ رَجُلٍ عَلَى اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَخْبَثُهُ». قَوْلُهُ: «أَخْنَعُ» يَعْنِي: أَوْضَعَ]

(فِي الصَّحِيحِ) أي: في صحيح البخاري ومسلم، واللفظ بتمامه لمسلم.

(عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ –رضي الله عنه– عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «إِنَّ أَخْنَعَ اِسْمٍ عِنْدَ اللهِ» أخنع اسم معناه: أوضع؛ كما فسَّره أبو عمر الشيباني، الذي رواه عنه الإمام أحمد، ورواه مسلم في الصحيح.

وقال بعض العلماء: معناه: أشد الأسماء صَغارًا عند الله.

وقريبٌ منه؛ قول بعضهم معناه: أذل الأسماء عند الله، ولازِم هذا: ذلَّة صاحبه، وهذا من المعاملة بنقيض القصد الفاسد، الذي يتسمَّى بهذا الاسم يريد أن يَرفع نفسه وأن يُعِزَّ نفسه فيعامله الله بنقيض قصده؛ فيُذلُّه الله، فيكون ذليلًا.

(إنّ أخنع اسم رَجُلٌ» ويدخل في ذلك المرأة كذلك إذا تسمَّت بمثله. «تَسَمَّى مَلَكَ الْأَمْلَاكِ» قال العلماء: تسمَّى بنفسه، أو سمَّاه غيره وقبِلَه ورضي به.

«لَا مَالِكَ إِلَّا اللهَ» مهما كان ملك الإنسان فمِلْكه ناقص، الذي لا يَتحكَّم في نفسه كيف يملك ملكًا تامًّا؟!

ولذلك؛ يُذكَر أنّ رجلًا دخل على أمير فقال له: عظني. فقال له: لو أكلتَ لقمة فغصَّت في حلقك، أتشتري ذلك بنصف ملكك –أن تسوغ وتذهب– ؟ قال: نعم. قال: فإن بقيتْ في بطنك ولم تَخرج أتشتري خروجها بنصف ملكك؟ قال: نعم أشتري بنصف ملكي. فقال: ملكٌ لا يساوي لقمة كيف يُغتَر به؟!

فملك الإنسان مهما كان ناقص، لا مالك إلا الله سبحانه وتعالى، فالملك الحقيقي التام إنما هو لربنا سبحانه وتعالى.

(قَالَ سُفْيَانُ:) ابن عيينة، وهو أحد رواة الحديث (مِثْلُ شَاهَانِ شَاهٍ)، وبعضهم يذكرها بالتسكين (شاهانْ شاهْ)، ومعناها: ملك الأملاك، والمقصود: أنّ كل ما أخذ معنى ما وَرَدَ يأخذ حكمه، مثل: قاضي القضاة، وشاهان شاه، وغير ذلك.

(وَفِي رِوَايَةٍ:) وهذه الرواية عند مسلم «أَغْيَظُ رَجُلٍ عَلَى اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَخْبَثُهُ» ولم يُكمل الشيخ الرواية، قال: (أَغْيَظُ رَجُلٍ عَلَى اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَخْبَثُهُ وأَغْيَظُه عليه: رَجُلٌ كان يسمَّى ملك الأملاك، لا ملك إلا الله» هذه رواية مسلم.

وفي رواية عن ابن عباس: أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: «اشتد غضب الله على مَن زعم أنه ملك الأملاك» رواه الطبراني في الكبير، وصحَّحه الألباني.

واشتداد الغضب هو معنى أَغْيَظ، فهذه شدَّة الغيظ وشدَّة الغضب. وهذا يدلُّ على شدَّة حُرْمة هذا الاسم؛ لأنه ينافي الأدب مع الله، بل فيه إساءة أدب مع الله، كما أنّ فيه كذبًا؛ لأنه لا يطابق الواقع.

[فِيهِ مَسَائِلُ: الْأُولَى: النَّهْيُ عَنِ التَّسَمِّي بِمَلِكِ الْأَمْلَاكِ]

وهذا جاء في الحديث الصحيح صريحًا.

[الثَّانِيَةُ: أَنَّ مَا فِي مَعْنَاهُ مِثْلُهُ كَمَا قَالَ سُفْيَانُ]

ويجمع ذلك كلَّه: ما قدَّمناه في أوّل كلامنا، كلُّ اسم فيه وَصْفُ المخلوق بالكمال التامّ في فِعْلٍ كمالُه لله عز وجل يَدخل في هذا، كملك الأملاك، شاهان شاه، وقاضي القضاة، وغير ذلك.

[الثَّالِثَةُ: التَّفَطُّنُ لِلتَّغْلِيظِ فِي هَذَا وَنَحْوِهِ؛ مَعَ الْقَطْعِ بِأَنَّ الْقَلْبَ لَمْ يَقْصِدْ مَعْنَاهُ]

نعم، فقد جاء هذا التغليظ العظيم «أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه»، وهذا تغليظ شديد، فإنه يلقى الله وقد اشتد غضب الله عز وجل عليه في يوم تَذْهَلُ فيه كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى، في ذلك اليوم العظيم يلقى الله وقد اشتدَّ غضبه عليه، وهو أغيَظ رجل عند الله عز وجل وأخبث رجل عند الله يوم القيامة، وهذا

تغليظ شديد، مع القطع أنّ القلب لم يَقصد ما فيه من سوء؛ فكيف بمَن يقصد؟! لا شك أنّ الأمر أغلظ.

والشيخ هنا يريد أن يشير إلى أنّ من الناس مَن يسيئ الأدب مع الله ويَقصد هذا، فيَغلو في مخلوق حتى يقِلَّ تعظيم الخالق في قلبه.

ومن عقوبة الله لمَن غلا في المخلوقين: أن يَضعُف تعظيم الله في قلبه، من عقوبة الله لمَن يعظِّم المخلوقين تعظيمًا فيه غلوٌّ أنه كلّما غلا في المخلوق ضعف تعظيم الله في قلبه، فلا يجتمع في قلبٍ الغلو في مخلوق وكمال تعظيم الله سبحانه وتعالى.

فمن الناس مَن إذا سأل الله الولد أو الرزق أوالشفاء لا يوقِن الإجابة، عنده شك! لكن إذا ذهب إلى مقبور وقال: يا سيدي البرعي، يا سيدي الحسين، يا سيدي الشذلي؛ يتيقن من الإجابة! غلا في المخلوق حتى جعل له ما لله، وضَعُفَ تعظيم الله في قلبه.

ومن الناس مَن إذا قلتَ له: تعالَ احلف بالله عند الكعبة، يقول: طيب، لكن إذا قيل له: تعالَ احلف بسيدي فلان –ولو كان بعيدًا عنه– يقول: لا، ما يمكن أن يحلف بسيدي فلان ولو كان بينهما آلاف الكيلو مترات، أمّا إذا قيل له: تعالَ احلف عند القبر – أو عند التربة الشريفة كما يقولون– لا يمكن أن يحلف كاذبًا. كما يقولون: "إذا قيل له احلف بالله قال : جاءك الفرج"، وإذا قيل

: احلف بمقام سيدي فلان، أو بتربة سيدي فلان، أو برأس سيدي فلان، ما يحلف أبدًا كذبًا!

فهؤلاء مع فِعْلِ هذا الشرك الأكبر لا يتأدَّبون مع الله عز وجل. ولذلك تجد أحدهم يغضب إذا سُلِبَ حق من سيده وهو ليس له، مثل: حق أن يَرْزق، لو جاء موحِّد فقال: ليس هناك مخلوق يرزق، فالرزاق هو الله، يغضبون ويقومون عليه و يجورون عليه، لكن إذا جُرِئ على حق الله لا تجد في قلوبهم غضبًا ولا غيرة على حق الله سبحانه وتعالى.

نقول هذا لنحمد الله على العافية، ولنَعلَم عِظَمَ نعمة الله عز وجل علينا بالتوحيد، وحتى يَعلَم المريض حقيقة مرضه. والله والله! ما نريد أن يموت مَن انتسب إلى الإسلام على غير التوحيد، ولذلك –والله!– نحزن إذا عَلِمْنَا أنّ إنسانًا يَنتسب إلى الإسلام يَصرِف ما لله لغير الله، ونجتهد في نصحه، ونرسل الكلام، ونتكلَّم ونبيِّن، أعني معاشر الموحِّدين الذين عرفوا التوحيد.

يا مَن يقرأ هذا الكلام تجرَّد لله، اعلم أنك غدًا ستقف بين يدي الله، ستُحشَر وتُبعَث وتقف بين يدي الله وحيدًا؛ فتجرَّد لله، لا يمنعنك كلام فلان وفلان، تجرَّد وانظر إلى الحق؛ فإنّ الحق أبلج. وأنقذ نفسك إذا وجدتَ نفسك في أمر يخالف قول الله أو يخالف قول رسول الله صلى الله عليه وسلم. وتأدَّب مع الله في عقيدتك، وفي اعتقادك، وفي فعلك، وفي ألفاظك.

[الرَّابِعَةُ: التَّفَطُّنُ أَنَّ هَذَا لِأَجْلِ اللهِ سُبْحَانَهُ]

إنما هذا للتأدُّب مع الله، وإجلال الله الي هو ذو الجلال والإكرام. فهذا التغليظ إنما هو لحفظ الأدب مع الله سبحانه وتعالى. فالمؤمن يجب عليه أن يَستصحب الأدب مع الله دائمًا، في البيت، وفي الطريق، وفي المسجد، يكون متأدِّبًا مع ربه سبحانه وتعالى.

الدرس الثاني والستون: شرح بَابٌ: اِحْتِرَامُ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَغْيِيرُ الِاسْمِ لِأَجْلِ ذَلِكَ

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَن يهدي الله فلا مضلَّ له، ومَن يُضلل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء: ١]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: ٧١]

أمّا بعد:

فإنّ أحسن الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكلّ محدَثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النار.

فنواصل شرحنا في كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد. وقد تبيَّن لنا في درس الأمس أنّ الأدب مع الله في الألفاظ من كمال التوحيد، ومن صفات المؤمنين، وأنّ المؤمن يجب عليه أن يجتنب ما ينافي الأدب مع الله عز وجل في ألفاظه؛ ومن ذلك: أنه يَحرُم على المسلم أن يَسبَّ الدهر؛ لأنّ سب الدهر يؤذي الله عز وجل؛ لأنّ مَن سب الدهر إنما يسبُّه لِمَا يقع فيه من الأمور المكروهة، والمجرِي لتلك الأمور والمقدِّر لتلك الأمور إنما هو الله سبحانه وتعالى، فسب الدهر كفر أصغر؛ لأنه وإن كانت حقيقته سبَّ الله عز وجل إلا أنّ السابَّ للدهر لم يَسبَّ الله بحسب علمه وحسب إرادته وقصده؛ وإنما سَبَّ الزمان الذي وقع فيه المكروه؛ فهذا حرام حُرْمَةً مغلَّظة، وهو من الكفر الأصغر.

أمّا إذا علم الإنسان أنّ سبَّ الدهر سبٌّ لله عز وجل، وأنّ حقيقته سبُّ الله عز وجل؛ ومع ذلك أصرَّ على سبِّ الدهر عالمًا بحقيقة الأمر، متذكِّرًا غير ناسٍ؛ فإنّ هذا من الكفر الأكبر، وإن كان هذا قليل الوقوع ممن يَنتسب إلى دين الإسلام.

ومن ذلك أيضًا: ألَّا يتسمى الإنسان ولا يرضى أن يُسمى باسمٍ يُشعِر بتمام الصفة في فِعْلٍ تمام الصفة فيه لله عز وجل؛ كاسم قاضي القضاة، وملك الملوك، وملك الأملاك، ونحو ذلك، فهذا حرام، وذلك لأمرين:

الأمر الأوّل: أنّ فيه إساءة أدب مع الله عز وجل. فمن المعلوم أنّ الله عز وجل يقضي بين عباده، فإذا تسمَّى العبد بقاضي القضاة، فهذا أساء الأدب مع الله عز وجل في لفظه، وإن لم يقصد.

والأمر الثاني: أنّ هذا كَذِبٌ، فإنه لا يوجد إنسان له تمام الصفة في هذه الأفعال، لا يوجد إنسان هو قاضي القضاة جميعًا، أو ملك الملوك جميعًا.

وقد قرَّرنا هذا وبيَّناه على وجه التفصيل والتدليل في درس الأمس. ونواصل اليوم الأبواب التي كتبها الشيخ رحمه الله عز وجل، ونشرح ما فيها، فيتفضل الشيخ ياسين يقرأ لنا من حيث وقفنا.

[بَابٌ: اِحْتِرَامُ أَسْمَاءِ اللهِ تَعَالَى وَتَغْيِيرُ الِاسْمِ لِأَجْلِ ذَلِكَ]

نعم هذا الباب كسابقه؛ في الأدب مع الله في الألفاظ، والتأدب مع الله في الألفاظ من كمال التوحيد، ومن صفات المؤمنين المعظِّمين لربهم سبحانه وتعالى.

ومن الأدب مع الله في الألفاظ: تعظيم أسماء الله عز وجل، وعدم تسمية المخلوق بها إن كان معناها لا يكون إلا لله، فإن كان الاسم لا يكون معناه إلا لله عز وجل فإنه لا يجوز أن يُسمَّى به مخلوق، ولو سُمِّي به مخلوق فإنه يجب أن يُغيَّر ذلك الاسم.

أمّا إذا كان معناها كليًّا، فكان معناها على الكمال لله عز وجل وللمخلوق نصيب من معناها يناسبه؛ فإنه لا يُمنَع من التسمية بها.

أي أنّ أسماء الله عز وجل تنقسم إلى قسمين:

القسم الأوّل: أسماء لا يكون معناها إلا لربنا سبحانه وتعالى؛ كـ"الرحمن"، و"الخالق"، و"الرزاق"، فهذه معناها ليس إلا لله عز وجل، فهذه لا يجوز التسمية بها، فلا يجوز للعبد أن يسمي نفسه "الرحمن"، أو "الرزاق"، فإنّ سُمِّي بهذا وجب أن يُغيَّر هذا الاسم.

والقسم الثاني: ما يكون للمخلوق نصيبٌ من معناه يناسب ذلك المخلوق، فهذه يجوز أن يُسمَّى بها المخلوق؛ مثل: الرءوف، فإنّ الإنسان قد يكون رؤوفًا بما يناسبه، والرحيم؛ نقول: الأب رحيم، ففيه من الرحمة ما يناسبه، والحليم، فهذه يجوز إطلاقها على المخلوق وَصْفًا، أن يوصَف بها المخلوق، كما قال الله عز وجل عن نبينا صلى الله عليه وسلم: {بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} (التوبة: ١٢٨)، فمحمد صلى الله عليه وسلم رؤوف رحيم، وكما قال الله عز وجل: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ} (التوبة: ١١٤)، فإبراهيم عليه السلام موصوف بكونه حليمًا.

ولكن يُلحَظ في الصفة هنا أنها بما يناسِب المخلوق.

كما يجوز التسمية بها، لكنّ بعض أهل العلم يقولون: تجوز التسمية بها بدون (الـ)؛ فيسمى الصبي: رؤوف، ورحيم، وحليم.

أما بـ(الـ) فيقولون: لا تجوز التسمية بها؛ لأنّ (الـ) فيها شُبْهَة التشريك: الرؤوف، الرحيم، الحليم، يقولون: لا يجوز.

وذهب بعض أهل العلم إلى جوازها مع (الـ) أيضًا؛ لأنّ بعض الصحابة كانوا يُسمَّون بالحَكَم، والحَكَمَ من أسماء الله عز وجل كما سيأتينا.

والأحوَط –والله أعلم– أن لا يسمى بها مع (الـ)، وإن كان ذلك جائزًا؛ سدًّا للذرائع، وبعدًا عن الشبهات، هو جائز كما قلنا إنّ بعض الصحابة يُسمَّون بالحَكَم، وكذلك مثلًا: العزيز، {وقَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ} (يوسف: ٥١)، "العزيز" بـ(ال)، فهذا جائز لكنّ الأحسن لو اجتُنب، فإذا سُمِّي يُسمَّى بدون (الـ).

إذن؛ مقصود الشيخ: أن يبيِّن أنّ الأدب في الألفاظ مع الله من كمال التوحيد، ومن الأدب في هذا: تعظيم أسماء الله عز وجل، وألَّا يُسمَّى المخلوق بها إذا كان الاسم في معناه لا يكون إلا لله عز وجل، وأنّ مَن سُميِّ بها غُيِّر اسمه.

[عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ أَنَّهُ كَانَ يُكَنَّى أَبَا الْحَكَمِ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللهَ هُوَ الْحَكَمُ، وَإِلَيْهِ الْحُكْمُ»، فَقَالَ: إِنَّ قَوْمِي إِذَا اِخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ أَتَوْنِي، فَحَكَمْتُ بَيْنَهُمْ، فَرَضِي كِلَا الْفَرِيقَيْنِ. فَقَالَ: «مَا أَحْسَنَ هَذَا! فَمَا لَكَ مِنَ

الْوَلَدِ؟»، قُلْتُ: شُرَيْحٌ، وَمُسْلِمٌ، وَعَبْدُ اللهِ. قَالَ: «فَمَنْ أَكْبَرُهُمْ؟»، قُلْتُ: شُرَيْحٌ. قَالَ: «فَأَنْتَ أَبُو شُرَيْحٍ»، رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ]

نعم هذا الحديث رواه أبو داود –كما قال الشيخ–، ورواه النسائي، والطبراني، وغيرهم، وجوَّد إسناده ابن مُفلح، وصحَّحه الألباني.

(عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ) واسمه هانئ، (أَنَّهُ كَانَ يُكْنَى) بالتخفيف، وفي لغة ضعيفة بالتشديد: يُكنَّى، الأفصح التخفيف (يُكْنى)، ويجوز التشديد (يُكنَّى) لكنها لغة ضعيفة.

(أَبَا الْحَكَمِ) فلمّا قَدِمَ مع وفد قومه على النبي صلى الله عليه وسلم، سمع النبي صلى الله عليه وسلم قومه ينادونه: يا أبا الحكم، يا أبا الحكم! فدعاه النبي صلى الله عليه وسلم فقال له: «إِنَّ اللهَ هُوَ الْحَكَمُ، وَإِلَيْهِ الْحُكْمُ»، "الحَكَمَ" اسم من أسماء الله عز وجل، والحَكَمَ: هو الذي إذا حَكَمَ لا يُرَدُّ حُكمه، والله عز وجل إذا حَكَمَ حكمًا كونيًّا قدريًّا فإنه لا يمكن لمخلوق أن يَرُدَّ حُكمه سبحانه وتعالى، وإذا حَكَمَ حكمًا شرعيًّا فإنه لا يجوز لمخلوق أن يَرُدَّ حكمه سبحانه وتعالى.

انتبهوا؛ حُكم الله نوعان:

قدري.

وشرعي.

القدري: ما يجريه الله عز وجل ويقدِّره. إذا حكم الله عز وجل حكمًا قدريًّا؛ فإنه لا يمكن لمخلوق أن يَرُدَّ قدر الله وحُكم الله القدري.

والحكم شرعي: الأمر والنهي. إذا حكم الله حكمًا شرعيًّا فإنه لا يجوز –لا نقول هنا: لا يمكن؛ فإنه يمكن أن يعصي العاصي، لكن نقول: لا يجوز– لا يجوز لمخلوق أن يَرُدَّ حُكم الله عز وجل، فالذي لا يُرَدُّ حكمه أبدًا هو الله سبحانه وتعالى فهو الحكم.

«وإليه الحكم» أي أنّ الفصل بين العباد بما هو حق قطعًا إنما هو لله عز وجل {لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} (القصص: ٨٨)، فالحكم الذي هو الفصل بين العباد بالحق قطعًا وأبدًا هو حكم الله عز وجل.

فهذا هو معنى قوله: «إنّ الله هو الحَكَم وإليه الحُكم». فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أبا شريح بقضية شرعية كلية؛ وهي: أنّ الله هو الحَكم وإليه الحُكم.

ثم قال له صلى الله عليه سلم: «فلِمَ تُكْنى أبا الحَكم؟ » –وهذا لم يذكره الشيخ، وهو موجودٌ في الروايات– ما سبب تكنيتك بأبي الحكم؟ وفي رواية: «فلِمَ تكنَّيتَ أبا الحَكم؟» يعني أنت ؟ (فقال: لا) "لا" يعني: لم أتكنَ أنا؛ ولكني كُنِّيت.

والْحَظْ هنا؛ أنّ النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن أخبره بالقضية الكلية وهي أنّ الله هو الحَكم وإليه الحُكم؛ سأله فاستفصل: «فلمَ تُكنَى أبا الحَكم؟»، وهذا يدلُّ على أنّ الحُكم فيه تفصيل، فإنّ الاستفصال يدل على التفصيل، وإلا لم تكن له فائدة.

فهذا يدل على أنه لو قال: إني أُكْنَى أبا الحَكم لأنّ أكبر أبنائي الحَكم لأقرَّه النبي صلى الله عليه وسلم ولم يُغيِّر.

يقول لي قائل منكم ما الدليل على هذا؟

الدليل: أنّ هناك ثلاثة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الكبار اسمهم الحَكم؛ ولم يُغيِّر النبي صلى الله عليه وسلم أسماءهم، مع أنّ الحَكم أقرب إلى الاشتباه من أبي الحَكم والنبي صلى الله عليه وسلم لم يُغيِّر أسمائهم.

وهناك ثلاثة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يُكْنَون بأبي الحَكم؛ ولم يُغيِّر النبي صلى الله عليه وسلم تلك الكُنَى.

وهناك ثلاثة من أصحاب النبي صلى الله عليهم وسلم اسمهم حَكيم؛ ولم يُغيِّر النبي صلى الله عليه وسلم أسمائهم.

وهناك ستة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يُكْنَون بأبي حَكيم، ولم يُغيِّر النبي صلى الله عليه وسلم كُنَاهم؛ لأنّ هذا من باب

التسمية، ولذلك قال له النبي صلى الله عليه وسلم: «فلِمَ تكنى أبا الحكم؟»، وسيُرتِّب النبي صلى الله عليه وسلم الحُكم على جوابه.

(فَقَالَ: إِنَّ قَوْمِي إِذَا اِخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ أَتَوْنِي، فَحَكَمْتُ بَيْنَهُمْ، فَرَضِي كِلَا الْفَرِيقَيْن. فَقَالَ: «مَا أَحْسَنَ هَذَا!»، "ما أحسنَ هذا" قيل: الإشارة تَرجِع إلى إصلاحه بين الناس؛ لأنه بحُكمه يصلح بين الناس، فيتراضون، وهذا شيء طيِّب، والإصلاح بين الناس قبل الحُكم من الفضل المطلوب، فإذا سمعتَ خصومةً بين مؤمنَين، أو بين أطراف من قومك فسعَيت للإصلاح بينهم قبل التحاكم فإنّ هذا أمرٌ حَسَنٌ ومحمود، تُحمَد عليه؛ لأنّ الحُكم لو وقع قد تقع في النفوس حَزازات، هذا يأخذ على الثاني أنه رَفَعَه إلى المحكمة، والثاني قد يكون في نفسه شيء من الحكم، أمّا الإصلاح فيُنهي القضية بالكلية.

وقيل: ترجع إلى حكمه بين الناس، أنه يَحكم بالعدل، ولذلك يَرضى الناس، فإنه لا يُرضي الناس إلا العدل.

الفرق بين الإصلاح والحُكم: أنّ الإصلاح يَسبِق الحُكم، أمّا الحُكم فهو الفصل بين الطرفين.

وقال بعض أهل العلم: "هذا" هذه الإشارة تَرجِع إلى الكُنية. لكن هذا بعيد؛ لأنّ النبي صلى الله عليه وسلم غيَّر كنيته.

فالْحَظوا هنا: أنّ سبب الكنية ليس التسمية؛ وإنما سبب الكنية أنه يَحكم بين الناس، فكنَّاه الناس: أبا الحكم.

«فَمَا لَكَ مِنَ الْوَلَدِ؟» وفي بعض ضبط الحديث: «فمالك من الوُلْدِ؟» والمعنى واحد. قال: (قُلْتُ: شُرَيْحٌ، وَمُسْلِمٌ، وَعَبْدُ اللهِ. قَالَ: «فَمَنْ أَكْبَرُهُمْ؟»، وهذا يدل على القاعدة التي يقرِّرها جمهور الأصوليين وهي: أنّ الواو لا تقتضي الترتيب؛ لأنه قال: شريح ومسلم وعبد الله، فلو كانت الواو تقتضي الترتيب ما احتاج النبي صلى الله عليه وسلم أن يقول: «فمَن أكبرهم؟»؛ لأنه خلاص عُرِف أنه شريح الأوّل. فقال: (قلتُ: شُرَيحٌ. قال: «فأنتَ أبو شُرَيحٍ»، فكنَّاه بأبي شُريح؛ بأكبر أولاده، وفيه: أنّ الأفضل في الكنية أن تكون بأكبر الأولاد؛ لفعل النبي صلى الله عليه وسلم.

إذن؛ هذا الحديث في ظاهره يدلُّ على تحريم التسمي بالحَكم، وعلى التكني بأبي الحَكم، وأنّ هذا الاسم يُغيَّر إذا وُجِد؛ لأنّ الحَكم اسمٌ من أسماء الله عز وجل.

لكن! اعتُرِض على هذا الحديث بما ذكرنا؛ أنّ ثلاثة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يُسمَّون بالحَكم؛ والنبي صلى الله عليه وسلم يعرفهم ولم يغيِّر أسمائهم، وثلاثة كانوا يكنَّون بأبي الحَكم ولم يُغيِّر النبي صلى الله عليه وسلم كُناهم، وهذا ثابت لا شك فيه!

هنا اتخذ العلماء موقفَين:

الموقف الأوّل: تضعيف هذا الحديث، وتجويز التسمِّي بهذا الاسم، ونحى هذا المنحى الشيخ ابن باز رحمه، حيث ذكر ما ذكرنا ثم قال: وهذا يدل على أنّ في صحته نظرًا.

والموقف الثاني: الجمع. وهذا أصح. فإن كان الاسم من باب التوصيف ولُوحِظت فيه الصفة إلى تمامها؛ فإنّ هذا حرام. إذا كان التسمية بالحكم لُوحِظ فيها الوَصْف وتمام الوَصْف فهذا حرام؛ لأنّ الله عز وجل هو الحكم، يصبح مثل: قاضي القضاة.

أمّا إذا كان لمجرَّد التسمية؛ اسمه: الحكم، ولم تُلْحَظ الصِّفة، أو لُوحِظت الصفة بما يناسِب المخلوق –فإن المخلوق قد يكون حكمًا، {فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا} (النساء: ٣٥)– فإذا لُوحِظت الصفة بما يناسِب المخلوق فهذا جائز.

ومن العلماء من أجاز التسمية بالحَكم للعلمية فقط، أمّا إذا لُحِظَت الصفة فإنه يُحرِّم هذا.

إذن؛ خلاصة هذا: أنّ التسمية باسم من أسماء الله عز وجل فيها تفصيل على أحوال:

الحالة الأولى: أن تكون التسمية باسم لا يكون معناه إلا لله؛ كـ"الرزاق"، و"الخالق" و"الله"؛ فهذه التسمية حرام، وإذا وقع هذا الاسم وَجَبَ أن يُغيَّر.

الحالة الثانية: أن تكون التسمية باسمٍ له معنىً كليّ؛ لله عز وجل فيه كمال المعنى، وللمخلوق نصيب من معناه يناسِب ذلك المخلوق، مع ملاحظة الصفة في تمامها أو إطلاقها: فهذا حرام. أن يُسمَّى المخلوق بالحَكم أو الرؤوف أو الرحيم؛ مع ملاحظة الصفة بتمامها: فإنّ هذا لا يجوز.

والحالة الثالثة: أن يُسمَّى باسم الله عز وجل الذي له معنىً كليّ؛ وللمخلوق نصيب من معناه يناسبه؛ مع ملاحظة الصفة المناسبة للمخلوق وعدم التجاوز: فهذا محل خلاف بين العلماء، والراجح: أنه يجوز.

والحالة الرابعة: التسمي باسم من أسماء الله عز وجل له معنىً كليّ؛ وللمخلوق نصيب من معناه يناسبه للعلَميَّة فقط، للدلالة على شخص فقط من غير نظر إلى الصفة: فهذا جائز.

طيِّب؛ الأحوال التي قلنا فيها بالجواز؛ هل تكون التسمية فيها مع (الـ) أو بدون (الـ)؟

هذا محل خلاف.

فمن أهل العلم مَن يُحرِّم التسمية بها مع (الـ).

ومن أهل العلم يجيز التسمية بها ولو مع «الـ». وهذا هو الراجح؛ لدلالة الأدلة، وإن كان الأفضل أن تكون التسمية بدون (الـ).

هذه خلاصة ما يذكره العلماء في مسألة التسمِّي بأسماء الله عز وجل ومتى يَحرُم التسمي باسم الله، ومتى يجب تغيير الاسم إذا كان موافقًا لاسم من أسماء الله، ومتى يجوز ذلك.

وإذا عرفتَ هذا التفصيل؛ فإنك تحيط بما ذَكَرَه العلماء في هذه المسألة.

[فِيهِ مَسَائِلُ: الْأُولَى: اِحْتِرَامُ صِفَاتِ الله وأسمائه، وَلَوْ بكلام لَمْ يَقْصِدْ مَعْنَاهُ]

وجوب احترام أسماء الله عز وجل وصفاته، ووجوب التأدُّب في هذا الباب؛ لأنه أدب مع الله عز وجل، ولو بكلام لم يقصد معناه. فالمؤمن الموحِّد الموفَّق المعظِّم لله يجتهد في التأدُّب مع الله عز وجل حتى في ألفاظه.

[الثَّانِيَةُ: تَغْيِيرُ الِاسْمِ لِأَجْلِ ذَلِكَ]

نعم؛ إذا كان على الوجه المحرَّم؛ فإنه يُغيَّر.

[الثَّالِثَةُ: اِخْتِيَارُ أَكْبَرِ الْأَبْنَاءِ لِلْكُنْيَةِ]

وأنّ هذا هو الأفضل؛ لأنه فِعْلُ رسول الله صلى الله عليه وسلم.

تابع الدرس الثاني والستون: شرح بَابٌ مَنْ هَزَلَ بِشَيْءٍ فِيهِ ذِكْرُ اللَّهِ أَوْ الْقُرْآنِ أَوْ الرَّسُولِ

[بَابٌ مَنْ هَزَلَ بِشَيْءٍ فِيهِ ذِكْرُ اللهِ أَوْ الْقُرْآنِ أَوْ الرَّسُولِ]

(مَن هَزَلَ) أي: مَن سَخِرَ واستهزأ لعبًا ولهوًا وتسلية، كما يقول بعض الناس: نَقطُع الوقت! يلعبون بالكلام والعبرات، هذا هو الهزل: السخرية والاستهزاء على وجه اللعب وتمضية الوقت. والمعنى: ما حُكم مَن سَخِرَ واستهزأ لعبًا وتسلية بالله عز وجل أو بالقرآن أو بالرسول أو بشرع الله عز وجل؟

والجواب يؤخَذ من الأدلة: والأدلة دلَّت على أنه كافر كفرًا أكبر.

مَن استهزأ بربنا سبحانه وتعالى، أو سَخِرَ من أفعال ربنا سبحانه وتعالى على وجه تمضية الأوقات واللعب؛ فإنه يَكفُر كفرًا أكبر.

وكذلك مَن سَخِرَ بالنبي صلى الله عليه وسلم، أو بصفة من صفات النبي صلى الله عليه وسلم، كمَن يسخر باللحية الكثَّة وهو يَعلَم أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت له لحية كثّة، مثل قول بعضهم –والعياذ بالله–: هذه اللحية وساخة! وهذه صفة من صفات النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان كثَّ اللحية، فمَن عَلِمَ أنّ النبي صلى الله عليه وسلم كان كثَّ اللحية وسَخِرَ من ذات اللحية ، من جنس اللحية، وقال: تُشبِه ذِقن التَيس، أو قال: وَسَخ وقَذَر! فهذا كفر أكبر، والعياذ بالله.

أمّا إذا سَخِرَ من لحية إنسان بعينه، وليس من اللحية بذاتها، وإنما من لحية إنسان بعينه قال مثلًا: انظر لحية سليمان جانب طويل وجانب قصير! وانظر لحية فلان! يسخر منه، يسخر من هذه لحيته، فهذا ليس كفرًا، ولكنه سبٌّ محرَّم.

إذن؛ انتبهوا! السخرية من اللحية إذا كانت من ذات اللحية؛ فهذه سخرية بصفة من صفات النبي صلى الله عليه وسلم، فمَن عَلِمَ أنّ النبي صلى الله عليه وسلم كان كثَّ اللحية؛ ومع ذلك سَخِرَ من اللحية ذاتها؛ فإنّ هذا كفر أكبر والعياذ بالله؛ لأنه عائد من السخرية من رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ سواء كان جادًّا أو لاعبًا، سواء كان يريد أن يضحك الزملاء، أو يمضي الأوقات، أو كان جادًّا في كلامه.

كذلك مَن سَخِرَ أو استهزأ بنبي من أنبياء الله عليهم السلام؛ سواء كان جادًّا أو لاعبًا؛ فإنّ هذا من الكفر الأكبر الذي يُخرِج من الملة.

وكذلك مَن سَخِرَ بالقرآن؛ فإنّ هذا كفر أكبر؛ ولو كان على سبيل اللعب.

وكذلك مَن سَخِرَ بشرع الله، أو بشيء منه؛ مع علمه بأنه من شرع الله؛ فهذا كُفر.

وجماع الأمر: أنّ الاستهزاء بالله، أو برسول الله، أو برسول من رسل الله، أو بكتاب الله، أو بشرع الله؛ مع العلم أنه شرع الله؛ لا يجتمع مع التوحيد أبدًا؛

لأنّ التوحيد: موافَقة وتسليم، والاستهزاء: معارَضة وعدم تعظيم؛ فلا يجتمعان أبدًا.

التوحيد تسليم، والاستهزاء معارَضة؛ فلا يجتمعان. التوحيد: موافَقة، والاستهزاء: معارَضة وعدم تعظيم؛ فلا يجتمعان أبدًا. فإذا وُجِدَ الاستهزاء ارتفع التوحيد.

ما الحكم لو قال شخص لآخر: دينك هذا مثل لعب الأطفال؟

نقول: إن أراد تديُّن هذا المعيَّن –وليس أصل الدين– فهذا سبٌّ.

أمّا إن أراد أصل الدين، وأنّ دين الإسلام –والعياذ بالله– مثل لعب الأطفال، وفيه كتم للحرية، وفيه وفيه وفيه، فهذا كفر أكبر، والعياذ بالله.

[وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: {وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ} الْآيَةِ]

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ﴾ يا محمد، {لَيَقُولُنَّ} بألسنتهم،{إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ} وأصل الخَوْض: هو السير في الماء، شبَّهوا فِعلهم بلعب الأطفال في الماء، خوض الأطفال في الماء: يسيرون في الماء يلعبون. { إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ} نُمضِي الوقت، ونَقطَع الطريق بالاستهزاء بالنبي صلى الله عليه وسلم ومَن معه من الصحابة، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يجيبهم بأمر الله: {قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (٦٥) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ}، فحَكَمَ

عليهم ربنا باستهزائهم لعبًا بالرسول صلى الله عليه وسلم وبالصحابة بأنهم أظهروا الكفر بعد أن كانوا قد أظهروا الإيمان.

وهذه الآية اختلف فيها العلماء:

فقال بعض أهل العلم: هؤلاء منافقون، كانوا يُظهِرون الإيمان أمام النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة، ثم بهذا الكلام أظهروا الكفر، فهذا معنى: {قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ}،{قَدْ كَفَرْتُمْ} يعني: أظهرتم الكفر بعد أن كنتم تبطنونه.{بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾أي: بعد أن كنتم تُظهِرون الإيمان، لأنه معلوم أنّ المنافق يُظهِر الإيمان ويُبطِن الكفر.

فعلى القول بأنهم المنافقون –وهو الذي رجَّحه المحقِّقون– يكون المعنى: {قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ} أي: أظهرتم الكفر بعد أن كنتم تُظهرون الإيمان.

وذهبت طائفة من بعض أهل العلم: إلى أنهم ليسوا منافقين وإنما قالوا هذا القول فكفروا به.

والأوّل رجَّحه جماعة من المحقِّقين.

[وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ وَمُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ وَزَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ وَقَتَادَةَ، رضي الله عنهم، دَخَلَ حَدِيثُ بَعْضِهِمْ فِي بَعْضٍ: أَنَّهُ قَالَ رَجُلٌ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ: مَا رَأَيْنَا مِثْلَ قُرَّائِنَا هَؤُلَاءِ، أَرْغَبَ بُطُونًا، وَلَا أَكْذَبَ أَلْسُنًا، وَلَا أَجْبَنَ عِنْدَ اللِّقَاءِ. يَعْنِي رَسُولَ اللهِ

صلى الله عليه وسلم وَأَصْحَابَهُ الْقُرَّاءَ، فَقَالَ لَهُ عَوْفُ بْنُ مَالِكٍ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ مُنَافِقٌ، لَأُخْبِرَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم. فَذَهَبَ عَوْفٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم لِيُخْبِرَهُ فَوَجَدَ الْقُرْآنَ قَدْ سَبَقَهُ، فَجَاءَ ذَلِكَ الرَّجُلُ إِلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَقَدْ اِرْتَحَلَ وَرَكِبَ نَاقَتَهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَتَحَدَّثُ حَدِيثَ الرَّكْبِ نَقْطَعُ بِهِ عَنّا الطَّرِيقِ. قَالَ اِبْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ مُتَعَلِّقًا بِنِسْعَةِ نَاقَةِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، وَإِنَّ الْحِجَارَةَ تَنْكُبُ رِجْلَيْهِ، وَهُوَ يَقُولُ: إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ. فَيَقُولُ لَهُ رَسُولُ اللهِ: {أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِؤُونَ}، مَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ وَمَا يَزِيدُهُ عَلَيْهِ]

هذه القصة رواها جَمْعٌ من أهل العلم، وممَّن رواها: ابن جرير الطبري، وهي قصة صحيحة، وقد ذكرها العلامة محدِّث اليمن: الشيخ مقبل الوادعي، في كتابه (الصحيح المسنَد من أسباب النزول)، فهذه القصة صحيحة، وطُرُقها صحيحة.

قال: (وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ) رضي الله عنه هذا صحابي. (وَمُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ) هذا تابعي. (وَزَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ) هذا تابعي. (وَقَتَادَةَ) وهذا تابعي. فهؤلاء الثلاثة رواياتهم مرسَلة، والظاهر –والله أعلم– أنّ زيد بن أسلَم يرويها عن ابن عمر؛ لأنه في بداية القصة لم يَذكُر ابن عمر؛ لكن في أثنائها قال: "وقال ابن عمر كذا"، فزيد ابن أسلَم يرويها عن ابن عمر –رضي الله عنها–.

قال الشيخ: (دَخَلَ حَدِيثُ بَعْضِهِمْ فِي بَعْضٍ) هذا يصنعه بعض المحدِّثين، فإذا كان للقصة روَّاة متعدِّدون ولهم ألفاظ؛ فإنهم يجمعونها ويقولون: دخل حديثُ بعضهم في بعض، هذا معروفٌ عند جماعةٍ من المتقدِّمين، ولا زال العلماء يستعملونه؛ ومنهم: الشيخ الألباني، فإنه –رحمه الله– أحيانًا يفعل هذا ويقول: دخل حديث بعضهم في بعض.

فمعنى قول الشيخ هنا: (دخل حديث بعضهم في بعض): أدخلتُ حديثَ بعضهم في بعض؛ فسَبَكْتُ منه قصةً واحدة، فليس المقصود: أنّ الواحد منهم أَدخَل حديث الثاني في داخل حديثه، وإنما الشيخ الآن في ذِكْرِها قد سَبَكَها في قصةٍ واحدة من ألفاظ هؤلاء الرُّواة.

(أَنَّهُ قَالَ رَجُلٌ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ) الغزوة المعروفة، والطريق طويل من المدينة إلى تبوك، (مَا رَأَيْنَا مِثْلَ قُرَّائِنَا هَؤُلَاءِ) "قرَّائنا" الذين يحفظون القرآن ويقرأون القرآن، ويقصد: رسول الله صلى الله عليه وسلم وكبار الصحابة رضوان الله عليهم، (أَرْغَبَ بُطُونًا) أي: أوسع بطونًا، وأكبر بطونًا؛ لكثرة رغبتهم في الأكل، وكثرة أكلهم. وهذه سخرية بيِّنة، يُسْخَر من النبي صلى الله عليه وسلم وكبار الصحابة؛ مع كونها كذبًا. لا شك أنّ النبي صلى الله عليه وسلم كان من أقلِّ الناس أكلًا، وكذا صحابته –رضوان الله عليهم–، فهي سخريةٌ وكَذِبٌ.

قالوا: (وَلَا أَكْذَبَ أَلْسُنًا) يقول: قراؤنا هؤلاء كذابون، ما رأينا أكذَب منهم! وهذه أيضًا سخرية وكَذِب، فإنّ النبي صلى الله عليه وسلم لم يَكذِب قط، وكبار الصحابة –رضوان الله عليهم– كانوا يتورَّعون عما دون الكذب، فكيف بالكذب الذي عَلِمُوا حُرمته، لكنه مرضُ القلب. (وَلَا أَجْبَنَ عِنْدَ اللِّقَاءِ) الجبن: هو الخَوَر والضَّعف والانهزام. فيَصِفُهم بأنهم جبناء إذا التقى الصفَّان. وهذا أيضًا سخرية وكذِب، فدائمًا في مقدِّمة الناس رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، حتى إذا حَمِيَ الوطيس اتَّخذ الناس رسولَ الله صلى الله عليه وسلم درعًا؛ لشجاعته صلى الله عليه وسلم.

فهذا المنافق أراد أن يَسخر من النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ولم يجد ما يَسخر به منهم صِدْقًا -أعني: ويَصدُق في ذلك- فكَذَبَ؛ فجَمَعَ السخرية مع الكَذِبِ. (فَقَالَ لَهُ عَوْفُ بْنُ مَالِكٍ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ مُنَافِقٌ) وهذا معلوم، عَلِمَ عوف بن مالك أنه منافق؛ لأنّ هذا لا يقوله مؤمن. (لَأُخْبِرَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم. فَذَهَبَ عَوْفٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم لِيُخْبِرَهُ فَوَجَدَ الْقُرْآنَ قَدْ سَبَقَهُ) أي: أنّ الله عز وجل أخبر نبيه صلى الله عليه وسلم بما سيكون؛ في قوله سبحانه وتعالى: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ} (التوبة: ٥٦)، هذا ما كان وقع، ولكنه سيقع، فأخبر الله عز وجل رسوله بما يكون؛ وهو أنّ هذا الرجل سيأتي ويقول هكذا. (فَجَاءَ ذَلِكَ الرَّجُلُ إِلَى رَسُولِ

اللهِ صلى الله عليه وسلم) الرجل الذي سَخِرَ وتكلم. (وَقَدْ اِرْتَحَلَ وَرَكِبَ نَاقَتَهُ) "ارتحل": أي: من موضِعِه، ارتحل القوم من الموضع وأرادوا السير، (فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ: إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ) كما أخبر الله عنه، (وَنَتَحَدَّثُ حَدِيثَ الرَّكْبِ نَقْطَعُ بِهِ عَنّا الطَّرِيقِ) وفي رواية: عناء الطريق. لأنّ الطريق طويل؛ فيَعتذر بهذا العُذر. (قال زيد بن أسلم: قَالَ اِبْنُ عُمَرَ: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ مُتَعَلِّقًا بِنِسْعَةِ نَاقَةِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم) هذه الكلمة (بنسعة ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم) لم أرَها في أثر ابن عمر، وبحثتُ عنهما في أثر ابن عمر فلم أرَها، وإنما الذي في أثر ابن عمر: (بحَقَبِ ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم).

وأمّا (بنسعة) فهذه وجدتُها في رواية محمد بن كعب؛ ولم يَنسبها إلى ابن عمر –رضي الله عنهما–.

والنَّسْعُ –أو النِّسْعُ–: سَيْرٌ عريض يُشَدُّ به الرَّحل إلى الدابة، إلى الناقة. وسُمِّي "النِّسع" لطوله؛ لأنّ النِّسع هو الطويل، فسمِّي بذلك لطوله. وأمّا الحَقَب: –فهو مثل النَّسع أو النِّسع– حزامٌ يُشَدُّ به الرّحل إلى الدابة.

إذن؛ هذا الرجل لمّا جاء ووجد النبي صلى الله عليه وسلم قد ركب الناقة، وسار النبي صلى الله عليه وسلم غير مبالٍ به؛ أمسك المنافق هذا الحبل وهذا السَّير العريض بيده، ويقول: إنما كنا نخوض ونلعب. قال: (وَإِنَّ الْحِجَارَةَ تَنْكُبُ رِجْلَيْهِ) أي: لتصيب رجليه؛ لأنّ النبي صلى الله عليه وسلم سائر بناقته

وهو ممسك بهذا السير؛ فينَسَحب في الأرض والحجارة تصيب رجليه، (وَهُوَ يَقُولُ: إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ) انظروا ما جعل الله له من الذلة، ويحاول أن يعتذر، وممسك بسير الناقة، والنبي صلى الله عليه وسلم لا يزيد على أن يقول له: {أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِؤُونَ}. قال: {مَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ وَمَا يَزِيدُهُ عَلَيْهِ}.

فدلَّ ذلك: على أنّ الساخر بالله، أو الساخر برسول الله صلى الله عليه وسلم، أو الساخر بالقرآن، أو الساخر بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم وما في القرآن: يَكفُر بهذا؛ ولو كان لاعبًا، ولو اعتذر بأنه كان هازلًا وليس جادًّا ولا يَقصد ولا يريد؛ فإنه يَكفُر بهذا. وهذا أمر عظيم.

ومن الخطأ البيِّن قول بعضهم: أنه لا يَكفُر إلا إذا استحلّ! فإنّ الله عز وجل ما رتَّب الكفر على الاستحلال؛ ولكن رتَّب الكفر على لَعِبِهم وخوضهم الذي يدَّعون، وكذلك فَعَلَ النبي صلى الله عليه وسلم. فدّلنا ذلك: على أنّ مَن سخر بهذه الثلاثة: بالله عز وجل، أو برسول الله صلى الله عليه وسلم، أو برسول من رسل الله، أو بالقرآن: أنه يَكفُر ولو كان لاعبًا.

إذن؛ من باب أولى: أن يَكفُر لو كان جادًّا وقاصدًا.

ويُلحَق بذلك: إذا استهزأ بشرع الله سبحانه وتعالى.

[فِيهِ مَسَائِلُ: الْأُولَى: وَهِيَ الْعَظِيمَةُ، أَنَّ مَنْ هَزَلَ بِهَذَا فَهُوَ كَافِرٌ]

قال: (الأولى: وهي العظيمة) ولا شك أنها عظيمة؛ أنّ مَن استهزأ وسَخِرَ بالله عز وجل أو برسوله صلى الله عليه وسلم، أو ما بالقرآن، أو ما يعود إلى ذلك: أنه يَكفُر ولو كان لاعبًا خائضًا، فكيف إذا كان جادًّا قاصدًا؟!

[الثَّانِيَةُ: أَنَّ هَذَا هو تَفْسِيرُ الْآيَةِ فِيمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَائِنًا مَنْ كَانَ]

فليست هذه قضية عين تُقصَر على صاحبها؛ بل هذا الحُكم باقٍ عامّ إلى يوم القيامة.

فمَن استهزأ اليوم في الصحف، أو في التلفاز، أو في شبكات التواصل بالله عز وجل، أو استهزأ بالقرآن، أو استهزأ برسول الله صلى الله عليه وسلم، أو استهزأ بشيء من شرع الله عز وجل مع علمه بأنه من شرع الله: كفر.

حتى قال العلماء: مَن استهزأ بالسواك، لأنه سواك –ليس للعود مثلًا أنّ العود معوج وكذا وإنما استهزأ بالسواك لأنه سواك– مع علمه أنّ السواك من شرع الله: يَكفُر بهذا.

فمَن استهزأ اليوم فإنّا نقول له الآية، وتَنطبق عليه الآية.

وهذا الأمر محل إجماع بين فقهاء الأمّة. والفقهاء في هذا الباب قد تشددوا تشددًا كثيرًا، حتى أنّ منهم مَن قال: مَن قال "مصَيحف"–أي: مصحف صغير، صغَّره فقال: مصَيحف–؛ يَكفُر. وبعضهم قال: مَن قال لبيت الله: "مسيجد"؛ يَكفُر.

وإن كنا لا نوافق على هذا الإطلاق، فمَن قال: مصَيحف، إن كان يقصد أنّ هذا المصحف صغير ،وهو صغير، فليس كفرًا. أمّا إذا كان يَقصد تنقُّص القرآن والسخرية بالقرآن؛ فهذا كفر. وكذلك قول مسيجد، فإذا كان يقصد أنّ هذا المسجد صغير وليس من الجوامع الصغيرة؛ فهذا ليس كفرًا. أمّا إذا أراد السخرية والاستهزاء ببيت الله؛ فهذا كفر.

مقصودي: أن أقول: أنّ فقهاء الأمّة –ومنهم فقهاء المذاهب الأربعة– قد تشدَّدوا في هذا الباب –أعني باب السخرية والاستهزاء بالله عز وجل أو برسوله صلى الله عليه وسلم أو بكتابه–، وهم في الجملة مُجمِعون على كفر من استهزأ بالله أو برسوله صلى الله عليه وسلم أو بكتابه سبحانه وتعالى.

[الثَّالِثَةُ: الْفَرَقُ بَيْنَ النَّمِيمَةِ وَبَيْنَ النَّصِيحَةِ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ]

وهذا أمر عظيم، فإنّ النميمة كبيرة من كبائر الذنوب، والنصيحة لله عز وجل ولرسوله وللمؤمنين من أعظم أمور الدين.

ولابد من معرفة الفرق بينهما.

فإنّ النميمة: نقل الكلام بين الناس؛ على سبيل السِّعاية والإفساد. يَنقل الكلام من هذا لهذا على سبيل الافساد فيما بينهما. الإنسان بشر، وأحيانًا يضعف، قد يقول في صديقه كلمة في مجلس من المجالس أو مع أحد؛ فيفرح هذا بالكلام، ويكون مثل الجالس على الجمر ينتظر متى يستطيع أن يستأذن، ثم

إذا استأذن اليوم وهو عند الباب قبل أن يركب سيارته يرفع الهاتف: "فلان! والله يا أخي فلان هذا غدّار، يقول عنك الآن الآن في المجلس يقول عنك كذا وكذا"؛ ليفسد بينهما! هذا نمام خبيث، لا يقصد نصرة حق، ولا كسر باطل، ولا نصحًا؛ وإنما يريد الإفساد.

أما النصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين؛ فيُقصَد منهما: إعلاء الحق، وكسر الباطل، وحماية بيضة المسلمين. فقد ينقل رجلًا كلامًا لمسؤول أو لأمن الدولة؛ من أجل حماية البلد. مثلًا: سمع جيرانه يتكلمون فيما بينهم يتآمرون على تفجير سيفعلونه غدًا في ميدان أو في مبنى من مباني البلاد، يقوم يذهب إلى المسؤولين في أمن الدولة إلى مَن يثق ويقول: أنا سمعتُ جيراني يقولون: كذا وكذا وكذا، يريدون أن يفجروا غدًا. سَمِعَ جاره المسلم يتحدَّث أنه غدًا سيذهب إلى الشاطئ الذي فيه كفار عُراه ليقتلهم! فقام وذهب إلى المسؤول الذي يثق فيه وقال: أنا سمعتُ فلانًا يقول: غدًا عند الساعة الفلانية سيَذهب ليقتل يهودًا أو نصارى أو غير ذلك عند الشاطئ الفلاني، هذا نصح لله ولرسوله ولعموم المسلمين، وحماية لبيضة المسلمين، وليس من النميمة في شيء، وليس من الإفساد في شيء.

ودعاة الباطل يخوِّفون الناس من الحق بتصويره في صورة الباطل؛ فيقولون: تبليغك عن الأعمال الإجرامية هذه –التي يرى بعض الضُّلال أنها

استشهاد وجهاد– يقولون تبليغك عن هذه الأعمال نميمة وغيبة وعون على المسلم وحرام! ووالله ما كلامهم إلا غِشٌّ للمسلمين.

إذن؛ ما ضابط النصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين؟

الضابط الأوّل: صدق الكلام، فيكون الكلام صدقًا.

أمّا ما يفعله بعض الوشاة يقولون: نحن ننصح لمشايخنا، ننصح للدين، ويذهب للشيخ ويقول: فلان يقول كذا، ويزيد عليها ألف سطر! لينال منزلة عند الشيخ، أو ليُسقِط أخاه.

من الجرائم التي يفعلها بعض الناس اليوم: أنه يقول لأخيه: تكون في يدي لينًا، وتفعل ما أقول، وتعتقد ما أقول، أو أذهب إلى الشيخ فلان وأتكلم عنده فيك حتى يتكلم فيك؛ لأني أنا ثقة عنده! هذا خائن للشيخ وخائن لأخيه؛ خائن للشيخ: لأنّ الشيخ يثق فيه لديانته؛ وهو يستغل هذا في غير الديانة ويَكذِب على إخوانه، هذا مفسِد وليس ناصحًا.

الذي يَكذِب على الناس هذا ليس مصلِحًا –أعني يَنسب إلى الناس ما لم يقولوه على سبيل الإفساد عليهم–. أمّا أن يَنسِب إليهم ما لم يقولوه مما هو خير ليُصلح بينه وبين أخيه هذا ليس بكذاب. لكن نتكلم عن أناس إمّا أن يَغرَّهم الشيطان، أو يريدون السُّلطة على إخوانهم، فيذهبون إلى الشيخ ويَكذِبون

ويقولون: نحن نريد النصيحة، ونريد الدين. هؤلاء عليهم أن يتوبوا إلى الله عز وجل توبة صادقة، وأن يرجعوا عن هذا الذنب العظيم.

إذن؛ الضابط الأوّل: صدق الحديث

الضابط الثاني: صدق النية. أن يكون مقصود العبد: حماية الدين، حماية ديار المسلمين، حماية بيضة المسلمين، فهذا ناصِح لله ولرسوله وللمؤمنين، وليس هذا من النميمة ولا الغيبة في شيء.

[الرَّابِعَةُ: الْفَرَقُ بَيْنَ الْعَفْوِ الَّذِي يُحِبُّهُ اللهُ وَبَيْنَ الْغِلْظَةِ عَلَى أَعْدَاءِ اللهِ]

الله أكبر! السلف يقولون: "الخُلق: أن تَضع كل شيء في موضِعه"، فتضع الرِّفق في موضع الرفق، وتضع العُنف في موضع العُنف، بحَسَبِه، حتى أنّ بعض السلف ذَكَرَ أنّ استعمال العنف عند الحاجة إليه هو الرِّفق؛ لأنه الذي يحقِّق المقصود.

فالعفو يحبه الله، وهو أمر طيب، والرِّفق يحبه الله، ويعطي عليه ما لا يُعطي على العنف، لكن! في موطنه و موضعه، وهو لأصل.

والغِلظة على المخطئ أحيانًا يحبها الله، وهي مطلوبة؛ لأنّ الخير لا يتحقَّق إلا بها. بعض الناس إذا كان مثلًا: يؤذي ابنة الجيران، لو وعظته سبعة أيام تقرأ عليه القرآن والسنة، ويا أخي عيب، ويا أخي هذا جارنا، والزنا بحليلة الجار أعظم قبحًا بالزنا بالمرأة الأجنبية –والكل قبيح، ما يخاف، ولا يندفع، ولكن إذا

أغلظتَ عليه وقلتَ له: سأخبر والدها، وأنت تعرف أن والدها حامي، يمكن أن يقتلك، ربما انتقل من الحي كله.

فالعبرة بما يحقِّق المقصود.

فإن كان العفو يحقِّق المقصود ولا يترتَّب عليه مَفسدة عظيمة؛ فإنه يحبه الله ورسوله صلى الله عليه وسلم. وإن كانت الغِلظة تحقِّق المقصود والعفو والرفق واللين لا يحقِّق المقصود؛ فإنّ المشروع هو الغلظة.

والتفريق بينهما يحتاجه الإنسان حاجة شديدة؛ لأنّا نرى من الناس مَن يعامل الناس بالرِّفق دائما واللين دائمًا، ولربما وقع في المحظورات الشرعية بسبب هذا، ولا يحقق المقصود، ويُفسِد على الناس، وهذا لا شك أنه مذموم.

ومن الناس مَن يعامل الناس بالغِلظة، ولا شيء عنده إلا الغلظة، ولا شك أنّ هذا يُنفِّر الناس من الحق، ومذموم.

والصواب والطريق الصواب والذي عليه السلف وعليه علماؤنا و مشايخنا ومَن تربينا على أيديهم وتلقَّينا عنهم العلم: أن يُعامَل الناس بالرفق والصبر، ما كان لذلك سبيل، وما كان يحقِّق المقصود، ولا تترتَّب عليه مَفسدة عظيمة، وإلا:

إذا لم يكن إلا الأسنَّة مَركبًا ... فما حِيلة المضطر إلا رُكوبها.

وقلتُ لكم مرَّة كلمة شيخ الاسلام ابن تيمية، جميلة جدًّا، قال: "المؤمن للمؤمن كاليدين، تغسل إحداهما الأخرى". فِعلًا؛ اليد الواحدة صعبٌ أن تزيل وسخها بنفسها، وإذا أزالت كثيرًا من الوسخ يبقى شيء هنا أو هنا أو هنا فتحتاج إلى اليد الثانية، فكلنا في حاجة إلى بعضنا، يبصِّر بعضنا بعضًا بعيوبه، وتلك –والله– من أجمل الهدايا، أجمل هدية تقدِّمها لمسلم: أن تُتحفه بعِلْمٍ، أو تُتحفه بعيب فيه، هذه هدية عظيمة، والله أفضل من الذهب، أن تأتي لأخيك بأسلوب طيب وتقول: يا أخي أنا أَلْحَظ عليك كذا وكذا، فما أدري أنتَ أوسع مني علمًا فلعل لهذا أصل في الشرع، أو هي غفلة غفلتَ أنت عن الموضوع، أو نحو ذلك، هذه هدية عظيمة جدًّا، هذه من أعظم الهدايا.

من أعظم نِعم الله عليك أن يكون لك أخ صادق معك، إن رآك على خير شجَّعك، وإن رأى فيك عِوجًا قوَّمك، إذا وجدتَ هذا فعَضَّ عليه بالنواجذ.

والله! ليس الصديق الذي يمرِّر لك كل شيء، وإذا لقيته ضحك معك وأضحكك وذهب، ولا يبالي بما أنت فيه من أخطاء، ليس هذا الصديق.

إذن؛ المؤمن بحاجة إلى أخيه كاليد لليد، وتَغسل إحداهما الأخرى. والأصل: أنّ الغسل يكون برفق، يضع الانسان الماء والصابون ويَغسل برفق، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وقد يحتاج إزالة الوسخ إلى شيء من الفَرْك". أحيانًا الوسخ فيه شحم وفيه كذا، ما يزول، يحتاج إلى أن يُفرَك، شيءٌ من

العُنف، وهكذا المؤمن مع أخيه، يحاول أن يزيل أوساخه بالنصيحة، ولكن بالرفق واللين، إلا إذا احتاج إلى شيء من العنف حتى يزول هذا الوسخ، فهذا مطلوب في موضعه.

[الخَامِسَةُ: أَنَّ مِنَ الِاعْتِذَارِ مَا لَا يَنْبَغِي أَنْ يُقْبَلَ]

اِلْحَظ كلمة الشيخ: (إنّ من الاعتذار)، قال: "من"؛ لأنّ الأصل: أنّ المؤمن يَقبَل اعتذار أخيه، إذا أخطأ أخوك فاعتذَر الأصل أن تَقبل اعتذاره، لكن من الأعذار ما لا ينبغي أن يُقبَل، مما يَتعَّلق بالدين مثلًا، مما يَظهر عدم صحته، أو عدم صوابه، يعني عدم صحته من جهة كونه عذرًا، أو عدم صوابه من جهة الاعتذار به حتى لو كان صحيحًا في وقوعه، مثل: عذر هؤلاء بقولهم: إنما كنا نخوض ونلعب، فإنّ النبي صلى الله عليه وسلم لم يَقبل اعتذارهم.

الدرس الثالث والستون: شرح بَابٌ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: (وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي) الْآيَةِ

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَن يهدي الله فلا مضلَّ له، ومَن يُضلل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء: ١]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: ٧١]

أمّا بعد:

فإنّ أحسن الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكلّ محدَثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النار.

درسنا في شرح كتاب التوحيد، وما أجمل كلمة التوحيد! وما أعظم وقعها في قلب المؤمن! إنها حقُّ ربه سبحانه وتعالى، أعظم الحقوق على الإطلاق، وأشرف الحقوق على الإطلاق، وكل الحقوق تَتْبعها، ومنها تَنْبَع، وأعظم ما فرض الله عز وجل وأوجب: توحيده سبحانه وتعالى.

ولا زلنا نتعلَّم الأدب في الألفاظ مع ربنا سبحانه وتعالى. فبعدما تقدَّم معنا في درس الأمس وعَلِمْنا أنّ المؤمن يتأدَّب مع الله عز وجل في أسمائه وصفاته، ويحترم تلك الأسماء احترامًا عظيمًا، ومن ذلك: أنّ الاسم الذي لا يكون إلا لله عز وجل لا يَتسَّمى به المسلم، ولا يُسمِّي به المسلم، وإذا وقع فإنه يُغيَّر؛ تأدُّبًا مع الله عز وجل، وإجلالًا لله ذي الجلال والإكرام، وقيامًا بحق الله سبحانه وتعالى.

أمّا الاسم الذي له معنىً كلي؛ فلله منه الكمال المطلَق، وللمخلوق نصيب منه بحسب ما يناسبه، فهذا الاسم يجوز التسمِّي به من باب العلمية فقط، والأولى ألَّا يكون مع (الـ).

وإن سمِّي مع (الـ) فجائز على الراجح من أقوال أهل العلم.

كذلك يجوز التسمية به إن لُمِحَت الصفة التي تناسِب المخلوق.

أمّا التسمية به مع لَمْحِ الصفة التامّة، أو خشية أن يصل الأمر إلى الصفة التامّة؛ فإنّ هذا يكون حرامًا.

كما تقدَّم معنا: أنّ مَن التأدُّب مع ربنا سبحانه وتعالى أن نُجِلَّ ربنا، ونُجِلَّ رسوله ورسله عليهم السلام، ونُجِلَّ كتابه، وألَّا نَسْخَر من شيء من كتاب الله عز وجل، ولا من شرع الله عز وجل، وألَّا نسخر من الله عز وجل ولا من رسله عليهم السلام.

وأنّ السخرية من الله عز وجل أو من رسله أو من كتابه أو من شيء من شرعه بعد العلم بثبوته؛ كفر أكبر لا يجتمع مع التوحيد أبدًا؛ سواء إن كان الإنسان عند الكلام جادًّا في كلامه قاصدًا لِمَا وراء كلامه، أو كان هازلًا ساخِرًا يريد أن يَضحك أو يُضحك، و يريد أن يقطع الوقت والطريق؛ فإنّ هذا كله كفر أكبر يُخرج من ملة الإسلام.

ونواصل اليوم القراءة في ما كتبه الشيخ رحمه الله عز وجل في هذا الكتاب العظيم من أبواب

[بَابٌ قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: (وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي) الْآيَةِ]

هذا الباب أيضًا في أنّ الأدب مع الله في الألفاظ من كمال التوحيد.

ومن ذلك: أن يَنسِب العبد بلسانه النعمة إلى الله عز وجل ويشكره عليها، ويَبرأ من حوله وقوته، فيَنسِب الفضل كله لله سبحانه وتعالى، فيكون شأنه إن كان غنيًا كأنه يقول: لولا الله ما اغتَنيتُ، فالفضل كله لله. وإن كان صحيحًا معافى

كأنه يقول: لولا الله ما عُوفيتُ، فالفضل كله لله. وإن كان ذا علم كأنه يقول: لولا الله ما عَلِمْتُ، فالفضل كله لله.

وينافي كمال التوحيد: أن ينسب الإنسان بلسانه النعمة إلى نَسَبِه، أو شَرَفه، أو حوله، أو قوته، أو مهاراته، أو ذكائه. ومَن فعل ذلك -أعني نسب النِّعمة إلى نسبه وشرفه أو إلى قوة عائلته أو إلى ذكائه أو إلى مهاراته- فقد قَدَحَ ذلك في توحيده، وأساء الأدب مع ربه، وكان عُرْضةً لأن يَسلب الله عز وجل منه تلك النعمة.

فهذا الباب في تقرير هذا الأمر العظيم.

يقول الشيخ: (باب ما جاء في قول الله تعالى: {وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي}، يقول الله عز وجل: {لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ (٤٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى}، قوله: {لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ} الإنسان هنا: هو الكافر، فـ(الـ) هنا للعهد، وليست للجنس، فليس كل إنسان وإنما الإنسان الكافر، لا يَمَلُّ من الدعاء ما دام في الخير، ويسألُ الله الخير، وإن ناله الضرر في نفسه أو أهله أو ماله أو معيشته يئس من رَوح الله ورحمته ومن كَشْفِ ذلك الضر. يقول الله عز وجل ما معناه: ولئن نحن كشفنا عنه ما أصابه من ضرر في نفسه أو ماله أو أهله أو معيشته

فوهبنا له عافية، أو رزقناه ولدًا صالحًا، أو رزقناه مالًا؛ ليقولَن: "هذا حق لي عند الله عز وجل، فأنا مستحقُّه، فيزعم هذا الكافر أنّ الله عَلِمَ أنه مستحقٌّ هذه النعمة فأنعَم عليه؛ وذلك لكرامته عنده بزعمه، أو لرضى الله عنه وعن عمله بزعمه! فلا يشكر النعمة؛ وإنما يتألّى على الله عز وجل ويغتر باستدراج الله عز وجل له.

هذا حال الكافر مع النِّعم، لا يشكر الله على النعمة، حتى باللسان لا ينسبها إلى الله عز وجل، وإنما ينسبها إلى نفسه أو إلى أنه مستحقٌّ لهذه النعمة، وأنه نالها لاستحقاقه؛ لشرفه، لمهارته، لعلم الله أنه مستحق لها، وهذا يدله على كرامته عند الله، وأنّ له منزلة عند الله، وأنّ الله راضٍ عنه، وأنّ الله راضٍ عن عمله! فهذه من صفات الكفار، ولذلك يقول الكافر: {وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً} (الكهف: ٣٦)، لا أظن أنّ هناك بعثًا، ولو صدَّقتكم أنّ هناك بعثًا فإني سأُبعث على خير؛ لأنّ الله راضٍ عني؛ كما أعطاني في الدنيا سيعطيني في الآخرة! هكذا يظن الكافر، وما هو إلا وَهْمٌ.

ووجه الشاهد: أنّ من صفات الكفار أنهم لا يشكرون الله على النعمة ولو باللسان، فإذا تقلَّبوا في نِعَم الله عز وجل أضافوها إلى أنفسهم، وقالوا: هذه ملكنا ومن حقّنا ونحن مستحقُّون لها، ولم يدركوا أنّ الله يبتلي بالنِّعم كما يبتلي بالبلاء، ويَغفلون عن استدراج الله عز وجل لهم بالنَّعم، فمَن فَعَلَ ذلك من

المسلمين فتقلَّب في نِعم الله ومع ذلك يقول: هذه النعمة لي، ملكي؛ وذلك لشرفي، ونسبي، أو لذكائي، ومهارتي، أو لأني مستحقها! فإنه شابَه الكفار في ذلك، وأساء الأدب مع الله، ولم يشكر نعمة الله عز وجل عليه.

وكذلك مَن اغتر بالنِّعم؛ فرأى أنه ما دام أنه صحيحًا وعنده أولاد وعنده أموال أنّ هذا يدل على أنّ الله راضٍ عنه؛ فيَغفل عن عبادة الله، ويستدرجه الشيطان إلى المعاصي بهذا الاغترار، يكون قد تشبَّه بالكفار، وفيه شَبَهٌ وصفة من صفات الكفار، وأساء الأدب مع الله عز وجل.

إذن؛ بهذا نعلم أنّ الأدب وكمال التوحيد: أن ينسب المسلم النعمة إلى الله عزو جل بلسانه.

طيِّب؛ ما علاقة هذا الباب بالباب الذي تقدَّم معنا؛ وهو: باب قول الله: {يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا} (النحل: ٨٣)؟

الجواب: أنّ ذلك الباب في وجوب شكر النعمة وبيان كفرها، كيف يكون الإنسان –والعياذ بالله– كافرًا بالنعمة. أمّا هذا الباب ففي التأدُّب بالألفاظ مع الله عز وجل في باب النعمة، فليس تكرارًا لذلك الباب؛ وإنما هنا الشيخ يتكلم في هذه الأبواب عن التأدُّب مع الله في الألفاظ، ومنه هذا الباب: التأدب مع الله في الألفاظ في باب النعمة؛ وهو نسبة النعمة إلى الله باللسان

[قَالَ مُجَاهِدٌ: هَذَا بِعَمَلِي وَأَنَا مَحْقُوقٌ بِهِ]

قال مجاهد معنى: {هَذَا لِي} هذا بعملي، أنا اجتهدت وحصَّلت هذه النعمة، فالنعمة هذه جاءتني بعملي، ليس على أنّ العمل سبب للوصول إلى النعمة، (وأنا محقوق به) أي: مستحق لها، كأنه يُلزِم الله عز وجل بأن يعطيه هذه النعمة.

[وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يُرِيدُ مِنْ عِنْدِي]

يعني: من عند عملي واجتهادي، أو: من جهة الوراثة، فأنا ورِثت هذا عن آبائي وأجدادي.

[وَقَوْلُهُ: {قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي}. قَالَ قَتَادَةُ: عَلَى عِلْمٍ مِنِّي بِوُجُوهِ الْمَكَاسِبِ، وَقَالَ آخَرُونَ: عَلَى عِلْمٍ مِنَ اللهِ أَنِّي لَهُ أَهْلٌ]

نعم؛ هذا قارون، لمّا آتاه الله عز وجل المال الكثير، والكنوز العظيمة، حتى أنّ مفاتيح خزائنه تنوء وتثقل بحملها العصبة القوية، ليس المال وليست الخزائن، بل المفاتيح فقط التي تَفتح الخزائن، العصبة من الرجال الأقوياء لا يستطيعون حملها، فكيف بالمال والخزائن؟! فأنعم الله عز وجل عليه بهذا المال العظيم، ونَصَحَه قومه، ومع ذلك أبى، وقال: {إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي}، وفسَّر السلف هذه الجملة بتفسيرَين:

التفسير الأوّل: على عِلم مني أنا، على علم من قارون بوجوه المكاسب، والمهارة في جذب الأموال وكسب الأموال.

والتفسير الثاني: على عِلم من الله أني أستحق هذا، وأنّ هذا من حقّي، فالله أعطاني إياه ليس تفضُّلًا منه؛ وإنما لأني مستحقّ، فأنا مستحقّ هذا.

وكلا المعنيَين باطل. فتحصَّل من كلام السلف عن الآيتَين درجتان، تقع من الكفار في باب النعمة في اللسان:

الدرجة الأولى: أن يَنسب الكافر النعمة لنفسه، ولا ينسبها لله أصلًا. وهذه أقبح الدرجتَين، وهي شرك في الربوبية.

والدرجة الثانية: أن يَنسب النعمة إلى الله لكن يَزعُم أنه مستحق لها. هذه النعمة من الله، ولكن لم يَنلها بفضل الله؛ وإنما يزعم أنه نالها لأنه مستحقّ لها.

وسبحان الله ما أعظم جهل هؤلاء، ومَن أشْبَههم من المسلمين في هذا الباب! فإنّ الذي خَلق الإنسان أصلًا هو الله، أنت بحركتك وقوتك وعقلك إنما خلقك الله، فالمنعِم بك أنت أصلًا هو الله سبحانه وتعالى، والمهارة والقدرة وهبها الله عز وجل، فلولا الله ما حصَّلها، والنعمة الحاصلة الواصلة أعطاها الله عز وجل؛ فكيف لا يَنسِب العبد الضعيف النعمة إلى الله ويقول: هذه كلها من الله والفضل كله لله سبحانه وتعالى؟!

[وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ مُجَاهِدٍ: أُوتِيتُهُ عَلَى شَرَفٍ]

يعني أنّ قول مجاهد يشمل الأمرَين: أوتيته على شرف فيّ؛ من جهة علمي، ومن جهة علم الله بأني مستحقٌّ لهذه النعمة. عياذًا بالله من سوء الأدب.

[وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «إِنَّ ثَلَاثَةً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَبْرَصَ وَأَقْرَعَ وَأَعْمَى، فَأَرَادَ اللهُ أَنَّ يَبْتَلِيَهُمْ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكًا، فَأَتَى الْأَبْرَصَ فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟. قَالَ: لَوْنٌ حَسَنٌ، وَجِلْدٌ حَسَنٌ، وَيَذْهَبُ عَنِّي الَّذِي قَدْ قَذَرَنِي النَّاسُ بِهِ. قَالَ: فَمَسَحَهُ، فَذَهَبَ عَنْهُ قَذَرُهُ، فَأُعْطِيَ لَوْنًا حَسَنًا، وَجِلْدًا حَسَنًا. قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟. قَالَ: الْإِبِلُ أَوْ الْبَقَرُ. –شَكَّ إِسْحَاقُ– فَأُعْطِيَ نَاقَةً عُشَرَاءَ، وَقَالَ: بَارِكَ اللهُ لَكَ فِيهَا. قَالَ: فَأَتَى الْأَقْرَعَ فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟. قَالَ: شَعْرٌ حَسَنٌ، وَيَذْهَبُ عَنِّي الَّذِي قَدْ قَذَرَنِي النَّاسُ بِهِ. فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ، وَأُعْطِيَ شَعْرًا حَسَنًا، فَقَالَ: أَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟. قَالَ: الْبَقَرُ أَوْ الْإِبِلُ. فَأُعْطِيَ بَقَرَةً حَامِلاً، قَالَ: بَارِكَ اللهُ لَكَ فِيهَا. فَأَتَى الْأَعْمَى، فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: أَنْ يَرُدَّ اللهُ إِلَيَّ بَصَرِي فَأُبْصِرُ بِهِ النَّاسَ. فَمَسَحَهُ فَرَدَّ اللهُ إِلَيْهِ بَصَرَهُ، قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟. قَالَ: الْغَنَمُ. فَأُعْطِيَ شَاةً وَالِدًا، فَأُنْتِجَ هَذَانِ، وَوَلَّدَ هَذَا، فَكَانَ لِهَذَا وَادٍ مِنَ الْإِبِلِ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الْبَقَرِ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الْغَنَمِ، قَالَ: ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الْأَبْرَصَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ، قَدْ اِنْقَطَعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي، فَلَا بَلَاغِ لِيَ الْيَوْمَ إِلَّا بِاللهِ ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي أَعْطَاكَ اللَّوْنَ الْحَسَنَ وَالْجَلْدَ الْحَسَنَ وَالْمَالَ بَعِيرًا أَتَبَلَّغُ بِهِ فِي سَفَرِي. فَقَالَ: الْحُقُوقُ كَثِيرَةٌ. فَقَالَ لَهُ: كَأَنِّي أَعْرِفُكَ! أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ يَقْذَرُكَ النَّاسُ، فَقِيرًا، فَأَعْطَاكَ اللهُ الْمَالَ؟. فَقَالَ: إِنَّمَا وَرِثْتُ هَذَا الْمَالَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ.

فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ اللهُ إِلَى مَا كُنْتَ. قَالَ: وأَتَى الْأَقْرَعَ فِي صُورَتِهِ، فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِهَذَا، وَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا رَدَّ عَلَيْهِ هَذَا، فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا، فَصَيَّرَكَ اللهُ إِلَى مَا كُنْتَ. قَالَ: وَأَتَى الْأَعْمَى فِي صُورَتِهِ وهيئته فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ وَابْنُ سَبِيلٍ، قَدْ اِنْقَطَعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي، فَلَا بَلَاغَ لِيَ الْيَوْمَ إِلَّا بِاللهِ ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ، شَاةً أَتَبَلَّغُ بِهَا فِي سَفَرِي. فَقَالَ: قَدْ كُنْتُ أَعْمَى فَرَدَّ اللهُ إِلَيَّ بَصَرِي، فَخُذْ مَا شِئْتَ، وَدَعْ مَا شِئْتَ، فَوَاللهِ لَا أَجْهَدُكَ الْيَوْمَ بِشَيْءٍ أَخَذْتَهُ لِلَّهِ. فَقَالَ: أَمْسِكْ مَالَكَ، فَإِنَّمَا ابْتُلِيتُمْ، فَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنْكَ، وَسَخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ» أَخرجَاهُ]

هذا الحديث في الصحيحين، وهو حديث طويل فيه قصة، والقصة في القرآن والسنة إنما تَرِدُ للعِبرة والاتّعاظ ولأخذ الفوائد منها، لا تُذكَر على سبيل التسلية، وقضاء الأوقات، وإنما تُذكَر ليَتفكّر فيها المتفكرون، ويَعتبِر بما فيها المعتبِرون.

فالنبي صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم يخبرنا بهذه القصة: «إِنَّ ثَلَاثَةً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ» وإسرائيل: اسم بالعبرانية، و(إسرا) بالعبرانية: أي صَفِيّ، و(إيْل) معناها: الله. فمعنى هذا الاسم بالعربية: صَفِيُّ الله، أنّ الله اصطفاه واختاره؛ وهو: نبي الله يعقوب. «إِنَّ ثَلَاثَةً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ: أَبْرَصَ» أيْ أنه تغيَّر لون جلده، حتى كان لجلده لونان، وهذا البرص،

تغيُّر في لون الجلد حتى يصبح للجلد لونان فيما يرى الناس. «وَأَقْرَعَ» أي ليس على رأسه شعر بالكلية. «وَأَعْمَى»: أي لا يُبصر. «فَأَرَادَ اللهُ أَنَّ يَبْتَلِيَهُمْ» أراد الله عز وجل أن يختبرهم، وأن يُظهِر شأنهم للناس ليَعتبروا به. «فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكًا» جاءهم على هيئة إنسان، «فَأَتَى الْأَبْرَصَ فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: لَوْنٌ حَسَنٌ، وَجِلْدٌ حَسَنٌ، وَيَذْهَبُ عَنِّي هذا الَّذِي قَدْ قَذَرَنِي النَّاسُ بِهِ» أي استقذرني الناس من أجله، وأخذوا يبتعدون عني ولا يحبون الخلطة بي؛ بسبب هذا التغير في الجلد، «قَالَ: فَمَسَحَهُ» قال العلماء: ليَعلم العِباد أنّ لكل شيء سببًا، ما كان المَلك بحاجة لأن يمسحه، فمسحه ليَتعلَّم العِباد أنّ للأشياء أسبابها، والله يُجري الأسباب والمسببات.«فَذَهَبَ عَنْهُ قَذَرَهُ، فَأُعْطِيَ لَوْنًا حَسَنًا، وَجِلْدًا حَسَنًا» ومعنى هذا أنّ البرص يمكن أن يزول، وأنّ له علاجًا يَغفل عنه كثير من الناس، علاج البرص ليس عند الأطباء، فإنّ هذا المرض لم يَعرف الأطباء ما يُذهبه، وإنما يخفِّفونه أو يجرون عمليات تسمى بتوحيد اللون، أمّا علاجه حتى يَذهب البرص ويأتي اللون الحسن فهو: كثرة الدعاء، وسؤال الله عز وجل أن يُذهِب هذا عن العبد، والإلحاح في هذا؛ فإنّ الله على كل شيء قدير سبحانه وتعالى. ومن ذلك أن يَشرب المبتلى بالبرص ماء زمزم، ويَتضلَّع منه، سواء في مكة أو في بلده، إذا حُمِلَ له زمزم من مكة أو جاء هنا في المدينة، يَشرب ويَتضلَّع ويسأل الله أن يُذهِب عنه هذا، فإنه كما تقدَّم معنا: «ماء زمزم لِمَا شُرِب

له»، فإذا شرب ماء زمزم بنية أن يشفيه الله من هذا؛ فإنّ هذا من الدواء لهذا الداء.

«قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْإِبِلُ أَوْ الْبَقَرُ. –شَكَّ إِسْحَاقُ–» شك إسحاق بن عبد الله؛ أحد رواة الحديث، إسحاق بن عبدالله عَلِمَ أنّ الأبرص والأقرع أن أحدهما قال: الإبل، والثاني قال: البقر، لكن شك مَن منهما قال هذا، ومن منهما قال هذا! هذا معنى شك إسحاق؛ هو يَعلم أنّ الأبرص والأقرع قال أحدهما الإبل وقال الثاني البقر؛ لكن شك مَن الذي قال منهما الإبل ومَن الذي قال منهما البقر؟

والظاهر –والله أعلم– أنّ الأبرص قال: الإبل؛ بدلالة السياق التالي إلى آخر الحديث، فهذا الأقرب، والله أعلم.

«فَأُعْطِيَ نَاقَةً عُشَرَاءَ» الناقة العشراء: الحامل التي كادت أن تلد، قرُبت ولادتها، قال بعض أهل العلم: في الشهر الثامن، وقال بعضهم: في الشهر العاشر. والمهم أنّ المقصود: أنها قريبة الولادة. «وَقَالَ: بَارِكَ اللهُ لَكَ فِيهَا» هذه الجملة يُحتَمل أنها دعاء من المَلك له بأن يبارِك الله له فيه، ويُحتَمل أنه خبر: خُذْ هذه ناقةً قد بارك الله فيها، فأخبره أنّ الله بارك له فيها.

«قَالَ: فَأَتَى الْأَقْرَعَ فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: شَعْرٌ حَسَنٌ» سبحان الله! طبيعة الإنسان أنه إذا رُجِّيَ بالخير يَطمع، هذا أقرع ما عنده شعر، ربما كان

قبل هذا يتمنى الشعر؛ فلمّا رُجِّي بالخير: أيُّ شيءٍ أحبّ إليك؟ قال: (شعر حَسن)، ما قال: شعر، ما قال شعر قال: شعر حسن، هكذا الإنسان، ربما أنّ الإنسان يُحرَم من الولد بعد الزواج سنتين أو ثلاث سنين أو أربع سنين أو خمس سنين؛ فيتمنى أن يُرزَق ، فإذا قالوا له: امرأتك حامل، فقال: لعله ولد! قبل هذا ما كان يخطر بباله ولد أو بنت؛ المهم أن يأتيه شيء، لكن إذا رُجِّي الخير وعَلِمَ أنّ امرأته حامل يطمع أن يكون الأوّل ولد؛ ليقوم بالبيت. وهذه من طبيعة الإنسان أنه إذا رُجِّيَ بالخير طَمِعَ، طبيعة الإنسان أنه أوّل أمره يريد أن يَجتنب المَفسدة، فإذا عَلِمَ أنه اجتنب المَفسدة رَجى المصلحة، فإذا ترجَّى المصلحة رَجى أعلى المصلحة.

وأنا دائمًا أقول للإخوة: مثلا الطالب إذا اختبر وكانت الأسئلة صعبه فإنّ أوّل ما يقابل الأستاذ: هاه يا شيخ! عسى ما فيه رسوب؟ فإذا قال له الشيخ: لا، الحمد لله الجميع نجح، أَمِنَ المَفسدة، وعَلِمَ المصلحة أنه ناجح، فيقول: عسى الممتازين كثير؟

فهذا الأقرع لمّا رُجِّي ما قال: شعر، ولكن قال: (شعر حَسن، وَيَذْهَبُ عَنِّي الَّذِي قَدْ قَذَرَنِي النَّاسُ بِهِ)، قال بعض أهل العلم: هذا يدل على أنهم كانوا لا يَلبسون العمائم؛ وإنما كانت رؤوسهم مكشوفة، ولذلك هو وسط الناس أقرع ما له الشعر والناس لهم شعور يستقذرونه بهذا الصلع التام في وسطهم، فسأل الله

أو طلب أن يَذهب عنه هذا. «فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ، وَأُعْطِيَ شَعْرًا حَسَنًا، فَقَالَ: أَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْبَقَرُ أَوْ الْإِبِلُ» هذا أيضًا شكٌّ من إسحاق؛ كما قدمنا، (فَأُعْطِيَ بَقَرَةً حَامِلاً» أي: قريبة الولادة؛ كما يدل عليه السياق، «قَالَ: بَارِكَ اللهُ لَكَ فِيهَا. فَأَتَى الْأَعْمَى، فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: أَنْ يَرُدَّ اللهُ إِلَيّ بصَرِي» وهذا لفظ البخاري ومسلم، وفي بعض نسخ كتاب التوحيد: «أن يَرُدَّ الله علي بصري»، لكن الذي في الصحيحين: «إلي»؛ كما في بعض نسخ الكتاب. (فَأُبْصِرُ بِهِ النَّاسَ. فَمَسَحَهُ فَرَدَّ اللهُ إِلَيْهِ بَصَرَهُ، قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْغَنَمُ. فَأُعْطِيَ شَاةً وَالِدًا» قيل: (والدًا) معناها: معها ولدها، وقيل: قريبة الولادة، والشيء القريب يعبِّر عنه العرب بالمآل، (شاة والدًا) أي: أنها حامل تكاد أن تلد، فكأنها والد.

قوله: «فَأُنْتَجَ هَذَانِ» ويضبط أيضا: «فَأَنْتَج هذان» بفتح الهمزة أو ضمها، والناتج هو الذي يولِّد الناقة أو البقرة؛ يسمى ناتجًا، يقول العلماء: كالقابِلة للأنثى من بني آدم عند ولادتها، الناتج الذي يولِّد الناقة أو يولِّد البقرة، فمعنى: «فأنتج هذان» أي: تتابعت ولادة الناقة والبقرة عندهما، واسم الإشارة: (هذان): يرجع إلى الأبرص، والأقرع.

قوله: (وَوَلَّدَ هَذَا) أي: ولَّد الغنم، ولَّد هذا الذي كان أعمى الغنمَ، فكثُر ولد الغنم عنده، فبورك لهم في هذا المال. «فَكَانَ لِهَذَا وَادٍ مِنَ الْإِبِلِ، وَلِهَذَا وَادٍ

مِنَ الْبَقَرِ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الْغَنَمِ» فكان لهذا وادٍ ملئ بالإبل، ولهذا وادٍ من البقر، ولهذا وادٍ من الغنم، «قَالَ: ثُمَّ إِنَّهُ» أي: الملك. «أَتَى الْأَبْرَصَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ» هل معنى في صورته وهيئته يعني في صورة المَلك وهيئة المَلك؟ الجواب: لا؛ وإنما في صورته السابقة وهيئته السابقة عند ما جاءه وهو أبرص، جاءه كما جاءه المرة الأولى؛ وذلك ليكون ذلك مذكِّرًا له إن كان في قلبه حياة، لم يأته بصورة ثانية، وهذا من باب التذكير وإقامة الحجة عليه. «قَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ» وفي بعض نسخ الكتاب: «وَابْنُ سَبِيلٍ»، وهذه الجملة: «وَابْنُ سَبِيلٍ» ليست عند البخاري ومسلم فيما هو مطبوع، لكن قال ابن حجر: زاد شيبان: «وَابْنُ سَبِيلٍ». و"ابن سبيل" معناه: المسافر الذي انقطع في طريقه. «قَدْ انْقَطَعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي» الحبال: قيل: الأسباب، تقطعت بي الأسباب، ما عندي سبب يوصلني إلى أهلي. وقال بعض أهل العلم: الحبال: هي الطُّرق. وقال بعض أهل العلم: الحبال: هي كُثبان الرِّمال. يعني: ما معي شيء وأنا طريقي طويل، فانقطع بي الطريق في سفري، و بعض نسخ الكتاب «في سفري هذا»، و"هذا" اسم الإشارة هنا ليس عند البخاري ولا مسلم. «فَلَا بَلَاغِ لِيَ الْيَوْمَ إِلَّا بِاللهِ ثُمَّ بِكَ» أي: لا وصول إلى بلدي وأهلي إلا بالله ثم بك. وهذا يدل على أنّ القوم كانوا يعرفون التوحيد، وكمال التوحيد، فإنه لم يقل: فلا بلاغ لي اليوم إلا بك، ولم يقل: فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله وبك، وإنما قال: «فلا بلاغ لي اليوم إلا

بالله ثم بك» وهذا جائز؛ لأنّ هذا الإنسان يستطيع أن يعينه، ولم يسوِّي بين الله وبين المخلوق. فهذا من كمال التوحيد.

«أَسْأَلُكَ بِالَّذِي أَعْطَاكَ اللَّوْنَ الْحَسَنَ وَالْجِلْدَ الْحَسَنَ وَالْمَالَ بَعِيرًا أَتَبَلَّغُ بِهِ فِي سَفَرِي» المذكِّر الأوَّل: أنه جائه بصورته وهيئته. المذكر الثاني: أنه في سؤاله ذكَّره: «أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن، والجلد الحسن، والمال»، ذكَّر ه بالحالة السابقة بإشارة خفية. «بعيرًا أتبلَّغ بها في سفري» أي: أتوصل بها إلى مرادي. «فَقَالَ: الْحُقُوقُ كَثِيرَةٌ» أي: لا أستطيع أعطيك؛ لأنّ هذا المال الذي في يدي حقّ الناس، ما هو لي، أنت ترى هذا الوادي المليء بالإبل هذه ماهي لي، هذه للناس، الحقوق كثيرة، فبَخِلَ وكَذَبَ، والبُخل يقود إلى الكَذِب، لا تجد بخيلًا إلا كذّابًا، البخل المطاع والشُّح المطاع يقود إلى الكذب، ولذلك هو من المهلِكات، من مهلكات العبد أن يكون شحيحًا مطيعًا لشُحِّه؛ لأنّ الشح يقود العبد إلى الكذب ولا بد، فكذَبَ وقال: الحقوق كثيرة، ما أستطيع أن أعطيك، هذا حق الناس، والذين يطالبونني أكثر من هذا المال. «فَقَالَ لَهُ: كَأَنِّي أَعْرِفُكَ! أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ يَقْذَرُكَ النَّاسُ، فَقِيرًا، فَأَعْطَاكَ اللهُ الْمَالَ؟): فجاء المذكِّر الصريح. الأوّل: في الهيئة. والثاني: إشارة في السؤال. الآن ذكَّره صريحًا بنعمة الله: كأني أعرفك من قديم «أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ يَقْذَرُكَ النَّاسُ، فَقِيرًا، فَأَعْطَاكَ اللهُ الْمَالَ؟ قَالَ: إِنَّمَا وَرِثْتُ هَذَا الْمَالَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ»؛ فلم يُنكِر البرص، ولكن

سكت، وقال في المال: إنما ورِثْتُ هذا المال كابرًا عن كابر. يقول العلماء: «كابرًا» منصوبة بنزع الخافض، والمعنى: ورثت هذا المال عن كابر عن كابر، ورثت هذا المال عن كبار آبائي وأجدادي، فزعم أنه من أسرة غنية شريفة، قال: لا، لا، أنت غلطان، أنا ما كنتُ فقيرًا، أنا رجل من أسرة عريقة مشهورة بالثراء، فمن أجدادي وهم أغنياء، جدي غني، وأبي غني ، فوصلني المال عن طريق كباري، فمع كل هذه المذكِّرات أبى أن يضيف النعمة إلى الله، وأضاف النعمة إلى شرفه وأسرته، قال المَلك: «إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ اللهُ إِلَى مَا كُنْتَ» هذا الرجل لم يَعترف بنعمة الله بلسانه، ولم يُعطِ حق الله في المال؛ فاستحقّ أن يدعو عليه المَلك؛ لكنه دعاء معلَّق، وفي هذا جواز الدعاء المعلَّق، إن كنت كاذبًا عليّ أسأل الله أن يبتليك بكذا، إن قصدتَ بهذا الكلام أذيَّتي؛ فأسأل الله أن يكشف سترك، ويفضح أمرك، هذا دعاء معلَّق، جائز، فإنّ المَلك قال: إن كنتَ كاذبًا فصيَّرك الله إلى ما كنت. «قَالَ: و أَتَى الْأَقْرَعَ فِي صُورَتِهِ» وهذه رواية مسلم. ورواية البخاري: «وأتى ». وفي بعض نسخ الكتاب: «قال: فأتى» ولكن هذه ليست عند البخاري ولا مسلم، «وهيئته» هذه عند البخاري وليست عند مسلم. أنا أذكر هذا لكي يُفسِّر لك اختلاف النسخ في الكتاب، «فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِهَذَا، وَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا رَدَّ عَلَيْهِ هَذَا، فَقَالَ) في بعض نسخ الكتاب: (له)، وهذه ليست عند البخاري ولا مسلم، «إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا، فَصَيَّرَكَ اللهُ إِلَى مَا كُنْتَ، قَالَ:

وَأَتَى» وهذا لفظ مسلم. وعند البخاري: (وأتى). وفي بعض نسخ الكتاب: «قال: فأتى» وهذا ليس عند البخاري ولا مسلم. «الْأَعْمَى فِي صُورَتِهِ وهيئته» "وهيئته" هذه عند مسلم، وليست عن البخاري، «فَقَالَ له: رَجُلٌ مِسْكِينٌ وَابْنُ سَبِيلٍ، قَدْ اِنْقَطَعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي، فَلَا بَلَاغَ لِيَ الْيَوْمَ إِلَّا بِاللهِ ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بالَّذِي رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ، شَاةً أَتَبَلَّغُ بِهَا فِي سَفَرِي. فَقَالَ: قَدْ كُنْتُ أَعْمَى فَرَدَّ اللهُ علي بَصَرِي» فاعترف بنعمة الله عز وجل، وبأنه كان في ضُرٍّ فرفع الله عنه ضُرَّه، «وفقيرًا فقد أغناني» هذه عند البخاري، وليست موجودة في نُسخ الكتاب. فاعترف بالنعمتَين؛ قال: كنت أعمى فردّ الله إلى بصري، وكنت فقيرًا فأغناني الله، فاعترف بالنعمتَين، ونَسَبَ النعمتَين إلى الله عز وجل، «فَخُذْ مَا شِئْتَ، وَدَعْ مَا شِئْتَ» "ودع ما شئتَ" عند مسلم في الكتاب المطبوع بين أيدينا، وليس عند البخاري، لكن قال ابن حجر: وزاد شيبان: «ودع ما شئت»، يعني: ليست شاة واحدة.

طلب منه ماذا؟ شاة واحدة، قال: لا، هذا الغنم كله من فضل الله؛ فخذْ ما شئتَ، ودع ما شئتَ. «فَوَاللهِ لَا أَجْهَدُكَ الْيَوْمَ بِشَيْءٍ أَخَذْتَهُ لِلَّهِ» أي: لا أشقّ عليك ولا ألومك بشي أخذته لله عز وجل . وقال بعض أهل العلم: المعنى: لا أسامحك إن تركتَ شيئًا أنت تحتاجه، وهذا من تمام كرمه، ما هو فقط أعطاه؛ وإنما قال: لا أسامحك وأنا خصمك بين يدي الله إن تركت شيئًا تحتاجه، إن

كنتَ تحتاج خمسًا خُذْ خمسًا، ما أسامحك لو أخذتَ أربعًا! وهذا من تمام كرمه وقيامه بحق الله في هذا المال. « فَقَالَ: أَمْسِكْ مَالَكَ، فَإِنَّمَا ابْتُلِيتُمْ» اختبركم الله. «فَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنْكَ» وهذا دليل على أنّ مَن شكر الله على النعمة، وأضافها بلسانه إلى الله، وأدّى حق الله فيها: رضي الله عنه.

من أسباب الرضى أن تكون شكورًا في النِّعم، كلنا نريد أن يرضى الله عنّا، ولرضى الله طُرق فتحها الله لنا من رحمته نسلكها لنصل إلى رضى الله، منها: ألَّا ننظر إلى الناس، فكأن الناس عَدم، وإنما ننظر إلى إرضاء الله، نتكلم لنُرضي الله، ما يهمُّنا ولو غضب الناس، ما دمنا تيقّنا أنّ هذا الكلام يرضي الله، لو اجتمع أهل البلد برئيس الدولة بالوزراء بالجيش وغضبوا من كلامنا الذي هو حق ودين الله –ليس أمرًا خارجًا عن هذا– نظرنا إلى إرضاء الله، وقلنا ما يرضي الله، وقمنا بما يرضي الله: نلنا رضى الله ، وأرضى الله عنا الناس، ممَّن في قلوبهم حياة. أمّا المريض بالهوى والشَّيطنة فهذا ما يرضيه شيء.

ولذلك من جميل كلام العلماء: أنّ إرضاء الحاكم المسلم يكون: باحترامه، ولزوم شرع الله.

رضى الحاكم المسلم عن الشعب طريقه ماذا؟ أن نحترم الحاكم، ما نسبُّه، ونسخر منه، ومن أمه، ومن والده، ومن أفعاله، لا، شرعًا يجب أن يُحترَم ولي الأمر المسلم، وإن كانت له أخطاء يُنصَح فيما بينه وبين الناصح، لكن تُحفَظ

هيبته، ويُلزَم شرع الله، ما يُرضى الحاكم بترك دين الله، يأتي الحاكم ما يريد واجبًا من الواجبات، ويقول لنا: أنا ما أريد أن يصوم الناس هذه السنة في رمضان، إرضائه ليس بأن نقول له: نعم، الذي ترى فيه الخير، إرضاؤه أن نقول: لا، الخير والواجب عليك وعلينا أن نصوم في رمضان، أن نصلي في المساجد.

وأذكر في آخر السنين التي حج فيها الشيخ –ليس في آخر سنة وإنما في آخر السنوات– كنت مع الشيخ بن باز –رحمه الله– كنتُ معه في خيمته الخاصة، يوم العاشر أو الحادي عشر –أنا الآن شاك–، قُبيل الظهر، فقيل للشيخ: الأمير نايف رحمه الله رحمة واسعة –هذا الرجل كان نعمة على البلاد والمسلمين، كان رجلًا عجيبًا، سمعتُ منه عن قُرب؛ كيف أنه يَعرف ويَعلم كثيرًا من الأحكام مع معرفته لِمَا يُخطِّط له الحزبيون والجماعات الحزبية لإفساد الديار الإسلامية، عجيب رحمه الله، قد مات، أنا أتكلم عنه وقد مات. حدثني الثقة: أنه كان في مجلس، فقام أحد جلسائه يتحدث عن بعض رجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقال: هؤلاء الذين يطيلون لحاهم يفعلون ويفعلون! قال: "هؤلاء هم الذين على الحق، أمّا نحن فعصاة"، يعني: الذين يحلقون اللحية، فرحمه الله رحمه واسعه، أسال الله عز وجل أن يغفر له وسائر أموات المسلمين وأن يدخله الجنة– قالوا: الأمير نايف جاء ليسلم على الشيخ بمناسبة العيد، فاستأذنت، فقال: الشيخ لا اجلس، فدخل الأمير نايف –رحمه الله ورحم الله الشيخ–

وجلس في الخيمة، فكان عن يمين الشيخ، وكنتُ عن يسار الشيخ، فدار الحديث وطال، وكان في تلك الأيام الحديث عن رمي الجمار، فقال الشيخ: يوسِّع الناس على أنفسهم ويرمون في الليل، فقال الأمير نايف رحمه الله رحمه واسعه: "والنساء يوكِّلن"؛ يعني: يوكلن في الرمي. فقال الشيخ: لا، لا، يرمين بأنفسهن ولكن في الليل ولكن في الليل. فقبِلها الأمير، فرحم الله الشيخ ورحم الله الأمير.

طريق إرضاء الحكّام ليس أن نتنازل عن شرع الله، يأتي ويقول: نريد أن نساوي بين الذكر والأنثى في الميراث! ليست السلفية أن نوافِقه ونقول: طيب، طيب! بل يجب أن نذهب إليه وننصحه إذا استطعنا، أو يذهب كبارنا ويقولون: هذا كفر.

الذي يقول: إنّ التفريق كما في القرآن والسنة في الميراث ظلم؛ يقال له: هذا كفر بالله، وأنت –إن شاء الله– أكبر من هذا، ينصحونه ويبيِّنون له.

إرضاء الحكام في أن نحترمهم، ونحافظ على هيبتهم، ونناصحهم، ونلزم شرع الله، ما يجوز تركه للمصلحة تركناه؛ المستحب، المكروه نفعله. أما الواجب وفعل الحرام فنلزم شرع الله سبحانه وتعالى؛ لماذا؟ لأنّا إذا فعلنا أرضينا الله، وإذا أرضينا الله أرضى عنّا مَن شاء من عباده.

ما أجمل هذا الدين! ما ترك شيئًا إلا علَّمنا كيف نسير فيه سيرًا حسنًا مباركًا. وأنا أتكلم الآن عن الكليات لا عن التفصيليات.

إذن؛ من طُرق إرضاء الله: أن تكون شكورًا عند النعمة، فإذا أكلت طعامًا شكرت الله على هذا الطعام، فيرضى الله عنك، إذا لبست ثوبًا شكرت الله على هذا الثوب؛ فيرضى الله عنك أن تكون شكورًا عند النعمة؛ ولذلك قال: «فقد رضي الله عنك»، لأنّ هذا الأعمى الذي كان أعمى قد شكر الله، وأقرّ بفضل الله، ولم يَنسب النعمة إلى نفسه ولا آبائه ولا لأجداده، «وَسَخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ» فدلّ على أنّ عدم شكر النعمة، وعلى أنّ نسبة النعمة إلى المهارة والذكاء والحِذْق والعائلة الغنية والنَّسب الشريف مما يُسخِط الله سبحانه وتعالى.

والعبرة من هذه القصة: هوما ذكرناه أخيرًا؛ وهو: أنّ الواجب على المؤمن أن يشكر الله على النعمة، وأن يتأدّب مع الله في لفظه عند النعمة؛ فلا يَنسب النعمة إلى الأسباب ولو صدقت، وإنما يَنسبها إلى المنعِم وهو الله سبحانه وتعالى. فهذا من الأدب.

[فِيهِ مَسَائِلُ: الْأُولَى: تَفْسِيرُ الْآيَةِ]

الآية الأولى؛ لأنّ الشيخ ذكر آيتين، فمقصوده الآية الأولى التي ترجم بها الباب، ولعله أيضًا يريد الثانية معها، فتكون (الـ) لجنس الآيات؛ التي هي كلام قارون.

[الثَّانِيَةُ: مَا مَعْنَى: {لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي}]

وقلنا يَتحصَّل عندنا صورتان:

الصورة الأولى: أن يقول: هذا مِلكي؛ فيضيف النعمة إلى نفسه، ما أنعم بها عليَّ أحد، أبدًا، وإنما هذا ملكي أنا! وهذا شرك في الربوبية.

والصورة الثانية: أن يضيف النعمة إلى الله؛ لكن يَزعم أنها له حق، وأنه إنما نالها لاستحقاقه لا لفضل الله سبحانه وتعالى! وهذا باطل وسوء أدب.

[الثَّالِثَةُ: مَا مَعْنَى قَوْلِهِ: {قال إنما أُوتيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدي}]

{عَلَى عِلْمٍ عِنْدي﴾ أي: بسبب علمي أنا، وعند بعض السلف: بسبب علم الله أني مستحق لهذه الأموال.

[الرَّابِعَةُ: مَا فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ الْعَجِيبَةِ مِنَ الْعِبَرِ الْعَظِيمَةِ]

لا شك في هذا، فالقصة فيها عبر كثيرة عظيمة.

الدرس الرابع والستون: شرح بَابٌ قَوْلُ اَللَّهِ تَعَالَى: (فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا) اَلْآيَةَ

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَن يهدي الله فلا مضلَّ له، ومَن يُضلل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء: ١]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: ٧١]

أمّا بعد:

فإنّ أحسن الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكلّ محدَثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النار.

[بَابٌ قَوْلُ اَللهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا آتاهُمَا صَالِحـًا جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتاهُمَا﴾ اَلآيَةَ]

لا زلنا مع الأبواب المتعلِّقة بالأدب مع الله، وأنّ الأدب مع الله عز وجل في الألفاظ من كمال التوحيد الواجب.

فهذا الباب في الأدب مع الله في الألفاظ، ومن ذلك: شكر الله على نعمة الولد، فإنّ الولد نعمة عظمى، شكر الله على نعمة الولد بتسميته باسمٍ طيِّب، وبعدم تسميته بالتعبيد لغير الله عز وجل؛ حتى لو لم يقصد الإنسان حقيقة العبودية الشرعية، فإنّ الأدب الواجب مع الله في الألفاظ ألَّا تُعبِّد أحدًا إلا لله عز وجل، حتى لو قلتَ: أنا لا أقصد العبودية الشرعية، وإنما أقصد الخدمة، والإعانة، ونحو ذلك، فإنا نقول: الأدب الواجب مع الله في الألفاظ ألَّا تُعبِّد أحدًا لغير الله عز وجل، فهذا مقصود الباب. مقصود الباب: أنّ الأدب مع الله في الألفاظ من كمال التوحيد الواجب، وأنه لا يجوز لمَن وهبه الله نعمة الولد أن يسميه بالتعبيد لغير الله عز وجل، وأنّ في التعبيد لغير الله عز وجل إساءة أدب مع الله سبحانه وتعالى.

فبوَّب الشيخ بهذه الآية باب قول الله تعالى: {فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحـًا جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فتعالى الله عما يشركون} في بعض النُّسخ قال الشيخ: (الآية)، وفي بعض النُّسخ أتمّها في الترجمة.

وقد اختلف العلماء في المراد في قوله عز وجل: {فَلَمَّا آتَاهُمَا} مَن هما؟

فذهب أكثر العلماء: إلى أنهما آدم وحواء عليهما السلام. قال ابن جرير الطبري: "والصواب من القول في ذلك: أن يقال: أخبر الله عن آدم وحواء أنهما دعوا الله ربهما بحمل حواء، وأقسما لئن أعطاهما ما في بطن حواء صالحًا ليكونان لله من الشاكرين، فلمّا رزقهما الله ولدًا صالحًا كما سألا؛ جعلا له شركاء فيما أوتيا من المولود، أي: جعلا له شركاء في الاسم، أي: أنه أشْرَكه في طاعته في غير عبادة، ولم يُشرِك بالله، ولكن أطاعه". وأشار ابن جرير: إلى إجماع أهل الحجة من أهل التأويل على هذا.

إذن؛ ذهب أكثر العلماء إلى أنّ أوّل الآية: {فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا} في آدم وحواء.

طيِّب كيف يكون في آدم وحواء، وآدم عليه السلام نبي؟

قالوا: الشرك هنا ليس الشرك المنافي للتوحيد، وإنما الشرك هنا شرك في الطاعة في التسمية من غير قصد ما أراده إبليس، فهذا ليس من الشرك، سمَّياه مثلًا: عبد الحارث –كما سيأتي في بعض الروايات–، وإبليس كان يسمَّى الحارث، فأراد عبد الحارث؛ أي: عبد إبليس، وهما لم يريدا هذا، وإنما أطاعاه في الاسم من غير قصد المعنى. هذا معنى قولهم: إنه شرك في الاسم شرك في الطاعة وليس شركًا في العبادة. فهذه معصية.

فإن قال قائل: إنّ آدم عليه السلام نبي فكيف يعصي؟

قال بعض أهل العلم: عصى كما عصى في السماء، والله يتوب على أوليائه وأنبيائه.

وقال شيخنا الشيخ ابن باز –رحمه الله– كلاما طيِّبًا في هذا قال : لعله لم يكن حرامًا عندهما، ولم يبلغهما تحريمه، فليس معصية في حقِّهما أن يسمَّى عبد الحارث، أو يُعبَّد لغير الله، فلعله لم يكن قد بلغهما تحريم، يعني لم يكن نزل تحريم في هذا الأمر، فيكون كبعض مَن كانوا يتسمَّون بهذه الأسماء ثم غيَّروها لمَّا نزل التحريم، فلا تكون معصية إذ ذاك.

وأمّا آخر الآية في قول الله عز وجل: {فَتَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُون} فهو ليس في آدم وحواء؛ وإنما هو التفات إلى جنس المشركين، التفات من الشخص آدام وحواء إلى جنس المشركين. {فَتَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُون} أي: تعالى الله عما يشركُ به مشركو العرب من عبادة الأصنام، ثم جاءت الآيات بعد ذلك في حقِّهم، فهذا التفات.

وذهب بعض المفسِّرين والعلماء: إلى أنّ الآية ليست في آدم وحواء، وإنما في نفسٍ من نفوس بني آدم وزوجها، فهذا في الذُّرية وليس في آدم وحواء. فالمراد: المشركون من ذريته. قال ابن كثير: كما صحَّ عن الحسن –الحسن البصري– أنه كان يرى أنها في المشركين من ذرية آدم، وليست في آدم وحواء.

فكان الحسن يقول: هم اليهود والنصارى رزقهم الله أولادًا فهوَّدوا ونصَّروا. واختار هذا ابن كثير.

والشيخ السعدي: ذهب إلى أن أوّل الآية في آدم وحواء، ثم انتقل الكلام إلى الجنس عند قول الله عز وجل: {جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ}، فمن هنا التفات إلى الجنس، جنس بني آدم، والمقصود: مَن أشرك بالله منهم، جعلوا له شركاء فيما آتاهما.

وإذا نظرنا في سياق الآيات؛ نجد أنّ الله قال في أوّل الآية التي قبلها: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا}، وهذا ظاهر أنه في آدم وحواء، فالنفس الواحدة هي نفس آدم عليه السلام، وجعل منها زوجها: هي حواء التي خُلِقت من ضلع آدم عليه السلام. ثم قال سبحانه: {فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ} ظاهر السياق –والله أعلم– أنّ الزوج المذكور مع زوجته التي خُلِقت منه لمَّا جامع زوجته حملت حملًا خفيفًا في بداية الأمر–وحمل المرأة في بداية الأمر خفيف بالنسبة إلى آخره– فمرَّت به سريعًا، فلمّا أثقلت وثقل حملها وقربت ولادتها خافا ألَّا يلدا مولودًا سليما صحيحًا؛ فأقسما هذا القسم: {لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٨٩) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} (الأعراف: ١٨٩– ١٩٠)،

ظاهر السياق أنّ الكلام لا زال عن الزوجين المذكورَين، فتكون الآية في آدم وحواء بحسب السياق، ويكون الشرك هنا ليس الشرك المنافي للتوحيد، وإنما منافي للأدب بعد تحريم ذلك؛ وهو: أن يُعبَّد المولود لغير الله سبحانه وتعالى. وهذا معنى قول بعض أهل العلم: إنه شركُ طاعة، وليس المقصود شرك الطاعة الذي تقدَّم معنا في باب (من أطاع العلماء والأمراء)؛ لأنّ ذاك شرك طاعة في الأحكام؛ في التحليل والتحريم، أمّا هذا فهو طاعة في الاسم في اللفظ من غير قصْد ما فيه.

وأمّا السنة فلم يصحّ حديث في المسألة، الحديث الوراد في أنهما آدم وحواء ضعيف لا تقوم به حجة.

وأمّا الأثار عن الصحابة؛ فقد اُختُلف فيها، وسيأتي الكلام عنها إن شاء الله عز وجل.

والذي أميل إليه –والله أعلم–: قول الأكثر؛ أنها في قصة آدم وحواء، وأنّ الشرك هنا هو شرك في الاسم، وفي الطاعة في التسمية من غير قصْد ما في الاسم، ومن غير موافقة إبليس على مراده. فهذا أقرب. والله أعلم.

وليس مقصود الشيخ أن يتكلم فيمن كانت الآية فيهما؛ وإنما مقصود الشيخ: الكلام عن الأدب في الاسم، وأنّ من الأدب الواجب مع ربنا سبحانه

وتعالى: إذا وهب أحدَنا ولدًا –سواء كان ذكرًا أو أنثى– أن يُحسِن تسميته، وألَّا يُعبِّده لغير الله سبحانه وتعالى.

[قَالَ اِبْنُ حَزْمٍ: اِتَّفَقُوا عَلَى تَحْرِيمِ كُلِّ اِسْمٍ مُعَبَّدٍ لِغَيْرِ اَللهِ، كَعَبْدِ عَمْرٍو وَعَبْدِ اَلْكَعْبَةِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، حَاشَا عَبْدِ اَلْمُطَّلِبِ]

(قَالَ اِبْنُ حَزْمٍ) وهو من العلماء المعروفين بسعة معرفة الخلاف، فمع كونه ظاهريًّا كان من العلماء الملمِّين بخلاف العلماء، ولذلك إذا قرأتَ (المُحلَّى) تجد أنه يَذكُر خلاف الأئمة الأربعة، ومَن قبلهم، وخلاف الصحابة، وقد يذكر خلافًا بعدهم، سواء اختار هذا القول أو جاء بقول آخر؛ لكن كان مُلمًّا بالخلاف. وقد توفي سنة ست وخمسين بعد الأربعمائة من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم. فما يتأتَّى أن يأتي أحد ويقول: هذا وهابي! وإن كان بعض المجانين يمكن أن يقول هذا، فقد ذكرتُ لكم مرة أنّ أحد المجانين لمّا تُلِيت عليه آية في التوحيد قال: هذه آية وهابية! وهذا من تلاعب إبليس ببعض الناس. ابن حزم في كتابه (مراتب الإجماع) قال هذا القول: (اِتَّفَقُوا عَلَى تَحْرِيمِ كُلِّ اِسْمٍ مُعَبَّدٍ لِغَيْرِ اَللهِ، كَعَبْدِ عَمْرٍو وَعَبْدِ اَلْكَعْبَةِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، حَاشَا عَبْدِ اَلْمُطَّلِبِ).

وذَكَرَ هذا أيضًا بنصِّه ابن القطَّان، المتوفى سنة ثمان وعشرين بعد الستمائة من الهجرة في كتابه (الإقناع)، لم يَنسِبه لابن حزم لكنه ذكره بنصِّه: (اِتَّفَقُوا عَلَى

تَحْرِيمِ كُلِّ اِسْمٍ مُعَبَّدٍ لِغَيْرِ اَللهِ، كَعَبْدِ عَمْرٍو وَعَبْدِ اَلْكَعْبَةِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، حَاشَا عَبْدِ اَلْمُطَّلِبِ).

وهذا الإجماع معلومٌ مستقرٌّ؛ فإنه لا يوجد ما يَنقضه في كلام أهل العلم. فكلُّ اسم عبد لغير الله كعبد عمرو، وعبد الكعبة، وعبد العُزّى، وعبد الحسن، وعبد الحسين، وعبد النبي، وعبد جده، وعبد السيِّد –ويريدون بالسيِّد: مَن يسمونه الولي الصالح، وسيأتي كلام إن شاء الله عن هذا قريبا– فهذا حرامٌ بالإجماع.

وأمّا قوله: (حاشا عبد المطلب) فهل معناه أنهم أجمعوا على جواز عبد المطلب؟ أو معناه: حاشا عبد المطلب فإنهم لم يُجمِعوا على تحريمه؟

محتمِل من حيث الكلام؛ (حاشا عبد المطلب) يَحتمِل أنهم أجمعوا على جوازه، ويَحتمِل أنه أراد لم يُجمِعوا على تحريمه. لكنّ المراد: الثاني؛ وهو: أنه لم يُجمِعوا على تحريمه، وإنما اختلفوا فيه.

إذن؛ العلماء قد أجمعوا من قبل زمن ابن حزم على تحريم كل اسم معبَّد لغير الله، كعبد عمرو، وعبد السيِّد، وعبدالنبي. وقلت لكم: لا يوجد خارقٌ لهذا الإجماع، وإنما وقع الخلاف في اسم عبد المطلب فقط، فأجازه أقوام قالوا: يجوز أن يسمَّى بعبد المطلب؛ ومنهم: اللجنة الدائمة للبحوث العلمية برئاسة

ابن باز –رحمه الله–؛ حيث قالوا في فتوى: "التسمية باسم عبد المطلب لا محذور فيها"، واحتج المجوِّزون بأمرين:

الأمر الأوّل: أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أنا النبي لا كَذِب، أنا ابن عبد المطلب» كما في الصحيحين. والنبي صلى الله عليه وسلم لا يقول إلا حقًّا، ولا يقول شركًا.

وأجيبَ عن هذا الاستدلال: بأنه حكاية نَسَبٍ قديم، وليس تسميةٍ جديدة، والنَّسب القديم يُحكى كما هو ولا يُغيَّر، فالميت لا يُغيِّر اسمه، وإنما يُغيِّر اسم الحي. فيجوز للإنسان مثلًا أن يقول: هذا محمد بن عبد الرحيم بن عبد الخالق بن عبد النبي، هكذا اسمه، جدُّه كان يسمَّى عبد النبي، ما يقال له: أشركتَ؛ إذا قال هذا جدُّه اسمه عبد النبي، أو هذا فلان بن فلان بن عبد النبي، فحكاية النَّسب جائزة، فالنَّسب يُحكى كما هو، فليس في ذلك حجة.

كما أجيب: بأنه لو جازَ التسمية بعبد المطلب لأنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال هذا، لجازت التسمية بعبد مناف، وأنتم توافقوننا على أنه لا يجوز؛ وأنه لا يُستثنى إلا عبد المطلب، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «يا بني عبد مناف لا أُغني عنكم من الله شيئًا»، فناداهم باسم جدهم، والحديث في الصحيحين، والإجماع منعقِد على تحريم هذا، فكما أنه لم يَجُز التسمية بعبد

مناف مع أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قاله؛ فإنه لا تجوز التسمية بعبد المطلب؛ بحجة أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قاله.

والدليل الثاني: قالوا: إنّ ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم كان اسمه: عبد المطلب ابن ربيعة، وهو صحابي، ولم يُغيِّره النبي صلى الله عليه وسلم، وقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم، وكلم النبي صلى الله عليه وسلم، وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم، قالوا: لم يُغيِّره النبي صلى الله عليه وسلم.

وأجيب عن هذا: بأنّ اسمه المطلب، وليس عبد المطلب، ولكن لشهرة اسم عبد المطلب على الألسنة سمَّاه بعض العلماء: عبد المطلب؛ وإلا فاسمه المطلب.

قال ابن حجر رحمه الله : "قال ابن عبد البر: كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يُغيِّر اسمه فيما عَلِمْت "، قال ابن حجر: "قلتُ: وفيما قاله نظر؛ فإنّ الزبير بن بكَّار أعلَم من غيره بنسب قريش وأحوالهم، ولم يَذكُر أنّ اسمه إلا المطلب" –لم يذكر عبد المطلب؛ وإنما ذكر أنّ اسمه المطلب، وهو أعلم بنسب قريش– "وقد ذكر العسكري أنّ أهل النَّسب إنما يسمُّونه المطلب"–أهل الأنساب والعِلم في الأنساب له عندهم اسم واحد: المطلب– "وأمّا أهل الحديث فمنهم مَن يقول: المطلب، ومنهم مَن يقول: عبد المطلب".

فتبيَّن بهذا: أنّ اسمه كان: المطلب، وليس عبد المطلب، هكذا اتفق عليه أهل الأنساب؛ وهم أولى في هذا الباب. وذِكْرُ بعض علماء الحديث له باسم عبد المطلب؛ غلبة اسمٍ لشهرته؛ لأنّ اسم عبد المطلب أشهر من اسم المطلب؛ فسمّوه كذلك.

وبهذا يتبيَّن أنه لا حجة للمجيزين.

وجماعات من العلماء ذهبوا إلى أنّ هذا حرام؛ لعموم النصوص، فيَحرُم أن يُسمَّى بعبد المطلب؛ لعموم النصوص.

وأمّا ما ذكره بعض المتأخِّرين في زماننا، وأصدروا فيه فتوى من جواز التسمية بعبد النبي، وبعبد السيد، ونحو ذلك، واحتجوا بثلاثة أمور:

الأمر الأوّل: الحجة الأولى للقائلين بالجواز: «أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب»، وقاسوا على عبد المطلب بقية الأسماء.

وقد عَلِمْنا أنه لا حجة في هذه أصلًا فضلًا عن القياس، القياس فاسد؛ لأنه مخالف للإجماع، لكن لا حجة أصلًا في التسمية بعبد المطلب، فلا الأصل الذي قاسوا عليه صحيح، ولا القياس صحيح.

أي أننا نقول: لو كان الأصل صحيحًا، وكانت تجوز التسمية بعبد المطلب؛ لا يجوز قياس التعبيد لغير الله عليه؛ لِمَ؟ لأنّ العلماء مُجمِعون على تحريم التعبيد لغير الله عز وجل؛ حاشا عبد المطلب، فهذا يَمنع من القياس.

والحجة الثانية: قالوا: إنّ ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم كان اسمه عبد المطلب، وقاسوا عليه بقية الأسماء؛ كعبد النبي، وعبد السيد، وهذا أيضًا لا يصح؛ لأنّ الأصل لا يصح، ولو صحّ الأصل ما صحّ القياس؛ لوجود الإجماع السابق.

الحجة الثالثة: قالوا: إنّ العبد يختلف معناه، فقد تكون العبودية بمعنى الخدمة والرعاية، وغير ذلك، وهذا غير العبودية الشرعية؛ لأنّ العبودية الشرعية هي الذل والخضوع مع المحبة والتعظيم، وقالوا: هذه ليست مراده.

ويجاب عن هذا: بأن الذي يَنقدِح في الذهن عند سماع التعبيد هو العبودية الشرعية، فإذا سمع إنسان: عبد النبي؛ الذي يَنقدح في ذهنه: العبودية الشرعية، فذاك احتمال ضعيف لا تُعلَّق به أحكام.

ويَعظُم التحريم في التعبيد لغير الله إذا كان المعبَّد له مما يَعبده بعض الناس؛ مثل: النبي، النبي صلى الله عليه وسلم جاء بالتوحيد وحارب الشرك، لكن دخل الشيطان على بعض المسلمين فعَبدوا النبي صلى الله عليه وسلم. ومثل: عبد الولي، فإنّ هذا يكون أشد حُرمة؛ لأنه ذريعة للعبادة، واعتقاد عبادة هذا المخلوق، وذاك شرك أكبر.

[وَعَنِ اِبْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما فِي الآية قَالَ: لِمَا تَغَشَّاهَا آدَمُ حَمَلَتْ، فَأَتَاهُمَا إِبْلِيْسُ، فَقَالَ: إِنِّي صَاحِبُكُمَا اَلَّذِي أَخْرَجَتكُمَا مِنَ اَلْجَنَّةِ، لَتُطِيعُنِّي أَوْ

لَأَجْعَلَنَّ لَهُ قَرْنَيْ أَيِّلٍ، فَيَخْرُجُ مِنْ بَطْنِه، فَيَشُقُّهُ، وَلَأَفْعَلَنَّ، ولأفعلنّ ،يُخَوِّفُهُمَا، سَمِّيَاهُ عَبْدَ اَلْحَارِثِ. فَأَبَيَا أَنْ يُطِيْعَاهُ فَخَرَجَ مَيِّتًا، ثُمَّ حَمَلَتْ فَأَتَاهُمَا، فَقال مثل قوله، فَأَبَيَا أَنْ يُطِيْعَاهُ فَخَرَجَ مَيِّتًا، ثُمَّ حَمَلَتْ فَأَتَاهُمَا، فذكر لهما فَأَدْرَكَهُمَا حُبُّ اَلْوَلَدِ، فَسَمَّيَاهُ عَبْدَ اَلْحَارِثِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ عزوجل: {جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا} رَوَاهُ اِبْنُ أَبِي حَاتِمٍ]

هذا الأثر عن ابن عباس –رضي الله عنهما– رواه ابن أبي حاتم وغيره، ولا أعلم له إسناد يصح، ولكنّ بعض العلماء قالوا: إنّ مجموع الأسانيد يشهد أنّ له أصلًا، أمّا لو أُفرِدت الأسانيد فلا شك أنّ الرواية ضعيفة ولا تصح.

(وَعَنِ اِبْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما في الآية قَالَ: لِمَا تَغَشَّاهَا آدَمُ) فجامعها (حَمَلَتْ، فَأَتَاهُمَا إِبْلِيْسُ، فَقَالَ: إِنِّي صَاحِبُكُمَا اَلَّذِي أَخْرَجَتكُمَا مِنَ اَلْجَنَّةِ، لَتُطِيعُنَني فيما أقول أَوْ لَأَجْعَلَنَّ لَهُ قَرْنَيْ أَيِّلٍ) يعني: مثل الغزال أجعل له قرنين، ويخرجان من البطن، (فَيَخْرُجُ مِنْ بَطْنِكَ، فَيَشُقُّهُ، وَلَأَفْعَلَنَّ، ولأفعلنّ يُخَوِّفُهُمَا، سَمِّيَاهُ عَبْدَ اَلْحَارِثِ) وأنا ما أفعل له شيئًا، (فَأَبَيَا أَنْ يُطِيْعَاهُ) كراهة طاعة إبليس، أبيا أن يطيعاه، (فَخَرَجَ مَيِّتًا، ثُمَّ حَمَلَتْ فَأَتَاهُمَا) إبليس؛ مثل ما أتاهما أوّلًا، فقال مثل قوله، فأبيا أن يطعاه، (فخرج ميتًا. ثُمَّ حَمَلَتْ فَأَتَاهُمَا فَذَكَرَ لَهُمَا ماذكر، فَأَدْرَكَهُمَا حُبُّ اَلْوَلَدِ) أي: غلب حب الولد ورعهما، فإنهما لم يكونا يَعلَمان بالتحريم –على قول بعض أهل العلم– لم يكن ذلك محرّمًا عندهما،

لكن كانا يتورَّعان من طاعة إبليس؛ كراهية لإبليس، فغلبهما حب الولد، غلب حب الولد ورعهما، (فَسَمَّيَاهُ عَبْدَ الْحَارِثِ) من غير قصْد ما أراد إبليس، (فَذَلِكَ قَوْلُهُ: {جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا})).

[وَلَهُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ قَتَادَةَ قَالَ: شُرَكَاءُ فِي طَاعَتِهِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي عِبَادَتِهِ]

(لَهُ) أي: لابن أبي حاتم. (بِسَنَدٍ صَحِيْحٍ عَنْ قَتَادَةَ) التابعي، والمفسِّر المعروف. (قَالَ شُرَكَاءُ فِي طَاعَتِهِ) في التسمية.

(وَلَمْ يَكُنْ فِي عِبَادَتِهِ) أي: أنّ هذا الشرك شركٌ في الطاعة والتسمية، وليس شركًا في الطاعة والأحكام، ولا شركًا في العبادة.

ويُحتمَل أن يكون مراده: أنهما أطاعا إبليس لِمَا أمرهما كما يطيعان الله عندما يأمرهما، أي: أنهما أطاعا إبليس عندما أمرهما وقال: سمياه عبد الحارث، كما يطيعان الله عز وجل عندما يأمرهما، فهذا هو الشرك في الطاعة.

ويُحتمَل أن يكون مراده: أنّ هذه طاعة لغير الله، والطاعة لله عبادة –كما تقدم معنا– ومن لم يطع الله لم يَعبد الله. أمّا الطاعة لغير الله فليست عبادة؛ وإنما معصية إذا كانت في المعصية. يعني: الله أمر الرجال بصلاة الجماعة؛ بدلالة القرآن والسنة، فطاعة الرجل لله بذهابه إلى المسجد لصلاة الجماعة: عبادة لله، لكن لو أمره أبوه أن يصلي في البيت؛ قال له أبوه: صلي في البيت، فأطاع أباه،

مجرَّد طاعه؛ هل نقول: عَبَدَ أباه؟ الجواب: لا؛ وإنما يقال: أطاع أباه؛ فهي معصية إذا كانت في معصية، وليست شركًا.

إذن؛ طاعة غير الله في الأحكام تقدَّمت، وفصَّلنا متى تكون شركًا أكبر، ومتى لا تكون شركًا أكبر.

وأما الطاعة في الألفاظ؛ فهي ليست من الشرك؛ وإنما هي من المعصية في ديننا وملَّتنا؛ إلا إذا اعتَقد ما في اللفظ؛ فإنه يكون بحسب ما في اللفظ. فلو أنّ جدك قال: سمِّ ابنك: عبد النبي، فسمَّيت ابنك عبد النبي طاعة لجدك من غير اعتقاد ما في هذا اللفظ؛ فهذه معصية، لكن إن اعتقدتَ أنه عبد للنبي، وتريد أن تربيه على أن يكون عبدًا للنبي؛ فهذا شرك.

[وَلَهُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ، فِي قَوْلِهِ: {لئن آتَيْتَنَا صَالِحًا}، قَالَ: أَشْفَقَا أَلَّا يَكُونَ إِنْسَانًا. وَذَكَرَ مَعْنَاهُ عَنْ اَلْحَسَنِ وَسَعِيدٍ وَغَيْرِهِمَا]

(وله) أي: لابن أبي حاتم (بسند صحيح عن مجاهد) وهو كما قال، (في قوله: {لئن آتَيْتَنَا صَالِحًا}؛ قال: أشفقا ألَّا يكون إنسانًا).

وقال بعض السلف: أشفقا أَّلا يولد حيًّا.

وقال بعض السلف: أشفقا أن لا يولد سليمًا.

المهم: أنهما خافا؛ لأنه غيب بالنسبة لهما، فأطاعا إبليس في التسمية.

[فِيهِ مَسَائِلُ: اَلْأُولَى: تَحْرِيمُ كُلِّ اِسْمٍ مُعَبَّدٍ لِغَيْرِ اَللهِ]

وهذا ظاهر، وهذا محل إجماع إلَّا في عبد المطلب؛ والراجح: أنه حرام.

[اَلثَّانِيَةُ: تَفْسِيرُ اَلْآيَةِ]

على ما ورد في الآثار.

[الثَّالِثَةُ: أَنَّ هَذَا اَلشِّرْكَ فِي مُجَرَّدِ تَسْمِيَةٍ لَمْ تُقْصَدْ حَقِيقَتُها]

فهو ليس شركًا منافيًا للتوحيد، ولكنه منافٍ للأدب، وهو في ملّتنا حرام، ولم نَعلَم عن حقيقته في ملة آدم عليه السلام.

[اَلرَّابِعَةُ: أَنَّ هِبَةَ اَللهِ لِلرَّجُلِ اَلْبِنْتَ اَلسَّوِيَّةَ مِنْ اَلنِّعَمِ]

المقصود أنّ هبة الولد السليم ذكرًا كان أو أنثى نعمة عظيمة من الله تستوجب الشكر، ومن شُكرِها ألَّا يسمَّى الولد بالتعبيد لغير الله عز وجل. ونصَّ الشيخ هنا على البنت –مع أنَّ ظاهر الآثار وإن كان فيها ضعف أنه ولد: عبد الحارث–؛ لأنّ كثيرًا من الجَهَلَة في زمنه –بل وحتى في زماننا اليوم– يرون أنّ الرزق بالبنت ليس نعمة بل بَلْوة! بعض الناس إلى اليوم إذا رُزق بأنثى ظل وجهه مسودًّا وهو كظيم، يمكن ما يذهب إلى صلاة الجماعة حتى لا يُسأل ويقول: جاءتني بنت! وهذا من الجهل، فالشيخ هنا قال: (أَنَّ هِبَةَ اَللهِ لِلرَّجُلِ اَلْبِنْتَ) فنصَّ على ذلك ليُبطِل ما يَعتقده بعض الناس أنّ هبة البنت ليس نعمة بل بليَّة.

[اَلْخَامِسَةُ: ذَكَرَ اَلسَّلَفُ اَلْفَرْقَ بَيْنَ اَلشِّرْكِ فِي اَلطَّاعَةِ وَالشِّرْكِ فِي اَلْعِبَادَةِ]

المقصود أنّ السلف كانوا يفرِّقون بين الشرك في الطاعة، والشرك في العبادة، وليس المراد هنا الشرك في الطاعة في الأحكام؛ فإنّ الشرك في الأحكام تقدَّم وفصَّلناه، وإنما المقصود الشرك في الطاعة في التسمية في الألفاظ دون الأحكام، وأنّ السلف يرَون أنه غير شرك العبادة، يعني غير الشرك الذي ينافي التوحيد.

والأسماء في تعبيدها نقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأوّل: تعبيدها لله. كعبد الله، وعبد الرحمن، وعبد السميع، وعبد العليم، وعبد الرؤوف، فهذه أسماء حسنة مشروعة.

القسم الثاني: التعبيد لغير الله. كعبد النبي، وعبد الحسن، وعبد الحسين، وغير ذلك، وهذه محرَّمة بالإجماع من القرون الأولى.

والقسم الثالث: ما يَحتمِل في لفظه التعبيد لله أو لغيره، يَحتمل أن يكون التعبيد لله ويَحتمل أن يكون لغيره. مثال ذلك: عبد الوليِّ، وعبد السيِّد. فالله هو الولي فيَحتمِل أن يُراد بالولي هنا: الله؛ عبد الولي، ويَحتمل أن يكون المراد: الولي الذي يُعبَد من دون الله؛ الذي تُنذَر له النذور، ويُزار قبره، فيكون من باب التعبيد لغير الله.

وعبد السيد؛ فإنّ الله هو السيد، فيَحتمل أن يُراد به أنه عبد الله؛ عبد السيد، ويُحتمَل أن يراد به مَن يُعبد من دون الله ويُدعى من دون الله؛ الآدميُّ الذي يقال

له: السيد؛ سواء كان من آل البيت أو الأولياء. فهذه تُحرَّم وتُمنَع سدًّا للذريعة؛ لأنّ الغالب على أذهان الناس أن تَسبِق إلى المحرَّم.

لو جاءنا شخص وقال: "أنا عبد السيد"، يمكن أكثر الإخوة ينكرون عليه يقولون كيف عبد السيد؟! لأنّ الأذهان في الغالب –حتى طلاب العلم– تَنصرف إلى المحرَّم؛ وهو: التعبيد لغير الله عز وجل. ولكن إذا وقعتْ فإنه عند إرادة تغييرها يُستفصَل فيقال: ما مرادكم بالولي؟ قالوا: الله، فنقول: الأولى أن تُغيِّروا هذا الاسم؛ لأنه موهِم، فسمَّوا بعبد الرحمن أو عبد الرحيم.

وإن قالوا: مرادنا الشيخ الولي، قلنا: يجب أن تُغيِّروا هذا الاسم؛ لأنه حرام وهو من باب التعبيد لغير الله عز وجل.

الدرس الخامس والستون: شرح بَابٌ قَوْلُ اَللَّهِ تَعَالَى: {وَلِلّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ} اَلْآيَةَ

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، مَن يهدِ الله فلا مضل له، ومَن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[آل عمران:١٠٢]

﴿يا أَيُّهَا النّاسُ اتَّقوا رَبَّكُمُ الَّذي خَلَقَكُم مِن نَفسٍ واحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنها زَوجَها وَبَثَّ مِنهُما رِجالًا كَثيرًا وَنِساءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذي تَساءَلونَ بِهِ وَالأَرحامَ إِنَّ اللهَ كانَ عَلَيكُم رَقيبًا﴾[النساء:١]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[الأحزاب:٧٠-٧١]

أمّا بعد، فإنّ خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد –صلى الله عليه وسلم–، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدَثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

درسنا في شرح كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد، نتفقَّه في أعظم الحقوق وأعلاها، وأشرفها، وأجلّها، وأحلاها ، في حق ربنا سبحانه وتعالى، وفي ألزَم فرض عرف على الإطلاق، أعظم الفرائض وألزمها الذي هو توحيد الله عز وجل، الذي تنشرح له قلوب المؤمنين. حيث نقف مع آيات وأحاديث تبيِّن حقوق ربنا علينا، ما يتعلَّق بالتوحيد وكماله، فنسأل الله عز وجل أن يكتب لنا أجر التعلُّم، وأن يرزقنا حُسن الاعتقاد والعمل.

[بَابٌ قَوْلُ اَللهِ تَعَالَى: {وَلِلّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ} اَلْآيَةَ]

هذا الباب كالأبواب السابقة التي مرَّت بنا قريبًا؛ وهو: في الأدب مع الله عز وجل في الألفاظ، فليس مراد الشيخ –رحمه الله– أن يتكلَّم عن أسماء الله عز وجل، وعن توحيد الأسماء والصفات، وإنما مراده أن يبيِّن ما يتعلق ببيان كمال التوحيد الواجب؛ وهو: الأدب مع الله عز وجل في الألفاظ من جهة الأسماء هنا في هذا الباب.

فمن الأدب الواجب مع ربنا سبحانه وتعالى في الألفاظ: أن نحترم أسماء الله عز وجل.

ومن احترام أسماء الله عز وجل: أن نعتقد اعتقادًا جازمًا أنها حسنى لا يلحقها نقص بوجه من الوجوه، وأن نُثبتها مع معانيها على ما يليق بجلال ربنا

سبحانه وتعالى، وألَّا يُسمَّى المخلوق بها، وقد تقدَّم معنا هذا قبل أربعة أبواب، وتكلَّمنا عن تسمية المخلوق بأسماء الله عز وجل.

ومن احترام أسماء الله عز وجل: أن نتلقَّاها من النصوص؛ من الكتاب وصحيح السنة؛ فلا نُدخِل فيها ما لم يَرِدْ في النصوص.

ومن احترامها أيضًا: عدم الاشتقاق منها للمخلوقات التي تُعبَد من دون الله عز وجل؛ كاشتقاق العُزّى من العزيز.

وهذان الأخيران هما مراد الشيخ في هذا الباب: ألَّا يُدخَل في أسماء الله ما ليس منها، وألَّا يُشتَق منها أسماء للمخلوقات التي تُعبَد من دون الله عز وجل. وهذا من الأدب الواجب في الألفاظ.

فيَحرُم على المسلم أن يُدخَل اسمًا من أسماء الله عز وجل لم يَثبُت في الكتاب ولا في السنة الصحيحة.

وأشرُّ من هذا: أن يُسمِّي الله بما لا يليق بجلاله سبحانه؛ كتسمية النصارى له أبًا؛ فإنّ هذا من سوء الأدب ومن الإلحاد في أسماء الله عز وجل.

كما يَحرُم اشتقاق أسماء منها للمخلوقات التي تُعبَد من دون الله عز وجل، وهذا من الإلحاد في أسماء الله عز وجل، وقد قال ربنا سبحانه وتعالى: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}، الله عز وجل يقول: {وَلِلَّهِ} اللام هنا للاستحقاق والوجود، فالله ربنا

مستحقٌّ للأسماء الحسنى، وأسماؤه الحسنى موجودةٌ مذكورةٌ في الكتاب والسنة. {وللهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} الكاملة التي لا يَلحقها نَقْص، ومن كمالها: أنها ليست أعلامًا مجرَّدة؛ وإنما هي أعلامٌ فيها معنى، تدلُّ على صفةٍ من صفات ربنا سبحانه وتعالى. {فَادْعُوهُ بِهَا} أي: يا معاشر المؤمنين ادعوا الله بأسمائه الحسنى.

وقول الله عز وجل: {فادْعُوهُ}:

- يمكن أن يكون من الدعوة أو الدعاء؛ وهو التسمية؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «شهر الله الذي تَدْعونه المحرَّم» أي: تسمُّونه المحرَّم، وعلى هذا يكون المعنى: فسمُّوه بها كما سمَّى بها نفسه، وكما سمَّاه بها رسوله صلى الله عليه وسلم، {فَادْعُوهُ بِهَا}.

- ويُحتمَل: أن تكون من الدعاء؛ أي: اجعلوها في دعائكم. والدعاء نوعان:

- دعاء عبادة؛ وهو: الثناء على ربنا.

- دعاء مسألة؛ وهو: السؤال من ربنا سبحانه وتعالى.

وكلاهما عبادة، وكلاهما يحبه الله عزو جل، أن تدعو الله لتسأله؛ هذا عبادة، والله يحب منك أن تفعل هذا.

فمشروعٌ للمؤمن أن يَجعل أسماء الله عز جل في دعائه؛ سواءً كان الدعاء دعاء عبادة وثناء، أو كان دعاء مسألة.

وقال العلماء: يختار من الأسماء ما يوافق مسألته، فيقول مثلًا: يا جواد يا رزاق ارزقني، فيَذكُر من الأسماء في دعاء المسألة ما يناسِب سؤاله الذي سيسأله.

﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾، ﴿ذَرُوا﴾يعني: اتركوهم، واتركوا طريقتهم، وهذا أصلٌ عند أهل السنة والجماعة في البُعد عن أهل البدع، وتَرْك أهل البدع، والتباعد عنهم، والفرار منهم فرارًا عظيمًا؛ لأنّ الله قال: {وَذَرُوا الَّذِينَ} فقال: اتركوهم، اتركوا الذين، اتركوا الفاعلين هذه البدعة، الملحدين في أسماء الله عز وجل، ارتكوهم واتركوا طريقهم، فلا تكونوا مع الملحدين في أسماء الله، ولا تكونوا من الملحدين في أسماء الله عز وجل.

ويَدخُل في ذلك: تَرْكُ جدال المعرِضين منهم؛ الذين لا يَقبلون الحق، بل هم أهل جدال وكلام، فهؤلاء أيضًا يُترَكون، فيكون المعنى: فذروا الملحدين وإلحادهم، ولا تجادلوا المعرضين منهم؛ فإنّ جدالهم لا يؤدِّي إلى حق.

{يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ}، {يُلْحِدُونَ} معناها: يميلون عن الحق والصواب في أسمائه بأيِّ صورة من الصور، فإنّ هذا بدعة، وليس من سبيل المؤمنين، وتوعدهم الله في آخر الآية: {سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}، فتوعَّدهم الله عز

وجل، والجزاء يوم القيامة من جنس العمل؛ فمَن عمل صالحًا وزكى نفسه؛ كان جزاؤه يوم القيامة صالحًا، ورُفِع بين يدي الله عز وجل، وإن كان العمل سيئًا كان الجزاء من جنس العمل. ولا شك أنّ هؤلاء القوم عملهم سيئ؛ حيث يُلحدون في أسماء الله، ولا يسلكون طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم في أسماء الله، فهذا وعيدٌ لهم بالعقاب يوم القيامة.

[ذَكَرَ اِبْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ اِبْنِ عَبَّاسٍ –رضي الله عنه–: {يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ} (الأعراف: ١٨٠): يُشْرِكُونَ]

لم أرَ هذا عند ابن أبي حاتم عن ابن عباس بعد التفتيش والتدقيق في جميع المواطن، وإنما هو عند ابن أبي حاتم عن قتادة بإسناد صحيح، فلعله سَبْقُ نظرٍ من الشيخ فانتقل من أثر ابن عباس إلى أثر قتادة ونَسَبَه إلى ابن عباس –رضي الله عنهما–. وإنما الذي عند ابن أبي حاتم: (عن ابن عباس –رضي الله عنهما–: {الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ}: التكذيب).

ومعنى قول قتادة: ({يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ}: يُشْرِكُونَ) أي: أنهم يشركون غيره في أسمائه، فيسمُّون بها غيره، أو يشتقُّون منها لغيره؛ لمعبوداتهم التي يعبدونها من دون الله عز وجل.

أو يشركونه في أسماء تليق بغيره، فيُحدِثون أسماء لم تَرِدْ في الكتاب ولا في السُّنة، ولا تليق بجلال الله عز وجل. فهذا من الإلحاد في أسمائه سبحانه وتعالى

[وَعَنْهُ: سَمُّوا اَللَّاتَ مِنَ اَلْإِلَهِ، وَالْعُزَّى مِنَ اَلْعَزِيزِ]

يعني ذَكَرَ ابن أبي حاتم –أيضًا– عن ابن عباس أنّ إلحادهم أنهم سمُّوا اللات من الإله، والعزى من العزيز، وهم يعبدنها من دون الله عز وجل. ولكنّ هذا الأُثر ضعيفٌ جدًّا عن ابن عباس؛ ففي إسناده: العَوفي، بل هو مسلسل بهم، فالأثر ضعيف جدًّا. لكن صحَّ عن مجاهد التابعي الكبير، تلميذ ابن عباس، صحَّ عنه أنّ إلحادهم في أسماء ربنا سبحانه وتعالى: أنهم سمُّوا العزى من العزيز، واللات من الإله، فهذا من سوء الأدب مع الله سبحانه وتعالى.

[وَعَنِ اَلْأَعْمَشِ: يُدْخِلُونَ فِيهَا مَا لَيْسَ مِنْهَا]

روى ابن أبي حاتم –أيضًا– عن الأعمش أنه قال: "يُدخِلون فيها ما ليس منها"، قال الأعمش في هذه الرواية: يَلحَدون، بنصب الياء والحاء؛ أي: بفتح الياء والحاء، من اللَّحد، والمعنى: يُدخِلون فيها ما ليس منها، لكنّ هذا الأثر عن الأعمش ضعيف جدًّا، وإن كان المعنى صحيحًا.

[فِيهِ مَسَائِلُ: اَلْأُولَى: إِثْبَاتُ اَلْأَسْمَاءِ]

إثبات الأسماء لله عز وجل، ومعنى ذلك: أن نُثبِت لله عز وجل أسماء، وأن نُثبِت له أسماءَ سمَّى بها نفسه، عَلِمْنا بعضها حيث أنزلها في كتابه أو على لسان رسوله، أو علَّمها أحدًا من خلقه ممن تقدَّم فيَصِلنا بطريق صحيح، ومنها ما لم نَعلَمه: «أو استأثرت به في علم الغيب عندك»، فإنّا لم نَعلَم جميع أسماء ربنا

سبحانه وتعالى، فنعتقد هذا ونُثبِته، ونُثبِت الأسماء التي علَّمناها من الكتاب والسنة، ونُثبِت معانيها على ما يليق بجلال ربنا سبحانه وتعالى، وهذا من قطعيات الشريعة، واليقينيات في الشريعة.

[اَلثَّانِيَةُ: كَوْنُهَا حُسْنَى]

الله أكبر! أسماء ربنا حسنى، قد بَلغت المنتهى في الحُسن، فلا أحسن منها، ولا يَتطرَّق إليها نقص، والله عز وجل متَّصِفٌ بالصفة التي اتَّصف بها على وجه الكمال بحيث لا يَتطرَّق إليها نقص.

[اَلثَّالِثَةُ: اَلْأَمْرُ بِدُعَائِهِ بِهَا]

أنت أيها المسلم يجب عليك أن تسمِّي الله بالأسماء الثابتة التي تقرأها في القرآن، وتسمعها في صحيح سنة النبي صلى الله عليه وسلم، كما أنك مأمور بأن تجعلها في دعائك، فهذا مشروع، وهو من أعظم أنواع التوسل، وأنفع أنواع التوسل، وأحبّ العبادات إلى الله أن تجعل أسماءه سبحانه وتعالى في دعائك.

[اَلرَّابِعَةُ: تَرْكُ مَنْ عَارَضَ مِنَ اَلْجَاهِلِينَ اَلْمُلْحِدِينَ]

تَرْكهم –كما قلنا– بالبُعد عنهم، والبُعد عن طريقتهم، وترك مجادلة من أعرض منهم ولَجَّ في الضلالة وأبى أن يَسمع الحق.

[اَلْخَامِسَةُ: تَفْسِيرُ اَلْإِلْحَادِ فِيهَا]

تفسير المراد بالإلحاد، وضابطه العام: الميل عن الصواب فيها. فكل ميل عن الصواب في الأسماء هو إلحاد فيها، والمراد هنا: ما يتعلَّق باللفظ، وليس ما يتعلَّق بالمعاني.

[اَلسَّادِسَةُ: وَعِيدُ مَنْ أَلْحَدَ]

في آخر الآية: {سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} فهذا وعيد شديد لمَن يُلحِد في أسماء الله سبحانه وتعالى.

تابع الدرس الخامس والستون: شرح بَابٌ: لَا يُقَالُ اَلسَّلَامُ عَلَى اَللَّهِ

[بَابٌ: لَا يُقَالُ اَلسَّلَامُ عَلَى اَللهِ]

هذا الباب -أيضًا- متعلِّق بالأدب مع ربنا سبحانه وتعالى في الألفاظ، فإنّ من الأدب مع الله أنه لا يقال: السلام على الله، لا يجوز للمسلم أن يقول: السلام على الله، أو: السلام على الله من عباده، أو: السلام على الله من قِبَل عباده، فلا يُسلَّم على الله، ففي هذه اللفظة: "السلام على الله" إساءة أدبٍ مع الله في الألفاظ من وجوه:

الوجه الأوّل: أنّ الله هو السلام، فكيف يقال: السلام على السلام؟ الله سبحانه وتعالى هو السلام، وسنشرح هذا -إن شاء الله- فكيف يقال: السلام على السلام؟!

الوجه الثاني: أنه يوهِم أنّ الله عز وجل محتاج إلى دعاء خَلقه له، لأنّ هذا دعاء، عندما تقول: السلام على الله، هذا دعاء، فهذا يوهِم أنّ الله عز وجل محتاج أن يدعو له خَلقه، والله هو الغني غنىً مطلَق سبحانه وتعالى، والعباد هم الفقراء.

الوجه الثالث: أنه يوهِم أنّ الله سبحانه وتعالى عُرْضَة للشرور ونزول الشر به، ولذلك يُدعَى له بالسلامة من الشرور.

الوجه الرابع: أنه يوهِم أنّ السلامة تكون له سبحانه من عباده، وأنّ عباده يسلِّمونه.

وكلُّ هذه الأوهام باطلة في حقِّ ربنا سبحانه وتعالى، فإنه هو الغني.

نعم هذه الأوجه قد لا تكون قد خطرت في بال الذي قال: السلام على الله من عباده؛ لكنّ الأدب مع الله عظيم، وحقّ الله عظيم، فيُنهَى عن قول ذلك حتى ولو لم يَخطر ذلك بقلبك، لا تقل: السلام على الله، أو: السلام على الله من عباده.

[فِي اَلصَّحِيحِ عَنِ اِبْنِ مَسْعُودٍ –رضي الله عنه قَالَ: كُنَّا إِذَا كُنَّا مَعَ اَلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فِي اَلصَّلَاةِ، قُلْنَا: اَلسَّلَامُ عَلَى اَللهِ مِنْ عِبَادِهِ، اَلسَّلَام عَلَى فُلَانٍ وَفُلَانٍ. فَقَالَ اَلنَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «لَا تَقُولُوا: اَلسَّلَام عَلَى اَللهِ. فَإِنَّ اَللهَ هُوَ اَلسَّلَامُ»]

قوله: (فِي اَلصَّحِيحِ) أي: في الحديث الصحيح في غاية الصحة؛ لأنه في الصحيحين، وهذا أسلوب يستعمله الشيخ، إذا كان الحديث في الصحيحين يقول: "في الصحيح"، ومقصوده: في الحديث الصحيح الذي هو في غاية الصِّحة، حيث اتَّفق عليه الشيخان: البخاري، ومسلم.

قال: (عَنِ اِبْنِ مَسْعُودٍ –رضي الله عنه قَالَ: كُنَّا إِذَا كُنَّا مَعَ اَلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فِي اَلصَّلَاةِ)، النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن قد علَّم الصحابة التشهد، فكان الصحابة يجلسون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في التشهد الأوّل و التشهد الأخير، ولا يعرفون ما يقولون؛ لأنّ النبي صلى الله عليه وسلم

لم يُعلِّمهم التشهد وهم يَعلَمون أنه لا سكوت في الصلاة، كلّ جزء في الصلاة فيه ذِكْر، فاجتهدوا من قِبَل أنفسهم، فكانوا يرَون التشهد محلًّا للتحيات –وهذا من فقههم– لكن لم يصيبوا نوع التحية، ولذلك قال ابن مسعود: (كنا إذا كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصلاة) يعني: إذا جلسنا للتشهد قبل أن يعلِّمنا النبي صلى الله عليه وسلم التحيات (قُلْنَا: اَلسَّلَامُ عَلَى اَللهِ مِنْ عِبَادِهِ)، كانوا يقولون ذلك على سبيل التحية، فاستعملوا السلام بمعنى التحية، غير منتبهِين لِمَا يتعلَّق بهذه الجملة من أمور تقتضي تركها، وهي الأمور التي بيَّناها قبل قليل، ولذلك لمّا سمعهم النبي صلى الله عليه وسلم نهاهم عن ذلك، ونقلهم إلى التحية اللائقة؛ وهي أن نقول: «التحيات لله» وهذه التحية من العبد لله عز وجل.

(قَالَ: كُنَّا إِذَا كُنَّا مَعَ اَلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فِي اَلصَّلَاةِ، قُلْنَا: اَلسَّلَامُ عَلَى اَللهِ مِنْ عِبَادِهِ، اَلسَّلَام عَلَى فُلَانٍ وَفُلَانٍ) أي: على سبيل التعيين، فكانوا يعيِّنون أسماء، فكانوا يقولون: السلام على جبريل، والسلام على ميكائيل، هذان من الملائكة، السلام على فلان وفلان وفلان، ويعيِّنون أسماء ممن يَعرفونهم، فكانوا يُسلِّمون هكذا، فنقلهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى أن يقولوا: «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين»، فصرنا في التشهد مأمورين بالسلام على معيَّنٍ واحد؛ لعظم

مكانه وحقِّه؛ وهو حبيبنا وقرة أعيننا: محمد صلى الله عليه وسلم، فنقول: «السلام عليك أيها النبي»، فنعيِّنه صلى الله عليه وسلم، وأن نُسلِّم بالعموم: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين)، قال النبي صلى الله عليه وسلم: (فإنكم إذا قلتموها أصابت كل عبد صالح في السماء والأرض» كما في الصحيحين. أي: أنّ هذا الدعاء عام، فإذا قلت: «السلام علينا» يشملك ومَن معك في المسجد، «وعلى عباد الله الصالحين» شمل كل عبد صالح في أيِّ بلد. الآن وأنت صليت العصر قلت: (السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين) سلَّمت على عباد الله الصالحين في المغرب، في مصر، في تونس، في أندونسيا، في ماليزيا، في أمريكا، كل عبد صالح على الأرض سلَّمت عليه، وسلَّمت على كل عبد صالح في السماء، بهذه الجملة القصيرة التي أرشد إليها النبي صلى الله عليه وسلم.

قال: (فَقَالَ اَلنَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم) النبي صلى الله عليه وسلم مرة صلى بهم فلمّا صلّى بهم سمعهم يقولون: السلام على الله من عباده، السلام على فلان وفلان، فقال صلى الله عليه وسلم: «لَا تَقُولُوا: اَلسَّلَام عَلَى اَللهِ. فَإِنَّ اَللهَ هُوَ اَلسَّلَامُ» فنهاهم أن يقولوا هذه المقولة: السلام على الله ، أو: السلام على الله من عباده، أو: السلام على الله من قِبَل عباده، فإنّ هذا حرام، لا يجوز، ولا يليق بالمؤمن؛ لأنه إساءة أدب مع الله عز وجل.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: «فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّلَامُ» فالسلام من أسماء الله عز وجل، والله متَّصفٌ بالسلامة الكاملة من كل عيب ونقص، فله الكمال المطلَق الذي لا يَلحقُه عيب ولا نقص، فلربنا سبحانه الكمال في ذاته؛ فذاته كاملة كمالًا مطلقًا، والكمال في أسمائه؛ فأسماؤه كاملة كمالًا مطلقًا، والكمال في صفاته؛ فصفاته كاملة كمالًا مطلقًا، والكمال في أفعاله؛ فهي كاملة كمالًا مطلقًا، فالله عز وجل هو المتَّصف بالسلامة الكاملة من كل نقص ومن كل عيب. كما أنه سالِم سبحانه من أن يكون له مثيل، فلا مثيل لربنا سبحانه وتعالى.

وهو سبحانه الذي يُسلِّم على عباده، يُسلِّم على مَن شاء من عباده، فسَلَّم على المرسلين، وسَلَّم على عباده الذين اصطفى. وهو الذي يُسلِّم مَن شاء من عباده من الشرور، كلها تدخل في قول النبي صلى الله عليه وسلم: «فإنّ الله هو السلام»: السالم من كل نقص، السالم من المثيل، المسلِّم على مَن شاء من عباده، المسلِّم لمَن شاء من عباده من الشرور والآفات. فالله عز وجل يُسلِّم على عباده، ويعطي السلام مَن شاء من عباده.

[فِيهِ مَسَائِلُ: ٱلْأُولَى: تَفْسِيرُ ٱلسَّلَامِ]

تفسير السلام وأنه تحيةٌ ودعاءٌ، لذلك لا يليق أن يكون من العبد لله؛ لأنه يَتضمَّن الدعاء، وإنما يكون للمخلوق.

ومعنى قول المخلوق للمخلوق:

السلام عليكم؛ أي: أُحيِّيكم بالسلام، وهذه تحية المؤمنين. **هذا المعنى الأوّل**.

والمعنى الثاني: عليكم بركة اسم الله عز وجل السلام، فيدعو له بالبركة.

المعنى الثالث: الدعاء بأن يرزقه الله السلامة.

والمعنى الرابع: إخباره بأنه يَسلَم من آفات المُسلِّم وشروره. بمعنى: أعدك وأخبرك أنه لن يصلك مني أذى، فأنت سالِم من شرِّي، سالِم من أذاي.

هذه المعاني الأربعة كلها مقصودة في قول: السلام عليكم، السلام عليك. وينبغي على المسلم أن يستشعر هذا، ولا سيما الأخير؛ فإنّ بعض الناس يقول لأخيه: السلام عليك، ويأتيه منه الشر! ربما في أثناء المجلس، وربما بعد المجلس، ففي أثناء المجلس قد يَكذِب عليه وهو يحدِّثه، وهذا شرّ، وقد قال له قبل قليل: السلام عليكم! وبعد المجلس قد يَنقل عنه أخبارًا صحيحة أو ملفَّقة لكنها تؤذيه، وقد قال له قبل أن يجلس معه: السلام عليكم! وربما قال بعد أن قام: السلام عليكم، ومع ذلك لم يَفِ بوعده، ولم يَصدُق في خبره. وهذا لأنّا أصبحنا نتكلم ببعض الكلام بدون أن نعرف معناه، وبدون أن نستشعر المقصود منه.

فتفسير السلام: تحيةٌ تتضمَّن دعاءً.

[الثانيةُ: أَنَّهُ تَحِيَّةٌ]

لا شك؛ ولكنه ليس تحية مطلقة؛ وإنما تحية تتضمن الدعاء، ولذلك لم يَصلُح في حقِّ الله سبحانه وتعالى.

[اَلثَّالِثَةُ: أَنَّهَا لَا تَصْلُحُ لِلَّهِ]

لِمَا ذكرناه، ومنها: أنها تحية تتضمن دعاء، ولا يليق بالمخلوق أن يدعو لله والله هو الغني الغنى المطلَق سبحانه وتعالى.

[اَلرَّابِعَةُ: اَلْعِلَّةُ فِي ذَلِكَ]

التي ذكرها النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: «فإنّ الله هو السلام»؛ فكيف يقال: السلام على السلام؟!

[اَلْخَامِسَةُ: تَعْلِيمُهُمْ اَلتَّحِيَّةَ اَلَّتِي تَصْلُحُ لِلَّهِ]

وهذا من حُسن تعليم النبي صلى الله عليه وسلم؛ فإنه لمّا نهاهم علَّمهم ماذا يقولون، فعلَّمهم التشهد التحيات التي نقولها في كل صلاة.

تابع الدرس الخامس والستون: شرح بَابٌ: قَوْلُ اَللَّهُمَّ اِغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ

[بَابٌ: قَوْلُ اَللَّهُمَّ اِغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ]

هذا الباب –أيضًا– في الأدب الواجب مع الله في الألفاظ، فمِن سوء الأدب الذي ينافي كمال التوحيد الواجب: أن يعلِّق العبد دعاءه بالمشيئة؛ فيقول: اللهم اغفر لي إن شئت! غفر الله لك إن شاء الله! شفاك الله إن شاء الله! اللهم ارزقني إن شئت! فهذا فيه سوء أدب مع ربنا سبحانه وتعالى من وجوه:

الأوّل: أنه يوهِم أنّ الله قد يُكرَه على الإجابة، فكأنّ العبد يقول: اللهم أعطني إن شئتَ وإلا فأنا لا أُكرِهُك، وهذا لا يجوز.

الثاني: أنه يوهِم أنّ الله قد يَتعاظم بعض المسائل فلا يشاء أن يُعطيها. ولله المثل الأعلى: إذا جئتَ لإنسان من الناس عنده أموال، لكن أنت تريد مبلغًا كبيرًا، ما تريد ألفًا ولا ألفين وإنما تريد مليون، فإنك تقول له: أعطني مليونًا إن شئت؛ لِمَ؟ لأنّ المخلوق يتعاظم هذه المسألة، مليون! يعني: لو طلبتَ عشرة آلاف يمكن ننظر، هذا الثري يقول هذا، لكن مليون! فهنا يقول له: إن شئت؛ لأنه يتعاظَم المسألة، أمّا ربنا سبحانه وتعالى فلا يَتعاظَم المسألة، لو اجتمع البشر كلهم وسألوا الله عز وجل جميع ما في نفوسهم ما تعاظَم الله سؤلهم سبحانه وتعالى، ولو أعطاهم جميعًا سؤلهم في لحظةٍ واحدة ما نقص ذلك من ملكه شيئًا سبحانه وتعالى، فقول: اللهم ارزقني إن شئت، اغفر لي إن شئت، يوهِم أنّ الله قد يتعاظَم هذه المسألة.

بعض الناس يقول: أنا ذنوبي كثيرة، فأستحي أن أقول: اللهم اغفري، فأقول: اللهم اغفر لي إن شئت؛ لأنّ الله قد يتعاظم ذنوبي! هذا ما يجوز، فإنّ الله لا يَتعاظَم المسألة.

الوجه الثالث: أنّ العبد إذا قال: إن شئت، كأنه مستغني؛ إن شئت فأعطني، وإن شئت فلا تعطني، فالأمر سواء! وهذا يقع من المخلوق للمخلوق، يقول له: إن شئت أعطني الكتاب، يعني الأمر ليس مهمًّا عندي لكن إن شئت أن تعطيني الكتاب فأعطني الكتاب، وإن شئت أن لا تعطيني الكتاب فالأمر سيَّان عندي، فيُشعِر بأن العبد مستغني عن فضل الله، و الأمر عنده سواء أعطي أم لم يُعطَ، وفي هذا سوء أدب مع الله.

الوجه الرابع: أنّ قائل ذلك كأنه متردِّدٌ في إجابة الله الدعاء، لو كان جازمًا ما علَّق بالمشيئة، لو كان موقنًا أنّ الله يجيب دعوة الداعي إذا دعاه ما علَّق بالمشيئة، فلمّا علَّق بالمشيئة أَشعَرَ هذا بأنه متردِّد، يمكن أنّ الله يجيب، وهذا ينافي اليقين في الدعاء الذي يجب أن يكون من العبد.

وهنا أيها المبارك تَلحَظ أنّ هذه الأوجه قد لا تَرِدْ في ذهن الداعي الذي يقول: اللهم اغفر لي إن شئت؛ ومع ذلك فهذا حرام؛ لأنه كما تقدَّم معنا الأدب مع الله عظيم، ومقام ربنا جليل، فالله ذو الجلال والإكرام، فينبغي على العبد أن

يَتخيَّر ألفاظه، وأن ينتقي ألفاظه. فيَحرُم لِمَا ذكرناه أن يقول: اللهم اغفر لي إن شئت مثلًا، وهذا للتمثيل، وإلا فهو في كل دعاء.

وهذا أيها الفضلاء في الأمر الذي ظهر خَيْرُه، اللهم اغفر لي، المغفرة ما فيها إلا خير، اللهم ارزقني الرزق العام، فالرزق ما فيه إلا خير من حيث هو، فهذا لا يُعلَّق بالمشيئة.

أمّا ما لا يظهر خيره ويحبه العبد ولا يدري هل له فيه خير أو ليس له فيه خير؛ فهذا لا بأس أن يُعلَّق بالمشيئة، مثال ذلك: أن يقول الشاب غير المتزوج: اللهم ارزقني فلانة زوجةً إن شئت، أو: إن علمتَ أنّ لي فيها خيرًا، لأنه يحب أن تكون فلانه زوجة له، لكن ما يدري يمكن إذا دخلت البيت تكون شؤمًا على بيته بلسانها أو بأفعالها، فيقول: اللهم ارزقني فلانة زوجة إن شئت، أي: اخترْ لي، إن كانت خيرًا لي فارزقني تلك المرأة.

ومن ذلك؛ أن يقول المسلم: اللهم أحيني ما علمتَ أنّ الحياة خيرًا لي، وتوفني ما علمت أنّ الوفاة خيرًا لي، فعلَّقها باختيار الله عز جل وعِلْمِه، فإنه ما يدري ربما بقاؤه على وجه الأرض يسبِّب له فتنة.

وكذلك في دعاء الاستخارة؛ فإنه يُعلِّقه بعِلْم الله عز وجل. فهذا لا مانع منه.

أمّا ما ظهر خيره وليس إلا خير في الظاهر؛ فإنه لا يجوز أن يُعلَّق بالمشيئة.

[فِي اَلصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اَللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «لَا يَقُلْنَّ أَحَدُكُمْ: اَللَّهُمَّ: اِغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ، اَللَّهُمَّ: اِرْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ. لِيَعْزِمِ اَلْمَسْأَلَةَ، فَإِنَّ اللهَ لَا مُكْرِهَ لَهُ». وَلِمُسْلِمٍ: «وَلْيُعَظِّمْ اَلرَّغْبَةَ، فَإِنَّ اَللهَ لَا يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ»]

(فِي اَلصَّحِيحِ) أي: في الحديث الذي بلغ الغاية في الصحة؛ حيث رواه الشيخان: البخاري، ومسلم. (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اَللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «لَا يَقُلْن أَحَدُكُمْ» وهذا نهي «اَللَّهُمَّ: اِغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ، اَللَّهُمَّ: اِرْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ» وفي رواية عند البخاري: «اللهم ارزقني إن شئت»، «لِيَعْزِمِ اَلْمَسْأَلَةَ، فَإِنَّ اَللهَ لَا مُكْرِهَ لَهُ» معنى ليعزم المسألة: ليَجزِم في الطلب ولا يَستثني، ولا يُعلِّق بالمشيئة. «فإنّ الله لا مُكرِهَ له» أي: لا مُسْتكْرِه لله عز وجل؛ بل الله عز وجل يَفعل ما يشاء سبحانه وتعالى.

(وَلِمُسْلِمٍ:) أي: رواية لمسلم «وَلْيُعَظِّمْ اَلرَّغْبَةَ»، حقيقةً الرواية لمسلم: «ولكن ليَعزِم المسألة»، فذكَرَ هذا: «ولكن ليَعزِم المسألة»، «وَلْيُعَظِّمْ اَلرَّغْبَةَ، فَإِنَّ اَللهَ لَا يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ أَعْطَاه»، «وَلْيُعَظِّمْ اَلرَّغْبَةَ» الرغبة معناها: الحاجة التي يريد، ما معنى هذا؟ النبي صلى الله عليه وسلم يُعلِّمنا أن نسأل الله عز وجل الحاجة التي نريد مهما عَظُمت، ومهما بَعُدت ما لم تكن مُحالًا. مثلًا: نزلت بك نازلة، وأصبحتَ مدينًا بمليون ريال، وأنت عامل تكسَب القليل، فعندك حاجة أَنْزِلْها

بالله، وقلْ: يا ربِّ ارزقني هذا المليون، أسدِّد به ديون الناس، لا تتعاظم المسألة مهما عظمت ومهما بَعُدَت في نظرك، هذا معنى «وَلْيُعَظِّمْ اَلرَّغْبَةَ».

وقال بعض أهل العلم: معنى «وَلْيُعَظِّمْ اَلرَّغْبَةَ»: ليُظهِر الذّل، والانكسار، والحاجة، والاضطرار بين يدي الله، ليَدْعُ دعاء المضطر لا المستغني، والمضطر تجده مستحضرًا قلبه، خاشعًا ذليلًا، ليَدْعُ دعاء المحتاج، ليَدْعُ دعاء المُلِحّ، ولا مانع من المعنيَين، كلاهما صحيح، يسأل الله حاجته مهما بلغت، ومهما كبرت في عينه، ومهما تعظمت في عينه، ويُلِحّ في السؤال، وينكسر انكسار المضطر بين يدي الله عز وجل.

«فَإِنَّ اَللهَ لَا يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ» أي: لا يَكبُر عليه شيء، ولا يَعسُر عليه شيء، مطلقًا، لا يمكن، فالله عز وجل لا يتعاظمه شيء، فلا تحتاج أن تقول: ارزقني إن شئت! فإنّ الله إن شاء غيَّر حالك في ليلة من الفقر الشديد المُدقِع إلى الثراء الكبير، والله يفعل ما يشاء، ولا مُكرِه له، ولا يَعجز عن شيء سبحانه وتعالى.

فهنا بيَّن النبي صلى الله عليه وسلم علَّتين للنهي:

الأولى: «فإنّ الله لا مُكْرِهَ له»، قد بيَّنت لكم معنى هذا؛ وهو: أنّ العبد عندما يقول: اللهم ارزقني إن شئت، كأنه يقول: إن شئت أن ترزقني فارزقني؛ وإلا فأنا لا أُكْرِهُك! فالله لا مُكْرِه له سبحانه وتعالى.

الثانية: «فَإِنَّ اَللهَ لَا يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ»، فهو الجواد الكريم الذي مهما أعطى لا يَنقُص ذلك من مُلكه شيئًا سبحانه وتعالى.

[فِيهِ مَسَائِلُ: اَلْأُولَى: اَلنَّهْيُ عَنْ اَلِاسْتِثْنَاءِ فِي اَلدُّعَاءِ]

يعني النهي عن التعليق بالمشيئة: "إن شئت"؛ فهذا منهي عنه؛ على ما بيَّناه.

[اَلثَّانِيَةُ: بَيَانُ اَلْعِلَّةِ فِي ذَلِكَ]

وأنها علّتان على حسب ما ورد في السُّنة:

- أنّ الله لا مكرِه له.

- وأنّ الله لا يتعاظمه شيء أعطاه.

وبيَّنا الأوجه الأخرى التي تبيِّن أنّ في هذا القول إساءة أدب مع الله عز وجل.

[اَلثَّالِثَةُ: قَوْلُهُ: «لِيَعْزِمِ اَلْمَسْأَلَةَ»]

يعني معنى قوله: «لِيَعْزِمِ اَلْمَسْأَلَةِ» أي: ليَجزِم في الطلب، ولا يَستثني، ولا يَتردَّد.

[اَلرَّابِعَةُ: إِعْظَامُ اَلرَّغْبَةِ]

بكثرة الإلحاح، والانكسار بين يدي الكريم سبحانه وتعالى، وسؤال الحاجة مهما عظمت.

[اَلْخَامِسَةُ: اَلتَّعْلِيلُ لِهَذَا اَلْأَمْرِ]

يعني: إعظام الرغبة؛ وهو أنّ الله لا يتعاظمه شيء أعطاه.

الدرس السادس والستون: شرح بَابٌ: لَا يَقُولُ: عَبْدِي وَأَمَتِي

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَن يهدي الله فلا مضلَّ له، ومَن يُضلل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء: ١]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: ٧١]

أمّا بعد:

فإنّ أحسن الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكلّ محدَثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النار.

درسنا في شرح كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد، فهو أعظم حقٍّ على الإطلاق، وأشرف حقٍّ على الإطلاق، وأَلزَم فَرْضٍ على الإطلاق، فينبغي على المسلم أن ينشرح صدره بالتفقُّه في حقِّ ربه، وأن يَقبل الحقَّ الذي جاء في كتاب الله وفي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وألَّا يمنعه من قَبول الحق أمرٌ كان عليه فيما مضى، أو شُبهات يقولها بعض مَن لا يعلم حقَّ الله كما أراده الله عز وجل.

[بَابٌ: لَا يَقُولُ: عَبْدِي وَأَمَتِي]

هذا الباب –أيضًا– كالأبواب المتقدِّمة قريبًا؛ في الأدب مع الله عز وجل في الألفاظ، وأنّ الأدب مع الله عز وجل في الألفاظ من كمال التوحيد، وأنه يجب على المؤمن الموحِّد أن يَحترِز من الألفاظ التي فيها سوء أدبٍ مع الله عز وجل، ومن تلك الألفاظ: إطلاق كلمة الرب على المخلوق، فإنّ كلمة الرَّب وإن كانت كلمةً مشتركةً تُطلَق على الخالق، وتُطلَق على المخلوق؛ كما في قولهم: ربُّ الدار، وربُّ الدابة، فإنها في الغالب السابق إلى الذهن إنما هي للخالق سبحانه وتعالى، كما أنّ حقيقة الربوبية إنما هي لله عز وجل، فمن سوء الأدب أن تُطلَق كلمة الربِّ على المخلوق، وسيأتي تفصيل الأقسام في هذا إن شاء الله عز وجل.

ومن سوء الأدب في الألفاظ مع الله عز وجل: إطلاق كلمة (العبد) مضافة إلى ياء المتكلم، كأن يقول المالك: عبدي، وأمتي، ففي هذا الإطلاق سوء أدب ظاهر مع ربنا سبحانه وتعالى، فإنّ العبودية إنما هي لله عز وجل، وفي إطلاق هذه الكلمة مضافةً إلى ياء المتكلِّم مُزاحَمة للعبودية لله عز وجل، فكان إطلاقها من سوء الأدب، وينافي كمال التوحيد الواجب، ومن هنا ذكر الشيخ –رحمه الله– هذا الباب، وعقده في كتاب التوحيد.

[فِي اَلصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ –رضي الله عنه– أَنَّ رَسُولَ اَللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: أَطْعِمْ رَبَّكَ، وَضِّئْ رَبَّكَ. وَلْيَقُلْ: سَيِّدِي وَمَوْلَايَ. وَلَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: عَبْدِي وَأَمَتِي. وَلْيَقُلْ: فَتَايَ وَفَتَاتِي وَغُلَامِي»]

قال الشيخ: (فِي اَلصَّحِيحِ) يعني في الحديث الصحيح الذي في غاية الصحة؛ لأنه قد رواه الشيخان البخاري ومسلم، فهذا الحديث في الصحيحين.

(عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ –رضي الله عنه– أَنَّ رَسُولَ اَللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: أَطْعِمْ رَبَّكَ، وَضِّئْ رَبَّكَ»، وفي الصحيحين: «واسْقِ ربك»، والشيخ لم يذكرها هنا؛ لعله اختصر الحديث. والمراد في استعمالهم في قولهم: اطعم ربك، وضئ ربك، اسقِ ربك، المراد: أَطعِم سيدك المالك لك، ووضِّيء سيدك المالك لك، واسقِ سيدك المالك لك، فهو خطاب من غير السيد للعبد،

يعني: شخص يقول لعبدٍ: أَطعم ربك، أَطعم سيدك، وضِّيء ربك، اسقِ ربك، فهذا خطاب من غير السيد للعبد.

ويجوز أن يكون الخطاب هنا من السيد لعبده على سبيل التعاظم والتكبر والتفاخر، فيقول السيد لعبده –بدل من أن يقول: أطعمني– يقول: أطعم ربك؛ تعاظُمًا وتفاخُرًا، وضِّيء ربك.

فهنا إمّا خطاب من السيد للعبد، وإمّا خطاب من السيد لعبده على سبيل التعاظم والتفاخر. وقد نهى النبي صلى الله عله وسلم عن هذا.

زاد مسلم هنا قوله صلى الله عليه وسلم: «ولا يقل أحدكم ربي»، إذن نُهي السيد وغير السيد أن يقول للعبد: أَطعم ربك، ونُهي العبد أن يقول عن سيده: ربي. فجاء النهي للجانبين.

«وَلْيَقُلْ: سَيِّدِي وَمَوْلَايَ. وَلَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: عَبْدِي وَأَمَتِي» يعني لا يقل السيد: عبدي، وأمتي. «وليقل: فتاي وفتاتي وغلامي».

وفي رواية عند مسلم: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا يقولن أحدكم عبدي؛ فكلكم عبيد الله، ولكن ليقل: فتاي، ولا يقل العبد: ربي، ولكن ليقل: سيدي».

وفي رواية عند مسلم: «لا يقولن أحدكم عبدي وأمتي؛ كلكم عبيد الله، وكل نسائكم إماء الله».

فمُحصَّل هذه الروايات: أنّ النبي صلى الله عليه وسلم نهى السيد أو غيره أن يقول للعبد: أَطعم ربك، أو اِفْعل كذا لربك. ونهى العبد أن يقول عن سيده: ربي. كما نهى السيد عن أن يقول عن مملوكه أو مملوكته: عبدي أو أمتي؛ لأنّ الكل عبيد الله، وكل النساء إماء الله، فليس من الأدب أن يُضيف الإنسان العبد إليه؛ فيقول: عبدي، أو أمتي.

وعندنا هاهنا في الحديث عدَّة مسائل:

المسألة الأولى: إطلاق كلمة الرب على المخلوق، وهذه المسألة على أقسام:

القسم الأوّل: إطلاق كلمة الرب محلَّاة بـ(ال) على المخلوق، أو مضافة إلى ما لا يكون للمخلوق. فيقول عن المخلوق: هذا الرب، فيُطلقها محلاة بـ(ال)، أو تكون مضافة إلى ما لا يكون للمخلوق، كأن يقول: هذا رب العالمين، فهذا حرام قطعًا، ولا يجوز، فالرب شرعًا لا يُطلَق إلا على الله، كما قال انبي صلى الله عليه وسلم: «وأمّا الركوع فعظِّموا فيه الرب» كما عند مسلم في الصحيح. وإضافة كلمة رب إلى ما لا يكون للمخلوق: اعتداءٌ محرَّم لا يجوز.

القسم الثاني: إطلاقها غير محلاة؛ حيث تنتفي المضاهاة وينتفي الاشتراك بين الخالق والمخلوق، فلا يُتوهَّم الاشتراك مطلقًا، هذا جائز، ومنه قول النبي

صلى الله عليه وسلم: «أن تَلِدَ الأَمَة ربَّتها» كما عند مسلم، فإنّ التأنيث هنا يَنفي الاشتراك: (ربَّتها)، فلا يُتوهَّم الاشتراك؛ هنا فجاز.

ومنه: قول الناس اليوم عن المرأة: ربة بيت، يقولون: ما مهنة المرأة؟ فإن لم تكن عاملة يقولون: ربة بيت، هذا جائز؛ لأنّ التأنيث يَنفي الاشتراك.

ومنه: –فيما يظهر لي والله أعلم– اللفظ الآخر للحديث الذي ذكرناه قبل القليل؛ حيث قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أن تلد الأمَة ربها» كما عند البخاري ومسلم، فهنا قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ربها» وهذا ليس تأنيثًا، لكن هنا يَنتفي الاشتراك؛ لأنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أن تلد الأمة ربها» والرب سبحانه وتعالى لم يَلد ولم يولَد، ففي هذا السياق لا يُتوهَّم الاشتراك مطلقًا، بل الاشتراك منتفي، ويُعلَم أنّ هذا في حق المخلوق، فهذا جائز.

القسم الثالث: إضافة كلمة الرب إلى ما لا يقع عليه التكليف. كقولهم: رب الدار، ورب الدابة، فهذا جائز عند أكثر أهل العلم، ولا محظور فيه.

ومنه: قول النبي صلى الله عليه وسلم في اللُّقطة: «فإذا جاء ربُّها فأدِّها إليه»، فاللقطة من مال وغيره لا يقع عليها التكليف، لا تكون مكلَّفة.

وكذلك: قوله صلى اله عليه وسلم في ضالة الإبل: «معها حذاؤها، وسقاؤها، حتى يأتيَها ربها» رواه أبو داود، وغيره، وصحَّحه الألباني. فهنا الإبل

لا يقع عليها التكليف؛ ولذلك أضاف النبي صلى الله عليه وسلم كلمة الرب لها: «حتى يأتيَها ربها» فهذا جائز؛ لأنّ الذي أُضِيف إليه كلمة الرب لا يقع عليه التكليف.

وذهب بعض أهل العلم إلى كراهية ذلك أيضًا، قالوا: إنه مكروه؛ لأنها تَعبُد الله، وإن كانت لا تكلَّف ولا ندري كيف تسبح لكنها تعبد الله وتسبح الله سبحانه وتعالى.

لكن قول الأكثرين أصْوَب؛ لورود هذه الإضافة في الحديث؛ ولأنها لا يقع عليها التكليف وإن كانت تَعبُد.

القسم الرابع: إضافة كلمة الرب إلى مَن يقع عليه التكليف. كأن يقول العبد لسيده: ربي، ويقال للعبد: هذا ربك. فهذا قد اختلف فيه العلماء:

- فذهب جماعة من العلماء إلى أن أنه مكروه، كراهة تنزيه؛ لهذا الحديث: لأنّ النبي صلى الله عليه وسلم نهى، قالوا: وهذا النهي مصروفٌ إلى الكراهة؛ لِمَا تقدَّم من الأحاديث: «حتى تلد الأمة ربتها»، «حتى تلد الأمة ربها»، «حتى يأتيها ربها»، قالوا: فهذه الأحاديث صارِفة.

وكذلك؛ بقول يوسف عليه السلام: {اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ} (يوسف: ٤٢)، وبقوله عليه السلام: {إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ} (يوسف: ٢٣)، قالوا فهذا صَرَفَ النهي من التحريم إلى الكراهة.

- وذهب بعض أهل العلم إلى تحريم هذا الإطلاق؛ بدلالة هذا الحديث، قالوا: والنهي يدل على التحريم، ولأنّ فيه إساءة أدب مع الله عز وجل.

وأمّا الاستدلال بالأحاديث التي ذكرناها، فقالوا: هي خارجة عن محل النزاع، وهو كذلك كما ذكرنا فهي في الأقسام الأولى خارجة عن محل النزاع.

وأمّا قول يوسف عليه السلام؛ فهو من شرع مَن قبلنا، وشرع مَن قبلنا إذا جاء في شرعنا ما يخالفه ليس شرعًا لنا، وقد نهانا النبي صلى الله عليه وسلم عن هذا الإطلاق.

فيتبيَّن بهذا أنّ الراجح –والله أعلم– أنه يَحرُم أن تضاف كلمة الرب إلى مَن يقع عليه التكليف مع وجود الاشتراك.

وإذا عرفتَ هذه الأقسام تَسهُل عليك المسألة، فإنّ كلام أهل العلم منتشر في المسألة، ويُشوِّش الذهن، لكن إذا ضبطتَ هذه الأقسام سَهُلَ عليك أن تَضبِط المسألة، وأن تَرُدَّ كلام كل عالم إلى قِسْمٍ من هذه الأقسام، حتى في كتب شروح كتاب التوحيد تجد كلامًا يعني منشورًا ليس مرتَّبًا، وقد لا تَفهم المسألة فَهمًا صحيحًا، لكن إذا ضبطتَ الأقسام فإنّ المسألة تَنضبِط لك إن شاء الله.

المسالة الثانية في هذا الحديث: إطلاق كلمة السيد على المخلوق. كما يقال في الخطابات التي يكتبها الناس مثلا: إلى السيد رئيس مجلس الإدارة، إلى السيد فلان، وكما يقول الجندي للضابط: سيدي، أو يقال لكبير القوم: سيدي.

فهنا إذا كان إطلاق كلمة السيد على المخلوق بمعنى السيادة المطلَقة التي لا حدَّ لها فإنه لا يجوز.

وكذلك إطلاق كلمة السيد على المخلوق غلوًّا فيه فإنه لا يجوز. ولذلك لمّا جاء وَفْد بني عامر إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا له صلى الله عليه وسلم: (أنت سيدنا)، وفي رواية: (أنت سيدنا وابن سيدنا)، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «السيد الله تبارك وتعالى» والحديث رواه الإمام أحمد، وأبو داود، وصحَّحه الألباني. فهنا لمّا رأى النبي صلى الله عليه وسلم في عبارتهم غلوًّا منعهم من ذلك، وقال: «السيد الله تبارك وتعالى».

أيضًا من الممنوع: إطلاق كلمة السيد بمعنى المعبود، وهذا أشرّ الإطلاقات، فإنّ بعض الناس مثلا يستعمل هذا، فيقول للمريض إذا مَرِضَ: اذهب إلى السيد، أو: اذهب إلى قبر السيد، فهنا بمعنى المعبود، فهذا لا شك أنه من الشرك بالله والعياذ بالله عز وجل.

وأمّا إطلاق كلمة السيد على المخلوق من باب التلقيب بما يليق به؛ فهذا جائز عند الأكثر، لهذا الحديث الصحيح معنا هنا في الصحيحين: النبي صلى الله عليه وسلم قال: «وليقل: سيدي»، فهذا يدل على الجواز.

ولقول النبي صلى الله عليه وسلم: «أنا سيد ولد آدم» رواه مسلم في الصحيح.

ولذلك؛ يجوز في غير الأذكار التوقيفية أن نقول عن نبينا صلى الله عله وسلم: سيدنا صلى الله عليه وسلم، فهو سيد ولد آدم، ونحن الذين آمنّا به أَخَصُّ الناس به صلى الله عليه وسلم، فلا حرج أن يقول المسلم: سيدي رسول الله، أو يقول: سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو سيد ولد آدم صلى الله عليه وسلم، لكن يَلْحَظ قلبه وألَّا يكون ذلك من باب الغلو، فإنّ إطلاقها من باب الغلو حرام، منعه النبي صلى الله عليه وسلم.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم لمّا جاء سعد بن معاذ: «قوموا إلى سيدكم» كما في الصحيح، إلى غير ذلك.

وأيضًا؛ قول النبي صلى الله عليه وسلم للحسن: «إنّ ابني هذا سيد» كما عند البخاري.

وأيضًا؛ كان عمر –رضي الله عنه– كان يقول: (أبو بكر سيدنا، وأَعتقَ سيدنا)، ويقصد بالثاني: بلالًا –رضي الله عنه–، وهذا عند البخاري في الصحيح.

أيضًا قال عمر –رضي الله عنه– لأبي بكر الصديق –رضي الله عنه– يوم البيعة: (نبايعك فأنت سيدنا) وهذا –أيضًا– عند البخاري في الصحيح.

فدلَّ ذلك على جواز إطلاق كلمة السيد على المخلوق من باب التلقيب بما يليق به، من غير خروج عن ذلك، سواءً خُوطِب بهذا أو لم يخاطَب. لأنّ بعض أهل العلم يقول: يُكرَه أن يخاطَب بهذا؛ فيقال له: سيدي، أو سيدنا؛ لأنّ

هذا يدعو إلى التعاظُم، لكن هذا الحديث ينفي هذا، فإنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: «وليقل سيدي»، وعمر -رضي الله عنه- قال لأبي بكر -وهو يسمع-: (نبايعك فأنت سيدنا)؛ فدلَّ هذا على الجواز.

لكن يُشتَرط في ذلك: أن يكون الملقَّب بكلمة السيد أهلًا لها؛ وإلا لم يَجُزْ، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تقولوا للمنافق سيدنا»، وجاء في رواية: «لا تقولوا للفاسق سيدنا، فإنه إن يَكُ سيدكم فقد أسخطتم ربكم» رواه أحمد.

وذهب بعض أهل العلم إلى حرمة ذلك، قالوا: حرامٌ أن يقال في المخلوق: سيدنا، أو سيدي؛ لأنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال لبني عامر لمّا قالوا له: أنت سيدنا، قال: «السيد الله تبارك وتعالى» فهذا مَنْعٌ من إطلاق كلمة السيد على المخلوق.

قلنا: إنّ الجمع بين الأحاديث متعيِّن، والجمع بين الأحاديث على التفصيل الذي ذكرناه.

- فإن كان المقصود السيادة المطلَقة؛ فإنّ السيادة المطلَقة لله عز وجل «فإنّ الله هو السيد».

- وإذا كان هذا من باب الغلوّ فهذا حرام؛ لأنّ الغلو حرام.

- وإذا كان من باب أنه بمعنى المعبود أو الذي له بركات وخيرات تُلتَمس من دون الله عز وجل فهذا حرام.

أمّا ما عدى ذلك فجائز لا حرج فيه. فيجوز أن تقول لكبير العائلة: سيدي، أو تقول لجدك : سيدي، من باب التلقيب، واحترامه، فهذا لا بأس به.

المسألة الثالثة: إطلاق كلمة مولاي على المخلوق، كأن يقال: مولانا الملك، أو يخاطَب الملك فيقال له: مولاي.

فهذا إن كان المقصود به الولاية المطلَقة بجميع معانيها؛ فهذا لا يجوز أن يُطلَق على المخلوق، وإنما المولى الله سبحانه وتعالى.

أمّا إذا لم يُرِدْ بها هذا:

- فقد ذهب أكثر أهل العلم إلى جواز إطلاق هذا على المخلوق؛ لهذا الحديث؛ لأنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: «وليقل: سيدي ومولاي»، فهذا نصٌّ صحيح صريح في قول هذا الكلمة للمخلوق.

وأمّا حديث: «لا يقل العبد لسيده: مولاي، فإنّ مولاكم الله عز وجل» الذي رواه مسلم؛ فإنه حديث شاذّ بهذه الزيادة، وقد أشار مسلم في صحيحه إلى شذوذه، فلا تكون هذه الزيادة محفوظة، فلا يُمنع من إطلاق هذه الكلمة على المخلوق.

ويمكن أن تُحمَل على ما حملنا عليه كلمة السيد إذا أُرِيد بها الولاية المطلَقة، أو من باب الغلو.

– وذهب بعض أهل العلم إلى كراهة إطلاق هذه الكلمة على المخلوق؛ جمعًا بين الحديثين. يقولون: نجمع بين الروايتَين والحديثَين بأن نَحمِل النهي على الكراهة، والصَّارِف: قول النبي صلى الله عليه وسلم: «وليقل: سيدي ومولاي» فجمعوا بين الحديثَين.

– وذهب بعض أهل العلم إلى حرمة هذا؛ لهذا الحديث: «لا يقل العبد لسيده: مولاي، فإنّ مولاكم الله عز وجل».

– والأظهر –والله أعلم–: جواز هذا إذا سَلِمَ من القَصْد الفاسد.

والمسألة الرابعة: حكم قول عبدي وأمتي:

– وقد ذهب كثير من أهل العلم إلى كراهية ذلك، وأنّ النهي في الحديث للكراهة.

– وذهب بعض أهل العلم أنه إذا كان على سبيل التعاظم والتطاول وإذلال العبد؛ فإنه يكون حرامًا، وإلا كان جائزًا. يقولون: قول السيد للعبد: هذا عبدي، أو أنت عبدي، إن كان على سبيل الإذلال له، يعني: كأنه يقول له: ما لك قيمة، ما أنت إلا عبد! فهذا لا يجوز؛ لأنّ فيه إذلال المسلم.

أمّا إذا لم يَقصِد الإذلال وإنما هو خبر بالواقع، أو إطلاق الواقع؛ فهذا جائز.

– والأظهر –والله أعلم– التفصيل:

فإذا كان على سبيل الإضافة إلى ياء المتكلم؛ فهو حرام، لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «لا يقل أحدكم عبدي وأمتي»، وهذا نهي، والأصل في النهي التحريم، ولم يأتِ ما يَصلُح أن يكون صارِفًا له هنا، ولِمَا فيه من سوء الأدب مع الله، فكلُّنا عبيد الله.

أمّا إذا لم يكن من هذا؛ فإنه جائز، كما قال الله عز وجل: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ (النور: ٣٢)، فهذا لم يكن فيه إضافة إلى ياء المتكلم.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «ليس على المسلم في عبده، ولا فرسه صدقة» رواه مسلم في الصحيح.

والشاهد: أنه إذا لم تكن إضافة العبد أو الأمة إلى ياء المتكلم؛ فإنه لم يُنهى عن إطلاقها، بل جاء في الشرع إطلاقها على المخلوق، فتجوز.

أمّا إذا كانت بياء المتكلم فلم يَرِدْ إلا النهي، ولا صارِف، فيكون ذلك دالًّا على حُرمة هذا القول؛ أن يقال: عبدي، وأمتي.

[فِيهِ مَسَائِلُ: اَلْأُولَى: اَلنَّهْيُ عَنْ قَوْلِ عَبْدِي وَأَمَتِي]

والنهي ظاهر في الحديث، والأصل في النهي التحريم؛ إلا إذا وُجِدَ صارِف، ولم نجد صارفًا يَصلح أن يَصرِف النهي هنا عن التحريم، فالأظهر –والله أعلم– التحريم. ويَعظُم التحريم إذا كان بحضور العبد، يعني: لا يجوز أن

يقول: فلان عبدي، ولو كان غائبًا، لكن يَعظُم التحريم إذا كان بحضور العبد، فيقول له: يا عبدي، أو أنت عبدي؛ لِمَا فيه –أيضًا– من إذلال العبد.

[اَلثَّانِيَةُ: لَا يقل اَلْعَبْدُ رَبِّي أو يُقَالُ لَهُ: أَطْعِمْ رَبَّكَ]

لا يقول العبد: ربي لسيده، ولا يقال للعبد: أطعم ربك؛ للنهي الوارد في الحديث، وقد بيَّنا أقسام هذه المسألة.

[اَلثَّالِثَةُ: تَعْلِيمُ اَلْأَوَّلِ قَوْلَ: فَتَايَ وَفَتَاتِي وَغُلَامِي]

تعليم السيِّد أن يقول: فتاي، وفتاتي، وغلامي.

[اَلرَّابِعَةُ: تَعْلِيمُ اَلثَّانِي قَوْلَ: سَيِّدِي وَمَوْلَايَ]

تعليم العبد أن يقول: سيدي، ومولاي، وعمي، مثلًا يقول لمالكه: عمي، فهذا جائز.

[اَلْخَامِسَةُ: اَلتَّنْبِيهُ لِلْمُرَادِ، وَهُوَ تَحْقِيقُ اَلتَّوْحِيدِ حَتَّى فِي اَلْأَلْفَاظِ]

أن يَتنبَّه المؤمن إلى هذه المنزلة العليَّة؛ وهي: حُسن الأدب مع الله في الألفاظ، وأنّ هذا من تحقيق التوحيد، ومن كمال التوحيد، أن يتحرَّز المسلم عن الألفاظ التي فيها سوء أدب مع ربه سبحانه وتعالى، وأن يَتخيَّر ألفاظه، وأن يَنتقيَ ألفاظه.

تابع الدرس السادس والستون: شرح بَابٌ: لَا يُرَدُّ مَنْ سَأَلَ بِاَللَّهِ

[بَابٌ: لا يُرَدُّ مَنْ سَأَلَ بِاَللَّهَ]

وهذا الباب –أيضًا– في الأدب مع الله الذي هو من كمال التوحيد. فمن الأدب مع الله وإعظامه وإجلاله أن يُعطى مَن سأل بالله عز وجل. ولهذا عقد الشيخ هذا الباب.

[عَنِ اِبْنِ عُمَرَ –رَضِيَ اَللَّهُ عَنْهُمَا– قَالَ: قَالَ رَسُولُ اَللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «مَنِ اسْتَعَاذَ بِاَللَّهِ فَأَعِيذُوهُ، ومَنْ سَأَلَ بِاَللَّهِ، فَأَعْطُوه، وَمَنْ دَعَاكُمْ فَأَجِيبُوهُ، وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُوه، فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ]

وقد صحَّحه النووي، والألباني، والحديث صحيح، بيِّن الصِّحة. (عَنِ اِبْنِ عُمَرَ –رَضِيَ اَللَّهُ عَنْهُمَا– قَالَ: قَالَ رَسُولُ اَللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «مَنِ اسْتَعَاذَ بِاَللَّهِ فَأَعِيذُوهُ» أي: مَن استعاذ بالله من شركم، أو من شر غيركم، فقال لك: أعوذ بالله من شرك، أو قال: أعوذ بالله من شر فلان، فسألكم بهذه الاستعاذة بالله أن تدفعوا عنه شركم، أو تدفعوا عنه شر غيركم، «مَنِ اسْتَعَاذَ بِاَللَّهِ فَأَعِيذُوهُ» وحقِّقوا له مراده، وادفعوا عنه ما طلب أن يُدفَع عنه من الشر، وهذا من تعظيم الله عز وجل، فإذا قال لك المسلم: أعوذ بالله من شرك، أو أعوذ بالله من أن تضربني، أعوذ بالله من أن ترفع أمري إلى المحكمة، فمن تعظيم الله عز وجل أن تعيذه، وأن تحقِّق له مراده، وأن تَدفع عنه الشر.

ومن ذلك؛ أنّ أميمة بنت النعمان، الملقَّبة بالجونيَّة، تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما أُدخِلت عليه ودنى منها، قالت: أعوذ بالله منك، فقال: «لقد عُذْتِ بعظيم؛ اِلْحَقي بأهلك» رواه البخاري. فهنا هذه المرأة لمّا دنى منها النبي صلى الله عليه وسلم وقد تزوجها قالت: أعوذ بالله منك، والنبي صلى الله عليه وسلم أعظم من عظَّم الله، قال لها: «قد عُذْتِ بعظيم اِلْحَقي بأهلك»، وطلقها النبي صلى الله عليه وسلم، وفارَقها؛ لأنها عاذت منه بالله عز وجل.

ويُشترط في هذا: أن يكون فيما يجوز أن يُدفَع عنه، أمّا لا يجوز أن يدفع عنه فلا يعاذ منه، كما لو قال مثلًا: أعوذ بالله من أن تمنعني من الغيبة، فإنك لا تعيذه هنا، بل تمنعه من الغيبة؛ لأنه لا يجوز أن يُدفَع عنه ذلك، أو مثلًا قال السارق: أعوذ بالله أن تقطعوا يدي، بل تُقطع يده، فإنّ الله لا يعيذ عاصيًا.

فيُشترَط في كوننا نعيذه مما استعاذ به إن استعاذ من شرِّنا ندفع شرَّنا عنه، وإن استعاذ من شر غيرنا ونعينه على دفع الشر عنه، يُشترَط أن يكون ذلك مما يجوز دفعه، أمّا ما لا يجوز دفعه وهو يرى أنه شر عليه فاستعاذ بالله منه؛ فإنه لا يُدفع عنه، كالحدِّ على مَن وجب عليه الحدّ، والحرام، ونحو ذلك.

قال: «وَمَنْ سَأَلَ بِاَللهِ، فَأَعْطُوهُ» أي: مَن سأل شيئًا بالله، فقال: أسألك بالله أن تعطيني كذا، أو أسألك بالله أن تفعل كذا، فإنّ المسؤول بذلك مأمورٌ أن يُجيب سؤاله، وأن يعطيه ما طلب؛ تعظيمًا لله؛ لأنه سأل بعظيم.

والسائل بالله لا يخلو من أحوال:

الحالة الأولى: أن يسأل بالله حقًّا واجبًا له، فهذا يجب أن يجاب، مثال ذلك: قال صاحب المال لمن عليه الدَّين: أسألك بالله أن تَرُدّ الدين، أسألك بالله أن تعطيني حقِّي، فهذا في الأصل واجب قبل السؤال، ومع السؤال بالله أصبح أوجب؛ تعظيمًا لله. وكأن يقول الوالد لابنه: أسألك بالله أن تَبَرَّني، أسألك بالله أن تترك قطيعتي، فهذا واجب، هو واجب في الأصل ومن أعظم الواجبات، لكن لمّا سأل الوالد ابنه برَّه بالله تأكَّد هذا الواجب، وأصبح أوجب.

الحاله الثانية: أن يسأل بالله ما لا يجوز بذله؛ كأن يسأل حرامًا، فيقول: أسألك بالله –مثلًا– أن تعطيني خمرًا، أسألك بالله أن تجعلني أنظر إلى امراتك! فهذا لا يجوز أن يُجاب، ويأثم السائل إثمًا عظيمًا؛ لأنه سأل حرامًا، وسأل بالله الحرام، يعني: كونه يسأل الحرام بالله هذا أعظم من أن يسأل الحرام فقط، فهو آثم.

الحالة الثالثة: أن يسأل ما يؤدِّي إلى الضَّرر، أو المشقة الزائدة بالمسؤول. مثلًا: يرى في جيبه مالًا فيقول: أسألك بالله أن تعطيني من هذا المال، قال: يا أخي هذا قيمة دواء لابني المريض، سأذهب الآن اشتري الدواء، ما عندي غيره، فقال: أسألك بالله أن تعطيني منه، هذا سأل بما يؤدِّي إلى المشقة.

أو إنسان يمشي بعد الظهر، فيأتي إنسان ويقول: أسألك بالله أن تعطيني حذاءك! هذا يضر به لو أعطاه حذاءه يمشي في الرَّمضاء، فهذا لا يجب أن يجاب سُؤْلُه، ولا يجب أن يعطى، ودليل هذا ظاهر جدًّا؛ وهو: أنّ الشرع يَمنع الضرر والمشقة.

الحالة الرابعة: أن يسأل بالله ويكون في سؤاله متعديًا. كأن يسأل أمرًا عظيمًا، جاء لإنسان يملك سيارتين، قال: أسألك بالله أن تعطيني إحدى السيارتين، السيارة شيء عظيم فسؤالها تعدٍّ، هو ما طلب أن يعيره السيارة، لا هو يريد السيارة، أو كان عنده بيتان فقال: أسألك بالله أن تعطيني البيت الثاني، أنت ما عندك إلا زوجة واحدة ويكفيك بيتًا واحدًا، أسألك بالله أن تعطيني البيت الثاني، هذا تعدٍّ، وإضرار بالناس في أموالهم، فهذا لا يجب أن يعطى.

الحالة الخامسة: أن يسأل بالله ما ليس حقًّا له وكان مباحًا، وليس في سؤاله ضرر ولا تعدٍّ. هذا قد اختلف فيه العلماء:

- فالجمهور على أنه يستحب أن يعطى وأن يجاب سؤله ولا يجب، فإن أعطاه أُجِرَ، وإن لم يُعطِهِ لا يأثم. هذا عند جمهور العلماء. قالوا: لأنّ الأصل أنّ الإنسان له أن يَتصرَّف في ماله بما شاء، فيعطي إن شاء، ويَمنع إن شاء من ماله.

- وذهب بعض أهل العلم إلى أنه يجب أن يعطى؛ لهذا الحديث؛ لأنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ومَن سأل بالله فأعطوه» وهذا أمر؛ والأمر

للوجوب، ولا صارِف هنا، ولاحظوا أننا نقول: حيث لا ضرر، ولا مشقة زائدة، ولا تعدٍّ، وإنما هو أمر عادي سهل، قالوا: إنه واجب لهذا الحديث، ولأن في إعطائه تعظيمًا لله عز وجل، وتعظيم الله واجب.

- ومن العلماء مَن فصَّل فقال:

إن كان السائل سأل بالله معيَّنًا من الناس، وخصَّه من بين الناس، وكان قادرًا على أن يعطيه، فإنه يجب عليه أن يعطيه. مثلًا: إنسان جاءك في البيت وقال: أنا ربّ أسرة، ووالله ما عندي قيمة العشاء، وأنهم ما تغدوا، أسألك بالله أن تعطيني قيمة العشاء، وهذا رجل ليس متسوِّلًا، هذا من جيرانك، ولا يطلب الناس، لكن خصَّك أنت بالسؤال، وجاء إليك وقصدك قصدًا، وأحسن الظن بك، فإنه هنا يجب أن يعطيه ما دام قادرًا.

أمّا إذا كان السائل يُكثِر السؤال، ويعتاد السؤال، ويسأل كل أحد لقيه؛ كالمتسوِّل الذي يَتسوَّل؛ فهذا لا يجب أن يعطى ولو سأل بالله. بعض الشحاتين يأتي يقول: أسألك بالله أن تعطيني، ما يجب أن تعطيه، إن رأيت أن تعطيه فأعطه، وإن رأيت ألَّا تعطيه فلا تعطيه، ولا تنهره. فهذا تفصيل.

وعلى كل حال؛ لا شك أنّ مَن سأل بالله فقد سأل بعظيم، وأنّ وقع هذا السؤال في قلب المؤمن يجب أن يكون عظيمًا، وأنّ إجابة مَن سأل بالله شأنها عظيم، فلا ينبغي للمسلم ترك إجابة السائل بالله مع القدرة؛ على القيود التي

ذكرناها، فإنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ملعون مَن سأل بوجه الله، وملعون مَن سُئل بوجه الله ثم مَنَعَ سائله؛ ما لم يُسأل هُجْرًا» رواه الطبراني، وابن عساكر، وحسَّنه الألباني، فهذا وعيد شديد لمن سُئل بوجه الله فلم يُعْطِ.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «ألا أخبركم بشرِّ الناس؟ رجل يُسأل بالله ولا يعطي به» رواه الترمذي، والنسائي، وصحَّحه الألباني. «ألا اخبركم بشر الناس؟» مَن هو؟ «رجل يُسأل» هذا أحد الضبطَين «رجل يُسأل بالله ولا يعطي به» يقول له السائل: أسألك بالله، فيمنع السائل؛ على التفصيل الذي ذكرنا، والقيود التي ذكرنا. وفي الضَّبط الآخر: «رجل يَسأل بالله ولا يعطي به» فهو يجمع بين أمرين: هو بنفسه إذا سأل الناس سأل بالله؛ وقال: أسألك بالله، وإذا سأله أحد بالله؛ ما يعطي، إذا جاءه إنسان قال: أسألك بالله أن تعطيني؛ ما يعطي به، فهو يَسأل بالله ولا يعطي مَن سأله بالله. وكلا الضبطَين صحيح.

فإجابة السائل بالله شأنها عظيم فلا ينبغي للمسلم أنه إذا سُئل بالله مع قدرته من غير ضرر يلحق به ولا مشقة زائدة؛ أن يَمنع السائل سؤله وألَّا يعطيه مراده.

اضبطوا هذا فإنه يفيدكم جدًّا في ضبط المسائل.

قال: «وَمَنْ دَعَاكُمْ فَأَجِيبُوهُ» مَن دعاكم إلى وليمة فأجيبوه، أي: مَن خصَّكم بالدعوة إلى الوليمة فأجيبوه؛ ما لم يوجَد مانع يَمنع من الإجابة. أمّا الدعوة العامة فلا تجب إجابتها.

وقد ذهب جمهور العلماء إلى أنّ الدعوة التي تجب إجابتها: هي وليمة العُرس، أمّا غيرها من الدعوات فتُستحب إجابتها، ولا تجب.

وذهب الظاهرية وبعض العلماء إلى وجوب إجابة الوليمة مطلقًا ما لم يوجد مانع.

والنبي صلى الله عليه وسلم قال: «أجيبوا الداعي» كما عند البخاري في الصحيح. وهذا أمر، والأمر يدل على الوجوب.

وقال: «إذا دُعِيَ أحدكم إلى الوليمة فليأتها» متفق عليه.

وأنا أستظهر قول الجمهور؛ لأنّ الأصل في الدعوة والوليمة إذا أُطلِقت أنه يراد بها وليمة العرس، ولأن في وجوب إجابة كل دعوة مشقة ظاهرة على الناس، والشرع لم يأتِ بالمشقة الزائدة على الناس.

قال: «وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا» أي: مَن أحسن إليكم إحسانًا بأيِّ أنواع الإحسان، «فَكَافِئُوهُ» قابلوا إحسانه بإحسان مثله، أهدى لك هدية؛ أهدي له أنت هدية، ساعدك في معاملة؛ ساعده أنت في معاملة، وهكذا. «فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُوه، فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا» "تَروا" بفتح التاء يعني: حتى تَعلموا «أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ»، فالذي لا يجد شيئًا ماديًّا يكافئُ به؛ يكافئْ بالدعاء. والضبط الآخر: «حتى تُروا» أي: حتى تَظنوا أنكم قد كافأتموه، وهذا من حُسن الأخلاق.

وقد أشار بعض أهل العلم إلى أنّ هذا يتعلَّق بكمال التوحيد، وتصفية التوحيد؛ كيف؟ قالوا: الإنسان إذا أحسن إليك وأسدى إليك معروفًا؛ الغالب أنّ قلبك يَتعلَّق به، وهذا التعلُّق قد يُضعِف تَعلُّق قلبك بالله، فكيف تُذهِب هذا التعلُّق؟ بأن تكافئه، أهداني؛ أهديته، خلاص، ساعدني؛ ساعدته، فتبقى المحبة في الله، وينتفي التعلُّق الذي يُخشى أن يُضعِف تعلُّق القلب بالله سبحانه وتعالى، فكانت المكافئة على المعروف من باب تهذيب التوحيد، وتصفية التوحيد. ولهذا وجه ظاهر .

الدرس السابع والستون: شرح باب: لا يُسألُ بوجْهِ اللهِ إلَّا الجَنَّة

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، مَن يهدِ الله فلا مضل له، ومَن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[آل عمران:١٠٢]

﴿يا أَيُّهَا النّاسُ اتَّقوا رَبَّكُمُ الَّذي خَلَقَكُم مِن نَفسٍ واحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنها زَوجَها وَبَثَّ مِنهُما رِجالًا كَثيرًا وَنِساءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذي تَساءَلونَ بِهِ وَالأَرحامَ إِنَّ اللهَ كانَ عَلَيكُم رَقيبًا﴾[النساء:١]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[الأحزاب:٧٠-٧١]

أمّا بعد، فإنّ خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد –صلى الله عليه وسلم–، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدَثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

ثم يا معاشر الفضلاء، نواصل شرحنا لكتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد، نواصل هذا الشرح المؤصَّل، وقد شارفنا–بحمد الله– على الانتهاء من الكتاب.

وقبل أن نشرع في شرح ما يتيسر من الأبواب، أحب أن أنبِّه الإخوة إلى أمرٍ رأيت أنّ كثيرًا منهم يخطئون فيه، ويَكثُر سؤالهم في أبواب التوحيد بسبب عدم ضبطهم له؛ ألا وهو: **ما المطلوب من العبد في التوحيد؟**

إذ المطلوب من العبد في التوحيد ثلاثة أمور:

- تحقيق التوحيد.
- وتكميل التوحيد الواجب.
- وتكميل التوحيد المستحب.

أمّا تحقيق التوحيد؛ فهو: الإتيان بالتوحيد، والسلامة من ضدِّه الذي هو الشرك، وهذا هو دين الأنبياء جميعًا، وقد اتّفق عليه جميع الأنبياء .

وأمّا تكميل التوحيد الواجب؛ فهو: ما يتعلق بفعل الواجبات، وترك المحرمات. ففعل الواجبات شرعًا تكميل واجب للتوحيد، وترك المحرمات شرعًا تكميل واجب للتوحيد.

إذن؛ متى يُكمَّل التوحيد التكميل الواجب؟ بفعل الواجبات، وترك المحرمات.

وهذا قد اتَّفق الأنبياء على أصله، وأمّا أنواعه فيختلفون فيها بحسب الاختلاف في شرائعهم.

ولذلك؛ لا تَعجَب إذا كانت هناك مسألة مما يتعلَّق بكمال التوحيد الواجب ولم تكن مشروعةً قبل دين محمد –صلى الله عليه وسلم–، فإنّ أنواع تكميل التوحيد الواجب يختلف فيها الأنبياء بحسب شرائعهم.

وأمّا تكميل التوحيد المستحب؛ فهو متعلِّق بفعل المستحبات، وترك المكروهات. فبِفِعْل المستحبات شرعًا وترك المكروهات يُكَمَّلُ التوحيد، وهذا التكميل مستحبٌ وليس بواجب.

وهذا كسابقه؛ اتّفق الأنبياء على أصله، وأمّا أنواعه فتختلف باختلاف شرائع الأنبياء.

فهذا الأمر ينبغي فقهه، وفهمه، وإدراكه؛ حتى يَضبِط طالب العلم مسائل التوحيد.

ونكمل شرح ما تيسَّر من الأبواب التي سطَّرها شيخ الإسلام –رحمه الله عز وجل–. فيتفضل الأخ نور الدين –وفقه الله والسامعين– يقرأ لنا من حيث وقفنا.

[باب: لا يُسأَلُ بوجْهِ اللهِ إلَّا الجَنَّة]

هذا الباب –أيضًا– في الأدب مع الله –سبحانه وتعالى–، فمن الأدب مع الله –عز وجل– أن يُعظِّم العبد وجه ربه –سبحانه وتعالى–، ولذلك لا يسأل بوجه الله أمور الدنيا، وإنما يسأل بوجه الله الأمور العظام، والمطالب العالية؛ كالجنة وما يقرِّب إليها. أمّا أمور الدنيا فإنه لتعظيمه لوجه الله –عز وجل– لا يسألها بوجه الله، لا من الله، ولا من عباد الله.

فلا يقول في دعائه مثلا: يا ربِّ أسألك بوجهك الكريم أن ترزقني زوجة حسناء، أو ترزقني سيارة طيبة، وغير ذلك من أمور الدنيا؛ لأنه يُعظِّم الله –عز وجل–.

ولا يسأل المخلوق كذلك أمور الدنيا بوجه الله، فلا يقول لأخيه: أسألك بوجه الله أن تعطيني الكتاب، أو أسألك بوجه الله أن تعطيني مالًا، أو نحو ذلك.

وقد تقدَّم معنا في الباب السابق أنّ المؤمن إذا سُئل بالله أو بوجه الله ينبغي أن يُعطِيَ السائل؛ لأنه يُعظِّم الله، أو يُعظِّم وجه الله –سبحانه وتعالى–؛ فتحصَّل عندنا من البابَين أنّ المؤمن من تعظيمه لوجه الله لا يسأل أمور الدنيا بوجه الله، ولا يَرُدُّ مَن سأله بوجه الله؛ لأنه يُعظِّم وجه الله –سبحانه وتعالى–.

فمراد الشيخ من إيراد هذا الباب: بيان أنّ من الأدب ومن كمال التوحيد الواجب ألَّا يَسأل العبد بوجه الله –عز وجل– إلا المطالب العظام؛ تعظيمًا لوجه ربه –سبحانه وتعالى–.

[عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يُسأَلُ بِوَجْهِ اللهِ إلَّا الجَنَّة» رواه أبو داود]

هذا الحديث رواه أبو داود، وسكت عنه، فهو صالحٌ عنده؛ كما قال في رسالته إلى أهل مكة. وقال الإمام ابن باز –رحمه الله عز وجل–: فيه ضعفٌ، لكن ينجبر بالروايات الأخرى. وضعَّفه: ابن القطان، والذهبي، والألباني، ولكن قال الألباني في أحد المواضع: ضعيفٌ، لكن النظر الصحيح يَشهد له.

فهذا الحديث لم يتَّفق العلماء على تضعيفه، والرَّجل الذي ضعَّف بعض أهل العلم الحديث بسببه لم يتَّفق النُّقاد على جَرْحِه وتضعيف حديثه، بل من العلماء من قَبِلَ حديثه، ومن العلماء مَن رَدَّ حديثه، فلا يُعاب شيخ الإسلام –رحمه الله عز وجل– بإيراد مثل هذا الحديث الذي ضعَّفه بعض أهل العلم؛ لأنّ العلماء لم يتَّفقوا على تضعيفه، وله عند أهل العلم ما يقوِّيه ويَشهد له.

ولذلك؛ ما تقدَّم عندنا في الباب السابق من قول النبي –صلى الله عليه وسلم–: «ملعونٌ مَن سألَ بوجهِ الله» رواه الطبراني وابن عساكر، وحسَّنه الألباني. فدلَّ ذلك على أنّ السؤال بوجه الله حرام، وكبيرة من كبائر الذنوب، لكن يُحمَل هذا على سؤال مطالب الدنيا، فمطالب الإنسان نوعان:

النوع الأوّل: المطالب العالية؛ كالجنة وما قرَّب إليها؛ كالدِّين، والعِلم، والصَّلاح، فهذه يجوز أن تُسأل بوجه الله –عز وجل–.

ومن ذلك قول الرجل للنبي –صلى الله عليه وسلم–: «وإني أسألكَ بوجهِ الله –عز وجل– بمَ بعثكَ إلينا ربنا؟ فقال –صلى الله عليه وسلم–: بالإسلام» رواه النسائي، وأحمد، وصحّحه: الحاكم، والذهبي، وحسَّنه: الأرناؤوط، والألباني. هنا هذا الرجل قال: «وإني أسألك بوجه الله، بِمَ بعثك إلينا ربنا؟» فقال النبي –صلى الله عليه وسلم–: «بالإسلام»، سأل عن أمرٍ عظيم؛ وهو: بِمَ بُعث محمد –صلى الله عليه وسلم–؟ وسأل النبي –صلى الله عليه وسلم– بوجه الله، ولم يُنكِر عليه النبي –صلى الله عليه وسلم–، ولم يقل له: لا تسأل، أو لا تَسَلْ بوجه الله –سبحانه وتعالى–، بل أجابه، فقال: «بالإسلام»، فدلّ ذلك على أنه يجوز أن يُسأل بوجه الله المطلَب العظيم، وأعظم المطالب: رضا الله، والجنة، وكلّ ما قرَّب إلى رضا الله والجنة فهو من المطالب العظيمة.

وأمّا النوع الثاني: فهو المطالب الحقيرة؛ كمطالب الدنيا كلها، فإنّ «الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها إلا ذكر الله، وما والاه، وعالمًا ومتعلِّمًا»، فأمور الدنيا حقيرة، فلا يجوز للإنسان أن يطلبها بوجه الله، وقد سمعنا قول النبي –صلى الله عليه وسلم–: «ملعون مَن سأل بوجه الله»، وهذا يُحمَل على هذا النوع.

«لا يسأل بوجه الله إلا الجنة»، "لا يُسأل": هذا نفي، ومدلوله النهي، فكأنه لعظِم حرمته لا يقع أصلا، كأنه لعظم حرمته لا يقع أصلًا، فهذا نفي مدلوله النهي، وهو أبلغ في بيان المقصود.

والسؤال هنا؛ **قال بعض أهل العلم**: هو سؤال المخلوقين، فالمقصود: أنه لا يُسأل المخلوق بوجه الله مطلقًا، لا يجوز لك أن تسأل مخلوقًا بوجه الله، فإنه لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة، والمخلوق لا يملك الجنة، ولذلك لا يُسأل المخلوق بوجه الله.

وقال بعض أهل العلم: المقصود: هو سؤال الله –عز وجل–، والمقصود أنه لا يُسأل الله –عز وجل– بوجهه إلا الجنة، وما قرّب إليها.

والظاهر –والله أعلم–: أنّ الحُكم يَعُمُّ الأمرَين، فلا يجوز أن يُسأل المخلوق بوجه الله، ولا يجوز أن يُسأل الله بوجهه الكريم إلَّا الأمور العظيمة: الجنة، وما قرب إليها من قولٍ أو عمل.

[فيهِ مَسَائِل: الأُوْلَى: النَّهْيُ عَنْ أَنْ يُسْأَلَ بِوْجِهِ اللهِ إلَّا غَايَةَ المَطَالِبِ]

وهي الجنة، وما يقرِّب إليها. وإن شئت قُل: الفوز يوم القيامة. كل ما يؤدِّي إلى الفوز يوم القيامة من المطالب العالية.

[الثانية: إثباتُ صِفَةِ الوَجْهِ]

نعم، لربنا وجهٌ كما يليق بجلاله –سبحانه وتعالى–، وأهل السنة والجماعة يُثبتون لله وجهًا؛ كما ثَبَتَ في القرآن والسنة، كما في قول ربنا –سبحانه وتعالى–: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾[الرحمن:٢٧]. وكما في

هذا الحديث: «لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة»، وكما في الحديث الذي مرَّ معنا: أنّ الرجل قال للنبي –صلى الله عليه وسلم–: «أسألك بوجه الله».

فكل هذه النصوص تدلُّ دلالة بيِّنة على إثبات الوجه لله –سبحانه وتعالى– ، من غير تكييف، ولا تمثيل، ولا تشبيه، نثبت الوجه على الحقيقة، على الوجه اللائق بربنا –سبحانه وتعالى–، وهذه عقيدة أهل السنة والجماعة.

تابع الدرس السابع والستون: شرح باب: ما جاء في اللَّو

[باب: ما جاء في اللَّو]

(باب: ما جاء في اللو) أي: باب ما جاء في قول: (لو)، و(لو) حرف امتناع لامتناع، كأن يقول الأب لابنه: لو حفظتَ الأربعين النووية لكافأتك.

كأنه يقول له: أتدري لِمَ امتنعتُ عن مكافأتك؟ لأنك امتنعتَ عن حفظ الأربعين النووية. هذا معنى قولهم حرف امتناع لامتناع. "لو حفظت الأربعين النووية لكافأتك"، معنى ذلك: أنه امتنع من مكافأته بسبب امتناعه عن حفظ الأربعين النووية.

وكما تعلمون جميعًا؛ (أل) لا تدخل على الحروف، و(لو) حرف؛ فلماذا قال الشيخ هنا: باب ما جاء في اللو؟

قال بعض أهل العلم: (أل) هنا زائدة؛ لتسهيل النطق.

وقال بعض أهل العلم: الحرف إذا أُرِيد به التسمية جاز أن تَدخل عليه (أل)، فإذا دخلت عليه (أل) نعلم أنه أُريدت به التسمية. والشيخ أخذ حرف (اللو) هكذا بـ (أل) من بعض ألفاظ الحديث، إذ جاء في بعض ألفاظه: «إياك واللو، فإنّ اللو تَفتح عمل الشيطان» روى هذه الرواية الإمام أحمد، وابن ماجه، وصححها الألباني. وقد بوَّب البخاري في صحيحه فقال: "باب ما يجوز من اللو"، فأدخل (أل) على (لو).

فإدخال (أل) على (لو) ليس مجانبًا للفصاحة، بل جاء في كلام النبي –صلى الله عليه وسلم–، وكلامه أفصح كلام البشر، واستعمله العلماء.

وكلمة (لو) إذا استعملها المسلم في معارَضة القَدَر، وأنّ هذا المقدور ما كان ليقع لو كان كذا؛ فهذا حرام، ونَقْصٌ في التوحيد، وفيها نوعُ ضعفٍ في الإيمان بالقضاء والقدر، فإنّ الشيء بعد وقوعه يَعلَم المؤمن بالقضاء والقدر أنه لو اجتمعت جميع الأسباب، واجتمع الجن والإنس على ألَّا يقع ذلك الأمر؛ فإنه سيقع. الأمر إذا وقع يوقِن المؤمن أنه لو اجتمعت جميع الأسباب ما كانت لتمنع هذا، ولو اجتمع الجن والإنس ما كانوا ليَمنعوه؛ لأنه إذا وقع عَلِمَ المؤمن أنّ الله قد أراد وقوعه فأَوْقَعَه، ولا رادّ لِمَا أراده الله –عز وجل–.

وإذا كان ذلك كذلك؛ فإنّ المسلم إذا وقع قدر الله يُسلِّم له، ولا يَجزع، ولا يَتسخط، ولا يقول: لو كان كذا لكان كذا.

أمّا إذا استعملها في غير معارَضة القدر؛ كمقام بيان الأسباب النافعة، ومقام تمني الأفضل، أو الإخبار عن المستقبل؛ فذلك جائز، لا حرج فيه، ولا يخدش التوحيد؛ ومن ذلك: قول النبي –صلى الله عليه وسلم–: «لو استقبلتُ من أمري ما استَدبرتُ، لَمَا سُقْتُ الهدي، ولَجعلتُها عُمرة»، قال بعض أهل العلم: النبي –صلى الله عليه وسلم– هنا يُخبر أصحابه بالأفضل، استعمل (لو) لبيان الأفضل؛ وهو التمتع. وقال بعض أهل العلم: بل هذا إخبارٌ عن المستقبل؛ كأن النبي –

صلى الله عليه وسلم- يقول: لو حَجَجْتُ مرة أخرى لحَجَجْتُ متمتعًا. فهنا استعمال (لو) جائز، ولا حرج فيه.

كذلك؛ لو كان يَتعلَّق بأمرٍ وقع في الماضي لكن لا على سبيل الاعتراض؛ وإنما على سبيل التنبيه على الأسباب النافعة، فيقول مثلًا: لو أنك تفقَّدتَ الكفرات، لو أنك غيَّرت الزيت، لو أنك كذا، ما يحصل الحادث، أو ما حصل الحادث، ليس مقصوده معارَضة القدر بالسبب، وإنما مقصوده: التعليم بالأسباب النافعة، وفِعْل الأسباب النافعة؛ فهذا جائز، لا حرج فيه.

[وقول الله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾[آل عمران:١٥٤]، الآية]

هذا قول المنافقين: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾[آل عمران:١٥٤].

والمعلوم أنّ النبي –صلى الله عليه وسلم- استشار أصحابه في الخروج إلى أُحد، فكان رأيُ النبي –صلى الله عليه وسلم- أن يبقى المسلمون داخل المدينة، لكن أشار أكثر أصحابه إلى الخروج لملاقاة المشركين، فدخل النبي –صلى الله عليه وسلم- ولبس لامته ودرعه –صلى الله عليه وسلم- وخرج إليهم، فعندما دخل قالوا: أكْرَهنا النبي –صلى الله عليه وسلم-، فلمّا خرج قالوا: يا رسول الله لو بقينا في المدينة؟ فقال –صلى الله عليه وسلم-: «ما كان

لنبي أن يضع لامته بعد أن لبسها»، فخرج ومعه نحو ألف رجل، وفي الطريق رجع رأس المنافقين عبد الله بن أُبي بثلاثمائة رجل من المنافقين، وبقي بعض المنافقين حياءً، فلمّا وقع ما وقع، وقُتل مَن قُتل، قال أولئك الذين بَقوا: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾[آل عمران:١٥٤]، يعني لو سُمِع كلامنا لأنّا قلنا: لا نخرج من المدينة؛ لَمَا وقع القتل، فقالوا هذا على وجه المعارَضة للشَّرع والقدر، قالوا هذا على وجه المعارضة للشرع؛ يعني: معارَضة للنبي –صلى الله عليه وسلم– لأنه خرج بالناس، وفي هذا سوء أدبٍ مع رسول الله –صلى الله عليه وسلم–. وقالوا هذا –أيضًا– معارَضة للقدر؛ لو بقينا في المدينة ما قُتل مَن قُتل منّا، وما مات مَن مات؛ وهذه معارَضة للقدر، وفيها سوء أدبٍ مع الله –عز وجل–.

فدلّ ذلك على حرمة قول (لو) على وجه المعارَضة للقدر، وكذلك على وجه المعارَضة للشرع.

[وقوله: ﴿الَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾[آل عمران:١٦٨]، الآية]

وهذه –أيضًا– في المنافقين، في غزوة أُحد، ﴿الَّذِينَ قَالُوا﴾ مَن هم؟ الذين رجعوا، الثلاثمائة الذين رجعوا ولم يُكمِلوا الطريق مع رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، لمّا انتهت المعركة وقُتل سبعون من الصحابة –رضوان الله

عليهم- ﴿قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ هؤلاء المنافقون قالوا لإخوانهم، مَن إخوانهم؟ أكثر أهل العلم على أنّ إخوانهم هم الصحابة هنا، طيب كيف يكونون إخوانًا لهم وهؤلاء منافقون وهؤلاء صحابة رسول الله –صلى الله عليه وسلم–؟!

قال بعض أهل العلم: المراد بالأخوة هنا: القرابة من النَّسب، فإنّ بين هؤلاء وبين بعض الصحابة قرابة في النَّسب، هذا أخوه، وهذا عمه، وهذا ابن عمه، ونحو ذلك.

وقال بعض أهل العلم: هم إخوانهم في الدين ظاهرًا، لأنّ المنافقين يُظهِرون الإسلام، فهم إخوانٌ للصحابة في الظاهر، وإن لم يكونوا في الباطن من المسلمين.

وذهب بعض أهل العلم إلى أنهم قالوا هذا لإخوانهم الذين بقوا مع النبي –صلى الله عليه وسلم–، لأن قلنا إنّ بعض المنافقين بقوا مع النبي –صلى الله عليه وسلم– حياءً ولم يرجعوا، فلمّا رجعوا قال لهم هؤلاء المنافقين الذين رجعوا: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا﴾ يعني: لو أطاعنا محمد –صلى الله عليه وسلم– والصحابة الذين معه ما قُتِلوا، لأنهم سيبقَون في المدينة وما يحصل لهم القتل.

فهم جمعوا بين ثلاث بلايا:

الأولى: أنهم قعدوا وتَخلَّفوا ولم ينصروا رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، ولذلك قال الله: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا﴾[آل عمران:١٦٨].

البليَّة الثانية: الاعتراض على الشرع.

والبلية الثالثة: الاعتراض على القدر، وأنهم لو ما خرجوا ما قُتلوا، وهذا جهلٌ بقدر الله –عز وجل–، فإنه لو لم يَخرجوا لبرز وظهر الذين كُتِب عليهم الموت إلى مضاجعهم، ولن يَتخلَّف الإنسان عن موضع موته: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾[آل عمران:١٥٤]، وهذا يعلمه المؤمن بقضاء الله وقدره.

ولذلك يا أخي؛ لو خرج ابنك بسيارة، وسافر، ووقع حادث في الطريق، ومات، لا تقل: لو أني منعته ما مات! لو أني أقفلتُ عليه الغرفة لَمَا مات في قرية كذا! أبدًا، فإنك لو فعلت ذلك كان سيذهب، لو أغلقت عليه الباب يقينًا سيوجَد سبب يَخرج به إلى المكان الذي مات فيه، ويموت فيه. وهذا من إيمان المؤمن بالله –عز وجل– وتعظيم المؤمن لربه سبحانه وتعالى.

[في الصحيح عن أبي هريرة –رضي الله عنه–، أنَّ رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال: «احرص على ما ينفعك، واستعنْ بالله ولا تَعجزن، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت لكان كذا وكذا؛ ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان»]

(في الصحيح) يعني: في الحديث الصحيح؛ لأنه عند مسلم. (عن أبي هريرة –رضي الله عنه– أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال: «احرِص» –أو

احرَص؛ بكسر الراء أو فتح الراء- «على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجَز» أو: لا تعجِز. «احرص على ما ينفعك»: أي: ابذُل ما تستطيع من الأسباب لتحصيل ما ينفعك في دينك ودنياك، وكمال نفع الإنسان في اجتماع هذين:

الأوّل: أن يكون حريصًا، باذلًا جهده، مستفرِغًا طاقته، دافعًا الكسل عن نفسه لتحصيل ما يريد.

والثاني: أن يكون حرصه فيما ينفعه في دينه أو دنياه.

فإذا لم يكن حريصًا فاته كثيرٌ من الخير، الذي يحب أن ينام بعد العصر، يفوته الدرس، الذي يحب أن يتقهوى ويجلس مع الناس بعد المغرب تفوته دروس، الذي ليس عنده حرص تفوته كثير من المنافع، وتغلبه نفسه.

والذي عنده حرص، لكن لا يحرص على ما ينفع؛ في الغالب يجلب لنفسه الضرر.

فكمال أمرك يا عبد الله: أن تكون حريصًا على ما ينفع، فإذا كان الشيء نافعًا كنت حريصًا عليه، مجتهدًا، باذلًا ما تستطيع في تحقيقه، أمّا إذا لم يكن نافعًا فإنك لا تكون حريصًا عليه.

«احرص على ما ينفعك، واستعن بالله» أي: ابذُل السبب في تحصيل ما ينفعك، وفوّض الأمر إلى الله، واستعن بالله –عز وجل– فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله.

وهذه حال المؤمن قبل وقوع الأمر، قبل وقوع الأمر يكون حريصًا عليه إذا كان نافعًا، ويَبذل الأسباب، ولكنه لا يَتَّكل على الأسباب، مهما قَوِيت الأسباب يفوّض أمره إلى الله، ويستعين بالله –عز وجل–، فلا يَغفل عن التوكل على الله أبدًا، ولو قَوِيت الأسباب لا يَعتمد عليها، فمع فِعْل الأسباب يستعين بالله، ويفوِّض الأمر إلى الله، ويَتوكل على الله، موقنًا أنه لا حول ولا قوة إلا بالله، وأنّ ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

وهذه حال المؤمن قبل الوقوع، هكذا علَّمنا النبي –صلى الله عليه وسلم–، وهكذا ينبغي أن نكون.

«احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز»–أو ولا تعجِز–، طبعًا الشيخ ذكرها هنا في بعض النُّسخ: «ولا تَعجزَنّ»، وفي بعض النُّسخ: «ولا تَعجز»، والذي في صحيح مسلم وفي أكثر الروايات: «ولا تَعجز» بدون النون، ولم أقف على النون إلا في رواية البزّار، في رواية البزار «ولا تعجزنّ»، أمّا في بقية الروايات وفي صحيح مسلم على وجه الخصوص: «ولا تعجز» بدون النون.

ومعنى «لا تعجز»: لا تتكاسل عن طلب ما ينفعك، وابذُل الأسباب في حصول ذلك.

بعض الناس يعجز عن طلب النافع، وقد يحتج بالقدر، ويقول: لو كان مقدورًا لي سيأتيني وأنا في بيتي! وهذا نقص في العقل وجهل بالشرع، فإنه لا

يوجد عاقل مثلًا يقول: لا أتزوج ويأتيني ولد، إذا كان الله كاتب لي أولاد سيأتيني الأولاد، لماذا أتزوج؟! لو قال قائل هذا لحَكَم عليه الناس بأنه مجنون، فالمؤمن قبل وقوع الأمر يحرص على ما ينفعه، ويتوكل على الله ويستعين به، ولا يعجز ويتكاسل ويحتج بالقدر ويقول كل شيء مكتوب ولو كان هذا مكتوبًا لي سيأتيني وأنا في بيتي؛ فإنّ هذا ينافي الشرع، ويخالف العقل. هذا حال المؤمن قبل وقوع الأمر.

وأمّا حاله بعد وقوع الأمر؛ فقد بينه النبي –صلى الله عليه وسلم–، قال: «وإن أصابك شيء» نزل بك ما تكرهه، نزلت بك مصيبة، وقعت، «فلا تقل: لو أني فعلتُ كذا لكان كذا وكذا، ولكن قُلْ: قَدَرُ الله»، هذا ضبْط الأكثرين من أهل العلم: قَدَرُ الله، يعني هذا مقدور الله –عز وجل–، وضَبَطَها بعض أهل العلم: «قَدَّرَ الله». لكن كثيرًا من العلماء رجّحوا الأوّل؛ لأنه الذي جاء في أكثر الروايات، ولأنه أبلغ في المعنى. «قل قدَر الله وما شاء فعل»، «وما شاء فعل» تعني للمؤمن أنه لا يمكن ألّا يقع الأمر بعد أن وقع، بعد أن وقع نعلم يقينًا أنه لا يمكن أن يَتخلّف.

«فإنّ لو تفتح عمل الشيطان» (لو) تفتح على المؤمن عمل الشيطان من جهة الاعتراض على القدر، ومن جهة الجزع، ومن جهة التسخُّط.

وكما قلت لكم؛ بعض الناس يفعل شيئا لا بأس به، فتقع مصيبة، فيبدأ يلوم نفسه، ويَعترض على قدر الله، شَعُر بذلك أو لم يَشعر، ثم يفتح أبواب الشيطان على نفسه من الحزن والتسخُّط: أنا لو ما سمحت له ما وقع له الحادث! أنا لو ما كذا ما وقع له كذا! ويأتي الشيطان ويلعب به حتى يَعترض على قدر الله، ويتسخّط على قدر الله، ويحزن حزنًا زائدًا عن الحزن المعتاد، هذا معنى «فإنّ لو تفتح عمل الشيطان».

[فيه مسائل: الأولى: تفسير الآيتين في آل عمران]

وكلاهما –كما قلنا– في كلام المنافقين في غزوة أُحد، وفي كلامهم اعتراضٌ على القدر والشرع.

[الثانية: النهي الصريح عن قول: (لو أني) إذا أصابك شيء]

نعم، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا.

[الثالثة: تعليل المسألة بأنّ ذلك يفتح عمل الشيطان]

فهي من أدوات الشيطان في باب معارَضة القدر، وتجعل الشيطان يتلاعب بالإنسان، يحزِن قلبه، ويجعله يتسخَّط على ربه، ويَعترِض على القدر.

[الرابعة: الإرشاد إلى الكلام الحسن]

وهذا من حُسن التعليم، إذا كان هناك كلامٌ لا يَصلُح، أو فعلٌ لا يَصلُح، وكان يَحِلُّ محلَّه كلام يَصلُح، أو حَسن، أو فِعْلٌ حسن، فإنّ من حُسن التعليم أن

يُنهى عن القبيح، ويُرشَد إلى الحسن. فالنبي –صلى الله عليه وسلم– هنا نهى عن قبيح الكلام عند نزول المصيبة؛ وهو قول: «لو أني فعلتُ كذا لكان كذا وكذا»، وأرشد إلى الكلام الحسن عند نزول المصيبة: «قدَر الله وما شاء فَعَل» كلمات طيبات من نفس طيبة، تطيِّب القلب، حتى أن ّالمؤمن لو قالها بيقين تخفِّف حُزْنَه. وهذا في الحقيقة منهج ينبغي على مَن يُعلِّم الناس أن يسير عليه؛ وهو: إذا نهاهم عن شيء وكان هناك ما يَحِلُّ محلَّه أن يرشدهم إليه، ويُعلِّمهم ذلك.

[الخامسة: الأمر بالحرص على ما ينفع مع الاستعانة بالله]

وذلك قبل فوات الأمر، أو وقوعه، فإنّ المسلم يحرص ويجتهد، ويبذل الأسباب في تحصيل ما ينفع، مع تفويض الأمر إلى الله بعد فعل السبب؛ «اعقلها وتوكل».

[السادسة: النهي عن ضد ذلك؛ وهو: العجز]

نعم، ولا سيما في باب الاحتجاج بالقدر، فإنه يُنهى عن ذلك، وسيأتينا –إن شاء الله– باب يتعلق بالقدر، وسنفصِّل فيه بحول الله وقوته.

تابع الدرس السابع والستون: شرح باب: النهي عن سب الريح

[باب: النهي عن سب الريح]

نعم، هذا الباب –أيضًا– في الأدب مع الله –عز وجل– في الألفاظ، وهو من كمال التوحيد الواجب. فمن سوء الأدب في الألفاظ سبُّ الريح؛ لأنّ الريح مأمورة من الله تعالى، تأتي بالرحمة بأمر الله، وتأتي بالعذاب بأمر الله، فسبُّها سبٌّ لآمِرها في الحقيقة، واعتراض على أمر الله –عز وجل–.

- وسبُّ الريح إن كان سبًّا لها لِمَا وقع فيها من شر؛ فهذا حرام، وسوء أدبٍ مع الله؛ لأنه يَلزَم من ذلك سبُّ الله، لكن هذا لا يَخطر في قلب السابِّ في الغالب؛ ولذلك لا يكون كفرًا، وإنما هو حرام.

- أمّا إذا كان سبُّها لأنها الفاعِلة والمحدِثة لهذا الشر، والخالقة والصانعة لهذا الشر؛ فهذا شركٌ في الربوبية. إذا كان يسبُّ الريح لأنه يعتقد أنها هي التي فعلت بنفسها، وهي التي خلقت هذا الشر، وصنعت هذا الشر؛ فهذا شرك في الربوبية.

- وأمّا إذا كان سبُّها سبًّا لآمِرها؛ يعني: الذي سبَّها يَقصِد سبَّ آمِرها؛ فهذا كفر –والعياذ بالله–؛ لأنه سبٌّ لله –عز وجل–، فإنّ الذي يأمر الريح هو الله –سبحانه وتعالى–.

والريح آية من آيات الله، وجند من جند الله، تدلُّ على عظيم قدرة الله، وعلى قوة ربنا –سبحانه وتعالى–، وعلى ضَعف الإنسان، وعلى أنّ الإنسان

محتاجٌ إلى ربه، فقيرٌ إلى ربه، مهما عظمت قوّته، ومهما وُجِد عنده من أسباب القوة؛ فإنه لا يملك أمام الريح شيئًا.

ألا ترى يا عبد الله هذه الريح التي تسمى بالأعاصير كيف تضرب البلدان! وبعض هذه البلدان قد بلغ في القوة مبلغًا عظيمًا، ومع ذلك إذا جاءهم الإنذار بقرب الإعصار لا يملكون شيئًا، لا يملكون إلا الانتظار؛ ماذا سيقع؟ وينظرون ماذا حدث، فقط، عجزٌ مطلَق! وهذا يزيد توحيد المؤمن قوّة، ولذا كان تصريف الرياح من الآيات العظام لقومٍ يعقلون.

فالشيخ أورد هذا الباب (باب: النهي عن سب الريح) أي: النهي عن شتمها ولعنها.

أمّا وصْفُها والإخبار عما وقع بسببها؛ فذلك ليس حرامًا. أن تقول: جاءتنا ريحٌ شديدة، جاءتنا ريحٌ مدمِّرة، دمَّرت المباني، وأهلكت الدواب؛ هذا خبر ووصف؛ ليس سبًّا، هذا إخبار عن واقع؛ ليس سبًّا، فليس حرمًا، ولكنّ الحرام المنهي عنه: السبّ والشتم واللعن.

مثلًا: إنسان يسير فهبَّت ريح شديدة، فأثارت غبارًا، فدخل التراب في عينيه، فقال: لعن الله الريح، أعمتنا! إنسان يسير، فهبَّت ريح شديدة، فأطارت عمامته، وهو يمسك بعمامته، والريح تنازعه عمامته، فقال: لعنك الله من ريح! هذا سبّ، حرام، لا يجوز، لأنّ الريح لا تفعل شيئًا، وإنما هي مأمورة.

[عن أبي بن كعب –رضي الله عنه–، أنّ رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال: «لا تسبُّوا الريح، فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا: اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح، وخير ما فيها، وخير ما أُمِرت به، ونعوذ بك من شر هذه الريح، وشر ما فيها، وشر ما أُمِرت به»، صحَّحه الترمذي]

هذا الحديث رواه الترمذي، والنسائي في (الكبرى)، وأحمد، والحاكم في (المستدرك)، وقال الترمذي: حسنٌ صحيح، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، وقال الذهبي: صحيح على شرط البخاري، وصحَّحه الألباني والأرناؤوط، ورواه ابن ماجه بلفظ: «لا تسبُّوا الريح فإنها من روح الله، تأتي بالرحمة والعذاب، ولكن سَلُوا الله خيرها، وتعوَّذوا بالله من شرِّها» وصحَّحه الألباني.

عن أُبي بن كعب –رضي الله عنه– أنّ رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال: «لا تسبوا الريح» أي: لا تشتموها، ولا تلعنوها، ولو أصابكم بسببها شيءٌ تكرهونه؛ لماذا؟ لأنها مأمورة من ربنا –سبحانه وتعالى–، وقد قال ابن عباس –رضي الله عنهما–: «إنّ رجلا لعن الريح عند النبي –صلى الله عليه وسلم–، فقال –صلى الله عليه وسلم–: «لا تلعن الريح؛ فإنها مأمورة، وإنّ مَن لعن شيئًا ليس له بأهلٍ رَجعَت اللعنة عليه» رواه أبو داود والترمذي، وصحَّحه الألباني.

أفادنا هذا الحديث أنّ علة النهي عن سبِّ الريح أمران:

الأمر الأوّل: أنها مأمورة، فسبُّها في الحقيقة سبٌّ لآمرها.

والأمر الثاني: أنها لا تستحق اللعن. والقاعدة الشرعية: أنّ مَن لعن شيئًا ليس أهلًا للّعن؛ لعن نفسه، ترجع اللعنة عليه.

ولذلك؛ المؤمن لا يكون لعَّانًا، بل يكون شديد الحذر من اللعن، لأنّ القاعدة الشرعية المضطردة: أنه إذا لَعَنَ أحدًا أو شيئًا فلم يكن أهلًا يكون قد لعن نفسه، فترجع اللعنة عليه.

«لا تسبوا الريح، فإذا رأيتم ما تكرهون» أي: إذا رأيتم في الريح ما تكرهون؛ كقوّتها، أو شدة حرّها، أو شدة بردها.

وفي هذه الجملة: بيان أنّ هذا الذكر إنما يُشرَع قوله إذا كانت الريح يُخشى أن يكون فيها ما يُكرَه، بأن كانت شديدة؛ كأن عَصَفَتْ عصفًا. أمّا إذا كانت معتادة، الريح الخفيفة المعتادة؛ فإنه لا يُشرع للإنسان أن يقول هذا الذكر، وإنما يُشرع هذا الذكر إذا كانت الريح يُخشى أن يكون فيها شر، وما يُكرَه.

«فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا» فرتَّب بالفاء هذا على رؤية ما نَكرَه، فدلّ ذلك على أنه إذا لم يكن في الريح مَظِنَّة ما نَكْرَه لم يُشرَع لنا أن نقول هذا القول، «فقولوا: اللهم» أي: يا الله، «إنا نسألك من خير هده الريح...» إلى آخره، والمقصود: ارجعوا إلى الله، وتوبوا إلى الله، وعوذوا بالله من شرها، واسألوا الله من خيرها، لأنها قد تأتي بالرحمة، وقد تأتي بالعذاب، فالمؤمن إذا رأى اشتداد

الريح يخاف أن يكون قد فعل ما يُغضِب الله وأنّ هذا عذابٌ مسلَّط عليه قادمٌ إليه، فيَرجع إلى الله، ويتوب إلى الله، ويستغفر الله -سبحانه وتعالى-، ويلجأ إلى الله ويقول: «اللهم إنّا نسألك من خير هذه الريح، وخير ما فيها، وخير ما أُمِرت به»، وفي بعض الروايات: «وخير ما أُرسِلت به» كما عند الإمام أحمد.

في هذه الجملة: أنّ الريح قد يحدث فيها خيرٌ تكون سببًا فيه، وقد تحمل معها خيرًا؛ كحبيبات اللقاح، والبذور التي تحملها معها وتلقيها في الأرض أحيانًا، وقد تُؤمَر بخير؛ كسَوق السحاب إلى البلاد، فإذا رآها المؤمن سأل الله فقال: «اللهم» أي: يا الله «إنا نسألك من خير هذه الريح، وخير ما فيها، وخير ما أُمِرت به»، «ونعوذ بك» أي: نلجأ إليك «من شر هذه الريح، وشر ما فيها، وشر ما أُمِرت به»، وفي رواية: «وشر ما أُرسِلت به» كما عند الإمام أحمد.

وفي هذا: أنّ الريح قد ينتج عنها شر؛ تكون سببًا فيه؛ كقلع البيوت، ونحو ذلك، وقد تحمل شرًّا؛ كالأوبئة، فإنها قد تحمل معها ميكروبات أو فيروسات تسبب الأمراض. وقد تُؤمَر بشر؛ أي: تؤمَر بالعذاب، فتكون حاملة عذابًا والعياذ بالله، ولذلك أُمرنا أن نسأل خيرها، وأن نعوذ بالله من شرها.

وقد كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يفعل هذا، فعن أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- قالت: «كان النبي -صلى الله عليه وسلم- إذا عصفت الريح

قال: «اللهم إني أسألك خيرها، وخير ما فيها، وخير ما أُرسِلت به، وأعوذ بك من شرها، وشر ما فيها، وشر ما أُرسِلت به» رواه مسلم في الصحيح.

وانظر يا رعاك الله كيف أنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– أمرهم عند نزول الشدائد بالرجوع إلى الله، وسؤاله الخير، والاستعاذة به من الشر، ولم يأمرهم بالاستعاذة بالأولياء الصالحين، ولا باللجوء إلى أصحاب القبور.

وإنك لتَعْجَب من بعض مَن صدَّق بالنبي –صلى الله عليه وسلم–، الذين يَتركون ما أمر به النبي –صلى الله عليه وسلم– من قولٍ أو فِعْل وتواتَر عنه –صلى الله عليه وسلم– من تعليق القلب بالله، وتحقيق التوحيد، وتأكَّد هذا عند حصول الشدائد، إلى ما لم يَصحّ عنه فيه حرف واحد، بل الثابت عنه النهي عنه، والتشديد فيه، فتجد أنهم عند الشدائد لا يُعلِّقون قلوبهم بالله، ولا يَرجِعون إلى الله، وإنما يُعلِّقون قلوبهم بمخلوقات، ويلجؤون إلى أصحاب القبور، وهذا ينافي دين الإسلام بالكلية، وهو من الشرك الأكبر، والعياذ بالله.

ما قال النبي –صلى الله عليه وسلم–: إذا اشتدت الريح فاذبحوا لصاحب القبر، إذا اشتدت الريح فعليكم بأصحاب القبور! قال: «فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا: اللهم» ارجعوا إلى الله، وادعوا الله، واسألوا الله، وهكذا المسلم الذي صدّق بالنبي –صلى الله عليه وسلم–.

طيِّب، يقول لي قائل منكم: تقدَّم معنا باب أنّ مَن سبَّ الدهر فقد آذى الله، وهنا باب النهي عن سب الريح؛ فهل سبُّ الريح من سبِّ الدهر؟

قال بعض أهل العلم: نعم؛ والشيخ أفرد هذا الباب من باب ذكر الخاص بعد العام؛ لشدة الحاجة إليه، وكثرة وقوعه من الناس.

وقال بعض أهل العلم: لا، بل ما تقدَّم في سبِّ الدهر متعلِّق بسبِّ الزمان الذي تقع فيه الأمور، وهذا الباب متعلِّق بسبِّ جند الله، الجنود الذين يأمرهم الله –عز وجل–، والريح من جند الله؛ وهي مثالٌ هنا.

وهذا عندي أقرب –والله أعلم–؛ ولذلك فَصَلَ بينهما الشيخ بأبواب، لأنّ ذاك متعلِّق بالزمان، وهذا متعلِّق بجند الله الذين يأمرهم الله بالرحمة أو بالعذاب، والريح مثالٌ لهذا.

[فيه مسائل: الأولى: النهي عن سب الريح]

وهذا صريح في الحديث.

[الثانية: الإرشاد إلى الكلام النافع إذا رأى الإنسان ما يَكره]

هذا من حسن التعليم.

[الثالثة: الإرشاد إلى أنها مأمورة]

نعم، لأنه قال: «وخير ما أُمرت به»، «وشر ما أُمرت به»؛ إذن في جانب الخير هي مأمورة، وفي جانب الشر هي مأمورة، وفي حديث ابن عباس تصريح:

«فإنها مأمورة»، مَن الذي أمرها؟ الله –عز وجل–، وما دام أنّ الذي أمرها هو الله؛ فإنّ سبَّها يَستلزِم سبَّ آمرها.

[الرابعة: أنها قد تؤمَر بخير وقد تؤمَر بشرّ]

لا شك، قد تؤمَر بالرحمة، فتحمل السحاب، وتسوق المطر إلى البلاد، وقد تؤمَر بالعذاب، فتسوق العذاب إلى مَن أُمرت بسَوق العذاب إليه، وقد تؤمَر بشرٍّ يصيب بعض البلدان. ولذلك هذه الأعاصير –مثلًا– التي تضرب أميركا أو غير أميركا، هذي مأمورة، ما نقول: تكونت من كذا وكذا وكذا، بل إنّ الله –عز وجل– أمرها، والملائكة تسوقها، ولو كان عند الناس الذين تصيبهم هذه الأعاصير عقل؛ لأدركوا قوة الله –عز وجل– وآمنوا بالله –سبحانه وتعالى–.

الدرس الثامن والستون: شرح باب قول الله -تعالى-: (يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ) الآية

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، مَن يهدِ الله فلا مضل له، ومَن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[آل عمران:١٠٢]

﴿يا أَيُّهَا النّاسُ اتَّقوا رَبَّكُمُ الَّذي خَلَقَكُم مِن نَفسٍ واحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنها زَوجَها وَبَثَّ مِنهُما رِجالًا كَثيرًا وَنِساءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذي تَساءَلونَ بِهِ وَالأَرحامَ إِنَّ اللهَ كانَ عَلَيكُم رَقيبًا﴾[النساء:١]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۞ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[الأحزاب:٧٠-٧١]

أمّا بعد، فإنّ خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد –صلى الله عليه وسلم–، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدَثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

درسنا يا معاشر الفضلاء كما تعلمون، في التفقُّه في حقِّ ربنا –سبحانه وتعالى–؛ في التفقُّه في التوحيد، حيث نكمل شرح كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد. ونحن بحمد الله في آخر الأبواب من هذا الكتاب، في شرحنا التأصيلي لهذا الكتاب، وإن شاء الله نختمه في هذه الأيام القريبة، فنواصل شرحنا لهذا الكتاب، نسأل الله –عزَّ وجل– أن يجعلنا من المعظمين لحقه، والقائمين بحقه، والفرحين بالتفقُّه في حقِّه –سبحانه وتعالى– وأن يُتِمَ لنا وعلينا جميعًا بخير. فيتفضل الشيخ الدكتور: ياسين –وفقه الله– والسامعين يقرأ لنا من حيث وقفنا عند الباب [الثامن والخمسين].

[باب قول الله –تعالى–: ﴿يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ الآية]

من توحيد المؤمن لربه وتعظيمه لربه: أن يُحسِن الظن بربه –سبحانه وتعالى– في كل حال؛ في العسر واليسر، وفي السراء والضراء، وفي النعماء وعند البلاء، وأن يَعلَم أنّ كل أمرٍ يَمرّ به بقدر الله، وعن حكمةٍ عظيمةٍ كان، وأن يظن بالله –عزَّ وجلَّ– في كل شأنٍ كل جميل، فلا يظن بربه مهما تقلَّبت به الأحوال إلا الأمر الجميل، وأن يُعْرِضَ عن كل ظنٍ قبيح، فإنّ إساءة الظن بالله من شأن أهل الجاهلية، ومن شأن المشركين والمنافقين.

فمِن واجبات التوحيد ومن شأن الموحِّدين: حسن الظن بالله.

وحُسن الظن بالله –عزَّ وجل– يقتضي التسليم لله، والتسليم لرسول الله –صلى الله عليه وسلم–، والتسليم لحُكم الله الشرعي، والتسليم لحُكم الله القدري.

ولذا؛ عَقَدَ المصنِّف هذا الباب؛ ليبيِّن حال المؤمنين في الظن بالله –عزَّ وجل– وحال المنافقين والمشركين في الظن بالله –عزَّ وجل–، وأنّ حال المؤمنين يخالف حال المشركين والمنافقين في الظن بربنا –سبحانه وتعالى–.

وبوَّب الشيخ –رحمه الله عزَّ وجل– بهذه الآية التي تبيِّن مراده –رحمه الله عزَّ وجل– من عَقْدِ هذا الباب؛ حيث قال الله –عزَّ وجل–: ﴿يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[آل عمران:١٥٤]. يبيِّن الله –عزَّ وجل– حال المنافقين؛ لاسيما عند الضراء، أنهم يظنون بالله غير الحق، فمن شأن المنافقين أنهم على طريقة أهل الجاهلية، على طريقة المشركين، يسيئون الظن بالله، ويسيئون الظن بقدر الله، ويسيئون الظن بشرع الله، ومن ذلك قولهم: ﴿هَلْ لَنَا مِنَ الأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾؛ أي: لم يكن لنا من الأمر من شيء، و﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ لَمَا حصل هذا

القتل، وإنما كان الأمر لرسول الله –صلى الله عليه وسلم–، فكان ما كان! هكذا يظنون، فهو مخذولٌ، ومهزومٌ، وسيعلو عليه أعداؤه، وسيباد المسلمون، وسيباد الإسلام، هكذا يظنون بالله؛ ولذا أمر الله نبيه –صلى الله عليه وسلم– أن يقول: ﴿إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾، يصرِّفه ويدبِّره كيف يشاء بحكمةٍ تامّة –سبحانه وتعالى–.

فهؤلاء المنافقون لم يؤمنوا بالقضاء والقدر وأنّ الأمور كلها بأمر الله القدري، وأنّ لله حكمة فيما يجريه، وأنه لا يقدر أحد على دفع ما أراد الله –عزَّ وجلَّ– وقوعه، وأساؤوا الظن بالله، وبرسول الله –صلى الله عليه وسلم–، وبشرع الله. فهذا قولٌ لأهل العلم في معنى قولهم: ﴿هَلْ لَنَا مِنَ الأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾. كما قلنا، يقولون: ليس لنا من الأمر شيء، وليس لنا رأي، وإنما الرأي لمحمد –صلى الله عليه وسلم–، ولو كان لنا شيء من الرأي لَمَا وقع هذا القتل، لكنّ الرأي له ولأصحابه الذين معه؛ فهم مهزومون مبادون.

وقال بعض أهل العلم: معنى قولهم: ﴿هَلْ لَنَا مِنَ الأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: ليس لنا من نصر الله شيء؛ يعني للمسلمين، وأنّ الله لن ينصرنا، ولن ينصر محمدًا –صلى الله عليه وسلم–؛ بل سيُعلي الكفار علينا، وسيجعل الدولة المستقرة المستمرة للكفار على المؤمنين.

فكان الجواب: ﴿قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ يدبِّره ويصرِّفه بحكمه، فقد يُدير الدولة للكفار شيئًا يسيرًا؛ لحكمة وفائدة عظيمة، ثم يَنصر رسوله والمؤمنين.

ثم قال الله –عزَّ وجلَّ–: ﴿يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لا يُبْدُونَ لَكَ﴾ هكذا حال المنافقون في أمرهم كله، فإنهم يبدون للنبي –صلى الله عليه وسلم– الإسلام والاستسلام، وأنهم معه، وأنهم يقاتلون معه، وهم يُخفون الكفر والعَداء والرَّغبة في كسر المسلمين، والله فاضِحُهم، ومما يخفونه: أنهم يقولون: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾، وقلت لكم في الدرس الماضي –وهذه في غزوة أحد– أنّ المنافقين في غزوة أحد انقسموا إلى فريقين: الفريق الأكبر منهم تركوا النبي –صلى الله عليه وسلم– في الطريق، ورجعوا إلى المدينة، وقسمٌ منهم بقي حياءً وشيء من المروءة في نفسه، فمضى مع النبي –صلى الله عليه وسلم– وأصحابه، فلمّا وقع ما وقع للمسلمين قال الذين بقوا مع النبي –صلى الله عليه وسلم– هذه المقولة: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ فاعترَضوا على شرع الله: من جهة الخروج من المدينة، واعترضوا على قدر الله: من جهة ما وقع من القتل، فكان جوابهم: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ الأجل بقدر الله –عزَّ وجل–، ومَن جاء موته مات في مكان موته قدرًا، وفي زمان موته قدرًا، لن يتأخر ولن يتقدَّم من حيث الزمان، ولن يتقهقر عن المكان مقدار شعرة، وسيُساق إلى موضع موته، كم من شخصٍ عاش في المدينة عمره؛ فلمّا حان أجله وهو في بلدٍ أخرى سيموت، حُمِلَ في ذلك اليوم من المدينة إلى مدينةٍ أخرى فما وصلها حتى

قُبِض، أو من بلدٍ إلى بلد، فما وصلها حتى قبض فيها؛ لأنّ هذا مكان موته. وهكذا الزمان، فلو بقي مَن بقي في بيته وكان مقتله عند أُحُد؛ سيذهب إلى أحد، ويُقتل هناك.

فهذا الجواب الأوّل: القدر لا رادَّ له، فما أراد الله وقوعه كان، ولا يقع في كون الله إلا ما أراد –سبحانه وتعالى–.

ثُمَّ جاء الجواب عن الحكمة وأنّ ما وقع إنما هو بحكمة عظيمة: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ فيختبر ما في الصدور، يختبر المؤمن من المنافق، يتميَّز المؤمن من المنافق بهذا الاختبار، بهذا البلاء؛ ولذلك من جميل كلام العلماء قولهم: "المؤمنون الصادقون منصورون ومختبَرون"، المؤمن الصادق منصور –والله!– منصور بنصر الله، ولو بعد حين، ولكنه في نفس الوقت مختبَر؛ يأتيه البلاء والبلايا من كل جانب، تتمسك بالسنة، تتمسك بالتوحيد، فيَشتد عليك البلاء، وتأتيك البلايا من كل جانب، تُختبَر! ليتبيَّن الصدق من الكذب، ولكنّ العاقبة لأهل التقوى، فالمؤمنون منصورون، ومختبَرون.

﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وهذه للمؤمنين، (يُمَحِّص) أي: يُصفِّي ما في قلوبكم، فالقلب قَلَّاب، وقد يقع في القلب شيء، فبمثل البلاء يُمحَّص ما في القلب حتى يعود سليمًا نقيًّا صافيًا، ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: عليمٌ بالقلوب وما فيها، ولذلك يبتليكم ليختبركم، فيُظهِر ما في قلوبكم. الله يعلم ما في

قلبك من إيمان –وحاشاكم– من نفاق، من حسد، من مرض، الله يَعلَمه، ولكن يختبر عباده ليَظهر ما في القلوب. ويَعلَم ما في قلوبكم من أمراضٍ عارِضة فيعالجكم ويداويكم بالبلاء، ﴿يُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ لأنه سبحانه وتعالى ﴿عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

فَدَّل ذلك على أنّ شأن أهل النفاق وأهل الجاهلية أنهم يظنون بالله غير الحق، يظنون بالله الظنون السيئة، والواجب على المؤمن أن يخالف أهل الجاهلية. فالواجب على المؤمن أن يكون ظنُّه دائمًا بالله الظن الحَسن.

[وقوله: ﴿الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ الآية]

هذا –أيضًا– وَصْف المشركين والمنافقين، حيث قال الله –عزَّ وجل–: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾[الفتح:٦]، فمِن شأن المنافقين والمشركين، ومن صفات المنافقين والمشركين: أنهم يظنون بالله ظن السَّوء، فالله –عزَّ وجلَّ– يخبر نبيه –صلى الله عليه وسلم– أنه بالفتح يُعذِّب المنافقين والمنافقات، الذين يريدون في قلوبهم كسر الإسلام وأهله، والمشركين والمشركات، هؤلاء من صفاتهم أنهم يظنون بالله ظن ﴿السَّوء﴾، وعامّة القراء على فتح السين، وهذا الأفصح في اللغة. وقرأ بعضهم –كبعض البصْريين– بضم السين: (السُّوء).

﴿الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ أي: أنّ الله لن ينصرك، ولن يجعل لك الدولة على الكفار، ولن يمكِّن لك، ولن يُظهر كلمته، وأنك ستُباد مع المؤمنين، ولن تبقى لكم باقية، ولن تنقلبوا إلى أهليكم أبدًا! هذا ظن السَّوء، فكان الجواب: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ أي: ستدور الدائرة عليهم –وقد دارت عليهم الدائرة بهذا الفتح–، ويعذَّبون في الدنيا والآخرة.

ولذلك؛ أهل الكفر أهل النفاق وكل مَن يكيد للحق وأهله؛ كاللبراليين، والعلمانيين، وأهل البدع، يَبذلون ما يَبذلون، ويُنفقون ما يُنفقون، ثم تكون عليهم حسرة إن صدق المؤمنون وتمسكوا بدين الله، وتمسكوا بالتوحيد، وتمسكوا بالسُّنة، ونصروا الحق، لن تكون لأهل الباطل دولةٌ مستقرةٌ مستمرة، بل كلّما بَرزوا قُطِعوا، قد يجعل الله –عزَّ وجل– لهم شيئًا فيظنون أنّ الباب قد فُتِح لهم، وأنه أصبح لهم مدخل ليُظهِروا رؤوسهم، ويكشفوا مخططاتهم، ثم يُنال منهم.

وهذا الذي يدلُّ عليه التاريخ، ومَن قرأ التاريخ عَرَفَ هذا الأمر، فوالله! لن تكون للباطل دولةٌ مستقرةٌ مستمرة على أهل الحق، لكن لهذا شرط؛ وهو: الصدق مع الله من أهل الحق، وأن يَصْدُقوا، ويَثبتوا، ويَتمسَّكوا بشرع الله –عزَّ وجل– وبدين الله –عزَّ وجل–، وإلا فأهل الشر دائمًا عليهم دائرة السَّوء، وتدور عليهم الدائرة.

فدَّل هذا على ما قدمناه؛ وهو: أنّ حال المنافقين والمشركين أنهم يظنون بالله ظن السَّوء.

وبالتالي؛ فحال المؤمن في أيِّ شيءٍ كان: أن يظن بالله الظن الحسن. وإن أساء الظن في حال البلاء، فإنه يسيء الظن بنفسه، ويقول: ما جاءني البلاء هذا إلا من ذنبي، إلا من تقصيري، إلا من اعتدائي، ويراقب نفسه، ويحاسب نفسه، ويرجع إلى الله، ويتوب، ويستغفر، ويبكي، ويتذلل، ويتضرع بين يدي الله –عزَّ وجل–. أمّا ربَّه؛ فهو حَسَن الظن بربه مهما تقلَّبت به الدنيا، ومهما تقلَّبت به الأمور.

[قال ابن القيم –رحمه الله– في الآية الأولى: فُسِّر هذا الظن بأنه –سبحانه– لا يَنصر رسوله، وأنّ أمره سيَضمحل، وفُسِّر بظنهم أنّ ما أصابهم لم يكن بقدر الله وحكمته، ففُسِّر بإنكار الحكمة، وإنكار القدر، وإنكار أن يُتِمَّ أمر رسوله، وأن يُظهره على الدين كله. وهذا هو ظن السَّوء الذي ظنه المنافقون والمشركون في سورة الفتح، وإنما كان هذا ظن السَّوء؛ لأنه ظنٌّ غير ما يليق به –سبحانه–، وما يليق بحكمته وحمده ووعده الصادق، فمَن ظن أنه يُديل الباطل على الحق إدالةً مستقرة يَضمحل معها الحق، أو أنكر أن يكون ما جرى بقضائه وقدره، أو أنكر أن يكون قدره لحكمة بالغة يستحق عليها الحمد، بل زعم أنّ ذلك لمشيئةٍ مجرَّدة، فذلك ظن الذين كفروا، فويلٌ للذين كفروا من النار. وأكثر الناس

يظنون بالله ظن السَّوء فيما يَختصُّ بهم، وفيما يفعله بغيرهم، ولا يَسلَم من ذلك إلا مَن عرف الله وأسماءه وصفاته وموجِب حكمته وحمده. فليَعتنِ اللبيب الناصح لنفسه بهذا، وليَتُب إلى الله، وليستغفره من ظنه بربه ظن السَّوء. ولو فتَّشتَ مَن فتَّشت لرأيت عنده تعنُّتًا على القدر ومَلامةً له، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، فمستقلٌّ ومستكثِر، وفتِّش نفسك: هل أنت سالم؟

فإنْ تَنجُ منها تَنْجُ مِنْ ذي عَظِيمةٍ وإلَّا فإنِّي لا إخالُكَ ناجيا]

هذا الكلام ذكره ابن القيم –رحمه الله عزَّ وجل– في "زاد المعاد"، في معرِض كلامه عن غزوة أحد، والدروس المستفادة من غزوة أحد، فعندما جاء لقول الله –عزَّ وجل–: ﴿يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾[آل عمران:١٥٤]، استفاض في هذا المقام، وذكر كلامًا طويلًا عظيمًا، على عادة ابن القيم –رحمه الله عزَّ وجل– في بَسْط العِلم.

وشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب –رحمه الله وسائر علماء المسلمين– قد اختصر هذا الكلام، وتصرَّف فيه، فلم ينقله بنصِّه، وإنما نقله مختَصرًا متصرَّفًا فيه، فقال: (قال ابن القيم –رحمه الله تعالى– في الآية الأولى) أي: التي بوَّب عليها (فُسِّر هذا الظن) أي: من المنافقين (بأنه –سبحانه– لا يَنصر رسوله، وأنّ أمره سيَضمحل) أي: أنّ المنافقين قد ظنوا بالله غير الحق، وهذا الظن هو ظن المشركين وأهل الجاهلية؛ وهو: أنّ المسلمين مع رسولهم

–صلى الله عليه وسلم– سيُقضى عليهم، وأنّ الإسلام لن تكون له دولة! هكذا ظنهم، وكانوا يتربَّصون بالمسلمين الدوائر. قال: (وفُسِّرَ) أيضًا أنّ ظنهم (أنّ ما أصابهم لم يكن بقدر الله وحكمته)، يعني:

–بعض السلف فَسَّر هذا الظن: بأنهم كانوا يظنون أنّ الله لن ينصر رسوله، ولن يبقي دينه، ولن يُعلي كلمته.

–وفَسَّر بعض السلف ظنهم: بأنهم كانوا يظنون أنّ ما أصابهم لم يكن بقدر الله، ولا بحكمة، فيكون هذا أصلًا لبدعة القدر التي ستأتينا إن شاء الله –عزَّ وجل–، فيكون "مَعبد الجهني" قد أخذ نفي القدر من المنافقين على هذا التفسير؛ أنّ ما أصابهم من قتل وجَرح لم يكن بقدر الله، ولم يكن عن حكمة، وهذا هو عين كلام القدرية، الذي سنفسِّره –إن شاء الله– ونُجلِّي الحق فيه بقواعد السلف الصالح –رضوان الله عليهم– في بابه.

قال: (وفُسِرَ أنّ ما أصابهم لم يكن بقدر الله وحكمته؛ ففُسِّر بإنكار الحكمة، وإنكار القدر) هذا التفسير الثاني، (وإنكار أن يُتمّ أمر رسوله، وأن يُظهره على الدين كله) هذا التفسير الأوّل الذي ذَكَرَه، (وهذا هو ظن السَّوء الذي ظنه المنافقون والمشركون في سورة الفتح) هذه الآية الثانية التي ذكرها الشيخ، (وإنما كان هذا ظن السَّوء؛ لأنه ظنٌّ غير ما يليق به –سبحانه–، وما يليق بحكمته وحمده، ووعده الصادق) هذا ذكره الشيخ بمعناه، ولفظ ابن القيم قال:

(لأنه ظنٌّ غير ما يليق بأسمائه الحسنى، وصفاته العلا، وذاته المبرَّأة من كل عيبٍ وسوء، وبخلاف ما يليق بحكمته، وحمده، وتفرُّده بالربوبية والألوهية، وما يليق بوعده الصادق الذي لا يُخلِفه، وبكلمته التي سبقت لرسله: أنه ينصرهم ولا يخذلهم، ولجنده: بأنهم هم الغالبون.

قال: (فمَن ظن أنه –سبحانه– يديل الباطل على الحق إدالةً مستقرة) أي: مستمرة، دائمة، (يضمحل معها الحق) والتوحيد، قال ابن القيم هنا: (فقد ظنَّ بالله ظن السوء)، هذا الجواب: فقد ظن بالله ظن السَّوء، ونسبه إلى خلاف ما يليق بكماله وجلاله وصفاته ونبوَّته) إلى أن قال: (فمَن ظنَّ ذلك بربه فما عرفه، ولا عرف أسماءه، ولا صفاته، ولا كماله)، قال ابن القيم: (وكذلك من أنكر)، ليس "أو أنكر" (وكذلك من أنكر أن يكون ما جرى بقضائه وقدره؛ فما عرفه) ولا عرف ربوبيته وملكه وعظمته –سبحانه وتعالى–، (أو أنكر أن يكون قدره أو قَدَّره لحكمةٍ بالغة يستحق عليها الحمد، بل زعم أنّ ذلك لمشيئةٍ مجردة)، عقيدة أهل السنة والجماعة، عقيدة الصحابة: أنّ قدر الله –عزَّ وجل– لحكمة، فما يفعل الله شيئًا إلا لحكمة، لا يَتحرَّك متحرِّكٌ في الكون إلا لحكمة يريدها الله، ولا يَسكن ساكنٌ في الكون إلا لحكمة يريدها الله –عزَّ وجل–، ولا شرع إلا لحكمة، فما أَمَرَ بشيءٍ إلا لأنه حَسَنٌ، وفي ذاته حُسْنٌ، وفيه مصلحةٌ للعباد، ولا

نهى عن شيءٍ إلا لكونه قبيحًا، وفي ذاته قبحٌ، وفي فعله مَفسدةٌ على العباد، فالله – عزَّ وجل– يفعل لحكمةٍ يريدها، ويشرع لحكمةٍ يريدها.

وبعض المبتدعة قالوا: (لا، الله لا يفعل لحكمة، ولا يَشرع لحكمة)، طيب، لماذا يفعل؟ قالوا: لأنه شاء أن يفعل، لمحض المشيئة، أمر لأنه شاء أن يأمر، نهى لأنه شاء أن ينهى! فيصح عندهم في بداهة العقول أن يأمر الله بالشرك، وأن يَنهى عن التوحيد، وأن يكون أبو بكرٍ أرذل الناس، وأن يكون أبو جهلٍ أعلى الناس؛ لأنّ الأمر لا يَتعلَّق بحُسنٍ في الذات، ولا بقُبحٍ في الذات، ولا بحكمة، وإنما لمحض المشيئة!

قلنا لهم: طيب، ألا ترَون أن شرع الله فيه مصالح؛ أليس في القصاص حياة؟ قالوا: بلى، في القصاص حياة. قلنا: طيب، أليست هذه حكمة؟ قالوا: لم يُرِدْها الله، لكن وقعت عند شرع الله.

ولأقرِّب لكم الرأيين:

مَثَلُ قول أهل السنة والجماعة كمَثَلِ رجلٍ رأى حيةً تسعى، وعَلِمَ أنها حية، وعَلِمَ أنها ضارة، فأخذ حصاةً فضربها بها، وقضى عليها؛ لأنه أراد أن يقضي عليها ليدفع شرها، فهو عالمٌ قويٌّ قادر، عَلِمَ أنها حية، وأنها تضر، وأراد الخير بالقضاء عليها، وكان قويًّا قادرًا على ذلك.

ومَثَل قول أهل البدع في هذا كمَثَلِ رجلٍ كان جالسًا فوق سقف بيتٍ، فأراد أن يرمي حصاةً، لماذا؟ لأنه أراد؛ لأنه شاء، فقط، فأخذ الحصاة فرماها، فوقعت على رأس حية، فماتت الحية، وقعت المصلحة واندفعت المَفسدة أو ما وقعت واندفعت المفسدة؟ وقعت المصلحة، لكن هل الذي رمى الحصاة أراد هذا؟ الجواب: لا. هذا مثل قول أهل البدع.

والعجيب أنهم يقولون: إنّ العقل يدلّ على قولنا! سبحان الله! بل العقل مع القول الذي يقول: إنّ الله عليمٌ، قويٌّ، قادرٌ، مريدٌ –سبحانه وتعالى–، وليس مع الذي يقول: إنه فَعَلَ لغير حكمة، وشَرَعَ لغير حكمة، ثم وقعت الحكمة بعد ذلك، فشتان بين الأمرين.

لا شك أنّ الذي يقول: ما وقع قدر من نعمة او بلاء إلا لحكمة، وما شُرِعَ شرعٌ من أمر أو نهيٍ إلا بحكمة، لا شك أنه يُحسِن الظن بالله، أمّا مَن ينفي الحكمة فهو يسيء الظن بالله –سبحانه وتعالى–.

قال: (فذلك ظنُّ الذين كفروا) يعني: هذا الشأنُ من الظنِّ السيء هو شأن الكفار، قال: (وأكثر الناس يظنون بالله ظن السَّوء) متى؟ في مواقع البلاء، فإذا نزل بهم البلاء ظنوا بربهم ظن السَّوء، وهذا لا ينجو منه إلا قليل، ولو في القلب، لو ما قال، ليس حديث نفس، لا، يقع في القلب، فَرْقٌ بين حديث النفس، وفِعْل القلب، فِعْلُ القلب: يؤاخَذ به الإنسان، أمّا حديث النفس لا يؤاخذ به الإنسان.

إذا نزل به البلاء أكثر الناس يقع في قلبه: لماذا أنا؟ ماذا فعلت؟ ليس من باب المحاسبة، وأنه يعيد الأمر إلى ذنبه، لا، يرى أنه أكبر من أن يقع عليه هذا، فهذا لا شك أنه اعتراض على القدر. وبعض الناس قد يصرِّح بهذا، يقول: لماذا أنا؟ أولاد الناس كلهم طيبون، لماذا أنا ابني مريض؟ هذا من سوء الظن بالله –سبحانه وتعالى–.

قال: (وأكثر الناس يظنون بالله ظن السوء فيما يَختصُّ بهم، وفيما يفعله بغيرهم)، إذا بلغه أنّ فلانًا أصابه مرض خطير قال: مسكين ما يستأهل! (ما يستأهل) هذه من سوء الظن بالله –سبحانه وتعالى–، لو تأملتها لوجدت أنّ معناها –والعياذ بالله– أنّ الله ظلمه! وإن كان القائل ما يريد هذا، لكن سوء ظن بالله –عزَّ وجل– وسوء أدب مع الله –سبحانه وتعالى–، وإذا تأملتَ الناس وجدتَ هذا فعلًا كما يقول ابن القيم يقع في كثير من الناس، قال: (ولا يَسلّم من ذلك إلا مَن عرف الله معرفةً تامّة، واجتهد في هذا، وأسماءه وصفاته، وموجِب حكمته وحمده، ووعده الصادق).

ثمَّ ابن القيم –رحمه الله– أسهب في ذكر أنواع سوء الظن بالله –عزَّ وجل–، وذكر أنواعًا كثيرة يجمعها ضابط واحد؛ وهو: أنها ظنٌّ ما لا يليق بجلال الله –سبحانه وتعالى–، ظن ما يخالف ربوبيته، ظن ما يخالف ألوهيته، ظن ما يخالف أسماءه وصفاته، ظن ما يخالف ما في القرآن، ظن ما يخالف ما في السنة، كلُّه من

سوء الظن بالله –عزَّ وجل–، ضابطه: أن يظن بالله ما لا يليق بجلال الله –سبحانه وتعالى–.

قال ابن القيم: (ولو فتَّشت مَن فتَّشت) يعني: لو فتَّشت مَن حولك والناس (لرأيت عنده) –مكتوب عندكم: تعنُّتًا وهي: "تَعَتُّبًا– (لرأيت عنده تَعَتُّبًا على القدر) أي: لوجدته يعاتِب القدر، يعاتِب ما وقع عليه، ولا يُسلِّم التسليم المطلَق، (يعاتب القدر، وملامةً له، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا)، بعض الناس من جهلهم يقول: كان ينبغي أن نُنصَر نحن المسلمين، وأن تكون الدولة اليوم لنا! هذا اعتراض على قدر الله، كان ينبغي عليك أن تقول: ينبغي لنا أن نَلزَم شرع الله حتى يَنصرنا الله، أن نحكِّم شرع الله في أنفسنا حتى يقوِّينا الله، أمّا تَعترض على المقدور الواقع وتقول: كان ينبغي كذا وكذا! يعني كان ينبغي على الله –عزَّ وجل– أن ينصرنا، أن يظهرنا! هذا سوء أدب مع الله، وسوء ظن بالله، واعتراض على قدر الله –سبحانه وتعالى–. المؤمن إذا نزل به الشيء وحَقَّ ووقع؛ سَلَّم وعَلِمَ أنّ هذا هو الحكمة، كما سيأتينا –إن شاء الله– في باب القدر.

قال: (فمستقلٌّ ومستكثِر، وفتش نفسك)، في الأوّل قال: (لو فتشت مَن فتشت من الناس) ثم قال: (وفتش نفسك) أنت في الأمور التي وقعت عليك، في ضيق الرزق، أو في مصيبة، أو مرض، أو ألم شديد، تجد أنه حصلت لك هَنَّة، سَقْطَة في هذا الباب، (وفتش نفسك هل أنت سالمٌ؟) من ذلك، وقلَّ مَن يَسلَم،

(فإن نتجوا منها تنجو من ذي عظيمةٍ) يعني: إن تنجوا من هذا البلاء تنجوا من مسألةٍ ذات شأنٍ عظيم وخطرٍ كبير، (وإلَّا) أي: إن لم تنجوا منها (فإني لا إخالك ناجيًا)، فإنها مُهلكة، الوقوع في هذا من المهلكات.

ثم قال ابن القيم –رحمه الله–: (فليعتنِ اللبيب)، الشيخ قدَّم وأخَّر؛ ولذلك أنا قفزت، فإنّ ابن القيم جعل هذا في آخر كلامه: (فليعتنِ اللبيب الناصح) الذكي الفطن، (الناصح لنفسه بهذا) الموضِع، (وليَتُبْ إلى الله، وليستغفره من ظنه بربه ظن السَّوء). وانتهى كلامه –رحمه الله–.

الواجب على المؤمن أن يجاهد نفسه في إحسان الظن بالله؛ لاسيما عند وقوع البلاء، والضراء، ينبغي أن يجاهد نفسه في حسن الظن بالله، ويستغفر من سوء ظنه بالله، ويتوب إلى الله –عزَّ وجل–.

[فيه مسائل: الأولى: تفسير آية آل عمران]

الآية الأولى التي بوَّب بها، وقد فسَّرناها.

[الثانية: تفسير آية الفتح]

وهي الآية الثانية، وقد فسَّرناها.

[الثالثة: الإخبار بأنّ ذلك أنواعٌ لا تُحصَر]

(الإخبار بأنّ ذلك) أي: سوء الظن بالله، الإخبار بأنّ سوء الظن بالله أنواعٌ لا تحصَر، ولكن ضابطها سهل: كل ما لا يليق بجلال الله فهو ظن سَوءٍ بالله –عزَّ وجل–.

[الرابعة: أنه لا يَسلَم من ذلك إلا مَن عرف الأسماء والصفات وعرف نفسه]

نعم، لا يَسلَم من ذلك إلا: مَن عرف ربه بأسمائه وصفاته، وعَلِمَ أنه حكيمٌ عليم، إن أنعَم فبفضله، وإن كانت الثانية فبعدله –سبحانه وتعالى–، ويعفو عن كثير. وعرف نفسه، وضعفها، وأنه خطاء مهما بلغ، مهما تشيَّخ، مهما بلغ في العلم، فإنه لا يخرج عن كونه من بني آدم، والنبي –صلى الله عليه وسلم– قال: «كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون»، لم يقل ذلك لنتحجَّج به لنقع في المعاصي، بعض الناس يتساهل ويقرِّب نفسه من نار الذنوب، ويقول: يا أخي، كل بني آدم خطاء! نعم، كل بني آدم خطاء؛ ولذلك يجب أن تحذر فأنت من بني آدم، لا تكلِّم امرأة أجنبية عنك في وسائل التواصل في غير الحدّ المشروع؛ وتقول: لا، الحمد لله أنا شيخ! فإنّ إبليس لا يعرف شيخًا من فاسق، يجري من ابن آدم مجرى الدم، وهو أحرَص على الصالح من الفاسق، الفاسق عند الباب، لكن الصالح بعيدٌ عنه، حريصٌ عليه، أنت من بني آدم و إن كنت شيخًا وإن كنت

طالب علم، والشيطان يجري منك مجرى الدم، ويريد أن يُردِيَك، كن أَحذَر من الناس.

أنت يا مؤمن يا مسلم من بني آدم، وابن آدم خطاء؛ ولذلك لا تقترب من نار الخطايا، كن بعيدًا، وهذا معنى قول النبي –صلى الله عليه وسلم–: «اتَّقِ الله حيثما كنت»، كن حذرًا فإنك خطَّاء، وما دمت خطَّاءً فلا تقترب، ابتعد، وخير الخطائين التوابون، وإن زلَّت القدم فلا تيأس؛ وتقول: خلاص أنا كنت طالب علم، ووقعت في هذه الرذائل، ووقعت في هذه الذنوب، إذن أنا ما أصلح أن أمشي مع الأخيار، وتُسلِّم نفسك لإبليس! لا، ارجع إلى الله، فإنّ الله يفرح بك، لا إله إلا الله! الله يفرح بك إن تُبت، أنت يا خطَّاء تُفرِح الله –عزَّ وجل– ويَعظُم فرح الله –عزَّ وجل– بك، ما أعظم مصيبة مَن يُصرّ على الذنب، يعصي الله ثم يَعلَم أنّ الله يفرح به إن رجع إليه، ومع ذلك يأبى أن يرجع! خير الخطائين التوابون، إن زلَّت القدم فلا تبقى مع الأشرار، بل كن مع الأخيار، كن من الأخيار، تب إلى الله، والله يفرح بك ويَقبل توبتك مهما كان الذنب.

فاعرف نفسك، وأنها تأمر بالسوء، وأنها ضعيفة، وأنها تهوى ما قد يُهلكها، وإذا عرفت نفسك بعد أن عرفت ربك أحسنت الظن بالله، وأسأت الظن بنفسك، فكنت من السالمين الناجين، الفائزين المفلحين، والله! لا ينجو من مهالك الدنيا إلا مَن أحسن الظن بالله، وأساء الظن بنفسه، فكان على هذا الحال

يسير إلى الله -سبحانه وتعالى-، ولذلك قال الشيخ: أنه (لا يَسلَم من ذلك) السوء (إلا مَن عرف) الأسماء والصفات؛ أي: عرف الله بأسمائه وصفاته، وعرف أسماء الله وصفاته (وعرف نفسه) فكان محسن الظن بالله، مسيء الظن بنفسه. وهذا شأنٌ عظيم.

الدرس التاسع والستون: شرح باب: ما جاء في منكري القدر

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، مَن يهدِ الله فلا مضل له، ومَن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[آل عمران:١٠٢]

﴿يا أَيُّهَا النّاسُ اتَّقوا رَبَّكُمُ الَّذي خَلَقَكُم مِن نَفسٍ واحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنها زَوجَها وَبَثَّ مِنهُما رِجالًا كَثيرًا وَنِساءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذي تَساءَلونَ بِهِ وَالأَرحامَ إِنَّ اللهَ كانَ عَلَيكُم رَقيبًا﴾[النساء:١]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[الأحزاب:٧٠-٧١]

أمّا بعد، فإنّ خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد –صلى الله عليه وسلم–، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدَثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

درسنا في هذه الأيام في شرح كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد.

ونحن في آخر الأبواب، نسأل الله –عز وجل– أن يرزقنا حسن الختام حتى نُتِمَّ

هذا الشرح التأصيلي الذي نهدف منه إلى أن نفهم التوحيد، ونحب هذا العلم ونحبِّب الناس فيه.

ونواصل شرح هذه الأبواب الطيبة العظيمة النافعة في هذا الكتاب الجامع النافع الذي حوى ما يحتاجه المؤمن في توحيد الألوهية. فليتفضل الشيخ الدكتور ياسين يقرأ لنا من حيث وقفنا وفقه الله –عز وجل– والسامعين.

[باب: ما جاء في منكري القدر]

لمَّا كانت الأبواب المتقدمة قريبًا لها تعلُّق بالقدر، ولمَّا كان الباب السابق في سوء الظن بالله –عز وجل– وفي قبحه، وأنه ليس من شأن الموحِّدين، وكان من أعظم سوء الظن بالله ما يتعلق بالقدر؛ ناسَب أن يعقد الشيخ –رحمه الله– هذا الباب: "باب ما جاء في منكري القدر"، أي: من الوعيد وحُكم إنكار القدر، وهذا الباب يدل على حكم مَن أنكر القدر تصريحًا، ويدل على وجوب الإيمان بالقدر تنبيهًا.

والإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا يؤمن عبدٌ حتى يؤمن بأربع: يشهد أن لا إله إلَّا الله وأني رسول الله بعثني بالحق، ويؤمن بالموت، ويؤمن بالبعث بعد الموت، ويؤمن بالقدر خيره وشرِّه» رواه الإمام أحمد، والترمذي، وصحَّحه الألباني. فلا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره من الله عز وجل.

وقال صلى الله عليه وسلم: «لا يؤمن عبدٌ حتى يؤمن بالقدر خيره وشرِّه، وحتى يعلم أنّ ما أصابه لم يكن ليُخطِئَه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه» رواه الترمذي، وصحَّحه الألباني. فلا يؤمن عبد حقيقة الإيمان لا يؤمن أصلًا حتى يؤمن بالقدر خيره وشرِّه، وما آية إيمانه بالقدر خيره وشرِّه؟ أن يَعلَم أنّ ما أخطأه لم يكن ليصيبه، وما أصابه لم يكن ليُخطِئَه ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ﴾[التوبة: ٥١].

ومَن آمن بالقدر حقَّق توحيد الربوبية؛ لأنّ العلماء يقولون: إنّ الإيمان بالقدر مرتبط بتوحيد الربوبية؛ وبالتالي يحقِّق توحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات، وعَظُمَ تعلُّق قلبه بالله مَن عَلِمَ أنّ الأمر كله لله، وأنّ ما شاءه الله كان، وأنّ الخلق جميعًا لو اجتمعوا على أن ينفعوه بشيء لم ينفعوه إلَّا بشيء قد كتبه الله له، ولو اجتمعوا على أن يضروه بشيء لم يضرُّوه بشيء إلَّا إذا كان الله قد كتبه عليه، مَن عَلِمَ هذا فإنه يهون عنده شأن الخَلق من هذا الباب، ويَعظُم تعلُّق قلبه بالله سبحانه وتعالى.

ومَن آمن بالقدر عَظُمَ خوفه من الله عز وجل، وعَظُمَ رجاؤه بما عند الله –سبحانه وتعالى– وسَلِمَ صدره من الحسد والأمراض، وسَلِمَ الناس من شرِّه.

فالإيمان بالقضاء والقدر شأنه عظيم؛ من جهة أصله ومن جهة أثره.

فمن جهة أصله؛ هو ركن في الإيمان، لا يؤمن العبد أصلًا حتى يؤمن به.

ومن جهة أثره؛ فإنّ أثره عظيم على مَن آمن به، يَسْلَمُ القلب ويَسْعَد، ويَعظُم تعلُّق القلب بالله، ويُعان العبد على الصبر على أقدار الله سبحانه وتعالى.

والشيخ هنا قال: (باب ما جاء في منكري القدر)، **والقدر في اللغة**: القضاء، والحُكم، والتدبير، والترتيب. يأتي القدر في اللغة بمعنى القضاء، ويأتي بمعنى الحكم، ويأتي بمعنى التدبير، ويأتي بمعنى الترتيب، وكلها مناسبة لمعنى القدر شرعًا.

والقدر شرعًا: هو تقدير الله للأمور حسب ما سبق به علمه واقتضته حكمته. وله أربع مراتب، مَن عرفها آمن بالقدر، واطمأن قلبه، واندفعت عنه الشبهات.

أربع مراتب للقدر، أو جواب سؤال: كيف كان القدر؟ نقول: هي أربع مراتب؛ بعضها مرتَّب على بعض:

الأولى منها: العلم. فالله –سبحانه وتعالى– بكل شيء عليم، عَلِمَ ما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، علِمَ ما الخَلق عاملون، وعلِمَ جميع أحوالهم؛ من الأفعال والأرزاق والآجال، فعِلْمُ الله بهم قديم؛ فلا يَحدُث لله عِلْمٌ بعد أن لم يكن، ومحيط فلا يَعزُب عنه شيء أبدًا، وثابتٌ فلا تَلحقه آفة ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾[طه: ٥٢]، فالله عَلِمَ الأمور علمًا محيطًا ثابتًا سبحانه وتعالى.

والمرتبة الثانية: أنّ الله كتب في اللوح المحفوظ ما هو كائن إلى قيام الساعة. فإنّ الله أمر القلم –كما سيأتينا– أن يَكتب –والكتابة فرع العِلم– يكتب ماذا؟ الذي جاءت به النصوص أنه يكتب ما هو كائن إلى قيام الساعة. أمّا ما بعد قيام الساعة فهو مسكوت عنه في النصوص؛ فنسكت عنه، فالكتابة إلى قيام الساعة دلت عليها النصوص دلالة بيِّنة، وما وراء ذلك –أي: ما بعد ذلك– مسكوت عنه، وواجب المؤمن أن يسكت إذا سُكِتَ في النصوص عن الشيء الغيبي.

وقد جمع الله هاتين المرتبتَين الأوليَين في قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾[الحج: ٧٠]، فبدأ بالعِلم ثم الكتابة، والكتابة –كما قلنا– فرع العِلم.

والمرتبة الثالثة: المشيئة. فقد شاء الله ما في السموات وما في الأرض، ولا يكون شيءٌ إلَّا بمشيئة الله سبحانه وتعالى، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا يكون في ملكه –سبحانه وتعالى– إلَّا ما يريد، وما أراد من عباده شرعًا إلَّا الخير، فلربنا –سبحانه وتعالى– مشيئة نافذة وقدرة شاملة، فما في الكون حركة ولا سكون إلَّا بمشيئة الله سبحانه وتعالى.

المرتبة الرابعة: أنّ الله خلق كل شيء، قال الله تعالى: ﴿اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾[الزمر: ٦٢]، فالله خَلق العباد، وخَلق أفعال العباد،

والعباد فاعلون حقيقة، هذه العقيدة السليمة المستقرة، الله خلق العبد، وخلق فعله، فليس ثمة إلَّا خالق ومخلوق، والخالق هو الله، والمخلوق هو العبد، وفعله مخلوق، والعباد فاعلون حقيقة ﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[الصافات: ٩٦].

والعبد له مشيئة لا تخرج عن مشيئة الرب سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾[التكوير: ٢٩]، فدلّ ذلك على أنّ العبد له مشيئة وله اختيار، إن شاء أن يقوم قام، وإن شاء أن يجلس جلس؛ ولكنّ هذه المشيئة لا تخرج عن مشيئة الله سبحانه وتعالى.

والعبد يَعلَم مشيئته واختياره، ولا يَعلَم مشيئة الله حتى يقع الأمر. أنت تَعلَم مشيئتك واختيارك، تعلم أنك شئت أن تذهب إلى المسجد لتصلي، سمعت الأذان فشئت أن تذهب إلى المسجد، تَعلَم هذا، وأنك قمتَ وتوضأتَ وذهبتَ، وتَعلَم العكس أيضًا؛ إن شئت ألَّا تذهب إلى المسجد تَعلَم مشيئتك واختيارك؛ فأنتَ مؤاخَذ بهذا.

أمّا مشيئة الله فهي غيب عنك؛ لا تعلمها إلَّا إذا وقع الأمر، فإذا وقع الأمر وذهبت إلى المسجد علمتَ أنّ الله شاء أن تذهب إلى المسجد وأعانك على ذلك، فلولا الله ما ذهبت، وإذا بقيتَ في بيتك والناس يصلُّون وبقيتَ من غير

عذر عَلِمْت أنّ الله لم يشأ ذهابك؛ لأنّ الله علم منك أنك لن تذهب، ولذلك ليس للعبد عذرٌ في مشيئة الله سبحانه وتعالى.

العبد يعلم مشيئته واختياره، وأمّا مشيئة الله فلا يَعلَمها إلَّا بعد الوقوع، فكيف يَحتَجُّ بأمر لم يَعلَم به إلَّا بعد الوقوع؟! يجلس في البيت ويقول: لو شاء الله أن أذهب أذهب! فالعبد فاعل حقيقة وله مشيئة لا تخرج عن مشيئة الله عز وجل.

والعبد كاسِب ومكتَسِب كما قال الله عز وجل: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾[البقرة: ٢٨٦]. إذن؛ العبد كاسِب ومكتَسِب، والهادي والمضل هو الله –سبحانه وتعالى–، يهدي بفضله، ويُضِلُّ بعدله. فوالله ما أضلَّ الله مَن يستحق الهداية، والله! ما أضلَّ الله مَن يستحق الهداية، فالله يهدي بفضله ويُضِلّ بعدله سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾[التكوير: ٢٨، ٢٩].

هذا مجمل عقيدة أهل السنة والجماعة في القدر.

والشيخ هنا قال: (باب ما جاء في منكري القدر) أي: باب ما جاء في نُفاة القدر، الذين يَنفون القدر ويقولون: "لا قدر والأمر أُنُف"، أي أنهم يزعمون أنّ

الله –عز وجل– لم يَعلّم الأشياء قبل وقوعها، ولم يكتبها ولا يَعلَم بها إلَّا إذا وقعت! وهؤلاء هم القدريَّة؛ أي: نفاة القدر، الذين يَنفون القدر.

وهذه الفرقة من أخبث الفِرَق، بل ليست من المسلمين ولكنها تنتسب إلى الأمّة، وقد أخبر النبي –صلى الله عليه وسلم– عنها؛ فقال صلى الله عليه وسلم: «سيكون في أمّتي أقوامٌ يُكذِّبون بالقَدَر» رواه أبو داود، وحسَّنه الألباني.

وأخبر النبي –صلى الله عليه وسلم– عن اسم هذه الفرقة وعن أنها ليست من المسلمين صدقًا؛ فقال صلى الله عليه وسلم: «القَدَريَّة مجوس هذه الأمّة، إن مَرِضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم» رواه أبو داود، وصحَّحه السيوطي، وحسَّنه الألباني. فأخبر النبي –صلى الله عليه وسلم– أنّ القدريَّة الذين يكذِّبون بالقدر ويَنفون القدر هم مجوس هذه الأمّة؛ لأنهم يُثبِتون آلهةً متعدِّدة كالمجوس، وأَمَرَنا بالبراءة منهم، فإذا مرضوا فلا نعودهم، وإذا ماتوا فلا نصلي عليهم، ولا نشهد جنائزهم.

وبدعة القدريَّة ظهرت في أواخر عصر الصحابة –رضوان الله عليهم–، من رجال لم يكونوا من أصحاب صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل كانوا معرِضين عن هدي صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهكذا هو الشأن في الأمّة إلى قيام الساعة؛ أهل السنة مقبِلون على هدي صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأصحابٌ لصحابة رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وإنْ بَعُدَ

الزمان، أصحابٌ لهم لأنهم يَتعلَّمون هديهم ونهجهم ويسيرون على طريقتهم، وأهل البدع معرِضون عن نهج صحابة رسول الله –صلى الله عليه وسلم– هكذا في الأمّة إلى قيام الساعة. فهؤلاء القدريَّة الذين ظهروا في آخر زمن صحابة رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ولم يَلزَموا هدي صحابة رسول الله –صلى الله عليه وسلم– جاءوا بهذه البدعة القبيحة بل بهذا الكفر الصريح؛ الذي هو تكذيب للكتاب والسنَّة وخَرْقٍ لإجماع صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال يحيى بن يَعمَر: «أوّل مَن تكلَّم في القدر: معبَدٌ الجُهَني، فخرجتُ أنا وحُمَيد بن عبد الرحمن حتى أتينا المدينة، فقلنا: لو لقينا رجلًا من أصحاب النبي –صلى الله عليه وسلم– فسألناه عمّا أحدَث هؤلاء القوم، قال: فلقيناه وهو خارج من المسجد –يعني ابن عمر– قال: فاكتنفته أنا وصاحبي؛ فقلت: يا أبا عبد الرحمن! إنّ قومًا يقرؤون القرآن ويَتفقَّرون العِلم ويزعمون ألَّا قدر وأنَّ الأمر أُنُف! فقال رضي الله عنه وأرضاه: إذا لقيتَ هؤلاء فأخبرهم أني بريء منهم، وأنهم برآء مني» رواه مسلم في الصحيح. فحكم ابن عمر –رضي الله عنه– عليهم بالكفر، ولذلك تبرَّأ منهم البراءة المطلَقة، ولا شك في كفرهم.

ثم بعد ذلك؛ ظهرت فرقة من القدريَّة، تؤمن بعِلْمِ الله القديم السابق، وبكتابة الله للمقادير؛ غير أنها تُنكِر عموم مشيئة الله، وأخرَجوا أفعال العباد عن مشيئة الله وعن خَلق الله، فقالوا بزعمهم: "العباد يشاؤون أفعالهم لا الله –

يزعمون أنّ الله ما يشاء أفعالهم– ويخلقون أفعالهم لا الله"، وهذه الفرقة قد اختلف العلماء في تكفيرها، أمّا الفرقة الأولى فالعلماء مُجمِعون على كفرها.

هؤلاء هم منكرو القدر، وهم الذين يتكلَّم عنهم الشيخ في هذا الباب، وقد قلت لكم: إنّ الشيخ أراد أن يبيِّن حُكم نفاة القدر تنفيرًا من نفي القدَر، وبالتالي سيَلزَم من هذا: الإيمان بالقدر وإيجاب الإيمان بالقدر، فيكون ذلك من باب التنبيه على وجوب الإيمان بالقدر وأنه ركن من أركان الإيمان.

[وقال ابن عمر رضي الله عنهما: «والذي نفس ابن عمر بيده، لو كان لأحدهم مثل أُحُدٍ ذهبًا، ثم أنفقه في سبيل الله ما قَبِلَه الله منه حتى يؤمن بالقدر». ثم استدل بقول النبي صلى الله عليه وسلم: «الإيمان: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره» رواه مسلم]

هذه بقية الأثر الذي ذكرناه في خروج يحيى بن يَعمَر إلى المدينة للسؤال عمّا قاله وأحدثه أهل القدر –يعني نفاة القدر–، والشيخ روى الأثر بالمعنى، ويبدو –الله أعلم– أنه رواه من حفظه ولذلك رواه بالمعنى، أمّا الأثر في صحيح مسلم هكذا لفظه: «والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو أن» ليس لو كان، «لو أنّ لأحدهم مثل أُحُدٍ ذهبًا، فأنفقه» ليس ثم أنفقه، «فأنفقه ما قَبِلَ الله منه» جملة "في سبيل الله" ليست في صحيح مسلم، «ما قَبِلَ» ليست بالهاء، «ما قَبِلَ الله منه حتى يؤمن بالقدر». ثم ذكر ابن عمر –رضي الله عنهما– حديث عمر –رضي الله

عنهم– العظيم الذي فيه سؤال جبريل للنبي –صلى الله عليه وسلم– عن الإسلام والإيمان والإحسان، ووجه الشاهد منه: قول النبي صلى الله عليه وسلم: «الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشرِّه».

فابن عمر –رضي الله عنهما– بيَّن كفرهم، واستدل بهذا الحديث الذي فيه أركان الإيمان، وأنّ من أركان الإيمان: الإيمان بالقدر خيره وشره، وأنّ مَن لم يؤمن بالقدر فليس مؤمنًا بالله عز وجل سبحانه وتعالى. وهذا استدلال صحيحٌ، وجيهٌ، بيِّنٌ.

وقد اتَّفق العلماء على كفر مَن قال: أنه لا قدَر؛ لأنه أنكر معلومًا من الدِّين بالضرورة، وكذَّب القرآن، وكذَّب السنَّة الصحيحة، وخالف إجماع الصحابة –رضوان الله عليهم وأرضاهم–.

ولذلك قال القرطبي: "ولاشك فيمن يذهب إلى ذلك؛ فإنه جَحَدَ معلومًا من الشرع بالضرورة".

فهذا الأثر فيه فوائد عظيمة منها:

منها: أنّ السلف الصالح –رضوان الله عليهم– إذا حدثت شبهة تُنسَب إلى الدين يطلبون كشفها من أهل العلم. فهذا يحيى بن يَعمر خرج مع صاحبه إلى

المدينة؛ لأنّ المدينة كانت معدِن العلم في ذلك الوقت، ما هدفهم؟ يطلبون كشف هذه الشبهة –شبهة القدريَّة–، ومعرفة حكم القدريَّة.

وهكذا ينبغي على الأمّة؛ أن تطلب كشف الشبهات من العلماء الثقات، لا يُتَطَلَّبُ كشف الشبهة من المجاهيل، ولا ممَّن لم يَرسَخ في العلم، فإنّ غير الراسخين في العلم تَظهر لهم الشبهات دينًا، والظنون علمًا، مَن لم يرسَخ في العلم تظهر له الشبهات دِينًا والظنون علمًا فلا ينفع مَن يسأله، وإنما يُسأل العلماء الثقات، ولو سافر الإنسان إليهم.

ولذلك أيها المبارك؛ في باب الفتن والشبهات: إياك أن تقتربها، إياك أن تقترب منها، إياك أن تقترب من أهلها، «مَن سَمِعَ بالدجال فلينأَ عنه»، ابتعد عن الفتن، ابتعد عن الشبهات، ابتعد عمّا يخالف أهل السنَّة والجماعة، فإن وجدتَ عالمًا يكشفها ويوضِّحها فاسأله؛ وإلَّا فابتعد. هذه طريقة السلف الصالح رضوان الله عليهم.

وفي هذا الأثر: بيان أنّ مَن أنكر القدر فقد كفر، ولذلك كان السلف يحاجُّون القدريَّة بالعلم الله السابق، فإن أقرُّوا به فقد عرفوا الحق، وإن أنكروه فقد كفروا.

[وعن عبادة بن الصامت أنه قال لابنه: «يا بني إنك لن تجد طعم الإيمان حتى تَعلَم أنّ ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك»،

سمعت رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يقول: «إنّ أوّل ما خَلق الله القلم، فقال له: اكتب، فقال: ربِّ وماذا أكتب؟ قال: أكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة»، يا بني سمعت رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يقول: «مَن مات على غير هذا فليس مني»]

هنا بيَّض الشيخ لتخريج هذا الأثر ثم الحديث في آخره؛ ولكنه لم يَذكُر تخريجه كالمعتاد، وهذا: قد رواه أبو داود، وصحَّحه الألباني، ورواه أحمد في المسند بقريب منه غير أنه قال في الوصية: "يا بنيَّ! إنك لن تطعَم طعم الإيمان، ولن تبلغ حقيقة العلم؛ حتى تؤمن بالقدر خيره وشرِّه، "، ورواه الترمذي –أيضًا– بنحوه، غير أنه قال في الوصية: "يا بنيَّ اتقِّ الله، واعلم أنك لن تتقيَ الله حتى تؤمن بالله، وتؤمن بالقدر كلِّه خيره وشرِّه، فإن مِتَّ على غير هذا دخلت النار".

فهذا الأثر في الوصية والحديث في آخره صحيح ثابت، عن عبادة بن الصامت الصحابي الجليل أنه كان يقول لابنه يوصيه في آخر وصية له، والوصية بالخير نهج المرسلين، ودأب الصالحين، الأنبياء يوصون ذرياتهم بالخير، ويوصون الناس بالخير، والصالحون كذلك؛ وعلى رأسهم صحابة رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، كانوا يوصون، ولا شك أنّ الأب ينبغي عليه أن يَتخوَّل أبناءه بالوصية، وأن يجمع لهم جوامع الخير يوصيهم بها، ولازال الأخيار

والكبار يفعلون هذا، فتجد أنّ بعضهم يَنظُم قصيدةً في آخر حياته يوصي ابنه بجوامع الخير التي يَعلَمها، فهذه الحال –أعني وصية الناس ولاسيما الأبناء– سنَّة قد هجرها كثير من الناس، ومنهج رشيد كان عليه سلف الأمّة رضوان الله عليهم.

وجدير بالآباء والأمهات أن يُحيوا هذه السنَّة، وأن يحرصوا على إيصاء أبناءهم وبناتهم بجوامع الخير.

قال لابنه يوصيه: (يا بنيَّ!) وهذا من اللطف في مخاطبة الأبناء، ولا شك أنّ السُّنَّة أن يخاطِب الأب أبناءه بالألفاظ الطيبة، والألفاظ الكريمة، وأن يَبتعد عن تلقيبهم بالألقاب الخبيثة، أو وصْفِهم بما يَغرِس الشر في أنفسهم، فبعض الآباء من جهله بالسنَّة وبما ينبغي يلقِّب ابنه بلَقَبٍ يُكسِبَه شرًّا؛ كأن يقول له: يا غبي، أنت غبي، وبعض الناس –هداني الله وإياهم– يظلم هذا دون إخوته، إذا تكلم إخوانه بشَّ لهم وهَش، وإذا تكلم هذا قال له: اسكت يا غبي، أنت غبي، هذا خلاف السُّنَّة، ولا يجوز في مثل هذا.

فتلقيب الأبناء بالألقاب الطيبة، ووصْفهم بالأوصاف الحسنة التي تزرع الخير في نفوسهم وتنمِّيه: سُنَّة، ومنهج الرشيد.

قال: (يا بنيَّ! إنك لن تجد طعم الإيمان) وللإيمان طعم، الإيمان له طعم يجده الإنسان كما يجد طعم الأكل تمامًا، طعمه حلوٌ، أحلى من السكر

والعسل، نعيم من نعيم الجنة في الدنيا: طعم الإيمان، ولكن لا يجده كل أحد، ومَن صَدَقَ الله صَدَقَهُ الله، قال: (إنك لن تجد طعم الإيمان حتى تَعلَم أنّ ما أصابك لم يكن ليُخطئَك، وما أخطأَك لم يكن ليصيبك) يعني: حتى تعلم أنّ ما وقع لا يمكن أن يكون إلَّا كما وقع، توقِن أنّ ما وقع لا يمكن بحال من الأحوال أن يكون إلَّا كما وقع، فإن أصابك الخير الذي كنتَ ترجو؛ علمتَ أنه ما كان ليُخطئك ولْيذهب إلى غيرك. وما أخطأَك فلم يُصِبك الخير الذي ترجو؛ علمتَ أنه لم يكن ليُصِبكَ، وبالتالي كيف تحسد وتقول: هذا ذهب له كذا، وحصل له كذا، وأنا ما حصل لي، وأنت على يقين أنّ ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأَك لم يكن ليصيبك؟! فما وقع لا يمكن أن يكون إلَّا كما وقع. وهذه دلالة الإيمان بالقدر.

قال: (سمعتُ رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يقول: «إنّ أولَ ما خَلق الله: القلم»، وفي بعض الروايات بدون (إنَّ): أَوَّلَ –بفتح اللام– «أَوَّلَ ما خلق الله القلمَ»، والمقصود هنا برواية النَّصب بدون (إنَّ): ظرف زمان، تكون هذه الجملة كلها ظرف زمان، أي: في هذا الزمن زمن خَلْقِ القلم؛ عند خِلْقه مباشرة أمره الله بالكتابة، فخَلق الله القلم وأمره مباشرة أن يَكتب، فلا تكون الأَوَّلية هنا أَوَّلية للخَلق؛ وإنما ظرف زمان.

وبعض أهل العلم ضَبَطَها: «أوَّلُ ما خَلق اللهُ: القلم»، فيكون القلم أوَّل ما خُلِق.

وقد اختلف السلف في أوّل ما خُلِق على قولين على قولَين:

فقال بعضهم: إنّ أوّل ما خُلِقَ: القلم؛ واحتجوا بهذا الحديث.

وقال جماهير السلف: إنّ أوّل ما خُلِقَ: العرش والماء، وبعضهم يزيد: والريح، لما جاء في الحديث: «كان الله ولا شيء قبله، وكان عرشه على الماء، ثم خَلق السموات والأرض وكَتَبَ الذِّكر» وهذا عند البخاري.

وهذا الأظهر –والله أعلم– أنّ خَلْقَ العرش والماء سابق لخَلْق القلم، وعليه: فيكون القلم أوّلَ ما خُلِقَ من هذا العالم.

«إنّ أوّلَ ما خَلق الله القلم، فقال له: اكتب، فقال: ربِّ وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة»، وفي هذا الحديث دلالة على القدر، وأنّ الله عَلِمَ ما هو كائن إلى قيام الساعة، فإنّ الكتابة فَرْعُ العلم، وأنّ المقادير قد كُتِبَت في كتابٍ عند ربنا.

وهذه الكتابة قبل خَلق السموات والأرض بزمن طويل، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة» رواه مسلم في الصحيح، فدلّ ذلك على علم الله السابق، ثم الكتابة بأمر الله سبحانه وتعالى.

[وفي رواية لأحمد: «إنّ أوّل ما خَلق الله تعالى القلم، فقال له: اكتب، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة»]

فخلق الله القلم، وأمره فور خَلقه بأن يَكتب، «فجرى القلم في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة». وقد ذكرتُ لكم أنّ النصوص دلّت على الكتابة إلى قيام الساعة، وما وراء ذلك مسكوت عنه.

[وفي روايةٍ لابن وهْب: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فمَن لم يؤمن بالقدر خيره وشره أحرقه الله بالنار»]

(وفي رواية لابن وهْب) هذا العالم تلميذ ابن مالك، من حفَّاظ الحديث، وهو الذي أخبر الإمام مالكًا بحديث تخليل أصابع الرِّجلين في الوضوء، له كتاب في القدر، وهو مطبوع، وهذه الرواية فيه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فمَن لم يؤمن بالقدر خيره وشرِّه أحرقه الله بالنار». وهذه الرواية ثابتة بمجموع الطُّرق، وإلَّا فطريق ابن وهْب فيه ضَعف بيِّن، لكن بمجموع الطرق ثابتة، ولا شكَ في صحة ما فيها، فإنّ مَن لم يؤمن بالقدر خيره وشره لم يؤمن أصلًا؛ بل هو كافر، وما دام ذلك كذلك فإنه في النار، ولا يكون من أهل الجنة أبدًا، وإنما هو من أهل النار.

[وفي المسند والسنن عن ابن الديلمي قال: أتيتُ أُبيَّ بن كعب، فقلتُ: في نفسي شيء من القدر، فحدِّثني بشيء لعل الله يُذهِبَه من قلبي، فقال: «لو أنفقتَ مثل أُحد ذهبًا ما قبِلَه الله منك حتى تؤمن بالقدر، وتَعلم أنّ ما أصابك لم يكن ليُخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولو متَّ على غير هذا لكنت من أهل النار". قال: فأتيت عبد الله بن مسعود، وحذيفة بن اليمان، وزيد بن ثابت، فكلهم حدَّثني بمثل ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم» حديث صحيح، رواه الحاكم في صحيحه]

كلام الشيخ هنا من قوله: (وفي المسند) إلى قوله: «حديث صحيح رواه الحاكم في صحيحه) أَخَذَه بنصِّه وتمامه من كتاب (شفاء العليل) لابن القيم رحمه الله عز وجل. فالشيخ هنا نقل الكلام بالواسطة عن ابن القيم، وابن القيم عزى الحديث إلى الحاكم في صحيحه.

وقد تَطلَّبت الحديث في المستدرك بقدر ما أستطيع فلم أجده فيه، ولا بقريب منه، لكن الحديث رواه الإمام أحمد في المسند، وأبو داود، وابن ماجه، وعبد بن حُمَيد، وابن حِبَّان، فقول ابن القيم وتَبِعَه شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب: (وفي المسند) أي: مسند الإمام أحمد، (والسنن) أي: كتب السنن، وليس المراد أنه في السنن الأربعة؛ وإنما في كتب السنن، يعني في بعض كتب

السنن: عند أبي داود، وعند ابن ماجه، وعند ابن حبان، وجمع ممَّن كتبوا في السنن.

وجميع الروايات التي وقفتُ عليها فيها كلام أُبَي موقوفًا عليه، وكلام ابن مسعود موقوفًا عليه، وكلام حذيفة موقوفًا عليه، وإنما رفع الكلام زيد بن ثابت، ولم أقف على ما ذكره ابن القيم هنا ونقله الشيخ "أن كلهم رفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم"، وإنما الذي رفعه إلى رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: زيد بن ثابت، وإن كان الظاهر –والله أعلم– أنّ الصحابة –رضوان الله عليهم– إنما أخذوا هذا من السُّنة؛ لماذا؟ لأنّ ألفاظهم طابقت ما رواه زيد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهذا يدل على أنّ الصحابة –رضوان الله عليهم– الذين يبقوا زيدًا حدَّثوا بذلك عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وإن لم يُصرِّحوا بالرفع.

يشهد لهذا ويقويه: أنّ ابن الديلمي قال: "فحدثني بشيء"، والأصل في التحديث أنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، لكن لم يُصرِّح الصحابة: أُبَي، وابن مسعود، وحذيفة، بالرفع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنما الذي صَرَّح بالرفع: زيد بن ثابت، وقد جاء في رواية ابن ماجه: أن أُبَيًّا قال له بعد أن حدَّثه قال: ولا عليك أن تأتيَ أخي عبد الله بن مسعود فتسأله، فذهب إليه، فحدَّثه كما حدَّثه أُبَي، ثم قال له –ابن مسعود–: ولا عليك أن تأتيَ حذيفة فتسأله،

فذهب إليه فسأله، فحدَّثه حذيفة بما حدَّثه به أُبَي وابن مسعود، ثم قال له: ولا عليك أن تأتيَ زيد بن ثابت فتسأله، فذهب إليه فسأله، فحدَّثه عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بعينِ وألفاظِ ما حدَّثه به أُبَي وابن مسعود وحذيفة، رضي الله عن الجميع.

ابن الديلمي –وهو تابعي، وذكر بعضهم أنه صحابي من صغار الصحابة– قال: (أتيتُ أبيَّ بن كعب، فقلت: وقعَ –هكذا بالروايات– وقعَ في نفسي شيء من القدر)، شكٌّ، ريبةٌ، تَلَجْلُجٌ، جاء في بعض الروايات: (فخشيتُ أن يُفسِد عليَّ دنيايَ وديني، فحدثني بشيء لعل الله أن يُذهِبَه من قلبي).

اِلْحَظ هنا يا رعاك الله؛ لمّا حدثت الشبهة في قلبه ما سكت وتركها تنمو وتزداد، بل ذهب إلى الطبيب الحاذق ليستأصل الداء من القلب، ولم يذهب إلى كل أحد، لم يذهب إلى مشاهير لم يُعرَفوا بالرسوخ في العلم، ولا إلى مجاهيل، ولا إلى أمثاله.

ولذلك؛ مَن اتخذ شيخًا لم يُعرَف بالعلم؛ سيَضِلُّ في العلم، ومَن شيَّخَ مثله عليه –ليس من باب المدارسة، المدارسة بين الأقران خير– لكن مَن شيَّخَ مثله عليه؛ لن يرفع رأسًا في العلم.

وهذا ما نراه في المجموعات الإلكترونية الآن، بعضهم لا مجال له ليكون شيخًا في العالم الواقعي؛ لأنه ما طلب العلم على الشيوخ، وعاميٌّ حتى في

ألفاظه، فماذا يفعل ليَتصدَّر؟ يُنشئ مجموعة، وقد يَصِفُها بوصْف طيِّب جاذب، ثم يتشيَّخ على مَن في هذه المجموعة، هو الشيخ والمشرف، وتجد أصحابه كلّما جاء شيء قالوا: هذا باطل، اسأل الشيخ فلان! ما يعرفون الحق من الباطل والعلم، هؤلاء لا يرفعون رأسًا في العلم، وإنما يوَفَّق مَن أخذ العلم من أهله، الذين شُهِدَ لهم، وبرزوا، وعُرِفوا بالفَهم، والبصيرة، وحُسن تنزيل المسائل.

(ذهب إلى أُبَي فقال: وقعَ في نفسي شيء من القدر خشيتُ أن يُفسِد عليَّ دنيايَ وديني) لو بقيَ أو زاد، (فحدثني بشيء) ولعله أراد الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأنّ السلف يَعلَمون أنّ دواء الداء الذي يقع في القلب: الكتاب والسُّنة، تغسل القلب غسلًا الكتاب والسُّنة، فيُرجَعُ إلى مَن يَفهم الكتاب والسُّنة، ومن أهل السُّنة، لا مَن يُقدِّم العقل ويتفلسف بعقله على كتاب الله وعلى سنَّة رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: (لعل الله أن يُذهِبَه من قلبي، فقال) والشيخ حذف شيئًا ليس مما يدل على مقصوده، قال: «لو أنفقت مثل أُحُدٍ ذهبـًا في سبيل الله» في سبيل الله هكذا في الروايات (ما قبِلَه الله منك حتى تؤمن بالقدر) لماذا؟ لأنه إذا لم يؤمن بالقدر فهو كافر، والله لا يقبل من الكافر شيئًا، لو أنفق ملء السموات والأرض وهو كافر ما قبله الله –عز وجل– منه، (وتعلمَ أنَّ ما أصابك لم يكن ليُخطِئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولو مِتَ على غير هذا لدخلت النار).

ثم أرشده أُبَي إلى أن يذهب إلى ابن مسعود؛ ليزداد يقينًا، فهذه قضية خطيرة، وابن مسعود حدَّثه كما حدَّثه أُبَي سواء بسواء كأنهما قد اتفقا، وهذا يشهد إلى أنّ هذا من حديث رسول الله –صلى الله عليه وسلم– عندهم. إلى آخر ما جاء هنا.

بقيَ شيء لعلنا نؤخره إلى الغد إن شاء الله –عز وجل– وهو ليس طويلًا لكنه مهم، فنؤخره إلى الغد إن شاء الله ونفتتح به درس الغد بحول الله وقوته.

الدرس السبعون: تابع شرح باب: ما جاء في منكري القدر

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، مَن يهدِ الله فلا مضل له، ومَن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[آل عمران:١٠٢]

﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقوا رَبَّكُمُ الَّذي خَلَقَكُم مِن نَفسٍ واحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنها زَوجَها وَبَثَّ مِنهُما رِجالًا كَثيرًا وَنِساءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذي تَساءَلونَ بِهِ وَالأَرحامَ إِنَّ اللهَ كانَ عَلَيكُم رَقيبًا﴾[النساء:١]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[الأحزاب:٧٠-٧١]

أمّا بعد.

فإنّ خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد –صلى الله عليه وسلم–، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدَثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

ثم يا معاشر الفضلاء؛ حامدين ربنا ومستعينين به –سبحانه وتعالى– نواصل شرحنا لكتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد، فهو أعظم الحقوق، وأعلاها، وأجلاها، وألَزَم الفرائض. وبحمد لله قد فرغنا من شرح أكثر أبواب هذا الكتاب، وبقي القليل، نسال الله –عزَّ وجلَّ– أن يُحسِن لنا الختام.

وكنا في مجلسنا بالأمس، قد شرحنا ما يتعلق بباب (ما جاء في منكري القدر)، وبيَّنا عقيدة أهل السُنَّة والجماعة في القدر، و بيَّنا أنّ القدرية نفاة القدر أوائلهم كانوا يقولون: "أنه لا قدر، وأنّ الأمر أُنُف"، ثم ظهرت فرقةٌ منهم دون ذلك، يُثبتون العلم السابق والكتابة؛ غير أنهم يَستثنون من المشيئة والخَلق: أفعال العباد، فأفعال العباد عندهم لم يشأ الله –عزَّ وجلَّ– وقوعها، وإنَّما هي بمشيئة العبد وأنّ العباد هم خالقو أفعالهم.

والطائفة الأولى قد اتَّفق العلماء قاطبة على أنهم كفار، مجوس هذه الأمَّة.

وأمَّا الطائفة الثانية فقد اختلف فيهم العلماء مع اتفاقهم جميعًا على أنهم على بدعةٍ شنيعة فظيعة. والأظهر –والله أعلم– في حكمهم التفصيل بحسب أحوالهم.

وقد فرغنا من التعليق على النصوص التي ذكرها الشيخ في الباب، وبقيت مسألة لم أُرِد أن أجعلها في آخر المجلس بالأمس، فأجّلتها إلى اليوم؛ وهي ما تقدَّم في النصوص «أن تؤمن بالقدر خيره وشره».

فمن الإيمان بالقدر أن تؤمن بالقدر خيره وشره، حلوه ومرِّه من الله تعالى، فلا يقع الخير إلا بإرادة الله –عزَّ وجلَّ–، ولا يقع الشر إلا بإرادة الله –عزَّ وجلَّ– الكونية القدرية، فالإرادة الكونية القدرية تتعلق بالخير والشر، غير أنّ الشر ليس إلى ربنا –سبحانه وتعالى–؛ كما قال النبي –صلى الله عليه وسلم–: «والشر ليس إليك» كما في صحيح مسلم، فالشر ليس إلى ربنا –سبحانه وتعالى–؛ لأنه عن حكمةٍ عظيمة، وفيه حِكمٌ عظيمة، وإنَّما الشرُ للمخلوق، والشر بالنسبة للمخلوق واقعٌ منه، وواقعٌ عليه.

أمَّا الواقع منه؛ فإنه يعاب به، ويُذَمُّ عليه، ويُعاقَب عليه؛ لأنه عَلِمَ أنه شرّ بالأدلة التي نَصَبَها الله –عزَّ وجلَّ– له، واختار ذلك الشر؛ كالزنا، والكذب، والقتل، والسب، والشتم، واللعن، والضرب، كل هذه شرور واقعةٌ من المخلوق، وقد عَلِمَ أنها شرّ بالأدلة الكثيرة، التي نَصَبَها الله –عزَّ وجلَّ– له، ومع ذلك اختار هذا الشر، وأراده، وفَعَلَه.

وأمَّا الشرّ الواقع عليه؛ كأن يُضرَب أو نحو ذلك، فهذا إن لَزِمَ فيه شرع الله كان خيرٌ له؛ في حقيقته وفي مآلاته، فهو يَحمل الخير والمِنَح من الله –عزَّ وجلَّ–؛ ولذا قال النبي –صلى الله عليه وسلم–: «عجبًا لأمر المؤمن، إنّ أمره كله له خير، إن أصابته سراء شكر؛ فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر؛ فكان خيرًا له، وليس ذلك إلا للمؤمن».

وبهذا تَعلَم يا رعاك الله؛ **أنّ الإرادة الكونية القدرية** تتعلق بالخير والشر، فلا يقع في خَلق الله إلا ما أراده الله –عزَّ وجلَّ–، غير أنّ الشر ليس إلى ربنا.

أمَّا الإرادة الشرعية، فليس فيها إلا خير، فالله ما أراد بعباده شرعًا إلا الخير، فالإرادة الشرعية متعلقةٌ بالخير؛ فعلًا للمأمور، وتركًا للمنهي عنه، فالله –عزَّ وجلَّ– أراد شرعًا بعباده أن يوحِّدوه، ولم يُرِدْ شرعًا أن يُشركوا به.

وهذا من أجلى الفروق بين الإرادة الكونية القدرية، والإرادة الشرعية الأمرية، أنّ الإرادة الكونية القدرية تتعلق بالخير والشر، لكنّ الشر ليس إلى ربنا، أمَّا الإرادة الشرعية فلا تتعلق إلا بالخير.

هذه المسألة من مسائل الإيمان بالقدر، وأسأل الله –عزَّ وجلَّ– أن يفقّهنا فيها، وفي ديننا كله.

ثم نواصل القراءة من حيث وقفنا. فيتفضل الشيخ الدكتور ياسين، وفقه الله والسامعين، يقرأ لنا من حيث وقفنا.

[فيه مسائل: الأولى: بيان فرض الإيمان بالقدر]

بيان أنّ الإيمان بالقدر فرضٌ لازم، وأنه ركنٌ من أركان الإيمان، وأنّ مَن لم يؤمن بالقدر لم يؤمن أصلًا، ولم يكن من المؤمنين، كما في حديث عمر الذي استشهد به ابن عمر رضي الله عنهما.

[الثانية: بيان كيفية الإيمان به]

بيان كيفية الإيمان به، أو بيان ما يدل على الإيمان به؛ وهو: أن يَعلَم المؤمن أنّ ما أصابه من خيرٍ أو شر لم يكن ليخطئه أبدًا، وأنّ ما أخطأه لم يكن ليصيبه أبدًا، فإذا استقرّ ذلك في قلبه ووَجَدَ ذلك في قلبه؛ فإنه قد آمن بالقدر. فهذا الذي دلّت عليه النصوص، ودلَّ عليه صحابة رسول الله –صلى الله عليه وسلم–.

[الثالثة: إحباط عمل مَن لم يؤمن به]

وأنه مهما فعل من الخير، ما دام لا يؤمن بالقدر فإنّ الله لا يَقبل منه عمله؛ لأنه كافر، والله لا يَقبل من الكافر عملًا، مهما كان العمل كثيرًا.

[الرابعة: الإخبار بأنّ أحداً لا يجد طعم الإيمان حتى يؤمن به]

وذكرنا أنّ للإيمان طعمًا ولذةً وحلاوة، ولا يمكن للإنسان مهما فعل أن يجد طعم الإيمان حتى يؤمن بالقدر؛ كما في أثر عبادة بن الصامت.

[الخامسة: ذِكْرُ أوّل ما خَلق الله]

ويظهر هنا –والله أعلم– أنّ الشيخ يرى أنّ أوّل ما خَلق الله هو القلم، وقد ذكرنا المسألة، وذكرنا أنّ الأقرب –والله أعلم– هو ما ذهب إليه الأكثر من السلف؛ وهو: أنّ أوّل ما خَلق الله: العرش والماء، وأمَّا القلم فهو أوّل ما خُلِق من هذا العالم، وكُتِبت به المقادير.

[السادسة: أنه جرى بالمقادير في تلك الساعة إلى قيام الساعة]

أنّ القلم جرى بالمقادير في تلك الساعة عندما خُلِق، جرى بالمقادير بأمر الله –عزَّ وجلَّ– إلى قيام الساعة، وكما قلنا: ما وراء ذلك مسكوتٌ عنه في النصوص، فيجب على المؤمن أن يسكت عنه، ولا يبحث فيه.

[السابعة: براءته صلى الله عليه وسلم ممَّن لم يؤمن به]

نعم، النبي –صلى الله عليه وسلم– والمؤمنون برآء ممَّن لم يؤمن بالقدر، ولذلك تبرّأ النبي –صلى الله عليه وسلم– منه، وتبرّأ ابن عمر –رضي الله عنهما– منه، وهكذا كل مؤمن عرف حق الله، يتبرّأ ممَّن لم يؤمن بالقدر.

[الثامنة: عادة السلف في إزالة الشبهة بسؤال العلماء]

وما أعظمها من فائدة! وما أحوجنا إليها! العلماء للقلوب كالماء للجسد، الجسد تَعلَق به الأوساخ، فإذا اغتسل بالماء لا يبقى من درنه شيء، والقلب ما دام العبد في الدنيا تَعلَق به عوالق وشبهات، وطهارتها إنَّما هي بالرجوع إلى العلماء الربانيين، الراسخين، المعروفين بالسُّنَّة، وقد كان السلف الصالح –رضوان الله عليهم– يرجعون إلى العلماء إذا وُجِدت الشبهة، فيحيى بن يَعمَر وصاحبُه طلبا صحابة رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، لمّا ظهرت عندهم بدعة القدرية؛ لمعرفة حُكمهم، وكيف يعامَلون. وابن الديلمي لمّا وقع في قلبه شيء من القدر وتردُّد وتَلَجْلُج، ذهب إلى صحابة رسول الله –صلى الله عليه

وسلم– يسألهم، وكل واحدٍ منهم بعد أن أجابه من مشكاة النبوة فيما يظهر، أحاله إلى عالمٍ آخر؛ ليزداد يقينًا، ويزداد بصيرة.

ولا شك أنّ مَن لَزِمَ العلماء حامل الخير، وسَلِمَ من الشر. وكما قال السعدي –رحمه الله–:

اِعلَمْ هُدِيتَ أَنّ أفضلَ المِنَنْ عِلمٌ يُزيلُ الشَّكَ عَنكَ والدَّرَنْ.

اعلم أيُّها المسلم؛ أنّ أعظم نِعم الله –عزَّ وجلَّ– عليك: أن يرزقك علمًا، ما عَمَلُه؟ يزيل الشك عنك، فتندفع عنك الشبهات، وتَسلَم منها، وترتفع أن تَسلَّلت إلى القلب، وتَضعف بهذا العلم عليك الشهوات، فتكون مستقيمًا على دين الله –عزَّ وجلَّ–، ولن تُحصِّل هذه النعمة إلا بلزوم رِكاب العلماء الربانيين، وأن تَثني ركبتيك عند العلماء الربانيين. وهذا منهج السلف الصالح –رضوان الله عليهم–. فإن لم تجد عالمًا، فابتعد عن الفتن وأهلها، وعليك بقراءة القرآن، وكثرة الدعاء أن يُسلِّمك الله من الفتن وأهلها.

[التاسعة: أنّ العلماء أجابوه بما يزيل الشبهة، وذلك أنهم نسبوا الكلام إلى رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فقط]

أنّ العلماء أجابوه بما يزيل الشبهة، وهذه وظيفة العالم؛ أن يجيب بما يحقِّق المقصود، لا بما يَعكِس المقصود، وأعظم الجواب من كتاب الله –عزَّ

وجلَّ–، ومن سُنَّة رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، ثم بأفهام العلماء الربانيين من الكتاب والسُنَّة.

وهكذا فعل الصحابة –رضوان الله عليهم–، فإنهم أجابوا ابن الديلمي بكلامٍ يَطيب به القلب، وتزول به الشبهة، وتبيَّن أنّ هذا الكلام من كلام رسول الله –صلى الله عليه وسلم–؛ حيث رفعه زيد بن ثابت إلى رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، و إن لم يَثبُت بالنَّص أنهم جميعًا رفعوه، لكن لمّا رَفَعَه زيد بن ثابت وكان مطابقًا لكلامهم حرفًا بحرف؛ غلب على ظننا أنّ كل واحدٍ منهم إنَّما أخذ ذلك عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، لكن لعلهم عَلِموه بواسطة زيد بن ثابت، فأرادوا أن يسمعه الرجل من زيد بن ثابت، الذي رواه عن رسول الله، وسَمِعه من رسول الله –صلى الله عليه وسلم–.

وهكذا يا عبد الله؛ إذا أردتَ الشفاء من جميع الأمراض المعنوية، فعليك بمَن يَلزَم كتاب الله، وسنة رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، وإيَّاك ومَن يُحكِّم عقله في المنقول، ويزخرف العبارات، ويدغدغ العواطف، فإنّ الغالب أنه لا يزيد القلب إلا ظلمة، ويُضعِف التديُّن، وما اقترب أحدٌ من هؤلاء؛ إلا رقَّ دينه، وضعف تديُّنه، وعظمت عليه الشبهات في الحق وأهله. وإنما الذين يُقترَب منهم: الذين عظَّموا القرآن وعَلِموا ما فيه، عظَّموا سُنَّة النبي –صلى الله عليه

وسلم- وفهموها، ولزموا ما في الكتاب والسُنَّة وما عليه سلف الأمَّة -رضوان الله عليهم-.

تابع الدرس السبعون: شرح باب: ما جاء في المصوِّرين

[باب: ما جاء في المصوِّرين]

لمّا كان التصوير خطوةٌ من خطوات الشيطان التي أوقَع بني آدم بها في الشرك كما تقدم معنا؛ عَقَدَ الشيخ هذا الباب، فإنّ في منع تصوير ذوات الأرواح سدًّا لذريعة الشرك، ولا شك أنّ الشرع جاء بسد الذرائع إلى الشرك.

كما أنّ في التصوير سوء أدبٍ مع الله –عزَّ وجلَّ–، فهو ينافي كمال التوحيد الواجب؛ وذلك: أنّ ربنا –سبحانه وتعالى– هو المصوِّر، فالمصوِّر اسمه، والتصوير فِعْله، فهو سبحانه قد صوّر المخلوقات، وأبدع صُوَرها، فالمصوِّر من الخَلق يُشابه الله في هذا، ويسعى في هذا، وفي هذا إساءة أدبٍ مع الله، وهذا ينافي كمال التوحيد الواجب؛ ولذا عقد الشيخ هذا الباب في كتاب التوحيد؛ فقال: (باب: ما جاء في المصوِّرين) أي: باب ما جاء في المصوِّرين من الوعيد والعقوبة.

فلو أنّ سائلًا سألنا: ما علاقة التصوير بالتوحيد؟ لماذا يعقد الشيخ بابًا في كتاب التوحيد عن التصوير؟ قلنا: العلاقة من وجهين:

الوجه الأوّل: أنّ المستقر المعلوم أنّ إبليس قاد بني آدم إلى الشرك بخطوات، ومن أهم هذه الخطوات وأعظم هذه الخطوات: أنهم أمرهم بالتصوير، بتصوير الصالحين، فلمّا كان ذلك كذلك؛ كان في مَنْعِ التصوير سدٌّ لذرائع الشرك؛ فناسب كتاب التوحيد.

والوجه الثاني: أنّ في تصوير المخلوق لذوات الأرواح إساءة أدب مع الله وتعدٍّ، وهذا ينافي كمال التوحيد الواجب؛ فناسَب ذِكْرُ هذا الباب في كتاب التوحيد.

والتصوير على قسمين:

القسم الأوّل: تصوير ذوات الأرواح؛ كالإنسان والحيوان.

والقسم الثاني: تصوير غير ذوات الأرواح، كالبيوت، والسيارات، والحبوب، والأشجار، ونحو ذلك.

-**أمَّا القسم الأوّل**: وهو تصوير ذوات الأرواح، فهو على أربعة أنواع:

النوع الأوّل: التصوير بالتماثيل، التي يُعبِّر عنها أهل العلم: بما له ظل، أي: أنّ له جسمًا وله ظل، فهو يقوم ويكون له ظل؛ كالتمثيل، والأصنام، وصور الحيوانات المجسَّمة، وهذا قد اتَّفق العلماء على تحريمه، وأنه من كبائر الذنوب.

والنوع الثاني: ما لا ظل له؛ بل هو رقمٌ وصورة توضَع على ورقة أو ثوب أو فراش أو نحو ذلك، وهو من عَمَلِ اليد، يعني: بيد الإنسان، يأتي ويأخذ قلمًا ويرسم صورة الوجه ويرسم الرأس، ويرسم الرقبة، ويرسم الجسم. وهذا ذهب أكثر العلماء إلى تحريمه، وذهب بعض التابعين وقلَّة من العلماء إلى إجازته. والراجح -والله أعلم- أنه حرام؛ وذلك:

أوّلًا: لعموم النصوص التي معنا، فإنها تشمله.

ثانيًا: لأحاديث خاصّة، منها:

- حديث عائشة –رضي الله عنها–، فإنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– دخل عليها وفي البيت قِرامٌ فيه صُوَر، فتلوَّن وجهه –صلى الله عليه وسلم–، ثم هتك السِّترَ؛ وقال: «إنّ مِن أشَدِّ الناسِ عذابًا الذينَ يُصَوِّرونَ هذه الصُّوَرَ» وهذا الحديث في الصحيحين. والقِرَام: هو ثوبٌ غليظ من صوف، يُجعَل سِترًا على الباب، ويُجعَل فِراشًا، والغالب أنه ملوَّن وفيه نقوش، فهنا لا شك أنّ الصورة التي كانت في القِرَام ليست تمثالًا، وإنَّما صورة مصوَّرة، ومع ذلك تلوّن وجه النبي –صلى الله عليه وسلم– وغضب، ثم أخذ السِّتر هذا وهَتَكَهُ، وقال هذه المقولة: «إنّ مِن أشَدِّ الناسِ عذابًا الذينَ يُصَوِّرونَ هذه الصُّوَرَ»، هذه الصور رُسمت باليد وليس لها ظل، ليست تماثيل، فدلَّ هذا دلالةً واضحةً بيِّنة على حُرْمة هذه الصور.

- وأيضًا ما جاء عن أسامة بن زيد –رضي الله عنهما–، قال: دخلتُ على رسول الله –صلى الله عليه وسلم– في الكعبة، ورأى صورًا فدعا بدلوٍ من ماء، فأتيته به، فجعل يمحوها، ويقول: «قاتل الله قومًا يصوِّرون ما لا يَخلقون». أسامة بن زيد –رضي الله عنه– يقول: دخلت على رسول الله –صلى الله عليه وسلم– الكعبة لمّا دخل الكعبة –صلى الله عليه وسلم–، وقد رأى النبي –صلى

الله عليه وسلم– صورًا، فدعا بدلوٍ من ماء، طلب من أسامة –رضي الله عنه– أن يأتيه بدلوٍ من ماء، فجاءه أسامة بالدلو، فأخذ الماء وأخذ يمحو هذه الصور؛ يغسلها عن الكعبة، وقال: «قاتل الله قومًا يصوِّرون ما لا يَخلقون» رواه أبو داود الطيالسي، وابن أبي شيبة، وقال الألباني: الحديث بمجموع طريقَيه ثابت. وهذا يدل على أنّ هذه الصور لم تكن أصنامًا ولا تماثيل، وإنَّما مرسومة رسمًا على جدار الكعبة؛ ولذلك النبي –صلى الله عليه وسلم– دعا بماء وأخذ يمحوها، يغسلها، لو كانت تماثيل ما كان الماء يفيد فيها، فعَلِمنا بذلك أنها الصور المرسومة باليد، التي ليس لها ظل، وقال –صلى الله عليه وسلم– هذه المقولة: «قاتل الله قومًا يصوِّرون ما لا يَخلقون»، يعني: يصوِّرون ما لا يستطيعون خَلقه، ولا خَلق أقلّ منه، فدلّ هذا على أنّ هذا من كبائر الذنوب.

فهذه أدلةٌ واضحةٌ بيِّنة على حُرْمة تصوير ذوات الأرواح باليد، لا يقابلها دليلٌ واضحٌ بيِّن.

والنوع الثالث: التصوير بالآلة؛ كالكاميرا والجوال، صورةً ثابتة، وهذه قد اختلف فيها العلماء المعاصرون، لم تكن موجودةٌ عند المتقدِّمين، ولكنها وُجِدت في عصرنا، وقد اختلف فيها العلماء المعاصرون:

- **فذهب جماعاتٌ من العلماء**: إلى أنّ هذا التصوير حرام؛ لعموم النصوص، ولأنه تصويرٌ بالاتفاق.

- **وذهب بعض العلماء المعاصرين**: إلى جواز هذا التصوير، واستدلوا بأدلةٍ منها:

أوّلًا: إنّ هذا ليس من فِعْلِ الإنسان، وإنَّما هو من فِعْلِ الآلة، الإنسان ما صوّر شيئًا، الذي صوّر هو الآلة.

ويجاب عن هذا: بأنّ الآلة جماد، لا يُنسَب إليها الفِعْل، وإنما يُنسَب الفعل إلى الإنسان، وكلنا –نحن وأنتم– نقول: هذا مصوِّر، هذا الذي يضغط زر الكاميرا، كلنا نقول: هذا مصوِّر، ففي مثل هذا يضاف الفِعل إلى المتسبِّب لا إلى المباشر، نعم المباشِر الآلة طَبَعَت، لكن هنا يدخل في قول الفقهاء: يضاف الفعل إلى المتسبِّب لا إلى المباشِر، والمتسبِّب هنا هو هذا الإنسان الذي ضغط هذا الزر فحصل التصوير.

والدليل الثاني لهم –وهو أقوى ما احتجُّوا به–: قالوا: إنّ هذه الصورة إنما حَبْسُ ظل الإنسان، فهي كالنظر في المرآة والماء، يقولون: أليس الإنسان إذا نظر في المرآة تظهر صورته في المرآة وتنطبع كما هي؟ أليس إذا نظر في الماء الصافي يرى صورته؟ وهذا جائزٌ بالاتفاق، أعني النظر في المرآة والنظر في الماء، قالوا: فكذا التصوير بالكاميرا والآلات جائز.

ويجاب عن هذا: بالفرق بين الكاميرا والمرآة أو الماء من وجهين:

الوجه الأوّل: أنّ الحبس في المرآة وفي الماء حبسٌ عارِض لا يبقى. أمَّا الحبس في الآلة فهو حبسٌ دائم يبقى ويُقتَنى، فبينهما فرقٌ بيِّن.

الوجه الثاني: أنّ ما في المرآة هو الحقيقة الواقعة كما هي، فالإنسان وهو ينظر في المرآة إذا ابتسم ظهرت ابتسامته، إذا رفع يده ارتفعت، إذا التفت ظهر التفاته، أمَّا في الصورة فلا يمكن، وإنَّما هي صورة جامدة، ليست هي الحقيقة. ففرقٌ واضحٌ بيَّن بين الأمرين.

ولذا؛ يظهر –والله أعلم–: أنّ التصوير بالآلات الصورة الثابتة حرامٌ بيَّن، وليس من المشتبهات؛ بل من الحرام البيَّن، ولا يجوز منه إلا ما دعت إليه الضرورة، والحاجة الحاقة.

الضرورة؛ مثل: إنسان مريض ويحتاج عملية، وقالوا: ما تدخل المستشفى إلا بصورة، احضر لنا صورة وإلا ما تدخل المستشفى! هذه ضرورة.

أو حاجة حاقة؛ مثل: البطاقة، ورخصة القيادة، وجواز السفر، وما يطلب في المدارس، وكذلك فيما يظهر لي –والله أعلم– ما يحتاج إلى توثيق ويُطلَب؛ كبعض الأعمال الخيرية التي تحتاج إلى توثيق أو نحو ذلك، فهذا مستثنى، ونَصَّ العلماء على جوازه.

طيِّب؛ لو طُلِب من الإنسان صورة، وأعطاه المصوِّر ست صور، ماذا يفعل في الخمس الباقي؟

من أهل العلم من قال: يحفظها؛ لأنّ الغالب أنه يحتاج إليها، فحتى لا يقع التصوير مرّة أخرى يحفظها حتى يدفعها عند الحاجة، وحتى لا يكون في ذلك إضاعة للمال.

وقال بعض أهل العلم: بل يُتلفها؛ لأنّ الحاجة قد سُدَّت؛ فلا حاجة إلى هذه الصور.

وأنا أرى –والله أعلم–: الأول؛ أنه يبقيها، يحفظها في شيء، لا يبقيها مكشوفةً، ولا يعلِّقها، ولا ينظر فيها كل يوم ويومين، وإنما يحفظها في شيء، فإذا احتاج إلى ذلك، ما يحتاج إلى أن يعيد التصوير ويفعل التصوير مرةً أخرى؛ بل يدفع هذه الصورة، والغالب أنه يحتاج إليها.

والنوع الرابع: التصوير بالآلات تصويرًا متحرِّكًا ليس ثابتًا، وهذا على ناحيتين:

الناحية الأولى: التصوير المباشر؛ مثل هذه الكاميرات في مسجد النبي –صلى الله عليه وسلم–، فإنها تَنقُل نقلًا مباشرًا، وهذا جائزٌ لا حرج فيه؛ لأنه نَقْلٌ للواقع كما هو، كما لو وضعتَ مرآةً تعكس بها الناس وما يفعلون.

طبعًا أهل العلم يمنع حتى هذا، لكنه أخفّ من الثاني.

الناحية الثانية: التصوير غير المباشر المتحرِّك، فهذا قد اختلف فيه العلماء:

- **فمن أهل العلم مَن يراه تصويرًا**، ويراه محرَّمًا، ولا يرخِّص فيه حتى في باب الدعوة إلى الله –عزَّ وجلَّ–، ويقول: نحن في غنى عنه بالوسائل الأخرى.

- **ومن أهل العلم مَن يحرِّمه**، غير أنه يرخِّص فيه في الدعوة ونحوها، كنقل المحاضرات الطيبة، والدروس، والخطب.

وهذا الذي استقرّ عليه شيخنا الشيخ ابن باز –رحمه الله–، فإنه في الأوّل كان يرى أنه تصويرٌ محرَّم، لكن مَن خرج من المشايخ في التليفزيون بنية نشر الخير أنهم يؤجَرون على نيتهم، لكن الشيخ ما كان يظهر، وفي آخر حياته –رحمه الله– رأى أنّ جوازه أولى من جواز الصورة للجواز والشهادة، فأذِنَ بإحضار الكاميرات في المحاضرات التي كان يعلِّق عليها، وظهرت له بعض المحاضرات في هذا.

- **ومن أهل العلم من رأى أنه ليس من التصوير**، وأنه جائز، وقالوا: هذا الذي يشبه المرآة حقيقةً؛ لأنّ التصوير في هذه الآلات المتحرِّكة يَنقل الحقيقة كما هي، المتكلم ما يأتي صامتًا، يأتي متكلِّمًا، الضاحك فيها ما يأتي صامتًا، يأتي ضاحكًا، وهكذا.

وعندي –إن كان يحقُّ لي أن أقول: عندي– أنّ الراجح –والله أعلم– من أقوال أهل العلم: أنّ تصوير الفيديو من المشتبهات، ليس من الحلال البيِّن ولا من الحرام البيِّن، هناك ما يدعو إلى منعه؛ وأنه صورة، وهناك ما يَدفع هذا،

فحقيقٌ بالمؤمن أن يَبتعد عنه، فهو أبرأ لدينه ولعِرضه؛ حتى لا يُتّهم، إلا إذا ظهرت في ذلك مصلحة؛ مثلًا كما قلنا: المحاضرات والدروس.

ومما أفتي به في هذا الشأن؛ لو أنّ المسلم غاب عن والديه فترةً طويلة، وطلب والداه أن يرياه، فلم يستطع أن يسافر إليهما بأسرته وأولاده، أنه لا حرج أن يَستعمل برامج النقل المباشر، التي تَنقل الصورة مباشرة؛ حتى تراه أمُّه، وترى أولاده، ونحو ذلك، وإن لم يَتيسَّر النقل المباشر فلا بأس من تصوير الفيديو وإرساله؛ لأنّ هذه حاجة ظاهرة، والمصلحة فيها فيما يظهر لي -والله أعلم- ظاهرة.

هذا القسم الأوّل، أنا طرحته علميًّا، وذكرتُ كلام أهل العلم، لك أن توافقني فيما أرى وأُرجِّح، ولك أن تختار قولًا آخر، فالأمر واسع، لكن كل شيءٍ إنما يُبنى على الدليل والقاعدة.

- **القسم الثاني**: ما لا روح فيه. وهذا يتنوَّع عند أهل العلم إلى ثلاثة أنواع:

النوع الأوّل: ما هو من صنع الإنسان نفسه، مثل السيارة مَن الذي صنعها؟ إنسان، البيت مَن الذي أقامه؟ إنسان، فهذا يجوز تصويره، يجوز للإنسان أن يصوِّر سيارته، ويجوز للإنسان أن يصوِّر بيته، ويجوز للإنسان أن يصوِّر ثوبه؛ لأنه إذا جاز الأصل جازت الصورة.

والنوع الثاني: ما ليس من صنع الإنسان ولا ينمو؛ مثل الجبال، والأنهار، ونحو ذلك، فهذه أيضًا يجوز تصويرها ولا حرج في هذا.

النوع الثالث: ما ليس من صنع الإنسان وينمو؛ كالحبوب، والأشجار، والأزهار، وهذه قد اختلف فيها العلماء:

- فذهب الأكثر إلى جواز تصويرها، إذ لا مانع.

- وذهب بعض أهل العلم إلى منع تصويرها، وقالوا: إنها تدخل في خلقٍ كخلق الله؛ ولأنه جاء في الحديث القدسي –الذي سيأتي معنا–:«فليَخلقوا ذَرّةً» هذا من ذوات الأرواح، «أو ليخلقوا حبةً» وهذه الحبة تنمو إذا غُرِست في الأرض يخرج منها نبات.

لكن الذي يظهر –والله أعلم– أنه يجوز، فإنّ ابن عباس –رضي الله عنهما–، لمّا جاءه الرجل وذكر له أنّ مهنته التصوير، وأفتاه بحرمة تصوير ذوات الأرواح، كأنّ الرجل تغيَّر وجهه، فقال له ابن عباسٍ –رضي الله عنهما–: "إن كنتَ لا بُدَّ فاعلًا؛ فاصنع الشجر وما لا نفس له"، وهذا في الصحيحين، فهذا دلّ على جواز تصوير الشجر، وهو ينمو، وجواز تصوير ما لا نفس له، ما لا روح له، وهذا الأظهر –والله أعلم– والأرجح.

[عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: «قال الله تعالى: ومَن أظلم ممَّن ذهب يخلق كخلقي، فليخلقوا ذرة، أو ليخلقوا حبة، أو ليخلقوا شعيرة». أخرجاه]

هذا الحديث الصحيح عند البخاري ومسلم، حديثٌ قدسي، ويسمِّيه بعض أهل العلم: بالحديث الإلهي، ويسميه بعض أهل العلم: بالحديث الرباني، وهو ما رواه النبي –صلى الله عليه وسلم– عن ربه. والمعلوم أنّ ما جاء به النبي –صلى الله عليه وسلم– وما نطق به النبي –صلى الله عليه وسلم– وحيٌ؛ إلا ما دل الدليل على أنه اجتهادٌ منه، قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾[النجم:٣-٤].

وما جاء به النبي –صلى الله عليه وسلم– على ثلاثة أقسام:

١. **القرآن**: وهو كلام الله –سبحانه وتعالى–، فلفظه ومعناه من الله –عزَّ وجلَّ–.

٢. **والحديث النبوي**: وهو ما روي عن النبي –صلى الله عليه وسلم–، فمنتهاه النبي –صلى الله عليه وسلم–، فمعناه من الله، وحي، ولفظه من النبي –صلى الله عليه وسلم–.

٣. **الحديث القدسي**: وهو ما رواه النبي –صلى الله عليه وسلم– عن ربه، وقد اختلف العلماء في لفظه؛ هل هو من الله أو من النبي –صلى الله عليه وسلم– ؟

فمن العلماء من قال: لفظه من النبي –صلى الله عليه وسلم–، بدليل أنه يجوز أن يروى بالمعنى، وذكروا أمورًا، ليس هذا مقام التفصيل.

ومن العلماء من قال: لفظه من الله بدليل أنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– يقول: «قال الله»، وتأتي فيه ألفاظٌ لا يمكن أن تكون إلا من الله، كالحديث الذي معنا هنا: «يخلق كخَلقي»، «إني حرَّمت الظلم على نفسي».

وقال بعض أهل العلم: نسكت، نَعلَم أنه وحي وأنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– يرويه عن ربه، ولا نقول: هل لفظه من الله، أو لفظه من النبي –صلى الله عليه وسلم–؟

والأقرب للتحقيق عندي –والله أعلم– أنّ لفظه ومعناه من الله –عزَّ وجلَّ– ، وهذا الذي قرَّرته لكم في شرح (صحيح الترغيب والترهيب) في مقدَّمِهِ، فهذا أقرب الأقوال عندي –والله أعلم–: أنّ لفظه ومعناه من الله.

(عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: «قال الله تعالى: ومَن أظلم»، "من" هنا استفهامية؛ يراد بها النفي، فالمعنى: لا

أحد أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي؛ أي: ممّن صوَّر الصور؛ وإلا فلا يستطيع أحد أن يَخلق كخلق الله، لكن صوَّر فكان كأنه يَخلق كخلق الله.

طيِّب هنا إشكال؛ الله –عزَّ وجلَّ– قال فيما رواه النبي –صلى الله عليه وسلم–: «من أظلم ممَّن ذهب يَخلق كخلقي»، أي: لا أحد أظلم منه، طيِّب هناك مَن يشاركه في الظلم؛ بل يفوقه في الظلم!

قال بعض أهل العلم: المعنى: أنه في أعلى الظلم، ولا يعني هذا أنه لا يشاركه غيره ولا يعلو عليه غيره، لكن كلهم في القمة، يشتركون في أعلى الظلم، ثم يتفاوتون في هذا.

وقال بعض أهل العلم: المعنى: لا أحد أظلم منه إذا تعمَّد أن يُشابِه الله، وأراد أن يُشابِهَ الله بهذا التصوير، أو صوَّر صورةً لتُعبَد من دون الله، لأنه إذا تعمّد أن يُشابِه الله وقصد أن يُشابِه الله فإنه يكفر، وإذا قصد بإنشاء الصورة أن تُعبد من دون الله فإنه يَكفُر، وما دام ذلك كذلك فإنه لا أظلم منه ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[لقمان:١٣].

وقال بعض أهل العلم: المعنى لا أحد أظلم منه في باب المضاهاة، فهذا أمر نسبي، في باب كذا هذا أعلى الناس ظلمًا، في باب كذا هذا أعلى الناس ظلمًا، في باب كذا هذا أعلى الناس ظلمًا، ففي باب المضاهاة هذا أعلى الناس ظلمًا.

والأقرب عندي –والله أعلم–: الأوّل؛ أنه في أعلى مراتب الظلم.

«فليخلقوا ذرةً» هذا أمر تعجيز وإبطال. «ذرةً»، ما هي الذرة؟ الذرة: هي النملة الصغير، النملة الصغيرة جدًّا تسمى ذرة، ولا زال إلى اليوم الناس يسمُّونها ذرة، ويسمُّونها الذَّر. وبعض المتنطعين قالوا: الذرة هذه التي في القنبلة النووية، وهذا ما يأتي به النبي –صلى الله عليه وسلم–، فإنه يخاطب الصحابة –رضوان الله عليهم– بما يفهمون.

«فليَخلقوا ذرةً»، أنت أيُّها المصوِّر أنت بالتصوير تذهب كأنك تَخلق كخلق الله، تعال هل تستطيع أن تخلق أصغر حيوان فيه روح؟ لا يستطيع، يقينًا، وما دام أنه لا يستطيع فلا يجوز له أن يصوِّر، إبطال للتصوير.

«أو ليخلقوا حبةً»، طيِّب صَعُبَ عليك أن تَخلق الذرة لأنّ فيها تركيبًا بديعًا وفيها روح، تعال اخلق حبة، ذُرة، أُرْز، اخلق حبة، لا يستطيع، إذن كيف تذهب وتخلق كخلق الله في التصوير.

«أو ليخلقوا شعيرةً»، معنى شعيرة:

بعض أهل العلم قال: الشعيرة هنا هي: النبات، نبتة الشعير.

وبعض أهل العلم قال: لا، هي حبة الشعير، فيكون من باب ذكر الخاص بعد العام.

وهذا كما قلنا: أمر تعجيزٍ وإبطال.

فما دام أنك أيُّها المخلوق لا تستطيع أن تَخلق شيئًا صغيرًا، فكيف تجرؤ على أن تصوِّر وتَخلق كخَلق الله –سبحانه وتعالى–؟!

فدلّ ذلك على حُرمة التصوير حرمةً عظيمة، وأنه من كبائر الذنوب.

[ولهما عن عائشة –رضي الله عنها–، أنّ رسول الله –صلى الله عليه وعلى آله وسلم– قال: «أشدُّ الناس عذابًا يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله»]

هذا حديث عائشة –رضي الله عنهما– عنها وعن أبيها، أنّ رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال: «أشدُّ الناس عذابًا يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله» أي: الذين يشابهون بخلق الله؛ وذلك بالتصوير.

وجاء عن ابن مسعودٍ –رضي الله عنهما– قال: سمعت النبي –صلى الله عليه وسلم– يقول: «إن أشد الناس عذابًا يوم القيامة المصوِّرون» متفقٌ عليه. فهذا الحديث عن ابن مسعود يفسِّر جملة « الذين يضاهئون بخلق الله» في حديث عائشة –رضي الله عنها–، وأنّ المراد بهم: هم المصوِّرون.

وهذا يدلُّ على أنّ التصوير من كبائر الذنوب، «وأشد الناس عذابًا يوم القيامة» هذا من نصوص الوعيد يُمَرُّ كما جاء، وهو أنه في أشد العذاب يوم القيامة، المصوِّر متوعَّد بأشد العذاب يوم القيامة.

[ولهما عن ابن عباس –رضي الله عنهما– قال: سمعت رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يقول: «كل مصوَّرٍ في النار، يجعل له بكل صورة صوَّرها نفسٌ يعذَّب بها في جهنم»]

نعم، جاء رجلٌ إلى ابن عباس –رضي الله عنهما–، فقال: إني رجلًا أصوِّر هذه الصور، وجاء في رواية عند البخاري: أنها مهنته، يَتعيَّش بها، فأفتني فيها؟ فقال ابن عباسٍ –رضي الله عنهما–: (أُدْنو مني، فدنا منه، ثم قال له: أُدْنو مني، فدنا منه، حتى وصل إليه، فوضع يده على رأسه) وضع ابن عباس –رضي الله عنهما– يده على رأسه، وهذا من حُسن صنيع ابن عباس –رضي الله عنهما– في الفتوى؛ لأنّ هذا الرجل سأل عن أمرٍ يحبه، فالنفس متعلِّقة به، فجعله يقترب منه، وهذا تلطُّف يقرِّب نفسه إليه، يقرِّب المستفتي إلى المفتي، ثم قال له –رضي الله عنه–: (أُنْبِئك بما سمعتُ من رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، سمعت رسول الله –صلي الله عليه وسلم– يقول: «كل مصوِّرٍ في النار، يجعل له بكل صورة صوَّرها نفسًا يُعذَّب بها في جهنَّم». «كل مصورٍ في النار»، هذه جملة، خبر، «كل مصورٍ في النار» متوعَّد بدخول النار، وإذا دخل في النار فإنّ من عذابه أنّ الله «يجعل له بكل صورةٍ صوَّرها نفسًا» هذه النفس تعذِّبه في النار، وظاهر هذا أنه حتى تَفْرُغ الصور التي صوَّرها، يكون في النار حتى تَفْرَغ الصور وتنتهي، والله أعلم بأمد هذا، فيجعل الله له بكل صورة، كم صوَّر في حياته ومات ولم

يتب؟ صوَّر عشرة آلاف صورة؟ بكل صورة يجعل الله له نفسًا في النار تعذِّبه، حتى تَفْرَغ الصور، نعوذ بالله من عذاب الله، (فتغير وجه الرجل، فقال ابن عباس –رضي الله عنهما–: إن كنت لا بُدَّ فاعلًا، فاصنع الشجر وما لا نفس له)، هذا الحديث بلفظه رواه مسلم، ورواه البخاري بمعناه، فهو متفقٌ عليه في الجملة، وإن كان هذا اللفظ الواضح البيِّن إنَّما هو في صحيح مسلم.

فهذا يدل على حُرمة التصوير، ثم الْحَظ قول النبي –صلى الله عليه وسلم–: «كل مصوِّرٍ في النار» ما الذي يؤمِّن الذي يصوِّر بالكاميرا أن يكون داخلًا في هذا؟! والنبي –صلى الله عليه وسلم– عربيٌ فصيح يستخدم (كل) التي تدل على العموم، ومن أعظم ألفاظ العموم «كل مصور»، يا أخي! وأنت تصوِّر أطفالك تريد أن تفرح بهم وتراهم؛ تذكَّر هذا الحديث: «كل مصوِّرٍ في النار، يجعل الله له بكل صورٍ صورها نفسًا يعذَّب بها في جهنم»، صورة أطفالك هذه –أسأل الله عزَّ وجلَّ ألَّا يُدخلنا النار– تُجعَل نفسًا تعذَّب بها في جهنم، ماذا استفدت؟ ما الفائدة العظمى التي ترجع إليك من هذا التصوير حتى تُعرِّض نفسك لتدخل في هذا الوعيد؟ لا تقل: أنا أرى الجواز، ما الذي يؤمِّنك من هذا اللفظ العام في كلام النبي –صلى الله عليه وسلم–؟ ما الذي يؤمنك والنبي –صلى الله عليه وسلم– يقول: «كل مصورٍ في النار»؟! ولذلك؛ المؤمن الحريص

على نفسه ما يصوِّر، ولا يُبقي الصور. وسيأتي –إن شاء الله– ما يتعلق بالتصوير والصور، ولعلنا نقف هنا.

الدرس الواحد والسبعون: تابع شرح باب: ما جاء في المصوِّرين

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، مَن يهدِ الله فلا مضل له، ومَن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[آل عمران:١٠٢]

﴿يا أَيُّهَا النّاسُ اتّقوا رَبَّكُمُ الَّذي خَلَقَكُم مِن نَفسٍ واحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنها زَوجَها وَبَثَّ مِنهُما رِجالًا كَثيرًا وَنِساءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذي تَساءَلونَ بِهِ وَالأَرحامَ إِنَّ اللهَ كانَ عَلَيكُم رَقيبًا﴾[النساء:١]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[الأحزاب:٧٠-٧١]

أمّا بعد، فإنّ خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد –صلى الله عليه وسلم–، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدَثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

ثم يا معاشر الفضلاء؛ نواصل شرحنا لكتاب التوحيد الذي هو حقُّ الله على العبيد، نتفقّه في أعظم الحقوقِ، وأعلاها، وأجلاها، وفي أعظمِ الفرائض

وأوّلها؛ في حق ربنا سبحانه وتعالى، وقد كان الكلامُ في المجلس السابق قد وقف بنا في بابِ ما جاء في المصوِّرين.

وقد بيَّنا أنّ التصويرَ له علاقةٌ بالتوحيدِ من جهتين:

أمّا الجهةُ الأولى: فهي أنّ التصويرَ هو أكبرُ الخطوات التي قاد بها إبليسُ بني آدم إلى الشرك بالله عز وجلَّ، فكان في تحريم التصويرِ والتشديدِ فيه سدٌّ لذرائع الشرك في هذه الأمّة، ومن أعظمِ ما جاءت به الشريعة في سدِّ الذرائع سدُّ الذرائع المفضية إلى الشرك.

وأمّا الجهة الثانية: فهي أنّ في التصويرِ سوءَ أدبٍ مع ربنا سبحانه وتعالى، فإنّ المصوِّر يُنازِع الله عز وجلَّ في اسمه وفي فعله، فإنّ الله هو المصوِّر؛ المصوّرُ اسمه، والتصويرُ فعله، كما أنه يُضاهي خَلق الله سبحانه وتعالى، وهو أَعْجَز من أن يَخلقَ شيئًا ولو كان صغيرًا. فكان التصويرُ ينافي كمال التوحيد الواجب.

ولذا؛ عَقَدَ المصنِّف –رحمه الله– هذا الباب في كتاب التوحيد، ونُكمِل اليوم –إن شاء الله– ما ذكره الشيخ في هذا الباب، ثم ننتقلُ إلى الباب الذي يليه. فيتفضل الشيخ الدكتور ياسين يقرأُ لنا من حيثُ وقفنا.

[ولهما عنه مرفوعًا: «مَن صوَّر صورة في الدنيا كُلِّف أن يَنفخ فيها الروح، وليس بنافخ»]

لا زال المصنِّف –رحمه الله– يورِدُ الأحاديثَ الصحيحةَ الصريحةَ في ذَمِّ المصوِّرين، والوعيدِ لهم. وقد تقدَّم معنا أنه لا أحدَ أظلمُ من المصوِّرين، فهم في قمةِ الظلم، وفي أعلى درجات الظلم بفعلهم هذا، كما تقدَّمَ أنّ أشدَّ الناس عذابًا يوم القيامة المصوِّرون، فلهم –والعياذُ بالله– يوم القيامة العذابُ الشديد. وأنّ المصوِّرَ في النار، وأنه يُجعَلُ له بكل صورةٍ صوَّرها في الدنيا نفسٌ تعذِّبه في جهنم، والعياذُ بالله.

وهنا يورِدُ الشيخ –رحمه الله عز وجلَّ– هذا الحديثَ في الصحيحين عن البخاري ومسلم، عن ابن عباس –رضي الله عنهما–، يرفعه إلى النبي –صلى الله عليه وسلم–؛ أي: أنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: «مَن صوّر صورة في الدنيا»، "صورة" نكرة في سياق الشرط، فتعمُّ كلَ صورة، كلّ ما سُمِّى صورةً في الدنيا؛ سواءً كان تمثالًا له ظل، أو كان برسم اليد على ثوبٍ أو ورقة، أو كان برقمِ الآلات، والكاميرات، ونحو ذلك، فإنها كلها تدخلُ في هذا اللفظ: «من صوّر صورة في الدنيا». «كُلِّف أن يَنفخ فيها الروح، وليس بنافخ» كُلِّف يوم القيامة أن يَنفخ في الصورة التي صوَّرها الروحَ، وأُلزِم بهذا، ولن يستطيع مهما بَذل، فإنه ليس بنافخ، وبمقدار ما يُصوِّر يكونُ له هذا العذاب يوم القيامة، والعياذُ بالله.

وإذا تأمَّلتَ رعاك الله؛ فإنك تجدُ أنّ هذه النصوص المتقدِّمة إنما وردت في المصوِّرين؛ أي: أنها متعلقةٌ بالفعلِ الذي هو التصوير، ولم تُعلَّق بالصورة.

ويدخلُ في هذا الوعيد وفي هذا الفعل الذي هو التصوير ثلاثة:

أمّا أوّلهم: فهو المصوِّر نفسه، الذي يُصوِّر التمثالَ، أو يرسمُ ذوات الأرواح بالأقلام أو المراسيمِ أو الفحمِ، أو غير ذلك، أو بالآلات؛ كالكاميرات والجوالات الهواتف المتنقلة، وغير ذلك، فهذا يدخلُ في هذا الوعيد الشديد الوارد في هذه الأحاديث المتقدِّمة.

والثاني: الآمرُ بالتصوير، فمَن أمر غيره أن يصوِّره، أو يصوِّر غيره من ذوات الأرواح؛ كأطفاله، أو الناس، أو الحيوانات، فإنه داخلٌ في الوعيدِ، وهو مصوِّر؛ لأنّ الآمر بفعل الشيء كالفاعل له، والمتسبِّب في الشيء كالفاعل له.

وأمّا الثالث: فهو الراضي؛ الراضي أن يُصوَّرَ، يرى المصوِّر يصوِّره، هو لم يأمره ولكن يراه يصوِّر ويرضى، ولربما ابتسم له، فإنه يدخلُ في هذا الوعيد؛ لأنّ الراضي كالفاعل.

وهذا الوعيدُ –كما عَلِمتم مما تقدَّم– إنما يكونُ في التصوير المحرَّم. أمّا إذا كان التصويرُ لحاجة –كما تقدَّم معنا– فإنّ الثلاثةَ لا يدخلون في الوعيد. وكذلك إذا كان التصويرُ لغير ذوات الأرواح، فإنّ المصوِّر لا يدخلُ في الوعيد.

وعليه؛ فلو أنّ الإنسانَ صُوِّر صورةً، وأُحضرت له، صوره المصوِّر، هو لم يأمره، ولم يرضَ بأن يُصوَّر، لكن صُوِّر، ثم أُحضرت له الصورة، ونظرها، ولم يُمزِّقها، أو نحو ذلك، فإنه لا يدخلُ في هذا الوعيد؛ لأنه ليس مصوِّرًا بأيِّ وجهٍ من الوجوه، لكن هل فعله جائز؟ الجواب: لا، فِعْلُه حرام.

والشيخ –رحمه الله– من فقهه بعد أن أورَد نصوصَ الوعيد في التصوير الذي يشمل الثلاثة الذين ذكرناهم؛ ذكر حديثًا في الصورة، ماذا يُفعلُ بها؟

[ولمسلمٍ عن أبي الهيَّاج قال: قال لي عليّ –رضي الله عنه–: «ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ ألا تدع صورة إلا طمستها، ولا قبراً مشرِفـًا إلا سوَّيته»]

(ولمسلمٍ عن أبي الهياج قال: قال لي عليّ –رضي الله عنه– أمير المؤمنين: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله –صلى الله عليه وسلم–؟) عليٌ –رضي الله عنه– خليفة، فيقولُ له مُحفِّزًا ليَمتثل ويفعل ما يريد: (ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ ألا تدع) هذا تفسير لِمَا بعثه عليه رسولُ الله –صلى الله عليه وسلم–، (ألا تدع صورة إلا طمستها) ألا تدع صورةً إلا أزلتها، وهذا يدلُ على وجوبِ طمس الصور، وإزالتها، وعدمِ إبقائها وتركها؛ إلا إذا كانت على الوجه الذي ذكرناه، مما يُحتاجُ إليه، فتصوَّر الإنسان

وزادت بعضُ الصور، فيتركها؛ لأنه في الغالب ستُطلَبُ منه، وماعدا ذلك، فإنه يجبُ أن يُزالَ، وأن يُطمسَ.

إذا كان تمثالًا؛ فإنّ إزالته وطمسه يكونُ بتكسيره، وإن كُسِّر الرأس، فإنّ هذا يكفي، فإنه كما قال النبي –صلى الله عليه وسلم–: الصورة الرأس، فإذا أزيل الرأس، فإنّ هذا يكفي.

وإذا كانت مرقومةً مرسومةً أو مُصوَّرة، فإنّ إزالتها تكونُ؛ إمّا بتمزيقها، وإمّا بطمس الرأسِ، ولو بلونٍ يُذهِب الرأس بالكلية.

أمّا وضعُ فراغٍ بين الرأس والجسد، بأن تُترَك مساحة بيضاء بين الرأسِ والجسد؛ فهذا مبنيٌّ على خلاف أهل العلم في صورةِ الرأس فقط: هل هي حرام، أو ليست حرامًا؟

فمن العلماء من قال: إنّ صورة الرأس فقط دون الجسد ليست حرامًا؛ لأنّ الرأس فقط لا تحلُّه الروح، وقد أشعرتْ الأحاديث بأنّ المُحرَّم هو تصوير ما فيه روح، وأنه من عذاب المصوِّر يوم القيامة أنه يُكلَّف بأن ينفخ فيه الروح، والرأسُ لوحده ليس مما تحلُّه الروح.

وذهب بعضُ أهل العلم: إلى أنّ تصوير الرأس فقط حرام، وداخلٌ في التصوير المحرَّم، وذلك لأمرين:

الأمر الأوّل: أنه صحَّ عن النبي –صلى الله عليه وسلم– أنه قال: «الصورةُ الرأس»، فجعل الرأسَ كأنه الصورة كلها، وهذا يدلُّ على حُرمة تصوير الرأس.

والأمر الثاني: أنّ الرأسَ يُعبِّر عن ذي الروح، يُعبِّر عن الإنسان، رأس الإنسان يعِّبر عن الإنسان، ورأسُ الشاة يعبِّر عن الشاة، فهو دالٌ على ذي الروح، فيكونُ حرامًا، وهذا عندي أظهر، والله أعلم.

وقلنا: إنّ وضع هذا الفراغ بين الرأسِ والجسد ينبني على هذه المسألة، لماذا؟ لأنه إذا وُضِع هذا الفراغ يكونُ الرأس منفرِدًا، وبقية الجسم منفرِدًا، فإذا أجزنا تصوير الاثنين كان هذا طمسًا، وإذا قلنا: إن تصوير الرأس بمفرده حرام، لم يكن هذا طمسًا، ولم يكن كافيًا لتحقيق المقصود.

أمّا الجسد بدون رأس؛ فهذا ليس من التصوير المحرَّم، هو يُشبِه الشجر، ويُشبِه ما لا نفس له.

ذكرنا أنه يُستثنى من الصورة التي يجب طمسها: الصور التي قد يحتاج إليها الإنسان، بل يَغلبُ على الظن غلبةً ظاهرة أنه يَحتاجُ إليها، وقد ذكرنا خلاف أهل العلم فيها في مجلسِ الأمس.

الأمر الثاني الذي يُستثنى من وجوب طمس الصور: ما تَعُمُّ به البلوى، ويَشق التحرُّزُ منه، ويَصعبُ على الإنسان طمسه؛ كهذه الصور التي ابتلينا بها في

هذا الزمان، في كثيرٍ مما نحتاج إليه، فهذا عمَّت بها البلوى، ويَصعب على الإنسان أن يَتتبَّعها.

فإذا أخذ جريدة مثلًا يتتبَّع الصورة ويطمسها، إذا اشترى حليبًا لابنه يتتبَّع العلبة ويطمس ما فيها من صور، هذا فيه مشقة زائدة لم تأتِ الشريعة بمثله، ومن أسباب التخفيف في الشريعة: العُسْرُ وعموم البلوى، وهذا لا شك أنه موجودٌ في مثل هذه الحالة، فلا يجب على الإنسانِ أن يطمسها، وأن يتتبَّعها ليطمسها. فهذا مُستثنى.

يترتَّبُ على هذا الأمر: أنّ اقتناء الصور –ولو لم يكن الإنسان مصوِّرًا– محرّمٌ، نعم هذا لا يدخل في الوعيد الذي تقدّم؛ لكنه حرام، يأثمُ به الإنسان.

«ولا قبراً مشرفـًا إلا سوَّيته» أي: ولا قبرًا بارزًا بروزًا غير شرعي إلا سوَّيته.

ما معنى إلا سويته؟

قال بعض أهل العلم: إلا سوّيته؛ أي: سوّيته بالأرض إلا ما يدلُّ على أنه قبر؛ بأن يُرفَع مقدار ذراع أو أقل؛ حتى يُعلَم أنه قبر. لو سُوِّيت القبور بالأرض تمامًا ربما جاء إنسان لا يَعلَم عنها ومشى عليها! فأُجيز شرعًا أن تُرفَع قليلًا بمقدار ذراع أو أقل؛ حتى يَعلمَ القادمَ أنه قبر، فمعنى «إلا سويته»: إلا سوّيته بالأرض إلا ما أُجيز شرعًا؛ وهو: أن يُبرَز شيئًا فوق الأرضِ؛ من أجل أن يُعلَم أنه قبر.

وقال بعضُ أهل العلم: معنى إلا سويته: إلا جمَّلته، وجعلته سويًّا؛ أي: جميلًا، كيف يُجمِّله؟ بأن يزيل المخالَفة، إن كان عليه البناء يزيل البناء، إن كان مرفوعًا فوق الأرض رفعًا كبيرًا يزيل الزائد، ويُبقى ما جاز.

وفي هذا الحديث الصحيح في صحيح مسلم أنّ إنكار مثل هذه الأمور إنما هو لولي الأمر، وبأمر ولي الأمر، فإنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– كان يَبعثُ به، فيَجعل لمَن يَذهبُ إلى ذلك ولاية، وهذا كما يقول العلماء: من تصرُّفات النبي –صلى الله عليه وسلم– بحُكمِ الولايةِ، فالنبي –صلى الله عليه وسلم– فيه جانبان:

-جانبُ النبوة.

-وجانب الولاية.

وجانب الولاية؛ أي: التصرُّف بحُكمِ كونه ولي أمر المسلمين، فيَنتقل ذلك إلى ولاة الأمر بعده. هذا معنى بجانب الولاية، لا يعني أنه ليس شرعًا، لا، لكن يعني أنه يَنتقل إلى ولاة الأمر بعد النبي –صلى الله عليه وسلم–.

أمّا تصرُّفُ النبي –صلى الله عليه وسلم– بحكم النبوة، فإنه لا يَنتقل إلى من بعده.

فهذا التصرُّف بحكم الولاية، فمن واجباتِ ولاة أمور المسلمين: إنكارُ المنكرات، ولاسيما الظاهرة، وأن تُنشأ جهاتٌ أو يُؤمَّر أشخاصٌ، أو يُولى أشخاصٌ لإنكارِ هذه المنكرات الظاهرة.

لكن ليس لمَن ليست له ولاية أن يطمس الصور المنتشرة، أو يُسوِّي القبور الزائدة، فإنّ في هذا مفاسِد لا تتناهى، ويؤدِّي إلى شرٍّ عظيم، ولربما جعل الناس يكرهون التوحيدَ وأهله.

[فيه مسائل: الأولى: التغليظ الشديد في المصورين]

ولا شك أنّ النصوص التي ورد فيها الوعيد صحيحةٌ وصريحةٌ.

وإني لأعجَبُ منَّا، كيف يبلغُ منَّا الضَّعفُ هذا المبلغ؛ فنتهاون في التصوير مع عِلْمِنا بهذا التغليظ الشديد، والذي لا تقابله مصلحة تجعل الإنسان يخاطِر ولو بالتأويل؟! فهذا في الحقيقة من الضعف الشديد، ضعفٌ في الإيمان، وضعفٌ في العقل. ولعل الله عز وجلَّ أن يهدينا جميعًا.

[الثانية: التنبيه على العلّة؛ وهو: ترك الأدب مع الله؛ لقوله: «ومَن أظلم ممَّن ذهب يخلق كخلقي»]

التنبيه على العلة في هذا التغليظ الشديد، وهو أنّ في التصوير إساءة أدب مع الله عز وجلَّ؛ لأنّ المصوِّر يَتشبَّهُ بخلق الله، فإنه يُصوِّر مثل خَلق الله عز وجلَّ، وهو أعجز من أن يَخلق شيئًا.

[الثالثة: التنبيه على قدرته وعجزهم؛ لقوله: «فليخلقوا ذرة أو شعيرة»]

نعم، وهذا كما تقدَّم معنا: وعيد، وتعجيز، وإبطال، أنهم أعجز من أن يخلقوا ذا روحٍ صغير؛ وهو الذَّرة، بل أعجز من أن يخلقوا حبة لا روحَ فيها.

[الرابعة: التصريح بأنهم أشد الناس عذاباً]

فهم في شدة عذابٍ يوم القيامة، والعياذُ بالله.

[الخامسة: أن الله يَخلق بعدد كل صورة نفساً يُعذَّب بها في جهنم]

(أنّ الله يخلق بعدد كل صورةٍ نفسًا يُعذَّبُ بها المصوِّر) هكذا في بعض النُّسخ، وهذا أصح (في جهنم). فالمصوِّر –كما قلنا– الذي يضاهي خَلق الله يُصوِّر ذوات الأرواح، يُجعَل له بكل صورة صوَّرها نفس، تعذِّبه هذه النفس في جهنم –والعياذُ بالله– حتى تنتهي هذه الصور.

[السادسة: أنه يكلَّف أن يَنفخ فيها الروح]

وليس بنافخ، كما تقدَّم معنا قبل قليل.

[السابعة: الأمر بطمسها إذا وُجدت]

هذا متعلِّق بالصورة، يعني الشيخ من فقهه وسعة علمه –رحمه الله– ذكر لنا ما يَتعلَّق بالتصوير، وما يَتعلَّق بالصورة.

تابع الدرس الواحد والسبعون: شرح باب ما جاء في كثرة الحلف

[باب ما جاء في كثرة الحلف]

من تعظيم المؤمن لربه: أن يحفظ المسلم يمينه، أن يحفظها قبل الوقوع، وأن يحفظها بعد الوقوع.

أمّا حفظها قبل الوقوع؛ فهو أن يتحفَّظ في اليمين، ولا يُكثِر من الحلف، فلا يحلفُ إلا إذا دعت إلى ذلك حاجةٌ حاقة، أو مصلحةٌ ظاهرة، وإلا فإنه يَكفُّ عن الحلف؛ وذلك أنّ كثرة الحلف تجعلُ الإنسانَ يستهين باليمين، وإذا استهان باليمين أساء الأدبَ مع الله. كما أنّ كثرة الحلف بين الناس تجعلُ الناس –في الجملة– يستهينون باليمين، ولا يَقدُرونها قدرها، وفي هذا نقصٌ في تعظيم الله سبحانه وتعالى.

أمّا بعد الوقوع وبعد انعقاد اليمين؛ فإنّ المسلمَ يحفظُ يمينه: بالحرص على الوفاء بها، والبر بها، وعدم الحِنْثِ فيها، فإن رأى غيرها خيرًا منها، إن رأى غير المحلوف عليه خيرًا منه فأتاه؛ فإنه يكفِّرُ عن يمينه، ولا يتركُ اليمين بلا تكفير.

إذ؛ن من تعظيم العبد لربه: أن يحفظ يمينه، يحفظها قبل الوقوع من كثرة الحلف، فلا يحلفُ إلا قليلًا، عند الحاجة الحاقة، وعند المصلحة الظاهرة. ويحفظها بعد الوقوع بأن يحرص على البر، فإن وُجدت مصلحة في أن يُخالفَ ما حلف عليه –وذلك جائز– فإنه يُكفِّر عن يمينه.

إذن؛ حفظُ اليمين من كمال التوحيد الواجب، ولذا ناسَب أن يعقد الشيخ –رحمه الله– بابًا في كتاب التوحيد؛ فيقول: (بابُ ما جاء في كثيرة الحلف).

[وقول الله تعالى: ﴿وَاحْفَظُواْ أَيْمَانَكُمْ﴾]

فالمؤمن مأمور بأن يحفظَ يمينه، يحفظ يمينه قبل الوقوع وبعد الوقوع، وكل هذا الحفظ داخلٌ في الآية.

والمفسِّرون اختلفوا في تفسير هذه الآية اختلاف تنوُّع؛ فذكر بعضهم حفظ اليمين قبل الوقوع: وهو الانتهاء عن كثرة الحلف، وذكر بعضهم حفظ اليمين بعد الوقوع: بالبِر بها، وذكر بعضهم حفظ اليمين بعد الوقوع: بألَّا تُترَك بدون كفارة إذا حنث فيها، وهذا اختلاف تنوُّع، فكل هذا داخلٌ في قول الله عز وجلَّ: ﴿وَاحْفَظُواْ أَيْمَانَكُمْ﴾[المائدة:٨٩]. وحفظُ اليمين كما قلنا: تعظيمٌ للرب.

وانتبه يا عبد الله! تعظيم المؤمن لربه في باب اليمين على أنحاء:

الأوّل: ألَّا يَحلفَ إلا بالله، وهذا من تحقيق التوحيد، فإنّ الحلف بغير الله –مهما عَظُم– من الشرك الأصغر، وقد تقدَّم معنا بيانُ هذا.

الثاني: ألَّا يحلفَ بالله إلا صادقًا، وهذا من كمال التوحيد الواجب؛ ألّا تحلف بربك إلا وأنت صادق؛ لأنك تُعظِّم الله سبحانه وتعالى. والحلفُ بالله كاذبًا من كبائر الذنوب، وهو ينافي كمال التوحيد الواجب.

والثالث: القناعةُ بالله إذا حُلِفَ للمسلم، فإذا حُلِفَ للمسلم بالله، فإنه يرضى، وقد تقدَّم هذا معنا في بابٍ مستقلّ قريبًا.

والرابع: حفظُ اليمين بالله، الذي أمرنا الله عز وجلَّ به في هذه الآية. وهذا هو مرادُ الشيخ –رحمه الله– من عقد هذا الباب.

[عن أبي هريرة –رضي الله عنه– قال: سمعت رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يقول: «الحلف مَنْفَقة للسلعة، مَمْحَقة للكسب» أخرجاه]

«الحلف مَنفقة للسلعة، مَمحقة للكسب»، قال الشيخ: أخرجاه، ولكن عند البخاري في الحقيقة: «مَمحقةٌ للبركة»، وعند مسلم: «مَمحقةٌ للربح»، أمّا جملة: «ممحقةٌ للكسب» فهذا جاء في روايةٍ عند الإمام أحمد، وأبي داوود، والنسائي، وإسنادها صحيح.

فالحلف يُنْفِّق السلعة؛ لأنّ الناس إذا حُلِف لهم بالله يُصدِّقون، ويَقنعون، ويَرضون، فإذا حلف لهم بالله أنها سلعة جيدة ممتازة؛ فإنهم يصدِّقونه في هذا، فيشترونها، وإذا حلف أنه اشتراها بكذا، أو عُرِض عليها فيها كذا ولم يبعها به؛ فإنه يصدِّقونه، ويشترونها بمثل ما قال أو زيادة على ما قال.

فالحلف يُنفِّق السلعة؛ وذلك: أنّ شأن المؤمنين أنهم يعظِّمون الله عز وجلَّ، فإذا حُلف لهم بالله صدَّقوا الحالفَ. «مَمحقةٌ للكسبِ» وهذا من باب المعاملة بنقيض القصد الفاسد، هذا الذي يحلف على السلع ماذا يريد؟ يريد

الربح، يريد المال؛ فعاقبه الله عز وجلَّ بنقيض قصده، بما هو أشدُّ إيلامًا له من بقاء السلعة عنده، تَذهبُ السلعةُ بحلفه، ثم يذهبُ المال، فلا السلعة بقيَت، ولا المال بارك الله فيه، وهذا أشدُ ألمًا له.

و«ممحقة للكسب» فُسِّرت برواية الشيخين؛ أي: للبركة، فلا تكون هناك بركة في المال، فيَجعل الله فقره بين عينيه، فكلّما ازداد مالًا؛ كلّما ازداد فقرًا في نفسه، ولا بركة في ماله، ولا ينتفعُ بهذا المال. أو إذهاب للربح، أو إذهاب للمال كله؛ بحيث لا يبقى. وهذا وعيدٌ شديد.

ويدخلُ في هذا والله أعلم أمران:

الأمر الأوّل: اليمينُ الكاذبة على السلع، وهذه كبيرةٌ من كبائر الذنوب، وهذا من اليمين الغموس، يقول له: بكم هذه السلعة؟ يقول: بمائة، والله إني اشتريتها بتسعين، ولا أربح منك إلا عشرة! وهو كاذب قد اشتراها بخمسين، أو يقول: والله قبلك بقليل عَرَضَ عليّ مشتري ستة وتسعين ريالًا ما رضيت! وهو كذاب، ما أحد عرض عليه هذا الثمن. فهذه اليمين الكاذبة، وهي من اليمين الغموس؛ لأنه يقتطع بهذه اليمين أموالًا من أموال المسلمين.

وقد جاء عند أحمد بإسنادٍ صحيح: أنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: «اليمين الكاذبة مَنفقةٌ للسعة، مَمحقةٌ للكسبِ»، فهذا الأمر الأوّل، وهو: اليمين الكاذبة.

أيضًا؛ جاء عند البخاري أنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– ثلاثةٌ لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظرُ إليهم: «رجلٌ حلف على سلعةٍ، لقد أُعطى بها أكثر مما أعطى، وهو كاذب» وهذا الحديث عند البخاري، وهذا يدل على أنّ هذا من كبائر الذنوب، هذا الرجل حلف على سلعةٍ لقد أُعطِيَ بها أكثر مما أعطى –أي المشتري الذي يساوِم– وهو كاذبٌ.

وعند مسلم: «ثلاثةٌ لا يُكلِّمهم الله يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولهم عذابٌ أليم: المسفِر، والمنانُ، والمُنفِّق سلعته بالحلف الكاذب»، والمنفقُ سلعته بالحلف الكاذب؛ أي: المروج سلعته بالحلف الكاذب.

وأمّا الأمرُ الثاني الذي يَدخلُ في هذا: فهو كثرةُ الحلف في البيع والشراء، ولو لم يكن كاذبًا. أن يُكثر من الحلف، فيحلف من غير حاجة ولا مصلحة ظاهرة، فهذا أيضًا يدخل في هذا الحديث؛ كما في حديث سلمان الآتي معنا، وسنشرحه إن شاء الله، وكما في حديث أبي قتادة –رضي الله عنه–: أنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: «إِيَّاكُمْ وَكَثْرَةَ الْحَلِفِ في البيع؛ فَإِنَّهُ يُنَفِّقُ ثُمَّ يَمْحَقُ» رواه مسلمٌ في الصحيح.

فالنبي –صلى الله عليه وسلم– حذَّرنا من كثرةِ الحلف في البيع، وبيَّن لنا أنه ينفِّق السلعة غير أنه يَمحَق الكسب والبركة والنماء.

والسرُ في هذا: أنّ الغالب أنّ كثرة الحلف تقودُ إلى الكذب.

إذن؛ البائع الذي جعل اليمين بضاعته، يحلف على البيع، ويحلف على الشراء، ويُكثِر من الحلف مُتوعَّد بأنه –وإن راجت سِلَعَه عند الناس– يَمحقُ الله بركة بيعه، وكسب بيعه.

[عن سلمان –رضي الله عنه– أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: أُشَيْمِط زان، وعائل مستكبِر، ورجل جعل الله بضاعته؛ لا يشتري إلا بيمينه، ولا يبيع إلا بيمينه» رواه الطبراني بسند صحيح]

هذا الحديث الذي رواه الطبراني حَكَمَ المنذري عليه بأنّ إسناده صحيحٌ أو حسن، وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح، وحسَّنه السيوطي، وصحَّحه الألباني وابنُ باز، رحم الله الجميع، والحديثُ صحيح.

(عن سلمان الفارسي –رضي الله عنه– أنّ رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال: «ثلاثةٌ لا يكلِّمهم الله» أي: لا يكلِّمهم بما يسرُّهم، ولا يكلمهم كلام الراضي. «ولا يزكيهم» قيل «ولا يزكيهم»: لا يغفر ذنوبهم، فهم مؤاخَذون بذنوبهم، لا يزكيهم الله من ذنوبهم، لا يطهِّرهم الله من ذنوبهم، فلا يغفر لهم، فيؤاخذهم بجميع ذنوبهم، أو بهذه الذنوب المذكورةِ هنا خصوصًا.

وقال بعض أهل العلم «لا يزكيهم»: لا يُثنى عليهم، لا يُثنى عليهم. «ولهم عذابٌ أليم».

طبعًا «ثلاثة» هنا ليست للحصر فقط، لكن للدلالة على شدة الذنب، وإلا فقد جاء هذا الوعيد في أكثر من ثلاثة، بل في أكثر من عشرة في مجموع ما ورد.

«أُشيمطٌ زان»؛ أُشَيمِط: هو الأَشْمَط، والأشمط: هو ما ظهر فيه الشَّيب، فهو شيخٌ كبيرٌ في السن، شاب شعره، وصُغّر هنا "أُشيمط" تحقيرًا له، «أُشيمطٌ زانٍ» فهو مع كبر سنِّه يزني.

والمعلوم شرعًا؛ أنه كلّما ضَعُف الداعي إلى الذنب عَظُمت العقوبة، وهذا الرجل الذي شاب وأصبح شيبةً شيخًا كبيرًا ضعف الداعي إلى الزنا في حقه من جهتين، أو ثلاث:

الجهة الأولى: ضعفُ بدنه، وضعفُ قوته.

الجهة الثانية: أنه جاءه النذير، والشيب نذيرٌ بالموت.

والجهة الثالثة: أنه أصبح أبًا، وعنده بنات كبار في الغالب، ويَعرف ألم الاعتداء على العرض أكثر من غيره.

ولذا؛ كان ذنبه عظيمًا.

«وعائلٌ» يعني: فقير، «مستكبِرٌ» يعني: طالب الكبْر، الألف والسين والتاء تدل على الطلب، فهو يطلب الكبْر ويريد الكبر، ويتكبَّر، الكبْر حرام، وكبيرة من كبائر الذنوب من الغني ومن الفقير، لكنّ الفقيرَ الداعي إلى الكبر في حقِّه

ضعيف، ما عنده شيء ومع ذلك يتكبّر! وقد جاء الوعيدُ لهذين في صحيح مسلم.

عن أبي هريرةَ –رضي الله عنه– أنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: شَيْخٌ زَانٍ» هذا أُشيمطٌ زانٍ، «وَمَلِكٌ كَذَّابٌ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ»، ففي صحيح مسلم جاء الوعيد لهذين: الأُشيمط الزانِ والعائل المستكبر، والثالث معهم: هو الملك الكذّاب، ملك صاحب قوة أو سلطان، ويكذب! لا حاجة إلى أن يكذب، الكذب حرام وقبيح من كل أحد، لكن إذا ضعف الداعي إليه كان قبحه أعظم.

نرجع إلى حديث سلمان، قال: «ورجلٌ جعل الله بضاعته»، كيف يجعل الله بضاعته؟ فسَّرها النبي –صلى الله عليه وسلم– فقال: «لا يشتري إلا بيمينه، ولا يبيع إلا بيمينه» فهو كثير الحلف في البيع، إذا ذهب يشتري يقول: والله إني خسرت اليوم، والله ما عندي أموال، والله كذا، والله كذا! إذا كان يبيع: والله أُعطيت كذا، والله هذه طيبة، والله من أجلك أبيعك، والله كذا! يُكثِر من الحلف، ويدلُّ هذا على أنّ الإكثار من الحلف كبيرة من كبائرِ الذنوب، لاسيَّما في البيع والشراء.

[وفي الصحيح عن عمران بن حصين –رضي الله عنه– قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: «خير أمَّتي: قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»،

-قال عمران: فلا أدري أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثًا؟- «ثم إنّ بعدكم قومًا يشهدون ولا يستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السِمَن». وفيه عن ابن مسعود -رضي الله عنه- أنّ النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته». قال إبراهيم: كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد ونحن صغار]

قال الشيخ: (وفي الصحيح) أي: في الحديث الصحيح في غاية الصِّحة؛ لكونه في الصحيحين. (عن عمران بن حُصين -رضي الله عنه- قال: قال: رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: خيرُ أمَتي) وهذا اللفظُ عند البخاري: «خيرُ أمتي» إنما ورد عند البخاري. وفي رواية: «خيركم»، وهذا عند الشيخين: عند البخاري ومسلم.

«(خير أمتي قرني» أي: القرن الذي فيه النبي -صلى الله عليه وسلم-. والقرن مائة عام، فالقرنُ الأوّل الذي فيه النبي -صلى الله عليه وسلم- أفضلُ القرون، أفضل قرون الأمّة: القرن الأوّل الذي فيه النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ لأنّ النبي -صلى الله عليه وسلم- كان فيه، ولظهور التوحيد والسنةِ فيه، وعِزّ الإسلامِ فيه، وقِلة البِدع؛ حيث لم تظهر إلا في آخره، مع ذلة أهلها، كانت قليلة، وكان أهلها أذلة، فلم تكن لها راية في ذلك القرن.

والتفضيلُ في هذا القرن بالنسبة للصحابة تفضيل أفراد، فكلُّ فردٍ من الصحابة أفضل ممن يأتي بعد الصحابة. وبالنسبة لغير الصحابة تفضيل جنس، تفضيل المجموع.

والحديثُ يدلُّ على أنّ القرن الذي يلي قرن النبي –صلى الله عليه وسلم– يليه في الفضل، ثم القرن الذي يليه يليه في الفضلِ.

وهو يدلّ دلالةً بيِّنة على أنّ الأمّة كلّما بَعُدَت عن عهد النبوة كلّما بَعُدَت عن الفضلِ والصلاحِ والخير.

يقول النبي –صلى الله عليه وسلم–: «لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بَعده شرٌّ منه» رواه البخاري في الصحيح.

وفي هذا دلالة على أنّ الأمة إذا أرادت الخيرَ والعزّة والكرامةَ فلتنهض بهمَّة لتتعلَّم ما كان عليه سلفُ الأمّة، وما كان عليه أهلُ القرن الأوّل؛ لتعودَ إلى الفضل والمكانة والعزة.

وهذا يوجِبُ على أهل العلم، وعلى طلاب العلم، أن يحتسبوا ويصبروا في تعليم الناس ما كان عليه سلفُ الأمّة، وإن لم يَقبَل كثيرٌ من الناس، وإن حُورِبوا، وإن لُقِّبوا بالألقابِ المنفِّرة، فإنّ هذا من الجهاد العظيم في سبيل الله، بل هو أعظمُ جهاد هذا الزمان.

ولا يجتهدُ في دعوة الأمّة إلى ما كان عليه السلفُ الصالح إلا مخلِص يحبُّ لهذه الأمّة العزّة والتمكين والخيرية في الدنيا والآخرة، يريد أن يعيد مجد الأمّة، لا أن يَبنيَ مجد نفسه. من الناس المتكلِّمين في الدين اليوم مَن يَسعَون إلى بناء مجدهم الشخصي، ولو على حساب الحق! أمّا المخلِص الراجي ما عند الله؛ فإنه يجتهد في دعوة الناس إلى ما كان عليه سلف الأمّة؛ من أجل أن يعود للأمّة التمكينُ والعزّة وظهور الديانة.

قال عمران –رضي الله عنه–: (فلا أدري أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثـًا؟)، لكن الثابت عن غيره؛ كعمر –رضي الله عنه– أنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– ذكر بعد قرنه قرنين، فالقرون المفضَّلة: ثلاثة.

قال –صلى الله عليه وسلم–: «ثم إنّ بعدكم قومـًا يَشهدون ولا يُستشهدون» أي: أنهم يقومون بالشهادة من غير أن تُطلَب منهم، ومن أن غير أن تدعو الحاجة إلى هذا، فإنه إذا طُلبت الشهادة منهم فلا عيب عليهم في الشهادة، بل يجب عليهم أن يَبذلوا ما يَعلَمون، وإذا دعت الحاجة إلى هذا؛ فإنه يجب عليهم أن يبذلوا الشهادة ولو لم تُطلَب منهم.

أضرب لكم مثالًا: لو أنّ إنسانًا له حق، ثم جُحِد هذا الحق، فأتى بشاهدٍ واحد، وكان هنالك شاهدٌ آخر، نسيَه صاحبُ الحقِ، ولكنّ الشاهد يَعرف القضية، فإنه يجب على الشاهد أن يُبادِر.

وكذلك الشهادة في حقوق الله، فإنّ بذلها طاعة، ولو لم تُطلَب من الإنسان.

أمّا أن يَشهد الإنسان من غير أن يُطلَب منه، ومن غير حاجة، ومن غير أن يكون ذلك في حقوق الله، فهذا مذموم.

«يشهدون ولا يُستشهدون»، وهذا وجهُ الشاهد. لكن نلحظ أنّ هنا ليس فيه يمين!

فقال بعضُ أهلِ العلم: استشهاد الشيخ بالحديث بمجموع الحديثين، وأنّ المقصود بقول النبي –صلى الله عليه وسلم–: «يشهدون ولا يُستشهدون» أنهم مع شهادتهم يحلفون؛ كما في الحديث التالي: «تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته».

وقال بعض أهل العلم: بل الشيخ ذكر هذا الحديث توطئة للحديث الثاني، والشاهد في الحديث الثاني.

وقد جاء في حديث عمر –رضي الله عنه– أنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: «خيرُ الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يفشو الكذب؛ حتى يشهد الرجلُ ولا يُستَشهد، ويحلفَ الرجلُ ولا يُستَحلف» رواه الترمذي، وابنُ ماجه، وصحَّحه الألباني.

فالمقصود هنا: أنه إذا كان الرجل يشهد ولا يُستَشهد؛ فإنه يحلفُ ولا يُستَحلف، ويُكثِر الحلف.

(وفيه) أي: في الحديث الصحيح عند البخاري ومسلم، (عن ابن مسعودٍ أن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: «خيرُ الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجئ قومٌ تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته»، وهذا أوضح في الدلالة، فكأنّ الشهادة واليمين عنده في سباق، ماذا تريدون؟ تريدون الشهادة؛ موجودة، ماذا تريدون؟ تريدون اليمين؛ موجودة! يُكثِر من الحلفِ واليمين، وهذا مطابقٌ للباب.

(وقال إبراهيمُ النخعي التابعيُ الجليل: كانوا يضربوننا على الشهادةِ والعهدِ، ونحن صغار) وفي هذا أنّ السلف كانوا يعتنون بتربية الأبناء، قال: (كانوا يضربوننا) ضربًا غير مُبرِّح، يؤدِّب ولا يَجرح، ويبني نفس المؤدَّب، ولا يَهدم.

(كانوا يضربوننا على الشهادةِ):

قال بعض أهل العلم: على الشهادة، يعني على تحمُّل الشهادة، ألَّا نتحمَّل الشهادة.

وقال بعض أهل العلم: بل على الكذب في الشهادة.

وقال بعض أهل العلم: بل على اليمين في الشهادة. وهذا أظهر –والله أعلم– للرواية الثانية التي سنذكرها.

(والعهدِ) العهد قد يؤكَّد باليمين، فكانوا يضربونهم على إعطاء العهود الموثَّقة. والعهد إمّا أن يقال: عهدُ الله، أو أعاهدك بالله، أو أعاهدك والله، هذا العهد الموثَّق؛ يوثَّق بالله، وسيأتي -إن شاء الله- ما يتعلق بهذا قريبًا، فكانوا ينهَونهم عن هذا ويضربونهم.

جاء في رواية عند البخاري؛ قال إبراهيم: (وكان أصحابنا ينهَوننا ونحن غلمان أن نحلف بالشهادة والعهدِ) كان أصحابنا ينهَوننا ونحن غلمان -أي قبل البلوغ- أن نحلفَ بالشهادة والعهدِ) أي: أن نحلف في الشهادة، ونحلفَ في العهد. وهذا تربية على حفظ اليمين، وعلى عدم الإكثار من الحلف.

[فيه مسائل: الأولى: الوصية بحفظ الأيمان]

نعم، في أمر الله عز وجلَّ لنا -كما تقدم- ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾[المائدة: ٨٩].

[الثانية: الإخبار بأنّ الحلف مَنفقة للسلعة، مَمحقة للبركة]

نعم، وهذا قد تقدَّم قريبًا.

[الثالثة: الوعيد الشديد فيمن لا يشتري إلا بيمينه ولا يبيع إلَّا بها. الرابعة: التنبيه على أنّ الذنب يَعظُم مع قلة الداعي]

كما قلنا؛ هذه القاعدة: "كلّما قلَّ الداعي إلى الذنب كان الذنبُ أعظم"، ومثل هذه القاعدة -أيضًا-: "كلّما كانت الحُرمة أعظم كان الذنبُ أعظم"،

ولذلك –والعياذُ بالله– الذي يزني بابنة عمه هذا أعظم ذنبًا ممن يزني بامرأةٍ أجنبية، والكلُّ قبيح، ومن أقبح الذنوب، ومن كبائرِ الذنوب، لكن حُرْمة ابن العم أعظم من حُرمة المرأة الأجنبية، والذي يزني بامرأةِ جاره أعظم ذنبًا من الذي يزني بامرأةٍ بعيدة عنه، أشد من عشر زنيات بامرأةٍ أجنبية. فكلّما عظمت الحرمة كلّما كان الذنبُ أعظم.

ولذلك القتل في المدينة أعظم من القتل في بقية المدن، والقتل في مكة أعظم من القتل في بقية البلاد، الكذب في المدينة أعظم من الكذب في غيرها؛ لِعِظَم حُرمة المدينة؛ «المدينة حَرَمٌ ما بين عيرٍ إلى ثور»، والكذب في مساجد المدينة أعظم من الكذب في شوارعها، والكذب في مسجد النبي –صلى الله عليه وسلم– أعظم من الكذب في بقيةِ مساجد المدينة. كلّما عظمت الحُرمة كلّما عظم الذنب.

[الخامسة: ذم الذين يحلفون ولا يستحلفون. السادسة: ثناؤه –صلى الله عليه وسلم– على القرون الثلاثة، أو الأربعة، وذكر ما يحدث بعدهم]

وأنّ خير الأمّة إنما هو عند سلفها، ومَن تطلَّب الخير، فليعد إلى ما كان عليه السلف الصالح رضوان الله عليهم.

[السابعة: ذم الذين يشهدون ولا يستشهدون. الثامنة: كون السلف يضربون الصغار على الشهادة والعهد]

تابع الدرس الواحد والسبعون: شرح باب ما جاء في ذمّة الله وذمّة نبيه

[باب ما جاء في ذمّة الله وذمّة نبيه]

نعم، من تعظيم الله الواجب: حفظ ذمَّته، وذمَّة نبيه –صلى الله عليه وسلم– قبل الوقوع وبعد الوقوع.

أمّا قبل الوقوع؛ فبعدمِ إعطائها؛ خوفًا من عدم الوفاء بها.

وأمّا بعد الوقوع؛ فبالحرص الشديد على الوفاء بها، وعلى عدمِ إخفارها.

ولمّا كان ذلك كذلك؛ كان حفظ ذمّة الله، وذمّة نبيه –صلى الله عليه وسلم– من كمال التوحيد الواجب، ولذلك عقد الشيخُ في كتاب التوحيد هذا الباب: «بابُ ما جاء في ذمة الله وذمة نبيه –صلى الله عليه وسلم–».

والذمّة: هي العهد. وذمّةُ الله: هي عهدُ اللهِ؛ بأن يقول العبد: لك عهد الله ألَّا أؤذيك، أو: لك العهدُ باللهِ ألَّا أؤذيك، أو: لك العهدُ والله ألَّا أؤذيك.

وذمةُ نبيه –صلى الله عليه وسلم–: هو عهدُ النبي –صلى الله عليه وسلم–، نعم.

[وقول الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ الآية]

قول الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾[النحل: ٩١] هذا أمرٌ مؤكَّد بالوفاءِ بعهد الله سبحانه وتعالى إذا عَاهَدَ المؤمن أحدًا به. وقول الله عز وجلَّ: ﴿إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ فيه إشارة إلى أنّ الأصل ألَّا يُعاهَد بعهد الله، لكن إذا

عاهد المؤمن بعهد الله عز وجلَّ فإنه يتأكَّدُ في حقِّه أن يَفي بالعهدِ، إذ المعلومُ أنّ الوفاء بالعهد واجبٌ مطلقًا؛ لكن إذا عاهد العبد بعهد الله تأكَّد وجوبُ الوفاء بهذا العهد؛ تعظيمًا لله عز وجلَّ.

﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾[النحل: ٩١] أمرٌ مؤكَّد بعدمِ نَقْضِ الأيمان بعد توكيدها. والمرادُ بالأيمان هنا: الأيمانُ المؤكِّدة للعهودِ. ليس مطلّق اليمين؛ لأنّ مطلَق اليمين: أن يحلف الإنسان على خيرٍ أو شر؛ له إن رأى الخير في تَرْكِ ما حَلَفَ عليه أن يتركه ويكفِّر عن يمينه، أمّا اليمين التي تؤكِّد العهود فإنه لابد من الوفاء بها، ولا يجوز نقضها، ولا كفارة لها.

﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾[النحل: ٩١] أي: لمّا كنتم عاهدتم بالله، فقد جعلتم الله على الوفاء بما عاهدتم به راعيًا وحافظًا وضامنًا؛ فكيف لا تفي بعهد الله وقد جعلت الله كفيلًا عليك؟ ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾[النحل: ٩١] هذا وعيد، وعيد لمن يَنقض الأيام المؤكَّدة، ويُخفِر عهد الله، وهذا يدلُّ على وجوبِ الوفاءِ بعهد الله وجوبًا مؤكَّدًا، وعلى حُرْمة إخفار عهد الله سبحانه وتعالى.

[عن بريدة –رضي الله عنه– قال: كان رسول الله –صلى الله عليه وسلم– إذا أمَّر أميراً على جيش أو سريَّة أوصاه بتقوى الله ومَن معه من المسلمين خيراً، فقال: «غزوا بسم الله، في سبيل الله، قاتلوا مَن كفر بالله، اغزوا ولا تَغُلُّوا ولا

تَغدِروا، ولا تُمثِّلوا، ولا تَقتلوا وليداً، وإذا لقيتَ عدوك من المشركين فادْعُهم إلى ثلاث خصال ـ أو خلال ـ فأيَّتهنّ ما أجابوك فاقبل منهم، وكفَّ عنهم، ثم ادْعُهم إلى الإسلام؛ فإن أجابوك فاقبل منهم، ثم ادْعُهم إلى التحوُّل من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين، وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبَوا أن يَتحوَّلوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حُكم الله تعالى، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء إلّا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبَوا فاسألهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكفَّ عنهم، فإن هم أبَوا فاستعن بالله وقاتلهم. وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل ذمّة الله وذمّة نبيه، فلا تجعل لهم ذمّة الله وذمّة نبيه، ولكن اجعل لهم ذمَّتك وذمَّة أصحابك، فإنكم أن تُخفِروا ذممكم وذمّة أصحابكم أهون من أن تُخفِروا ذمّة الله وذمّة نبيه. وإذا حاصرتَ أهل حصن فأرادوك أن تُنزلهم على حُكم الله، فلا تنزلهم على حُكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك. فإنك لا تدري، أتصيب حكم الله فيهم أم لا» رواه مسلم]

نعم، هذا الحديثُ العظيم الصحيح في صحيح مسلم عن بُريدة –رضي الله عنه– قال: (كان رسول الله –صلى الله عليه وسلم– إذا أمَّر أميرًا على جيشٍ أو سريَّة فيه أنّ الذي يَعْقِدُ أَلْوِيَة الجيوش إنما هو وليُّ أمرِ المسلمين، وأنّ الجيش

لابد أن يكون له أميرٌ ولّاه وليُّ أمر المسلمين، فإن لم يكن له أميرٌ ولَّاه وليُّ أمر المسلمين؛ فليس جيشًا شرعيًّا.

فالجيوشُ الشرعية التي تجاهد في سبيل الله: هي التي يُجيِّشها وليُّ الأمر، ويَعقدُ أَلْوِيَتها وليُّ الأمر، ويؤمِّر أمراءها وليُّ الأمر.

قال: (على جيشٍ أو سرية)، الجيش: جماعةٌ من المؤمنين يَخرجون لقتالِ الكفار. والسريَّة: قطعةٌ من الجيشِ؛ أي: أنها دون الجيش، فالجيش أكبر من السرية، والسرية قد تَخرجُ من البلد أصلًا، يعني: يكون خروجها من البلد، وهي أقلّ من الجيش، وقد تَخرج من الجيش، يعني: أثناء مسير الجيش تخرج سريَّة من الجيش.

وقد ذكر بعض أهل العلم: أنّ السريَّة: ما بلغت أربعمائة رجل فأقلّ، والجيش ما زاد عن ذلك. لكن المهم أنّ الجيش أكبر من السرية.

(أوصاه في خاصته) هكذا في مسلم «أوصاه في خاصته بتقوى الله» أي: أوصاه بخصوص نفسه في حقِّ نفسه خصوصًا بتقوى الله؛ أن يفعل المأمورات ويجتنب المحظورات، ويتواضع لمن معه.

وفي هذا؛ أنّ الإنسان إذا حصلت له قوة على غيره؛ يحتاج أن يُذكَّر بتقوى الله، ويُوصى بتقوى الله، فهذا الأمير لمّا أصبح أميرًا يُسمَع له ويطاع؛ أوصاه النبي –صلى الله عليه وسلم– في حق نفسه خصوصًا بتقوى الله.

المعلم كذلك؛ يُوصى بتقوى الله، المدير يوصى بتقوى الله، وهكذا؛ لأنّ القوي إذا فاتته التقوى ظَلَمَ ولا بد، والظلم عاقبته وخيمة.

(ومَن معه من المسلمين خيرًا) يعني: أوصاه بمَن معه من المسلمين خيرًا.

ثم قال: «اغزُوا»، هذا خطاب للجيش كله، «اغزوا باسم الله» أي اغزوا مستعينين بالله، متوكلين على الله، والباء هنا للاستعانة، فإنه لا نصر إلا بعون الله سبحانه وتعالى. «في سبيل الله» أي: مخلصين لله، قاتلوا لتكون كلمة الله هي العليا. «قاتلوا مَن كفر بالله» أي: مَن يستحقُّ ذلك؛ بأن لم يكن معاهَدًا، أي: لم يُعطَ عهدًا من المسلمين، ولا ذميًا؛ أي: ليس من أهل الذمّة الذين يعيشون بين المسلمين، ولا مُستأمنًا قد أعطاه مؤمنٌ الأمانة، ولا ضعيفًا عن القتالِ؛ كالولد الصغير، والرُّهبان المنقطع للعبادة، والمرأة والرجل العجوز، ما لم يقاتِلوا، فإذا كان أهلًا للقتلِ والقتال فإنه يُقاتَل.

«واغزوا، ولا تغلُّوا» لا تغلُّوا: أي لا تأخذوا من الغنيمة قبل قسمتها، الغلول: الأخذُ من الغنيمة قبل قسمتها. «ولا تغدروا» أي: لا تَنقضوا العهدَ. «ولا تمثِّلوا» أي: لا تشوِّهوا القتلى والأسرى، لا تشوهوا قتلاهم؛ فتقطعوا أذانهم، أو تقطعوا أنوفهم، أو تقطعوا أطرافهم.

هل هذا مُطلَق؟

ذهب بعض أهل العلم إلى أنه مُطلَق.

وذهب بعض أهل العلم إلى أنه مُقيَّد بما إذا كانوا لا يَفعلون ذلك بقتلانا، أمّا إذا كانوا يفعلون ذلك بقتلانا؛ فإنه يُمثَّلُ بهم.

والراجح: أنه بالنسبة للقتلى يَرجعُ هذا إلى اجتهاد ولي الأمر إذا كانوا يمثِّلون بقتلانا، إذا كان لا يمثلون بقتلانا لا يجوز التمثيل بقتلاهم، لكن إذا كانوا يمثِّلون بقتلانا؛ فيَرجع إلى اجتهاد ولي الأمر؛ إن رأى في التمثيل بقتلاهم مقابلة لفعلهم عزةً وقوةً وظهورًا عليهم؛ فعله، وإلَّا فلا، أمّا الأسرى فلا يجوزُ التمثيل بهم.

«ولا تقتلوا وليدًا» أي: الولد الصغير الذي لم يَبلغ؛ لأنه ليس من أهل القتال، ومثله مَن كان لا يقاتِلُ في العادة.

«وإذا لقيتَ عدوك من المشركين، فادعهم إلى ثلاث خصالٍ –أو خلال–»؛ هذا شكٌّ من الراوي؛ وهو: علقمة بن مرثَد، هو الذي شك، الذي روى عن سليمان بن بُريدة شك، وهما بمعنىً واحد؛ الخصال والخلال بمعنى واحد، لكنها دقة الرواة عن النبي –صلى الله عليه وسلم–. «فأيتُهن» أو «فأيتَهن» بالضم أو النصب، «ما أجابوك» أي: إلى أيتُهن أجابوك فاقبل منهم، إلى أيتِهن أجابوك فاقبل منهم، وكفَّ عنهم.

طيِّب؛ ما هي هذه الخصال؟ أقولها في الجملة ابتداءً:

قال بعض أهل العلم: هي الإسلامُ فقط. والثانية: الإسلامُ مع الهجرة إلى المدينة. والثالثة: الجزية.

وقال بعضُ أهل العلم: هي الإسلامُ، والجزيةُ، والقتال. وهذا عليه الأكثر.

«ثم ادْعُهم إلى الإسلامِ»، "ثم" هكذا في رواية مسلم؛ وهي زائدة؛ لأنها تفسير للخصال الثلاث. وقال بعض أهل العلم: هي ليست زائدة؛ وإنما هي للاستفتاح؛ لاستفتاح الكلام. «ثم ادعهم إلى الإسلامِ» وفي هذا البدء بالدعوة قبل القتال؛ لأنه ليس المرادُ من الجهادِ قتل الكفار؛ ولكنّ المرادَ إيصالُ الحقِّ إلى الخَلقِ، ولذلك يُبدَؤون بالدعوة قبل القتال.

والذي عليه الجمهور، وهو الراجح: أنّ الكفار المقاتَلين إذا كانت لم تبلغهم الدعوة قبل؛ فإنه تجب دعوتهم قبل قتالهم، إذا لم تبلغهم الدعوة إلى الإسلام قبل؛ يجب أن نَدْعُوَهم إلى الإسلام قبل المقاتَلة.

أمّا إذا كانت الدعوةُ قد بلغتهم؛ فإنه تُستَحب دعوتهم، ولا تجب، فلولي الأمر أو لقائد الجيش أن يُغِير عليهم بدون دعوة؛ لأنّ الدعوة قد سَبقت، ولكنّ الأفضل أن يدعوهم قبل أن يُغِير عليهم؛ حتى وإن كانت الدعوة قد سَبقت؛ رجاء أن يُسلِموا، فيَسلَم المسلمون من القتال، ويَسلمُ أولئك من القتل.

«فإن أجابوك فاقبل منهم، وكفَّ عنهم» هكذا في الرواية: «وكُفَّ عنهم» أي: كُفَّ عنهم القتل، ولا تقاتلهم.

الدرس الثاني والسبعون: تابع شرح باب ما جاء في ذمّة الله وذمّة نبيه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، وأشهد أن لا إله إلا الله إله الأوّلين والآخرين، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله المبعوث رحمةً للعالمين، سيد ولد آدم أجمعين صلى الله عليه وسلم تسليمًا كثيرًا، دائمًا إلى يوم الدين، ورضي الله عن آله الطيبين الطاهرين، وعن صحابته الخيار الأكرمين، أما بعد:

فيا معاشر الفضلاء؛ إننا نحمد الله–عز وجل– أن جعلنا من الذاكرين له في هذا الوقت الذي يقل فيه الذاكرون، ومن العامرين لمسجد رسول الله–صلى الله عليه وسلم– في هذا الوقت الذي يقل فيه العامرون.

ونسأل الله–عز وجل– الذي أكرمنا بهذه النعمة أن يرزقنا شكرها، وأن يرزقنا الإخلاص له–سبحانه وتعالى–، وحُسن الاتباع لحبيبنا ونبينا محمدٍ–صلى الله عليه وسلم–.

وأن يجعل مجالسنا في مسجد رسوله–صلى الله عليه وسلم– مقرِّبةً لنا إليه، سارَّة لنا عندما نقف بين يديه، وأن يجعلها رِفعةً لنا في الجنة.

لا زلنا أيها الأحبة مع شرح كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد. وكان الكلام قد انتهى بنا في مجلسنا بالأمس في شرح باب: (ما جاء في ذمة الله وذمة نبيه–صلى الله عليه وسلم–).

وبيَّنا أنّ المؤمن الموحِّد العارف بحقِّ ربه–سبحانه وتعالى– يُعظِّم الله–عز وجل–، ومن تعظيمه لله–عز وجل– أن يحفظ ذمّة الله، وذمّة رسوله–صلى الله عليه وسلم–، يحفظها قبل الوقوع، ويحفظها بعد الوقوع.

فيحفظها قبل الوقوع؛ فلا يبذلها إلا عند الضرورة التي لا بد منها، ولا يعطيها لأحد؛ وإنما يعطي للناس ذمَّته.

ويحفظها بعد الوقوع وبعد إعطائها؛ بأن يَفِيَ بها، ويجتهد في ذلك اجتهادا عظيمًا، وألا يُخفِرها، سواء كان هو الذي أعطاها لغيره، أو أعطاها غيره لغيره.

فإذا عَلِمَ أنّ ذمّة الله أو ذمّة رسوله–صلى الله عليه وسلم– قد أُعطِيتْ لأحد؛ اجتهد اجتهادًا عظيمًا في الوفاء بها؛ تعظيمًا لربه–سبحانه وتعالى–، وهذا من كمال التوحيد، ولذا عقد المصنف هذا الباب في كتاب التوحيد.

ولعلك–أيها المبارك الذَّكي– قد لَحْظتَ أنّ الشيخ–رحمه الله– قد جعل آخر الكتاب في كمال التوحيد المتعلِّق بالألفاظ؛ سواء كان واجبًا أو مستحبًّا، وأنه قَسَمَ ذلك إلى قسمين:

- **القسم الأوّل**: ما يَتعلَّق بحُسن الأدب مع الله–عز وجل– في الألفاظ، وترك سوء الأدب مع الله–عز وجل– في الألفاظ، وعَقَدَ لذلك أبوابًا.
- **ثم القسم الثاني**: في تعظيم الله–عز وجل– فيما يتعلق بالألفاظ، وعَقَدَ لذلك أبوابًا.

منها هذا الباب الذي بدأنا بشرحه في مجلس الأمس، ونتمُّ شرحه اليوم إن شاء الله–عز وجل–.

وكنَّا قد شرعْنا في شرح حديث بُرَيْدَة–رضي الله عنه– في وصايا النبي–صلى الله عليه وسلم– لأمير الجيش، فكان النبي–صلى الله عليه وسلم– إذا أمَّر أميرًا على جيشٍ أو سرية يوصيه بوصايا تقدَّم شرح بعضها، وتتمُّ اليوم إن شاء الله شرح بقيَّتها.

[عن بريدة –رضي الله عنه– قال: كان رسول الله –صلى الله عليه وسلم– إذا أمَّر أميراً على جيش أو سريَّة أوصاه بتقوى الله ومَن معه من المسلمين خيراً، فقال: «غزوا بسم الله، في سبيل الله، قاتلوا مَن كفر بالله، اغزوا ولا تَغُلُّوا ولا تَغدِروا، ولا تُمثِّلوا، ولا تَقتلوا وليداً، وإذا لقيتَ عدوك من المشركين فادْعُهم إلى ثلاث خصال ـ أو خلال ـ فأيَّتهنّ ما أجابوك فاقبل منهم، وكفَّ عنهم، ثم ادْعُهم إلى الإسلام؛ فإن أجابوك فاقبل منهم، ثم ادْعُهم إلى التحوُّل من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين، وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبَوا أن يَتحوَّلوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حُكم الله تعالى، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء إلَّا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبَوا فاسألهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكفَّ عنهم، فإن هم أبَوا فاستعن بالله وقاتلهم. وإذا حاصرت أهل

حصن فأرادوك أن تجعل ذمّة الله وذمّة نبيه، فلا تجعل لهم ذمّة الله وذمّة نبيه، ولكن اجعل لهم ذمَّتك وذمَّة أصحابك، فإنكم أن تُخفِروا ذممكم وذمّة أصحابكم أهون من أن تُخفِروا ذمّة الله وذمّة نبيه. وإذا حاصرتَ أهل حصن فأرادوك أن تُنزلهم على حُكم الله، فلا تُنزلهم على حُكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك؛ فإنك لا تدري، أتصيب حكم الله فيهم أم لا» رواه مسلم]

هذا الحديث الذي تضمَّن هذه الوصايا العظيمة من نبي الرحمة والمَلحمة–صلى الله عليه وسلم– تقدَّم أن شرحنا بعضه، ووقفنا عند ما يتعلَّق بالخصال الثلاث–التي شرحنا أوّلها– وهي:" الدعوة إلى الإسلام"، قال « ثم ادعهم إلى الإسلام؛ فإن هم أجابوك؛ فاقبل منهم، وكُفَّ عنهم، ثم ادعهم إلى التحوُّل من دارهم إلى دار المهاجرين» أي: ثم ادعهم إن أسلموا إلى التحوُّل من دارهم، وهي دار إسلام– لمَّا أسلموا أصبحتْ دار إسلام؛ لكنها بعيدة عن دار العلم والإيمان؛ عن مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم–، فأمر النبي–صلى الله عليه وسلم– الأمير أن يدعوهم إلى الهجرة من دارهم إلى دار المهاجرين، وهذه هجرةٌ خاصة، ليست هي الهجرة من دار الكُفْرِ إلى دار الإسلام؛ وإنما هي الهجرة من دار الجهل والبُعد عن السُنَّة إلى دار العلم والسُنَّة.

وقد ذَكَر بعض أهل العلم أنَّ الهجرة في زمن النبي –صلى الله عليه وسلم– إلى المدينة كانت واجبةً على كل مَن أسلم، ولو لم تكن أرضُه أرض كُفْرٍ.

وذهب بعض أهل العلم إلى أنّ هذه الهجرة مستحبَّة، وليست واجبة.

وهذا هو الأظهر –والله أعلم–: أنّ هذه الهجرة مستحبة؛ بدليل: أنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– جعل الأمر إلى اختيارهم، وأمر الأمير بإقرارهم لو اختاروا البقاء في ديارهم.

وفي هذا فائدة: وهي أنه يُستحبُّ للمسلم إذا كان في أرض تَفشو فيها البِدَع أن يهاجر إلى أرض سُنَّة، أو إذا كان في أرض يَظهر فيها الجهل، ويَقلَّ العلم، ويُحارَب أهل العلم؛ أنه يُستحَبُّ له أن يهاجر إلى أرض العلم وما يُعان فيه على العلم.

«ثم ادعهم إلى التحوِّل من دارهم إلى دار المهاجرين» التي هي المدينة في زمن النبي –صلى الله عليه وسلم–. «وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين، وعليهم ما على المهاجرين» وفي هذا حثٌّ لهم على الهجرة من ديارهم؛ ليلحقوا بالمهاجرين مع النبي –صلى الله عليه وسلم–، فإن هاجروا فإنّ لهم ما للمهاجرين مما يحصِّلونه من عِلْم، وما يحصِّلونه من دنيا من غنيمة وفيء، ونحو ذلك، وعليهم ما على المهاجرين؛ كالجهاد مع رسول الله –صلى الله عليه وسلم–. «فإن أبَوا أن يتحوَّلوا منها» واختاروا البقاء في ديارهم

«فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين» الأعراب هم: الذين يَقطنون البوادي والقُرى، وقد أسلموا، واختاروا البقاء في بواديهم، أو قُراهم، ولم يهاجروا إلى النبي –صلى الله عليه وسلم–، فإنّ هؤلاء إذا لم يهاجروا يكونون كهؤلاء الأعراب، ما شأنهم؟ «يَجري عليهم حكم الله –تعالى–» الذي يجري على المؤمنين؛ من الواجبات، وترْك المحرَّمات، والحدود، وغير ذلك، فحكمهم كحكم أعراب المسلمين، ويَجري عليهم من الأحكام ما يجري على المسلمين.

قال النبي –صلى الله عليه وسلم–: «ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء؛ إلَّا أن يجاهدوا مع المسلمين» أي: أنهم لا يكون لهم نصيب من الغنيمة. والغنيمة: مال يكتسبه المسلمون من الكفار بالقوة والقتال.

والمعلوم أنّ الغنيمة تُقسَم خمسة أخماس: أربعة أخماس منها تكون للمجاهدين المقاتلين، وخُمس يكون لبيت مال المسلمين؛ يُصرَف في مصالح المسلمين العامّة، ويُعطَى منه المسلمون.

والفيء: مال يكتسبه المسلمون من الكفار بغير قتال، كأن يفرَّ الكفار من ديارهم إذا سمعوا بالمسلمين. وهذا الفيء يكون لبيت مال المسلمين، يُصرَف في مصالح المسلمين العامّة، ويُعطى منه المسلمون.

لكنّ الذي أسلم من هؤلاء وأبى أن يهاجر ليس له في الخُمُس من الغنيمة نصيب، وليس له من الفيء نصيب، لا يُعطى من الخُمُس الذي يُجعَل في بيت مال المسلمين من خُمُس الغنيمة، ولا من الفيء؛ إلّا في حالة واحدة: أن يجاهِد مع المسلمين، فإذا جاهد مع المسلمين فإنه يكون له نصيب من الغنيمة؛ لأنّ الغنيمة يُقسَم أربعة أخماسها–كما سمعنا– على المجاهدين في سبيل الله.

«فإن هم أبَوا» وهذه الخصلة الثانية–على قول الأكثر من أهل العلم– «فاسألهم الجزية»، أو: «فَسَلْهُم الجزية». والجزية: مالٌ يدفعه الكافر للمسلمين لقاء حمايته، ونصرته، فيكون دمه كدم المسلمين، وماله كمال المسلمين، وعِرضه كعِرض المسلمين.

الكافر إذا اختار البقاء على دينه، وأراد من المسلمين نصرته وحمايته، أراد أن يبقى، فإنه لابد من أن يَدفع الجزية. هذه هي الجزية.

وقد اختلف الفقهاء ممَّن تُؤخَذ الجزية؟

فذهب بعض أهل العلم أنها تُؤّخذ من كل كافر؛ من العرب أو غير العرب.

وذهب بعض أهل العلم إلى أنها تُؤخَذ من كل كافر إلّا العرب عبدة الأوثان، فإنه لا تُؤخَذ منهم الجزية.

وذهب بعض أهل العلم إلى أنها لا تُؤخَذ إلَّا من أهل الكتاب والمجوس.

وظاهر هذا الحديث–الذي معنا– يَنصر الأوّل –وهو قول الإمام مالك–: أنّ الجزية تُؤخَذ من كل كافر، سواءً كان من العرب أو العجم، فإنّ هذه الوصية لأمير الجيش كلّما أَمَّر النبي–صلى الله عليه وسلم– أميرًا على جيش أو سريَّة.

قال: «فإن هم أبَوا فاسألهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم، وكفَّ عنهم» وهذا عائد إلى ما قدَّمناه؛ من أنه ليس الغرض من قتال الكفار إذهاب نفوسهم وأرواحهم؛ وإنما الغرض إيصال الحق إليهم، فيُبدؤون بالدعوة، ثم تُعرَض عليهم الجزية، لماذا؟ لأنه إذا دفع الجزية، وعاش مع المسلمين، ورأى وفاء المسلمين، وأخلاق المسلمين، وكمال دين المسلمين؛ فإنّ هذا يدعوه إلى أن يُسلِم، فقُدِّمت هنا على الحرب. «فإن هم أبَوا» لم يُعطُوا الجزية، «فاستعن بالله وقاتلهم» وقد قدَّمنا: أنّ النبي–صلى الله عليه وسلم– قال لهم: «اغزوا بسم الله، وفي سبيل الله» أي: مستعينين بالله، مخلصين لله–عز وجل–. وهكذا المؤمن في كل شأنه، كلّما عزم على خير استعان بالله–عز وجل–، فإنه:

إذا لم يَكنْ عونٌ من الله للفتى فأوَّل ما يَجني عليه اجتهادُه

فالمؤمن بحاجة إلى عون الله–عز وجل– في كل خير يعزم عليه، ويقترب من فِعْله.

«وإذا حاصرْتَ أهل حصن» فتحصَّنوا في حصنهم، «فأرادوك» أي: أرادوا منك، «أن تجعل لهم ذمّة الله، وذمّة نبيه» أي: طلبوا الصلح، وأرادوا من القائد

أن يجعل لهم ويعطيهم ذمّة الله، وذمّة نبيه–صلى الله عليه وسلم–؛ «فلا تجعل لهم ذمّة الله، وذمّة نبيه».

وقد ذهب أكثر الفقهاء إلى أنّ هذا النهي للكراهة، وليس للتحريم، قالوا: لأنه احترازٌ عن مُحتمَلٍ، ليس بغالب، ما هو المحتمَل؟ ألَّا يُوفَّى بهذه الذمّة، وهذا في الحقيقة–وإن كان محتمَلًا– إلا أنه ليس غالبًا في المسلمين، الغالب في المسلمين أنهم يُوفُّون بالعهود، يُوفون بالذِّمم، فهذا محتمَل، ليس غالبًا. قالوا: وما دام أنه احترازٌ عن محتمَل ليس بغالبٍ؛ فإنّ هذا يصرف النهي من التحريم إلى الكراهة. وبعض أهل العلم حكى هذا إجماعًا، وقال: إنه للتنزيه بالإجماع؛ **ولكن فيه خلاف.**

فقد ذهب بعض العلماء إلى التحريم، قالوا: لأنه من باب تعظيم الله–عز وجل–، وتعظيم الله واجب، فيكون إعطاء ذمّة الله، وذمّة نبيه–صلى الله عليه وسلم– مُحرَّمًا.

والأوّل أكثر عند أهل العلم وأشهر، ولعله الأقرب–والله أعلم–.

«ولكن اجعل لهم ذمتك، وذمّة أصحابك» انظر هنا؛ قال النبي–صلى الله عليه وسلم–: «ولكن اجعل لهم ذمتك» أيها الأمير، «وذمّة أصحابك»؛ لأنّ الذمة كما تكون من الأمير تكون من الفرد من الجيش، بل تكون من مسلم ولو لم يكن من أفراد الجيش، فذمّة المسلمين واحدة، يسعى بها أدناهم.

فلو أنّ عبدًا مملوكًا مسلمًا أعطى الكفار الذمّة؛ فإنّ الذمّة تَلزَم المسلمين؛ إلَّا أن يَنبذوا لهم، ويَردّوا ذلك لهم على سواء.

بل من كمال الإسلام: أنه لو فَهِمَ الكافر الذمّة أو الأمان غلطًا وخطأً؛ فإنه لا يؤذَى، بل يُرَدُّ إلى مكانه. فلو أنّ مسلمًا في الجيش أشار إلى أهل الحصن بعمامة بيضاء، فظنوه يشير إليهم بالأمان والذمة، فنزل أحدهم أو بعضهم إلى المسلمين، فلمّا قُبِض عليه قال: ذاك أشار إليّ بعمامة بيضاء! وهذا يدل على السلام، يدل على الذمّة، يدل على الأمن، قال المسلم: لا، أنا كنت أنفض الغبار من عمامتي، ما أشرت إليه، ولا قصدته! فإنّ الفقهاء نصُّوا على أنّ هذا الكافر لا يؤذَى، بل يُرَدُّ إلى حصنه الذي جاء منه.

وإنك لتعجب؛ كيف أنّ شِرْذِمَة تَنتسب إلى الإسلام تَفْهَم أنّ الغدر دِين، وأنّ إخفار الذمم دِين، بل إنّ قتل المسلم دين، بل إنّ قتل الفاضل من المسلمين دين، فيفجِّرون العالِم بسيارته، أو المسلم بسيارته! وهؤلاء ما عَرفوا دين الله.

والواجب علينا: أن نعتني بتعليم أبنائنا دين الله، وأنّ دين الله دين وفاء، دين تعظيم للدماء، دين تعظيم للذمم، دين تعظيم للعهود.

ولذا؛ قال: «ولكن اجعل لهم ذمتك، وذمّة أصحابك، فإنكم أن تُخفِروا ذممكم وذمّة أصحابكم» أي: تَنقضوا العهد الذي أعطيتموه وجعلتم عليه هذه الذمّة «أهون من أن تُخفِروا ذمّة الله وذمّة نبيه».

يا إخوة! إخفار الذمّة وإخفار العهد حرام على كل حال، لكن إذا كان العهد عهد الله، إذا كانت الذمة ذمة الله أو ذمة نبيه–صلى الله عليه وسلم–؛ فإنّ إخفارها أشرّ، وأعظم شرًّا.

ولذلك؛ هذا مثالٌ عند أهل العلم لقاعدة:" يُختار أهوَن الشَّرَّيْن"، إذا كان لابد من أحد الشَّرَّين فإنّ المؤمن يختار الأهوَن، وذلك أنّ الأمير لو أعطاهم ذمّة الله يمكن أن تُخفَر هذه الذمّة، ولو أعطاهم ذمته يمكن أن تُخفَر هذه الذمّة، وهذان شرَّان؛ لكنّ إخفار ذمّة الأمير أهوَن من إخفار ذمّة الله–عز وجل–. فأرشده النبي–صلى الله عليه وسلم– إلى هذا الأمر الذي فيه اختيار أهوَن الشَّرَّين.

«وإذا حاصرتَ أهل حصن فأرادوك أن تُنزلهم على حُكم الله» قالوا: أنزلنا على حكم الله، واحكم فينا بحكم الله–عز وجل–، قال: «فلا تُنزِلهم على حُكم الله؛ ولكن أنزلهم على حكمك» انظروا هنا؛ ما قال: وحكم أصحابك، ما هو مثل الذمّة؛ لأنّ الحكم إنما هو للأمير، وليس لأفراد الجيش. «أنزلهم على حكمك، فإنك لا تدري أتصيب فيهم حكم الله أم لا».

والخلاف في هذا كالخلاف في إعطاء الذمّة:

الأكثر على أنّ هذا مكروه، وليس بحرام.

وذهب بعض أهل العلم إلى الحُرمة.

ثم اختلف العلماء: هل هذا النهي خاص بزمن النبي –صلى الله عليه وسلم– أم أنه مستمر إلى زماننا؟

فقال بعض أهل العلم: هو خاصٌّ بزمن النبي –صلى الله عليه وسلم–؛ لماذا؟ قالوا: لأنه وقت الوحي، ويمكن أن يتغيَّر الحُكم والأمير لا يدري، يمكن أن يَخرج الأمير من المدينة والحُكم كذا، مثلًا: قد يكون يخرج من المدينة والحُكم أنهم يُقتَلون، أنّ حكم الله فيهم أنهم يُقتَلون، ثم قد يُنسَخ هذا الحكم بالتخيير بين القتل والفداء والاسترقاق، ولا يَعلم الأمير بذلك؛ فلا يكون حَكَمَ فيهم بحُكم الله. قالوا: وهذا خاص بزمن النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنه بعد موت النبي –صلى الله عليه وسلم– لن تتغيَّر الأحكام.

وقال بعض أهل العلم: بل هذا مستمر؛ لأنّ المجتهد مهما اجتهد لا يدري هل يصيب حُكم الله، أو لا يصيب؟

وهذا عندي أظهر –والله أعلم–: أنه مستمر، فيقول لهم الأمير أو ولي الأمر: ننزلكم على حكمنا، ثم يجتهدُ في الحكم الشرعي، ليس بهواه؛ وإنما يجتهد في الحكم الشرعي، فإن أصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجر واحد.

وفي هذا دليل بيِّن لقول من قال من أهل الأصول: "إنّ المصيب من المجتهدين واحد". المصيب لحكم الله من المجتهدين واحد، فإنه لو كان كل

مجتهدٍ مصيبًا؛ لَمَا قال النبي–صلى الله عليه وسلم–: «فإنك لا تدري أتصيب فيهم حُكم الله»، فلمّا قال ذلك عَلِمْنا أنّ المصيب من المجتهدين واحد.

وهنا فائدة يا إخوة؛ وهي: أنّ ولي الأمر المسلم إذا اجتهد؛ فقد فَعَلَ ما عليه؛ سواءً أصاب أم أخطأ. فإذا اجتهد ولي أمر المسلمين في قضية، واتَّبع الطريق المشروع، فرجع إلى أهل الرأي وأهل العِلْم، ثم أخذ بما يراه أصلح إن اختَلفوا؛ فإنه لا يُعاب، ولو لم يُصِبِ الصواب في نظرنا؛ لأنّ النبي–صلى الله عليه وسلم– قال للأمير: «فإنك لا تدري أتصيب فيهم حُكم الله» ومعنى ذلك: أنه قد يجتهد ويصيب فيهم حُكم الله، وقد يجتهد ولا يصيب فيهم حُكم الله؛ وهو لا يُعاب على الحالين. وهذه قاعدة عند أهل السُّنَّة والجماعة.

[فيه مسائل: الأولى: الفرق بين ذمّة الله وذمة نبيه–صلى الله عليه وسلم–، وبين ذمّة المسلمين]

ما قرأه الدكتور ياسين أدقُّ مما ورد في بعض النُّسخ: (الفرق بين ذمّة الله وذمّة نبيه، وذمّة المسلمين)، لأنَّا لمّا أتينا بـ(بين) في قولنا: (الفرق بين ذمة الله وذمة نبيه، وبين ذمة المسلمين) بيَّنَّا أنّ ذمّة الله وذمّة نبيه–صلى الله عليه وسلم– في جانب، وذمّة المسلمين في جانب، فهذا المقصود بالتفريق.

أمّا إذا قلنا: (الفرق بين ذمة الله، وذمة نبيه، وذمة المسلمين) قد يظن القارئ أنّ التفريق بين الثلاثة. وليس هذا هو المراد.

وقد تبيَّن لنا الفرق، وأنّ ذمّة الله وذمّة نبيه–صلى الله عليه وسلم– أعظم وأشد، وأنّ إخفارها أعظم شرًّا.

[الثانية: الإرشاد إلى أقلّ الأمرين خطرًا]

كما قلنا: يُختار أهوَن الشَّرَّين.

[الثالثة: قوله: «اغزوا بسم الله في سبيل الله»]

وهذا يدل على أنّ الجهاد المشروع: هو الذي يأمر به ولي الأمر، ويُستعان فيه بالله، ويُخلَص فيه لله–سبحانه وتعالى–. وإذا فَقَد واحدًا من هذه الثلاث فليس جهادًا مشروعًا.

[الرابعة: قوله: «قاتلوا مَن كَفَر بالله»]

و «مَن كفر بالله»: كلُّ مَن لم يَقبَل الإسلام؛ سواء كان من اليهود، أو النصارى، أو المجوس، أو البوذيين، أو غير ذلك، وشرْط هذا: أن يكون ممَّن يقاتَل–كما تقدم معنا في الشرح–.

[الخامسة: قوله: «استعن بالله وقاتلهم»]

وأنّ المؤمن بحاجة إلى عون الله–عز وجل– في كل أمر يُقدِم عليه.

[السادسة: الفرق بين حُكم الله وحُكم العلماء]

- **حكم الله**: يجب على المسلم أن يَلزمه إذا عَلِمَه.

• **وحكم العلماء**: إذا أجمعوا فهو حُكم الله، وإذا اختلفوا؛ فالواجب على المسلم أن يَلزَم الحقَّ فيه. هذا من جهة.

ومن جهة أخرى: أنّ الأمير أو العالِم يُنزِل الناس على حُكمِه بشرط أن يَتطلَّب الحكم الشرعي، ويجتهد في هذا، وإذا أفتى فإنه يقول: يظهر لي–والله أعلم– أنّ الحكم الشرعي كذا، أو: رأيي أنّ الحكم كذا، ولا يقول: حكم الله؛ إلا إذا كان يقول عن نص، فيقول: حُكم الله كذا، ويقرأ الآية، حُكم الله كذا، ويقرأ الحديث.

أمّا إذا كان يُفتي بما رآه ولو عن اجتهاد في النصوص؛ فإنه يقول: الذي أراه كذا، الذي يظهر لي–والله أعلم– أنّ الحكم كذا.

[السابعة: في كون الصحابي يحكم عند الحاجة بحكم لا يدري أيوافق حكم الله أم لا؟]

الصحابي في زمن النبي–صلى الله عليه وسلم– يجتهد عند الحاجة. ولذلك الأمير إذا كان محاصِرًا قومًا في حِصن، وطلبوا منه الحُكم؛ فإنه يحكم باجتهاده؛ مع وجود النبي–صلى الله عليه وسلم–، لكن لا يستطيع أن يَصِل إليه.

وكذلك العالِم بعد؛ فإنه إن فَقَدَ النَّصّ؛ يجب عليه أن يجتهد بالقياس، والقواعد الشرعية العامة، وهو محمود مأجور، إن أصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجر واحد.

تابع الدرس الثاني والسبعون: شرح باب ما جاء في الإقسام على الله

[باب ما جاء في الإقسام على الله].

من تعظيم الله–عز وجل–: ألَّا يُقسِم العبد بالله على الله في أمر غيبي بغير علم. وهذا من كمال التوحيد الواجب.

ولذا؛ عقد الشيخ في كتاب" التوحيد" هذا الباب: (ما جاء في الإقسام على الله) أي: من الوعيد.

وإقسام العبد على الله له ثلاثة أنحاء:

الأوّل: الإقسام بالله على الله بأمر عُلِم في كتاب الله، أو في سُنَّة رسول الله–صلى الله عليه وسلم–، وهذا جائز، ولا حرج فيه.

مثال ذلك: أن يقول المسلم: "والله لا يَغفر الله لمشركٍ"، ما قال: هذا، أو فلان، أو يقول: "والله لا يغفر الله للمشركين"، فإنّ هذا هو الذي جاء في الكتاب والسُّنَّة.

أو يقول المسلم: "والله ليشفعنّ أقوام يوم القيامة"، فهذا يقين، يعني: من قوة يقينه بما أخبر الله به وأخبر به رسوله–صلى الله عليه وسلم– يحلف بذلك على الله.

والثاني: الإقسام على الله فيما يرجو العبد من خير ثقةً بما عند الله، وبفضل الله –عز وجل–.

ومن ذلك: ما جاء من أنّ الرُّبَيِّع ابنة النضر كسرت ثنية جارية، فطلب أهلها القصاص فعُرِض عليهم الصلح فأبَوا، وعُرِض عليهم العفو فأبَوا، فقال أنس بن النَّضر:" أتُكسَر ثنية الرُبَيِّع يا رسول الله؟! لا والذي بعثك بالحق لا تُكسَر ثنية الرُّبَيِّع"، ما قال هذا اعتراضًا على حكم الله؛ قال هذا ثقةً بالفرج من الله–سبحانه وتعالى–، فقال النبي–صلى الله عليه وسلم–: «يا أنس! كتاب الله القصاص» فرض الله القصاص، حكم الله القصاص، فرضي أهلها وعفَوا، بعد أن كانوا مصرِّين على القصاص، اللهُ ألانَ قلوبهم؛ فرضوا وعفوا، أو رضوا بالأرش –جاء هذا وهذا– ولعل المراد بالعفو هنا: أنهم عفوا عن القصاص وأخذوا المال. فقال النبي–صلى الله عليه وسلم–: «إنّ من عباد الله مَن لو أقسم على الله لأبَرَّه» والحديث في الصحيحين. فهنا قال النبي–صلى الله عليه وسلم– : «إنّ من عباد الله»–ومنهم أنس بن النضر– «مَن لو أقسم على الله لأبرَّه»؛ لماذا؟ لعظيم يقينه، وحُسن عبادته، هو حَسَنُ الظن بالله، متيقِّن من فضل الله، يرجو ما عند الله.

ومن ذلك أيضًا؛ قول النبي–صلى الله عليه وسلم–: «ألا أخبركم بأهل الجنة؟»–مَن هم أهل الجنة؟– «كل ضعيفٍ متضعِّفٍ، لو أقسم على الله لأبرَّه»، متفقٌ عليه. «كل ضعيفٍ» فُسِّرتْ« ضعيف» هنا: بالمتواضع، ولذلك قال:« متضعِّف»، متضعِّف يعني: متواضع، صاحب تواضع، صاحب خُلُق. «لو أقسم على الله لأبرَّه» من حُسن عبادته، ورِفعة منزلته عند الله–سبحانه وتعالى–.

والثالث: الإقسام على الله بالله في أمرٍ غيبي بلا علم، وهذا هو التألِّي على الله، وهو محرَّم؛ بل من كبائر الذنوب.

كأن يقول الرجل الصالح: "والله لا يغفر الله لفلان"، سواء كان فلان ميتًا أو حيًّا، مسرف على نفسه، مكثِر من الذنوب، لكن مسلم، مات، فقال رجل: والله لا يغفر الله له! هذا أقسم بالله على الله في أمرٍ غيبي لا يُعلَم، مادام أنه مسلم فإنه قد يغفر الله له وقد لا يغفر الله له.

وكذلك لو قال عن حي –سواءً كان مسلمًا أو كافرًا–: "والله لا يغفر الله له، والله ليدخلنَّه الله النار"؛ فهذا أيضًا لا يجوز؛ لأنه:

في المسلم: قد يغفر الله له؛ ولو مات على ذنبه.

وفي الكافر: قد يهديه الله ويسلم، فيغفر الله له.

إلَّا إذا كان مراده عند الكلام: إذا مات على تلك الحال؛ لكن لا ينبغي له أن يُدخِل نفسه في هذا، ويُقسِم على الله في مثل هذا الأمر.

ومراد الشيخ: النوع الثالث؛ الإقسام بالله على الله في أمر غيبي بغير عِلم لم يَرِدْ فيه علمٌ.

[عن جندب بن عبد الله –رضي الله عنه– قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: «قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان؛ فقال الله –عز وجل–: مَن ذا الذي يتألَّى عليَّ أني لا أغفر لفلان، إني قد غفرتُ له وأحبطتُ عملك» رواه مسلم]

هذا الحديث الصحيح في صحيح مسلم عن جندبِ بن عبد الله رضي الله عنه –يصح أن يقال: جُندُب، ويقال: جُندِب– قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم– «قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان» فأقسَم على الله ألَّا يغفر لفلان، «فقال الله –عز وجل–: مَن ذا الذي يتألَّى عليّ» مَن ذا الذي يحلف عليّ «ألَّا أغفر لفلان؟ إني قد غفرت لفلان وأحبطت عملك» وحبوط العمل: هو إبطاله، وإذهاب أجره، وهو على نوعين:

النوع الأوّل: حبوطٌ كليّ، شامل؛ وهو: إبطال جميع الأعمال والخيرات، ويسميه بعض أهل العلم: حبوط إسقاط، بحيث تُسقَط جميع خيراته، وهذا لا يكون إلا بالكفر بالله؛ كما قال الله –عز وجل–: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر:٦٥].

والنوع الثاني: حبوطٌ جزئيّ لبعض الأعمال، أو للأعمال من جهة موازنتها بالسيئات.

إمّا حبوط لبعض الأعمال؛ مثال ذلك: حبوط الصدقة إذا لحقها المنُّ والأذى، إنسان تصدق على فقير ثم آذاه؛ كأن يقول: والله إني تصدقتُ عليكم ووفقني الله! أنتم فقراء تستأهلون الذي يتصدق عليكمّ والله يا أخي ما أدري كيف تعيشون لولا صدقات الناس؟! فأذاه بلسانه أو منَّ عليه. إذا رأى عليه ثوبًا قال: ما شاء الله لعله من النقود التي أعطيتك إياها! إذا رأى مع أولاده شيئًا قال:

ما شاء الله اليوم شوف أولادك معهم ما شاء الله يفرحون وكذا، لعلها من فلوسي اللتي أعطيتك! هذا يُبطل الصدقة، يُحبط الصدقة.

أو للأعمال كلها من جهة الموازنة بالسيئات؛ فترجح سيئاته على حسناته، وهذا ليس إحباطًا دائمًا، وإنما يَدخل النار إن شاء الله أن يَدخل، فإذا عُذِّب بسيئاته أُخرِج من النار وجوزي بفضل الله بحسناته، فترجع الحسنات؛ لكنها تُحبَط بالموازنة فيَدخل النار إن شاء الله أن يَدخل. هذا إحباط جزئي.

طيِّب؛ عندنا في الحديث: أنّ ربنا–سبحانه وتعالى– قال للمتألِّي: «وأحبطتُ عملك»، وظاهر هذا: أنه أحبط جميع عمله؛ لأنه مفرد مضاف، « عمل» مفرد، مضاف للكاف، والمفرد المضاف: يَعُمّ. طيِّب هنا إشكال: تقدم أنّ الإحباط لكل الأعمال إنما يكون بالكفر فقط، بالشرك فقط!

فقال بعض أهل العلم: لعله كان مستحلًّا هذا مع علمه بحُرمته. لعله حلف على الله وأقسم على الله في هذا الباب عالمًا بالحُرمة مستحلًّا، ومَن استحل الحرام فهو كافر، مَن عَلِمَ بأن الشيء حرام واستحلَّه؛ فإنه يَكفر. وهذا وجه.

وقال بعض أهل العلم: لعل هذا هو الحكم في شرعهم: أنّ مَن أقسم على الله يَحبط عمله.

وقال بعض أهل العلم: بل هو حبوطٌ جزئي؛ وإنما ورد بهذه الصيغة لتشديد الوعيد. ولعل هذا أقرب–والله أعلم–: أنه حبوط جزئي للعمل الذي

تفاخَر به. وكان على هذه الصيغة من باب التشديد في الزجر والتشديد في الوعيد.

[وفي حديث أبي هريرة أنّ القائل رجلٌ عابد، قال أبو هريرة-رضي الله عنه-: «تكلم بكلمة أوبقَت دنياه وآخرته»]

(قال أبو هريرة-رضي الله عنه-:" سمعتُ رسول الله-صلى الله عليه وسلم- يقول: «كان رجلان من بني إسرائيل متواخيَين، فكان أحدهما يُذنب، والآخر مجتهدًا في العبادة، فكان لا يزال المجتهد يرى المذنب على الذنب فيقول: أَقصِرْ، فوجده يومًا على ذنب فقال له: أَقْصِر، فقال: خلِّني وربي، أبُعثت علي رقيبًا؟ فقال: واللّه لا يغفر اللّه لك، أو: لا يدخلك الله الجنة، فقبض أرواحهما، فاجتمعا عند رب العالمين، فقال للمجتهد: أكنت بي عالمًا؟ أو كنت على ما في يدي قادرًا؟! وقال للمذنب: اذهب فادخل الجنة برحمتي، وقال للآخر: اِذهبوا به إلى النار»، قال أبو هريرة: "والذي نفسي بيده، لَتكلَّم بكلمةٍ أوبقت دنياه وآخرته" رواه أبو داود، وصحَّحه الألباني.

الله أعلم هل هذا الرجل هو الرجل في الحديث السابق أو لا؟ لكن هذا الرجل لمَّا رأى أخاه المذنب على ذنبٍ استعظمه فنهاه فلم ينتهِ؛ قال:" والله لا يغفر الله لك" بغير علم، "أو: والله لا يدخلك الله الجنة" فكان قوله هذا ذنبًا عظيمًا، والمذنب-يا إخوة- لم يكن مشركًا؛ ولذلك قال:" خلني وربي"، لو

كان مشركًا ما غفر الله له، الله لا يغفر للمشرك الذي يموت على الشرك؛ لكن مذنب مسرف على نفسه، فغفر الله له.

وفي هذا: أنّ ربنا الرحيم الغفور قد يغفر للمذنب المسرف بغير سبب، يغفر له برحمته وعفوه ولطفه–سبحانه وتعالى–.

ولذلك؛ لا ييأس من رحمة الله مؤمن، أبدًا؛ ولكن لا يغترُّ برحمة الله مؤمن، أبدًا، وأَدخل المجتهد في العبادة النارَ بسبب ذنبه، وليس فيه أنه خُلِّد في النار، وإنما دخل النار بسبب ذنبه. فهذا يدل على عِظَم ذنب من أقسم على الله في أمرٍ غيبي بلا علم.

[فيه مسائل: الأولى: التحذير من التألِّي على اللّه]

التحذير من الحلف على الله في أمرٍ غيبي بلا علم– لابد من هذا القيد: في أمرٍ غيبي بلا علم–. أمّا لو حلف في أمرٍ غيبي بعلم، فقال:" والله إنّ لله يديْن"، قد حلف بأمرٍ غيبي أخبرنا الله به؛ فهذا محمود. ولو حلف على خيرٍ يُرتجى ثقةٍ بالله فهذا لا يدخل في هذا، وإنما يدخل في هذا إذا حلف على أمرٍ غيبي بلا علم.

[الثانية: كون النار أقرب إلى أحدنا من شراك نعله]

الله المستعان! الإنسان لا يَستخف بالذنوب، رُبَّ ذنبٍ أوبَق صاحبه، رُبَّ ذنبٍ لا يراه الإنسان عظيمًا كان سببًا في دخول الإنسان النار! ولذلك الموفَّق

يحرص على الخيرات بإخلاصٍ واتباع، ويَحذَر الوقوع في المنهيات، حَذَرًا من أن يكون ذلك سببًا في هَلَكَتِهِ.

[الثالثة: أنّ الجنة مثل ذلك]

فما دام الإنسان مؤمنًا مسلمًا؛ فإنّ الجنة قريبةٌ منه، وليُحسن ظنه بربه، وليُحسن سيره إلى ربه، وليس بين الإنسان وبين قيامته سوى الموت، وليس بينه وبين الموت سوى أن يحل الأجل، والله أعلم متى يحل.

فيجب عليك يا عبد الله أن تستشعر هذا؛ أنّ النار قريبة، وأنّ الجنة قريبة؛ فتبتعد عما يؤدِّي إلى النار، وتجتهد فيما يُدخل اللهُ العبد به الجنة بفضله –سبحانه وتعالى–.

[الرابعة: فيه شاهد لقوله: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة» إلخ]

ورد في الحديث عند البخاري أنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: «إنّ العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله –عز وجل– لا يُلقي لها بالًا؛ يرفعه الله بها درجات» –أي في الجنة– «وإنّ العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله، لا يُلقي لها بالًا؛ يهوي بها في جهنم»، ومعنى «لا يلقي لها بالًا»: لا يكون لها وزنٌ في نظره.

وعند مسلم: «إنّ العبد ليتكلم بالكلمة يَنزل بها في النار أَبْعَدَ ما بين المشرق والمغرب».

وجاء قول النبي –صلى الله عليه وسلم–: «إنّ الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأسًا؛ يهوي بها سبعين خريفًا في النار» رواه الترمذي، وابن ماجه، وأحمد، وقال الألباني: حسنٌ صحيح. وما وقع من هذا الرجل في هذا الحديث هو من هذا الباب؛ تكلَّم بكلمة لم يُلقِ لها بالًا دخل بها النار–والعياذ بالله–.

[الخامسة: أن الرجل قد يُغفَر له بسبب هو من أَكْرَه الأمور إليه]

وذلك أنّ هذا الرجل قد غُفِر له بسبب تعالي الآخر عليه، وتألِّي الآخر على الله–سبحانه وتعالى–، فتعالي الآخر عليه واحتقار الآخر له سببٌ مكروه في نفسه؛ لكن قاده ذلك إلى أن يغفر الله له–سبحانه وتعالى–.

تابع الدرس الثاني والسبعون: باب لا يُستشفَع بالله على خلقه

[باب لا يُستشفَع بالله على خلقه]

من تعظيم العبد لربه: ألَّا يَستشفع به على أحدٍ من خَلقه، فإنّ شأن الله أعظم من ذلك، إذ الغالب أن يكون المستشفَع به لا يستطيع أن يفعل الخير بنفسه، هذا الغالب.

مثلًا: تأتيني فتقول لي: "اشفع لي عند مدير الجامعة أن أُقبَل"، أنا لا أستطيع أن أقبلك في الجامعة، لو كنتُ أستطيع أن أقبلك ما احتجت إلى الشفاعة، كنت أقبلك وانتهينا، بدون أن أبذل شيئًا.

فالغالب أنّ المستشفَع به لا يَملك أن يعطي الخير المطلوب، وهذا لا يكون في شأن الله، أبدًا؛ بل الله –عز وجل– يعطي ما شاء لمن شاء، لا يَنقص ذلك من ملكه شيئًا –سبحانه وتعالى–.

ولأن الغالب أيضًا؛ أنّ المستشفَع به يكون أقلّ منزلةً من المستشفَع إليه. تستشفع بالوزير عند الملك، تستشفع بالمدير العام عند الوزير، وهذا لا يكون في شأن الله –سبحانه وتعالى–.

ولأنّ الشفاعة تتضمَّن السؤال، والله –عز وجل– مسئولٌ لا سائل، الشفاعة تتضمن أن تسأل لغيرك، أذهب إلى مدير الجامعة فأسأله أن يقبل الطالب الفلاني، والله –سبحانه وتعالى– مسئول يُسأل ولا يَسأل عبادَه –سبحانه وتعالى–

.

فالاستشفاع بالله على أحد من خَلقه ينافي كمال التوحيد الواجب، ولذلك عقد الشيخ هذا الباب: باب لا يستشفع بالله على خَلقه.

[عن جبير بن مطعم–رضي الله عنه– قال: «جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، نُهِكت الأنفس، وجاع العيال، وهلكت الأموال، فاستسقِ لنا ربك، فإنّا نَستشفع بالله عليك، وبك على الله، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «سبحان الله! سبحان الله! فما زال يسبح حتى عُرف ذلك في وجوه أصحابه، ثم قال: ويحك! أتدري ما الله؟ إنّ شأن الله أعظم من ذلك، إنه لا يُستشفَع بالله على أحد» وذكر الحديث. رواه أبو داود]

هذا الحديث رواه أبو داود، والبزَّار، وابن خزيمة في التوحيد، وأبو عوانة، وابن أبي عاصم، وسكت عنه أبو داود؛ فهو صالحٌ عنده، ولذلك قال الذهبي وابن القيم: هو حسنٌ عنده –حسن عند أبي داود–، وضعَّف إسناده الألباني والأرناؤوط، واستغربه الذهبي وابن كثير. والناظر في الحديث يدرك أنّ إسناده ضعيف؛ لكن معناه صحيح، وهذا الذي وصل إليه الشيخ ابن باز–رحمه الله–: أنّ في إسناده ضعفًا لكنّ معناه صحيح. وما فيه تشهد له الأدلة، والقواعد الشرعية، ولذا ما زال الأئمة الكبار يحتجُّون به في التوحيد، ولذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية–رحمه الله–: "هذا الحديث وأمثاله في المعنى لم يزل متداوَلًا

بين أهل العلم، خالِفًا عن سالِف، ولم يَزل سلف الأمّة وأئمتها يَروُون ذلك رواية مصدِّقٍ به، رادٍّ على من خالفه، متلقِّين ذلك بالقبول".

فالحديث وإن كان في إسناده ضعف إلَّا أن معناه صحيح، تدلُّ عليه الأدلة الأخرى بخصوصها وعمومها، ويَعضُد هذا ويقويه: أنّ أئمة المسلمين الكبار يحتجُّون به، وممن احتج به: ابن خزيمة في كتاب (التوحيد) الذي اشترط فيه الصحة. والبخاري صاحب الصحيح فإنه احتج بهذا الحديث. والإمام أحمد فإنه احتج بهذا الحديث. وهذا يدل على قبول معناه، وأنّ معناه مقبولٌ عند أهل العلم.

والشيخ هنا لم يروِ الحديث بالنَّص؛ وإنما رواه بالمعنى.

أنا سأذكر لكم الحديث برواية أبي داود: عن جبير بن مطعم–رضي الله عنه– قال: «جاء أعرابي إلى النبي–صلى الله عليه وسلم– فقال: يا رسول الله، جَهدتْ الأنفس، وضاعت العيال، ونَهَكت الأموال، فاستسقِ الله لنا»، طلب من النبي–صلى الله عليه وسلم– أن يستسقي الله لهم، بما كان يستسقي الصحابة؟ يستسقون بدعاء رسول الله–صلى الله عليه وسلم–، فإنه إذا استسقى به الصحابة دعا الله–سبحانه وتعالى–:

- إمّا بدعاءٍ فقط؛ كما حصل وهو على المنبر.
- وإمّا بصلاةٍ ودعاء؛ كما في صلاة الاستسقاء.

«فاستسق الله لنا؛ فإنّا نَستشفع بك على الله» أي: بدعائه–صلى الله عليه وسلم–. «ونستشفع بالله عليك»، ذكر جملتين: « نستشفع بك على الله» و« نستشفع بالله عليك». فقال النبي–صلى الله عليه وسلم–: «ويحك!» وهذه كلمة زجرٍ مع توجُّع، عندما أقول لك: "ويحك! لِمَ تَذكُر لي هذا؟ " كأني أقول لك:" أوجعتني، لا تفعل هذا". فانتبهوا ماذا يقول العلماء؟ كلمة زجر مع توجُّع، تُشعِر بتوجعك ممَّا سمعتَ وزجرك للمتكلم، «ويحك! أتدري ما تقول؟!» أتعي ما تقول؟! «وسبَّح رسول الله–صلى الله عليه وسلم–» أي: قال: سبحان الله –والشيخ ذكر هذا بالمعنى– (سبحان الله! سبحان الله!)، و"سبحان الله": كلمةٌ يقولها المسلم عند الأمر العظيم، إذا رأى عظيمًا أو سمع عظيمًا يقول: سبحان الله، ويقولها المصلي إذا نابه شيءٌ في صلاته، ويقولها المسلم في ذكره الله–سبحانه وتعالى–.

و"سبحان الله" معناها: أنزِّه الله، أي: أسبِّح الله تسبيحًا، أي: أنزهه تنزيهًا.

«وما زال يسبح حتى عُرف ذلك في وجوه أصحابه» سبحان الله! ما أعظم محبة الصحابة للرسول–صلى الله عليه وسلم–! إذا تألم النبي–صلى الله عليه وسلم– يتألّمون، لمّا سمعوا النبي–صلى الله عليه وسلم– قال: «ويحك! سبحان الله! سبحان الله! سبحان الله! سبحان الله!» ظهر الألم في وجوه

الصحابة–رضوان الله عليهم–؛ من عظيم محبتهم لرسول الله–صلى الله عليه وسلم–.

ثم قال: «ويحك!»؛ مرةً ثانية، «إنه لا يُستشفع بالله على أحد من خَلقه»، فلم يُنكر عليه النبي–صلى الله عليه وسلم– أنه قال:"إنّا نستشفع بك على الله"؛ وإنما أَنكر عليه أنه قال:" إنا نستشفع بالله عليك"؛ قال «إنه لا يُستشفَع بالله على أحد من خَلقه»، وذلك لِمَا ذكرناه من الأمور الثلاثة التي لا تليق بجلال الله– سبحانه وتعالى–.

قال: (وذكر الحديث)، لم يذكر الشيخ بقية الحديث؛ لأنه اقتصر على الشاهد للباب الذي ذكره.

[فيه مسائل: الأولى: إنكاره على مَن قال (نستشفع بالله عليك)]

وفي هذا–يا إخوة– فائدة جليلة؛ وهي: أنّ الخطأ يُرَدُّ على صاحبه كائنًا من كان، ولو كان ذا فضلٍ، ولو كان ذا قصدٍ حَسن، والنبي–صلى الله عليه وسلم– ما سمع خطأً إلا ردَّه، فالحق أعلى من كل أحد؛ مع حفظ فضل أهل الفضل.

فلا عيب على طالب العلم إذا سمع قولًا لعالم أن يقول: "هذا خطأ، والصواب كذا"، فإنكار الخطأ سُنَّة.

ولاشك أنّ هذا الرجل القائل هذه المقولة لم يكن يقصد الأمور التي لا تليق؛ لكنّ الجملة كانت خطأً مع حُسن قصده، فردّها النبي–صلى الله عليه وسلم– وأنكرها.

[الثانية: تغيُّره تغيُّرًا عُرِف في وجوه أصحابه من هذه الكلمة]

وفي هذا؛ أنّ المؤمن يغار على دين الله، وأنّ الإيمان يقتضي الغَيرة على دين الله، وعلى مقام رسول الله–صلى الله عليه وسلم–، وعلى مقام صحابة رسول الله–صلى الله عليه وسلم–، فالذي يسمع أنّ رسول الله–صلى الله عليه وسلم– سُبَّ ولا يغار ولا يتألم ولا يتغيَّر وجهه؛ فليُراجع إيمانه. والذي يسمع سَبَّ الصحابة–رضوان الله عليهم–، سبَّ أبي بكر، سبَّ عمر، سبَّ عثمان، سبَّ علي، ولا يغار ولا يتألم ولا يغضب؛ فإنّ في إيمانه شيئًا. فكيف إذا قال:"هم إخواننا، يذبحون كما نذبح ونصلي كما نصلي"؟! لا شك أنّ مثل هذا القائل يجب عليه أن يراجع إيمانه، وأن يعالج الضَّعف الواقع في إيمانه.

فهذا ميزان–يا عبدالله– تَزِنُ به قوة إيمانك: الغَيرة على دين الله، الغيرة على مقام رسول الله–صلى الله عليه وسلم–، الغَيرة على صحابة رسول الله–صلى الله عليه وسلم–.

[الثالثة: أنه لم ينكر عليه قوله (نستشفع بك على الله)]

وهذا جائز.

[الرابعة: التنبيه على تفسير سبحان الله]

وأنها تقال عند أمرٍ مستعظم؛ حسنًا كان أو قبيحًا، وأنّ معناها: تنزيه الله سبحانه وتعالى.

[الخامسة: أنّ المسلمين يسألونه الاستسقاء]

(أنّ المسلمين) أي: الصحابة، (كانوا يسألونه–صلى الله عليه وسلم الاستسقاء) ومعنى"يسألونه الاستسقاء": يطلبون منه الدعاء بنزول الغيث، وهذا قد وقع مرارًا. ويفسِّر هذا الاستسقاء فِعْلُ النبي–صلى الله عليه وسلم–؛ فإنهم إذا سألوه الاستسقاء دعا الله–سبحانه وتعالى–.

وهكذا يستسقي المسلمون بالرجل الصالح الشريف، فيقدِّمونه في صلاة الاستسقاء، ويطلبون منه الدعاء أن يغيثهم الله، كما فعل الصحابة في زمن عمر– رضي الله عنه– واستَسقَوا بالعباس عمِّ رسول الله–صلى الله عليه وسلم؛ أي: بدعائه.

والله أعلم. وصلى الله على نبينا وسلم.

الدرس الثالث والسبعون: شرح باب: ما جاء في حماية النبي صلى الله عليه وسلم حِمَى التوحيد، وسدِّه طُرُقَ الشِّرك

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، مَن يهدِ الله فلا مضل له، ومَن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[آل عمران:١٠٢]

﴿يا أَيُّهَا النّاسُ اتَّقوا رَبَّكُمُ الَّذي خَلَقَكُم مِن نَفسٍ واحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنها زَوجَها وَبَثَّ مِنهُما رِجالًا كَثيرًا وَنِساءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذي تَساءَلونَ بِهِ وَالأَرحامَ إِنَّ اللهَ كانَ عَلَيكُم رَقيبًا﴾[النساء:١]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[الأحزاب:٧٠-٧١]

أمّا بعد، فإنّ خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد –صلى الله عليه وسلم–، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدَثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

ثمَّ يا معاشر الفضلاء؛ نجتمعُ في مسجد رسولنا –صلى الله عليه وسلم–، نتعلَّم الخير، ونلتمس الحق، ونحن نرجو من الله ربنا أن يُفقِّهنا في ديننا، وأن يرزقنا فضل طلب العلم، وفضل الجلوس في مسجد رسوله –صلى الله عليه وسلم– لذكره، وتعلُّم الخير، نجتمعُ على التفقُّه في حق ربنا –سبحانه وتعالى–، حيث نشرح كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد. وقد بقي منه بابان نشرحهما في هذا لمجلس بحول الله وقوته.

[باب: ما جاء في حماية النبي صلى الله عليه وسلم حِمَى التوحيد، وسدِّه طُرُقَ الشِّرك]

تقدَّم معنا يا معاشر الفضلاء في هذا الكتاب النافع؛ باب: (ما جاء في حماية المصطفى جناب التوحيد، وسدِّه كل طريقٍ يوصِل إلى الشرك)، وهذا قد تقدَّم معنا في أواخر الثلث الأوّل من الكتاب، في الباب الحادي والعشرين، وقد شرحنا ذلكم الباب.

وهنا في الباب قبل الأخير من هذا الكتاب، يعقد الشيخ –رحمه الله– –عزَّ وجلَّ– هذا الباب: (باب ما جاء في حماية المصطفى –صلى الله عليه وسلم– حِمَى التوحيد، وسدِّه طُرق الشرك)، وهذا يَحتمِل من الشيخ أمرين:

الأمر الأوّل: أنَّ هذا من باب التكرار؛ لتأكيد وتقرير القاعدة؛ وهي: سَدُّ الذرائع التي تُفضي إلى الشرك، وأنَّ هذا هو نهج النبيَّ –صلى الله عليه وسلم–،

فينبغي أنْ يكون هذا نهج المؤمنين المحبِّين للنبيِّ –صلى الله عليه وسلم–. ولو أراد الشيخ هذا لكان حسنًا، طيِّبًا، محمودًا.

والأمر الثاني: أنّ هذا الباب يختلف عن الباب المتقدِّم؛ وذلك: أنّ الباب المتقدِّم في حماية النبيِّ –صلى الله عليه وسلم– جناب التوحيد؛ أي: في حماية النبيِّ –صلى الله عليه وسلم– ذات التوحيد، فهو متعلِّقٌ بتحقيق التوحيد، ولذلك عقد المصنِّف ذلك الباب في الجزء المتعلِّق بتحقيق التوحيد. كما أنّ ذلك الباب في الأفعال.

بينما هذا الباب الذي معنا في حماية النبيِّ –صلى الله عليه وسلم– حمى التوحيد، والحمى: ما يُحيط بالشيء وليس منه، فهو متعلِّقٌ بكمال التوحيد. كما أنَّ هذا الباب في الأقوال.

فيتبيَّن لك: أنَّ هذا الباب يختلف عن الباب المتقدِّم من ثلاثة وجوه:

الوجه الأوّل: أنّ الباب المتقدِّم متعلِّقٌ بتحقيق التوحيد، وأنّ هذا الباب متعلِّقٌ بكمال التوحيد.

الوجه الثاني: أنّ الباب المتقدِّم متعلِّقٌ بحماية النبيِّ –صلى الله عليه وسلم– لذات التوحيد. بينما هذا الباب متعلِّقٌ بحماية النبيِّ –صلى الله عليه وسلم– لحمى التوحيد؛ وهو: ما يُحيط بالتوحيد، ويؤدِّي إليه؛ وإنْ لم يكن منه.

والوجه الثالث: أنّ الباب المتقدِّم متعلِّقٌ بالأفعال، بينما هذا الباب متعلِّقٌ بالأقوال.

فبينهما هذه الفروق، مع اشتراكهما واجتماعهما في قاعدة سدِّ الذرائع المفضية إلى الشرك، فالبابان يجتمعان في هذه القاعدة العظيمة الشريفة المُنفية، التي استعملها النبيّ –صلى الله عليه وسلم–.

وهذا الأمر الثاني عندي أظهر: أنَّ الشيخ أراده –والله أعلم–؛ فإنَّ فيه التنويع مع فائدة الأمر الأوّل؛ وهو: تكرير وتأكيد قاعدة سدِّ الذرائع.

[عن عبد الله بن الشِّخِّير –رضي الله عنه–، قال: انطلقتُ في وفد بني عامر إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقلنا: أنت سيدنا، فقال: «السيِّد الله تبارك وتعالى»، قلنا: وأفضلنا فضلًا، وأعظمنا طولًا؛ فقال: «قولوا بقولكم، أو بعض قولكم، ولا يستجرينكم الشيطان» رواه أبو داود بسندٍ جيد]

هذا الحديث رواه أبو داود –كما قال المصنف– وأحمد، والبخاري في الأدب المفرد، والنسائي في الكبرى، وقال الحافظ بن الحجر: صحَّحه غير واحد. وصحَّحه الألباني. فالحديث صحيح الإسناد.

(عن عبد الله بن الشخير) وهو عامريٌّ، وقد أسلم قبل أن ينطلق مع الوفد، فقد أسلم في عام الفتح، فانطلق في وفد قومه –وكان مسلمًا قبل– في وفد بني عامر، وذلك في عام الوفود، في السنة التاسعة من هجرة النبيَّ –صلى الله عليه

وسلم–، فانطلق الوفد، ومعهم عبد الله بن الشخير إلى رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، قال: فقلنا: (أنت سيدنا) قالوا للنبيِّ –صلى الله عليه وسلم–: أنت سيدنا، والمعلوم المتيقَّن أنَّ النبيَّ –صلى الله عليه وسلم– سيدنا، وهو سيد ولد آدم أجمعين في الدنيا والآخرة، محمدٌ –صلى الله عليه وسلم– سيد ولد آدم أجمعين، فقال هؤلاء القوم حقًّا؛ قالوا: (أنت سيدنا)، فقال النبيَّ –صلى الله عليه وسلم–: «السيد الله تبارك وتعالى»، فـ(السيِّد) اسمٌ لله –عزَّ وجلَّ–، والسيادة المطلَقة التامّة لله –عزَّ وجلَّ–، فله السؤدد التام المطلَق، قال النبيَّ –صلى الله عليه وسلم– هذه الجملة على سبيل الإنكار عليهم، في قولهم: أنت سيدنا.

ولك أن تقول: لماذا أنكر عليهم النبيَّ –صلى الله عليه وسلم– هذا الإطلاق مع كونه حقًّا؟

والجواب: أنَّ النبيَّ –صلى الله عليه وسلم– لَمِسَ في كلامهم غلوًّا، والغلوُّ لا خير فيه، بل هو من ذرائع الوقوع في الشرك؛ فأنكر عليهم النبيَّ –صلى الله عليه وسلم– قولهم هذا؛ سدًّا للذريعة.

أو لأنهم كانوا حدثاء عهدٍ بكفرٍ؛ خاف عليهم النبيَّ –صلى الله عليه وسلم– من الغلو؛ لأنَّ المشركين عندهم غلوٌّ في العظماء، وهؤلاء قد أسلموا

قريبًا؛ فخاف عليهم النبيَّ –صلى الله عليه وسلم– من الغلو؛ فأنكر عليهم ذلك؛ سدًا لذرائع الشرك.

وهذا معلومٌ من حال النبيَّ –صلى الله عليه وسلم–، فإنَّه في أوّل الأمر نهى مثلًا عن زيارة القبور؛ لقُرْبِ عهد النَّاس بالشرك، والمشركون يعظِّمون القبور، فلمّا استقر الأمر، وقوي الإيمان في القلوب؛ قال: «كنتُ نهيتكم عن زيارة القبور؛ ألا فزروها».

فهؤلاء لمّا كانوا حدثاء عهدٍ بإسلام، وقالوا هذه الجملة؛ خاف عليهم نبيُّ الهدى –صلى الله عليه وسلم– الغلو، وأن يقعوا في معهود المشركين؛ فأنكر عليهم هذا.

ولحرص صحابة رسول الله –صلى الله عليه وسلم– على امتثال ما يكون من رسول الله –صلى الله عليه وسلم–؛ فإنك تجد الصحابة مع حبِّهم لرسول الله –صلى الله عليه وسلم– –حتى بعد موته– إذا رَوُوا الحديث عنه، لا يقولون: قال سيدنا رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، وإنَّما قولهم: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، قال أبو القاسم –صلى الله عليه وسلم–، وما كانوا يرَون في هذا غَضاضة، ولا تنقُّصًا للنبيَّ –صلى الله عليه وسلم–.

فالذي يعتقد أنّ مَن قال اسم النبيّ –صلى الله عليه وسلم–، أو قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بدون أن يقول: سيدنا، أو سيدي رسول الله، أنَّه

يُسيء الأدب مع الرسول –صلى الله عليه وسلم–! فهو على خطأ، وعلى مخالفة.

فالنبيَّ –صلى الله عليه وسلم– شريفٌ –كما سيأتينا– بهذين اللقبين العظمين: عبد الله، ورسوله– صلى الله عليه وسلم–.

قال: (قلنا: وأفضلنا فضلًا) أي: أشرفنا شرفًا ونسبًا، ولا شك أنّ النبيَّ –صلى الله عليه وسلم– مصطفى الله من خَلقه، فإنَّ الله قد اصطفاه من سائر النَّاس، فهو أشرف النَّاس، وأفضلهم نسبًا على الإطلاق –صلى الله عليه وسلم–. قالوا: (وأعظمنا طَولًا) أي: أكثرنا جودًا، وكرمًا، وإنفاقًا، وإحسانًا. ولا شك أنَّ النبيَّ –صلى الله عليه وسلم– كان أجود النَّاس، فكان يجود بما في يده، فمع كثرة ما يَرِدُ إليه؛ كان لا يُبقي شيئًا في يديه –صلى الله عليه وسلم–، حتى أنَّه يمرُّ الشهر والشهران والثلاثة على بيته ولم توقد في بيته نار، طعام أهله التمر، وشرابهم الماء، لا من فقره –صلى الله عليه وسلم–؛ وإنَّما من جودٍ يُذهِب ما في يديه، فكان النبيَّ –صلى الله عليه وسلم– أجود النَّاس بالخير، كما وَصَفَه ابن عباس –رضي الله عنهما–. فقالوا قولًا سليمًا صحيحًا، فقال النبيَّ –صلى الله عليه وسلم–: «قولوا بقولكم، أو بعض قولكم، ولا يستجرينكم الشيطان».

«قولوا بقولكم أو بعض قولكم»:

قال بعض أهل العلم: معناها قولوا بقولكم الذي جئتم من أجله، واتركوا عنكم هذا القول، أنتم جئتم لتسألوا عن الإسلام وتُسلِموا، فقولوا: بقولكم الذي جئتم من أجله، واتركوا عنكم هذا القول؛ لماذا؟

-لِمَا في هذا القول أولًا من المدح في الوجه، والنبيَّ –صلى الله عليه وسلم– يَكره المدح في الوجه.

– ولأنَّه خاف عليهم الغلو، والغلو لا يأتِ بخير.

وقال بعض أهل العلم: معنى هذه الجملة: قولوا بقولكم الحَسَن، أو ببعض قولكم، فإنَّ في قولكم حسنًا وقبيحًا، فمعنى «قولوا بقولكم»: أي قولوا بقولكم الحسن، «أو ببعض قولكم»: أي قولوا بالحسن من قولكم؛ الذي لا غلو فيه، واتركوا القبيح؛ وهو الغلو.

وقال بعض أهل العلم: أباح لهم النبيّ –صلى الله عليه وسلم– القول الأخير؛ وهو قولهم: أنت أفضلنا فضلًا، وأعظمنا طولًا؛ أباح لهم أن يقولوا هذا القول؛ فقال: «قولوا بقولكم»، «أو بعض قولكم»؛ أرشدهم إلى ترك كثرة المدح:

– ففي الأوّل إباحة.

– وفي الثاني إرشاد إلى الأحسن؛ وهو: ألَّا تقولوا هذا القول، بل قلِّلوا من المدح، وقولوا ببعض قولكم.

وحذَّرهم من الغلو في القول؛ في قوله –صلى الله عليه وسلم–: «ولا يَستجرينكم الشيطان»؛ يعني أنتم الآن تقولون قولًا صحيحًا: أنت أفضلنا فضلًا، وأعظمنا طولًا؛ هذا جائز أنْ تقولوه، ولو تركتم بعضه لكان أحسن، لكن لا يستجرينكم الشيطان؛ فيَنقلكم من القول الجائز إلى القول المحرَّم الذي فيه غلوٌّ وإطراء.

ومعنى قول نبينا –صلى الله عليه وسلم–: «ولا يستجرينكم الشيطان»:

قال بعض أهل العلم: يعني لا يتخذنكم جَرِيًّا، ومعنى ذلك: أي لا يجعلنكم كثيري الجَرْيَ في خطواته؛ اتِّباعًا له، وفي هذا إشارة إلى أنّ إبليس يقود الإنسان إلى الحرام خطوةً خطوة، ربما بدأ بالحلال، ثمَّ حسَّن له الزيادة، ثمَّ حسَّن له الغلو، ثمَّ حسَّن له الشرك، فلا يجعلنكم كثيري الجري في خطواته؛ اتِّباعًا له.

وقال بعض أهل العلم: معنى «لا يستجرينكم الشيطان»: أي لا يتخذنكم رُسلًا له ووكلاء عنه، لا يتخذنكم رُسلًا له فيكون أحدكم رسولًا لإبليس في إغواء النَّاس؛ كما يفعل بعض الشعراء الذين يَغلون في النبيّ –صلى الله عليه وسلم–، فإنهم وكلاء عن إبليس، ورُسل إبليس إلى النِّاس.

وكم من شاعرٍ غلا في النبيّ –صلى الله عليه وسلم–، وأصبح شِعره يُقرأ في المَحافِل، ولربما كان فيه شركٌ، فيأتيه وِزْرُه ما قُرأ هذا الشعر، فهو رسول إبليس، ووكيل إبليس على النَّاس في إيقاعهم في هذا الغلو المحرَّم.

وقال بعض أهل العلم: معنى «لا يستجرينكم الشيطان»: لا يجعلنكم الشيطان ذوي جرأةٍ وإقدامٍ على قول الحرام. وإنّ إبليس لَيُشجِّع بعض بني آدم على القول الحرام من أجل أن ينالوا منزلةً عند النَّاس؛ كأن يُقال: هذا الشيخ ما شاء الله ميسِّر، هذا الشيخ طيِّب ما عنده كل شيء حرام حرام! فيأتي إبليس إلى الداعية، إلى الشيخ، إلى طالب العلم، والذي يتكلم أمام النَّاس على خطر – نسأل الله عزَّ وجلَّ أن يلطف بنا– ويقول له: أنتَ إذا قلتَ: حرام، وقلتَ: كذا، وقلت: كذا؛ ما يكون لك اتباع، لكن إذا خالفتَ، وجئت النَّاس، وبحثت في الأقوال التي نسيها النَّاس، فإنَّه يكون لك مكانة!

ولذلك؛ يجب على طالب العلم أن يكون حَذِرًا حَذَرًا شديدًا من الشيطان، ومن طُرق الشيطان في إغوائه.

وهذه المعاني كلها صحيحة، فاختلاف أهل العلم فيها اختلاف تنوُّع، وليس اختلاف تضاد.

[وعن أنسٍ –رضي الله عنه– أنّ ناسًا قالوا: يا رسول الله: يا خيرَنا وابن خيرنا، وسيدنا، وابن سيدنا، فقال: «يا أيها النَّاس، قولوا بقولكم، ولا يستهوينكم

الشيطان، أنا محمد، عبد الله ورسوله، ما أُحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل» رواه النسائي بسندٍ جيد]

نعم، رواه النسائي في (الكبرى)، ورواه الإمام أحمد، وصحَّحه الضياء في (المختارة)، والحافظ بن عبد الهادي في (الصارم المُنكي)، والألباني، والأرناؤوط، كلهم قالوا: على شرط مسلم، الأربعة قالوا: هذا الحديث صحيح على شرط مسلم. فالحديث صحيح.

(عن أنس –رضي الله عنه– أنَّ ناسًا قالوا: يا رسول الله: يا خيرنا) ولا شك أنّ النبيّ –صلى الله عليه وسلم– خير بني آدم، (وابن خيرنا) يعني: أشرفنا نسبًا، "ابن خيرنا" يعني من جهة النسب، (ويا سيدنا) والنبيّ –صلى الله عليه وسلم– سيد ولدي آدم، (وابن سيدنا) أي أنه شريف النسب –صلى الله عليه وسلم–. فقال: «يا أيها الناس، قولوا بقولكم» يعني: تكلموا، وقولوا، ولا تقولوا إلا خيرًا، «ولا يستهوينكم» هذه الجملة ليست عند النسائي، الذي عند النسائي –والشيخ عزا الحديث للنسائي: «ولا تستجرينكم الشياطين»، أمَّا هذه الجملة التي ذكرها الشيخ فهي عند الإمام أحمد في المسند.

«لا يستهوينكم» يعني: لا يوقعكم الشيطان في مَهْواةٍ ومَهلكة؛ بأن يقودكم إلى الغلو. «ولا يستجرينكم» تقدَّم بيان معناها. «أنا محمد بن عبد الله» هكذا قال النبيّ –صلى الله عليه وسلم– «أنا محمد، عبد الله»؛ لأنهم قالوا: (خيرنا

وابن خيرنا)؛ فقال: «أنا محمد بن عبد الله، عبد الله ورسوله»، وهاتان عبارتا مدحٍ في غاية المدح المشروع، ولا تقودان إلى مَفسدة.

فكون محمدٍ –صلى الله عليه وسلم– عبد الله، وأنه أحقّ النَّاس بهذا الوصف الذي كله شرفٌ، وعزٌ، ورفعة مكانة، هذا مدحٌ للنبيَّ –صلى الله عليه وسلم– في غاية المدح المشروع، «عبد الله» ما أجملها من جملة! ما أجمله من وَصْف: «عبد الله»! ومعنى «عبد الله»: أنه أحق النَّاس بهذا الوصف، ولا شك أنّ كل عبوديةٍ ذُلّ؛ إلَّا العبودية لله؛ فإنَّها عزٌّ، وكلّما زاد الإنسان في عبادة الله على المشروع؛ كان أعزَّ وأشرفَ.

فأعظم النَّاس عبادةً لله، وأحق النَّاس بوصف عبدِ الله؛ هو: محمدٌ رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، وهذا مدحٌ، وهذا المدح لا يقود للغلو؛ لأنك عندما تقول: عبد الله؛ فإنَّ هذا لا يقودك إلى الغلو.

والثاني: «رسول الله –صلى الله عليه وسلم–»؛ وهذا مدحٌ للنبيّ –صلى الله عليه وسلم–، واجتماعهما هو غاية الشرف، وغاية العزّ لمحمدٍ –صلى الله عليه وسلم–، فمحمدٌ –صلى الله عليه وسلم– عبد الله، أحسن مَن عبد الله، ولا يُعبَد من دون الله، الله أكبر ما أجملها! أحسن مَن عبد الله، وخير مَن عبد الله، وأشرف مَن شَرُفَ بعبادة الله، ولا يُعبَد من دون الله. وهو رسول الله يُطاع ولا يُعصى، ويُصدَّق ولا يُكذَّب، ولا يُعبَد الله إلَّا بما شَرَعَ –صلى الله عليه وسلم–.

ثمَّ قال النبيَّ –صلى الله عليه وسلم– كلمة تُزلزل القلوب المحبَّة: «ما أُحبُّ أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله –عز وجل–».

وفي رواية: «والله ما أحب»؛ يُقسِم النبيَّ –صلى الله عليه وسلم– «ما أُحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله»، سبحان الله أين الغلاة من هذا؟! النبيّ يقول لك: يا مؤمن! يا محبًّا لي ما أحبُّ منك أن ترفعني فوق منزلتي التي أنزلني الله: عبد الله، ورسوله –صلى الله عليه وسلم–.

فالمحب للنبيّ –صلى الله عليه وسلم– يُحب ما يُحب النبيّ –صلى الله عليه وسلم–، والغلو في النبيّ –صلى الله عليه وسلم– يكرهه النبيَ –صلى الله عليه وسلم–، ويَمنع منه.

وفي هذا: بيان ما ذكره الشيخ من أنّ النبيّ –صلى الله عليه وسلم– حَمى حِمى التوحيد، حَمى ما يُحيط بالتوحيد، فإنَّ هذه الجُمَلُ ليست من التوحيد من جهة جنسه وتحقيقه، لكنها من مكمِّلاته إذا كانت حقًّا، فالنبي –صلى الله عليه وسلم– حَمى حِمى التوحيد؛ فكيف بالتوحيد؟!

فنهج النبيَّ –صلى الله عليه وسلم–: سدُّ الذرائع المفضية إلى الشرك بالقول أو الفعل؛ سواءً كانت بعيدةً شيئًا أو قريبة، ما دام أنها تُفضي إلى الشرك، وأنها تقود إلى خطوات الشيطان.

فهذا نهج النبيِّ –صلى الله عليه وسلم–؛ وينبغي أن يكون نهجَ المؤمن في حاله، ونصحه، وتعليمه، وفي ولايته إن كان واليًا: أن يسدَّ الذرائع المفضية والموصلة إلى الشرك.

[فيه مسائل: الأولى: تحذيره الناسَ من الغلو]

(تحذيره الناس من الغلو) من أين أخذ الشيخ هذا؟ من أنه إذا حذَّر النبيّ –صلى الله عليه وسلم– مما يؤدي إلى الغلو؛ فمن باب أولى أن يُحذِّر من الغلو ذاته. ومقصوده هنا: ما يَتعلَّق بالأقوال.

[الثانية: ما ينبغي أن يقول من قيل له: أنت سيدنا]

ينبغي عليه أن يُنصَح بترك هذا في حالين:

الحال الأوّل: إذا رأى هذا غلوًّا، وتجاوُزًا، وإطراءً.

الحالة الثانية: إذا رأى هذا من باب المدح في وجهه، فإنه يقول لهم: اتركوا هذا.

أمَّا إذا كان هذا من باب التلقيب، فقد تقدَّم أنه يجوز إذا كان أهلًا لذلك.

[الثالثة: قوله –صلى الله عليه وسلم– : «ولا يستجرينكم الشيطان»؛ مع أنهم لم يقولوا إلا الحق]

كما بينَّا؛ هم قالوا حقًّا، لكن دلَّت قرائن على أنهم قد يقعون في الغلو، فحذَّرهم النبيّ –صلى الله عليه وسلم– وقال: انتبهوا! «لا يستجرينكم الشيطان»؛ وقد فسَّرنا معنى هذه الجلمة.

[الرابعة: قوله –صلى الله عليه وسلم–: «ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي»]

وقد ذكرنا ما فيها.

تابع الدرس الثالث والسبعون: باب: ما جاء في قول الله تعالى: (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) الآية

[باب: ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الآية]

عقد الشيخ –رحمه الله– هذا الباب خاتمًا به كتاب التوحيد، ومراده –رحمه الله–: بيان أنّ تعظيم الله –عزَّ وجلَّ– فرضٌ لازم، وأنّ من شأن الموحِّدين: تعظيم الله –عزَّ وجلَّ–، وأنّ تعظيم الله لا يكون إلَّا بالتوحيد:

- توحيد الربوبية.
- وتوحيد الأسماء والصفات.
- وتوحيد الألوهية.

ولذلك؛ كان هذا الباب حاويًا لأنواع التوحيد الثلاثة؛ ذُكِرَ فيه توحيد الربوبية بالمطابقة، وتوحيد الأسماء والصفات بالمطابقة، وتوحيد الألوهية بالملازَمة –بدلالة اللزوم–.

ولا بأس من أن أذكر فائدة: أنّ الدلالات ثلاثة:

١. دلالة مطابقة.
٢. ودلالة تضمُّن.
٣. ودلالة لزوم.

فدلالة المطابقة: أن يدل اللفظ على تمام ما فيه. وسأشرح لكم هذا بالمثال.

ودلالة التضمُّن: أن يدل اللفظ على جزئه.

ودلالة اللزوم: أن يدل اللفظ على ما لا بد منه؛ وإن لم يكن من أجزائه.

أضرب لكم مثالًا: لفظ "البيت"، لفظ البيت يدل على البيت الكامل: دلالة مطابقة، ويدل على السقف والحيطان: دلالة تضمُّن؛ لأنّ السقف جزء من البيت، والحائط جزء من البيت، ويدل لفظ السقف على الحائط: دلالة لزوم؛ لأنَّ السقف لا شك أنه ليس الحائط، والحائط ليس جزءً من السقف؛ لكن لا بُد للسقف من حائط، ما يمكن أن يقوم السقف بدون حائط؛ فهذه تُسمَّى دلالة اللزوم.

هذا الباب فيه توحيد الأسماء والصفات بالمطابقة، وفيه توحيد الربوبية بالمطابقة، وفيه توحيد الألوهية بدلالة اللزوم؛ فكان هذا الباب الذي معنا مناسبًا للأبواب القريبة المتقدِّمة لماذا؟ لأنَّها كانت في تعظيم الله، وكان مناسبًا للكتاب كله؛ لأنَّ تعظيم الله هو التوحيد، وتوحيد الله هو التعظيم، فتعظيم الله إنما يكون بالتوحيد.

قال الشيخ مبوِّبًا بهذه الآية العظيمة: (باب ما جاء في قول الله تعالى -أي: في تفسير قول الله تعالى-: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ

الْقِيَامَةِ وَالسَّموَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾)، ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ جاءت هذه الجملة العظيمة في شأنين كبيرين:

الأوّل: في شأن الإشراك بالله، أنّ المشركين ما قدروا الله حق قدره.

والثاني: في شأن إنكار نبوة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

فدلّ ذلك على أنه لا يَقْدُر الله حق قَدْرِه إلَّا مّن وحَّد الله، وآمن برسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

هذه الآية أو هذه الجملة جاءت في القرآن في ثلاثة مواضع:

- **في موضعين في شأن الإشراك بالله**، وذلك في هذا الموضع الذي معنا: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الزمر:٦٧].

-**وفي قوله تعالى**: ﴿مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج:٧٤]؛ ﴿مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ إذ عبدوا معبوداتٍ من دونه ﴿إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

- **والموطن الثالث**: في شأن إنكار نبوة محمدٍ -صلى الله عليه وسلم-؛ في قول الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٩١].

فدلَّنا هذا معاشر الفضلاء؛ على أنّ مَن يَقْدُر الله حق قَدْره: هو الذي وحَّد الله، وبَرِئ من الشرك كله، وآمن برسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

ومعنى ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾: أي ما عظَّم المشركون الله حق تعظيمه، وهو العظيم –سبحانه– الذي له العظمة المطلَقة، والقدير على كل شيء، والأكبر من كل شيء، والقاهر لكل شيء –سبحانه وتعالى–.

ومن عظمته: أنّ الأرض جميعًا قبضته يوم القيامة، والسماواتِ مطوياتٌ بيمينه، وقد جاءت الأحاديث مبيِّنةً ذلك –كما سيمرّ بنا إن شاء الله –عزَّ وجلَّ–، ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزَّه وتقدّس وتعالى عن شرك المشركين.

[عن ابن مسعودٍ –رضي الله عنه– قال: (جاء حَبْرٌ من الأحبار إلى رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فقال: يا محمدا! إنَّا نجد أنّ الله يجعل السماوات على إصبع، والأرَضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء على إصبع، والثرى على إصبع، وسائر الخَلق على إصبع، فيقول: أنا الملك. فضحك النبي –صلى الله عليه وسلم– حتى بدت نواجذه؛ تصديقًا لقول الحبر، ثم قال: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الآية.

وفي روايةٍ لمسلم: «والجبال والشجر على إصبع، ثم يَهُزهنّ فيقول: أنا الملك، أنا الله».

وفي روايةٍ للبخاري: «يجعل السماوات على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع»]

هذا الحديث الصحيح في الصحيحين، (عن ابن مسعودٍ –رضي الله عنه– قال: جاء حَبرٌ؛ حَبرٌ) حَبْرٌ وحِبرٌ: هو العالم الذي عُرِف بكثرة العلم، وهو مأخوذٌ من الحِبْر، ومعنى الحِبْر: الأثر المستَحسَن، ومنه سُمِّي هذا الذي نكتب به حِبرًا؛ لأنّ أثره من العلم وغيره حَسَنٌ، وسُمِّي العالم حَبرًا أو حِبرًا؛ لأنّ أثره في النَّاس حَسَنٌ. الأصل في العالِم أنّ أثره في النَّاس حَسَن، فُسمِّي حَبرًا وحِبرًا، ويُقال عن ابن عباسٍ –رضي الله عنهما–: حَبْر الأُمَّة أو حِبر الأمَّة، وكذا يُقال عن ابن مسعود –رضي الله عنه–: الحَبْر؛ أي: العالم.

(جاء حَبرٌ من الأحبار) أي: عالِمٌ من علماء اليهود –كما صُرِّح به في بعض الروايات– (إلى رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، فقال: يا محمد! إنَّا نجد– أي: في كتابنا؛ أي: في التوراة– أنّ الله عزَّ وجلَّ يجعل السماوات على إصبع، والأَرَضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع) هكذا رواية الصحيحين. قال: (والماء والثرى على إصبع) ليس "والماء على إصبع، والثرى على إصبع"؛ رواية الصحيحين: «والماء والثرى على إصبع، وسائر الخَلق على إصبع»، فالمذكور هنا خمسة، أي: يوم القيامة أنّ الله –عزَّ وجلَّ– لعظمته وأنَّه على كل شيءٍ قدير؛ يجعل السماوات على إصبع، يطويها، ويجعلها على إصبع، (والأرضين على إصبع)؛ يقبضها، ويجعلها على إصبع،

(والشجر على إصبع)، (والماء والثرى): الطين المبلول (على إصبع، وسائر الخلق على إصبع)، على يمينه –سبحانه وتعالى–.

وفي هذا بيان عظمة الله –سبحانه وتعالى–، وقوته، وقدرته، وإحاطة قَهْرِه؛ حيث يجمع المخلوقات في يمينه –سبحانه وتعالى–، يجعل كل جزءٍ منها على إصبع من أصابعه –سبحانه وتعالى–.

وفي هذا: إثبات أنّ لربنا –سبحانه وتعالى– أصابع، فلربنا –سبحانه وتعالى– أصابع نُثبتها لربنا على المعنى اللائق بجلال الله –سبحانه وتعالى–، نُثبتها على المعنى الحقيقي على ما يليق بجلال الله –سبحانه وتعالى– ، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[الشورى:١١].

والعَجَبُ إن تعجب؛ أنّ اليهود لمّا بلغهم ذلك في كتابهم آمنوا به، وآمنوا بأنّ لربنا أصابع، ما أنكروا هذا، وما استوحشوه، وما استقبحوه، بل أثبتوه، وأخبروا به، ونقلوه إلى رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، وصدَّقهم رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، وصدَّق بهذا، وإنّا بما صدَّق به محمدٌ –صلى الله عليه وسلم– مصدِّقون، لا نَنْفِر منه، ولا نَستوحش منه، ولا نؤوله عن معناه الظاهر؛ لكن لا نُشبِّه، ولا نُكيِّف: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١].

أمَّا المؤولة الذين يجدون ذِكْرَ صفات الله في القرآن، وفي صحيح السنُّة؛ لا يصدِّقون بها، ويؤولونها، فما كانوا على نهج النبي –صلى الله عليه وسلم–، ولا

على نهج الصحابة، فإنّ الصحابة –وهم العَرب الأقحاح– كانوا يَذكُرون آيات الصفات مصدِّقين بها، ويَروُون أحاديث الصفات مصدِّقون بها، وما كان أحدهم يقول: وهذه ليست على ظاهرها بل مؤوَّلةٌ بكذا وكذا!

فالمؤوِّلة لا ساروا على نهج النبيّ –صلى الله عليه وسلم–، ولا على نهج الصحابة؛ بل وسقطوا عن نهج اليهود في هذا الباب.

فالواجب على المؤمنين جميعًا: أن يَرجعوا إلى نهج النبيّ –صلى الله عليه وسلم–، وأن يصدِّقوا بالصفات على معناها الظاهر على ما يليق بجلال الله –سبحانه وتعالى–: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١].

قال: «فيقول: أنا الملك» أي: أنّ الله –سبحانه وتعالى– يُمجِّد نفسه يوم القيامة، فيقول: «أنا الملك»، وفي بعض الروايات: يقول: «أنا الملك، أنا الملك» تأكيدٌ لفظي، وفي بعض الروايات: يقول: «أنا الجبار، أنا المتكبِّر، أنا الملك، أنا العزيز، أنا الكريم»، وفي بعض الروايات: يقول: «أنا الملك، أين ملوك الأرض؟»، وفي بعض الروايات: يقول: «أنا الملك، أين الجبارون؟ وأين المتكبرون؟».

فربنا –سبحانه وتعالى– في ذلك الموقف العظيم يُمجِّد نفسه –سبحانه وتعالى– ما شاء أن يُمجِّدها، وهو سبحانه مَلِكُ يوم الدين، لا ملك إلَّا هو –سبحانه وتعالى–.

حيث في ذاك المقام يَذِلُّ الجميع، ولا يتسمَّى أحدٌ بالمَلِك في الآخرة، في الدنيا هناك مَن يتسمَّى بالملك، ويكون له نصيبٌ من المُلك، أمَّا المُلك التامّ المطلَق؛ فهو لله –سبحانه وتعالى–، أمَّا في الآخرة فلا أحد يَتسمَّى بالملك، ولا أحد يجرؤ أن يقول: إنَّه الملك، بل الكل يَذِلُّ لعظمة الله –سبحانه وتعالى–.

﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾[غافر:١٦]؛ خطابٌ للملائكة، والجواب من الملائكة، أو يُخاطِب الله نفسَه؛ تمجيدًا وتعظيمًا: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾، فيُجيب سبحانه: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾.

(فلمّا سمع النبيَّ –صلى الله عليه وسلم– ضحِك حتى بدت نواجذه) أي: بدت أنيابه من ضحكه –صلى الله عليه وسلم–؛ فَرِحًا بالحق الذي أجراه الله على لسان اليهودي.

(قال ابن مسعودٍ –رضي الله عنه–: تصديقـًا لقول الحَبر) هذا قول ابن مسعود –رضي الله عنه– الصحابي الجليل الذي هو أعلَم النَّاس بأحوال النبيّ –صلى الله عليه وسلم–؛ يقول: ضَحِك النبي صلى الله عليه وسلم هذا؛ تصديقًا، ثم يأتي المؤوِّلة يقولون: "لا، ضَحِكَ سخريةً من كلامه"، سبحان ربي العظيم! الصحابة فَهِموا أنه تصديق، وهؤلاء يقولون: "لا، سخرية من كلامه، وإنكار لكلامه"، سبحان الله! لو كان هذا منكَرًا لَمَا كان المقام مقام ضحك، بل كان النبيّ –صلى الله عليه وسلم– رَدّ كلامه، فإنّ النبيّ –صلى الله عليه وسلم– يَرُدُّ

الخطأ من المؤمنين، فكيف إذا جاء من يهودي؟! ثم إنّ تأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز، فلو كان هذا خطأً –وهو يَتعلَّق بربنا الكريم –سبحانه وتعالى– لَمَا أخَّر النبيّ –صلى الله عليه وسلم– البيان عن وقت الحاجة، فكان ضَحِكُهُ –صلى الله عليه وسلم– بيانًا أنه حق، وكان إقرارًا وتصديقًا لِمَا قاله اليهودي.

ثم زاد تأكيد ذلك بقراءته –صلى الله عليه وسلم– قول ربنا: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّموَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾[الزمر:٦٧]؛ أي: أنّ ما ذكره اليهودي تفسيرٌ لكون الأرض جميعًا قبضته يوم القيامة، وكون السماوات مطوياتٍ بيمينه –سبحانه وتعالى–.

وهذا دليلٌ على أنّ اليدَ التي يَجعل الله على أصابعها هذه المخلوقات هي اليد اليمين؛ لأنَّ الله –عزَّ وجلَّ– قال: ﴿وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّموَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾[الزمر:٦٧]، وقد قرأ النبيّ –صلى الله عليه وسلم– هذه الآية في مقام التصديق لهذا اليهودي.

قال: (وفي روايةٍ لمسلم: والجبال والشجر على إصبع، ثم يَهُزهنّ، فيقول: أنا الملك، أنا الله")، في روايةٍ للشيخين للبخاري ومسلم: «ثم يهزهن، ثمَّ يقول: أنا الملك أنا الملك»، وقد بحثت في الصحيحين وغيرهما من كتب السنَّة عن جملة: (أنا الملك، أنا الله) في حديث ابن مسعود، فلم أقف عليها بهذا السياق

الذي ذكره الشيخ، لكن رواها مسلم في نفس الشأن من حديث ابن عمر –رضي الله عنهما–.

فقول بعض مَن علَّق على كتاب التوحيد: لم أجد هذه الجملة في صحيح مسلم، هذا القول صحيحٌ وغير صحيح، صحيح: إذا كان المقصود في حديث ابن مسعود في نفس السياق الذي ذكره الشيخ، بنفس السياق، وغير صحيح: إذا كان المقصود أنها لم تَرِدْ في صحيح مسلم أصلًا، فإنَّها وردت في حديث ابن عمر: أنّ رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال: «يأخذ الله –عزَّ وجلَّ– سماواته وأراضيه بيديه، فيقول: أنا الله، أنا الملك»، قال ابن عمر: (حتى نظرتُ إلى المنبر يتحرك من أسفل شيءٍ منه، حتى إني لأقول: أساقطٌ هو برسول الله –صلى الله عليه وسلم–؟!) يعني: كان المنبر يتحرك من أسفله إلى أعلاه، المنبر يتحرك يرتجف.

قال بعض أهل العلم: من شدة حركة النبيّ –صلى الله عليه وسلم– عليه؛ تعظيمًا لشأن الله –سبحانه وتعالى–.

وقال بعض أهل العلم: بل رَجَفَ المنبر من شدة ما سمع ؛ تعظيمًا لله –سبحانه وتعالى–، فالله عظيم.

«والجبال والشجر على إصبع، ثمَّ يهزهن» أي: يهز هذه المخلوقات العظيمة، ويُحرِّكها –سبحانه وتعالى–؛ إظهارًا لقدرته، وبيانًا لعظمته –سبحانه وتعالى–، وتعجيزًا للخَلق.

وسبحان الله! من يَعلمُ أنّ الخَلق كلهم يجعلهم الله –عزَّ وجلَّ– في يمينه، ويُهزُّهم هزًّا، ويُحرِّكهم تحريكًا؛ كيف يجرؤ على أن يَصرِف شيئًا من العبادة لغير الله؟! يترك العظيم –سبحانه– إلى غيره، مما هو فقيرٌ إليه، وعاجزٌ عند عظمته –سبحانه وتعالى–!

وفي روايةٍ للبخاري –ذكرها الشيخ بالمعنى– ولفظها: «إذا كان يوم القيامة، جعل الله السماوات على إصبع، والأَرَضين على إصبع، والماء والثرى على إصبع، والخلائق على إصبع» والحديث متفقٌ عليه، وانفرد البخاري ببعض الألفاظ، وانفرد مسلم ببعض الألفاظ. والشاهد منه: بيان عظمة الله –سبحانه وتعالى–.

[ولمسلمٍ: عن ابن عمر –رضي الله عنهما– مرفوعًا: «يطوي الله السماوات يوم القيامة، ثمَّ يأخذهنّ بيده اليمنى، ثم يقول: أنا المَلِك، أين الجبارون؟ أين المتكبِّرون؟ ثمَّ يطوي الأرضين السبع، ثم يأخذهنّ بشماله، ثم يقول: أنا المَلِك، أين الجبارون؟ أين المتكبِّرون؟]

قال: (ولمسلمٍ عن ابن عمر –رضي الله عنهما– مرفوعـًا) إلى النبي –صلى الله عليه وسلم– (قال: يطوي الله السماوات يوم القيامة) أي: يُلفُّها، وهذه صفة فِعْلٍ، تقدَّم معنا صفة ذات؛ وهي: الأصابع واليد، وهذه صفة فِعْلٍ لله، «يطوي الله السماوات يوم القيامة، ثم يأخذهنّ بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟» الذين يَتجبَّرون على الخَلق، ويظلمونهم، «أين المتكبرون؟» الذين يتكبَّرون على الخَلق، ويَردُّون الخلق، «ثم يطوي الأرضين بشماله» –أنا أذكر لكم رواية مسلم، الشيخ يروي بالمعنى– «ثمَّ يطوي الأرضين بشماله، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟»، وعندنا هنا أمران:

الأمر الأوّل: ظاهر هذا الحديث: أنّ الله –عزَّ وجلَّ– يطوي السماوات باليمين، ويطوي الأرَضين بالشمال. والذي تقدَّم في حديث ابن مسعود: أنها كلها في اليمين!

فإمّا أن يُقال: إنّ هذا الحديث الذي في مسلم ضعيف، والصحيح ما في الصحيحين،–يقول لي قائل منكم: في مسلم، وأنت تقول ضعيف! نقول: نعم؛ لأنّ مسلمًا ذكره في باب المتابعات، الأصل: حديث أبي هريرة، وهذا الحديث ذكره مسلم في باب المتابعات– **أو**: أنّ الله يأخذ الأرَضين بشماله، ثم يجعلها في يمينه –سبحانه وتعالى–. وهذا أقرب أن يُقال به.

الأمر الثاني: هل لله -عزَّ وجلَّ- يدٌ شمال؟ أجمع أهل السنُّة والجماعة على "أنّ لله يدين"؛ وهذا نَصُّ القرآن والسنُّة، و"أنَّ كلتا يديه يمين"؛ وهذا نَصُّ الحديث الصحيح عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، كما اتَّفقوا على "أنَّ لله يدًا يمنى"، واختلفوا: هل يُقال لليد الأخرى شمال؟

فذهب بعض أهل السنُّة؛ إلى أنه يُقال لليد الأخرى شمال؛ من جهة التسمية، فتُسمَّى هذه يمينًا، والأخرى شِمالًا.

أمَّا من جهة الفضل، والفعل، والقوة؛ فكلتا يدي ربنا يمين. وهؤلاء يُسمَّون بأهل الجمع من أهل السنُّة، ما معنى أهل الجمع؟ أهل الجمع بين حديثي: «كلتا يدي ربنا يمين» وهذا الحديث الذي معنا.

ومن المعاصرين الذين ساروا على هذا: الشيخ ابن باز، والشيخ هرَّاس، والشيخ ابن عثيمين قال: إذا صحَّ هذا الحديث.

وذهب بعض أهل العلم؛ إلى أنه لا يُقال ليد الله شمال، وإنما كلتا يدي ربنا يمين، فإذا ذُكرت اليمين قيل للأخرى: الأخرى؛ يعني: اليد اليمين الأخرى. فالله يدان كلاهما يمينٌ، فإذا ذُكِرَت اليمين قيل عن الأخرى: الأخرى؛ أي: اليمين الأخرى، ولا يُقال شمال.

وقالوا: هذا الحديث ضعيف؛ لأنّ فيه راوٍ ضعيفًا، وقالوا: إنّ هذه الرواية لو كانت من رواية ثقة لكانت شاذة؛ لأنّ جميع الروايات الأخرى فيها: «الأخرى» وليس الشمال.

ويسمَّى هؤلاء بأهل الترجيح، الذين رجَّحوا كلتا يديه يمين، أو كلتا يدي ربنا يمين على هذا الحديث.

وممن ذهب إلى هذا من المعاصرين: الألباني، والشيخ صالح آل الشيخ، فيمن أطلعت على أقوالهم في هذا.

والأمر ليس اختلافًا في العقيدة؛ فإنّ أهل السنُّة مجمِعون على أنّ لله يدين، وأنّ كلتا يديه يمين، وأنّ إحداهما أفضل من الأخرى؛ لأنّ النبيّ –صلى الله عليه وسلم– أخبر أنّ في اليمين: الفضل، وفي الأخرى: العدل، ولا شك أنّ الفضل أعلى من العدل، وصفات الله تتفاضَل من غير نَقْصٍ، كما نقول: "الأنبياء يتفاضلون" لكن من غير نقصٍ في أحدهم.

وإنَّما اختلفوا في التسمية لليد الثانية؛ فمنهم مَن يقول: تُسمَّى شمالًا، أمَّا من حيث الفضل، والقوة، والفعل، فكلتا يدي ربنا يمين.

معلوم يا إخوة –ولله المثل الأعلى– أنّ يد الإنسان اليمنى أقوى من يده اليسرى، فيفعل باليمنى ما لم يفعله باليسرى، ويَحمل باليمنى ما لا يحمله باليسرى، إذن عندما نقول: اليسرى؛ فهذا دلالة على نقصٍ فيها عن اليمين. أمّا

يد ربنا –سبحانه وتعالى– الأخرى، فهي يمينٌ كذلك؛ في القوة، والفضل، والفعل، ليس في إحدى يدي ربنا نقص، لكن هل تُسمَّى الثانية شمالًا؟ من أهل العلم من قال: تُسمَّى شمالًا؛ أخذًا بهذا الحديث. ومن أهل العلم من قال: لا تُسمَّى شمالًا.

وأنا أقول: كلتا يدي ربنا يمين؛ فإذا ذُكِرت اليمنى؛ فإنَّه يُقال للثانية: الأخرى؛ أي: أنها يمينٌ أخرى. هذا عندي أقرب، والله أعلم.

والشاهد: أنّ الحديث يدل على عظمة الله –عزَّ وجلَّ–.

[وروي عن ابن عباسٍ –رضي الله عنهما–، قال: «(ما السماوات السبع والأرَضون السبع في كفِّ الرحمن إلا كخردلةٍ في يد أحدكم»]

هذا الأثر رواه ابن جرير في التفسير، وإسناده صالح، لكن الذي جاء فيه: «ما السماوات السبع والأرَضون السبع في يد الله إلا كخردلةٍ في يد أحدكم». وهذا يدل على عظمة الله –سبحانه وتعالى–.

[وقال ابن جرير: "حدثني يونس، قال: أنبأنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد: حدثني أبي، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما السماوات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعةٍ أُلقيت في تُرْس»]

لا شك أنّ لله –عزَّ وجلَّ– كرسيًّا، كما أنّ له عرشًا، وأنّ كرسيه غير عرشه –سبحانه وتعالى–، وأنّ كرسي الله –عزَّ وجلَّ– كبيرٌ عظيم: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ

السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾[البقرة:٢٥٥]. ولله عرشٌ هو قُبَّة المخلوقات، فوق السماوات، والله مستوٍ على عرشه –سبحانه وتعالى–.

وهذا الأثر رواه ابن جرير بإسناده إلى ابن زيدٍ عن أبيه زيد، وهو تابعي، قال: (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم) إذن هو مرسَل؛ لأنّ التابعي رَفَعَه إلى النبيّ –صلى الله عليه وسلم–، ثم إنّ ابن زيدٍ الذي يروي عن أبيه ضعيف، فهذا الأثر ضعيف، والشيخ إنما ذكره من باب التوابع والشواهد الدالة على عظمة الله –سبحانه وتعالى–.

[قال: وقال أبو ذرٍّ –رضي الله عنه–: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ما الكرسيُّ في العرش إلا كحلقةٍ من حديدٍ أُلقيت بين ظَهْرَي فلاةٍ من الأرض»]

(قال) أي: ابن جرير، (وقال أبو ذرٍّ –رضي الله عنه–: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ما الكرسيُّ في العرش إلا كحلَقةٍ من حديدٍ أُلقيتْ بين ظَهْرَي فلاةٍ من الأرض»)، قال الشيخ الألباني –رحمه الله– بعد ذِكْرِ ضعف أسانيده، وذكر بعض الطرق، قال في السلسلة الصحيحة: "وجملة القول: إنّ الحديث بهذه الطرق صحيح –انتبهوا – الألباني رحمه الله ذكر هذا الحديث في سلسلة الأحاديث الضعيفة، وفي سلسلة الأحاديث الصحيحة، وفي سلسلة الأحاديث الصحيحة ذكر الأسانيد وحَكَمَ على جميعها بالضعف؛ لكن قال:

"وجملة القول إنَّ الحديث بهذه الطُّرق صحيح"، وفي سلسلة الأحاديث الضعيفة ذكر ضعف الحديث، ثم قال: "ولكنني لم أنقله من الصحيحة؛ لوجود الشواهد هناك، ولعلي أجد ما يقويه"، فأبقاه في الصحيحة مع ذكره له في الضعيفة.

والناظر في هذا والمتتَّبع لطرقه يَعلَم أنّ له أصلًا، وأقلّ ما يصل إليه: أن يكون حسنًا لغيره.

وفيه: أنّ الكرسي غير العرش، وأنّ الكرسي الذي وسع السماوات والأرض بالنسبة للعرش كحلَقةٍ من حديد، حلقة من حديد مثل الدرع الذي يلبسه المقاتل، أُلقيت في ماذا؟ في فلاة، في صحراء ممتدَّة، نسبة الكرسي إلى العرش كنسبة حلقة الحديد إلى الصحراء الكبيرة الممتدة.

[وعن ابن مسعودٍ –رضي الله عنه– قال: (بين السماء الدنيا والتي تليها خمسمائة عام، وبين كل سماءٍ خمسمائة عام، وبين السماء السابعة والكرسي خمسمائة عام، وبين الكرسي والماء خمسمائة عام، والعرش فوق الماء، والله فوق العرش، لا يَخفى عليه شيءٌ من أعمالكم)]

هذا رواه الدارمي في (الرَّد على الجهمية)، والطبراني في (الكبير)، والبيهقي في (الأسماء والصفات). وسيأتي مزيد تعليقٍ على الحُكم عليه.

(عن ابن مسعودٍ قال: (بين السماء الدنيا والتي تليها مسيرة خمسمائة عام)، في الرواية كلمة:"مسيرة"، (وبين كل سماءٍ وسماء مسيرة خمسمائة عام، وبين السماء السابعة والكرسي خمسمائة عام، وبين الكرسي والماء خمسمائة عام، والعرش فوق الماء، والله فوق العرش مستوٍ على عرشه –سبحانه وتعالى– لا يخفَى عليه شيءٌ من أعمالكم) يعلم، ويرى، ويسمع –سبحانه وتعالى– لا تخفى عليه خافية.

[أخرجه ابن مهدي عن حمّاد بن سلمه عن عاصمٍ عن زرٍّ عن عبد الله، ورواه بنحوه عن المسعودي عن عاصمٍ، عن أبي وائلٍ، عن عبد الله، قاله الحافظ الذهبي –رحمه الله–، قال: وله طُرق.

وعن العباس بن عبد المطلب –رضي الله عنه– قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هل تدرون كم بين السماء والأرض؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «بينهما مسيرة خمسمائة سنة، ومن كل سماءٍ إلى سماءٍ مسيرة خمسمائة سنة، وكِثِفُ كل سماءٍ مسيرة خمسمائة سنة، وبين السماء السابعة والعرش بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض، والله تعالى فوق ذلك، وليس يخفى عليه شيءٌ من أعمال بني آدم» أخرجه أبو داود وغيره]

الحقيقة أنه بهذه الألفاظ ما أخرجه أبو داود، وإنما رواه أحمد، والدارمي في (الرَّد على الجهمية)، والحاكم في (المستدرك)، وقال الحاكم: صحيح

الإسناد، وقال الذهبي: وهو صحيحٌ؛ في موطن، وضعَّفه في موطنٍ آخر من تعليقه على المستدرَك.

والحديث من جهة الإسناد ضعيفٌ ظاهر الضَّعف، فإنّ فيه يحيى بن العلاء، وهو واهِن، لكن له شواهد: كحديث أبي هريرة عند الترمذي، وابن أبي عاصم مرفوعًا، وفيه ضَعف، وحديث أبي ذرٍّ عند البزار والبيهقي في الأسماء والصفات مرفوعًا؛ وفيه ضعف، وهما مع أثر ابن مسعود المتقدِّم تدلُّ على أنّ له أصلًا؛ فالظاهر –والله أعلم– أنه حسنٌ لغيره.

(عن العباس بن عبد المطلب –رضي الله عنه– قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هل تدرون كم بين السماء والأرض؟»، قلنا: الله ورسوله أعلم قال: «بينهما مسيرة خمسمائة سنة، ومن كل سماءٍ إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة، وكِثَفُ كل سماءٍ مسيرة خمسمائة سنة»، يعني من الأرض إلى السماء الدنيا خمسمائة سنة، وكِثَفُ السماء الدنيا خمسمائة سنة، ثم إذا انتهت السماء الدنيا؛ فما بين السماء الدنيا إلى السماء الثانية مسيرة خمسمائة سنة، ثم كِثَفُ السماء الدنيا الثانية مسيرة خمسمائة سنة، ثم بعد السماء الثانية ما بين السماء الثانية والسماء الثالثة مسيرة خمسمائة سنة، ثم كِثَفُ السماء الثالثة مسيرة خمسمائة سنة، ثم ما بين السماء الثالثة والرابعة مسيرة خمسمائة سنة وهكذا.

وهذا يدل على عظمة الخالق –سبحانه وتعالى–، الذي خَلَقَها بهذا الإحكام، وهذا الإتقان، وهذه القوَّة، فمع تَباعُد السماء عن الأرض لا ترى لها عَمدًا، ولا ترى فيها فطورًا.

وبين السماء السابعة؛ الرواية هكذا: «وفوق السماء السابعة بحرٌ بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض، والله تعالى فوق ذلك»؛ يعني: فوق العرش، «وليس يخفى عليه شيءٌ من أعمال بني آدم».

بقي أنه في رواية أبي داود، والترمذي، وابن ماجه؛ جاء في المسيرة: أنها إمَّا واحدة أو اثنتان أو ثلاثٌ وسبعون سنة.

يعني: في الرواية التي معنا وأثر ابن مسعود: مسيرة خمسمائة سنة، أمَّا في رواية أبو داود، وابن ماجه، والترمذي: إمَّا واحدةٌ أو اثنتان أو ثلاثٌ وسبعون سنة.

وهذه الروايات حسَّنها الضياء في (المختارة)، وضعَّفها الألباني والأرناؤوط.

على فَرَضِ الصِّحة؛ في هذا الحديث الذي معنا وأثر ابن مسعود: مسيرة خمسمائة عام، وفي تلك الروايات: مسيرة إحدى وسبعين سنة أو اثنتين وسبعين سنة أو ثلاثٍ وسبعين سنة.

جمع بينها العلماء: فقالوا: هذا بحسب قوة السَّير؛ فإن كان السَّير قويًّا كانت المسافة أقلّ، المسيرة أقل، وإن كان السير ضعيفًا كانت المسافة أكثر.

يقول البيهقي في (الأسماء والصفات): هذه الرواية «في مسيرة خمسمائة عام» اشتهرت بين النَّاس، ورُوِّينا عن ابن مسعودٍ من قوله مثلها، ويُحتمَل أن يختلف ذلك باختلاف قوة السَّير، وضَعفه، وخفَّته، وثِقَله، فيكون بسير القوي أقلّ، وبسير الضعيف أكثر. هذا على فَرَضِ صحة الروايات الأخرى.

وقبل أن نذكر المسائل؛ الشيخ –رحمه الله– ختم كتاب التوحيد بهذا الباب، وقد أحسن وأجاد –رحمه الله–، كما أحسن وأجاد في نَظْمِ الكتاب كلِّه، وفي ترتيب الكتاب كلِّه، فإنّ خَتْمَ الكتاب بهذا الباب عائدٌ إلى التوحيد كلِّه، فكلُّ التوحيد فيه تحقيقُ هذا الباب، وتحقيقُ هذا الباب إنما هو بالتوحيد؛ بتوحيد الربوبية، وتوحدي الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات.

[فيه مسائل: الأولى: تفسير قوله: ﴿وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الآية]

تفسيره جاء في السنُّة، وقد بيَّناه.

[الثانية: أنّ هذه العلوم وأمثالها باقية عند اليهود الذين في زمنه؛ لم ينكروها ولم يتأوَّلوها]

أنّ اليهود مع ما وقع من التوراة من التحريف؛ يؤمنون بما فيها، وبعض ما فيها حق لم يَلحقه التحريف، ومنه: مثل هذا العلم وهذا الخبر الذي صدَّقه النبيّ –صلى الله عليه وسلم–، وفي هذا: أنّ مَن عَرَفَ قدر الله صدَّق كلام الله، وخبر رسول الله –صلى الله عليه وسلم– على ظاهره؛ على ما يليق بجلال الله –سبحانه وتعالى–.

[الثالثة: أنَّ الحَبر لمّا ذكرها للنبي –صلى الله عليه وسلم–، صدَّقه، ونزل القرآن بتقرير ذلك]

نعم، صدَّقه النبيّ –صلى الله عليه وسلم– فَرِحًا، و متعجبًا، ومصدِّقًا، وتلى الآية التي تُقرِّر ذلك.

[الرابعة: وقوع الضحك الكثير من رسول الله –صلى الله عليه وسلم– عند ذكر الحَبر هذا العلم العظيم]

(وقوع الضحك الكثير) ليس المقصود أنّ النبيّ –صلى الله عليه وسلم– ضحك زمنًا طويلًا؛ وإنما المقصود في ذلك: الفِعْل؛ «حتى بدت نواجذه»، وهذا منتهى ضحك النبي –صلى الله عليه وسلم– أن يتبسم حتى تبدو نواجذه –صلى الله عليه وسلم–.

[الخامسة: التصريح بذكر اليدين، وأنّ السماوات في اليد اليمنى، والأرَضين في الأخرى]

هذا على حديث ابن عمر –رضي الله عنهما–، ولكنّ حديث ابن مسعود يدل على أنّ الأَرَضين توضَع على أُصبع في يده اليمنى –سبحانه وتعالى–. فلعله –كما قلنا– يطوي الله –عزَّ وجلَّ– الأَرَضين باليد الأخرى، ثم تكون في يمينه –سبحانه وتعالى–.

[السادسة: التصريح بتسميتها الشمال]

وهذا يدل على أنّ الشيخ مع من رأَوا الجمع، وأنها تُسمَّى شِمالًا؛ في التسمية فقط، أمّا في القوة، والفعل والخير وغير ذلك فهي يمين.

[السابعة: ذِكْرُ الجبارين والمتكبرين عند ذلك]

أنّ الله –عزَّ وجلَّ– يُمجِّد نفسه، ويقول: أين المتكبرون؟ أين الجبارون؟

[الثامنة: قوله –صلى الله عليه وسلم–: «كخردلةٍ في كفِّ أحدكم»]

«كخردلةٍ في يدِ أحدكم»؛ كما في بعض نُسَخ كتاب التوحيد، وهي الموافِقة للرواية التي عند ابن جرير.

[التاسعة: عَظَمة الكرسي بالنسبة إلى السماوات]

فالكرسي يَسَعُ السماوات والأرض.

[العاشرة: عَظَمَة العرش بالنسبة إلى الكرسي]

نعم، كما ذكرنا.

[الحادية عشرة: أنّ العرش غير الكرسي]

أنّ العرش غير الكرسي والماء؛ لِمَا ذُكِرَ من المسيرة بينهما.

[الثانية عشر: كم بين كل سماءٍ إلى سماءٍ]

وهي مسيرة خمسمائة عام.

[الثالثة عشر: كم بين السماء السابعة والكرسي]

وهي كذلك.

[الرابعة عشر: كم بين الكرسي والماء]

وهو كذلك.

[الخامسة عشر: أنّ العرش فوق الماء]

نعم.

[السادسة عشرة: أنّ الله فوق العرش]

أنّ الله مستوٍ على عرشه –سبحانه وتعالى–.

[السابعة عشر: كم بين السماء والأرض]

وهي مسيرة خمسمائة عام.

[الثامنة عشر: كِثَفُ كل سماءٍ خمسمائة سنة]

نعم.

[التاسعة عشر: أنّ البحر الذي فوق السماوات بين أعلاه إلى أسفله مسير خمسمائة سنة]

نعم، كما تقدم.

***

والحمد لله رب العلمين، وبهذا نكون قد أتممنا الشرح التأصيلي لكتاب التوحيد، وإني لأرجو الله -عزَّ وجلَّ- أن نكون بهذا الشرح قد قرَّبنا كتاب التوحيد إلى أفهام المسلمين، وأن يُعين هذا الشرح كل مسلم على أن يشرح كتاب التوحيد لأهله وأسرته؛ شرحًا تأصليًّا سهلًا مبسَّطًا يصل إلى أفهامهم.

وإني لأوصي طالب العلم: بالعناية التامّة بشرح كتاب التوحيد لأقوامهم، ولا يَلزم أن تُسمِّي الكتاب، بل لا يَلزَم أنْ تأتي بنفس الكتاب، بل يُمكن أن تُقيم درسًا لأهلك أو لقومك بعنوان: "تأملاتٍ في آياتٍ وأحاديث"، أو "وقفات مع آياتٍ وأحاديث"، ثم كل يوم تأتي باب كما ذكره الشيخ بالآيات والأحاديث، تقرأ عليهم قرآنًا، وتقرأ عليهم سنُّة، وتشرح لهم معانيها، وتُقرِّبها إليهم، وهكذا.

فإنَّ النَّاس أحوَج إلى التوحيد من حاجتهم إلى الطعام والشراب، ولا شك أنّ النَّاس قريبون من الحق لولا قُطاع الطُّرق؛ الذين يكرِّهونهم في الحق، وفي أهل الحق، فينبغي على أهل الحق أن يُحبِّبوا النَّاس في الحق، وأن يوصِلوا الحق إلى النَّاس، لعل الله -عزَّ وجلَّ- أن يرحمنا جميعًا.

فالحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

فهرس الكتاب

المحتويات